

مطبوعات المركز الإسلامي في اليابان

العالمُ الإسلاميُّ في رحلاتِ عبد الرّشيد إبراهيم

بداياتُ الإسلامِ في اليابان وأوضاعُ المُسلمين في وسطِ وشرقٍ وجنوبِ وغربِ آسيا قبلَ مئةِ عام

ترجمة
صُبْحي فرزات
كمال خوجه

مُراجعة
أ. د. صالح مهدي السامرائي

الجزءُ الأوّل

مؤسسةُ علومِ القرآن
دارُ القِبلةِ للثّقافةِ الإسلاميّة

العَالَمُ الإِسْلَامِيُّ

فِي

رِحْلَاتِ عَبْدِ الرَّشِيدِ إِبْرَاهِيمَ

١

الطَّبعَةُ الأُولى

٢٠١١م - ١٤٣٢هـ

دار القبلة للثقافة الإسلامية

جدة - المملكة العربية السعودية - تلفاكس:

E_mail:Dar.Alqiblah@gmail.com

مؤسسة علوم القرآن

بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٠٨٣٢ - موبايل :٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩

E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

العالم الإسلامي

في

رحلات عبد الرشيد إبراهيم

بدايات الإسلام في اليابان وأوضاع المسلمين في وسط وشرق وجنوب وغرب آسيا قبل مئة عام

ترجمة

صبحي فرزات   كمال خوجه

مراجعة

أ. د. صالح مهدي السامرائي

الجزء الأول

دار القبلة للثقافة الإسلامية   مؤسسة علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لقد تناقل المسلمون في العالم الإسلامي خلال المائة سنة الماضية أخباراً عن اهتمام اليابان بالدين الإسلامي ورغبة المسلمين في تقديم الإسلام للشعب الياباني. وقد نسجت حول الموضوع روايات متنوعة ولكنها جميعا تنصب في النقطة التي ذكرناها أعلاه. ومن الشاهدين في أوائل القرن العشرين على علاقة اليابان بالعالم الإسلامي وإمكانيات انتشار الإسلام في اليابان العلامة والمفكر والسائح التتاري الروسي المرحوم عبد الرشيد إبراهيم الذي زار اليابان عام ١٩٠٩م لمدة ستة شهور ووضع هذا المؤلف باللغة العثمانية باسم «عالم إسلام وانتشار الإسلام في اليابان» والذي صدر في إسطنبول عام ١٣٢٧هـ، كتب فيه خواطره ومذكراته عن البلد الرئيسي الذي سافر للشرق الأقصى من أجل زيارته وهو اليابان، وكذلك عن مشاهداته في آسيا الوسطى وسيبيريا وكوريا والصين وسنغافورة والهند ومكة المكرمة والمدينة المنورة وإسطنبول.

والكتاب يعتبر من أدب الرحلات والدعوة وكان له صيت كبير في حينه. وحسب ما ذكره الدكتور محمد رجب البيومي في مقالة له في مجلة الأزهر (مارس ١٩٦٨) أن المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام وكان يجيد التركية والفارسية و الأردية أثنى على الكتاب واعتبره أهم من رحلات ابن بطوطة وتمنى لو ترجم للعربية. كما إن شاعر الأمة والشاعر السعودي معالي الشيخ/ عبد الله بلخير رحمه الله نقش اسم عبد الرشيد إبراهيم بجواهر من شعره في سجل الأدب العربي. وإن شاعر الأتراك والأمة الإسلامية محمد عاكف هو الآخر سبق في مدح عبد الرشيد إبراهيم وإعلاء قدره في العالم الإسلامي.

وإني في معرض البحوث التي قمت بها عن العلاقات بين اليابان والعالم الإسلامي وجدت هذا الكتاب القيم وسعيت بالتعرف على مترجم كفء يقوم بنقل هذا الكتاب إلى لغة الضاد ولقد ترجمه لي في المرة الأولى الأستاذ صبحي الفرزلي وهو سوري وفي المرة الثانية ترجمه الأستاذ كمال خوجة وهو تركي من اصول سورية. إن الترجمتين كانتا ترجمات أولية، ولقد حرصت أن يعاد كتابتها بأسلوب عربي مبين لا تظهر عليه آثار الترجمة وكأنما كتب الأصل بالعربية. ورغم انشغالي الكثير بذلت جهوداً مضنية وقمت بنفسي بهذه المهمة. واستغرق العثور والتعرف على الكتاب الأصلي وإيجاد المترجمين المناسبين وإعادة الصياغة من قبلي، ثلاثين سنة والكثير من التكاليف المادية نقداً ووقتاً.

إن السيد عبد الرشيد إبراهيم في كتابه يلقي أضواء على جزء مهم من التاريخ الإسلامي الحديث وفي منطقة نائية هي جنوب شرق آسيا ووسطها والشرق الأقصى. كذلك يلقي الضوء على المحاولات الأولى لتقديم الدين الإسلامي للشعب الياباني بأسلوب فريد يدل على رجاحة عقل هذا المفكر وكفاءته العالية في الدعوة وأساليبها مما يجعل منه قدوة يتمثل بها الدعاة إلى الإسلام وخصوصا في البلدان غير الإسلامية. ورغم مرور حوالي مائة عام على الكتاب إلا أنه يبقى سفرا ذا قيمة أدبية وتاريخية و دعوية عالية، وكنت أتمنى أن يترجم الجزء الخاص باليابان وكوريا والصين إلى لغة هذه البلدان. ولقد قام الدكتور جميل لي بترجمة الجزء الخاص بكوريا إلى اللغة الكورية. كما قام الأستاذ كوماتسو بترجمة الجزء الخاص باليابان إلى اليابانية وسأبحث عن شخص يترجم ما يخص الصين إلى اللغة الصينية إن شاء الله.

إن السيد عبد الرشيد إبراهيم عشق الشرق الأقصى وخصوصا اليابان وكان يؤمن بأن الشعب الياباني مؤهل بسبب صفاته الحميدة لأن يعتنق الإسلام متمثلا بالحديث النبوي الشريف: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام

إذا فقهوا». قابل الأمراء والعلماء والضباط والصحفيين واختلط بعامة الشعب وخلص إلى تجارب جمة ضمنها بين دفتي كتابه.

لقد عاد عبد الرشيد إبراهيم إلى اليابان مرة ثانية بعد أن طوف بالعالم وذلك عام ١٩٣٣م واستقر هناك وزاول نشاطه الإسلامي إلى أن وافته المنية عام ١٩٤٤م ودفن في مقبرة التتار الأتراك المسلمين بطوكيو عليه رحمة الله. وقد أخبرني مرة الكاتب السعودي عزيز ضياء أن عبد الرشيد من أخوال أمه.

إن كتابه وضع أصلا باللغة التركية العثمانية (الخط العربي) وأعيد بالحرف اللاتيني بطبعتين. لقد كتب شاب تركي رسالة دكتوراه عنه قمت بترجمتها للعربية. وأرجو أن يقوم من بين العرب طالب نجيب يكتب عنه رسالة لتعريف العرب به. كما كتب لي باحث ألماني يريد بعض المراجع عن عبدالرشيد لرسالة دكتوراه.

لا أريد أن أذكر التفاصيل عن الكتاب وأترك القارئ الكريم وجها لوجه مع الحقيقة ليعطي حكمه عليه. ومن جانبي رأيت فيه الفائدة للقارئ العربي المسلم وللمسلمين من غير العرب ممن يعرفون العربية وقد يرون فائدة لنقله إلى لغاتهم.

وإني أحتسب لله هذا الجهد المتواضع وأبتغي منه المثوبة ثم من أخواني الدعاء لي ولكل من ساهم في إخراجه ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ١٦٢ - ١٦٣الأنعام.

د. صالح مهدي السامرائى

رئيس المركز الإسلامي في اليابان

١٠ جمادى الآخرة ١٤٢٧ هـ

٦ /٧/ ٢٠٠٦ م

Email: salihsamarrai@yahoo.com

مقدمة

يا فتاح، يا عليم إذا بحثنا عن أكبر قضايا عالم اليوم لوجدنا أن قضية الحياة هي أكبرها. فمن يسعى و يبذل الجهد و يعمل ويكافح فإنما يفعل ذلك من أجل حياته. وإن كان لدى الإنسان فكرة تفوق الأفكار الأخرى فتلك هي أيضا فكرة الحياة.

والناس يعيشون نوعين من الحياة: إحداها اجتماعية وعامة، والأخرى شخصية وفردية، وهي أن يحيا الإنسان حياة فردية. ومما لا شك فيه أن أكثر الناس يعملون من أجل حياتهم الخاصة، ولا يستطيعون أن يتصوروا أو يفكروا بشيء خارج نطاق تلك الحياة، ولذلك يقدمون حياتهم على حياة الآخرين، فلا يكادون يرون حياة سواها. إلا أن هناك بعض الرجال يفتنون بالحياة الاجتماعية، فتبقى أفكارهم ومرئيا تهم وآمالهم وأحزانهم مقتصرة على الحياة الاجتماعية. إن هؤلاء وإن كانوا قلة بين الناس، فإن منهم من يضحي بحياته في سبيل الحياة الاجتماعية.

وكل من له اطلاع، يرى كلا الأمرين طبيعياً، ويجد أنهما راسخان في جبلة الإنسان وفطرته. وإن بعض الناس يتأثرون بالتعليم إلا أنهم ليسوا كمن هم على الفطرة. إن هؤلاء المتأثرين بالتعليم يحلمون بخدمة الحياة الاجتماعية لبعض الوقت و لكنهم يفتقرون إلى الثبات والاستمرار، فإذا أصابتهم مصيبة صرفوا النظر عن هذه الخدمة، إنهم يقومون ببعض العمل بما يقولون لفترة من الزمن، ثم تراهم يفترون فيصيرون أثرا بعد عين.

أما من كان لديه الاستعداد الفطري والغريزي للقيام بخدمة الحياة الاجتماعية، فهذا يضحي بكل أنواع الحياة في سبيلها، ويصرف النظر عن كل المصالح من أجل هذه المصلحة، وتنقلب المصاعب والمتاعب والفتن والبلايا عنده إلى حقيقة حلوة، فلا يخشى السيف ولا يساوره القلق من

المدفع والبارود.فأي نجاح في مجال خدمة المجتمع فهو من واجبْته. وأي يأس من الحياة الاجتماعية فهو الجحيم بعينه.

والحياة الفردية تنحصر في أغلب الأحيان بشخص الفرد، وإذا تعدته فقد تشمل أفراد أسرته وبعضا من أقربائه. أما الحياة الاجتماعية فأنها حياة الأمة كلها. وتشمل حياة الملايين من الناس. فالذي يخدم الحياة الاجتماعية إنما يخدم الملايين من البشر. إلا أن هذا النوع من الخدمة يبقى محدودا أيضا. ذلك بأن خدمة هؤلاء تنحصر في أمتهم وفي بني جنسهم. ومهما كافح الإنسان من أجل الحرية والإنسانية والحضارة، فإنك لن تجد سوى الأنبياء ممن هم رحمة للعالمين. وإنك لن تجد فرنسيا أو إنجليزيا أو عربيا أو تتاريا أو أي كائن من كان تتعدى خدماته نطاق دينه أو مصلحة أمته. ومهما كان الإنجليزي حرا فلا يتوقع منه أن يفضل القومية الفرنسية على قوميته. ومهما كانت درجة حضارة الألماني فلا ينتظر منه أن يضحي بمصالح ألمانيا من أجل مصلحة النمسا، وإن فعل ذلك فلا يكون صادقا في عمله.

أما بالنسبة لي فإني اعتنق وأقبل بفكرة خدمة أمتي وديني، وإني أتصدى منذ ثلاثين عاما لمجابهة كل بلية و أتحمل كل مشقة مردداً، أمتي أمتي، ولازلت أرددها وسأبقى على العهد ما حييت. ديني الإسلام وملتي ملة الإسلام، ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ الآية ٧٨ – الحج.

وأنا بفطرتي وطبيعتي سلكت طريق خدمة الحياة الإسلامية التي اعتبرها حياتي القومية، وتحملت في سبيلها كل المشاق، وضحيت بأهلي وأبنائي، ولم أتردد في التمسك بالوسائل المناسبة لصد أعداء الإسلام، وجالدت الأعداء بلساني وقلمي، واضطررت أحيانا لمقارعة أدعياء

الإسلام، حتى أن بعض من يحملون صفة علماء الإسلام وصل بهم الأمر إلى أن يتهموني بالكفر.لم تبق لديهم تهمة أو فرية ألا وألصقوها بي. ولكن ولله الحمد لم يساورني اليأس، فثبت على الطريق و زاد اشتياقي، وعملت بآيات القرآن الكريم في كل أمر واجهني.

وهذا الذي دفعني لأبدأ رحلة طويلة امتثالا لقول الله عز وجل ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ الآية ١١ – الأنعام، ولم يكن هناك من أحد يتقدمني من الأمام كما لم يكن من أحد يدفعني من الخلف، بل شددت حزام الهمة على بطني وأمسكت بعصا التوكل بيدي، ونويت مخلصاً إعلاء كلمة الله، ونشر فكرة التمسك بحبل الله، والدعوة لها، وأودعت أهلي وأولادي الصغار الذين هم فلذات كبدي عند الله الذي لا تضيع ودائعه واستعنت بالله على هذه الرحلة.

وبالرغم من ورود آيات كثيرة حول ضرورة السير في الأرض ثم النظر والتفكر في آيات الله إلا أنه في الفترات الأخيرة لم نكد نرى بين المسلمين من يعقد العزم على الرحلة والسياحة، أو أن هناك بعضا منهم قام بذلك لكننا لا نعرف عنهم شيئا.

كنت من قديم الزمان أفكر في رحلة طويلة، لكنني أمضيت الوقت بالميل إلى الدعة أو حبسني حابس. ولقد عزمت قبل خمس أو ست سنوات على مثل هذه الفكرة، إلا أن الثورة التي حدثت في روسيا في تلك الفترة أدت إلى اضطرابات عالمية كبرى وإلى حركات تحررية هنا وهناك، وانجراف الكثير من إخواننا المسلمون بهذا التيار، وبدأ القلق يساورنا حول مستقبل الأمة واعتبرت أن الحفاظ على حقوق المسلمين الدينية والقومية في روسيا واجب مقدس، مما جعلني أؤخر رحلتي هذه إلى وقت آخر.

وعندما حدثت الثورة في روسيا لم يتردد قومنا التتار في التحرك لإثبات كيانهم السياسي، وحينما بدأت الأحزاب تتشكل في بترسبورغ رأى المسلمون في كافة أنحاء روسيا ضرورة تشكيل حزب مستقل تحت اسم «التحالف» وتشكل حزب على هذا الأساس، وكان الهدف الأساسي من تشكيله هو العمل على إنشاء قوة دفاعية تتناسب واسم الحزب. وقد عمل المسلمون بقدر ما سمحت به الظروف في روسيا ولم يقصروا أبدا، حتى أنه في فترة من الفترات استطاع الشعب في قازان الأخذ بزمام الأمور. كما قام المسلمون بتشكيل إدارة خاصة في الأحياء التي يقطنونها وبقوا على هذه الحال كما بقى غيرهم مدة ثلاثة أيام، وأضربوا في الأماكن التي حدثت فيها إضطرابات، ولم يغفلوا لحظة عن أي تحرك. وحتى في الأيام التي أعلنت الحكومة فيها الأحكام العرفية ومنعت تجمع أكثر من شخصين، كان المسلمون يتجمعون بالمئات يتدارسون شؤونهم ومصالحهم. كما فتحت المطابع أبوابها لتتمكن من طبع حوالي ثلاثين صحيفة، وبدأت الصحافة تدافع عن الحقوق الإسلامية المشروعة دفاعا فعليا. وتلا ذلك افتتاح مجلس الدوما وأظهر المسلمون تماسكا في الانتخابات وبعدها في المجلسين الأول والثاني ووضعوا ثقلهم السياسي من أجل حماية حقوقهم الدينية والقومية دون عجز أو إهمال. إلا أن الأمر المؤسف هو أن النظام الاستبدادي عاد وخيم بسواده على الأفق وأخذ بزمام التعصب وداس الحقوق المدنية و الإنسانية بأقدامه، وأغار على المطابع وكسر الأقلام وأوقف أكثر الصحف وأرسل كثيرا من الناس إلى الدار الآخرة. كما أوقفوا صحفنا العربية والتركية ودمروا مطابعنا بقوة السلاح. فأردت أن أكون مثل الربان الذي ينقذ نفسه فاخترت الرحلة التي خططت لها منذ مدة واتجهت صوب تركستان.

عبد الرشيد إبراهيم

تركستان

في أواخر عام ١٩٠٧ تركت أهلي ومدينة تارا التي هي موطني الأصلي واتجهت إلى تركستان. والمدن التي مررت بها في طريقي إلى طاشكند هي: أومسكا وبتروبا ولوفسكي وجيلابي وأوفا وجينيل وأورنبورغ وأق مسجد وتركستان ثم طاشقند.

طاشقند

كانت طاشقند قبل أربعين سنة على أبعد تقدير مدينة إسلامية، وهي اليوم ولاية روسية وأصبحت المركز الإداري لكل تركستان ولولايات فرغانة وصاري دريا.

وطاشكند تبدو من الخارج مدينة واحدة، إلا أن الداخل إليها يجدها تنقسم إلى حيين، أي أنها مدينة واحدة ذات نوعين من الإدارة : حي روسي وآخر إسلامي. والحي الروسي يقيم فيه الروس وإن وجد فيه مسلمون فهم قلة نادرة وليسوا من السكان الأصليين بل من المهاجرين التتار. (السكان المحليون يسمون التتاري بالنوغاي. وكل التركستانيين يطلقون على تتار روسيا نوغاي).

وفي طاشقند الروسية تجد المباني والمتاجر الحديثة والشوارع الجميلة والأرصفة المرتبة ترتيبا حسنا، والأنوار الكهربائية وغيرها، فهي تكاد تكون صورة لأوربا. أما طاشقند الإسلامية فهي على العكس تماما، إنها على حالها قبل خمسمائة عام، ومن المستحيل أن تنتقل بين بيوت المدنية في الربيع والخريف، فكميات الطين فيها لا يمكن وصفها، وبعض الأحياء لا تستطيع حتى الدواب اجتيازها، مع أن المدينة واحدة و اسمها

طاشقند، والحكومة فيها واحدة، والواردات مشتركة، والقسم الأكبر من السكان مسلمون بشكل عام. فالواردات تجبي من البيوت المسلمة و لكنها تصرف على شوارع النصارى.

إن هذا الوضع لا يقتصر على طاشقند وحدها بل تراه في كل تركستان. فسمرقند الروسية نظيفة وعامرة وسمرقند الإسلامية كأنها مستنقع. وخوقند الروسية عامرة ومنظمة، وفي خوقند الإسلامية يتعذر المرور فيها ماشيا أو راكبا. ومرغلان الروسية هكذا، ومرغلان الإسلامية لا تليق بمسلميها، وإلى غير ذلك... أنى اتجهت تجد أن القوة الحاكمة بيد الروس،هم يحكون البلاد ويتصرفون بشؤونها، و كل النفقات التي تصرف على شوارعهم تخصص من الواردات العامة، ومهما حدث لشوارع المسلمين فلا ينفق عليها قرش واحد، فلا توجد أرصفة ولا إضاءة فيها ولا أي شيء آخر.

وإني أقول أن المسلمين ليسوا بحاجة إلى كل هذا النظام والترتيب! فهو ليس أصل المشكلة. لنترك أمر الأرصفة المنتظمة جانبا، إذ بإمكانهم أن يضعوا شيئا يمرون عليه للتنقل من جار إلى جار آخر، إلا أن الأجانب القادمين من الخارج، سيقولون «هؤلاء المسلمون عجزوا أن يكونوا مثل جيرانهم، هكذا يعلمهم الإسلام» ولن يتوانوا من أن ينسبوا هذا العجز إلى الإسلام، فالعمى عند الناس أمره عجيب، لا ينظرون إلى كل هذا الجور والظلم، ويجرءون في كل مرة على أن ينسبوا العجز إلى الإسلام، فالدين عندهم مسئول أيضا عن أرصفة الشوارع!

والواقع إن طاشقند الإسلامية مدينة قديمة، وشوارعها ضيقة: ولكن هل يتعين علينا أن نقول بأن الشوارع الضيقة لا يمكن إصلاحها؟ لا، بل إن بناء الأرصفة على الشوارع الضيقة أسهل، ويمكن إصلاحها بأقل التكاليف. ولما كانت دائرة البلدية واحدة ووارداتها واحدة فإنارة الأرصفة

والشوارع من مهام البلدية. فلماذا لا تنظف؟ ولماذا لا تصلح؟ ألا يفكرون في ذلك؟

ولكي نكون أكثر فهما للحقيقة علينا أن نجري العملية الحسابية التالية: إن عدد سكان طاشقند يقدر بمائتي ألف نسمة، منهم ثمانية عشر ألف من النصارى والبقية مسلمون إلا أن مجموع أعضاء المجلس البلدي في طاشقند ٧٢، منهم ٢٤ مسلمون والباقي من النصارى. كل هؤلاء منتخبون، إلا أن قانون البلدية ينص على هذه النسبة، فمهما زاد عدد المسلمين على الروس في أي مدينة يقطنها خليط من أتباع الديانتين، فنسبة أعضائهم في المجلس البلدي لا تتجاوز الثلث. ومن المعلوم أن قرارات البلدية تتخذ برأي أكثرية الأعضاء. إذن أين الإنسانية وأين المساواة؟ أين حسن معاملة هؤلاء إنها حضارة القرن العشرين.

وفي طاشقند وسائر تركستان يوجد وضع آخر غريب ومثير للدهشة. ففي هذه المدينة يتواجد كثير من التتار القادمين من روسيا. و إنك تجد التتار في كل ولاية من ولايات تركستان وقد ذكرنا سابقا أن التركستانيين يسمون التتار بالنوغاي وإن المساواة لا تسري بحق هؤلاء النوغاي أيضا. إن أكثريتهم كانوا ضمن الجيش الذي احتل تركستان، فقد جاءوا إلى تركستان مع الجنود الروس و قاتلوا إخوانهم في الدين، وبعد احتلال تركستان استقروا فيها بعد أن أراقوا دماء إخوانهم المؤمنين أثناء اجتياح تركستان.

أقمت في مدينة طاشقند هذه قرابة شهر. وقابلت كثيراً من العلماء والأعيان وتعرفت عليهم وصادقت كثيرا منهم. وأريد هنا أن أعرض خلاصة ما حصلت عليه من معلومات ممن تعرفت عليهم.

لقد وضعت الحكومة الروسية قانوناً خاصاً لعموم ولاية تركستان يجعل الإدارة فيها منفصلة تماما عن الإدارة في روسيا. فالشعب المسلم في

تركستان لا يتمتع اليوم بنفس الحقوق التي يتمتع بها المواطن الروسي. فكل القوانين والنظم في تركستان وضعت على أمزجة وطبائع السكان الروس في تركستان. وكما قلت سابقا فإن طاشقند اليوم ولاية روسية ولكن الطاشقندي فيها ليس مواطنا روسيا. ومن الأنسب أن نقول عن الطاشقندي المسلم بأنه أسير، لأنه لا يعامل معاملة المواطن. أما نوغاي طاشقند فليسوا مواطنين أصلاً، فلو اعتبروا مواطنين لأمكنهم أن يتخذوا لأنفسهم في طاشقند داراً أو مأوى.

وأود أن أضيف هنا بأن طاشقند ولاية، إلا أننا نجد إلى جانب الوالي قائداً عسكرياً فوق العادة يسمى «بالحاكم العام»، وصاحب هذا المنصب حاكم مطلق لعموم ولاية تركستان وليست طاشقند وحدها، ويمتلك صلاحية عدم التقيد بالقانون. ولا يقتصر هذا الوضع على تركستان وحدها بل إن إمارة بخارى أيضا تخضع لأوامر وإشراف من هم في مثل هذا المنصب، حتى أن أمير بخاري شخصياً إذا أراد التقدم بطلب إلى بترسبورغ، فلن يقبل طلبه إلا بعد موافقة الحاكم العام. إن مقامه لدى السكان الأصليين من العلو بحيث يقولون عنه بأنه نصف ملك. فحياة تركستان وبقاؤها أصلاً، هما تحت تصرف وحكم نصف الملك هذا. وإذا فكرنا بأن طاشقند لها أهمية كبيرة باعتبارها مركزا لهذا المنصب، فإننا لا نجد أي معنى للحالة المزرية التي عليها الحي الإسلامي في ذلك المركز الهام، ولا يكاد المرء يصدق بوجود حي لا يمكن المرور به على الوجه الذي سبق ذكره. وأي حي؟ إنه حي يقطنه مائة وثمانون ألف من الناس. ويمكنني القول جازماً بأن أياً من الرحالة الأوربيين، لم يكتب شيئا عن وجود مثل هذه المدن في بلاد تركستان. وإذا كتب فلابد أنه وجه أصابع الاتهام إلى الإسلام.

قام الشعب المسلم في طاشقند بالشكوى لدى الحكومة عن هذا الوضع ولا يزال يشكو. كما أرسل ممثلين عنه إلى بترسبورغ وأوصل نواب طاشقند في الدوما الثاني هذه المشكلة إلى المجلس، لكنهم لم يجدوا أذناً صاغيةً حتى أن بعض أعضاء الدوما لم يصدقوا ما قاله نواب طاشقند.

إن طاشقند اليوم أكبر مركز تجاري في تركستان، يفد إليها تجار من المراكز التجارية الأوربية فيبيعون ويشترون، ويوجد أصحاب رؤوس أموال من المسلمين. إلا أن أغلب التجار هم من يهود هذا البلد رغم وجود تجار مسلمين مرموقين.

وفي السنوات الأخيرة انتشرت في أنحاء تركستان تجارة ما يسمى بالقطن الأمريكي و فيها اليوم مختلف المصانع لحلج القطن. وإن كثيراً من الأعمال المهمة يقوم بها المسلمين.

ومن المؤسف والمحير أيضا، أنك لا تجد مدرسة واحدة تخص مسلمي تركستان، ومن النادر أن تجد أحداً بين السكان المسلمين من يعرف اللغة الروسية، فالمسلمون لا يرسلون أبناءهم إلى المدارس الروسية حتى الآن خوفا عليهم من المنصرين. ولذلك صار مسلمو تركستان في بحر من الجهل، وبدأت الرذيلة والإدمان على الخمور في الانتشار بينهم، ويكاد المرء أن يقول حيال هذا الوضع «إن شعب تركستان شعب محكوم عليه بالموت». ومع ذلك فإنك قد تصادف بعض المدارس الابتدائية الصغيرة في كل مدينة تركستانية أنشئت بجهود ومبادرة المسلمين الخاصة، وكذلك بعض المدارس المنشأة قديماً. إنها ومضات برق في الليالي الطويلة المظلمة، تحمل إلى النفوس بعض الأمل، وتبعث بها الحياة. لقد مضى على الاحتلال الروسي لتركستان ٤٥ عاما، إلا أنك لا تجد فيها مسلما واحد تخرج من الجامعات الروسية ولا تتوقع تخرج أحد منهم في وقت قريب.

إن شعب طاشقند شعب مضياف وكريم ومؤنس. إنهم يملكون استعدادا فطريا وذكاء خارقا وفيهم من يتكلم اللغتين الروسية والألمانية بطلاقة من غير أن يتعلموها في المدارس، وإن كان مثل هؤلاء قليل، إلا أن الأمر المؤسف حقيقة أنهم لم يحسوا حتى الآن بضرورة تربية أبنائهم تربية وطنية. وإن كان هناك من أمل ففي مسلمي طاشقند الذين خرجوا يتاجرون في كل مكان وفتحوا متاجر في موسكو وبترسبورغ والمدن الكبيرة الأخرى، إذ مما لاشك فيه أن أبناء هؤلاء سيستشعرون الحس الوطني في تلك البلاد ويصنعون من العجز قوة في المستقبل.

وشعب طاشقند هم إما من الأوزبك الأصليين أو هم من مختلف القبائل التركية، إلا أن لهجتهم أصبحت تركية أوزبكية خالصة، وفيهم كثير ممن يتكلمون الفارسية، وعدد الذين ينظمون الأشعار بالفارسية ويشتغلون بالأدب ليس بالقليل.

ولم أعرف السبب وراء تسمية السكان الأصليين في تركستان وبخاري بـ «الصار» فالروس والتتار بشكل خاص يستعملون عبارة «صارت» إلا أن أكثرية الصارت لا يرضون بهذا وينسبون أنفسهم إلى المدينة التي ينحدرون منها.

وفي طاشقند كثير من الآثار التاريخية كالمدارس والمساجد العظيمة. وتوجد مكتبة صغيرة ومتحف متواضع افتتحتهما الحكومة. وليس هناك شيء أخر جدير بالذكر.

بخارى القديمة

مكانة بخارى قديما والحكم الحالي

غادرت طاشقند ووصلت بخارى. إنها مركز العلم والمعرفة منذ أمد بعيد فاستحقت بذلك لقب الشرف، لذلك فهي تدعى بخارى الشريفة. فبخاري أصبحت بمرور الزمن مدينة مقدسة حقيقة. فإذا نظر الإنسان إلى كبار رجال الإسلام في التاريخ لوجد بينهم أمام المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري والبيضاوي وكثيرا من علماء الظاهر والباطن المعروفين بعلماء ما وراء النهر. إن بخارى هي مركز الحضارة الإسلامية ومنبع علماء الدين قديما فهي تستحق لقب بخارى الشريفة.

ولننظر الآن إلى بخارى وإلى الحال التي وصلت إليها، وماذا نجد فيها؟ إنها لا تزال الآن إمارة إسلامية متميزة، عدد سكانها يبلغ المليونين. والذين يسمعون عنها يتصورون إنها دولة مستقلة، والواقع أن الحكم فيها شبه مستقل. فصاحب الملك فيها هو عبد الأحد، خان وإذا سئل عن صفته فانه يرى نفسه «أميرا مطلقا» إلا أنه لا يقدر أن يقول: «أنا صاحب البلاد». وفي الحقيقة إن عبد الأحد خان دوق أو جنرال روسي وهو لا يستطيع دخول بخارى، فهو يقيم في قرية «جيرمنة» على بعد عشرين أو ثلاثين كيلا من بخارى. وقصر الحكم «أريك» الموجود في بخارى ليس فيه أحد منذ عشرين عاما، ولا أجانب الحقيقة إذا قلت «أن اسم الأمير في بخاري موجود دون جسمه». إن شؤون بخاري الإدارية الآن بيد موظف اسمه قوش بك، وتحكمها «قوانين غير مكتوبة» أي بالعادات والأعراف التي أصبحت بحكم القانون. أما الأمور الشرعية فيقوم بها القاضي «جيلان» وعليه أن يلتزم فيها بالكتب الفقهية. وهناك «رئيس» أو «محتسب» له صفة رسمية يعتمد على القوانين «غير المكتوبة» في تنفيذ العقوبات

وليس عليه أن يلتزم بأحكام الشرع، والويل والثبور لغيره أن لم يلتزم بهذه القوانين غير المكتوبة إذ يرميه على الأرض وينزل به ضربا وركلا إلى أن يشفي غليله منه.

وهذا الضرب ليس غريباً على العقوبات الشرعية، ولكنه لا يتحرك حتى يضرب ما فوق المفصل ولا تبلغ اليد ما هو أعلى من مستوى الكتف. إلا أن وزن العصا التي تعرف «بالدرة» يذكرنا بعصا «فهيم» المعروضة في متحف بروسيا ووزنها حوالي أربع كيلو جرامات!!

هذا هو الحكم في بخاري أما في أنحاء الولاية فيحكمها نواب لهذه المناصب الثلاثة. وكل واحد من هؤلاء شبه مستقل في ولايته. ولا يمانع الروس من تطبيق الأحكام الشرعية كلها، حيث يمكن تنفيذ القصاص إذا ما دعت الضرورة لذلك.

الزراعة والتجارة

إن أراضي بخارى خصبة ومحصولها وفير وتجد فيها كافة أنواع المزروعات. والثروة الحيوانية جيدة ومرغوبة، و خاصة الأغنام. وفي الربيع تنشط تجارة جلود الحملان الصغيرة. وإن تجارة جلود الخراف منتشرة في أوربا كثيراً. فبعد ولادة الخراف يربونها خمسة عشر يوما، ثم يذبحونها ويأخذون جلودها، ولا يتركونها أكثر من هذه المدة، حتى لا تفقد هذه الجلود نعومتها وتجاعيد صوفها. إنها ثمينة جداً، ويتراوح سعر الواحد منها ما بين عشر إلى خمسة وعشرين روبلا. (١٠٠-٢٠٠ قرش). ويعتبر هذا النوع من الجلود من أكبر الزينات لدى النساء، وتسمى «القاراقول» ولا تنتج إلا في بخارى وأفغانستان. وقد حاول الأوربيون إنتاج مثل هذه الجلود في بلادهم مرة ففشلوا. وقد اختصت بخارى وأفغانستان

بالقاراقول كما اختصت بلاد الأناضول بالمر عز. فتجارة القاراقول تبلغ كل عام ٥ ملايين روبل، وتجارة الأمير من هذا النوع من الجلود تزيد على مليون روبل. وفي الأعوام الأخيرة قام التتار بتسويق القاراقول إلى أمريكا بكميات كبيرة، كما أن تجارة القطن رائجة. فالبيع والشراء في هذين الصنفين بالملايين.

العلماء والطلاب والمدارس والتعليم

إن عدد علماء بخارى غير معروف إلا أن عدد المدارس يصل إلى المائتين وعدد الطلاب فيها سبعة وعشرون ألفا. إن بعض هذه المدارس قديمة وعظيمة البناء وأوقافها كثيرة. وتعتبر المدارس من أكثر المرافق إيراداً.ويسكن الطلاب في غرف هذه المدارس إلا أن الأغنياء وأهل الثروات وضعوا أيديهم عليها، وحتى القاضي جيلان ورجال الفتوى فان كل واحد منهم يمتلك أجمل الغرف في الطوابق العليا ويأكلون من أوقافها. أما الطلاب المساكين فيفرحون بالنوم في الغرفة الفارغة (هذا إن فازوا بتلك الغرف الفارغة). وبعض المدارس لا تعطي غرفا فارغة دون مقابل، إذ على الطالب أن يدفع مبلغا من المال للسكن في تلك الغرف، ويجبر الطالب على حضور دروس مالكيها وإن بعض الطلاب يقضون العمر أمام المدرسين الجهلة من أجل الحصول على الغرف.

والواقع فإنه توجد أوقاف قيمة وعظيمة لهذه المدارس، و من المؤسف أنها لا تنفق لما وقفت له، بل صارت تشكل صندوق واردات مستمرة للأغنياء. ومع هذا فإنها تبقى أوقاف للمدارس. إنها مثل المدارس حول الحرم الشريف بمكة المكرمة التي تحولت إلى ملك خاص.

فيا ترى ما سبب كثرة المدارس في بخارى؟ خطر لي هذا السؤال مرات، ثم عرفت أن صدقات الأغنياء في بخاري وكل تركستان تتمثل في بناء المدارس. فإذا صار أحدهم غنياً، فلا بد أن ينشئ مدرسة حسب قدرته المالية. وقيل لي أن كل من بدأ العمل والكسب صار يحدث نفسه بإنشاء مبنى. ولا يقتصر هذا الأمر على الأغنياء، فأصحاب الحرف كذلك يقومون بنفس العمل. والمدارس تحتوي على عشرين أو ثلاثين أو خمسين غرفة، غرف فقط، وبعض هذه المدارس فيها مائة أو مائة وخمسون غرفة. وكانت الحكومة تشترط للسماح ببناء هذه المدارس رصد ما يضمن استمرارها وتأمين نفقات طلابها. لذلك فكل من بنى مدرسة وقف لغرفها شيئاً يكون مصدرا لدخل شهري يمثل الحد الأدنى. ولازال الوضع على ما هو عليه.

زرت مدرسة «القبوري» وقيل لي بأن صاحبها بنى مدرسة تحتوي على عشرين غرفة ،صرف عليها من الأموال التي جمعها من حفر القبور. والمدرسة صغيرة إلا أنها جميلة المنظر. وحينما قابلته قال لي: «لقد اشتغلت إلى هذا اليوم ودفنت كثيرا من الناس تحت التراب وبنيت بما جمعته مدرسة أملاً في أن يترقى من هم فوق التراب مدارج العلى».

إن هذه الفكرة راسخة عند كل البخاريين غير أن علماءها هم على خلاف في ذلك، إن أسلوب التدريس سيئ، فهم يقرئون مقدمة الكتاب في خمس سنوات ويسكنون غرف المدارس عشرين أو ثلاثين عاما. إنهم يقضون العمر في تعلم مختلف العلوم واللغة العربية وفي النهاية لا يقدرون على النطق بكلمتين، كما لا يستطيعون كتابة سطر واحد باللغة العربية. فالتعليم في حالة يرثى لها، ولسان حال هذه المدارس وهؤلاء الطلاب يصرخ قائلا: ماذا سنقول يوم القيامة أمام أصحاب هذه الأوقاف عن العمر الذي ضيعناه ولا نزال نضيعه في هذه الغرف؟

إن الصحوة بين علماء بخاري وطلابها ليست معدومة. لقد بدأت بين المدرسين الشباب حركة تدعو إلى ترجيح ميزان الفكر الذي كان عند الأوائل. وأغلب الظن أن هذه الحركة ستعقبها صحوة. وفي بعض المدارس يوجد أناس يعترفون بوجوب القيام بمبادرة فورية. إلا أن عادة الكسل والميل إلى الراحة عند الطلاب لا تزول بين عشية وضحاها. اجتمعت مع بعض العلماء وبحثت طويلاً مع القاضي السابق «جيلان»، إنه غير مقتنع بضرورة إصلاح التعليم غير أنه يؤيد رفع الأعباء غير الضرورية عن بعض الطلاب، ومن جملتها مصيبة الافتتاح التي تزعج الطلاب عند بداية كل عام دراسي. لقد أُستحدث نظام "الافتتاح" رعاية لمصلحة المدرسين وفي نهاية كل عام يتهيأ الجميع لتقديم افتتاح للعام القادم. وطريقة ذلك هي أن الطالب الذي سيحضر افتتاح درس من الدروس، يحضر معه إلى مجلس التدريس أنواع السكريات و الحلويات، وهذه مصاريف على مظاهر لا فائدة منها، ثم يلبس الطالب المدرس ثوبا مزينا يسمى «سربا» كما تجمع مبالغ من الحاضرين وتعطى أيضا للمدرس. ومختصر القول إنه ضريبة على الطالب لا قبل له بها. وينفذ الافتتاح هذا وكأنه فرض لازم. فالقاضي «جيلان» اعترف بأن هذه الأمور لا ضرورة لها. إلا أنه لا يريد إلغاءها كليا، فهو يظن أن الثوب يعتبر من الكسب.

التسول

في بخارى أمر يستحق الانتباه وهو عدم وجود متسولين في المدينة. فالبخاريون بشكل عام أرباب صناعة وتجارة، ويشتغلون بالتجارة أينما حلوا، والمتسولون هم من بقايا الحجاج الذين تراهم أحيانا هم من تركستان الصينية ولا تجد بينهم متسولا بخاريا.

الآثار التاريخية

إن كان في بخاري شئ من آثار تاريخية تستحق المشاهدة فهي المساجد والمدارس. كما أن هناك مدافع وأسلحة قديمة من عهد تيمور وهي جديرة بالمشاهدة وفي «أريك» خزانة للكتب القديمة كلها مخطوطات كتبت قبل ثمانمائة أو ألف عام. وبجانب الكتب النفيسة فإن هذه المكتبة تحتوي على عدد كبير من الأدوات الفلكية التي اخترعها الأتراك.

اللغة

إن سكان بخاري هم من التاجيك ولغتهم الرسمية هي الفارسية وإن كان أكثرهم يعرفون اللغة التركية أيضا.

العادات الاجتماعية

إن كرم الضيافة والتواضع الزائد عن الحاجة أو بالأصح المجاملة في التعامل تراها هنا كما تراها في سائر بلاد الشرق. والاحترام للأمراء خاصة يصل إلى درجة التقديس. وهناك أمور كثيرة لو كتبها الإنسان لصار القلم مسؤولا عنها.

الجندية

من الأجدر أن أقول بأنه لاشيء في بخاري يستحق أن يقال عنه بأنه جندية، وإن كان عندهم قطيع من الناس يسمونهم بالفرسان، فهؤلاء

ليسوا مكلفين بعمل سوى أن يأكلوا ويشربوا من دور التنابلة (المتخمين). وتجد بين القطيع طفلا لا يتجاوز عمره ثماني سنوات، كما تجد من بينهم من بلغ الثمانين من العمر، لأن الذي يدخل في سلك الجندية لا يسرح منها بنص القانون. ويوجد بينهم عدد غير قليل من العميان والعرجان والحدبان. ومع ذلك فلهم ضباطهم ورؤساؤهم. وفي الحقيقة أن جنود بخاري هم رجال الاستقرار والسلام. والدخول في سلك الجندية ببخاري لا يخضع لقاعدة عامة. فإذا ارتكب رجل ذنبا فعقوبته الجندية. والأغرب من ذلك أنه حدث أن تشاجر جنديان أمام بيت رجل برئ وقالا: «لقد تشاجرنا من أجل ولد هذا الرجل» فأخذ ولد هذا الرجل لينضم إلى هذا السلك. وهذا يؤدي إلى الإضرار بكثير من الأبرياء. وفي بخاري صعاليك يكسبون عيشهم بهذه الطريقة. إنهم يتخيرون أحد الأبرياء هدفا لهم ليبتزوا منه ما يريدون من مال.

العملة البخارية

هناك مسكوكات خاصة ببخارى، وهي نقود ذهبية وفضية ومعدنية من الفئات الصغيرة. وتسمى العملة النقدية الصغيرة «بول سياه» وهي بقيمة بارة واحدة تقريبا. و«البول» الذي يتداول أسود اللون، وليس عليه أي نوع من الضرب (كتابة أو صورة أو نحوهما) بل هي عبارة عن مسكوك برونزي.

وموضوع العملة يشير إلى نوع من الاستقلالية في صورة من الصور.وفي فترة من الفترات حاول الروس إلغاء هذه العملة ولكنهم لم يوفقوا لسبب ما، ثم أرادوا أن يطبعوا عملات ورقية خاصة ببخارى، إلا أن الأمير لم يوافق، ولم يصر الروس على الطلب.

وقد اعتبرت إمارة بخارى مثل هذه الحركات بأنها نوع من المعارضة فأحست بنفسها نوعا من الاستقلالية وظنت أنها مستقلة فعلا، مع أن أساس استقلالية البخاريين يتمثل في عدم وجود موظفين روس في بخارى، إلا أن الروس موجودون فعلا، فالموظفون والجنود الروس يقيمون في مكان يدعى «قانان» ويبعد عن بخارى مسافة تسعة كيلومترات.فإذا ما دعت الضرورة قدم الموظف الروسي ونفذ ما أراد وتدخل في أي عمل يريد التدخل فيه.

مستقبل بخارى

حكومة بخارى ليست في وضع يؤمل منه الخير لا حاليا ولا في المستقبل ولا في أي مجال من المجالات. إنها بعيدة عن أن تأتي بنفع للبخاريين أو لغيرهم من المسلمين، لا من الناحية الدينية ولا من الناحية الإنسانية. إنها حكومة مستبدة ومنحوسة لا تصلح إلا لخدمة أهواء عبد الأحد خان خادم الروس الذي يلقب بالأمير، همها القضاء على المواهب الفطرية للشعب البخاري. إنها أداة لصب الأموال التي تنهبها من شعب بخارى إلى بترسبورغ. فما أكرم هذا الأمير ؛ فلا يكاد الروس يقومون بعمل في مكان ما حتى يسرع إليهم ويدعمهم. ففي بحر البلطيق بارجة حربية بنيت بكاملها على نفقة الأمير. وقيل إنه في الحرب اليابانية ـ الروسية تبرع بخمسة ملايين روبل.

قابلت الطلاب عدة مرات، واختبرت مواهبهم، فوجدت أن في بعضهم مواهب معينة يمكن التعرف عليها عند الحاجة. وخلال وجودي هنا بدأ الموظف الروسي المقيم في قاغان يتفقد بعض القصور في بخارى. وفي ذلك اليوم علمت أنه جرى توزيع بعض المنشورات بين الطلاب كما

وزعت مقالات تحرض الناس في الأحياء، فلماء انتشر الخبر وجدت أنه من الأفضل الإسراع في ترك بخارى.

سمرقند

في الأول من شباط «فبراير» من عام ١٩٠٧ غادرت بخارى وسلكت طريق «جرمينة» و«كتا قورجن» حتى وصلت إلى سمرقند.

إن المدينة القديمة والمباركة التي هي مركز آسيا الوسطى وزينة بلاد الدنيا ـ حسب تعبير أهلها ـ كانت في عهد من العهود عاصمة أقطار آسيا. أما اليوم فهي أنقاض وخرائب للآثار الإسلامية القديمة. ويقدر عدد سكان سمرقند بسبعين ألف نسمة كلهم من الأوزبك. وكانت في أحد الفترات مصيفا لخانية بخارى. كما كانت دار هجرة للإيرانيين. لذلك فإن الناس في سمرقند يتكلمون اللغتين التركية والفارسية. حتى الأميين منهم يجيدون هاتين اللغتين. لأن السمرقنديين شعب خليط من العنصرين الإيراني والأوزبكي.

وكانت سمرقند مركزا للعلوم، وإن المراصد الضخمة كانت فخر وزينة هذه المدينة. واليوم فإن أنقاض مدرستي «ديللة جار» و«شيردار» العظيمتين وقبر الشيخ عبيده الأحرار شهود على تلك الحضارة. كانت سمرقند في بعض العهود منبع العلوم، إلا أن المدارس العظيمة صارت أنقاضا أما الجوامع الكبيرة والمزينة بالفسيفساء من الداخل والخارج فإنها تحير الألباب. وإلى جوار مدرسة «ديللة جار» مئذنة كبيرة جدا وعالية ولو بنيت مئذنة مثلها في أيامنا هذه لكلفت أموالا طائلة وإنه من غير الممكن تقليد ذلك الفن وتلك الصنعة التي تحير العقول.

ومن المؤسف حقا أن حضارة القرن العشرين قامت بتدمير نماذج هذه الأثار القديمة حيث تعرضت أحجارها إلى السرقة قطعة بعد قطعة ونقلت إلى أوربا عن طريق السياح الغربيين الذين يفدون لمشاهدتها. ومن الغرائب أن هذه المآثر بناها المسلمون المتوحشون!! وهدمها ولا يزال يهدمها الأوربيون المتحضرون!! ولم يحاول أحد حتى يومنا هذا أن يحافظ على هذه الآثار القديمة والقيمة ويعيرها أي اهتمام. ولو رأي المرء قبر تيمورلنك (الذي يظنونه خنزيراً وعدواً للحضارة للإنسانية وما إلى ذلك من النعوت) ومكتبته الضخمة، لذرفت عيونه دما من الحسرة والأسى.

يقول الكاتب الروسي الشهير جوكمالدين عن قبر تيمور: «إن الفن الذي على قبر تيمورلنك أرقى من مقاييس العلوم الحديثة إلا أنه لا ينظر إليه بعين البصيرة والإنصاف، ولا يحلو للناس الحديث إلا عن عيوب تيمورلنك». وحتى في أيامنا هذه تجد بين المسلمين صناعا لهذه التحف الجميلة. ورغم ظلم وغدر الروس فقد بنى رجل اسمه «أمين جان» مدرسة من عشرين غرفة غاية في الجمال مع كونها صغيرة، وزينها كلها بالفسيفساء. وإنهم يعملون على إصلاحها من الداخل، ومنظرها الخارجي جميل ولطيف جداً. انه يعمل هو وابنه في بناء المدرسة. وأمين جان أفندي ضعيف البنية وأعرج، وليس ثريا ويسعى بكل جهده ليترك أثراً خالداً يكون نموذجاً لهذا الفن الذي ورثه عن آبائه وأجداده.

وفي سمرقند اليوم أناس مرموقون ونشيطون، حري بأن تكتب أسماؤهم بأحرف من ذهب. وسنحتاط في عدم ذكر أسمائهم كيلا يصابوا بصواعق الكبرياء. ولابد أن يذكر التاريخ الإسلامي أسماء هؤلاء الرجال. وفي سمرقند اليوم مدارس ابتدائية ومتوسطة نظامية افتتحها رجال من أهل الحمية وكل واحد منهم يعتبر قدوة لكل تركستان. إن أحد مؤسسي هذه

المدارس هو «عبد القادر» أفندي ومرشدها المفتي «محمود خوجة» وهما يعتبران من أبطال الأوزبك.

إن القبب المقامة على القبور في سمرقند تعتبر من الآثار التي وهي نموذج للفن المعماري وتسترعي إعجاب المعماريين الحاليين لدرجة أن تصميم المسجد الذي بدئ بإنشائه في بترسبورغ اختارته لجنة التحكم على الطراز المعماري السمرقندي بعد أن أعلنت عن مسابقة بين المهندسين المعماريين الأوربيين بمكافأة قدرها عشرة آلاف روبل (ألف ومائتي ليرة عثمانية) لمن يفوز تصميمه في هذه المسابقة. وسيكون شكل هذا المسجد قريبا من شكل ضريح تيمور. والفرق الوحيد بينهما هو أن الضريح عليه مئذنة واحدة أما المسجد فصمم على أن يكون له مئذنتان وكما أن ضريح تيمور لنك مكسو في داخله وخارجه بالفسيفساء، أما المسجد فسيزين من الخارج ويطلى بالدهان من الداخل، والبناء لم يكتمل بعد.

وفي الوقت الحالي ليس في سمرقند ما هو جدير بالمشاهدة سوى هذه الأبنية القديمة. أما الآثار والتحف القديمة فقد نقلها الروس إلى بترسبورغ بعد استيلائهم على المدينة. وإن الكتب الإسلامية القديمة والآثار المعمارية الجملية الموجودة في مكتبة القيصر ببترسبورغ، كلها جلبت من سمرقند، حتى أن «المصحف العثماني» لسيدنا عثمان ﷺ الموجود حالياً في مكتبة بترسبورغ جيء به من سمرقند*. إضافة إلى الكتب والمخطوطات القديمة.

* - أعادت السلطات السوفيتية المصحف إلى مكانه في المسجد في احتفال رسمي حضره مندوبون من الدول الإسلامية، الذين اشتركوا في المؤتمر الإسلامي الكبير الذي عقد بمناسبة مرور ألف عام على ولادة الإمام الترمزي. «المترجم» كمال خوجة.

المصحف العثماني

يوجد في مكتبة القيصر ببترسبورغ مصحف قديم يأتي الأجانب لمشاهدته والمصحف الشريف هو لعثمان بن عفان ﷺ. هكذا اشتهر. وهذا المصحف الشريف كان في مسجد الشيخ عبيد الله الأحرار بسمرقند قبل أن يستولي الروس على المدينة. والرحلة المرمرية التي كان هذا المصحف موضوعا عليها لا يزال موجودا في المسجد حتى الآن، مع أن المصحف موجود في بترسبورغ. فعندما احتل الروس سمرقند قام الجنرال المشهور «كوفمان» بإرسال هذا المصحف إلى مكتبة بترسبورغ بتاريخ ٢٣ أيلول سبتمبر ١٨٦٩م. وكان الجنرال «مايور أبراموف» قد أخذ المصحف الشريف من مسجد أحرار مقابل مائة روبل بناء على فتوى من اثنين من علماء المسجد المذكور هما الشيخ عبد الجليل والمفتي ملا معين. وقدماه إلى كوفمان.وحسب ما ذكره كل من الشيخ عبد الجليل والمفتي معين فإن هذا المصحف جئ به من استنبول قبل أربعمائة عام بجهود الشيخ أحرار. ولا تزال أثار دماء عثمان ﷺ موجودة على المصحف.وتقول الروايات أن هذا هو نفس المصحف الذي كان يقرأه عثمان حين استشهد، فسال دمه على المصحف. وتلقى الناس إلى يومنا هذا الأمر بالقبول.

إلا أن الكاتب الروسي الشهير «شيبونين» ألف كتاباً حول هذا المصحف وسماه «كوفجيسكي قرآن». وقد نفى هذا الكاتب أن يكون المصحف في مثل هذا القدم.

ثم أن عثمان ﷺ لما أمر باستنساخ المصحف الموجود لدى السيدة حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها قال: «ليكن عرض الورق كفتين مستريحتين» أما ورق المصحف الموجود في بترسبورغ فلا يقل عن أربع كفوف مستريحات. والواقع إن عليه شيء يشبه آثار الدم، إلا أن احتمال

كونه آثار دم ليس قطعياً. وخلاصة القول إنه من الأنسب والأقرب أن يقال عنه بأنه ليس بالمصحف العثماني. هذا المصحف موجود إلى يومنا هذا في متحف القيصر ببترسبورغ وبعض أوراقه ناقصة. وفي إحدى المرات قام رجل اسمه «سيبرياكوف» بطبع مائتي نسخة من هذا المصحف بالطبعة الحجرية. ووصل سعر بيع النسخة الواحدة إلى مائتي روبل.

ولاية فرغانة

غادرت سمرقند إلى ولاية فرغانة، وتجولت في خوقند ونمنكان ومرغلان وأنديجان. وكما ذكرت سابقا فإن جميع المدن تضم حيين: حي روسي وآخر إسلامي. وعدد سكان خوقند خمسة وتسعون ألفا، ثلاثة آلاف منهم من الروس. ومع ذلك فإن الحي الروسي شديد الترتيب والاهتمام، أما الحي الإسلامي فليس في وضع يمكن زيارته. ومن الناحية العلمية تأتي خوقند في الدرجة الثانية بين مدن تركستان بعد بخارى. توجد فيها مدارس عظيمة منذ العهود الخانية. كما يوجد فيها قصر «خدايار خان» وهو نموذج للآثار الإسلامية الجميلة. وقد أُتخذ الآن ثكنة عسكرية. وكان قبل خمس وثلاثين سنة مقراً لسلطان مسلم، أما اليوم فهو ثكنة عسكرية روسية. هذا القصر الإسلامي الذي كان قبل أربعين أو خمسين عاما معززاً ومكرماً ومزيناً بالآيات الكريمة من الداخل والخارج يصرخ بلسان حاله قائلاً: «لقد أهانوني وجعلوني داراً للفاسقين والفجرة. كنت قبل أربعين عاماً تسمع في رحابي الذكر والتسبيح والقرآن، واليوم ترتكب كل المحرمات في جنباتي، والكلام البذيء ينطلق من أفواه السكارى ملؤه شتائم للآباء والأمهات، لقد صرت مأوى للحثالات».

هذا الرذائل ترتكب على مرأى ومسمع من الخوقنديين جميعهم. فمن حق الخوقندي أن تذرف عيونه دماً، إلا أن الإنسان لا يلبث أن يستمرئ الهوان.

وفي خوقند علماء أفاضل، وأدباء وشعراء ؛ وكذلك لاتجد حمية ولا همة ولا غيرة ولا وطنية ولا قومية. ولهذا تجد قصر السلطان المسلم وقد صار ثكنة للجنود الروس.

وسكان مرغلان ونمنكان وأوش وجوش وسائر مدن فرغانة من الأوزبك. لقد أدى بهم الجهل إلى الوقوع في براثن الأسر، رغم بساطتهم وسرعة بديهتهم.

عاودت الكرة من فرغانة إلى ولاية سيرداريا، إلى طاشقند. وأقمت فيها مدة خمسة عشر يوماً. ثم سلكت طريق جيمكند ـ أوليا أتا بشباق ـ دقمان، وقطعت مسافة ألف كيلومتر على ظهر دابة حتى وصلت مدينة ألما أتا بولاية يدي صو.

إن مجموع المسافات التي قطعتها من موطني في مدينة تارا إلى هذا المكان (٥٩٠٠) كيلومتر تقريبا. (١٣٠٠) كيلومتر منها على ظهر الدواب والباقي بالقطار. وأكثرية السكان هنا مسلمون. خاصة ولاية سيرداريا وفرغانة وسمرقند كل سكانها من المسلمين. وفي السنوات الأخيرة بدأ توطين الروس في هذه المناطق، حيث تتدفق أعداد كبيرة من روسيا الداخلية إلى تركستان.

هذه هي عادة روسيا منذ القدم. فإنها إن أرادت السيطرة على بلد من البلدان فإنها تسعى قبل كل شيء إلى تذويب ذلك البلد بالعنصر الروسي (إذ تمزج شعب ذلك البلد بجنسها لتجعلهما جنساً واحداً. إنها أخطر السياسات في السيطرة على أي بلد من البلدان). لذلك فإن الحكومة صرفت الملايين من أجل توطين الروس في ولاية يدي صو. ولكن هل

يتحقق التذويب أو لا يتم؟ هذا أمر يستحق التساؤل. وفي روسيا ـ في ولايات أوفا وقازان ونيجني وغيرها ـ يعيش التتار مع الروس، وفي كثير من المناطق يشكل الروس مجموعات كبيرة، ومع هذا لم يتحقق شيء من التذويب، بل على العكس تعاظم الشعور القومي لدى التتار، ولا يزال يزداد تعاظماً. وفي بعض الفترات جعل الروس كلمة التتار تعني الخسة والدناءة، واستطاعوا خداع بعض الجهلة من التتار في أن يفهموا أن كلمة التتاري تعني المجوسي. لذلك صار بعض المساكين منهم يتحاشون إعلان انتمائهم التتري كيلا يظن بأنهم مجوس، ويقولون: «نحن مسلمون ولسنا تتار». وحتى يومنا هذا يقول التتار عن اللغة التتارية بأنها لغة المسلمين. ومع ذلك يمكننا القول بأنه ليس هناك أي أثر للتذويب. لذلك فاحتمال التذويب في تركستان احتمال بعيد، لأن النصرانية تمنع التذويب. هذه حقيقة لا يستطيع إنكارها المطلعون على التاريخ. ليس التتار في روسيا والبخاريون وحدهم، بل المالاروس والبيلوروس والايسيت فإنهم لم يذوبوا ولن يذوبوا بالرغم من اشتراكهم مع الروس في العرق والدين واللغة. لقد قدم الإسلام خدمة عظيمة في تعريب اليهود في الجزيرة العربية والدروز والإسماعيليين في سوريا والأقباط في مصر، والأحباش والبربر في أفريقيا، لدرجة أن هؤلاء نسوا لغتهم وقوميتهم، بل صاروا دعاة للقومية العربية. وهكذا فإن الحكم بالعدل والبعد عن عقلية التسلط والاحتلال يعطي نتائج طيبة.

ولاية يدي صو

أكثر أهالي يدي صو (وهي قازاخستان ـ السامرائي) هم من القازاق الرحل، وقليل منهم قيرغيز، والبقية يدعون «سارت» أي أهل المدن،

والبقية من البخاريين والتركستانيين و التتار قدموا من روسيا ويعرفون بالنوغاي.

ولم يكن في السابق في هذه المناطق أحد من الروس، وكان يعرف طرف من هذه البلاد الشاسعة بالمشاتي وطرف آخر بالمصائف. والناس فيها أحرار في حلهم وترحالهم. ويشتغل القازاق والقرغيز في تربية الحيوانات، وأفقر الناس عندهم يمتلك ٢٠-٣٠ من الخيل و٤٠-٥٠ من الغنم. أما الأثرياء فيمتلكون ألفاً أو ألفين إلى خمسة آلاف من الخيل وعشرة آلاف إلى عشرين ألفاً من الغنم. وأما من لديه مائتان أو ثلاثمائة من الخيل فيعتبر من مستوري الحال. هناك فارق بين القازاق والقرغيز في الأسماء ولكنهم لا يختلفون في طراز معيشتهم. والقازاق يفوقون القرغيز عددا.ففي ولايات يدي صو وسرداريا وتركستان وأورنبورغ وأورال وتورغاي وأقمول وسيمي وبولاد وفي أعماق الصين أعداد كبيرة من القازاق أما القرغيز فلا تجدهم إلا في ولاية يد صو. والروس يسمون جميعهم بالقرغيز. أما فيما بينهم فيفرقون بين القرغيز والقازاق، مؤكدين على أنهم ينحدرون من أصول مختلفة.

يقدر عدد القازاق ب ٩-١٠ ملايين تقريباً. ويتميز هؤلاء ظاهرة انهم كلهم يتكلمون بلغة واحدة ولهجة واحدة، وليس هناك أي فرق بين القازاق في سواحل بحر الخزر وبين القازاق في ما وراء الطاي لا في الأخلاق ولا في التعامل ولا في المعيشة ولا في العادات. وإنهم كلهم بديني الأجسام ثقيلو الأوزان.

الأطعمة

إن الطعام عند القازاقي هو لحم الخيل والشراب هو القميز ـ شراب حاد يصنع من حليب الفرس، وهو مسكر أحياناً، وإذا وجد القازاقي

اللحم أكل كثيراً ولم يقنع بالقليل. فإن فقده، بات على الطوى عدة أسابيع. وفي الشتاء لا تخلو بيوت الأغنياء من اللحم، وبعض الأغنياء يذبحون ما يقرب من عشرين حصاناً استعداداً للشتاء، أما في الصيف فأكل اللحم يتوقف على وجود الضيف فإن حضر الضيف ذبحوا له الغنم. وإذا نزل عند أحد من أهل القرية ضيف شبع صاحب البيت وشبع أهل القرية في ذلك اليوم. وإن لم يجد القازاقي ضيفاً اكتفى بشرب أكواباً من القميز وإن لم يجد الشراب ركب دابته وتجول في القرى عله يجد كوب قميز، فإن شربه فلا حاجة عنده لأي شئ آخر. وتحمل القازاقي للجوع طويل. وقد تمضى عليه أسابيع لا يأكل فيها شيئاً. فإذا وجد فلا أقل من أن يأكل أقتين أو ثلاث من اللحم*.

خانات القازاق

وكان للقازاق قبل خمسين أو ستين عاماً (أي قبل أن يحكمهم الروس) خانات وسلاطين وحكومة خاصة بهم. ولا يزال أبناء الخان جهانكير وأبناء السلطان كينيسار على قيد الحياة. و«وصادق تور» الذي كان آخر من حارب الروس لا يزال حيا يرزق، وهو يقيم في «قرة بولاق» قرب جيمكنت بولاية سيرداريا، وقد اختار لنفسه حياة الدراويش.

والأمير جنكيز عبيد الله أحد أبناء جهانكير خان توفى قبل عامين في بترسبورغ. أما أخوه الأكبر الأمير أحمد فيقيم بمدينة يالطا في بلاد القرم. وفيما عدا هؤلاء، فهناك أسرة من أبناء كينيسار خان تقيم قرب ناحية كوكجة داغ بولاية أقمولا، ولا نجد لأحد منهم أي ميل للحكم.

---

* الأقة (٤٠٠) درهم أو (١٢٨٣) غرام، أما الأوقية الشامية فوزنها (٢٠٠) غرام وبعض البلدان خاصة في المشرق العربي تخلط بين الأقة والأوقية.

تاريخ القازاق

كان القازاق وكذلك القرغيز من الرحل، لذلك لم يكن بينهم من يقرأ أو يكتب، فتاريخهم غير موثق. ومع ذلك فإن الوقائع التاريخية لديهم كانت تصاغ شعرا. فالأحداث المهمة يتخيلها الشعراء فينظمونها شعراً يلقى في المجالس فتتلقفها الألسن وتحفظها الأذهان. وكما تسلط الروس على القازاق في الوقت الحاضر فقد شهد عهد كاترين الثانية استيلاء تتار روسيا على قازاقستان، فنشروا بينهم الإسلام وعلموهم القراءة والكتابة. وحتى يومنا هذا تجد التتار في قازاقستان كلها يمتهنون التعليم. ولقد أخبرت أن القازاقي إذا امتلك أربعين أو خمسين فرساً وحوالي مائتين من الغنم استأجر لعائلته إماماً ومعلماً، فيقوم هذا الشيخ التتاري (النوغاي) بتعليمهم أمور دينهم ويؤمهم في صلاتهم. ولذلك تجد أن الإسلام قد انتشر في بادية القازاق كما انتشر التعليم. وهناك بعض الشباب يسجلون الأحداث التاريخية من أفواه الناس.

والقازاق شعب ذكي جداً. وفي عصرنا هذا نجد منهم رجالاً أتموا دراستهم في المعاهد الروسية العليا، وانتشر التعليم في كل مكان، كما ترسخت عندهم الفكرة الدينية. فمنهم علماء ومشايخ، وتمسكهم بالدين جيد، إلا أن الحكومة الروسية فصلت شؤونهم الإدارية عن التتار. كما ادعت الحكومة الروسية بأن «القازاق ليسوا مسلمين وإنما جاءهم الإسلام بتأثير من التتار» ومنعت بقاء المعلمين التتار في قازاقستان. ومع هذا فإن هذا المنع لم يحقق لهم ما أرادوا، ولا يزال النوغاي يدخلون قازاقستان ويقومون بالتدريس. وكذلك نشأ مدرسون من بين القازاق أنفسهم. لقد صحا القازاق وترسخ الإسلام في أعماقهم. ومهما ظلم الروس بعد الآن فلن يلقوا من القازاق إلا المقاومة والجلد والقتال إذا اقتضى الأمر. إن

عشرة ملايين من القازاق هم مسلمون رغم أنف الروس.وإن هذه المعاملة أقلقت إخواننا القازاق كثيراً في فترة من الفترات، ولا تزال الحكومة تعاملهم بقسوة وتحاول أن تدس بعض النصارى بينهم ولكن النتيجة ستكون في صالح القازاق إن شاء الله. سيدوم هذا الظلم ما بقى الحكم الاستبدادي في روسيا قائماً. ولاشك أن بعض السفهاء والسفلة سيعتنقون النصرانية، غير أن العلماء ومن ورائهم الشعب لن يصبروا على هذا الظلم طويلا، و سيأتي اليوم الذي ينالون فيه حقوقهم المشروعة، لا محالة في ذلك.

استولى الروس على مزارع القازاق، فانخفضت الثروة الحيوانية عندهم.و لكن هذا الوضع مؤقت، ولابد أن يأتي يوم يعود الروس من حيث أتوا.لقد جربت الحكومة نظرية التذويب لسنوات طويلة، فلم يعط التوطين النتيجة المرجوة. إن «الأروس القازاق» الذين هاجروا من ضفاف تون إلى ضفاف نهر ايرتش صاروا كلهم مسلمين (الأروس القازاق هم الجنود الفرسان من الروس الذين هاجروا من ضفاف نهر التون واستوطنوا في مختلف أنحاء سيبريا، وقد عرفوا بالأروس القازاق لكونهم من الفرسان). ولقد أراد الروس أن يجعلوهم روساً إلا أنهم لم يفلحوا بل صار هؤلاء من القازاق.واليوم تجد الأروس القازاق الذين استوطنوا بادية القازاق قد نسوا طقوسهم الدينية، وصاروا يأكلون لحوم الخيل أكثر من القازاق أنفسهم مع أن لحم الخيل حرام في دينهم، وتركوا لغتهم وتعلموا لغة القازاق. إنه لتاريخ حي أمام الروس فليعتبروا، ليس هناك أي احتمال في أن يصير المسلم روسيا.

ألما آتا (ويرناي)

مدينة ألما اتا هي عاصمة ولاية يدي صو، ويسميها الروس «ويرناي». وكل أهلها مسلمون، وإن وجد بعض النصارى فأكثرهم من رجال الدولة والموظفين. والمسلمون هنا اجتمعوا من قبائل تورغاني وتارانجا والنوغاي والقرغيز والقازاق والسارات، وكلهم أتراك. ولذلك سماهم الجغرافيون «تركستان الصينية» والواقع فإن السكان الأصليين في كاشغر وخوتن وأورمجي وألتي شهر ومن جاركند إلى ضفاف نهري توم وأوب في سيبيريا جميعهم أتراك.

وبالرغم من أن مدينة ألما أتا وما حولها هي ملك للمسلمين فإن الحكومة تفرض توطين العنصر السلافي القادم من المناطق الداخلية من روسيا في كافة مناطق ولاية يدي صو.

إن قضية الهجرة ليست سهلة، ففي كل عام يهاجر الكثيرون من المناطق الداخلية في روسيا إلى سيبيريا و تركستان وولاية يدي صو و بادية القازاق إلا أن نصفهم أو ستين بالمائة منهم يعودون إلى البلاد التي هاجروا منها. و إذا عاد نصف الذين جاءت بهم حكومتهم و هم معززون مكرمون ودفعت مصاريف هجرتهم، و أعطيت لهم وظائف من قبل حكومتهم وفي بلادهم، فليس هناك عيب على المهاجرين التتار إذا عادوا من تركيا إلى بلادهم.

إن سبب تسمية ألما آتا بولاية يدي صو هو عبور سبعة أنهر داخل الولاية. إن المحافظات التابعة لولاية يدي صو هي بشباكي ودقماق وجاركند وقابال. وكل محافظة هي بمثابة ولاية، ويستقطب فيها القازاق والقرغيز الرحل، أي المسلمون. وفي السنوات العشر الأخيرة قدم كثير من الروس من المناطق الداخلية، وأعدادهم في تزايد مستمر.

إن الحكومة في هذه البلاد تعامل السارت القازاق معاملة مهينة لا يمكن أن يتصور بشاعتها أي إنسان. و لقد سمعت من مصادر موثوقة في بشباق أن أي واحد من الموظفين أو المهاجرين الروس إذا قتل إنسانا من السكان الأصليين، فلا يلقى أي جزاء أو عقوبة، وإن مديراً للشرطة قتل رجلاً مرموقا اسمه محي الدين قاري وهو يقرأ القران في مكان قرب بشباق، ثم جاء القاتل إلى المدينة وأخبر ذوي المقتول قائلا: «خذوا أخاكم من المكان الفلاني و ادفنوه، لقد قتلته بالرصاص». لقد سمعت قصة استشهاد هذا الرجل من أهالي بشباق عدة مرات، كما زرت قبره.

وهكذا إذا قام النصارى بقتل المسلمين في يدي صو بهذه الطريقة فلا شئ على الجناة. وقد حدثت عدة حوادث قتل شبيهة بتلك الحادثة، فقتل روسي رجلاً مسلماً في الطريق بين بشباق و دقماق واعترف القاتل بجريمته ولكنه لم يلق الجزاء، وهكذا تذهب دماء المسلمين هدراً.

وفي مقابل ذلك لا يجوز للمسلمين استعمال السلاح، ويحظر عليهم حمل أي نوع منه دفاعاً عن النفس حتى و لو سكيناً، ويتعرض من كان عنده مثل هذا النوع من السلاح للغرامات المالية. أما النصراني فيحق له حمل كل أنواع الأسلحة النارية، بل يطلب منه حمل السلاح، ومع ذلك فكل الاتهامات توجه للمسلمين. إن الأهالي في بادية يدي صو كانوا من القازاق والقرغيز الرحل، يتنقلون من جبل إلى اخر، وقد ذكرنا سابقا أنهم كانوا يعيشون على تربية الحيوانات، إلا أنهم في الأعوام الأخيرة أخذوا يتجمعون في قرى تحت ضغط الحكومة، فإذا جاء الربيع رحلوا إلى أماكن الرعي. وتعمل الحكومة على منع حياة الترحال و أخذت تطبق المنع فعلا. وإن تهجير الروس و اسكانهم في هذه المناطق هو أحد الأسباب التي تدعو الحكومة لإتباع هذه السياسة. إن هؤلاء الذين نشئوا على حياة الترحال وتطبعوا عليها يعتبر التوطين بالنسبة لهم موتاً. والواقع إن حياة

التحضر أجمل من حياة البداوة، هذه حقيقة لا ينكرها أحد، ولكن تغيير حياة تعود الناس عليها أمر بالغ الصعوبة.

توطين القازاق

إن توطين القازاق سياسة قررها رجال الدولة منذ أكثر من ثلاثين عاما واتخذت كافة الاستعدادات لذلك ولازالت تتخذ، إلا أن القازاق لم يناسبهم الأمر ولا زالوا رافضين له، حتى أن قسماً منهم و إن تركوا حياة البداوة وسكنوا المدن إلا أنهم مستعدون للعودة إلى حياتهم السابقة إن وجدوا الفرصة لها. فالراحة التي يجدها القازاقي في حياة البداوة يفتقدها في حياة الحضر. إن الذي كان يملك أيام البداوة ثمانية أو عشرة آلاف من الدواب، لا يتجاوز عدد ما يملكه منها الآن سبعمائة أو ثمانمائة على أكثر تقدير. ونفس الوضع بالنسبة للغنم. ومن يملك القليل منها فهو معرض للجوع الذي يؤدي في النهاية إلى التنصير. ومهما عملت الحكومة وبذلت من جهود فلن يصير القازاقي حضرياً بالمعنى الكامل، وستستمر البداوة فيهم نصف قرن. إنها حياة طبيعية وممتعة جداً ؛ فالترحال أمر طبعي، والإنسان يحس بالحاجة إليه بالفطرة. إن خروج الأمم المتمدنة إلى المصايف نوع من الترحال، وقد سمته الحضارة تصييفاً لكنه في حقيقة الأمر ترحال. والكل يرغب به لأنه أمر طبعي. وقضية إسكان القازاق تعني تحويلهم من حالة طبعية إلى حالة جبرية، وهذه الشعوب المتنقلة المسكينة إذا أجبرت على الاستيطان لا تلبث أن تصاب بالسل، فأنت تجد في كل بيت عددا من المصابين بهذا المرض و لا يلبثون أن يموتوا. إن مرض السل قد امسك بتلابيب القازاق منذ الآن، أما الباشقورت فلا يزالون يرحلون، والروس يعرفون ذلك، إلا أن مصلحة الحكومة ليست في

البداوة، ولن يرتاح للحكومات بال حتى يستوطن جميع الناس، لأن الأمن لا يستتب إلا بالاستيطان.

سيمي بولاد (يدي طاش)

الطريق من ألما اتا إلى سيمي بولاد يمر في مديني قابال وأياجوز (سيرجيوبول)، والناس بين هاتين الولايتين كلهم من القازاق الرحل. هناك بعض القرى النصرانية لكنها قليلة. كما أن بينهم النوغاي و السارت و الدونجانيون الصينيون ولكن يبقى القازاق هم الأكثرية، فهم أهل البلاد الأصليين. وسيمي بولاد تعنى الأحجار السبعة.ويروي أنه كان في مكان هذه المدينة سبعة أحجار، والناس يكتفون بذكر كلمة سيمي. ولا يستعملون كلمة الأحجار السبعة. في حين أن سيمي ريجنسكي يسميها المسلمون يدي صو (أي المياه السبعة).

وسكان سيمي بولاد كانوا قبل أربعين أو خمسين عاماً من المسلمين، وهم أصلا من النوغاي القادمين من قازان وروسيا الداخلية، وفي حي من أحيائها يقيم بعض البخاريين. أما اليوم فالروس يشكلون الأكثرية، والمسلمون يلونهم من حيث العدد.

إن بين المسلمين في هذه البلاد من هم من أصحاب الثروات وبعضهم يملك معادن الذهب، أما الأعمال المهمة فتمر عبر النصارى، في حين نرى المسلمين يضيعون أموالهم، فبعضهم يضيعها بالتصوف وآخرون بالسكر والعربدة وبذلك تنتقل الثروة إلى يد الأجانب.

وا أسفا على هذه المدينة الصغيرة، إنها تحتوى على أكثر من ستمائة مصنع كبير من مصانع البيرة، و يقال إن هذه المصانع تعمل ليل نهار بالكهرباء والبخار دون توقف، ولا يكاد إنتاجها يكفي لاستهلاك سكان

البلد أنفسهم، و لا تصدر قطرة واحدة من بيرة سيمي، بل يستوردون ما يحتاجونه في الصيف من الخارج، ومع ذلك فهم يشكون من قلة إنتاج هذه المصانع خاصة في الأيام المباركة.

وشعب سيمي متمسك بدينه ولا يرضى تغيير أي شيء من عاداته القديمة، حتى إن نساءهم في أيام الصيف الحارة يلبسن جميع أنواع الفراء من ثعلب وصامور أو سنجاب ويفتخرون بها، كما يتزين بطبقات كثيرة من الأقراط، و تزدحم أصابعهن بحلقات الخواتم والزينات الأخرى، أما في العلم والمعرفة فلا. إنك إن أردت أن ترى مسلمين من عهد بني إسرائيل فلا شك أبداً بأنك ستجدهم في سيمي، إلا أنه في السنوات الخمس الأخيرة بدأ شباب سيمي يتزاحمون على المدارس الروسية. فقبل عشر سنوات ما تشاهد في المدارس الروسية مسلماً واحداً أما اليوم فيدرس فيها أكثر من أربعين طالب مسلم، وإن هؤلاء السادة هم الذين سيقضون على فساد الخلق في مسلمي سيمي.

وسيمي بولاد تقع على ضفة نهر أتيش، أرضها خصبة، والحبوب التي تنتجها هذه الأرض تصدر إلى جميع أنحاء روسيا وإلى بعض الدول الأوربية. كما إن جلود السيريو تلقى رواجاً كبيراً في الأسواق الروسية، وتجارة هذه الجلود يختص بها تتار سيبيريا.

إن وضع المسلمين في سيمي بولاد جيد ومستقبلهم مشرق، وعليهم أن يصححوا وضعهم الحالي، وأن يبادروا إلى ترك الأخلاق الفاسدة وعادة شرب المحرمات. لقد أفلس أكبر الأغنياء بسبب فساد الخلق، والآخرون بدءوا يعتبرون بغيرهم ويفكرون في مستقبلهم.

تـارا

غادرت سيمي بولاد بطريق النهر، ومررت بكاراكاو وأومسكي حتى وصلت إلى تارا موطني الأصلي ومسقط رأسي. وتارا بلدة صغيرة عدد سكانها ستة آلاف وعدد بيوت المسلمين قد يصل إلى مائتين أو ثلاثمائة.

وتارا مدينة موغلة في القدم، كانت في عهد من العهود مركزاً تجارياً تنتقل القوافل بينها وبين بخارى عبر قيزيليار وأقمولا وتركستان. والمستشرق ياديرينشيف (وهو من أهل تارا) يذكر في معرض بحثه عن تتار سيبريا أن تجار تارا كانوا يصلون إلى الهند عبر بلاد العجم. كما يذكر في كتابه أن أحد تجار تارا اسمه ابلين أرسلته حكومة موسكو في عام ١٦٦٤م بمهمة اقتصادية وسياسية إلى بكين. وبسبب هذه المشاركة تقرر إعفاء تتار سيبيريا من الخدمة العسكرية وتخفيض عبء الضرائب عليهم قليلاً. وفي أيامنا هذه تغير الأمر بالنسبة للضرائب بينما بقى ساريا بالنسبة للجندية.

أما الآن فلم تبق لسيبيريا الغربية بشكل عام ولتارا بشكل خاص أية أهمية سياسية واقتصادية، بل زالت كليا بسبب وقوعها بعيداً عن الخط الحديدي.

وكان في تارا عدد من القرى المسلمة يصل إلى ثلاثين أو أربعين، أما اليوم فالتفكير قائم في هجرة كل سكان هذه القرى إلى تركيا. إذن صلاتنا بها ستنتهي بعد الآن، وستبقى ذكرياتنا لبعض الوقت باعتبارها وطننا، ذكريات عن رحلاتنا وجولاتنا على امتداد مائتي كيلومتر على أرض غطاها بياض الثلج الناصع في لياليها المقمرة وعلى خيولها الجميلة، وعن صيدنا داخل غابات الصنوبر الممتدة في عنان السماء مثل المآذن، وعن سفرنا أيام الصيف بالسفن في نهر ايرتيش.

بقيت في تارا التي هي موطني الأصلي حوالي ثلاثة أسابيع ثم غادرتها بعد ذلك مع عائلتي إلى قازان مروراً بتوبولسك و تامام و بيرمة، وسأنطلق لرحلتي الكبرى من هنا، وهدفي من القدوم هو استئجار بيت لإيواء أولادي فيه. وطيلة مدة مكوثي قي قازان سعيت لأن أومن ما يحتاجه البيت قدر طاقتي وإمكانياتي وأكملت كل ما يمكن أن يحتاجه البيت من مفروشات.

ومن جهة أخرى أخفيت في قلبي خطة لرحلة طويلة، وكنت أقضي معظم وقتي في التفكير بأهلي الذين سأتركهم لرعاية الله الرزاق ذي القوة المتين، في ديار الغربة هذه، أفكر بحالي حيث اخترت الرحيل إلى ديار غربة أخرى بعيدة.

سيكون سفري طويلاً، استكملنا احتياجات البيت. دفعت إيجار شهر واحد. وأمنت نفقات أولادي، إلا أن حاجتي لمبلغ يضعني في أول طريق الرحلة يقف عائق أمامي، فقررت الاستدانة، فاستدنت عشرين روبلا من أحد أصحابي، وبادرت بالخروج قبل أن يحدث ما يمنعني من الرحيل. وفي ذلك اليوم كانت صحف العاصمة الروسية تتحدث عن لقاء «روال» وأن هذا اللقاء سيكون حاسماً في المسألة الشرقية. والواقع لم يكن في العالم الإسلامي شيء سوى اليأس. والنتيجة التي سيؤول إليها الانقلاب في تركيا مجهولة. أما نحن فكنا بعد تفكير طويل وعميق مقتنعين بأنه سيضع حداً للمسألة الشرقية المشئومة. ومع ذلك فقد وضعنا في حسباننا أنه لابد وأن يضحي الأبطال العثمانيون بأرواحهم في سبيل هذا الهدف. ولذلك تحركت باتجاه الشرق الأقصى، مسترجعا في خاطري طائر السنونو الذي نقل الماء بفمه ليطفئ نار نمرود. ولم يكن في خاطري من أحد سواي يعرف هذه الرحلة الطويلة التي استولت على قلبي. أما أهلي فيظنون أن نهاية رحلتي ستكون في أوفا، أو أومسكي على أبعد تقدير، وصرت

أغالب ألم الفراق، أمام صغاري الذين ينظرون إلى عيني بعيون دامعة حزينة.

وفي لحظة مؤثرة وقف ولدي أحمد منير بقلب حزين وكأنه أحس ببعض ما أخفيه وأراد أن يعطيني النقود التي كانت بيده قائلاً بصوت متحشرج: «أبي..» وكادت الدموع تنفر من عينيه. لم أتمكن من معرفة مقدار تلك النقود، فقلت له: «ولدي.. اهتم بأختيك الصغيرتين» ثم فقدت القدرة على النطق بكلمة أخرى، أما الصغيرتان فقد رأيتهما تبكيان، ولم أعهد فيهما البكاء قبل اليوم. وأخيراً قررت التحرك في اليوم الرابع من شهر رمضان المبارك. أعددت ملابس السفر وبعض الحاجيات الأخرى، وذهبت ابنتي قدرية لتأتي بالحوذي فنقلوا أمتعتي إلى العربة، كنت أخرج من الباب وكأنني الميت الحي والصغيرتان تعانقاني باكيتين.

وفي لحظة ركوبي العربة جاءت ابنتي قدرية وقالت: «أحتاج لأربعة روبلات»، فأخرجت الروبلات العشرين التي كانت هي كل ما عندي من أجل الرحلة، وأعطيتها منها أربع روبلات، وركبت العربة قائلا: «استودعكم الله» وغادرت قازان.

كنت أفكر لماذا وإلى أين أنا ذاهب ولم يكن معروفاً لدى هل سأعود مرة أخرى أم لا. أوصلتني العربة إلى الميناء، كانت السفينة جاهزة، فتحركت بي إلى أوفا.

من قازان إلى أوفا

مغادرة قازان

في السادس عشر من أيلول (سبتمبر) غادرت قازان ووصلت إلى ميناء السفن النهرية ويدعى «بيريستان» وكانت وجهتي أوفا.

إن السفن التي تبحر من هذا الميناء إلى أوفا كثيرة، وكنت أعرف أن أحسن الشركات فيها هي شركة «ياكيمسكي» فتوجهت إلى الرصيف حيث تقف سفن هذه الشركة، فصعدت السفينة التي كانت على وشك الإقلاع، واستقر بي المقام في حجرة من الدرجة الأولى تتسع لشخص واحد. كان الوقت متأخراً والأيام أيام رمضان وأقلعت السفينة «اَمور» التي ركبتها وقت أذان المغرب. كنت أحس بأن صافرات الوداع التي انطلقت من السفينة تكاد تمزق أحشائي، وكأن السفينة وهي تبتعد عن قازان أحست هي بألم الفراق فتعبر عن هذا الألم بالصراخ والعويل. والواقع فإن الظروف ا لموسمية كانت تثير الشك في عودة هذه السفينة إلى قازان هذا العام، فهي تريد بصافراتها المتواصلة أن يحس الناس بأنه الفراق الأبدي. وكنت أشاهد الركاب يلوحون بمناديلهم لأصحابهم الذين بقوا على الرصيف، وبعض السيدات يمسحن دموعهن، مما جعلني أستغرق في أفكار شتى. كنت أنظر إلى مساجد قازان ومآذنها التي تتراءى لي من بعيد فأودعها بقلبي الحزين.

مكانة أئمة المساجد وخدماتهم

وبينما أنا في هذه الحالة سمعت من علٍ صوتاً يقرأ الفاتحة. وعند قراءته ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ نظرت وإذا ببضعة أشخاص يصلون

المغرب فلحقت بهم واقتديت بإمامهم. وفور فراغي من الصلاة نزلت إلى الأسفل. وجلست للإفطار. ولم أكد أتناول بضع لقيمات حتى طرق شخص الباب، قلت: «تفضل» فدخل الباب رجل وقال:

«كنت أريد.. أن أدعوكم إلى الإفطار في مقصورتي».

قلت: «تفضل.. لنفطر هنا».

قال: «طيب» ثم جلسنا إلى المائدة، وأثناء الطعام سألت الضيف عن هويته ومن أي بلد، فعرفت منه أنه إمام قرية في ناحية جيستاي بولاية قازان. وأنه يعرفني. وبعد قليل من كلام التعارف أبدى ضيفنا العزيز تذمراً من الزمان الذي «قل فيه احترام العلماء»، وكثر فساد الخلق بين الناس وإلى غير ذلك من الكلام.

قلت: «هل قل احترام الناس للعلماء، أم قل الاحترام لدى العلماء؟»

قال: «لقد قل احترام الناس للعلماء، ولم يعد الناس يعيرون اهتماما لكلامهم ولم تبق لهم حرمة أو كرامة».

«ما هو السبب يا ترى؟ هل فكرت في أسباب ذلك؟ و هل يحدث شيء دون سبب؟».

« قديماً كان كلام العلماء يلقى القبول بين الناس، والعالم يُعز ويُحترم، فالزكاة والعشر والصدقات كانت وافرة، أما اليوم فيصرف أغنياؤنا صدقاتهم وزكواتهم على المدارس، فما عادوا يعطون العلماء شيئاً».

«ياسيد، في السابق كان العلماء يصرفون تلك الأموال التي يأخذونها من الأغنياء على المدارس والطلاب وكان هدفهم خدمة الإسلام. كانوا يقومون بالوعظ وتقديم النصح في المساجد، وبذلك أصبح الدين قائماً في مثل هذه الأحوال، كما حافظ العلماء على مكانتهم بين الناس. أتعرف كم عدد الطلاب الذين تربوا ونشئوا في جيستاي؟ وكم من المدارس الكبيرة أُنشِئت؟ وما الموجود منها الآن؟».

لم يلزم صاحبنا جانب الإنصاف ليقول صراحة بأنهم يتحملون بعض المسؤولية، بل اعترف إلى درجة ما قائلاً: «هكذا أصبح الدهر».

قلت: «ألا تعرف حديث» لا تسبوا الدهر"؟ لا دخل للدهر أبدا. وإذا أردت الحقيقة فإن العلماء هم الذين أفسدوا الزمان! لقد قدم العلماء حب المنصب والرئاسة على الواجب الديني، ولم يعرفوا للنعمة التي بين أيديهم قدرها، فتقلبوا في بحر الغفلة، وسعوا لأن يخلفهم في المقام الجهلة من أبنائهم، فلبس الأبناء الجهلة الجبة ووضعوا العمامة وورثوا مقام أبائهم العلماء، فأم الناس من ليس له من العلم والمعرفة حظ، وصار مقام الإمامة والخطابة يورث، فانتقلت إلى الجهلة عن طريق التوارث، فضاعت بذلك فرص كثيرة دون أن يعلم الناس عنها شيئاً، واخترتم السكوت وأنتم تنظرون، فكم من المصائب ألمت بنا، والمصائب تنبع من توسيد الأمر إلى غير أهله، وتولى الحمقى وأبناء الحمقى قيادة الناس. إنكم لا تفكرون بهؤلاء وتشتكون من الزمان وغير الزمان، لقد تعودتم أن تقولوا: «نفسي نفسي». فخفض أمامنا رأسه قليلاً.ورجع إلى الحق قائلاً:«اه يا سيد كل ما قلته لي صحيح تماماً. أصلح الله أحوالنا. سامحني فقد صدعت رأسك».

ودعني الضيف العزيز وعاد إلى مقصورته. لقد أمضيت بمناسبة الزيارة هذه بعض الوقت، فكان فاصلاً بيني وبين ألم الفراق.

وبعد العشاء انشغلت قليلاً بالمطالعة. وبعدها جاء أحد خدم السفينة، قال: «يا سيد.. أتريد شيئاً للسحور فنأتي به لك؟».

لقد استغربت هذا العرض من الخدم في هذه السفينة وكلهم نصارى. سألته: « ألا تنامون وقت السحور؟»

«طبعاً سننام، ولكن إذا أمرت بشيء قمنا وأعددنا كل ما يلزم، وأيقظناك في حينه. هذا واجبنا».

«أشكرك، وأمتن لك إن أعددت لي قليلاً من الشاي وشيئاً من الطعام».

فكرت في نفسي وقلت، عفوك يا رب، إن خادم السفينة نصراني، يوقظني للسحور ويقدم لي الطعام، ويستغني عن النوم من أجل بضعة دراهم. وبينما كنت مستغرقاً بهذه الأفكار إذ بصاحبنا قادم.

«هلا تفضلت إلى مقصورتنا؟ لنشرب فنجانا من الشاي ونتحدث قليلا».

قلت: «طيب» وذهبنا سوية إلى مقصورته في الدرجة الثانية. وأدركت أنه سيقدم لنا ضيافة طيبة، حيث الفواكه و الحلويات والمربيات، وبدأنا بالحديث.

قلت: «يا سيد منذ متى تقوم بالإمامة؟».

«منذ ثمانية عشر عاماً».

«أرجو ألا يفهم كلامي على غير ما أقصد، فخلال السنوات الثماني عشرة ماذا قدمت للحي الذي تؤم الناس فيه؟ ما هي خدماتك؟ لقد قدم أهل الحي طيلة ثمانية عشر عاما ما يكفي لمعيشتك وللإنفاق على عيالك، على كل حال كنت في وضع لم يطلع أحد عليه، ولعلك قضيت أوقاتاً طيبة مريحة، فما هي الخدمات التي قدمتها للحي مقابل خدماته، حدثني عن المنافع التي جلبتها لهم !».

«لقد صليت على جنائزهم، وسجلت أبناءهم، وعقدت زواجهم، هذه مهمتي».

«أنا لا أسألك عن الأمور التي قمت بها من أجل مصلحتك.بل أقول ماذا عملت من أجل مصالح الناس؟ لنفرض أنه لم يكن في الحي مدرسة قبلك، فهل افتتحت مدرسة، أو بذلت النصح لهم في المساجد، أو منعت عنهم فساد الأخلاق، أو كان أهل قريتك فقراء فشجعتهم على الكسب والارتزاق، فحسنوا أوضاعهم المعيشية؟ حدثني عن مثل هذه الخدمات...».

«يجب الاعتراف بالحق، حتى الآن لم يحدث شئ من هذا. و لكنك أرشدتني. أؤيدك في هذا الرأي بصدق. سأقوم بعد الآن بوعظ الناس في المساجد وأحضهم على الكسب والبحث عن الرزق بإذن الله. لقد محضتني النصح فجزاك الله خيراً، لقد شرحت صدري بكلامك الطيب».

وهكذا استغرق الحديث مع صاحبنا نصف ساعة. ثم ذهبت إلى مقصورتي لآخذ جانباً من الراحة.

تجارة البيض عند التتار

بعد ظهيرة يوم السابع عشر من أيلول (سبتمبر) وبينما أنا جالس على ظهر السفينة اقترب مني رجل وسلم على وقال إنه يعرفني، فتعارفنا. علمت منه أنه من سكان أوفا الأصليين. سألته عن مهنته، فقال: «التجارة».

«بماذا تتاجر؟ وأين تقوم بالبيع والشراء؟».

«التجارة الكبرى عندنا هي تجارة البيض. نجمع البيض في ولايات أوفا و بيرمة ؛ ونبيعه في بترسبورغ ولندن وبرلين».

لقد عجبت لهذا الأمر. تاجر تتاري ينقل البيض إلى لندن وبرلين ويبيعه هناك. قلت: "إلى أي حد يرتفع سعر البيض؟».

«نبدأ بجمع البيض اعتباراً من مطلع شهر أغسطس. نشتري في البداية الألف بخمسة عشر روبل (١٨٠قرش) وأخيرا نشتري بأسعار تصل إلى عشرين روبل »

«هل تجدون البيض في أغسطس؟».

«البيض المرغوب نجده في أغسطس. أما بيض الربيع فلا نستطيع إرساله إلى أماكن بعيدة، حيث يجف في الطريق. وتجارة البيض وإن كان فيها بركة فهي تجارة متعبة».

كم هي كمية البيض التي يمكن أن تتاجروا بها ؟ أنا لا أتصور أن تكون تجارته كبيرة.

إن شركة روبنسون في لندن تبلغ تجارة البيض عندها ٣٥ مليون روبل سنويا. و هناك شركة في برلين تدفع إيجار سنوياً لمستودع البيض يبلغ ثمانين ألف روبل. ولهذه الشركة سبعون فرعاً في روسيا وتقوم هذه الفروع بجمع البيض وتصدره إلى برلين.

إن سلعة بسيطة مثل البيض تصبح مادة لتجارة بمثل هذه الضخامة!!، كنت أظن ذلك خيالاً. و الإنسان كلما سمع بمثل هذه الأشياء أزداد تعجباً وحيرة. المناخ غير مناسب لذلك لا أستطيع البقاء طويلاً على ظهر السفينة، لذا أمضي جل وقتي وحيداً في المقصورة للمطالعة.

أوفـا

مع اذان مغرب يوم الثلاثين من أيلول (سبتمبر) وصلنا أوفا. نزلت في مضافة بولشوي سيبيرسكي. تجولت ليلاً في المدينة بعض الوقت. إن جميع أنحائها أضيئت بالكهرباء فصار الليل فيها كالنهار، ولم تعد تشبه أوفا التي رأيتها قديماً. لقد أصبحت خلال أربعة عشر عاما مدينة مختلفة تمام الاختلاف. وصلت إلى بيت صديقنا أبو السعود أختاموف، بنية قضاء الليل عنده.

وأبو السعود هو عضو سابق في الدوما ورجل خدم أمته في الماضي. وهو أول من تخرج من الجامعات الروسية من بين أبناء العلماء المسلمين الروس.

المحاكم الشرعية في روسيا (الإدارات الروحية)

عدد المحاكم الشرعية في كل روسيا (باستثناء تركستان وقازاقستان) أربعة، أحدها وأكبرها المحكمة الشرعية في أوربنبورغ، حيث أوفا هي مركزها الإداري. الثانية دوخاوناي أوليفية القرم ومركزها الإداري في أق مسجد، أما الثالثة وهي دائرة فتوى ما وراء القفقاس ومركزها الإداري في تفليس، وهذه الأخيرة بمثابة محكمة شرعية خاصة بأتباع المذهب الشيعي. أما المحاكم الثلاث الأولى فتختص بأهل السنة. فأنا الآن في أوفا مركز محكمة شرعية أورنبورغ.

الكتاتيب، المدارس، التجارة

قدمت هذه المدينة في عام ١٨٩١م، وأقمت فيها حينذاك مدة عامين. ولم يكن في ذلك الحين من العلماء والقضاة أحد سوى الآخون خير الله أفندي.كما لم تكن من المدارس سوى مدرسة صغيرة تأسست بجهود هذا الآخون، وعدد طلابها عشرون أو ثلاثون. أما بالنسبة للتجار المسلمين فكان هناك اثنان أو ثلاثة، ومع ذلك فلم تكن لهم بيوت أو محلات تجارية. وكان هناك مسجد صغير. استيقظت مبكراً واستأجرت عربة وزرت الكتاتيب والمدارس. وزرت كل المساجد، فوجدت مدارسها ومساجدها جميلة ومرتبة، وقد زودت المساجد بالكهرباء. وما أجمل المسجد ذا المئذنتين الذي أقيم في أهم مكان في وسط المدينة.

وفي كل مدرسة يوجد ما يقرب من ثلاثمائة طالب. وفي زيارتي هذه لم تكن الدروس قد بدأت بعد، والطلاب يستعدون لذلك.

تحدثت مع بعض المعلمين والمدرسين. وسألت عن المناهج الدراسية والمواد المقررة. وأطلعت على قوائمها، فوجدت العلوم الدينية والعربية والتفسير والحديث والفلسفة الدينية، كما وجدت الحساب والجبر والتاريخ العام وعلم الأحياء والجغرافية والهندسة والفلسفة والكيمياء والاقتصاد، وعلمت أن معلميها أكفاء. وخلال إقامتي فيها قابلت أكثر هؤلاء المعلمين.

والشيء الأهم الذي يستحق التقدير هو الناحية الإدارية لهذه المدارس؛ فهي تدار بهمة أهل المروءة فقط، والمتكفلون بمصاريفها لا يتجاوز عددهم أصابع اليد. أليس من واجبنا أن نقدر لأهل المروءة الذين بذلوا بسخاء لتكون كلمة الله هي العليا؟ فهم إيمانا بالواجب تجاه دينهم قد رضيت نفوسهم أن يبذلوا آلاف الروبلات في كل عام. تجولت حتى المساء. وزرت بعض الأحباب. قابلت سليم كيراي ميرزا ناظر المدرسة العليا، وصوفية خانم مديرة مدرسة البنات، وصبري أفندي حسني إمام ومدرس المسجد الثالث، وصدر الدين نذيري وهو من التجار المرموقين وكثيرين غيرهم وحصلت على بعض المعلومات. وفي المساء عدت إلى المضافة، وأمضيت بعض الوقت بقراءة الصحف.

وفي صباح اليوم التالي عاودت التجول. لقد صارت أوفا بحق مدينة إسلامية. و حيثما رأيت مبنى جميل الشكل وجدته مملوكا لمسلم، وكلما رأيت متاجر كبيرة سألت عن أصحابها لوجدتهم مسلمين. إن سوق أوفا صار سوقا إسلامية. وجانب المدارس الكبيرة توجد مدارس ابتدائية كثيرة، ومدرستان كبيرتان للإناث، ومدرسة صناعية عظيمة. وخلاصة الأمر فإن مدينة أوفا بدأت في الأعوام الأخيرة تشهد تطوراً شهرياً لا بل يومياً.

ومع ذلك فعلينا ألا ننسى بأن تلك المدارس كلها بنيت بهمة وعزم المسلمين فقط كما أن مصاريفها يتكفلها أصحاب الحمية وأهل الإيمان.

لا نعرف بالضبط عدد المسلمين في مدينة أوفا لكن عددهم في ولاية أوفا يبلغ حوالي مليون ومائتي ألف نسمة.

وفي الأقضية والنواحي والقرى التابعة لأوفا عدد كبير من المدارس والكتاتيب، وهناك أماكن كثيرة يزيد عدد طلابها عن ثلاثمائة.

إنني خلال الثلاثة أيام من وجودي في أوفا هذه المرة رأيت أشياء كثيرة. ومن خلال تفكيري، كدت أجزم بأن هذه المدينة ستكون المرجع والسند الوحيد لمسلمي روسيا في المستقبل. و لو أن دعم أهل الحمية والهمة والعزم من مسلمي هذه المدينة طالت المحكمة الشرعية التي هي مرجع مسلمي روسيا لكان مستقبل أوفا أكثر إشراقا وأعظم أملا. إلا أنه من المؤسف بأن هذه المحكمة تحولت إلى جسد بلا روح.

محكمة أوربنورغ الشرعية

سأقدم إليكم بعض المعلومات عن هذه المحكمة. فكما ذكرت في السطور السابقة فإن هذه المحكمة هي المرجع الديني لأكثر من خمسة ملايين مسلم، ولاشك أن أهميتها ستكون على هذه الدرجة. وإن هذه المعلومات التي سأقدمها تخص الجانب المعنوي من حياة خمسة ملايين مسلم.

إن هذه المحكمة هي محكمة شرعية تأسست عام ١٧٨٧م في عهد كاترين الثانية، و ذلك لأنها كانت تطمع بعد الاستيلاء على القرم أن تطال يدها إسطنبول. و توجب على ذلك أن تلجأ إلى الوسيلة الوحيدة لكي تضمن الاستقرار في الداخل، وهي عمل شئ يطمئن له مسلمو الداخل.

فهذه المحكمة وإن كانت دسيسة سياسية وبنيت على فكرة عقيمة، فإنها قدمت فيما بعد خدمات للإسلام.

وبالرغم من أن الصلاحيات المعطاة للمحكمة في ذلك الوقت محددة، فإنها صارت مرجعاً للمسلمين، ثم تطورت حتى صارت مركزاً يملك قوة جمع الشمل. فالمسلمون الذين تفرقوا بعد سقوط الخانيات وصاروا يبحثون عن مأوى يلجئون إليه، عندما وجدوا المحكمة الشرعية تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ. ولم يقتصر الأمر على التتار بل صار القازاق إلى جانبهم في عضوية هذه المحكمة.

افتتحت المحكمة المذكورة بتكاليف قليلة وعين أعضاء هيئتها الإدارية من قبل الحكومة، لأن هدف كاترين في ذلك الوقت هو إحداث أمر شكلي تستطيع به التأثير على المسلمين لاستتباب الأمن الداخلي.

ومع كل هذا فإن المسلمين الذين تربطهم رابطة الدين، كانوا يلجئون إلى هذه المحكمة لحل أي خلاف يقع بينهم أو لتصدر فتواها حيال أي طلب حكومي منهم.

وفي تلك الفترة لم تكن هناك طرق ميسرة أو سفن أو وسائط نقل مريحة و مع ذلك فإن المسلمين في طول البلاد و عرضها لم يتكاسلوا في السير شهوراً للحصول على سطر من فتوى يحتاجون إليها، واعتبروا فتاوى هذه المحكمة فرمانا صادراً من أعلى مقام. كما إن التجار التتار الذين انتشروا في أنحاء الأرض،كانوا مرتبطين بتلك المحكمة بعلاقة دينية. هذه المحكمة الصغيرة تطورت على مر الأيام حتى أصبحت قوة معنوية أكثر مما توقع الناس منها وكادت تكون بمثابة وزارة.

ومما يؤسف له أنه خلال المائة عام من عمر هذه المحكمة الشرعية لم يهيئ لها دائما رجال عقلاء يقومون على خدمة مصالح المسلمين كما ينبغي.

إن هيئة المحكمة تتبع أسلوب الشورى، وتتشكل من رئيس وثلاثة أعضاء على أن ينتخبوا من قبل مسلمي أورنبورغ وقازان. إلا أنه لا مسلمو أورنبورغ تمكنوا من انتخاب المفتي (الرئيس) و لا مسلمو قازان استطاعوا انتخاب القضاة (الأعضاء) وعلى هذا فإن المحكمة عاشت هذه المدة وهي جسد نصف حي، وكان لجهل الروس في أهميتها دور في بقائها إلى يومنا هذا وهي تنطق بكلمة التوحيد. وبفضل ذلك استمرت معنوية المسلمين عالية بشكل خارق للعادة. وإذا أردنا التفكير في مركز يجمع عموم المسلمين في روسيا فها هي المحكمة.

وقبل ستين عاماً كان كل قازاق البادية يتبعون المحكمة، فكانت ترعى شؤون أكثر من١٢ مليون مسلم. ولا أبالغ إن قلت بأنها كانت في مستوى حكومة كبيرة. وبعد ذلك حدث الذي حدث، فإهمال رئيس المحكمة وأعضائها من جهة وجهل القازاق من جهة أخرى، يضاف إليها الدسائس الملعونة من قبل الحكومة أدت في عام ١٨٦٤م إلى اتهام سبعة ملايين مسلم بالكفر والضلال وأنهم ليسوا مسلمين وبالتالي لا تطبق عليهم الأحكام الشرعية، فأتيحت الفرصة لكثير من الفسقة في أن يهاجموا الفقه الإسلامي، وأخيرا وفقوا في فصل القازاق المساكين عن تلك المحكمة. والآن تحاول الحكومة إلغاء المحكمة بهدف تشتيت جمع المسلمين.

ومنذ خمسين عاماً يتبع رجال الحكومة هذه السياسة في الداخل.ومنذ أربعين عاما تعين الحكومة لرئاسة المحكمة من لا يعرف أن يقرأ أو يكتب شيئاً بالتركية. و الرئيس الحالي للمحكمة المفتي محمد يار سلطانونف و المدافع عن أراء المحكمة. فإنه لا يعرف ما الدين، ولا الشريعة، ولا القراءة ولا الكتابة، ومع ذلك فهو المفتي وهو رئيس المحكمة الشرعية، يجلس في مقام الإفتاء منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً.

وفي فترة من الفترات كنت أحد أعضاء هذه المحكمة المنتخبين، وفي فترة غياب سلطانوف شغلت منصب رئاستها. وبعد أن أطلعت على خطط الحكومة ودسائسها الخفية قدمت استقالتي، وسافرت إلى اسطنبول، وطبعت كتاباً بعنوان «نجم جولبان» بصورة غير رسمية، طبعته في إحدى الليالي وبمساعدة أهل الهمة والحمية، بمطبعة محمود بك، أيام الحكم الاستبدادي، حيث تتعرض المطابع لغارات الشرطة السرية في الليل والنهار، وتمكنت من تهريب نسخ إلى أوديسا ووزعتها بين مسلمي روسيا كلها. لقد ذكرت في هذا الكتاب المعلومات الخاصة بالنظام الداخلي للمحكمة، و لا أجد حاجة للدخول في التفاصيل، ولكني أريد أن أكرر فأقول: إن محكمة أوربنورغ الشرعية بحاجة إلى إصلاحات جذرية من أجل ضمان مستقبل المسلمين في روسيا. وينبغي من أجل تحقيق الإصلاحات اللازمة أن يتزعم حركة الإصلاح رجال من ذوي الهمة، تشبعوا بروح الأمة، وتثقفوا ثقافة عالية، وتحسسوا رأي المجتمع، يدعمهم شعب يحب البذل والعطاء.

وخلال إقامتي في أوفا هذه المرة التقيت بالقاضي عناية الله وهو عضو في المحكمة الشرعية منذ عشرين عاما وأجريت معه محادثات مطولة، وعرفت منه أن الحكومة لازالت تروج لرأيها في المحكمة المذكورة كعهدنا بها سابقاً. ومن الطبيعي أن تعمل الحكومة على تحقيق مصالحها، ولكن على الشعب ألا يتهاون في حماية حقوقه المشروعة.

الذوات (ميرزا)

الذوات هنا قسمان؛ قسم درس في المعاهد الروسية العليا وخاصة في المعاهد العسكرية، وشغلوا في بعض الفترات مناصب كبيرة، وصارت

لهم أملاكاً واسعة بحكم تلك المناصب في ولايتي أوفا و واتكي. ومن أشهرهم وأكبرهم آل توكيلي (توكيلي زادة) وشهرتهم الحالية "توكيلوف". ويروي جو كمال الدين أن هؤلاء هم من نسل خانات كرجوم الذين حكموا سيبيريا، وقد لجئوا إلى الباشتورت في الأورال هرباً من تسلط اليارماك.

بقى من هذه الأسرة اليوم رجل مسلم واحد. واسمه قوطلوغ محمد ميرزا توكيلوف. وهو الآن نائب في الدوما (مجلس النواب) ببترسبورغ. وقد التقيت بهذا الرجل عدة مرات. إنه إنسان جميل وطيب لكنه لا يعرف أنساب آبائه كما إنه وراء خراب بلاده ولم يستطع حماية ملكه. أما أخوه فقد افتتن بامرأة روسية كانت السبب في ارتداده عن الدين.

وال توكيلوف كانوا قبل ثلاثين عاما من أكبر الأسر الحاكمة في روسيا ومكانتهم مرموقة ليس بين المسلمين بل بين الروس والحكومة أيضاً. ووالد قوطلوغ محمد ميرزا باطور بجهانكير خان أحد خانات الجيش الذهبي. وفيما عدا ذلك هناك بعض الذوات من أبناء كانتون في أوفا (كانتون: هم رؤساء قبائل الباشقورت في ولايات أوفا وبيرمة وأرنبورغ كان لهم قبل خمسين عاماً نوعاً من الحكم الذاتي، ويوجد بعض الذوات من أبناء الكانتونات في بعض هذه الولايات ولكن لم تعد لهم أية أهمية) وكل هؤلاء درسوا وتخرجوا من معاهد عليا. وهناك أصهار لآل توكيلوف من نسل جهانكير خان. وأغلب الذين أتموا دراسات عليا بين مسلمي أوفا هم من هذه الأسرة.

والقسم الآخر يقال لهم ذوات كارجالي، وكلهم من الذين درسوا في الأعوام الأخيرة في المراحل الابتدائية والثانوية باللغة الروسية. لقد صاروا من الذوات بمجرد تعلمهم اللغة الروسية، و يقال إنهم كانوا يعملون في المحاكم قانعين براتب عشرة روبلات أو عشرين على الأكثر، ويشعرون

بالفخر والاعتزاز لكونهم من الذوات. ولكن في الأعوام الخمسة الأخيرة صرنا نرى منهم متخرجين من المعاهد العليا.

التجارة

قبل حوالي عشرين عاما لم يكن في أوفا تجار كبار من الروس ومن المسلمين على حد سواء. نعم هناك طبقة من أبناء الأسر العريقة التي لها من الأملاك والعقارات الشيء الكثير، ولكنهم لم يعملوا في التجارة. وكانت شوارع المدينة سيئة وموحلة بشكل عام. وفي بعض المواسم كان من المتعذر التنقل بين البيوت والأحياء، ومن اضطر إلى ذلك لا يقدر عليه إلا بشق الأنفس.

ومنذ أقل من عشرين عاماً أي عندما مرت خطوط حديد سيبيريا في المدينة، توسع مجال التجارة. وتعتبر أوفا حالياً من أكثر المدن الروسية تطوراً وعمراناً. كما تطورت التجارة كثيراً حيث تجد من التجار المسلمين من يعقد الصفقات بالملايين، وكثير منهم مستوردون ومصدرون.وبالرغم من أن أكثر سكان المدينة من الروس فإن مكانة المسلمين كبيرة ومستقبلهم مشرق. إن المحاصيل الزراعية في ولاية أوفا وفيرة وتجارة الحبوب من أعظم التجارات،كما أن تجارة الأخشاب شهدت تطوراً كبيراً. والثروة الحيوانية ليست بالقليلة. إن الحكومة الروسية تجهز وحدات الفرسان العسكرية بأعداد من الدواب تشتريها من ولاية اوفا. وتنتج الولاية كميات كبيرة من السمن والعسل السيبيري. وعسل أوفا ذو شهرة كبيرة في روسيا ويتميز برائحته الذكية.

ومادامت السلع التجارية في ولاية أوفا متوفرة بكميات هائلة، والطرق ـ الحديدية والنهرية والزراعية ـ صالحة للاستخدام فإن التجارة ستشهد

تقدماً كل يوم. وإذا بدأ التعدين في جبال الأورال فلا شك بأننا سنرى منهم أصحاب مئات الملايين. وبعد إقامة ثلاثة أيام في أوفا غادرتها إلى مدينة جيلابي وهي بداية خط سيبيريا الكبير، والمسافة بينهما (٤٦٠) كيلومتر.

من أوفا إلى جيلابي

حديث مع فرنسي حول المسألة الشرقية

غادرت أوفا إلى محطة القطار وحجزت لنفسي مقعدا في الدرجة الثانية. وبعد أن وضعت أمتعتي في مكانها رجوت الرجل الذي كان أمامي مراقبة حاجياتي حتى أذهب إلى حاجة لي وأعود، فلم يرد بشيء بل هز رأسه موافقا. ذهبت وقضيت حاجتي ثم عدت، فتحرك القطار. قلت لرفيقي بالروسية: «شكرا» فأفهمني بأنه لا يعرف الروسية. فقلت: «غراند ميرسي» وإذا به مواطن فرنسي. فقال مرحبا: «عفواً». وأضاف يسأل من أنا ومن أين وإلى أين وجهتي؟ فكان ردي بأنني لا أعرف الفرنسية. فلم يتبرم، بل سأل عما إذا كنت تتاريا؟ فكان ردي عليه بالإيجاب بشيء من الفرنسية وبشيء من الروسية.

أخرج صاحبنا من جيبه دفترا صغيراً. إنه ترجمة باللغتين الفرنسية والروسية. وبكلمتين مني بالفرنسية وبضع كلمات منه بالروسية وباستعانته بدفتر الترجمة جرى بيننا هذا الحوار:

قال متسائلاً: ما سبب كثرة المعوزين بين التتار؟ الشعب الأسير سيكون فقيراً وذليلاً. لأنه لا يقدر أن يتصرف بما يملك.

التتار سلالة تركية. والأتراك يهتمون بالنظافة كثيراً. وأظن أن قومك التتار لا يهتمون بالنظافة.

الأتراك العثمانيون يهتمون بالنظافة لأن النظافة من أركان الإسلام، لكننا هنا منذ أن تسلط علينا النصارى، صرنا قذرين مثلهم.

من أين تبدأ الأورال؟

هذه هي الأورال، الأورال تلي اوفا.

إذن فلن نستطيع مشاهدة الأورال جيدا لأن الوقت ليل. أين تكون نهايتها؟ هل يمكننا مشاهدة جزء منها صباحاً؟

النهاية تكون عند مياس وفي الصباح سنكون في أجمل مكان في الأورال.

كنا نظن الأتراك إحدى وسبعين أمة. يبدو عليهم أنهم سيكونون قريباً لقمة سائغة يتقاسمها الأوربيون حتى أن الكثيرين يقولون بأنه لن ترتاح الإنسانية حتى تنمحي الدولة العثمانية من الوجود. هذه الأفكار شغلت عالم الصحافة ردحاً طويلاً. إلا أننا الآن نرى الشباب العثماني على قلب رجل واحد. قضوا على الحكم الاستبدادي دون أن يريقوا قطرة دم واحدة، ولعبوا دورا لا يمكن تصوره. هنيئاً لهم ! إنها ثورة فريدة!»

«الأتراك وان استطاعوا إزاحة عبد الحميد فلن يستطيعوا إزاحة المسألة الشرقية. إن أشد ما يقلق الحكومة العثمانية هو النتيجة التي ستؤول إليها المسألة الشرقية».

«لقد حان وقت دفن المسالة الشرقية».

«لا يمكن إنهاء المسألة الشرقية إلا بعد إراقة كثير من الدماء».

«لماذا لم تحدث تغيرات في روسيا؟»».

«حدث تغير في روسيا، تشكل المجلس (الدوما) ووضع الدستور».

«لا لم يحدث شيء من هذا». صاحبنا يريد مزيدا من الحديث، والحديث يحتاج لتقلب صفحات القاموس، وهذا يأخذ كثيراً من الوقت. والقاطرات عندما تتوقف في المحطات الروسية ١٠-١٢-١٥ دقيقة يدق الناقوس

ثلاث مرات ثم يتبعها القطار بصافرتين. وعندما سمع رفيقنا الفرنسي ذلك ضحك كثيراً.

قلت: «إن الروس عندنا يحتاطون للأمر، كيلا يبقى أحد على الأرض». واستمر صاحبنا في الضحك قائلا:«إن أصحابكم الروس ينامون باستمرار وإنهم يوقظونهم بهذا الصخب من النواقيس و الصافرات».

وصادف في تلك اللحظة أن أحد الركاب تأخر في المحطة، فكاد الفرنسي يسقط مغشياً عليه من الضحك.

وهكذا استطاع فرنسي وتتاري لا يعرفان لغة بعضهما أن يقلبا الحوار إلى تسلية ببضع كلمات يعرفها هذا الفرنسي من اللغة الروسية. ولم يكن أحد غيرنا في المقصورة، فلما خيم الليل نام كل واحد منا في مكانه.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي فتح صاحبنا عينيه وقال لي مبتسما: «لقد دق الناقوس ثلاث مرات فقم».

القطار على وشك الدخول في محطة زالاتاوست، وسيتوقف في هذه المحطة ساعة كاملة. نزلنا مع الفرنسي وبعد أن شربنا الشاي عدنا إلى مكاننا، وإذا براكب جديد، إنه شاب ولكن يبدوا عليه أنه ليس روسيا. فلما رأى الضيف الجديد حديثنا مع الفرنسي تطوع أن يترجم لنا بلغة ثالثة. عرفنا أنه نمساوي يجيد اللغة الروسية. وكنت قد ذكرت سابقاً أن رفيقنا القديم يعرف أكثر اللغات الأوربية.

وبدأنا نتكلم بثلاث لغات. قال الفرنسي:

«هل هناك أعداد كبيرة من التتار في المدارس الروسية؟».

«واحد في المليون».

«إنه لأمر عجيب حقا».

«لا نريد أن نكون روساً ولن نكون. إن مناهج الروس لا تهدف تنشئة الرجال بل زيادة عدد الأرثودكس».

«هل لكم مدارس كثيرة؟».

«مدارسنا الإبتدائية كثيرة، وليس بعدها شيء».

«كم عدد الذين يقرءون ويكتبون منكم؟».

«خمسون في المائة.. ستون؟».

«عظيم، إنكم متقدمون على الروس كثيراً. إذن فلماذا لا تؤسسون مدارس ثانوية وعليا؟».

«لن تسمح الحكومة بذلك. ومع هذا فقد افتتحت في السنوات الأخيرة عدة مدارس يمكنها سد الحاجة».

«كم عدد نوابكم في مجلس الدوما؟».

«ثمانية».

«إنه لأمر عجيب حقا! مليونان من الناس. ذلك ظلم فاضح».

وهنا اغتنمت الفرصة فقلت لصاحبنا: «إذا وجدت القوة فلا تسل عن الحق. إن شعبكم الفرنسي يعاملون مسلمي الجزائر كالبهائم. يسبون دينهم، ويدوسون حقوقهم الإنسانية بالأقدام. فإذا استسيغ مثل هذا الظلم لشعب متحضر مثل فرنسا، فلا يجوز لنا أن نلوم الروس على أفعالهم».

وبدأ الامتعاض على وجه صاحبنا، فاستأنفت قائلاً: «ما يسميه الأوربيون بالحضارة هو مجرد قناع، أو وسيلة للظلم فلا راحة للضعفاء مادام الحكم للقوة». وفي هذه الأثناء وصل القطار إلى جيلابي، فجمعت أمتعتي وودعت أصحابي ونزلت من القطار.

جيلابي

جيلابي مدينة صغيرة. لكنها بداية خط قطار سيبيريا، ونقطة التقاء الخط الحديدي القادم من موسكو بالخط الحديدي القادم من بترسبورغ، لذلك

فهي في تطور يومي مستمر. ولاشك بأنها ستكون مدينة كبرى في المستقبل القريب.

ومهما قل عدد المسلمين في الوقت الحاضر فلا بد أن يزداد عددهم فيما بعد، وهم يتزايدون فعلا.

المدارس

وللمسلمين في جيلابي مسجد ومدرسة جميلة ومنتظمة. والمدرسة حالياً في المرحلة المتوسطة، ومن الطبيعي أن تفتتح فيها صفوف أعلى كلما زاد عدد الطلاب عاما بعد عام. وإن مصاريف المدرسة يتكفلها الأخوان ذاكر وإبراهيم أفندي.

المكتبات

توجد مكتبة جميلة ملحقة بالمدرسة فيها عدد كبير من الكتب القيمة، وصحف عربية وتركية وروسية وفرنسية. إن مؤسسي هذه المكتبة مسلمون ولكن أبوابها مفتوحة للروس أيضا. وتظل أبواب المكتبة مفتوحة طيلة ساعات النهار وحتى الساعة العاشرة ليلا. ويمضي شباب جيلابي أوقات فراغهم ليلاً في هذه المكتبة. والحق أقول إن وجود مثل هذه المؤسسات في مثل هذه المدينة الصغيرة أمر يستحق التقدير.

التجارة

ورغم أن هذه المدينة صغيرة فإن التجارة فيها نشطة. وبعض تجارها من المسلمين وفيهم من يملك رأس مال كبير.

وأكثر السلع التجارية هنا هي من محاصيل الأورال. ففيها كميات وافرة من الحبوب والمعادن. كما إن فيها ورش ومصانع ضخمة. ويتوقع الناس أن تكون جيلابي مركزا تجاريا هاماً في المستقبل.

وبعد إقامة ليلة واحدة في جيلابي، ركبت قطار سيبيريا في طريقي إلى قيزيل يار (بتروباولوفسكي) وأومسكي وتومسكي. والمسافة إليها (١٧٠٠) كم تقريبا.

قدمت إلى محطة جيلابي التي هي بداية خط سيبيريا الكبير. ولما كانت هذه المحطة نقطة انتقال الركاب من قطار إلى آخر في ثلاثة اتجاهات فإن عدد الركاب لا حصر له. وهذه المدينة صغيرة كما قلنا وإن كان فيها شيء يلفت النظر فذاك القطار الذي يحمل المهجرين إلى سيبيريا. ولا يستطيع المرء إلا أن يتوقف عند هذه النقطة ليقول شيئا.

الواقع إن العربات التي تحمل هؤلاء المهجرين تختلف عن عربات الركاب الآخرين. إنه يمكنك أن تشاهد الاف المهجرين ومن النادر أن تجد في سيبيريا مكانا يخلو منهم، إلا أن جيلابي محطة رئيسية فلذلك تجد العربات التي تحملهم تنتظر أسابيع قبل أن يجئ دورها في السفر. وفي هذه الأجواء شديدة البرودة في فصل الشتاء تشاهد أكثر من أربعين شخصاً قد حشروا في عربة واحدة، والقاذورات قد وصلت إلى الأذقان. هذه الأوضاع يمكن أن تسبب في أنواع لا تحصى من الأوبئة والأمراض.

حادثت مهاجراً قادماً من ولاية بارسلاف، وسألته عن أحواله. قال المهاجر: «لقد تقرر تهجير مائتين وخمسين ألف إنسان إلى ولاية تابولسكي في سيبريا هذا العام. ونحن الآن ثلاثة آلاف أسرة. مات منا أكثر من مائتين خلال شهر ونحن في الطريق إلى جيلابي. والمرضى بيننا كثيرون».

«هل أنتم مرتاحون بهذا التهجير؟».

قال بلسان متهدج: «وهل يرتاح الإنسان لتركه بلده؟ هل يترك الإنسان وطنه راضيا؟ ولكن ما العمل، لقد أجبرتنا الحكومة. إننا ذاهبون ولا نعرف إلى أين. والواقع إن نصف المهجرين يعودون إلى مواطنهم الأصلية. أنظر! ذاك القطار مليء بالعائدين. «وأشار إلى قطار واقف في المحطة»

قلت: «إن تابولسك هي بلادنا، وهي جميلة جدا، وأنا أهلي من هناك فسترتاحون حينما تصلون إليها. هل بينكم أغنياء؟».

«الأغنياء يمكنهم تحسين أحوالهم. أما فقراؤنا فهم كثر». وبينما نحن في هذا الحديث إذ بالناقوس يدق. فاضطررت لترك المهاجر وصعدت إلى العربة ووجدت لي مكانا. كان عدد الركاب كبيراً. لقد كنا أربعة في عربة واحدة.

تحرك القطار. كل الركاب من الروس. وواضح من كلامهم أنهم تجار، والتجار الروس متعصبون دائما وأكثرهم من الجهلة، لذلك كان من الأنسب السكوت وشغل الوقت بالقراءة ريثما أصل إلى قيزيل يار.

سيبيريا

في البداية أريد هنا أن أقدم بعض المعلومات عن سيبيريا. إن كثيراً من الجغرافيين لا يعرف عن تلك البلاد إلا بأنها مناطق باردة جدا. ويضيفون إليها معلومة أخرى، وهي أن فيها الغابات والدببة وبعض حيوانات البلاد الباردة. إن معلوماتهم تنتهي عند هذا الحد. ما هي سيبيريا؟ وموطن مَن مِن الناس، وأي شئ فيها؟ من النادر أن تجد منهم من يهتم بهذه الأمور. و سيبيريا في الأصل هي تاتارستان، وطن الأقوام الطورانية، وكانت قديماً عبارة عن خانيات يحكمها أمراء. وكانت العاصمة هي مدينة ايسكير

الواقعة في نقطة التقاء نهر ايرتيش بنهر توبول. وايسكير اليوم أطلال تقبع على تلة تبعد عن مدينة توبولسك حوالي اثنى عشر كيلومترا.

دخول الإسلام في سيبيريا

قبل الاحتلال الروسي كانت سيبيريا محط القوافل التجارية من بخارى وخيوة وأوكرانجة وكذلك من إيران. ومنذ ذلك الوقت المبكر صارت لأتراك آسيا الوسطى مكانة تجارية في سيبيريا، فكانوا يعقدون صفقات تجارية كبيرة تحت حماية خانات سيبيريا.

وفي تلك الفترة وجد خانات سيبيريا في هؤلاء التجار المسلمين الصدق والأمانة في المعاملة فولدت هذه الحالة ميلاً نحو الإسلام فجاء إلى توبولسك بناء على دعوة كوجام خان في عام ١٠٦٨ على ما أظن اثنان من المسلمين أحدهما من العلماء والآخر من المشايخ أرسلهما عبد الله خان المعروف في بخاري ببد خان. وسلالة كل من العالم والشيخ معروفة حاليا في هذه البلاد. وهناك قرية اسمها قرية المشايخ. فبهمة ونشاط هذه الرجلين بدأ الإسلام ينتشر في سيبيريا.

وقد أعطى المؤرخ مولر معلومات واسعة في هذا الباب، كما قدم يادرينسوف كثيراً من المعلومات. ويفهم من كتب المؤرخين الأجانب ومن الحكايات التي يتناولها الشعب المسلم في سيبيريا أنه ما من شك بأن الإسلام دخل إلى هذه البلاد قبل الاحتلال الروسي من جهة بخارى وخيوة. واليوم تجد عائلات كثيرة تحمل اسم البخاري في توبولسك وتومسك ويزيد عدد هؤلاء عن ألفين أو ثلاثة آلاف، الأمر الذي يؤيد ما ذهبنا إليه.

ولما تعرضت سيبيريا للاحتلال الروسي عام ١٥٨٢، تم تهجير أعداد كبيرة من مسلمي روسيا الداخلية و أورال وأرونبورغ إلى سيبيريا. وجاء إليها كثير من العلماء المتطوعين، الأمر الذي أدى إلى زيادة مضطردة في أعداد المسلمين، وتشرف الناس بهذا الدين، ليس بالسيف ولا بالمدفع بل دخلوا طواعية، حباً بهذا الدين العظيم. واليوم يقدر عدد المسلمين في ولاية توبولسك وحدها بحوالي مائة ألف. وكان التتار وهم أهل سيبيريا الأصليين يقطنون قبل الاحتلال الروسي في الضفة اليمنى من نهر ايرتيش، يقتاتون بما يصطادونه من السمك في أيام الصيف ويصطادون بعض الحيوانات المتوحشة مثل الذئاب والثعالب وبعض الحيوانات ذات الفراء الثمينة فيبيعون جلودها في بخارى لتجار آسيا الوسطى، ولم يكونوا يعرفون في بلدهم سيبيريا أية محاصيل.

أما اليوم فإن سيبيريا تعتبر قارة داخلة ضمن أراضي روسيا الواسعة. وتنقسم إلى قسمين غربي وشرقي. فالقسم الغربي من سيبيريا يبدأ من مدينة قورغان التي سنتحدث عنها الآن. إن المناطق الممتدة إلى جنوب مدينة قورغان وحتى حدود منشوريا تعرف بسيبيريا. وأهم مدنها توبولسك وأومسك وايركوتسك. وعندما احتل الروس مدينة توبولسك لأول مرة، وجدوا أن عدد سكان سيبيريا قليل فوضعوا خطط لاستيطانها وجعلها متمدنة، فجعلوها منفى للسجناء. فمن اتهم بجريمة أو مخالفة في روسيا الداخلية، بادروا بنفيه إلى سيبيريا، فأصبحت بذلك منطقة للقهر، وإن العالم كله يعرف سيبيريا بأنها جحيم روسيا، ولا يخطر ببال أحد من الناس تصور الرخاء والخصوبة والتجارة في أي من أنحاء سيبيريا.

وبعد أن أقام المنفيون من روسيا عدة سنوات وبدءوا يستفيدون، لم يفكر أكثرهم بصرف النظر عن العودة إلى أوطانهم فحسب، بل دعوا

إخوانهم في روسيا الداخلية كي يلتحقوا بهم، واتخذوا من سيبيريا وطنا يكتسبون فيه لقمة المستقبل فيها.

قورغان مدينة صغيرة على خط سيبيريا الكبير، ومنها تبدأ حدود سيبيريا. وتكاد لا تجد فيها مسلما. تذكرت هذا عندما توقف القطار الذي ركبنا فيه من جيلابنسكي في محطة قورغان.

ستكون رحلتي عبر خط سيبيريا. أردت الحصول على بعض المعلومات عن هذا الخط الكبير فسألت الفتاة بائعة الصحف في المقصف عن كتاب فيه معلومات حول إنشاء خط سيبيريا. فأخرجت لي كتابا فنقدتها خمسين «كابكا» ثمناً للكتاب. (هناك أكشاك خاصة في المحطات تبيع الكتب والصحف في سائر أنحاء روسيا)

وبعد مسيرة ثماني عشرة ساعة وصلت إلى قيزيل يار. وكان عدد كبير من أصحابي في انتظاري بالمحطة. وبعد التحية والسلام نزلت ضيفاً على صديقنا السيد مراديف. ورافقني كثير منهم من المحطة حتى وصلنا إلى المنزل. البلد كأنه بلدي والعلماء والأهالي هم إخواني.

قيزيل يار

ليست مدينة كبيرة، الأغلبية العظمى من سكانها البالغ عددهم ثلاثون ألفا هم مسلمون فهي تكاد تكون مدينة إسلامية.

وقيزيل يار مدينة بنيت من عهد قريب وسكانها ليسوا أصليين بل تجمعوا من كافة أنحاء روسيا، قدموا من قازان وقاسم خان وبنزة وتامبوف وأوفا وسائر الولايات الأخرى، وكونوا مدينة قيزيل يار. وكان القازاق الرحل قد استوطنوا في هذه المدينة مع من استوطن. وكانت لغتهم في الأساس واحدة مع اختلاف في اللهجات. المسلمون يتجمعون في ستة

أحياء ولهم ستة مساجد وست مدارس، و لكن الانتظام في الدراسة لم يتحقق حتى الآن إلا في حيين أو ثلاثة. وقد تبين أن أغنياءنا بذلوا جهودا و أموالاً لإنشاء المدارس إلا أنهم لم يبذلوا أي جهد لإصلاح العلماء. نعم هناك مدارس تطبق طريقة الصوت لكن التعليم فيها ليس بدرجة تفي بالغرض. فالتعليم موجود ولكن لا يجوز أن تبقى مدينة مثل قيزيل يار على تلك الحالة.

لقد أنشأوا مبان ضخمة لهذه المدارس، ووقفوا لها أوقافا ليست بالقليلة ؛ غير أنهم لا يقدرون على وضع طرق سليمة للتدريس. إن أصحاب الخير يفكرون في كيفية صرف أموالهم وفي نفس الوقت يظلون أسرى الأفكار العقيمة التي عند المشايخ الجهلة.

وقيزيل يار من المراكز التجارية في سيبيريا. ومع أن القسم الأعظم من التجارة والثروة بيد المسلمين، إلا أن الخطأ الفادح عندهم هو أنهم يحرمون هذه المدارس على الطلاب، وهي لم تنشئ إلا بهدف الحفاظ على الدين.

وكما هو الحال في كافة أنحاء روسيا فإن المسؤولية الكبرى تقع على عاتق المشايخ. فالمشايخ لا يفسحون المجال لتعليم وتربية الأطفال بالطريقة التي تناسب حال الأمة ووضعها، بل يستغلون جهل الناس ويكسبون دعم بعض الأغنياء ويخدعون أكثر الرجال تحت ستار الدين. وبالرغم من أن أبسط الأفراد في الأمة يعرف للعلم قدره وشأنه فإن المشايخ لا يزالون يحاولون الخداع. كنت كلما مررت بهذه المدينة أحرض ذوي العقول والفهم على خدمة العلم والمعرفة وقد اتفقوا معي في كثير من الأحيان ومع هذا فإننا لا نرى نجاحا يمكننا أن نطمئن إليه.

وأريد أن أضيف هنا بأن الحكومة إلى جانب المشايخ وضعت العراقيل الكثيرة و لا تزال أمام انتشار العلم والمعرفة بين مسلمي روسيا. فالشعب

يستغله الجهلة من المشايخ، وأصحاب المصلحة من المشايخ أداة بيد الحكومة والشعب لا يدري عن أحابيل المشايخ شيئا كما يجهل المشايخ ما تدبره الحكومة.

ومع ذلك فإنه توجد ميزة عند مسلمي روسيا نحمد الله عليها، ألا وهي أن الرأي العام ليس حكراً على أحد. فكل إنسان يفكر بالطريقة التي تعجبه، ويعبر عن رأيه بالكيفية التي يريدها. إذ يمكن لقروي أو أي فرد من أبناء الشعب أن يقول رأيه بين أقرانه بحرية، ليس في الشؤون الداخلية بل يستطيع أن يدلي بدلوه في المسألة الشرقية وحتى في مسألة الصليب، وترى الأمي منهم يعبر عن فكره بأحسن ما يكون التعبير. فهذه هي الجوانب الأساسية والمشرقة لدى مسلمي روسيا. وإذا وجدت فيهم هذه الخصال فلا بد أن يأتي يوم يميزون فيه بين الحسن والقبيح، والظلم والعدل، ولا يبقى أي شك في إمكانية التمييز بين العلم والجهل، وإن القدرة على التفكير لدى المسلمين تتطور بشكل ممتاز.

وستلقى هذه النصائح آذانا صاغية لدى أهل قيزيل يار يوماً ما بإذن الله، وسيتكاتفون فيما بينهم الأصدقاء و الأعداء و حتى المعلمين و المدرسين سيستفيدون منها.

والرجل المعتبر والمطاع في هذه البلاد هو محمد جان حاجي دولتكيلديف. إنه إنسان متدين ونشيط، وأملنا به ألا يستمع لبعض ضعاف النفوس، ويسعى إلى أحياء الأوقاف التي أنشأها، ويعمل على إزالة الأحقاد والضغائن القديمة. و لا شئ أخطر ولا أهلك على المسلمين من الخلافات و العداوات بينهم ومثل هذه الأمور لا تخفى على أمثال هذا الرجل الفاضل.

وعدد أهل الهمة والنشاط بين تجار قيزيل يار ليس بالقليل. فإذا تعاون حمزة حاجي و عبد اللطيف أفندي وعارف أفندي وغيرهم من أصحاب الهمة والحمية في هذا البلد فلا شك أن التوفيق سيكون حليفهم دائما.

مطحنة عظيمة

لا شيء في قيزيل يار يستحق الزيارة، وإن كان هناك من شيء يشد النظر فهو المطحنة التي أنشأها تومنيوف وشركاه. والمطحنة ضخمة وكبيرة. ومن النادر أن تجد مبنى بهذه الضخامة ليس في سيبيريا فحسب بل و في كل روسيا إنها تعمل دائما بالطاقة الكهربائية، و محركاتها على أحدث طراز وهي سريعة الحركة والعمل. والمبنى مقاوم للحريق بالرغم من عدم احتمال حدوثه. وهذه المطحنة هي المنافس الوحيد لكل ما هو موجود منها في سيبيريا فهي تنتج أرقى أنواع الدقيق لكل المدن والقرى السيبيرية.

ووجود مثل هذه المصانع التي تخدم الصالح العام بيد المسلمين لأمر جدير بالتقدير.

التجارة

وتجارة سيبيريا لا تشبه كثيرا تجارة البلاد الأخرى، وإن السيبيريين يمارسون كل أنواع التجارة. ولا تقتصر تجارة أهالي قيزيل يار على المنطقة وحدها بل يتعاملون أيضاً مع تجار كبار في تركستان الصينية. ولكل تاجر منهم وكلاء في تركستان وفي الصين و في خوتن وايلة وقولجا ومنغوليا وفي كل مكان. يشتري هؤلاء الوكلاء، الأبقار والعجول والثيران ثم

يعملون على تسمينها. وعند حلول موسم الصيف يستأجرون الرعاة الذين يرحلون تلك البهائم إلى قيزيل يار خلال ثلاثة شهور. وعندما يحل شهر سبتمبر أي فصل الخريف يبدءون في تسمينها. إن بعض الناس يسمنون سبعمائة وبعضهم ألفاً أو ألفاً وخمسمائة حتى ألفين من البقر. ويستمر التسمين مدة شهر إلى أربعين أو خمسين يوماً على أكثر تقدير. وحينما يشتد البرد وتنزل الثلوج يذبحون هذه البهائم. والأغنياء منهم يملكون المزارع، فيبيعون لحومها وجلودها وشحومها وحتى الحواشي والقرون. إنها من التجارات الكبرى في قيزيل يار.

كما إن الأغنام والخيول هي من عروض التجارة عندهم. يشترون الخيول من سيبيريا ويسوقونها إلى أورنبورغ ويجمعون الأغنام ويرسلونها إلى تركستان. وقد عرف عنهم بأنهم يشترون الغنم بعشرة روبلات أو بأقل من ذلك في الربيع ويبيعونها في الخريف بأسواق طاشقند وفرغانة بأربعين أو خمسين روبل. يعني أنهم يشترون بخمس أو ست مجيديات ويبيعونها بخمس وعشرين أو ثلاثين. إن هذه الأغنام تعطي خمسا وثلاثين أو أربعين أقة من الدهن على أكثر تقدير. وأقل الأغنام تزن إليتها خمساً وعشرين أو ثلاثين أقة.

فمثل هذه التجارات تجدها في قيزيل يار وقد برع فيها المسلمون أكثر من غيرهم، فلهم في روسيا مستقبل اقتصادي زاهر.

وقيزيل يار تعتبر مركز التجارة في سيبيريا منذ القدم. ويقال أنه كانت في قيزيل يار إدارة للجمارك لاستيراد البضائع من آسيا الوسطى إلا أنها ألغيت بعد ضم بادية كناسير، وهي الآن من ا لولايات الداخلية في روسيا.

غادرت قيزيل يار إلى اومسكي. والمسافة بين المدينيتن ٣٥٦ كم.

اومسكي

أومسكي هي القاعدة العسكرية لسيبيريا، حيث تتمركز فيها أعداد كبيرة من الجنود الروس بصفة دائمة. ففي عام ١٨٣٨ قررت الحكومة إنشاء قاعدة عسكرية لتكون مركزا للقوات الموجودة في سيبيريا كلها.

أما تأسيس هذه المدينة ذاتها فيرجع إلى عهد قريب، فقد بنيت في عام ١٧١٦ على شكل قرية صغيرة ولم يجد الروس أحدا ليسكنها فأجبروا قازاق الدون على الهجرة إليها ليكونوا ستارا وحصنا لهم ضد قيزيل يار. ولم تكن هناك طرق برية أو سفن نهرية. وكانت مدة الجندية عندهم خمسة وعشرين عاما. فكان الجندي يستقر في المكان الذي سيق إليه ويندمج مع السكان الأصليين. ومع ذلك فلم تكن في عام ١٧٨٢ إلا بلدة صغيرة وحولها أرض خلاء وبادية. وعندما يحل فصل الصيف يرحل عنها القرغيز ولا يعودون إليها إلا في الشتاء. وفي عام ١٨٢٤ تحولت إلى ولاية ولم يكن فيها من المسلمين في ذلك الوقت إلا الجنود. أما اليوم فان خط حديد سيبيريا يمر منها وأصبحت مدينة عامرة. وصادراتها جاوزت عشرة ملايين روبل.

المعارف

في عهد الكسندر الأول بنت الحكومة في هذه المدينة مسجداً. وحتى عشر سنوات مضت لم تكن للمسلمين مدرسة ابتدائية واحدة. وقبل خمس سنوات بنى المسلمون فيها مدرستين جميلتين. ويدرس فيهما الآن أكثر من مائة طالب مسلم. إن مباني المدارس في اومسكي جيدة والدراسة فيها منتظمة تنظيما جيدا. وعدد التجار المسلمين في اومسكي ليس بالكثير،

ففيها تاجر مسلم واحد من الدرجة الأولى. إن فتح مثل هذه المدارس كان بفضل جهود وهمم حفنة قليلة من الرجال داخل هذا المجتمع المسلم. وهناك مدرسة إعدادية خاصة بالروس افتتحتها الحكومة، و إعدادية عسكرية. كما أن هناك مدرسة تنصيرية واحدة لتصيد أبناء قرغيز البادية.

التجارة

قلنا بأن اومسكي هي القاعدة العسكرية الرئيسية في سيبيريا، لذلك فإن العسكريين يشكلون أكثرية السكان، وعدد الضباط والموظفين كبير. أما أطراف المدينة فيسكنها البدو الرحل من القرغيز والقازاق. ولذلك فإن الحكومة عينت لهذه المنطقة قائدا عسكريا كبيرا لمراقبتهم والسيطرة عليهم. فالجنرال جوبيرناتول قائد له الصلاحيات المطلقة ليحكم المنطقة بالحكم العرفي وأحيانا بالحكم العسكري. لذلك فإن الاعتماد على التجارة في هذه المنطقة أمر في غاية الصعوبة. ومع هذا فإنك تجد في اومسكي تجارا أجانب، وأكثرهم من الدنمارك وبلجيكا. إنهم يشترون الدهن من ولاية توبولسكي بسيبيريا ويصدرونه إلى إنجلترا. ويقال أنهم يشترون من أسواق أومسكي وحدها كميات من الدهن تقدر بثلاثة ملايين روبل. وقد ازدهرت تجارة الدهن في الأعوام الأخيرة بشكل كبير.

من اومسكي إلى تومسكي بالقطار

وبعد قضاء يومين في اومسكي انتقلت إلى تومسكي. توجهت إلى المحطة لمغادرة اومسكي. وقد جاء لتوديعي في المحطة كل من المولي نيازي أفندي إمام اومسكي والسيد سليمانوف. وكعادتي تقدمت إلى كوة

التذاكر طالباً تذكرة للدرجة الثانية. فلم أجد فيها مكانا فاضطررت لركوب الدرجة الأولى إلا أن المبلغ الذي أحمله في جيبي لم يكن يغطي قيمة التذكرة. ومن حسن الحظ أن المولى نيازي أفندي كان بجانبي وبذلك استطعت الحصول على تذكرة الدرجة الأولى.

المسافة إلى تومسكي ٨٩٠ كم، وقيمة تذكرة الدرجة الأولى ١٩ روبل و٣٥ كابيك. فحجزت لنفسي مقصورة خاصة في الدرجة الأولى. والعربات في خط حديد سيبيريا مرتبة ترتيبا جيدا. وتختص الدرجة الأولى بمقصورات مريحة تدعى «كوبي».

ودعت المولي نيازي أفندي وداعاً حاراً. وتحرك القطار. كان الجو باردا، إلا أن نوافذ العربات محكمة، إذ يمكن للمرء أن يضع ثيابه ويجلس مرتاحاً.

إن الطريق في خط حديد سيبيريا طويل جدا، والمرء إذا طال به المكوث في مكان واحد بالعربة ينتابه الضجر، ولابد لكل راكب أن يبحث عن إنسان يتعرف عليه ويحادثه.

قرأت كل الصحف التي اشتريتها من محطة اومسكي حتى الإعلانات. ولم يكن من شيء اخر أقوم به. وتلوت بعضا من القران الكريم. وفي لحظة لم أدر ما حدث، فتح باب المقصورة المجاورة فجأة. نظرت فرأيت هناك رجلا، في فمه لفافة تبغ إفرنجية يجلس قبالتي تماما. فلما فتح الباب قال الجار: عفوا أنا لم أمس الباب لكنه هو الذي تفضل بالانفتاح.

كنت أفكر في نفسي. من هو جارنا يا ترى؟ ماذا يقرأ وبأية لغة؟ و بينما أنا في هذا التفكير وإذا بالباب يفتح و يتقدم مني الرجل قائلاً: «إذا قبلت أقدم لك لفافة».

وأخرج علبته من جيبه، وقدمها إلي بكل احترام. قلت: إننا في شهر رمضان، نمتنع عن الأكل والشرب نهاراً، و إلا لما رفضت ضيافتك.

سأل: «من أنت؟ ومن أي قوم؟».
قلت: «تتاري».
«جميل جداً، أشكر مثل هذه الصدق. فأنت تركي الأصل. أود أن أعرف رأيك في الانقلاب التركي الحالي. وهل تصدق الأخبار التي نقرأ عنها في الصحف؟».
«لم اشتغل بالسياسة. ولا أملك مثل هذه المعلومات. فلا أقدر أن أقول شيئا، أعذرني».
«ألم تزر تركيا؟ ألا تعرف شيئا عما يقال عن الاستبداد لدى الأتراك؟ أليس عندك علم بذلك؟».
«حتى لو عرف المرء ذلك، فلا يمكنه أن يقول في هذه الأمور شيئاً إن لم تكن لديه معلومات سياسية. إن الأمم التي حرمت من التربية المدرسية إذا ادعت العلم بعالم السياسة، أو أن الشعوب المغلوبة على أمرها إذا تصدت لمشاكل حيرت دهاقين السياسة في الدول الكبرى، مثلها مثل بائع البيض الذي يبدي رأيه في المجوهرات».
«كلامك صحيح ولكن أهمية المسألة التركية، أو بالأحرى إن إنقلاباً كهذا لا مثيل له في التاريخ، لا ينحصر الاهتمام به على أمثالك من الرجال الذين تربطهم بتركيا مباشرة علاقة الدين والأمة بل يتعداهم إلى أمثالنا الذين لا علاقة لهم بالأتراك. فالنصارى هنا (الموجيك) يسألون عن مصير البلغار، إخوانهم في الدم والدين، وبالرغم من جهلهم القراءة والكتابة، فإنهم كلما ذهبوا إلى مقر الهيئة الاختيارية، سألوا «أليس البلغار والأتراك يحاربون بعضهم بعضا؟». ألا تملك مثل شعورهم؟ خاصة وأني أتوقع أن تكون أحد الرجال التتار المهمين، أعرف ذلك من ركوبك في الدرجة الأولى، وإلى جانبك عدد من الصحف اليومية، بالإضافة إلى أن السلطان عبد الحميد كان يقول: إنه خليفة المسلمين جميعا". وعندنا في لودز رجل

تركي، أنه ثري جدا. التقى به في بعض الأحيان وأتجاذب معه أطراف الحديث، وكان يفتخر قائلا: «إن امتنا الإسلامية بلغت أربعمائة مليون»، فلا يسعني إلا أن أعجب من البرود الذي ألمسه منك».

عفوا. يفهم من كلامك بأنك من سكان لودز. وإن صديقك التركي يقيم هناك. ولودز لها مكانة هامة في وسط أوربا. ويحتمل أنني لو أقمت في لودز لأشتغلت في الأمور السياسية، ولشاركتك في أفكارك، و لكنني تتاري من سيبيريا، والبريد يصل إلى بلادنا مرة في كل أسبوع، ويمر عشرون يوما قبل أن تصل صحف العاصمة إلينا. وفي هذه الحالة أقول بأنه مهما كانت المسألة هامة من حيث الأساس فإنها تفقد أهميتها عند وصولها إلينا. وإننا نسمع عنها بعد وقوعها وتلاشيها. و لا يقتصر الأمر على الأمور السريعة العارضة، بل أن أصحاب القرى عندنا سمعوا بخبر الحرب مع اليابان بعد وقوعها وانتهائها.

«إنني أعجب لهذا التنائي فيك، خاصة وأن المسألة التركية اليوم تعني المسألة الشرقية، وهي مسألة حياة بالنسبة للمسلمين جميعا. هل الحياة والممات عندك سيان؟ إن وضعك هذا يحير كل من كان عنده شئ من التفكير. من المؤكد أن كلامك هذا غير ما كنت أتوقعه، وهو أغرب في حديثك معي، وأراني مضطراً لأن أقول الآن، أرجو ألا تتهمني بأنني بوليس سرى.أنا لا أرضى لنفسي مثل هذه الرذيلة. إنني تاجر و إبن تاجر. ومع هذا فإن الانقلاب التركي الذي شغل العالم كله والمسلك السيء الذي تقوم به الدول الأوربية أقلقني أيضا. ومن المؤكد بأنني لا أشك في اهتمامك بهذه القضية أكثر مني.

هناك أمراً يحيرني بل يحير كل الناس، ألا وهو الخوارق التي تظهر على يد الأمة الشرقية. فقضاء الانقلاب على الاستبداد دون إراقة قطرة دم واحدة، ودون إفساح المجال لإزعاج إنسان واحد ليس بالأمر اليسير. إن قيام حفنة

من الرجال ضد قوة تمتد جذورها إلى ثلاثين سنة خلت، وتحقيقهم الانقلاب لأمر خارق للعادة. ومن جهة أخرى نرى الاضطرابات في أرض العجم مستمرة منذ سنين طويلة. الحقيقة أن مثل هذا الثبات لا تراه إلا في الأمم الشرقية. وليس بإمكان أمة أن تثبت وهي في بحور من الدماء. لقد هتفوا في روسيا وصرخوا لشهرين أو ثلاثة ولما رأوا قوات الحكومة اختاروا جانب السكوت».

قلت: «لا يمكنني موافقتك على هذا الرأي في هاتين المسألتين. إن تحقيق الانقلاب التركي بمثل هذا الوقت القصير ليس بسبب من الأتراك أنفسهم، بل ساعدهم على ذلك لقاء «روال»، فمذكرة روسيا وإنجلترا بشكل خاص أجبرتا السلطان عبد الحميد أن يفكر ملياً. فلو فرضنا أن اللجنة أصبحت حكومة والحكومة تحولت إلى لجنة لاتحدتا وأخرتا قرار روال فوراً. لكن رأي السياسيين الأوربيين لا يتغير.

«أما ديار العجم؛ فقد غرقت في بحر من الدماء نتيجة لسياسة روسيا وإنجلترا. ولو لم يكن لاهيف هناك، لما كان المجال مفتوحا لمثل هذه الأعمال الوحشية».

قال الجار بلهجة لا تخلو من الانتقاد: «كنت تقول بأنه لا رغبة لديك في الاشتغال بالسياسة، وأراك الآن تظهر بأنك تملك وجهة نظر خاصة في الموضوع ! إنني أنظر إلى المسألة التركية نظرتي إلى المسألة الشرقية، لذلك فلن تستطيع تركيا أن تحافظ على مكانتها ما لم تنتصر في حرب تخوضها عاجلا أم آجلا».

«لقد انتصرت في حربها الأخيرة ضد اليونان. إلا أنهم لن يسمحوا لها بالحفاظ على مكانتها. فإذا أرادت تركيا أن تثبت وجودها أمام أوربا حقيقة فسينشب الصراع بين الهلال والصليب».

فقهقه جاري قائلا: «حضارة القرن العشرين!».

«المسلمون متوحشون. فقد يسيرون الجيوش ضد الصليب. ولكن الأوربيون لن يصلوا إلى هذا الحد على ما أظن».

«إذا أمعنا النظر في خطابات كاماروفسكي في اجتماعات أعضاء حزب أكتوبر في الثالث من شهر أكتوبر بموسكو، لوجدناه ـ وأن لم يدع لحمل السلاح ـ يتجه نحو حرب صليبية فكرية، كل شيء يمكن توقعه من حضارة القرن العشرين». وفي هذه الأثناء وصل القطار إلى المحطة. نظرت، فإذا هي محطة جاوليم كان الوقت قريبا من المغرب. أخذت قليلا من الماء لصنع الشاي. وأما جاري فقد نزل لتناول الطعام.

تحرك القطار من جاولين حينما جلست لتناول الإفطار. وفي هذه الأثناء عاد الجار، فقلت له مازحا: «تفضل. أقدم لك كوباً من الشاي إذا رغبت» ودفع جارنا الفضول هذه المرة لأن يحول الحديث من السياسة إلى الدين، قال: «لا أدري لما كلف الله الناس بالتكاليف الشاقة؟ أي نوع عندكم هذا الصيام، أي المأكولات ممنوعة؟».

«أنا لست فيلسوفا، فلا أستطيع أن أشرح حكمته كاملة. الصيام عندنا من الفجر الصادق إلى الغروب، لا يؤكل فيه أي شيء».

قال مندهشا: «أنا لا أعرف عن الإسلام شيئا. وإن أردت الحقيقة فإني لا أعرف النصرانية أيضا ! ثم أن الطريق طويل و علينا أن نمضي الوقت. هلا زودتني ببعض المعلومات عن الإسلام؟».

«طبعاً، طبعاً، بمقدار علمي به».

«كنت معتنقا المذهب اللوثري أما اليوم فإني من أتباع المذهب الكاثوليكي»

«لماذا غيرت مذهبك؟».

«أنا أيضا لا أعرف لماذا غيرت. عانيت من مشكلة الزواج، لا أعرف كيف أقنعني القسيس، والواقع لم يكن لذلك أهمية لدى! هذا ما حدث».

«ألا تجد أن هناك مسألة هامة تكون سببا في تفضيل مذهب على آخر»

«نعم كانت مسألة مهمة أيام شبابي، وليس الآن. أريد الاستفادة منك. أرجو أن تشرح لي ما يجب أن يفعله المرء كي يصير مسلماً، إنني الآن كاثوليكي، فإذا أردت الدخول في الإسلام فإلى من أذهب؟ وما هي الإجراءات التي سيتخذها من أذهب إليه؟».

«ليس في الإسلام عندنا من تذهب إليه. فالإيمان رغبة وجدانية. و إن الذي يريد أن يعتنق الإسلام عليه أن يتصور وجود خالق للكون. وبعد إثبات صفة الوحدانية لذلك الخالق، يتعين التصديق بالحاجة إلى نبي، ولا شيء بعد ذلك. فلا واسطة بين الرب وعبده إلا النبي. وذلك لتبليغ الأحكام فحسب. ولا حاجة لواسطة بعد النبي. فمن آمن بقلبه بوجود إله واحد واعترف بالأنبياء ومنهم النبي محمد عليه السلام، فذلك يكفيه لأن يكون مسلما عندنا».

«كم امرأة عليه أن يتزوج؟».

«أظن بأنك تحاول السخرية. ليس لك الحق بأن تهزأ بي وبديني».

«أرجو منك العفو، لا أريد السخرية أبداً. ولماذا السخرية. إنني أرغب التعلم بكل احترام».

«لم يتعرض الإسلام لحرية أي إنسان. قضية المرأة بالنسبة للإنسان هي قضية حياة. لا قضية دين. إلا أن حقوق المرأة عند العرب قبل الإسلام كانت ممتهنة بكليتها. فالرجل منهم كان يتزوج من يشاء من النساء بلا حدود. فله أن يتزوج مئات النساء، فجاء الإسلام وحدد التعدد، وحرم الزواج بأكثر من أربعة. إلا أنه لم يجبر الناس على الزواج بأربعة. فإن تزوج بأربعة فجائز وشرط لهذا الجواز العدل وأحكم هذا الشرط بالآية الكريمة:" وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة».

«ومع ذلك فقضية المرأة قضية هامة. يجب إعطاء المرأة حق العمل فقد يتوفى عنها زوجها، فيجب التسهيل عليها بإمكانية عملها لكسب قوتها عند الحاجة».

«عفوا إننا نتكلم عن الدين وليس العادة. إنك تريد أن تتكلم عن العادة. والعادة عند أكثر أمم الشرق كما تقول».

«ويجب أن يكون للدين أثر في ذلك. في تركستان لا يعيرون للنساء أي بال. إنهن محرومات من الأحاسيس البشرية. أظن بأنهن يتعرضن للعدوان باسم الدين».

«هذا ممكن. لكنك غيرت أصل الموضوع قليلا. فحقوق المرأة شيء والعادات شيء أخير. فنساؤكم اليوم لهن الحرية المطلقة. إنهن يتساوين مع الرجال في كافة المعاملات، إلا أن المساواة في الحقوق معهم أمر آخر. حتى الآن لم نر بين نساء أوربا جنرالا أو دبلوماسية، وحصتهن في الميراث واحد من سبعة. أما في الإسلام فلها نصف ما للرجل، أيهما أكثر عدالة يا ترى؟».

وبينما نحن نتابع الحديث جاءتنا سيدتان. فصارتا تستمعان للحديث إلى جانب الجار. تابعت حديثي فقلت:

«ليس من الدفاع عن الحقوق أن نجعل النساء سافرات كي نستغل ضعفهن. فإذا كان الدفاع عن الحقوق يعني خداع النساء بستار الحضارة والإنسانية واستخدامهن لإشباع الغرائز والشهوات، فالإسلام لا يسمح لمثل ذلك».

وشاركت إحدى السيدتين في الحديث قائلة": لا يستطيع الضعيف أن يحمي نفسه من القوي في أي وقت من الأوقات. أشاركك الرأي في هذا الموضوع. لقد مررت بتجارب كثيرة. في النصرانية رفعت السواتر عن المرأة و ديست حقوقها تحت الأقدام. والحقيقة أن الرجال لا يتزوجوننا بل يتزوجون أموالنا. فقبل الزواج يسألون اباءنا بكل صفاقة: «كم من

الجهاز ستعطيني إن تزوجت بنتك؟ والبنات اللواتي لا يملكن جهازا يحرمن من الزواج.

وقالت سيدة أخرى: إن مسألة حجاب المرأة في الإسلام، في غاية الصعوبة بالنسبة لنا. ومع ذلك فإن معيشتهن في البيوت أحسن حالا. إننا نجاور أناسا مسلمين نختلط بهم ونحادثهم. فالنساء عندهم يعملون كل شيء في البيت. لهن مطلق الحرية، وعليهن فقط ألا يختلطن بالرجال. وهن راضيات بحالهن. لا يشتكين من أي شيء. أما عندنا فلا يمكن ذلك لقد تعودنا على ما نحن عليه.

قلت: كل أمة تستحسن ما تعودته. لقد كان كلامنا مع هذا الجار في الدين، والآن لننه الحديث.

فأجاب قائلا: تابع الحديث. ونحن أيضا نريد أن ننتفع بما تحدث.

هناك الدين، وهناك أفعال كثيرة تتم باسم الدين. يجب على المرء أن يفرق بينها. فمثلا عندكم في النصرانية أن القسيس يعفو عن الخطايا. إنه أمر ثقيل على الإنسان. إذ عليه أن يعترف بلسانه أمام القسيس بما أرتكبه من خطايا ومحرمات. فلو كان مرتكب الخطيئة ابن القسيس أو بنته أو زوجته، كيف يعترفون. فهل تتصورون أمرا أشد وطأة على المرء من هذا.

قالت إحداهن: إنه في غاية البشاعة . وقالت أخرى: أنا لم أؤمن بهذا قط.إنه من بدع القساوسة. وقال جارنا وليس من أحد يصدقه.

قلت: طالما أن هذا الأمر من مقتضيات الدين، فلا يكون المرء نصرانيا حتى يؤمن به.

وفي هذا الأثناء انضم إلى جمعنا اخرون، واشتركوا في الحديث. وهكذا تحول الأمر إلى مؤتمر عالمي فلم تسعنا المقصورة فخرجنا إلى الدهليز.

ثم تطرق الحديث إلى الدوما، وبرزت مسألة القومية. وعندما صرنا في موضوع مستقبل الأمة عرفنا هوية كل واحد وقوميته التي ينتسب إليها. عرفت أن في عربتنا أربعة من الليه، ويهوديان، ونمساويان، وتتاري، وسيدة مالا روسية، وثلاث نساء روسيات، واستونكي، وبنت فرنسية. وكل واحد منهم شديد الارتباط بأمته بحيث يتمنى أن ينحصر الخير كله بأمته وحدها دون غيرها.

وبينما كان الحديث في مسألة القومية يدور حول هذه الفكرة عاد الكلام إلى موضوع الدين مرة أخرى. وتلاشت الفوارق بينهم وبقيت أنا وحدي. فقد أظهر اليهوديان محبتهما لليهودية. وأغلب الاحتمال أنني كنت الوحيد الذي لم يصل إلى المستوى الجامعي من بين أصحابنا. كان هذا واضحا من كلامهم. كما ظهر واضحا من كلامهم عدم وجود صلة شخصية قوية بالدين.إلا أنهم لم يترددوا أبدا في دفاعهم باسم الدين، كما بذلوا غاية الجهد في تقديس أديانهم.

بدأت في الكلام عن محاسن الإسلام، ثم تطرقت إلى موضوع التثليث، وبعد أن قررت بأن التثليث لا يمكن قبوله عقلا قلت: التثليث نوع من المسائل التي لا يمكن قبولها عقلا. فيقال بأن الله ثلاثة وواحد و لا يمكن فصل أحدهم عن الآخر، وفي تلك الحالة فإن اليهود حينما قتلوا عيسى ينبغي أن يموت ثلاثتهم جميعا، لأنكم تقولون بعدم التفريق بينهم؛ ثم أحياهم بعد ذلك؟ لقد ظهرت الحاجة إلى إله رابع.

وفي هذا الأثناء وصل القطار إلى محطة أوب. ونزل الجميع لتناول الطعام. وانقطع الحديث، وكان الوقت متأخراً. حيث أعددت فراشي ونمت. وجاء جاري وألقى ببعض النكات وضحكنا، ثم اعتذرت منه واستسلمت للنوم. وعندما استيقظت في الصباح الباكر وجدت أن جارنا قد سبقني، وهو يتحرك يمنة ويسرة. قلت: " ماذا رأيت في المنام يا جاري؟"

لقد رأيت رؤيا عجيبة جداً. خفت و استيقظت مبكرا.

خير أن شاء الله!.

لا أعلم نسبة الخير فيها. رأيت نفسي في حفلة غنائية. كل المدعوين كانوا في مأتم. ومن بين هؤلاء واحد يلبس عمامة ويدخن لفافة تبغ. وكانت أدخنة عظيمة تنطلق من لفافته بحيث تغطي وجوه الحاضرين جميعا.

إنها خيال، خيال لا يليق برجل لطيف مثلك. ولو قال غيرك مثل هذا لضحكت أنت كثيراً. ولعلك تظن بأنك إن قلت مثل هذا لحاولت تأويله وإقناعك به. لا مكان للمآتم في ديننا. مثل هذه الرؤى تعرف عندنا بالخيال.

أنا أنقل لك ما رأيت والحق أقول فإني خفت كثيراً، فرؤية المآتم عندنا نحن الروس سيئة جداً.

وبينما كنا نضحك سوية قدم علينا مسافر جديد. وسألني: "هل أجد لي مكاناً هنا"؟ قلت: تفضل المكان موجود.

كان واضحاً أن الجار الجديد هو من أمة شرقية. لكنه من غير الواضح من أي الأمم هو. سألته: من أنت؟.

قال: أنا من الياقوت.

قلت: حسن. أنا لا أعرف أحداً من الياقوت. أرجو أن نتعرف ببعضنا، اسمي عبد الرشيد. أنني تتاري.

قال: وأنا ياقوت، ونيتيم ميخايلوف.

استغربت كثيراً. قلت: إنها كنية روسية خالصة.

ميخايلوف: إن قومنا الياقوت صاروا من الروس، والآن لن تجد ياقوتاً واحداً لم يعتنق الأرثوذكسية. وأنا صرت ميخايلوف شئت أم أبيت.

قلت: للروس قاعدة متبعة. فمن أعتنق الأرثوذكسية غيروا اسمه. لكنهم لا يغيرون كنيته.

إن قومنا الياقوت لا كنية أصلية لديهم. كل واحد منا ينادي باسمه؟ فلما جعلونا أرثوذكساً، ألحقوا بكل واحدٍ منّا ذيلاً! فهذا الذيل الذي تراه ليس منا بل هدية من الروس.

هل يحس الذي قبلوا الأرثوذكسية بالارتياح؟.

لو عرفوا ما هي الأرثوذكسية، فقد يرتاحون. لكنك لا تجد فينا واحداً يعرف الأرثوذكسية ويفهمها. ففي إحدى المرات جاء قسيس يرافقه شرطي وقال: «هذا الدين وهذا الشرطي» وعندها اعتقنوا الأرثوذكسية. وقديماً كان معتنقوا الأرثوذكسية من المنبوذين. ولكن بدأت الحكومة فيما بعد التشجيع على السير في هذا الطريق. فإذا تخاصم ياقوتيان فلا بد لمن يريد كسب الدعوى من أن يكون أرثوذكسيا. وهناك امتيازات خاصة لمن يعتنق الأرثوذكسية، وهم يلقون الاحترام. فكل الياقوت الآن هم من الأرثوذكس. كما أن الشامانية باقية فيهم بصورة غير رسمية.

ومهما كان الياقوت صادقين في اعتناقهم الأرثوذكسية ومهما تعصبوا لها فإنهم لن ينسلخوا عن الشامانية انسلاخاً نهائياً. فإذا شعروا بأي ضيق

بادروا بالرجوع إلى الشامانية. وألقوا أصنام القساوسة الروس، وطلبوا العون من اليالباق توس.

هلا زودتني ببعض المعلومات عن الشامانية، ماذا تعني الشامانية؟ ما هو الشامان؟ وما هو اليالباق توس؟.

الشامانية عندنا فرقة من فرق البوذية. والشامان رئيس مذهبنا. واليالباق توس آلهتنا المقدسة. نتوسل بها ونقدم لها القرابين عند اللزوم.

يقضي المذهب البوذي بعدم جواز قتل كل ذي روح. فكيف تذبحون القرابين؟ هلا أوضحت لي ذلك؟

لا يجوز قتل كل ذي روح. هذا صحيح إذا كان القتل من أجل الطعام ولكن الأمر يختلف إذا كان فداء. والقربان فداء. ومع ذلك فقد تعرض المذهب البوذي لكثير من التغيير. فاللامات منعوا القرابين. لكن البشاعات التي عندهم تفوق بشاعاتنا كثيراً. فلو دخلت معبدهم لرأيت العجب ويعتبرون ذلك معبوداً في مذهبهم ودينهم.

هلا شرحت لي بعضاً من تلك البشاعات؟

لا، لن أستطيع أن أقولها. أتحرج من ذكرها أمام النساء.

وكانت إحدى النساء من جيران القطار تستمع لحديثنا.

هناك أمور كثيرة لا يمكن الحديث عنها بحضور النساء. ولكن هل يعقل أن تكون إلهاً ومعبوداً؟.

هناك أمور كثيرة تجهلها يا سيدي، هناك العجب العجاب.

أمور كثيرة؟(ووجهت كلامي إلى المرأة قائلاً)، أود بقائك هنا ولكنك ستحرمينا من الفائدة فهبت المرأة واقفة وقالت: لم أدر أن هناك آلهة تخشى النساء ثم انصرفت. ولم تنفعها تكرار رجائنا بالجلوس.

قلت للجار الجديد: لقد انصرفت السيدة، فهلا زودتنا بالمعلومات عن آلهة اللاما؟

صورة العلاقة الجنسية بين الزوج والزوجة، إن لها مكانة مقدسة في معابدهم. إنهم يعبدونها ويقدسونها ولا يمكن الإفصاح عن كل المهازل في مذهب بوذا، وهم يخفونها عن الناس. ويرفضون استقبال الناس الذين لا يعتنقون مذهبهم في ذلك المكان.

أما جارنا القديم فكان تعليقه غريباً حيث قال:"إن أردتم الحق فهذا المذهب يوافق المسنين.

سألت: يا سيد ميخايلوف، هل في الياقوت رجال أتموا الدراسات العليا؟ عدد الذين أتموا الدراسات العليا قليل جداً. ويكاد يكون معدوماً، وليست لدينا مدارس وطنية. وكل المدارس المفتوحة إنما كانت بهمة المنصرين. أما أهدافهم من فتحها فمعروفة. فالتعليم عندنا حاصل من غير مدارس. ولم تعد الآن حاجة لفتح المدارس.

حدثني عن الأرض عندكم. هل عندكم أراض تملكونها؟ وكم من الأرض تصيب الفرد الواحد؟

كل الأراضي التي عندنا مستنقعات، والأراضي المنتجة قليلة. وقد وفد إلينا كثير من المهجرين ولا زالوا يفدون من روسيا الداخلية. وسنحتاج مستقبلاً إلى أراض كثيرة لا نشعر بالحاجة إليها حالياً.

وفي هذه الأثناء جاء المفتش وجمع التذاكر، وأبلغ ركاب تومسكي بأن عليهم مواصلة رحلتهم في قطار آخر في المحطة القادمة. فجمعنا أمتعتنا، ولم يعد لدينا متسع من الوقت لمزيد من الحديث.

قال جارنا الياقوتي: أنا أعرفك منذ أمد طويل. قرأت عنك بعض المقالات. إني أشاركك الرأي، فكل العناصر غير الروسية محكوم عليها بالموت. هذه هي سياسة روسيا الداخلية. ثم إن الياقوت و البورات يموتون حقيقة، ونسلهم مصيره الفساد. والواقع إن كل الأجيال المستعبدة في سيبيريا في طريقها إلى الفساد و لكن الياقوت صاروا أقرب إليه وأسرع من غيرهم.

هلا ذكرت لي أسباب هذا الإنحطاط؟

أظن أنه الإسراف في شرب الخمور. لأن شرب الخمور ازداد بعد الاحتلال الروسي بشكل كبير.

ألم يكن هناك خمر قبل الاحتلال الروسي؟

لقد كان، ولكن الخمر المحلي يصنع عندنا من الحليب، فلم يكن له ضرر ظاهر. أما اليوم فيصنع من الكحول الخالص. لقد وقعنا بهذه الخمور في شراك القساوسة.

وصل القطار إلى محطة تايغا، وعلينا تغيير القطار، فأسفنا على انقطاع هذه الصحبة الجميلة.

ومحطة تايغا عظيمة ومتكاملة. وبعد مكوث مدة ساعة فيها تحرك بنا القطار باتجاه تومسكي. والمسافة إليها ليست بعيدة حيث سنصلها بعد ثلاث ساعات. العربة مكتظة بالركاب. وكثير من هؤلاء الركاب من صنف الأرانب[1] أحد هؤلاء الأرانب وكان راكباً بجانبي: إلى متى سيظل الخط الحديدي الروسي ينقل هذه الأرانب؟.

قال: حتى يصير الروس ثعالب!.

فتعالت ضحكات الحاضرين، وتكلم كثيرون مؤكدين على ضرورة إنزال أقسى العقوبات بالأرانب.

وفي هذه الأثناء جاءت المناسبة لأن يقول أحد الركاب: لماذا مر خط حديد سيبيريا بعيداً عن مدينة مهمة مثل تومسكي؟ ألم يكن من الأفضل أن يمر الخط من هذه المدينة بدل أن يجعلوا الوصول إليها بخط فرعي؟.

ورد عليه أحد الضباط قائلاً: إن المهرة من المهندسين وجدوا أن هذا الطريق مناسب في مساره الحالي. فلو بذل أهل تومسكي شيئاً من النشاط وقدموا هدية بقيمة خمسين أو ستين ألفاً من الروبلات، لمد مهندسونا الخط إلى تلك المدينة مباشرة. إنك لن تجد طريقاً مستقيماً في أي بلد من البلدان ما لم يتم القضاء على الرشوة فيه نهائياً.

---

(١) تطلق هذه الصفة على الذين يستقلون القطار دون تذاكر. وطبيعة الناس تميل إلى هذه الصفة. وكل التصرفات السفيهة تجدها لدى هذه الأرانب.

وبعد مسيرة ثلاث ساعات وصلنا إلى محطة تومسكي. وكان في انتظاري بعض الطلبة والمعلمين.

تومسكي

كانت في السابق من المراكز التجارية الشهيرة. وفي فترة من الفترات كانت سوقاً يفد إليها التجار من سيبيريا شتاءاً ويبيعون ويشترون الكثير مما يجدونه فيها.

فقبل أن يؤسس الخط الحديدي كان التجار يقطعون إليها على ظهور الخيل مسافات تزيد عن ألفين أو خمسة آلاف كيلومتر. كانت هناك منازل (بريد) تربط المدن والقرى ببعضها. وبين المنزل والمنزل الذي يليه مسافة ٢٠-٣٠ كيلومتر. وتجد في هذه المنازل خيولاً جاهزة، وأصحاب المنازل على استعداد لتلبية أي طلب من قبل الركاب، فيسرجون الخيول ويغذون السير. وفي الشتاء تقطع المسافة بين المنزل والآخر بساعتين على أكثر تقدير. وحينما يتم الوصول إلى المنزل التالي يكون كل شيء جاهزاً لاستئناف السير، فلا يتوقف لتغيير الخيول في كل منزل، و بذا تقطع مسافة مائة كيلومتر في أقل من أربع وعشرين ساعة إن أجرة الحصانين في كل كيلومتر ثلاثون أو أربعون بارة على أكثر تقدير، وأجرة ثلاثة خيول خمسون أو ستون بارة. وهكذا فإن تجار روسيا يفدون إلى تومسكي مرة

واحدة في العام. أما بعد مد الخط الحديدي، فيمكن القدوم إلى هذه المدينة عدة مرات في العام الواحد.

ومدينة تومسكي بالإضافة إلى أهميتها التجارية فإنها صارت من المراكز العلمية أيضاً، وفيها جامعة ممتازة. لذلك فهي مدينة العلم والمعرفة، وقد ساد الترتيب والنظام في كافة أنحائها. وأريد بهذه المناسبة أن أورد بعض المعلومات عن المسلمين في مدينة تومسكي.

المسجد والمدرسة والكتاب

يعتبر مسجد تومسكي من المساجد الممتازة، فهو أجمل وأكبر مساجد سيبيريا حتى الآن. وقد بني بجهود أهل المدينة. وإلى جوار هذا المسجد توجد مدرسة في غاية الجمال والنظام.

ويبلغ عدد المسلمين في تومسكي حوالي ثلاثة الاف، ويتجمعون في حي واحد، ولكن هذا الحي يحتوي على ثلاثة كتاتيب، وكل كتاب أنشئ بجهود عدد من أهل الخير والحمية الإسلامية، ويتبع إدارة خاصة تختلف عن إدارة باقي الكتاتيب. أما إمام المسجد فمطلق التصرف في كل شيء وكأن المسجد والمدرسة ملكه الخاص. ويعيش في هذه المدرسة ثلاثون أو أربعون طالباً. ولا يكاد الطعام يكفي لسد الرمق. ومن جهة أخرى جمع كريم حميدوف - وهو من أثرياء البلد المعروفين- بعض الرجال ليشاركوه في الإنفاق على أكثر من ثمانين طالباً مسلماً. كما أطلق شاهي حاجي

سيديف يده في الإنفاق على جاقرم أكثر من خمسين طالباً مسلماً ليتعلموا ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.

ولما وجدت أن هناك ثلاثة جهود تبذل في ثلاثة اتجاهات، توسمت في كل منها حسن النية، فسعيت إلى توحيدها لتعمل بفعالية أكثر. بذلت كثيراً من النصح، وفي المجالس العامة والخاصة تحدثت الكثير عن التأليف بين القلوب. وبحمد الله تعالى تحقق نجاح نسبي، فصار الذين كانوا لا يحبون بعضهم يقومون بتبادل الزيارات وتقوية الصداقات فيما بينهم.

مسلمو تومسكي

مسلمو تومسكي أناس بسطاء جداً، يعيشون حياة الانزواء. وليس فيهم متعصبون، كما لا تجد بينهم أهل عمل ومعرفة. ولقد ساقهم القدر إلى أن يأتوا من روسيا الداخلية ويستوطنوا هناك. ولا يخلو أن يكون بينهم عدد من الأثرياء.

وأوشك التتار في تومسكي على الانقراض. لقد بقي عدد قليل منهم والأثرياء منهم أقل من القليل. أما البخاريون فصاروا في حكم المعدومين. إن هؤلاء المساكين الذين هاجروا إلى هذه المنطقة قبل أربعمائة أو خمسمائة عام واستوطنوا هذه الديار هم اليوم على وشك الانقراض التام، إذ لم يبق منهم إلا مائة وخمسون. ومع ذلك فإن لهم إدارة خاصة بهم، وسلالتهم في الطريق إلى الزوال.

وليس بين مسلمي تومسكي أناس معدمون كما أنه ليس فيهم أغنياء كبار فكلهم أصحاب صناعة وتجارة. والكثرة الكاثرة منهم يشتغلون في الخياطة. والسبب في ذلك أن أكثر الروس يتزيون بأزياء تتارية، فصارت الخياطة الصنعة المفضلة لدى التتار.

وخلال وجودي في مدينة تومسكي لقيت الترحاب من عموم المسلمين غنيهم و فقيرهم كما أحاطني كثير من الروس بالحفاوة والتكريم، وأقاموا على شرفي مآدب خاصة وتعرفت خلالها على البورفسور سوبلوف والبروفسور مالينوفسكي والرحالة الشهير باتانين وكثير من الرجال الأفاضل.

القرى التابعة لتومسكي

عدد القرى الإسلامية التابعة لتومسكي قليل ولا يزيد عن خمس وعشرين قرية. والقسم الأكبر من أهالي القرى هم من تتار سيبيريا، إلا أن عدد القادمين من روسيا الداخلية لا بأس به، فبعضهم قدم إلى هذه الديار طواعية وغالبيتهم جاء بفعل التهجير القسري. لقد تصاهروا مع التتار الأصليين فتولدت بينهم رابطة الأخوة ونشأت عنها مصالح مادية ومعنوية. وبفضل المصاهرة هذه بدأ تتار سيبيريا بالتكاثر بعد أن كادت تنقرض أنسابهم. كما ساعدهم المسلمون القادمون من روسيا الداخلية في المحافظة على دينهم فافتتحوا المدارس في كل مكان، ونشطوا في عمارة المساجد. ولا تخلوا قرية صغيرة من مدرسة ومسجد يدلك على أن شعائر

الإسلام تقام في هذه الديار، وكان لاختلاط الدم بين الجانبين فضل في ارتفاع الروح المعنوية بين المسلمين. وتغلب على تتار سيبيريا البساطة وحسن الخلق، أما القادمون من روسيا الداخلية فيتميزون بالنشاط والحيوية. فنتج من تمازج العنصرين نموذج معدل في المظهر والمخبر. وتدل بعض الكتب القديمة على أن التتار المحليين الأصليين حافظوا على سحنتهم البيضاء.

وتجد بين هؤلاء التتار بعض المجوس. والعلاقة المشتركة بينهم وبين المسلمين هي اللغة. إلا أن المجوس يكثر بينهم اسم «أغاباي».

استيلاء الروس على تومسكي

كانت هذه الأرض الشاسعة سابقاً عبارة عن صحراء ليس فيها إلا بضعة الاف من التتار فقدم الروس واستولوا عليها. هذه هي خلاصة القصة. وقام بعض المواطنين بادعاء ملكية بعض الأراضي فلم يعترضوا عليهم وسألوهم عن حدودها، فقدروا الحدود، وتركوها لهم، واستولوا على الباقي.

واليوم تجد في حوزة بعض التتار سندات تتعلق بمساحات شاسعة من الأراضي وتدل على ملكيتهم لها مصدقة من قبل السلطات الروسية. وفي

هذه السندات عبارات تفيد طمأنة أصحاب هذه الأراضي على ضمانة ملكيتهم لها.

قرية قالطاي :

أرى من المناسب أن أتطرق لهذه القرية فلقد رأيت فيها ما شدني إليها إنها قرية كبيرة بناحية تومسكي، أكثر سكانها من الروس. كما أن فيها إحدى وعشرون أسرة مسلمة يعيشون في حالة من الفقر المدقع، ومع ذلك فلهم مسجدهم، ومدرستهم ومكتبتهم، وخمسة وأربعون من أبنائهم وبناتهم يجلسون على مقاعد الدراسة، ونظام التعليم في غاية الانتظام. لقد شيدوا مدرستهم قبل عام فقط. وقبل ذلك لم يكن فيهم من يعرف القراءة والكتابة. وقد اختبرتهم خلال وجودي هناك، إنهم يجيدون القراءة والكتابة ويعرفون أركان الدين وفرائضه وواجباته، كما يعرفون الأعمال الحسابية الأربعة. خمس وأربعون طالباً وطالبة من إحدى وعشرين أسرة، وفيهم من بلغ الحادية والعشرين من الشباب والثامنة عشر من البنات إلا أنهم فرقوا بينهم مراعاة للآداب الإسلامية. وبدا واضحاً أنهم يتربون على الأخلاق والآداب الإسلامية الفاضلة. كما لاحظت أن المسنين منهم يرتادون المكتبات ويواظبون على الدروس الليلية.

أما القرية الروسية المجاورة لهم فعدد بيوتها يبلغ المائة ومع ذلك ليس فيها كنيسة أو مدرسة أو نحوه. وقد حاول بعض منهم إرسال أبنائه للدراسة في مدرسة المسلمين إلا أن رجال الحكومة حالوا دون ذلك.

أما الميزانية السنوية لهذه المدرسة فتبلغ خمسمائة وخمسين روبلاً (ثلاثاً وستين ليرة عثمانية). تتكفل بها هذه الأسر الإحدى والعشرين. والواقع أن كل ذلك كان بهمة وحمية إمام وأستاذ في هذه القرية.

هناك مثل تتاري شائع يقول: «جهود العبيد تحي العظماء».

المحطة الأخيرة من رحلتي

إلى الآن لم أبح لأحد عن المحطة الأخيرة من رحلتي. وفي أحد الأيام التي كنت فيها في دار الرحالة باتانين في تومسكي، حضر عدد كبير من الرجال وسألوني عن المحطة الأخيرة من رحلتي وطلبوا مني كتابة مقالة في جريدة سبيرسكي جيزين.

ولما تأكد أنني سأزود الصحافة الأجنبية بخبر المحطة الأخيرة من الرحلة، وأن هذا الخبر سيكون له وقعه لدى أهلي، أرسلت لهم رسالة خاصة، كما أرسلت مقالات إلى صحافتنا حول خط الرحلة.

والمقالة الأولى نشرت في العدد ٢٦٥ من جريدة سيبيرسكي جيزين. جاء فيها تفصيل الرحلة والمدة التي تستغرقها.

نيكراسيف نائب تومسكي

اتخذت القرار بمغادرة تومسكي في الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر)، توجهت إلى منزل الرحالة الشهير باتانين بنية الوداع. فقال لي باتانين: في مساء الغد سيدلي نائبنا نيقولا نيكراسيف ببيان للناخبين عن نشاط مجلس الدوما. لذلك أطلب منك تأجيل سفرك ليوم واحد كي تحضر هذا الاجتماع.

وبناء على هذا الطلب أجلت سفري. وقد صادف وجود ذاكر أفندي يش محمد في تومسكي ضمن الوفد القضائي. فذهبت إليه وجلست إليه طيلة وجودي في المدينة وعرضت عليه أن يحضر معي ندوة نيكراسيف.

وفي اليوم التالي توجهنا إلى مكان الندوة. كانت الصالة مكتظة بالحضور الذين يقدر عددهم بنحو ثلاثة الاف. أخذنا مكاننا بين الحاضرين ولم تمض خمس دقائق حتى صعد نيكراسيف منصة الخطابة. إنه شاب في الثالثة والثلاثين من العمر، ومعروف بقوة الخطابة والحديث.

بدا نيكراسيف حديثه قائلاً: أيها السادة، إنني أرى لزاماً علي بأن أدلي بمعلومات عن نشاط مجلس النواب الروسي (الدوما)، لأنكم عندما انتخبتموني لأكون عضواً في هذا المجلس حملتموني أمانة الدفاع عن حقوق الإنسان. إنها أمانة جد ثقيلة.

إنكم تعلمون بأن على أعضاء المجلس النيابي أن يضعوا أنفسهم دائماً تحت رقابة الناخبين. أنتم الذين انتخبتموني، فعليَّ أن أضع نفسي تحت رقابتكم، ومن دون طلب منكم، وأرى من الواجب أن أعمل بما يمليه علي ضميري وأدلي بمعلومات عن حاضر الدوما ومستقبله. لقد وضعتم ثقتكم في، وأنا لا أر يد أن استغل هذه الثقة في غير محلها، ورجائي أن تعذروني فيما لا يد لي فيه.

إن في بلادنا برلماناً أنتخبه الشعب، لكنكم تعلمون جيداً بأن الأكثرية في البرلمان أداة بيد الحكومة، وأنها تتصرف بالأمور كما تشاء مادامت الأكثرية طوع أمرها.

فما هي مهمتنا في هذه الحالة؟ هذا هو الموضوع الذي سأشرحه لكم هذه الأمسية. إن مسئوليتنا في هذا المجلس كبيرة وأعباؤنا ثقيلة. إننا نشكل الأقلية ومع هذا علينا مراعاة مصلحة الأمة.

إن حزبنا اليوم يركز على المحافظة على النظام الدستوري. ويجب أن نحافظ عليه حتى نعد الأمة للانتخابات القادمة. إن الدورة الحالية ستنقضي على كل حال. وقد مضى جزء منها. إن الشيء المهم الآن هو أن تتمكن الأمة من الصمود أمام الخطط التي تتخذها الحكومة، وأن تعمل دون كلل أو ملل حتى تنجح في اختيار نواب أكفاء شرفاء ونشيطين. فإن استطعنا ذلك تمكنا من تخليص البلاد خلال أربع سنوات.

وليس من شك أبداً أن الحكومة الحالية ستعمل بالقوة وبتهديد البوليس لانتخاب ممثلين يساعدونها في المجلس، وعلينا أن نستعد لكل ذلك فإن استطاعت الأمة بجهودها التغلب على الحكومة، أمكن إنقاذ البلاد من الخطر الذي يحيط بها. أما إذا بقيت الأمة سادرة في غفلتها وتقاعست عن العمل من أجل الوطن ولو لشهر واحد، فإنه لن يبقى لنا أي أمل في المستقبل. فمن المشكوك فيه والحالة هذه أن نحافظ على مقومات الدولة، ناهيك عن البقاء في مصاف الدول العظمى. يجب أن نعير اهتمامنا إلى هذه النقطة ونعمل ما علينا عمله.

ما الذي استطاع الدوما أن يفعله حتى الآن؟ ما هو الموقف الذي يمكن أن يتخذه حيال الوزراء؟ إن الدوما بالرغم من الاستخفاف الذي تنظر الحكومة إليه نجح في إثبات وجوده. كما إن عدة تعديلات جرت في اللجان المختصة. هذه اللجان و إن لم تستطع إثبات فاعليتها حتى الآن فإنها جاهزة لأن تثبتها مستقبلاً.

"أما وضع الدوما حيال الحكومة، فإن مكانته في الوقت الحاضر تكاد تكون معدومة. إلا أنه لا يجوز أن نقول بأنها معدومة تماماً. لقد قام بجهود موفقة نسبياً في محاسبة الوزراء.

إن الانتقادات المهمة الموجهة إلى وزارة البحرية ووزارة الطرق بشكل خاص أخذت طريقها إلى التنفيذ الفعلي، والفساد الذي أُكتشف في وزارة الطرق أمر في غاية الدهشة والغرابة. وسأذكر لكم نموذجاً من هذا الفساد.

إن خط حديد شرقي الصين يكبد الدولة الروسية سنوياً خسارة مقدارها خمسة وثلاثين مليوناً من الروبلات، وتزداد هذه الخسارة عاماً بعد عام. ولم تقم وزارة الطرق بأي إجراء من شأنه التقليل من حجم الخسارة. إن الوضع في هذه الوزارة من السوء بحيث لا يمكن إصلاحه في وضعها الحالي. فسجلاتها في غاية الفوضى والتخبط. لقد نجح الدوما في رقابة الدوائر التابعة لهاتين الوزارتين. فإن استطاع تحميل هذين الوزيرين مسؤولية الفساد في وزارتيهما فإن ذلك يعد خطوة إلى الأمام.

أريد أن أنبئكم بمستقبل الدوما. إذا فكرنا في حاضرنا فهمنا المستقبل. إذا أردنا أن نجعل المستقبل كما نريد علينا أن نستعد لوقت الانتخاب. أكرر فأقول بأن أمل الأمة كله هو في الانتخابات. فإذا اغترت الأمة بالشهرة أو انتخبت مرشحي الحكومة، فلا خير في الدوما وسيصير الحكم الدستوري أثراً بعد عين. أما إذا اتخذت الأمة جانب اليقظة وانتخبت من تثق بهم من الرجال، فمن الممكن أن تبعد الخطر عن البلاد".

"إن سياستنا الخارجية حالياً ليست على المستوى المطلوب. والسبب في بقائنا دون المستوى السياسي للدول الكبرى، هو هزيمتنا في حرب الشرق الأقصى.

والآن أريد أن أزودكم ببعض المعلومات عن نشاطات نواب سيبيريا.

إن المهمة الأولى لهؤلاء النواب هو تطبيق نظام زيميستوه لعموم سيبيريا، وقد كان موضوع بحث وتمحيص من قبل جميع النواب. ومن

المؤكد بأنه سيحظى بالموافقة. كما تم التنسيق بين مشروع قانون زيميستوه ونظام الانتخاب.

والآن استأذنكم لفترة راحة مدة عشر دقائق. فإذا تذكرتم شيئاً فاكتبوه وسلموني إياه وسأحاول أن أجيبكم عليه.

قام الجميع، وأردت استغلال فرصة الاستراحة فذهبت نحو نيكراسيف فقدمني إليه البروفسور سوبلوف وعرفني به. فقال لي نيكراسيف بأدب جم: "إننا نفخر بوجودك في سيبيريا. لقد ورد ذكركم بين النواب في الدوما أكثر من مرة. أشكرك كثيراً على إتاحتك الفرصة للتعارف".

ووجدتها فرصة كي أقول له: "أرجو منك في حديثك القادم أن تبدي رأيك في أراضي مسلمي سيبيريا" فسجل هذه الملاحظة في دفتره بكل سرور.

لقد كان حديث نيكراسيف طويلاً بحيث لا يمكن لعاجز مثلي أن يضبط كل ما قاله، لذلك فإني سأسرد كل ما قدرت على ضبطه.

إتجه نيكراسيف إلى المنصة وسط تصفيق الحاضرين وبدأ الحديث قائلاً: إن بلادنا حرمت من المعارف طويلاً. وأريد أن أشرح لكم رأي نواب حزبنا في هذا الموضوع. تعلمون أن حزبنا هو حزب الأقلية في الدوما ولكنه في حقيقة الأمر يحوز على ثقة أكثرية الأمة. إنه الحزب الدستوري الديمقراطي المعروف بـ (كاديت).

إن حكومتنا كانت تتبع حتى الآن سياسة إعداد الكوادر الوظيفية التي تحتاج إليها فقط، ولم تشر بالحاجة إلى أكثر من ذلك، ولعلها وجدت أن

الجهل المستشري بين الناس يوافق سياستها. لذلك فإن أفقر الوزارات عندنا هي وزارة المعارف.

إن أحوج ما تحتاجه بلادنا هي المعرفة. ومن النادر أن تجد في قرانا بل وحتى في مدننا مدارس أنشأتها وزارة المعارف. ومن حسن الحظ أن قام الزيميستوه ببعض النشاط فنجحوا في إنشاء المدارس الابتدائية في كثير من قرانا. أما سيبيريا فليس فيها زيميستوه لذلك فقد بقيت شبه محرومة من التعليم. فمن بين ولايات سيبيريا العشر لا تجد جامعة إلا في تومسكي. وفي روسيا قرابة ثمانين ولاية ليس فيها إلا ثمان جامعات. فهل تكفي الجامعات الثماني لدولة تعداد سكانها يزيد عن مائة وأربعين مليوناً؟

لقد أخذ حزبنا هذه الأمور بعين الاعتبار، واعتبر هذه القضية مسئوليته. وسيعمل بكل ما أوتي من قوة، ولن يفقد أمله إذا فشل مرات ومرات فإنه لا بد وأن يأتي يوم يتحقق ما نهدف إليه (تصفيق).

ثم بدأ بالرد على الأسئلة المكتوبة الموضوعة على المنصة. كانت الأسئلة كثيرة جداً، فلم أتمكن من ضبط جميعها. وسأكتفي بذكر بعض الأسئلة التي لفتت انتباهي:

١ - سؤال حول الحزب الإسلامي في الدوما. الحزب الإسلامي لم يقم بنشاط جاد حتى الآن. كانت له محاولات فرعية في قضية أراضي القرغيز.

٢ - سؤال عن انفصال الجناح اليساري من حزب الأكتوبريين الذي يشكل أكثرية المجلس. في رأيي هذا لا يتحقق. إن انفصالهم لا يعود لنا بالنفع، كما أنه يجلب لهم الضرر.

٣ - سؤال عن مدى قوة الدوما. لقد شرحنا هذا الموضوع في القسم الأول من حديثنا. لقد فقدت أمتنا الغيرة والحمية الوطنية.

٤ - إن موقف النمسا في قضية الشرق الأدنى وتركيا نوع من الإذلال بالنسبة لنا. ولكن ما العمل. إننا نفتقد القوة العسكرية اللازمة لحماية شرفنا وسمعتنا. إن ضعف قوتنا العسكرية نابع من ضعف ماليتنا. علينا أن نعمل جنباً إلى جنب. يجب أن نحسن مستوانا الخلقي حتى يتحسن وضعنا. كما يجب أن يستقيم عملنا وقولنا. لقد صارت تجارة البلد في قبضة الأجانب. لذلك فمن الصعب علينا أن نحمي حقوقنا الإنسانية من تعدي هؤلاء الأجانب. إذا أردنا أن نكون رجالاً بحق علينا أن نعمل. "(تصفيق متواصل).

هذا هو وضع النائب الروسي السيبيري أمام مواطنيه. إننا نتوقع من النواب المسلمين في الدوما نفس الموقف و لكننا للأسف لم نر شيئاً من هذا.

وسجلت من حديث نيكراسيف بعض الأمور الأخرى وهي أمور إضافية مثل تعريف المجلس النيابي وتعريف النيابة ومكانة النواب لدى الشعب. وبعد أن فصل في مثل هذه الأمور قال: "لقد أرحت ضميري

لأنني قمت بواجبي تجاه الحاضرين. وأرجوكم أن تقوموا بواجب توعية المواطنين الآخرين في مثل هذه الأمور أينما وجدوا فالشعب لا يستطيع أن ينتخب النواب الذين يمثلهم بحق ما لم يعرف محاسن الحكم الدستوري وأختم حديثه قائلاً: إن الأمم التي تبقى أسيرة لآراء حفنة قليلة من الناس لا يمكنها أن تتخلص من ربقة العبودية. وغادر المنصة وسط تصفيق متواصل من الحاضرين، بعد أن اضطر إلى العودة إليها مرتين محيياً وشاكراً على هذه الحفارة والتكريم البالغين.

تتار الياساجاناي في ولاية توم

إن السكان الأصليين من الترك المعروفين بـ «تتار الياساجاناي» يشتركون في الأصل والنسب و لكنهم من الناحية الدينية يتبعون ثلاثة أديان: فالقسم الأكبر منهم مسلمون، وبعضهم صاروا من الأرثوذكس. أما الباقي فهم من مجوس المذهب الشاماني. وهذا القسم من الناس هم أصحاب الأراضي والأملاك وينظرون إلى القسمين الآخرين أنهم ظلمه ومستعبدون ووحوش.

إن حالة هؤلاء غير معروفة من الناحية التاريخية فهم يجهلون القراءة والكتابة، وكانوا يتبعون قديماً أمراء يسمون بالقان ـ ولعله الخان ـ أما الآن فلا يتبعون أحداً. وإن بقي في ذاكرتهم من شيء فذاك القائد المعروف بـ

«قانغزا باطر» الذي حارب الروس عدة مرات وأخيراً وقع في الأسر ثم تمكن من الإفلات، وأعاد الكرة في محاربة الروس ثم وقع في الأسر للمرة الثانية وبقي في الأسر إلى أن مات. ويعتبر شخصية مقدسة عندهم. والأشعار التي نظمها قانغزا باطر تلقفته الألسن حتى حفظها الكبير والصغير من الأبغاي. وتعتبر هذه الأشعار من النصوص المقدسة عندهم. و يتضح من قراءة هذه الأشعار أن الياساجاناي قوم من الترك ولغتهم تركية أيضاً. الأبغاي أيضاً يدعون أنهم من الأقوام التركية. لكن أجدادهم واباءهم كانوا من الرحل الذين ينتقلون في سواحل جانا وضفاف نهر أوب، ثم استوطن قسم منهم حول ضفاف نهر يني ساي والقسم الآخر استوطن حول ضفاف نهر مينوسين.

وقد بذلت محاولات كثيرة لدراسة أوضاع وأحوال الأبغاي. كما أجريت دراسة في أصل لغتهم. استمعت إلى شعر قانغزا باطر ممن صادفته من الأبغاي وسألت عن معانيه كلمة كلمة، حتى أنني عندما سالت إحدى نسائهم عن معانيها بكت ولا تزال معاني بعض الكلمات مبهمة، فلم يتمكن الأبغاي من شرحها لي.

قانغزا باطر

لم يعثر على اسم هذا الرجل في التاريخ الروسي. ويحتمل أن الروس غيروا اسمه. وهو شخصية عظيمة جداً لدى الأبغاي ويذكرون اسمه إلى يومنا هذا إلى درجة التقديس. ويروى أنه عندما حاول الروس احتلال

أطراف توم، قام بالدفاع عن بلاده وفي إحدى المرات قاتل الجيش الروسي بمفرده وأسر ثم تمكن من الفرار، وعاود القتال إلى أن أسر للمرة الثانية، ونظم هذا الشعر الذي اشتهر به وهو في السجن. ويدل هذا الشعر على مبلغ شهامة وحماسة قائلة.

مغادرة تومسكي

بعد أن امتدت إقامتي في تومسكي ثلاثة أسابيع قررت توديع أصدقائي. وصادف أن قرر صديقي ذاكر أفندي العودة إلى أومسكي في نفس اليوم فكان الطريق مشتركاً بيننا حتى محطة تايغا. اتجهنا إلى المحطة ووجدنا بعض أصحابنا في استقبالنا، واسترحنا لبعض الوقت في المقصف إلى أن دق الجرس الثاني إيذاناً بتحرك القطار فودعناهم ودخلنا المقصورة. قال ذاكر أفندي: أيها الأخ، إن سفرك طويل، أطلب منك السماح. بعد وقت يسير سنفترق. وقد يكون هذا آخر عهدي بك...

وبينما كنا في الحديث تدخلت سيدة بجوارنا وقالت موجة كلامها لذاكر أفندي:

أرى في كلامك كثيراً من الكلمات الروسية. لقد لاحظت وأنت تتكلم بأن واحدة من ثلاث كلمات نطقتها هي روسية. فما السبب في ذلك يا ترى؟ أهو الضعف في اللغة بحيث تحتاجون إلى الاستعانة بكلمات لغة أخرى؟ أم كان ذلك تبعاً لمزاجك؟

رد ذاكر أفندي ضاحكاً: إننا نتروس (أي نتحول إلى الروس)، وإلا فلا حاجة لنا إلى الاستعانة بلغتهم.

قالت السيدة: إذن سيكون مستقبلكم مظلماً. إذا بقيتم على هذا الحال فسيأتي يوم تضيعون فيه لغتكم.

ذاكر أفندي: لقد انقضت تلك الفترة، حيث كان الاحتمال وارداً قبل ثلاثين عاماً وإن أولياء الأمور سادرين في الغفلة. أما نحن فقد صحونا قبلهم وسلكنا الطريق.

السيدة: إن مثل هذه الأمور وإن بدت لا أهمية لها فإنها بمرور الوقت ستكتسب الأهمية بذاتها. إنك تظن بأنه لا ضرر من وجود بعض الكلمات الروسية، ولكن لو حسبت دخول خمس كلمات في هذه السنة فقد تكون خمسة عشر بعد خمس سنوات ولا ندري كم من السنين تمضي حتى يرسخ هذا الكم من الكلمات الروسية في لغتكم وأنتم لا تشعرون. ألتمس العفو منكما لأنني لم أتمالك مشاعري فأقحمت نفسي بالحديث معكما. إن هذا التصرف مني دون أي تعارف بيننا، يخالف آداب المرأة. أكرر رجائي عفوكم.

ذاكر أفندي: لقد سررت كثيراً. إلا أن الذي شغل تفكيري شخصيتك. من أنت؟ ومن هم قومك؟.

السيدة: إنني أشعر برابطة بيني وبينكم. إن دمائي التي تجري في عروقي هي من دمائكم. جدتي من تتار مينوسيا. لكنها وللأسف تنصرت أو

أجبرت على التنصر. ونحن ولدنا على النصرانية لكني شعرت دوماً بأنين خفي في قلبي. لذلك فإنني ما أكاد أرى أخا لي في الدم حتى أفقد السيطرة على نفسي بكل أسف، وحديثي معه ولو ببضع كلمات يريحني، ولهذا السبب لم أعر أي اهتمام بما يجب أن تلتزم به النساء من أدب وأقحمت نفسي في هذا الحديث (ثم أشارت إلي وقالت) إنني ما كدت أرى هذا الرجل حتى أحسست بجرح ينتكيء في جسمي. ألا تجيد اللغة الروسية؟ إنني بنت تتارية. نسيت لغة أجدادي وأضعت ديني دون اختيار مني. وأخرجت منديلاً لتمسح دموعها.

قلت: إلى أين تتجهين الآن يا بنتي، ومن هم أقاربك هناك؟

السيدة: إني ذاهبة إلى سوخوم. زوجي هناك. مريض بالسل. ذهب هناك للعلاج. أرسل إلي قبل أيام برقية، يطلب مني الحضور إليه.

أجدتك على قيد الحياة؟ وزوجك من أي قوم؟ وكم مضى على زواجكما؟

لقد توفيت جدتي لي أخوة وأخوات. زوجي روسي. تزوجنا منذ خمس سنوات. لي أخت تقيم في هذه المدينة. كنت في زيارتها.

وكيف عرفت أننا من التتار؟

لم أعرف لكنني شعرت بشيء في قلبي. ولما رأيتك تحولت من حال إلى حال. ومنذ الصغر عندما كنت في العاشرة من عمري، كنت أرى الصيادين على ضفاف نهر إيربة، فأنظر إليهم نظرة حب واحترام.

أنا أصغر بنات أمي سناً. وكانت أمي تحبني كثيراً. لقد أرغموها على التنصر هناك. وولدنا في أسرة نصرانية. إلا أن أمي كانت تميل إلى المذهب الشاماني. أما أنا فكنت على العكس منها أحب المسلمين أكثر من غيرهم، دون أن أعرف السبب. مع أنني لا أعلم من الإسلام شيئاً.

أين تلقيت علومك؟.

أكملت تحصيلي العلمي في معهد مارينسكي ببرتسبورغ. وفي سن الشباب دفعني العرف السائد في بترسبورغ إلى الزواج بروسي. على كل حال فإن زوجي الآن بين الحياة والموت. ولعله يموت قريباً. وسأتصرف بعد ذلك بما يمليه علي عقلي وتفكيري. ومن حسن الحظ أنني لم أنجب منه.

ذاكر أفندي: أين كان زوجك وما منصبه؟

السيدة: كان مهندساً في الخطوط الحديدية. أصيب بالسل قبل عامين. وهو الآن في مرحلته الأخيرة. نصحه الأطباء بالسفر إلى سرخوم لتبديل الجو. وهو هناك منذ ثلاثة شهور.

قلت: أي بنية، لقد أثرت اهتمامي كثيراً. ما هي اللغات التي تعرفينها. وما هي الكتب التي طالعتيها؟ لا شك أن هناك سبب في ميلك نحو التتار، أليس كذلك؟

لا أعرف من اللغات غير الروسية. أما عن تتار سيبيريا فقد قرأت مؤلفات يادرنسوف، ومؤلفات باتانين وفيشر. أما عن المذاهب فقد قرأت تاريخ جيرليل عدة مرات. وأما عن ميلي نحو التتار، فإنني حين كنت طالبة

في بترسبورغ قابلت رجلاً عجوزاً،كان رجلاً عطوفاً جداً. زارني عدة مرات، وقدم لي نصائح جميلة جداً. يبدوا عليه أنه كان من عامة الناس ومع ذلك فقد كانت نصائحه متميزة، وحكاياته مشوقة. لا تفصل بين زياراته لي أكثر من أسبوعين أو ثلاثة، وفي بعض الأحيان كان يأتيني ومعه هدية، وهي عبارة عن علبة من الشوكولاته. ولعلني تأثرت بهذا الرجل المسن فكنت أحبه حب البنت لأبيها. فلما رأيت التتار بعد ذلك صرت أحس بحالة غريبة تعتريني. وأظن أن ذلك بسبب رابطة الدم "كنت أفكر دائماً بوضع التتار. ولا أستطيع تحمل المعاملة المهينة التي يلقاها التتار من الروس. فكانت المناقشات بيني وبين الروس تتحول في بعض الأحيان إلى ما يشبه الشجار.

ذاكر أفندي: لقد زاد إعجابنا بك. ومهما شكرنا الله على هذا اللقاء بأخت مثلك في مكان لا نتوقعه، فهذا شيء قليل. إنني متجه إلى أومسكي، ولا بد أننا سنلتقي بك عدة مرات في هذا الطريق. ولعلك تستقلين العربة الخاصة بالنساء في تايغا، ومع ذلك فيمكننا اللقاء بك في المحطة، لكننا سنفترق عن والدنا (يقصدني) في محطة تايغا. إنه مسافر إلى الشرق الأقصى. الواقع إننا نقترب من تايغا.

السيدة: إنني سعيدة جداً هذا اليوم، ولساني عاجز عن التعبير عن شعوري تجاهكما، وسيظل مكانكما باقياً في قلبي. أرجو منكما شيئاً واحداً،

اسمحا لي بأن أقبل يديكما. "ونهضت ونهضنا. ولم يلبث أن وصل القطار إلى محطة تايغا. وهنا ودعنا بعضنا وافترقنا.

بدأت أشعر أنني تأثرت بهذا اللقاء لدرجة كبيرة وأطلقت لتفكيري العنان ليأخذني إلى آفاق بعيدة وسحيقة. فكرت في هذه السيدة من أين طلعت إلى هذه الدنيا وأين نشأت، و ما هي مكنوناتها؟ إن المرء عندما يفكر في مثل هذه الأمور لابد وأن يعترف بقدرة الخالق سبحانه وبديع صنعه.

وفي محطة تايغا توجهت إلى منزل الشيخ نوري أفندي، وأمضيت فيه قرابة ساعتين ريثما يصل القطار، وطالعت الصحف.

وبعد هذه المحطة سيمر بي القطار بكثير من المدن والقرى حتى أصل إلى ايرقوتسكي والمسافة إليها ١٥٠٢ كيلومتر. تحرك بي القطار من تايغا يوم التاسع من تشرين الثاني، وبعد خمس ساعات نزلت في محطة باغاتول وتوجهت إلى قرية شولدات.

وشولدات قرية صغيرة لا يتجاوز عدد بيوتها المائة، وكل سكانها مسلمون، جرى تهجيرهم إليها منذ أمد بعيد من روسيا الداخلية ومن نيجنينجور بقازان ومن بعض الولايات الأخرى. لقد دفعت الأهالي حميتهم الدينية إلى إنشاء مدرسة ابتدائية ومسجد. والواقع إن وجود مدرسة ومسجد في قرية إسلامية، ليس بالأمر الملفت للنظر إلا أن الغريب أن قرية تكونت بكاملها من مبعدين، وتقع في أقصى أطراف

سيبيريا، تحمل أهلها كافة مصاريف بناء المسجد والمدرسة، وأرسلوا أكثر من ستين من أبنائهم إلى المدرسة ليهيئوا لهم مهناً لم يألفها اباؤهم من قبل إنه، لإنجاز فريد.

ترددت خلال وجودي هنا على المدرسة واختبرت الطلاب وقمت بالوعظ وتقديم النصح في المسجد في أوقات الصلوات الخمس، وسررت كثيراً بشدة تعلقهم بدينهم، وتوثقت صلتي بالأهالي يوماً بعد يوم.

كنت ذات يوم ضيفاً على أحدهم فعرفني به إمام الحي حسن أفندي قائلاً: هذا الرجل شهد الحرب الروسية اليابانية. ووقع في أسر اليابانيين حيث قضى عاماً في الأسر فهو صديق لليابانيين.

سررت لهذا الأمر وسألت: أين كنت أثناء الحرب، وإلى أين أخذوك أسيراً؟

كنا في موكا، ثم وقعنا في الأسر. كان عدد الأسرى منا عشرة الاف وعدد المسلمين فينا سبعمائة وخمسون. اقتادونا إلى اليابان و استقر بنا المقام في أوساكا، وهناك فصلوا بين الأسرى على أساس معتقداتهم، حيث وضعونا في معسكر خاص وخصصوا لنا طعامنا وشرابنا.

سألونا في البداية عما إذا كان بيننا علماء، وعن عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة.

فظهر بيننا حوالي خمسة عشر من العلماء، وطلبوا منا أن نختار واحداً منهم إماماً واخر مؤذنا، وقالوا لنا: ليكن الباقون معلمين لكم وستقضون

أوقاتكم بالتعليم وفقاً لمبادئ دينكم، وعينوا منكم خمسة ليعدوا طعامكم وفق معتقداكم. فقمنا باختيارهم أيضاً. وخصصوا لنا مكاناً للصلاة، وفرشوه بالحصر. كما خصصوا لنا مكاناً للدراسة، وأعطونا آلة يدوية لطبع الكتب. وقالوا: إنكم منذ اليوم ضيوف علينا و لكننا نشترط عليكم تعليم القراءة والكتابة خمسة ساعات في اليوم.

كان طعامنا وشرابنا جيداً. وكانوا كرماء. و بالغوا في إكرامنا نحن المسلمين بشكل خاص. كان الكثير منا قبل الأسر أميين فعدنا من الأسر وقد تعلمنا القراءة والكتابة. هذا أقصى ما يمكن أن أقدمه لك من معلومات. وإنني سأقدم لك نسخة من كتيب أعده أحد معلمينا وطبعه هناك بالآلة اليدوية واشترط عليك أن تعيده لي وناولني الكتيب.

أخذته وقرأته فوجدته عبارة عن تاريخ لبور آرثر. لا بل من الأفضل أن أقول بأنه دفتر يوميات لرجل كان في بور آرثر أثناء الحرب. طبع منه حوالي ألفي نسخة ووزع على الأسرى. و قمت من فوري إلى منزل مضيفي الإمام حسن أفندي، فاستنسخته خلال اثنين وعشرين ساعة متواصلة. وسأقوم في المستقبل بطبع هذا الدفتر في كتيب خاص، لذلك فلا أجد حاجة لأن أضيف أكثر من ذلك.

في الرابع عشر من تشرين الثاني وبعد صلاة الجمعة عزمت على السفر على ظهر الدواب من شولدات إلى مدينة أجينيسكي. والمسافة بينهما ستون كيلومتر.

وعند مغادرتي لشولدات خرجت القرية بأسرها لتوديعي. فكان البعض يبكي والبعض الآخر يؤذن. ساروا معي حوالي ثلاثة عشر كيلومتر. أدركت أن مضيفي الإمام حسن أفندي، وفخر الدين أفندي وأمين أفندي وهما من شيوخ الحي قد نووا مرافقتي إلى آجينيسكي.

ودعت كل أهالي قرية شولدات عند قرية قارابيلنيك، و استأنفنا السير. وبعد نصف ساعة داهمتنا عاصفة ثلجية، والجو شديد البرودة حيث انخفضت درجة الحرارة إلى ٣٥ درجة مئوية تحت الصفر. الطريق سيئ والظلام دامس. وبعد مسيرة عشرين كيلومتر مررنا بقرية روسية، وعندئذ اقترح فخر الدين أفندي أن نبيت الليلة في القرية، إلا أن أمين أفندي أصر على مواصلة السير. ابتعدنا عن القرية ولم نعد نرى شيئاً. اشتدت العاصفة الثلجية، إلا أن أمين أفندي لا يفتأ يدفع الدواب على مواصلة السير. وفجأة صرخ كل من حسن أفندي وفخر الدين أفندي، فتوقفنا. انتظرناهم فوصلوا إلينا، فقال فخر الدين: إذا واصلنا السير نصف ساعة فسنضيع القرية التي وراءنا، ونضل الطريق. ونيتم أطفالنا ونرمل نساءنا. من الأفضل أن نعود إلى القرية.

وبعد مداولة قصيرة قررنا العودة ولكننا هذه المرة ضللنا الطريق، فلم نعد نعرف الجهة التي فيها القرية، فلا طريق ولا رؤية. سار أمين إلى عدة اتجاهات وأخيراً قرر التوجه إلى ناحية معينة معتقداً أنه الاتجاه الصحيح، وبدأ يسوق الدواب، غير أن المعالم غير معروفة، والقرية لا نراها. مشينا

حوالي ساعتين وأخيراً صادفنا رجلاً، وعرفنا فيما بعد أنه تائه مثلنا. كلمه أمين أفندي وفهم منه أنه في هذه المنطقة منذ أول الليل. وأنه لم يهتد إلى القرية. واصلنا الاتجاه يمنة ويسرة إلى أن ظهرت لنا تلك القرية وكان الفضل هذه المرة للدواب.

ولجنا بيت مواطن روسي بنية قضاء تلك الليلة. إنه بيت صغير يسكنه أكثر من خمسة عشر، وكنا أربعة فصار المجموع عشرين. أضف إلى ذلك كانت فيه بعض العجول وعدداً من صغار الخنازير وقطتين وكلب واحد فاجتمع أكثر من خمسة وعشرين مخلوقاً في غرفة صغيرة. وكان رأيي أن البقاء في العاصفة الثلجية أفضل من المبيت في هذه الغرفة، إلا أن فخر الدين أفندي لم يفتأ يشكر الله على هذه النعمة وعلى تخلص أهله وأطفاله من خطر اليتم. أما أنا فلم يكن بوسعي النوم من شدة الروائح الكريهة ولكنها الضرورة جعلتني أصبر حتى الصباح.

عندما ظهر الضوء بادرنا إلى الخروج. وفي الساعة التاسعة من صباح يوم السبت كنا بآجينيسكي في ضيافة صديقنا محمد باقر أفندي.

اجينيسكي وجدتها مدينة صغيرة، وفيها بيوت للمسلمين يبلغ عددها الخمسون. وفيها مسجد ومدرسة، ولا شيء آخر يستحق الذكر. إلا أنني لاحظت أمراً يجب أن أحمد الله عليه وهو أنني مررت بقرى روسية كثيرة في سيبيريا فلم أجد فيها مدرسة أو كنيسة. أما القرى الإسلامية ففيها

مدرسة ومسجد واحد على الأقل، مهما كان حجم القرية صغيراً، وفيها معلمون ومعلمات. فهذا الأمر جدير بالذكر والشكر.

غادرت أجينيسكي متوجهاً إلى ايرقوتسكي. والمسافة إليها ١١٧٦ كيلومتر. ومما لا شك فيه أن السير المتواصل في مثل هذه الطرق الطويلة يجعل الإنسان يشعر بالكثير من الملل والضيق. إن خط حديد سيبيريا في غاية الانتظام وعربات القطار من الطراز الحديث، ومع ذلك فليس من السهل قضاء وقت طويل في مثل هذه الأماكن الضيقة التي هي أشبه بالسجن، خاصة إذا كان عدد الأرانب فيها كثيراً (يقصد المؤلف الركاب غير النظاميين) وإذا كان الكثير منهم من السكارى. فالمرء يتعرض لكثير من المخاطر، وقانا الله من شرهم. إننا لا يغمض لنا جفن ولا نستطيع مغادرة المقصورة لشراء بعض الحاجيات في المحطات أثناء التوقف. والواقع أن بطء القطار على هذا الخط يزيد من الشعور بالسأم، فسرعة القطار لا تزيد عن عشرين كيلومتر في الساعة.

وفي ساعة مبكرة من صباح يوم العشرين من تشرين الثاني وصلت إلى مدينة ايرقوتسكي فاستقبلني في المحطة صديقي شيخ الله أفندي وأصدقاء اخرون. وبعد المصافحة والسؤال عن الأحوال عبرنا الجسر على نهر أنجارا ووصلنا إلى منزل شيخ الله أفندي. كان الجو شديد البرودة بشكل لم أعهد مثله منذ مدة طويلة. ومن الغريب أن درجة الحرارة ٣٥ تحت الصفر والماء في النهر لم يتجمد. والذي نعرفه في غرب سيبيريا أن درجة الحرارة

إذا انخفضت إلى ١٢ -١٤ تحت الصفر فإننا نعبر الأنهار المتجمدة على الدواب.

ويصر صاحبنا شيخ الله أفندي على عدم برودة الجو. أما أنا فأتعجب من شدة البرودة، وما كنت أدر بأن ثلاثين درجة تحت الصفر لا تعتبر باردة عند أهل ايرقوتسكي.

بقيت في منزل شيخ الله أفندي حتى المساء ثم اصطحبني إلى مضافة ديكوه الخاصة، فوجدت عدداً كبيراً من الرسائل قد سبقتني إليها. وبعد الإطلاع عليها كتبت الردود على التي تحتاج لذلك.

ايرقوتسكي

كانت هذه المدينة في الماضي البعيد أحد المراكز التجارية في سيبيريا. فقبل إنشاء خط الحديد، كان عدد كبير من التجار يفدون إليها من روسيا الداخلية ومن غرب سيبيريا والصين ومنغوليا متحملين زمهرير الشتاء القاسي، فيبيعون ويشترون كميات كبيرة من السلع والبضائع.

والآن تطورت المدينة إلى أحسن و لكنها فقدت تلك المكانة التجارية، وذلك لأن البضائع كانت تجلب إليها من موسكو وروسيا الداخلية وكنت تجد فيها البضائع و المنتوجات الصينية. أما الآن فإن منتوجات موسكو تصل مباشرة إلى بكين. كما تباع البضائع الصينية في بترسبورغ، لذلك فإن

ايرقوتسكي فقدت تلك المكانة التجارية، كما ساءت السوق التجارية في سبيريا بشكل عام.

بطلان كبيران

من خلال وجودي في ايرقوتسكي أود أن أعطي القراء بعض المعلومات عن مضيفي شيخ الله أفندي وأخيه زاهد الله أفندي. إن والد هذين البطلين بالفطرة ـ رحمه الله ـ كان من عامة الناس. لذلك فإنهما معذوران في عدم تحصيل العلم، إلا أنهما يملكان معيناً لا ينضب من الحمية والنشاط والجد والإقدام. إنهما بحق بطلان كبيران.

موطنهما الأصلي هو قرية اق يكيت التابعة لناحية سيويل بولاية قازان، وفي بداية الأمر ترك زاهد الله أفندي بلاده وهو في مقتبل عمره حتى وصل إلى الشرق الأقصى. وهو الذي باع برتقال يافا إلى ايرقوتسكي، كل حبة برتقال باثني عشر قرشاً قبل حوالي خمسين عاماً. وأخيراً استوطن ايرقوتسكي ولا يزال فيها.

ثم التحق شيخ الله أفندي بأخيه وتمكن بعد ذلك من السيطرة على تجارة سيبيريا كلها واختارها موطناً له.

فهذا الرجل في سيبيريا والآخر هناك في موطنه الأصلي، لا يزالان يتحملان عن طواعية مسؤولية مساعدة إخوانهم المسلمين أينما وجدوا. لم يرض ضميرهما أن يبقى أبناء المسلمين دون علم ومعرفة، فافتتح كل منهما مدارس ومساجد في البلد الذي هو فيه، وجمع مئات بل آلاف من

الطلبة المسلمين والأيتام في هذه المدارس وعلى نفقته الخاصة. ولا يزالان على هذه الحالة إلى يومنا هذا. فأينما سرت وجدت مدرسة افتتحها شيخ الله أفندي أو مسجداً بناه زاهد الله أفندي. فالمسجد الذي بناء في ايرقوتسكي كلفه مالا يقل عن ثلاثين ألف روبل. وفي مدرسة الذكور بايرقوتسكي يدرس ما يقرب من خمسين طالباً، أما مدرسة الإناث ففيها أكثر من سبعين طالبة. وأكثر الطلاب والطالبات هم من الأيتام، إذ ينفق شيخ الله أفندي ما في جيبه كي يربيهم ويعلمهم.

وقد اشتهر شيخ الله أفندي وصارت له مكانة عظيمة في جميع أنحاء سيبيريا، حتى صار التتار يسمون أبناءهم الذين ولدوا في هذا العام باسمه تيمنا. ولا يقتصر فضل هذا الرجل على التتار وحدهم، فالروس واليهود والبورات والياقوت يبالغون في احترام هذا الرجل إلى درجة تقديس اسمه. وحيثما وجدت فرعاً لبنك في ايرقوتسكي وجدت شيخ الله أفندي من زبائنه وأعضائه. وهو أيضاً عضو في الجمعيات الخيرية ورئيس للجمعية الخيرية الإسلامية.

وشهرة زاهد الله أفندي في موطنه لا تقل عن شهرة أخيه فهو مستمر في خدماته الجليلة. والنصيحة التي يقدمها هذان الأخوان للشباب تتلخص في جملة واحدة: «لا تكونوا جهلة مثلنا».

أكتفي هنا ببيان جزء من مناقب هذين البطلين ولو أردت أن أكتب كل شيء عنهما لصار ذلك كتاباً كاملاً. و أريد أن أطبع في كتابي هذا الصورة

لكل من الأخوين عرفاناً بما قدماه من جليل الأعمال في خدمة المسلمين وأبنائهم.

إن عدد الموسرين من المسلمين في ايرقوتسكي ليس بالكثير إلا أنهم أصحاب نخوة وحمية. فسكان الحي الإسلامي لا يزيد عددهم عن ألف إنسان ومع ذلك فلهم مدرستهم الفخمة وجمعيتهم الخيرية التي بلغ رأسمالها أكثر من عشرة آلاف روبل (١٢٥ ألف قرش).

لقاء مع خوري

تعرفت هنا على كثير من أعيان المدينة وأدبائها. ومن بين الذين تعرفت عليهم الخوري ايناكنيت بدجاربونسكي. ناقشته عدة مرات وحصلت منه على معلومات واسعة عن منغوليا.

وايناكنيت ليس برجل دين نصراني فحسب بل هو من أدباء هذا البلد. فهو بالإضافة إلى معرفته الفرنسية والألمانية فإنه يتقن المغولية ويلم بالتتارية، وخدماته للأدب أكثر من خدماته للدين. و إنه يولي الاهتمام بالمادة أكثر من اهتمامه بالروح. وقد ألف قبل أربع سنوات معجماً باللغتين الروسية والمغولية وطبعه.

ويرى هذا الرجل أنه ليس من شيء أكثر إزجاعاً لراحة شعوب الأرض من سياط النصارى، ومحاولة علمائهم إجبار غيرهم على تقديس ما يقدسونه.

يقول بدجاربونسكي عن منغوليا: "كلما زاد عدد المتنصرين بين المغول زاد انحطاطهم، ذلك لأن نصرانية اليوم تزرع باسم الدين بذور التفسخ الأخلاقي. و المنصرون الذين يعجزون عن إقناع الناس بالعقل والحكمة، يكونون سبباً في نشر مختلف أنواع الفساد والإفساد. لقد عودوا المغول و المنشوريين على شرب الخمور ووصل فساد الخلق في منغوليا إلى مراحل مخيفة، وأدى فساد الخلق لدى البورات والياقوت وتتار المينوسا إلى انحطاط كبير في أنسابهم وسلالاتهم. ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، بل بدأ الانحدار الخلقي في الشمال حيث الأستيك والسيمويت منذ تعرفوا على قومنا الروس وأقاموا معهم العلاقات.

إن حاجة البشر إلى الدين (أي دين) هي من أجل تقويم الخلق، ولا لقاء بين الدين وإفساد الأخلاق.

وبدجاربونسكي إنسان متخصص وذو خبرة واسعة بالشؤون المغولية. إنه تجول في كل شبر من منغوليا، ورأى كل نواحيها، وتفحص عادات أهلها و طبائعهم كما برع في تحليل آدابها. لذلك فإن أملي قوي بأن هذا الرجل له إطلاع واسع على مختلف الشؤون. إنه رجل روحاني، ولكنه نبذ التعصب، فلا شك أبداً في أن ما يقوله قريب من الحقيقة.

ويرى بدجاربونسكي أن التربية الخلقية في مذهب اللاما أحسن حالاً وأقرب إلى الفطرة. إلا أن عدم دفنهم لموتاهم أو عدم حرق جثثهم، وإلقاؤها في البراري، فإذا لم تصادفها الوحوش الكاسرة لتأكلها تبعثرت

هنا وهناك وانتشرت روائحها الكريهة، لأمر مؤسف ومؤثر جداً كما هو مضر بالصحة العامة.

ومع ذلك فقد عرفت منه أن مذهب اللاما يحرم الكذب والظلم والتعدي على حقوق الإنسان وكذلك الحيوان وقتل كل ذي روح. إنه يذكر النواحي الإيجابية، كما يذكر النواحي السلبية ويتأسف عليها، فهم يعتبرون الأب خالقاً للأبناء، وينسبون ذلك إلى الدين.

المرصد

لقد أتيحت لي فرصة أن أزور مرصد ايرقوتسكي. ورغم أنه لا يوجد في مرصد ايرقوتسكي ما هو جدير بالذكر فإن كون هذا المرصد في ايرقوتسكي بحد ذاته لأمر جدير بأن يذكر. إن هذا العلم الحديث نحن أصحابه، ومع ذلك لا تجد مرصداً في فلسطين بينما تراه وتشاهده في ايرقوتسكي. أليس ذلك مما يدعوا للألم والأسف؟ إننا عندما نرى مثل هذه العلوم الجميلة، لا نملك إلا أن نبكي مثل اليتيم الذي فقد ميراثه.

قابلت شيستا جوفيج مدير المرصد وبادلته الحديث. فقال لي إن المراصد أيضاً تضررت من استبداد الحكومة.

تدهور الأنساب لدى البورات وأسبابه

ثم التقيت بالدكتور توروباجيف وهو من أعيان الشعب البوراتي. هذا الرجل وإن كان بوراتياً فإنه أرغم على التنصر في صباه، وهو طبيب أكمل علومه الجامعية في بترسبورغ. ويشكل البورات جل همه وتفكيره. قال لي أثناء الحديث: إن بقي البورات على ما هم عليه فإنهم سينقرضون لا محالة. ونسلهم في تفسخ مستمر و إني أفكر في حل لذلك فلا أجده.

قلت: متى ستستفيد من علمك بالطب؟

أظن أنه ليس في طبنا حل لهذه المعضلة. وأغلب الاحتمال أننا سنلجأ إلى الطب الروحي.

لقد جربه المسنون من قومنا التتار كثيراً. فعندما توقف الإنجاب الطبيعي في قبيلتنا لجئوا إلى القبائل الأخرى فصاهروها. أنصحكم بتطبيق هذه الطريقة.

نعم لقد اقتنعت بهذه الفكرة، و أظنها فكرة طيبة فلا حاجة للتفكير بوسيلة أخرى. ولكن من نصاهر؟ هذه مشكلة أخرى.

«جربوها مع الروس».

لن أقبل بمصاهرة الروس حتى و لو تأكدت أن نسلنا سينقرض.

مادمتم قد قبلتم الدخول في النصرانية، فما المانع في مصاهرتهم أيضاً؟

لم أقبل النصرانية طواعية بل أرغموني عليها.

حاولوا أن تقيموا علاقات مع اليابانيين. الواقع أن العلاقات الدينية قائمة. أظن أن البورات سيوافقون على هذا.

اه، إن حدث ذلك فلا أشك في رضا وموافقة البورات جميعهم. هذا إن لم تحل الحكومة دون ذلك، وهذه مشكلة أخرى.

ولنقل إذا وافق اليابانيون أيضاً.

قرى ايرقوتسكي

تعودت عند إقامتي في مدينة ايرقوتسكي أن أزور القرى المجاورة. لقد شاهدت مدارسها، ووجدت فيها وعياً عاماً. وسكان هذه القرى المجاورة هم أناس منفيون، قضوا مدة حكمهم ثم استقروا فيها مضطرين، فهي قرى للمتهمين والمنفيين. ومع ذلك فقد دفعتهم حميتهم الدينية إلى إنشاء المدارس والمساجد. وليس الأمر مقتصراً على من أتم مدة نفيه أو حكمه، بل وإن للمحكومين بالأشغال الشاقة مدارسهم ومساجدهم.

وفي هذا المكان سجن يتسع لأكثر من خمسة وعشرين ألف شخص، حيث يشكل مدينة كاملة. وفيما عدا الموظفين فكل سكان هذه المدينة هم من السجناء المحرومين من الحقوق المدنية، إلا أنهم بشر مثلنا. ومن بين هؤلاء المحكومين المحرومين من الحقوق الإنسانية أناس من إخواننا في الدين. ورغم الحالة التي هم عليها من السجن والحرمان فقد دفعتهم حميتهم الدينية إلى أن يختاروا من بينهم إماماً يعلم أبناءهم وأبناء الذين

يأتون من بعدهم أمور دينهم. وهذا الإمام الذي هو في نفس الوقت أحد المحكومين يحافظ على مكانته بصفته إمام المسلمين هناك. فهذا الشيخ مفتاح الدين، إمام سجن الكسندر، من أطيب الناس. إن معلوماته الدينية سطحية إلا أن إيمانه قوي وصاحب همة وحمية ويقوم بمهمته الدينية في جمع القتلة والمجرمين وتعليمهم أمور دينهم. فإذا فكرنا ملياً في هذا الوضع أمكننا أن ننظر بعين التقدير لصلابة التتار الدينية. فالصلابة الدينية لمثل هؤلاء الناس المحرومين من الحقوق الإنسانية أمر جدير بالتقدير.

وسجن الكسندر ليس بالسجن الكبير. لكنه يستقبل كل عام سجناء جدد يتراوح عددهم ما بين خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف. ويتراوح عدد الذين يكملون مدة سجنهم بين ثلاثة الاف وأربعة الاف، وهؤلاء يخرجون ويسكنون في القرى المجاورة. إن أعداد المجرمين تتزايد عاماً بعد عام. وتجد منهم من يقتل، أو يموت بفعل السكر الشديد. ولقد شاهدت في قرية ايسوليا حوالي ثمانمائة من الرجال يعملون في جو تبلغ درجة حرارته خمساً وثلاثين تحت الصفر، صدورهم عارية والأبخرة تتصاعد من فوق رؤوسهم وكأنها الضباب. إن هذه الأماكن عبارة عن مناجم للفحم، ووجوه العمال لم تعرف الماء منذ أمد، وإن المرء ليصاب بالدهشة والخوف عندما ينظر إليهم، و كأنهم وحوش في صورة بشر.

وتجد في هذا السجن أناساً من أهل الدين والتقوى، والواقع أن سجنهم كان بسبب حميتهم الدينية. كما إن بينهم كثيرون من المساجين

السياسيين الروس. إلا أن طبيعة ذلك المكان قلبت ذكاء هؤلاء إلى بلاهة وسعادتهم إلى شقاء، ولم يبق لهم من صفاتهم الإنسانية إلا الاسم. وقيل لي أن بين المساجين السياسيين من بقي في السجن ثمانية عشر عاماً.

وأعرض هنا صور المحكومين بالأشغال الشاقة للعبرة.

ومن بين المساجين كثير من النساء ويؤدين العمل الذي لا تقوم به إلا الدواب. وقد نقلت في هذه الصفحة صورة لنسوة يعملن في مثل هذا العمل المهين.

وسجن الأشغال الشاقة يعرف عند الروس بـ "كاتوريجاني روبوتا" ومركز تنفيذ هذه الأحكام هو سجن الكسندر.

إن كل محكوم يعمل في المجال الذي يتقنه. فتجد الخياط والإسكافي والنجار وصانع المفاتيح والصائغ وغيرهم، كل واحد يعمل في مجال مهنته أو صنعته. أما الذي لا يتقن صنعة فمجاله الأشغال الشاقة.

إن منتوجات هذه السجون تدر وارداً كبيراً. ولذلك فهم قد حددوا رواتب معينة لكل صاحب فن أو صنعة، تتجمع هذه الرواتب في خزينة السجن، حيث يخصص ثلثها للدولة وثلثها لمصاريف السجن، والثلث الباقي يعطي للسجين عند خروجه بعد استكمال مدة حكمه. وقد جمع بعض من أصحاب المهن من هؤلاء مالاً وفيراً و تجد كثيرين ممن لديهم أربعة أو خمسة آلاف روبل، خرجوا من السجن وشقوا طريقهم في العمل

ليكونوا بعد ذلك من أصحاب الثروة والغنى. إلا أن الممنوع عليهم هو عودتهم إلى مواطنهم الأصلية.

إن هؤلاء يعرفون فيما بينهم بطلاب الجامعة، وعدد أصحاب الفهم والدراية فيهم ليس بالقليل. وقد قابلت واحداً من المحكوم عليهم بالشغل وجرى بيننا الحوار التالي:

سألت: في السجن أشغال شاقة أليس كذلك؟

السجين: في رأيي لا سجن هنا إلا للسياسيين، لأن أكثرهم كانوا معززين مكرمين في ديارهم. كانوا يخدمون الأوطان بأفكارهم. أما نحن فكنا نعيش في بلادنا في فقر وفاقة فلا دواء ولا طعام، فهذا المكان أحسن من بلادنا. إننا غير محرومين من العمل على أقل تقدير وإن كان هناك ما يمكن أن نسميه بالشغل فذلك هو بعدنا عن الوطن والأهل والأولاد. أما من أصطحب أهله معه فلا يعتبر من المحكومين بالشغل.

إذن فأنت راض بما أنت فيه.

هناك شيء يؤرقني: أننا نلنا جزاء ما اقترفناه. قالوا إنها عقوبة، و ساقونا منفيين بعيداً عن الوطن. هذا معقول ومفهوم عندي، ولكن لي أسرة أعيلها، ولي أولاد وبنات، لقد أصبحوا الآن من دون معيل. فما ذنب هؤلاء؟ لقد تيتموا وأبوهم لا يزال حياً. أظن إن ذلك لا يليق بالعدالة.

أعجبني كلام ذلك المحكوم. وقلت: ما رأيك في هذا الموضوع؟ كيف يليق بالعدالة أن تكون؟

في رأيي أن النفي بالنسبة للجاني ليس بالعقوبة، لأنه وإن كان فيه الشيء من ألم الفراق، فقد يزول الألم عندما يصل إلى منفاه ويستقر. إلا أن العقوبة الكبيرة تنزل بأهل الجاني. والواقع فإن هدف الحكومات هو استيطان المستعمرات التي تكون كثافتها السكانية قليلة. وهناك حقيقة أخرى وهي ازدياد نسبة الجرائم في البلاد التي تطبق على مواطنيها عقوبة النفي. هذا أمر ثابت ومشاهد وطبيعي. أرى أن تحدد العقوبات الشديدة، بشرط ضمان معيشة أهل المحكوم عليه بالعقوبة. إن لي أولاد تتراوح أعمارهم بين ثلاث وخمس سنوات وليس هناك من يعيلهم. كما أنهم سيحرمون من تلقي العلم. كنت إنساناً طائشاً و لكنني لم أكن راضياً عن حالي. ولا شك أنني كنت أتطلع لأرسلهم إلى المدارس حتى لا يصيرون إلى ما صرت إليه. لقد أرسلوني إلى المنفى و لكنهم ما دروا بأن أطفالي سيزيدون عدد الطائشين ثلاثة. لذلك فإنك ترى عدد الجناة المنفيين إلى هذا السجن يزيد عاماً بعد عام.

لقد أثار كلام هذا الرجل اهتمامي وشدني له، لكن الشرطي وصل في تلك اللحظة ومنعنا من مواصلة الحديث.

وبعد أن تجولت في قرى المحكومين بالشغل عدت إلى ايرقوتسكي.

متحف ايرقوتسكي

وذات يوم زرت متحف المدينة. والمتحف هنا زاخر بالآثار الشرقية. وخاصة القسم الخاص بالشعوب، حيث يحتوي كثيراً من الآثار الغريبة

المتعلقة بالعقيدة البوذية والشامانية وكل أنواع الآلهة المجسمة والمعروفة بالبورخان. إنها بورخانات مزينة بمجوهرات لا تقدر بثمن ويبلغ مجموعها مائة وثمانية وخمسين.

كما أن هناك أدعية مكتوبة بالخط المغولي، بينها دعاء خاص بمنع بكاء الطفل، وأدعية خاصة بالوقاية من المرض ومن الإصابة بالعين. إن خطوطهم تمتاز بالفن الرفيع حائزة على تقدير من المختصين وكلها بالكتابة المغولية. وأسجل هنا بعضاً ممن أثار اهتمامي في هذا المتحف.

إحدى عشر صورة بشرية مجسمة على جذر شجرة وهي موزعة على فروع ذلك الجذر، وهي صور لبوذا وتلاميذه حسبما ورد في تعريف حامبا لاما، وصيدلية بوراتية مع موازينها. «وكليشيه» مصنوع قبل مائتين واثني عشر عاماً، مما يدل على وجود دار للطباعة في منغوليا بتلك الفترة، وقارب مصنوع من قشر شجر الكابي، مجاديفه تذكر المرء بقوارب اسطنبول. أما هذا القارب فهو ذو صنعة فريدة، وزنه دون مجاديفه بوت وثماني وعشرين تونت، ويعادل اثنين وعشرين أقة تقريباً. لقد ابتاعوه من تتار المينوسين، وكان يستعمل في نهري يني سي وايبرة.

وفي هذا المتحف آثار شرقية أخرى مهمة، و لكنها لم تنظم بعد بالرغم من افتتاح هذا المتحف قبل خمسة وعشرين عاماً.

مجلس المبعوثان العثماني ومسلمو إيرقوتسكي

أفادت البرقيات الواردة إلى إيرقوتسكي مساء يوم الجمعة أن مجلس المبعوثان العثماني افتتح في استنبول وفي تلك الليلة اجتمع المسلمون من أهل إيرقوتسكي وأقاموا حفلاً خطابياً عبروا فيه عن فرحتهم، ودعوا للمجلس بالتوفيق، وكتبوا برقية إلى مجلس المبعوثان يعبرون فيها عن مشاعرهم، إلا أن موظفي البرقيات الخاضعين لتسلط الحكم الاستبدادي حالوا دون وصول البرقية.

كان هناك إصرار من مسلمي إيرقوتسكي على مشاركتهم القلبية لإخوانهم المسلمين في استنبول فرحتهم بعيد الحرية.

إنه لمن دواعي السرور حقاً أن تلقى نشوة الحرية التي عاشها كافة إخواننا المسلمين العثمانيين في الصباح صداها في قلوب مسلمي ايرقوتسكي في المساء، وكأن البرقيات اللاسلكية ربطت القلوب بعضها البعض. ولو أني أردت التعبير عن كل مظاهر الفرحة لدى مسلمي ايرقوتسكي في ذلك اليوم لما استوعبتها هذه الصفحات ولكنني أكتفي بما ذكرت آخذاً بنظر الاعتبار العلاقة بين رحلتي في سيبيريا و بين افتتاح مجلس المبعوثان العثماني.

وبعد قضاء خمسة عشر يوماً في ايرقوتسكي خرجت منها متوجهاً إلى مدينة ويرخانة أودين. إن خط سيري يمر ملتفاً حول بحيرة بايكال غير أني لم أتمكن من مشاهدة أي شيء بسبب السفر ليلاً. لم أحس بشيء سوى

المرور في تلك الأنفاق الرهيبة ولم يكن من نصيبي مشاهدة المناظر الخلابة حول البحيرة.

داثان (الصومعة)
معلومات عن بوذا واللاما والشامانية ومذاهبها

بعد وصولي إلى مدينة ويرخانة أودين والحديث مع بعض الناس، ركبت عربة تزلج واتجهت إلى داثان (الصومعة) لزيارة حامبا لاما الشهير، وهو الرئيس الثاني للبوذية، والصومعة مقامة على بحيرة غازلر قرب مدينة كاهتا على الحدود الصينية، وتبعد عن مدينة ويرخانة أودين حوالي ثمانين كيلوا متراً. ومن حيث الأصل والظاهر فإن البوذية لها رئيسان، أحدهما الدالاي لاما ويقيم في التيبت بصفة مستمرة، والآخر حامبا لاما وهو من البورات في منغوليا ويقيم في اسان. وفيما عدا هذين الرئيسين فإن البوذيين يعترفون بإله اسمه «حوتوتو» ويقيم في كهف قرب أورغا في الصين يسمونه «الإله الحي».

فالرجل الذي قصدته للحديث معه هو حامبا لاما المنسوب إلى قبيلة البورات، وهو صاحب أعظم مكانة في منغوليا، ويقيم في الداثان كما ذكرت وكنت قبل مجيئي إلى ذلك المكان جمعت بعض المعلومات عنه وعرفت طباعه.

وصلت الداثان في الصباح الباكر من اليوم العاشر من كانون الأول.

كيف أصف المكان للقراء؟ إن قلت بأنه صومعة، فلا أظن أنني قربته من أذهان القراء الكرام. و لعله أشبه بالدير من أي شيء آخر، والتعريف الحقيقي لهذا المكان يتطلب سرد بعض المعلومات عن عقيدة مذهب اللاما في الديانة البوذية.

الداثان والتشريفات وحامبا لاما

داثان قرية منظمة ومرتبة ترتيباً جيداً، أي أنها بنيت على أساس مخطط. شوارع مستقيمة، وبيوت صغيرة تحتوي على حجرة واحدة وطابق واحد، وقباب كبيرة جداً ذات أربع زوايا ومزينة بزينات لامعة، وعدد بيوتها ما بين مائتين وخمسين وثلاثمائة. إن الأمر الملفت للنظر، أن هذه القرية ليس فيها نساء على الإطلاق.

عندما قدمت إليها دخلت من فوري إلى البيت المعد للضيافة. وبعد الاستراحة أبلغو حامبا لاما بقدومي، فأرسل أحد اللامات لاستقبالي. واللامات جميعاً يرتدون ملابس صفراء طويلة، وفي أثناء المراسم يتمنطقون بنطاق أحمر، و يمر طرف من هذا النطاق فوق الكتف، ولا يلبسون شيئاً على الرأس. وبعد نصف ساعة رافقني لاما التشريفات إلى مجلس حامبا لاما، و نزل حامبا كبير ويحتوي على عدد من الغرف الصغيرة، لكنها في غاية النظافة والاعتناء. وعندما دخلنا من الباب الخارجي كان حامبا لاما في انتظارنا في الباب الداخلي، فتقدم بعض

الخطوات وقال مخاطباً باللغة الروسية: «مرحباً بك تفضل» فاقتربنا وتصافحنا وولجنا الباب الداخلي وهو ممسك بيدي.

وحامبا لا ما متوسط القامة، مستدير الوجه، تبدو عليه علائم الذكاء، وكرر السؤال عن صحتي وأبدى سروره لاستقبالي. إنه يجيد الروسية تماماً والبيت الذي يقيم فيه اللاما عبارة عن غرفة صغيرة، فمن الواضح أنه عازب. أما مفروشات البيت فهي عبارة عن «شنطتي» سفر وفراش وهاتف، بالإضافة إلى عدد من البورخانات أي الآلهة المجسمة.. لا غير.

حديث مع حامبا لاما

قلت: إن هدفي الأساسي من هذه الزيارة التعرف عليك والإستزادة من علمك.

حامبا لاما: لقد سرت جداً. سمعت عنك خلال وجودي في بترسبورغ ولكن لم أتمكن من لقائك. أشكرك الشكر الجزيل على إطرائك لي.

قلت: قبل أي شيء أود أن أطرح بعض الأسئلة راجياً تزويدي بالمعلومات وسأستمع إليك بكل اهتمام واحترام.

قال: تفضل فأنا مستعد.

قلت: رجائي قبل كل شيء أن تخبرني عن أتباع مذهب اللاما. ما هي عقائدهم؟ ما هي الألوهية لديهم؟ و ما هي النبوة؟ ما هي العبادة؟ ما هي اللاماتية؟ و ما هي الشامانية؟.

ثم أرجو منك تزويدي بمعلومات عن الحالة الاجتماعية لشعب البورات، ووضعه ومستقبله السياسي.

ومنعاً للتكلف في حديثنا أود أن أسرد بعض المعلومات عن حياتي الشخصية. فأنا تتاري من ولاية توبولسك. تلقيت علومي في اسطنبول وديار العرب و عملت فترة في المحكمة الشرعية في أرنبورغ. وفي الأيام الأخيرة أقمت في بترسبورغ. أصدرت صحيفة فأوقفت الحكومة إصدارها. ثم خرجت راحلاً.

قال: لا عليك، فإني سأتحدث معك بصراحة ودون تكلف لأن كل الأقوام في روسيا فيما عدا الروس يمكن أن تتفاهم فيما بينها، لأن مشكلاتهم واحدة، وخاصة أني أعرفك، فأنا واثق منك.

من حيث الأساس فإن المذهب البوذي عندنا له فرق كثيرة، وأكثر هذه الفرق خرجت عن البوذية. لا إله عندنا وما يظنه الجهلة من أن البورخانات والصور المجسمة هي الآلهة و ما هي بالآلهة و إنما هي صور لبوذا أو صور لعظماء خدموا البوذية.

ويوجد عند كل البوذا مائة مجلد ومجلد من الكتب مكتوبة بالخط المغولي.

كما أذكرك بأن ما سأقوله لك أقوله بصفتي عالم بوذي، ثم أبين عقيدتي الشخصية.

عقائدهم

إن كل قسم من أقسام الكائنات في العقيدة البوذية (والقول لا زال لحامبا لاما) يتبع موجده. وذلك الموجد هو معبوده.

نحن بشر. إن وجودنا في هذا الكون ناتج عن العلاقة الطبيعية بين زوجين أو ما نسميهما بلغة اليوم بالأب والأم، وتلك العلاقة هي معبودنا، وبسبب هذا الاعتقاد فإننا نقدس في الجزء الباطني من معابدنا تلك العملية المجسمة بكافة أشكالها.

ومعابدنا قسمان: قسم باطني ليس لأحد من غير مذهب بوذا دخوله، وقسم ظاهري يمكن لأي أحد أن يدخله ويراه.

إن أساس الأشياء التي يجب الإيمان بها عندنا هو صورة الإنسان. وطول هذا الإنسان قبل أن يرتكب ذنباً أو خطيئة، ثمانون ذراعاً. وكان الناس في تلك الفترة قدسيين، ثم ابتلي الإنسان بالآثام، وكلما تراكمت خطاياه عبر القرون قصر طوله، إلى أن وصل إلى الطول الذي هو عليه. فطول الإنسان هو مقياس العدالة. (تجد في معابدهم صورة إنسان طوله ثمانون ذراعاً).

لا ألوهية في مذهب بوذا، ولا نبوة، وإنما هناك معلمون جاءوا ليعلموا الناس ويربوهم وهؤلاء هم البوذا وعددهم حتى الآن أربعة: شاه ياموني،

وأيساب، وغانغا نوي، وغارغا صوندي. وعدد الذين سيأتون من بعدهم (٩٩٦).

العبادة

أما عن عبادتنا، فالعبادة الكبرى عندنا هي التفكر. فالمرء عندما يتفكر يلين قلبه وحينذاك عليه أن يبدأ بالقراءة. وعليه خلال القراءة قرع الجرس عدة مرات وذلك لتحضير الأرواح، وحينما تجيء الأرواح، عليه نثر البذور يمنة ويسرة وتلك هي الصدقة.

وإذا رغبت فإني أريك صورة العبادة (وقام من مكانه، ولبس كسوة صفراء ثم جلس، وأمسك بيمناه مسبحة و بيسراه جرساً و بدأ يقرأ. وقراءته تشبه دندنة الحفاظ عندنا، وكان يقرأ بالمغولية، ويقرع الجرس بين الفنية والأخرى، ويأخذ من الكيس الذي بجانبه قليلاً من القمح وينثره. واستغرقت قراءته خمس دقائق) وقال: هذا هو شكل العبادة عندنا. ولقد رأيت مثل هذه العبادة في معبدهم أيضاً.

لاما

كلمة لاما تعني التجرد. فالإنسان الذي يختار التجرد، أي يترك أهله وينزوي ليعيش متجرداً (عازباً) يقال له لاما. وهذه الحالة تعتبر بداية سلوك وليس بالمذهب.

الشامانية ليست من المذهب البوذي. فالشامانيون يدعون بأنهم بوذيون، لكنهم ليسوا كذلك، لأنهم ذبحوا القرابين تكفيراً لذنوبهم،

ويطرحون الأضحية على الأرض ويربطون أرجلها بالحبال ويجرونها هنا و هناك، فمن أمسك بالحبل فقد غفرت خطيئته ثم يأتي الشامان، فيشق صدر الأضحية ويدخل يده في جوفها ويعصر قلبها وبذلك يتلف الحيوان على هذه الصورة. وهكذا تغفر خطاياهم. أما المذهب البوذي فإنه يحرم قتل النفس الحية تحريماً قاطعاً. إذن فكيف يكون الشامانيون بوذيين؟ ومع ذلك فهم يدعون البوذية.

الوضع الاجتماعي

أما عن الوضع الاجتماعي والحياة السياسية للشعب البوراتي، فأمر غريب حقاً. فحضارتنا وحياتنا السياسية تسلط عليها الأجانب من الروس. أموالنا وأرواحنا وديننا بيد الروس. لقد ضاع كياننا، فأخلاق الأفراد تتردى يوماً بعد يوم، وشعبنا محكوم عليه بالفناء. أنسابنا يعتريها الفساد السريع وسوف ننتهي مالم يصلنا مدد معنوي.

ولا يقتصر الأمر علينا، إذ أن كل العناصر في روسيا باستثناء العنصر الروسي في حالة يرثى لها. وهناك فارق واحد وهو أن قومنا أقل عدداً وأضعف حالاً وبالتالي فنحن أكثر تعرضاً للظلم.

حامبا لاما

في الوقت الحاضر أنا في مقام حامبا لاما. ففي مذهبنا البوذي شخصان يسيطران روحانياً وجسمانيا: أحدهما الدالاي لاما ويقيم في التيبت، والآخر حامبا لاما، وتراني مقيماً هنا، وهناك ثالث بل هو الأول وهو

«حوتوتو». ويعتبر نائباً للبوذا. وسمي حوتوتو لأنه لا يتدخل سوى بالأمور الروحية. وقد تجرد من الصفات البشرية (والأنسب أن يقال فني في الله).

والمرء إن أراد تربية نفسه عليه أن يتخذ عقله دليلاً، وفكره خادماً، فبمقدار تطور قدرة التفكير لدى الإنسان تبلغ تربيته مبلغ الكمال.

وبداية الكمال تكون في درجة (واجريانة) ومن كان في هذه المرحلة قدم مصلحة أخيه على مصلحته. أما المرحلة الثانية فهي (ماحايانة) وفي هذه المرحلة يضحي الإنسان بنفسه من أجل المصلحة العامة. أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة (حاينايانا) ومن يبلغ هذه المرحلة لا يشغل نفسه بالماديات ويعيش في عالم آخر.

وعليه فإن من أراد سلوك هذا الطريق يجب قبل كل شيء أن يتجرد. فأنا متجرد وحسب. ومن أراد استعمال قوة تفكيره، عليه أن يتجرد من الأوصاف التي تمنع التفكير. وهذا يعني التجرد من المعبود الذي يولد الخطيئة.

والذنوب التي تؤثر على قامة الإنسان في المذهب البوذي هي الكبائر، مثل مباشرة النساء، والقتال، وإتلاف كل ذي روح، والاعتداء على حق الغير، والكذب والانتفاع من شيء لم يكن له فيه يد. والظلم أيضاً من الكبائر.

والإنسان في دنياه يمر بمراحل كثيرة، ولكن تواجده وراء هذه الحياة حياة أخرى. يجب الاستعداد لها. وحياتنا هنا مقدمة لتلك الحياة.

الموت

الموت يعني أن يضحي المرء بنفسه من أجل سائر المخلوقات، ولذلك فإن الروح تتجرد من الجسد لتفديه بسائر المخلوقات. فكما أن للإنسان حق في هذا الجسم فلسائر المخلوقات أيضاً حق في ذلك الجسم يجب أن

يتحقق. وعليه فإننا نخرج الجسد الذي هو من دون روح من وسطنا ونرميه في غابة أو صحراء أو في أي مكان غير مطروق ولا ندفنه ولا نحرقه، كيلا يكون هناك مانع من أن ينال كل مخلوق حقه من هذا الجسد. وليس للدنيا مبدأ أو منتهى، ولكن المؤكد هو أن هناك حياة وراء هذه الحياة.

أثار اهتمامي، وقار حامبا لاما ومهارته في اللغة الروسية، فقد كان ينطق كلمة كلمة.

وعندما كررت قولي بأنني استفدت وكنت محظوظاً بهذا التعارف، أجاب بأنه أخ لي في الدم، كما تمنى بأن نتمكن من اللقاء على أساس التوحيد، وكدت أقول أنه من الموحدين. أما قصدهم في قوله أن الله غير موجود، فهو عدم كونه موجوداً وتدركه الحواس. هذا هو المعنى المراد عندهم.

الكتاب المقدس لدى البوذيين والنبي محمد ﷺ

وقال بأن لهم كتاب بمائة مجلد ومجلد ألفه بوذا، وأنهم يعتقدون بأنه الكتاب المقدس. وفي تلك اللحظة مد يده إلى الهاتف وتكلم بشيء، وقال بأنه سيريني مجلداً من الكتاب المقدس.

وإذا برجل يدخل علينا بعلبة خشبية مستطيلة الشكل، وناولني العلبة. والعلبة تفتح من وسطها. ورأيت أن ما في داخله عن صحائف مكتوبة باللغة المغولية، تقرأ من الأعلى إلى الأسفل. وكل صحيفة تحتوي على سبعة أسطر. والوجه الآخر للورقة بيضاء خالية من الكتابة.

قال حامبا لاما: «ورد في كتابنا اسم محمد» فلما سمعت ذلك سررت كثيراً ووقفت إجلالاً للكتاب الذي ورد فيه اسم محمد.

وانتقل حامبا لاما إلى موضوع التوحيد قائلاً: لا يمكن أن أنكر نبوة محمد أريد أن أبدي وجهة نظري في هذا الشأن بصورة خاصة. إلا أن أهمية الموضوع في هذه الناحية، وحاجته إلى لغة متخصصة تسببت في نوع من الغموض والإبهام.

آثار التنصير في العالم البوذي

ثم تطرق الحديث إلى المنصرين. قلت: أرجو أن تعطيني فكرة عن تأثير المنصرين.

- في بعض الفترات تنصر كثير من قومنا البورات، ولكن بعد ذلك ندم الكثير منهم. وفي حركة الحرية الأخيرة رجع حوالي سبعة آلاف. والواقع إن أحداً من الذين يعرفون المذهب جيداً لم يتنصر ولا يتوقع أن يتنصر منهم أحد. وهناك بعض الجهلة تنصروا من أجل المال وبعضهم من أجل الفتيات الروسيات وبعضهم تنصر للتخلص من شر الحكومة، وأهمية هؤلاء على قدر مكانتهم.

وبينما كنا في الحديث دخل أحد الخدم وأسر في أذن حامبا لاما شيئاً، فنظر إلي وقال: لقد جاءنا ضيف متوحش. اسمح لي قدر ساعة، فأنا أعرف كيف أصرفه في أقل وقت ممكن. لا أدري إلى متى سنبقى تحت المراقبة!

مشاهداتي في الداثانات (الصوامع)

وهنا قلت له: إنكم وافقتم على زيارتي الداثانات، وسأكون ممتنا لو أمرتم الترجمان، كي يرافقني.. رافقني الترجمان في زيارة الداثانات. بدأنا بالداثان الكبير. رأيت المنادين ينفخون في بوقين أحدهما يسمونه ظورناي والآخر كيرناي. فاستقبلونا بمقطوعة خاصة.

شاهدت تمثالاً ضخماً جداً لبوذا وبطول ثمانين ذراعاً. وكما أوضحنا في الصفحات السابقة فإن التماثيل موجودة في معبدهم بمقتضى عقائدهم. وإن كان في هذه التماثيل ما يدعو للإعجاب فهو فن الصنعة فيها، إنه لأمر محير حقاً، لأنها نحتت وصنعت بشكل رائع جداً. وأرى في هذه الداثانات روعة أخرى، حيث أن أماكن العبادة في الداثان الكبير جميلة

جداً، وعدد التماثيل ليس بالكثير وهو على درجة كبيرة من النظافة. كثيراً من الأموال صرفت باسم الدين على مكان يعتبر قرية صغيرة أقيمت فيه معابد ضخمة يبلغ مجموعها خمسة عشر، وأكثرها بيوت للتماثيل، ولا تمارس فيها العبادة وهذه البيوت مقدسة. إذن فإن أساس المذهب البوذي يتمثل في دور الأصنام هذه، وكثير من دور الأصنام هذه تبدو وكأنها أماكن لارتكاب الفواحش. هذه التماثيل الشنيعة تزار وتقدس، إلا أنهم لم يسمحوا لي بالدخول فيها متذرعين بعدم وجود مفاتيحها. أما أنا فقد تفهمت سبب ذلك.

وبعد أن تجولت في الداثانات مدة ساعتين أو ثلاثة، عدت إلى دار الضيافة فتناولت الشاي واسترحت قليلاً. ثم جاء مأمور التشريفات وعرض علي أن نذهب إلى مجلس حامبا لاما. إنه بالانتظار.

وعدت ثانية إلى مجلس حامبا لاما وقلت: هل ذهب ضيفك؟

- متى يريحنا الله من مثل هؤلاء الضيوف؟ فإذا بقيت الحكومة الروسية على سيرتها هذه فزوالها قريب.

- أوه، أكان عزيزاً ذلك الضيف؟ ظننت أنه رجل قدم لزيارتك.

- عندما يرون ضيفاً قادماً إلى الداثانات، يبادرون بالمجيء. لقد أثار قدومك الشبهة لديهم. عرفوا اسمك، فسألوا عن سبب زيارتك وعن العلاقة بيننا.

هذه الظاهرة مرضية لدى الروس بعد حربهم مع اليابان حيث جعلوا البلاد كلها تحت المراقبة.

البوذيون يخفون طقوسهم

- زرت الداثانات ورأيتها وسررت برؤيتها، فيها آثار نفيسة وتماثيل بديعة، لكن الترجمان منعني عن بعض الصوامع متذرعاً بعدم وجود مفاتيحها.

فأنا أرجوك أن تيسر لي مشاهدتها جميعاً.

- إن ذلك من مقتضيات مذهبنا. قلت لك قبلاً إن في معابدنا قسماً لا يمكننا أن نريه لمن هو من غير مذهبنا، فهو ذلك القسم.

- لعلكم تمنعونه من الأعداء. أما أنا فلا أضمر للمذهب البوذي عداوة ثم أنني أنظر إليه نظرة احترام..

- لا يمكننا أن نسمح للأجانب بشكل عام. لأن طقوسنا الروحية تصير هدفاً لسخريتهم.

- كن مطمئناً إلى أنه ليس من طبعي أن أسخر من دين أحد. فلن أسخر. فإذا لم يعجبني ما أراه سألتزم الصمت.

- إعذرني، فلن أستطيع السماح بذلك.

- إن كان ذلك من مقتضيات دينكم فلا اعتراض. ولكن إن كان ذلك سبب وهم وتوقع، فأرجو أن تسمح لي. إن النصارى عندهم قضية التثليث.: فالله عندهم ثلاثة وواحد في نفس الوقت يقولون "واحد وثلاثة" فإن قلت: كيف يكون الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً؟ أجابوا: "إن ذلك سر إلهي لا يمكن فهمه ممن لا يقبل بالنصرانية؟ "ولم يفكروا أن غير المفهوم لا يمكن قبوله. فإن كان عندكم مثل ما عندهم، فسأصرف النظر عن طلبي وإن كان غير ذلك فأنا أريد الرؤية.

- يمكنك الرؤية إن أردت، ولكن أرجو ألا تسخر.

- كن مطمئناً؛ الإسلام لا يجيز ذلك أبداً. ونحن مسلمون «لكم دينكم ولي دين».

طوفان نوح

لنعد إلى الحديث وقد تطرقنا إلى طوفان نوح. وكان رأي حامبا لاما في هذا الموضوع عجيباً حقا. قال: إن إنكار طوفان نوح، يعني إثبات العجز لله وهذا غير جائز. وإذا كان إثبات العجز لله غير جائز فإن إثبات الظلم له

غير جائز أيضاً. فلا علاقة بين الأقباط المصريين الذين استحقوا العذاب وبين الصينيين. فالطوفان إن وقع، فقد وقع في تلك الديار فحسب.

- هذا كلام جميل، ولكن هل لديك أدلة أخرى على عدم حدوث الطوفان؟

- ليس هناك دليل لمثل هذا الحدث أكبر من التاريخ.

ليس في تاريخ الصين والمغول كلمة واحدة عن الطوفان. في حين نملك تواريخ مضبوطة لما قبل أربعة آلاف وستة آلاف عام. أمن المعقول أن يحدث مثل هذا الحدث ولا يضبط.؟

عقيدة حامبا لاما الخاصة

والآن أبين لك رأيي الخاص وعقيدتي الشخصية: وسأقول هذا باعتباري مغولياً بوراتيا وليس بصفتي حامبا لاما.

إنني اتبع عقيدة تخصني وحدي. أعتقد بأن وجود قوة مدبرة في هذا الكون، وخالق ومرب، أمر يوافق العقل. يمكنك أن تسمي تلك القوة ما شئت من التسميات. يمكنك أن تقول الطبيعة، أو الله، فهو واحد، والعقل السليم يكفي لإثبات وجوده، وأظن أن الطبع السليم لا ينكره. ثم إن حاجة الطبع البشري إلى معبود حاجة قطعية. وهذا الشوق الطبيعي يجعلنا نسعى لاتخاذ قطع الأشجار وقطع النسيج آلهة.

أما حاجة الشعوب إلى نبي أو رسول فأنا أشك في هذه الحاجة. ولنفترض جدلاً أنها حاجة طبيعية، ولكن هل من المعقول أن تتحقق هذه الحاجة في جانب من الكرة الأرضية ولا تتحقق في جانب آخر. لم يظهر في ديار المغول والصين نبي واحد. لا نجد في تواريخنا كلمة واحدة توحي باسم نبي.

- أليس هناك احتمال بأن يكون البوذا (وات) أنبياء؟ لقد ورد في قرآننا ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وهذا النص يؤكد على وجود أنبياء و مرسلين.

- احتمال كون البوذا (وات) أنبياء بعيد. فأسلوب الأوامر في الإنجيل والتوراة والقرآن يختلف اختلافاً بيناً عن أسلوب كتب البوذا. إن بعض القصص الواردة في القران موجودة في التوراة والإنجيل. فقصة ادم، وقصة نوح وغيرها من القصص الكثيرة وردت في هذه الكتب جميعاً. ولكن لم يرد شيء منها في كتبنا.

- لعلها حرفت، وبانقضاء الدهور صارت على الحالة التي فيها الآن. تقول بأن اسم محمد ورد في كتاب بوذا وأوشك أن أقول بأن هذه إحدى العلامات.

- الصينيون والمغول أمم قديمة جداً. فعدم احتواء تواريخهم على اسم واحد من أسماء الأنبياء العظام لأمر غريب حقاً.!

لا أجد أية علاقة بين البوذا وبين النبوة حتى في الأسماء. وقد ذكرت فيما سبق أسماء أربعة من البوذاوات وآخر البوذاوات القادمين سيكون اسمه (موي به).

البوذيون في أوربا

بعد البحث الطويل مع حامبا لاما عن المذهب، تحول إلى الحديث عن جولته في أوربا وقال: عندما كنت في فرنسا وجدت كثيراً من الناس قد أتقنوا المذهب البوذي، إلا أن الشيء الذي استغربته هو أن لم أجد أي واحد منهم يعرف عن المذهب البوذي شيئاً. سألتهم: لماذا اخترتم المذهب البوذي؟ قالوا: "ليس في فرنسا مذهب بوذي فنحن أحييناه". الذي أقوله أن صرعة الموضة أثرت حتى في المذهب، وليس لي أي تفسير آخر، ومع ذلك فقد حضرت اجتماعهم يوماً و أجرينا طقوساً على المذهب البوذي، لقد سروا كثيراً. وأنا بدوري أبديت سروري.

حملة المنصرين على بوذا

وعدت من هامبورغ عن طريق الهند. ومررت بسيام (ولا زال القول لحامبا لاما) و التقيت بأعيان ورجال المذاهب في كل البلاد التي زرتها، وعلى ضوء النتائج التي حصلت عليها يمكنني أن أقول بأن المنصرين يقودون في كل مكان حملة شعواء على البوذيين.

- ألا يلتزم اليابانيون بحماية المذهب البوذي.

- ليس هناك اتصال أو تعارف بيني وبين اليابانيين، و لكنني أرى أن الأمم التي اختارت جانب التحضر و التمدن تكون علاقاتها بالدين من الجانب السياسي فحسب. والآن أرجو منك إن وصلت بالسلامة أن تزودني معلومات عن اليابان و أكون لك من الشاكرين.

- ستكون بيننا مكاتبات إن شاء الله ولي رغبة أن أتزود منك بمعلومات أكثر، فإن أذنت لي الآن، فإننا نرتاح قليلاً ثم نعاود الحديث في الصباح.

- يمكنكم أن تبيت هنا إن أردت. فأنا هنا وحيد.

- الأفضل أن أذهب إلى المضافة فإن لي بعض الأعمال.

عدت إلى المضافة وانشغلت ببعض أعمالي. وفي الصباح الباكر جاءني موظف التشريفات وأبلغني بانتظار حامبا لاما، فبادرت إلى شرب الشاي وتوجهت للقائه.

قال حامبا لاما هذه المرة: أود أن أسأل: عن شيء تذكرته في الليل: لقد شاهدت المسلمين بمدينة مدراس في الهند يحرقون الموتى، فهل في الإسلام حرق للموتى، لقد شاهدت ذلك بنفسي وقد اجتمع المسلمون وهم يحرقون جنازة.

- لا بد أن يكون هناك خطأ، فهذا غير ممكن عند المسلمين.

- وأنا عجبت أيضاً مما رأيت. أعرف أنه لا يمكن، وأن الإسلام لا يجيز ذلك و لكني رأيتهم يحرقون بأم عيني، ولهذا السبب سألتك. لقد أطلعت

على بعض الكتب الإسلامية، وأعرف أركان الإسلام. كما إنه خطر ببالي بأن حرق الموتى غير جائز و لكنني لم أتمكن من التحقق من ذلك هناك[١].

الأراضي عند البورات

بعد السؤال عن بعض الأمور المتعلقة بالحياة العامة لدى البورات، كان السؤال التالي عن مشكلة الأراضي. فقال حامبا لاما: هذه المشكلة لم تحل عندنا بصورة نهائية. ومع أن الأراضي شاسعة عندنا فقد تعود قومنا البورات على العيش في سعة. كما إنه من الخطأ الفادح مقارنة أراضي سيبيريا بأراضي روسيا الداخلية، ولا يمكن توزيع الأراضي في كل الولايات بنفس المقياس. فلو أعطي المرء في جهات القرى الروسية بضع ديسانتات من الأرض لكفته مؤونة عيشه وعيش أسرته. أما القرويون في جهات قازان وأوفا فلا يمكنهم تأمين معيشتهم مالم تكن لدى كل فرد خمسة عشر ديسانت من الأراضي. أما في بلادنا بسيبيريا ومثلها من المناطق فالإنسان يحتاج إلى ثلاثين ديسانت من الأرض على أقل تقدير، فتحديد خمسة عشر ديسانت من الأرض لكل بوراتي يعني تركهم للموت جوعاً ومع ذلك فالحكومة الروسية مصممة على مثل هذه القسمة. وخلاصة القول فإن الحكومة ستستولي على المساحات الزائدة عن خمسة عشر ديسانت وتوزعها على المهاجرين الذين ستستقدمهم من روسيا الداخلية. ومع أنه بحوزتنا وثائق تثبت ملكية هذه الأراضي صاغراً عن كابر فإنها لم تجد نفعاً، وليس لأحد حق الإعراض، حيث قررت الحكومة تطبيق هذا القانون في كافة أنحاء سيبيريا.

---

(١) خلال وجودي في بكين سألت عن هذا الشيء السيد محمد حنيف الهندي فأكد ذلك لكنه أضاف بأن المجوس في مدراس لا يرضون بدفن فقرائهم. فيقوم المسلمون باحراق جسد ذلك المجوسي وفقاً لمذهبه.

الحياة الاجتماعية لدى البورات

كان البورات قديماً يعيشون في حالة ارتحال دائم، وفي الأعوام الأخيرة صاروا يرحلون في الصيف ويقيمون أيام الشتاء في قرى صغيرة لا تتجاوز بيوتها أصابع اليد. والبيت الشتوي عبارة عن غرفة خشبية خالية من أي تزويق سواء من الداخل أو من الخارج. وجميع أفراد العائلة يؤون إلى تلك الغرفة مهما كان عددهم، وهي في منتهى القذارة. إنهم لا يعرفون الاستحمام ولا الاغتسال ولا النظافة، إلا أنهم يحبون الضيف ويكرمونه. إنهم يشبهون إلى حد بعيد بدو القازاق وخصوصاً في طرق معايشهم في الصيف. فبيوتهم الصيفية لا تختلف عن مثيلاتها عند القازاق. وسأعرض عنها صورة للبيوت الصيفية.(هناك دورة البيوت).

والبورات يرجعون في أكثر أمورهم إلى مجلس الشيوخ. وحتى النظر في قضايا الجرائم كانوا في عهودهم الماضية يتقاضون أمام الشيوخ وهم الذين يقررون الصلح أو العقوبة. و في القضايا المهمة يتكون المجلس من عدد من الشيوخ. أما في القضايا البسيطة فيتخذ القرار القطعي من قبل اثنين أو ثلاثة منهم. وأعرض هنا صورة للشيوخ:

وفي أيامنا هذه تقوم الحكومة بتعيين الشيوخ «الأعيان» وكانوا قديماً ينتخبون. ولا تجد في بيوت البورات شيئاً من الأدوات، سوى عدد من القدور وإلى جانبها بعض الأواني الصغيرة المملوءة بالماء. والماء تجده أيضاً في معابدهم، وهو يعتبر صدقة مبذولة من قبل البورات ليس فيها منة. ويشترط لقبول الصدقة ألا يتبعها من. والماء مبذول في كل مكان، وليس فيه احتمال المنة. وهذا من معتقداتهم.

وتجد لدى البورات أعداداً كبيرة من الحيوانات. ومنغوليا بشكل عام غنية بالثروة الحيوانية. فالبورات اشتهروا بتربية الحيوانات وهم بذلك يشبهون لحد كبير القازاق. وإذا كان هناك فرق بينهم وبين القازاق فهو أن

القازاق يصنعون من حليب الخيول قميزاً، أما البورات فيصنعون منه الخمر. إنهم يصنعونه من كافة أنواع الحليب. وقيل أن خمر الحليب يكون شديد التأثير. ويعتقد حامبا لاما أن أحد الأسباب في انقراض البورات هو كثرة استعمالهم للكحول. و كانوا قديماً لا يشربون المسكرات إلا في أوقات معينة ومناسبات معروفة من السنة. وقال: أما الآن فقد عكفوا على الكحول دون اعتبار لصيف أو شتاء، فهم في سكر دائم، و قد أثر هذا الوضع على الإنجاب فأوشكنا على الانقراض السريع.

- قد يكون هذا الأمر صحيحاً. وتأييداً لما تقول أنقل لك مشاهداتي عن الروس: عندما كنت في بترسبورغ أقمت في منزل بشارع (ليتيناي) قبالة مستشفى "مارينسكي" وقد لاحظت زيادة في عدد النساء الروسيات اللواتي يدخلن المستشفى في أيام الأربعاء والخميس، ويقل عددهن في سائر الأيام. وكانت بيني وبين مدير المستشفى صلة ومعرفة فسألته يوماً: ما السبب في زيادة عدد المرضى في هذه الأيام ونقصه في الأيام الأخرى؟" فأجابني المدير: "من الطبيعي أن يكون الأمر كذلك، فإن قومنا من الروس يسكرون ثلاثة أيام في الأسبوع: السبت والأحد و الاثنين. وفي يوم الثلاثاء لا يستطيع أحدهم أن يستجمع قواه، فلا يبقى من الأيام سوى ما ذكرتها أنت وأعتقد بأن للمسكرات تأثيرها على الذرية عندهم أيضاً.

- أنا ولدت في هذا الشعب ونشأت بينهم و إن تجاربي عنهم كثيرة، ورأيي هو كما قلت. وبهذه المناسبة أريد أن أذكر للقراء الكرام بأن حامبا لاما ليس من الرجال الذين درسوا في المدارس الحديثة المعروفة في زماننا، ومعلوماته تنحصر على ما قرأه من الأدب المغولي والفلسفة القديمة باللغة المغولية، كما تعلم اللغة الروسية مؤخراً وبجهوده الذاتية. ومع هذا فإنه شرقي بالفطرة وذو إطلاع واسع. ومن المعروف أن الفلاسفة العالميين كانوا دائماً ممن نشأوا في الشرق. وقد استمر حديثي مع هذا الرجل ثلاثة أيام كاملة وكانت الفائدة منه عظيمة. وعند مفارقتي له ألقى خطبة بليغة

بحضور اللامات وودعته معانقاً فقال في وهو يعانقني «سأحمل في قلبي حباً حاراً للمحمديين بعد الآن».

منغوليا

إن البورات هم من إحدى القبائل المغولية، والمكان الذي أنا فيه هو جزء من منغوليا. وهو معروف ومشهور، والمسافة بينه وبين التيبت مسيرة ثلاثة شهور. ومع ذلك فالقوافل تذهب من هنا إلى التيبت وتعود مرتين في العام، وطريق القوافل معروف لديهم. إنهم يفدون من كافة أنحاء منغوليا، من شرقها وغربها وشمالها ويتجمعون في سينان نوي، ثم يتجهون إلى التيبت سالكين الطريق الذي يمر من غرب بحيرة لوبنور. وهذه القافلة مشهورة وتتجه كل عام إلى «لاسا» قبلة المذهب البوذي، أو إلى المقام الخامس، وهو مكان مقدس لدى أتباع المذهب البوذي.

وحتى هذه القافلة فإنها تعتبر مقدسة لدى عموم شعب منغوليا، لذلك فإن المتوحشين في كهوف هيمالايا لا يتعرضون لها عند عبورها من ممرات التيبت، و من يريد السفر إلى التيبت والعودة منها آمنا فعليه أن ينتظر هذه القافلة. إنها تذهب في أغلب الأحوال وتعود مرتين في العام، و في بعض الأحيان مرة واحدة.

وإني اكتفي هنا بما ذكرت من معلومات عن المذهب البوذي، وسأعود للبحث فيه إذا اقتضى الأمر لأن البوذيين الذين ذكرتهم هم من بوذيي منغوليا، وهم فرع من البوذية الأصلية. وقد ذكرت سابقاً على لسان حامبا لاما أن البوذية كثيرة الشعب، ففي اليابان فقط خمسة وثلاثون فرقة بوذية، وفي الصين أكثر من ذلك، ومن الطبيعي أنني سأتعرض لهذه الفرق حيثما كان ذلك مناسباً.

ويرحنة اودين

بعد أن تجولت بين البورات بعض الوقت عدت إلى مدينة "ويرحنة أودين" وكنت ضيفاً في منزل كشاف الله أفندي وإخوانه. استرحت قليلاً ثم خرجت بجولة في أنحاء هذه المدينة الصغيرة. اتجهت قبل كل شيء إلى المسجد وهو صغير ومن غير مئذنة، ثم ذهبت إلى المدرسة وهي صغيرة جداً وفيها يتعلم أبناء المسلمين أركان دينهم. لذلك فهي كبيرة بعملها وجدير بالمرء أن يفخر بها.

الاهتداء للإسلام في روسيا

بينا كنت يوماً في مدرسة ويرحنة أودين أختبر التلاميذ، دخل علينا شاب بلباس روسي، فسلم عليَّ وتصافحنا. كان بادياً عليه الأدب والذكاء. وعندما سألته عن هويته وبلده، قال:

- أنا يهودي الأصل من «خاركوف» إلا أنني الآن متشرف بالإسلام ولله الحمد.

- وما السبب في تشرفك بالإسلام؟ مع أن عدم الاهتمام بالدين صار من مظاهر القرن العشرين، خاصة عند أمثالك من الشباب!

- عفواً أنا لست من أولئك الشباب، إني أدرك ما أعمله ولي المقدرة على تمييز ما يفيدني وينفعني. أنا لا أطمع منكم بشيء، و كل الذي أرجوه منكم هو ما له علاقة بالإسلام. لقد تشرفت بالإسلام ولله الحمد وأفقه كلمة التوحيد بكل معانيها، ولكنني مع الأسف لا أعرف اللغة التركية. لقد استلمت مذكرة من المحكمة بطلب الحضور، وسأتجه الآن إلى هناك، وأظن أن سبب طلبهم، هو ورود أوراقي الرسمية من مركز الولاية.

- إذن فإني أهنئك، إنها هداية من الله ونعمة كبرى ولقد سرني ذلك كثيراً.

في الحقيقة إنني استغربت كثيراً، شاب واسع الإطلاع، يعيش في أقاصي سيبيريا، فكيف أمكنه التشرف بالإسلام. وبينما كنت غارقاً في التفكير جاءني كشاف الله أفندي وقطع عليَّ تفكيري قائلاً: قبل أسبوعين اهتدى رجل وكامل أسرته و هو شديد الثراء، وأظن أنهم أيضاً استلموا أوراقهم الرسمية، وسيأتي اليوم لزيارتك، وأثناء وجودك في الداثان جاء يسأل عنك عدة مرات.

- قلت، لا إعتراض على حكمتك يا رب. عندما كنت في تومسكي قال الآخون حميدوف: في شهر رمضان جاء ثلاثة من طلاب الجامعة وأعلنوا رغبتهم بالتشرف بدين الإسلام، وطلبوا تعليمهم أركان الدين إلا أن الآخون حمزة خشي الروس، وامتنع عن تعليمهم أركان الإسلام.

قال كشاف الله: لقد اهتدى في مدينة جيته كثير من الناس في هذه الفترة وكان فيهم مهندس تقدم بطلب رسمي، ولم تصله معاملته حتى الآن.

إن المرء عندما يفكر في هذه الأمور لا يسعه إلا أن يحتار. وقد سمعت من القاضي عنايت الله عندما كنت في بلدة أوفا أنه في خلال السنوات الخمس الأخيرة وصل عدد المهتدين إلى الإسلام أكثر من ستة وثمانين ألف شخص.

وهنا قال لي هذا الشاب: سيدي إني لم أتعلم الصلاة حتى الآن، فمنذ متى أُعتبر مكلفا بأداء الصلاة؟ جئت لأسألك عن هذه الأمور، وأنني جاد هذه الأيام في تعلم كيفية الصلاة.. هؤلاء هم زملائي في الدراسة وأشار إلى التلاميذ في الفصل.

قلت: - من يوم قولك لا إله إلا الله (أضاف فوراً «محمد رسول الله») فرضت عليك الصلاة، وعليك أن تبدأ بها عندما تتعلم كيف تؤديها.

إنني التقيت بالمهتدين طيلة مدة مكوثي في هذه المدينة، وأوصيتهم بكثير من الأمور، ولمست الجدية فيهم جميعاً، و قد علمت فيما بعد أن المهندس المهتدي أوقف من قبل السلطات وتعرض لكثير من المضايقات، فرفض الادعاء وقاوم، ودخل في نقاش علني مع موظفي

الحكومة محاولاً إبطال التثليث وإثبات التوحيد. وأخيراً أعطوه وثائقه وخلوا سبيله. إنني حينما كنت في جيته رأيت رجلاً، واسع المعرفة والإطلاع قوي العزيمة قال لي أثناء الحديث: (ليس لأحد منة في إسلامي وإني لا أخفي أبداً تشرفي بالإسلام بل أعلنه مفتخراً في كل مجلس ومجتمع وعندما اعتقلت كان المعتقل بالنسبة لي جنة من الجنان و لا يمكن لأحد أن يردني عن ديني بعد أن دخل قلبي نور الهداية، وأنا لا أستطيع كتم إسلامي.. والمرء عندما يرى هؤلاء، لا يسعه إلى أن يعجب بهم ويأسف على حال الذين ينتسبون للإسلام بالوراثة ثم يتصدون للإسلام بالنقد والتجريح.

بحيرة بايكال

قبل حوالي ثلاثين عاماً كانت بايكال بحيرة كبيرة وشهيرة في أيام الصيف، يموت في كل عام عدد من الناس وهم يحاولون العبور بالقوارب، وكذلك في أيام الشتاء يموت عدد من الناس والدواب في محاولتهم السير فوق الجليد. لقد كانت بايقال في تلك الفترة مخيفة حقاً، وخاصة أيام الشتاء. فإنك إن سرت فوق الجليد، تجد الجو شديد البرودة، والضباب يخيم في كل مكان بحيث يتعذر عليك تحديد الاتجاهات. ومما يزيد الأمر سوءاً هو هطول المطر مصحوباً بالثلج، فيظل المسافر أياماً وأسابيع فوق الجليد بلا مأوى ولا مسكن، فإن كان المسافر مستعداً لمثل هذه الطوارئ فقد سلم و إلا تعرض هو ومن معه للهلاك.

ولا يمر عام من دون أن يضيع أناس حاولوا عبور هذه البحيرة. ومن لم يتمكن من العثور على الطريق الصحيح بعد أن قطع ستين كيلومتراً وبقي أسابيع طويلة في التيه ثم وجد طريقه إلى الساحل، فقد اعتبر نفسه من المحظوظين. ورغم كل ذلك فلم يعدم طريق "كاختة" من القوافل التي يعاود بعضها السفر مرات عديدة في العام الواحد. وقد تطور الأمر فسيرت

البواخر في أيام الصيف، وظهرت كاسحات الجليد التي تمر عبر البحيرة في عز الشتاء وتقطع مسافة عشرة أميال في الساعة. وتقوم الكاسحات بعملها إلى أن تبلغ سماكة الجليد ذراعاً ونصف، وعندئذ يتعذر عليها الإبحار، فيضطر الناس إلى تحمل الصعاب التي تعودوا عليها قبل ظهور كاسحة الجليد.

ويعلم الله كم من الأرواح أزهقت في هذه البحيرة، و كم من الناس ضاعوا وحدث أثناء الحرب اليابانية -الروسية أن مات الاف الجنود فوق بحيرة بايكال. وقد بذل الروس أثناء هذه الحرب جهوداً مضنية وصرفوا الأموال الطائلة فشقوا الجبال و حفروا ستة وأربعين نفقاً على امتداد ٢٤٤ كيلومتر وأكملوا بذلك مد الخط الحديدي بمحاذاة البحيرة فوفروا على الناس تلك المشاق والأهوال. فالمسافة تقطع حالياً في ليلة واحدة دون أدنى خطورة. تلك البحيرة المخيفة التي كان الناس يلاقون فيها الأهوال أياماً وشهوراً، لم يعد يرى الإنسان سواحلها، فالقطار يمر من جانبها في عتمة الليل.

جيتـه

هي مدينة صغيرة ومركز ولاية في أقصى سيبيريا، وفيها عدد قليل من المسلمين، منهم من هو من بقايا المنفيين، كما أن فيها مسجداً بناه هؤلاء المنفيون ويعتبر نموذجاً للفنون المعمارية النفيسة. إنه من النفاسة والجمال بحيث لو رأيت مثله في مدينة إسلامية مثل قازان لأخذك منظره. وفي الدور الأرضي لهذا المسجد توجد مدرسة فيها أكثر من خمسين من أبناء المسلمين يتعلمون أمور دينهم. ويحق للإنسان المسلم أن يفخر بوجود مثل هذه المدرسة في مثل هذا المكان من أقصى سيبيريا، حتى الروس فإنه لم تكن عندهم أكثر من مثل هذه المدرسة. والمدينة مركز عسكري لذلك تجد فيها نادياً للجنود، ومعسكراً للتدريب.

قضيت في هذه المدينة ليلتين، وأجريت اتصالاتي بالمسلمين، وبذلت لهم النصائح والمواعظ، ويسكن بجانب المسجد شيخ عجوز، كان من المنفيين، و بعد أن أكمل مدة النفي استقر به المقام في المدينة، و صار من أصحاب الغنى، فأنشأ بمعاونة مسلمي هذه المدينة ذلك المسجد الجميل. وهذا الشيخ العجوز إنسان لطيف المعشر وقال لي وأنا في منزله: "لو أتينا إلى هذا المكان قبل مائة عام لكان في إمكاننا إعلان السلطنة". وقد أعجبني هذا القول من ذلك الشيخ ولا أزال أتذكره وأكبره لدرجة أني سجلته في هذه الصفحة. ورغم أن كلامه ليس على درجة كبيرة من البلاغة إلا أن صدوره من إنسان منفي لا يعرف القراءة والكتابة يدعوا إلى الإعجاب والتقدير.

غادرت جيته، هذه المدينة التي تعتبر نهاية المنطقة العظيمة الشاسعة المعروفة بسيبيريا التابعة لروسيا، ووصلت إلى كريمسكي، حيث يتفرع الخط الحديد المتجه إلى روسيا ولم أتوقف بها بل تابعت سفري نحو منشوريا.

منشوريا

إن منشوريا تعتبر جزءاً من الصين رسمياً. ففي السابع عشر من كانون الأول وصلت محطة منشوريا، ووجدت أحباء لي في هذا البلد. لقد قطعت من جيلابنسكي داخل سيبيريا إلى منشوريا مسافة ٤٤٧٣ كيلومتر، إنني الآن بين أحبائي إذ ليس هناك أي أجنبي، ولا توجد صعوبات في اللغة. كلهم من العنصر التركي المنتشر في عالم سيبيريا. الواقع إنني أشعر وكأنني في بيتي وبين أهلي. وعندما وصلت المحطة ونزلت من عربة القطار، أسرع إليّ شاب، فقبل يدي، وحمل أمتعتي و مشى أمامي راجياً اللحاق به. ركبنا أحد «الحناطير» ووصلنا إلى منزل عبد الله أفندي ابن اتجورا. إننا حتى في بلاد الصين نكون نزلنا في ديارنا.

إن موظفي الخطوط الحديدية في منشوريا هم من الروس، وإن كان بينهم بعض الصينيين إلا أن عددهم قليل جداً. وقبل الوصول إلى محطة منشوريا كان من النادر أن تصادف صينياً، لكننا عندما نزلنا في المحطة كان أول من لقيناه هم الصينيون ذوو الشعور الطويلة.

قيل لي أن في منشوريا نوعان من الإدارة الجمركية. فالبضائع القادمة من روسيا تتولاها الجمارك الصينية فتأخذ عليها الضريبة المقررة، أما البضائع القادمة من بلاد الصين في طريقها إلى روسيا فالروس يأخذون عليها ضريبة كما تأخذ الحكومة الصينية ضريبة جمركية أخرى. وكلتا الإدارتين موجودتان داخل منشوريا. وغالب موظفي الجمارك الصينية هم من الصينيين إلا أن كبار الموظفين في هذه الإدارة هم من الإنجليز. ومن الملاحظ أن الإنجليز في بلاد الصين كلها يتصرفون مثل الأوصياء عليها. فحيثما وجدت إدارة مالية فلا بد أن يكون على رأسها أحد من الإنجليز، ومنشوريا التي تعتبر منفذا حدودياً إلى روسيا هي مثل على ذلك فلا يكفي أن يكون فيها رجل واحد بل عدد من الإنجليز.

وكانت منشوريا في الأصل مدينة صغيرة أنشأها الروس عند مد الخط الحديدي باعتبارها منطقة حدودية، وقبل الحرب اليابانية - الروسية كانت هذه المدينة تابعة للحكم الروسي، ولم تكن فيها إدارة للجمارك ولا غيرها من الإدارات، فهي جزء من روسيا. وبعد الحرب مع اليابان جرى تعديل للحدود، فكان بدء الحدود الروسية من هذا المكان.

وعندها انسحب الموظفون الروس من منشوريا، وفرضت الرسوم الجمركية على التجار، أصاب الركود الأسواق التجارية في منشوريا، و كانت ضربة قوية موجهة للتجار الروس. وحينما ظهرت المنتجات والصناعات اليابانية في هذه الأسواق ما كان من التجار الروس إلا أن يحملوا بضائعهم ويعودا بها من حيث أتوا ولقد ذكرنا أن منشوريا مدينة بناها الروس، وبجانب السكان الروس توجد ست بيوت من المسلمين القادمين من روسيا الداخلية، وهم من أكابر التجار الروس هناك إن هذه

البيوت المسلمة الستة بنت لها مدرسة ومسجد. والواقع إنني لا أهتم بشيء آخر مثل حرصي على التأكد من صلابة المسلمين في دينهم وتقدم معارفهم، فحيثما وجدت مدرسة، بادرت إلى اختبار طلابها ومعلميها. هذه مهمتي في كل مكان من الشرق الأقصى، و كذلك في منشوريا.

بعد أن دخلت منشوريا ضمن الممتلكات الصينية بعد الحرب مع اليابان بدأ الروس يكفون أيديهم عن هذه البلاد، فعرضوا بيوتهم التي كلفتهم أكثر من عشرين أو ثلاثين ألف روبل، بثلاثمائة روبل، غير أنهم لم يجدوا من يشتريها. أي أنهم لم يراعوا قاعدة «قدموا الخروج على الولوج» فصرفوا الأموال التي اكتسبوها بعرق جبينهم على إقامة البيوت و المباني، واليوم تقرر تركهم هذه البلاد دون أن يحملوا معهم شيئاً من الأموال. بقيت ضيفاً في منشوريا ليلة واحدة وفي اليوم التالي غادرتها متوجهاً إلى «جيجكار»:

جيجكار

إن الخط الحديدي الذي يربط بين منشوريا وهاربين قد أنشأه الروس، غير أنهم تركوه للصينيين بعد الحرب مع اليابان، ولذلك سمي بـ «خط حديد شرقي الصين»، والمسافة إلى هاربين (٨٧٦) كيلومتر. إن جميع موظفي الخطوط الحديدية هم من الروس، وسيبقون على حالهم إلى أن تكتمل معاملات التسليم. وقد سلم قسم منه بالفعل ومحطاته أصبحت بيد الصينيين. كما أن التعرفة المقررة هي صينية، والبرقيات تستعمل التعرفة الصينية أيضاً.

وجيجكار المنشورية تقع على مسافة (٦٢٣) كيلومتر، وهي مركز عسكري للحكومة الصينية وهذه أول مرة أرى فيها جزءاً من بلاد الصين. إن المنطقة من المواقع العسكرية المهمة لوقوعها على الحدود الروسية،

وعندما إقترب القطار من جيجكار جاءني تتاري وسلم على فرددت عليه السلام وصافحته ثم سألته: -

- من أنت، وإلى أين أنت ذاهب؟

- أنا تاجر، ومتوجه إلى جيجكار لصلاة العيد.

- حسناً، وأنا أيضاً متجه إلى هناك. صدفة جميلة نذهب سوية إن شاء الله، ومن المحطة نركب الدواب، أليس كذلك؟

- بلى سنركب الدواب. ولي متجر في المحطة، وسننزل الليلة سوية ضيوفاً على منزلنا. لا أعرف أي يوم يبدأ العيد، لأن مسلمي الصين لا يقبلون إلا أن يروا الهلال بأعينهم. وفي أول الشهر كانت السماء غائمة لعدة أيام و لعل الموظفين في متجرنا عرفوا شيئا.

- على حسابي أنا فإن اليوم هو يوم الثامن من ذي الحجة.

- لا أدري، فعلماء الصين لا يقبلون الحساب أبداً، لا بد وأن يروا الهلال.

- علمت فيما بعد أن رفيقي التاجر عبد الله أفندي يعرفني سابقاً، وكان الحديث بيننا ممتعاً إلى أن وصلنا إلى محطة جيجكار، فاستقبلنا أحد رجال عبد الله أفندي، فبادرته بالسؤال عن يوم العيد. فأجاب: بعد خمسة أيام.

أصبت بالدهشة ولم أكد أصدق. الخلاصة أننا وصلنا إلى منزل عبد الله أفندي، وسنمضي الليلة ضيوفاً. إن الأهالي هنا هم موظفو الخط الحديدي ومعهم عدد من أصحاب المتاجر، وليس هناك من قرية أو أي شيء آخر.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ركبنا «حنطوراً» وتوجهنا إلى مدينة جيجكار، والمسافة إليها ٢٥ كيلومتر. وصلنا بعد مسيرة ساعتين كاملتين. وقبل دخولي المدينة شاهدت ثكنات كبيرة، وجنود خيالة ومشاة وكلهم من ذوي الشعور الطويلة. ورأيت على جانبي الطريق بين الفينة والفينة ضباطاً إنجليزاً يدربون الجنود.

وعند دخولي إلى جيجكار كان أول ما لفت نظري هو الباب عند مدخل المدينة.

والباب يطل على شارع كبير، ومبني للزينة وليس للدخول والخروج، فبناء مثل هذه الأبواب عادة صينية قديمة، وتجد في كل مدينة أبواباً ضخمة، وفي بعض الشوارع أكثر من باب، وخاصة في مداخل المدينة.

نزلت ضيفاً على أحد أصحاب عبد الله أفندي وهو التاجر المعروف (كو-ئن) و هو رجل مسلم ومن كبار التجار المشهورين. ولأول مرة أنزل ضيفاً على مسلم صيني الأصل. إن بيت كو-ئن بسيط جداً، وكتبت على الباب الخارجي باللغة العربية عبارة (يا مفتح الأبواب)، وعرفت فيما بعد أن أبواب بيوت المسلمين تكتب عليها عبارات عربية مثل كلمة التوحيد أو البسملة الشريفة أو "يا مفتح الأبواب"، وتكون هذه العبارة بمثابة العلامة الفارقة بينها وبين بيوت المجوس. أما المتاجر الإسلامية فالفرق بينها وبين المتاجر التي يملكها المجوس فهو وجود صورة إبريق على أبواب متاجر المسلمين و خاصة في المطاعم، حيث أنها لا بد أن تكون مميزة.

«كو-ئن» إنسان مسلم في غاية الطيب واسمه العربي يوسف. ولدى المسلمين الصينيين اسمان، أحدهما معروف به بين المسلمين والآخر للعموم، ويكون هذا الاسم باللغة الصينية ووفق العادات الصينية، إلا أنه لا يستعملون أسمائهم الإسلامية، حتى إن الأخ لا يعرف اسم أخيه الإسلامي، فكل إنسان يعرف باسمه الصيني.

استقبلني السيد كو-ئن بكل حفاوة، وخصص لي مكاناً في منزل والده، وهو شيخ وقور، تلحظ على محياه الابتسامة الدائمة واللطف، نوراني الوجه. وللأسف لم أتمكن من الحديث معه لأنه لا يعرف سوى اللغة الصينية، أما كو-ئن فيجيد اللغة الروسية. وبعد التعارف والاستئناس في منزل كو-ئن رجوته أن يعرفني على العلماء من أهل البلد، فنصحني بالذهاب إلى المسجد. وفعلاً توجهنا إلى المسجد.

ولأول مرة أشاهد مسجداً صينياً. إن المنظر الخارجي للمسجد لا يوحي بأنه مسجد لما تصطدم به العين من أنواع التماثيل مما يجعل الإنسان يتساءل: أهو مكان لصنع التماثيل؟ أو لعله يتساءل وبدون أدنى شك ما أعظمه من مكان للأصنام. إلا أننا عندما وصلنا إلى الباب وجدنا عليه عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله). دخلت من الباب الخارجي للمسجد فوجدت صحناً فسيحاً ونظيفاً، مما يدل على أنه معبد إسلامي، أما الباب الداخلي للمسجد فإنه يطل على هذا الصحن، وفي الصحن عدد من البيوت الملحقة بالمسجد. دخلت البيوت وسلمت فرد على السلام رجال ذوو شعور طويلة. سألت (بالعربية): هل فيكم من يعرف لسان العرب؟ فرد واحد منهم: «أنا يعلم كلام عربي» ومن هذه الكلمات الأربع عرفت مبلغ علمه بالعربية. وبذلت الجهد للتفاهم مع هذا الرجل قدر الإمكان، وتبين لي أن هذا المكان هو مدرسة، وأن هؤلاء السادة هم من طلبة العلم، فأثار ذلك اهتمامي. وفي المدرسة حوالي خمسة عشر طالبا، ولكن ليس فيهم من يستطيع تزويدي بالمعلومات، فاضطررت للسؤال عن أستاذهم، فقالوا: آخون عربي يعلم كثيراً.

قلت في نفسي: إن كان يعرف كثيراً فالفائدة ستكون عظيمة. ذهبت إلى الآخون حيث يجلس في غرفة خاصة به. سلمت عليه وصافحته، فقال الآخون: أنت رجل عالم. قلت: أنا خادم للعلماء.

وتبين فيما بعد أن الآخون كذلك لا يختلف عن طلابه بشيء، فقمت إلى كتبه أتصفحها، فوجدت القدوري والهداية ومصحفاً شريفاً مخطوطاً، ومختصر المعاني. كلها كتب عربية ومخطوطة. وكنت وأنا أتصفح الكتب أقول في نفسي، كان من اللازم أن يكون هنا رجال يمكنهم التعبير عما نريد معرفته باللغة العربية. غير أن العجز لا يقتصر على الطلاب بل يشمل الآخون أيضاً. لقد ساورني اليأس، وقلت في نفسي: مسكين أنت يا إسلام؟ بأي حال صرت؟ ألا يصاب الإنسان بالحيرة لهذه المأساة؟

أمضيت ذلك اليوم في المدرسة حتى المساء. وبمناسبة عيد الأضحى كان الطلاب في عطلة ومع ذلك فقد كان بعض الطلاب يترددون على المدرسة جيئة وذهاباً. وكلما جاء اثنان أو ثلاثة منهم أحضروا معهم بعض الأشياء، وقد لفت بأوراق كثيرة حمراء اللون، واقتسموها فيما بينهم. ولما سألت عنها قالوا لي إنها صدقات. راقبت أحوالهم فوجدت أموراً كثيرة غير مفهومة، والذي تبين لي أن تلك التي لفت بالأوراق الحمراء ما هي إلى عملات صغيرة (فكة) وأن الجهالة هي السمة الغالبة لهؤلاء الطلبة.

وبعد صلاة العشاء عدت إلى بيت السيد كو-ئن فتناولت طعام العشاء واويت إلى الفراش. كان الجو بارداً، وليس لدى الصينيين ما يتدفئون به من مدفأة أو موقد للنار، والبيوت عندهم يدفئونها بالدخان وهذا مالم أشاهده في أي بلد من بلدان الدنيا. والدخان هو دخان الحطب العادي، وليس هناك مكان يخرج منه، فيملأ البيت، فلا يستطيع المرء أن يبقى فيه: وتكاد عيون الإنسان تنفر من مكانها. إنه لأمر سيء للغاية. تذكرت أن في بلادنا حمام يسمى (قارا مونجة)، فهذه البيوت كلها قارامونجة. بقينا على هذه الحالة من السوء حتى الصباح وبكامل الاحترام.

وفي اليوم التالي عاودت الجولة في المدينة، فطفت قليلاً ثم قدمت إلى المدرسة، وبينما كنا نحاول التفاهم مع الطلبة بتراكيب عجيبة من الكلمات المكررة وجدنا ترجماناً يعرف اللغة الروسية. ومع أن لغة الترجمان الروسية ناقصة فإننا استطعنا أن نتخاطب نسبياً، ولله الحمد، كانت لنا منه بعض الفائدة. ولما كان كثير الانشغال فإنه لم يستطع البقاء معنا أكثر من ساعتين. لقد عرفنا منه أن هذه المدينة الكبيرة يقطنها عدد قليل من المسلمين، وعدد مساجدها اثنان فقط أما عدد بيوت المسلمين فألف وخمسمائة، وأن أكثر المسلمين هم من صغار الكسبة. أما التجار فلا يتجاوز عددهم العشرة، وفيهم عدد لا بأس به من الحرفيين.

وليس للمسلمين مدرسة سوى هذه المدرسة التي نحن بصددها، وعدد طلابها لا يزيد عن خمسة عشر، وأن إمام المسجد الثاني سيء المذهب

وجاهل. وقد أثار هذا القول اهتمامي، فقلت للترجمان: أرجوك أن تأخذني إلى ذلك الإمام السيئ، فرفض في أول الأمر، ثم رضي بعد ذلك وقال: سأذهب إرضاء لك وحسب. وكان المسجد قريباً من المسجد الأول. وصلنا إليه فلما اقتربنا من الباب الخارجي صرنا نسمع أصوات أطفال. دخلنا من باب المدرسة فوجدنا حوالي ثلاثين من الطلبة، ورجلاً بيده عصا طويلة، و حينما رانا صاح في الأطفال، فصاحوا جميعاً «السلام عليكم» فاغرورقت عيوني بالدموع. قلت: هل أنتم تعلمون لسان العرب؟ قال: أعلم قليلاً. فعاودني خاطري وقلت في نفسي: لابد أن يكون عند هذا الرجل شيء يميزه.

وبدأت الحديث مع هذا الإمام. قال: أنا أستحي، أنا آخون لا يعلم لسان العرب. أعجبني الرجل كثيراً، فهو على الأقل يعترف بجهله، وكان يفهم بعض الشيء مما أقول. فدخلت في حديث ودي معه دون أن أشعره بالحاجة إلى ترجمان. لقد سمح للطلاب بالإجازة لكون اليوم التالي هو يوم عرفة. وقد عرفت منه أنه تلقى العلم في تونكين، وأن هناك كثير من العرب، وأنه يقرأ الفاتحة بشيء من التجويد، ويقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات قبل الإقامة، وأنه يذكر الله جهراً أيام الخميس، هذه خلاصة ما قالوا فيه من أنه سيء المذهب. فحدثتني نفسي أن أقول، إن في جيجكار كلها مسلم واحد، وهذا الواحد سيء المذهب.

أمضيت عيد الأضحى في هذه المدينة فرأيت العجب العجاب. وإنني حينما قدمت المدينة وجدت الإمام والطلبة يصومون الأيام العشر من ذي الحجة. وصوم عشرة أيام من ذي الحجة أهم عندهم من صوم رمضان، بل أن ترك الصيام في هذه الأيام غير جائز أبداً. فمثل هذه النوافل يعتبرونها فرائض. أما إن كان هناك بعض الفرائض غير المعروفة لديهم، فتلك لا أهمية لها أبداً. فالصلاة مثلاً عبادة يختص بها الآخون والطلاب دون سائر الناس. أما صيام الأيام العشر من ذي الحجة ففرض على كل مسلم. هكذا

تعلموا، وقد استهجنوا عدم صيامي تلك الأيام. وقالوا: أنت عالم لا يصوم.

إن المرء المسلم عندما يشاهد مثل هذه الأمور يزهد في كل شيء، ولا يتمالك المرء إلا أن يحزن لهؤلاء. والحقيقة إن الأيام التي قضيتها بجيجكار أيام ثقيلة على نفسي، خاصة عندما رأيت ذلك للمرة الأولى فكنت أحس بألم شديد. اتي إلى المسجد للصلاة فيقرأ الإمام سورة الفاتحة فلا أكاد أميز منها سوى بضع كلمات، قلت: يا إلهي ما كنت لأتصور أنني سأجد بلداً، الإسلام فيه بمثل هذا الحال من الغربة. ما هذه الحالة؟ إذا سكت رؤساء المسلمين على هذا الوضع وهم يرونه رأي العين فماذا تكون حجتهم أمام الله يوم القيامة؟ ألا يسألون عنها؟ لا أظن أبداً أن تكون الأمة في مثل هذه الحالة من الجهل ولا يسأل عنها من يتصدى لإمامتها. أسفي على ثمانين مليون مسلم في الصين إن كانت أحوالهم كلهم كما رأيتها في هذه المدينة.. ولكن ما حيلتي؟ لو عرفت لغته ما بقيت هنا بضعة شهور لأعلمهم الإيمان والإسلام، وأعلمهم أركان الدين. فكرت بذلك كثيراً إلا أنني لم أجد حلاً. تصوروا حال ألف وخمسمائة أسرة مسلمة في مدينة واحدة لا تجد معلماً واحداً يعلم أبناءها أمور الدين. فلا حياة لمن تنادي.

كنت أذهب إلى ذلك الإمام الذي وصف بسيئ المذهب، ونتحادث كثيراً، فكان دائم الشكوى من الجهل، يردد باكياً: لقد هلك مسلمو الصين، لم يبق في الصين إسلام.

صليت في جيجكار صلاة العيد مرتين: مرة مع الإمام (الموصوف بسيئ المذهب) لأنه كان يتبع الحساب، وبعد يومين صلينا مع أهل السنة. وإليكم بعض المعلومات عن صلاة العيد عند أهل السنة: كل واحد من هؤلاء يحضر معه إلى المسجد قطعة من نار عبارة عن سراج، فالداخل منهم إلى المسجد يضع سراجه داخل موقد، فيمتليء المسجد بالدخان،

بحيث لا يمكن للإنسان العادي أن يبقى في هذا المكان. أما هم فقد تعودوا على الدخان في بيوتهم.

وبعد حضور الجميع يقوم الإمام ويبدأ بالوعظ والنصيحة و لا يمكن رؤيته من خلال الدخان المتصاعد. قالوا لي إنه يتكلم عن فضائل الأضحية. وقد أعجبتني موعظته وأن كنت لم أفهم شيئاً مما قال سوى أنني أحسست بأنه تلا بعض الآيات والأحاديث في بعض فترات الوعظ.

رتبة الآخون

وآخون أو آخوند رتبة من الرتب لدى علماء الصين. وأصل هذه التسمية مأخوذ من علماء بلاد ما وراء النهر وبخارى، وهي شائعة لدى العلماء في عموم روسيا وتركستان الصينية وبخارى وخيوه وبلاد الصين.

وآخون لقب يختص به العلماء. إلا أن استعمال هذا اللقب يختلف إختلافاً بيناً. ففي تركستان يطلق على الذين لديهم ملكة شعرية، وفي روسيا تطلقه الحكومة على أكابر علماء المحكمة الشرعية في أورنبورغ. ويختلف الأمر في ديار العجم، وأما في بلاد الصين فأئمة المساجد يعرفون بالآخون.

وبعد أن أدينا صلاة العيد في مدينة جيجكار هذه، حضرنا حفل تنصيب اثنين من خريجي المدرسة أئمة مساجد، و إعطائهم براءة تثبت ذلك. أي أن هذين الطالبين أكملا دراسة خمسة عشر عاماً في المدرسة. كما أعطى كل منهما جبة وعمامة. وقد حضر الحفل الذي أقيم في المسجد جمع غفير من أهالي المدينة. وكانت مراسيم تنصيب الإمام على النحو التالي:

مدت سجادة كبيرة على الأرض، وجلس الأستاذ على كرسي في أول السجادة، وظهره إلى القبلة، وتقدم المرشح للإمامة على السجادة حتى وصل قبالة الأستاذ، وضم كفيه إلى بعضهما و مدهما نحو أصابع رجليه وركع، حتى وصلت يداه إلى سطح قدميه، ثم قال لأستاذه شيئاً وقام،

ووضع يديه على جبهته، وكرر الركوع ثلاث مرات. ثم أخذوا منشور البراءة (الشهادة) المكتوب على قماش أخضر وعلقوه على باب المسجد مدة ثلاثة أيام. وهذه العادة تطبق في كل بلاد الصين. وقد اعترضت عليهم مبيناً عدم جواز الركوع أمام هذا الرجل إلا أنهم حملوا اعتراضي على جهلي، وزين لهم الشيطان سوء عملهم.

كيف لا يعتري المرء اليأس وهو يرى المسلمين على ما هم عليه، لقد تأثرت مما رأيت أبلغ التأثر، وحينما رأيت المسلمين في هذه الحال زهدت في زيارة المدارس المجوسية. وكنت أسلي نفسي قائلاً: إن هذه الأصقاع بعيدة عن مركز البلاد ووسطها فلا بد أن يكون في أواسط البلاد رجال ذوو أفكار نيرة وعلماء أفاضل. وكنت في بعض الأمسيات أسامر مضيفي كو-ئن أفندي، رغم أنه لا يفقه من الدين شيئاً. فهو مع الثراء الذي هو عليه فإن معيشته سيئة جداً، ولا يعرف سوى أمور التجارة. أما أحوال الأمة والرقي والدين فليس له فيها شيء. وكلما أثرت موضوع المعلمين والتعليم، وجدته قد أسلم نفسه إلى النوم، وأكلمه عن جهل الأئمة (الآخون) فلا يكاد يصدق كلامي.

وذات يوم قال لعبد الله أفندي الذي كان يرافقني: "الآخون لا يعجبه علماؤنا، إلا أن علماءنا يقولون أنه على مذهب غير مذهبنا" فعلماؤهم أقنعوه بوجهة نظرهم، وأفهموه أيضاً بأنني من مذهب مختلف. نسبوني إلى المذهب السيئ عند من لا يفقه من الدين شيئاً. أقمت في جيجكار ستة أيام، وكانت أثقل علي من ستين يوماً.

حمل الجنائز

ومن الأمور التي أثارت اهتمامي في جيجكار موضوع حمل الجنائز، وقد وجدت المسلمين في كل بلاد الصين على هذه الشاكلة، ذلك بأنه إذا توفي أحد الناس قام ذووه ومقربوه فلبسوا البياض، وأبلغوا الآخون،

فيأتي الآخون ويسأل قبل كل شيء عما إذا كان على الميت دين، فإن كان مديناً جيء بدائنيه، و أعطى كل ذي حق حقه، فإن لم يكن له ما يسد به الدين أجريت معاملة صلح وتراض بين ورثته وبين دائنيه، ثم يبدأ بالتجهيز.

وقد أعجبتني هذه الطريقة أيما أعجاب. أما علماء المسلمين في روسيا فعلى النقيض من هؤلاء، يذهب الإمام بالفدية و الزكوات، أما الديون فيكتمونها ويدعون عدم وجود ما يسدون به ديونه، فإذا كانت هناك فدية أو صدقة أو غيرها، فللأغنياء، وليس للفقراء.

ثم يحمل كل واحد من ذوي الميت ومقربوه عصاة، ويمشون في الجنازة إلى القبر (حمل العصا غير معروف لدى أهل بخارى، وقد تعارف على ذلك مجوس الصين).

موقف الحكومة الصينية من أبناء المسلمين

خصصت الحكومة الصينية ثلاث مدارس لتعليم أبناء المسلمين، ويتولى المسلمون تغطية مصاريف هذه المدارس. زرت هذه المدارس فوجدت المدرسين من المجوس الصينيين. وأغلب ظني أنه لا يكون على المسلمين ضرر كبير من مثل هذه المدارس. فهم يتعلمون القراءة والكتابة على أقل تقدير. ومن المعروف أن تعلم القراءة والكتابة لدى الصينيين فن كبير، و أهم شيء هو تعلم الرسوم الهيروغليفية وهذا أمر صعب حقيقة إذ على الطالب أن يتعلم ستة وثلاثين ألف شكلاً هيروغليفياً حتى يمكنه القراءة والكتابة (في حين يستثقل الكثير منا تعلم ٢٨ حرفاً فقط) ومع ذلك فإن عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة في الصين كبير جداً.

جنود الصين

علمت أن في جيجكار عدداً كبيراً من المدربين العسكريين، يعلمون الجنود طرق استخدام الأسلحة الحديثة. ليس لدي أية معلومات عن التدريب العسكري، لذلك فلا أستطيع أن أقول شيئاً عن أصول التدريب. وأكتفي بالقول بأن أكثر الضباط هنا هم من الإنجليز وقسم منهم من اليابانيين، وإذا كان مثل هؤلاء المدربين العسكريين على الحدود الروسية فليس هناك من شك في أن التدريب سيكون جيداً ومتكاملاً.

وخلال إقامتي في هذه المدينة كنت أراقب الجنود كل يوم، فأراهم يواظبون على التدريب في الصباح وفي المساء. وفي بعض الأيام كانوا يعلمونهم أصول المشي والاستعراض. زرت ثكنات الجنود ورأيت طعامهم وشرابهم. كان كل شيء منتظماً.

وعندما كنت في جيجكار سرت أقوال بين الناس بأن بكين أرسلت أمراً بقص شعور الجنود لكن الجنود رفضوا هذا الأمر. هذا وإن كان لدى الصينيين ما يفخرون به فنحو ذلك هو الشعر والظفر. إنهم لا يقلمون أظافرهم أبداً، وقص الشعر عندهم يعادل قطع الرأس. وسأورد التفاصيل حول هذا الموضوع لدى وصولي إلى بكين.

هاربين

وهي أكبر مدن منشوريا. وهاربين هي من بلاد الصين منذ القدم، وعرفت قديماً باسم «فودة تان»، ثم جاء الروس إلى هذه المناطق واستوطنوها وأسسوا مدينة وسموها «هاربين» ثم قسمت إلى ثلاثة أحياء: هاربين الجديدة، وهاربين القديمة وريستان. أما فودة تان فهي مدينة ومنطقة مستقلة، وفي فترة من الفترات وقعت هاربين تحت سيطرة

الروس، وموظفوها كلهم من الروس وتطبق فيها من القوانين التي تطبق في روسيا الداخلية.

إلا أن الوضع تغير الآن فمع كون هاربين تتبع الحكم الروسي، فإن الموظفين الصينيين يتدخلون عند الضرورة، خاصة أن حصل نزاع بين صيني وروسي، فمهما كان الأمر فإن أي محكمة تنظر في الموضوع فالحق دائماً بجانب الصيني. أما في فودة تان فالموظفون الروس لا يحق لهم التدخل في أي أمر من الأمور أصلاً. و يتضح من هذا الوضع أن السلطة التنفيذية للروس ضعيفة جداً حتى في هاربين.

وأما حي بريستان، فيكاد يكون جزءاً من تتارستان، فالمباني الضخمة والمتاجر على جانبي الشوارع الرئيسية ملك للتتار وهو يعتبر الحي التجاري لكل هاربي، وفيه كثير من التجار الصينيين الكبار، كما إن شركة جورين الروسية افتتحت متجراً كبيراً في هذا الحي. إلا أن التتار هم المسيطرون، و الاعتزاز بهؤلاء الأخوة أمر طبيعي.

ولهم فيها مسجد ومدرسة، وقد عينوا لهما إماماً ومدرساً جيداً. وهذا يعني أنهم لم يهملوا شؤون دينهم. وعندما سار الروس باتجاه أقصى الشرق لم يتأخر عنهم التتار، لحقوا بهم أينما وصلوا فألقوا رحالهم ونصبوا خيامهم.

وبعد الحرب الصينية قام الروس وأسسوا قواعد لهم في كل مدينة ومنطقة من مناطق منشوريا، حتى أن جانبي الخط الحديد إلى "بورت أرثور" في أقصى الشرق تحول إلى مستعمرة روسية. و كانت هاربين في تلك الفترة مدينة روسية. إلا أن الأمر تغير بعد الحرب اليابانية - الروسية فلم يعد للروس أي اعتبار في كافة أنحاء منشوريا حتى صار وجودهم في هاربين بحكم المنتهي.

ويفصل بين هاربين الأصلية وبين فودة تان نهر، وتتصلان ببعضهما عبر جسر، ومع ذلك تجد سعر السكر الروسي في هاربين ١٨ قابيك، وفي فودة تان ١٢ قابيك، وقد ينخفض أحياناً إلى ١٠ قابيك، ومن يريد أن

يشتري عشرة فونتات من السكر يتجه إلى فودة تان ويكلفه سفره أربعين قابيك و بذلك يوفر على نفسه أربعين قابيك. وقد لقي التجار الروس ضربة قاسية. أما اليابانيون فعلى العكس منهم، فتحوا بورت أرثور، فغزت البضائع اليابانية كافة أنحاء منشوريا.

وهكذا تغلب اليابانيون على الروس اقتصاديا، إلى جانب الغلبة العسكرية. وهاربين اليوم مدينة صينية بصورة رسمية، ولابد أن يأتي اليوم الذي ينسحب فيه الروس من هاربين. والصينيون يعتبرونها مدينتهم.

كنت في هاربين ضيفاً على حسين أفندي اَغيشيف، وهو شاب في الخامسة والعشرين من العمر، تجول في كافة البلاد الأوربية، وأخوه الصغير زاهد الله، يقيم في برلين بشكل دائم. هذان الشابان النشيطان تاجران بالفطرة، أحدهما في شرق الكرة الأرضية والآخر في غربها. ولله الحمد والمنة فهما في العمل والنشاط نموذجان جديران أن يحتذي بهما المسلمون أمام الأجانب. لم يدرس أحدهما في أية مدرسة ومع ذلك فهما يتقنان اللغة الروسية و إن زاهد الله أفندي يتقن الألمانية وحسين أفندي يعرف اللغة الإنجليزية أيضاً.

قالا لأبيهما ولم يتجاوز عمره الثمانية وأربعين عاماً: «يكفيك مصرف شهري ألفا روبل (٢٢٥ ليرة عثمانية) وانصرف إلى العبادة، وإدارة المدارس، ولا تتعب نفسك بالتجارة» إننا نأمل أن يصبح اسم هذين الشابين على كل لسان، وأن يقدما لأمتهما خدمات جليلة. والواقع أن لهما في هاربين أقران كثيرون، نرجو ألا يخيبوا ظننا.

لم تنقطع اتصالاتي بالمسلمين طيلة إقامتي في هاربين، ولاحظت عندهم كثيراً من الأخطاء، ونبهتهم عليها، وكتبت عن بعض تلك الأخطاء في جريدة بيان الحق الصادرة في قازان، وكان ذلك من أجل منافعهم ومصالحهم.

خطبة باللغة التركية وضابط مهتدي

ذهبت إلى المسجد في هاربين لأداء صلاة الجمعة، فلما وصلت المسجد، وجدت الإمام عنايت الله أفندي واقفاً في المحراب يعظ الناس. و هو شاب فاضل لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، طلق اللسان. وبعد أن أكمل موعظته قال موجهاً كلامه لجماعة المسجد: «نرجو من ضيفنا الكبير عبد الرشيد أفندي أن يتفضل علينا بإلقاء خطبة الجمعة باللغة التركية ويصلي بنا الجمعة، فتكون لنا ذكرى لن ننساها ما حيينا» فرد الجميع: نرجو منه ذلك فاضطررت للقبول وصعدت المنبر، وبينما كان المؤذن يؤذن وقع بصري على رجلين واقفين في آخر الصفوف، أحدهما بزي ضابط والآخر بزي تاجر، بدأت خطبتي بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله، ثم قرأت الآية الكريمة ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ...﴾ وفسرت معناها باللغة التركية، واتبعته ببعض النصائح والمواعظ التي تناسب الموضوع والمقام. وكان الضابط الواقف في نهاية الصفوف ورفيقه يستمعان باهتمام واحترام كاملين لدرجة أنني رأيته في بعض الفترات يمسح عيونه بالمنديل وكأنه يبكي. وبعد صلاة الجمعة عقبت على الخطبة بموعظة صغيرة، وكنت في نفس الوقت أراقب ضيفينا وهما يستمعان إليّ بقلب مفتوح وصادق، وكأنهما مسمرين في مكانهما.

وبعد تلاوة بعض الآيات من الذكر الحكيم خرج الناس من المسجد. وكنت أنا وفضيلة الإمام آخر ممن بقي في المسجد. وعند خروجي حياني الضابط فاقتربت منه وصافحته، وسألته: كيف وجدت عبادتنا؟ فأجاب: أنا متعود عليها من قديم.

وقد بين لي الإمام عنايت الله فيما بعد أن هذا الرجل ضابط روسي في الأربعين من عمره، وأنه اهتدى إلى الإسلام بصدق وإخلاص نية، وأن

الحكومة لم تعترف بعد بإسلامه رسمياً، وأنه يسعى لأن يكون مسلماً بشكل رسمي. فهذا الرجل اهتدى إلى الإسلام بملء ضميره وكامل حريته، وهو على رأس عمله الرسمي، وسيعلن إسلامه على الملأ، وإذا أعلن إسلامه فقد يطرد من الجيش، وقد لا يجد ما يأكله. إنَّ تحدي المخاطر واتخاذ مثل هذا الموقف في سبيل الدين والعقيدة في بلد مثل روسيا يعتبر تضحية وأي تضحية، فالهداية الربانية تجعل الإنسان يتحمل كل المصاعب ويستعد لكل التضحيات. أُنظروا إليه، إنه ضابط روسي، ومن البديهي أنه لم يجبر على الإسلام، لذلك يجب أن نفكر لماذا أسلم هذا الرجل؟ وقد يقوم النظام الاستبدادي الروسي بسحقه، إلا أنه غير آبه، ومستعد لأي تضحية، إنه أمر محير للعقول حقاً.

كياسة الموظفين الصينيين

في أحد الأيام قصدت مركز البريد في هاربين. والبريد في هذا المركز في غاية الترتيب والانتظام وهم يقبلون كافة أنواع المواد البريدية كما يقبلون الحوالات النقدية، وعدد الموظفين العاملين في هذا المركز ستة: أحدهم إنجليزي والبقية صينيون، شعورهم طويلة ويتزيون بالزي الوطني الصيني. يقبلون الرسائل المعنونة بالروسية والإنجليزية والفرنسية، وكان أحدهم يستلم الرسائل كما يجيب على استفسارات المراجعين. تقدمت إليه وسألته:

- إذا أردت إرسال رسائل إلى روسيا خلال وجودي في الصين فبأي لغة يجب أن أكتب العنوان؟
- فقال الصيني بأدب جم: إلى أين تريد الوصول داخل الصين؟
- إن كان لي نصيب سأتجول في كل البلاد.
- عجباً ألا تخاف.

- هل هناك ما يخيف؟
- قد يكون هناك ما يخيف، فالأوروبيون يخافون..
- لست أوربيا.
- حسناً، ستجد مركزاً للبريد في كل المدن، ويمكنك كتابة العنوان بأي لغة شئت.
- وبالتركية أيضاً؟
- إن كنت تريد إرسالها إلى تركيا يمكنك أن تكتب بالتركية، ولكن يجب أن تضيف على الظرف كلمة تركيا بالفرنسية أو الإنجليزية.
- هل البريد عندكم يومي؟
- يومي في المدن الكبيرة، أما في القرى فليس منتظماً كثيراً و لكنه سيكون منتظماً في وقت قريب.
- هل نجد دوائر للبرق في المدن الكبيرة؟
- إنها موجودة في أكثر الأماكن، وبعد بضع سنوات ستفتتح مراكز للبريد والبرق في كافة أنحاء الصين حتى في القرى النائية.
- هل تقبلون البرقيات باللغة الصينية؟
- نقبلها بكل اللغات إذا كانت مكتوبة بالحروف الإنجليزية، وفي بعض المواضع تقبل الكلمات السهلة باللغة الصينية ولكن تحدث أخطاء كثيرة.

بهذا القدر استطعت محاورة موظف البريد. ثم قلت: لقد أشغلتك أرجو المعذرة.

- لقد استفدت منك، وسررت للقائك و واجب العمل يجعلني ألتمس عفوك.

وقام بمرافقتي حتى الباب وودعني. جرى كل هذا في مركز بريد الصينيين المتوحشين! إنها معاملة الوحوش الذي نسميهم بالخونخوز! وفي هاربين نفسها توجهت إلى مركز بريد الروس. كان عدد الموظفين هناك ما يقرب من أربعين. أما معاملة الموظفين فهي: ماذا تريد؟ طابع

بريدي. أنزع القبعة من رأسك ! إلى غير ذلك من الأوامر المهينة؟ أهانني ست مرات إلى أن إعطائي طابعاً بثلاث قابيكات.

لو نظر المرء بعين الإنصاف، لقام بأجراء مقارنة بين معاملة الصينيين الوحوش والروس المتمدنين! فمن له شيء من بعد النظر افتتن بمعاملة الصينيين، واضطر أن يقول: إنها مثال للإنسانية. ولكن ما الحيلة فقد بلغ العمى عند الإنسان حداً إذا رأى في الصيني شعره الطويل وهندامه حكم فوراً بوحشيته، ولا تنفع الصيني معاملته الإنسانية مهما بلغت. أما الروس فهم يلبسون الملابس الإفرنجية، إنهم مدنيون مهما بلغوا من الوحشية في معاملتهم.

الشعور القومي واليقظة عند الصينيين

كنت أقضي سحابة يومي في هاربين بالتجول، فإن صادفت في طريقي أحداً يعرف الروسية بادرته بالسؤال عن أحد الأمور. وإن وجدت الفرصة دخلت معه في حوار. وذات يوم دخلت متجر «واك-كوان» الصيني، وجرت بيننا محاورة قصيرة سألت واك-كوان: هل الصينيون راضون عما هم فيه؟

- وهل يرتاح الإنسان للجهل؟ ومع ذلك فنحن مرتاحون، فالوقت لم يمض بعد، لقد بدأنا نفتح عيوننا.

- هل كانت خسائر الصين في حربها مع اليابان كبيرة؟

- مهما كانت خسائرها كبيرة فالفوائد كانت أكثر. وإذا تركنا الخسائر البشرية جانباً، فالمنافع المعنوية غطت الأضرار المادية، وإذا أضفنا ذلك الحرب الروسية- اليابانية، فإن منافعنا المادية والمعنوية زادت أضعافاً مضاعفة.

في الواقع إننا خسرنا بضع مئات الآلاف من الرجال و لكننا خلصنا بلادنا من الأسر نهائياً. ومع ذلك فإننا تعرضنا لخسارة شديدة المرارة،

وستبقى هذه الخسارة تحز في قلوبنا إلى أن ننتقم لها، إنها الإهانة التي تعرضنا لها في امور. ستتذكرها أجيالنا جيلاً بعد جيل. وستسري في عروق أبنائنا.

- و ما هي تلك الخسارة الأليمة؟

- الإهانة التي وجهها الروس إلى قومنا الصينيين في «بلاغويشجنسكي» وذلك بأعداد الرجال الذين أغرقوهم في نهر امور.

- كيف كان ذلك؟

- لقد كان كما فعلتموه، وستجدونه كذلك، فلن يعدم التاريخ ثأرا.

- نحن مسلمون، ونحن أيضاً شعب مظلوم.

- نحن لا نعلم فيما إذا كنتم مظلومين أم لا ففي كلا القتالين رأيناكم بين الصفوف. والمواقع المهمة كنتم تحتلونها، وعندما نهب قصر بكين كان التتار من بين الناهبين. إن كان بينكم وبين الروس حساب فذلك و شأنكم، أما نحن فنعتبر كل من كان هناك منهم.

الصين واليابان

اضطررت إلى تغيير الموضوع لأنني لم أكن قادراً على الرد:

- كيف تنظرون إلى اليابانيين؟

- إنهم أمة جديدة، فيهم رجال نشيطون. لقد بدءوا خطواتهم نحو المدنية، فإن كسبوا حرباً أخرى، أمكنهم أن يجدوا لهم مكاناً في عالم الحضارة. ومع ذلك فإنهم في عوز دائم من الناحية الاقتصادية.

- هل تجد احتمالاً لاتحاد الصينيين مع اليابانيين؟

- لايمكن لليابان أن تتحد مع الصين، فنحن الصينيين لم نتعود على الأسر، وكل صيني سيعمل إلى اخر لحظة من عمره من أجل السيادة الوطنية.

- مما لا شك فيه أن اليابانيين سيعملون من أجل الحفاظ على مكاسبهم، ولكن بقي أن نقول بأنه يمكن لليابانيين أن يعقدوا مع الصينيين حلفاً دفاعياً ضد أوربا، فإن فعلوا ذلك حافظوا على شرفهم الوطني، وهذا أمر مهم للغاية.

نحن الصينيون لو تركنا الأوربيون مدة خمسة عشر عاماً من دون اعتداء أو تدخل في شؤوننا لأمكننا أن نحكم أنفسنا بأنفسنا. إن أحوج ما نحتاج إليه في زمن السلم هو زيادة الدخل.كما أننا نريد فرصة نتولى فيها صنع واستعمال الأسلحة الحديثة بأنفسنا. إننا نريد هذه الفرصة فحسب.

شعور الصينيين بالانتقام من أوربا

- ألا يمكنكم أن تجدوا هذه الفرصة؟
- إن السياسيين الأوربيين يجدون الذرائع دائماً لإشعال الفتنة بهدف عدم إعطائنا مثل هذه الفرصة، وأبسط ما يفعلونه هو أن يرسلوا أحد المنصرين فيكون الضحية، ثم تتحرك أساطيلهم.
- ما مدى انتشار النصرانية في الصين؟
- لن تجد صينياً واحداً يختار النصرانية راغباً، وهو يعرف ما هي النصرانية، غير أن كثيراً من الناس يدخلون النصرانية ليأمنوا شر المنصرين.
- هناك بين الأوربيين رجال عظماء، كثيرون خدموا الإنسانية، والفكر الإنساني تطور بين علماء القرن العشرين بشكل خاص.
- أوربا تتحدث عن الإنسانية، وترتكب الفظائع، و الواقع أنه لا توجد علاقة بين الإنسانية وبين الأوربيين. عندما أغرق الروس الصينيين الأبرياء في آمور صار على النهر جسر من الجثث البشرية، ولكن أحداً من الأوروبيين لم يهتم بفعل الروس. لقد انتزعوا الأطفال من أحضان أمهاتهم وألقوا بهم في نهر آمور، لقد جرى كل شيء أمام أعين الأوربيين. فهل تحدث أحد منهم تكلم بكلمة واحدة باسم الإنسانية؟ دلني على صحيفة

أوربية كتبت سطراً واحداً عن هذه الفاجعة؟ ولكن إذا جرح منصر واحد منهم أقاموا الدنيا كلها و أقعدوها باسم الإنسانية.

لقد بقي الجسر البشري من جثث الصينيين على أمور ثلاثة أيام متوالية، لقد اتخذهم الأوربيون على ساحل آمور غرضاً لهم واعتبروهم صيداً ثميناً، فكانوا يسحبون الجثث إلى الشاطيء ويفتشون الثياب لعلهم يجدون بعض المال والنقود، ثم يقذفون بالجثث إلى النهر مرة ثانية. أدعوكم للإنصاف، و إنكم ستواصلون ادعاء الإنسانية أليس كذلك؟

لم أعد أطلب المزيد واكتفيت بما قال وقمت مودعاً. فقال واك-كوان بكل احترام: «لقد تكلمنا كثيراً. أرجو العفو» وأمسك يدي مصافحاً وودعني عند الباب.

لاحظت على الرجل أثناء الحوار أنه أكثر إجادة للغة الروسية مني. كان يتكلم بكل سهولة ودون أي تكلف.

وهذا يدل على القابلية التي يتمتع به الصينيون، لقد وقع تتار روسيا في أسر الروس قبل ثلاثمائة عام، ومع ذلك فإن إجادتنا للغة الروسية محدودة جداً. أما الصينيون فبعد الضربة مباشرة، صار الكثيرون منهم يجيدون الكلام والكتابة باللغة الروسية. و صار عدد التجار الصينيين الذي يتعاملون مع الروس في الغرف التجارية الشهيرة كثيرون. و هم يتاجرون في كافة مناطق منشوريا بالبضائع الروسية.

إن الحرفيين هم الصينيين، وكذلك أهل الصنعة وأهل الثروة. إنك تشاهد الصينيين في كل مجالات العمل، وهم معروفون بالاقتصاد والتوفير. ومهما كان الصيني غنياً فإنه لا يرغب إلا في ملابسه الوطنية، بل ويفتخر بلباسه الوطني. إنهم أمة قوية الشكيمة، خاصة وأنهم يحافظون على شعورهم المتدلية بطول أذناب الحيوانات و يحرصون على ذلك إلى درجة التقديس.

العقوبة بالقتل والقصاص

العقوبة بالقتل والقصاص معروفة لدى الصينيين. فالقاتل إذا ثبت قتله يقتل. كما إن للمسئولين الحكم بقتل المجرمين العاديين أيضاً. ولبعض كبار المسئولين قتل من يحلو له من الأبرياء. والحكم بالقتل ليس من الأمور الكبيرة عندهم. أما إذا صدر حكم بقص شعر أحدهم فتقوم الدنيا وتقعد. فالشعر عندهم مقدس جداً. عندما كنت في هاربين ذكروا بأن عدداً من الأشخاص حكم عليهم بالموت، ومع هذا لم أجد التأثر الكبير، ولكني عندما كنت في بكين قصوا شعر أحد الناس فنشرت الصحف مقالات افتتاحية عن الحادثة، كما كانت مادة لأحاديث الناس أسابيع طويلة.

إنهم يقطعون رؤوس ثلاثة أشخاص في وقت واحد. فإن استطاع السياف فصل الرأس عن الجسد بضربة سيف واحدة، قهقهوا وصرخوا مستحسنين: شانقو شانقو!.

والعقوبة بالقتل أمر مشروع لدى الصينيين ويرضخ لها الجميع. ولا يقتصر إيقاع عقوبة القتل من قبل كبار الموظفين أو قرار من المحكمة، بل يمكن للواكات في منغوليا إيقاع القتل بمن يريدون من الناس.

أوضاع المسلمين في فودة تان

ذكرت سابقاً أن فودة تان جزء من هاربين، وتسير أمورها من قبل الصينيين. وفي فودة تان حي إسلامي صغير، والمسلمون هنا وهم صينيون، صورة طبق الأصل لمسلمي جيجكار، فالجهل والقذارة متلازمان فيهم. ولكن الآخون يختلف في الحديث عن آخون جيجكار. والاسم الصيني للآخون هو: (وان خون بن) واسمه العربي نور محمد،

ويملك القدرة على الكلام بالعربية بنسبة لا بأس بها، ولكن ليس بالعربية الفصحى فهو على العموم يسد الحاجة.

يرى السيد نور محمد أن إيقاظ المسلمين الصينيين من غفلتهم يتوقف على تأمين اتصالهم بمسلمي روسيا الداخلية. ولما كان عدد أصحاب هذه الفكرة من بين علماء الصين قليل، فإنني أخذت عنوان نور محمد أفندي وأعطيته عنواني للاتصال والمراسلة، بهدف استمرار العلاقة معه. وسنثبت على هذا الهدف. علمت أن مسلمي فودة تان فقراء وليس بينهم أحد من الأغنياء. ومع ذلك فإن لهم مسجدهم ومدرستهم. والطلاب في هذه المدرسة مثلهم مثل طلاب مدرسة جيجكار رجال في العشرين من العمر، يقرءون الفقه والنحو والصرف، ولكن شريطة ألا يعرفوا من العربية شيئاً. فالمرء عندما يرى مثل هؤلاء لا يعتريه شيء سوى اليأس. فالجهل أصبحت سمة عامة في شمال الصين وخاصة في الشمال الشرقي وفي منشوريا، لدرجة أنهم لا يحسون بجهلهم. إن إيقاظ هؤلاء من نوم الجهل وإرسال من يوقظهم هو من واجبات المثقفين المسلمين. وعلى المسلمين في دولة الخلافة الإسلامية ومنسوبي المشيخة الإسلامية بوجه خاص الإسراع إلى نجدة هؤلاء، وإنقاذهم من ظلام الجهل، وإلا فالعاقبة وخيمة. يقال إن عدد المسلمين يقدر بستة ملايين. ولن تجد بين الملايين الستة من يستطيع قراءة ما تجوز به الصلاة. فهؤلاء خسروا الدنيا والآخرة، وإن لم يصلهم المدد من الخارج، فسيكونون فريسة سهلة للمنصرين. وسأضيف هذا الموضوع إلى مشاهداتي في الصين الداخلية والذي سأتناوله بالعرض والتفصيل ذلك وإنني أكتفي هنا بهذا القدر.

لقاء مع الرحالة الشهير لاطيغين

خلال إقامتي في هاربين اجتمعت بلاطيغين الذي يعتبر من أشهر الرحالة الروس. و.ف لاطيغين بدأ برحلة استكشافية في عام ١٨٩٩ ترافقه

مجموعة من ٣٤ شخصاً تابعاً لجمعية الجغرافيين الروس، وشملت الرحلة تركستان الصينية بكاملها وجهات التيبت واستغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات كاملة وانتهت في عام ١٩٠٢. وهو رجل ذائع الصيت و متطلع في اللغتين الصينية والتركية. وكان سروري بلقائه عظيماً لأنني استفدت منه كثيراً.

استقبلني لاطيغين استقبالاً حاراً، وجرت بيننا أحاديث ودية، وزودني بمؤلفاته وبمعلومات تتعلق برحلته، وأطلعني على خريطة الصين التي رسمها هو، و بين لي الطرق، وجرى بيننا حديث طويل، وأفضى إلي بكل أفكاره:

- قال: إن نسبة تعرضك للخطر في هذه الطرق تصل إلى تسعين بالمائة. ستتعرض لمخاطر كبيرة أينما ذهبت. وكونك مسلماً سيزيد من نسبة الخطورة، لأن المنصرين في داخل الصين سيعاملونك معاملة سيئة جداً، وقد يرسلون أحداً ليقتلك، خاصة إن اتجهت نحو الجنوب فالمنصرون الكاثوليك في (صي جو آن) وما بعدها عديمو الأدب، فإذا عرفوا أنك مسلم فمما لا شك فيه أنهم سيعملون أي شيء للتخلص منك.

قلت: أنا لا أخاف أبداً من مثل هذه الأوهام، فالمسلم يعتقد بأنه ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ وهذا ما اعتقده أينما ذهبت.

- إذا كنت على مثل هذه العقيدة، فكن مطمئناً إلى أنه لن يصيبك مكروه. ومع ذلك سأنصحك بشيء: خذ معك مسدساً، فإن لم يلزم فأنت تهديه إلى أحد كبار الصينيين، فهو هدية مقبولة.

لقد أكرمني لاطيغين كثيراً، وأهداني نسخة من كتابه عن الرحلة. وبعد سهرة لطيفة معه امتدت حتى الساعة التاسعة زوالية، ودعته لأعود إلى منزل مضيفي حسين أفندي آغيشيف، فقال لي لاطيغين:

- إن شوارع هاربين ليست أكثر أمنا من جبال التيبت، فكن يقظاً.

غادرت منزل لاطيغين، كانت ليلة شديدة الظلام، والشوارع خالية من الفوانيس. مشيت مائة وخمسين قدماً، وإذا بأحدهم يصرخ أمامي: قف و إلا أطلقت عليك الرصاص!

- ماذا تريد؟ أنا ذاهب في سبيلي.

- فهمت، عفواً من تكون؟ أظن أنني من فزعي أفزعتك أكثر.

- أنا فلان.

- اه، كيف حالك؟ يا لها من صدفة جميلة!

دهشت من قوله حيث أن الرؤية مستحيلة، فسألت: من تكون؟

قال: أنا تيكولين، رافقتك من محطة منشوريا حتى جيجكار. أكرر رجائي بعفوك، لقد أفزعتك.

- لا عليك، فأنا لا أخاف من مثل تلك الأوهام.

مسكين هذا الرجل جاء خائفاً وكاد يخيفني أيضاً.

زيارتي لمتجر صيني

ودخلت ذات يوم عندما كنت أتجول في شوارع خاربين متجراً صينياً، وقد كتب على الباب من جهة الشارع اسم المتجر (سور - حو -شين) بالروسية والإنجليزية، والمكان غاية في التنظيم من الداخل ومن الخارج. دخلت من المتجر وكان عدد الرجال فيه على وسعه قليلاً. وفي ناحية منه رأيت شابا وقوراً طويل الشعر مسترخياً على كنبة يقرأ جريدة حجبت وجهه، وهناك آخرون مشغولون بأعمال حسابية على الدفتر. اقتربت من السيد الذي يقرأ الجريدة، فلما رآني قفز من مكانه قائماً، وأشار إلى كرسي لأجلس عليه. وقال باللغة الروسية وبأدب جم: «تفضل».

وقع نظري على الجريدة التي كان يقرأها. كانت جريدة «بورصة أسهم» تصدر في مانشستر، كما احتوت الطاولة على صحف صينية وروسية. وبعد التعارف بحثت معه أموراً كثيرة، ثم تطرق البحث حول أهمية أصول

مسك الدفاتر. عندها سألته عن اللغة المعتمدة في الدفاتر التجارية، قال: هي اللغة الصينية، ولكن في التعامل مع الأجانب لدينا دفتر آخر باللغة الإنجليزية.

- وهل هذه الطريقة متبعة في كل المتاجر؟

هذه هي الطريقة المتبعة في التعامل مع الأجانب، الكتابة كلها تكون باللغة الإنجليزية، أما الذين لا يتعاملون مع الأجانب فلا يحتاجون لغير اللغة الصينية.

- وهل بين الصينيين كثير ممن يتعامل مع الأجانب؟

- يتعامل الكبار مع الأجانب دائماً.

- وهل لدى الصينيين شركات خاصة بهم، وهل بينهم رأسماليون كبار؟

- ليس في هاربين رأسماليون كبار، هناك شركات بنصف مليون أو بمليون أو مليونين على أكثر تقدير. أما في تنزين و شانغهاي وكانتون ففيها كثير من الرأسماليين الكبار، وفيها شركات بواخر. ومع ذلك فإن الأعمال الكبيرة تكاد تكون مفقودة عند الصينيين. ولكنه سيأتي يوم نقوم فيه بالأعمال الكبيرة وستكون للصينيين مكانة تجارية مميزة في العواصم الأوربية، بل وسيدخل الأوربيون والصينيون في منافسة شديدة.

- عفواً هل لك أن تذكر لي إسمك؟

- واك -تياك - تاك.

- يا سيد واك - تياك - تاك، إنه الصراع من أجل الحياة. إن الأمم المتحضرة والمتقدمة فتحت أسواقاً لها بين الصينيين وغيرهم من الأمم المتأخرة بهدف تسويق إنتاج صناعاتها وعلومها، أما الأمم التي لم تنل حظها من العلوم والمعارف لا يمكنها أن تحتل مكاناً تستطيع منه المنافسة مع الأمم المتقدمة.

- الصينيون إلى عهد قريب لم يكونوا يتجولون في البلدان الأوربية. إلا أن الاستعداد الفطري عندهم معروف. وفي سبيل تنشئة الصينيين اتخذت الحكومة كثيراً من التدابير. إلا أن الصينيين تعودوا على ألا يغيروا من

وضعهم الذي هم فيه إلا إذا رأوا مصيبة قد حلت بهم، حتى إنهم لا يطيعون بوغديخان وهو مقدس لديهم. فبالأمس أمرت الإمبراطورة الصينيين أن يقصوا شعورهم، فلم يطعها صيني واحد، ولن يطيعها أحد، وقالوا لسنا بحاجة إلى ثقافة الأجانب وحضارتهم. والصينيون بعد الحرب الأخيرة، تلقوا ضربة كبرى، لا يمكن لصيني أن ينساها، فصاروا يفهمون الحضارة الأوربية على حقيقتها، وسيكون موقفنا تجاه الأوربيين مختلفاً تماماً. لقد عرفنا مدى حاجتنا للعلم والمعرفة، وشاهدنا ذلك بأم أعيننا، وسنبذل من الآن جهودنا من أجل الحصول على العلم والمعرفة، وسنأخذ ما ينفعنا من علومهم ونترك لهم فساد أخلاقهم. وإذا بقي هذا الفساد الخلقي لديهم فلا شك أنهم سيكونون في المستقبل مثلما نحن عليه الآن. بالإضافة إلى أن فينا طابع الاقتصاد والتوفير، فإذا كسبنا الصناعة والمعرفة فسنملك أسباب التطور. إننا نحتاج بعضة سنين للقيام بالإصلاحات الداخلية ومن بعدها لن نكتفي بمنافستهم فحسب بل سنسعى إلى الانتقام منهم أيضاً.

- أنا لا أرى في الصينيين مثل هذه القابلية. أينما رأيت الصينيين وجدتهم خداماً لغيرهم، وأحقر الأعمال عند الروس يقوم بها الصينيون. حتى أن الروس يسمونهم ايفان، و سيدور، و سيمون إلى غير ذلك من الأسماء الروسية، وقد يؤدي بهم الأمر إلى أن يخسروا قوميتهم.

- الصينيون لا يتهربون من العمل والخدمة، فالعمل والإطلاع على الأمور أساس النجاح بالنسبة لكل صيني. نعم أوافقك على أن الصينيين الذين هم في خدمة الروس مغبونون، مظلومون، لكن عاقبة هؤلاء ستكون خيراً بالنسبة لنا. والآن لم يعد الروس يهينون الصينيين كما كانوا في السابق، فقبل الحرب مع اليابان كان ينظر إلى أكبر مليونير صيني على أنه دون أبسط خادم روسي. وسأبين لك ذلك الآن: ليس في هاربين صيني واحد، كل هؤلاء ومن حولهم من المنشوريين. والصينيون الحقيقيون تجدهم في داخل الصين في مناطق تنزين وشانغهاي.

- إن الصينيين قوم جبناء، إنهم يخافون من الأجانب خوفهم من الوحوش الكاسرة. إنني شديد الاستغراب، فلم كل هذا الخوف؟

- هذا ليس في الصينيين بل في الحكومة الصينية. والسبب أن السفراء الأوربيون منذ القدم كانوا يقولون (في العهود التي طال نفوذهم القصر في بكين) "إن أصاب أحداً من منصرينا خدش فسنطالب بدمه "فصارت الحكومة تمارس الضغوط الشديدة على الأمة بحجة منع وقوع الفتنة أمام الأوربيين. وكانوا في تلك الأيام لا يعرفون من هم المنصرون، في حين كان المنصرون يمارسون كافة أنواع الإهانة والاحتقار على الصينيين، وهدفهم إيقاع الفتنة. فإن حاول الصينيون رد الإهانة و لو جزئياً، أسرعت أساطيلهم في التوجه إلينا، وهددونا بإعلان الحرب بذريعة أننا أهنا أحد مواطنيهم. وحينها لم نكن نجد أحداً يقف إلى جانبنا. ولم يقتصر الأمر على المنصرين بل إن الضباط الأجانب كانوا يقصون شعور الصينيين، ويقصون رؤوسهم في بعض الأحيان، وما كانت الحكومة تسألهم لماذا فعلوا ما فعلوه، حتى أن ضابطاً (وذكر إلي اسمه) قطع رأس رجل في أحد شوارع هاربين، فسأله أحد أصحابه لماذا تفعل هذا؟ فرد ضاحكاً: لكي أجرب سيفي. أُنظر إلى هذه الوحشية الأوربية. ومع هذا فقد اتهمونا بالوحشية وأعقبوا ذلك بإعلان الحرب علينا. بعض هذه الحالات لازالت موجودة حتى الآن و لكنها لن تستمر طويلاً.

- أحقاً موجودة حتى الآن؟

- كانت موجودة ويمكننا أن نقول بأنها لم تعد موجودة بعد حرب اليابان أما الآن فلم يعد لدى الصينيين ذلك الصبر الذي يصل لدرجة الحماقة.

وبعد هذا الحوار الذي امتد قدر نصف ساعة مع واك-تياك- تاك اطلعت على دفاتر الحسابات الجارية وحصلت على كثير من المعلومات وغادرت مودعاً.

وبعد مكوثي مدة أسبوعين في هاربين، قررت مغادرتها إلى فلاديفوستوك وذلك في السابع من كانون الثاني، وكنت قد طلبت من

محكمة هاربين جواز سفر لأتمكن من السفر إلى البلدان الخارجية، وقد وعدني رجال المحكمة بإعطاء الجواز، إلا أن إهمال الموظفين الروس جعلني أتردد عليهم للحصول على الجواز فأضعت بذلك يومين دون مبرر.

وصادف أن كانت تلك الأيام هي رأس السنة الصينية، وكانت أيضاً بدايات رأس السنة لدى الروس، فعشنا هاتين المناسبتين في وقت واحد. وكان منظراً وأي منظر! الروس بمناسبة عيدهم سكارى منذ أسبوع، يتمرغون في الأوحال في كل مكان، أما الصينيون فمشغولون بإشعال الشهب النارية، و إطلاق الرصاص ليل نهار. ففي تأخري عن السفر مدة يومين أمكنني أن أرى كل هذه الاحتفالات.

خط حديد شرق الصين

من الملاحظ في خط حديد شرق الصين، الذي يبتدئ من محطة منشوريا وحتى فلاديفوستوك وجود أعداداً هائلة من الموظفين في كل محطة تمر بها مما يدعو إلى الحيرة والدهشة، فلكل محطة قرية تحيط بها وسكان القرية بكاملها من العاملين في الخطوط الحديدية، وإن وجد بينهم بعض الناس الآخرين فليسوا سوى من التتار أو اليهود، وهم أصحاب محلات تجارية ودكاكين، وكذا الحال في المدن حيث يشكل العاملون بالخطوط الحديدية أكثر السكان. فمدينة هاربين مثلاً، عدد سكانها حوالي سبعون ألفاً، ثلثاهم من العاملين في الخط الحديدي، والثلث الباقي من التجار. والتجار يجمعون المال والثروة من العاملين والخدم في الخطوط الحديدية.

وليس من حق الروس أن يحتفظوا في هاربين رسمياً سوى بموظفي الخطوط الحديدية، ولذلك لا تجد أي موظف ممن له صفة مدنية. وقد

أسندت المهام الإدارية والأمنية إلى إدارة الخطوط الحديدية. فالموظف بالخط الحديدي قد يصير والياً أو مديراً للبوليس عند الحاجة، وقد يكون قائداً في بعض الحالات. إنهم يستخدمون موظفي الخطوط الحديدية لأغراض متعددة.

وفي الأحوال الطبيعية، فإن الرجل الواحد يقوم بمهام عدد من الأشخاص و لكن الواقع هنا أن عدداً كبيراً من الأشخاص يقومون بأعمال يمكن أن يقوم بها رجل واحد. وهدف الروس الأصلي ليس استخدامهم في الخط الحديدي بل إسكانهم في منشوريا، فهذا الخط الحديدي أنشأه الروس لحساب الحكومة الصينية، ويشغلونه لحساب الحكومة الصينية. لذلك فإن خط حديد شرق الصين الذي أنشيء لهذا الغرض يخسر كل عام اثني عشر مليون روبل.

من هاربين إلى فلاديفوستوك

في أول محرم الحرام من سنة ١٣٢٧ هجرية غادرت مدينة هاربين. وخرج كل الأحباب لتوديعي حتى محطة القطار. كان الوقت بعد المغرب وستكون هذه الرحلة الأخيرة التي أستعمل فيها قطارا روسياً.

إنني على علم تام بأنه في هذه الأصقاع يتواجد التتار في كل محطة. فالتتار موجودون في كل مكان حقيقة، وكلهم يعملون بالتجارة. وبعد أن تحركنا من هاربين كان الوقت قريباً من منتصف الليل، دخل في المقصورة التي أنا فيها شاب بلباس تتاري، وفي المقعد المقابل كانت تجلس سيدة، فتقدم وجلس بجانبها، ولم أكن أتصور أن تكون علاقة صداقة بين امرأة روسية حسناء وبين تاجر تتاري، فأسلمت نفسي للنوم.

وكان الوقت قريباً من الفجر عندما أحسست بحديث غاية في الجدية بين الشاب التتاري وبين تلك السيدة، فما لبثت أن تظاهرت بالنوم، ومع

ذلك فلم يكن كلامهما مسموعاً، و حينما أسمع بعضاً منه فإنه يتعذر عليَّ فهمه، وقد شغلت هذه الصداقة والجدية بينهما تفكيري كثيراً. وقد وجدت فرصة لأكشف عن هويتي، فما لبث أن قام الشاب وصافحني وقال: سأنزل في المحطة القادمة، و أعتبر نفسي تلميذاً لك، وستشرح لك هذه المرأة من أكون ولماذا جئت لهذا اللقاء.

سألت: أين تذهب هذه المرأة؟

قال: إلى فلاديفوستوك، إنها أخبرتني برقياً فجئت من مسافة مائتي كيلومتر من أجل اللقاء واستلام بعض الأمور. فازددت تعجباً، ولم أكن أعلم بوجود شباب يهتمون بالسياسة بهذه الدرجة.

- ألك زملاء؟

- قليلون جداً، لقد قبض على خيرة شبابنا وأرسلوا دون محاكمة إلى معسكر القتل في نيرجينسكي.

وصل القطار إلى المحطة، ونزل الشاب، وكانت العربة تغص بالركاب فلا يمكن الحديث، وقد كنت شغوفاً بمعرفة أحوال هذا الشاب المقدام.

قالت لي السيدة: بعد الوصول إلى فلاديفوستوك سآتيك إلى الفندق وأخبرك من هو هذا الصديق. ما الحيلة، لا يزال أمامنا أربع وعشرون ساعة من الطريق، وليس لنا إلا الصبر. السيدة في غاية الجدية والوقار، ويظهر عليها بأنها من أسرة عالية التربية والخلق. بقينا سوية حتى هبط الليل. كانت تبدي أشد الاحترام لي. وفي الليل نامت بما عليها من اللباس، وكنت أراقب أحوالها بدقة فأجدها تلازم جانب الجد في كل أحوالها، إنها جديرة بالتقدير.

في الصباح الباكر من يوم ١١ تشرين الثاني أيقظتني السيدة الجارة وأخبرتني بأننا نقترب من فلاديفوستوك، فقمت ولملمت حاجياتي، فقالت لي السيدة: عند النزول من القطار ستجد أمامك عدداً كبيراً من الحمالين الكوريين الفقراء، و ليحمل أمتعتك واحد منهم، ليوصلك إلى الفندق، ولا حاجة للعربة، فلو دفعت للعربة أربعين قابيك فسيطلب

صاحبها المزيد، أما هؤلاء فإنهم سيرضون بما تعطي ويشكرونك على عطائك، كما إن الفنادق قريبة، سأريك إياها. أما أنا فسأنزل في بيت أخي، سنترافق في الطريق إلى باب الفندق.

فلاديفوستوك

ولم يلبث أن توقف القطار في محطة فلاديفوستوك، وكان أول ما لفت نظري الحمالون الكوريون، و على ظهر كل منهم حامل يضعون عليه الأحمال، إنهم شديدو اللطف، ويقتربون بخوف ووجل، فناولت أحمالي لأحد الكوريين، فحملها على ظهره وغادرنا المحطة. وعند خروجي من باب المحطة كان أول ما وقع عليه نظري هو أرض مرتفعة وآثار الأقدام مطبوعة على كل جزء منها، وحيثما يتجه الناس يتبعهم الحمالون الكوريون، حتى صار الأثر طريقاً واضحاً إن هذه الأرض ترتفع قدر اثنى عشر ذراعاً وأصبحت بمثابة مدرج، وما أن صعدنا المرتفع حتى وجدنا أمامنا ميداناً كله نجاسة! فالحمالون الكوريون والسكارى أفرغوا نجاساتهم في هذا المكان، و على بعد عشرين خطوة منه وعلى ناصية الشارع الرئيسي يقع فندق غراند أوتل الذي يعتبر من فنادق الدرجة الأولى بفلاديفوستوك. إن هذا الميدان هو أول ما يصادفه القادمون من الخارج، و لابد لكل قادم أن يشاهده، فلو كانت هذه النجاسة في بلد من بلاد الإسلام لداوم الكتاب النصارى للكتابة عنها كل يوم و لادعوا أن السبب في ذلك هو الإسلام. أما هذه المدينة فهي جزء من العالم النصراني وتحت حكم الروس، لذلك فما من كاتب يكتب، أو راء يرى هذا المنظر المشين.

نزلت في فندق «قريمسكي» على بعد خمسين خطوة من المكان، فأنا الآن في مدينة فلاديفوستوك، باب الشرق الأقصى، ومنتهى الأصقاع

الروسية الشاسعة، ومبدأ ومركز خط سيبيريا الكبير، وأحد أكبر وأجمل الموانى الحربية في العالم، والقوة الدفاعية الوحيدة للروس ضد أكبر أعدائهم.

وليس هنالك أدنى شك في أهميتها القصوى من الناحية التجارية وكذلك من الناحية السياسية. ومن المهم أيضاً أن نتناول هذه المدينة بشيء من التفصيل، ومن المؤكد بأن كل إنسان ينقل إلى الآخرين ما استرعى اهتمامه هو.

الكوريون في فلاديفوستوك

عدد الكوريين في فلاديفوستوك كثير جداً، و لا يعلم عددهم إلا الله. هذا القطيع من البشر يستحق الرحمة حقيقة، ولكن ما الحيلة، فالناس «المتحضرون» يشفقون على الكلاب ولا يشفقون على بني جنسهم! ارفع صوتك بأقصى ما تستطيع فلا أحد يهتم، أو أُسكت إن أردت، فلا يحس أحد بالشفقة! «ليس لأحد أن ينتقد لأن المدنية تقتضي ذلك».

ولما كانت الفطرة لدى أهل المشرق تعتبر أن الرحمة بالناس هي من الفضائل الإنسانية فإنني أحسست بالشقة البالغة تجاه الكوريين.

في البداية لم يكن بالإمكان تقدير عدد الحمالين الكوريين الذين رأيتهم في محطة فلاديفوستوك و لا أبالغ إذا قلت إنهم أكثر من ثلاثة أمثال الركاب النازلين من القطار، لأنني لاحظت عند مغادرة المحطة أن عدد الحمالين الذين عادوا صفر اليدين يتجاوز ضعف عدد الذين فازوا بالأحمال. أضف إلى ذلك أن بعض الركاب لم يكفهم حمال واحد فحملوا أمتعتهم على أكثر من حمال.

ثم أن أمام كل فندق يرابط خمسة من الكوريين على أقل تقدير، وفي أكثر الفنادق يصل عددهم إلى ثمانية أو عشرة، ولا يسمح لهم خدم

الفندق بالاقتراب من الباب، فتجد هؤلاء المساكين واقفين على أقدامهم، عيونهم على باب الفندق وعلى ظهورهم أسرجتهم، لعل صاحب شفقة يخرج فيحمل أمتعته، ويعطيه عشر بارات أو عشرين بارة على أكثر تقدير. هذا إن أعطى! إذ قيل لي أن بعضهم يحمل كل أمتعته الثقيلة ثم لا ينقده شيئاً. ولا تجد في فلاديفوستوك متجراً أو دكاناً إلا وتجد أمامه بضعة كوريين؛ ينتظر الكوري المسكين كي يأتي زبون فيشتري بعض الحاجيات فيحمله له ليعطيه بضعة نقود.

وهؤلاء في جوع مزمن، فمتى ما خرجت من الباب ولوحت لهم بقطعة من الخبز أسرع إليك ما لا يقل عن عشرة منهم. أن كثيراً من الأوربيين يحملون هؤلاء الناس أمتعة تنوء عن حملها الحمير، فإن حمله هذا المتاع من أقصى فلاديفوستوك إلى أقصاها وأعطاه بضع بارات نظر هذا الكوري المسكين إلى ما أخذه وقلبه يطير فرحاً وكأنه لا يصدق أن ذلك المال صار بيده. وقد أعطيت الكوري الذي حمل أمتعتي من المحطة إلى فندق قريمسكي عشرة قابيكات (خمسين بارة) فلم يكد المسكين يصدق؛ كان ينظر في وجهي ثم ينظر في النقود، وعيناه تفيضان فرحاً. وليس بين هؤلاء الكوريين من يتكلم الروسية لذلك لا يمكنهم أن يساوموا، حمله ما شئت من الأحمال ثم أعطه ما يمليه عليك ضميرك.

ولو تطلب الأمر أن يكتب الإنسان كتاباً عن الكوريين في فلاديفوستوك لأمكن كتابة رواية من مئات الصفحات ليقرأها القارئ بأحر الدموع. لقد حزنت على الكوريين كثيراً. والحق أقول بأنني لن أنساهم ما حييت. وذات يوم التقيت بكوري له بعض الإلمام باللغة الروسية وسألته عن أحوالهم: ما سبب كثرة عدد الحمالين؟ فرد ماسحاً دموعه: هل تجد في الدنيا أمة أسوأ حظاً من أمتنا؟ هل يمكننا أن نعمل غير هذا العمل؛ إن أمة لا تقدر للوطن قيمته تستحق عقوبة أكبر من هذه العقوبة؛ لقد تركنا الوطن للأجنبي واخترنا هذا الذل؛ قاتل الله الذين كانوا السبب.

- أين أهلك وعيالك؟ وإلى أين تأوي؟

- أهلي في أطراف هذه المدينة. بيتي هنا، وأهلي يقيمون فيه.
- كم تكسب من عملك؛ وماهو الحد الأقصى ليوميتكِ؟
- في بعض الأيام خمسة إلى عشرة قابيكات (٢٥-٥٠ بارة) وفي بعض الأيام لا نحصل على شيء ونادراً ما يصل دخلنا إلى عشرين أو ثلاثين قابيك، هذا إن قابلنا ضيفاً كريماً من الخارج!
- أليس بين الكوريين أصحاب ثروات؟
- قد تجد ذلك في بلادنا، أما هنا فلا، ولا يمكن أن يكون. إننا لا نعرف لغة أجنبية فلا ننفع في عمل. أما الذين يعرفون اللغة فقد ابتلوا بالمسكرات وهم أيضاً لا ينفعون في أي عمل.
- ألا ترى أن العيش في بلدك أحسن من هذا البلد؟
- العيش هناك أسوأ من هنا، فهناك خطر الموت جوعاً. هذا من جانب ومن جانب آخر يتسلط عليك المنصرون، يمارسون أقصى الضغوط كي تصير نصرانياً فإن رفضت منعوا عنك الخمر، والواقع إنهم يعطونك الخمر حتى توافق على دينهم فإن وافقت منعوه عنك ثانية (كان المسكين يضحك بدل أن يبكي).
- هل هناك الكثير ممن قبلوا النصرانية؟
- أكثر الفقراء يقبلون، إذ لا حيلة لهم، كثيرون تنصروا من أجل زجاجة خمر، يعطيك المنصر في المساء ويمنع عنك في الصباح، يريك زجاجة الخمر، ويقول: أعطيك أن تنصرت، فماذا سيفعل المسكين؟ ليس له إلا أن يتنصر. وما أكثر هذا النوع من النصارى.
- إذا لم يكن بد من التنصر فعليكم أن ترسلوا أولادكم إلى المدارس لتخلصوهم مما أنتم فيه.
- لا أدري إن كان لنا شيء غير الموت. إن أهل العفة لا يستطيعون الخروج والسؤال، إن كثيراً من الناس يموتون في بيوتهم جوعاً.
تأثرت بما سمعت أبلغ التأثر، فاصطحبت الكوري، وتوجهت إلى المكان الذي يعتبره حياً لهم. إنها حظائر غريبة الشكل مبنية من الطين خارج

فلاديفوستوك وداخل كل حظيرة سبعة أو ثمانية أو حتى عشرة من البشر. لا نافذة لها بل كوة من الأعلى تسحب دخان النار الموقدة في الوسط، وتضيء المكان.

(إن كان الموت كما قالت عنه العلوم الحديثة، فيكفي الإنسان لكي يموت أن يمكث في هذا البيت بضع ساعات) فالكوريون يعيشون في هذه البيوت. دخلت في عدد منها، وخطر لي وأنا أدخل أحدها أن أسأل: وهل يدري موظفو الشرطة بالوضع الذي أنتم فيه؟

فرد عجوز قائلاً: وهل يدري أهل النعيم بما فيه أهل الجحيم؟

يكفي الإنسان أن ينظر بعبرة إلى حال هؤلاء المظلومين والمسحوقين كي يقدر مدى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ثم يقارن مع ما يقوم به بعض الناس بدعوى الإنسانية فيشكلون جمعية الرفق بالحيوان وغيرها ومن الجمعيات، لا أجد فرقاً بينهم وبين الجائعين في باريس وهم يدخنون لفائف التبغ السوداء الطويلة، وبين عراة لندن وهم يلبسون القبعات الاسطوانية إنهم لا يرفقون ببني جنسهم من البشر، ثم يدعون الرفق بالكلاب وغيرها من الحيوانات.

لقد أرسلت صور الحمالين الكوريين وبيوتهم في فلاديفوستوك بالبريد إلى أهلي إلا أن موظفي البريد في روسيا لم يوصلوها لهم فهم لا يتحملون أية مسؤولية، وليس لي إلا أن أعتذر للقراء الكرام عن عدم تمكني عرض هذه المناظر وقد كانت لدي صورة كثيرة تستحق العرض أمام هذا العالم المتحضر عله يعتبر.

موقع المدينة وأحوالها

فلاديفوستوك مدينة كبيرة ومشهورة ذات أبنية ضخمة ومتاجر عظيمة منتشرة بين الجبال وداخل ميناء قوي ومحصن. عندما قدمت إليها كان الوقت شتاء والجليد الأبيض قد غطى كل مكان، والجبال المتعددة تعطي

منظراً فريداً يشهد بقدرة الباري عز وجل. وتجولت في المدينة طولاً وعرضا، وزرت كافة أطرافها. إن بعض شوارعها الكبيرة في غاية الترتيب والانتظام، إلا أن الخرائب في جهة الممرات الجبلية ليست قليلة. وعلى أبواب المتاجر الضخمة في الشوارع الرئيسية أسماء صينية طويلة جداً، بعضها مكتوب باللغة الصينية وبعضها بالروسية. أمثال: «توك- لوك- تاي» و«جزاك- حوك- توك- شيك- تاي» و«توك- شيك- لوك» وغيرها. وهناك أسماء مكتوبة بالحروف اليابانية على متاجر يملكها يابانيون، ولوحات مكتوبة باللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية وقليل منها باللغة الروسية بحيث تكاد فلاديفوستوك تشبه معرضاً دولياً. وما عدا هذا وذاك فلا تخلو شوارع فلاديفوستوك ولا أحياؤها من الأعداد الكبيرة من الكوريين وعلى ظهورهم حمالاتهم الخشبية الطويلة بحيث لا تجد لها مثيلاً في بلاد أخرى. أضف إليهم مجوسي الهند ذوي العمائم الحمراء وقد احتلوا مواقع لهم على الأبواب.. كل هذه المناظر توحي للإنسان أفكاراً كثيرة ومتشعبة.

وفلاديفوستوك من جهة المال والاقتصاد تذكرك ببلاد الصين، فحين ذهابك إلى المتاجر المنتظمة، و البنوك و الدكاكين، فإنك تجد الصينيين ذوي الشعور الطويلة، وحيثما وجدت خدمات وأعمالاً شاقة وجدت الكوريين هناك.

إن الأيام التي قضيتها في فلاديفوستوك كانت أيام احتفالات برأس السنة الصينية، وكنت أرى مجموعات من الصينيين يملئون الشوارع وهم بملابسهم الحريرية النظيفة وشعورهم الطويلة ويضعون واقيات مزركشة تحمي آذانهم من البرد. وسأتعرض لعادات وطبائع الصينيين بشكل مفصل عند الكتابة عن الصين، لذا اكتفي الآن ببعض الأمور المختصرة.

وللروس في فلاديفوستوك جامعة خاصة باللغات الشرقية. وبالرغم من تسميتها بالجامعة فهي لا تعدو كونها مدرسة صغيرة. إن الهدف الأساسي من تأسيس المدرسة هو تعليم لغات الصينيين واليابانيين والمغول، إلا أن

السادة المتخرجين من هذه المدرسة لهم القدرة على أن يتكلموا عن أشكال وأسرار الحروف الصينية دون أن يعرفوا شيئاً عن اللغة نفسها.

وقد يخطر على بال القارئ الكريم بأنني لا أعرف اللغة الصينية ولا اللغة اليابانية، فكيف لي أن أعرف عدم إلمامهم باللغة؟ هذا صحيح، ولكنني خلال وجودي في طوكيو التقيت بطالبين أكملا دراستهما في هذه المدرسة، وعشت مع أحدهما مدة أسبوعين في غرفة واحدة، وتجولنا في طوكيو سوية، فكان يحتاج إلى الترجمان بقدر احتياجي إليه، وفي بعض الأمور البسيطة لم أكن أستعين بالترجمان وهو أيضاً كان بما عنده من معلومات يقضي أعماله بنفس الطريقة التي أقوم بها.

وهناك طالب اخر كان يدرس اللغة الصينية، وهو في السنة الأخيرة، ورجوته أن يقرأ لي رسالة وردتني، وكنت أعرف مضمونها، لقد حاول هذا الطالب كثيراً و لكنه لم يتمكن من قراءة اسمي فكيف له أن يفهم مضمون الرسالة؟

ومع ذلك فجامعة اللغات الشرقية موجودة، وهذا بحد ذاته جهد. إن تدريس اللغات الشرقية فيها أمر لا غبار عليه، والسيد سيبوكوف المتخصص باللغتين المغولية والصينية هو واحد من أساتذة هذه المدرسة.

وسيبوكوف رجل معروف لدى البورات، رحل إلى التيبت، و هو يجيد اللغة الصينية، وتعلم اللغة الروسية بجهوده الذاتية ويمكنه الكتابة بها مع بعض الأخطاء، وإعطاؤه درجة الأستاذية مقابل اعتناقه النصرانية ليس بالأمر الكبير. وكاتانوف في قازان هو أستاذ اللغات الشرقية جميعها. إلا أن لغته الروسية ضعيفة، كما أنه لا يعرف من اللغات الشرقية سوى المينوسيه والبورات ومع ذلك فهو مراقب في اللغات العربية والفارسية والتركية.

القنصلية اليابانية في فلاديفوستوك

ولما كان الهدف الأساسي لي هو التوجه إلى اليابان، فقد ذهبت إلى القنصلية اليابانية، لمعرفة الطريق إلى اليابان، وموعد إقلاع البواخر، وحينما دخلت الباب وجدت كل من كان هناك مشغولاً بعمل. وقام شاب من مكانه وسأل: ماذا تأمر؟ فاقتربت منه وقلت: أرغب السفر إلى اليابان، وأريد أن أعرف برنامج إبحار السفن وعن الميناء الذي يمكن أن أجدها فيه.

- سفينتنا ستبحر اليوم إلى (سوريغة). بعد ساعة واحدة من الآن أما السفن الروسية فتبحر مرتين في الأسبوع، يومي الخميس و الاثنين.

- أريد النزول في هاكوداتي "HAKODATE" أونيغاتي "NIGATE" هل لي أن أعرف شيئاً عنها؟

- إن كنت تريد ذلك فأنا مشغول جداً الآن، فتفضل إن شئت في المساء كي أزودك بمعلومات مفصلة، أو أعطني عنوانك كي اتي إليك. إن السفن لا تبحر في الشتاء إلى الشمال من جهات هاكوداتي، لأنها مغطاة بالجليد.

تركت له عنواني واستودعته، وخرجت من هناك إلى المتحف، وكان صغيراً، لم أر فيه ما يعجب، ثم دخلت إلى دار المطالعة العامة، وقضيت قرابة الساعة في مطالعة الصحف.

وفي حوالي الساعة السادسة عدت إلى دار الضيافة، وشربت قليلاً من الشاي، ثم أخبرني الخادم بأن اثنين من الرجال يريدان مقابلتي، قلت: ليتفضلا، فدخل علي شابان عليهما ملامح البشاشة التي يختص بها الشرقيين، فسلما عليّ، وعرفاني باسميهما. كانا كاتبين في القنصلية اليابانية. و بعد كلمات التعارف والترحيب قالا: إنك إن سافرت إلى بلادنا اليابان فستكون رحلة مريحة وممتعة، ولن تتعرض لأية متاعب. عرضت عليهما أن يشربا الشاي فاعتذرا، و قال أحدهما: نأسف لعدم وجود رحلة

لسفينتنا في اليوم الذي قررت فيه سفرك وكنا سنسر لو تم ذلك، ولكن لا عليك فإن السفر في سفن شركة كوكللي الروسية ممتع أيضاً. لم نسمع قبلاً بسواح مسلمين في بلادنا، والحقيقة إنه ليس في بلادنا مسلمون، نتمنى أن يكثر عددهم بعد الآن. هل تجيد اللغة الإنجليزية؟

- للأسف لا أجيد اللغات الأجنبية.

- اللغة الإنجليزية في بلادنا تفي بالحاجة. يمكن للمرء أن يتخاطب بالإنجليزية في كافة أنحاء اليابان.

- تعرف اللغة العربية طبعاً.

- أعرف.

- إذن سنعطيك كتاب توصية، لنا صديق درس في سوريا.

طبيعية الشرق، حضارة الشرق، لقد صرنا أصحاباً دون تكلف. وبعد جلسة استغرقت حوالي نصف ساعة قالا: إننا مشغولان في بعض الأمور هذا اليوم، وسنعود إليك للنظر في حاجتك، نرجو أن تأذن لنا الآن.

وودعني هذان الشابان وغادرا المكان. أعجبت بدماثة الخلق واللطف عندهما، إنهما شديداً الود لمحدثهما، يعاملان المرء وكأنهما صديقاه منذ سنين، إنحنيا ببالغ الاحترام وصافحاني ثم قالا مفارقين: سنكون سعيدين إن أمرتنا بأي خدمة..

المقاهي والمسرح الصيني

وفي المساء نزلت إلى الشارع الرئيسي لقضاء بعض الوقت، والتمشي والنزهه، و كانت على جانبي الشارع دور للسينما ومقاه، و لم تكن لدي رغبة في دخول هذه المقاهي و لكن ما الحيلة، دخلت إحدى هذه الدور لأتخلص من الشعور بالضيق. جلست قدر نصف ساعة، وسمعت روسيين يقول أحدهما للآخر: هيا نذهب إلى المسرح الصيني. وخطر لي أيضاً أن أذهب لأشاهد المسرح الصيني، فذهبت كي أشاهد شيئاً ما رأيته من قبل.

غادرت المقهى وركبت عربة وتوجهت إلى المسرح الصيني. وصلت إليه وكنت أظن أنه مسرح يستحق المشاهدة و قضاء بعض الوقت فيه، فوجدته يسبح في بحر من القذارة. دخلت فواجهني الدخان الكثيف، ورائحة الثوم الكريهة وروائح متخمرة ومتعفنة أخرى.. لم أتمكن من البقاء أكثر من عشر دقائق. والواقع لم أكن أفهم شيء من المسرحية، إلا أن حركاتهم وسكناتهم تدل على أنهم كانوا يمثلون مسرحية تاريخية، ولم يكن لي ما أستفيد منه. تركت المكان وعدت إلى الفندق الذي أنزل فيه. ورأيت أن الانشغال بالمطالعة أفضل من قضاء الوقت سدى. و كانت كتب الرحالة الشهير لاطيغين مفضلة عندي على الكتب الأخرى.

لقاء مع صاحبي في السجن

وفي اليوم التالي خرجت إلى دار المطالعة كالمعتاد لقراءة بعض الصحف، لاحظت أن رجلاً يركز نظره إليّ. وجهت نظري إليه مرة أو مرتين و لكنني لم أعرفه، فسكت. وبعد نصف ساعة جاءني ذلك الرجل، فسلم عليّ وقال: عفواً أظن أنني إن لم أخطئ سأعرفك.

قلت: لا أتذكر أني رأيتك، وأظن أنك مخطئ.

- لم أخطئ، و لكنني لا أتذكر اسمك، ما بقي في ذاكرتي هو أن كنيتك رشيد، أما ملامحك فما زالت في خاطري.

- أين رأيتني؟

- جمعنا السجن في أوديسا. كنا في غرفتين متجاورتين، ثم صدر العفو عنا بمناسبة ولادة ولي العهد. وعندما أفرج عن مئات الأشخاص في إحدى الليالي لم يفرجوا عنك، فجئت إلى الباب كي أودعك.

- عندما كنت في سجن أوديسا، كانت على يميني صبية لا يتجاوز عمرها سبعة عشر عاماً، وعلى يساري طالب روماني الأصل و لكنني لا أتذكر.

- فأنا ذلك الروماني. كنت أقول في نفسي بأنني سأعرف هذا الرجل.. أفكر منذ نصف ساعة.

- أمر عجيب حقاً قال أسلافنا: «إن الجبل لا يمكنه أن يلتقي بجبل آخر، ولكن الإنسان قد يلتقي مرات ومرات بإنسان آخر». إنني وحتى الآن لا أتذكر وجهك. كنت شاباً فتغيرت كثيراً بالإضافة إلى أنني لا أتذكر اسمك.

- ما هو عملك؟ وأين تقيم؟

- إنني ميكانيكي في باخرة إنجليزية، فقد صرت إنجليزيا حاملاً للجنسية الإنجليزية. رميت النير الروسي جانباً وتركت السياسة، وأبذل كل جهدي الآن من أجل كسب المال. إن لقاءي بك صدفة في أقصى الشرق أثار دهشتي، تذكرت أموراً كثيرة، ومن المؤسف أنه لا وقت لدي لمزيد من الحديث معك، لأن الباخرة على وشك الإبحار.

وفي هذه الأثناء جاءه رجل، وكلمه ببضع كلمات، ثم ودعاني وانصرفا. أما أنا فخرجت من دار المطالعة متوجهاً إلى مدرسة اللغات الشرقية. ومرت علي خواطر كثيرة، انظروا أين يتقابل المرء بشخص آخر؟ إن كل الأيام التي أمضيتها في سجن أوديسا كانت تتوارد في مخيلتي، إلى أن وصلت إلى المدرسة، وكان هدفي هو اللقاء مع الرحالة الشهير "سيبوكوف"، إلا أني لم أجده هناك، فالتقيت بـ «غومبو-جاب» مدرس اللغة الصينية. وبعد شيء من الحديث معه عرض علي أن نخرج سوية للتنزه فوافقت وخرجت معه. فأخذني «غومبو-جاب» إلى دار القمار الصيني.

دار القمار الصيني والمطعم الصيني

يقال أن لدى الصينيين نوع من القمار إسمه «لاك-تو» يلعبه الصينيون في الأعياد. واللعبة تشبه لعبة الورق (اسكنبيل) و لكن الأدوات عندهم مصنوعة من الخشب، والمكان مزدحم بالمرتادين. يلعب ستة منهم، أما

الباقون فيقامرون على مقامرة هؤلاء الستة، وكأنهم مشتركون معهم فإذا كسب لاعب، كسب اللاعب الآخر وإذا خسر خسر معه. وبالطبع إنني أجهل هذه اللعبة، وقد استدللت من كثرة اللاعبين وقلت في نفسي: قد يكون هذا النوع من المقامرة مدهشاً، وإن كان الأمر كما أتوقع فالإفلاس عاقبة الصينيين.

قال «غومبو-جاب»: إن طبيعة الصينيين لا تقاس بالأوربيين، إن في لعبة القمار هذه قواعد تعارف عليها المقامرون أنفسهم. فالمقامرون أشد تمسكاً بهذه القواعد من الشرطة: القاعدة الأولى ألا يكون اللاعب في حالة سكر، فالسكران مرفوض من قبل اللاعبين، فإن قبله اللاعبون، فما خسره من مال يعود إليه بقوة الشرطة بالإضافة إلى معاقبة اللاعبين الآخرين عقوبات مالية. ثم إن هناك أنواعاً من القمار مثل ماهو متعارف عليه بين الروس، فلا يسمح لمثل هذه الأنواع إلا في الأعياد. أما الأنواع الأخرى فهي بسيطة ولا يخسر المرء فيها المال الكثير، و الصينيون يراعون هذه الأمور مراعاة دقيقة.

ثم إن هذه الأمة لم تتعود على المسكرات. والشيء الوحيد الذي ابتلوا به هو الأفيون. و إن الخطر الحقيقي على الأمة الصينية مصدره هذا الأفيون الخبيث. (وسأتعرض لهذا الموضوع بالتفصيل عند بحثي عن بكين).

وخرجنا برفقة «غامبو-جاب» إلى المطعم الصيني الكبير، وأخبرني «غامبو-جاب»: أنه ليس في فلاديفوستوك كلها أنظف ولا أرخص من مطعمهم، إنهم يحافظون على الاقتصاد في كل شيء، بما في ذلك المأكولات مع المحافظة الشديدة على النظافة. وبالرغم من اشتهار الصينيين بالقذارة فإنهم في أطعمتهم يراعون النظافة مراعاة شديدة. وأراد أن يدلل على ما يقول فأخذني إلى قسم الطبخ في المطعم فكان غاية في النظافة. ويمكن للمرء أن يأكل في هذا المطعم ثلاثة أنواع من الطعام بخمسة وثلاثين قابيك. أما في المطعم الروسي فيمكن الأكل بخمسين قابيك بشرط عدم الشبع.

حول مستقبل الصينيين

وبعد أن تجولنا بعض الوقت، حدثني «غومبو-جاب» عن مستقبل الصينيين فقال معبراً عن رأيه: الحياة في عالم اليوم عبارة عن صراع دائم. والصراع بالسلاح لن يستمر طويلا، فإذا تحول الصراع إلى صراع اقتصادي، فليس من شك أن الصينيين سيسبقون غيرهم من الأمم، فكل شيء عند الصينيين مبني على الاقتصاد، ولذلك فإن أغلب ظني بأن مستقبلهم سيكون أكثر إشراقاً من الأمم الأخرى.

الحمية القومية لدى الأرمن

ومن هناك افترقت عن «غومبو-جاب» وتوجهت رأساً إلى الفندق الذي أقيم فيه. وبعد استراحة قصيرة تاقت نفسي إلى شرب الشاي، وإذ بصاحب الفندق قادم نحوي وبيده جريدة، قال: ألا يمكنك أن تقرأ هذه الجريدة؟

- ما هذه الجريدة؟
- إنها جريدة أرمنية.
- هل أنت أرمني؟
- نعم، أنا أرمني و لكنني ولدت ونشأت هنا، لذلك فإني أجهل اللغة الأرمنية.
- من أين لك هذه الجريدة، وأين تصدر؟
- أرسلت لها قيمة الاشتراك مساهمة مني بما أقدر عليه، ولكن للأسف لا أعرف قراءتها. إنها تصدر في قفقاسيا.
- إن كنت لا تعرف القراءة فما نفع الجريدة؟ وما مصلحتك في دفع المال؟
- هدفي منفعة قومي ولو بالقليل من المال.

هكذا تكون القومية. أما قومنا فيعرفون القراءة والكتابة ولكنهم يعتبرون دفع المال من أجل جريدة نوعاً من المعاصي.

أعرف شكل الكتابة الأرمنية، ولا أعرف قراءتها، ومع ذلك تناولت الجريدة ونظرت إليها ووجدت عليها بعض الإعلانات باللغة الروسية فاطلعت عليها، ومهما يكن فقد سر هذا الأرمني بما قرأت.

وفي فلاديفوستوك أعداد كبيرة من اليابانيين، وجميعهم من أهل الصناعات والحرف، وليس بينهم أصحاب رؤوس أموال كبيرة. و لن أدخل في التفاصيل عن اليابانيين ولا عن الصينيين في هذا البلد، بل أكتفي بما هو ضروري في هذا المقام.

وفي الخامس عشر من تشرين الثاني قررت مغادرة فلاديفوستوك، حتى وإن كان السفر في باخرة شركة كوكللي الروسية، و قد أعدت كل شيء أحتاجه، لأن تحملي للبحار ضعيف. وبينما كنت غارقاً في التفكير، جاءني موظف القنصلية اليابانية واسمه «هياشيته» وحدثني بلطف ومودة وكأنه صديق لي منذ زمن طويل فقال و هو يدخل من الباب: يا سيد رشيد، جئت إليك لمساعدتك في جمع أمتعتك.

وأعربت له عن شكري لصنيعه وقلت: أمضينا وقتاً طيباً هنا، ومن المؤكد أنني سأغادر روسيا في الغد.

وزودني صاحبي بكثير من العناوين وقال: إن التقيت بهؤلاء فسوف تستفيد كثيراً. و أثناء الحديث جاءني الخادم ببرقية. إنها من خاباروفسك تقول: إننا قادمون لتوديعك، انتظرنا في محطة القطار في السادس عشر من تشرين الثاني. تواقيع. لذا اضطررت لتأخير سفري. وكيف لا أؤخر إذا جاء الأحباب لتوديعي من مسافة سبعمائة كيلومتر. كيف لا أنتظرهم.

هياشته: لقد سررت كثيراً، ستسافر بباخرتنا. إنني في غاية الفرح.

صدفة جميلة حقيقة، سأنتظر الباخرة اليابانية يوم الثامن عشر من تشرين الثاني.

وفي السادس عشر من تشرين الثاني وصل عبد القادر كريموف مع أبنائه وعبد الله فيرغازوف وفيكتور بكاريويج، ونزلوا في أكبر فندق محلي في فلاديفوستوك فأمضيت معهم يومين جميلين وكانت فرصة لي لإنشاء علاقات مع كثير من الشخصيات.

لقد تهيأت الفرصة للقاء مع البروفسور سيبكوف. وحسب ما رواه سيبكوف فإن السياح الأجانب الذين يجتازون جبال التيبت وهيمالايا قد كثر عددهم في الفترة الأخيرة، و لكنهم لا يعلمون بوجود الآثار القديمة في مدينة الحاص أو «لاسا» التي تعتبر مركز المعابد البوذية، و إن الأبنية التي يعود إلى ما قبل ألف وستمائة عام هي روائع معمارية تحير متخصصي الفنون الحديثة، وأن سيبكوف باعتباره أحد أتباع البوذية كان له السبق في الحصول على صور المعابد في لاسا، وصور أخرى كثيرة (يبلغ مجموعها حوالي مائتي صورة).

والخلاصة إن اللقاء بهذا الرجل والحصول منه على معلومات كان أحد أمنياتي، وتحقق هذا اللقاء عن طريق المصادفة وكان من دواعي سروري الشديد.

مغادرة فلاديفوستوك

في السابع عشر من تشرين الثاني عام ١٩٠٩، سأغادر روسيا على متن الباخرة اليابانية «بوزان مارو».

كثيراً ما غادرت بلدي وذهبت إلى بلاد الغربة، ولكن الفراق في هذه المرة، و لا أدري سببه أهمني كثيراً. فمن الطبيعي لرجل مثلي قد تجاوز مرحلة الشباب أن يضع في حسبانه الموت والحياة. إنني متوجه إلى ديار الكفر والمجوس، واللقاء بمسلم هناك احتمال بعيد، لا أعرف لغة ولا أملك مالا، وليس لي معارف هناك، كل هذه الأمور أهمتني، وخطر على بالي أنه إذا وافاني الأجل المحتوم وأنا في تلك الديار فكيف. يكون أثره

على أهلي وأحبابي. إلا أنني كلما فكرت بكل ذلك، كنت أحس اطمئناناً غريباً وسروراً عميقاً في قلبي، دون أن أعرف سببه. إنني رأيت و أنا في هذه الحالة الكبار من أصدقائي القدماء: رأيت المرحوم الحاج نعمة الله و هو أحد كبار الأسخياء في سيبيريا والذي صرف مئات الألوف في سبيل أمته ومات وهو يقول أمتي أمتي، رأيته رؤية معنوية عدة مرات. كما رأيته يوم مغادرتي فلاديفوستوك، ورأيت نصر الدين حاجي غني باي حسينوف الذي قدم إليّ أكبر المساعدات النقدية طيلة حياتي، وحبيب الله أقبولاف والشيخ جمال الدين الأفغاني وحسن حسين الطويراني وغيرهم من الذوات الكرام، فترسخ في قلبي اطمئنان معنوي. وكذلك رأيت من الشخصيات العظام ممن لا أعرف أسماءهم وأكن لهم وداً ومنهم أبي، رأيتهم في وداعي وأنا على ظهر الباخرة، فتفاءلت بهم وعاد الاطمئنان إلى قلبي.

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم المذكور توجهت إلى الباخرة، وبعد عشر دقائق جاء صاحبنا هياشيتا فأعطونا مكاناً جيداً في المقصورة، وقد وصل إلى الباخرة بعض الشخصيات الذين تعرفت عليهم في هذه المدينة والأصحاب الذين قدموا من خياروفسك، فجلسنا معاً في صالة استراحة الباخرة قدر نصف ساعة، ثم أعلن أن الباخرة على وشك الإبحار. وقالوا: لذا نرجو من غير المسافرين مغادرة الباخرة" نزل المودعون وتحركت الباخرة.

كانت المدة بين بدء وصول الركاب إلى الباخرة وتحركها نصف ساعة، لم يكن هناك درك ولا بوليس ولم يسألنا أحد: من أنت وإلى أين مسافر، وأين جواز سفرك؟ عجبت لعدم تعرضي لأي إزعاج. وأذكر أني عندما سافرت من أوديسا إلى اسطنبول تعرضت لشتى أنواع الإهانات بالرغم من أنني أحمل جواز سفر نظامي. يأتيك القنصل العثماني للتأشيرة، ويأتيك الدركي للتفتيش، ويأتيك الشرطي لأمر اخر، وقبل الإبحار بقليل يأتي

رجل المباحث ليقوم بالتفتيش الأخير. فمن تعرض لمثل تلك المعاملات في السابق، لابد له أن يعجب من هذه المعاملة الطيبة.

وكانت الباخرة على وشك مغادرة الميناء عندما جاء ضابط الشرطة، فمد إليه أحد العاملين في الباخرة - وكان واقفاً على السلم - ورقة. وقالوا إن الورقة تحتوي على أسماء المسافرين. وفي تمام الساعة الثانية عشرة تحركت (بوزان مارو) من الميناء: وقام كل واحد بتوديع مودعيه بإشارات خاصة. فلا بكاء ولا قبلات ولا مصافحة ولا تحريك المناديل، لم أر أي شيء من هذا كله. حتى إنه كان بين المسافرين عائلات يابانية معروفة، وكان بين مودعيهم نساء أنيقات، ومع ذلك فإنهم اكتفوا بالتبسم والانحناء مع المحافظة على الوقار.

بدأت (بوزان مارو) بالابتعاد عن الميناء وكان أكثر المسافرين على ظهر الباخرة يكتشفون الآفاق من حولهم بمناظيرهم، وكانت المياه مغطاة بالجليد الأبيض وتبدوا البواخر كأنها تمشي على الجليد مما يضفي منظراً عجيباً على المدينة. مباني ضخمة مكسوة بالجليد الأبيض بين الجبال الشاهقة، على سفوح الجبال مدافع فغرت أفواهها وكأنها التنين، أعمدة البرق اللاسلكي حصون منيعة هي عصارة تجارب أهل الفن والبناء، ثم أصوات الأبواق العسكرية.. أمور تلقي الرعب في قلب بني الإنسان، وكأن لسان حالها يكرر قائلاً: لا تأمن حتى في زمن السلم والسلام، و تبرهن للملأ أنها من منتجات الحضارة التي صنعت من أجل القضاء على مئات الألوف من الأحياء في دقيقة واحدة.

لا تزال (بوزان مارو) تمخر عباب الجليد، وبعد سير ثلاث ساعات توجهت صوب البحار المفتوحة، وفي تمام الساعة الرابعة سمعنا صفيرها وخرجنا لنستطلع الخبر، فرأينا زورقاً يستقبلنا، وأنزلنا رجلاً من الباخرة. سألت: ما هذا يا ترى؟ فقالوا بأن موظفي الميناء يودعون كل باخرة عند مغادرتها ويستقبلونها عند قدومها.

قبل مغادرة الباخرة الميناء، كان البحارة قد أغلقوا المخازن إغلاقاً محكماً، ثم غسلوا سطح الباخرة غسلاً نظيفاً، ثم غابوا عنا قدر نصف ساعة أو ساعة، ثم بدأو يظهرون فرادي وقد ارتدى كل واحد منهم بزة نظيفة وأنيقة، وبيدهم جريدة أو كتاب، فتحول سطح الباخرة إلى دار للمطالعة، ولم يكن عدد الركاب كبيراً، وأقلهم ركاب المقصورات. ومع ذلك فقد كان بينهم الروسي والإنجليزي والتتاري والياباني و الغروزيني والأساتيني وغيرهم.

وفي حوالي الساعة الرابعة مررنا بجزيرة «أصكولت» ودعى الركاب إلى الطعام. وقبل أن يجلس الركاب إلى المائدة جاء كبير البحارة، فقدم نفسه للركاب، وأبلغهم بأنه مستعد لأي خدمة. وتقدمنا إلى المائدة، وأخذ كل واحد منا مكانه، وقام ياباني من بين الركاب فحياهم باللغة الروسية ثم أوضح بأنه مستعد للقيام بعمل المترجم عند اللزوم. وعرفنا أن الياباني هذا يعرف اللغة الإنجليزية إلى جانب اللغة الروسية. و هكذا اجتمعنا ولأول مرة على المائدة.

كنت مع الروسي نشتكي من الجهل، فكلانا لا يعرف لغة أجنبية. والروسي يغبطني على بعض كلمات جمعتها من كتب الترجمة لتفي المرام، فهو يظن أنني أعرف اليابانية. أما أنا فكنت منشغلاً بالترجمة ليل نهار، مستمراً في حفظ الكلمات المهمة.

الصور

كانت لي في هذه المدينة صور كثيرة وجميلة جداً، ولكن ما حيلتي إذا حرمت أمانة (!) البريد الروسي قرائي منها؟ كنت أرسل الصور من كل مكان إلى أولادي في قازان، لأنه لا ينبغي لي أن أحمل هذه الصور معي أينما ذهبت. لقد سرق البريد الروسي أكثرها، وبشكل خاص صور ميناء

فلاديفوستوك من كل أطرافه، والسفن الواصلة إلى الميناء والسفن الخارجة منه، و التحصينات كلها أخذت وكلها ضاعت في البريد.

باخرة أم دار كتب؟

(بوزان مارو) تسير بسرعة اثني عشر ميلاً في الساعة لم يعد هناك فرق بين البحارة والمسافرين، كلهم في لباس أنيق، والكل يطالع، تحولت باخرتنا إلى دار كتب. تمدد الناس على سرر في أرجاء الباخرة، في يد بعضهم كتاب وفي يد بعضهم الآخر جريدة. إنهم مشغولون بالمطالعة باستثناء بعض العمال الروس المسافرين إلى أمريكا فقد استلقوا على ظهورهم وأسلمو أنفسهم للنوم، لأنهم أميون. أما اليابانيون فيمضون كل أوقاتهم بالمطالعة، حتى الطباخين وموزعي الطعام لا ينقطعون عن القراءة، وبين الفترة والفترة يأتي القبطان، فيسأل عن حال الركاب، ويرجو إن كان لهم طلب أن يبلغوه.

وبقيت سفينتنا على هذه الحالة تمخر عباب البحر مدة أربعين ساعة والحديث عن المعاملة الإنسانية فيه لا ينتهي فما أحسنها من معاملة.

اليـابـان

في الساعات الأولى من صباح يوم العشرين من تشرين الثاني، أيقظنا المسئول عن المقصورة، وقدموا الشاي لجميع الركاب، وعندها بدأت الباخرة بالاقتراب من ميناء «تسوروغا». صعدت إلى ظهر الباخرة، فوجدت زملاء المكتبة بالأمس تحولوا هذا اليوم إلى بحارة، فقد ارتدوا ملابس العمل، وصار كل واحد منهم على رأس عمله.

وللمرة الثانية وجدنا باخرتنا تقترب من البر عبر طبقة من الجليد. وما أن ألقت الباخرة مراسيها على بعد مائتي قدم حتى تقدم إليها قارب وسفينة فمدوا إليها سلمها، وطلبوا منا النزول فنزل ركاب المقصورات إلى القارب، ونزل ركاب الصالة إلى السفينة، كما أنزلوا أمتعتنا الشخصية. لم يكن هناك رصيف ضخم، رسونا عند رصيف خشب عادي، لم نلمس أمتعتنا بعد، كما لم يطلب منها أحد أجرة، مثل أجرة الدخول أو أجرة النقل، ولا أي شيء من هذا القبيل، وأخيراً سألت: ألا تريدون أجرة النقل إلى البر؟

ضحك أحدهم وقال: لقد أخذنا الركاب من البر فعلينا إيصالهم إلى البر، فإذا خرجتم من باب الجمارك فاذهبوا أينما شئتم وكيفما شئتم.

لم يكن هناك سؤال عن الجوازات ولا تفتيش في الأمتعة، إلا أن موظفاً سأل عما إذا كان لدينا تبغ، فأخرج راكب إنجليزي «كرتونين» من السجائر، فلم يقل شيئاً. عرفنا من ذلك أن إدخال كميات كبيرة من التبغ ممنوع. ولدى خروجنا من باب الجمارك، وجدنا شاباً ينادي: إلى الذين يرغبون السفر بالقطار فإنه سيقلع بعد أربعين دقيقة.

استلمت أمتعتي عند باب الجمارك، سلموني إياها يداً بيد ودون أي سؤال أو تعقيد، وكل الركاب استلموا أمتعتهم بهذه الصورة، ولو قارنا ذلك بشيء من الإنصاف، مع أي مكان في أوربا فهل نجد مثل هذه

الحضارة؟ في أي بلد ينقلون أمتعة الركاب من الباخرة إلى المرفأ مجاناً؟ هل سيقول المفتونون منا بأوربا إنهم وجدوها في باريس أو في لندن؟ وقد ظننت كما ظن آخرون مثلي بأن أجرة القارب كانت ضمن أجرة الباخرة، ألا أن هذا غير صحيح، لأن أجرة السفر بالباخرة الروسية من فلاديفوستوك إلى تسوروغا ٩ روبلات للصالة، و٢٨ روبل للدرجة الأولى، ولم يخصص مكان للدرجة الثانية، وليس فيها أي تخفيض في السعر، كما علمت من القادمين بتلك البواخر. أما في الباخرة اليابانية فأجرة الصالة ٨ روبلات والدرجة الثانية ١٨ روبل أي أقل سعراً و إن إيصال الركاب والأمتعة إلى البر مجاناً فكرة منطقية. تقول الفكرة: "استملنا الركاب من البر ونوصلهم إلى البر.

عندما خرجت من بوابة الجمارك، جاءني رجل قصير القامة يجر عربة ذات عجلتين، وبدأ ينقل أمتعتي إلى تلك العربة، وقال لي: اركب أنت عليها.

- لا أستطيع الركوب فوق تلك الأشياء.

- إذن يمكنك أن تمشي فالمحطة قريبة. ألتفت من حولي فوجدت الركاب يحملون أمتعتهم على العربة ويركبون، فأبت نفسي الركوب، وكيف أركب بعد هذه الأحمال؟ ثم إن الذي يجر العربة إنسان مثلي.. قلت: لا لن أركب. أطلب لي عربة أخرى، فركبت العربة الأخرى. وتعرف العربة التي يجرها إنسان بـ «الريكشة» أو «كوروما» وكنا على وشك التحرك صوب المحطة فإذا بشاب في الثامنة عشر من العمر حسن المظهر جاءني وحدثني بالروسية قائلاً: أوصلك إلى القطار إن رغبت. تذكرت أنني لا أعرف اللغة، والأفضل أن يذهب معي، فوافقت فقفز الشاب على عربة الأمتعة ثم جلس عليها. ابتعدنا عن بوابة الجمارك قدر عشرين خطوة و لفت نظري مدفع في حديقة على يساري. نظر الشاب إلى المدفع ثم نظر إليَّ مبتسماً وتابعنا السير. وما زال الرجل يجر العربة راكضاً حتى وصلنا إلى المحطة. سألت الشاب الذي رافقني عن مقدار أجرة العربات..

- إن أعطيته عشرين كوبيكاً KOBEIKA فإنه سيفرح، إنه فقير.
والمحطة هنا صغيرة.. رأيت الموظفين يوزعون التذاكر، ولكن ليس في محطة قطار.

وبينما أنا كذلك قال الشاب: يمكنك إن أردت، الذهاب لمشاهدة المدفع الذي لمحته في الطريق، إنه من غنائم الحرب الروسية..
لقد كانت عندي رغبة في الذهاب مع الشاب ؛ ولكن أين أترك الأمتعة، وكذلك ماذا أعمل لحجز المقعد في القطار. أحس الشاب بما أنا فيه فأضاف: لا عليك لن يمس أحد أمتعتك وستجد لك مكاناً في عربة القطار في كل وقت. أعطوك التذكرة؛ فلا بد لهم من أن يجدوا لك مكاناً.
ذهبنا: إنه مدفع ضخم، وهو من المدافع المصنوعة في مصنع قونبين قرب بترسبورغ.

سألت الشاب: لما وضعوه هنا؟ إنها قرية صغيرة وليست مدينة.
- إنها قرية صغيرة، ولكن أعداداً كبيرة من الأجانب يصلون إليها كل يوم ؛ فمن المهم أن يوجد شيء يلفت نظرهم. وستجد مدفعاً مثله في كل موانيء البلاد. ولقد نصب في كل قرية داخل البلاد شيء من ذكريات الحرب، ذكريات تدل على شهامة هذه الأمة.

وخلال عشر دقائق عدت ثانية إلى المحطة فوجدت أن عدد الركاب قد ازداد كما أن القطار قد وصل. فأسرع الشاب، وغاب عني مدة خمس دقائق ثم عاد ليقول لي: إن مكانك جاهز.
وكانت عندي بعض الرسائل، أعددتها عندما كنت في الباخرة، فسلمتها للشاب ورجوته أن يودعها في صندوق البريد (بريد -يوبين) (صندوق - باكو) (طابع كيتي KITTE)، فليلاحظ القارئ الكريم بأنه ليس بين هذه الكلمات كلمة أجنبية.

أوصلني الشاب إلى مكاني في عربة القطار، وسلم بعض أمتعتي إلى عربة الأمتعة، لم تكن قطع أمتعتي مربوطة إلى بعضها، فقد استلموها كما هي وسلموها لي عند نهاية الرحلة كما هي، ودون أن يضيع أي شيء

منها. من هذا الأمر البسيط يمكننا استنتاج حفظ الأمانة لدى هذه الأمة. أما الروس فيرفضون حتى الأمتعة الموضوعة في صندوق ما لم تشد وتربط حسب ما هو مبين في اللوائح، لأن الأمانة معدومة ولا بد من أن تضيع الأمتعة. وعند قومنا الأتراك إذا ضاعت بضاعة التجار المكيسة في خط الحجاز فإدارة الخط الحديدي ليست مسئولة، أما في اليابان فإدارة الخط الحديدي مسئولة عن ضياع شمسية من يد صاحبها (الفرق بسيط جداً).

ثم إن للراكب الحق في نقل ما وزنه ستون كيلوغراماً من الأمتعة مجاناً، وفي روسيا حدود النقل المجاني للأمتعة هي عشرون كيلوغراماً. كل هذه الأمور تستهدف راحة الناس.

وقبل أن يودعني الشاب قال: أنت الآن متجه إلى يوكوهاما، فبعد أربع ساعات من السير ستصل إلى محطة «ماي بارا» حيث ستبدل القطار، وسيأتي القطار السريع أولاً؛ فإن دفعت يناً إضافية وركبت القطار السريع، ستصل إلى يوكوهاما مساء هذا اليوم، أما إذا انتظرت القطار التالي، فسيصل بعده بست ساعات، وستكون في يوكوهاما صباح الغد. فاختر أيهما شئت..

ويمر الطريق من هنا إلى مايباره عبر أربعة أنفاق. والطقس في بلادنا اليابان الآن ليس جيداً الجو بارد قليلاً..

وأعطيت الشاب خمسين كوبيكاً من العملة الروسية؛ فأخذها ووضعها في جيبه دون أن يعدها؛ ومال مرتين أو ثلاثاً مودعاً. أرأيتم ذلك الشاب الذي هو من طبقة الحمالين كيف يعامل الغريب الزائر في بلده؟

فالمرء إذا فكر في ذلك ونظر بعين الإنصاف لا مفر من أن يقول: هكذا تكون الإنسانية.. أما في بلادنا روسيا فالحمالون، ينهبون الغرباء، ولا يستثنون مواطنيهم الروس من شرهم. يمارسون سوء الأدب بكافة أنواعه حتى على الكبار من الرجال من بني جلدتهم.

وتحرك القطار: في العربة ثلاثة أوربيون، وبقية الركاب من اليابانيين، ملابس غربية؛ أكثرهم يلبسون في أرجلهم جوارب بيضاء وقباقيب.. خلع

الركاب نعالهم، فجاء المسئول عن العربة بنعلين لكل راكب. وقعد الركاب كما يقعد أهل الإسلام في الصلاة. وبعد نصف ساعة أكب الركاب جميعهم على المطالعة، فكل واحد تناول بيده جريدة أو كتاباً؛ وتحولت العربة إلى مكتبة متنقلة. أما الذين ينظرون من نوافذ العربة هنا وهناك فكانوا ثلاثة الأوربيان وأنا.

وعلى جانبي الطريق مناظر تستحق الرؤية: قرى ذات أشكال غريبة، ثلوج على قمم الجبال، الأراضي المزدانة بالحشائش الخضراء، الجو اللطيف، بدايات تشرين الثاني ونحن لا نزال نرتدي الملابس الصيفية، لا ترى شبراً من الأرض متروكة، كلها أراض مستثمرة، كل هذه الأمور استرعت اهتمامي. سرعة القطار حوالي ٣٥ كيلومتر في الساعة لا أكثر، والعربات ضيقة وطويلة جداً، من غير اهتزاز. هذه أيضاً أمور استرعت انتباهي. لا يسألون عن التذكرة وما شاكلها. بعد ساعة واحدة وصل القطار إلى المحطة، جلبة وأصوات في المحطة باعة الصحف ينادون على صحفهم: كوكومين شيمبون.. نيجي نيجي شيمبون.. نيجي شيمبون.. كل الناس يمدون أيديهم من النوافذ ويشترون. كانت هناك أشياء أخرى تباعُ و لكنني لم أعرف ما هي.

أخرج أحد الجالسين بجانبي علبة وشيئاً ملفوفاً بالورق. شيء مثل قدر صغير، وفوق القدر قدر أصغر يشبه فنجان القهوة.. وقد عرفت أن الملفوف بالورق كان سمكاً، كما عرفت أن الذي في العلبة الخشبية طبيخ، وبعد أن أكل جارنا تناول القدر بيده، نظرت إليه فإذا هو قدر شاي مع فنجانه. كل هذه الأطعمة والأدوات أعدت خصيصاً للمسافرين، وبعد الأكل ترمي الأدوات التي حفظ بها الأكل والشرب من النافذة. إلا أنه يمكن من هذه الأدوات غير المهمة جمع مال كثير.. فهي مهمة من هذه الناحية. تسهيلات كبيرة للمسافرين، دون أن يضيع وقت لأحد. والقطار لا يتوقف في المحطة أكثر من بضع دقائق. هذا الأمر تجده في كل محطات القطار في اليابان.

حتى الحساء يباع في أقداح جميلة المنظر و لكنها غير ذات أهمية وترمي بعد الاستعمال. مراقبوا التذاكر (الكمسارية) لا يظهرون أثناء سير القطار، فإذا وصل القطار إلى المحطة ترى كل واحد منهم وقد أخذ منديلا بيده، يمسح الغبار عن العربة وعن النوافذ، فكأنهم موكلون بهذا العمل وحسب. وعدد الركاب كبير جداً، والنظافة في داخل العربة ظاهرة. هناك فتى لا يتجاوز عمره أربعة عشر عاماً مكلف بالنظافة يرفع ما يرميه الركاب دون إبطاء. ويلبي طلباتهم (بشرط ألا يأخذ «بقشيشا»).

وفي حوالي الساعة العاشرة صباحاً وصل القطار إلى محطة «ماي بارة» وأبلغوا الجميع بأن القطار سيتغير فيها. فنزلنا من القطار، وقالوا بأن القطار السريع سيصل بعد ساعة، تركت أمتعتي هناك وذهبت لأرى «ماي بارة».

القرية اليابانية «ماي بارة»

لأول مرة أرى هنا قرية يابانية، القرية متصلة بالمحطة، عند خروجك من المحطة تجد ميداناً يؤدي إلى شارع القرية، وفي وسط الميدان كابينة زجاجية، نظرت إليها فإذا بها جهاز هاتف. ولا شك أن رؤية الهاتف في قرية صغيرة أثار استغرابي، إذ أعرف مدناً كثيرة في روسيا ليس فيها هاتف.

وصلت إلى شارع القرية، بيوت صغيرة ذات دور واحد، والجانب المطل على الشارع عبارة عن دكاكين ومتاجر، والقسم الخلفي للسكنى تجولت في القرية من أقصاها إلى أقصاها، فيها مكتب للبريد ومكتب للبرق ومدرسة، النظافة في الأزقة تامة، الشوارع رشت بالماء؛ و إذا رأى المرء القرية وهي بهذه الحالة أليس من حقه أن يعجب بها؟ ليس في القرية بيت إلا وله دكان على الشارع، والشوارع هي من النوع المعروف في بلدان الشرق، أزقة ضيقة، البيوت متصلة ببعضها، مثل بيوت إسطنبول،

كلها بيوت خشبية مسقوفة بالقرميد، وكل مفروشات المنازل أو الدكاكين أو المتاجر عبارة عن حصيرة وكانون (موقد)، حتى في هذه القرية الصغيرة ترى أشياء تسترعي الانتباه: إنهم يقرءون الصحف وهم في متاجرهم ودكاكينهم. أزياؤهم تذكرنا بأزيائنا التتارية القديمة. إنها من القفطان الطويل. ويكاد ألا يكون هناك فرق بين ملابس الرجال وملابس النساء، فالرجال والنساء على حد سواء يلبسون النطاق، و لكن نطاق النساء من الحرير وأثخن من نطاق الرجال، أما الرجال فرؤوسهم حليقة و حاسرة.

وفي الساعة الحادية عشرة إلا خمس دقائق عدت إلى المحطة. وبعد دقيقتين وصل القطار السريع، فأسرعنا في ركوبه، وتحركنا من «ماي بارة» صوب «يوكوهاما».

إننا في القطار السريع، الدقة والنظام في الخط الحديدي، وروعة العربات، أمور تثير الإعجاب، وسرعة القطار عالية، والركاب محترمون. أما أنا فلا أملك إلا أن أشتكي من جهلي، لا أعرف اللغة، الكل يقرأ ويطالع، ولا أحد يستغرب من ملابسي أو حركاتي أو سكناتي، فكل إنسان لا يشغله إلا نفسه.

لو كان ذلك في روسيا أو أوربا المتحضرة لاتجهت أنظار الناس إلي ذلك الإنسان الغريب، بل ونظروا إليه باستخفاف واستهزاء. إلا أن الإنسانية تتمثل في حضارة الشرق. أثار اهتمامي أمر آخر: النظافة في المراحيض وتوفر الماء لا تجدهما إلا عند المسلمين.

ليس في العربات ما يزعج الركاب. وفي الساعة العاشرة ليلاً وصلت إلى «يوكوهاما». نزلت من القطار، ولما وصلت إلى باب المحطة جاؤوا بأمتعتي فاستلمتها، ومن هناك ركبت عربة يجرها إنسان «ريكشة» ووضعت أمتعتي في ريكشة أخرى ومشينا في اتجاه المدينة.

والريكشة تمشي سريعاً، تكاد تكون بسرعة الدواب. بعض الناس يتجولون في الشوارع سيراً على الأقدام والبعض الآخر يستقلون الريكشة، والشوارع مضاءة بالمصابيح الكهربائية. ومع ذلك فليس عندهم ما عند

المدن الأوربية من أنوار تحول الليل إلى نهار. فالمصابيح كلها بقوة ١٦ شمعة، إنها تضيء بقدر الحاجة إلى التجول في الشوارع.

سارت بنا الريكشة مدة أربعين دقيقة حتى وصلت إلى منزل ياباني. هذا المنزل ليس بالفندق حسب العرف الأوربي ولا بالبيت العادي، قالوا إن صاحب البيت يقبل المسافرين ففضلت النزول فيه على أمل أن يكون أيسر لي.

الريكشة ـ العربة التي يجرها إنسان

هي أول شيء إستغربته حينما شاهدته، لذلك فإنني بصدد إعطاء بعض المعلومات عن هذه العربة. «الريكشة». إنها عربة ذات عجلتين يجرها إنسان. لا شك أن هذا التعريف القصير ليس كافياً. إذاً فالأمر يحتاج إلى التفصيل.

فمساحة البلاد اليابانية صغيرة، وهي في الأصل عبارة عن حوالي ثلاثة آلاف جزيرة صغيرة، و من بين هذه الجزر من الصغر بحيث لا يزيد عدد بيوتها عن عدد أصابع اليد، ومجموع مساحة هذه الجزر ٤١٧٤١٢ كيلومتر مربع يقطنها أكثر من خمسين مليون نسمة، بكثافة تبلغ ٤٠٠ في الكيلومتر المربع، وإذا أنقصنا من هذه المساحة الجبال التي تكسوها الثلوج بشكل دائم والجبال البركانية، لتجاوزت الكثافة ٥٠٠ في الكيلومتر المربع. فبسبب ضيق مساحة الأرض فإنهم يمتنعون عن تربية الحيوانات، فاليابان تكاد تكون خالية من الحيوانات. لذلك فإن البشر يقومون بأعمال الدواب. إن النقل في روسيا يتم على عربات تجرها خيول، وفي تركيا على الأبقار والجواميس، وفي الجزيرة العربية على الجمال، أما في اليابان فالإنسان هو الذي يقوم بالمهمة. أثقل الأحمال يتولاها الإنسان، فالعربات التي يجرها إنسان يعبرون عنها «بالريكشة».

ولا يقتصر وجود الريكشات على المدن بل تكثر أيضاً في القرى والأرياف. وبها يكون السفر من قرية إلى أخرى، يسافرون بها مسافات طويلة ويقطعون الهضاب والمرتفعات. وعند الضرورة تصل سرعة

الريكشة إلى ١٢ كيلومتراً في الساعة و لكنها في المتوسط تقطع مسافة بين ثمانية وعشرة كيلومترات في الساعة.

ركبت الريكشة على سبيل التجربة: فالرجل منهم يمشي هرولة مدة ساعتين ونصف بشكل متواصل ويقطع عشرة كيلومترات في الساعة الواحدة، و أجرته وفق عملتنا ستة قروش للساعة الأولى، وثلاثة قروش للساعة الثانية، وبعد ذلك قرشان لكل ساعة. مثل أصحاب العربات في بلادنا. هؤلاء اليابانيون الصغار حجماً يجرون العربات بسرعة عجيبة. وقد أجريت تحقيقات في هذا الشأن: تبين أن قوة هؤلاء الرجال في أقدامهم، وأن سيقان الواحد منهم تكون ضعف حجم السيقان العادية، وأن أكثر الأمراض عندهم تكون في هذه السيقان، وأنهم أقصر عمراً من الرجل العادي. وفي مدينة طوكيو وحدها أكثر من أربعة عشر ألف ريكشة، وقد كان العدد في السابق أكبر. فلما كثرت الحافلات الكهربائية انخفض عدد الريكشات إلى النصف و لا يزال ينخفض، كما تسعى الحكومة إلى خفضها بقدر المستطاع، وفي المقابل تروج فكرة إكثار الحيوانات، وقد تبنى الميكادو (الإمبراطور) هذه الفكرة. وأثناء وجودي في اليابان طفت بالريكشة كثيراً، حتى أن مصوراً صحفياً قام بتصويري على الريكشة أثناء مروري من إحدى القرى، فكانت عبرة لمن اعتبر. وأعرض هنا هذه الصورة للقراء الكرام وسأكتفي بما ذكرت عن الريكشة على أن أعود إليها أثناء جولتي في الصين.

يوكوهاما

مدينة يوكوهاما من أهم الموانيء التجارية في اليابان، و هي أول مدينة يابانية أقمت بها، ويمكنني أن أقول بأنني رأيت الشعب الياباني أول ما رأيت في هذه المدينة، لأن ما رأيته في طريق السفر كان مصادفة.

إن عدد سكان يوكوهاما يزيد عن مائتي ألف نسمة. فهي مدينة كبيرة، وأول ميناء ياباني أنشىء بقصد التجارة مع أوربا.

كان أول وصولي إلى هذه المدينة في الثاني من فبراير (شباط)، خرجت في الصباح الباكر للتجول، سألت صاحب المنزل عن العنوان كي أتمكن من العودة. وكنت أكلمه باللغة اليابانية، أنظر إلى الدفتر وأقرأ ما هو مكتوب، فأستطيع إفهام المراد، إذ أن الضرورات تضطر المرء للتعلم. قال صاحب المنزل: إن في مدينتنا حديقة عامة واحدة، فإذا قلت للريكشة (موكاي كويئن) أي مقابل البستان أتى بك إلى هنا.

ومن الطبيعي أن يكون شكلي وهندامي غريباً على اليابانيين، لقد تجولت سحابة اليوم فلم أصادف أحداً يستغرب ذلك ؛ أما أنا فكنت أستغرب من حركات اليابانيين و سكناتهم، أولاً: أن كل شيء في حركة دائبة، الشوارع سيول بشرية لا نهاية للقادمين والرائحين. ثانياً: أنهم يسيرون مهرولين، مسرعين، دائماً كنت أستغرب بصفة خاصة طقطقات النعلين لدى الرجال والنساء على السواء. ولحسن الحظ أن الشوارع غير مرصوفة لها، كما إنها ترش بالماء عدة مرات في اليوم الواحد، لذلك فإن أصوات النعال تصير خافتة وخفيفة فلا تزعج الآذان.

وتطل المدينة على البحر من الشمال، وهي محاطة من أطرافها بالجبال بشكل كامل، وبعض أحياء المدينة تقع على الهضاب ولكن القسم الأعظم منها في السهول. ويمكننا أن نقول بأنها تقع في وادي. ويخترق المدينة عدد كبير من الجداول والقنوات، أما الجسور فيصعب حصرها. أمضيت سحابة اليوم في الحافلات الكهربائية أقطع بها شوارع المدينة من أقصاها إلى أقصاها. وعدد الحافلات الكهربائية في يوكوهاما ليس كثيراً. لذلك فإنني تجولت في بعض الأحياء سيراً على الأقدام.

أينما ذهبت في المدينة وجدت أن الشعب الياباني شعب نشيط يملك قابلية على التطور في كل المجالات. إنك تقابل سيلاً من الناس في كل مكان، تراهم في المحلات والمتاجر والمصانع والورش و لكنك لن تجد

منهم واحداً عاطلاً عن العمل. وإذا استثنينا دور الحكومة والقنصليات والفنادق، فكل المباني الضخمة هي مدارس والبيوت بشكل عام من دور واحد ونادراً ما تجد بيوتاً من دورين.

«كبائن» الهواتف العمومية على رأس كل شارع ومراكز الشرطة مبنية على طراز ياباني خاص، وهناك شيء ملف للنظر، صناديق البريد: إنها أعمدة حمراء بطول الإنسان. وفي جانبها كوة لإدخال الرسائل، ولا تجد مثل هذه الصناديق في أي بلد آخر.

وهذه الصناديق تفتح كل ساعة لأخذ الرسائل التي ألقيت فيها، وذلك من الساعة السادسة صباحاً وحتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

تجولت في المدينة حتى المساء. وبعد تناول العشاء عاودت الخروج. يوجد في أشد الشوارع ازدحاماً سوقان مركزيان أحدهما على الجانب الأيمن من الشارع و الآخر على الجانب الأيسر. وبينما كنت متجهاً لمشاهدة السوقين، صادفت رجلاً روسياً، فتعرفت عليه، إنه ضابط من بترسبورغ معين في اليابان. سألني: إلى أين ذاهب؟

قلت: خرجت للتنزه ومشاهدة السوق المركزي.

- لنذهب سوية، خرجت لقضاء بعض الوقت.

- ذهبنا إلى السوق، وشاهدنا ما فيه. إنها أشياء بسيطة لا تستحق الذكر، ثم خرجنا من هناك. وعرفت فيما بعد أن صاحبنا متخرج من مدرسة اللغة اليابانية في روسيا وأنه تردد على اليابان عدة مرات وأنه من الخبراء.

إستطراد

هناك قسم تابع لوزارة الحربية الروسية اسمه (مديرية الشؤون الآسيوية)، و مهمة هذه المديرية، هي الإطلاع على كل شيء يتعلق بأحوال آسيا وإبلاغ الوزارة بكل ذلك. لذلك فإن هذه المديرية تعلم

منسوبيها كل اللغات الحية في آسيا، كما تهتم بتدريب خبراء لهم إطلاع واسع بأحوال آسيا، فهناك خبير بشؤون تركستان، وخبير بشؤون الصين، وخبير بشؤون الهند، وخبير بشؤون الأناضول، وخبير بشؤون سوريا، وخبير بشؤون أفريقيا الخ. فلكل منطقة خبير، حتى أنه في بلاد مترامية الأطراف مثل الصين هناك خبراء مختصون بالشؤون الغربية والشرقية والجنوبية، وشمالي منغوليا، و التيبت، وتركستان الصينية، وأكثر هؤلاء هم من الضباط المتخصصين بالطوبوغرافيا، تعطي لهم مخصصات مالية ليقوموا بجولات في أماكن إختصاصهم، وتعطى لبعضهم مخصصات كبيرة وجوازات بأسماء مستعارة. و أذكر أنه قبل عشر سنوات وخلال تولي قوروبانكين لوزارة الدفاع زود ضابط إسمه ليفكين بمخصص مالي قدره خمسة عشر ألف روبل (ألف ليرة عثمانية) وأرسل بمهمة إلى الهند. وبقي هناك مدة عامين في زي درويش تحت إسم مستعار هو «محمد بن حسن». وهذا الشخص الذي تعرفت عليه في شوارع يوكوهاما هو من هؤلاء الخبراء، عرفت ذلك من كلامه، وأردت الاستعانة به والاستفادة منه لعدم معرفتي باللغة اليابانية. وقد رافقته لمدة ساعة واحدة، وتعلمت فيه كثيراً من الأمور.

العميان في اليابان

سيعجب الناس من حديثي، سيقولون: هذا الرجل قام برحلة إلى اليابان فماذا يهدف من أول كلامه عن الريكشة ثم عن العميان؟ لذا أرى من الضروري بيان الأمر في بضع كلمات: لست بصدد سرد معلومات فنية عن اليابان ولا عن غيرها من البلدان. و لكنني أنقل للقراء الكرام مشاهداتي في هذه الرحلة، ومن الطبيعي أن متابعاتي ستكون من ضمن مشاهداتي، سأنقلها بحالها الطبيعي دون تزيين أو تنظيم، ولهذا السبب كتبت عن الريكشة وسأكتب هذه المرة عن العميان.

أثناء تجوالي مع الخبير الذي ذكرته في الأسطر السابقة، لفت نظري رجل يمشي في الشوارع والأزقة ينفخ في النايِ. لم يكن شيئاً من الموسيقى، بل هو صوت حزين، ثم صادفت رجلاً يدندن بنفس الصوت الحزين، وكلا الصوتين يتناسق مع الآخر والفرق بينهما هو أن الأول بالناي والآخر بالفم. كما إنني لاحظت تشابها في اللباس بين الرجلين.

سألت صاحبي الخبير عن ذلك: ماذا يعمل هؤلاء؟ ولماذا هذا الصوت الحزين؟

قال الخبير: هؤلاء عميان، يصدرون الأصوات كي يعرفوا بها فلا تصطدم بهم العربات.

قلت: ولكن لماذا هذه الكثرة؟ وإلى أين يسيرون في هذا الظلام الحالك لقد طفت في المدينة طوال النهار فلم أصادف منهم أحداً، كما لم أجد أي أعمى، وقد كثر عددهم الآن.

فلم يقدر الخبير على الجواب، وبقيت معلوماتي في هذا الشأن ناقصة وودعني الخبير وافترقنا. عدت إلى المنزل جلست في الشرفة للتسلية، أصخت سمعي فبدأت أسمع تلك الأصداء الحزينة في كافة أحياء يوكوهاما وبشكل مكثف، يجعل الانسان مضطراً لأن يوجه إنتباهه اليها، فلم أستطع الصبر أكثر مما صبرت، بل ناديت صاحب المنزل، وأجلسته بجانبي، ونبهته إلى أن يستمع الى تلك الأصوات ثم سألته:-ماهذا؟ قال: -(أم ما). كررت السؤال، وكرر الجواب: أم ما. بادرت إلى المعجم، حيث كان معي و هو من اليابانية الى الروسية. وأشرت إلى الكلمة، قال: نعم، هذه هي. وكلمة أم ما هنا تعني: الماساج (التدليك)، فكرت، وقلت ما العلاقة بين أم ما والأعمى؟ زادت المشكلة غموضاً. كنت أضحك من جانب وأفكر من جانب اخر، وكان صاحب البيت رجلاً طيباً، راجح العقل. رأى حيرتي، فنادى على أحد العميان وكان ماراً في الحي، وأمر الخادم بشيء. وبعد خمس دقائق قال لي: تفضل كي أريك ألـ (أم ما) قمت معه، فوجدت في غرفة صاحب المنزل فراشا ممدودا،

والى جانب الفراش تجلس فتاة عمياء، تمدد صاحب المنزل على الفراش، وبدأت الفتاة العمياء بتدليك صاحب المنزل.

قال لي: أعرفت الآن ماهي الـ أم ما؟

وهكذا تم حل اللغز. ولم يكن الأمر كما فهمه ذلك الضابط الروسي المتخصص. فلقد كانت مهنة العميان نافخي الناي، والهاتفين بصوت حزين هي التدليك. و إن من عادة اليابانيين إجراء التدليك قبل الاخلاد إلى النوم، وهذا هو سبب تنقل العميان من شارع إلى شارع. فالذكور يعبرون عن وجودهم بالناي، والفتيات بالصوت، ومدمنو التدليك يطلبونهم فيحصل التدليك وصاحبنا الروسي المتخصص كان يعرف بانهم عميان لكنه ظن من نداءاتهم بأنهم يتسولون.

إستطراد

إن مثل هذا الرجل من المتخصصين والمستشرقين الروس ليس بقليل، ففي إحدى الفترات وقبل عشرين عاما زاد التشديد في الرقابة على الكتب الاسلامية في بترسبورغ، وحتى كلام الله لم يسلم من الرقابة، ومن الكلمات التي كانت تقلقهم كلمات(كافر ـ كفر ـ وكفار)، وكانوا يقولون بأن المسلمين هم أعداء أشداء للكفار، وأن هذه الكلمات تعير عن التحقير، ولذلك فإنهم أرادوا أن يزيلوا هذه الكلمات من القرآن (وتعلمون بأن الحماقة والجهالة لاحدود لهما)، وذات مرة وصل بهم الأمر الى أن يشطبوا سورة ﴿قل ياأيها الكافرون﴾. وفي تلك الفترة كان أحد أكبر هؤلاء المتخصصين وأشهرهم، رقيباً في المطبوعات، فكان من تسلط هذا الرجل على مادة (ك -ف - ر) أن طالت يده على كل كلمة مركبة من هذه الحروف الثلاثة: فلم يترك شيئاً من الراحة لكلمة «كفارة» في كتب

الفقه، ولا لكلمة «الفكر» في كتب التصوف. وانتهى الأمر بالفتنة المشهورة.

ولا يخلو الأمر من مثل اولئك المتخصصين. إن الخطأ ليس من هؤلاء المتخصصين أنفسهم، بل من عمى الحكومات التي لاتعرف من هو المتخصص، أو من موت الضمير لدى بعض الناس. إن بعض الناس يستغلون جهل الحكومات فيدعون في أنفسهم الكفاءة، ولا يضيعون الفرصة أبداً، والواقع إن مثل هؤلاء الناس عديمو الشرف، فيلوثون شرف بلادهم.

(أعتذر للقراء الكرام لخروجي عن السياق) انا الآن في يوكوهاما، أتجول من الصباح حتى المساء، تجولت فيها طولا وعرضا وشبرا فشبرا، ولولم تكن النظافة ممتازة لقلت انها مدينة من مدن الشرق، فضيق الأزقة، وبساطة المساكن، وأخلاق وآداب الناس كلها تذكر بمدن الشرق، إلا أن النظافة الممتازة أمر يدعو للعجب حقاً، إنك لاترى فيها النفايات بل لاترى أثرا للغبار. كنت أخرج بعد صلاة الفجر للتنزه، فكنت أرى النساء والفتيات خارج المساكن (وليس داخلها) ينفضن الغبار، ويغسلنها أحيانا. والغريب أنك ترى النساء وقد ربطن خلفهن أطفالهن الرضع، وتجدهم في أغلب الأحيان نائمين. ومن النادر أن تجد امرأة يابانية لاطفل لها، و هم مربوطين خلف أمهاتهم وهم نائمون. فلا يمنعون أمهاتهم عن العمل، هذه العادة جارية حتى في أعرق الأسر.

ولعدم معرفتي لغة أهل البلد أردت أن أقيم في مدينة يوكوهاما مدة أطلع خلالها على عادات وأخلاق الشعب الياباني، والعمل على تعلم لغتهم. ولذلك فقد أرجأت السفر الى العاصمة طوكيو عدة أيام. كنت دائما أتجول في يوكوهاما وما حولها للتعرف وكسب الأصدقاء. وقد رأيت كثيراً من الرجال، عرفت أشخاصهم وان لم أعرف هوياتهم، وكلما رأيتهم، حاولت أن أكلمهم ولو ببضع كلمات. وكنت أظن أن اللغة اليابانية صعبة لأنها لاتكتب كما تلفظ. و لكنني تفاءلت كثيرا عندما

وجدت فيها سهولة التحدث ومشابهتها للغة التركية في تركيب الجمل. فمثلا إذا قلت جملة باللغة اليابانية فان تلك الجملة تترجم الى اللغة التركية بالتركيب ذاته.

نيهون ـ نو كوتابوا موزكاشي كوناي = اللغة اليابانية ليست لغة صعبة.

نيهون ـ نو = اليابانية، كوتوبا = اللغة. موزكاشي كو صعبة. ناي = ليس (ويختلف التركيب باللغة العربية كما نرى - المترجم)

لذلك فانني بذلت جهدي لتعلم اللغة، لأن اللغة أحتاجها أينما ذهبت. كنت أسافر الى القرى والأرياف سيراً على الأقدام فأضطر لسؤال من أصادفه من اليابانيين عن بعض الأمور، وبهذه الصورة تمكنت خلال أسبوع من تعلم مايمكنني به أن أسافر الى طوكيو وأعود منها.

وفي تلك الأيام شاهدت إستعدادات اليابانيين للإحتفال بأحد أعيادهم الكبيرة. حتى القرى كانت تستعد للعيد. وكانت مناسبة للمزيد من محادثتهم. كنت أحاول أن أفهم من اليابانيين، ماينوون عمله في هذا العيد.

إن اليابانيين يولون إهتماما كبيراً للدعايات التجارية، ويستغلون مثل هذه الأعياد ليعلن كل واحد عن فنه وصنعته وتجارته، كل يحاول عرض ماعنده. وفي صباح ذات يوم خرجت من يوكوهاما: وأنا أنوي زيارة القرى، وقد وجدت يوكوهاما تزدان بزينة لاأقدر على وصفها. خرجت من المدينة: صادفت أول ماصادفت سيارة، بداخلها الموسيقى وآلات العزف، وعلى جوانبها الأربع إعلانات. والمرء عندما يرى مثل هذه الأمور لايمنع نفسه من السؤال: ماهذا؟ أشكال غريبة يندر أن يرى الانسان مثلها.

وبعد عشر دقائق، صادفت رجلاً. إنه ياباني صغير الحجم، و لكنه إرتفع على عصاتين طويلتين، وعلق على غطاء رأسه الأبيض إعلانات مكتوبة، إنها تضطر الانسان للسؤال عن مغزاها.

في ذلك اليوم مشيت مسافة ثلاثين كيلومتراً، تجولت في قرى كثيرة.والواقع إن القرى اليابانية لاتقاس بقرانا، فبعض القرى أكثر انتظاماً من المدن، وبعضها عبارة عن عدد من البيوت المتناثرة هنا وهناك، وتشاهد في سهل منبسط مئات من البيوت، وفي وسط هذه البيوت مدرسة ضخمة. و كنت كلما مررت بها أسأل عنها،فيكون السؤال وسيلة لتعلم اللغة.. وهكذا وفقت إلى حد بعيد في تعلم هذه اللغة أثناء التجوال في هذه القرى.. خاصة وأن الأعمال تقل في القرى اليابانية في موسم الشتاء، فيبحث الناس عمن يحادثهم من أمثالي.

وفي العاشر من فبراير (شباط) قررت السفر إلى طوكيو. و إستيقظت في الصباح الباكر، ودعوت الله أن يمد رجلي بالقوة، و إتجهت إلى طوكيو ماشياً. ينطلق من يوكوهاما إلى طوكيو قطار كل نصف ساعة، وحافلة كهربائية كل خمس دقائق. سلكت الطريق الترابي أمر من قرية تلو القرية على أمل الوصول بأسرع مايمكن، وكان الجو لطيفاً، والمسافة تبلغ خمسة و ثلاثين كيلو متر، مشيتها بأقدامي، فقطعتها بثمان ساعات بالتمام.

وبين هاتين المدينتين، كانت لي مشاهدات في القرى، سآتي على ذكرها في حينه. وخلاصة الكلام، إن القرى اليابانية لاتختلف من حيث الأساس عن قرانا التتارية: مساكن صغيرة من طابق واحد، بفارق واحد وهو أن القرى اليابانية شديدة الانتظام، وتصادف بين كل قريتين ريكشات غاية في النظافة تذهب وتجيء على الطريق الترابي، وكلما جاوزت قريتين أو ثلاثة وجدت بعدها مدرسة كبيرة.

وصلت مدينة طوكيو في وقت الظهر تماماً. وفي طرف المدينة جلست في مقهى بالقرب من محطة "شيناغاوه SHINAGAWA" قدر ساعة للاستراحة.

إن مشاهداتي خلال الساعة التي إسترحت بها عجيبة حقاً: إنها تقع في طرف المدينة مثل حي طوب قابو أو أدرنة قابو في اسطنبول و لكن

النشاط الذي رأيته هنا لاتجده في أحياء سيركه جي وغلطة باسطنبول (حيان في وسط اسطنبول)

والمكان الذي كنت فيه بداية خط الحافلة الكهربائية، والخطوط الحديدية مزدوجة، والحافلات تمشي خلف بعضها بحيث لا تفصل بين كل حافلة وحافلة أكثر من عشرين قدماً، ومع ذلك فإنها مزدحمة بالركاب. إنها مليئة حين تذهب ومليئة حين تعود، من أين يخرج كل هؤلاء الناس و إلى أين يذهبون؟ ولماذا يذهبون؟ انها حالة تدعو المرء للعجب !.. وعلى بعد أربعين خطوة تجد خط القطار الحديدي، وهو يلف حول المدينة بأكملها، وينطلق قطار واحد كل عشر دقائق. والخط مزدوج أيضا. للذهاب وللاياب.

إن عدد الذين يستقلون الريكشات ليس بالقليل، مرت ريكشة فنظرت وراءها، كان رقمها ١١٨٦٢ ، وهذا يعني أن المدينة تحوي عددا كبيرا من الريكشات، كما إن المشاة من أمثالي كثيرون،يسرعون في المشي بالقباقيب.، وخاصة النساء، فالمرء تعتريه حالة غريبة عندما يراهن وهن يسرعن في خطواتهن.

إنك ترى الزينات المصنوعة من الأعلام، والبيوت كأنها إكتست حلة جديدة، وكذلك أعمدة البرق، والاعلانات السيارة الخاصة، والإعلانات التي تصاحبها الموسيقى، والسيارات التي تحمل إعلانات في خارجها، وعازفين في داخلها، إنها مشاهدات عجيبة حقاً، كل شيء تجده حياً يتحرك.

تجولت في كافة أنحاء المدينة الى أن حل وقت المساء: شوارع واسعة جدا، وحافلات كهربائية بخطين مزدوجين ؛ سيول من البشر في كل مكان.وفي المساء دخلت مطعماً، شربت قليلا من الحليب، ,اشبعت بطني بالخبز وغيره، وهناك إسترحت قليلاً، وحتى هذا المكان مكتظ بالناس. المطعم صغير جداً ولكن النظافة ممتازة، حصيرة مدت على الأرض، يجلس الناس عليها بعد خلع أحذيتهم عند الباب، يجلسون كما

نجلس في مساجدنا. يعطون كل داخل (طراحة) ليجلس عليها، ويأكلون بعودين، وكل الخدم في المطعم من البنات.

وفي حوالي الساعة الثامنة والنصف غادرت المطعم، فوجدت المدينة بكاملها وقد أضيئت بالكهرباء.وفي الشارع سألت أحد رجال الشرطة: ما اسم هذا المكان؟ قال: «شيمباشي» انه أحد أشهر الشوارع في طوكيو.

مشيت في هذا الشارع قدر ساعة في وسط الزحام، كنت أمشي يميناً ويساراً على غير هدى، والواقع إن هدفي من المشي هو التنزه. إستمر تجوالي حتى الساعة الحادية عشر ليلاً، وقد خف الزحام إعتباراً من العاشرة، حيث دخل الناس بيوتهم، وقلت أصوات القباقيب، ومع ذلك فان زحام طوكيو لايمكن قياسه بزحام يوكوهاما. حقاً إن طوكيو عالم الحياة.

الاعلانات التجارية

إن اليابان قد بلغت في هذه الناحية درجة لايمكن مقارنتها بأوربا. فالتجارة عند اليابانيين تعتمد كليا على الدعاية والإعلانات.

وقد عجبت من كثافة الاعلانات عندما كنت في يوكوهاما. أما الإعلانات ذات الاشكال و الألوان المتعددة على جانبي الطريق البرى من يوكوهاما إلى طوكيو، وكذلك على جانبي الخط الحديدي والحافلات الكهربائية، فانها تثير إهتمام الانسان حقيقة. لكنني عندما وصلت الى طوكيو ورأيت الإعلانات الليلية عرفت أن مارأيته في ذلك الطريق لم يكن شيئا، فليس هناك بيت إلا وفوقه إنواع من الاعلانات المضاءة.ويحار المرء أمام الاعلانات على ابواب المنازل وأعمدة البرق وألواح الاعلانات الخاصة و الإعلانات المعلقة. وأينما اتجهت وجدت إعلانا لحبوب (جيندن) إخترعها رجل ياباني، هذه الحبوب اشتهرت بين اليابانيين ويقال إن صاحب الاختراع يصرف سنويا على الإعلانات مبلغ ٣٠٠ ألف ين، وهذا

المبلغ يعادل أربعين ألف ليرة. ففي كل شارع من شوارع طوكيو تجد صورة لهذا الرجل ببزة أميرال بحري مع إعلان عن تلك الحبوب. وكل اعلاناته ملونه ومضاءة بالكهرباء طول العام.

وذكر عن مميزات هذه الحبوب بأنها تزيل رائحة الفم. فاذا عرفنا أن مخترعاً لحبوب إزالة رائحة الفم يصرف على الاعلانات أربعين ألف ليرة في العام الواحد، فعلى ضوء ذلك يمكننا تقدير كمية إستهلاكها في اليابان، وعرفنا أيضا كم يصرف الشعب الياباني على ازالة رائحة فمه.

ومن النادر أن تجد في اليابان إنسانا رجلاً كان أم امرأة لايحمل في جيبه حبوب(جيندن) فحبوب جيندن بالنسبة لليابان مثل لفائف الدخان بالنسبة لتركيا، فلا يخلو جيب أحد منهم من عدد منها.

واعلانات كبار التجار أكثر فخامة وأكثر إضاءة وأكثر غرابةً. فلولم ينظر المرء إلى أي شيء آخر سوى الاعلانات لكفاه في أن يصرف الكثير من الوقت. كنت أرى السيارات والفرق الموسيقية والمواكب، وكأن الدنيا جاءت لتستعرض في هذا المكان. في الساعة الحادية عشرة مشيت شارع شيمباشي SHIMBASHI للوصول الى المحطة ومن هناك ركبت القطار وتوجهت إلى يوكوهاما.

وصلت إليها متعبا، إستلقيت على الفراش، وأسلمت نفسي للنوم وأنا أفكر فيما رأيته هذا اليوم.

إستيقظت صباحاً، كتبت بعض الشيء وحفظت بعض الكلمات. إنني مصمم على أن أفهم شيئا من اللغة، لأن عدم فهمي للغة سيعرضني لمشكلات كثيرة، وسأكون أسوأ حالا من المتخصصين الروس!

العيد عند اليابانيين

هذا اليوم أكبر الأعياد الوطنية عند اليابانيين. ومن حيث المبدأ فإن العيد عند اليابانيين لايشبه أعياد الأمم الأخرى:

فالشعوب الغربية إذا حلت أيام العيد فيها تغلق محلاتها التجارية، بهدف الاستراحة من عناء العمل وتوقف مصانعها، اما اليابانيون فهم العكس من ذلك، إنهم يتاجرون في أيام العيد ليل نهار ومن دون توقف، ويفتحون أسواقا مخصوصة بالعيد، ويستمرون في العمل بالمصانع، بل ويطورون العمل فيها. ولسان حال الياباني يقول: ان يوم العيد هو يوم سرور، فاذا تطورت صناعتي، وزادت وارداتي قرشاً واحداً زاد سروري. ولقد أجريت نقاشا في هذا الموضوع مع عمال فقالوا: ان العمل يزداد يوم العيد، فيزداد واردنا اليومي بتلك الزيادة ونسر لذلك.

أما الأوربيون فالعيد عندهم قتل للوقت، وشرب المسكرات، وزيادة الديون. أما في اليابان فان زيادة الدخل ورأس المال هو يوم عيد ويوم سرور.

ولهذا السبب لم يكن اليابانيون ليغلقوا محلاتهم في مثل هذا العيد الكبير حتى أثناء الليل. وكنت أفكر أين أقضي يوم العيد، وفي هذه الأثناء جاءني تاجر أسمه (يانيشي) وكنت قد تعرفت عليه قبل مدة، فقال:

- أريد الذهاب إلى طوكيو لقضاء بعض الوقت هذا اليوم فان رغبت ذهبنا معا.

- نذهب سوية وبكل سرور.

- لن نجد مكاناً في الحافلات، لنجرب القطار، ولابأس في التحرك مبكراً، فالزحام بدأ منذ عدة أيام، و اليوم سيكون أكثر فأكثر، و إلا سنذهب سيراً على الأقدام.

نزلنا الى الشارع وتوجهنا من المنزل الذي أقيم فيه إلى المحطة سيراً على أقدامنا، فالشوارع سيل من البشر. وصلنا المحطة بصعوبة. أما الزحام في المحطة فلا يمكن وصفه. وعلى كل حال فانهم يسيرون قطاراً كل عشر دقائق. ومع هذا فإننا إنتظرنا ما يقارب الساعة، ثم ركبنا القطار بصعوبة، فوصلنا طوكيو في تمام الساعة الواحدة. وفي المحطة ضاع مني رفيقي يانيشي، فبقيت وحدي، ومن هناك توجهت إلى حديقة «وينو UENO» بالحافلة الكهربائية. كانت الحافلة تسير ببطء شديد بسبب الزحام. ولما وصلت حديقة وينو كانت الساعة تؤشر إلى الثانية. لم يكن الزحام في الحديقة بأقل منها في الأماكن الأخرى. إلا أن ميدان الحديقة يستوعب الجميع، إنه ميدان اجتمع فيه قبل ذلك مئات الألوف من الناس وعقدوا إتفاقا. (وسيكون لحديقة وينو فصل خاص لاحقاً) وفي كل مكان كنت ترى الخطباء يخطبون في مجموعات من الناس. قمت بجولة في أرجاء الحديقة.

ومن هناك توجهت مباشرة إلى حديقة «هيبية HIBIYA» قرب القصر الأمبراطوري. وفي هذه الحديقة ترى أيضا سيولا من البشر وفرقاً موسيقية تعزف أناشيد وطنيةفي كل مكان.

تقع هذه الحديقة في وسط المدينة تماماً، وفيها طبقات مختلفة من الناس، أكثرهم من الشباب. وفيهم كثير ممن يرتدون الملابس الأوربية الأنيقة، كما أن بينهم عدد ليس بالقليل من الأوربيين.

وهنا صادفت معلما من يوكوهاما سبق أن تعرفت عليه، هذا الرجل يعرف القليل من اللغة الروسية. وبعد محاورة قصيرة قال: لنمش نحو الشارع كي نشاهد الوزراء والأعيان وهم يتوجهون إلى القصر لتهنئة الميكادو (الامبراطور).

سرنا الهوينا نحو شارع كانداباشي KANDABASHI وهناك حجزنا مكانا قريبا من الشارع، ورأينا أعداداً كبيرةً من عربات الريكشة متجهة الى القصر (عرفنا أن بعض الريكشات يجرها رجلان او ثلاثة) ونادرا ماكنت تصادف

عربات يجرها حيوان. وصل كل رجال الدولةوأعيانِ المملكة والوزراء الى القصر.

وبعد قضاء ساعة هناك توجهنا إلى شارع شيمباشي SHIMBASHI وهناك زرت رئيس تحرير جريدة «كوكومين» ومديرها المسؤول السيد «توكوتومي»، وقد زينت إدارة الجريدة بلوحات كبيرة وفوانيس فخمة. وعند دخولي من الباب سمعت صوت الموسيقى وألحان الأناشيد الوطنية، وتقدم السيد توكوتومي نحو الباب الخارجي باللباس الرسمي واستقبلني ورحب بي.

وبعد أن قدمني لرجاله ومن معهم ألقى كلمة مختصرة، نشرت بجريدته في اليوم التالي خلاصتها:

«نحن اليابانيين توجهنا الى أوربا لتأمين احتياجاتنا من العلم والمعرفة ولقد فتنا بالكلمات الأوربية المعسولة وحضارتها الظاهرية ؛ وبينما كنا مشغولين بتطوير قوتنا المادية لم نتذكر إخوةً لنا في الدم وهم يعتبرون سنداً لنا في قوتنا المعنوية، لدرجة أننا لم نعلم بوجودهم. هتفنا للحضارة ولكننا ضربنا بالانسانية عرض الحائط. لم نعلم شيئا عن التتار الذين هم من بني جنسنا. وهذا هو أحد اخوتنا الذين نسيناهم.لقد جاء السيد عبد الرشيد إبراهيم ليبحث عن إخوانه في أقصى الشرق، وها أنذا أقدمه لكم، وباعتبارنا دولة لها كيانها وهيمنتها فقد كان من واجبنا أن نذهب نحن ونبحث عن هؤلاء الاخوة المظلومين، إلا أن هذا الأب الكبير جاء الى أبنائه لعلهم يشعرون بالخجل ويهتموا باخوان لهم إنني أقدمه لكم بكل فخر واعتزاز».

ثم قدم لي كثيرٌ من الحاضرين، وكان من بينهم شاب له شارب أسود أمسك بيده وجاء به الي و قال: هذا هو أخونا كازيمي المحرر الثاني في جريدتنا، يجيد اللغة الروسية، و يمكنه أن يترجم لك عند الحاجة، انه في خدمتك.

أتاح لي هذا الترجمان فرصة لكي أعبر عن شعوري تجاه إخواني اليابانيين: إن الأمة اليابانية أمة احترمناها قبل أن نتعرف عليها، وبالرغم من أننا لانعرف الأمة اليابانية على حقيقتها إلا أن المسلمين بشكل عام والتتار بشكل خاص كان لهم ميل معنوي تجاه اليابانيين. وعندما بدأت الحرب الروسية اليابانية دعا أهل الاسلام بشكل عام بالنصر لليابانيين دون أن تكون بينهم أية علاقات. وقد أيقظت هذه الحرب شعورا خاصا لدينا نحن التتار، ونظمت أشعار وأناشيد خاصة ببورت أرثر.

ولا أظن بأن هذا الشعور كان مقتصراً علينا فقط، فان الأسرى اليابانيين الذين مروا من سيبيريا، حينما كانوا يرون التتار في بعض المحطات، كانوا ينظرون اليهم نظرة حب خاصة، و إذا أرادوا شراء بعض الحاجيات تعمدوا شرائها من التتار، واذا رأوا أطفال التتار أعطوهم قطع النقود، كما قدموا للتتار هناك بعض حاجياتهم الخاصة تذكاراً. كل هذا دليل على وجود رابطة معنوية بيننا. إنني شخصيا من المفتونين باليابانيين منذ القدم، ولقد تشرفت برؤية الأمة اليابانية وبلاد اليابان، فتحقق ماكنت آمله منذ سنوات طويلة، لذلك فانني عاجز عن إظهار مدى فخري واعتزازي وشعوري تجاهكم.

كل هذا الكلام قلته باللغة الروسية، وترجمه كازيما، وتلقاه الحاضرون بالقبول والتصفيق المتواصل ثم تقدموا اليَّ مرة أخرى وقدموا لي بطاقاتهم. وبعد تناول القهوة والشاي والمرطبات خرجنا للتنزه وزرنا عددا من الأماكن على حسب العادات عندهم وتعرفنا على كثير من الشخصيات.

إستفدت من مناسبة العيد فتجولت في كل ناحية من نواحي المدينة في الليل والنهار، وكان الزحام من الشدة بحيث تألمت كتفي من كثرة احتكاكهما بأكتاف الآخرين، ومع ذلك فلم أصادف سكيراً واحداً لا في الليل ولا في النهار. لقد إستمر تجوالي في بلاد اليابان عدة شهور، حتى القرى لم أستثنها في جولاتي، فلم أصادف رجلا سكيرا. إن هذا النظام

الدقيق في مثل هذا الزحام أمر يدعو للعجب حقا، إنني لم أشاهد حادثة تخالف هذا النظام، كما إطلعت على صفحة الحوادث في الصحف في اليوم التالي فلم أجد شيئا، سوى العثور على طفل في السادسة من العمر، وتبين من العنوان الذي وجد بحوزته أنه طفل قروي، وتعتذر الجريدة عن عدم تمكنها من تسليمه لذويه وإكتفائها بتسليمه إلى إدارة الشرطة المحلية.

(**استطراد**- تجد بين ثنايا نطاق كل طفل ياباني قطعة من خشب كتب عليها عنوانه. وهي عادة مستحسنة معروفة في كل أنحاء اليابان، فاذا شاهد الانسان طفلاً غريباً ليس معه أحد، بادر إلى معرفة عنوانه والاتصال بذويه.)

وبالاضافة إلى عظمة هذا العيد عند اليابانيين، فإنه يجمع عدة مناسبات: فهو يوم اعلان الحكم الدستوري، وهو يوم نقل الميكادو عاصمته من مدينة «كيوتو» إلى مدينة «طوكيو»، وفيه الذكرى السنوية الـ ١٦٦٠ لتأسيس الدولة اليابانية....كل هذه المناسبات إجتمعت في يوم واحد. ومن الطبيعي أن يكون الاحتفال في مستوى الأحداث العظيمة. وأتاح هذا العيد لي فرصة تعرفت فيها على كثير من الشخصيات. كما وجدت يابانيا إسمه «ناكاياما» عمل فيما بعد ترجمانا فخرياً دائماً لي. وهو رجل متفرغ ويجيد اللغة الروسية، وكنت كلما احتجت إلى مترجم وجدته بجانبي. وأكثر الأيام التي قضيتها في طوكيو، كنت أنزل فيها ضيفاً على هذا الرجل.

الكونت أوكوما OKUMA وزير الخارجية السابق

إن أول من التقيت به من بين السياسيين اليابانيين هو هذا الرجل. وهو أحد أكبر السياسيين اليابانيين.في البداية ذهبنا الى منزله وقدمنا له بطاقة التعريف، فأحسن استقبالنا. تقدمت معرفاً بنفسي، فأجاب: إنني ممتن

جداً لهذا اللقاء، واذا سمحت فإني أقدم لك شابين هما في مقام أبنائي، كي يتشرفا بالتعرف عليك. وضغط على الزر. فدخل من الباب شابان وبعد أن قدمهما لي قائلا: هذا فلان و هذا فلان طلب مني إستئناف الكلام.

قلت: أرجو من سعادتك بأن تجيب على بعض الأسئلة حول مستقبل اليابان.

أولا إن اليابانيين طلعوا فجأة كما تطلع الشمس، وفي أول تحركهم أثبتوا للعالم بأن الأمم الشرقية تملك إمكانات الحضارة، وهذا الوضع يخالف إعتقادات الدبلوماسيين الأوربيين الباطلة ومنافعهم الكاسدة تجاه الشرق، ولا شك بأن هذا الوضع سيغير من سياستهم الحالية. ومن الواضح بأن الغربيين لايطيقون ظهور مثل هذا المنافس في السوق الصينية. فهل سيسكت الأوربيون على المصالح اليابانية داخل الصين؟

ثانيا: باعتبار الوضع الجغرافي لليابان، هل يحس اليابانيون بالحاجة إلى الاتحاد مع الصين؟ وماهي المصالح التي تجلبها اليابان من مثل هذا الاتحاد؟ وهل هناك إحتمالات لمثل هذه الوحدة؟

ثالثا: ماموقف اليابانيين تجاه الأمريكيين؟

رابعا:مارأي الأمة اليابانية في قضية الدين؟ وهل التمسك بأصل المذهب البوذي أكثر موافقة لمصالح اليابانيين؟ و هل هناك من يقول بالحاجة إلى دين جديد؟

وبعد أن استمع الكونت أوكوما إلى ماقلت بانتباه واهتمام شديدين قال:في بداية حديثي سأجيبك على سؤالك الأخير:

- في هذه النقطة أريد اذا سمحت بأن أضيف كلمتين أخريين:

لاتنظر اليَّ على أنني قدمت إلى هنا من أجل نشر ديني، لأن ديننا هو عين الحقيقة. وعلى كل انسان أن يبحث عن الحقيقة، إننا لا نعرضه على أحد. فمن يبحث يجد.

الكونت أوكوما: رأيت في اليابان ثلاثة من المسلمين قبل أن أراك، أحدهم جاء من اسطنبول، عرض علينا موضوع تعدد الزوجات، فأجبته بأن ذلك يخالف دستورنا، وأنه لا يمكن أن يطلب من أي ياباني مثل هذا التعدد، وأنه لاحاجة لليابانيين إلى الإسلام إذا كان الاسلام عبارة عن تعدد الزوجات، وأعطيته ردا مكتوبا بهذا المعنى.

ثم جاءنا رجل مصري، كان يريد أن يعرض الإسلام على الميكادو، وأظنه لم يوفق في مسعاه. وجاء رجل هندي وكان إنساناً لا يخلو من الطرافة، و أظن أنه لم يمكث طويلا.

ورأيي بأن اليابانيين لا يولون قضية الدين أهمية كبيرة، وهم لهم مذهبهم الذي يقدسونه بدرجة كبيرة واعتقادهم به قوي جداً. إنهم يعرفون شيئاً واحداً: القومية اليابانية، والياباني على أي مذهب كان، يرى أن مذهبه الأساسي هو القومية اليابانية، إنه يقدسها أكثر من أي شيء آخر. لقد أثبتت الحرب الروسية - اليابانية بأن كل الذين اعتنقوا المذهب الأرثودوكسي من اليابانيين حملوا السلاح عند أول إشارة و التحقوا بالجيش الياباني. إن اليابانيين يفخرون بالقومية اليابانية وليس بالدين. غير أن اليابانيين لهم مطلق الحرية في اعتناق أي دين وفي الدعوة له.

قلت: إن كلام معاليك لا يمكن أن أعتبره جواباً على سؤالي. أقول هذا من وجهة نظر مصلحة اليابانيين، ولا أسأل عن مصالح الآخرين.

الكونت اوكوما: إن مصلحة اليابانيين في تمسكهم بأخلاقهم الوطنية، فإن فقدوا أخلاقهم الوطنية فقدوا معها قوميتهم اليابانية.

- وأنا أؤيدك فيما تقول، ولكن الذي أريد أن أقوله هو أن النساء اللواتي أنجبن رجالاً مثل الكونت أوكوما والأميرال توغو والأمير إيتو لاتجدهن في ظل النصرانية، لأن الحمية الوطنية لاتقوم الا بالنسب، ولاتسأل عن الحمية الوطنية في رجل مجهول النسب، ولا حياة للأمم إذا فقدت حميتها القومية، فأنا أسألك عن رأيك في هذه النقطة.

الكونت اوكوما- نعم هذا أمر يستحق الملاحظة. هناك بعض من الناس لاحظوه، وبناء عليه فان هناك من يقول بضرورة تجديد المذهب الكونفوشيوسي.

فهمت من أقوال الكونت اوكوما هذه، بأن الأخلاق الوطنية اليابانية لايمكن الحفاظ عليها في ظل النصرانية، لذلك فقد ركزت معه دائما على" ضرورة الحفاظ على الأخلاق الوطنية حفاظا على بقاء الأمة". لقد ساعدني هذا الأمر كثيرا.

وتابع الكونت اوكوما كلامه قائلا:"لاشك في أن الأمريكيين أمة كبيرة وغنية، ولكنهم لن يكونوا أمة محاربة في أي وقت من الأوقات، ان الحرب وسيلة للابقاء على حياة الناس، والأمم كي تحافظ على بقائها عليها أن تبقي شعورها الوطني حياً ويقظاً. ان الأمريكيين مغترون بالشعور المالي وليس بالشعور الوطني و لايمكنهم أن يثبتوا بأنهم دولة محاربة في أي وقت من الأوقات. نعم ان أموالهم كثيرة ويمكنهم إنشاء قوة بحرية كبيرة. تعادل ضعف القوة البحرية البريطانية. إن تلك السفن والبوارج لا يمكنها أن تتجه إلى المعارك بمفردها بل يجب أن يكون بداخلها جنود، ويجب أن يكون فيها محاربون لهم شعور محدد، وهذا ما لا يملكه الأمريكيون، لأن الأمريكيين لايمكنهم أن يكونوا جنوداً. ان البوارج لايكفيها أن تمتلىء بأصحاب البنوك لكي تدخل المعارك، و عليه فإن الأمريكيين ليسوا شيئا أمامنا. و مع هذا الأمريكيين لايزالون يوجهون التهديدات للشعبين الصيني والياباني، لأنهما من الشعوب الجائعة والمحتاجة دائما، والمال موجود في أمريكا. ومهما صبر الانسان فلن يصبر على الجوع، ولا يرضى بالموت جوعا طالما أن جاره يملك الخبز، فالأمريكيون يهيئون لنا الخبز و لكنهم لا يستطيعون محاربتنا.

وهَناك أمر آخر، وهو أن حال الأمريكيين ليس خافياً علينا فهناك مئات الألوف من اليابانيين في مختلف أنحاء أمريكا، يعرفون كل شبر من أمريكا، كما يعرفون كل رجالها.

واذا دانت الدنيا للانجليز في وقت من الأوقات فإن ذلك يعود لشهرتهم وليس لقوة جنودهم، فإن القوة الحقيقية للانجليز غير معروفة، إن انجلترا تملك قوة بحرية كبيرة في الظاهر و لكنها هل تملك جيشا له القدرة على استعمال تلك المدمرات، هذا مالايمكن لأحد أن يعرفه على حقيقته. أما البوارج والمدمرات فكل الناس رأوها فهابوها، ولكن هل في مقدور الانجليز أن يجندوا أعداداً كافية من الرجال ليخدموا في قواتهم البحرية؟ و هل يمكنهم أن يسلموا هذه البوارج للهنود والمصريين الذين يئنون تحت سياط ظلمهم؟ لايمكن لأحد أن يكتشف ذلك، فالانجليز يملكون حتى الآن مثل هذه الشهرة الغامضة ولكن الأمريكيين في رأينا ليسوا كذلك.

إننا نعرف الأمريكيين بأسمائهم من أكبر رجل فيهم الى أصغر طفل ولايمكنهم الدخول في حرب ضدنا في أي وقت من الأوقات.

أما إتحاد اليابانيين مع الصين فهو أمر مهم جداً بالنسبة لنا ؛ فاحتياجات اليابانيين كثيرة، كما أن إحتياجات الصينيين كثيرة أيضا، ولكن الصينيين لايدركون ذلك، ولا يقدرون على التفكير في مصالحهم، و هذا هو أصل البلاء، و سنسعى و نعمل لتحقيق هذا المطلب. و يمكننا أن نقول أنه بالنسبة لنا قضية حياة أوموت.

لي مؤسسة تعليمية أسستها بنفسي، يدرس بالقسم الجامعي منها خمسة آلاف طالب، و في القسم الاعدادي ثلاثة آلاف، والمجموع ثمانية آلاف، فيهم ألف من الطلبة الصينيين، ويمكنك زيارة المؤسسة وستجد بين هؤلاء الطلبة مسلمين مثلك.

- (بكل سرور، لابد من زيارتها.)

إن هدفي من انشاء هذه المؤسسة هو تربية العنصرين في مدرسة واحدة لجلب التآلف بينهما. وكانت المؤسسة في أول إفتتاحها لاتتسع سوى لمئة وخمسين طالبا ؛ أما الآن فقد وصل العدد إلى ثمانية آلاف. وقبل ثلاث سنوات إفتتحت قسم خاص بالبنات. فاذا وفقنا في مسعانا، فاننا سنوحد

هذين القسمين. و لو شعر الصينيون مثلما نشعر، لتحقق الأمر بشكل تلقائي، ولكن علينا أن نعترف بأن العوائق الخارجية كثيرة جداً. فالسؤال الأول الذي طرحته واضح للعيان، والأوربيون أدركوه قبلنا.

ومع ذلك فان للدولة اليابانية مكانة خاصة بين الدول، ولا ينبغي لليابان أن تكون بأقل مما هي عليه الآن، وهي تملك القوة الكافية للمحافظة على هذه المكانة. واذا أرادت أن تكون أكبر مما هي عليه الآن فانها ستضطر الى الاتحاد مع الصينيين. و أريد أن أوضح بأن الأمة اليابانية أمة مسالمة لكنها لن تتوانى عن الدخول في الحرب إذا اقتضى الأمر ذلك.

إنني ممتن جداً للتعارف الذي حصل بيننا، كما إنني اقدم شكري الخاص لتذكرك رجلا عجوزا مثلي و زيارتي.. أتمنى أن تتكرر اللقاءات بيننا، ولكنني أرجو عفوك فقد زادت آلام رجلي هذه الأيام، فلن أستطيع زيارتك، وسيقوم بزيارتك صهري نيابة عني. واني أرغب الآن التقاط صورة تذكارية تجمعنا، كما إني بهذه المناسبة أدعوك لتشاهد حديقتنا.

واتجه نحو الباب فسرنا وراءه، و انتهى بنا ممرطويل الى حديقة زجاجية. وهناك قام مصوره الخاص بالتقاط الصورة التذكارية، كانت عزيزة عندي و أهداني نسخة منها. ولكن بكل الأسف ضاعت هذه الصورة أو صودرت في دوائر البريد الروسية.وبهذه المناسبة فأني أورد بعض المعلومات الشخصية عن الكونت أوكوما.

الكونت أوكوما من الرجال الشجعان الذين كانوا يعرفون قديما بالساموارائي. ولما ألغي نظام المقاطعات في اليابان وتشكلت الدولة الموحدة ألغي لقب الساموارائي. في تلك الفترة كان الكونت أوكوما من أكبر الشخصيات الذين قدموا للأمة خدمات جليلة. وعندما شكلت إدارات الدولة وأقيمت علاقات مع الدول الأجنبية أختير الكونت أوكوما وزيراً للخارجية، وصار منذ ذلك اليوم أحد أشهر رجال الدولة النشيطين والمرموقين، ومن الذين لايكلون عن العمل ليل نهار من أجل مستقبل

أفضل لأمتهم، وقد افتتح جامعة واسيدا WASEDA التي كانت تتسع في بداية الأمر لمئة وخمسين طالبا كما أسلفنا، أما اليوم فيدرس فيها ثمانية آلاف طالب، وهذا العمل بذاته تضحية كبرى منه في سبيل أمته. ثم إنه فكر في مستقبل أمته باقامة علاقات سياسية واقتصادية بين اليابان و أوربا، مما أثار حفيظة بعض اليابانيين بحجة ايقاع البلاد في حبائل الأوربيين، فحاولوا إغتياله بالقاء قنبلة عليه، مما أدى إلى تفتت ساقه اليمنى(وقد ركب ساقاً صناعية). و في تلك الفترة استقال من الوزارة و لكنه لم يفقد نفوذه و إعتباره لدى السواد الأعظم من الشعب الياباني إلى يومنا هذا.

وللكونت أوكوما إعتقادات غريبة: فهو رجل بلغ السبعين من عمره ويسعى لأن يعيش حتى يبلغ المائة والعشرين، و يعمل خلال هذه المدة من أجل إسعاد أمته دون كلل ولا ملل، كما يعتقد بأن اليابان ستكون من أعظم دول العالم وعندها ستلقي دول العالم السلاح، وان أوربا ستتعرض لانقراض كلي، وستفقد الدول الأوربية كل قواها التي تملكها حاليا.

جـــامعـــة واسيدا WASEDA

«واسيدا» هي احدى أكبر الجامعات الخاصة في اليابان. إن المعاهد التعليمية في اليابان هي شعبية (خاصة) و نسبة الحكومية منها هي سبعة في المئة، والباقي خاصة. و عدد المدارس التي انشأها شخص بمفرده أو بالتعاون مع عدد من الأشخاص ليس بالقليل. وهناك ثلاث مدارس إعدادية ليلية يتكفل بجميع مصاريفها تاجر إسمه "أكورا OKURA". و إلى جانب تلك المدارس الابتدائية والاعدادية التي يتولى الصرف عليها بعض أصحاب الحمية ؛ فإن هناك جامعات خاصة على نفس المنوال.وعليه فإن واسيدا هي جامعة خاصة تكفل بانشائها وتأمين مصاريفها الكونت أوكوما وبعض من أصحابه.

وهذه الجامعة تقع أمام منزل الكونت أوكوما. وكانت عند إفتتاحها عبارة عن منزل يتسع لحوالي مائة و خمسين طالباً، ثم جرى توسيعه كل عام حسب الحاجة. واليوم قد أصبحت على مساحة تعدل مساحة مدينة صغيرة. وتعتبر الآن من أكبر الجامعات المعروفة في العاصمة طوكيو. ويفخر أكبر الأساتذة بالتدريس تطوعا في هذه الجامعة.

والجامعة فيها قسمان: قسم جامعي وقسم تحضيري. ومجموع عدد الطلبة في القسمين ثمانية آلاف. ١٢٦١ منهم صينيون، وأكثر من أربعمائة كوريون، وثمانية وعشرون من الفلبين، وأربعة عشر من أمريكا. و من بين الطلبة الصينيين ثمانية و ثلاثون من المسلمين. و قد زرت هذه الجامة والتقيت بمديرها و مدرسيها عدة مرات. كما إتصلت بالطلاب وعقدت لقاءات خاصة بالطلبة المسلمين.

وفي ذات يوم رافقت السيد أحمد فضلي، وهو ضابط مصري يجيد اللغة الانجليزية في زيارة للجامعة فألقى محاضرة أمام ألفي طالب من الصفوف العليا، ألقاها باللغة الانجليزية شرح فيها فضائل الاسلام، فسر الطلاب بشكل عام. وعلى أثر هذه المحاضرة قام المسلمون منهم بزيارتنا.

وأحمد فضلي بك ضابط مصري كان في السودان، حيث شهد حروب المهدي، وهو شاب مسلم غيور، يجيد التكلم باللغتين الانجليزية والفرنسية، ولسبب من الأسباب ترك مصر قبل خمس سنوات ووصل الى اليابان، وتزوج هناك بفتاة قروية، ثم رافقته زوجته ووالدتها إلى مصر فأعلنتا إسلامهما، ثم عادوا جميعاً الى اليابان، واليوم يقيم في قرية إسمها «نيبوري NIPPORI» قرب طوكيو.ويحق للتاريخ أن يسجل بأن زوجة فضلي بك اليوم هي أول من أسلمت من النساء، وأن ابن الفضلي أول من ولد من اليابانيين في الاسلام ببلاد اليابان. وبالاضافة الى ذلك فإن أحمد فضلي هو أول من خطب عن الاسلام في اليابان بمدرج جامعة واسيدا. فإن فضلي بك له سبق الفضل على جميع المسلمين في اليابان.

الصحـف

لقد زرت مكاتب عدد كبير من الصحف. وفي اليابان صحف كثيرة ؛ ولا يقتصر إصدار الصحف على المدن، بل تصدر أيضاً في القرى والأرياف.ولا أعرف عدد الصحف الصادرة في طوكيو بالتحديد ؛ و لكنني سأعدد الصحف اليومية التي زرتها في هذه المدينة:هوتشي شيمبون وياماتو شيمبون (وهاتان الجريدتان تصدران في طبعتين يومياً، وكوكومين شيمبون ونيتشي نيتشي شيمبون وتوهوشوغي وجيجي وأساهي وماي نيتشي وجوئو وماي نيجي دينبو ونيروكو ومياكو يوميوري، وهذه الصحف تصدر باللغة اليابانية و هناك عدد من الصحف تصدر باللغة الإنجليزية و لكنني لم أتمكن إلا من زيارة السيد بابا وهو محرر في جريدة جابان تايمز JAPAN TIMES.

إن أسعار الصحف زهيدة جداً. فبالرغم من أن جريدة هوتشي شيمبون تصدر مرتين: صباحاً ومساءً فان قيمة الاشتراك الشهرى ـ سين، وثمن النسخة سين واحد أو خمس بارات.

أما الاشتراك الشهري في جريدة ياماتو فبسبعة عشر سيناً، والنسخة الواحدة تباع بسين واحد. وتنفرد جريدتا اساهي ومانشوهو MANSHUHO بسعرسينين للنسخة الواحدة وكل من هاتين الجريديتين من الصحف شبه الرسمية التي يطالعها عادة أعيان المملكة.

وجميع هذه الصحف كتبت مقالات مطولة عني، كما نشرت الوقائع التاريخية المتعلقة بالشعب التتاري. وبعض الصحف نشرت صورتي وبعضها نشرت إلى جانب الصورة خطي وتوقيعي.وبشكل عام فان الصحافة اليابانية تحدثت عني باحترام وتقدير كبيرين. وقد أدرجت أكثر الصحف الأسبوعية صوري إلى جانب مقالات مفصلة عني. وصحف العاصمة واسعة الانتشار في اليابان: فصحيفة هوتشي شيمبون تطبع

ثلاثمائة وخمسين ألف نسخة للمرة الواحدة أي أن عدد نسخها في الطبعتين في اليوم الواحد سبعمائة ألف نسخة.

ولإدارة صحيفة هوتشي شيمبون ٢٤ سيارة توزع بها صحفها، فلا تنتظر البريد كي يوزع لها صحفها داخل العاصمة وفي ضواحيها داخل محيط مائة كيلومتر.، أما النسخ التي توزع في الولايات فتتولاها ادارة البريد.

ثم إن الصحفيين لايهمهم أن توزع صحفهم وتباع، بل انهم يعلقون النسخ الأولى على أبواب ادارة الجريدة وكذا في الميادين العامة وعلى الجسور كي يقرأها الفقراء مجانا. وأظن بأنك لاتجد مثل هذا الكرم في صحفيي الدول المتحضرة.

البـريـــد

البريد فى اليابان حركة لاتعرف التوقف، و تعمل مراكز البريد ليل نهار من أجل نقل الرسائل والنقود والمواد الأخرى. إلا أن الموظفين يتبدلون حسب الورديات ولاتجد فى اليابان جملة «مكتب البريد مغلق» أو «مفتوح». ففى الساعة الثانية عشر ليلا سلمت حوالة مرسلة لصديق لى وكتبت له أنه اذا استلمها يذهب إلى المصور في الشارع الفلاني ليأخذ صوري ويأتيني بها.

وفي اليوم التالي جاءني الصديق إلى يوكوهاما في الساعة التاسعة صباحاً ومعه تلك الصور. فبلد له مثل هذا البريد ليس بحاجة حتى إلى البرق.

ومراكز وفروع البريد من الكثرة بحيث يتعذر على المرء تعدادها، ثم إن الصيدليات بشكل عام تقبل الرسائل المسجلة، حتى أن أكثر البقالات تقوم بمثل هذه الخدمة.وطوابع البريد العادية تباع فى كل دكان. ولا يمكن للمرء أن يتصور أن بلداً يقدم من التسهيلات لشعبه أكثر مما تقدمه اليابان.

وفي روسيا عندنا يقال للمواد البريدية (باصيلكه). ولا يقبلون أية مادة بريدية إلا إذا كانت مخيطه إما بالخيط الأبيض أو بالخيط الأسود ولا يقبلون بغير ذلك، ويجب أن تكون مربوطة ربطا محكماً ومختومة، إلى غير ذلك من الشروط التعجيزية.فاذا أراد المرء أن يرسل شيئا بقيمة بضعة قروش فعليه أن يحفظ مجلداً من القوانين واللوائح.ومع ذلك فان المادة البريدية تضيع أو تسرق و لا تصل الى العنوان المطلوب. أما فى اليابان، فإن إرسال مثل هذه المواد البسيطة لا يحتاج إلى شيء، تاتى بها إلى البريد وتسلمها بشكل من الأشكال. فالهدف عندهم هو خدمة الناس، وتيسير مصالحهم بالسرعة المطلوبة.

خلال وجودي في طوكيو أقمت في بيت قريب من فرع بريد، وفي بعض الأحيان كنت أذهب اليه فأجلس بعض الوقت. و ذات يوم جاءت إمرأة ومعها بعض الحاجيات وجريدة قديمة وقطعة من حبل وسلمتها الى موظف البريد، و اكتفت بالقول بأن هذه المواد يجب ان تصل الى مكان في أومور، ثم أدارت ظهرها وخرجت. قام موظف البريد بجمعها ثم لفها بالجريدة وربطها بقطعة الحبل وكتب العنوان وسجل على الدفتر وأعطى الوصل للخادم وقال: له خذ هذا إلى المرأة الفلانية.هذا هو موظف البريد، وهذا هو الشعب.فالمرء لا ينتهى من تعداد مناقبهم.

بدايـة التاريخ عند اليابانيين

من المعروف أن كل أمة من الأمم تتخذ إحدى الوقائع المشهورة بداية لتاريخها.فمبدأ التاريخ عند أمم الغرب هو ميلاد عيسى عليه السلام و في الإسلام هجرة النبي ﷺ. اما اليابانيون فانهم مثل الصينين يعتبرون جلوس كل حاكم على العرش مبدأ لتاريخهم. والحاكم يطلق لذلك التاريخ إسماً يبقى معروفا مادام ذلك الحاكم حياً. فإذا توفي، فان اسم ذلك التارخ يتبدل كما يتبدل مبدؤه. فاليابانيون اليوم في عهد الميكادو

أطلقوا عليه عهد ميجي MEIJI . لذا فإنني وصلت إلى اليابان في «ميجي» الحادي والأربعين وغادرتها في الثاني والأربعين. اما الأن فنحن في الميجي الثالث والأربعين أي أنه مضى على جلوس الميكادو ثلاثة وأربعون عاما، و جلس على العرش و عمره ستة عشر عاما. وفي هذه الحالة فإن الميكادو يبلغ من العمر الأن تسعة وخمسين عاما.فإذا توفي الميكادو فلا بد من تغيير إسم التاريخ. والإمبرطور الجديد يعين إسم التاريخ الجديد.وبهذا الإسم الجديد تبدأ السنوات الأولى من التواريخ وهكذا.

وما مضى من أيام التاريخ تذكر بتلك الاسماء المختلفة. فمثلا اذا تطلب الأمر تحديد زمن تطبيق أصول إحراق الموتى؛ لتوجب ذكر الثلاثين من تيمبوتينو TEMBO TENNO (الإمبراطور تيمبو). وهناك كتاب للوقائع يعطي كل عهد وما يقابله من التاريخ الميلادي. فإذا أردنا ان نعرف التاريخ الميلادي للعام الثلاثين من تيمبوتينو، راجعنا كتاب الوقائع وعرفنا انه يقابل عام ٦٧٣ م. و إذا أردنا مثلا ان نعرف تاريخ إتخاذ مدينة كيوتو عاصمة لليابان لأجيب عن هذا السؤال بانه في العام الخمسين من كانمو تينوه KANMU TENNO وإذا نظرنا الى كتاب الوقائع لعرفنا أن هذا التاريخ يقابل عام ٧٨٢ من الميلاد.

وكذلك اذا اردنا ان نعرف تاريخ إتخاذ مدينة طوكيو عاصمة لليابان لتبين أنه في العام الأول من عهد ميجي، ويثبت كتاب الوقائع أنه يقابل عام ١٨٦٨ من الميلاد. و اليابانيون لايحسون بالحاجة الى مثل هذا الأمر بل يكتفون بالقول بأنه في العام كذا من تاريخ كذا و الأوراق الرسمية في الدوائر الحكومية تضبط وتسجل حسب ذلك التاريخ، وكل المعاملات يسري فيها تاريخ ميجي ما عدا التعامل مع الدول الأجنبية فإن وزارة الخارجية تعتمد فيها التاريخ الأفرنجي.

اما الأشهر فان اليابانيين يذكرونها بالترتيب الرقمي الشهر الاول، الشهر الثاني، الشهر الثالث وهكذا و أما أيام الأسبوع فهي يوم الشمس ويوم

القمر ويوم النار ويوم الماء ويوم الشجر ويوم الذهب ويوم الارض. وهكذا فان لليابانيين تاريخهم الخاص و لا يفكرون أبداً بتغيير هذا التاريخ بل ان هناك جمعيات خاصة للحفاظ على التاريخ، وهي أكبر الجمعيات في اليابان، و أعضاؤها من أعيان البلد، و فيهم أيضا الفلاحون، و المهمة الرئيسية لهذه الجمعية ضبط وكتابة الوقائع الجارية في اليابان، وكذلك الوقائع المهمة في أوربا.

إن مركز ادارة جمعية الحفاظ على التاريخ هو في مبنى وزارة المعارف بالقرب من هيبيه HIBIYA في مدينة طوكيو حيث مكتب رئيسه هياشي HAYASHI، ومعه عاملون يكتبون بشكل منتظم الوقائع اليومية. وقد تعرفت على كثير من أعضاء هذه الجمعية وحضرت إجتماعهم العام مرتين. وفي احدى المرات أقاموا على شرفي مأدبة خاصة ألقيت فيها كلمة، وإلتقطت صوراً لمن حضروا هذه المأدبة .

وخصوصاً صور بعض المشاهير من أعضاء هذه الجمعية .

الإجتماع العام لجمعية المؤرخين

وذات يوم حضرت إجتماع هذه الجمعية، وكان الاجتماع في مقر الضيافة في حديقة وينو UENO، و قد طلب مني أعضاء الجمعية القاء كلمة، وقد حضر الاجتماع كبار الاعضاء وكان من بينهم وزير البلاط هيجيكاتا سن.

وفي بداية الجلسة بحثت امور خاصة ثم إنتخبوني عضوا فخريا بإجماع الأصوات. و بعد إستراحة قصيرة طلبوا مني القاء كلمة فقمت و ألقيت الكلمة التالية باللغة الروسية ترجمها ناكاياما وقام المحرر بجريدة ياماتو بتسجيلها.

أيها السادة إنني تتاري من روسيا. لقد فقد التتار سيادتهم منذ ثلاثمائة وخمسين عاماً وصاروا تحت الحكم الروسي المباشر. إن الاسر مرض ينتاب الناس في بعض الفترات. والمرض ليس عيباً في الانسان، بل العيب والخطيئة في عدم التداوي للشفاء من هذا المرض. وفي الفترة الاخيرة أبتليت كل أمم الشرق بهذا المرض. ولابد أن يكون للمرض أسبابه، ولكنني لا أجد حاجة لذكر تلك الأسباب. وبالرغم من أن البحث عن سبب المرض هو أول شرط للعلاج، فإنني أحتاط كي لا يكون الأمر من قبيل ترك الجريح يحتضر، واللحاق بالجاني في محاولة للقبض عليه (تصفيق). إن أممنا الشرقية عرفت بالصبر والثبات و لا تيأس أمام مصيبة من المصائب. و هذا الثبات منها، جعلها تتجاوز أصعب الأمراض. إنها لم تيأس في الماضي، ولا شك أنها لن تيأس مستقبلا. ومع ذلك فإن المرض شديد و مزمن، لذلك علينا ألا نتأخر في البحث عن أسباب الداء.

واليوم نحمد الله بان نيهون NIHON (الشمس المشرقة) قد اثبتت وجودها. ونحن على يقين بانها ستضيىء كل الشرق. اما طبيعة الغربيين فهي الغروب.(تصفيق)

واذا كانت نيهون رائدة الشرق؛ فان كافة اهل الشرق سيتقدمون. لقد ضمن الشرقيون مستقبلهم من يوم انتصار اليابانيين في تسوشيما TSUSHIMA

إنني مقتنع بتقدم اليابانيين بعد أن شاهدت ذلك بأم عيني. والإستعداد الفطري الذي رايته لدى اليابانيين جعلني أطمئن غاية الإطمئنان. و يمكنني أن أقول بكل صراحة و صدق، بأن عهد (ميجي) جدير أن يكتب بحروف من ذهب.

إنني أعبر عن حبي للأمة اليابانية. وكلي أمل أن توافقني الحقيقة في أن تكون الأمة اليابانية رائدة كل الامم الشرقية، فالسير الطبيعي للشرق هو الإرتقاء ولن يقدر أحد أن يمنع ذلك. إن الاوربيين يسمونه القانون الطبيعي

ولكننا نحن المسلمين نسميه القانون الإلهي. وكتابنا المقدس «القرآن الكريم» يؤكد في مواقع كثيرة أنه لا راد لقوانينه الطبيعية ولا راد لفضله.وأنهيت كلامي وسط التصفيق الحاد.

ثم قام مياكو، وهو عضو في الجمعية، فتكلم شاكراً ومعبراً عن حبه وتقديره لي، ثم أختتمت الجلسة. وفي اليوم التالي نشرت أكثر الصحف نص الكلمة التي ألقيتها فكان تقديراً آخر من الصحفيين. ولم أكن أعلم شيئا عن هذا النشر، لأنني لا أعرف قراءة الصحف اليابانية. وكانت هذه المناسبة الأولى في العلاقات بيني وبين الأمة اليابانية، وبدأ اليابانيون يولونني بإحترام وتقدير كبيرين.

لم اتوقف عن التجول في كافة أنحاء اليابان، فأمضي سحابة النهار في الإنتقال هنا وهناك؛ أتجول سيراً على الأقدام في القرى والأرياف المحيطة بالعاصمة طوكيو، و قد وجدت فوائد عظيمة من التجول في القرى حيث كنت اسأل كل من أصادفه عن الطريق وعن أمور أخرى أحتاجها فاضطر إلى محادثتهم باللغة اليابانية، و ساعد هذا في تعلم المزيد من اللغة اليابانية، خصوصاً أنني كنت في بعض الليالي أبقى وحيداً ؛ فأحتاج إلى أشياء كثيرة كأن أبحث عن مكان أنام فيه، وليس بمقدوري أن أصطحب مترجماً بشكل دائم، و هذا هو الهدف من رحلتي.

القرويون في اليابان

إن التجول في قرى اليابان له طعم خاص ولا يمكنك أن تلحظ فرقاً كبيراً بين أهل القرية وأهل المدن فليس هناك فرق ظاهري في العادات و الأخلاق وشكل اللباس بين القروي وسكان المدن. فالقرويون في اليابان على درجة عالية من التربية والأدب وإكرام الضيف، وفي أكثر القرى تجد الكثيرين منهم يجيدون اللغة الانجليزية. و في بعض القرى تصدر صحف يومية. إن القرويين أكثر بساطة، ومعيشتهم أقرب إلى الحياة الطبيعية من

أهل المدن. وخلاصة القول إنهم يعيشون حياةً شرقيةً؛ فلا تجد في بيوتهم من الاشياء سوى حصيرة وضع في وسطها موقد للنار

ولفت إنتباهي أثناء زيارتي برودة الجو بسبب موسم الشتاء، فإذا نزل ضيف في أحد البيوت قام أهل البيت على الموقد وملأوه بالفحم، ثم جاؤوا به ووضعوه أمام الضيف وسلموا عليه ؛ هذه الظاهرة أصبحت عادة متبعة في كل قرية وفي كل منزل. ومن الغريب أنني لم أكن أحس برائحة غاز الكربون ؛ إذ كنت أصل الى البيت متعباً فأنام، ولو كان هناك غاز الكربون لأصبحت لاسمح الله جثة هامدة. وفي كثير من الأحيان كان النوم يغلبني فأنام، فيدفع صاحب المنزل بالموقد إلى جانبي، و يغادر المنزل، فأستيقظ بعد ذلك فأجده أمام ناظري.

والنظافة في القرى أمر تشتهيه النفس. ولقد أعجبت كثيراً بنظام الطرق التي تربط القرى ببعضها، كما وصل بي إعجابي بالنظافة الممتازة إلى درجة أنني تمنيت أن أكون قرويا يابانيا. أما بالنسبة لموضوع الطعام فالشكوى الى الله. لا شيء تجده أمامك إلا السمك. و ما تأكله لايتعدى السمك والرز المسلوق. أما اللحم والخبز فلا تسأل عنهما، والشي المتوفر هناك هو البيض، وسعره رخيص، فلذلك كنت أشبع بطني بالبيض في أغلب الأوقات.

لقـاء مع وجوه القـوم

تعرفت على أكبر الأساتذة والمتخصصين اليابانيين، و هو السيد أريغا، المتخصص بالقانون الدولي، وعقدت معه عدة لقاءات، كما تعرفت على الأستاذ الكبير توميزو TOMIZU المتخصص في القانون الروماني.، كما إلتقيت بالسيد هاتوري HATTORI المتخصص باللغة الصينية. والتقيت بكثيرين غيرهم، ووفقت في الحصول على معلومات واسعة جدا عن أوضاع اليابان. كل ذلك بفضل الله ثم بجولة لادور فيها للدرهم والدينار.

والتقيت بالسيد ساساكي عضو البرلمان والمتخصص في الشؤون المغولية، وساساكي هذا من مشاهير الخطباء عند اليابانيين. تجول في تركستان الصينية ومنغوليا شبراً شبراً و إطلع على الرأي العام في منغوليا واستقدم معه عددا كبيرا من الطلاب الى إليابان ومنهم بالطة تورة بن تورغوت- واك وهو أحد الاقطاعيين المغوليين. وبعد أن أكمل تعليمه في الجامعة اليابانية، سعى إلى تعيينه رئيساً للقوات الخاصة في قصر الإمبراطور الصيني.وساساكي من المهتمين بقضية إتحاد الشرق، ويؤمن بأن حياة اليابانيين مرهونة باتحاد الشرق، وأنه مهما تقدم اليابانيون فلا بقاء لهم إلى عن طريق خدمة مسألة اتحاد الشرق.

إن اليابانيين يعتقدون بأن ساساكي رجل خارق للعادة بالفطرة الالهية وذلك لأن اليابانيين في العادة لاتتجاوز قامتهم الذراعين أما ساساكي فهو ضخم البنية طويل القامة. وبعد أن تعارفنا توطدت الصداقة بيننا وأجرينا عدة محاورات، وسأذكر بعض محاوراتنا في المكان المناسب.

المدارس اليابانية

أقصى ماكنت أتطلع عليه من جولتي في بلاد اليابان هوالحصول على معلومات جادة وصحيحة. عرفت اليابان بكثرة عدد مدارسها، وعن اليابانيين بشدة تعلقهم بالعلم وكثرة طلابهم، إلا أنني لم أكن أملك معلومات رسمية في هذا الخصوص. ولما زرت ادارة جمعية المؤرخين حصلت على المعلومات التالية:

في العام ٤١ من الميجي(١٩٠٨) ذكرت الاحصاءات الأخيرة:

إن المدارس في اليابان على ثلاثة أنواع: أولها المدارس الحكومية و ثانيها كوريتسو KURITSU أو المدارس الأهلية، وثالثها المدارس التي أسسها أفراد:

إن المدارس الحكومية: ٣، الأهلية ٢٦٨٩٧، مدارس الأفراد: ٢٢٥

المجموع: ٢٧١٢٥

أما عدد معلمي المدارس الابتدائية فهو كالآتي: الحكومية ٥٢، الأهلية:١٢١٤٧٥، الأفراد:٩١٢

وعدد طلاب الابتدائي: الحكومية:١٤٧١، الأهلية:٥٦٧١٤٦٦، الأفراد:٤٠٧٦١

المجموع:٥٧١٣٦٩٨

إن المدارس الابتدائية مختلطة في كل الأحوال.

المدارس الاعدادية:

إن عدد مدارس الذكور: الحكومية: ٢، الاهلية: ٢٢٩، الأفراد: ٥٦

المجموع: ٢٨٧

أما عدد معلمي مدارس الذكور فهو كالآتي:

الحكومية:٣٦، الأهلية:٤٣٨٤، الأفراد:١٠٤٢ المجموع: ٥٤٦٢

عدد الطلاب الذكور: الحكومية:٥٦٠، الأهلية:٩٠٤٢٠، الأفراد:٢٠٤٥٦

المجموع: ١١١٤٣٦

عدد المتخرجين الذكور عام ٤١ ميجي: ١٥٢٩١

أما مدارس الاناث: الحكومية: ١، الأهلية:١٠٧، الأفراد:٢٥، المجموع:١٣٧

وعدد المعلمات: الحكومية: ٢٤، الأهلية: ١٦٢٥، الأفراد: ٣٦٢، المجموع:٢٠١١

عدد الطالبات: الحكومية:٣٥٦، الأهلية:٣٠٤٢٠، الأفراد ٦٤٩٦٧

المجموع:٣٧٢٧٣

عدد الطالبات المتخرجات: ٩١٧٩

الجامعة الحكومية: عدد المدرسين:٥٠٣، الطلاب:٧٣٧٠، عدد المتخرجين:١٤٢٦

المدارس المهنية: الحكومية:١٣، الشعبية:٥٩٠، الأفراد:١٩٨، المجموع:٨٠١

عدد الطلاب: الحكومية: ٥٣٣٦، الشعبية: ٢٢٩٢٧٢، الأفراد: ١٦٠١٥
المجموع: ٢٣٠٥٩٣
دار المعلمين: الحكومية: ٢، الشعبية: ٦٢
عدد المعلمين: الحكومية: ١٢، الأهلية: ١١٧٦
عدد الطلاب: الحكومية: ٩٧٥، الأهلية: ١٩٣٥٩
دار المعلمات: دار واحدة. عدد المعلمات ٤٥، عدد الطالبات: ٣٦٥
مدارس العميان: الحكومية: ١، الأهلية: ٢، أهل الخير: ١٥٠
عدد المدرسين والمدرسات: الحكومية: ١٨، الأهلية: ٤٠، أهل الخير: ١٥٠

هذا هو الاحصاء الرسمي السنوي للمعارف في عام واحد في اليابان.

وهذا الاحصاء هو لمن هم في السن الدراسي. أما المسنون والعمال والخدم فلهم مدارس كثيرة لم نذكرها. ولاتدخل في هذا الاحصاء أيضاً المدارس العسكرية والمدارس البحرية والجامعات الخاصة.

إن عدد سكان اليابان (فيماعدا كوريا)، مليوناً و إن أكثر من ستة ملايين منهم يدرسون في مختلف المراحل.

ومن هذا يجب أن نتصور مدى تطور اليابانيين في مختلف المراحل التعليمية. كما نلحظ بأن ميل اليابانيين ورغبتهم واجتهادهم في العلم والمعرفة أعلى من الأمم الأخرى بشكل ملحوظ.

إن التعليم في اليابان هو باللغة اليابانية بشكل عام، وقد ألفوا الكتب العلمية جميعها بلغتهم. و لقد أخبرت بأنهم لايقبلون الكتب المترجمة من اللغة الأجنبية مباشرة في معاهدهم، فهم يعتمدون الكتب المؤلفة من قبلهم.

و يتحاشون في مدارسهم استعمال الكلمات الأجنبية قدر الامكان، حتى أنهم يضعون اصطلاحات خاصة للمخترعات الحديثة باللغة اليابانية. فكلمة البوستة (البريد) معروفة لدى كل بلدان العالم بهذا الاسم، أما

اليابانيون فيطلقون عليه «يوبين YUBIN»، و يقولون للصورة «شاشين»، كما وضعوا مصطلحات خاصة للبرق والهاتف.

الحـروف

إن الحروف التي يستعملها اليابانيون منذ القدم هي الهيروغليفية الصينية.وهذه الحروف عبارة عن أشكال تدل على الهجاء.

مجموعة منها تضم خمسين مثل الحروف المتحركة، و مجموعة أخرى مكونة من حوالي ثلاثين ألف هيروغليفا صينيا. ويجب الاجتهاد مدة طويلة لتعلمها. كما إن عدد الحروف المتحركة فقط يبلغ المائتين. ومع ذلك فنادرا ماتجد في اليابان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة و حتى الذين يجرون الريكشة فإنهم يعرفون القراءة والكتابة. ولا تكاد تصادف أحداً من العمال والحمالين من لايعرف القراءة والكتابة. وقد يقول قائل: لماذا لم تحل هذه الحروف من تطور اليابانيين؟ إن ذلك يعود إلى أن التعليم الابتدائي عندهم إلزامي. والطفل إن لم يتعلم، يتعرض أبوه أو من في مقام وليه للمساءلة، كما يكون مدير البوليس في الحي مسؤولا عن ذلك.

سن التعليم: إذا أكمل الطفل سن الخامسة يقبل في المدرسة، و في العام الأول لايتعلم شيئا بل يكون منتسباً يلعب مع أقرانه، يذهب متى أراد ويعود متى أراد. ولا شك بأن الألعاب موجهة، وخلال عام واحد يكون الطفل قد تعود على جو المدرسة فإذا أتم السادسة بدأ بتلقى الدروس.

القامة في اليابان

إن الشعب الياباني صغير الحجم قصير القامة إذا قيس بالأمم الأخرى، ووجوهم شابة، فاذا رأيت يابانيا في الثانية أو الرابعة والعشرين ظننته في

الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، والياباني الذي بلغ الثلاثين تظنه في العشرين من عمره. ولما كانوا حليقي الوجه، فانك تراهم في شباب دائم. أما في الشمال وفي هوكايدوHOKAIDO وجهات سخالين على الخصوص فإن بعضهم يطيلون شواربهم أو لحاهم، أما في أواسط البلاد وحول طوكيو، فنادرا ماتجد رجلا ذا لحية وشارب، وأما في كيوتو وكاما كوره ونارا لا تجد ذا لحية أو ذا شارب أبداً. و قامة اليابانيين قصيرة بشكل عام، إلا أن قوتهم البدنية لاتتناسب مع قاماتهم. فالياباني يقدر أن يرفع ماوزنه مائة وخمسون كيلوغراماً، كما يمكنه أن يجر بالعربة ماوزنه مائتان وخمسون كيلوغراما الى مسافات بعيدة، ويسحب الأحمال الثقيلة الى المرتفعات، يأخذ الراحة بين الفينة والفينة، ويستطيع أن ينقل أثقل الأحمال الى أماكن بعيدة جدا. إنك لا تجد انساناً يقوم بما تقوم به الدواب إلا لدى اليابانيين. وكنت في جولة في القرى و شاهدت يابانياً، حمل أربعة من أعمدة الهاتف في عربة يجرها الى مكان مرتفع. وهذه القوة في ذلك الياباني تعود إلى الملكة التي إكتسبها بالتجربة والمران.

وقد تحدثت مع بعض اليابانيين الطبيعيين في هذا الشأن، ووجدتهم يؤيدون نظرية اكتساب مزيد من القوة بالملكة، ولذلك جعلوا التربية الرياضية في كل المراحل الدراسية مادة اجبارية. وهناك قوانين خاصة لضمان هذا الأمر.

آراء في موضوع القامة

ما هو السبب في قصر القامة عند اليابانيين يا ترى؟ وهل يمكن ايجاد طريقة لتطويل القامة؟ انهم يفكرون في هذه الأمور. إضافة إلى ذلك، فقد عينوا مواقيت خاصة للعلاقات الزوجية، و الأكثرية وافقت على ذلك. ففي القرى اليابانية يرون أن نهاية شهر سبتمبر أيلول ولمدة شهر كامل، هي أنسب الأوقات للانجاب. لقد جربوا منافع هذا التوقيت كثيرا. إن العمل

في الأرض عند اليابانيين هو في منتهى الصعوبة. ففي موسم الزراعة يقلبون الأرض خمس مرات على الأقل. ولذلك فانك تجد النساء يعملن الى جانب الرجال في الحقول. إن الطفل المولود في شهر سبتمبر تستطيع أمه أن تتركه بعض الشيء اعتباراً من شهر أبريل، فيحمل الرضيع على ظهر أخيه أو أخته الاكبر، أو تحمله الأم على ظهرها فيتعود على ذلك، و لا يمنع أمه من العمل في الحقل.

ربط الأطفال على ظهر النساء

من العجيب حقاً أن النساء اليابانيات كما ذكرنا قبل قليل يحملن أطفالهن على ظهورهن. فمهما كانت المرأة جميلة، فإنها تحمل وليدها على ظهرها. والنساء اليابانيات يلدن كل عام، وحينما يكثر الأطفال لا تستطيع الامهات أن تحملهم جميعا ولذلك تحمل وليدها على ظهر أخيها أو أختها ممن بلغوا الخامسة أو السادسة من العمر وتجد هؤلاء الاطفال في أماكن اللعب واللهو يحملون على ظهورهم اخوتهم الصغار. ويبدو الأمر عجيباً لمن يراه أول مرة. إنك تجد في البيت الواحد أكثر من ثمانية أو عشرة أطفال. ثم إن تطبيقات قانون الزامية التعليم أوجدت نوعا من التناسق في اطوال التلاميذ، فاطوال تلاميذ الصف الاول متساوية وكذلك في الصفوف الأخرى، ولن تجد تفاوتا في قامات التلاميذ في الصف الواحد.

رأيي في موضوع القامة

ما سبب قصر القامة عند اليابانيين؟ لقد فكرت في هذا الأمر كثيراً، والذي ينظر إلى هذا الأمر من خارج المجتمع الياباني، لايجد سببا ظاهريا. والواقع فإن علماء الطبيعيات عندهم لايجدون تفسيرا لذلك.ومع هذا فانه يبدو لي بأن حمل الاطفال خلف الظهور مدة طويلة له تأثير كبير

في ذلك؛ فالطفل منذ الأيام الأولى من ولادته، يكون معلقا خلف الظهور، والمرأة تجدها في أوقات الراحة والمشي وفي كل الاحوال تحمل وليدها خلف ظهرها. فالضيق الذي يتعرض له الطفل له دور كبير في عدم نموه.

وفيما عدا ذلك، فإن النساء اليابانيات ضامرات الاثداء دائما، ولذلك فان تغذية الطفل ناقصة، فلا يشبع كما يجب. والسبب في الضمور هو ربط الطفل على الظهر. وعندما يطول الأمد، يأخذ الوضع شكلا وراثيا.

انه مما لاشك فيه أن تعليق الطفل على الظهر له مضار عديدة، أما منافعه فلا تعوض الأضرار الناتجة عنه، إلا أن هذه العادة اصبحت لدى اليابانيين أمراً مفروغا منه ويصعب تبديله.

المســـرح

المسارح في اليابان معروفة ومنتشرة منذ عصور قديمة. والملاحظ أن المسارح أشبه بواقع حياة اليابانيين أنفسهم ؛ فالمسرحيات تمثل في النهار لا في الليل، كما أن إرتيادها ليس حكراً على طبقة معينة من الناس؛ فإنك تجد فيهم العوام والخواص والصغار والكبار، تجد الأسرة بكاملها من الأب والأم وحتى أصغر رضيع عندهم جالسين في قاعة المسرح وقد مدوا الحصير على الأرض، كل أسرة جلست وتحلقت حول موقد نار كما تجلس في بيتها ويأتيها طعامها عندها. وفي ماعدا المقصورات الخاصة فإن أسعار الدخول موحدة.

وعند باب المسرح يخلع كل واحد نعليه ويلبس نعلين آخرين وهو داخل. والمسرحيات في اكثرها تكون مستقاة من الوقائع التاريخية القديمة، ومن النادر أن تجد من بينها موضوعا دراميا. اما الباليه والفاوس فلا تجدهما عند اليابانيين. و الاوبرا يكون التأليف فيها محلي ولا يمثلون

المسرحيات المعروفة في أوربا. ولاتجد في اليابان مسارح على الطراز الأوربي. أما المسرح نفسه فيجري عليه مشهدان، فعندما يراد التمثيل للمشهد الأول يتم تبديل مفروشات المشهد الثاني، وعندما يختتم الفصل الأول ينقل ما يخص المشهد بكامله الى الخلف ليظهر المشهد الثاني بممثليه ومفروشاته أمام المتفرجين.

كان دخولي الى المسرح في بداية الأمر صدفة، فوجدته غريباً، لأنني لم أكن أعرف لغة اليابانيين. وعرفت فيما بعد أنهم خصصوا مكانا للاوربيين فأجلسوني هناك، ولم يطلبوا مني أن أخلع النعلين بل البسوهما قطعتين رقيقتين من البلاستيك الذي صنع خصيصا من أجل هذا الغرض؛ فهو يناسب الاقدام الصغيرة والكبيرة على حد سواء.

كنت وحيداً. جلست في المكان الذي أجلسوني فيه، ولم يكن هناك أحد غيري و لا أعرف شيئا من لغتهم. ولم يطل الأمر حتى فتح الستار وبدأت المسرحية.

وبالرغم من عدم معرفة اللغة وعدم فهم أي شيىء مما يقال فإن المفروشات و وضعية الممثلين وجلوس العوائل على شكل مجموعات كان درسا لي أهم من المسرحية نفسها؛ إنك لا تلاحظ أي تأثير أجنبي في مسرحياتهم، ثم إن التمثيل طبيعي جداً، فلا ملقن لهم، كما إن كل شيىء أعد على أساس وطني. كان تفكيري ينصب على هذه الأمور طوال الوقت الذي قضيته هنا. و لفت نظري أمر أخر و هو كثرة عدد الأطفال. فمع إن عدد الرجال لا يزيد عن مئتين، فإن عدد الأطفال يتجاوز الستمائة طفل. ومع ذلك فلم اسمع لهم ضجيجا حتى في وقت الاستراحة. لقد أثار هذا الأمر عجبي، و أمضيت هناك ثلاث ساعات كاملة.

وقال لي الرجل الذي أخبرني بإنتهاء المسرحية بأن مسرحية أخرى ستمثل بعد ساعة. و إن أردت البقاء فعلي الحصول على تذكرة جديدة.

كان هدفي مجرد المشاهدة و قد تمت، فلم أجد حاجة لمشاهدة مسرحية أخرى.

الملاهي الليلية في اليابان غير معروفة

كل شيىء يتم على هذا النمط عند اليابانيين، فحتى المسارح تعمل في النهار، ولاتجد في اليابان ماهو مألوف في أوربا من عالم الليل. كل الناس ينامون في الليل ويستيقظون مبكرين. ففي الساعة العاشرة او الحادية عشر مساءِ تصبح الشوارع خالية إلا من موظفي البريد والبرق فإنك تشاهدهم يمشون و بأيديهم مصابيح. لقد أكبرت في اليابانيين هذه الخصال، والحق أقول بأنها من أمارات حسن الخلق.

وخلال الفترة التي قضيتها في اليابان كنت أتجول دون توقف، أتجول في المدن والقرى و في الجبال و في كل مكان، و الاحظ طبائع الناس. فالتربية وحسن الخلق هما على درجة عالية في اليابانيين لا تجدها إلاعند أهل الإسلام. حتى إنني مررت بقرية ذات صباح فعرجت على مقهى فشربت الشاي، وعندما أردت القيام لم أجد صاحب المحل فتركت قطعة من النقود الى جانب الفنجان و غادرت المكان. تجولت طيلة ذلك اليوم، وعند المساء و أنا في طريقي الى طوكيو مررت بالقرب من ذلك المكان، سمعت صوتا من الخلف يناديني. نظرت فإذا بالمرأة صاحبة المقهى تسرع إلي، قلت في نفسي لعل المبلغ الذي تركته لم يكن ليكفي المطلوب، فهيأت نفسي لإخراج المزيد من النقود و لكنني فوجئت بالمرأة وهي تمد يدها ببعض النقود الصغيرة، أي أن المبلغ الذي تركته كان أكثر من المطلوب. أنظروا الى هذه الإستقامة و هذه الأخلاق. فالمرأة لم ترض بأن تأخذ اكثر من حقها، ومن المستحيل أن تجد مثل هذه الأخلاق في أوربا.

في الأرياف مرة أخرى

كنت في قرية إسمها هودوكايا وكان الموسم شتاءً، كنت أسأل كل من أصادفه عن أي أمر من الأمور. قابلت رجلا مسنا إسمه ماياتا و عرفته

بنفسي و قلت: إنني تتاري من روسيا. أما هو فقد ظنني روسيا. فقال لي من قبيل الإحترام: نحن نحب الروس، فلولاهم لما عرفنا قيمة أنفسنا.
وأضاف هذا القروي: أريد أن تخبرني هل الروس يعرفون قيمة أنفسهم؟.

إستحسنت كلام ماياتا. إنه قروي و مع هذا فبمقدوره أن يقول مثل هذا الكلام، فقلت إن الروس يعرفون قدر أنفسهم إلا أنكم خفضتم الأسعار.
ضحك ماياتا، و قال:

إننا نثني على الروس، إنهم قوم محاربون. لقد كانوا أساتذتنا، ومن الطبيعي أن يحترم المرء أستاذه، فما علينا إلا أن نحترم الروس. لقد عرفنا مكانتنا بفضل الروس، و على كل إمرىء أن يسعى جاهدا ليتأكد من مكانته و لكن الأمر لا يقتصر على العمل، بل يجب توفير الأسباب التي تساعد على ذلك.

-هل إشتركت في الحرب؟

-إن إشتراكي لا يهم. فإن رجلاً عجوزاً مثلي لايهم إشتراكه في الحرب. إلا أنني سعيد بانني نلت شرف مشاركتي الفئة السعيدة من امتي.

- أين كنت في الحرب؟

- إشتركت في معركة يالو، و وصلت إلى موكدن.

- أرجوا أن تقص لي حدثا أثار إستغرابك في هذه الحرب.

- إنني عجوز قروي. حتى القراءة لا أجيدها، لذلك فإنني أقتصر على رواية ما شاهدته بأم عيني. لقد شاهدت الكثير. وما بقي في ذهني إلا القليل، و سأروي لك قصة تاجر روسي شاهدته عند فتح موكدن، حيث قدم تضحيات في سبيل تحقيق أطماعه. فهل ترغب بسماع هذه القصة؟

-تفضل فأنا أستمع إليك بكل سرور.

-للحرب حالات غريبة. لقد شهدت قديما حروبا أهلية كثيرة في اليابان، وشهدت أول حرب ضد الأوربيين، لذلك فإن هذه الحرب كانت غريبة بالنسبة لي. فعندما تقع الحرب بيننا نحن اليابانيين، فإن هدف كل جانب هو هزيمة خصمه فلا يفكر أحد خلال الحرب باي شيء اخر. وقد تعودنا

منذ القديم بأننا إذا وجدنا قتيلا من جانبنا أو من جانب العدو، نسارع بأن نعرف هويته، فإن كانت له أموال أو نقود نحافظ عليها لنسلمها الى أوليائه. و في هذه الحرب مع الروس كنا نتبع العادة نفسها، لكننا لم نستطع أن نطبقها مع الروس بكل أسف. لقد إحتفظنا بأمانات الجنود الروس في خزينتنا وأرسلنا العناوين التي وجدناها بحوزتهم الى وزارة الحربية الروسية. إلا أن الروس لا يعرفون هذه العادة، فإذا وجدوا شيئا بحوزة قتيلهم نهبوه. بالاضافة الى أن الضباط و المسؤلين عن التموين ينهبون مايجدونه في الخزينة. لقد عرفت هذا في حرب يالو و لكنني تأكدت من ذلك عندما رأيته في نهاية معركة موكدن.كان هدفنا الأساسي في موكدن هو السيطرة على كوروباتيكن أو ليونيج و أظن بأن كل خسائرنا في موكدن كانت بسبب هذه الخطة، و إلا فلم يكن هناك أي داع للخسائر الكبيرة في هذه الموقعة، و أظن أن اليابانيين كانوا طماعين أكثر مما يجب، كما إن الروس غفلوا بعض الشيء فتركوا موكدن سريعا وفروا. و من المعلوم أن الجنود المنهزمين إذا تركوا موقعا عسكريا خلفوا وراءهم أموالاً كثيرة ؛ فبمجرد إنسحاب الجنود المنهزمين بدأ الناس ينهبون ما وجدوه هناك قبل وصول الجيش المنتصر. لقد حدث هذا في كل مكان وحاول جنودنا الحيلولة دون ذلك، و لكنهم لم يوفقوا، و تكرر الأمر في موكدن و سبق الناهبون جنودنا فنهبوا البيوت و المتاجر و كل شيء.

وعند احتلال موكدن دخلت المدينة بحكم وظيفتي مع القافلة الأولى ومن الطبيعي ان يهرب الناهبون عند دخول اول قافلة من الجيش النظامي. أما نحن فلقد سيطرنا على المدينة باحداث نقاط مراقبة في كل حي. لقد وجدنا المتاجر مفتوحة، و قد نهب كل شيء فيها، و قتل بعض السكان. كنا نجد الجثث البشرية في كل مكان، و باشرنا بإقامة حراسات على المراكز التجارية ثم فتشنا المواقع العسكرية، و توجهنا بعد ذلك إلى السوق ؛ فوجدنا أبواب المحلات و قد فتح بعضها وكسر البعض الآخر،

عايناها جميعها فلما وصلنا الى احد الابواب وجدناه مقفلا ومختوما وامامه جندي روسي يحمل بندقية. و عندما طلب منه الضابط التسليم رمى الجندي الروسي بندقيته وخلع ملابسه العسكرية وصار مدنيا ووقف أمام الضابط و قال له: لست روسيا و إنما أنا كرجي ولست عسكرياً بل تاجر، وهذا المحل ملك لي؛ فلما هرب الجنود الروس وبدأ الناهبون بالعمل، أغلقت متجري وختمت بابه ولبست لباس أحد الجنود وأخذت إحدى البنادق المتروكة وقلت للناهبين: إن محتويات هذا المتجر تتبع خزينة الدولة. لقد تركوني هنا كي أُسلمها لليابانيين. و هكذا إستطعت الحفاظ على أملاكي فلكم الخيار فإن أردتم فهذا مالي و مد مفتاح متجره و خاتمه إلى الضابط و هو يمسح دموع الحزن من عينيه.

قام الضابط بكتابة التقرير قبل فتح المتجر وسجل عليه بعض العلائم الخاصة التي ذكرها هذا الرجل وبعد التوقيع عليه فتحنا متجره فتأكدت لنا ملكية الرجل لهذا المتجر.وفي هذه الاثناء كان جنودنا قد أكملوا إحتلال موكدن.

وعندها قال الضابط قال للكرجي إفتح متجرك إن أردت ومارس تجارتك لكنك ستبيع بسعر معين. ستكون أرباحك في حدود عشرين في المئة و إلا فسنأتي بالشاحنة فتحمل أشيائك ليأخذك الضابط و تلتحق بالجيش الروسي. و عندها لم يقنع ضيفنا الكرجي بما حدده القائد و قال: كنت أبيع للجنود الروس بثلاثة أضعاف الثمن فإن سمحت لي أذهب إلى كوانجنزي.

وعلى الفور أمر قائدنا بإحضار شاحنات فحملت أشياءه و غادر بها موكدن ليلتحق بالجيش الروسي حيث أوصله جنودنا حتى الحدود.

وقد سألت هذا الكرجي في حينها كيف يبيع بثلاثة أضعاف الثمن.

قال الكرجي هذا البيع يقتصر على المواد التموينية مثل الخبز و البيض والزيت و غيرها كنا نحدد الاسعار بمعرفة القائد أما الخمور فإننا كنا نبيعها

بأسعار مرتفعة كنا نبيع زجاجة الخمر بمئة ضعف ثمنه و كان الضباط يعجبون من القناعة التي نحن فيها.

وبعد أن نقل لي هذه القصة أضاف هذا القروي العجوز قائلا:

-كنا نسمع مثل هذه الامور فلا نصدق لكننا تأكدنا منها بأم أعيننا فمثل هذا الفساد بين الجنود الروس يقع الكثير.

نعود إلى موضوعنا في عالم القرية

ذكرت قبل الآن بأن المعيشة عند اليابانيين بسيطة و متواضعة، ولا شك بأن الحياة في القرى أبسط و أكثر تواضعاً، خاصة في الأطعمة ؛ فإنها أبسط من البسيط. و الطعام الرئيسي عندهم، إذا صح أن نسميه طعام هو الرز المسلوق دون دهن أو ملح أو لحم أو خضار، ثم أنواع الحيوانات البحرية و أردأ انواع السمك أن وجد، و عروق الشجر. هذا يتم مرة أو مرتين في اليوم و الفطور في الصباح هو قراءة الصحف.

إن أفقر البيوت عندهم تشتري أول ما تشتري الصحف، إذ يمر بائع الصحف بالسيارة عند الفجر. و من القرى ما لا يتجاوز عدد بيوتها عدد أصابع اليد، و أكثر هذه القرى تكون بعيدة عن الطريق العام، و عندما تمر سيارات الصحف في محاذاة تلك القرى تترك صحفها على جانب الطريق. و ما أن تمر السيارة، حتى يسرع الناس بأخذ صحفهم. وفي بعض الايام تتأخر سيارة الصحف فيرسلون واحدا من كل بيت ينتظر على الطريق. ولا تجد في القرية رجلا أو أمرأة دون عمل، فلابد لهم أن يزاولوا أي عمل كان طوال النهار، ومهمة النساء في أكثر الاحوال التنظيف. والواقع فان معيشة القرويين تشبة اللهو، خاصة إذا رأيتهم وهم يأكلون بتلك الأعواد فإنه اللهو بعينه.

إنك لا تجد دواباً حتى في القرى، فالإنسان هو الذي يقوم بما يمكن أن يؤديه الحيوان من عمل. إنهم يقومون بالأعمال الشاقة و الوضيعة أيضا، لذلك فهم بحاجة ماسة إلى الإستحمام.

الحمامات عند القرويين

إن أكثر شيء يحبه القرويون هو الاستحمام. أما الحمامات عندهم فهي عبارة عن الماء الساخن. ففي كل قرية لابد من وجود عدد من الحمامات العامة، كما أن الحمامات تجدها في البيوت. و الحمامات العامة بسيطة جدا، ومشتركة بين الرجال والنساء، يفصل بينهم ساتر. ويمكنني أن أقول بأن مفهوم العورة وسترها غير موجود عند اليابانيين.

الحرف والتجارة عند القرويين

لقد تطورت الحرف في القرى اليابانية كثيراً. ففي كل قرية تجد الورش وبعض المشاغل الصغيرة. وحرفة صنع الخزف الصيني شائعة جداً. ولا أبالغ إذا قلت بأن كل قرية تجد فيها ورشا لصنع الخزف. و في كثير من القرى تعمل الورش بالطاقة الكهربائية. كما إن القرى التي تنار بالمصابيح الكهربائية ليست قليلة. أما في أيام الشتاء فإن أكثر القرى تمتهن النجارة.

وأما في الساحل فأكثر مايشتغلون فيه هو صيد السمك و إستخراج الزيوت، والتمليح والتجفيف و إنتاج الكافيار، وتدخين السمك وإعداد الأسماك للتصدير إلى أورباو أمريكا.

كنت أرى مثل هذه الأمور فأستغرب، ثم أعود بعد تجوالي في هذه القرى إلى طوكيو. وحتى في طوكيو لم أكن أضيع وقتي، بل أستغله في البحث عن معرفة، ففي بعض الأحيان أكتب مقالات للصحف، وأزور بعض المحافل. وفي إحدى المرات زرت الكونت ماتسورا MATSURA.

وقبل أن أذكر شيئاً عن شخصية الكونت ماتسورا، أريد أن أعطي فكرة عن الكونتات في اليابان:

الكونتات في اليابان

قبل خمسة وأربعين عاما كان الحكم في اليابان بيد حوالي ثلاثمائة من الإقطاعيين، ولكل إقطاعي حدوده المعترف بها، وإستقلاله الذاتي في شؤونه الداخلية. وتقع بين هذه المقاطعات حروب في بعض الأحيان، فتنتصر أحداها و تنهزم الأخرى، و لكن هذه المقاطعات بمجموعها تتبع العاصمة كيوتو التي تقيم فيها الأسرة المالكة «تينشي ساما TENSHI SAMA» أي المقدسة. أما الشؤون الخارجية للمملكة تتبع الإمبراطور، كما يقوم بفصل المنازعات و عقد الصلح بين المقاطعات.

وقبل حوالي خمسين عاماً كانت أكبر الامارات هي إمارة توكوغاوا كيكي TOKUGAWA KEIKI التي مركزها مدينة طوكيو. و لما توفي والد الإمبراطور موتسوهيتو MUTSUHITO كان عمره خمسة عشر عاماً، فلم تعترف به إمارة كوكو إمبراطوراً، فوقعت معارك بين الامارتين إنتصرت فيها قوات توكوغاوا كيكي، فاعترفت بالامبراطور الجديد بشرطين أولهما نقل الأسرة المالكة من كيوتو الى طوكيو واعتبار ذلك التاريخ بداية عهد الميكادو موتسوهيتو. و ثانيهما: تحويل كل الإمارات إلى محافظات تتبع الإمبراطورية الواحدة وتسمية امراء تلك المحافظات بالكونتات، تكريماً لهم. فكل الكونتات الموجودين في اليابان حالياً هم أمراء سابقون. وصديقي الكونت ماتسورا هو أحدهم وأكبرهم وأقواهم نفوذا في اليابان.

والآن أعرض على القراء الكرام ماجرى في لقائي بالكونت ماتسورا وما رأيته في تلك الأسرة اليابانية العريقة.

قبل كل شيء أتكلم عن بيت ماتسورا الذي بني قبل خمسمائة عام وعن حديقته حيث يوجد في وسطها حوض كبير جدا تحيطه أبنية قديمة، وعندما ذهبت لمقابلة الكونت ماتسورا، إستقبلني إبنه لدى الباب،

وأجلسني في صالة الاستقبال و قدموا لي الشاي الذي يشربه اليابانيون دائما. عرفته بنفسي عن طريق الترجمان مبديا رغبتي بلقاء الكونت.(وابن الكونت شاب مؤدب أكمل دراسته الجامعية).

وبعد استراحة بضع دقائق ذهب ليخبر والده. قال له والده: ليسمح لي قدر نصف ساعة فإنني مشغول جداً، وليتفضل إلى غرفة الإستراحة. جاء إبنه وأخبرني بما قال، ودعاني إلى غرفة الإستراحة، فذهبنا سوية إلى هناك.

وبعد خمس دقائق جاءت إمرأة، و إنحنت أمامنا إحتراماً ثم بدأت تشغل نفسها بالموقد وبالأقداح، كنت أتابع حركاتها بدقة، عرفت فيما بعد بأن تلك المرأة هي فتاة جاءت لإعداد الشاي، كانت طريقتها في إعداد الشاي غير مألوفة، بدأت أشم رائحة تشبه رائحة المسك. وهذه أول مرة أرى فيها مثل هذه الطريقة في إعداد الشاي ولم أسمع بها من قبل. ولم يستغرق أعداد الشاي أكثر من عشر دقائق، تقدمت بعده الفتاة زاحفة على ركبتيها وقدمت لنا أكواب الشاي (والنساء اليابانيات لايقفن أمام الرجال على أرجلهن) تناولت الكوب، كانت رائحة الشاي تفوح في أرجاء الغرفة، فعجبت لذلك وقلت: أعرف بأن سؤالي عيب ولكنني أعتذر سلفاً فأنا غريب أريد أن أعلم.

ماهذا؟ وأشرت الى الكوب، و من هي التي قدمته لنا؟

قالوا: - إن التي تشرفت بتقديم الشاي لك هي كريمة الكونت ماتسورا.

كان الشاي من النوع الذي تختص به القصور الامبراطورية، و لا يعرف هذه الطريقة في الاعداد سوى الفتيات اللواتي تعلمنه في القصر بصورة مخصوصة. وأسرة الكونت ماتسورا تنتسب الى القصر.

- مثل هذا الشاي أراه للمرة الأولى في اليابان ولم أجده في أي مكان آخر.

قال ترجماني ناكاياما: لقد قدم إكراماً لك، كنا نسمع عن هذا الشاي ولكنني أشربه لأول مرة على شرفك، لذلك فاني أدين لك بالشكر.

ولم تمض نصف ساعة حتى جاء ابن الكونت ماتسورا وأبلغنا بأن والده ينتظرنا في صالة الاستقبال. عدنا الى صالة الاستقبال فوجدنا الكونت واقفاً على قدميه، جلس وطلب منا الجلوس، وبعد الترحيب قال: انني أحس بأنك قريب مني لذلك فإنني استقبلتك وفق أصولنا و عاداتنا، و إلا فإنني أعرف العادات الأوربية، لقد بقيت بعض الوقت في أوربا وأمريكا. إن القيام وعرض الجسم أمام الضيف لا يعتبره اليابانيون إحتراما له، بل إننا نحترم ضيوفنا بأن نقف أمامه مكتفين من لحظة دخوله، منتظرين مايأمر به. إضافة لذلك إن الإنسان يعتبر عادات قومه مقدسة عنده، وهي هي عاداتنا نحن اليابانيين، ولا نفكر في أي وقت من الأوقات في تغيير عاداتنا القومية.

لقد سررت جدا بتشريفك لي. إن الأقوام التتارية والتركية هم إخواننا في العرق، كما أن كوننا شرقيين جميعاً و كل هذه تعتبر من أقوى الروابط التي تجمعنا في وقتنا الحاضر، ولذلك فلا أبالغ إن قلت بأن هذا اليوم بالنسبة لي هو يوم عيد. ثم انني أكن حبا لآل جنكيز، ولي نوع من الاختصاص في الأقوام التتارية، وقدومك وأنت الرجل المسن من أماكن بعيدة لزيارتي جعلني أمتن لك كثيراً. و لست أنا وحدي، فإن كل الأمة اليابانية تكن لك المودة، فالمقالات التي تكتب يومياً في صحفنا زادت من شغف الأمة اليابانية بك، وآمل ألا تكون زيارتك مجرد لقاء ينسى غداً، مثلك مثل أي سائح أوربي، بل سيكون لها اثر في قلوبنا يبقى مدى الحياة، كما سيسجل أسمك في التاريخ الياباني رمزا لعلاقات الصداقة بين الأمتين، ونعلمه أطفالنا في المدارس أبد الآبدين. انني أبشرك منذ الآن بأنه سيكون كما ذكرت.

شعرت بالحرج الشديد من كل هذا الاطراء الذي خصني به الكونت ماتسورا، فشكرته، واعتذرت بقدر ماأمكنني أن أعبر و قلت: إن تفضلك باستقبال رجل غريب مثلي، وتكريمك لي هو أثر من آثار فضلك وكمالك، والواقع فإنني عاجز عن التعبير عن شكري لما لقيته من الشعب

الياباني منذ شهر. وإنني لعلى يقين بأن هذا التكريم الذي ألقاه هو تكريم لشرف أمتي، ومع ذلك فإن هذا الشعور بالإحترام و التقدير تجاه شعب يئن تحت قيود الاحتلال منذ عصور طويلة من أخ له في الدم، لهو دليل على عظمة وكمال الأمة اليابانية.

- لا! إننا كنا نظن أنفسنا راقين ومتحضرين... أعترف بأن لنا مكانة سطحية في التحضر والرقي، وأكرر بأنها سطحية. لقد تجولنا في كل أنحاء أوربا بحثاً عن الحضارة والمعرفة، لكننا وبكل أسف نسينا اخوة لنا في الدم يعيشون بجانبنا، ولم يخطر ببالنا يوما بأن لنا قرابة هناك، ولولم يأت التتار هذا اليوم ليبحثوا عنا، و لولم تأت إلينا، فلا يعرف أحد كم من الوقت كنا غافلين عن إخواننا التتار. الحقيقة إنه كان من الواجب علينا أن نبحث عنكم، فبحثكم عنا أخجلنا، و لكنه في ذات الوقت سبق فضل وشرف لكم.والتتار سبقونا بتعريف الشرق للأوربيين وتعريف الشرقيين ببعضهم، وسنكون من المعترفين بفضلكم حتى تستمر العلاقات بيننا لنعمل جميعا على خدمة الشرق ومستقبله.

وتعقيبا على ذلك كررنا شكرنا الخالص، وتكرر تقديم أكواب الشاي والفواكه، واستمر الحديث قدر ساعة، سأل أثناءه الكونت ماتسورا عن أحوال المسلمين في روسيا وعددهم، ومدى علاقتهم بالدين وارتباطهم بمقام الخلافة.

فقلت:" هنا سأتردد بالجواب على سؤالك الأخير، لأن هناك جانب تقتضيه الشريعة وجانب هو واقع الحال، فلم أعرف أي الجانبين قصدت.

قال الكونت ماتسورا: هدفي الاستزادة من المعرفة و سأكون مسروراً لو تفضلت بالكلام عن الجانبين.

- حسنا، إن في الدين الاسلامي أمر إسمه الخلافة، ففي البداية يجب أن أشرح ماحقيقة الخلافة. الخلافة تعني من الناحية الروحانية نوعاً من الرئاسة الدينية. و الواقع إن الإسلام يشمل الجانب السياسي من الحياة أيضا، لذلك فان الرئاسة جمعت السياسة أيضا، و عليه فان الرجل الذي

يمثل مقام الخلافة يعتبر رئيساً دينياً و سياسياً في بلاده و مملكته، وهو في نفس الوقت رئيس ديني للمسلمين في البلاد الأجنبية.

وإعتراف كافة المسلمين بالخليفة و طاعتهم له تعتبر من الواجبات الدينية، فكل مسلم مكلف بمعرفة إمامه والبيعة له. و هناك حديث نبوي ينص على أن كل من مات وليس في عنقه بيعة لإمام فقد مات على ضلالة. و عليه فإن كل مسلم أياً كان و في أي بلد يقيم يبايع إمامه ويرتبط به قلبيا و إن لم يظهر ذلك أمام الناس. و لما كان ذلك من المعتقدات الوجدانية التي يفرضها الدين فانه ليس بوسع أحد أن يحول بين المسلم وبين ذلك الإرتباط و الولاء.

ولذلك فإنه كلما زاد تسلط الأوربيين على العالم الإسلامي زاد اعتداؤهم على حقوق المسلمين الدينية و القومية، و كانت النتيجة أن ضعف ارتباطهم المادي بمقام الخلافة، وأخص بالقول المسلمين الذين تحكمهم روسيا، فقد أضاعوا مزيدا من حقوقهم المشروعة ومع ذلك فإن رابطتهم المعنوية لم تتأثر أبداً، و لن تزيل هذه الرابطة أي قوة على وجه الأرض. فإذا كانت هناك قوة يحق للمسلمين الإعتزاز بها فهي هذه الرابطة، ولذلك فإن جميع المسلمين على هذه البسيطة جسد واحد. و قد يأتي يوم تحول العناية الالهية هذه القوة المعنوية إلى قوة مادية. و مهمة المسلمين بعد اليوم هي تحقيق هذا الهدف.

قال الكونت ماتسورا: إنني ممتن لك بهذا اللقاء، وآمل أن يتكرر، فنستفيد من علمك، إن أبوابنا مفتوحة لك في كل وقت، كن على يقين بأننا سنسر إن كررت الزيارة.

وبعد ذلك ودعنا الكونت ماتسورا وغادرنا منزله وتوجهنا مباشرة إلى منزل صديقنا المترجم ناكاياما.

شوغي ئن - المجلس النيابي

من المعروف بأن اليابان يطبق فيها الحكم الدستوري. وقد تأسس هذا النوع من الحكم قبل ٢٢ عاماً، فكل شوؤن الدولة تحكمها قوانين وضعها النواب الذين يمثلون الأمة. وهناك مجلس للأعيان ويسمونه «كيزوكي ئن».

والميكادو يلتزم بالقوانين بالقدر الذي يلتزم به أي فرد من أفراد الأمة، ولا يتصرف خلافها في أي وقت من الأوقات. ومع ذلك فإن اليابانيين ينظرون إليه نظرة تقديس، حتى قيل لي بأنه قبل عدة سنوات رفعوه إلى مقام الألوهية و لكن الميكادو نزل عن هذا المقام. و مع ذلك فلا يبدي اليابانيون أي تقصير في احترام و تقديس مقام الإمبراطور، فلو أمر الميكادو بشيء فمن الواضح أنه لا يوجد من يعترض على أمره هذا. ومع ذلك فان الامبراطور لايتدخل في شؤون الحكومة إلا بمقدار ماتمليه عليه وظيفته. إنني حضرت بعض جلسات مجلس النواب (شوغي ئن) وكذلك جلسات مجلس الأعيان (كيزوكي ئن)، ولي من بين أعضاء المجلس النيابي أصدقاء كثيرون. ويمكنني أن أقول بأن من بينهم تلاميذ لي، ولذلك فإن أبواب المجلس النيابي كانت مفتوحة لي في كل وقت.

مبنى المجلس النيابي

مجلسا النواب والأعيان، هما في مبنيين خشبيين بنيا مؤقتاً قرب حديقة هيبيا، و إن جميع الخدمات التي أدياها للأمة كانت في هذا المكان. إن القسم الأكبر من أعضاء مجلس النواب يرتدون ملابس وطنية. يلبسون جوارب بيضاء و نعالاً في أرجلهم، و عدد أعضاء النواب ٣٧٢ (يمثلون

السكان البالغ عددهم ٥١ مليوناً) ورئيس المجلس هو هاسيبا HASIBA أما أمين السر فهو هياشيتا HAYASHITA.

حضرت مناقشات المجلس عدة مرات، وكانت المرة الأولى التي حضرتها هي جلسة الثامن عشر من فبراير (شباط). وكنت في حينه طلبت من النائب توميزو TOMIZU معلومات عن بداية إفتتاح المجلس النيابي. فأجابني البروفسور توميزو: يمكنني أن أعطيك بعض المعلومات عن تاريخ تأسيس المجلس، إلا أن المعلومات التي سأعطيها لك ستكون سماعية، والأفضل لك أن تطلب هذه المعلومات من الأمير إيتو ITO ، فستكون لها أهمية خاصة لأنه الرجل الوحيد الذي خدم تأسيس المجلس النيابي. لقد كان له فضل السبق بهذه الخدمة مدة عشر سنوات. و لقد صرف جهوداً في سبيل تنظيم المجلس، لذلك قام بدراسة كافة القوانين والنظم المعروفة في الدول الاوربية الكبيرة و أخذ منها مايتناسب مع العادات القومية للشعب الياباني، وهكذا ظهر الدستور للوجود، فإن وجدت فرصة مناسبة فستحصل من الأمير إيتو على معلومات موسعة. وفي واقع الحال فإن المعلومات التي ستحصل عليها من الأمير إيتو لن تكون لك فقط بل ستكون معلومات لها قيمة في التاريخ العالمي نتشرف بتقديمها.

وعلى أثر ذلك قررت الحصول على معلومات من الأمير إيتو حول تشكيل المجلس النيابي. أما الآن فإنني سأقدم للقراء الكرام بعض المواضيع التي جرت مناقشتها في الجلسة الاولى التي حضرتها وكذلك المعلومات التي حصلت عليها من البرفسور توميزو حول مكانة المجلس النيابي الحالي.

في الساعة الثانية عشر والنصف من يوم الثامن عشر من فبراير كنت في المجلس وبدأت المناقشات. قضيت بعض الوقت مع صديقي ساساكي نائب طوكيو وسألته عن الموضوع الذي سيناقش في المجلس. فأخبرني ساساكي أن هناك بعض الإيضاحات من مدير المالية و أظن أن المناقشات ستستمر حول هذا الموضوع إن لم يكن هناك أحد يطالب ببحث شئون

المهاجرين اليابانيين في أمريكا. وفي تمام الساعة الواحدة كنت في المكان المخصص للاجانب وكان النواب مجتمعين في صالة المجلس وشاهدت هاسيبا سان في كرسي الرئاسة، أما في مقاعد الوزراء فكان هناك رئيس الوزراء كاتسورا KATSURA ووزير الخارجية كومورا KUMURA وبعض اعضاء مجلس الشورى وكبار رجال الدولة، وكانت بعض الاماكن المخصصة للنواب خالية.

في البداية قدم أحد موظفي المالية توضيحاً مقتضباً. فلم يعترض عليه أحد، وبعد ذلك تقدم كاوا هارا إلى منبر الخطابة، فاستقبل بالتصفيق و قال:

أيها السادة، إن السياسة التي تتبعها الولايات المتحدة الأمريكية حيال المهاجرين اليابانيين هو ظلم لمهاجرينا هناك و إهانة و إذلال لأمتنا. وإستنادا إلى الأخبار الموثوقة التي وصلتني من كاليفورنيا وبعض الولايات الأخرى و بعد أن تكلم قدر ساعة ختم كلامه قائلا: إنني مقتنع بهذه الحقائق المرة، فلا يجوز لحكومتنا أن تسكت أبداً على هذا الموضوع، ففي أي بلد يقيم فيه اليابانيون، و إن كان يابانياً واحداً، فان حقوقه الشخصية تعتبر بالنسبة لنا حقوقا وطنية. إنني لا أجد مبرراً لسكوت الحكومة في هذا الخصوص. و إذا سكتت الحكومة فلن تسكت الأمة. إن أساطيلنا موجودة لحماية شرف أمتنا، وجيشنا هو للدفاع عن حقوق اليابانيين المشروعة..

وغادر كاواهارا المنصة وسط تصفيق طويل، ثم رفع الرئيس الجلسة للإستراحة. وفي أثناء الإستراحة جاءني البروفسور توميزو، فتبادلنا الآراء في بعض الأمور، ولما انتقل الحديث إلى الحكم الدستوري المقيد قال توميزو؛ ليس من الضروري أن يؤدي الحكم الدستوري إلى الحرية التامة، و إن مجرد وجود البرلمان لا يعني تطور ورقي البلاد. فالمجلس النيابي والحكومة قوتان كبيرتان داخل البلاد، و تصادمهما يؤدي إلى الإضرار بالمملكة، والحكومة الآن تمسك بزمام الأمور في البلاد، فلا ينفع معها

قرار المجلس النيابي في بعض الأحيان، وذلك لأن مجلس الأعيان عنده سلطة نقض قرار المجلس النيابي، و الأعيان بيد الحكومة. ان مكانة كثير من الشخصيات المنتخبة من قبل الأمة والملتزمة بخدمة قضاياها، تكون هدفاً للمسؤليات الكبرى في كثير من الأمور.

إن أكبر المشاكل عندنا هي المشكلة الاقتصادية، أو لنقل إنها مسألة الحياة المعيشية. فالأرض قليلة، و الشعب فقير، وليس هناك خدمات، ولا تردنا أموال من الخارج، والجمارك ثقيلة، وليس عندنا ما نصدره، وحاجة الأمة إلى المال كبيرة، ويبدو أن الحكومة قد نسيت هذه الأمور، والحكومة أيضا تحتاج إلى المال. ولذلك فإننا أردنا إجازة قانون مقامرة تقام أثناء مسابقة الحيوانات الآلية مرتين في العام، وقد أقر مجلس النواب هذا الإقتراح إلا أن مجلس الأعيان نقضه، لأن مجلس الأعيان هو بيد الحكومة دائماً.

قلت: أمر عجيب، ماذا ينتظر من مسابقة الحيوانات الآلية؟...

وفي هذه الأثناء قرع الجرس ؛ ودخل أعضاء المجلس، فلم نجد وقتا للحصول على اجابة لسؤالنا. وكانت الجلسة الثانية حامية، غير أنني بسبب قلة المامي باللغة لم أفهم كثيراً من الأمور، و كل ما يهمني الاطلاع على بعضها.

الشرطة داخل المجلس النيابي

وأرى الوقت مناسباً أن أضيف بأن على كل باب من أبواب المجلس شرطي. إنني لم أفهم معنى وجود الشرطة وكنت أتصور بأن هذه الحالة موجودة في أي بلد من بلدان العالم، وذلك لأن النواب في كل بلاد العالم لهم مطلق الحرية ليس في داخل المجلس وإنما في داخل البلاد أيضا. وحتى أعضاء الدوما في روسيا وهم دون النواب درجة، لهم الحرية الكاملة في التصرف داخل الدوما، حتى أن بوشكوريج عضو الدوما

المعروف بسوء الخلق، عندما تعدى حدود الأدب داخل المجلس، قرر الأعضاء الآخرون إخراجه من المجلس بناء على إقتراح من رئيسه غولاوين، فلم يخرج بوشكوريج من تلك الجلسة برضاه، إلا أنهم لم يطلبوا الشرطة كي لايلوثوا سمعة المجلس، بل قرر رئيس المجلس تعليق الاجتماعات إعتباراً من ذلك اليوم، وخرج بوشكوريج مع من خرج من النواب. أي أن مجلس النواب يكون دائماً بمنأى عن تدخل الشرطة.

أما اليابانيون فإنهم جعلوا للشرطة مكاناً دائماً في المجلس، وهذا وضع مغاير لكل القوانين الحضارية.

نعود الآن إلى موضوعنا: في الجلسة الثانية قابل أعضاء المجلس خطب المتكلمين بالتصفيق الحاد. وأظن بأن الخطب كانت قوية، لدرجة أنه أثناء التصفيق لأحد الخطباء، أخذت الحماسة أحد المستمعين من غير النواب فصفق، فجاء شرطي وأخرجه من المجلس. وبالرغم من عدم أهمية الشرطة داخل البلاد، فإن لهم مقر دائم في مجلس النواب. ولكن ماسبب هذا الوضع، سألت كثيراً من الناس، فأجابوا بأنها عادة متبعة.

الجمعيات في اليابان

الجمعيات في اليابان كثيرة، و يكاد نشاطها يشمل جميع شؤون الحياة؛ فكل حرفة أو مهنة لها جمعية خاصة بها: جمعية المؤرخين، جمعية الحفاظ على الأخلاق الوطنية، جمعية حماية الوطن، جمعية طوهو شوغي TOHOSHUGI (أي جمعية المقتصدين) جمعية الكسبة، وكل انسان يلتزم بجمعية خاصة بمهنته.

وجمعية طوهو شوغي إحدى هذه الجمعيات و من أكبرها. و«طوهو شوغي» تعني جمعية السائرين على الأقدام، أي أنه ينبغي الاقتصاد في كل شيء حتى أن الأعضاء عليهم ألا يركبوا الحافلة إن لم تكن هناك ضرورة،

ويجب المشي على الأقدام، توفيراً للمال. هذا هو الهدف، والمبلغ المتراكم من هذا التوفير يصرف على مصالح الشعب، فكل شيء للمصلحة العامة.

وللجمعية جريدتان ناطقتان باسمها، وهما تصدران في العاصمة طوكيو، إحداها «ياماتا» وتصدر مرتين يومياً، و الأخرى «طوهو شوغي» وتصدر أسبوعيا. إن هدف الجمعية العمل لمصلحة الفقراء والمحتاجين ورئيس هذه الجمعية هو أوميهارا، وهو من أشهر الشيوخ اليابانيين. إن عدد أنصاره يتجاوز المائة ألف. لقد توطدت الصداقة بيننا، ودعاني للطعام عنده عدة مرات، و في احدى المرات أرسل بطاقة كبيرة على شكل «كرت بوستال» وكانت هذه الدعوة في حي كانداباشي وهو من أشهر الأحياء في طوكيو. وقد ألقى كلمة إستمرت ساعتين ونصف. وسيرد نص هذه الكلمة في الكتاب في حينه تحت عنوان: «خطاب كانداباشي».

وبعد انتهاء الكلمات، قدم الطعام. وقد وثقت المأدبة في صورتين. في الصورة الأولى: أنا وبركة الله (من علماء الهند) و أحمد فضلي من شباب مصر، و إنجليزي إسمه توماس بريئان.

والصورة الثانية اثناء المأدبة، ولكن ضمت الصورة نصف الحاضرين فقط، أما النصف الآخر فلم تسعهم الصورة.

إن أخبار المآدب و الكلمات التي ألقيت فيها نشرت بكاملها في صحف طوكيو

لقاء آخر مع الكونت أوكوما

وذات يوم التقيت ثانية بالكونت أوكوما. و جرى بيننا الحوار التالي:
الكونت أوكوما:- كيف أنت، هل تستطيع فهم لغتنا اليابانية؟
- إنني رجل عجوز، لكنني أستطيع التعبير عما أريد، أستطيع التجول في القرى دون الحاجة إلى مترجم.

- يقول اليابانيون: إن التعبير عن الحب لايحتاج إلى لغة. إن اللغة اليابانية ليست لغة صعبة والصعوبة هي في الكتابة.
- نعم إن كتابتكم صعبة جداً، و لكن خط «كاتا كانا» ليس بصعب كثيراً ومع ذلك فان «كاتا كانا» لا يكفي.
- ولكن إذا كنت تعرف الكاتا كانا فهذا يفي بالغرض من أجل الكتابة أما الباقي فهو ضروري للكتابات الأدبية.
ثم قلت: أريد أن أعرف منك بعض الأمور، ما رأيك في مستقبل اليابانيين؟ هل يمكن لليابانيين أن يكونوا دولة كبيرة في المستقبل؟ إن النمو السكاني عند اليابانيين كبير، فعدد السكان يزيد مليونا كل عامين و سيكون عدد سكان اليابان خلال عشر سنوات خمسة ملايين أو أكثر و الأراضي الموجودة حاليا لا تكفي السكان، وهناك عدد كبير من اليابانيين العاطلين عن العمل فكيف يكون الحال بعد ذلك؟ ألا تلاحظون هذه الامور؟
- نعم لا شك في ذلك، ليس الأمر بعد خمس سنوات، بل إن اليابانيين يحتاجون إلى أراضي إضافية منذ الآن. نحن نفكر في هذه الأمور. إننا بعد خمس سنوات سنحتاج إلى أراضي إضافية ليس في كوريا وحدها بل في منشوريا و منغوليا، و ليس هذا فحسب بل سيكون هدفنا الإنتشار في جزر المحيط الهندي أيضاً.
- ألا تكون اليابان مستقبلا هدفا لهجوم أوربا؟
- مهما كان الأمر فإن الضرورة لها أحكام و إن حياتنا نحن اليابانيين ستكون بعد الآن على حد السيف وعلى فوهة المدفع.
- لقد سألت هذه الاسئلة لانني أفكر في هذه الامور كثيراً، في الواقع إنه خطر لي بأن الغربيين الذين نسميهم بالأوربيون يبحثون عن منافعهم عن طريق الاضرار بمصالح الآخرين و إنهم يريدون الحياة على أشلاء غيرهم ولايترددون ابدا في التضحية بكل شيء من أجل أن يعيشوا هم، و إن ضمائرهم توائم هذه الاحوال التي ذكرتها ولايريدون أبداً أن تكون هناك قوة تقف في وجههم. و إذا كان الوضع كذلك ألا تراهم يفكرون بعمل

شيء للاضرار باليابانيين؟ و إذا قلنا بشكل أوضح ألا يقوم هؤلاء بأعمال عدائية ضد اليابان؟

- إن الغرب لايريد أبداً أن يظهر منافس أقوى منه، و هذا أمر طبيعي، وهمهم ألا يظهر في الشرق من ينافسهم في القوة، و هذا هو سر خوفهم من العرق الأصفر. إلا أن واجبنا هو أن نعمل من أجل مصالحنا. إن لليابان اليوم مكانة، وكلنا أمل في الحفاظ على هذه المكانة وتدعيمها مهما أمكن.

- كانت للحكومة التركية مكانة كبيرة جداً في مواجهة الأوربيين، وفي تلك الفترة كان عدد السكان في الامبراطورية حوالي سبعين أو ثمانين مليونا، وكانوا مهابين الجانب في البر والبحر، وكان مستقبلهم مشرقا. إلا أن ذوي الحس المرهف من الأوربيين لاحظوا ذلك، فقام مراقبوهم الدبلوماسيين باستغلال الفرص لوضع العراقيل أمام الأتراك وهم لا يشعرون، وخلال مدة مائة وخمسين عاماً آلوا إلى ماهم عليه الآن، إنه من الصعب بعد الآن أن يفكروا بعقولهم، لأن الأوربيين سروا في أرواحهم، وأفسدوا أخلاقهم، فصاروا جسدا بلا روح، فما الذي يمنع الأوربيين من القيام بالشيء نفسه ضد اليابانيين؟

- لاشك بأنهم سيفكرون بنفس الشيء ضد اليابانيين، لأن التهديد الحاصل هو قضية حياة أو موت، ولكن اليابانيين لهم خصائص يفتقدها الأتراك، فاليابانيون أولاً شعب واحد، خمسون مليوناً من البشر يخدمون فكرةً واحدةً، و يمكنهم إذا اقتضى الأمر أن يعدوا خمسة ملايين جندي ويسلحوهم ويوجهوهم أينما شاؤوا. ولا شيء أسهل من التضحية بالنفس من أجل الوطن، فان قيل: سر إلى الأمام فلن يتردد أحد في السير رجالاً كانوا أو نساءاً. إن الحرب مع الروس أثبتت ذلك، ففي الحرب التي دامت عاماً لم يتراجعوا خطوة الى الوراء. لقد أثبت اليابانيون ماأقوله. فالعقيدة الراسخة عند اليابانيين من القديم هي عدم جواز الرجوع إلى الخلف، ولذلك فانهم عندما كان يحارب بعضهم بعضا تعودوا على أن

يكون الغالب هو الذي يطالب بالهدنة.كما إن لهم خصائص أخرى تختلف عن خصائص الأتراك ومهما سعى الاوربيون فإنهم لن يتمكنوا من الحط من مكانة اليابان الحالية.

ومع ذلك فقد اَن الآوان لأن يستيقظ كل الشرق. سنأخذ كل هذه الأمور بعين الإعتبار. ثم إن السبب الرئيسي لغفلة الأتراك هو إن أعداء الأتراك كانوا غافلين أيضاً في حين نجد أعداء اليابانيين يقظين دائماً. الأعداء مستعدون دائما ويقطعون كل يوم مسافة معينة ولذلك فإن اليابانيين أيضا لا ينامون، إلا إن واجبنا هو السعي وبذل الجهد".

في مثل هذا الجو إستمر نقاش طويل سجلت منه بقدر ما إستطعت أن أحفظه في ذاكرتي وكانت هذه خلاصة ماقيل، و بعدها قلت للكونت اوكوما:

- أريد الإطلاع على أوضاع اليابانيين التاريخية و خاصة على أوضاعهم الحالية و تاريخ الحكم الدستوري عندهم، و قد نصحني بعض أصحابي بأن التقي بالأمير إيتو للحصول على مثل هذه المعلومات منه.

- إن مؤسس القوانين عندنا هو الأمير إيتو وإن التقيت به فستحصل على معلومات قيمة، بالاضافة إلى أن لقائك بالامير هو من الذ ما يكون فهو اليوم اكبر الشخصيات اليابانية، فإن رغبت فسأكتب لك توصية فإنني أحد أقدم أصدقائه.

- إن تفضلت بذلك أكون لك من الشاكرين.

- ليس بيننا أي تكلف، و إن إلتقيت بالأمير إيتو مرة واحدة فيمكنك اللقاء به في كل وقت ودون تكلف، و سأكتب كتاب توصية و أرسله لك غداً. أين ستكون غداً؟ في طوكيو أم يوكوهاما؟

-سأكون غداً في يوكوهاما، لأنني سأحضر الليلة إجتماعاً هناك و سألقي فيه كلمة.

وبعدها شربنا الشاي في حديقة الكونت أوكوما، وتجولنا فيها بعض الوقت، وحديقة الكونت أوكوما من أشهر الحدائق في طوكيو، ثم ودعته،

وتوجهت مباشرة إلى يوكوهاما، و حضرت الحفلة المسائية التي أقيمت بمناسبة الذكرى السنوية الخامسة والعشرين لتأسيس مدرسة هونجو.

مدرسة هونجو HONJO

إنها مدرسة إبتدائية تأسست قبل خمسة وعشرين عاماً. لقد ذكروا لى الخدمات التي قدمتها هذه المدرسة للأمة خلال هذه المدة: يجب ألا ننسى كونها مدرسة إبتدائية. لقد درس فيها خلال هذه المدة ١٢٣١٤ طالبا تخرج منهم ٧٠٨٦.

والأمر الملفت للنظر: هو أن الخدمات التي قدمتها هذه المدرسة الإبتدائية خلال خمسة وعشرين عاما معروفة للجميع. وأظن بأن الخدمات التي قدمتها مدارسنا الرشدية والإعدادية غير معروفة كثيراً. فالطلاب درسوا فيها وغادروها و إحصاؤهم عند الله.

لقد حضرت الحفلة و تكلم فيها المدير أولاً، و تناول تاريخ التأسيس، ثم أعقبه كثير من الشخصيات فأثنوا على خدماتها بعبارات مختصرة. ولما جاء دوري تكلمت فقلت:

لاأجيد الكلام باللغة اليابانية ولم أكن لأرغب أن أصدع رؤوسكم، إلا أن تكريمكم لي يحتم علي بأن أقول بضع كلمات.

ان خدمة العلم والمعرفة هي أكبر الخدمات، وأعظم القوى هي قوة العلم والمعرفة. لكن العلم لا يكفي لبقاء الأمم، بل يجب أيضا الحفاظ على الأخلاق الوطنية والحمية القومية. فالفرنسيون اليوم يملكون العلم ويملكون كل شيء إلا أنهم محرومون من الخلق، لذلك فهم أمة حكم عليها بالانقراض. و سينقرض الفرنسيون عاجلاً أو آجلاً. إن فرط محبتي للشعب الياباني يحتم علي أن أقدم نصيحة مخلصة: ابذلوا كل جهد للحفاظ على «ياماتا تاماشي» (الأخلاق الوطنية) بنفس الحماس الذي

تجاهدون به لتملك المعرفة والعلم، فلا بقاء لأمة إلا بحميتها الوطنية. لقد انتصر اليابانيون في الحرب الروسية بفضل حميتهم الوطنية. وأكتفي بهذا. وفي اليوم التالي كنت ضيفا في منزل «ياماموتوYAMAMOTO» فجاءنا ساعي البريد برسالة، و بشيء آخر داخل مظروف كبير مربوط بخيط ومختوم.

نظرت فاذا هي من الكونت أوكوما (وزير الخارجية السابق) أرسل صورته، و توصية إلى الأمير إيتو.

وأعرض هنا صورة للرسالة التي كتبها الكونت أوكوما بخط يده (صورة)

وهذا هو نص الرسالة التي كتبها لي.

ضيفنا العظيم عبد الرشيد ابراهيم !

ضيفي المحترم الذي تحمل المشاق في القدوم من الممالك البعيدة، أعتذر اليك بكل إحترام و أرجو عفوك. أرسل لك صورتي لأنني لن أتمكن من زيارتك بنفسي كتبت العنوان وكتاب التوصية إلى الأمير إيتو التي وعدتكم بها، فتفضلوا بالقبول، راجيا اللقاء. ١٠ مارس. اوكوما سيكي نويو

وعقب ذلك ذهبت في الحادي عشر من مارس لزيارة الأمير إيتو.

اللقاء مع الأمير إيتو

كان الأمير في ذلك الوقت في منزله الريفي الكائن على الساحل قرب نيغاتا NIGATA شمال غرب طوكيو على بحر اليابان، ذهبت بالقطار، ثم ماشياً على قدمي مدة عشرين دقيقة، والطريق ممهد وعلى جانبيه أشجار كبيرة، والجو في برودة الصباح. و بينما كنت سائراً ظهر أمامنا رجل يتقدم في اتجاهنا، فلما إقترب عرفته، كان القادم هو الأمير ايتو بنفسه.

تبادلنا التحية، فتبسم وقال: أأنك لأنت إبراهيم. قلت: نعم و قد جئت لأتشرف بزيارتك.

- تفضل، بكل سرور و لكني سأعتذر إليك لضيق الوقت، سيأتي ولي العهد بالسيارة، لقد أبلغني برقياً، و سأصحبه إلى المنزل.

-قلت: إذن إسمح لي، فسآتي في يوم آخر. و مددت إليه كتاب التوصية من الكونت أوكوما.

- لاحاجة إلى كتاب توصية، كنت أتوقع زيارتك. لقد ذكرت ذلك لـ «اوجيتا» OCHIDA.

ووضع كتاب التوصية دون أن يقرأه وقال:" لدينا من الوقت ساعتان، سنستغل هذا الوقت فاذا جاء ولي العهد، يمكنك أن تذهب ومشينا سوية إلى بيته الريفي و شربنا الشاي وتجاذبنا أطراف الحديث.

ويعتبر الأمير إيتو من كبار المفكرين اليابانيين، تولى الوزارة فترة، وفي الفترة الأخيرة كان قائداً مطلق الصلاحية في كوريا، وكان يملك امتيازات واسعة فيها ويتصرف بها كما يشاء.

الأمير إيتو: كما بينت لك معتذرا فان وقتي ضيق جدا، فلن نتمكن من البحث في مسألة مهمة، إلا إن قلبي لايريد مفارقتك، و لنستغل الفرصة. سأسألك عن أحد الأمور، وأرجو ألا يخطر على بالك شيء آخر، إنني أريد أن أعرف السبب فحسب، وإن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تخلو من سبب، فأي سبب يمكن أن يكون يا ترى؟ لقد فكرت كثيرا في هذا الأمر ولكن عقلي لم بجد له تفسيرا في أية صورة كانت. لماذا اشترك مسلمو القفقاس متطوعين في الحرب اليابانية الروسية ياترى؟ من المعلوم أن مسلمي الفولغا جاؤوا الى الحرب دون رغبة منهم لأنهم موظفون عسكريون. لابد أن يكون لذلك سبب؟

لقد سألني الكثير عن هذا الموضوع قبل الأمير ايتو، وأنه لأمر ثقيل على نفسي. و مهما كان ردي فهو من قبيل العذر الذي هو أقبح من الذنب. الواقع إن إشتراك مسلمي القفقاس في الحرب الروسية اليابانية

بصفة متطوعين، يعتبر وصمة عار في جبين المسلمين جميعاً. و لكن ما الحيلة، لقد حدث الذي حدث.

لم يكن مني إلا أن قلت: وأنا لم أفهم أبداً ذلك و لا أرى من سبب له سوى الجهل. لقد كان صدور هذا الكلام من رجل مثل الأمير إيتو و أنا أجلس اليه أول مرة شديد الوطأة عليَّ.

وكرر الأمير ايتو قائلا: أرجو ألا يخطر ببالك شيء آخر، إن هدفي هو معرفة السبب فحسب، لأنني أعلم بأن المسلمين في روسيا مظلومون، وإن المظلومين، حينما يشاركوا الروس في الحرب متطوعين، إما أن لأنهم في وضع إضطراري شديد، أو تكون لهم بذلك مصلحة كبرى. وفي الحقيقة أنه خطر لي احتمال، هو أن يكون مسلموا القفقاس إستغلوا هذه الفرصة، وإن ذلك أمر طبيعي أن يطلبوا شيئا من الحكومة في مثل هذه الظروف. فمثلا لو قالوا: سنشترك في الحرب متطوعين، ولكن بشرط أن تمنحونا امتيازات كذا وكذا، وبفعلهم هذا كانوا سيحصلون على امتيازات كثيرة، حتى لو بدخولهم الحرب من أجل تحقيق تلك الامتيازات. والحقيقة إنهم لو فعلوا شيئا من هذا القبيل فسوف نقول لهم: إن كل أمة تعمل من أجل مصالحها، و إنهم لو فعلوا ذلك من أجل مصلحة أمتهم فما علينا الا أن نقول مرحى لهم.

- قلت: حتى و إن لم يكن الأمر بتلك الدرجة، فانهم لابد وأن لاحظوا مصلحة في ذلك و لكني لا أعرف حقيقة الوضع كما ينبغي.

الأمير إيتو:- أتمنى أن تقيم في بلادنا شهورا، حتى تتعدد لقاءاتنا، و الآن بقي على مجيء ولي العهد نصف ساعة، معذرة، ولكن آمل أن يكون لقاؤنا خلال يومين او ثلاثة.

توجهت من عنده بالقطار الى قرية «هودوكايا» قرب يوكوهاما، وكان لي فيها بعض المعارف. و«هودوكايا» قرية صغيرة، لكنها في غاية التنظيم وفيها أماكن جميلة، ولها جريدة خاصة تصدر مرة كل اسبوع واسمها «نيجي هودوكايا» أي أيام هودوكايا.

بت الليلة في هذه القرية، فأكرمني أهلها كثيراً. وللقرى خصائص كثيرة معروفة، فهي بشكل عام قليلة السكان وهادئة إلا أن عدد سكان هذه القرية يفوق بعض المدن، وذلك لأنها تحتوي على ثلاثة مصانع. وكل عمال هذه المصانع يقيمون في هذه القرية، و فيها مدرستان ومكتبة ودار للمطالعة العامة، و فيها ميدان لمسابقة السهام تجري فيها لعبة رمي السهام في الصباح وفي المساء، وجميع القرى اليابانية فيها مثل هذا الميدان. ومن هناك عدت الى طوكيو، و في اليوم التالي زرت السجن.

السجن في طوكيو

ركبت الريكشه وتوجهت الى سجن «سوغامو» الشهير في طوكيو.لا أعرف ماذا أقول: أهو سجن؟ أم مدرسة؟ أم منتزه؟ أم مصنع؟....إن مدخل السجن يتراءى و كأنه باب قصر، و الباب مفتوح و لا تجد أمامه سوى شرطياً واحداً، و لم يعترضنا أحد حين دخولنا. يا له من سجن. إنه أشبه بحديقة فائقة التنظيم، ولا يمكن للمرء أن يتصور وجود سجن في هذا المكان. إن الحديقة كبيرة والعناية بها فائقة. إلا أن حالة السجن تستدعي الإعجاب اكثر من الحديقة فحينما رأيت هذا السجن إزداد تعجبي حتى إنني حسدت السجناء على ماهم عليه. و وصلنا الى مبنى في نهاية الحديقة، فاستقبلنا احد الحرّاس المناوبين ثم مشى أمامنا حتى وصلنا إلى صالة الإستقبال. و بعد أن جلسنا هناك حوالي خمسة دقائق قدمت لنا أثناءها أكواب الشاي، تقدم أحد الحاضرين قائلا: بماذا تأمر؟. قلت: أريد أن أشاهد السجن. قال: هل تسمح لي ببطاقة تعريف؟.

قدمت له بطاقتي. فقال: إسمح لي بخمس دقائق كي أبلغ مدير السجن. ولم تمضي خمس دقائق حتى جاء مدير السجن وإسمه (ياماكاميYAMAKAMI) وعرفني بنفسه.

وأنا بدوري عرفته بنفسي ثم قلت: قبل أن أزور السجن أريد أن أسأل بعض الأمور إذا سمحت لي بذلك.

- تفضل و إسأل.

- كم يبلغ عدد السجناء؟

- عددهم الآن ١٨٤٣.

- كم يبلغ عددهم في الحد الأعلى؟

- إنه لايزيد عن الألفين في أية حال، بل صارت أعدادهم تتناقص في الأعوام الأخيرة، فالعدد الحالي في هذا العام أقل من عددهم في العام الماضي بأربعة عشر.

- ماحجم وارداتكم من منتوجات السجن؟

- وارداتنا تبلغ حوالي ٢٠٠الف ين.

- ماعدد السنين التي يحكم بها على مرتكب أكبر الجرائم؟

- لايزيد عن إثني عشر عاما.

- كم حصة المجرمين من واردات السجن؟وهل هناك حق للعمال؟

- قال:الاجور تقدر بحسب الحرفة.فالذين لهم حرفة وصنعة يأخذون سبعين بالمئة، .أما العمال العاديون فيأخذون ثلاثين بالمئة.

إن هذه النسب تحددها اللجنة، وللسجناء في هذه اللجنة ثلاثة أعضاء ينتخبون من اللجنة الداخلية.

- وماهي اللجنة الداخلية؟

- اللجنة الداخلية هي لجنة من داخل السجن عدد اعضائها ١٢.ومهمتها تحديد وظيفة العمال والشئون الداخلية للسجن بقرارات تصدر منها.وهناك لجنة خارجية عدد اعضائها ١٢، أيضاً، تسعة منهم معينون من قبل الحكومة، وثلاثة منهم ينتخبون من قبل السجناء من بين أعضاء اللجنة الداخلية.

خرجنا لزيارة السجن. كانت الساعة تمام الثانية عشر، دخلنا مكتبة السجن.و هي صغيرة جدا بحيث لا تتسع لأكثر من عشرين شخصاً.كما إن

المكان لا يتسع لوضع الكتب، لذلك فإنهم يعطون الكتب للسجناء في مهاجعهم، فكل سجين يقرأ في المكان المخصص له، و أكثر هذه الكتب في الأخلاق و الدين. قال المدير ياماكامي: إنني متضايق من ذلك، و إن بلديتنا سيئة الادارة. لقد كتبت مرات عديدة في شأن هذه المكتبة وحتى الآن لم يصدروا أومرهم بإعادة بنائها، لا تصلنا منهم إلا وعود فارغة.

خرجنا من المكتبة و مررنا خلال حديقة كبيرة، رأيت فيها عدد من العمال يشتغلون.ملابسهم صفراء. قال المدير ياماكامي: هذه هي أرض السجن.كل مايحتاجه السجن من الحبوب والخضروات نستحصله من هذه الارض ولانشتري شيئاً من الخارج.

دخلنا المصنع وهو مبنى ضخم مكون من ممر طويل وعلى جانبيه صالات. دخلنا أولا صالة النسيج، وعند الباب سمعنا صوت نداء من الضابط المناوب.ترك كل سجين مابيده من عمل، و إنحنى الجميع تحية وتعظيماً لنا، ثم قام الضابط بايعاز فعادوا إلى عملهم. و في هذا المكان مصنع ضخم للنسيج،كل القمصان والملابس الداخلية الاخرى للجيش الياباني تنسج في هذا المصنع، و في صالات أخرى مجاورة يجري تفصيلها و خياطتها، وفي الصالة الخامسة يكون القميص و السروال جاهزاً للإستعمال.

وتصنع في الصالات التي بعدها المظلات (شمسيات)، فكل جزء من أجزاء المظلة يصنع في صالة خاصة ويتم جمعها في الصالة الخامسة حيث تكون جاهزة للاستعمال. وهي على أصناف، فمنها مظلات عادية وكذلك مظلات فاخرة ومظلات خاصة بالنساء. لاحظت عملية تطويع الحديد في صالة المظلات، و وجدت الحدادين هناك في غاية النظافة، ودققت النظر في أجسام الذين يعملون أمام النار ورأيت العرق يتصبب من أجسامهم ولكن النظافة كانت ظاهرة عليهم.

وهناك صالتان لصنع القبعات، كما توجد صالات لصنع الملابس العسكرية و الاحذية فكل اللوازم العسكرية، حتى المحافظ (الشنط) تنتج في السجن. كما توجد هناك صالات للنجارة والمفاتيح.

بعد أن تجولت في إثنين وأربعين صالة وصلنا صالة الطعام. رأيت الطعام الذي يأكلونه، النظافة كانت ممتازة ولا تجد مثلها إلا في اليابان، و لاترى مثلها حتى في مطابخ أكبر المطاعم في بترسبورغ. و من هناك دخلت الحمام فوجدته عبارة عن صالتين و في كل صالة أحواض كبيرة للمياه الساخنة و أماكن للإستحمام نظيفة جداً... أحصيت عدد الحنفيات في إحدى الصالتين فكانت ٥٢ حنفية.

ومن هناك توجهنا إلى المعبد، وفي الطريق عرفني المدير بالمسؤول عن المعبد و إسمه تاكيتا كيوشن TAKETA KYUSHIN ، فقادنا إلى «كايدو» «قاعة الإجتماعات» فدخلنا فيه، إنه في غاية البساطة، فليس فيه سوى منصة الخطابة و الوعظ، وسبورة سوداء ضيقة كتب عليها باللغة اليابانية عبارة: " إذا دعا العبد ربه بقلب كسير فان دعوته لا ترد"

قال تاكيتا:- إننا نقدم الوعظ للسجناء في هذا المكان كل يوم أحد، في موضوع التربية والأخلاق.

- هل تلاحظ تغيراً على السجناء، وهل يحسون بالندم؟

- إنهم يتبدلون كثيراً، يدخل السجن كثير من الرجال السيئين ويخرجون منه أناسا طيبين، فالنصيحة لا تذهب أدراج الرياح، إن في بلادنا الآن كثير من الرجال الطيبين الذي تربوا في هذا السجن.

و من المعبد توجهنا إلى المستشفى، و رافقنا في هذه الزيارة تاكيتا، إن الأبنية هنا في غاية الترتيب، ووجدنا في هذا المستشفى ٢٦ مريضا، وقد يزيد عددهم أحياناً، و لكنهم لايزيدون عن الخمسين. وللمستشفى حديقة خاصة، إنه أشبه بمدرسة زراعية.

ثم تجولت في مهاجع السجناء. حيث يضمها مبنى ضخم فيه ممر طويل، وعلى جانبي الممر غرف على قدر كبير من النظافة والترتيب، إنها أشبه

بدور العبادة، و نظافة الأسرة هناك بدرجة لاتصدق، وفي النهار لاتجد واحداً منهم في سريره بل كل السجناء يشتغلون في تلك المصانع.

وحسب ماعلمت فإن ساعات العمل تبدأ من السادسة صباحاً وحتى الخامسة مساءً تتخللها ساعة للإستراحة و ساعة و نصف للطعام، أي أنهم يعملون مدة ثماني ساعات و نصف. أما في الليل فانهم يطالعون الكتب مدة ساعتين، و قد أحصي عدد الأميين فتبين أن عددهم ٢١، ثمانية منهم يمكنهم كتابة أسمائهم.

وبعد أن إنتهينا من زيارة السجن عدنا إلى مكتب المدير وكانت الساعة الثالثة تماما. وهنا أيضا شربنا أكواب الشاي. و تحادثت مع السيد ياماكامي مدة ساعة، وكان تاكيتا حاضراً. قال لي متحدثاً: لقد قرأت عنك في الصحف كثيراً، حتى أنني سألت عن عنوانك كي ألتقي بك، فقدومك الى هنا صدفة طيبة سررت لها. أريد أن أحصل منك على بعض المعلومات إن كان وقتك يسمح بذلك...

- حسنا، إنني مستعد في كل وقت.

- إن كان الزمان والمكان مناسبين، سأستفيد منك الآن.

سألني تاكيتا:- هل لك أن تزودنا ببعض المعلومات عن الدين المحمدي؛ ما هي المحمدية؟

قلت: الدين المحمدي دين يسر، أساسه التوحيد و النبوة. و هو مجمل تعاليم الأنبياء العظام، و لكي تكون مسلما يجب أن تؤمن بوجود خالق واحد للكون، وكما أن كل إنسان يتحاج إلى معلم في الأمور الدنيوية فهو يحتاج إلى مبلغ في الأمور الدينية، ذلك المبلغ هو النبي. وديننا المحمدي لا لبس فيه و لا سر و لا غموض، و التكاليف الشرعية أربعة. هذا هو الدين الاسلامي.

- ماعدد مذاهب الدين المحمدي؟

- الأساس عندنا واحد. والاختلاف في الفروع ليس مهما. فكل من آمن بالله رباً و بمحمد نبياً فهو مسلم. إنهم و إن إنقسموا في الإعتقاد إلى

قسمين فهم في الأساس واحد. لأن الإفتراق عبارة عن إختلاف جزئي طارىء.

وهنا قال تاكيتا: المذهب البوذي عندنا في اليابان إنقسم الى ١٣ فرقة. وفي الصين أكثر. وإن هذه الفرق تختلف عن بعضها إختلافاً كلياً، كل فرقة تعتقد بأنها دون غيرها على دين بوذا. وإذا أردت الحصول على معلومات عن البوذية، عرفتك برجل كبير جداً، فهو يزودك بالمعلومات التي تريدها عن المذهب البوذي.

- أكون شديد الإمتنان لك، لقد كنت أبحث عن مثل هذا الرجل. متى ستخبرني بذلك؟

- سأبلغك هاتفياً. أرجو أن تمليني رقم الهاتف في محل إقامتك الآن.

وأمليته رقم الهاتف ثم ودعته مفارقا.

وزودني المدير ياماكامي بمخطط السجن وبعض صوره و قال: إن سجننا ليس من السجون الهامة، إن نواقصنا كثيرة، و بلديتنا لا تملك المال، لذلك فإننا لم نتمكن من اصلاحه، و مع ذلك فإننا بصدد اكمال النواقص شيئاً فشيئاً.

- ما مقدار واردات سجنكم؟

- حوالي ٢٠٠ ألف ين، ولو تركوا لنا كل الواردات لكنا أصلحنا سجننا حسب معرفتنا، إلا أن البلدية تفكر في مصلحتها.

- مامجموع السجناء في اليابان ياترى؟

- قبل عامين كان عددهم حوالي ٤٠ ألفا، أما الآن فلا يصل إلى هذا العدد، إنهم يتناقصون بإستمرار.

- و هل هناك مجرمون سياسيون؟

- لا تكاد تجد مجرماً سياسياً عندنا، هناك صحفي واحد؛ لقد أهان رجلاً.

وأكتفي الآن بهذه المعلومات عن السجون اليابانية.

الجامعات اليابانية

إن أكبر الجامعات اليابانية هي هذه الجامعة التي أنشأتها الحكومة ووزارة المعارف، ومبناها من الضخامة بحيث يتجاوز عدد طلابها سبعة أو ثمانية آلاف، ويتبعها مبنى ضخم للمستشفى، ومبنى للمتحف، ومبنى للمكتبة.

حصلنا على إذن خاص من وزير المعارف لزيارة كل أقسام الجامعة، وبموجب هذا الاذن الخاص كنت أدخل مبنى الجامعة في كل وقت، و إلا فإن دخول قاعات الدرس و كذلك غرف التشريح ممنوع.

وحينما كنا نأتي بموجب ذلك الإذن الخاص، لزيارة أية كلية من الكليات نسلم على المسؤلين هناك ونتجول في أقسام الكلية. في الزيارة الأولى ذهبت إلى كلية الكيمياء، وإستغرقت زيارتي لها فقط أربع ساعات. وبالرغم من عدم وجود علاقة بيني و بين العلوم التطبيقية، فإنني إحتجت لكل هذه المدة كي أتمكن من الإطلاع على عمليات التحليل التي يقوم بها الطلبة. إمتدت زياراتنا إلى الجامعة عدة أيام ؛ كنا نقضي فيها كل يوم ثلاث أو أربع ساعات. و مع ذلك فلم أتمكن من زيارة كل الأقسام.

وأهم الأقسام التي زرتها هي: كلية الكيمياء، المكتبة، قسم التشريح، متحف التشريح والمستشفى... والاستعدادات في هذه الأقسام تدعو إلى الإعجاب، خاصة قاعة عمليات التشريح والأدوات التي فيها وأنواع التشريح، و غرف العمليات الخاصة.

لقد زرت هذه الأقسام بكاملها وشاهدت عمليات القص والتقطيع؛ فالنظافة هناك ممتازة، والنظام السائد بين الطلاب والمدرسين، وكنت أمر عليهم وأقف عندهم بضع دقائق فلا ينظرون إلي لا بل إن أكثرهم في شغل عما يجري حولهم، ولا شك بأنني عاجز عن ذكر كل ما رأيت في هذه الأماكن، لذلك فسأكتفي بذكر الجوانب التي أثارت استغرابي كثيرا. فمن الأمور التي أثارت إستغرابي ما رأيته أثناء زيارتي لقسم علم البكتيريات.

أشار المدير الى جسد داخل وعاء زجاجي و قال: أنظر إلى هذا الجسد، إنه سليم بكامله، سوى عضلة الذراع الأيمن فهي متفسخة، و أنظر جيدا الى جلسته، لقد عثرنا على هذا الجسد في المقبرة قبل عشرة أيام و أتينا به الى هنا، فالرجل معروف من قبلنا، لقد توفي قبل ٤٤ عاما. وكان عمره حين توفي ٦٢ عاما. إننا نعرف شخصيته لكن ورثته لا يريدون أن نبوح باسمه.

- إسمه معروف إذاً، هل يمكنك أن تقوله لي؟

- قال الدكتور زايتسو ZAITSU: - ينص قانون الجامعة عندنا على عدم البوح بذلك. و مع أن هذا الأمر لا يدخل في نطاق المهام العلمية فإن إدارة الجامعة قررت كتم الإسم بناء على رغبة الورثة فلا يجوز البوح به.

- أنا ضيف غريب، و أنا أكتم السر، أكون ممتن لك إن بحت لي بإسمه بصورة خاصة.

- لا، لا يجوز أن أبوح بإسمه.معذرةً.إنه لمن الطبيعي ان يسجل إسم هذا الرجل في تاريخ اليابان. فلقد أثار وجود هذا الجسد داخل الوعاء الزجاجي مزيدا من إستغرابي. أعدت النظر إليه باهتمام أكثر، دققت في كل عضو من أعضائه و أجزاء جسمه، حتى الشعر لا يزال على جسمه. أعدت طلبي للدكتور زايتسو فقلت:- أنا ضيف غريب. و إنني أشارككم في كتم إسم هذا الرجل.يجب أن يكتم إسمه أمام الناس هنا، فإن لم يكن هناك مانع آخر فإنني أكون ممتن لك لو ذكرت لي إسم هذا الرجل لكوني غريباً عن هذا البلد.

- نعم ليس هناك من مانع آخر، و لكن لا يجوز البوح به لأنه يتناقض مع قانون الجامعة. و لن أجرؤ على التصرف بطريقة تخالف قانون الجامعة، فمعذرة.

وأضاف الدكتور زايتسو قائلاً: لا يمكنني أن أتصرف بأمر يخالف قانون الجامعة ولكنني أستطيع أن أقول بأن هذا الرجل من المعروفين بطوكيو على أنه إنسان صالح، إشتهر بالصدق و الثقة فكان نموذجا لشعبه بتلك

الصفات. و بعد موته كان وسيلة لتعلم ابناء بلده العلوم التطبيقية. فخدم أمته بعد وفاته بجسده.

استطراد

لو عثر في ديار الاسلام على جسد لم يبل لنسبوا إليه الولاية و إتخذوا قبره معبداً و جاء المئات بل الألوف من الناس بقصد زيارته. أما في العالم النصراني فلو وجدوا مثل هذا الشيء لأتخذوه إلهاً. فقبل خمس سنوات عثر الروس في ولاية تامبوف على جزء من جسد لم يبل، فأقاموا الدنيا و أقعدوها، حتى إن نيكولا الثاني قدم من بترسبورغ إلى ذلك المكان وصرفت الملايين للدعاية له و أخيراً قرر العالم النصراني الوهية تلك الجثة.

اما اليابانيون المجوس فقد نقلوها إلى الجامعة لتكون وسيلة للتطبيقات العلمية.

مكتبة الجامعة

دخلت أولاً إلى قاعة المطالعة للمكتبة و كان فيها أكثر من ستمائة طالب مشغولين بالمطالعة و بعد التجول في أرجائها سألت أمين المكتبة قائلاً: هل يرتاد هذه المكتبة مثل هذا العدد كل يوم؟

قال: إن عددهم اليوم قليل فلا يتجاوزون ستمائة و في بعض الأيام يتجاوز عددهم الألف، و قد يصل العدد أحياناً إلى ألف وأربعمائة ... وأطلعني على الدفتر اليومي للمكتبة وكان حوله عشرة من الشباب يخدمون المكتبة، عرفت منه بأن هؤلاء أيضاً من الطلاب ويقومون بالخدمة بطريق التناوب.

وسأذكر الآن أموراً أثارت إهتمامي في قاعة المطالعة هذه: كل المرتادين كانوا من الطلبة وكلهم يرتدون الملابس الوطنية، إلا رجلاً واحداً. لقد تجولت في القاعة مدة نصف ساعة، ولم يرفع أحد منهم نظره، الكل مشغولون بالمطالعة، سوى ذلك الرجل الذي يرتدي لباساً رسمياً، و إنه كان دائم النظر إليّ، إنه و إن كان أسمر البشرة مثل اليابانيين إلا أن ملامحه لم تكن تشبه اليابانيين. سألت: من هو هذا السيد؟ و كان الجواب: روسي.

- وهل في الجامعة طلاب روس؟

- واحد فقط لاغير.

وتبسم محدثي قائلاً: ومن كل أمة يوجد عدد من الطلاب، والصينيون بشكل خاص كثيرون حيث يصل عددهم إلى بضع مئات كما إن عدد الامريكيين ليس بالقليل. و كما أسلفت فإنه توجد من كل أمة أعداد من الطلاب، أما الروس فلا يوجد إلا طالب واحد وسيكون بعد الان طلاب من الأتراك و التتار إن شاء الله.

وكان الطلاب يلبسون الأزياء الوطنية، و قد خلعوا أحذيتهم أمام الباب، و لبسوا النعال. وهذا شاهد على أنه لا حاجة في تلقي العلوم إلى تغيير الزي.

ثم نهض ناظر المكتبة قائما فأخذنا الى الجانب الذي فيه الكتب، وأخبرنا أن المكتبة تحتوي على أكثر من ثمانية وأربعين ألف مجلد وكتاب، وفيها الكتب اليابانية التي ألفها يابانيون، و هي قسمان: قديمة، وحديثة. وأشار إليها بالترتيب. ثم الكتب باللغة الإنجليزية. و مؤلفوها إنجليز، كما أشار إلى الكتب المترجمة الى اليابانية من الانجليزية والفرنسية و الألمانية.

ولما وصلنا الى نهاية المكتبة، قلت: لقد سررت كثيراً بما شاهدته، ولكني اسف لأمر واحد، و هو أن المكتبة تحوي من كتب الأمم

المختلفة، و لعلها لا تضم أي كتاب باللغة العربية التي تعتبر من أهم اللغات في العالم، أليس كذلك؟

قال: و لدينا أيضا كتب بالعربية، و جاءني بقاموس عربي. وقال: هذا الكتاب موجود في مكتبتنا، ولكن أحداً لم يقرأه حتى الآن. أرجو منك أن تقرأ بعض السطور.

أخذت الكتاب و فتحته، فوقع نظري على نص الحديث الشريف: «انما المرء بأصغريه» قرأته وترجمته.

قال ناظر المكتبة: أرجو ألا تغلق الكتاب؛ وتحدث مع شاب كان بجانبنا بكلام لم أفهمه، فأسرع الشاب، ثم عاد و معه قلم و دواة، فكتب الناظر في حاشية الكتاب بضع كلمات باللغة اليابانية، ثم قال: أرجو أن توقع هنا باللغة العربية... فوقعت وسجلت تاريخ ذلك اليوم. ثم سألته: ماذا كتبت في حاشية الكتاب؟ قال: كتبت مفهوم الحديث الذي قرأته لي، وبعدما تفضلت بالتوقيع عليها كتبت هنا الترجمة وإسم المترجم، وستكون الترجمة والتوقيع إضافة للتاريخ الياباني، لأننا سنسجل في تاريخ الجامعة زيارتك لها و حديثك أثناء الزيارة و كذلك أقوالك و خطبك عن الأمة اليابانية، ثم جاؤوا بدفتر، وطلبوا مني أن أوقع فوقعت حسب طلبهم.

ثم استأذنت مودعاً، و خاطبني الناظر بكل أدب و لطف قائلاً لقد وقفت على قدميك كثيراً، فهلا إسترحت في مكتبي قليلاً؟ أخذني إلى مكتبه. إنه مفروش فرشا جميلا، واسترحنا قليلا وشربنا الشاي. و في هذه الأثناء دخل علينا رجل بيده صرة. فقال المدير: إن لم تكن متعبا، سأريك بعض المخطوطات فان في مكتبتنا الكثير منها.

قلت: أي شيء عندكم من المؤلفات القديمة أرجو أن تريني إياها فأخرج الناظر من الصرة أوراقا ملفوفة، و قد ظهر عليها القدم، أخرج من بينها ورقة و قال: هذه الكتابة هي سند ملكية أرض كتب قبل ستمائة عام، ففي تلك العهود كانت هذه السندات يكتبها البائع، و إن كان البائع ممن لا يعرف الكتابة إستكتب غيره، و قام البائع بوضع سبابة يده اليسرى من

طرف الأصبع وحتى نهايته على الورقة وسطر خط بطول السبابة ووضعت نقطتان في مكان المفصلين، وذلك بدلا من التوقيع. و قد نقلت الخط والنقطتين من تلك الورقة الى هنا وأعرضه على القراء كما رأيت: صورة إمضاء قديم لك.

وهذا طول السبابة تماما، والنقطتان تشيران الى المفصلين.ثم أراني كتابة أخرى. ويرجع تاريخها إلى ما قبل سبعمائة و أربعة و سبعين عاما، مصدقة من قبل إمبراطورة ذلك العهد. و عرض علي بعدها كثيراً من الأوراق و شرح مضامينها. و أخيراً جاء بكتاب آخر و قال: و هذه يومية جامعتنا، إن عدد طلاب الجامعة الآن هو ٦٨٢٤ والمدرسون كلهم من اليابانيين. وقبل عشرين عاما كان عندنا عشرون مدرسا أجنبياً، وبعد خمس سنوات لم يبق في اليابان مدرس أجنبي واحد. في الهندسة البحرية عندنا مدرس انجليزي واحد متعاقد و سينتهي عقده بعد خمس سنوات.

وبعد ذلك زرت أكثر أقسام الجامعة. و كررت الزيارات لقسم التشريح وشاهدت كيفية تشريح مختلف الأمراض.

والذي أثار اهتمامي الشديد هو قاعة للدرس في قسم التشريح، هذه القاعة عبارة عن قبة زجاجية، ومقاعد الطلاب مصنوعة بكاملها من البرونز، وقد صنعت بطريقة فنية عجيبة.. حضرت في هذه القاعة درسا للتشريح مع طلاب القسم.

وهكذا شاهدت كل أقسام الجامعة، وجلت بنظري في أنحائها. واليابانيون يسمون الجامعة «داي غاكو DAIGAKU». و بعد ذلك زرت مستشفى الجامعة، والمبنى هنا وإن لم يكن كبيرا فان النظام فيه أمر يدعو للعجب، وعندما أتينا إلى هذا المكان طلبوا منا خلع ملابسنا وأحذيتنا، وألبسوا قدمينا نعالا لاتصدر صوتا أثناء المشي. ورافقنا أحد الأطباء الى زيارة الأقسام كلها، وعندما نصل الى باب قسم من الأقسام يقوم الطبيب المرافق بتعريف أنواع الأمراض في ذلك القسم. وعندما نمر بجانب

المرضى لايتكلم منا أحد. إستغرقت زيارتنا ساعةً كاملةً و هكذا أنهينا زيارة أقسام الجامعة.

معية أهلا بكم «كيهن كاي KEIHIN KAI»

وفي اليابان جمعية بهذا الإسم، و تعتبر من أكبر الجمعيات اليابانية. وهدف الجمعية تأمين الراحة للسياح القادمين إلى اليابان من كافة أرجاء المعمورة. و الجمعية من حيث الأساس تحت رعاية رئيس الوزراء الياباني، يرأسها الماركيز هاتش سوكاHACHSUKA، ومستشارها البارون شيبوساوا SHIBUSAWA، و أمين السر هو الأميرال كابوراكي. وكل سائح يزور اليابان إذا سجل إسمه في مركز إدارة الجمعية في طوكيو، أو فروعها في المدن الأخرى، يصبح عضوا فيها و يعطوه خريطة مفصلة لليابان وعلى جوانبها مخطط تفصيلي لكل المدن الكبيرة، كما يزودوه بكتيبين باللغتين الإنجليزية و الفرنسية فيهما تعريف موجز بالأماكن المهمة التي سيزورها السائح، و مناطقها و طريقة الوصول اليها و أجور السفر.. وكلها مرتبة حسب الحروف الأبجدية.و إذا اقتضى الأمر أرسلت معه الجمعية دليلاً مرافقاً. و هؤلاء الأدلاء يجيدون عدة لغات، و يدلون كل من يصادفونه من السياح الى عنوان الجمعية. كما تقوم الجمعية بتقديم التسهيلات الأخرى الممكنة لكل سائحٍ يسجل إسمه عضوا فيها. والجمعية تمارس نشاطها منذ خمسة عشر عاماً فإذا دفع السائح مبلغ (٣ ين) قيمة إشتراك العضو، لقي كثيرا من التسهيلات من قبل الجمعية. و قد سجلت إسمي عضوا فيها، فعاملتني الجمعية معاملة خاصة، وزودتني بكتاب توصية للتجول في كافة أنحاء اليابان، و كانت بمثابة جواز سفر. فكنت إذا قدمت إلى مدينة أو مركز ولاية أو قرية، أبرزت تلك الوثيقة فوجدت من الناس كل عون ولقيت منهم كل احترام.

وفيما عدا هذا فقد أعطتني الجمعية المذكورة توصيات خاصة، لقيت بها مزيدا من الإحترام و التبجيل عند اليابانيين.

واثناء مقابلتي لبعض رجال الجمعية حصلت على معلومات كثيرة، أعرض أهمها على القراء الكرام قاصداً النفع. في أحد اللقاءات قال الأميرال كابوراكي: سيصل إلى اليابان هذا العام أكثر من ألفي سائح، فإن إستطعنا إعداد جمعيتنا بشكل يمكننا القيام على راحة السياح، فلا شك أن عدد السياح سيرتفع خلال عشر سنوات الى خمسين ألف، و هكذا نضيف الى واردات البلاد نصف مليون ين، و إنني لعلى يقين بأنه سيأتي يوم يصل فيه عدد السياح الى خمسمائة ألف. والجمعية تسعى للوصول الى هذا العدد.

وقال أحد أعضاء الجمعية و إسمه موريتا:- اذا أمكننا اعداد جمعيتنا كما يجب فسنجلب أكبر عدد من السياح الى بلادنا، فواردات المملكة تتضمن السياحة، و الجمعية تأسست في الأصل من أجل هذا الغرض.

استطراد

ألا يجدر بنا أن نؤسس مثل هذه الجمعية في دار خلافتنا (إسطنبول)، وننقذ سيل السياح القادمين من أوربا من نهب بعض الخدم في السفارات ومن أحابيل السماسرة؟ فقبل عشر سنوات قدم إلى إسطنبول صديق روسي، و ذهب إلى السفارة يطلب مساعدته في زيارة القصور و الأماكن التي تستحق الزيارة، فقال له كاتب السفارة: إن مصاريف هذه الزيارات كثيرة، و عددوا له تلك المصاريف حتى بلغت بتقديرهم تسع ليرات، وقد رضي الصديق أن يدفع أكثر لشغفه برؤية تلك الأماكن، فقال له كاتب السفارة: إصبر الى يوم الجمعة حتى يأتي سياح آخرون فنقسم المصاريف على عدد السياح فتدفع مبلغا أقل. وصبر صديقنا حتى جاء يوم الجمعة فزار القصور برفقة السياح الآخرين ولكنه دفع مبلغ ثمان ليرات وبضعة قروش. وبهذا يأخذون هذه المبالغ من السياح و يحملون وزرها على العثمانيين، حيث يصفونهم بالمرتشين. إن خدم السفارة يدعون أنهم

يدفعون الرشاوى في أماكن الزيارات كي يسمحوا لهم بالدخول، و إذا أضافوا إلى تلك المبالغ أجور السيارة والتنقل يزداد المبلغ الذي يتقاضونه. وقد تكون هذه المصاريف صحيحة! ومع ذلك فانه من الممكن مشاهدة السياح لأماكن أكثر بمبالغ أقل وأقرب إلى الإنصاف.

ولو تأسست جمعية بهدف خدمة الحجاج و السهر على راحتهم، لكانت هناك منافع مادية ومعنوية أيضا، فهل يمد الله في عمري حتى أرى تحقق هذه الأمنية؟

«هياشيتا Hiyashita

أمين عام مجلس النواب «شيوغي ئن SHUGI-IN»

هذا الرجل، هو من ألمع شباب اليابان. كنا قد إجتمعنا به وتبادلنا الأفكار معه عدة مرات.

وذات يوم دعانا إلى حفلة خاصة، وفي اليوم المحدد توجهنا إلى منزله الصيفي خارج طوكيو مع عدد كبير من الأصدقاء، فاستقبلنا هياشيتا بالترحاب في محطة الحافلات الكهربائية، ومن هناك ركبنا الريكشات فوصلنا الى منزله على الساحل، ووجدنا عدداً كبيراً من الاخوان في انتظارنا.

وعند الباب إستقبلتنا زوجته بالتحية بما يشبه السجود. ثم قدمني صاحب المنزل الى الضيوف، كما قدم بعضهم الآخر فعرفني بهم وعرفهم بي، وحصلت الألفة والتعارف. والواقع فان اكثر اليابانيين كانوا يعرفونني من الصحف التي تتحدث عني بصفة شبه يومية. وفي هذه المرة كما في المرات السابقة كان الحديث عن الأخوة اليابانية - التتارية.

قام البروفسور أوشيما فألقى كلمة مختصرة ومفيدة عن الدين الاسلامي، وختم كلامه فقال: ان الاسلام دين يتمثل نموذجه أمامكم (وأشار الى الضعيف العاجز) إنه الإنسانية المجسدة. و صفق له الجميع. وبعد ذلك

أضاف قوله نتمنى من صميم قلوبنا أن ينتشر الاسلام في اليابان و تكرر التصفيق. واستمر المجلس باحاديث طيبة وعذبة، كنت خلالها أتحدث بين حين و آخر عن محبة التتار لليابانيين.

وقد قمت بتسجيل خلاصة أكثر الأحاديث التي قيلت في هذا الاجتماع ولكنها ضاعت مع الأوراق الأخرى. وكان أوتشيدا UCHIDA بصورة خاصة قد تحدث حديثا عذباً.

وأكتفي هنا بذكر خلاصة كلمة صاحب الدعوة هياشيتا: أيها السادة! إن أمتنا اليابانية، أحرزت مكانة تستحق بها أن نقول بأنها نموذج للشرق بصورة عامة. و إحترام اليابانيين ليس مقصوراً على اليابانيين أنفسهم بل وكل الأمم الشرقية تنظر اليهم باحترام شديد وتستبشر بمستقبل عظيم. يقول أجدادنا: «لايقدر النعمة من هو فيها»، هذا القول ينطبق علينا. إننا لا نقدر قيمة نظرة التكريم و الإحترام لنا من قبل إخواننا في الشرق، لقد أخذنا ببريق الحضارة الأوربية، ونسينا جيراننا الذين هم إخواننا. نسينا إخواننا التتار خدام الحضارة الشرقية سلالة جنكيز خان، فهذا أخونا الكبير عبد الرشيد إبراهيم سبقنا في الفضل و تقدم إلينا خدام الحضارة الشرقية مرة أخرى. نحن اليابانيين نتوجه بشوق إلى أوربا و لا نعلم عن اخواننا التتار الذين هم أشقاؤنا وجيراننا أي شيء، كان علينا أن نبحث عنهم منذ أمد طويل لكننا أضعنا الفرصة، وها أنذا أقدم بكل فخر والدنا الى اخواني الحاضرين في هذا المجلس، كما أوجه له الشكر لتشريفه هذا المنزل. أيها السادة لقد تجولت في كل أنحاء أوربا، وشاهدت كل شيء، وأعرف لغاتهم، لأنني أكملت تعليمي هناك، وأعرف عاداتهم وأخلاقهم. ولطبيعة مهمتي فانني خلال جولتي الأخيرة قابلت كبار رجالهم، و تعاملت معهم. إنني لا آمل من الغرب شيئا فيما يخص حياة الشرق. فحياة الشرقيين قائمة في الشرق و بالشرق. علينا نحن الشرقيين أن لا نفوت الفرصة في التعرف على بعضنا البعض. ونأمل أن تضيف زيارة السيد عبد الرشيد ابراهيم الى

بلادنا مزيدا من النشاط في حياة الشرق. و أهنىء السيد إبراهيم على مثل هذا التوفيق. عاش إخواننا التتار، و ردد معه الحاضرون (عاش التتار).

وبعد ذلك قام من بين الحضور «أوتشيدا سان» فألقى خطابا حماسيا في نفس الموضوع أطراني فيه، و إستمرت الجلسة ثمان ساعات، إضطررت بعدها إلى أن أقابلهم ببضع كلمات. هذا و إنني و إن كنت سائحاً بصورة شخصية، فقد لقيت من اليابانيين من الاهتمام و التكريم ما لا يلقاه إلا من أرسل من قبل الحكومة بصفة رسمية. بقيت في تلك الليلة ضيفا في منزل «هياشيتا سان». فلما تفرق الحاضرون سألته عن أسباب رحلته الى أوربا.

قال: ان مباني مجلسي النواب والأعيان المؤقتة من الخشب، وبقيت على حالتها منذ عشرين عاما، فالميزانية لم تسمح بالتجديد فقد وقعت الحرب، كما طرأت ظروف أخرى. و في هذا العام، خصص من الميزانية مبلغ خمسة ملايين ين لانشاء مبنى جديد وقد فوضني المجلس لأداء هذه المهمة.

أما أنا فقلت بأنه ينبغي أن يكون المبنى الجديد متكاملا، فاصطحبت أحد المعماريين وقمت بجولة الى المجالس النيابية الأوربية، لأكون فكرة عنها. إستغرقت جولتي ثلاثة شهور كاملة، وسوف نبدأ بالبناء هذا العام إن سمحت الظروف.

- هل سيتولى مهندسوكم أمر البناء أم سيحتاج الأمر إلى مهندسين أوربيين؟

- لا، سيكون كل شيء من عندنا. لاحاجة لأي شيء من الأجانب. إن رجالنا يحبون الإقدام و يحبون العمل بأيديهم، لا نحتاج إلى أوربا في الصناعة بل نحتاجها في المال. فاذا ضمنا الواردات فكل شيء بعد ذلك هين و ممكن. إن أكبر المشاكل عندنا هي المشكلة المالية.

- بأي زي تجولت في أوربا؟

- عندما كنا طلابا في أوربا كنا نتحاشى التجول بالزي الوطني، لأنهم كانوا يحتقروننا ويسمعوننا كلاماً جارحاً. فنشعر بالضيق والحرج، ولا نلبسها

الا في الليالي وفي بيوتنا، حيث نجتمع ونجلس على الأرض ونشرب الشاي، فنحس بالراحة ونتذكر قوميتنا. أما الآن فلا ابه بشيء، لقد كنت خلال جولتي كلها بالزي الوطني، ومع أن لي ملابسي الأوربية لكنني لم أجد مسوغا لأن أخفي سمعة أمتي وشهرتها.

- ألم تلق من أحد إعتراضا على إرتدائك الزي الوطني؟

-لا لم ألق أي شيء من هذا القبيل. و الواقع إنهم كانوا ينظرون الي باهتمام ولكنني لم ابه لهم، هل أتنكر لوطنيتي؟ من المؤكد بأن الأوربيين لا يحبوننا، إنهم سينظرون إلينا نظرة إستصغار إن عرفوا بأننا يابانيين، حتى و إن ارتدينا أزياء أوربية، و إذا كانوا كذلك فليظهروا مافي قلوبهم من بغضاء. انني لا أجد بعد هذا ضرورة في إخفاء وطنيتي.

وفي اليوم التالي كنت في طوكيو عندما تلقيت قبيل المغرب رسالة قصيرة من صديق، يبلغني فيها بمحاضرة تلقى غدا في الكنيسة الفلانية في الحي الفلاني. ويطلب مني أن أحضر هذه المحاضرة التي سيلقيها البروفسور الشهير تاكادا TAKADA عن الحروف اليابانية.

البروفسور تاكادا TAKADA والحروف اليابانية

وفي اليوم التالي ذهبت الى العنوان الذي دعيت اليه لحضور المحاضرة والمكان هو قاعة الكنيسة حيث اجتمع فيها عدد من الناس لايتجاوز عددهم المئة وعشرين و كانوا ينتظرون المحاضر. و بعد عشر دقائق صعد البرفسور المذكور إلى منصة الخطابة و بدأ بالكلام فقال:

إن أعدائنا قد تسللوا الينا أيام ضعفنا و إنهم يروجون بأفكارهم الفاسدة دون كلل أو ملل و يزرعون بذور الفرقة في أمتنا ولا يترددون ابداً في اللجوء الى كافة الوسائل و السبل، لا يقاد الفتنة في كل مكان، وهدفهم من ذلك أن يفرقوا بين بعضنا البعض، وإنهاك قوتنا، والتسلط على

عقولنا و نفوسنا، كي نكون أسرى لهم، إن أولئك الاغبياء يريدون التسلط على حروفنا التي نستعملها منذ ألفي عام و يشيعون بين العوام بأن قراءة وكتابة حروفنا أمر شاق، و إنه علينا أن نبحث عن حروف غيرها.

الواقع ان الحروف التي نستعملها، لم تكن حروفنا في الأصل، بل هي حروف جيراننا الصينيين. إننا نستعملها منذ مايقرب من ألفي عام.لقد اصبحت ملكنا ومن حقوقنا. أقول إنها ملك اليابانيين، لأننا عدلنا فيها وأضفنا اليها. واليوم هناك الملايين من الكتب بلغتنا طبعت بهذه الحروف، و أكثر من خمسين مليون من الناس يقرأون بهذه الحروف ويكتبون بها فهل يمكن تبديلها؟ و يعرف أولئك الحمقى أيضاً أن ذلك غير ممكن وأن هدفهم من ذلك بث الفرقة بيننا بإثارتهم هذه المسألة. وهناك بعض الحمقى عندنا من أذناب أوربا لا يفكرون بصلاحيتها و منافعها ومضارها بل يسمعون لأولئك المغفلين فيظنون بأنهم إكتشفوا شيئا جديدا. إنهم عمي البصيرة فلا يعتد بقولهم. إنهم أعداء الوطن، لأنهم أخذوا بأقوال الأعداء. إن الصديق لا يمكنه أن يخدم فكرة تؤدي بالأمة إلى الهلاك و الخراب. إن تشتيت أفكار الأمة بمثل هذه الأمور التافهة وإحداث الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة ليس إلا عملا يؤدي لخراب الأمة.

إن الحروف من حيث الأساس، قد وجدت بشكل يوافق الطبيعة البشرية. أما موجدها فهو الطبيعة و لذلك فإن تبديل الحروف يتوقف على تبدل الطبائع البشرية فلا تتبدل إلا بالدرجة التي تتبدل بها تلك الطبائع. و أظن أنه لا حاجة لإثبات ذلك، فاذا نظر الانسان الى ما خطته يده و أعاد النظر فيما كتبه في أوقات مختلفة فهذا يكفي لأن يلاحظ الفرق الكبير بين كتابته في لحظات الفرح والسرور وبين كتابته في لحظات الألم و التكدر.

وإذا لاحظنا طبائع الأمم المختلفة بشكل عام فنرى بأن الطبيعة عالم تجسم في أفراده، فإذا تطورت أمة من الأمم؛ فإن طبيعة تلك الأمة ستكسب سروراً معنوياً يحس به الآخرون في فترات لاتعدو الشهور أو

السنين كما تحس بأنها تتطور في كل المجالات، حتى الحروف التي تستعملها في الكتابة تشهد نوعاً من التطور الذاتي.

ولو قارنا بين الخطوط التي استعملتها الامم المتقدمة قبل مئتين أو ثلاثمائة عام، و بين خطوطهم الحالية لوجدنا فرقا شاسعا بينهما ومع ذلك فإن الحروف هي هي لا ينبغي تغيير أساسها.

ويجب أن ننتبه إلى ناحية أخرى و هي أنه توجد علاقة معنوية كبيرة بين طبيعة الامة و بين الحروف التي تستعملها. فالكتابات التي تبدأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين، و من الأعلى الى الأسفل كلها ذات علاقة وثيقة بطبيعة تلك الأمة.

والحروف التي تستعملها الامم الشرقية توافق طبيعتها والأشكال والخطوط التي يستعملها الغربيون توافق طبيعتهم.

والشرقيون يملكون قوة فطرية لايمكن تصورها لدى الأمم الغربية وهم متعودون على المصاعب؛ فمهما كان الامر صعبا فإن طبيعة الشرقيين لا تراه صعبا.

إن الكتابة اليابانية المركبة من حوالي ثلاثين ألفاً من الأشكال، هي من الأمور الطبيعية جداً بالنسبة لليابانيين. انظروا إلى الناس فلن تجدوا فيهم أحداً لا يعرف القراءة والكتابة. ولو لم تكن الكتابة طبيعية لما أمكنها أن تنتشر كل هذا الإنتشار. فهذه الحروف هي وسيلة النشر و المعرفة، كما انها موافقة لطبيعة أمة تعدادها خمسون مليوناً من البشر. ان الحروف والكتابة هي الغذاء الروحي للأمة. وحتى أطعمتنا التي هي غذاء لأجسامنا نحن اليابانيين، لا تناسب أن تكون غذاءً للأوربيين، فلا يمكن للأمة الأوربية أن تعيش بالغذاء الذي يعيش عليه اليابانيون ولكنه غذاء ممتاز بالنسبة لليابانيين. ولا فرق في ذلك بين أغنى اليابانيين وبين أفقرهم، لدرجة بات من المعروف بأن الذين يكملون دراساتهم في أوربا من اليابانيين إذا عادوا الى بلادهم فإنهم يفضلون الأطعمة اليابانية التي هي غذاؤهم الطبيعي. ونفس الأمر ينطبق على الحروف، فإن حروفنا هي

غذاء المعرفة و لا يجوز تبديلها بل تتبدل تلقائيا و تتطور، وقد تطورت وستتطور بمرور الأيام.

فكلمة جبل مثلا كتبت قبل مائتي عام هكذا () و قبل مائة عام هكذا () و تكتب اليوم هكذا ()، و لا شك بأن الأساس بقي كما هو، و الذي تغير هو رسم الخط. و بعد أن استشهد بنماذج عديدة من الخطوط أضاف: إن التغيرات التي طرأت على هذه الحروف طبيعية، و هذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان.

والآن فان إنخداع شبابنا بأفكار المنصرين و ارائهم حول تغيير الحروف، هو تحرك بعكس الطبيعة. و التحرك ضد شيء صار من طبيعة أمتنا منذ ألفين أو ثلاثة آلاف عام، ماهو إلا من قبيل فقدان الحمية الوطنية. و لو كانت الحروف عائقا في طريق المعرفة والتقدم، لما وصلت بلادنا إلى ماوصلت إليه خلال خمسين عاماً. وأمل أن تحرز اليابان الدرجة الأولى على سطح الكرة الأرضية خلال الخمسين سنة القادمة.

وسيأتي يوم تعرض فيه اليابان شكل الحروف لكل العالم، و هي جديرة بذلك، لأن هذا الرسم فيه من المصلحة العامة بحيث لا يمكن لانسان أن ينكرها إذا نظر اليها بعين الإنصاف. فاللغات اليابانية و الصينية و الكورية هي ثلاث لغات مختلفة، فإذا تكلم الكوري فإن الياباني و الصيني لا يفهمان منه كلمة واحدة ؛ كما أن الصيني إذا تحدث فلا نحن نفهم ولا الكوريون يفهمون مايقوله، و لكن إذا كتب أحد من هذه الأمم شيئا بالهيروغليفية التي يستعملها فإن الآخرين يقرأون ماكتب و بلغتهم هم. وهذا أمر واضح للعيان فلو بذلنا قليلا من الجهد، فان هذه الكتابة ستوحد الأمم الثلاثة فلا يحتاج الكوري لأن يتعلم اللغة اليابانية كما لايحتاج الياباني لتعلم اللغة الصينية. كما يمكن المراسلة بهذه الحروف بسهولة ودون ترجمان، أما إذا كتب فرنسي، أو إنجليزي أو روسي بحروفه و لغته فلا شك أن الآخرين سيقرأون ما كتب دون فهم له، فاذا كانت

السهولة هذه متوفرة عندنا فلماذا لا يروج لها؟ ثم فوق هذا يقولون بأنه علينا أن نلغيها، ما أوهاها من أفكار!

إننا إذا أردنا الحفاظ على وطننا و أمتنا، فعلينا أن نحافظ على كل شيء له علاقة بقوميتنا. إن كل كلمة كتبت بحروفنا هي مقدسة بالنسبة لنا؛ «تصفيق» ولا نريد أن تضيع منا كلمة واحدة كتبت بالحروف الحالية.

وختم البروفسور تاكادا خطابه وسط تصفيق حاد. والواقع فإن خطاب البروفسور نفسه كان مفصلاً جداً. الا إنني لم أتمكن من ضبطه إلا بهذا القدر.

وبعد ذلك أجريت أحاديث خاصة مع كثير من رجال الدولة و أعيان المملكة، وحسب ما يبدو لي فان المنصرين لو عملوا ألف سنة أخرى فسيذهب سعيهم أدراج الرياح، لدرجة أن أحد رجال الحكومة قال لي: إن كل أسرار دولتنا مضبوطة بهذه الحروف، فالهيروغليف الحالي قوة معنوية لليابان. فلو إفترضنا جدلاً أن الناس أرادوا صرف النظر عن هذه الحروف فالدولة لا يمكنها أن تصرف النظر عنها في أي وقت من الأوقات، بل على العكس من ذلك فإنها قررت التوسع في هذه الحروف.

(إستطراد- على مخترعي الألف باء اللاتيني عندنا أن يعتبروا. . .)

جمعية المؤرخين

سبق أن قدمنا خلاصة عن هذه الجمعية، و قد وقع سهو في إسم رئيس إدارة الجمعية فورد على أنه هياشي و الإسم الصحيح هو تراشي.

وفي العشرين من مارس تلقيت دعوة ثانية لحضور الاجتماع العام لهذه الجمعية ؛ وعندما وصلت مقرها كان قد سبقني إليه حوالي سبعين رجلاً. والكثرة الغالبة من أعضاء الجمعية هم من الشيوخ، و يندر أن تجد فيهم شاباً.

وقبل أن يكتمل عدد الحاضرين وجدت الفرصة لأن أسأل السيد تراشي بعض الأسئلة:

- ماهي المهمة الأصلية للجمعية؟

تراشي: نسجل كل الوقائع المهمة، كما ندرس أسباب بعضها. فعند وقوع جريمة مثلاً، نفتش عن سلوك الجاني، و نسجل أسباب الجريمة مع محاكمتها. و من هذا القبيل تناولنا قضية «كوروشيما جنساكو» SHIMA JINSAKU" المتهم بمحاولة إغتيال الكونت أوكوما وزير الخارجية بتاريخ الثامن عشر من أكتوبر في الحادي و العشرين من عصر ميجي، و سجلنا شخصية هذا الجاني و سلوكه.

وندرس أيضا تاريخنا القديم. إن مهمتنا ليست بسيطة؛ إننا سنسجل قدومك إلى اليابان والكلمات التي ألقيتها كلها.

وفي هذه الأثناء قدم بعض الأعضاء الآخرين، وتحدث «تسوشيما TSUSHIMA» رئيس هذا المجلس قائلاً: إن لنا علاقات بالتتار قبلك. فقبل ألف ومائة وعشر سنين عبر تتار محمديون من كامشاتكا وخليج التتار و جاءوا الينا عن طريق ساخالين، وتاريخ هؤلاء منقوش على حجر بجوار سنداي لا يزال موجوداً إلى يومنا هذا.

ويذكر تاريخنا أيضاً قدوم شيخ من أولاد جنكيز قبل ثمانمائة عام؛ وقد حسبه اليابانيون أنه من الجواسيس؛ ولما عرفوه على حقيقته قاموا بتكريمه وحسن ضيافته.

وفيما عدا هذا و ذاك، فأن أحد مشاهير الأبطال اليابانيين ويسمى «ياشيتشيني YASHICHINI» (أو السامورائي يوشيتسونيهYOSHITSUNE) توارى عن الأنظار، و يروى بأنه صار فيما بعد أميراً في جند جنكيز خان. فهل تجدون في تاريخكم شيئا في ذكر هؤلاء؟ فاضطررت لأن أقول وقد اعتراني الخجل الشديد، إن تاريخ قومنا التتار ليس مضبوطا بتلك الدرجة.

وبعد ذلك تطرق أحد الحاضرين الى العرق الأصفر وقال بأن هناك علاقة عرقية بين التتار واليابانيين، و إنتقد إشتراك مسلمين متطوعين من القفقاس في الحرب الروسية اليابانية.

وتوالى حضور الأعضاء حتى تجاوز عددهم المائة. وعندها قال الرئيس العام للجمعية «شنتاغانا SHINTAG ANA»: سنفتتح الجلسة الآن، نرجو منك أن تتفضل بقبول رئاسة الجلسة (و هنا صفق الحاضرون مع أصوات المطالبة بالقبول). قمت و تكلمت بضع كلمات ثم إفتتحت الجلسة. وتكلم تراشي رئيس مجلس الإدارة فقدم خلاصة عن نشاط الجمعية خلال شهر واحد. ثم قام أحد الحاضرين و قال: إن لدينا أوقات و إجتماعات كثيرة نبحث فيها شؤون الجمعية، فلنخصص هذا الإجتماع للحديث مع ضيفنا العزيز إبراهيم، و ننهي الصفة الرسمية للجلسة.

قوبل هذا الاقتراح بالتصفيق، ثم انتهت الجلسة الرسمية. و فيما بدأ إعداد الموائد، كانت القصائد تلقى. واستغرق الحفل قدر ساعتين. كان الطعام بسيط جدا: بعض أنواع السمك والرز المسلوق فيما يشبه الخبيصة، فلا سمن ولا لحم ولا ملح، وإنشغل الناس في أحاديث مختلفة. ووجدت الفرصة مناسبة لأن أسأل عن كيفية تطور اليابان ومتى بدأ هذا التطور. فأجاب أحد الشيوخ هناك و هو رئيس المجلس العدلي بطوكيو مختصراً:

- قبل خمسين عاما كانت اليابان تنقسم الى أكثر من ثلاثمائة ولاية. و مع أن الامبراطورية كانت تتبع الأسرة المالكة الحالية، إلا إن كل ولاية تحكم من قبل أمير، وكل أمير مستقل و حر التصرف بمنطقته، و قد تقع حروب بين الإمارات، و تتعرض إمارة للإحتلال من قبل أخرى وهكذا. ومع هذا فإن هذه الإمارات كانت تشكل بمجموعها نظاماً إتحادياً يطلق عليه إسم اليابان. وعاصمة الإمبراطورية كانت في مدينة كيوتو.

وفي العشرينيات من تاريخ «الامبراطور كومي KUME TENNO» كان أمير طوكيو «توكوغاواكيكي TOKU GAWA KEIKI» من أقوى الأمراء، انتصر

في حروب كثيرة، وتوسع كثيراً إلى أن أعلن الحرب على الإمبراطورية نفسها.

وفي هذه الأثناء بدأ تحالف بين الامارات، كرد فعل لإستعراض أمريكا عضلاتها ضد اليابان عام ١٨٥٣. فلما أحس اليابانيون بالهجوم الأمريكي الوشيك، قرروا بشكل قاطع عقد تحالف فيما بينهم. وأخيرا فرض توكوغاواكيكي رأيه بالغاء الامارات جميعها بما فيها امارته، وترك البلاد كلها لحكم الميكادو الحالي، و إنتقلت العاصمة الى طوكيو. إتحدنا عندما أحسسنا بالتدخل الخارجي، ثم فكرنا فوجدنا بأننا بحاجة ماسة إلى العلم و المعرفة، فأرسلنا أبناءنا الى أوربا لتلقي العلم، وإستقدمنا مدرسين من هناك. و خلاصة الأمر فقد تشكلت شركة ملاحة بتاريخ السادس من ميجي ويصادف ١٨٧٢ وهذه الشركة هي «نيبون يوسين كايشا NIPPON YUSEN KAISHA». ويمكننا القول بأن التطور بدأ من هنا، لأن اليابان قبل ذلك لم تكن تملك أي شيء يمكن أن نقول عنه سفينة، وإني أكتفي بإعطائك أرقاما إحصائية عن الأسطول البحري.

تطور الأسطول البحري في اليابان على الوجه الآتي:

في العام العاشر من ميجي: عدد البواخر:١٥٥ الحمولة ٤٤٢٤٠ طن

" " ١٥ " " " ٢١٦ " " ٦٤٤١٦

" ٢٠ " " " ٤٦٨ " " ٧٠٠٢٢

" ٣٠ " " " ١٤٢٨ " " ٦٦٣٦٤٣

" ٤٢ " " " ٢٣٢٤ " " ١٤٠٠٢٢١

علما بأن هذه السفن هي تجارية يملكها تجار، و لا تدخل ضمن البحرية الحكومية. كما إن للتجار ٤٤ حوضا لبناء و إصلاح السفن و أكثر من ٢٠٠ مستودع لمهمات السفن.

وهكذا تطورت اليابان بأقصى سرعة، تحقق هذا التطور بجهود الأمة وقامت الحكومة بواجبها في الأمور التي تخصها، حتى وصلنا الى مانحن فيه.

أكتفي بهذا القدر من المعلومات، فاذا أردت المزيد فجمعيتنا تقوم بهذه المهمة، ولنا الشرف أن نخدمك.

إستمر هذا الحوار الطيب حتى الساعة العاشرة ليلاً، وجاءت الريكشات فودعت أعضاء الجمعية فرداً فرداً و غادرت المكان.

متحف أوكورا OKURA

ومن الذين تعرفت عليهم في طوكيو «أوكورا كيه هاتشيرو OKURA KEIHACHIRO»، ويعتبر من الأغنياء و الأسخياء و مشاهير الأشراف في اليابان. نزلت عنده ضيفا، وهو ياباني عريق تجاوز عمره الخامسة والسبعين. ولد في مدينة شيباته التابعة لولاية «نيجاتا NIGATA» ومحل اقامته في طوكيو. تعرفت على هذا الرجل أول مرة في المسرح، ثم نزلت عنده ضيفا بناءً على دعوة منه.

ولم يكن أوكورا من المتعلمين في المدارس، بل أمضى حياته كلها في التجارة، و جمع كل ثروته من عرق جبينه. و يظهر على سيماه بأن الله وهبه عقلاً راجحاً. شربنا الشاي في منزله، وتجاذبنا معه أطراف الحديث، ثم قال:

- هل تهوى الآثار القديمة؟ إذا رغبت فإن لي هنا متحفاً صغيراً.

- أكون لك من الشاكرين كثيراً.

وبعد ذلك مشينا باتجاه مبنى ضخم داخل الحديقة، قال أوكورا سان:

- كنت أسكن في هذا البيت، وفي أيام شبابي هويت جمع الآثار القديمة، فصرت أجمع منها الكثير حتى ضاق علينا المنزل؛ ثم بنيت منزلاً اخر وتركت منزلي القديم للآثار القديمة، وسكنت المنزل الجديد. هذا ما قدرت عليه، لقد تحول البيت إلى متحف.

وصلنا الى باب المتحف؛ أشار أوكورا الى الباب و قال: أنظر إلى خشب الباب، إنه أسود قاتم. ليس مدهونا بل لونه طبيعي هكذا فهو من الخشب الأسود الذي لا تجده إلا في اليابان.

وكان قد سبقنا الى الباب شاب، فتكلم ببعض الكلمات ففتح الباب، فظهرت سيدة قصيرة القامة، فأنحنت ساجدة.

قال أوكورا: أرجو عفوك، ان لي بعض الأعمال، ستتولى هذه السيدة شرح ما بداخل المتحف بكامله... و تحدث معها ببعض الكلمات.

مشت أمامي السيدة. فأشارت إلى تمثال في أول الدرج فقالت إن تاريخه يعود الى ألفي عام. و في كل درجة تمثال، هذه التماثيل من التيبت وهذه من الصين. كانت تمشي ببطء وتشرح، وصعدنا إلى ممر طويل وعلى الجانبين صور كثيرة. وقفت السيدة عند صورة وقالت: هذا الرجل شخصية مشهورة جداً؛ إنه «الأمير شوتوكو تايشي SHOTOKU TAISHI»، لقد نادى بضرورة الحكم بالشورى قبل ألف ومائتي عام وافتتح مجلسا للشورى باسم «جيوغي ئن». وهو نفس الرجل الذي اخترع الساطور والقدوم الحديدي في اليابان.

ومررنا بأربع صالات وممرين أو ثلاثة، كلها تعج بالآثار القديمة. وعدد من الغرف الصغيرة كلها مملوءة بالآثار القديمة: أشياء مصنوعة من الذهب والفضة، وأسلحة - سيوف، بنادق، مدافع... وفيها أيضا قنبلة صنعت في الصين قبل ثمانمائة عام.

الأشياء الموجودة هنا لا يمكن تعدادها. كانت السيدة تشرح لي ما تعرف بأنه أهم. وشاهدت في إحدى الغرف الصغيرة صندوق زجاجي في داخله علبة صغيرة.. قالت عنه المرأة: إنني لا أعرف ما بداخله، لكن جنرالا مسلماً قدم من الصين و قال: إن هذا مقدس عندنا، فقام أوكورا بوضع هذه العلبة داخل صندوق زجاجي خاص. و لا شك بأن العلبة ليست مقدسة. فهل بداخلها شيء؟ حتى المرأة لا تعرف ما بداخلها. فكرت في الأمر و قلت: إن كان فيها شيء مقدس فليس سوى القرآن.

و رأيت داخل صندوق زجاجي ضخم عدداً كبيراً من العلب و أشياء أخرى. أشارت اليها و قالت: كلها مصنوعة من الورق المقوى، و لكنها موغلة في القدم، قال عنها إنجليزي خبير بالآثار القديمة بأنه لامثيل لها. إن متحف أوكورا معروف في أوربا أيضاً. و قد عرضت بعض محتوياته في باريس، وحاز على وسام التقدير.

ان قيام رجل لم يتلق أي علم بتنظيم مثل هذا المتحف الضخم لأمر عجيب حقاً. و أن ترتيب كل المحتويات كان بإشرافه. لقد عين إحدى قريباته مشرفة خاصة على المتحف، كما خصص خادمين لتنظيف الغبار كل يوم. و يتميز هذا المتحف بأنه أنظف من المتاحف الحكومية. و يوجد فوق المتحف برج يمكنك أن ترى طوكيو كلها منه.

وفي الدور الثالث من المتحف مكان للاستراحة، جلسنا قليلا فيه وقدموا لنا الشاي. و في هذه الأثناء جاءت السيدة بسجل و قالت: إذا تفضلت بالتعبير عن مشاعرك فسيسر أوكورا. و السجل جميل وكبير، ألقيت نظرة عليه فوجدت فيه كثيراً من التواقيع: أمريكان وانجليز وفرنسيون و من أمم كثيرة. و من الروس توقيع رجل إسمه برماليرانسكي، ومن أهل الاسلام لم يكن غيري.

و أثناء الاستراحة سألت السيدة: هل لأكورا مؤسسات خيرية أخرى؟

أشارت من النافذة الى مدرسة مجاورة و قالت:

هذه المدرسة هي من خيراته القديمة، مدرسة إعدادية خاصة لأبناء الفقراء، يدرس فيها حوالي خمسمائة تلميذ، وكلهم ليليون يتولى هو كافة مصاريفهم. و قبل عدة سنوات أنشأ في كوريا وأوساكا مدرستين إعداديتين بمناسبة الذكرى الخمسين لزواجه ؛ و هو يقوم بتأمين كافة المصاريف.

وبمناسبة بلوغه السبعين من العمر، مد أنابيب مياه الشرب الى مدينة «شيباته» وهي مسقط رأسه. هذا هو كل ماعمله. وفي الحرب تبرع للجيش بمبلغ خمسمائة ألف ين.

سألت السيدة:- أليس لهذا المتحف من كتاب تعريف (كتالوج)؟

- لايمكن أن يكون لهذا المتحف كتالوج طالما أوكورا حي ؛ انه رجل سخي جداً؛ فإذا سأله أحد زوار المتحف شيئا لا يرده، ثم إنه لا ينتظر حتى يسأله الزائر، فإذا لاحظ أن الضيف يمعن النظر في شيء بادره بالسؤال فيما إذا كان هذا الشيء يعجبه، فيعطيه أو يرسله إليه. لذلك فإن ولده إذا جاء ضيف عزيز، أشغل أباه بشيء و لم يرسله مع الضيف. وعندما رأى ولده هذا اليوم إهتمام والده الشديد بك أخذه معه الى المتجر في أمر مهم؛ و إلا فإنه لم يكن يرسلك خالي الوفاض.

وأوكورا إنسان بسيط و طيب المعشر و ذو سمات علية، همه و فكره خدمة الأمة اليابانية؛ و هذا السخاء أيضا يهدف به إعلاء شأن أمته.

وبعد التجول في المتحف الذي إستغرق حوالي أربع ساعات أردت الخروج فوجدت أوكورا ينتظرنا عند الباب. و ظهر بأن السيدة أبلغته بانتهائنا من الزيارة، فشكرته و ودعته. قال أوكورا:- لن ننظر إليك نظرة الأوربي، إنه لمن دواعي سرورنا بأن تزورنا كلما تسمح لك الظروف.

إلتقيت بهذا الرجل عدة مرات، إنه تاريخ حي، فقد شهد كثيراً من الحروب الداخلية في اليابان و رأى الكثير، و يعلم بأمور كثيرة جداً. يقضي أكثر أوقاته في المدارس التي أنشأها، و كلما أتيت اليه وجدته بزيه الوطني، لابساً النعلين في رجليه.

وذات مرة بدأت الحديث عن الزي فقال: كنا فترة من الزمان قوالب للأزياء الأوربية، واليوم لم نعد نحتاجها، و لا يليق بنا ذلك بعد الآن. لابد لنا من الحفاظ على القومية في اليابان، و هذا لا يتحقق بالقول فقط، فقوة اليابان تكمن في طبيعتها الوطنية. إننا إنتصرنا في حربنا مع الروس بقوتنا الوطنية أكثر من قوتنا المسلحة.

لقد ذكرنا الأعمال الخيرية التي يقوم بها أوكورا، إلا أنني سمعت من أوكورا نفسه بأنه ليس من أكبر أصحاب رؤوس الأموال اليابانيين، والذي أثار اهتمامي في هذا الرجل أكثر من غيره هو قوة الذاكرة عنده.ففي أحد

الأيام سألته عن سلالة الامبراطور، فذكر اباءه وأجداده بالتسلسل، ولم يكتف بذلك بل عدد تواريخ جلوسهم ومدة حكمهم منذ ٢٥٦٩ عاماً.

لقد سمعت ذكر هذا التسلسل من غيره أيضا لكنهم كانوا يقرأونه من التقويم أما أوكورا فإنه يحفظه عن ظهر القلب.

إن قبور الأباطرة الذين حكموا اليابان في هذه الحقبة معروفة، فكل القبور مشيدة تشييداً عظيماً، كما أن صورهم محفوظة في متحف الكونت أكيموتو في طوكيو. شاهدتها كلها.

إن اليابانيين يقدسونهم و من العجيب حقا أن يحافظ على تسلسل نسب رجل واحد مدة ٢٥٦٩ سنة متصلة.. و لذلك فإنهم يضفون إليه الألوهية، و هذا هو السبب في تقديس الميكادو.

الزلازل والجزر اليابانية

عرفت أن الهزات الأرضية في اليابان كثيرة، وليس على وجه الأرض بلد فيه كثير من الجبال الملتهبة مثل اليابان. ولكن لم أدر كيف حدث ولم أشعر بالزلزال خلال الشهرين الأوليين من إقامتي فيها.

وذات يوم كنت نائما عندما اهتز البيت الذي أنا فيه، فلم أدرك السبب في بداية الأمر وظننت أنني مسافر بالقطار، وأن القطار غير مساره، فكنت أهتز. وبدأ البيت يترنح، و في هذه الأثناء سمعت صوتاً من طرف الجيران أن إنتبهوا للمصابيح فأدركت حقيقة الأمر؛ كانت هزة أرضية. لقد كانت الهزة في تلك الليلة مدهشة، لم أدرك خطورتها في حينها، و في اليوم التالي تحدثت الصحف عنها باسهاب، كما صارت حديث الناس، فصرت أنتبه بعد ذلك، كانت الأرض تهتز كل ليلة هزات خفيفة مرة أو عدة مرات أحيانا، و لكن الناس لا يأبهون لإنشغالهم بالعمل. و في عام

١٨٨٩ من الميلاد ـ حيث يسمونه اليابانيون بعام الهزات - إهتزت الأرض ألفا وأربعة عشر مرة.

وكما ذكرت سابقا فإن بلاد اليابان عبارة عن جزر. وأكبر هذه الجزر هي المعروفة باسم هونشو HONSHU وهي أكبر الجزر حقيقة: مساحتها ١١٣ ألف كيلومتر مربع ويقدر عدد سكانها بـ ١٥ مليون نسمة. و تنقسم إلى ٤٦ ولاية. وعاصمة المملكة والمناطق الأكثر تطوراً و عمراناً هي في هذه الجزبرة. و الأجزاء الشمالية منها ذات مناخ بارد، و جهات نيغاته و ايواكي و ايواجيرو و ايتشيغو مناطق متجمدة بكاملها، و يزداد المناخ إعتدالا كلما اتجهنا نحو الجنوب. و فيها مواسم أمطار شديدة.

وتأتي جزيرة (هوكايدو HOKAIDO) في الدرجة الثانية و تسمى أيضا (ايزو EZO) وهي في أقصى الشمال، مساحتها ٨٠ ألف كيلومتر مربع تقريبا، وعدد سكانها حوالي خمسة ملايين. والجزيرة تتجمد في أيام الشتاء، وينقطع الإتصال البحري في هذه الفترة. ويشتد البرد و تتصل بجزيرة سخالين التي أخذوها من الروس.

وجزيرة (هوككايدو) متطورة أيضاً و هواؤها صحي بالرغم من برودته.

أما جزيرة (شيكوكو SHIKOKU) فليست متطورة كثيراً بالرغم من قربها من وسط البلاد، و الخطوط الحديدية فيها تكاد تكون معدومة و تقتصر المواصلات على الشريط الساحلي. و من الغريب حقاً أن هذه الجزيرة لم تشهد إلا هزات أرضية خفيفة، مع أن مدينة أوساكا التي تقع في جزيرة هونشو بمحاذاة شيكوكو دمرت تماماً بفعل الزلازل.

و لكثرة الهزات الأرضية في اليابان، فإن المساكن تبنى بشكل يقاوم الهزات الأرضية. فمهما كانت الهزات قوية فإن الخسائر تكون نادرة. و قد أخذت الحكومة هذا الوضع بعين الإعتبار فصارت تعمم الإنارة بالكهرباء حتى شملت القرى.

وقد قام اليابانيون بتطوير جزيرة فورموزا (تايوان)، و هم يعملون لتطوير جزيرة براتاس التي لم يستملكوها بعد. إن سياسة اليابانيين تؤكد على تطوير المستعمرات أولاً.

مع الأمير إيتو مرة أخرى

كنت في جولة في بعض القرى عندما جاءني عامل البرق ببرقية و كنت وقتها في الأرياف القريبة من إيموري، و قد كتبت البرقية باللغة اليابانية، و البرقيات في اليابان تكتب بحروف كاتاكانه. قرأتها ولم أفهمها و لكنني لما رأيتها مذيلة بتوقيع إيتو أيقنت بأنها دعوة منه. فركبت القطار و توجهت في اليوم نفسه الى منزل الأمير الصيفي. إستقبلني الأمير بالترحاب. و بعد شرب الشاي كان الحديث التالي:

سألت:- كيف تحقق التطور في اليابان بهذه السرعة؟ و ما هي الأوضاع التي إستوجبت تأسيس النظام النيابي؟ سأكون سعيداً إن إستطعت الحصول على معلومات صحيحة في هذه الأمور. إن وقتك ثمين جدا، لا أريد أن اضيعه سدى. فأرجو عفوك ان فاتحتك في هذا الأمر دون مقدمات اخذاً بعين الإعتبار قاعدة المهم فالأهم.

- لا، لا أريد أن اتكلم بالأسلوب الدبلوماسي، فلقد نويت هذه المرة أن أتحدث معك مدة طويلة و دون تكلف، ثم إننا سنجتمع مرات و مرات، وسأرد على أسئلتك، ولكني أراك تعرض بعض المقدمات للاستئناس، فلا بأس.

وأنا أيضا أريد أن اعرف منك أشياء: إن قيام رجل عجوز مثلك بتحمل كل هذه المصاريف و المشاق للمجيء إلى بلد بعيد مثل اليابان، لا يشبه أبداً ما يقوم به الأوربي عندما يقوم بالرحلة إلى اليابان و رؤيتها، فلا بد أن تكون لك فكرة عميقة و برنامج عريض. و إن معرفتي بهذه الأمور لا يخلو من الفائدة أولاً كما إنه لا يمكن إنكار أهميتها بالنسبة لك.

- إذن فلا بد لي من التفصيل في الموضوع و سأفصل إن لم تحسب حساباً للوقت.
- إن المطلب الأساسي هو صرف الأوقات على مثل هذه المواضيع المهمة.
إبراهيم: أنا تتاري من روسيا. ديني الاسلام، إشتغلت بعض الوقت في عالم المطبوعات. و لا أرى حاجة في بيان أن التتار أمة مظلومة، و الشيء الذي يجدر بالمريض أن يبحث عنه هو الدواء، و كتم المرض يعني إختيار الموت. إن هذا هو هدفي من تحملي السفر الشاق و الطويل.
إيتو:- الواقع إن ظني كان في محله و من الأفضل أن تفصل أكثر فقد تكون أمراضنا واحدة في نهاية الأمر، فيكون العلاج سهلاً، و قد تكون بعض أمراضكم هي بعض أمراضنا، فان للأمراض علاقة بالعرق في الأمم الشرقية.
إبراهيم: إن قومنا التتار بشكل خاص و أهل الاسلام بصورة عامة يعيشون تحت ضغوط مستمرة. لقد صار الأوربيون بصورة عامة الخصوم التقليديين للمسلمين بعد الحروب الصليبية، و في القرنين الأخيرين صارت السياسة التي يتبعها الأوربيون هي العداء للمسلمين. إنك تعلم ما معنى المسألة الشرقية بالنسبة للأوربيين. إننا نجد كلما توسعت المسألة الشرقية، تطرق الأمر للمسألة العرقية، كما تحولت أمراضنا و مشاكلنا الى أمراض و مسائل مشتركة. و من حيث الأساس فانني أرى بأن أخوف ما يخافه الأوربيون هو الدين. إن القوة المعنوية الكامنة في الدين الاسلامي إكتشفها كبار المفكرين الأوربيين منذ أمد بعيد. و عماد القوة السياسية هو الدين. و بصراحة متناهية فإنه إن كانت هناك قوة أشد مضاءً من المدفع والبارود و من الدبابة و سفن الحرب، فهي قوة الدين. فالدبابة لا تسير من تلقاء نفسها، و لا ينطلق المدفع بذاته ؛ لاشك أن طاقم السلاح وسدنته هم الذين يضحون في سبيل دينهم حتى يمكن للدبابة أن تقوم بمهمتها. و لذلك فإنهم يعتبرون الإسلام عدواً دائماً لهم و يعبئون الرأي

العام على هذا الأساس كي يمكنهم تسخير هذه القوة في الاتجاه الذي يريدون. هذه هي خلاصة رأي و سياسة الدول الكبرى.

إيتو:- إن كان لي تحفظات على بعض النواحي التي ذكرتها، فإنني أشاركك الرأي في نواحيها الأخرى.

إبراهيم: الواقع إن الدبلوماسيين الأوربيين إستغلوا الدين إستغلالا كبيرا، وأعترف بأنه ليس في مجال السياسة قوة أكبر من الدين بشكل عام و من الدين الاسلامي بشكل خاص. فلو أمكن للأتراك العثمانيين توجيه هذه القوة توجيهاً صحيحاً لزلزلوا بها العالم، ولا تجد على وجه الأرض أشد قوةً و بأساً في الحروب من التتار - الترك. فلو إستخدمت الحكومة العثمانية هذه القوة إستعمالاً موفقاً لأصبح العالم كله عالماً إسلامياً.

ولو رسمنا اليوم خريطة خاصة بالعنصر التتاري التركي، لكان المنظر عظيماً جداً. هذه الأمة كلها من عنصر واحد و دين واحد.. غرب الصين بتمامه، وكذلك اَسيا الوسطى، وتمتد بعد ذلك من أذربيجان إلى الأناضول.. إنها خريطة عظيمة حتى على الورق. ولنتصور أن دين هؤلاء واحد، فما يفعل المدفع و البارود أمام هذه القوة؟ كما علينا أن نضيف هنا بأن القسم الأهم من البنغال تتار، و كذلك قسم من البنجاب، كل هؤلاء مسلمون فمن يقدر أن يقف في وجههم؟

إيتو- تذكرت الآن، كنت سأسألك، إن إستطعت أن تجلب لي خارطة دينية من تركيا أكن لك من الشاكرين. كنت أريد مثل هذه الخارطة منذ وقت طويل، فلابد أن تكون مثل هذه الخارطة في طوكيو.

إبراهيم: سأكتب الى أصدقائي إن شاء الله فإن وجدوا مثل هذه الخارطة فسيرسلونها، و لكني لا أتوقع وجود مثل هذه الخارطة فالأمر مشكوك فيه، و مع ذلك فإني سأطلب منهم.

إيتو- لابد أن تتواجد مثل هذه الخارطة، لأنها خارطة الحياة لتركيا، إنني أعجب كيف لم يدخل الإسلام اليابان في كل هذه المدة. أظن بأن البحر كان مانعاً

إبراهيم: نعم إن الإسلام لم يدخل اليابان و لكن التعاليم الاسلامية صارت طبعا لليابانيين. فكل ما هو في الاسلام تجده جميعاً في اليابانيين؟
إيتو- عجباً !.. ما هي هذه التعاليم؟
إبراهيم:- أولاً إن النظافة من أركان الاسلام، والصدق والثقة، والجلوس على الأرض ثم موقف النساء من الرجال... وأمور أخرى كثيرة، هي عند اليابانيين عادة، و عندنا من أصل الدين.
إيتو:- و أريد أن اسألك: ما رأيك في تركيا الحديثة، تقول بعض الصحف الأوربية: لا فرق في تركيا بين القديم و الحديث، هؤلاء ليست لهم القدرة على إدارة شؤون البلاد... هكذا يقولون. و لا شك أنك عشت في تركيا كثيراً، و تعرف قابلية الأتراك جيداً.
إبراهيم:- الأوربيون لا يريدون الخير لتركيا أبداً، و بعبارة أخرى لا يريدون للشرق القوة و الصلاح. لقد إنتصرت اليابان على روسيا في الحرب إنتصاراً رائعاً، و أثبتت اليابان بأنها دولة متطورة في جميع المجالات، و مع ذلك فإن بحارة و عناصر الأسطول الأمريكي في اليابان ينظرون الى الشرطة اليابانية في يوكوهاما نظرة إزدراء و إحتقار.لقد رأيتهم عدة مرات. أما إذا مرت هذه السفينة على بترسبورغ أو على هامبورغ أو مرسيليا فلن يعاملوا الناس بمثل هذه المعاملة السيئة.
"إن السفن التجارية الفرنسية تصل كل أسبوع، فيخرج بحارتها إلى البر يتجولون، فإذا دخلوا حانة يابانية طلبوا من صاحبها رفع العلم الفرنسي عليها و لكنهم لا يطلبون مثل هذا الطلب في الموانىء الأوربية. هذه هي نظرة الأوربيين تجاه أهل الشرق عموماً.
إيتو:- ألم أقل لك بأن أمراضنا مشتركة في بعض النقاط، إنها لكذلك. فقبل خمسة عشر أو ستة عشر عاما كان هؤلاء البحارة يرتكبون الجرائم ويقتلون الناس، ثم لا يعترفون بمحاكمنا، و الآن خف الأمر عندهم بعض الشيء. قبل ستة عشر عاما جاء جنود إيطاليون، فخرجوا للصيد قرب يوكوهاما. فلم يجدوا صيداً فقتلوا أحد اليابانيين. وطالبت الحكومة

اليابانية تسليم المجرم لكن إيطاليا رفضت تسليمه، فدعت ورثة القتيل إلى إيطاليا، إلا أن ورثته لم يتمكنوا من الذهاب، و لو ذهبوا لما تغيرت النتيجة، ففي ذلك العهد لم تكن السفن الأوربية تعترف إلا بالقوانين الأوربية.

إبراهيم: و هذا دليل آخر على نظرة الأوربيين تجاه الشرق. و من الطبيعي أن ينظروا إلى تركيا أيضاً بنظرة عدم الثقة. فمهما كان الحكم في تركيا حسناً فان أوربا لا تثق بتركيا.

إيتو:- نعم لقد رأينا ما هو أمر من ذلك، و عشناه فقبل أربعين أو خمسين عاماً كانت أحوالنا مثل أحوال تركيا الحالية، فالفتن الداخلية من جهة و التهديد الإسباني و الأمريكي من جهة أخرى. و لولا الوضع الجغرافي لليابان لما أمكننا التخلص من التدخل الأجنبي، و جمع شمل البلاد. أما الوضع في تركيا فأسوأ. لقد أحاط بها الأعداء من كل جانب، كما تسربوا الى الداخل، فوضع الأتراك أكثر تعقيداً. و تحتاج إلى مراقبة و إستشارة الأجانب لإصلاح البلاد، أما الأجانب فيرون أن مصالحهم تتوقف على إنهيار تركيا، إنني أتألم كثيراً. لأننا عشنا هذه المرحلة. فقبل ثلاثين عاماً كانت بلادنا تواجه خطراً شديداً. و الأجانب يحيطون بها من كل جانب. كنا لا ننام الليل، ولا نجد وقتاً لتناول طعامنا في النهار، فنحن في استشارات دائمة. والميكادو عندنا رجل شديد الحرص، فلا يدعنا ننام حتى في الليالي. وأخيراً قررنا مايلي (سأعرض عليكم خلاصته):

الإصلاحات في اليابان

في البداية جندنا بعض رجال الدين، كنا قد زودناهم بتعليمات على مدى شهرين، تجول هؤلاء في كل الولايات و في كل القرى، يذهب واحد شهراً ويعود حتى يحل مكانه آخر، وهكذا ظلوا يتجولون طيلة

ثلاث سنوات كاملة قدموا خلالها الوعظ والنصيحة. إن هؤلاء الرجال قاموا بأكبر الأدوار، وأسدوا أعظم الخدمات للوطن. لقد إستطاعوا أن يفهموا الشعب ماذا عليهم أن يفعلوا، و ماذا سيحل بوطنهم إن لم يفعلوا، لقد شرحوا للناس ضرورة أن يقوم كل مواطن بعمله حفاظا على مستقبل البلاد، و أعطوا للناس فكرة عن كنه الحكم النيابي.

أما أنا فقد ذهبت إلى أوربا على رأس وفد خاص لدراسة دساتيرها. كنا خمسة، درسنا أصول الحكم في الدول الأوربية صغيرها وكبيرها، عرفنا محاسنها ومساوئها ثم عملنا على ترجمتها إلى اللغة اليابانية ونشرها. كانت مهمتي صعبة جدا. قال لي الامبراطور: إن حياة البلاد هي في هذا الدستور، يجب ألا يكون مجرد تقليد للأوربيين، بل يجب أن يكون موافقا لطبيعة وأخلاق الأمة، فكل المسؤلية تقع عليك. إن حياة البلاد أمانة في ضميرك، ستكون مسؤلا عن كل شيء....

إستغرقت جولتي في أوربا مدة ثلاث سنوات كاملة، وبعد عودتي عملت مدة خمس سنوات على تنظيمها وتنسيقها، ثم كلفت عشرة من الرجال بالتجول داخل البلاد لشرح أصول الإنتخاب ولتقديم التجربة الفعلية لعملية الإنتخاب، فتجول هؤلاء في الولايات والمدن، وجندوا بدورهم رجالاً تجولوا في القرى، و بذلت جهود كبيرة في هذا المجال.

ومن جهة أخرى أرسلنا حوالي مائتي طالب إلى بلدان العالم المختلفة، بعد أن طلبنا منهم أن يعمل كل عشرين طالب في إختصاص معين، وكسب الخبرة العملية في مجال الاختصاص. عملنا بهذه الصورة. لابد وأن يكون الأمر شاقاً، و لكن النتيجة أسفرت عن نجاح باهر.

و كانت أصعب المشاكل وأثقلها، هي المؤسسات المالية وتأمين أصول الادارة، كنا نفتقد رجالها و رأسمالها. آمل أن يتوفر الرجال في تركيا، لأنها في وسط أوربا منذ مئات السنين، تشاهد نظام الادارة الأوربية، أما عندنا فلم يكن عندنا رجال في هذا المجال. لقد صرفنا سبع أو ثمان سنوات لتأسيس و إقامة النظام الدستوري.

وطيلة خمس سنوات، جرى تحصيل الضرائب الإستثنائية من الأثرياء والتجار برضاهم، كما رضي أعيان المملكة و كبار الموظفين بأن يتنازلوا عن نصف رواتبهم لمدة ثلاث سنوات، و على أي حال إننا عشنا أياماً عصيبة جداً. كانت السفن الأجنبية ترسو في موانئنا، فيوجه طاقمها وفرسانها أنواع الإهانات و الإعتداءات علينا ؛ فكنا نقابلهم بالسكوت، حتى أنهم كانوا يعتدون على أعراض نسائنا. و كلما تمادوا في الاعتداء أظهرنا قدراً أكبر من الصبر و المسامحة، و نحمد الله الآن، فبفضل همة «كوتاي سامه» (الإمبراطور) حققنا مستقبل البلاد.

لقد تمكنت من إعطائك هذه المعلومات باختصار أما التفصيل فيحتاج الى مجلدات.

والآن سأسألك أيضاً: نحن الآن في ١٢مارس (أزار) فهل إستقر الإنقلاب في تركيا وهل حقق الإنقلابيون الأمن وبدأوا بالعمل؟ (يقصد الإنقلاب ضد السلطان عبدالحميد في يوليو (تموز) ١٩٠٨).

إبراهيم: لا أظن، يقول التتار: لا عيد دون ذبح الضحية، فهل يقوم الإنقلاب بهذا الشيء، ليس بمقدوري أن أستوعبه.

إيتو:- الحقيقة أنني أستغربت كثيراً، فإن استطاعوا ضبط الأمور فمرحى لهم.

إبراهيم:- سننتظر، إن استطاعوا الصمود مدة عام فستظهر نتيجة الأمن الداخلي. أما الآن فإن الفتن لم تخمد بعد.

وبعد هذه الأحاديث عاد الأمير إيتو للحديث ثانية عن الاسلام.

رأي الأمير إيتو في الاسلام

معلوماتنا عن الاسلام ناقصة جداً ومن المؤسف عدم إتجاه اليابانيين إلى الإسلام، مع أن مسلمي منشوريا هم جيراننا. فلو قدم إلى اليابان قبل

ثلاثين أو أربعين عاماً رجال مثلك لأمكن تحقيق نجاح كبير، أما النصرانية فقد سبقت، ولكنها لم تلق القبول والنجاح. وأظن أن الأهداف السياسية التي يتوخاها المنصرون هي السبب في هذا الفشل، إنهم يصرفون الأموال الطائلة، ولكن نجاحهم لا يتناسب مع ما يصرفون من جهود وأموال، والواقع إن الذين يعتنقون النصرانية هم من أسافل القوم، ومن النادر جداً أن تجد أحداً من كبار الأسر دخل في الدين النصراني.

أما الاسلام فقد إنتشر بين أمم الشرق أكثر من غيرها، لذلك فانه يبدو لي أنه سينتشر بين اليابانيين بسهولة أكثر. ولكن لا أدري هل تتفق أمزجة الناس مع مسألة تعدد الزوجات؟ من المحتمل أن تكون هذه المسألة عائقا بعض الشيء، فتعدد الزوجات بين اليابانيين من الأمور النادرة ولا يعني هذا بأن التعدد معدوم.

إبراهيم: الإسلام ليس عبارة عن تعدد الزوجات، بل لا علاقة بين الإسلام والتعدد. لأنه ليس من الدين بالضرورة. إن الإسلام دين الفطرة والسهولة؛ فإذا أردنا أن نعرف الاسلام باختصار قلنا: إنه عبارة عن التوحيد ومكارم الأخلاق.

إيتو:- أرجو أن تعطيني فكرة عن مبادىء الاسلام.

إبراهيم: الإسلام كما ذكرت لك يرى أنه لابد أن يكون لهذا الكون من مؤثر حقيقي وخالق، لا يكفي تأثير الطبيعة فقط. إننا نعجز عن إدراك كنه ذلك المؤثر، لأنه فوق عقول البشر، لذلك ظهرت الحاجة إلى معلمين، وهم الأنبياء العظام، علموا الناس القوانين الالهية التي تحقق مكارم الأخلاق والأمن والطمأنينة، والتصديق بهم هو الإسلام. و يكون التصديق بكلمتين هما " لا إله إلا الله محمد رسول الله ".

إيتو:- ماذا قلت؟ هل لك أن ترددها ببطء؟

رددت كلمة التوحيد ببطء ثلاث مرات و رددها الأمير إيتو من بعدي.

إبراهيم:- فإذا إعتقدت مفهوم هاتين الكلمتين قيل لك بأنك مسلم، ستكون مسلماً من هذه الساعة، هذا هو الإسلام.

إيتو:- شيء عظيم؛ أنا لا أجد هنا شيئا لا يمكن تصديقه. جميل جداً.

لقد إتبعت هذا الأسلوب في كل وقت. ولم أسمع من هذا الرجل بعد ذلك كلاماً يناقض ما قال. وإنتهى حديث ذلك اليوم على هذا النحو. ومن الطبيعي أن يكون من المستحيل ضبط كل ماقيل في هذا اللقاء ولكن المضمون كان على النحو الذي ذكرت. وبعدها قمت بتسجيل وضبط كل محاورة قمت بها حسب الترتيب.

مكتبة توكوغاوه TOKUGAWA

يعتبر اليابانيون أن خدمة المعرفة مهمة مقدسة، ومن بين هؤلاء الماركيز توكوغاوه. وسأبين للقراء الكرام المكتبة التي إفتتحها هذا الرجل خدمة لأمته. إن المكتبة يجدر أن يقال عنه بأنه نموذج للفنون الجميلة؛ ولقد صرف على البناء فقط مبلغ ثلاثمائة ألف ين؛ وهو مايعادل أربعين ألف ليرة. إن المصاريف السنوية للمكتبة تبلغ ٢٤ ألف ين، و المكتبة في خدمة جميع القراء و تفتح أبوابها من الصباح إلى المساء، و قد أعد كل شيء من أجل المطالعة والاستنساخ؛ حتى الورق يعطى مجانا.

وتحتوي المكتبة على أكثر من ستين ألف كتاب، و أكثرها من الكتب القديمة النفيسة. وحسب ماقاله ناظر المكتبة فإنه من النادر أن تجد فيها كتباً حديثة؛ حيث يتواجد فيها كثير من المؤلفات و منها مخطوطات كتبها أباطرة الصين. كما أن من بين الآثار النفيسة ٢٤ صندوقا مليئا بحروف المطابع صنعت في كوريا من البرونز قبل أكثر من ثلاثمائة عام.

وهذه تشكل صفحات متكاملة، و يحتوي كل صندوق على ست صفحات. و هناك كتاب من خمسين مجلد طبع بهذه الحروف. و هذا يدل على وجود مطابع في كوريا قبل ثلاثمائة عام. إن مثل هذه الآثار القديمة كثيرة في اليابان، حتى القرى تجد فيها ما يشبه المتاحف. و أرى أن الحفاظ على مثل هذه النفائس القديمة يمكن أن يكون له دور في تطور

الأمة، لأن الانسان كلما راها تذكر ماضي أسلافه، فيكون هذا الماضي حافزا لأن يعمل المزيد في سبيل أمته.

دار سك النقود

حتى دار الضرب عند اليابانيين ممتازة.في دار الضرب بطوكيو تضرب (تطبع) العملة الورقية والأسهم، والطوابع المالية بكافة أنواعها و طوابع البريد و الأوراق النقدية.. أما الذهب والفضة فضربهما في مدينة كيوتو. لقد زرت دار الضرب بطوكيو. وكل آلات الطبع هي آلات على أحدث طراز. و يعمل في دار الضرب أكثر من ألفين وأربعمائة من العمال، ربعهم من الرجال والبقية نساء ؛ وكلهن من اليابانيات ليس فيهن أجنبية واحدة. ولقد أعجبت بالنظافة المتناهية أيما اعجاب. والموظفون والعمال في هذه الدار لايشبهون العمال في الدوائر والمصانع الأخرى. انهم أشبه بطلاب المدارس، كلهم في منتهى الأدب والرقة. حتى نقود وأسهم الحكومة الصينية تطبع في هذا المكان. ولهم قسم خاص ؛ وفي قسم العمل لاتجد صينيا واحدا أما في قسم الخزينة فموظف صيني واحد مكلف بتسلم المعاملات.

وكذلك تطبع في هذا المكان نقود الكوريين، والنقود الكورية هي نفس النقود اليابانية إلا أن عليها بعض الكلمات باللغة الكورية.

مسألة الزواج عند اليابانيين وحقوق الزوجين

والحياة عند اليابانيين خالية من التعقيد، وتتوافق مع عادات وأصول الأمم الشرقية، وكذلك الزواج، فلا تعقيد فيه أبداً. و يتم برضاء الوليين من الطرفين. إن الحجاب غير معروف لدى اليابانيين، والنساء سافرات، لكن النساء لا يختلطن بالرجال كما هو الحال عند الفرنجة. فللرجال

مكانة عند النساء، وعلى النساء أن يحترمن الرجال في كل الأحوال، والمرأة حرة في حركاتها و سكناتها في بيتها و لكنها لاتستطيع الذهاب إلى بيت أبيها دون إذن زوجها كما لا تستطيع مقابلة الضيوف إلا بإذنه و ضمن الآداب والأعراف.

وكل الأعمال المنزلية تقوم بها المرأة، كما عليها أن تشتري لوازم المنزل من السوق، وتغسل الملابس وتمسح الغبار عن مفروشات المنزل. وليس للبنت أن تزوج نفسها إلا برضاء والديها.

وخلال وجودي في اليابان، تقدم هيدئو HIDEO إبن المليونير الياباني الكبير إيواساكي IWASAKI ، وهو شاب جميل ووسيم في الثامنة والعشرين من العمر، لخطبة «تشي أوكوCHIOKO» إبنة رجل فقير إسمه ايتاغاكي تايسوكي ITAGAKI TASUKE، و البنت جميلة و وسيمة في السابعة عشرة من عمرها، و رضي كل أقاربها إلا الأب، فلم يتم الزواج.

وعلم بالخبر محرر جريدة «هوتشي شيمبون HOCHI SHINBUN»، فذهب لمقابلة والد البنت وسأله عن سبب عدم تزويج بنته لهذا الشاب فكان رده: أنا لا أبيع بنتي بالمال. يجب أن يكون الرجل متناسبا مع مستوانا. هذا يدل على أنه لا نكاح إلا برضى الولي.

وبعد أن قرأت هذا الخبر في الصحف ذهبت للتعرف على والد البنت، فهو فقير حقاً ولكنه إنسان تظهر عليه الرقة والأصالة.

فالنكاح لدى اليابانيين بشكل عام يتم برضى الأبوين، فهو يشبه ماعندنا من هذه الناحية. ويشترط أن يكون عمر البنت بين الخامسة عشر والعشرين، فلا يجوز نكاح من هي دون الخامسة عشرة، كما لا تشترط موافقة الولي لمن هي فوق العشرين.

حقوق الزوج على الزوجة

يجب أن يكون الزوج على علم بكل ماتفعله الزوجة، كما يجب ألا تقوم بأي تصرف إلا بموافقة الزوج، وعلى الزوجة القيام بتربية أولادها، وليس لها أن تتصرف بملكها الا بإذن الزوج، و نفقة الزوجة ليست واجبة على الزوج، ينفق عليها في حالة اليسر، و إلا فإنه لا يجبر. و يجوز له أن يتزوج بامرأة ثانية و له أن يطلق الأولى بشرط ضمان نفقتها، وبرضى الطرفين، و حكم الوليين. و المرأة اليابانية ليست لها حرية المرأة الأوربية كما إنها ليست مقيدة كما هي حال المرأة العثمانية. و مفهوم العرض و الشرف محترم لدى الأسر المعروفة إلا أن هناك من النساء غير معروفات الحسب و النسب لا حياء لهن. حتى العاهرات من النساء عندهم يتبعن قانوناً خاصاً يلتزمن به.

كيوتو - العاصمة القديمة KYOTO

كانت مدينة كيوتو عاصمة الامبراطورية حتى عام ١٨٦٨ ؛ عدد سكان هذه المدينة حوالي ٤٠٠ ألف نسمة. و القصر الأمبراطوري قائم فيها كما هو حتى الآن. و فيها عدد كبير من المدارس الإعدادية، و جامعة واحدة. وفيها أيضاً ثمانمائة معبد بوذي، و٨٠ معبد للشينتو. كما أن قبور أباطرة اليابان موجودة في هذه المدينة، و هي معروفة بأسماء المدفونين فيها منذ ألفي عام.ويعتقد اليابانيون أن ذلك لم يتأتى لأحد في العالم كله إلا لأباطرة اليابان، و لذلك فانهم يستشهدون بهذا التبرير أن للامبراطور صفة التأليه. وكل قبور سلالة الامبراطور «تسوهيتو» معروفة في مدينة كيوتو. يزورون كل قبر على حدة. وكلمة «ساما» تعني الألوهية. والله عندهم هو «كامي ساما».

زرت مدينة كيوتو، وبقربها وأكبر منها مدن شهيرة مثل كوبي KOBE وأوساكا و نارا. وقبل كيوتو كانت «نارا» هي العاصمة، ووضعها الحالي أشبه بمدينة صغيرة، وهي موغلة في القدم ؛ و فيها معبد للشنتو بني عام ٦٠٧ من ميلاد المسيح عليه السلام. تجولت في هذه المدن و تعرفت فيها على كثير من الناس. و في مدينة كوبي حوالي ٢٥ من المسلمين الشيعة الهنود. وفي أوساكا ثلاثة أو أربعة من المسلمين الهنود. وفي يوكوهاما ثلاثة وفي ناغازاكي خمسة وهؤلاء كلهم من الهنود. وفيما عداها من الجزر اليابانية لايوجد أي مسلم.

ومع أنه أشيعت في العالم الإسلامي أخبار كثيرةعن «الاسلام في اليابان» ولكنه تبين أن هذه الأخبار لا أصل لها. الا أنه مما لاشك فيه بأن الاسلام سينتشر في اليابان فيما بعد، لأن الشعب الياباني بطبعه قريب من الاسلام، وكثير من الأخلاق الحميدة التي تعتبر من القواعد الاسلامية هي من فطرة اليابانيين. فالنظافة والحياء والصدق والثقة والأمان والكرم والشجاعة صفات متأصلة في نفوس اليابانيين. وخلال إقامتي في يوكوهاما، سهر على خدمتي شابان أحدهما في السادسة عشرة والثاني في الثامنة عشرة من العمر. ولما حان موعد الرحيل أردت ترك بعض الحاجيات الشتوية التي لم أعد أحتاجها لدخول موسم الصيف، ورغبة في التخفيف علي في الطريق. قلت لأحدهما وهو يامانا YAMANA: إن كانت هذه الحاجيات تلزمك فخذها، فإني سأتركها لك.. أما يامانا فقد قال لزميله ساساكي: إن إبراهيم ترك بعض الحاجيات فخذها أنت. و بعد قليل جاء ساساكي وقدم لي الشكر ثم حمل تلك الحاجيات. قلت: أعطيتها ليامانا. قال: نعم و يامانا قال لي بأن آخذها، فأخذها وذهب شاكراً. ثم إنني رأيت يامانا وسألته:لم رفضت تلك الحاجيات؟

قال:- إن صديقي ساساكي أفقر مني، له أب عجوز و أم، فهو أكثر حاجة مني اليها.

أنظروا إلى هذا الخلق. فلو باعها لدفعوا له مايعادل خمس مجيديات على الأقل، لقد اثر الخادم صديقه على نفسه، و هذا الصديق هو مجرد إنسان تعرف عليه فحسب. و عندما يرى الإنسان مثل هذه الأمور يعجب من المكارم الكامنة في الفطرة البشرية.

إحراق جثث الموتى

ذكرت فيما سبق كيف يعامل البورات البوذيون موتاهم، كما شرحت عقيدتهم الخاصة بالموتى. وسأشرح الآن عقيدة البوذيين اليابانيين ومعاملتهم لموتاهم، وكلا المعاملتين تجريان وفق المذهب البوذي.

وخلال إقامتي في طوكيو توفي أحد معارفي، فأبلغوني بضرورة حضور جنازته. وكنت أرغب برؤية جنائزهم. وإني كنت أعلم بحرق اليابانيين لجثث موتاهم، لكنه من المؤكد إني لا أعرف كيف يحرقون أجساد الموتى حتى أحضر مراسم الجنازة، ولهذا فقد شهدت إحدى الجنائز. في بداية الأمر إجتمع أقارب الميت في مكان واحد، حيث أعلنت زوجته بأن الميت لم تعد له علاقة بأحد، فان كان لأحد مع الميت أي علاقة مالية فإن هذه العلاقة إنتقلت إليها و هي تتحمل تبعاتها. كما أعلنت بأن هذا الجسد جاء من ديار العدم، وسيذهب غداً إلى ديار العدم بعد إحراقه، ولذلك فمن يريد إلقاء النظرة الأخيرة فعليه الحضور إلى منزله في التاسعة من صباح يوم الغد، وأن أقاربه سيكونون هناك باللباس الأبيض من النمط الفلاني، وانه سيجري توزيع أخر هداياه إلى أقاربه.

وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي أتيت إلى منزل الميت، ووجدت هناك إثنين من رجال الدين. أبلغتني زوجته بأنني سأرافق الجنازة بالريكشة رقم ٨٦٤، حيث ستكون قريباً مني أركب فيها في الوقت الذي أشاء.

كان الميت مسجى في تابوت خشبي جديد، وغطي التابوت بالشال. يقوم الزائر برفع الغطاء عن وجهه وينظر اليه مرة ويقول بعض الكلمات

ثم يغطيه. وفي الساعة التاسعة إلا عشر دقائق، نفخ في مزمار، فاجتمع الناس حول التابوت، وحملوه في تمام الساعة التاسعة، وخرجوا به. كان الموكب عدة مئات من أقارب الميت وأصحابه. واتجه الموكب إلى المحرقة.

وصلنا الى المحرقة في الساعة الحادية عشرة. و المحرقة أشبه بالمصنع، و الإحراق هنا على درجات، كل درجة لها أجرة خاصة، فالدرجة الأولى أجرتها ١٨ ين، والثانية ١٢ ين، والثالثة ٥ ين.

وفرن الدرجة الأولى في مبنى مستقل، يستقبل تابوتين فقط. والإحراق يكون عند الطلب ويعطى الرماد بعده لأصحابه. أما فرن الدرجة الثانية فهو في مبنى مستقل أيضا لكنه يستقبل ١٢ تابوتا دفعة واحدة. أما أفران الدرجة الثالثة، فتحرق ٤٠ - ٥٠ ميتا بآن واحد، وقد أدخلنا الميت الى فرن الدرجة الثانية.

والفرن يشبه الفرن الذي نعرفه، والنار تشتعل من أسفله. وهناك عربة حديدية تدخل إلى الفرن وتخرج منه على سكتين حديديتين. وفي داخل العربة شبك حديدي بطول الميت، وضعنا التابوت على هذا الشبك الحديدي و دفعنا بالعربة إلى داخل الفرن. و بعد إغلاق باب الفرن آليا ختمناه بخاتمين: الأول خاتم مديرية الفرن والثاني خاتم ولي الميت. وبعد قراءة دعاء الوداع عدنا إلى البيت.

وهكذا تركنا الميت في الفرن. وكل من له ميت يذهب به إلى أحد الأفران حسب مقدرته المالية. يودعه هناك ويختم على بابه بختمه الخاص.

وفي الساعة الواحدة ليلا توقد الأفران جميعاً. و تحترق الأجساد عن آخرها، وحرارة الفرن تعرف في القسم الفني بإدارة الفرن. و في صباح اليوم التالي إجتمعنا في منزل الميت، وهذا اليوم لا يحضره الا أقارب الميت، وكنت أنا معهم. ركبنا الريكشات و توجهنا مباشرة الى المحرقة، استقبلنا المدير، سلموه الأوراق الرسمية والختم الذي أخذوه بالأمس. ومن هناك جئنا الى الفرن مباشرة، فقاموا بفحص الختم أولاً. وجاء الوقاد

ففتح باب الفرن وأخرج عربتنا فقام كل واحد بجمع الرماد بعصاتين صغيرتين ليضعه في قارورة خزفية كبيرة. كما قامت زوجة الميت بجمع أسنانه في زجاجة تشبه الدواة ورأينا أناسا آخرين في أفران أخرى يجمعون رماد موتاهم مثلنا. وبقيت عملية نقل القارورة الخزفية الى القبر، وهنا يمكن تأجيل الأمر الى أن تسمح الظروف أو يجتمع الأقارب، وقد يستغرق التأجيل شهوراً عديدة، توضع بعدها القارورة الحاوية للرماد في القبر المعد لها.

هذه هي مراسم الجنازة عندهم، فقد استطعت بمحض الصدفة أن أرى طريقتهم في حرق الأموات و لكنني أثناء عودتي تأثرت كثيرا. لقد جالت في خاطري أمور كثيرة. فالإنسان قد يوافيه الأجل فيموت في بلاد الكفار والمجوس؛ فكرت كثيراً. وقانا الله من الشر. فاذا جاء الأجل وأنا في هذه الديار... إنه شيء مؤلم حقاً.

وإحراق الميت ليس واجبا في عقيدة اليابانيي. فبعض الناس يدفنونه دون إحراق. فالدين البوذي له مذاهب شتى، البعض يحرقون الجثة والبعض يدفنون، والبعض الآخر يرمونها في العراء. ففي اليابان وحدها تنقسم البوذية الى خمس وثلاثين فرقة، وكل هذه الفرق أصلها بوذي.

لو فكر المرء طويلاً في الأفعال التي قام ويقوم بها الناس باسم الدين والمذهب، فانه يرى بأنهم يقومون بها بنوع من الاحساس بالطاعة المعنوية.

ليس الأمر إعتباطا و إنما بشيء متصور في القلب، أو على الأصح هناك أمر معنوي. فالغاية من هذه الأفعال ليست إلا الوصول إلى رضا الآمر. إنهم يطيعون الأمر سواء كان الأمر إحراقا أو إغراقا.

لذلك فقد فكر الامام الغزالي في هذه الأمور و قال:" إن مقصد كل الطالبين واحد، فان كانت هناك أخطاء فبطريقة الطلب. " و إلا فلماذا يرمي الانسان أباه أو أمه أوابنه أو بنته في النار؟ فلولم تكن هناك طاعة طبيعية، لما رضي بذلك أحد. وهذه هي النقطة الأساسية في عجز العبد،

فإذا فكر الانسان في هذه الأمور، فإن عقله يضطر لأن يقبل كل شيء، حتى أكثرالناس بعداً عن الدين يرضخ لشيء هو من الدين تبعا.

الديانة البوذية

تطرقنا سابقاً للديانة البوذية بشكل عام وأوردنا عنه بعض المعلومات. وسأورد هنا بعض المعلومات عن المذهب البوذي في اليابان. هل هناك نبي مرسل إلى اليابانيين؟ إن الآية الكريمة ﴿وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ تدل بصورة قاطعة على أن اليابانيين أيضا قد جاءهم رسول. إذن من هو، و متى أرسل اليهم؟ إنه أمر نجهله. لذلك لا يمكننا أن نقول شيئا في هذا الصدد. و مع ذلك فلن نترك الأمر دون ملاحظة.

إن لليابانيين تاريخاً عمره ألفان وخمسمائة عام، معروف ومضبوط. ولا يعرف اليابانيون نبيا مرسلاً خلال هذه الفترة.

إذن فما هو الدين البوذي الذي إعتنقه اليابانيون؟ يمكننا أن نقول بأن الكتب الإسلامية لا تذكر شيئاً في هذا الموضوع.

اننا نعرف أن الأديان ثلاثة: الإسلام و النصرانية و اليهودية أما ما عداها فنسميها بالمجوسية. و ماذا عن الأديان المجوسية؟ إننا لا نعرف شيئا عنها، مع أن أكثر أهل الأرض هم من المجوس. فهل أرسل الله اليهم أنبياء؟ أو هل يلزم دعوتهم إلى الدين أم لا؟ فإذا لزم، فعلى من تقع مسؤلية الدعوة؟ إن الذين سبقونا لم يخطر ببالهم شيء من هذا. لقد عاش المسلمون في غفلة دائمة ؛ فسروا حديث رسول الله ﷺ «لأن يهدي الله بك رجلاً، خير لك من حمر النعم» على المصادفة، و لم يتذكروا أبداً بأنه ينبغي الإجتهاد والبحث عن الناس لهدايتهم.

ثم نقوم فنقول للناس بأن نبينا هو آخر الأنبياء فلا نبي بعده إلى يوم القيامة.ففي هذه الحالة كيف نفسر قول الله تبارك وتعالى ﴿وما كنا معذبين

حتى نبعث رسولا»؟ أظن بأن على علمائنا أن يفكروا في هذا الأمر.و إن لم نتذكر فسيذكرنا غيرنا، خاصةً و أن أعداء الدين يبحثون في مثل هذه الأموردائما.

والآن أريد أن اقول بأن تعاليم المذهب البوذي في التيبت شيء، وتعاليم البوذيين في اليابان شيء اخر، و تكاد ألا تكون أية علاقة بين المذهبين في كثير من الأمور.هناك فرق كبير في المعاملات وفرق كبير في العبادات والصوامع، وفرق في أساس الدين. فعقيدة اللاما في التيبت تنص على «أن هناك ذات يستحق أن يعبد، يجب البحث عنه، و مهمة العبد البحث عن هذه الذات». وهذا يعني التوحيد. و الخطأ عندهم هو في اتخاذ الأصنام. فاذا قام علماء الاسلام بتصحيح هذا الخطأ فالأمل قائم في عودتهم إلى طريق الإسلام.

أما البوذيون اليابانيون فانهم ينكرون الألوهية أساساً و لكنهم يصدقون الخوارق، فإذا رأوا في أحد من الناس خارقة من الخوارق بادروا إلى وصفه بالألوهية. والخوارق عندهم ليست مثل ماعندنا، فالإبداع شيء، وإقناع الناس به هو من الخوارق، وألوهية الميكادو تولدت من هذه الجهة، فقد جمع شمل الأمم المتفرقة، وهذا يعني أنه يملك القوة، فهذه القوة عندهم هي قوة الألوهية.إن هؤلاء القوم ينسبون اليه القوة و لكن الصحيح إن المعبود يملك طاقة فوق طاقة البشر. و حتى البراهما فإنهم يصفون كل جديد بالاله، وأظنهم بذلك يشبهون اليابانيين في إعتقادهم. فالبراهميون يؤلهون السحرة؛ و في الفترة الأخيرة ألهوا الكهرباء والهاتف والقطار.

فاذا أخذنا كل هذه الأمور بعين الاعتبار، ولاحظناها بتعمق وتوسع لرأينا كما قال الامام الغزالي أن مطلبهم واحد لكنهم أخطأوا في الطلب.

وانطلاقا من هذه النقطة فقد صرفت جل اهتمامي على قضية الدين في اليابان، ولفت أنظار كثير من اليابانيين إلى هذه النقطة. و قد لاحظت في أصحاب العقول ميلهم السريع الى ما عرضته عليهم من هذه الناحية.

لقاء مع أوميهارا OMEHARA

أوميهارا، أحد الرؤساء الروحيين في اليابان. وقد تعرفت على هذا الرجل بمحض الصدفة، ثم جرت بيننا أحاديث كثيرة حتى توطدت العلاقة. و ذات يوم قال لي: لقد فقد المذهب البوذي أساسه. و في اليابان بشكل خاص إبتعد المذهب البوذي إبتعاداً كبيراً عن الأصل. لقد كثرت الآلهة عندنا، بحيث لم يعد بمقدورنا أن نحصيها، وبعد خمسين عاما سيكون الأمير إيتو و موتسوهيتو MUTSUHITO من ضمن هؤلاء الآلهة. إنني كلما تذكرت هذه الأمور اقشعر بدني. فلوا أقمت معنا هنا طويلا لعملنا سوية على ربط هذا الدين في أساس متين. إن عدد أتباعي يزيدون عن عشرة آلاف، يرضون بكل ماأقوله لهم، لذلك فانني أفكر فيهم أكثر مما أفكر في نفسي. لقد ربط كل هؤلاء الناس مصائرهم بضميري، فكيف لي أن ألقنهم دينا أشك في صحته. لذلك فاني أعاني من عذاب الضمير.

أُنظروا إلى هذا الرجل وهذا الضمير! إنه يحس بعذاب في ضميره من تلقاء نفسه. لقد توطدت صداقتي مع هذا الرجل عبر اللقاءات والأحاديث الصادقة، وفي إحدى المرات دعاني الى إلقاء محاضرة عن الدين والأخلاق في منطقة قاندابِاشي بطوكيو، وطلبت وقتها تأجيل مثل هذه المحاضرة إلى موعد آخر لاعتبارات لم أشأ أن أذكرها، فتأجلت.

لقاء مع هيجيكاته HEIJIKATA وزير البلاط

هيجيكاته وزير البلاط في القصر الامبراطوري صديق قديم للإمبراطور، ذو إطلاع واسع وجدير بأن يقال عنه انه التاريخ الحي لليابان. إجتمعت بهذا الرجل عدة مرات ونزلت ضيفا عليه في بيته، وحصلت منه على كثير من المعلومات، لأنه أحد أقدم رجالات اليابان، و أكثر الناس خدمة للقومية اليابانية، و قد نزل الإمبراطور ضيفاً خاصاً عليه، فهو قرين الميكادو.

ولم يحدث أن نزل الإمبراطور ضيفاً عند أحد أتباعه بإستثناء هيجيكاته. لذلك فإن لهذا الرجل مكانة خاصة عند الشعب الياباني.

وذات يوم نزلت ضيفاً عليه، فاستقبلني في بداية الأمر على الطريقة الأوربية، وبعد إستراحة قصيرة في صالة الاستقبال، قدم لنا خلالها كوبا من الشاي قال: لقد قمت بالواجب الرسمي. إن هذا المكان خاص للضيوف الأوربيين، فإذا تفضلت ذهبنا سوية إلى صالتنا الخاصة، نجلس ونتحادث طويلاً. ثم نتجول في الحديقة.

غادرنا الصالة المفروشة على الطراز الأوربي، ودخلنا غرفة يابانية صغيرة ضمن الحديقة. لقد كانت مفروشات الغرفة عبارة عن ثلاثة طراريح (مجالس صغيرة على الأرض) وموقد للنار، مثلها مثل أي غرفة عادية في أبسط منزل ياباني.

وعندما دخلنا المكان قال هيجيكاته: - عفواً لقد كبرنا هنا، و ترعرعنا وتربينا، فلا نجد الراحة إلا في هذا المكان، لذلك فقد دعوتك إليه. نحن شرقيون، نحب الحديث على الطراز الشرقي.

وبشكل عام فان اليابانيين قوم يفكرون كثيراً. فلا يقولون شيئاً إلا بعد التفكير، حتى في ساعات الهزل يفكرون، ثم يقولون مايريدون. وهيجيكاته رجل إشتهر بين اليابانيين بالتفكير الطويل. فبمجرد النظر إلى ملامح وجهه يعرف بأنه إنسان مفكر. وعندما يتكلم يتكلم كلمة فكلمة. لذلك فإنه يمكن ضبط كلامه كاملا لأنه عندما يتكلم، يتكلم وهو يفكر.

و أثناء وجودي في منزله جرى بيننا الحديث التالي فور دخولي إلى منزله حيث نظر إلي وقال:- لم أر في عمري تتارياً من داخل روسيا، أنت أول من أراه في حياتي و لكني قرأت كثيراً عن التاريخ التتاري، انني أكن حباً خاصاً للتتار منذ أمد بعيد. و أحترم تيمور بصفة خاصة، فهو من أكبر رجال هذا الكون، وان وجود رجل من نسل ذلك العظيم في بيتي لذكرى لايمكن أن أنساها. و لذلك فقد أسعدتني هذا اليوم، و إني أشكرك على هذا التفضل. إنني لا أعرف شيئاً عن التتار الحاليين و لكن أملي بأن أمة لها

مثل هذا الماضي العظيم سيكون مستقبلها أكبر من ماضيها. قد يعتريها تعب وركود، فلا بأس، فالأسد أسد في كل الأحوال و لقد قال القدماء: إن الأسد لا يعيبه الوقوع في الأسر.

أريد منك الآن بعض المعلومات عن حاضر التتار ومستقبلهم، أظن بأن في روسيا كثير من التتار أليس كذلك؟

إبراهيم- إن عدد التتار في روسيا كبير جداً. يقدر بثلاثين مليوناً و لكنهم تأثروا كثيراً من طول الأسر و الظلم و الاستبداد، فالروس لم يعطوا الفرصة للتتار لأن يتنفسوا. لقد عملوا ما بوسعهم في حرمانهم من العلم والمعرفة ولم يكتفوا بالقضاء على كيانهم، بل عملوا على إضعاف إمكاناتهم وتدميرها، لم يتركوا شيئا يؤمل فيه و لكن التتار لم يعتريهم اليأس، ان نشاطهم الفطري باق كما هو لم يتأثر، فان لم يطرأ عليهم فتور اخر فبإمكانهم أن يسعوا جاهدين ليفرضوا وجودهم مرة أخرى في المستقبل، أما الروس أيضاً فسيعملون بكل وسعهم كي لا تفلت زمام الأمور من أيديهم.

هيجيكاته- يمكن للناس أن يصطادوا كل شيء ولكن على الأسد أن يحطم السلاسل (قالها مبتسما).

ماهي أوضاع التتار المعيشية في روسيا بشكل عام؟ وهل فيهم أصحاب ثروات ورتب وصناعات؟ وما عدد التتار في مجلس الدوما؟

إبراهيم- التتار بشكل عام فقراء، لقد حافظوا على قوميتهم ولا يزالون محافظين في معايشهم. فالناظر إلى قرية تتارية يعرفها بأنها تتارية من أول نظرة، فلا تشبه قرى الروس أبدا، وفي داخل البيوت بصورة خاصة تجد النظافة عند التتاري في مستوى النظافة عند أغنى وأعرق الأسر الروسية، ومجمل القول فأن التتار لم يغلبوا في عاداتهم و أخلاقهم أبداً. حتى أن الولايات التي يكثر فيها التتار تجدهم المسيطرون على الروس حتى و لو كان الروس هناك هم الأغلبية. و في مدن أوفا و قازان لا يعرف التتار اللغة الروسية، بل تعلم الروس اللغة التتارية، و يتكلمونها مثل التتار تماماً.

إننا إذا نظرنا إلى الأمور نظرة سطحية، نقول بأن عدم معرفة التتار اللغة الروسية نقيصة فيهم، ولكن إجبار من حولهم على تعلم لغة قومهم، يعتبر نوعاً من التفوق و الغلبة الطبيعية. إن أكثر الروس في بعض الولايات يتكلمون فيما بينهم باللغة التتارية. كما إن الأرياف القرغيزية أصبحت اللغة التتارية فيهاهي اللغة الغالبة و العامة، و ستعم اللغة التتارية بعد الآن و تتوسع. و في بعض الولايات يعلن الكثيرون إسلامهم بسبب هذه اللغة.

أما بالنسبة لأهل الثروات وأصحاب الرتب، فهم للأسف قليلون، وليس فيهم من يملك ثروات ضخمة، وهناك بعض من أصحاب المصانع وتجار يملكون عدة ملايين وفيهم تجار مشهورون ومهرة.

ويمكننا أن نقول بأنه ليس فيهم أصحاب رتب، ولايمكنهم أن يكونوا من أصحابها لأن القوانين الروسية لاتسمح بذلك. وفي الخدمة العسكرية أقصى مايصل إليه التتاري هي رتبة أميرألاي (عميد) فما أن يصل الى رتبة باشا (جنرال) حتى يحال على التقاعد. أما في الوظائف المدنية فأقصى مايصل إليه التتاري هي وظيفة المدعي العام، و لا يمكنه أن يتعداها، فاذا تعداها فيعني أنه قد إختار التقاعد. هذا هو القانون المعمول به هناك. بالاضافة الى أن التتار ليست لديهم الرغبة في الوظائف الحكومية.

هيجيكاته- بالرغم من أنني لا أعرف شيئاً عن أحوال و طبائع التتار، فلقد سمعت من بعض ضباطنا، بأن الجنود التتار قاموا بأعمال كبيرة أثناء الحرب الروسية - الصينية وكذلك أثناء الحرب الروسية - اليابانية. إن الأفراد التتار في المفارز العسكرية الروسية إشتهروا بجلدهم في الحروب، وأظهروا فيها بطولات.

وهذا دليل على أنهم إحتفظوا بحيويتهم المعنوية. وفي هذه الحالة فقد يأتي يوم، يسخرون فيه هذه القوة لمصلحة أمتهم، و لا شك إنهم بذلك يحققون نجاحا كبيرا خلال وقت قصير.

ومن المعروف بأن الأسر إذا أثر في الحياة المعنوية، فانه لا أمل يرجى من تلك الأمة. لقد إشترك في الحرب الصينية جنود هنود:الخيول التي

كانوا يركبونها جميلة جداً وسلاحهم وعتادهم متطور، واللباس على أحسن مايرام، وعلى رؤوسهم عمائم ضخمة ولكنهم لم يستطيعوا المقاومة في كل الحروب التي إشتركوا فيها أكثر من ساعتين أو ثلاثة، ومن النادر أن يقاوموا خمس ساعات، وسرعان ما يتراجعون. لقد خبر بهذا الوضع جنودنا وضباطنا وعرفوا نفسيتهم.

إبراهيم- نعم فان الجنود التتار من هذه الناحية يمتازون عن غيرهم. لقد عرفوا في حروب أخرى بهذه الميزات، فالتتار بلا شك محاربون بالفطرة، هذه الحقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها و لكن الظلم قد أثر فيهم كثيراً.و مع ذلك فإننا لن نيأس.

هيجيكاته- ما درجة رغبة التتار في تعلم القراءة و الكتابة؟ إن فن القراءة والكتابة يبشر بمستقبل كبير.

إبراهيم- انهم من هذه الناحية يتفوقون على الروس أضعافاً مضاعفة. فقبل عشرين أو ثلاثين عاماً، كان التعلم متأخراً جداً، أما الآن فإن عدد المدارس الابتدائية كبير و يزيد دائماً، ومن النادر أن تجد قرية لا مدرسة فيها. أما الروس فليست لديهم مدارس، سوى المدارس التي انشأتها الدولة.

هيجيكاته- هذا جميل، و فيه أمل كبير ومشرق، فالعلم كان الوسيلة الأولى لتطور اليابان. إن أساس الحضارة و الرقي بدأ منذ اليوم الذي جعلنا فيه تعلم ست سنوات إلزامياً. و صار الناس يدركون كل شيء، و بدأنا نقطف ثمار التعليم.و أعتقد بأن التتار لو استطاعوا أن يستغلوا جهل الروس فهو بحد ذاته نجاح و توفيق. و الأتراك العثمانيون إذا تطوروا فسيكونون دعماً كبيراً للتتار، فهم يدافعون عن الحقوق المشروعة للتتاركما إنهم يمارسون ضغوطا مستمرة على روسيا.وفي رأيي فان الاتراك سيستفيدون من ذلك،و بشكل خاص فان علاقتهم ستتطور حيال مشكلة البلقان، ذلك لأن الروس يشاغلون الحكومة العثمانية بدعاوى النصرانية والسلافية.

كنا نتكلم في هذا الموضوع بين بعضنا البعض و لكننا لم نكن ندرك حقيقة الوضع، والشيء الوحيد الذي كنا نتذكره هو إن التتار و الاتراك من أصل واحد، و يدينون بدين واحد، و لابد أن يأتي يوم يتكاتفون فيه.

إبراهيم-إن كون الاتراك و التتار من نسل واحد فذلك يبشر بامل كبير و هو أمر مؤكد، فقد أصبحت القضية القومية في القرن العشرين قضية كبرى، بالإضافة إلى أننا إذا أخذنا مسألة الشرق بعين الإعتبار، فإن أملنا بأن يكون اليابانيون أيضاً ظهيرا لنا في المستقبل.

إن أهم قضية نواجهها هي قضيةالحياة،وبهذه القضية ستكون لنا علاقات مع اليابانيين أيضاً. فالأوربيون الذين يرون أن حياتهم في مصائبنا لا يريدون لليابانيين أن يبقوا على ما هم عليه.و لذلك فانه من المحتمل أن نقف معاً صفاً واحداً.

هيجيكاته- الواقع إننا قوم واحد وجنس واحد، يمكننا أن نتفق و إن لم تتفق مصالحنا، هذه الرغبة ستكون عند اليابانيين بنفس القدر الذي هو عند التتار. فلا يمكن لأي ياباني أن يساوي بين التتاري و الروسي، فهو يكن عداوة دائمة للروس بينما يكن محبة دائمة للتتار. لقد التقيت بكثير من الرجال الروس، وكثيرون منهم يأتون لزيارتي و لكنني لم أستقبل أحداً منهم في هذه الغرفة. إن هذه الصداقة الحميمة بيننا من أول لقاء أرجعها إلى وجود هذه الرابطة المعنوية.

وبعد ذلك شربنا الشاي، وأكلنا الفواكه، ثم قال: إذا رغبت برؤية حديقتي لنقم ونتنزه قليلاً، فإن حديقتنا لا نظير لها في اليابان. لقد غرست في حديقتي منذ القدم كافةأنواع الأشجار المثمرة، و تركتها على حالها، تركتها على الفطرة دون تدخل خارجي، لذلك فان فيها لطافة خاصة.

خرجنا الى الحديقة نتنزه قال هيجيكاته: - أُنظر جيداً، فلن تجد شجرة تزينت بفعل تدخل خارجي، لقد جربت ذلك، و تأكدت بأن التزيين الحاصل بفعل المقصات وخلافها، يقصر من أعمار الأشجار، كما إنه يفقد الثمار لذتها الطبيعية، وعمر الأشجار أيضا يقصر بفعل التربية

الخارجية إن جاري وزير المالية له حديقة، يعتني بها البستانيون أيما اعتناء ولكن ثمارها ليست بلذة الثمار في أشجار حديقتي.

ان موتسوهيتو (الإمبراطور ميجي)، إنسان يحب الطبيعة كثيراً، عندما نزل ضيفاً عندي تجول في أنحاء الحديقة كلها، ثم عاد وجلس في هذا المكان، وتخليداً لذكراه وضعت هذه الحجرة هنا، تفضل واجلس. (في هذا المكان حجرة إرتفاعها أربعة أذرع.) فقد قال لي وقتها: إن اللطافة التي لمستها في حديقتك لانجدها في حدائقنا. وقد حفرت هذه العبارة على هذا الحجر.

إذا رغبت نطلب لك فواكه، وتستريح هنا قليلاً. فإن موتسوهيتو جلس في هذا المكان وأكل فاكهة.

وبكل فخر جلسنا، وأكلنا بغض الفواكه. كانت هذه الإستراحة ذكرى جميلة. ثم قال: لتكن الذكرى أجمل وأكبر، لنجلس سوية أمام هذه الحجرة، وليأت المصور ويلتقط لنا صورة.. وأرسل في طلب المصور ولكنهم لم يجدوه، و بذلك لم تسمح الظروف بأخذ الصورة. و هكذا كانت الجلسة الطيبة مع هيجيكاته، ثم كان الوداع.

فضلي بك المصري

في أحد الأيام وبينما كنت أتجول في أطراف طوكيو، صادفني أحد الأحباب فقال لي:- ان تركياً يعيش في هذه القرية، وسمعت بأنه يريد لقاءك.

فلما سمعت كلمة التركي دخل في قلبي سرور مفاجىء لا يمكن وصفه؛ ذلك بأنني لم أر مسلما منذ شهور. سألته:أين هو؟ و عرفت عنوانه، فصرت أبحث عنه، وجدته كما هو مبين في العنوان، فهو في قرية إسمها نيبوري (الآن في قلب طوكيو - الساداتي)، قدمت إلى المنزل المسمى «ميكازوكي كان MIKAZUKI- KAN» ويعني (الشمس والهلال)

دخلت من الباب ؛ فاستقبلتني فتاة يابانية، قلت: سمعت بأن في هذا المكان تركي ! قالت: ليس بتركي و إنما عربي.

وعندما أضافت بالعربية: «هو زوجي» عجبت كثيرا، فتاة يابانية وتتكلم باللغة العربية، و زوجها عربي!.. سألتها: أين زوجك؟

- تفضل، سيأتي الآن، وفي هذه الأثناء خرجت من الغرفة عجوز يابانيةوقالت: سلام عليكم، تفضلوا خلعت نعلي ودخلت المنزل. رأيت صورة، انها صورة ضابط مصري. قالت الفتاة: هذا زوجي.

شيء عجيب!.. الغرفة مكتبة عربية؛ على المنضدة صحف مصرية؛ كنت أنظر بحيرة عندما أقبل من الباب رجل، فقامت المرأة الشابة نحو الباب وقالت: «زوجي جاء».

- سلام عليكم أحمد فضلي.

مد يده مصافحاً وقال: وعليكم السلام عبد الرشيد ابراهيم. بقيت عنده تلك الليلة ضيفاً، إنني أشعر بغاية الراحة و أعتبر نفسي و كأنني في بيتي.

وأحمد فضلي شاب غيور، من أصول تركية ؛ ولد في القاهرة، ونشأ وترعرع هناك، و درس في المدارس العسكرية، يجيد اللغتين الانجليزية والفرنسية، و متمكن من الأدب العربي؛ إشترك في حرب السودان ؛ خبر ظلم الانجليز ففضل ترك الوطن و إختار الغربة.

في البداية، طلب إجازة و سافر إلى اليابان. و بعد أن أقام عدة شهور، تزوج بفتاة يابانية من قرية قرب طوكيو اسمها «نيبوري»، ثم إصطحب زوجته ووالدتها إلى مصر، فأسلمت زوجته في القاهرة، وأقامت معه هناك مدة عامين تعلمت خلالها شيئا من اللغة العربية، ثم عادا معاً الى تلك القرية، ويقيمان الآن هناك. وإشترى أحمد فضلي في تلك القرية بيتين صغيرين، سكن في أحدهما و إستثمر الآخر ؛ فهو يعيش بهذه الصورة.

صرت أتردد على هذا المنزل وكأنه منزلي. و فضلي يجيد اللغة الانجليزية، و هو شاب فاضل و نشيط؛ و من الواضح أن على مثل هذا الشاب ألا يجلس دون فائدة في بلد مثل اليابان.

وذات يوم، بحثت مع الكونت اوكوما موضوع القاء السيد فضلي محاضرة عن الدين الاسلامي بجامعة واسيداWASEDA.

إن أول محاضرة عامة عن الاسلام كانت في جامعة واسيدا بمدينة طوكيو عاصمة اليابان يوم الاثنين الأول من شهر ربيع الأول عام ١٣٢٧ للهجرة. قام الأديب الفاضل أحمد فضلي بك بالقاء محاضرة طويلة عن الدين الاسلامي باللغة الانجليزية. كان عدد الحاضرين حوالي ألفين، وكلهم من طلاب الجامعة. إستغرقت المحاضرة ثلاث ساعات كاملة؛ استمع اليها الطلاب بكل اهتمام. وللأسف لم أتمكن من ضبط ماقاله في المحاضرة لجهلي باللغة الانجليزية.و لكنني سأعرض وصفاً للمحاضرة، لأنها ستكتب في أنصع صفحات التاريخ الاسلامي.

فضلي بك شاب وسيم، طويل الجسم، متناسق الأعضاء، حليق الشعر والذقن والشارب؛ يلبس لباساً أوربياً جميلاً. توجه إلى منصة الخطابة في صدر الصالة وسط تصفيق الفين من طلاب الجامعة، وعلى محياه نور الإيمان و العرفان. في البداية إنحنى قليلاً محيياً الحاضرين، ثم تناول عصاة دقيقة من على المنضدة و ذكر محمداً عليه الصلاة و السلام، والتفت نصف التفاتة إلى اليمين فأشار بالعصاة إلى موقع مكة المكرمة في خريطة اسيا المعلقة على الجدار و قال: في حديثنا هذا اليوم سنتكلم عن الدين الإسلامي الذي شع نوره من هذا المكان.ثم بعد ذلك فصل في تاريخ انتشار الاسلام، مشيرا إلى أماكن إنتشاره وإستمر يلقي المحاضرة مدة ثلاث ساعات كاملة، قوطع خلالها بالتصفيق الحاد عدة مرات، وهو يقابل ذلك بإبتسامة لطيفة. وفي الحقيقة إن فضلي بك انسان يشع منه نور الايمان. لايمل المرء من النظر اليه، إنه بطل من الأبطال،كل همه هو الدفاع عن الإسلام ضد إفتراءات المنصرين، يقتبس من كلام كارليل في كتابه عن النبي محمد ﷺ في صدق النبوة، فكان يستشهد في المحاضرة بكلامه. وفي ختام المحاضرة قال احمد فضلي:نحن لا نجبر احداً على إتباع ديننا إن واجبنا الدفاع عنه تجاه إفتراءات المنصرين، لذلك فإن

مضمون حديثي هنا كان في اكثره من قبيل الدفاع، إلا أن الحقيقة التي يجب أن نقولها تتلخص بجملة واحدة: لا حاجة لإثبات ضوء الشمس (وغادر منصة الخطابة وسط تصفيق طويل).

وبعد انتهاء المحاضرة سألت كثيراً من الحضور عن رأيهم في محاضرة فضلي فكانوا ممتنين جداً.

وهكذا نرى أن بين الشباب أناس ذوو أفكار نيرة عالية.. فالإنسان يفخر بمثل هؤلاء الابطال و سوف يكون أحد الرجال الذين لهم مكانة مهمة في صفحات التاريخ الإسلامي.

البروفسور توميزو TOMIZU

هذا الرجل عضو في مجلس النواب وأستاذ بجامعة طوكيو. وهو في الأصل أحد الحقوقيين النشيطين في اليابان و من أنصار الحرية و خطيب مفوه و أديب مشهور، يحسب حسابه بين اليابانيين. إلتقيت بهذا الرجل عدة مرات، و أجريت معه أحاديث خاصة. و سأعرض على القراء قسماً من هذه الأحاديث. سألت توميزو عن رأيه في مستقبل اليابانيين. فكان جوابه كالتالي:

توميزو- على الإنسان قبل أن يبدي رأيه في مستقبل أمة من الأمم، أن ينظر إلى حالتها الحاضرة بامعان، أليس كذلك؟ لذلك فإننا إذا نظرنا إلى أوضاع اليابانيين الحالية فإن الناظر إليهم من بعيد، يرى إن مستقبلهم مشرق، و هذا حكم ظاهري. نعم لقد حاربنا الروس وانتصرنا على تلك الأمة العظيمة. قبل ثلاثين أو أربعين سنةلم يكن لدينا شيء اما اليوم فان لدينا كذا وكذا. وأخيرا سنصل الى نتيجة تبشر بوضع جيد.ولكن مثل هذا التقويم السطحي لايصح في عصرنا الحاضر. إننا إذا أخذنا كل الظروف بعين الإعتبار و أجرينا تقويمنا على هذا الأساس فان الأمور ستظهر أمامنا

مثل شاشة السينما؛ الظاهر مشرق وفي نفس الوقت لا شيء. واقع الأمر لم يصل الى هذا الحد، إلا أن الفرق بين الظاهر والمأمول، يصل إلى نفس الدرجة تقريبا. إن مستقبل الصين سيء جداً، ومستقبل اليابان ليس كذلك. إن حياة الصين مرهونة بمستقبلها والاوربيون يريدون القضاء عليها وهدفهم هو إبتلاع الصين.فالأوربيون اليوم يحتلون الصين بأكملها من غير حرب.لقد وصلوا إلى أعماقها بالتجارة من جهة، و بالدين من جهة أخرى و لو كان الصينيون رجالاً لقاموا قومة رجلٍ واحد وطردوا الاوربيين كافةً من ديارهم. إن المنصرين استغلوا الدين و أفسدوا أخلاقهم وتوغلوا إلى أعماقهم. فبعضهم ينصحهم بالنموذج الروسي وآخرون ينصحونهم بالنموذج الانجليزي. إن أوربا اليوم على وشك تقسيم الصين عن طريق المنصرين الى أربعة أقسام، فهناك خلاف كبير بين المنشوريين والصينيين في الجنوب، والتيبت قررت الإنفصال، وكذلك منغوليا. لقد انقسمت الصين إلى أربعة حكومات وسترمي كل حكومة نفسها في أحضان دولة أوربية لتحتمي ضد الحكومات الأخرى. إن بلداً ضخماً كالصين ينقسم ويذوب، وهذه هي الطامة الكبرى بالنسبة لليابانيين. إننا نسعى لأن توجد بدلا من الصين الضعيفة دولة على غرار المانيا القوية.

وحتى نصل الى مثل هذا الوضع فاننا نحتاج للكثير؛ إن ملايين الناس في البلاد يعانون من الجوع، الجيوب شحيحة بالنقود، الحكومة تحتاج إلى المال والشعب لا يملك المال، إننا نفتقد إلى القوة التي تترجم تطلعاتنا للمستقبل المشرق، الحكومة تعمل ما تريد، والشعب لا يستطيع أن يقول شيئاً.

صحيح إن الحكم في بلادنا دستوري، و لكن الحرية ليست تامة، وقد تقوم الحكومة بادارة شؤون البلاد كما تشاء ولكن المجلس النيابي لا يقدر على حماية حقوق الأمة، بل يبقى البرلمان عند الضرورة وسيلة لخدمة أغراض الحكومة. لقد إنتخبتنا الأمة، وواجبنا أن نحمي مصالحها، لكننا لانملك القدرة لتحقيق ذلك. ومن حسن الحظ توفر حرية الصحافة،

فالصحفيون ينتقدون كما يشاؤون، يمكنهم أن ينتقدوا الحكومة والمجلس بكل حرية.

أما قضية الاقتصاد في بلادنا، فهي قضية مهمة جداً. لانملك أراض تكفي لخمسين مليونا من اليابانيين، يضطر الناس للهجرة إلى هنا و هناك. مئات الألوف من مواطنينا تهدر حقوقهم في أمريكا، يجب أن ندافع عنهم. هذه الحاجة ستتزايد يوماً بعد يوم، لأن عدد السكان يزيد نصف مليون كل عام. فإذا فكرنا بمستقبلنا على هذه الصورة فإننا نزداد هما في كل لحظة. ستتضاعف القوات البحرية في دول العالم خلال عشر سنوات، أما قوتنا البحرية فلن تتعدى الزيادة نصف القوة الحالية، لأن إمكاناتنا لا تسمح بذلك.

نعم إذا نظرنا إلى الأمور نظرة سطحية وصرفنا النظر عن كل شيء، فإننا نقول إننا إضطررنا إلى قبول إتفاقية بورتسموث، ولكن هل هناك شيء أسوأ من الهزيمة في السلم بعد الانتصار في الحرب؟

إن كثيرين من شبابنا المتفرنجين لايفكرون في مثل هذه الأمور، ويظنون أننا نتطور. والخلاصة فان مايجب علينا عمله كثير، واحتياجاتنا لانهاية لها، و لا يمكننا أن نتطور بالكلام بل يجب أن نلاحظ قوة الأعداء، ونستعد على هذا الأساس.

أريد إستمزاج رأيك في هذا الموضوع، إعتبرتك أقرب الأصدقاء فذكرت لك بعضاً من أمراضنا، أعرف أنك لست طبيباً، و ليس هنالك طبيب لهذه الأسقام، و مع ذلك، فبماذا تنصحنا من علاج، بناء على تجاربك؟

- ياأخي ان جرأتي لتقديم بعض التوصيات، تكون من قبيل محاولة رجل يعاني من سكرات الموت علاج رجل صحيح الجسم، ماذا تنتظر من أفكار الناس الذين لم يروا في حياتهم الا الأسر؟ فمثلنا لا يفكر إلا في مرضه هو.

كنت أبحث عن دواء لمرضي وكان أملي أن أجد هذا الدواء عندكم، وإذا بي أسمع هذا الكلام الذي أدمى قلبي، ومع ذلك فاني سأبدي رأيي:

هذه النواحي التي ذكرتها، لم تكن تخطر على بالي أبداً و لكني كنت أقول دائماً بأن الأوربيين لن يقبلوا بتطور اليابان و لا بد أن يحيكوا لها المؤامرات. إنني أعرف طبيعة الغرب، فهم لا يريدون للشرق الحياة، وحياة اليابان هي حياة الشرق. لذلك فان الوسيلة الوحيدة لضمان مستقبل اليابان، هي إتخاذ التدابير للمواجهة، و الدفاع عن النفس، ولا يتأتى ذلك الا بالإتحاد مع الصين...هذا رأيي الشخصي و قد أكون مخطئاً.

توميزو- أرأيت، نحن أيضا نرى مثلما ترى، و لكن الإتحاد مع الصين أمر صعب للغاية. وقد يكون مستحيل. فالصيينيون لايثقون بنا أبدا. لقد فكرنا في هذه الناحية كثيراً. ولكن لايمكن ذلك، ولن يكون بعد الآن، لأن المنصرين دخلوا فيهم وبذلوا كل جهودهم من أجل تنفيرهم منا، ولا يزالون ينفرونهم. لقد حالوا بيننا وبين الاتحاد، و الصين بعد الآن لم تعد صيناً، لم تعد أجزاؤها متحدة فكيف تتحد معنا.

إن أوربا تسعى للوقيعة بين أجزاء الصين: لقد رسموا الخرائط ووضعوا الحدود بين منغوليا والتيبت ومنشوريا والصين الجنوبية. وهذا يعني أن الأوربيين حققوا مآربهم. كن على يقين بأن كل المنصرين ينسقون فيما بينهم في هذا الاتجاه.

إبراهيم- لقد فهمت هذه النقاط ولكن رأيي أنه ليس هناك داء الا وله دواء، إننا معشر التتار عشنا في الأسر أكثر من أربعمائة عام و مع ذلك فلنا أمل في الحياة، و نفكر في المستقبل. إن أمتكم اليابانية هي أرقى أمم الأرض وحكومتكم أقوى حكومات الشرق، وليس هناك أسهل من البحث عن وسيلة تتخذونها، ولا بد أن تجدوا طريقة للتحالف الصيني الياباني، أنا أجزم بذلك. إنكم ستجدونها.

ولا يخفى عليك بأن الدين عنصر كبير جداً في عالم السياسة. الدين أقوى من مدافع أوربا و مدرعاتها و مدمراتها. و للدين في الصين أهمية

خاصة. تعلمون بلاشك أن ثلث سكان الصين من المسلمين، وأقوى العناصر المحاربة في الصين هو العنصر الاسلامي. فإذا إتصل اليابانيون بمسلمي الصين، و كسبوهم إلى جانبهم، ألا ترى أنهم يستطيعون فعل الكثير؟ فهل فكر اليابانيون في هذه الناحية؟

إننا الآن في القرن العشرين و لكن التعصب الديني في أوربا يزداد تطوراً. لقد نشروا المنصرين في كل أنحاء الأرض وأغرقوا الدنيا بالنصرانية ولو سألتهم لقالوا: وهل للدين أهمية في القرن العشرين؟ ولكن إذا جرح منصر في الشرق أقاموا الدنيا وأقعدوها، وجهزوا الأساطيل. إن أقل الناس تدينا في العالم هم الفرنسيون والأمريكيون، ولكن أكثر المنصرين هم من الفرنسيين والأمريكيين.

إنني مع تقصيري، أنصح السياسيين اليابانيين بأخذ هذه الناحية بعين الاعتبار.

توميزو- انني أؤيدك أيضا في هذا الرأي، و لكن علينا أن نبحث معا في هذه النقطة عدة مرات، وأعتقد أنني سأجد بعض الزملاء الذين يشاركونك هذا الرأي، فاذا سمحت لك الظروف، فمن الضروري أن يجتمع عدد من الأحباب، لنجلس معاً و نتبادل الأفكار.

لقد سعدت هذا اليوم كثيراً. الحقيقة انني لا أستطيع أن أقول الآن شيئا، سأبلغك خلال أيام، وأخبر صديقك ناكاياما برقيا بالمكان المحدد للاجتماع.

زيارة مدرسة العميان والبكم

في طوكيو مدرسة حكومية خاصة بالعميان. وفي قسم سابق من هذا الكتاب ذكـرت عدد مدارس العميان في اليابان. وها أنا أزور مدرسة العميان في طوكيو.

لم أعرف سبب الزيادة النسبية في عدد العميان في اليابان، فهؤلاء المعوقون المساكين يملأون ليالي اليابان المضيئة بأصدائهم الحزينة. في كل ليلة تسمع أصوات الناي من جانب، وأصوات الصبايا من جانب آخر فيكاد المرء يبكي حزناً، و الواقع أنني كنت أبكي في بعض الليالي.

وأظن أن أول مايلفت إنتباه القادمين إلى اليابان هو هؤلاء العميان، فقبل خمسة و ثلاثين عاما، قدم أحد الأعيان الأمريكيين الى يوكوهاما وتأثر منذ الليلة الأولى بصوت العميان، وعجب من طريقة كسب قوتهم. ثم إنه بعد أن عاد من اليابان إنتقد هذا الوضع، ووجه الاتهام الى كبار رجالات اليابان لسكوتهم على هذا الوضع، وكتب في هذا الموضوع في الصحف الأمريكية وأرسل نسخاً من الصحف التي نشرت مقالاته إلى «فوروكاوه». وعلى اثرها قام فوروكاوه بجمع عدد من أصدقائه واستشارهم، فوجد أن الأمريكي كان محقاً في إنتقاداته، فقرروا التعهد بحماية الضعفاء وفتح مدرسة خاصة بالعميان والبكم، وبدأوا بجمع التبرعات إعتباراً من التاسع من عهد ميجي، وفي الثالث عشر من ميجي إفتتحوا المدرسة.

إفتتحت المدرسة. إلا أنه لم يتوجه اليها أياً من العميان، فقد أعلنوا مجتمعين مقاطعة هذه المدرسة، وأخيراً إقتنع أثنان منهم بعد ضمان مصاريفهما و مصاريف و الديهما.

كان الوضع هكذا في الثالث عشر من ميجي (١٨٨٠ ميلادي). إلا أن عدد الطلاب الذين تخرجوا خلال ثلاثين عاماً بلغ ٣١٧، و عدد الذين يدرسون بصفة دائمة يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة طالب. أما عدد المعلمين والمعلمات فيبلغ ٢٩ وأكثرهم من العميان والبكم الذين تخرجوا من المدرسة نفسها. أما المصاريف السنوية الحالية لهذه المدرسة فتبلغ ١٥ ألف ين، و لها رصيد في بنك الدولة يبلغ ١٠٢٢٨٩ ينا.

أرى بأن تاريخ هذه المدرسة، خير جواب لمن يسأل عن كيفية تطور اليابان بهذه السرعة.فاذا تقدم أحد بشئ فيه مصلحة البلاد أخذوا به دون

النظر الى هويته. إن نظرة متفحصة لتاريخ هذه المدرسة تكفي أن تكون عبرة ودرسا لأهل البصائر.

جئت لزيارة هذه المدرسة، فاستقبلني المدير أحسن استقبال. وبعد استراحة قصيرة في مكتبه قمنا بجولة في صفوفها. دخلنا أولاً قاعة النجارة، و رأينا فيها أنواعاً كثيرة من الأشياء النفيسة التي صنعتها أيدي أولئك البكم الضعاف، و أعجبت بشكل خاص، بأنواع الخطوط النفيسة المكتوبة على الخشب.

وبعد الانتهاء من هذه القاعة إنتقلنا مع كونيشي KONISHI مدير المدرسة إلى الصف الثاني، وفيه حوالي ثلاثين من الطلبة بين ذكور و إناث. أخذ المدير قطعة من الطباشير وكتب إسمي على لوح أسود، ثم قام ببعض الإشارات بيديه، فقام الطلاب جميعهم وأدوا التحية.

ثم إلتفت المدير إلي و قال: قل شيئا للمعلم كي ينقله للطلاب، ثم تدعو واحداً من بينهم فيرد الجواب كتابيا على اللوح. عندئذ قلت: لقد تأثرت بما رأيت أبلغ التاثر، لقد بكيت من أعماق قلبي عندما رأيت كل هؤلاء الأبناء محرومين من نعمة الكلام. كانت البداية أليمة بالنسبة لي، ولكن بعد أن، رأيت هذه التربية، و لاحظت هذه الصنعة والمهارة سررت كثيراً. إن الإنسان إذا عمل، فلا يمنعه نقصان عضو من أعضائه من تحصيل العلم و المعرفة. لقد إقتنعت بهذه الحقيقة الآن.

وقام المعلم بترجمة كلامي إلى إشارات و أفهمهم، عندئذ قام الطلاب ثانية وكرروا التحية.

قال المدير: إختر واحدا من الطلاب كي يرد على كلامك بالكتابة.

أشرت إلى أحدهم، وكان جالسا على المقعد الثالث. قام إلى اللوح وكتب عبارة بهذا المعنى: باسم زملائي أقدم الشكر على تفضل رجل وقور ذي لحية بيضاء ومن بلاد بعيدة بتطييب خاطرنا. عددنا في هذه المدرسة٣٧٢ طالبا. ١٣١ منا من العميان والباقي منا. أما عدد مدارس العميان والبكم في اليابان فهو ٤٢، فكم عدد مثل هذه المدارس في بلادكم روسيا؟

وعاد الطالب الى مكانه، و توجهت أنظار الطلاب إلي مرة أخرى. و لم أكن أعرف في روسيا من تلك المدارس سوى مدرستين احداهما في موسكو و الأخرى في بترسبورغ. فذكرتهما.

وعند خروجنا من هذا الصف أقبل رجل نحونا مسرعا، و أبلغ مدير المدرسة بأن وزير الداخلية الكوري سيزور المدرسة بعد نصف ساعة.

عندئذ قال لي كونيشي مدير المدرسة: نزور صفاً أو صفين إذا رغبت، أما الصفوف الأخرى فنزورها برفقة وزير الداخلية الكوري.

وبعد ذلك دخلنا صف العميان. وهذه الغرفة منظمة أيضا تنظيماً جيداً. إقترب المدير من أحد الطلبة فأخذ ورقة كانت بيده وكتب عليها بطرف عود دقيق شيئاً على شكل نقاط، ثم أعطى الورقة للطالب الأعمى، فتلمسها الطالب بأطراف أصابعه و قرأ إسمي «إبراهيم».

وبعد ذلك قال المدير مخاطبا الطلاب العميان: هذا الرجل من روسيا جاء للسياحة في اليابان. و لما علم بوجود مدرسة خاصة بكم، شرفنا بهذه الزيارة باسم الانسانية. فاذا أردتم، أكتبوا شيئاً، و أعطوه للذكرى.

فأخذ الطلاب يكتبون على أوراقهم، ثم جمع المعلم ماكتبوا، وجاء بها إلي. أخذتها، وأفرزت منها ورقة ورجوت من المدير أن يقرأها فكانت:

كنت قديماً مدرساً للبكم في هذه المدرسة. ثم تطوعت للحرب ضد روسيا، و عدت منها فاقداً بصري، و عدت الى المدرسة لتحصيل العلم. أشكرك على عدم رؤيتي لك. رد المدير بلهجة التوبيخ: هذا الرجل مسلم.

عرفت بأن هذا المسكين أصيب برصاصة أفقدته بصره. لقد تألمت لحاله كثيراً قلت للمدير: أرجو ألا توبخه، له الحق بأن يشكر لعدم رؤيته الروس.

وفي هذه الأثناء قدم أحد الخدم مسرعاً وأخبر بقدوم الضيوف، فبادرنا بالخروج، ورأينا الضيوف قد وصلوا الى أول الدرج فأسرع المدير إلى الدرج مرحباً.

كان برفقة الوزير الكوري زوجتاه، وبنته وولده، وموظف من التشريفات ومترجم. وقفنا في ممر المدرسة، وعندما صار الوزيرفي محاذاتنا سلم علينا، ثم قدمني المدير إليه. وبعد التعارف دخلنا صالة المدرسة فوجدنا الطلاب العميان واقفين صفاً على الجانب الأيسر ينتظرون تحية الضيوف. فاستقبلوه بالأناشيد الوطنية.

وبعد استراحة قصيرة، شربنا الشاي، ورافقناه في زيارة المدرسة. تجولنا في أنحائها حتى المطابخ والحمامات، وقدمت الفتيات البكماوات إلى الوزير هدية من صنع أيديهن. ولما انتهينا من الجولة عدنا الى الصالة.كان الطلاب ينتظرون الضيوف. شكر الوزير مدير المدرسة و قال: إنكم تقومون بواجب مقدس، أشكر لكم سعيكم وجهودكم. إنها حقاً مدرسة تستحق التقدير، عاش الشعب الياباني.

ورد المدير على الوزير ببضع كلمات ثم قال: إئذنوا لطلابنا كي يقوموا بعزف يعض المقطوعات الموسيقية.

الوزير:- بكل سرور.

فقام أحد العميان، وبدأ بالعزف على البيانو، أنا لا أفهم في الموسيقى كثيراً و لكنني رأيت الوزير و مرافقيه يهتزون طربا لهذا العزف.

ثم برز أربعة من العميان، وصاروا يعزفون على الـ «جوتوGOTO» وهذه آلة يختص بها اليابانيون. لم أر مثل هذه الآلة عند أمم أخرى، لذلك لا أستطيع تعريفها.

ثم تقدمت صبية بكماء، فكتبت على اللوح الأسود شعراً، فهنأت زميلاتها على تشريف الوزير لمدرستهن.كان الوزير ومرافقوه يقرأون ماتكتبه البنت، لأن الكتابة بين الكوريين واليابانيين واحدة و إن إختلفت اللغة.

قال مدير المدرسة للوزير: إذا أذنتم أن تكتب كريمتكم شيئاً، يكون ذكرى لمدرستنا، وسنحافظ على اللوح تخليدا لذكراكم.

حصل حوار بسيط بين الوزير و نسائه، لم تقم على إثره بنت الوزير ولم أعرف سبب ذلك، عندئذ قام إبن الوزير إلى اللوح فأملاه الوزير العبارة التالية: «إن مثل هذا الرقي لا يتصور، نحن نتمنى تطور الأمة اليابانية».

وبعد ذلك التفت المدير إليّ و طلب مني أن أكتب شيئا بالتتارية.

- ماذا أكتب؟

- أكتب أي شيء يخطر على بالك.

فكتبت هذه العبارة: «فاقدوا البصر ليسوا بعميان، وفاقدوا السمع والكلام ليسوا بخرس أو بكم. إن المحرومين من العلم والمعرفة أمثالنا هم العمي والبكم». فلما ترجم ناكاياما ماكتبت صفق كل الطلاب.

وبعد ذلك ودعوا الضيف، وعدنا ثانية الى مكتب المدير، فجلسنا معه قدر ساعة، وطلب مني المدير أن أسجل ماكتبته انفا في سجل المدرسة، فلبيت طلبه، و أهداني المدير صورة تذكارية للمدرسة، وصور الطلاب الذين تخرجوا في ذلك العام، فتوثقت علاقات الصداقة بيننا، و تزودت في هذه الزيارة بكثير من المعلومات.

لقاء مع الكونت ماتسورا MATSURA

التقيت مرة ثانية بالكونت ماتسورا، وكنت قد زودت السادة القراء ببعض المعلومات عن شخصية الكونت ماتسورا، لذلك فانني أكتفي هذه المرة بنقل الحديث الذي جرى بيننا:

الكونت ماتسورا:- لقد إشتقت إليك، بالأمس تذكرت شيئاً أردت أن أسألك عنه، سررت لقدومك، فقد كان وقتنا ضيقاً في المرة الماضية وفي هذه المرة أريد أن تكون الجلسة مطولة.

في المرة الماضية ذكرت كلمة خليفة، فماذا تعني؟

إبراهيم- لكي نعرف من هو الخليفة علينا أولاً أن نلم ببعض المعلومات عن أركان الاسلام و العقيدة المحمدية.

مؤسس الاسلام عندنا هو محمد عليه السلام، فهذا الرجل هو الذي أسس الاسلام، ولما توفي، فالذين نابوا عنه هم خلفاؤه، وعلى الخلفاء أن يقوموا بما قام به محمد. والأمة عندما تطيع الخلفاء تعتبر نفسها بأنها تطيع الرسول. و يعرف الخليفة عند المسلمين بولي الأمر، فكل أمر يوافق الشرع ينفذ، و على كل مسلم الطاعة.

ومسألة الخلافة في الاسلام مهمة جداً، إنها مسألة دينية و سياسية. ومقام خلافة جميع المسلمين اليوم في إسطنبول و خليفتهم هو محمد خان الخامس. ولمزيد من المعرفة، يجب الإطلاع على كثير من المسائل الدينية.

ماتسورا - وهل في الاسلام أسرار خفية؟

إبراهيم- ليس في الاسلام مثل هذه الأسرار، فالعوام والخواص متساوون في العقيدة. فما يجب على الخواص أن يعلموه، هو واجب على العوام أيضا، وكل شيء يدرك بالعقل.

ماتسورا- هذا شيء عظيم! ففي النصرانية بعض الأمور لا يمكن الإطلاع عليها إلا بعد إعتناق النصرانية، ولا يمكن فهمها إلا إذا كان المرء نصرانياً. اذن فالاسلام ليس فيه شيء من هذا القبيل، فأنا بوذي وأستطيع معرفة ما في الدين الإسلامي، أليس كذلك؟

إبراهيم- طبعاً، طبعاً، فمهما كان دينك، يمكنك الإطلاع على الحقائق الإسلامية، ففي الإسلام، على المرء أن يعرف قبل أن يؤمن، فلا يؤمن الانسان بشيء لايعرفه. أما في النصرانية فالواحد هو ثلاثة، و الثلاثة واحد، و النصراني يؤمن بذلك، و لكن كيف يصير الواحد ثلاثة؟ و كيف تصير الثلاثة واحداً؟.. يجب على المرء معرفة ذلك. حتى القسس لايعرفون. فلو اعترض عليهم أحد وقال: لا يمكن أن يصير الواحد ثلاثة، ولا الثلاثة واحدا " لقالوا في معرض اقناعه. هناك سر خفي، يجب أن

تعتنق النصرانية كي تعرفه." وبعد اعتناقها يقولون" لم تعد هناك حاجة لمعرفة ذلك السر الخفي، لقد صرت نصرانيا، فلا ضرورة لأن تعرف." هذه هي أسرارهم الخفية.

قهقه ماتسورا وقال: لا أعرف لماذا لم نجد من اليابانيين من إعتنق الاسلام، و أظن أن الوقت لا زال سانحا، فإذا جاء المبشرون المسلمون لوجدوا الرغبة، لأن الدين بالنسبة للبشر رابطة قوية، والدين الاسلامي أقرب لطبيعة أهل الشرق وأكثر موافقة. وبهذه الطريقة يمكن ايجاد رابطة قوية بين أمم الشرق. يجول في خاطري أن صداماً كبيراً سيقع بين الشرقيين والغربيين في المستقبل. و الصدام موجود الآن، إلا أنه صدام إقتصادي فقط، و سيأتي يوم يكون فيه الصدام دمويا، يجب أن نفكر في تلك الأيام منذ الآن. فمارأيك في هذا الموضوع؟

إبراهيم- من المؤكد بأننا نفكر في هذا الموضوع أيضاً و لكن تفكيرنا سطحي نسبياً، إننا نتناول الأمور من وجهة نظر إسلامية فحسب لأن المسألة الشرقية المعروفة بين الدول، أخذت شكل الصراع بين المسلمين والنصارى، و أظن بأنك إطلعت في هذا الموضوع على العديد من الكتب. و يمكننا أن نقول بأنه قضية صراع بين الإسلام و النصرانية.

ماتسورا- نعم، لقد إطلعت على كتب باللغة الإنجليزية، و رأيت بعض تلك الكتب تستخدم ألفاظا بعيدة عن الأدب. في رأيي أن إزالة الحكومة التركية ليس بالأمر السهل، ومع ذلك فانه أمر يهم المسلمين. فالتعصب الأوربي يوقع الناس في جميع أنواع المصائب، خاصة الحروب الصليبية فانها وقائع لاتنسى و لكن ما سيقع سيكون أوسع وأكبر.

وتذكرت أمرا آخر:- هل يتساوى المسلمون في روسيا مع الروس في الحقوق؟

إبراهيم:- لا، فالمسلمون لا يملكون أي حق. إنهم لا يتمتعون بأية حقوق دينية أو قومية، حتى طبع القران الكريم، الكتاب المقدس عند المسلمين، يتوقف على رقابة الروس، فإذا سمحت الرقابة طبعوه و إلا فلا. وفيما عدا

ذلك فان الكتب الدينية جميعها تخضع للرقابة و لكنهم لا يراقبون كتبهم أبداً. هناك أمور أخرى كثيرة حرم منها المسلمون، فعدد السكان المسلمين أكثر من ثلاثين مليونا يمثلهم ٩ نواب فقط في مجلس الدوما، أما في مجلس الأعيان فلا يمثلهم أحد، وكذلك الحقوق الأخرى فهم محرومون منها.

ماتسورا- أمر عجيب، ألا تطالبون الحكومة؟ بل كان عليكم مطالبة الدول الكبرى. فليس لأحد أن يرفض حق الطلب المشروع، وأظن أنه بامكانكم التقدم بالطلب الى محكمة لاهاي.

إبراهيم- أينما تقدم الضعفاء فلن يظفروا بشيء، فلا رأي لمن لايملك المدفع والبارود، هذا قول مشهور. فالتتار لايملكون المدفع والبارود، إذاً فلا مجال للتهديد.. و الأوربيون لا يسمعون ممن لا يخافونهم. لقد تقدمنا إلى كافة الدول العظمى عن طريق سفرائهم؛ ولكن لم نظفر بشيء. فلم تسمع منا أية دولة، ولن تسمع. الأوربيون لا يحمون سوى النصارى، لا علاقة لهم بالانسانية.

ماتسورا- نعم، نعم.، حقا إن الأوربيين ليست فيهم إنسانية أو رحمة،لقد رأينا ذلك وعشناه. كلما تذكرت الوحشية التي عاملونا بها يقشعر بدني. آه لو عرفت ماذا كان يطلب منا سفراؤهم !.. لو لم نكسب الحرب الأخيرة، أية مصائب كانت تقع بنا !.. إنهم وحوش، أعداء الانسانية.

إبراهيم- لقد نجوتم بانفسكم و لكن الأيام السود تنتظرنا. ان ثلاثمائة مليون هندي يعانون من قهر الانجليز. المسلمون في جزر الهند الشرقية يئنون تحت ظلم الفلمنك (الهولنديون) ومسلمو الملايو يئنون تحت ظلم الفلمنك. كان عدد المسلمين في إسبانيا بالملايين، و لما استولى عليها النصارى لم يبقوا فيها مسلماً واحداً.

سورية وفلسطين بلاد اسلامية منذ ألف و ثلاثمائة عام، ولا يزال النصراني فيهما نصرانياً و اليهودي يهودياً و المسلم مسلماً؛ فكل الناس أحرار في دينهم و ملتهم. و كل دول الشرق على هذا النحو، ففي بخارى

الصغيرة، عاشت حفنة قليلة من اليهود منذ القدم ولايزالون يعيشون فيها، فالإسلام أطلق الحرية لجميع الأديان.

ومع ذلك فان الكتاب الاوربيين يعمون أبصارهم عن الحقيقة، ويتهمون الإسلام بالوحشية. إنكم بعيدون عن الأوربيين لذلك لا تعرفون كثيراً من الدسائس و الأساليب الشيطانية التي يتبعونها،لم تكن لكم علاقة قديمة بهم،فالعلاقات بدأت قبل مئة عام فقط اما نحن؛ فاننا في صراع معهم منذ الف عام. لقد إمتصوا دمائنا. إن قلوبنا تخفق كرها ورعبا كلما تذكرنا ظلمهم.

ماتسورا- إنهم قوم وحوش حقيقة، قطيع لا يشبع من إمتصاص دماء الناس. نحمد الله على أننا بعيدون عنهم.

إبراهيم- لا أظن أنكم ستبقون بمنأى عنهم فلو أغمضتم عيونكم عنهم لحظة فسيتكالبون عليكم.هذا امر محقق. انهم لايضيعون فرصة أبداً. إذا وجدوا أدنى فرصة، بادروا الى عقد معاهدة يقدمون فيها بعض التسهيلات التي لا قيمة لها و لكنهم يربطونها بشروط ثقيلة. أنظر الى المعاهدة التي عقدت بينكم و بين الانجليز، فاذا أرسلت اليابان جنودها الى التيبت بموجب تلك المعاهدة، فسيكون الموت المحقق. إنهم قوم مصلحيون يبحثون عن راحتهم في مصائب غيرهم هذا هو كل ما يخططون له.

ماتسورا- الحقيقة انني اوافقك في رأيك تماماً، فكل ماقلته حقائق ثابتة. و لكن ما الحيلة ؛ إن أمتنا اليابانية أجبرت على تلك المعاهدة. فالحرب ضد روسيا كانت أمراً حتمياً، وكنا نحتاج إلى المال، فلما سدوا حاجتنا، إستغلوا الفرصة لعقد تلك المعاهدة.

إبراهيم- ارأيت انهم يستغلون مثل هذه الفرص فلا يضيعونها أبداً. تأكد بأنهم يعرفون من أين يكون المقتل و لا يخطئون أبداً. أما أمتنا الشرقية فهي أمة غافلة و على الفطرة تقتنع بكل شيء بسهولة فلا تفكر في الامور

البعيدة. فإذا كان ظاهر الأمر سليما أوكلت أمرها إلى الله ولم تنظر إلى ما بعد ذلك.

وفي هذه الأثناء قدم كثير من الناس فإضطررنا إلى إنهاء الحديث مع الكونت ماتشورا.

دعوة البروفيسور توميزو

في الصفحات السابقة، رويت اللقاء الذي تم بيني وبين البروفسور توميزو. أما في هذه المرة، فقد أقام هذا البروفسور مأدبة خاصة على شرفي. حضرها البروفسور آريجا ARIGA، المختص بالقانون الدولي، والبروفسور هاتتوري HATTORI أستاذ اللغة الصينية وكثير من الشخصيات المعروفة. لقد جلست اليهم وحادثتهم في أمور غاية في الجدية والأهمية، واستغرقت هذه الجلسة ثلاث ساعات. ولم أتمكن من ضبط كل ماقيل في هذه الجلسة، كما لم يدع اليها أحد من محرري الصحف، ولذلك فلن أتمكن من ذكر التفاصيل الكاملة. و مع ذلك فانني بعد الجلسة صرت أتذكر بعض ماقيل فيها، وسأعرض ذلك على القراء الكرام بقدر مايسمح لي الوقت:

في مستهل الجلسة سأل البروفسور أريجا عن أوضاع التتار في روسيا ومستقبلهم. فشرحت له الجوانب السلبية من أوضاعهم، منتهيا إلى أنه لا أمل يرجى من مستقبلهم. و على إثر ذلك قال البروفسور:- في نهاية الحرب جيىء بأكثر من أربعين ألف أسير روسي، فقسمنا هؤلاء حسب مذاهبهم، وكان من بينهم ثلاثة آلاف من المسلمين، فهيأنا لهم الطعام والشراب الذي يوافق مذهبهم، كما خصصنا لهم مكاناً لعبادتهم.. وهكذا كان الأسرى يعيشون قدر الامكان بطريقة توافق مذاهبهم الى درجة كبيرة.

في تلك الأيام أعجبتني طريقة التتار في العيش. فبالرغم من أن كلهم من الجنود الأفراد (ليس فيهم ضابط واحد) فانهم كانوا يعرفون القراءة

والكتابة، كما كانوا يعلمون بعضهم بعضا، ولم يصرفوا وقتهم سدى أبداً، بل كانوا يشغلون أنفسهم في عمل من الأعمال.

أما الجنود الروس فما كنا نجد فيهم واحدا يقرأ ويكتب، باستثناء الضباط فقط. حاولنا تعليمهم، وخصصنا لضباطهم رواتب مدرسين ولكننا لم نلق الاستجابة. أما التتار فكانوا جميعا يقرأون ويكتبون، حتى أنهم قاموا بطبع الكتب، كنا نلاحظ قيامهم بالعبادة عدة مرات كل يوم. لقد أبديت اهتماما خاصا بعباداتهم وتصرفاتهم، فتوصلت إلى نتيجة أن التتار لهم أمل في المستقبل. و قد شاركني كثير من الزملاء في هذا الرأي، لذلك فإني أريد أن أعرف رأيك في الموضوع. فهل سيتمكن التتار من إثبات وجودهم مرة أخرى مستقبلا؟

أظن بأن هذه المسألة مهمة جدا. اننا نلاحظ هذه الناحية دائماً، والشيء الذي أريد معرفته هنا هو: هل يملك التتار شعورا قوميا؟ لأن الشعور القومي قد يضمحل إذا طال الأسر. ومعلوم لديك بأن كثيرا من الأمم لم تتحمل المصائب فإندثرت،كالعرب في إسبانيا وغيرهم من الأمم. فلو تتبعنا صحائف التاريخ لعرفنا أن كثيراً من الأمم قد ذهبت ضحية القوى الغاشمة، فانمحت آثارها من خريطة الحياة. أليس هناك إحتمال بأن يمحى التتار أيضاً؟ إنهم يعيشون في الأسر منذ أربعة قرون. الصحيح أن التتار تبدو عليهم آثار مقاومة المحتلين حتى الآن. وإنهم حافظوا على قوميتهم حتى الآن، وأراك أمامي وأنت ترتدي زيك القومي ومن الطبيعي أنك محافظ على لغتك أيضاً.

إبراهيم- نعم، يمكننا أن نقول بأنهم قد حافظوا على قوميتهم بعض الشيء ولكن هل سعوا بجد من اجل الحفاظ على القومية؟ هذا أمر آخر.لقد حافظوا على قوميتهم بشكل طبيعي كسائر الامم القديمة و لكن لا نعرف فيما إذا كان التتار بذلوا جهوداً للحفاظ عليها. ومن الآن فصاعدا، فإن الحكومة الروسية قد فتحت عيونها، وستعمل بعد الان بكل قوتها للقضاء على افكار التتار القومية. فاذا امكننا بعد الآن الحفاظ عليها فهذا ماتمناه.

وقضية الحفاظ على القومية في المستقبل هي من المسائل المهمة كما تفضلت، لأننا نرى أن القومية تتطور وتنمو في العصر الحاضر، حتى أصغر الامم التي لا يرد ذكرها بين الأمم الاخرى، تبذل كل همها كي تسمع صوتها. ففي بلاد القرم قوم يسمون بالقرايم لا يزيد عددهم عن ثلاثين الفا إلا أنهم يهتفون بأعلى صوتهم «نحن قرايم» وكثير من الأمم مثلهم تنادي بقوميتها.

ويمكن للتتار ان ينادوا باسم قوميتهم، فهل سيثبتون وجودهم أمام الأمم الأخرى، إن ذلك في رأيي يتوقف على الرابطة الشرقية في عالم الشرق. إن حياتهم و حياة كل الأمم الشرقية هي في إتحاد الشرق.

ولذلك فإنني بناءً على هذا الرأي أريد أن أسأل البروفسور هاتتوري عن إمكانية إتحاد الصين مع اليابان. أعتقد إن البروفسور مطلع على أحوال الصين بكل تفاصيلها. فهل لهاتين الامتين إن تبنيا مستقبلاً مشتركاً؟ و هل تتوقع أن تحصل الفائدة من وحدتهما؟ أظن بان هذه القضية تتوقف عليها حياة عموم أهل الشرق.

البروفسور هاتتوري HATTORI : كنت أرى بان الصين لا يمكنها أن تقف على قدميها، ولكن في الأعوام الأخيرة وجدت الصينيين يعملون بشكل عجيب. ففي اليابان اليوم عشرة الاف طالب صيني، وهذا امر ليس بالقليل. أما الإتحاد فهو أمر صعب و بعيد بعض الشيء، لأن الصينيين لا يريدون هذا الإتحاد أبداً.

إبراهيم:- إنكم تربون عشرة آلاف طالب فهل هناك وسيلة للاتحاد أقوى منها؟ و إذا كان هناك إتجاه للإتحاد، فذلك يتوقف على اليابانيين أو على أمثالكم من الأساتذة. فالرأي العام يتبع الرأي الخاص دائما، وطلاب اليوم هم خاصة المستقبل، وسيكونون رواد الرأي العام، ولعلي أقول بأنه إذا كان إعداد مثل هؤلاء بأيديكم فذلك يعني أن حياة الشرق كله أمانة في أعناقكم.

وهنا قال أحد الحاضرين: أظن بأننا نحن اليابانيين لا نملك ميزة نفخ الروح في الأمم الأجنبية. في الحقيقة يوجد في المدارس اليابانية حوالي عشرة آلاف طالب صيني، ولو استطعنا أن ننفخ فيهم الروح اليابانية، فلا يمكن تصور قوة أكبر من هذه القوة، ولكن من المؤسف أننا لا نقدر على ذلك، ولا أدري ما السبب. أما الأوربيون فإنهم ينفخون في المرء روحاً، فلا يملك إلا أن يميل اليهم في شكل من الأشكال. فعندما عاد كثير من شبابنا من اوربا، وجدنا أن كثيرا منهم يحملون أفكارهم. و هذا دليل على أنهم نفخوا فيهم روحا استساغوا بها طراز العيش عندهم، أما نحن فلا نستطيع ذلك.

البروفسور توميزو:- أعتقد بأن الأمة الشرقية لديها شيء من السذاجة. ولذلك فانها لاتقدر على التفكير بعيدا، والشرقي فطرته الوجدانية لاتسمح له بمثل هذا التفكير، والسبب في ذلك يعود إلى جرأته، فانه لايعرف الخوف، يحمل ثقة مطلقة بقوته المعنوية، ليس في قلبه سوى الأمان التام.، فهو لايجهد نفسه بالتفكير في المستقبل. أما الأوربيون فإنهم يحبون الخيال بطبعهم ويميلون الى العدوان.

إنهم يكنون عداوة فطرية للانسان، إنهم جبناء، يتوقعون الشر من غيرهم، فيهيئون أنفسهم على هذا الأساس ويصرفون الجهد في توقع العدوان و إجهاضه قبل وقوعه. وكلما فكروا بهذه الطريقة إزدادت العدوانية التي يكنونها تجاه بني البشر.

ومن الطبيعي بعد كل هذا أن يترتب علينا التفكير أيضا، طالما أن الأمر يتحصل بالتفكير فلابد أن نفكر وننفخ الروح، إننا مضطرون لذلك لأن أعداءنا يجبروننا عليه. وأعتقد أن الوقت هو الذي يجعلنا نفكر ونعمل. إلا أنه علينا أيضا أن نفكر في الأمور الأكثر ضرورة والأكثر عملية، فالوهم والخيال لا يأتي بشيء، أظن أن فعل الممكن الآن خير وأنفع من التفكير بما يجب فعله بعد عام.

فالسيد عبد الرشيد إبراهيم قد بادر فقدم من سيبيريا، وهذا يعني أنه اتجه نحو هدف معين. إنني أغبطه على ذلك، إننا نملك القوة المسيطرة، ومع ذلك فلم نبادر بأية خطوة نحو الشرق. لقد تجولنا في كل أنحاء أوربا و لا زلنا نتجول، فمن تعرفون من بين مائة مليون من أهل الشرق؟ أجيب على ذلك من وحي ضميري: السيد عبد الرشيد إبراهيم.

لا أعرف أحداً غيره. أرى أنه ان كان هناك شيء يعرضنا للهلاك، فهو الركون إلى حياة الدعة، ظنا منا بأننا تطورنا و إنتصرنا على الروس. أقول الحق بأننا لم نتطور أبداً، فالتطور لايكون بالكلام. إن الملايين من بين الأمة يعيشون حالة الفقر و الجوع، مئات الألوف من اليابانيين تهدر حقوقهم في أمريكا، لقد أضعنا حقوقنا في الفلبين، كنا نملك حق الشفعة فسلبها الأمريكان. و لو إستملكنا جزيرة براتاس لأستدركنا بعض مافات. الحقيقة أن مايجب أن يقال كثير، إن علينا أن نعدد أولا نقائصنا، فلا نغتر بالقول إننا تطورنا، لأن مانحتاجه كثير جداً.

وهكذا كان الحديث في مضافة السيد توميزو صادقاً. إستغرقت الجلسة ثلاث ساعات قيل فيها كثير من الكلام الصادق.

المنصرون في اليابان

هؤلاء الحشرات يكثرون في اليابان مثلها مثل غيرها من البلدان. إنهم يصرفون كل جهودهم و إمكاناتهم لخدمة إنتشار النصرانية في اليابان. كثيرون من المنصرين عملوا لسنوات طويلة و لا زالوا يعملون، فدخل في النصرانية عشرات الألوف من الناس. إن في اليابان اليوم كثير من مبعوثي الحكومات النصرانية كالروس والفرنسيين والانجليز والألمان والأمريكان ويتبعهم كثير من المنصرين. وفي كل مدينة أو بلدة أو قرية يابانية تجد عدداً من هؤلاء، وفي مدينة طوكيو ذاتها منصر روسي إسمه «نيقولا». قيل بأنه يمارس التنصير منذ خمسة وأربعين عاما، وبجهود هذا الرجل بلغ

عدد الذين إعتنقوا المذهب الأرثودكسي خلال خمسة وأربعين عاماً حوالي ثلاثمائة ألف. وهو أشهر وأقدم و أنشط المنصرين في اليابان. ويعرف في اليابان بـ «نيكارا» لعدم وجود حرف «ل» باللغة اليابانية. وتبذل الحكومة الروسية سنوياً أكثر من مليون روبل في سبيل نشر المذهب الأرثودكسي. ولهذا المنصر كنيسة ضخمة في أعلى وأحسن موقع بمدينة طوكيو، وإلى جانبها مدرسة، يدرس فيها الكثير من الطلاب مجاناً.

وقبل الحرب اليابانية الروسية كان اليابانيون يقدرون هذا الرجل كثيراً. وقبل وقوع الحرب بعام حين ظهرت بوادر الصدام بين البلدين بدأ الكاتب الياباني المعروف أوميهارا OMIHARA بنشر مقالات في جريدة ياماتو YAMATO للكشف عن النشاطات المشبوهة لهذا المنصر أمام الرأي العام الياباني، فقدم الدلائل والبراهين القطعية على أن مهمة التنصير لهذا الرجل لم تكن إلا ستاراً لممارسة التجسس السياسي. كما نشر كتابا يتضمن نشاطاته في اليابان خلال خمسة وأربعين عاماً. وهكذا كشف أوميهارا للشعب الياباني عن هوية هذا الرجل المشبوه. ولكن من المؤسف بأن الكتاب الذي نشره أوميهارا، منعته الحكومة اليابانية فلم ينتشر على النطاق المطلوب. كما بادرت إلى حماية «نيكارا» من غضبة الشعب الياباني وحماية كنيسته التي كادت أن تنهد على رأسه. و منذ ذلك التاريخ إنطفأت شهرة «نيكارا».. فانقطع عن مقابلة الناس.

وبعد الحرب الروسية اليابانية لم يعد المذهب الأرثودكسي يلقى رواجاً في اليابيان، ولم يعد لنيكارا أي ذكر. كما انخفضت شعبية المنصرين الآخرين. وفي العامين الأخيرين بدأ العاملون في كنيسة «نيكارا» بمطالبته بزيادة الرواتب، مهددين بترك العمل إذا لم يلب مطالبهم، فأُسقط في يد «نيكولاي» ولكنه حاول إخفاء الحقيقة. والواقع بأن الذين إعتنقوا هذا المذهب لم يعتنقوه عن إقتناع، بل للراتب الذي مناهم به نيكارا، فلما شحت الموارد بدأ العاملون بالمساومة وكانوا محقين.

دسائس المنصرين ضد الإسلام في اليابان

وما أن هبطت أسهم النصرانية عام ١٩٠٦ من الميلاد حتى تنادى كل المنصرين وأجمعوا على أن: أسهمنا قد هبطت، ومن غير المجدي العمل على رفعها من جديد، ومن المشكوك فيه أن تعطى الجهود التي نبذلها نتيجة، فلنحاول على أقل تقدير أن نمنع دخول الاسلام الى اليابان، فالعدو المشترك هو الاسلام.. ثم قال أحد أشقيائهم: الحل الوحيد هو كسب جانب الحكومة، لندخل في مباحثات غير رسمية مع الحكومة اليابانية في أول الأمر، ولتدع الحكومة إلى عقد مؤتمر للأديان، يحضره مندوبون من مختلف الأديان، فنعمل من خلاله على إثبات المساوىء العامة للاسلام، وقد ننجح نجاحاً باهراً إن إستطعنا في إقناع الحكومة اليابانية بإصدار قانون لمنع دخول الإسلام إلى اليابان...

وللدعاية لما يدبرون له لجأوا إلى أعمدة الصحف الأوربية قائلين: ستقوم اليابان بتنظيم مؤتمر للأديان، وسيختار اليابانيون ديناً من هذه الأديان. وعلى أثر ذلك هب بعض أصحاب الأقلام المأجورة في مصر لتصعيد الموقف و قالوا: لقد عقد المؤتمر، وحضره فلان من مصر، وأحمد مدحت ومحمود أسعد من اسطنبول و غير ذلك من الأكاذيب، كما أنهم بشروا بأن مهتديا اسمه السير طومسون (لانعرف أين أسلم هذا الرجل) سيكون رئيسا للمؤتمر.

وتلاهم إسماعيل ميرزا صاحب جريدة «ترجمانج الصادرة في بغجة سراي من بلاد القرم بروسيا فنسج الأكذوبة التالية:

طوكيو ٣ نيسان - مكتب جريدة شيه شو بان: **SHE SHU BAN**

رسالة من ساموراكي، رئيس تحرير الجريدة المذكورة، والكاتب الثالث في مؤتمر الأديان، يدعو بعض العلماء لمؤتمر الأديان عن طريق

«ترجمان» ولكن بشرط أن يكون هؤلاء العلماء ممن يرتضيهم إسماعيل ميرزا!.. إلى آخره..

وبهذه الصورة قام أكثر المسلمين إحتراما، بخداع المسلمين البسطاء بأكبر الأكاذيب تحت مسمى خدمة الاسلام. ومن جهة أخرى كانت شطحات المنصرين في اليابان بتخيلاتهم أكثر خيبة وعقامة من الأكاذيب التي أطلقها كذابونا.

فالحكومة اليابانية ليست مثل حكومة الحبشة كي تحكم وفق أهواء المنصرين، لقد واجه اليابانيون المنصرين بالحقيقة وأكدوا لهم بأن قضية الدين لاقيود عليها، وأن هناك مادة في الدستور تنص على ذلك، وقالوا لهم:

لاحاجة إلى إصدار قانون بالسماح للدين الفلاني وبمنع الدين الفلاني، فكل مواطن له الحرية في إعتناق أي دين، والحكومة لاتتدخل في وجدان أحد.. فالضمائر حرة...

وهكذا أسقط في أيدي شراذمة المنصرين. و مع ذلك فلم يتوانوا عن أن يؤلفوا كتابا إسمه «محمد» فيه كثير من الافتراءات والتحامل على الإسلام، وطبعوا منه خمسة ملايين نسخة ووزعوه مجانا في المدن والقرى اليابانية.

وفي أوربا وروسيا كتب كثيرة ألفت بنفس الاسم، وأكثرها مليئة بإفتراءات وأكاذيب عن الاسلام، وفي أكثرها أيضا صورة لعربي تمثل النبي ﷺ ولكن هذه الصورة على درجة عجيبة من القبح بحيث لايتصور وجود انسان على هذه الصورة؛ يمسك سيفاً بيد، ومصحفاً بيد، أي أنه نشر القرآن بالسيف. فالأكاذيب والافتراءات التي يحتويها هذا الكتاب تفوق أضعاف أضعاف ماكتبه المغرضون في أوربا.

وحينما رأيت الكتاب لأول مرة كنت في قرية يابانية، فلما إطلعت على مضمونه تأثرت أشد التأثر. ففتشت عن دواء لجرحي فتوجهت الى أحمد

فضلي أفندي المصري المقيم في قرية «نيبوري»، فلما أخبرته عن الكتاب قال لي بأن عنده نسخة منه، فقام و أحضره لي.

إبراهيم:- كيف يمكننا السكوت على هذا ياأخي؟ ان سكوت رجل مثلك يعرف عددا من اللغات هو الجريمة بعينها..

أحمد فضلي:- و أنا أشاركك الرأي، إذن لنعمل سوية، لنلق محاضرة نرد فيها على تلك الافتراءات و نبرىء النبي منها.

وبعد ذلك ألقى أحمد فضلي ثلاث محاضرات حول حقائق الاسلام، ألقاها كلها باللغة الانجليزية، وعندما ألقاها في قاعة محاضرات قانده باشي «قام بابا» المحرر في جريدة «جابان تايمز» بترجمتها الى اللغة اليابانية، و نشر قسم من المحاضرة في الصحف، فلقيت أحسن القبول لدى اليابانيين.

أكرر فأقول بأن أول من ألقى محاضرة في اليابان عن حقائق الاسلام هو السيد أحمد فضلي. ومع ذلك فان محاضرة أو محاضرتين لا تصل إلا إلى أسماع عدد محدود من الناس. فلم أقتنع بها، بل إتصلت ببعض الشخصيات اليابانية الذين يعتد بقولهم في الدين، فكتبوا بعض المقالات في الصحف الدينية.

وكان صديقنا أوميهارا معروفاً بعداوته للمنصرين، وله كتاب مطبوع باللغة اليابانية عن المنصر الروسي «نيكولاي». وبناء على طلبي منه كتب مقالات أخرى مطولة في جريدة «ياماتو» فكانت بادرة طيبة منه، إذ رد على إفتراءات و سوء أدب المنصرين، وأكد بالبراهين التاريخية أمام أهل الانصاف، بأن دعوة النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن هدفها سوى إنقاذ البشرية من الكفر والضلال.

وهكذا بدأت آذان اليابانيين تتعود بعض الشيء على الاسلام، ونجحنا في اسماع اسم الاسلام لليابانيين، حيث أنهم لم يكونوا قد سمعوا عن الاسلام الا القليل، وتكاد بلاد اليابان تكون في تلك الفترة شبه معدومة

من العنصر المسلم الياباني.. وقد أخبرني صاحب جريدة كوكومين، وأحد أشهر المحررين، بأنه يعرف في الشعب الياباني إثنين من المسلمين.

إستعداد اليابانيين لقبول الاسلام

هذا الأمر مهم جداً بالنسبة لنا، وقد وجدت من المناسب أن أكتب فصلاً خاصاً حول الموضوع، لأن المسلمين سيتصلون باليابان يوما ما. و بشكل عام فإن إهتمامات اليابانيين بالدين تكاد تكون معدومة، فقضية الدين عندهم تأتي في الدرجة الثانية، ومتروكة إلى ضمير كل شخص لحاله.

واليابانيون يمارسون حرية الضمير على اطلاقها. إلا أن النواحي السياسية والاقتصادية لها الأهمية الكبرى في حياتهم، ويهتم بها كل ياباني، و لا يمكن أن تتصور يابانياً لا يفكر في الأوضاع السياسية اليابانية، حتى الحمال وسائق العربة ومن هم على شاكلتهما من الطبقات الدنيا في اليابان يفكرون في المستقبل الياباني من الزاويتين السياسية والاقتصادية، ويكون تفكيره طويلاً و متعمقاً.

وذات يوم كنت اتجول في القرى على ريكشة، وعندما مررت بجوار منزل مصمم تصميماً جيداً على الساحل سألت:- منزل من هذا؟

- لسيد أمريكي.

- أحقاً ! وهل في اليابان أمريكيون مقيمون؟

- كثيرون، إننا لا نجد مكاناً نأوي إليه، أما هؤلاء فقد جاؤوا من أمريكا بنقودهم واستولوا على أراضينا، و الحكومة في تلك الفترة سمحت لهم بذلك، يأتون في الصيف فيقضون أيامهم في هذه البيوت.

- هل امتلكوها، أهذا المنزل هو ملك الأمريكي؟

- نعم، إنه ملكه، إلا أن الأرض ليست ملكه. لقد استأجروها، لأن القانون لايسمح للأجنبي بتملك الأرض في اليابان.، إنه فقط يستطيع أن يستأجرها لمدة طويلة. و الأراضي المستأجرة على هذا النحو كثيرة جداً، والشعب يتضرر من جراء ذلك. ان حكومتنا تتبع سياسة لينة تجاه الأجانب، و الأراضي في بلادنا قليلة، و عدد السكان كثير، ويتزايد كل عام، ولا أدري ماذا ستكون النتيجة؟ و الحقيقة إن عقولنا قاصرة عن ادراك المصير.

أنظروا، هذا الرأي من؛ حمال! اذا استطاع حمال أن يفكر في مستقبل بلاده و حاضرها على هذا النحو فكيف بغيره من الناس؟ إننا إذا سألنا طلبة العلم عندنا لوجدنا القليل منهم من يفكر على هذا المستوى. لقد رأيت هذه القابلية في اليابانيين، فقلت في نفسي: إذا وجد من الخارج من يرشد اليابانيين الى الطريق، فإن قابليتهم لقبول الإسلام كبيرة.

إن السوق الوحيدة للبضائع اليابانية هي السوق الصينية، حيث تصل البضائع إلى منشوريا ومنغوليا والتيبت، ولكننا نلحظ وجود نفور طبيعي بين الصينيين و اليابانيين، ولذلك فان اليابانيين الذين يعيشون داخل الصين يتعرضون لمشكلات كثيرة. لقد حاول اليابانيون ولا يزالون يحاولون إيجاد طريقة لازالة هذه المشاكل، فلم يفلحوا. والمنصرون داخل الصين يسعون الى تنفير الصينيين من اليابانيين، ولذلك فان اليابانيين يضيقون ذرعا بالمنصرين.

فاذا أخذنا هذا الوضع بعين الاعتبار، ودرسناه دراسة متعمقة، لتوصلنا إلى ضرورة حل وضع اليابانيين في الصين بتمتين علاقاتهم مع المسلمين في الديار الصينية. إن هذا هو الحل الوحيد. كما إن هذه العلاقات الاقتصادية ستكون سبباً في ميل اليابانيين نحو الاسلام، إضافة إلى أنهم بلا شك سيحرزون نصراً اقتصادياً وسياسياً بفتح ثلث البلاد أمامهم دون حرب.

إذا وسعنا النطاق قليلاً، فان جزر جاوه أيضا ستكون مفتوحة أمام البضائع اليابانية، وسيحرزون لهم مكانة خاصة في عالم الشرق.

فاذا استطاع علماؤنا أن يدلوا اليابانيين على هذا الطريق، فلا شك بأن اليابانيين على إستعداد لدخول الإسلام.

أما إذا ذهبنا إليهم و دعوناهم إلى الجنة، فلنتيقن بأننا لن نجد فيهم أذنا صاغية. إننا مسلمون أبا عن جد، ومع هذا فمن النادر أن تجد فينا من يتمسك بالاسلام حباً بالجنة. وأظن بأنني إستطعت بهذه العجالة أن أعطي للقراء الكرام فكرة عن مستقبل الاسلام في اليابان.

إن بعض الناس يتحدثون الآن عن وجود أعداد كبيرة من المسلمين في اليابان، غير أن هذا غير صحيح، ولا أدري ماهدفهم فيما يقولون. وهناك روايات كثيرة وغير صحيحة عن إسلام كثيرين من الناس، و أن الإمبراطور موتسوهيتو مسلم، إلى غير ذلك من الأقاويل التي لا أصل لها.

و يروى أيضا بأن ضابطاً من إسطنبول إسمه برتو بك جاء في إحدى الفترات في مهمة إلى اليابان، وأنه زار مكتبة الميكادو، فوجد فيها مصحفا بالخط الكوفي وأن الميكادو قرأه على برتو بك. إن ذلك في رأيي من شطحات الخيال والتمنيات. وأكاد أقول: أتمنى من الله أن تكون هذه الرواية صحيحة.

حب اليابانيين للمسلمين

هذه قضية جديرة بالملاحظة، إن حب اليابانيين للمسلمين حب قديم، ولا يزالون يحبونهم. وسأعرض على القراء الكرام بعضاً من مشاهداتي في هذا الصدد، فقبل الحرب الروسية اليابانية كانت الولايات الروسية بشكل عام تقيم فيها أعداد كبيرة من اليابانيين.، ومدينة «بيرمة» الروسية كان فيها عدد من اليابانيين، وحدث أن مرض أحدهم، وفقد الأمل في الحياة فأوصى زملاءه قائلاً:

«إذا حل الأجل الموعود ومت في هذا البلد، فادفنوني في مقابر المسلمين. هذا آخر ماأطلبه منكم باسم الصداقة التي بيننا»

وبعد أيام توفي هذا الرجل، فأراد رفقاؤه تنفيذ الوصية، أخذوا الاذن من البوليس المحلي والدائرة الصحية، ثم تقدموا بالطلب إلى إمام الحي، ولكن الإمام أبى، ومع ذلك فإنهم دفنوه في مكان متصل بمقابر المسلمين، و قبره معروف حتى الآن و قد زرته شخصياً.

واليابانيون الذين وقعوا في أسر الروس، حرصوا على اقامة علاقات بالمسلمين. وكان بين الأسرى من الجنودالروس عند اليابانيين حوالي ألفين من المسلمين التتار، فلقي هؤلاء معاملة خاصة من اليابانيين.

أضف إلى ذلك إنني أثناء وقوع أحداث الحادي والثلاثين من مارس من العام الماضي،كنت في اليابان. وبعد مغرب اليوم الأول من أبريل جاء خادم المنزل الذي أقيم فيه، كان في الثامنة عشرة من عمره، واقترب مني ومد إلي جريدة كانت بيده وقال: إن الوضع في إسطنبول سيء جدا. الجيش يتمرد" قال هذا وكان في وضع مضطرب وحزين.

وفي اليوم التالي كنت أتلقى العزاء من كل من يلقاني:- ماهذه الحالة ومالمصير؟، كانوا يتابعون أخبار البرق بكل اهتمام، و كانت أخبار البرق تنشر صباح و مساء كلِ يوم، فكان أصحابي يأتون إلي ليواسوني و يتمنون بأن تهدأ الأمور عاجلاً.

وفي الثامن عشر من نيسان (ابريل) ألقى الكونت أوكوما محاضرة في قاعة محاضرات نادي كازوكز كايكان KAZOKU KAYKAN وكان موضوعها مستقبل تركيا. ولقد هدأت محاضرة الكونت أوكوما من روع اليابانيين،كما ألقى البروفسور توميزو محاضرة أخرى، تحدث فيها عن مستقبل تركيا وقدم معلومات مفصلة عنها و قال: إن الحكومة التركية هي روح الشرق.

ولما وصل خبر خلع السلطان عبد الحميد وحبسه، جاءني إثنان من الأحباب وقالا: لماذا كل هذه الإهانات توجه لرجل هو خليفة النبي، إنه وإن تجاوز الحد بالظلم، فان مقامه جدير بالإحترام...

وكان التأثر بادياً على وجهيهما، حتى أنني لما حاولت تهدئتهما، قالا: إن مقام الخلافة مقام عظيم.. ولابد من إحترام هذا المقام.. وقد علمت فيما بعد بأن كثيرين من اليابانيين كانوا ينتظرون مني موافقة و لو جزئية كي يقوموا بمظاهرات وإرسال برقيات إحتجاج إلى مجلس المبعوثان. وأعتقد بأن كل هذا الشعور نابع بصورة واضحة من حبهم لأهل الإسلام.

ولو أعملنا فكرنا في هذا الموضوع، لعرفنا بأن إهتمام هؤلاء الناس الشديد بالإسلام أمر يدعو للإعجاب.

مدرسة سايغو غاكو SAIJO GAKKO للبنات

مدرسة البنات في طوكيو مدرسة جميلة جداً. قمت بزيارة هذه المدرسة فاستقبلني ميياتا MIYATA مدير المدرسة أحسن استقبال ورافقني في زيارة أقسامها.

إن مباني المدارس في اليابان بشكل عام بسيطة، و منها هذه المدرسة التي بنيت من الخشب، تدرس فيها المراحل الابتدائية والاعدادية. والشيء الذي أريد نقله إلى القراء الكرام، هو المحاورة التي جرت بيني وبين السيد ميياتا مدير المدرسة.

سألت مدير المدرسة عن الأهداف الرئيسية التي تتميز بها هذه المدرسة؟ فأجاب قائلا: في الواقع أن المدارس في اليابان كثيرة جداً؛ ومع ذلك فان بعض مدارسنا لا تولي إهتماما بالأخلاق القومية. أما مدرستنا فهي تهدف إلى الحفاظ التام على أخلاقنا القومية.

ومن حيث الأساس فان التربية الأخلاقية عندنا هي عبارة عن تعاليم جنكيز خان. وقدمني إلى رجلٍ بجانبه قائلاً: وهذا الرجل متخصص في تاريخ جنكيز...

لقد إستغربت من هذا الأمر أشد الاستغراب، وتسألت: وماذا تعني تعاليم جنكيز؟ وما النفع الذي ترجونه من هذه التعاليم؟

ميياتا- إن أخلاقنا القديمة إقتبسناها من آل جنكيز. فعندما قدم جنكيز إلى الصين وفد اليه بعض المسؤلين اليابانيين، وبعد السلام عليه والترحيب به تلقوا منه تعاليم خاصة بالتربية والأخلاق، لذلك فانك تلاحظ في معيشتنا البساطة وعدم التكلف.

وقديما كانت حياتنا المعيشة بسيطة جدا واقتصادية، ولازلنا على تلك الحالة، و لكنه في الأعوام القليلة الماضية بدأ التأثير الأوربي يظهر في تربية بعض شبابنا، ويحاول المنصرون الغربيون تشجيع هذا الاتجاه. إننا إذا لم نقف في وجه هؤلاء، لغرروا بشبابنا، لذلك فانه علينا ألا نتوانى عن القيام بهذه المهمة. إننا نرى ضرورة تربية بناتنا اللواتي هن أمهات المستقبل بشكل يتوافق مع أهدافنا.

سأذكر لك نموذجا بسيطاً: إن اليابانيين قد ألفوا منذ القديم الجلوس على ركبهم أثناء مكوثهم في البيوت. أما الآن (و إن كانت حالات نادرة) فقد ظهر إستعمال الكراسي، وظهرت مع الذين يجلسون على هذه الكراسي أمراض في أرجلهم، في حين لم يكن معمرونا الذين تجاوزوا السبعين او الثمانين من العمر يعرفون مثل هذه الأمراض.

وهناك أوضاع كثيرة نراها مضرة بالأمة اذا أفهمناها للواتي سيكن أمهات المستقبل، فاني آمل بأننا سننجح في الحفاظ على عاداتنا القومية. هذه هي خلاصة أهداف مدرستنا.

- وهل هناك مدارس أخرى تنحو هذا النحو؟ وما موقف الحكومة من مثل هذه المدارس؟

- هناك مدارس شبيهة بمدرستنا، وأتوقع من قدماء المديرين والمدرسين أن يحملوا نفس الفكرة التي نحملها، وعلاقة الحكومة بالمدرسة قليلة جداً. إننا راضون عن تنشئة الحكومة لموظفيها، وترك عاداتنا وطبائعنا القومية لنا إن الحكومة لا تتدخل في أمور ليست من اختصاصها، والواقع أن تربية الجيل ليست من إختصاصها.

إبراهيم- سأكرر سؤالي لك: ماهي مضامين تعاليم جنكيز، لم أفهمها كما يجب وماهو خصائص هذا الرجل؟

ميياتا- إن قومنا اليابانيين عرفوا بشدة تعلقهم بالاقتصاد، وهو أساس العزة القومية، إن جنكيز خان يقول: تفتح البلاد بالسلاح، وتحمى بالاقتصاد. لقد اتخذ اليابانيون هذا القول دستوراً، و القصد من هذا هو عدم محاكاة الغربيين في الإسراف. لقد عرفت هذه التربية القومية منذ القديم بتربية جنكيز، وكان والد هذا الرجل مولعاً بتاريخ جنكيز فهو من محبي أل جنكيز. لقد قام هذا الرجل بطبع ماكتبه أبوه، وهو بصدد نشر جميع ما ألفه، ولذلك فانه تجول داخل الصين وجمع معلومات كثيرة اضافية عن جنكيز.

والآن أرجو منك ان كان لديك متسع من الوقت أن تلقي بعض الكلمات أمام الطالبات. كما و أرجو أن تحث قليلاً عن الأخلاق الحميدة. وكان من الطبيعي أن اوافق على هذا الطلب. أجتمعت الطالبات في صالة المدرسة، وألقيت كلمة مختصرة تطرقت فيها للآداب الاسلامية.

ثم تجولنا في أقسام المدرسة، وقدمت لنا الفتيات بعضاً من أعمالهن اليدوية. وسر مدير المدرسة كثيراً. حتى أنني لما هممت بمغادرة المدرسة وجدت الطالبات وقد اصطففن على جانبي الممر المؤدي إلى خارج المدرسة، كما قامت بعض التلميذات الصغيرات برش الزهور من السلال الصغيرة التي كن يحملنها.

كانت بساطة المدرسة وكمال تربية الطالبات واضحة جلية.

والذي أثار إهتمامي أكثر من غيره في هذه الزيارة ماقيل عن جنكيز، وأظن بأن في هذا عبرة لمن يعتبر من قومنا التتار... كل هذا الاحترام من اليابانيين لجنكيز خان بينما نحن لانعرف من هو جنكيز، أو اننا لانريد أن نعرف، ماذا أقول؟ ولاحول ولاقوة إلا بالله.

وأريد أن أنبه هنا، الى أن الحفاظ على العادات القومية عند اليابانيين يعني الحفاظ على الأمور المستحسنة، تنظيم الاقتصاد والتوفير والحيلولة دون التبذير والاسراف، ولا يقصد من العادات القومية ماهي قديمة مستقبحة. فمثلا هناك عادة قديمة مستقبحة في القرى أيام الصيف حيث يسير بعضهم عراة، وأهل الرأي والرشد لايؤيدون الحفاظ على هذه العادة القبيحة. و الواقع إن اليابانيين لا يعرفون ما هي العورة، و ليست لديهم كلمة تفيد هذه المعنى، إذ يكتفون بستر العورة المغلظة، وهذه الظاهرة تشاهد في القرى الى يومنا هذا، ولا تجدها في المدن أبداً، ويحاول الناس إزالة هذه الظاهرة من القرى أيضا.

الأمن العام

الأمن العام في اليابان مستتب ومن النادر أن تقع حوادث سرقة في المدن أو القرى. لقد عبرت على أقدامي الجبال والوهاد والسهول، فكنت أشعر بالتعب فأنام في العراء ومعي بعض الأموال والأمتعة، فلم أتعرض لأي حادث. كنت ألاحظ أبواب البيوت التي أنزل فيها ضيفا، فلا أجد أحدا يقفل بابا، والأبواب في الأصل ليست محكمة، إنها تنهار بمجرد الدفع. وتكاد الصحف تكون خالية من أخبار جرائم السرقة، كما إنني لاحظت أثناء زيارتي للسجن بأن المحكوم عليهم بالسجن من جرائم السرقة لاتزيد نسبتهم عن العشرة في المائة. وقيل لي بأن أكثر الجرائم هي الجرائم المتعلقة بالعرض. فقد إعتدى أحدهم على عرض الآخر، لذلك

قام ناكامورا NAKAMURA بضرب نيزو بآلة جارحة، وقد يعمد الصديق إلى قتل صديقه بسبب العرض. وفيما عدا ذلك فان الأمن مستتب. والحوادث الجنائية نادرة الوقوع. وقلنا عدة مرات بأن اليابانيين يتميزون عن الأمم الأخرى ببعض الصفات، نذكر منها أن كل ياباني لابد أن يحتفظ في بيته بسكين حاد وإن ذلك السكين الحاد يهدد حياة صاحب المنزل قبل أن يهدد حياة الآخرين.

فان قام بأمر مخل بالعرض، أو قام أحد الناس بالاعتداء على عرضه فسكت عليه، أي أنه لم يستطع الحفاظ على سمعته بين الناس فعليه الانتحار، فان لم ينتحر قتله ذووه وأقاربه، ثم إنه يقوم لنفس السبب بالهجوم على الآخرين.

ومن العجيب حقاً أن الانتحار عند اليابانيين يتم بشق البطن ولابد للمنتحر من أن يشق بطنه بالسكين.

المحاكم العدلية

المحاكم العدلية لدى اليابانيين منظمة تنظيماً جيداً. و المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة والحكم النهائي هي خمسة عشريوماً، فان لم تتمكن المحكمة من اصدار حكمها القطعي خلال خمسة عشر يوماً فللمجرم مغادرة السجن.

والمحكمة تنظر في الدعوى بحضور وكلاء الدعوى المحلفين، ولا أرى ضرورة لأن أتطرق للشئون القانونية و لكن الذي إسترعى إهتمامي هو عدم الإعتداء على حرية المحكوم لاقبل الحكم ولا بعده؛ ولايمشي المحكوم على قدميه بل ينقلونه بالعربة.

واذا أنزلوه من العربة ونقلوه من دائرة إلى دائرة أخرى عبر ممرات المحكمة ألبسوه قناعاً بحيث لايعرفه أحد، ولا يذكرون شيئاً عن المجرم

في الصحف إذا كانت جريمته تتعلق بالعرض. أما اذا كانت مجرد خيانة فلا يتوانون عن التشهير به بكل الوسائل.

الـربيـــــع

للربيع مكانة خاصة عند اليابانيين. فعندما تتفتح زهور الكرز SAKURA، يخرج عامة اليابانيين الى البراري لاستقبال زهرة الكرز، وكانت جمعية «توهو شوغيTOHOSHUGI» قد أرسلت لي في أوائل شهر أبريل بطاقة دعوة لحضور مهرجان الاستقبال.

وفي اليوم المحدد، توجهت الى المكان المبين في البطاقة وهو حديقة «وينو UENO» في أحد أحياء طوكيو، فوجدت هناك اوميهاره رئيس الجمعية ومئات الأعضاء وقد تجمعوا تحت راية «توهوشوغي» وبعد إستراحة عشر دقائق توجهنا إلى محطة قطار «وينو» ومن هناك سافرنا بالقطار إلى مدينة «ناغويه NAGOYA». وما أن أخذنا مكاننا في العربات وتحرك القطار حتى قدمني أوميهاره إلى زملائه قائلا: أيها الزملاء ! إن هذا اليوم هو أعظم أيام جمعيتنا، ذلك لوجود ضيفنا الكبير ابراهيم بيننا. نحن اليابانيين نسعد في هذا اليوم المبارك بتشريف مسلم لنا لأول مرة.

وقف جميع من في العربة محيين بصوت واحد (بانزاي) و استغرقت رحلتنا الى مدينة "ناغويا" اربعين دقيقة(تبعد ناغويا ٤٠٠ كم تقريباً و لعل عشر ساعات غير كافية بقطار ذلك الزمان و لعل مكان الحديقة غير ناغويا - السامرائي و لعله ناكانو NAKANO) ثم مشينا على أقدامنا مدة عشرين دقيقة فوصلنا إلى حديقة جميلة بجوار بحيرة ماء، و فيها اشجار كرز كثيرة مزهرة. أمضينا ساعة أو ساعتين في الحديقة، ألقيت خلالها كلمات عن الربيع، كما ألقيت بعض الأشعار، فكان وقتاً طيباً.

شاهدت في تلك الحديقة، والحدائق المجاورة، أناساً كثيرين على شكل مجموعات، كل مجموعة تحتفل على نحو خاص بها. ومما

إسترعى إنتباهي، هو عدم وجود أي عنصر نسائي من بين هذه الجموع الغفيرة. كان في إمكانهم إحضار نسائهم معهم، لأن مفهوم عدم الاختلاط والحجاب غير معروف عندهم، كما إن اليابانيين قوم متقدمون. ! وقد يحدث هنا مايحدث لدى الأوربيين من قلة الحياء. ولكن مضى الوقت باللعب والضحك ضمن حدود الأدب. وعرفت فيما بعد بأن استقبال الربيع عادة قديمة عندهم. فقد دعينا لاستقبال الربيع مرات كثيرة، فكانوا لا يخرجون إلى البر و يحتفلون في حدائقهم الخاصة داخل المدينة. ولقد دعاني الكونت ماتسوره في إحدى المرات لإستقبال الربيع. و يكون الجو في اليابان لطيفا من بداية شهر مارس وحتى نهاية أبريل، يمضي فيها اليابانيون أحلى الأوقات باستقبال الربيع.

وفي استقبال الربيع هذا وجدنا الفرصة للتعرف على كثير من الناس،و ألقينا كثيراً من الكلمات ونجحنا في اشغال أذهان اليابانيين بقضية اتحاد الشرق.

التجـــارة عنـــد اليابانيين

أمضيت عدة شهور في اليابان ولم أحاول الحصول على معلومات عن التجارة. إلا أنني كنت ألاحظ وجود متاجر ضخمة، الى جانب دكاكين صغيرة كثيرة، و لا تجد بيتاً على الشارع إلا و قد حولوا إحدى غرفه الى دكان، و كنت أعجب لكثرة الدكاكين في المدن والقرى على حد سواء. لماذا كل هذه الكثرة، كنت أفكر وأقول في نفسي: في كل بيت دكان، فمن أين يأتي الزبون؟، إلا أنني لم أكن أعرف طبقات التجار. ولا شك أن صغار الكسبة كثيرون، لفت نظري كثرة البقالات الصغيرة ودكاكين العطارة حتى في القرى والأرياف. وذات يوم سأل أحدهم في اجتماع كنت أحضره: هل من الممكن إقامة علاقات تجارية مع تركيا؟ومنذ ذلك

اليوم بدأت أفكر كثيرا فيما يمكن أن تقوم به العلاقات التجارية، وصرت اوسع مجال تفكيري وأبحاثي.

من الملاحظ كثرة وتنوع المصانع في اليابان، وكنت ألحظ المخترعات العديدة التي تحير الألباب، وأن اليابان إستهدفت تطوير التجارة و تعميمها بإستخدام طريقة تسجيل المخترعات،واستحدثت لذلك متحفا خاصا، فكل من يخترع شيئاً يصنع له نموذجاً ويودعه في هذا المتحف ويأخذ إمتيازاً بذلك الإختراع. ومن يزور هذا المتحف يطلع على مدى التقدم الصناعي و التجاري في هذا البلد.

فهناك مخترعات جديدة من ماكينات، و آلات و أدوات صناعية وزراعية، تودع الآلاف منها في المتحف المذكور. والواقع إن فيها بعض الأشياء التي لا أهمية لها، قد سجلت ضمن المخترعات الجديدة مثل: شارات الملابس، وحفائظ النقود، والقمصان، والقبعات، كلها دخلت ضمن سجل المخترعات، و إلى جانب ذلك تجد محركات مهمة، وجلود سمك مصنعة، وآلات خاصة باستخراج زيوت السمك وأنواع الأسلحة النارية وأشياء أخرى مهمة. قلت جوابا لسؤال ذلك الرجل، بأنني لم أجد سلعة تجارية يمكن المتاجرة بها مع تركيا.

عندئذ قال أحد الحاضرين:- مهما كان نوع التعامل، فاننا سنجد هناك مانشتريه، كما سنجد عندنا مانبيعه لهم، و المهم أولاً أن نجد وسيلة الاتصال بهم.. لم ندر ما السبب في جهل بعضنا بعضاً.

وتوجه رجل اسمه ميياكو MIYAKO بالكلام قائلا: توسط بيننا، كي يطلب الأتراك منا أن نصنع لهم سفنا تجارية، و سنستقدم عمالاً من تركيا كي يشرفوا على عملية الصنع، وكلما زادت الطلبات زادت العلاقات والتمازج بيننا، وتفتح أبواب كثيرة خلال وقت قصير، انني أضمن بأن السفن التي سنصنعها أكمل وأحدث من السفن التي تصنع في أوربا وارخص منها بنسبة عشرين في المئة. إن في مقدورنا صنعها حتى ولو لم نربح شيئا، فاذا بدأت العلاقات فسيكون بعدها مابعدها. ومع بداية

العلاقات تبادر بنوكنا إلى فتح فروع لها هناك، و تفتح بنوكهم فروعاً لها هنا، و إذا بدأ التبادل بين البنوك التي تعتبر رأسمال التجارة تطورت التجارة بيننا بأقصى سرعة.

كان ميياكو يتكلم، وأنا أفكر فيما يقوله، و بدأ القلق يساورني، فإذا تحقق ما يقول، فانني أخشى أن نخيب و نفشل، لأن البنوك في اليابان من الكثرة بحيث تزيد على الصرافين في منطقة غلطة (باسطنبول)، بالاضافة الى أن الأمر عندنا فوضى، والبنوك الصغيرة في اليابان لها فروع في المدن والقرى، و عدد البنوك الكبيرة ليس بالقليل. وفي بنك ميتسوي MITSUI (نسيت رأسماله) يعمل أكثر من ستمائة موظف، وله فروع في إنجلترا وأمريكا. وبما أنني لا أملك معلومات نظرية أو عملية عن التجارة، فان أي جهد ومسعى مني لا يأتي بشيء يمكن أن يقيم علاقة تجارية. ومع ذلك فقد أيقنت بأن التجارة في اليابان متطورة جداً، ذلك لأن الصادرات زادت على الواردات أضعاف المرات، و إذا استطاعت اليابان أن تضع يدها على منشوريا وكوريا فإن اليابان لن تحتاج إلى إستيراد أي شيء خلال عشرين عاما.لقد حصلت على مثل هذه المعلومات و إن كانت سطحية.

إستـــــــطراد

بينما كنت أبحث عن معلومات تتعلق بالتجارة و إذ بي أصادف كنزاً. وقد يستغرب الناس إذا قلت صادفت كنزاً، والحقيقة إن ماصادفته من الضخامة بحيث يصح أن يقال عنه: أنه كنز

خلال إقامتي في يوكوهاما، تعرفت على رجل خبير باصلاح الساعات يعرف شيئاً من اللغة الروسية، كنت أتردد على دكانه بين فترة وأخرى، أتحدث معه فيما يلزم وما لا يلزم لتمضية الوقت وللتدرب على اللغة

اليابانية، فقد كان يفهم ما أقوله باللغة الروسية، ويجيب باللغة اليابانية في أغلب الأحيان. فترددي عليه في الصباح والمساء قوى الصداقة فيما بيننا.
وذات يوم كنا نتحدث عن التجارة فقال لي:- أتريد مني أن نتبايع و نربح مبلغاً كبيراً؟
- طبعا، طبعا! ان كان هناك كسب للمال، فانا مستعد دائما، أخبرني عن البضاعة، فنعمل ونكسب.
- ولكن الأمر يحتاج إلى قليل من الجرأة، وقليل من الصبر.
- لقد قيل: إذا لم تتوفر الجرأة لا يمكن أن تحصل التجارة، ديننا يأمرنا بذلك. هذا الياباني المسكين سمع مني هذا الكلام فظن بأنني تاجر جسور جداً.
- اذن فسنبحث الأمر بصورة جدية. و دعاني للاجتماع في منزله. وكنت في منزله في الموعد المضروب. وبعد تقديم الشاي قال لي الرجل:
- عندنا في اليابان بعض الأوراق الروسية، إستولى عليها بعض الناس في بورت أرثر دون علم الحكومة، ولم يعرفوا ما هي هذه الأوراق في حينها، لأن الموظفين الروس خلال حصار بورت أرثر أخرجوا هذه الأوراق في صورة من الصور، ودفنوها هنا وهناك، وعندما استسلمت بورت ارثر بصورة رسمية، فان الدوائر الرسمية جرى تسليمها بموجب دفاتر، لذلك فان الأشياء المستولى عليها بصورة غير رسمية لايمكن عرضها على الحكومة الروسية، وعليه فلو إستطعنا إدخال هذه الأوراق إلى روسيا بشكل غير رسمي وبيعها، لحصلنا ربحاً عظيماً.
- أي شيء هذه الأوراق حتى تدر علينا مثل هذا الربح؟ أنا لم أفهم حتى الآن.
- أنا أضمن لك أن نربح بضعة ملايين، فقد نشتريها بمائة وخمسين أو أقل من ذلك، فهذه الأوراق بحوزة أحد الناس وقد أرسلت في طلبه، ولعله لم يقدر على المجيء لسبب من الأسباب. كان عليه الحضور، كن واثقاً، بأنني سأكون وسيطاً بينكما كي تحصل على مبلغ كبير.

سأرتب لقاء بينكما بعد ثلاثة أيام، فإذا حضرت في الساعة العاشرة من يوم الجمعة فستجد ذلك الرجل مع عينات من تلك الأوراق، كما إن لدي عملاً تجارياً مربحاً. المهم أنني سأنتظرك في الساعةالعاشرة من يوم الجمعة، ستسر بهذا اللقاء.

ودعته على أمل اللقاء في اليوم المحدد الذي أصبحت انتظره بفارغ الصبر، و فكري لم يزل مشغولا في نوعية هذه الأوراق.

وفي الساعة العاشرة من اليوم المذكور وصلت إلى منزل الساعاتي، فوجدت رجلاً في زي تاجر، و قدمه صاحب المنزل لي قائلا: «هانافوسا HANAFUSA» الوسيط التجاري الشهير في طوكيو. وقدمني له قائلا:- عبد الرشيد ابراهيم، من التجار الروس المعتبرين(ظنني هذا المسكين تاجراً). وبعد حديث قصير، نظر إلي وقال: أأخبرك صاحب المنزل عن سبب لقائنا؟

- نعم لقد عرفت بعض الشيء و لكني لم أعرف البضاعة.

- هذه هي العينة!.. وأخرج من محفظته كمية من الطوابع البريدية، وسندات الأسهم وأنواعا من أوراق الأسهم لم أعرفها. وقال:هذه هي البضاعة.

- كم تبلغ قيمة هذه الأوراق ؛ وهل لديك الكثير منها؟

- طوابع البريد مقدارها حوالي مليون وستمائة ألف روبل، وطوابع الرقابة أكثر من ثلاثة ملايين، وقيمة الأسهم حوالي مليونين والمجموع سبعة ملايين.

- كيف تريد بيعها، هل يمكنك البيع على دفعات؟

- حسب المساومة، ولكن ليس بمقادير قليلة.

- و ما هو الثمن؟

من الطبيعي أنني أردت أن أفهم كل هذه الأشياء، وبدأت أتصرف كالتجار. وبعد الأخذ و الرد، توصلنا الى النتيجة التالية: إذا اشتريتها كلها

فبثلث قيمتها؛ واذا اكتفيت بطوابع البريد فبستين أو خمسة وخمسين بالمائة.

وأخذت بضع مئات منها و بعثتها الى بعض معارفي في بترسبورغ. و تبين أن الطوابع البريدية تغيرت في روسيا، ولم يعد للطوابع القديمة أية قيمة. و مع ذلك إستمرت علاقتي بالوسيط، و لقيني ذات يوم قالا:

- إن لدى الحكومة كثيرا من الأسلحة الروسية غنمتها في بورت آرثر، فهل يمكن بيعها؟ سأتوسط لشرائها بثمن رخيص.

- و ما نوع تلك الأسلحة؟

- خمسمائة ألف بندقية، ومع كل بندقية مائتان وخمسون ألف رصاصة لم تستخرج من صناديقها بعد، إنها على حالها كما خرجت من المصنع وكانت مخزنة في بورت آرثر عندما غنمها رجالنا.

- وهل ستباع سراً مثل الطوابع؟

-لا ! إذا أرادت إحدى الحكومات شراءها، فيمكن مناقشة السعر، و قد يكون هناك شعب تحت حكم دولة أخرى أو أفراد، فعندئذ يمكن شراؤها بصورة غير رسمية.

كما توجد لدى وزارة الحربية غنائم أخرى كثيرة، فاذا وجدت من يشتريها فانني سأتوسط لبيعها كلها.

هناك أكثر من مائتين وخمسين ألفا من جلود الأغنام المصنعة، و أشياء أخرى كثيرة، و بالأمس نشرت الصحف إعلاناً عنها. يمكن شراء جلود الغنم بأسعار رخيصة. وهناك ملابس جديدة وجاهزة.

هذا هو الكنز الذي كنت أقصده.

إنني وإن لم أكن عسكرياً، و ليست لي القدرة على إجراء تقييم في مثل هذه الحالات، فانني أعتقد بأن هذا الكنز يمكن أن يكون مادة للمختصين من العسكريين كي يحكموا عليه: هل كان تسليم بورت آرثور لليابانيين موافقا للقانون و الحكمة أم لا؟ وإضافة إلى ذلك فقد أثبتت الأوراق الرسمية وجود مئات من حيوانات النقل وغيرها.

لقد علمنا أن «أسته سيل» قائد بور آرثور قد عوقب بموجب القوانين، ولكن يغلب على الظن بأن تلك العقوبة تعتبر نوعاً من المكافأة.

ومع أن هذا الموضوع يعتبر نوعا من الخروج عن المقصد الأصلي، فانني أرجو ألا يكون خاليا من النفع، فإن أمماً كثيرة تسفك دماؤها وتزهق أرواح أبنائها من أجل أطماع سياسية لحكوماتها، معتقدة بأنها تخدم أوطانها، رغم أن على رأس هذه الحكومات بعض السارقين، كل هذه الأمور جديرة بالملاحظة.

مـــوانىء اليـــابان

الموانىء التجارية المفتوحة بشكل دائم في اليابان هي: سوروغا وموجي وناغازاكي وكوبي ويوكوهاما، وهذه المدن من أهم المراكز التجارية.

وتسوروغا وموجي فهما بوابة روسيا، وأما ناغازاكي وكوبي ويوكوهاما فهي بمثابة بوابة للتجارة البحرية لأوربا وأمريكا.

وأهم المواد التجارية في اليابان هي: الأرز والشاي والسمك وزيت السمك وأنواع عديدة من الأخشاب، و تصدر هذه المواد عبر ميناء كوبي. إن عدد سكان هذه المدينة هو حوالي مائتان وخمسون ألف، وفيهم خمسة وعشرون من التجار المسلمين الهنود، كما إن فيها كثير من التجار الأجانب، ومع ذلك فان عددهم محدود، والسبب الرئيسي لذلك هو عدم تمكن الأجانب من امتلاك الأراضي أولاً، ووجوب تملك اليابانيين لأكثر من نصف الحصص في الشركات الأجنبية وهذا يعني وضع قيود كبيرة أمام الأجانب.

ثم إن التجار اليابانيين يعملون على قطع الطريق على الأجانب، فمثلا قامت شركة «نيبون يوسين كايشا» وهي من أكبر شركات السفن، بعقد إتفاق مع شركة «بنسلفانيا» إحدى أشهر الشركات الأمريكية، على أن

تتعهد اليابان بالقيام بالنقل البحري باسم بنسلفانيا وتعطيها لشركة «نيبون يوسين كايشا».

أما «نيبون يوسين كايشا» فإنها تستقبل الأمتعة التجارية والركاب المتوجهين إلى داخل أمريكا، تستقبلهم في ميناءي كوبي و يوكوهاما، فإذا وصلوا إلى سواحل أمريكا سلمتهم إلى شركة «بنسلفانيا». حتى تذاكر القطار إلى داخل أمريكا يعطونها في ميناء كوبي.

وبسبب هذه الاتفاقية، لاتستطيع السفن الأمريكية الدخول إلى اليابان. إن كل هذه التدابير صائبة و تدل على بعد نظر. فإذا وجد مثل هؤلاء الرجال للقيام بمثل هذا التعامل، فلا ضير من قدوم التجار الأجانب.

معدن الذهب عند اليابانيين

في الأراضي اليابانية أربعة وعشرون نوعاً من معدن الذهب، و إنتاجها يوزن بوحدة تسمى «رين» (تختلف قليلا عن المثقال المعروف عندنا)

وذلك على النحو التالي:

ينغاته:	١٩٠،٣٤٤		
كوساكا Kosaka	٧٩،٦٨٣	أشيؤه Ushıo	٧٩،٣٨٥
ياماغانو yamagano	٦٩،٩١٩	أوغوتشي Oguchı	
	٤٩،١٦٨		
سيريكانو Scrıgano	٢٨،٥٠٨	ايكينو Ikun	٢٢،٥٩٦
تاي سوتو	٢٦،٦٠٦	ايناي Innaı	٢٠،١٩٣
قوراية kuraya	١٩،٦٠٨	شيكا أدموري shikaori	
	١٥،٣٣٣		

أوروشي ١٢،٢٩٣ أموري Omurı

٩،١٦٨

تودوروكي Todorokı ٨،٢٣٣ هاندا Handa

٧،٩٢٨

كيميبي Kımpeı ٧،١٢٩ أوتاني Otanı

٦،٤٥٢

أوماتسو Omatsu ٥،٣٢٨ تشيي واراي

Tchıwarahı ٣،٨١٨

ميجوبي Mıgobı ٣،٤٠٢ كانوا Kanwa

٣،٢١٧

تاكانوسو ٣،٢١٢ هاسامي

٢،٨٤٤

أوكوازي Okawachı ٢،٧٣٩ اوصاري ماوا

Osarıgawa ٢،٦٠٠

بنزايتن ١،٢٣٤ يوشي آوكا Yoshıoka

١،٠٨٠

هذا هو ناتج الذهب في اليابان خلال عام واحد. كما أن في اليابان معدن (النحاس) البرونز، يعمل فيه ستة عشر ألف عامل. وإذا أخذت هذه الأمور في الحسبان، يمكننا معرفة مستوى التجارة في اليابان.

الإختبارات في المدارس

إستمرت إختبارات المدارس من نهاية شهر نيسان(أبريل) وحتى نهاية شهر أيار(مايو). وخلال هذه المدة شاهدت كثيراً من حفلات توزيع الجوائز للناجحين في مدارس الذكور والاناث أريد نقل بعضها للقراء الكرام.

في البداية، دعاني البروفسور تاناكه لحضور حفل تخرج الدفعة الأولى من طالبات مدرسة «كوتوغاككو» التي افتتحها بدافع من حميته الوطنية.

والواقع فان هذه المدرسة شبيهة بمدرسة «سايجو غاكو» النموذجية التي ذكرتها سابقاً. وعندما وصلت المدرسة كانت الامتحانات قد إنتهت، وبدأوا بتوزيع الجوائز.

قدمني البروفسور تاناكه الى الحضور.و اليابانيون يطلقون على التتار إسم (تاتاجين). فقال: أقدم لكم جميعا، المسلم عبد الرشيد ابراهيم من قوم التاتاجين. قاموا إحتراماً لي وسلموا علي جميعا، وقمت أنا بدوري وشكرتهم.وكان من بين الحضور ثمانية من أعضاء البرلمان، و سته محامين و أربعة من أساتذة الجامعات. و قد تكلم أكثر هؤلاء في الحفل، وقدموا للبنات نصائح طيبة. وأنقل هنا خلاصة ماقاله عضو البرلمان والخطيب الشهيرساساكي:

إن همة الانسان ونشاطه، هما من أكبر وسائل الحياة في هذه الدنيا، ولايمكننا أن نتصور قوة تعادل هذه القوة. و مهما قل عمل الإنسان، فانه يقاس بنيته.

إن المهمات التي يقوم بها السيد تاناكا حاليا قد تكون من قبيل الفرعيات، ومع ذلك فان العمل القليل قد يستحق مكافأة كبيرة حسب حجم النوايا. إن الأخ تاناكا لم يطلب شيئاً من أحد، لم يطلب مساعدة من الحكومة، لقد عمل بمفرده، وفر من جيبه الخاص و قدم به خدمات لبنات الوطن. منذ ست أو سبع سنوات جمع اليتيمات حوله وأوقف كامل بيته لهن، وحصر نفسه وزوجته في زاوية من زواياه، فهذا الرجل الذي هو أمامكم تبنى الصغيرات ورباهن. هذا هو البيت الصغير(و أشار إلى غرفة داخل الحديقة) لم يتسع لنا فاجتمعنا في الحديقة تحت المطر. (وكان المطر ينزل قليلاً). هذه هي المدرسة التي تأوي إليه الصغيرات منذ سبع سنوات. و غداً سيكن أمهات، واثنتان من بينهن صرن الثمرات الأولى، لقد تربتا من أجل أن يربين جيلاً للوطن، وسينتظر الأخ تاناكا

بكل ثقة نشأة بقية الطالبات وتخرجهن في العام القادم. أقدم لكم هذه المرة الثمرتين الصغيرتين، قوما حتى يراكن السادة الحضور.(وقامت الفتاتان)

وتابع ساساكي كلامه فقال: لاتنظروا إلى لباسهن، فالعار في الجهل و ليس في الفقر، أكرر فأقول بأن السيد تاناكا ومعه حرمه، رباهن في هذا البيت المتواضع بجهده الخاص. لقد حق له أن يفخر كما شاء، إن ذلك ليس باليسير.

وإني أضرب لكم مثالا على مدى الخدمات التي يقدمها الأخ تاناكا: خلال وجودي في منغوليا، إلتقيت بعدد من المنصرين، و سألت أحدهم عما قام به وعن مدى التوفيق والنجاح الذي وصل اليه. لقد عمل في التنصير مدة عشرين عاماً، وصرفت حكومته الملايين، وبنوا الكنائس والصوامع، فتنصر خلال هذه المدة الطويلة إثنان فقط.قال المنصر هذا، وكأنه نجح نجاحاً باهراً. و ظل يذكره لكل من يصادفه.

أقول هذا في مجال المقارنة، ولكن خدمات الأخ تاناكا لايمكن أن تقارن بهذا، لأن خدماته مهمة مقدسة، وجهد من أجل مستقبل الوطن. ليست من أجل الانسان فحسب بل من أجل الوطن والأمة أيضاً.

ذلك المنصر كان يتيه فخراً لإفساد رجلين من أمة أخرى، من أجل إسعاد أمته هو.

أما السيد تاناكا فيعمل على تنشئة أمهات يقمن بتهذيب أخلاق الاف الرجال من أمته. إن لساني ليعجز عن التعبير لقيمة هذا العمل، وإنني إذ أقدم هذا المثال مني كدليل على عجزي، وأرى من واجبي أن أقدم الشكر للسيد تاناكا باسمي وباسم الناخبين الذي أوصلوني إلى البرلمان، وجعلوني نائباً للشعب. (تصفيق متواصل)

المحامي ساكوراكي:- إن أمة نيبون NIPPON (اليابان) لايقل مستواها في العلم والمعرفة عن مستوى أي أمة، فقبل خمسة عشر أو عشرين عاماً كنا محتاجين للأمم الغربية، ومن السابق لأوانه أن أقول بأننا لم نعد نحتاج

اليهم الآن، ولكنني لا أشك أبداً بأننا لن نحتاجهم بعد عشر سنوات. لقد حافظنا حتى الآن على قوميتنا ووطنيتنا، و لن نرى حاجة بعد الآن إلى تبديل قوميتنا وعاداتنا القديمة المألوفة. أما البعض من الذين لم يصبروا على الجوع وقادتهم دناءة نفوسهم إلى أحضان المنصرين فإننا نعلن إشمئزازنا منهم.

إن الحروف التي نستعملها الآن هي حروف صينية الأصل، وإننا نستعملها منذ ألفي عام، حتى صارت جزءا من تراثنا وحياتنا. إن تاريخنا منذ ألفي عام مكتوب ومحفوظ بهذه الحروف، ومستقبل العلوم الحديثة ضمناه بهذه الكتابة، إن مايحاول به البعض من ذوي العقول السقيمة من التهجم على رسم الكتابة عندنا، هو تهجم على حياتنا. من المؤكد ألا يرضى أي ياباني بتبديل حرف من هذه الحروف.

"إن بنات مدارسنا الآن سيصرن أمهات الأمة في المستقبل، فالمهمة الأولى لهن هي حماية أبناء الأمة من تغلغل روح الأجنبي.

" الطبيعة حددت وظيفة كل مخلوق إنساناً كان أم حيواناً، ذكراً كان أم أنثى. ومن المؤكد بأن أي امرأة لايمكنها أن تتحمل مهمة الرجل ولا بمقدور الرجل أن يلتزم بمهمة المرأة، ومع ذلك فان بعض أعداء الطبيعة والأخلاق في أوربا يرتكبون الجريمة بحق المرأة عندما يدعونهن إلى مساواتها بالرجل (تصفيق)

إنني ياباني، ولي خصائص فطرية كثيرة، إذا غيرتها إرضاءً للأوربيين فلا شك بأنني أكون قد ارتكبت جريمة بحق أمتي وقوميتي (تصفيق)

وأضيف شيئاً آخر، أقوله من صميم قلبي؛ سأطلب شيئاً من ضيف اليابانيين الكبير والدنا إبراهيم:

نحن اليابانيين جزء من الأمة الشرقية، والدين الإسلامي إنتشر في الشرق إنتشاراً واسعا، وحتى الآن لم يصل الى اليابان، وإننا نتوقع أن يكون الدين الاسلامي رائدا لنا في سعينا للحفاظ على أخلاقنا الوطنية. وعليه فاننا نرجو من ضيفنا المحترم أن يعطينا فكرة عن الاسلام، وأرجو

من زملائي هنا أن يشاركوني في هذا الطلب، فلعلنا نعتنق الاسلام إذا عرفنا كنه هذا الدين (تصفيق. أصوات: كلنا نرجو ذلك)

ثم قام السيد تاناكا من مكانه وتقدم نحوي وقال:- تفضل حتى يستفيد اليابانيون من أفكارك، إنني لن أتردد في إعتناق الدين الذي تعتنقه، وأكرر رجائي بأن تذكر للبنات الصغيرات كل ماتتضمنه التعاليم الاسلامية من الأخلاق الحميدة. إن نصائحك ستكون لهن دروسا لا يمكن نسيانها.

وقفت على قدمي وحاولت الإعتذار، و عندما تكررت أصوات الرجاء، إضطررت لأن أقول بعضاً من الكلمات:

أيها السادة! أقدم شكري الخاص على التكريم الذي أوليتمونيه. أريد أن أقول لكم قبل كل شيء: انني لم آت الى هنا للدعوة إلى الدين ونشره، فالتبشير في الدين الاسلامي يقوم بتهذيب الخلق لا بالعروض، وتعاليم الإسلام عبارة عن مكارم الأخلاق، ورسولنا محمد ﷺ بعث ليتمم مكارم الأخلاق. ومكارم الأخلاق مطلوبة من كل إنسان، فقد أدرك أصحاب العقول أهمية الأخوة والتحابب، والأمان، والأوصاف الجميلة والأخلاق الحميدة فاستحسنوها، وأحبوا التربية المحمدية فاعتنقوا هذا الدين. ولم ينتشر هذا الدين بعرضه على الناس. وأضيف هنا، بأنني أرى انسجاما كاملا بين أخلاق وتربية اليابانيين وبين الاسلام، ولولا هذه الأصنام، لقلت بأن اليابانيين مسلمون بالفطرة. وأضيف أيضاً بأن هذه الأصنام لايمكنها أن تستمر عند أمة مفكرة مثل اليابانيين، وسيأتي يوم على العقل الياباني الذي أدهش عقول العالم، فيرفض أن يتخذ من هذه الأخشاب التي صنعها بيده معبوداً أو الهاً. و عليه فان الدين الذي يمكن أن يتخذه اليابانيون هو الاسلام. وآمل أن يعرف اليابانيون هذه النقطة قبل غيرهم. ولا أرى حاجة لأن أضيف شيئاً آخر، سوى أنني أتمنى مخُلصا الرقي والتطور للشعب الياباني، وإن تطورهم ورقيهم أمر طبيعي. إن مآل الغربيين هو الغروب ومآل نيبون «الشمس المشرقة» هو الصعود والارتقاء. وغادرت منصة الخطابة مشيعا بتصفيق حاد من الحضور.

أما السيد تاناكا فقد تحدث قائلاً: بعد اتمام دراستي أمضيت ثلاث سنوات في دراسة أحوال أمتي. ووجدت بين أبناء أمتي أناس يميلون إلى الأخلاق الأوربية، ولما كانت طبيعة نسائنا أكثر قابلية للفساد الخلقي، فقد تأكدت من أن السياح الأوربيين يركزون على النساء ففضلت الفقر والفاقة على الدخول في وظائف رسمية، لأفرغ نفسي للحفاظ على أخلاق نسائنا الوطنية. (تصفيق). و تكلم غيره كثيرون، و لما كان الموضوع واحداً فإنني لم أر حاجة لذكرها. إلا أنني أقول في هذا الصدد بأن اليابانيين يبذلون قصارى جهدهم في الحفاظ على الأخلاق الوطنية، ويضيقون ذرعاً من تركيز الأوربيين على النساء في حملاتهم. وقد أحسست بذلك مرات عديدة، وسمعت هذه المرة منهم بالقول الصريح، لذلك فانني قررت أن أبدي رأيي بكل صراحة ووضوح عندما يتطلب الأمر الكلام في هذا الموضوع.

وأضيف، بأنه بعد انتهاء الحفل الحو علينا بالجلوس هناك فبقينا مع عدد من الأصحاب، وسهرنامع ساكوراكي وكيل المدعي العام و غيره، ومما قاله ساكوراكي وعليه طابع الجد:

- سيدي، انني ومعي كثير من أقراني، اذا تم لنا الاطلاع على حقائق الاسلام، فلن نتردد في إعتناقه، و لكن للأسف فاننا لا نعرف أي لغة من لغات أهل الاسلام، فنضطر إلى الحصول على معلومات عن هذا الدين عن طريق أعدائه، فيغلب الشك على قلوبنا، وأملنا أن تجد حلاً لذلك، ونرجوك رجاءً خاصاً بأن تكون دليلنا. و كن على يقين بأن أياً منا لا يعتقد بعبادة تلك الأصنام، لقد مضى عهد الأصنام، فهل يقبل أي عقل بأن تكون تلك الأصنام آلهة؟ إلا أننا و مع عدم وجود مشجع، نستصعب ترك القديم. وإني لا أقول بأن اليابان لا تشعر بالحاجة الى دين، إلا أنني أضيف بأن هؤلاء المنصرين لاضمائر لهم، فإنك إذا قمت بنشاط فعلي فلن يترددوا أبداً في إغتيالك، و لهذا فكن أنت مرشدنا ونحن نعمل، سننزل

الى ميدان العمل، ولن يقدروا أن يفعلوا لنا شيئاً، ونحن نعرف جيداً كيف نتعامل معهم.
- لا ، أنا لست من الذين يخشون مثل أولئك المنصرين، لقد واجهتهم في بترسبورغ.
- لا ، انني على يقين بأنك لن تخشاهم و لكنهم قوم سفلة. إن ضميرى لن يقبل بأن تكون في موضع مواجهة معهم.
ساساكي: أؤيد الأخ ساكوراكي في هذا الرأي، كما إنني أرجو أن تبقى في طوكيو مدة أطول، أن تقيم هنا. وعلينا تأمين محل لإقامتك.
وتكلم غيرهما فأيدوهما في هذا الرأي، واستمر الحديث على هذا النحو وكانت النتيجة أن انبعث الأمل الكبير في نفسي.
ولا أستطيع نشر كل ماقيل في هذا المجلس في الوقت الحاضر، ولكن يمكنني أن أبشركم بأن تلك الأقوال ستكون صفحات مشرقة في عالم المطبوعات عندما يحين أوانها.

ملاحظات على إختبارات المدارس

لا أخطىء إذا قلت بأن الاختبارات المدرسية في اليابان تشكل درسا بذاته. ففي أكثر الاختبارات المدرسية يوجد يوم معين، هو اليوم الأخير من الإمتحانات يكون درساً عاماً، فلا ينقسم الطلاب الى صفوف بل يحضره طلاب كافة الصفوف، بالإضافة إلى جمع غفير من أهالي وأعيان البلاد، وقد يحضره أيضا وزير المعارف شخصياً.

أما في امتحانات الجامعات فان" الميكادو" حضرة تنسي صامه يحضرها، فيثير في الطلبة إحساساً عظيماً. يختاورن من بينهم طالباً للإختبار، أو يطلبون من ذلك الطالب بيان رأيه في أمر من الأمور، فيتقدم ذلك الطالب فيلقي كلمةً ارتجالية في ذلك الموضوع.

وفي احدى المرات حضرت إمتحان طلبة السنة الأخيرة في الكلية الحربية، والميكادو كان حاضراً هناك في مكانه المخصص، فقام أحد الطلاب بالقاء كلمة (إستغرقت نصف ساعة) أعجب بها الجميع، ونال من جناب الميكادو التكريم، وفي ختام كلمته نهض الميكادو واقفاً و دعاه ليتقدم إليه فأهداه ساعة كانت في جيبه.

وفي رأيي أن اليابانيين يهدفون من هذا الإمتحان تشجيع الطالب أكثر من الاطلاع على معلوماته، خاصة وان تكريم مثل هذا الطالب الذي أكمل تعليمه يشجع آلاف الطلاب على أن يتقتدوا به.

مدرسة العميان والبكم

وقبل أن أختم الموضوع أود أن أنقل مشاهداتي عن مدرسة العميان والبكم. كان يوم إنتهاء الإمتحانات وحفل توزيع الجوائز. حضر الحفل أكثر من ألف شخص من المواطنين والأعيان من بينهم مستشار وزيرالمعارف.

وكان برنامج الحفل يتضمن:

١- قيام أحد الطلاب بالقاء قصيدة وطنية

٢- توزيع الجوائز على الخريجين

٣- كلمة مؤثرة لمدير المدرسة.

٤- كلمة أرسلها وزير المعارف للعميان والبكم، ألقاها نيابة عنه المستشار وهذه خلاصة كلمة وزير المعارف:

لم أتمكن من الحضور شخصياً لكثرة إنشغالي في خدمة الدولة والأمة، فأرسلت اليكم هذه الرسالة مع سعادة مستشاري.، إنني أحزن من أعماق قلبي على حرمانكم من بعض الحواس الخمس، ولكن ما العمل! فالانسان إذاً شكر الله دائماً، فإن الله تعالى ينعم عليه عوضاً عن النقص بكثير من الكمال. فلو كانت حواسكم كاملة وكنتم محرومين من العلم

والعرفان فماذا ستكون حالتكم؟ ليس من العار على الانسان أن يكون أحد أعضائه ناقصاً. فالعار في أن يكون محروما من العلم والمعرفة.

ولا شك بأن العلم و المعرفة إلى جانب كمال الحواس شيء طيب وجميل، و لكن ليس بمقدور العبد أن يفعل شيئاً. لا يسع العبد إلا فعل مايقدر عليه، وأن يصبر و يتحمل مالا يقدر عليه، وأن لاييأس بسبب نقص عضو من أعضائه، بل عليكم أن تشجعوا بعضكم بعضا، وتقولوا بأن الانسان يستطيع أن يقرأ من غير عيون، و أن يشرح ما يريد من غير لسان، كي يعمل في حدود قدرته من أجل وطنه وأمته.

«آسف لعدم تمكني من حضوري شخصياً يوم سروركم هذا»

٥- كلمة الوزير، قام أحد المدرسين بنقلها للصم، وكان من الوضوح وكأنه يتكلم بلسانه، وأنا كنت مثل الصم في فهم اللغة اليابانية، فما لم أفهمه عندما قرأ المستشار فهمته من اشارات ذلك المدرس.

٦- قام أحد العميان بعزف بعض المقطوعات الموسيقية على البيانو.

وقبل العزف أعلن مدير المدرسة «كونيشي KONISHI» إن هذا البيانو متميز تميز طلاب مدرستنا، لقد غنمناه من الروس في بورت آرثر (تصفيق حاد).

- أنشد الطلاب بمصاحبة الآلة الموسيقية المعروفة بـ «كوتو Goto»، أناشيد من أشعار الجنرال فكوشيما أحد أشهر القواد اليابانيين، نظمها لحض الجنود على القتال في الحرب ضد الروس. و لما لهذه الأشعار من قيمة تاريخية، و شهرة لدى اليابانيين فانني أنقل معانيها نثراً:

" اليابان شمس أشرقت لانارة الكون.

إن حاكمنا المحبوب ليس مجهول النسل والنسب.(غمز لحكام روسيا الذين كان أجدادهم من صيادي السمك)

دولتنا جسم واحد يتكون من حب أمتنا. (أمة واحدة)

فلا شك بأن المواطنين المخلصين الذين شكلوا هذا الجسم سيقومون بأداء واجبهم المقدس أداء بطولياً.

الأوربيون إذا احتلوا بلداً: يخربون البيوت، ويهينون الناس، ويعتدون على أعراض النساء، ويقتلون بالسلاح طفلاً رضيعا يبكي من الجوع. فلا صاحب الضمير يقبل مثل هذا و لا الله يرضى.

إننا لا نعادي الأشخاص، ونضحي بأرواحنا من أجل مصلحة الوطن والأمة.

سيرفرف علم اليابان في سماء أوربا قريباً، هدفنا في الحرب السلام والأمن...

وبذلك انتهى الحفل.

وبينما كنت أستعد للعودة، و إذ بماساكي مدير مدرسة الهندسة الملكية وجهاً لوجه فرجاني أن نذهب سوياً، و نزور مدرسته واتحدث لهم بعض الوقت فوافقت. توجهنا بالريكشة إلى مدرسة الهندسة الملكية داخل حديقة «وينو». فاستقبلنا الطلاب بأنشودة وطنية، وبعد جولة في قسم الفنون الجميلة، تناولنا الطعام، وكان هناك عدد من الحضور، كان من بينهم السيد ناكامورا رئيس الهيئة الاختيارية لمدينة (ناغانو).

سألت السيد ناكامورا: هل ولايتكم كبيرة؟ وما عدد أقضيتها وقراها وما عدد المدارس عندكم، وهل الذين يعرفون القراءة والكتابة فيكم كثيرون؟

أجاب ناكامورا(متبسما): ولايتنا تعتبر من الولايات الصغيرة من بين الولايات الثلاثة والأربعين في اليابان، وتتبعها ست أقضية، ولكل قضاء أربع وعشرون قرية ولاتوجد قرية ليس فيها مدرسة. إن مجموع عدد المدارس الابتدائية ٣٣٢، وثمان مدارس اعدادية للذكور، وأربع للاناث، وداران للمعلمين، ومدرسة زراعية وأخرى حريرية، ولن تجد أحدا دون سن الخمسين لايعرف القراءة والكتابة، أما مافوق الخمسين فقد تجد من بينهم من لايعرف القراءة والكتابة.

- وهل هذه المدارس حكومية؟

- إنها ملك الأمة، الأمة هي التي تصرف عليها وتسيرها، يشرف عليها مفتشو المعارف وترسل المعارف المعلمين عند الضرورة و لكنها لا تتدخل في مصاريفها وشؤونها الادارية.

- وماهي أصول الضرائب في اليابان؟

- الحكومة تأخذ ضريبة خمسة في المئة من واردات كل فرد، بالاضافة إلى ضريبة معينة لمصلحة المواطنين، هذه الضريبة لاتتبع الحكومة و لا تتدخل لجبايتها، فمصاريف المدارس والطرق والجسور والأطباء والمستشفيات وغيرها من مصالح الأمة تدفع من هذه الضريبة، ولا تتدخل الحكومة في شأن هذه الأموال، وكل فرد من المواطنين يدفع عشر ينات تقريبا(مائة وعشرون قرشا تقريبا).

- والحالة المعيشية للناس؟

- الوضع الحالي لايستوجب الشكوى، عدد فقرائنا كثير في الظاهر، و لكن لا تجد إنسانا عاطلا عن العمل. و مع ذلك فاننا نخشى أن يعم الفقر، لأن الادمان على المسكرات قد بدأ في الانتشار، و المسكرات تؤدي بالأمة إلى الفقر وا لمذلة.

- أحقاً! هل هناك من يدمن على المسكرات؟ إنني هنا منذ عدة شهور ولم أر سكيرا.

- لا! لا تجد سكيرين، إن اليابانيين لم يصلوا إلى درجة الروس بعد، ومع ذلك فان المسكرات بدأت تنتشر.

وهنا سألني ماساكي مدير المدرسة:- أرجو أن تحدثنا عن أحوال تتار روسية وهل لهم أمل في المستقبل؟ أرجو أن تبشرنا بذلك.

- إن أنوار المعرفة و ريح التطور هبت نحو الشرق و نحن من ورائكم.

- علينا أن نعمل، وأن ننشىء العلاقات فيما بيننا و نتصاهر، أرسلوا إلينا شبابكم لنزوجهم بناتنا(قالها مبتسما).

وتبادلنا النكات وأمضينا وقتاً طيباً. وحان وقت المساء، فاستأذنت للعودة.

قال السيد ناكامورا: لقد رأيت صورتك في صحفنا كثيراً، كما أنني رأيت كتابة بخط يدك في جريدة «أساهي» فأعجبت بك كثيراً، فأرجو إن كان ممكنا أن تكتب لي شيئا في دفتر مفكرتي، و مد إلي دفتره.

ولما تناولت الدفتر بيدي تذكرت هذا الحديث النبوي الشريف فكتبته:

«المسلم من سلم الناس من لسانه و يده».

ثم سألوني عن مفهوم هذا الحديث، فشرحته لهم، فأسرع مدير المدرسة قائلاً: سآتي بورقة وأرجوك أن تكتبه بحرف كبير، كي أعلقه على جدار المدرسة. ذهب وجاء بورقة جيدة. أما أنا فلا أملك شيئاً إسمه حسن الخط، ولو حاولت أن أكتب بالفرشاة التي يكتب بها اليابانيون لما كان يشبه الخط، فطلبت قطعة من قصب فبريتها قلماً وكتبت به. وكانت فرحة اليابانيين كبيرة وكأنها الدنيا و ما فيها.

وقاموا هم بكتابة مفهوم الحديث بالخط الياباني، وعلقوا اللوحة على الجدار خلال وجودي بينهم، وكانو ا يبتعدون عنها و يحدقون النظر إليها.

اللوحات في بيوت اليابانيين

بالرغم من عدم علاقة اللوحات بامتحانات المدارس فإني تذكرتها فأضيفها هنا: ان الزينة الوحيدة التي تراها في بيوت اليابانيين هي اللوحات. إنها معلقة طولياً من الأعلى إلى الأسفل.

ومن بين هذه اللوحات ما هو ذو قيمة كبيرة، فقيمة بعضها قد تصل إلى أربعمائة أو خمسمائة ين. و قيمة اللوحات تقدر بجمال خطها.

قالوا إن هذه اللوحات تحتوي على أقوال لمشاهير الرجال، وعندهم أن خير الكلام ما قل ودل.

ومن المعتاد أن يكتب كبار الرجال إلى أصدقائهم اللوحات و يهدونها إليهم. ولقد رأيت لوحات بخط يد الميكادو، ورأيت في بعض البيوت

لوحات كتبها الأمير إيتو. أما أنا فتركت لوحة هدية لمدرسة الهندسة الملكية.

ثم استأذنت بالانصراف وعدت إلى المنزل، وكان الوقت متأخراً والجو ممطر، والطين في شوارع طوكيو أعاذنا الله منه، إذ لا تسلم منه الملابس ولا النعال، خاصة في شهري ابريل ومايو فان المطر لاينقطع ليل نهار، ويتحول الوضع في الأزقة و الشوارع إلى حالة، لوكان فيها غير اليابانيين لأصبح المرور فيها مستحيلا.

حضرت هنا كثيراً من حفلات التخرج، و وجدت في كل حفلة مزية خاصة، لا أرى حاجة لتعدادها، ومع ذلك فاني أريد أن أقول بأن طلاب المدارس اليابانيين لا يتعرضون لضغوط في أيام الامتحانات، إلا أنهم يجدون التشجيع على الإجتهاد أيام الدراسة، فاذا وجدوا تراخياً لدى أي طالب فان مدرسه يتعرض للمساءلة لفشله في حث الطالب على الجد والاجتهاد. فاذا تفوق طالب في درس الجغرافيا، ولم يكن في الحساب على نفس المستوى فانهم يعتبرون معلم الحساب مسؤولاً عن هذا التقصير. أما إذا كان مستوى الطالب دون مستوى أقرانه عندئذ يكون الطالب مسؤولاً عن تقصيره.

و أنا أؤيد هذه الطريقة، فإذا لم يكن المدرس مسؤولاً، ولم يهتم بالطالب أيام الدراسة، فلا يبقى هناك معنى في أن يجعل بعض الطلاب يغردون كالبلابل يوم الامتحان. وما حفظ من أجل الامتحان لاتزيد منافعه وثماره عن ذلك اليوم، لذلك فإنه من الأفضل والأنسب الاهتمام بالطالب أيام الدراسة.

حضرت إمتحان العلوم الدينية في مدرسة إعدادية من مدارس إسطنبول، و وجدت أن القليل من الطلاب يعرفون أركان الاسلام حق المعرفة و لا يكفي مع مثل هؤلاء الطلاب الرسوب بل ينبغي تنزيلهم إلى صف أدنى من الصف الذي هم فيه. وإذا كان الطالب هنا مقصراً، فالتقصير الأساسي هو من الشيخ الذي هو المعلم. و تحميل جريمة شيخ لخمسين من الطلاب

أمر لاترضاه الإنسانية، و لذلك فان المختبرين مضطرون لأن يغضوا الطرف و يلزموا جانب السكوت.

أحوال غريبة

توجد عند اليابانيين كثير من الأحوال الغريبة، منها أنني كنت ألاحظ دائماً على باب كل منزل من منازل طوكيو علبة مربعة، وبعض الأبواب تجد عندها ثلاثة أو أربعة من هذه العلب، وكنت أنظر اليها فأرى بعضها مفتوحة وفي داخلها شيء.

وذات يوم كنت عائدا إلى المنزل قرب الصباح، فوجدت أمامي رجلا يجر عربة وأخرج من داخل العربة قارورة وضعها في العلبة أمام الباب، وأخذ من العلبة قارورة فارغة ومضي. إقتربت منه وسألته عن محتوى القارورة. قال: إنه الحليب. فالعلبة هي علبة الحليب، و الحلاب يمر ليلا فيضع الحليب في العلبة ويمضي دون أن يزعج النائمين، وصاحب المنزل يخرج القوارير الفارغة مساءً و يضعها في العلبة. هكذا يعمل الحلاب في اليابان. لندع بلادنا جانباً، فلو فرضنا وجود مئات الآلاف من القوارير على الأبواب في علب مفتوحة في باريس وبرلين وهما مراكز للحضارة الأوربية، أترى تبقى بمنأى عن عبث القطط الإيرانية؟ أو هل يجدون زبائن يشترون الحليب بقدر ما عندهم من قطط؟.. بقي أن نقول بأن إعداد الحليب أمر يمتاز به اليابانيون، فالمعروف بأن اليابان لا تربي الحيوانات، ومن الطبيعي أن يكون سعر الحليب والسمن مرتفعاً، ولكن الأمر على العكس من هذا، فالحليب ومشتقاته رخيصة الثمن. والسبب هو أن كافة الاحتياجات الضرورية تنتج من قبل الشركات الأهلية.

أعياد القرى اليابانية

وكما أن التتار تعودوا منذ القديم أن يحتفلوا في أيام الصيف بأعياد «صابان طوي» فان اليابانيين لهم مثل هذه الأعياد في أيام الربيع، وكل قرية تحتفل في يوم مخصوص.

وأظن أن مثل هذه الأعياد موجودة منذ القدم في كل أمة، فهي أعياد من جهة وسوق للبيع والشراء من جهة أخرى، فكانت للعرب قبل الاسلام سوق كذا وسوق كذا، وفي الفترة الأخيرة صاروا يحتفلون بمولد فلان أو فلان. ففي مناطق مصر تكثر مثل هذه الموالد في أيام السنة وتكون على شكل أسواق، فيقضي الناس أوقاتهم بالتزاور والبيع والشراء.

وكذلك اليابانيون فانهم يقيمون مثل هذه الاحتفالات في أيام الربيع ويسمونها بـ «إيانكه نوداي ساي جيتسو» أي عيد القرية. ENAKA NO DAI SAI JITSU

وفي هذه المرة دعيت إلى عيد قرية «كيتا- يانه» التي تبعد عن طوكيو مسافة سبعين كيلومتراً. و هذه القرية من أشهر القرى اليابانية، وكانت في فترة من الفترات مقر حكومة الأمير توكوغاوه سليل أشهر الأسر المالكة في اليابان.

والبيت الذي ولد فيه توكو غاوه، سليل الأسرة التي حكمت هذه المنطقة قبل ٣٥٠ عاماً، لا زال قائماً ضمن كنيسة، ويعتبر مكانا مقدسا.

قبل خمسين عاماً كان توكوغاوه حاكماً مستقلاً وعندما تنازل عن إمارته وعن قصره في «طوكيو» التي كانت هي للميكادو الحالي الشهير، وإعتزل الناس، وأوقف كل أملاكه في هذه القرية لوزارة المعارف؛ وفيها الآن مدرسة إعدادية يدرس فيها أكثر من ثمانمائة طالب ومدرسة ابتدائية يدرس فيها أكثر من ألف طالب.

وهذا الأمير يذكرنا بابراهيم بن أدهم الذي ترك الامارة واختار الدروشة. و«توكوغاوه» الآن حي يرزق، تنازل بالاضافة الى الحكم عن

كل ما يملك لمصلحة الوطن والأمة ورضي أن يعيش في منزل صغير في أطراف طوكيو كأي مواطن ياباني، وولده الكبير يشغل منصب رئيس مجلس الأعيان حالياً.

نعود الى موضوعنا.. فالسيد ناكامورا أحد الرجال الروحيين في هذه القرية، دعاني يوماً لحضور إحتفال في قريته. فأعربت عن تلبيتي للدعوة بكل سرور. و في مساء ذات يوم تلقيت رسالة من صديقي ناكاياما يقول فيها: سنلتقي في صباح الغد في محطة القطار، ونغادر من هناك الى قرية كيتا يانه.

فأجبته برقياً بأنني سأكون في المحطة في الساعة الثامنة. وفي اليوم التالي قمت مبكراً، فركبت الحافلة الكهربائية وتوجهت الى محطة القطار. فوجدت جمعاً عظيماً يحملون الأعلام أمام المحطة.

وإستقبلني أعضاء جمعية «توهوشيغي» الذين تجمعوا تحت الراية الأولى، ثم قامت جمعية «تووا دو بونكاي» TOA DOBUNKAI بأداء مراسم التحية. وكان في الجمعيتين كثير من أصدقائي ومعارفي، وهم مدعوون ايضا لعيد تلك القرية. دخلنا المحطة وصعدنا عربات القطار وأخذ كل واحد منا مكانه، وتحرك القطار وبدأ مئات الناس في المحطة يهتفون «بانزاي»، وكان القطار مزيناً بنوعين من الأعلام.

وبعد تحرك القطار بقليل، قام البروفسور ناكامورا فقدمني الى اليابانيين قائلا: أيها الأصدقاء! والدنا عبد الرشيد ابراهيم من كبار الأقوام التتارية التي ينتسب اليها بطلا العالم المشهورين جنكيز وتيمورلنك، حيث نراه لأول مرة في بلادنا. إنه صاحب إمتياز ورئيس تحرير جريدتي «ألفت» و«تلميذ»، ومن أحرار روسيا، لقد تفضل بإدخال السرور على كل اليابانيين بإشتراكه بعيدنا القومي هذه المرة.

فوقف كل من في العربة وصفقوا هاتفين «بانزاي». ثم اقترب مني صديقي ناكاياما وقال: سأعرفك علي ركاب العربة الأخرى إنها عادة اليابانيين. قلت تفضل.

ودخلنا العربة المجاورة، فقام كل من في العربة إحتراما وهتفوا « بانزاي»، فقدمني ناكاياما إليهم، وكرروا الهتاف محيين و واقفين، و قدمني إلى ركاب العربة الثالثة على هذا النحو، ثم عدنا إلى عربتنا. و بعد حديث قصير مع الأحباب نصبت الموائد فأكلنا الطعام والحلويات وشربنا الشاي، وألقيت الكلمات، إلى أن وصلنا الى قرية كيتايانه في تمام الساعة الحادية عشرة.

كان المستقبلون من الكثرة بحيث لايمكن عدهم أو حصرهم، ونزلنا من العربة على أنغام الأناشيد الوطنية التي عزفتها الفرقة الروحانية. وعلى الباب رأيت ناكامورا ينتظر نزولي، ورأيت القرية وقد زينت بالأعلام من أقصاها الى أقصاها.

توجهنا فوراً إلى المضافة التي أوقفها آل توكوغاوه، و أخذنا أماكننا، وألقى السيد ناكامورا خطاباً مطولاً قوبل بالاستحسان و التصفيق.

ثم قام ياسوغورو YASUGURO وهو من مشاهير خطباء طوكيو بالقاء كلمة مطولة، تحدث فيها عن ضرورة محافظة اليابانيين على مستقبلهم ضد كيد المنصرين الملاعين، وأبدى رأيه في موضوع إتحاد المشرق.

كما أصروا علي بالقاء كلمة في هذا الإجتماع فقمت وقلت:

إنني أنظر الى اليابانيين نظرتي إلى الشمس المشرقة و أرجو من الله العلي القدير أن يجعل عالم الشرق يستفيض بنور هذه الشمس. اليابانيون شجرة مثمرة أزهرت حديثاً وإن كافة أهل الشرق والمسلمين منهم بصفة خاصة ينتظرون أن يأكلوا من ثمارها، إلا أن الثمار قبل أن تينع تتعرض لكثير من الآفات، فعلى الرجال الروحانيين الذين هم بمثابة فلاحي الأمة أن يبذلوا قصارى جهدهم للحفاظ عليها من العوارض المهلكة. فإن لم يقدر رجال الأمة على الاحتفاظ بهذه الثمرة، فانهم سيتعرضون للمساءلة أمام عالم الشرق بأجمعه، لأن حياة اليابانيين هي حياة عموم أهل الشرق، فاذا تغافلوا وعرضوا الأمة لعلل الفرنجة، ساءت سمعة كل اليابانيين في الشرق(تصفيق). أما إن إستطاع اليابانيون حماية أنفسهم ضد علل

الفرنجة، سعدوا وسعدت بسعادتهم كل أمم الشرق. أتمنى و أرجو من صميم قلبي أن تحافظ الأمة اليابانية على أخلاقها الوطنية وهي في طريق تطورها، وأن تكون نموذجا تحتذي بها كل أمم الأرض..." وأنهيت كلامي وسط تصفيق حاد و طلب المزيد.

وبقينا حتى الساعة السابعة مساء نستمع إلى عزف المقطوعات الموسيقية الوطنية، وأقيمت حلبات المصارعة والسباق بين الشباب، فأمضينا وقتاً طيباً أخوة متحابين. و في المساء تجولنافي الأسواق، إنه عالم الشرق أينما نظرت فطريقة عرض الطعام في الشوارع ذكرتني بأسواق بخارى وقاهرة مصر.

وبعد طعام العشاء مباشرة حضر القطار، فودعنا وعدنا.لم يسألنا أحد عن تذاكر القطار في الذهاب والعودة. وفي الساعة الثامنة عدنا إلى طوكيو؛ وقرب المحطة ألقيت بعض الكلمات، وعاد كل واحد إلى منزله. لاحظت في هذه الرحلة أن كل الناس مدعوون و لكن لم أجد أحداً يلبس لباساً فخماً أو متميزا، انها ملابس نظيفة لكنها عادية دون تكلف.. لقد كتبت في هذا الخصوص مرات ومرات وسأكتب ذلك في كل مناسبة.

المارشال اوياما

ماذا يعمل الآن المارشال أوياما وهو من أمراء الجند اليابانيين ومن أشهر القواد المعروفين في العالم؟

ذكرت مرات كثيرة بأن اليابانيين يهتمون إهتماماً بالغاً بالأخلاق الوطنية. والآن اقدم بعض المعلومات عن أحدهم، ولعله من أوائل الذين وهبوا أنفسهم للمحافظة على تلك الأخلاق الوطنية وأقصد به المارشال أوياما.

في الحرب الروسية - اليابانية عرفت الدنيا كلها من هو المارشال أوياما وما هي طبائعه. أما الآن فأقدم بعض المعلومات عن عمل هذا الرجل في الوقت الحاضر.

المارشال اوياما في الوقت الحاضر هو مدير احدى المدارس، إنه مدير مدرسة ليلية.، وبملاحظة بسيطة يمكن فهم سبب إلتزام هذا الرجل بهذا العمل تطوعاً. إلا أنني قبل ذلك أريد إعطاء بعض التفاصيل و مزيد من الايضاح عن هذا المشير العظيم الذي إختار أن يكون ناظراً للأطفال بل إختار القيام بالتربية المباشرة للناشئة ليخرج للأمة والوطن أبناء مخلصين صادقين. إنه يمضي الأيام الستة من الأسبوع بلياليها في المدرسة، الغني هنا إلى جانب الفقير: لا فرق بينهم في المأكل ولا في الملبس وكذلك في غرف النوم، و المارشال يلبس مثلهم أيضا، يغادر المدرسة الى منزله مرة واحدة في الأسبوع، و يعود بالحافلة الكهربائية برفقة الطلاب. يمضي يوماً واحداً من أيام الأسبوع بين أهله ويمضي بقية أيامه في المدرسة بين طلابه. ذهبت إلى المدرسة مرتين بهدف لقائه، ومرة صادفته في الحافلة، فكرمني، وذهبت مرة إلى المدرسة فوجدته يمارس الرياضة مع الطلاب.

سألت هذا الرجل العظيم والقائد العسكري الكبير عن سبب إختياره منصب مدير المدرسة، سكت قليلا، ثم قال متبسما: انه الطمع، ولكني أريد أن اخرج في عدة سنوات ألفاً و ثمانمائة أوياما.

أنظر إلى هذا المنصب الذي إختاره المارشال المشار إليه بالبنان، ألا يستدعي العجب والحيرة؟

وأنا أشاركه في رأيه فأقول: إنه الطمع ليس الا. ليتنا وجدنا طماعين مثله في بلادنا. ولكن هيهات، لنفترض أن فينا مشيرين عظام مثل أوياما، ولكن هل يقبلون بمثل هذه المهمة في سبيل الوطن والأمة؟ العظمة ليست أمرا سهلاً، عندنا كثيرون من شيوخ الإسلام وقضاة العسكر وغيرهم تركوا مناصبهم بعد أن أحيلوا إلى التقاعد و هم ينالون رواتب مجزية، إلا أنهم إختاروا أن يكونوا حراس للقبور (يقصد أنهم سيبقون على ما هم عليه إلى

أن يدفنوا في قبورهم)، فاذا ضجروا اجتمعوا بأقرانهم المحالين على التقاعد وقتلوا أوقاتهم بالنرد وغيره، يودعون رواتبهم في بنوك الأجانب فلا هم يستفيدون و لا الأمة تستفيد، وأخيراً يأتي يوم يرحلون فيه من هذه الدنيا كلياً. و ستنتظر الأمة طويلاً إذا ظنت بأنها ستستفيد من مثل هؤلاء.

ليتنا وجدنا واحدا يقول: اننا ننال راتبنا من أموال الأمة، فلا أقل من أن نقوم بالتدريس لوجه الله... ولكن هيهات.

في حين لا تفتأ السنتنا تتحدث عن الجنة، و عن التوجه إليها، أما خدمة الأمة فلا حديث عنها، بالإضافة إلى أننا لا نجد أحداً يسارع في عبادة الله و طاعته.

وحيثما صادفت هذا المارشال العظيم وجدته دائماً في زيه العادي، إذا قيل التواضع لقلت إن التواضع يجتمع في هذا الرجل.

الأميرال توغو TOGO

ولا أجد أيضاً حاجة للتعريف بهذا الرجل. لكنني سأكتفي بذكر بعض المعلومات عنه:

يقيم هذا الرجل في منزل صغير على شارع ضيق إسمه توغوساكا TOGO SAKA بمدينة طوكيو، و باب المنزل من الخشب العادي البسيط الملون باللون الأسود. وبعد الدخول من الباب تجد فسحة صغيرة، وإلى اليمين منها مجسم لصومعة صغيرة، هذا هو منزل توغو. ولاشيء في المنزل من جنس المفروشات، إلا من حصيرة واحدة مثل كل البيوت اليابانية العادية.

ولإعطاء فكرة عن حجم منزل توغو، أنقل لكم حادثة وقعت عندما كنت هناك، أنقلها على الوجه الذي نشرتها صحف طوكيو.

لم يكن قد مضى على وصولي الى طوكيو كثيرا، ومع ذلك فقد كنت أطلع على الصحف اليومية بواسطة الترجمان. وذات يوم كتبت الصحف بأن " خمسين سائحا أمريكيا جاؤوا لزيارة السيد توغو، وبعد أن دخلوا الفسحة التي هي أمام البيت قدموا أنفسهم للسيد توغو بواسطة الترجمان، وبعد أن أعرب هذا الأميرال العظيم عن سروره الشديد لإستقبالهم، اعتذر لهم عن طريق الترجمان أيضا عن عدم تمكنه من استقبال أكثر من ستة أشخاص دفعة واحدة لضيق منزله، لذلك فانه سيخرج الى الفسحة أمام الباب.

فأجاب السياح: لا، فنحن نريد أن نرى الأميرال في منزله، فاذا سمح فاننا سندخل على دفعات كل دفعة ستة أشخاص، وبذلك يمكننا زيارته في منزله. ودخل الزوار ستة بعد ستة، بفاصلة خمس دقائق لكل دفعة. كتبت الصحف هذا الخبر بالتفصيل وقام بعضها بانتقاد تلك الطريقة، وبعضها أسفت لماحدث، وبعضها صفقت له.

وانتهى الأمرعلى هذا النحو، وأقفلت الصحف هذا الموضوع. وبعد شهرين وجدت مقالة تتعلق بتوغو:

تأثر ضباط البحرية من الطريقة التي استقبل بها السيد توغو السياح الأمريكان، فقاموا بحملة تبرعات فيما بينهم، جمعوا فيها مبلغا من المال كي يشتروا بيتا يتناسب وشهرة السيد توغو، واختاروا ضابطين لمقابلة هذا الرجل.

استقبل السيد توغو هذين الضابطين وقال لهما: لم أكن أعرف بأن ضباطنا أغنياء الى هذا الحد، لقد سررت كثيرا، لكنني أمضيت عمري في هذا البيت، وخلال خمسين سنة من عمرى وقعت في الحرج مرة واحدة بمثل ذلك الاستقبال، ومن غير المحتمل أن أعيش خمسين سنة أخرى، ولن أتعرض لمثل ذلك الاحراج بعد الآن و مع، ومع ذلك فانني أقدر لكم عزائمكم، ولا أريد أن يذهب ما جمعتموه سدى، فان مدارسنا

البحرية تحتاج لأشياء كثيرة، سأكون ممتنا اذا تبرعتم بهذا المال لتلك المدارس.

اليكم اولئك الضباط واليكم هذا الأميرال العظيم ! انهم نموذج لأصحاب البصائر. يكفي هذا للتعريف بأخلاق اليابانيين.

معبد كونفوشيـــــوس

ومدرسة هاكو بوتسوكان HAKUBUTSU-KAN (متحف)

في يوم من الأيام أرسل السيد هيجيكاته وزير البلاط دعوة أن أزوره في اليوم الفلاني، وأنه سيرسل العربة كي تقلني الى مكان اللقاء. وفي اليوم المذكور حضرت العربة، فركبتها وتحركنا في اتجاه لانعلمه، واذ بها تقف على باب معبد، نزلت من العربة، وكان ماتسوره قد سبقني الى هناك، صادفته على الدرج سلمت عليه وصافحته، ودخلنا معا من باب المعبد.

وجدنا داخل المعبد جمعا عظيما من الناس، والموسيقى الدينية تعزف بعض الألحان. وقفنا في الفسحة أمام الباب، وبعد قليل جاءني هيجيكاته وزير البلاط والبروفسور الشهير ميشيما، ومدير الجامعة، وبعد حديث قصير قالوا بأننا سنتوجه الى مدرسة هاكو بوتسوكانا. وأن كلمات ستلقى هناك ورجوني أن أعد نفسي لالقاء كلمة.

- قلت، طيب، ولكن أريد أن أعرف ماهو هذا المكان؟ ولماذا أتينا اليه؟

- انه معبد كونفوشيوس ؛ وتجري الطقوس الدينية الخاصة بمناسبة يوم المذهب الكونفوشي، واذا أردت مشاهدة مايجري داخل المعبد فلك ذلك.

- أكون مسرورا.

وبعد ذلك تجولنا داخل المعبد مدة عشرين دقيقة، رأيت فيه خمسة أصنام مجسمة، أحدها لكونفوشيوس والأربعة الآخرون لحوارييه.

وهناك كتب تضم تعاليم كونفوشيوس. ويظن البروفسور ميشيما بأن هذه الكتب يحتمل أن تكون من الكتب السماوية.

وتحتوي فصول هذا الكتب على معلومات عن: الالهيات وأخبار الغيب، وعلم التاريخ، وعلم الحساب، وعلم الجغرافيا، وعن كروية الأرض، والى جانب الكتب كرة أرضية قديمة جدا مصنوعة من الشبه(خليط النحاس والقصدير) انه من الآثار القديمة حقا.

وبعد مشاهدتها، توجهنا الى مدرسة(هاكو بوتسوكان)، ووجدنا فيها أيضا جمعا كبيرا من المدعوين، كانت أحاديث شيقة، انني في مجتمع لم أره قبلا، كلهم من علماء الأمة وأكابر القوم.

وبعد أن أخذ كل مدعو مكانه تكلم البروفسور الرياضي «ميشيما MISHIMA» عن أثر المذهب الكونفوشي في مكارم الأخلاق، وذكر بأن هذه الأمة اليابانية الصغيرة بفضل أخلاقها تمكنت من التغلب على أمة عظيمة مثل الأمة الروسية، وبفضل أخلاقها أيضا حققت هذا التقدم والرقي السريع.

البروفسور ميشيما

في البداية نقدم بعض المعلومات عن شخصية هذا الرجل:انه من أكبر المفكرين اليابانيين، عجوز أتم الرابعة والثمانين من عمره، وهو الرجل الذي رحل الى أوربا لاكمال تحصيله العلمي، ولما عاد الى بلاده صار يتنقل من قرية الى قرية معلما لمدة ثلاثين عاما، انه وزوجته يسعيان الى كسب رزقهما بأنفسهما، بالاضافة الى أنهما يشتغلان بالتدريس مجانا فحازا تقدير الأمة، ومن تلك الفترة خصص له راتب ودخل في صنف الموظفين.

واليوم يعتبر من أكثر الناس احتراما بين اليابانيين، ومع أنه قد بلغ الرابعة والثمانين من العمر، فإنه لا يريد أن يقضي وقته دون فائدة، فتكلم

بصورة مختصرة عن المذهب الكونفوشي، واقترانه بالمعنويات الكبيرة، وأن الشدة والصلابة والثبات في اليابانيين منبعهما هذا المذهب، وسرد معلومات وبراهين كثيرة في هذا الشأن. ثم طلبوا مني أن أتكلم، فقمت وقلت:

إن أثر الدين في الأخلاق أمر لاغبار عليه. ليس لأحد أن ينكر بأن الدين هو المربي الحقيقي للأمم.

وإذا أخذنا الأخلاق الوطنية لليابانيين بعين الاعتبار ولاحظناها؛ فقد نرى أن هناك احتمالاً كبيراً بأن أصل المذهب البوذي هو دين سماوي طرأ عليه التحريف على مر الزمن.

إن النصرانية تأسست مجددا بعد عيسى عليه السلام بثلاثمائة عام، ان تاريخهم يثبت ذلك، ولا يمكن التفريق بين التعاليم الأصلية لدينهم وبين الأمور الأخرى، بالاضافة الى أنه لاينكر بأن التحريف طرأ عليه بمرور الزمن. وبقي ديننا الاسلامي على ماهو عليه لم يحرف ولم يتبدل، لأن هذا الدين مؤيد بالقرآن الكريم، فلم يجد التحريف اليه منفذا، فقد كان محفوظا في صدور مئات الرجال في العهد النبوي، وكثر حفاظه كلما امتد الزمان، فحافظ آلاف الناس على القرآن في صدورهم وليس في أوراقهم فحسب. واليوم نجد الملايين من حفاظ القرآن. ان أبناء العجم لايفهمون كلمة واحدة منه لكنهم يحفظون هذا الكتاب المكون من ثلاثين جزءا ولا يملون من تكراره طول العمر.

ولهذا: فان أساس الدين الاسلامي لم يحرف وبقي كما كان قبل ألف وثلاثمائة عام لم تتبدل منه كلمة واحدة، حافظ المسلمون عليه في كتاباتهم وفي صدورهم كما نزل.

واليوم يعيش على وجه الكرة الأرضية أكثر من أربعمائة مليون مسلم رباهم هذا القرآن على الأخوة مذ خلقوا. وإذا نظرنا الى القرآن بعين الانصاف والمقارنة لوجدناه يضيء القلوب الانسانية، كالشمس التي تضيء الليالي المظلمة.

ولمعرفة ذلك لايحتاج الأمر الا لشيء من الانصاف ؛ أنا لا أريد أن أعرف نفسي للحضور بأنني معلم دين. ولكن كان الحديث عن الدين فأحسست بضرورة تعريفكم بهذه الحقيقة. ولما أنهيت كلامي وتركت منبر الخطابة، سمعت نداءات: «عاش الاسلام». ثم تكلم ناكاته وزير المالية عن أثر الدين في الأخلاق وصلة الأخلاق الحميدة بالحياة وعن ضرورة الحفاظ على القومية والوطنية، واستمرحديثه ساعة كاملة.

أوشيدا سان UCHIDA SAN

هو شاب وهب نفسه وماله من أجل ضم كوريا الى اليابان. ويمكننا أن نعرفه باختصار أكثر فنقول بأنه داعية وخادم لأفكار الأمير ايتو. أقام «أوشيدا» في كوريا مدة ثلاث سنوات، وتجول في مدنها وقراها طولا وعرضا فألب بلسانه وقلمه الكوريين ضد حكومتهم وحثهم على الانضمام الى اليابان حرصا على مصلحة بلادهم، وحاول اقناع الكوريين بأن لهم مستقبل كبير وأن هذ المستقبل يتطلب تعاونهم مع اليابانيين، واستمرارا لهذه المساعي استطاع توطين أكثر من نصف مليون ياباني في كوريا قبل الحرب الروسية، واحتل بهم أهم المناصب الحساسة. ولا يزال يبذل جهده من أجل تحقيق هذا الهدف. وقد أعد خريطة للولايات الكورية التي تبنت فكرته. واذا نظرنا الى هذه الخريطة نرى أن ثلثي كوريا قبلت الانضمام الى اليابان. وأوشيدا سان لم يكن مكلفا رسميا للقيام بهذه المهمة، بل اختارها بتشجيع من الأمير ايتو، وقام بتضحيات من أجل وطنه وقد نجح بقدر الجهود التي بذلها.

هذا الرجل نجح في بلد غير بلده وبلغة غير لغته، تختلف حكومة وشعبا عن حكومته وشعبه، في مدة لاتتجاوز ثلاث سنوات.

واليوم انضمت كوريا الى اليابان بصفة رسمية. وقد رأى أوشيدا سان ثمرة جهوده وهو على قيد الحياة.

تورغوت واك

هناك كثيرون من الاقطاعيين الذين يعرفون بـ «واك»، على وزن ومعنى «خان» وفي كل بلاد منغوليا وتركستان الصينية كثير من «الواكات» ومن بينهم ستة من المسلمين.

هؤلاء الواكات يحكمون قبائلهم حكما ذاتيا، ويصرفون مواردهم على احتياجاتهم. أي أنهم يحققون اكتفاء ذاتيا.

ومن الواكات المجوس طورغوت واك حاكم القالماق بناحية «ايله» ويعرف عند التتار بـ «تورغوت» وعند المغول بـ «تورحات».

وخلال وجودي في اليابان كان «بالطه» توره، ابن (تورغوت واك) هذا قد أتم دراسته في الأكاديمية الحربية في طوكيو وبدأ يستعد للعودة الى بلاده. وقد التقيت بهذا الرجل بواسطة صديقي ساساكي عضو جمعية «شوغي ئن» وتعرفت عليه. انه شاب وسيم ونشيط. ولما كان على وشك العودة الى بلاده، واحتفاءً بتخرجه، وحرصا على المصالح السياسية لليابان فقد تقررت اقامة حفلة وداع لبالطه توره.

وفي ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام وصلتني برقية(لم أعرف مرسلها) تقول:ارجو حضورك في حفل الاستقبال على شرف «بالطه» توره في الساعة السابعة من مساء اليوم وسأمر عليك للذهاب معا، والمطلوب أن تكون مستعدا منذ الساعة السادسة والنصف. وفي الساعة السادسة، كنت مستعدا ومنتظرا، وفي الوقت الموعود جاءني البروفسور تاناكه.

وبعد احتساء الشاي تحركت الريكشات، وتوقفنا أمام مضافة قرب شيمباشي في وسط مدينة طوكيو. كنت أرى الريكشات تتوافد من كل جانب. فاستقبلنا على الباب صديقنا ساساكي عضو مجلس النواب ومعه

اثنان لاأعرفهما، ورحبوا بنا. ولما دخلنا المضافة وجدنا كثيرا من الشخصيات الذين لم نرهم من قبل.

وفي الساعة السابعة وعشر دقائق وصل «تورغوت بالطه توره» فاستقبل بالحفاوة والتكريم، وأجلسوه في صدر المجلس، كما أجلسوني الى جانبه الأيمن.لكن "بالطه" توره قام من مكانه وقال بكل رقة: لاأستطيع الجلوس هنا بحضور رجل في مقام والدي، ومهما كان الأمر مخالفا للإصول، فاني أرجو أن تجلس في هذا المكان مشيرا الى صدر المجلس، وحاولت الرفض كثيرا لكن الاصرار من كل جانب جعلني أقبل: لأن أهل الشرق، والمسلمين بصورة خاصة يحترمون من هو أكبر سنا، فتحولت الى صدر المجلس.

وقام البروفسور توميدجو فقال:(واليابانيون يقولون لتورغوت تورخاتو) ان مرتبة أخينا تورخاتو كبيرة، وهذا الاستقبال الخاص أقيم على شرفه، ولو أخذنا عادات الأوربيين أساسا، لكان من غير الجائز أن يؤثر الأستاذ ابراهيم على نفسه في المكان، لكننا نعيش في عالم الشرق وإن من عادات أهل الشرق احترام من هو أكبر سنا، ولذلك فان ماقام به أخونا تورخاتو هو اتباع العادات والأصول الشرقية، فنشكره على ذلك، كما نرجو من الأستاذ المحترم أن يتفضل بادارة الحفل.

وصرنا نسمع من كل جانب أصوات (دوزو DOZO) وتعني تفضل، ثم افتتح الحفل، ووضعت الموائد والأطعمة كلها حسب الطريقة اليابانية، كان احتفالا رائعا.

وقد تكلم الكثيرون في هذا الحفل ولايمكنني أن أضبط كل ماقيل، الا أن الصحفيين لم يتركوا شاردة ولا واردة الا وسجلوها. كان هناك صحفي اسمه «ايتو» يملك مجلة، ضبط كل ماقيل في الحفل، وأنا بدوري قمت بترجمة مانقله الى مجلته وأنقل بعضها للقراء الكرام:

بناء على طلب بعض الحضور تكلم البروفسور توميزو عن مستقبل العثمانيين فقال: أيها السادة! أنا لم أر تركيا، وليس لي أي اتصال بأي

تركي. لذلك فان المعلومات التي أدلي بها عن الحكومة العثمانية سطحية جدا، لأنني سأنقل ماقرأته في المطبوعات الأجنبية. في رأي إن الأتراك أمة قوية وذات شكيمة متينة وهم لم يأمنوا في أي وقت من الأوقات دسائس ومؤامرات الأوربيين، ولن يأمنوهم مستقبلا، لأن الأوربيين يخشون العثمانيين كثيرا، ولو لم يخشوهم لما أضمروا لهم كل هذه العداوات، ولما دبروا كل هذه المؤامرات.

إن الأوربيين يعادون الأتراك، لأنهم يخشونهم، أما الأتراك فلا يخشون الأوربيين ولا يأبهون بهم، وهذا يعني بأنهم يملكون قوة معنوية يخيفون بها الأوربيين، حتى أن خوف الروس من الأتراك أكبر من خوفهم من اليابانيين، بالرغم من أنهم انهزموا أمامنا وتغلبوا على الأتراك.واذا اطلعنا على مايكتب في أوربا عن تركيا لتأكدنا مدى الخوف الذي يعتريهم.

وعلى هذا فان مستقبل هذه الأمة مشرق، لأن الأوربيين لولم يروا في الأتراك هذه القابلية، لما كلفوا أنفسهم كل هذا العناء. انهم لايخشون أفغانستان ولا بخارى ولا أفريقيا ولايخشون الهند أبدا مع أن عدد سكانها يزيد على ثلاثمائة مليون نسمة.

نعم انهم يخافون من الصين أيضا لأنهم يرون أن الصين لها امكانات كبرى. ان الأوربيين يتبعون حيال تركيا وحيال الصين ايضا سياسة البحث عن طرق لقتل تلك الامكانات. وإن بقاء الأتراك في وسط اوربا ستمائة عام لأكبر دليل على قوتهم ومتانتهم.

ولا أستطيع أن أتكلم عن الأتراك أكثر من هذا، إلا أنني أقول بأن بقاء هذه الدولة هو شرف كبير لنا، وإني لأرجو وأتمنى لها التقدم المطرد (تصفيق شديد ومتواصل).

ساساكي:- لست مؤهلاً أن اتكلم شيئا عن تركيا. وفي رأي أننا بدأنا نلحظ أن الحياة بدأت تدب في أوصال الشرق حتى الميتة منها.

إن الأتراك عاشوا في قلب الحضارة وفي مواجهة أكبر وأعتى الأعداء ومع ذلك فان لهم قصب السبق في اسعاد أهل الشرق على مدى عصور

طويلة. ولن تقدر أية قوة في القضاء عليهم بعد الآن. إن أمم الشرق ستمد يد المعونة الى بعضها، ليبقى كيد الأوربيين في نحورهم، هذا أمر لاشك فيه. (هتافات:عاش الأتراك).

تاناكه:- علينا أن لاننسى بأن هذا اليوم هو اخر لقاء مع أخينا تورخاتو، ان تورخاتو تخرج من مدارسنا العليا، ولنتساءل هل كنا أعددنا له كل مايحتاجه؟ أم أن حكومتنا قصرت في حقه؟ وهل سنستطيع أن نراه مرة أخرى؟ إنه إذا تحدث هو ببضع كلمات، فسوف تبقى تلك الكلمات ترن في أسماعنا ماحيينا.

تورغوت بالطه توره:- ليس في إمكاني أن أتحدث كلاما مطولا، أنني أخجل من أن أتكلم في حضور الرجال الكبار، واستجابة لطلب والدنا تاناكه فإنه يمكنني أن أقول: لقد مضى على فراقي لأبي وأمي ووطني ست سنوات، وغدا سأعود الى بلدي كي أرى أبي وأمي، ولكنني حزين جدا لفراق اليابان، انني أكاد أن أبكي. وجاء دوري في الكلام:

السيد «تورغوت واك» أشهر الواكات في تركستاننا الصينية. من المؤكد بأن ولدنا بالطه توره سيحتل مقام أبيه، ولذلك فإني أريد أن أقول بضع كلمات بهذا الخصوص:

إن عودة شاب مثل السيد بالطه توره الى بلده بعد اقتباسه من أنوار (نيهون) الشمس المشرقة، لهو فأل خير لعالم الشرق. ومما أحب أن ألفت النظر إليه أنه شاب في مقتبل العمر وأنه يملك كثيرا من المعلومات في فن السياسة، إلا أنه تعوزه الخبرة العملية.(أرجو عفوكم)

إن الحياة الشرقية تتعرض دائما لتسلط الغرب، والأوربيون يبنون حياتهم دائما على موت الأمم الشرقية، فالشرق أسير دائم لهم. ومن بين أمم الشرق هناك أمة واحدة تمكنت من أن تمتلك زمام أمرها بيدها ألا وهي أمة (نيهون)، وقد تستطيع هذه الأمة حماية نفسها من شرهم، ومع ذلك فان الغربيين لايريدون لنيهون أن تستمر في البقاء، فان وجدوا الفرصة المناسبة فلن يترددوا في القضاء عليها. وإذا أمعنا النظر في

المقالات التي يكتبونها عن الخطر الذي يطلقون عليه بالخطر الأصفر، لظهرت النوايا الفاسدة للغربيين بشكل واضح. ان كل همهم هو معاداة أهل الشرق. ولذلك فاني أرى أن أمم الشرق يمكنها أن تحافظ على نفسها اذا تضامنت فيما بينها. أعترف بأن الانجليز أظهروا مودة لليابانيين في فترة من الفترات، ولعلهم ساعدوهم أيضا ولكن صداقتهم ومودتهم كانت لمصلحتهم الخاصة، إنهم أرادوا أن يحموا أنفسهم بدفع اليابانيين الى مواطن الخطر والتهلكة. ولفهم ذلك يكفي أن نمعن النظر في المعاهدة الانجليزية اليابانية. لقد استغلوا حاجة اليابانيين فضمنوا مصالح انجلترا لمدة أربع عشرة سنة.

هكذا يستغل الأوربيون الفرص كي يجدوا تحقيق مصالحهم في الاضرار بنا. والطريقة الوحيدة للتخلص من هذا الوضع المؤسف أن نعمل جميعا وبكل امكاناتنا لاتحاد الشرق.

إننا ننقل هذه الكلمات الى أسماع ولدنا بالطه توره آملين أن ينشر هذه الفكرة في تركستان الصينية. وما نراه هذا اليوم ضربا من الخيال قد يكون مستقبلاً فيه كل النفع لصالح الحياة الشرقية بأكملها.. لأن كل حقيقة تتولد من الخيال.

إن رأيي يتلخص في أنه:لاحياة لأهل الشرق الا في اتحادهم، وبداية ومقدمة ذلك هو اتحاد اليابانيين والصينيين. أظن بأن هذه الحقيقة لاينكرها أحد.

أدرك بأن هناك نفور بين اليابانيين والصينيين بسبب جزر فورموزا وبراتاس، إلا أنني أرى بأن التوفيق بينهما ممكن، وإن كان الأمر يبدو شائكا في الظاهر (وعلمت فيما بعد أنني ضربت على الوتر الحساس لليابانيين). أكرر فأقول: ان السيد بالطه توره يمكن أن يكون أكبر الدعاة لفكرتنا هذه في تركستان الصينية وأرجو منه أن يحفظ كلماتي هذه في زاوية من زوايا ذاكرته. وأضيف الى رجائي هذا: بأنه إذا كان في مجلسنا

مراسلو الصحف، ألا ينشروا كلماتي هذه على أعمدة صحفهم. انتهت كلمتي.

قام «تورغوت» وقال: كونوا على ثقة بأن كلمات الأستاذ هذه قد سرت في روحي بحيث ستكون مهمتي بل مهمة ابنائي من بعدي خدمة هذه الفكرة، سنكون سعداء اذا ضحينابأرواحنا في هذا السبيل.

ثم تكلم أناس اخرون، أما أكابر القوم فكانوا مشغولين بالتفكير الطويل والعميق. واستمر الاجتماع حتى الساعة العاشرة، وودع الجميع تورغوت واك، لكنهم أخبروه بأنهم سيكونون في محطة القطار عند المغادرة.

وارتديت ثيابي للعودة الى الحي، إلا أن أحدهم جاءني فهمس في أذني قائلا: ان كان لديك متسع من الوقت، فسنكون مسرورين ان بقيت معنا قدر نصف ساعة. ترددت قليلا لأنني لم أكن أعرف الرجل، نظرت الى ساساكي فأومأ برأسه موافقا.

وغادر الجميع وبقينا ثلاثة. قال الرجل الذي همس في أذني انفا:- أيها السيد، انني «ناكانو»، محرر جريدة «داي طوكيو» والمندوب الخاص لدائرة الأركان الحربية. لقد كان خطابك درسا كبيرا لي، أريد أن أجتمع بك مساء الغد للحديث معك طويلاً وبعمق، فهل لديك وقت؟

- طبعا طبعا، وكيف لايكون لدي وقت...

وكان موعدا مساء الغد، وبعد حديث تعارف قصير ودعته وغادرت المكان، وتوجهت مباشرة الى منزل صديقنا ناكاياما. وجدت بطاقة دعوة لحضور حفل افتتاح مستشفى «بارون مجكوش» في الساعة العاشرة من صباح الغد.

مستشفى البارون مجكوش

«البارون مجكوش» من كبار أصحاب رؤوس الأموال اليابانيين، وهو انسان نشيط، وله متجر في طوكيو يعمل به ألف رجل.، كما أن البنك

الذي يملكه يعمل فيه أكثر من مائة موظف. تبرع أثناء الحرب الروسية- اليابانية بخمسة ملايين ين. وهذه المرة أنشأ مستشفى، وقد صرف على انشائه وانشاء حديقته مبالغ طائلة تحدثت عنها الصحف.

والمستشفى كبير بني داخل حديقة واسعة. وصرف على مفروشاته وتجهيزاته مائة ألف ين(كل ين = ١٢,٥ قرش)

ولاستمرار المستشفى أوقف سبعمائة ألف ين وضعها في البنك الحكومي (مع أنه يملك بنكا) وهذا أيضا لايكفي لأن المصاريف السنوية للمستشفى تبلغ ٥٤ ألف ين، سيغطيها من الفوائد التي ترده من ذلك المبلغ.

دعينا الى حفل افتتاح هذا المستشفى، وبكل فخر لبينا هذه الدعوة وحضرنا في الموعد المحدد. والبارون مجكوش عرف بين الناس بالحلم ورجاحة العقل وكان يستقبل الضيوف شخصيا في أول الدرج.

وحضر الحفل كثير من الوزراء وأعيان البلاد، وخلال عشر دقائق اجتمع أكثر من مائة شخص. وبعد أن أخذنا أماكننا في صالة كبيرة تشبه المسرح، وبعد ذلك تقدم البارون مجكوش الى منصة الخطابة، وألقى الخطاب التالي:

هذا المستشفى سيكون ملك الشعب مباشرة، وسنتولى دفع مصاريفه السنوية مؤقتا الىأن تغطي وارداته تلك المصاريف التي تبلغ ،، ألف ين، ولذلك فان المعاملة لم تتم، وسيشرف على المستشفى ستة من أساتذة جامعة طوكيو، ونظراً لأهليتهم.

وقد خصص ١٢٥ سرير للفقراء بالاضافة الى الكشف اليومي المجاني على مائتي فقير مع صرف الدواء لهم.

والعاملون الدائمون في المستشفى: اربعة عشر طبيبا، وخمسة جراحين، وأربعون ممرضة، واثنان وعشرون من طلبة كلية الطب.

أقدم ذلك الى أركان الأمة هدية مني راجيا القبول.. وقوبل الخطاب بالتصفيق، وهنأ الحاضرون السيد مجكوش على هذا النجاح.

وبعد ذلك قدموا الأساتذة الذين وافقوا على الاشراف على المستشفى، والأطباء المعينين، ونبذة عن حياة كل واحد منهم. كما قدموا بعد ذلك مجموعة العاملين.، ثم قام أحد الأساتذة بالقاء كلمة مختصرة فشكر المدعوين على حضورهم حفل الافتتاح وقال:- اذا وجد من يريد زيارة أقسام المستشفى فليتفضلوا، وإننا نشكرهم على تفضلهم. وسيبقى المستشفى مفتوحا للزوار مدة ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع نبدأ باستقبال المرضى.

ثم قام الجميع فتجول بعضهم في أنحاء المستشفى، وغادر البعض الآخر مكان الحفل.

جلسة مع ناكانو NAKANO ورفاقه

هذه الليلة هي من أغلى ليالي عمري، باعتبارها الخطوة الأولى لصالح الاسلام، ولذلك فلي الفخر في أن اضبط تلك الليلة بالوقت والتاريخ: يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الثاني عام١٣٢٦ من الهجرة ٢٠ مايو ١٩٠٩ من الميلاد.

قبيل المغرب جاء السيد ناكانو ودعاني قائلا: سنذهب سوية الى مكان ما. وكنت منتظرا متهيئا للذهاب، وبادرنا بركوب الريكشات وأخذنا طريقنا. لا أعرف الى أين أنا ذاهب. مررنا على كثير من الأشجار والمرتفعات والوديان داخل المدينة، حتى وصلنا الى مكان لم أره من قبل؛ حيث وقفت الريكشات أمام بيت صغير ونظيف داخل حديقة جميلة جدا، فاستقبلنا ضابطان وسيمان ولم يكن في البيت كله غيرنا، ضابطان وناكانو وأنا، وامرأة تمشي داخل الحديقة من بعيد.

وبعد استراحة بضع دقائق قال لي السيد ناكانو:- أقدم اليك هذين الضابطين، انهما من أكفأ الرجال في البلاد، وأرجو أن تثق بانسانيتهما وضميريهما دون تردد. لا أرى الآن حاجة لذكر اسميهما وكنيتيهما، انهما

يجيدان اللغة الروسية، ويمكنك أن تتحدث اليهما وتبدي آراءك لهما بكل صراحة ووضوح. واذا سمحت الظروف فانك ستعرف اسميهما وكنيتيهما وتعمل معهما بصورة أخوية.

إن الرؤيا الصادقة فأل خير

تعودت أن أعمل بالرؤيا، وأن أستخير في الأمور المهمة. وقبل شهر رأيت نفسي أخطب من منبر عال، ولما قلت الحمد لله للمرة الثالثة أيقظني صوتي، وقبل ثلاثة أيام رأيت نفسي أخطب من منبر رسول الله ﷺ. وكان قلبي مطمئنا، كنت اتوقع حدثاً، ولله الحمد والمنة فقد تحققت مقدمة النجاح.

لم أر حاجة لسؤال الضابطين عن اسميهما، أعربت لهما عن رأيي في المسألة الشرقية بكل صراحة ووضوح، كانا يجيدان اللغة الروسية فلم أجد صعوبة في بيان ماكنت أقصده.

في البداية شرحت بالتفصيل ضرورة الحفاظ على حياة أهل الشرق وحقوقهم المشروعة، والسبيل الى ذلك بالاتحاد، وبرنامجه، والأسباب المؤدية اليه، وامكانية تحققه. وكانت خلاصة هذا البرنامج مسجلة في دفتر جيبي في أربعين بندا، ولم يكن فيه شيء يمكن رفضه إذا وضع قيد البحث والمناقشة.

- أتوقع أن الوصول الى الهدف سيكون أسرع اذا تبنى اليابانيون مثل هذا الاتحاد. ولذلك فان جلسة واحدة لاتكفي لتبادل الرأي، أرغب أن تتكرر الجلسات، ان اليابانيين أمة تطورت وتقدمت أشواطا كبيرة، وأعتقد بأن فيهم الكثير ممن يشاركني هذا الرأي. والظروف المقبلة ستجعل اليابانيين يتبنون هذه الفكرة.

واستمرت الجلسة على هذه الصورة مدة سبع ساعات متواصلة، ومعروف بأن صاحبي يفكران كثيرا ويتكلمان قليلا، والواقع إن اليابانيين أناس عرفوا بالتفكير الطويل.

وأخيرا قال ناكانو:- لقد فهمنا رأيك بعض الشيء، فهل عندك ماتضيفه، أم هل لك حاجة شخصية؟ قل لنا لنختم الجلسة هذا اليوم..

- لابد أن تكون لي حاجة ؛لكن الهدف الأساسي ينسيني كل شيء.

وأخيرا قلت:ـ ان ماقلته لكم هذا اليوم هو من قضايا الحياة بالنسبة لعالم الشرق، وتحقق ذلك أمر مطلوب، كما أنه من المهم الاسراع في تحقيقه. وبناء على هذا أريد أن أضيف شيئا آخر.

- تفضل !

الواقع أنه لأمر يمكن أن يستدعي التفكير والنظر من قبلكم. فمن المعروف لديكم أن اتحاد الشرق يعتبر من المسائل الطبعية جدا، كما أنه يستحوذ على تفكير الأوربيين ويخيفهم منذ أمد طويل.

إن كافة السياسيين الأوربيين متحدون ازاء هذا الموضوع. المنصرون المنتشرون في عالم الشرق ليس فيهم واحد يهدف الى خدمة الدين ونشره، بل انهم جواسيس يتخفون وراء الدين، ومما لاشك فيه أنهم ينشرون بذور الفتنة بين الشرقيين باسم الدين للحيلولة دون تحقيق الوحدة الشرقية. فإذا دققتم في صلب هذا الموضوع، لشاركتموني الرأي. واذا قلنا ان ارتباط الرأي العام بالدين واستغلال الدين في السياسة يكاد يكون من القوانين الطبيعية، فلن نكون مجافين للحقيقة.

وهذه هي إحدى المسائل التي تشغل ذهني. ان ثلث أهل الصين المجاورين لكم هم من المسلمين، وجزر جاوا وملايو مسلمة بكاملها، وثلث الهند من المسلمين، والخلاصة فان القسم الأعظم من أهل الشرق هم من المسلمين.

واذا تعرضنا للموضوع مرة أخرى بعد أخذ هذه العوامل بعين الاعتبار، ووضعنا حجر الأساس للاسلام في اليابان فانه يبدو لي بأننا سنصل الى

النتيجة بسرعة أكبر. ولعدم وجود هذا الأساس في اليابان، فالذي يشغل فكري هو أننا اتخذنا اليابانيين روادا لنا فقد تعترضنا مشكلة التعصب الصيني. هذا آخر ما أردت قوله.

ناكانو:- هذه المسألة ليست من الصعوبة بمكان بالنسبة لنا نحن اليابانيين، وأقول أصالة عن نفسي وبالنيابة عن كثير من أصدقائي بأننا اذا عرفنا حقائق الاسلام، فاننا لن نتردد اليوم في اعتناقه. يمكنك أن تعلم مبادىء الاسلام وتعاليمه بكل حرية، وسنكون ممتنين لك.

نظرت في وجوههم بامعان ن فرأيت ملامح البشاشة والرضى مرتسمةً علي وجوههم جميعا وعرفت أخيرا بأن السيدة التي كانت تتجول داخل الحديقة ولمحتها من بعدي هي زوجة السيد ناكانو، والبيت الذي كنا فيه هو مضافة، ومع ذلك فانهم احتاطوا في عدم احضار خادمة اجنبيه كيلا تسمع مايقال، وكانت السيدة تأتي بالطعام والشاي بين حين وآخر.

غادر أصحابنا المنزل، ونادى ناكانو زوجته. وعرفني بها، وبعد حديث استغرق بعض الوقت قال الأخ ناكانو:- سنكون من أولادك اعتبارا من اليوم، انظر الينا وكأننا أولادك...

وتعاهدنا عهد الأخوة، وانتهت الجلسة بنجاح تام، فسمتني زوجة ناكانو بـ(أبو آسيا الكبير)، فكانت النساء اليابانيات يذكرنني بهذا الاسم في احاديثهن الخاصة.

والنساء اليابانيات يتحاشين ذكر أسماء الرجال الكبار وأسماء آبائهن وأسماء أزواجهن احتراما لهم. (وهذه العادة معروفة لدى القازاق ولدى التتار أيضا). آمل أن يكون الأخ ناكانو خادما كبيرا للاسلام في اليابان، ولذلك أرى لزاماً عليّ تعريف القراء الكرام بشخصية هذا الرجل.

وأكتفي بهذا القدر، على أن أعود الى سرد معلومات أخرى عن ناكانو في الوقت المناسب.

الأزياء في اليابان

لباس اليابانيين بسيط جدا، ولا يميز المرء في الوهلة الأولى بين لباس الرجل ولباس المرأة.والألوان والأقمشة تكون واحدة في أغلب الأحيان، الا أن النساء الشاعرات، وبعض نساء الأسر الغنية يلبسن الملابس ذات الألوان الزاهية،. والتمييز في الملابس بين الرجال والنساء يكون في الحزام والشعر.

وأحزمة النساء عريضة من الخلف ولها نتوء مثل مايستعين به الحمال على حمل الأمتعة. والنعال عندهم بشكل عام هي القبقاب. ونادرا مايلبسون " البوط"

أما غطاء الرأس فالنساء لايلبسن على رؤوسهن شيئا، وقيل لي بأن الرجال كانوا قديما لايلبسون شيئا على رؤوسهم، ما عدا أنهم كانوا يلمون الشعر ويربطونه في أعلى الرأس. أما اليوم فان الرجال بوجه عام يحلقون رؤوسهم حلاقة تامة، وكل أنواع القبعات المعروفة في أوربا يستعملها اليابانيون في بلادهم.

والصداري التي يستعملها اليابانيون في الدوائر الرسمية ليست هي الصداري التي تستعملها نساء الفرنجة اليوم، بل هي النموذج القديم لها. وهذه الصداري هي الملابس الرسمية لأكابر القوم، ولايمكن بدونها مقابلة كبار الناس. والنساء اليابانيات لايلبسن اللباس الأوربي في بلادهن أبدا، حتى النساء الدارسات في أوربا يتخلين عن الزي الأوربي عندما يعدن الى أوطانهن. لكن الرجال يلبسون الزي الأوربي للتوفير، خاصة الفقراء منهم فيلبسون تلك الملابس لضرورة الحال. فالرجل منهم اذا أراد أن يلبس زيا أوربيا فان ذلك لايكلفه أكثر من عشرين ينا (... قرش) أما الزي الوطني فلا يكلف أقل من أربعين ينا. ومع ذلك فان المفضل عندهم هو الزي الوطني.

سفر تورغوت بالطه توره

توجهت الى محطة القطار بهدف توديع بالطه توره الذي ذكرته سابقا وكان على وشك السفر من طوكيو الى بكين، فوجدت بعض الأعيان وأعضاء مجلس النواب وكثيرا من الموظفين والطلاب.، ومئات من الطلبة الصينيين الدارسين في اليابان.. وقد ودع وداعا حافلا. فقبل خمس دقائق من تحرك القطار كانت المحطة تعج بالمودعين.

وبينما كان الجميع في الانتظار واذ ببالطه توره يصل الى المحطة وبرفقته زوجته وعرفت فيما بعد أنها كانت هي الأخرى تدرس في اليابان. وبعد أن أخذت الزوجة مكانها في العربة المخصصة لهما، صافح الأعيان القادمين لتوديعه ثم ألقى كلمة مختصرة موجهة للطلاب الصينيين باللغة الصينية. وقد ضبطها الصحفيون، وأنقلها من الصحف:

رفاقي في الدراسة! ان اسعد الأيام في عمري هي الأيام التي قضيتها معكم، لأن كل ساعة وكل دقيقة كانت من أجل رفعة بلادنا. وقد كنت معكم أيام الدراسة وآمل أن أكون معكم في الكفاح من أجل تخليص بلادنا من التسلط الأجنبي (تصفيق حاد استمر عدة دقائق مع هتاف بانزاي أي عاش عاش)

ثم قدم الكونت أوكوما بعض النصائح، ولما أوشك القطار على التحرك أشار بيده مودعا وصعد الى العربة.

وقبل تحرك القطار أخرج رأسه من العربة. وانطلقت أصوات بانزاي مرة أخرى. ولما تحرك القطار اشتدت وتيرة التصفيق والهتاف بحياته! الى أن غاب عن الأنظار.

واليوم يحتل «تورغوت بالطه توره» مكانة كبيرة في القصر الامبراطوري في بكين. وعندما كنت في بكين نزلت ضيفا في منزله.

أوهارا OHARA

اسم اوهارا OHARA منتشر في اليابان، فهناك عدد من معارفي اسمهم اوهارا، ولكن اوهارا هذا هو (أول من اهتدى إلى الإسلام على يدي في اليابان) وقد سميته أبابكر. ولذلك فان تزويد السادة القراء ببعض المعلومات عن هذا الرجل لايخلو من فائدة.

مما لاشك فيه بأن أوهارا هذا سياسي ودبلوماسي نشط، فهو عضو في كثير من الجمعيات في اليابان ويقوم برئاستها، كما هو مشرف ومفتش ومعلم في كثير من المدارس ومدير ومندوب في دائرة الأركان الحربية. ورئيس جمعية "اسيا -غي- كاي ـ التي قمنا بتأسيسها.

وأول لقاء لي مع هذا الرجل كان في شارع قرب شيمباشي SHIMBASHI، وكان الجو ممطرا. التقيت به هناك وتعرفت عليه. وأول كلام سمعته من هذا الرجل هو:

- لاتقلق فان كل شيء سيكون على مايرام...

لم أنس هذه الكلمات أبدا، أتذكرها دائما، ومن أول نظرة رأيت في وجه هذا الرجل الحلم والبشاشة.

هذا الرجل طيب ولطيف المعشر ولفرط حبه للاسلام، أدعو الله العلي القدير أن يكون من كبار المجاهدين المسلمين. ويسعى الآن الى تأسيس شعار الاسلام في طوكيو بالبحث عن طرق لإقامة مسجد ومدرسة ويبذل جهودا مضنية في سبيل هذا الهدف. وسأبين ماجرى بيننا من أحاديث في الأوقات المناسبة.

أيام عصيبة تتخلل الآمال الكبيرة

درست طبيعة اليابانيين خلال بضعة شهور، ورأيت الاستعداد الفطري لديهم من جميع جوانبه. كما سجلت ملاحظاتي المتعمقة حول مدى رغبة

اليابانيين في الدين. كما أن بابا كبيرا فتح أمامي. ولكنه مما لاشك فيه بأن المهمة الكبرى ستكون بعد هذه المرحلة. كنت أفكر ليل نهار، وأقول في نفسي بأن أي خطأ قد يؤدي بهذا الأمل الكبير الى يأس، بل الى عكس ماأرجوه. أسهر الليل بطوله يؤرقني الخوف من الوقوع في خطأ. وحينما كنت أتصور بأن سلامة التدبير قد تؤدي الى تشرف الملايين من الناس بدين الإسلام في مدة قصيرة، كنت أحس بسعادة غامرة لايمكن وصفها... كدت أجن من كثرة التفكير في مجموعةمن المقدمات السياسية. ومن جهة أخرى أكتم الأمر في نفسي امتثالا لقول رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

كما كنت أعاني من قلة ذات اليد والجوع من جانب آخر. لقد أمضيت أياما لايمكنني وصفها، كنت فيها مريضا، وينتابني التفكير الكثير. لقد مضت عليّ أسابيع وأنا على هذه الحالة.

في القرى

وفي مثل هذه الأيام العصيبة ألجأ الى الجبال وأتجول في القرى والأرياف. وذات يوم كنت أمر بقرية «هودو غاية HODO GAYA» عندما لمحت مبنى جميلا جدا، الا أن ذلك المبنى لايشبه المنزل. جلت في أطرافه كي أعرف ماهو، كان أحد الجدر الأربعة من التراب، الأمر الذي زاد من استغرابي. وصلت أمام الباب، فوجدت امراة تبيع بعض المأكولات التي تسمى «أوكاشي OKASHI» وتشبه الحلويات التي نسميها بـ «الغريبة». سألتها:- ماذا هناك؟ - يومي يا. كررت السؤال، فكررت الاجابة:يومي يا. لم أسمع بذلك من قبل فلم أعرف، تبسمت وقلت للمرأة: أريد أن أرى ذلك الرجل. قالت: تفضل، ومشت المرأة صوب الداخل، فتبعتهاودخلنا من الباب فوجدت عددا من القوارير الصينية وبداخلها السهام التي نعرفها. وعلق على الجدران أقواس. أخذت المرأة

قوسا وسهما، واتخذت الحلقة الورقية البيضاء على الجدار الأسود في نهاية الممشى هدفا، فأصابت الهدف من منتصفه. ومدت يدها الى الطبق فأخرجت منها «ينين» ووضعتهما في جيبها، ثم رمت سهما آخر فلم تصب، فأخرجت من جيبها «سنين» وألقتهما في الطبق.

لم أكن أجيد اللغة لكني فهمت الأمر بتمامه. فهذا المكان مخصص لرمي السهام، ومفتوح لكل من أراد تعلم الرمي.

وهنا فكرت طويلا، وتذكرت أيام الصبا، حيث كنت أقضي أيام الخميس والجمعة في الصيف بتراشق السهام، كنا نمارس الرمي، تذكرت حادثة في تلك الأيام فبكيت.

كان أستاذنا عبد الأحد من كبار العلماء. يشجع الطلاب على تعلم الرمي ويشاركنا مشاركة فعلية تذكرت كل ذلك.

وبعد هذه الذكرى أخذت السهام وجربت الرمي عدة مرات. ومن جانب آخر كان الذهن مشغولا، فيما يجب عمله كي أصل الى أحسن نتيجة،وكيف السبيل الى اقامة شعائر الاسلام واظهارها، واقناع أكبر عدد ممكن من الناس، وماذا علي أن أعمل اذا تعرضت للهجوم؟... كنت أفكر في نفسي حائرا فتزداد أوهامي يوما بعد يوم.

كانت خشيتي من اليأس نتيجة خطأ او اهمال، اكبر من تفاؤلي بالنجاح والسعادة. حتى في حالة النجاح فان همي يزداد في كيفية الحفاظ على مصالح الاسلام السياسية. وكلما فكرت كبرت الهموم وزادت في نفسي.

كنت أحتاط لنفسي كيلا أقع في الخطأ الذي وقع فيه المشايخ الذين ذكرهم الكونت اوكوما فيما سبق.

أضف الى ذلك أنني لم أقض أي وقت دون فائدة. كنت أسعى قدر استطاعتي كي يرى اليابانيون الأمل المشرق في الاسلام؛ وأقول لهم بأن الضعف الحالي للمسلمين مؤقت وناشىء من التسلط الأجنبي، وأن شيئا من اليقظة يزيل كل مانراه من تلك العوارض، وغيرها من التأويلات والتوجيهات.

وبعد انتهاء الجولة في القرى عدت ثانية الى يوكوهاما، مشيا على قدمي، كنت متعبا عندما اقتربت من باب المنزل، واذ بي أصادف ثلاثة من الهنود. والتفريق صعب بين مسلمي الهند ومجوسها. ومع ذلك فانني امعنت النظر اليهم، وكانوا أيضا ينظرون الي، فسلم علي أحدهم، لايمكن وصف السعادة التي غمرتني عندما سمعت قوله «السلام عليكم». ولما رددت السلام بادر الثلاثة بمد ايديهم وصافحوني. كان أحدهم يجيد الفارسية، وكرر الآخرون كلمة: «الحمد لله مسلمان» وكنت أعرف شيئا من الفارسية، علمونا في مدارس بلادنا قواعد علم النحو والصرف باللغة الفارسية، فاستفدت من بعض الجمل التي علقت بذاكرتي من تلك الأيام. عرفت أن هؤلاء الرجال من بومباي ويشتغلون بالتجارة في يوكوهاما. وحتى تلك اللحظة لم أكن أعرف بأن في اليابان تجار هنود مسلمون، تعرفت عليهم وعرفت عنوانهم، وتوطدت الصلة بيننا وشعرت بسعادة غامرة.

وهؤلاء هم: علي رضا وعيسى بهائي وباليج والا. وفي بداية الأمر لم أسألهم عن مذهبهم و لكنني أحسست بأنهم رجال مسلمون، ومن الطبيعي الا أحرص على معرفة مدى غناهم.

صرت أكلم أحدهم بالفارسية، وأتفاهم مع الآخرين باللغة اليابانية، فأجد منهم الاحترام والتكريم. ذهبت الى بيتهم وأكلت معهم، فلقيت أكثر مما كنت آمل، كما أنهم اعتبروني أخا لهم. وعرفت فيما بعد بأن في كوبي KOBE خمسة وعشرون مسلما كلهم من الهنود.

وذات يوم نزلت ضيفا على عيسى بهائي في منزله بيوكوهاما، وجاء الآخران، وسهرنا حتى جاوزت الساعة العاشرة ليلاً، وعندما قمت الى صلاة المغرب لم الاحظ شيئا، فصليت، وظننت أنهم كانوا قد سبقوني، إلا أنني لم أتأكد هل صلوا فرادى أم جماعة. وتأكد الأمر في صلاة العشاء وعرفت أنهم من الشيعة، ومع ذلك فلم أهتم بالموضوع كما أنهم لم يهتموا بذلك أيضا.

هؤلاء لم يكونوا يعرفون من أي الرجال أكون، لكنهم كانوا يظنون بأنني من العلماء. وصلت الى طوكيو، فوجدت رسالة، انها دعوة من اوهارا.

توجهت الى منزل الأخ أوهارا. حيث كان في انتظاري، دخلت، وما كدنا نشرب فنجانا من الشاي حتى جاء ناكانو، وبعد قليل من الحديث قال اوهارا: إننا بشوق كبير الى انشاء مسجد هنا في أقرب وقت. جئت اليك لآخذ رأيك في هذا الشأن، فما تقول؟

عبدالرشيد: كلام معقول، ولكن من الأفضل التأني وعدم العجلة، كي يكون كل شيء مدروساً ومثلما نريد. لقد أمرت شريعتنا الغراء بالتشاور في الأمور الهامة، لنتدارس الأمر بشكل موسع ومن ثم نبدأ باكمال الأمور المطلوبة شرعا.

«إن أرض الله كلها مسجد»، يمكن للمرء أن يعبد الله في أي مكان شاء، ومهمة المساجد جمع المسلمين على صعيد واحد واعلاء شعائر الاسلام وسأشرح لكم هذه الأمور فيما بعد. اذا خططنا جيدا تحقق كل مانريد. ان لي أمورا اخرى أفكر فيها.

إن صحفنا اليوم تتحدث عن التدابير الظالمة التي اتخذتها الحكومة الأمريكية ضد اليابانيين، أهمني هذا الأمر كثيرا، ان مؤامرات الأوربيين والأمريكيين ستستمر ضد الشرق طويلا، كل همهم ينصب في كيفية السيطرة على الشرق، وامتصاص دماء أبنائه.

أوهارا:- نعلن الحرب على الأمريكان. الحل سهل، ليس الأمريكيون فحسب بل الروس أيضا يفكرون مثلهم.

عبدالرشيد: الأمريكيون يملكون المال الكثير، ويمكنهم اعداد القوة البحرية متى شاؤوا، ويقوم الانجليز بمساعدتهم، انهم لايريدون أن تكون اليابان قوية، إنهم يتنافسون في الصين. ولكن إذا استعدى الأمريكان الأوربيين ضد اليابانيين فلا بد أن يهبوا لمساعدتهم.

أوهارا: هذه أمور بعيدة المدى ؛ فالأمريكيون لايمكنهم محاربتنا في الوقت الحاضر، لأنهم لايملكون القوة، ثم أن بيننا وبين الانجليز

معاهدة. وبعد خمس أو ست سنوات لن يكون بوسع الأمريكان أن يحاربونا أبدا، حيث سنملك قوة كبيرة وقد نصل الى درجة الأمة المدججة بالسلاح.

عبدالرشيد: والأمريكيون ايضا سيسعون الى زيادة قوتهم.

أورهارا: الأمريكيون وكذلك الانجليز ليسوا رجال حرب، لايملكون الا المظاهر، لقد رأيناهم على حقيقتهم في أحداث الصين، ليس لديهم مايعتد به الا الجنود الألمان. كانوا يبكون أمام الجندي الصيني الأعزل، وما أن يتغلب جنودنا والجنود الألمان على الجنود الصينيين، حتى يظهر الجنود الهنود ليشتركوا في اقتسام الأسلاب، أما الأمريكان فلا شيء من هذا ولاذاك، والواقع فان الجندي المرتزق ليس بجندي.

ومع ذلك فان هذا الأمر مهم بالنسبة لنا نحن اليابانيين. إن مشاركتك برأيك في تأمين احتياجات بلدنا وأمتنا يسعدنا كثيرا.، ونأمل أن تتطرق الى هذه الناحية في المحاضرات التي ستلقيها فيما بعد. وكن على ثقة بأن الشعب الياباني سيكون سعيدا بك. ان حكومتنا عجولة، تتعجل في بعض الأمور التي لاضرورة لها وتتباطأ في بعض الأمور التي تتطلب السرعة. لقد استعجلت في موضوع المعاهدة مع انجلترا، إن هناك خطر في وقوع الأمة بمصيبة كبرى، ومن حسن الحظ أن الحرب لم تقع بين انجلترا وروسيا، ولو وقعت الحرب بين الانجليز والروس، لكنا اكتوينا بنارها دون جدوى. لقد وقعت الحرب بيننا وبينهم، فما الذي حصل؟ اكتوينا بنارها أيضا وتضررنا، ولكن في المقابل استفدنا منها، إلا أن حكومتنا تعجلت للمرة الثانية في توقيع اتفاقية بورتسموت، انها اتفاقية أخذت منا ماكسبناه في الحرب. ومما لاشك فيه أننا فقدنا بعض قوتنا، لكن معنويتنا لم تنكسر أبدا، وفقد الروس كل معنوياتهم، ولولم تتعجل حكومتنا، لأعطانا الروس كل مانريد، فالحكومة بتعجلها لم تستطع في أيام السلم الحفاظ على شرف النصر الذي حققته هذه الأمة البطلةفي الحرب.ولم تكن الأمة اليابانية لترضى بهذه الاتفاقية، وقد كتمت الحكومة أمرها، فلم

تمكن الصحف من الحصول على بعض موادها، وهكذا كانت اتفاقية سلام سرية. على كل حال نتكلم في مثل هذه الأمور في أوقات الفراغ، أما الآن فلا فائدة من الخوض فيها.. وهنا تذكرت مارأيته في القرية من لعبة رمي السهام «يومي يا» (رغبة مني في تغيير الموضوع).

قلت:ـ عند تجوالي في القرى رأيت المقامرة التي تسمى «يومي يا»؛ فما أصلها وهل يرجى منها النفع؟ وهل كانت معروفة قديما؟

ـ يومي يا لم يكن سلاح اليابانيين فحسب بل سلاح كل الأمم؛ ولكن لم تعد الحاجة الآن لمثل هذا السلاح ؛ وبقيت له القيمة التاريخية، ولن تجد في ألأرض أمة لم تستعمل هذا السلاح، ولذلك فقد كان الرأي ألا يندثر أثر مثل هذا السلاح والابقاء عليه باعتباره وسيلة ترفيه، فأنشأوا "جمعية الحفاظ على التراث"، ولم يكن عددها كثيرا قبل عشر سنوات إلا أنه في الأعوام الأخيرة بدأت تنتشر انتشارا ملحوظا. ولم تعد تقتصر على القرى بل صرنا نجدها في المدن أيضا. وفي طوكيو وحدها توجد أكثر من مائة صالة لرمي السهام، وفي القديم كانت اللعبة يقوم بها الشباب، أما اليوم فانك ترى الكهول وكبار السن يشاركونهم في هذه الألعاب. وتوغو من هواة هذه اللعبة. ولايزال البعض يمارسون الصيد بالسهام.

الهدف والرأي

إضافة لتفكيري في كيفية وضع أساس الاسلام في اليابان كنت أفكر أيضا بربط هذا الأساس مستقبلا بمقام الخلافة، لأن اهتداء عدد من اليابانيين لم يكن بالنسبة لي مهما بقدر تحقيق مصالحنا السياسية مقابل المصالح السياسية التي يحققها اليابانيون من الاسلام، في حين لم يكن من المناسب وضع هذه المصالح في الواجهة فجأة. يجب الا أتعجل، بل

انتظر حتى يكون العرض من جانبهم هم. اخترت هذا اتباعا لقاعدة التأني أفضل من مواجهة الصعوبات.

ولذلك فانني كنت اضطر الى الحديث مع أصحابي بشيء من الحذر والتلميح دون التصريح.

طال الحديث مع الأخ أوهارا كثيرا، أمضيت الليل كله هناك، تنقلنا في الحديث هنا وهناك، وكانت النتيجة أننا اتفقنا على ضرورة البحث عن مكان لانشاء مسجد، وكلفنا الأخ أوهارا بالقيام بهذه المهمة، وودعنا بعضنا وغادرنا المكان.

صرت أتحدث عن الإسلام ومحاسنه واتحاد أهل المشرق مع كل من ألقاه أثناء تجوالي. وذات يوم كنت في منزل صديقي ناكاياما، عندما دخل علينا رجل طويل القامة، يظهر على ملامحه التعقل والاتزان، وبعد تقديم فروض الاحترام (على شكل الإنحناء) قال:ـ انني معجب بك، وأحببتك قبل أن ألقاك، والآن تشرفت بلقائك: ولدك"ياسوتارو هونجو YASUTARO HOJO". قابلته بالترحيب، وبعد شيء من الحديث والتعارف قال:- اذا أذنت فان لي ماأعرضه عليك، فاسمح لي بالقول.

ـ تفضل، بكل سرور.

ـ إنني ياباني أبا عن جد، أحب بلدي وأمتي بلا حدود. ومستعد أن أضحي بكل شيء من أجل وطني. ولكن في الفترة الأخيرة بدأ يشغل فكري أمر، ألا وهو تسلط النصارى. لقد فكرت في تخليص بلادي من هذا الخطر كثيرا، فادى بي تفكيري الى القيام بجولة داخل الصين.

تجولت في مدن الصين وقراها، وقمت بمقارنة شعبنا بالصينيين، فتوصلت الى نتيجة هي أننا وان كنا متقدمين صناعيا وحضاريا، إلا أن الصينيين سبقونا بالثبات، ولو تركهم الأوربيون على حالهم مدة عشر سنوات لتقدموا كثيرا، وقد لايستطيعون مجاراتنا في المخترعات الحديثة، إلا أنه يبدو لي بأنهم سيسبقوننا في الترويج للمخترعات الحالية وكذلك في التجارة وغيرها من نواحي الحياة.

ومع هذا فان الناحية الأخلاقية عندهم سيئة جدا ؛ والمعتنقون للنصرانية بشكل خاص محرومون من كل الآداب الانسانية، وهم يتكاثرون عددا ويتدهورون خلقا، ويبدو لي بأنهم سيفقدون قدرة الحفاظ على وطنيتهم وقوميتهم بمضي الوقت. والذين اعتنقوا النصرانية فقدوا ميزة الثبات والصبر.

مسلمو الصين

وفي الصين عدد كبير من المسلمين، لدرجة أن ثلث الصين من المسلمين. ويتفوق المسلمون عددا في كثير من المناطق.

كل سكان الصين من قومية واحدة وأمة واحدة، لغتهم واحدة وبلدهم واحد وتربوا تربية واحدة، لكن المسلمين فهم على درجة من النشاط والجدية والثبات، بحيث يندهش الانسان اذا نظر اليهم نظرة دقيقة. لافرق بينهم وبين بقية الصينيين في اللباس ولا في الشكل الظاهري، ولكن يمكن التمييز بينهم بالثبات والاقدام؛ وفي البداية لم أكن أستطع التمييز بينهم، كلهم على نمط واحد في الشعر والظفر، ولكن بمضي الوقت صرت أعرف المسلمين من أول نظرة.

والثبات والجرأة عند المسلمين دليل على امتلاكهم قوة معنوية متميزة، بالاضافة الى أنك لن تجد فيهم واحدا يتنصر. كنت أرى هذا الثبات والجرأة فأزداد اعجابا بهم. وذات مرة رأيت مسلما في ناحية «صي- جوان»، يدافع عن نفسه ضد حوالي ثلاثين مجوسيا. وانتهى الأمر الى المضاربة، رأيت هذا الرجل وهو يلقي بالمجوس يمنة ويسرة. أما الآخرون فلايستطيعون الاقتراب منه، يضرب ضربته فيطرحه أرضا. انه أمر مدهش حقا، حيث لم يكن هناك أحد يظاهره أو يساعده، والقرية قرية مجوسية، قد يجتمع عليه مئات الناس وقد يتعرض للموت، ومع ذلك كان هذا الرجل يقاتلهم دون أي سلاح، الا أنه أسند ظهره الى

الجدار يذود عن نفسه ضد كل مهاجم، فيطرحه أرضا بحيث لايستطيع الحراك بعد ذلك.

ومن الطبيعي أنني كنت غريباً في هذا البلد، ولكنني فكرت، فاتصلت بالمسؤولين، فوفقت في الحفاظ على حياة هذا المسكين، ثم أخذته معي ومضيت.وفي الطريق رأيته محتدا حين قال: لو لم تكن أنت لقتلتهم جميعا. إنه رجل صيني، ولا يلاحظ عليه أي فرق عنهم، فكرت كثيرا: من أين له كل هذه الجرأة والاقدام؟... ان السبب الوحيد في كل ذلك هو الاسلام.

وفيما عدا هذا رأيت أمورا أخرى كثيرة. درست أحوالهم كثيرا، والحقيقة أنني أريد بحث هذه الأمور معك بعمق. لنذهب الآن الى منزلنا، وتكون ضيفنا هذه الليلة، وزوجتي ستتشرف بزيارتك، وتزيدنا سعادة وسرورا، وهناك أعرض عليك الدروس التي تعلمتها من الصين واحدا تلو آخر.

قبلت هذا العرض بكل سرور، وتوجهنا سويا الى منزل السيد هونجي، فوجدنا ولده بانتظارنا أمام الباب، وزوجته في الداخل، وحيوني على طريقتهم فرددت السلام وقلت: عفوا انني لاأستطيع أن أرد بمثل تحيتكم، لأن ديننا يمنعنا من أن نسجد لغير الله، ففي ديننا نكتفي بقول السلام عليكم وعليكم السلام، فاحمر وجه المرأة خجلا وقالت: لقد أخطأت لاأعرف ماذا أفعل «غومين كودا ساي» قالتها وهي تكاد تبكي خجلا.

- لا بأس عليك انني لا أؤاخذك، بل أردت أن أبين لك بأنني لاأستطيع مقابلتك بالمثل، من باب الاعتذار.

المرأة ـ ان كان ممنوعا بالنسبة لك فسيكون ممنوعا بالنسبة لنا أيضا أليس كذلك،؟ ونظرت الى زوجها.

وبعد دخول المنزل قال هونجي:- اننا محتارون فيما نفعل وفيما لانفعل، لن نستطيع فعل شيء يمنعه الاسلام، ولا نعرف العادات الاسلامية. نرجو أن ترشدنا اليها.

- إن الاسلام لايكلف الانسان أكثر من السلام، ولكن لكم أن تعملوا وفق عاداتكم، يكفي ألا تطلبوا مني أن أفعل كما تفعلون.

وكان ناكاياما قد تأخر عنا بعض الوقت، فوصل، فقال السلام عليكم، ثم جلس فردينا عليه السلام فنظر صاحب البيت وزوجته اليه، فاقتنعوا بعادتنا. وهنا بدأت أتحدث بشيء من الاعتداد عن خدمة الاسلام للانسانية وعن أثر الاسلام في حسن الخلق، مع ذكر عدد من البراهين التاريخية على ماأقول.

تابع السيد هونجي حديثه عن مسلمي الصين قائلا: الصدق والأمانة لدى مسلمي الصين أمر يثير الاهتمام، فالصينيون يعتبرون الكذب والخداع وسيلة مشروعة للكسب والتجارة، أما المسلمون فعلى العكس منهم، يصدقون في القول وان كان في ذلك الغاء صفقة، لقد جربت ذلك بنفسي. واكرام الضيف عندهم في أعلى مستوى، فاذا مررت بقرية مسلمة وجدت الفراش النظيف، والطعام الطيب، أما الصينيون المجوس فلا يستقبلون ضيفا مسلما، ولا يطعمونه، بل ولا يفسحون له مكانا لينام فيه.

وفي أثناء جولتي داخل الصين، كنت أنزل ضيفا على قرى المسلمين وفي مساجدهم «ليبصي»، فيكرمونني، وأجد عندهم الماء الساخن في كل وقت، والنظافة التي عندهم لاتقل مستوى عن نظافة اليابانيين، في حين لايصيب أجساد الصينيين في العام قطرة ماء، واذا وجد منهم من تعود على الاغتسال جاء الى مسجد من مساجد المسلمين واغتسل هناك.وفيما عدا هذا وذاك فإني وجدت مزايا أخرى كثيرة في أحوال المسلمين. وأكتفي الآن بما ذكرت، والتمس منك الآن شيئا، ومعي صديق آخر ولكني سأعاهدك هذه أصالة عن نفسي. أعاهدك على السيف الذي يعتبر دستور اليابانيين، وأخرج السيف من غمده، وجعل الجانب

الحاد الى أعلى ومد يده، ومددت يدي. فعاهدني وقال: إنني منذ اليوم مسلم، وسأبيع أملاكي وألتحق بدار الخلافة لتعلم أركان الاسلام.

وقمت بدوري بتزويد هذا الرجل ببعض التعليمات التي تشرح مبادىء الاسلام وأركانه، وبكثير من النصائح. وهكذا صار لنا أخ جديد اسمه هونجو. فانشرح قلبي وكبر أملي.

وكلما كبرت آمالي صرت أتخيل وأفكر في أمور أوسع، وأبحث عن طريقة لربط جانبها الروحي بدار الخلافة، ولكنني فكرت أيضا في احتمال انزعاج اليابانيين في ذلك، وقلت:" ماذا نعمل لوقالوا " ان كان الأمر كذلك فلاحاجة لنا" وكيف نقنعهم بهذا السبيل؟.. هذه أمور كانت مثل الجبال على كاهلي.

وحتى العوام من اليابانيين يفكرون في الأمور كثيرا، يقيس الياباني كل كلمة بميزانه الخاص، ثم يغربلها.ولذلك فينبغي التدقيق كثيرا أثناء الكلام. والا فليس من السهل اختراق أذهانهم.

واذا اقتنع اليابانيين بالشيء فلا خوف عليه بعد ذلك، فان المدفع لايمكن أن يهزه.كل هذه الأمور كانت تمر في خاطري مما تجعلني حذراً من وقوع مشاكل جمة. ومع ذلك فانني كنت أرى بأن التدابير التي أتخذتها هي تدابير صائبة.

وهكذا أمضيت يومي هذا في منزل أخينا هونجو، وفي اليوم التالي خرجت في جولة الى القرى راجيا من الله التوفيق. والتجول في القرى اليابانية أمر يسر الانسان، فتجد الناس يعملون في الحقول والأرياف، انهم يشتغلون في الأرض نساء ورجالا، خاصة في شهر مايو، كل شبر من الأرض وكل حفنة من التراب تصل اليها أيدي عدد من الناس، كل الأعمال هنا يدوية. جعلوا الجبال مدرجات وحولوها الى أراضي زراعية، يبذرون البذور في الأرض بأيديهم بذرة بعد بذرة. وفي بعض السواحل أزالوا الجبال بكاملها، وطمروا البحار، وجعلوا منها أرضا، إنهم يزيلون بعض الجبال ويدفعون بالتراب نحو البحر.

والحقيقة إنني كلما اشاهد هؤلاء اليابانيين صغار الأجسام وهم يحققون مثل هذه العجائب، فان عقلي لايكاد يصدق ماأراه، وأكاد أقول في نفسي د انهم دابة الأرض.

وذات يوم كنت في جولة في بعض القرى وصادفت ساساكي عضو مجلس النواب «شوغي ئن» سألته:- من أين أنت قادم؟

- أنا من أهل هذه المنطقة، وأنت من أين أتيت؟

- خرجت في جولة

- من أين خرجت، من طوكيو أليس كذلك؟

- نعم.

- أتعرف كم تبعد طوكيو من هنا؟

- لا أعرف ولكن حوالي ٢٠ كيلومترا أليس كذلك؟

- ثلاثة وثلاثون كيلو مترا بالتمام، وأنت تتمتع بهذه الجولة وإذا بقيت على هذه الحالة كان الله في عونك. ان بيتنا قريب من هنا لنذهب اليه ونشرب الشاي، ومن هناك تعود بالقطار.

وافقت مسرورا، وتوجهنا الى ضيافة أخينا ساساكي، وسبق أن قدمت بعض المعلومات عن ساساكي. هذا الرجل الذي تجول في كافة أنحاء منغوليا، واشترى كثيرا من الأملاك هناك، انه انسان في منتهى الجرأة والاقدام. ملامحه يابانية صميمة، لكنه يختلف بجسمه عن بقية اليابانيين، فهو انسان ضخم البنية.

وفي الحديث مع ساساكي هذه المرة تطرقنا الى نظرة الأوربيين تجاه اليابانيي.

ساساكي:- إن نظرة الأوربيين تجاه اليابانيين هي نفس نظرتهم تجاه أهل الشرق عموما. ان نظرتهم لاتتبدل أبدا، وهم على ذلك في كل الأوقات، وللأسف نحن نتساهل معهم. ان الشرقيين بشكل عام يتبعون سياسة ساذجة. نحن لانضمر في قلوبنا سوءا لأحد، ونظن خاطئين بأن الغربيين ساذجون مثلنا.

إن أكثر الأمم الشرقية تطورا هم اليابانيون. ومع ذلك فان ذلك التطور لم يحل بينهم وبين الفشل الدائم في العمل الدبلوماسي. إنني أفكر في هذا الموضوع كثيرا فلا أرى سببا وجيها يبرر مانحن فيه.

وإذا نظرنا الى التاريخ العثماني، لوجدنا أنهم خرجوا من كل الحروب الظافرة دون فائدة، بل وكانوا هم الخاسرون بعد كل معاهدة وبعد كل سلام. وأنا لاأجد سببا لهذا الوضع. لماذا لايملك دبلوماسيونا بعد النظر؟

عبدالرشيد: نحن الشرقيين لسنا أمة طامعة، نقنع بالقليل ولا نرى حاجة للتفكير في المدى البعيد.

ساساكي: أرى أن حالة اليابانيين هذه يمكن وصفها في صورة هي كالآتي: قبل خمسة عشر عاما، عندما كانت السفن الأجنبية ترسو في ميناء يوكوهاما، كان بحارتها ومرتباتها يتصرفون وفق قوانينهم ولايعترفون بقوانيننا، فاذا ارتكبوا جريمة، فلا يرضخون لسلطاتنا القضائية. ويقولون: لنا قوانيننا الخاصة بنا.

وفي احدى المرات رست سفينة ايطالية في يوكوهاما، وصعد بحارتها للصيد في الجبال، فلم يجدوا مايصطادونه، وفي طريق عودتهم وجدوا يابانيا، فأطلقوا عليه النار وقتلوه، ثم توجهوا بأنفسهم الى مركز ولاية يوكوهاما وأبلغوا بما حدث، وقالوا: قتلنا رجلا له أوصاف كذا وكذا، اذهبوا اليه وخذوه.

لم تقم حكومتنا بالقاء القبض على القتلة ومحاكمتهم، بل طلبت من الحكومة الايطالية شيئا من المال لأيتام ذلك القتيل المسكين ولكن الحكومة الايطالية لم تلق بالا لهذا الطلب.

وكثيرون غيرهم قاموا بمثل هذا العمل غير اللائق، فكان الاعتداء على العرض والشرف من الأمور العادية، ولم يكن بمقدور حكومتنا في تلك الفترة أن تنبس ببنت شفة، بل اختارت جانب الصمت والذل، ولو ذكرت مافعله هؤلاء ضدنا باسم الحضارة، لما أمكنك التصديق.

في تلك الفترة لم نكن نملك القدرة على الدفاع، فنسكت مضطرين، إلا أننا اليوم نملك مانستطيع أن نحمي به شرفنا ومع هذا فإن رجال الحكومة عندنا يريدون أن يقيسوا الوقت الحاضر على مضى من الزمن. كما أن الأوربيين يريدون أن يبقوا على كانوا عليه حتى الآن.

والواقع فإن المشكلة التي أدت الى وقوع الحرب بيننا وبين روسيا، لم تكن مشكلة بين دولتين. وأننا لولم نحارب الروس، أوكانت الغلبة في تلك الحرب للروس، لما وجدت عندنا شيئا نسميه بالحقوق الانسانية، ولما اعتبرنا من قبل هؤلاء بشرا. ولقبلت حكومتنا كل مايفعلون. ومن فضل الله فقد ثار الشعب بتحريض من فلان وفلان. وأرغموا الحكومة على خوض الحرب. والا لكان وضعنا سيئا جدا. (في تلك الأيام كانت البواخر والسفن الحربية الأمريكية في يوكوهاما).

عبدالرشيد: نعم الآن أحس بما كان عليه الوضع.فالسفن الأمريكية راسية في ميناء يوكوهاما منذ عشرة أيام، والبحارة يخرجون كل يوم، فيعاملون الناس بطريقة منافية للأدب، يقضون أوقاتهم في السكر والعربدة، يهينون كل من يصادفونه من الناس، حتى رجال الشرطة لم يسلموا من اهاناتهم. وفي الأسبوع الماضي رست سفينة فرنسية. وقام بحارة تلك السفينة برفع العلم الفرنسي على أبواب الحانات التي دخلوها.

ساساكي: أما وقاحة الفرنسيين، فلا تذكرني بها ! فقد لقينا منهم الأمرين. وكما قلت لك فإنهم يحلمون في الحفاظ على امتيازاتهم القديمة. ورجال البحرية الأمرييكية يعتبرون نوعا من الضيوف الرسميين، ولكن الضيف يجب ألا يكون وقحا ! ومع ذلك فانه يمكن السكوت عليه الى حد ما.

كما إنه على حكومتنا أن تعامل الفرنسيين بكل ود، وعليها أيضا أن تحذر صاحب الحانة، كيلا يكرر فعلته، فان عاد، فيمكن معاقبته، ولا يكررها، لكن الحكومة تعتبر هذه الأمور غير مهمة فتسكت، وبمضي الوقت تتطور الأمور الى حوادث خطيرة.

أما الأوربيون، فان مايقوم به بحارتهم اليوم من الأعمال المنافية للآداب، سيعتبرونها بعد عشرين عاما، من الامتيازات والحقوق المكتسبة، وإنهم يفكرون بما سيقولونه بعد عشرين عاما، كل هذه الأمور محسوبة ومقصودة.

عبدالرشيد: أنا لا أعرف أوربا جيدا، ولكن أفكار الروس مختلفة. خاصة وأن الحكومة الروسية مثلما ذكرت، تنظر الى الشرق بنفس تلك النظرة، أما أكثرية الشعب الروسي فلا يفكرون بمثل هذا السوء.

ساساكي: إنني أشاركك هذا الرأي فيما يخص عوامهم، لأن عوام الروس موغلون في الجهل. والجهل في صالحهم، ولا يضمرون السوء لأحد، أما الذين تعلموا في المدارس وفي إمكانهم القيام بشيء من التفكير فان أول ما يخططون له هو ايقاع الشر بأهل الشرق. ان شبابنا عاشوا في روسيا قبل الحرب بعامين، وتجولوا في أنحائها شبرا شبرا. إنهم لايفتأون يذكرون الوحشية التي يقوم بها الروس في تركستان.

وأني تجولت في أنحاء منغوليا، ومايرتكبه الروس من الظلم ضد المغول ليس بقليل، واذا أردت أن أنقل اليك مشاهداتي هناك فلن أجد صعوبة في نقل الصورة الحقيقية عن الروس. إن المغولي اليوم مضطر الى أن يتنكر مغوليته كي يسلم من بطشهم.

والبورات والياقوت والشامان لايعتبرون بشراً بنظر الروس، إنهم في مقام البهائم. وقبل الحرب الروسية اليابانية، كان الضباط الروس، يجربون سيوفهم بضرب رقاب الصينيين في منشوريا كي يعرفوا مدى قابليتها للقطع.

عبدالرشيد: من الطبيعي أن يفعلوا ذلك طالما أنهم يملكون القوة في أيديهم.

ساساكي: أنا لا أتعجب من وحشية هؤلاء مثل عجبي من ادعائهم الحضارة والتقدم، ومن خداعهم لدبلوماسيينا في إدعائهم هذا. ان فينا بعض المغفلين الذين يحسنون الظن بكل مايفعله الأوربيون ويرون بأنه

لايصدر منهم أي فعل قبيح. لكننا سنقطع دابر هؤلاء، وسنسعى لأن يفهم كل ياباني أي نوع من الناس هؤلاء الأوربيون. الواقع أنني كنت أريد أن أبحث معك في المسألة الشرقية، لأن اتحاد الشرق أمر يهمنا كثيرا. أردت أن أعرف رأيك في هذا الموضوع. والحقيقة أننا على معرفة بالأمر إلى حد ما، ومع ذلك فانك ستجعلني ممتنا ان فصلت في الموضوع وشرحت لي مايمكن أن يفعله الاسلام في الشرق.

عبدالرشيد: إن الأثر الذي يمكن أن يحدثه الإسلام في الشرق وفي الغرب على السواء هو توحيد الأمم.

إن أساس العقيدة الاسلامية هو التوحيد وترتب على هذا الأساس الوحدة بين الشعوب، فالاسلام آخى بين التتاري والعربي وسيؤاخي غدا بين الانجليزي والفرنسي إن أسلما.

وإذا أردت الصراحة فإن خوف الأوربيين نابع من هذه النقطة، لأنهم يخشون من أن يمنعهم الاسلام من ممارسة وحشيتهم. والا فان الاسلام ليس فيه مايناقض العقل والادراك. لم يعد لدينا متسع من الوقت، فما هي مواعيد القطار؟

-(نظر الى الساعة) لازال هناك متسع لرحلة القطار الأخير. والقطارات تنطلق بعد كل ربع ساعة، ولكن لم العجلة؟

- لي موعد في الصباح مع أوشيدا سان، سأذهب اليه، وأريد شيئا من الراحة فقد تعبت اليوم..

ودعته وعدت..

وفي صباح اليوم التالي، نهضت وتوجهت الى منزل أوشيدا في الموعد المحدد. فوجدت كافة الاخوان هناك، شربنا الشاي، وجرت أحاديث طويلة عن الاسلام، وأخيرا قال السيد أوشيدا:

- إن كافة الذين كانوا في معية الأمير ايتو وأسرته، موجودون هنا، نريد أن تكون في وسطنا في صورة جماعية، ونرجو منك أن تقبل هذا. فوافقت

على ذلك، وكان المصور حاضرا فأخذ لنا صورة أرسلوا لي في اليوم التالي نسخة منها وكتب خلفها عبارة: «والدنا، كلنا بعد اليوم من أهلك» وكنت في منزل أوشيدا سان عندما رن جرس الهاتف، فقام أحدهم ورد عليه، ثم قال لي: سيدي، يسألون عنك في الهاتف. قلت: اسأله من هو؟.. وتكلم مرة أخرى ثم قال لي: يدعونك لمحاضرة في مدرسة ميياتا للبنات في الساعة الثالثة بعد الظهر من هذا اليوم. وكان المتحدث هو ناكاياما، وقال بأنه سيلتقي بك في حديقة «هيبيا» في الساعة الثانية ليرافقك الى هناك.

وكان الوقت قريبا، وبعد قليل توجهت الى حديقة «هيبيا»ومن هناك ركبت الريكشة وذهبت برفقة ناكاياما الى المدرسة.

وجدت في المدرسة مئات من النساء وكان عدد الرجال قليلا.وسأنقل هنا خلاصة الكلمة التي ألقيتها:

ايتها السيدات! إن بناتكن اللواتي يدرسن اليوم في المدارس سيصرن امهات غدا. وسيكن مربيات ومعلمات أيضا. إن كل فرد في هذه البلاد سواء كان من عموم الناس أو أكابرهم قد تربى ونشأ على يد السيدات.

إن الذين عرفوا اليابان للعالم، وربوا الدهاة من أمثال الميكادو وغيره هم النساء. إن النساء اليابانيات ربين مفكرين وسياسيين مثل الأمير ايتو، والنساء اليابانيات ولدن أبطالا مثل المارشال ياماته وأويامه وتوغو وغيرهم.

إن أرباب الصنائع، وأصحاب العلوم والمعارف رفعوا من شأن اليابان والشعب الياباني، وخاضوا أحداثا تستحق أن تكتب في صفحات التاريخ بمداد من ذهب. فاليابانيون انتصروا انتصارا باهرا على الروس الذين أرعبوا العالم على مدى قرون طويلة، وإن الأبطال الذين خاضوا هذه الحرب، وانتصروا فيها تربوا على ايديكن، فلكن الحق في الفخر والاعتزاز بهؤلاء الأبطال. للنساء اليابانيات أن يفتخرن كما شئن بتربية مثل هؤلاء الأبناء.واذا كانت الأمة اليابانية اليوم تعتبر نموذجا يحتذى به العالم،

فإن النساء اللواتي أنجبن وربين مثل هذه الأمة جدير بهن أن يكن أساتذة نساء العالم كله.ولهذا فليس هناك حاجة لأن يقلدن غيرهن، بل لهن الحق كل الحق بأن يكن نموذجا تحتذي به نساء الدنيا. أما البعض من النساء اليابانيات اللواتي يغيرن أزياءهن بايحاء من المنصرين، فعليكن مقاطعتهن، ونبذهن. إن بذل كل جهد ممكن من أجل الحفاظ على العادات الوطنية، وتربية الأولاد هي المهمة المقدسة لكل نساء اليابان(واستمر القاء الكلمة قرابة الساعة)

وبينما كنت مستمرا في القاء الكلمة، لمع ضياء شديد مثل البرق فدهشت لأول وهلة، ولم أكن لأعرف بأنهم التقطوا لي صورة بالوميض «الفلاش» وذهب بي خيالي الى شيء آخر فانسحبت من منصة الخطابة، وسط الأصوات المطالبة بالاستمرار، والتصفيق، ولكني اكتفيت بما قلت. طبعا ليس بالقدر الذي نقلته الآن،بل مانقلته هو شيء مختصر من جريدة نشرت نص الكلمة بتمامها. ولقد قارنت في كلمتي بين اخلاق النساء اليابانيات وبين التعاليم الاسلامية والنقاط المشتركة بينهما ولقد علموني بأن نص الكلمة ورد في جريدة «ماي يتشي». ومن المدرسة عدنا مباشرة إلى منزل أخينا ناكاياما وبت تلك الليلة هناك. وفي الصباح الباكر جاءني موزع البريد برسالة. فتحتها، انها رسالة كتبها كونيجي مدير مدرسة الصم والعميان، يقول فيها:

الأستاذ المحترم، بعد الامتحان الذي شرفتم حضوره، تبين أن الذين أكملوا الدراسة واستحقوا شهادة التخرج هم على النحو التالي:

رسام، ٤ خياط، ٤ موسيقي، ١٥ ماساج، ٣ نجار، ٨ معلم، ١٨ معلم ابتدائي، ١٦ فنون جميلة، وهذا هو الامتحان السنوي العشرون.

وأقدم لك صورة تجمع بعض الطلاب والطالبات الذين أنهوا الدراسة هذا العام، وادارة المدرسة وهيئة التدريس.

صديقكم الذي ينتظر تشريفكم دائما، كونيشي

ومن جانبي فاني لا أنقطع عن التفكير، لأن اهتمام اليابانيين المتزايد بي تعزز من امالي كل ساعة وكل دقيقة. فكلما ألقيت كلمة وجدت الآلاف من المحبين والمعجبين، حتى الأولاد الصغار في الشوارع حفظوا اسمي وكانوا يهتفون: إبراهيم. والناس إن رأوني في القطار أو الحافلة قاموا من أماكنهم ليجلسوني، يرسلون الي الدعوات لالقاء محاضرة أو حضور اجتماع.. وكنت لا أرفض دعوة.، وفي بعض الأيام كنت ألقي أكثر من محاضرة.

«إن من البيان لسحرا» هذا أمر لاشك فيه. وللخطاب تأثير كبير جدا. خاصة اذا كان المتكلم يؤمن بكل مايقوله.

وفي رأيي إن التطور الذي تعيشه اليابان، كان للخطباء دور كبير في تحقيقه. وقد تعرضت في السابق لهذا الموضوع بشكل مبسط. وأعود فأقول إن في اليابان كثيراً من الخطباء والمتكلمين، وتجد في مدينة كبيرة مثل طوكيو عددا من المحاضرات في يوم واحد وفي أوقات مختلفة. أما في المدن الصغيرةوالقرى فهناك الكثير ممن يقضون أوقاتهم بالتجول فيها والقاء المحاضرات في أهلها. يوجد الآلاف من المتكلمين يتحدثون بلغة العوام ويلقون المواعظ في حض العمال والقرويين على العمل واتقان الحرف والصنعة، ومزاولة التجارة. وما أن يقرأ كبار القوم من أمثال الأمير ايتو والكونت أوكوما، خبراً عن اجتماع في صحيفة من الصحف حتى يبادروا الى حضور هذا الاجتماع والقاء كلمة فيه.

حضرت كثيرا من هذه الاجتماعات، واستمعت الى كثير من الخطباء. كما لم أتوان في القاء كلمات تلائم كل مناسبة. والقسم الأعظم من كلماتي هذه نشرت في الصحف كما قام البعض بجمعها وطبعها على شكل رسالة.. وأورد هنا مختصر مانشرته جريدة «هو تشي شيمبون»:

«هوتشي شيمبون ١٩ أبريل نيسان ١٩٠٩»

الخطاب الذي ألقاه عبد الرشيد أفندي يوم أمس في صالون قنده باشي:

أيها السادة! إنني تتاري قادم من روسيا، أكن منذ زمن طويل محبة للشعب الياباني، وهذه المحبة جرتني في اخر عمري من ضفاف نهر الفولغا حتى أوصلتني الى هنا قاطعا عشرة آلاف كيلومتر.

ولي الفخر الآن بأن أقدم نفسي لليابانيين الذين أحبهم (تصفيق) ان في الدنيا كثيرا من الأمور لايدركها عقل الانسان. لكن عدم ادراك عقولنا للشيء لايعني عدم وجوده. واليوم اطمأن قلبي لأني لمست أن اليابانيين أيضا يحبونني كما أحبهم. وهذا التكريم والتقدير الذي ألقاه من اليابانيين هما نتيجة طبيعية لتبادل المحبة بين الجانبين. لقد فكرت في هذا الأمر كثيرا ولا زلت أفكر. إن المحبة موجودة لايمكن لأحد أن ينكرها، وسأثبت وجودها بآثارها، ولكن أريد أن أقول: ماسبب هذه المحبة؟ هذا مالاتستطيع عقولنا أن تدركه.

قلت بأن اليابانيين أحبوني أو يحبونني ولكن الحقيقة هي أن اليابانيين يحبون كل قومنا التتار، وكل المسلمين. أرجوكم أن تنتبهوا الى هذه النقطة: فقبل الحرب اليابانية- الروسية، كان في الولايات الروسية عدد كبير من اليابانيين.، ومرض أحد اليابانيين المقيمين في مدينة «بيرمة»، ولما اشتد عليه المرض، وضعف أمله في الحياة قال لرفاقه: رجائي الأخير منكم، بأنه إذا حل الأجل ومت، أن تدفنوني في مقابر المسلمين.. هكذا أوصى. وأعتقد أن هذه الوصية كانت نتيجة المحبة التي لاتدركها عقولنا.

وهناك حدث آخر، ففي أيام الحرب وقع كثير من اليابانيين في أسرى لدى الروس، ونقلوا بالقطار الى روسيا الداخلية. وتوقف القطار يوماً في محطة أومسكي وجاء طلاب المدرسة الاعدادية الروسية الى المحطة لمشاهدة الأسرى، وقام المئات من الطلبة الروس باكرام الأسرى، وكان من بين هؤلاء الطلاب مسلم واحد، فقام الأسرى اليابانيون بتكريم هذا الطالب، وأعطوه نقودا يابانية، وبعضهم احتضنه وقبله، في حين كان جميع الطلاب في زي رسمي واحد، وليس فيه مايميزه عن الطلاب الروس. ومع ذلك فان اليابانيين أظهرو المحبة والمودة لهذا الطالب.

ثم أن الجنود التتار الذين أسروا مع الجنود الروس، عوملوا معاملة طيبة في فترة أسرهم في اليابان. إنني أعرف أمورا أخرى كثيرة كلها تدل على حب اليابانيين للمسلمين. وكما قلت لكم آنفا إن هذا الحب متبادل وليس من جانب واحد، فمع بداية الحرب الروسية- اليابانية دعا مسلموا العالم جميعهم ومن صميم قلوبهم بالنصر لليابانيين. وفي بداية الحرب وبعد الهجوم على بورت أرتور، صار قومنا التتار ينظمون الأشعار والأغاني تمجيدا لهذه المعركة، وأبدوا فرحتهم لهزيمة الروس؛ وقد سمعت بأنه اذا تناحر ولدان وتغلب أحدهما على الآخر فان الغالب يسمونه بالياباني، وذلك في مجال المديح.

إن أقدس الأماكن المعروفة لدى المسلمين هي مكة المكرمة، وأحسن مكان لقبول الدعاء عرفات، وقد دعا المسلمون هناك لليابانيين بالنصر.

وأكتفي بهذا القدر في بيان الحب المتبادل بين اليابانيين والمسلمين، وأكرر فأقول: ما السبب في هذه المحبة ياترى؟ هذا مالايستطيع عقلي ادراكه، وأظن بأن أي عقل آخر لايستطيع ادراكه.بل لو نظرنا الى ظاهر الحال لاقتضى أن يعادينا اليابانيون، لأن التتار الذين يعيشون في روسيا حاربوا اليابانيين الى جانب الروس، وان كانت من غير رغبة منهم. في حين نرى بأن اليابانيين يكنون لنا مثل هذا الحب الذي لايمكن لأحد انكاره، ولايستطيع أحد أن يقول شيئا اذا سئل عن أسبابه.

وكما أننا نرى ونشاهد ماتحتار به عقولنا، فكذلك يظهر معنى قولنا بأن الله واجب الوجود وهو المؤثر الحقيقي حسب التعاليم الاسلامية التي نؤمن بها. إننا لو عدنا إلي النظرة الطبيعة، لرأينا أن اليابانيين لايجدون فرقا ماديا بين الاسلام والنصرانية. كما لايمكن أن يكون هناك فرق طبيعي بين اليابانيين والصينيين حيال المسلمين، إلا أنه عندما تكالبت الدول الأوربية جميعها على الصين وخربت بيوت الصينيين، حزنا عليهم باسم الانسانية، ولكن نلاحظ أحاسيس ومشاعر عفوية عند المسلمين تؤيدهم ضد الأوربيين. أما في الحرب اليابانية - الروسية فقد اختلف الأمر، اذ

كانت أحاسيس العرب والترك وسائر المسلمين الى جانب اليابانيين. كما أن انتصار اليابانيين في هذه الحرب أحدث ابتهاجا كبيرا بين المسلمين. فكثير من الأتراك سموا مواليدهم بعد هذه الحرب بأسماء مشاهير الأبطال اليابانيين: عندنا مسلمون بأسماء توغو وأوياما وياماتا. إن المؤثر في كل ذلك هو الله تعالى خالق الكون. هذا مانؤمن به نحن المسلمين وليس للمسلمين آلهة يصنعونها بأيديهم من الخشب أو المعدن أو غيره، ولايمكن أن تكون. ومهما كان نوع الكلام الذي أقوله لكم أيها الاخوة، فإنني اخاطبكم بالحب الصادق الذي لاأستطيع تحديد سببه أو منشأه وأقول:

في رأيي، إن حياة اليابانيين هي حياة كافة أهل المشرق، وتطور اليابانيين ورقيهم هو مايتمناه عالم الشرق بأكمله، وكل شرقي يرى حياته في حياة اليابانيين. والمسلمون على وجه الخصوص يعتقدون ذلك. ولهذا السبب فانني بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن عموم المسلمين، أتمنى وأريد أن يصل اليابانيون في الرقي والتطور الى مالم يصل اليه الأوربيون (تصفيق حاد).

والآن أعرض على حضراتكم بعض انطباعاتي وخواطري خلال الفترة القصيرة التي عشتها بينكم. كيف أمكن لهؤلاء اليابانيين الذين أراهم أمامي، وهم ضعاف الأجسام، أن ينتصروا على الروس وهم يتفوقون عليهم في القوة والامكانات أضعافا مضاعفة، وليسوا أدنى مستوى منهم في العلم والمعرفة؟ أقول ذلك وأعجب ويعجب معي العالم كله. هذه الحرب التي أدهشت الدنيا ولم تعرف أسرارها حتى الآن ولم يشهد التاريخ لها مثيلا إذ لم يحدث في التاريخ أن كان المحاربون يواصلون الهجوم على مدى عام ونصف دون أدنى تفكير بالرجوع خطوة واحدة الى الوراء. ولاشك بأنه قد تكون هناك أسباب أخرى غير التي نعرفها ونراها، إنني خلال بضعة شهور عرفت:

أن الشيء الأساسي الذي جعل اليابانيين ينتصرون في هذه الحرب، ليس العلم والمعرفة فحسب، بل المشاعر القومية والجهود المادية معا، ولاشك بأن ماذكرت هي من أعظم الوسائل، فالأسلحة تنتهي ولكن تلك المشاعر لاتنضب. فاقدام الأبطال في تلك الحروب هو بفضل هذه الأحاسيس. «تصفيق حاد وطويل». تذكرت هنا شيئا، أريد أن أقوله لكم: (أصوات تابع)

يوجد في شرقنا بعض من المعجبين بأوربا، وفي كل أمة تجد مثلهم. إن كثيراً من الناس مفتونون بشهرة نابليون ويروجون لبعض ماقاله من كلام لامعنى له، وكأنه من القواعد الكلية مثل: الحرب تحتاج لثلاثة أشياء: المال، ثم المال، ثم المال. وفي رأيي إنه كلام لامعنى له، كما أنه أعطي مكانة لايستحقها. لقد أثبتت حرب الفرنسيين مع المانيا سخف هذا القول. لقد خسروا الحرب ثم اشتروا بلادهم بالمليارات.

إن وصول أقوال نابليون إلى كل هذه الشهرة لايدل على عظمة الرجل أكثر مما يدل على أن من طبيعة الناس أن يكونوا أسرى رغباتهم في الشهرة.

لقد بلغ الكاتب الروسي غراف تولستوي من الشهرة اليوم بحيث يعتبر هؤلاء كل ماكتبه هو فلسفة، دون أن يعرفوا معانيها.

أنا لا أنكر كل ماكتبه تولستوي. إن هناك بعض المؤلفات تتضمن أفكارا جميلة وفلسفات راقية، كما أن له مؤلفات كثيرة كتبها لمجرد الشهرة وكسب المال، إلا أن الرأي العام اعتبر كل هذه المؤلفات من قبيل الذهب الخالص، لمجرد أنها من مؤلفات تولستوي.

أنا لا أقول لكم اتركوا كلام المشاهير جانبا، وأن كل ماقالوه ليس له أي قيمة.. لا، ان في أقوال مشاهير الرجال معان عظيمة وتنبؤات تحققت فيما بعد.

فبسمارك الذي يعتبر من أشهر الرجال ومن أكبر المفكرين الأوربيين، قال قبل ٢٢ عاما في احد المحافل السياسية:ستكون مقبرة الروس في الشرق الأقصى، ومقبرة الانجليز في أفريقيا.

وما كان أحد يدرك معنى هذا الكلام في حينه، ولكن جاء وقت تحققت فيه نبوءته (تصفيق).

ونتمنى أن يأتي قريبا اليوم الذي يتحقق فيه معنى الشطر الآخر من كلامه (تصفيق).

وإني أريد من قولي هذا أن أصل إلى النتيجة التالية: إن أقوال بعض المشاهير من الرجال تكون ذات قيمة أحيانا وتكون من دون معنى أحيانا أخرى، وعلينا ألا ننخدع بشهرة الأوربيين على وجه الخصوص، وألا ننجر وراء ألاعيبهم، وأنصح اليابانيين بشكل خاص اذا أرادوا الحفاظ على مكانتهم تجاه أطماع الأوربيين، أن يحافظوا على عاداتهم القومية وأخلاقهم الوطنية.

والأتراك العثمانيون كانوا أبطالا تعرفهم كل شعوب الدنيا. كانوا رجلا، خرجوا من وسط آسيا، وأسسوا دولة عظمى في وسط أوربا، وظلوا يحاربون الدول الأوربية ستمائة عام. وفي الأعوام المائتين الأخيرة فقط حاربوا الروس ست مرات، ووصلوا الى عاصمة النمسا.

ثم لما زاد اختلاط الأتراك بالأوربيين، وقبلوا الطرق الدبلوماسية، تفرنجت طبائعهم وانطفأت حميتهم القومية ففقدوا الطبع البطولي. انخدعوا بشهرة الفرنجة وغرهم التقليد الأوربي فلم يتمكنوا من المحافظة على عاداتهم وأعرافهم القومية. واليوم قررالأوربيون تجزئة البلاد التركية، وقد بدأوا بتقسيمها شيئا فشيئا.

يقول البطل العالمي تيمور: إن الحرب تحتاج الى عشرة عناصر، أحدها الجيش، والتسعة الباقية هي الحمية القومية والغيرة الوطنية. هذه هي فلسفة الشرق، وهذا هو كلام البطل الشرقي. لقد اثبت الجيش الياباني صدق هذا القول في حربه مع روسيا، وعلى الأخص في بورت أرثور. فعندما قام

الجنود اليابانيون بالهجوم على توغوشان في أواخر شهر تموز (يوليو) وقعوا في فخ فقدوا فيه أكثر من اثني عشر ألف رجلا خلال دقائق ولكنهم استمروا في الهجوم ولم يتراجعوا خطوة واحدة. كان ذلك بفضل الحمية القومية والغيرة الوطنية.

كما أن الأمة كانت من ورائهم تمدهم بالدعم المعنوي في ميادين القتال، لأن الحكومة اليابانية بتدابيرها الحكيمة، استطاعت أن توصل رسائل الوالدين والأقربين الى الجندي في مواقع القتال يومياً تقريبا، بالاضافة الى النقود والملابس. ويقوم البريد الرسمي بنقل هذه الرسائل وغيرها مجانا. كل هذا ساهم في رفع معنويات الجنود. والذي أريد أن أقوله هو أن اليابانيين اذا أرادوا البقاء عليهم أن يحافظوا على أخلاقهم الوطنية. ان الهدف الأول للأوربيين هو افساد أخلاق الأمم الأخرى. أما مهمة المنصرين، فهي بث الفتنة والفرقة، وليست الدعوة الى الدين. ولن تكون البلاد في أمان من الفتنة والفرقة مادام فيها هؤلاء المنصرون.

واليوم فان الاضرابات التي يقوم بها الصينيون في كانتون، والصراعات الناشبة في جزيرة براتاس كلها يعود إلى تأثير المنصرين.

ومهما قلت فان الكلام لاينتهي، لذلك تركت منبر الخطابة كي لايشعر أحد بالملل. وأعقبني أستاذ جامعي اسمه ميباكي MIYAKI. ولا يخلو نقل ما قاله هذا الرجل من فائدة حيث قال: إنني أؤيد تماما ماقاله ضيفنا الكبير عبد الرشيد ابراهيم، كما إنني أقول: بأنه ليس هناك شك بأن بعض الشباب اليابانيين «هايقارة» يفضلون التربية الأوربية. لقد جرهم الغلو والطيش الى الانخداع بالمظاهر الأوربية. إلا أن مهمتنا الآن هي دعوة هؤلاء باسم الانسانية إلى العودة إلى عاداتنا الوطنية. فمهما قلدنا الأوربيين فلن نكون أوربيين، وان غيرنا ملابسنا وعاداتنا فلن نستطيع تغيير ملامحنا. وسينظر الأوربيون الى ملامحنا ويقولون عنا بأننا وحوش شرقيون (تصفيق).

لسنا بحاجة الى الأوربيين أبدا، ولو كنا أدنى منهم خلقة لقلنا علينا أن نقلدهم كي نتطور ونتقدم. لكننا أرقى منهم أضعافا مضاعفة. إن ماتزود به الأوربيون من معارف وعلوم خلال مائتي عام، تزودنا به خلال خمسة وثلاثين عاما. أي أننا لو عملنا خمسة وثلاثين عاما اخر لسبقناهم بمائتي عام (تصفيق)

بالأمس تكلم الأستاذ عبد الرشيد ابراهيم في احدى المحاضرات كلاما طيبا. وفي الحقيقة: ان طبيعة الغربيين هي الغروب، وطبيعة نيبون ومهمتها الرقي. وانتهت كلمته فصفق له الحاضرون طويلا.

وقد نشرت إدارة جريدة هوتشي شيمبون نص الخطاب الذي ألقيته على شكل رسالة.

وفي هذا اليوم وبينما كنت خارجا من حديقة هيبيا في اتجاه الشارع الكبير، رأيت سيارة قادمة نحوي، فتوقفت فجأة، وقال من بداخل السيارة:- إبراهيم مالذي جرى، لم أرك منذ وقت طويل.

التفت إليه فاذا به الكونت أوكوما. اقتربت منه، فقال:- الى أين أنت ذاهب؟

- الى محطة شيناكاوه.

- لم تمل من التجوال.

- لماذا جئت، أليس للتجول؟

- اركب معي كي أوصلك الى المحطة، وقال مازحا:تدفع لنا بعض النقود..

- ان ركبت السيارة فأنا الخاسر، أما اذا ذهبت ماشيا فانني أصادف عشرين رجلا على أقل تقدير، فلو تكلمت مع كل واحد ثلاث كلمات لكانت ستين كلمة. فاذا تعهدت بأن تقول ستين كلمة في الطريق الى المحطة فسأركب. وركبت السيارة، وفي الطريق أخبرني بأمور كثيرة جدا. ومما قال:

- كلما رأيتك، تذكرت الشيخ التتاري الذي قدم الى اليابان قبل ثمانمائة عام. هؤلاء التتار كانوا في ذلك الوقت أنشط، وأكثر جهدا، رحلة من تركستان الى اليابان عن طريق كاشاتكا، من دون باخرة أو قطار، الا تثير رحلته العجب؟

- أحقا ذلك، من أين عرفت عن قدوم مثل هذا الرجل؟

- لقد نحت تاريخه على حجر قرب مدينة سينداي. اليابانيون يعرفونه جيدا. جاء شيخ ولكن اليابانيين ظنوه جاسوسا.

وفي هذه اللحظة وصلنا الى المحطة. وتفرقنا. الكونت أوكوما رجل عظيم. نشرت في الصفحات السابقة رسائله، وفي هذه الصفحة أقدم صورته للقراء الكرام.

كان كل همي أن أجعل اليابانيين يتجنبون المنصرين، وأن أظهر محاسن الاسلام لهم، لذلك فانني اتحدث في هذا الموضوع لكل من أصادفه، وذات يوم تبسم لي رجل في محطة الحافلات الكهربائية(الترام).

سألته :- الى أين ذاهب؟

- الى يوكوهاما.

- شيء جميل، وأنا سأسافر الى هناك. وصعدنا معا الى العربة، وسنبقى معا مدة السفر الذي يستغرق نصف ساعة. لم أكن أعرف شخصية هذا الرجل، ولكن يبدو عليه بأنه يعرفني. ومع ذلك فأنا قرأت له معنى الحديث النبي الشريف:" سترون تقارب البلدان". وبعد ترجمته له قلت، بأننا سنصل الى يوكوهاما خلال نصف ساعة، فقد تقربت البلدان من بعضها كثيرا، والصادق الصدوق عليه السلام أخبرنا بهذا الخبر قبل ألف وثلاثمائة عام.

- ان الاخبار عن المستقبل أمر سهل، فان تحقق فأمر طيب، وان لم يتحقق، فلن يخسر شيئا.

فعرفت أن هذا الرجل نصراني.

- انني اتحدث عن شيء قد تحقق. ان كل من يملك قدرا من الانصاف لايمكنه أن ينكر بأنه ليس بوسع كل انسان أن يتنبأ بشيء يتحقق فيما بعد بمثل هذه الصورة.

- كل انسان يرى نفسه منصفا.

- لولم يكن للانصاف حدود معينة لأمكن لكل انسان أن يكتفي بظنه هو. لذلك قيل «ان بعض الظن اثم» ويتمثل ذلك في الذين يمشون وراء الأوهام والتخيلات، فينكرون الحقيقة.

- والحقيقة هي نفسها مشكوك فيها.

- هذا أمر لاغبار عليه بالنسبة لأصحاب الأفكار الفاسدة، ولكن العبرة للعقل السليم، أما اذا كان العجز في التمييز بين الواحد والثلاثة، فلا يكون هناك أي اعتبار للفرق بين الحقيقة والظن.

وهنا وصل القطار الى شيناكاوا. فافترقنا.

وتوجهت من المحطة الى يوكوهاما سيرا على الأقدام، ونزلت ضيفا في منزل السيد ولي أفندي تراب علي زاده. الذي دعا أصحابه الى المنزل، وبحثنا الاقتراح الخاص بانشاء مسجد في طوكيو.

وفي البداية عرضت عليهم الأمر التالي:

- في الفترة التي أقمت بها في اليابان اتصلت بكثير من الناس، انني أرى استعدادا عند اليابانيين لاعتناق الاسلام، فهل عندكم ملاحظات على ماقلت؟

- عبدالغفور أفندي: أعرف في طوكيو رجلا، أتعامل معه منذ ثلاث سنوات، وكلما قابلته يطلب مني أن أحدثه شيئا عن الاسلام، وأنا جاهل لا أستطيع أن أقول له شيئا، وإن ذلك الرجل غني جدا وأتوقع أن يكون حبه للاسلام قويا جدا، لأنه يتكلم برغبة ذاتية، لا بدافع من الآخرين.

تراب علي زاده: الخادم عندي يفعل كما أفعل، حتى أنه يصطحب الابريق الى الخلاء. وأصوم في رمضان فيصوم معي.

قلت: اذا وجدت الأرض في طوكيو، وبنينا عليها مسجداً فهل نجد أناسا يرغبون في الاسلام؟ وهل نجد المال لبناء المسجد؟ هل لك أن تبين لي رأيك في هذا الموضوع؟

تراب علي زاده:- الكلام الآن في موضوع المال غير ضروري، وأعتقد بأن هناك من يرغب في الاسلام، ولكن من أين نجد الأرض؟ فاسعار الأراضي في طوكيو مرتفعة جدا، ثم أنه من المتعذر ايجاد أرض في وسط المدينة.

قمر الدين زاده:يلزمنا الكثير من المال لبناء مسجد في طوكيو، واذا كان لابد منه فيجب أن يكون البناء فخما. وفي رأيي ان مسألة المال مسألة مهمة وكبيرة.

- قابلت عددا من الشخصيات، وأبدوا استعدادا لتقديم الأرض، وإنهم أخبروني بأن الأرض جاهزة ان تعهدنا نحن ببناء المسجد.

عبد الغفور:- سنجد المال، حتى وان لم يكن مبلغا كبيرا فسنجد مانبني به مسجدا مناسبا.

تراب علي زاده: أظن أنه يمكن تأمين المال، أما الأرض فلا، ولكن يجب أن يكون المسجد في مدينة مثل طوكيو متناسبا مع مكانة الاسلام ولاينبغي التعجل في الأمر، يجب ان نتأنى ونجري اتصالاتنا مع كل الجهات.

- يحضرني شيء آخر: ان الداخلين دين الاسلام هنا يعتبرون في حكم العدم، ولدينا متسع من الوقت. لابد أن ندرس الأمر بصورة مستفيضة، ولكن تذكرت أمرا آخر. نستغل الفرصة ونخطط للمستقبل. ان انشاء مسجد وغيره يتطلب استئذان مقام الخلافة وباب المشيخة الاسلامية، فما رأيكم ان نحن التزمنا بأن يكون الجانب الروحي مربوطا هناك؟

تراب علي زادة- طبعا طبعا، ينبغي علينا أن نفكر بهذا قبل أي شيء آخر. لأن انتشار الاسلام في هذه الديار قد تنتج عنه منافع سياسية الى جانب المنافع الروحية، ويجب أن نقدم المنافع السياسية على غيرها، وهذا مما يساعد على نشر الاسلام بصورة أسرع. كن على يقين بأن اليابانيين

لايقتنعون بالناحية المعنوية كثيرا، أما إذا وجدوا أن هناك منافع سياسية فسيرمون بأنفسهم علينا، وعلينا أن لاننسى مصالحنا السياسية. ثم يجب أن نأخذ في اعتبارنا من الآن أن نختار أناسا يملكون معلومات سياسية مناسبة، ويقومون بالمهمة بأمانة واخلاص. واذا جاء رجال مثلنا فالأفضل ألا يكونوا. وبعد هذا النقاش البسيط، احسست بأن هؤلاء الرجال في إمكانهم أن يقدموا المعونات المادية لبناء المسجد. ولذلك كان من الضروري جمع بعض المعلومات عن هؤلاء الناس، فبدأت أراقبهم كي أعرف أحوالهم.

عبد الغفور وقمر الدين زاده رجلان مسلمان طيبان، وهما ليسا من التجار أصلا بل وكلاء لغيرهم، وأصحاب المال رجلان من كبار أغنياء بومباي ويملكان الملايين وهما الأخوان عيسى بهائي.

وأما حاجي ولي أفندي تراب علي زاده، فيجيد اللغة العربية، ويعرف اللغتين الانجليزية واليابانية، تجول في أنحاء كثيرة من البلاد العربية، وصل الى صنعاء ومكة، تجول في كافة أنحاء أفريقيا، كما تجول في جزر جاوا والمناطق الداخلية من الصين، وفتح فروعا لنشاطه التجاري، قام بكثير من الرحلات بهدف توسيع تجارته، وآراؤه تنحصر في السياحة والتجارة، وهو لايزال شابا في الخامسة والثلاثين من عمره. وأعرض على القراء الكرام صورة هذا الشاب.

ومن يوكوهاما عدت الى طوكيو. أخبرني اخي ناكاياما قائلاً:- لقد دعاك أوهارا لزيارته في الساعة الثانية، وعلينا أن نتوجه في الساعة الواحدة الى إحدى الحدائق، حيث مكان الدعوة.

دعوة أوهارا

في الصفحات الماضية قدمت للقراء الكرام بعض المعلومات المتعلقة بهذا الرجل، ولذلك لا أجد حاجة للتعريف به مرة أخرى، وسأكتفي بنقل ماجرى من أحاديث بين المدعوين.

في تمام الساعة الثانية وصلنا الى حديقة بجوار أكاساكا، والمكان أشبه بمقر منظمة داخل مدينة كبيرة، كنت أعرف من الحاضرين أوهارا وناكانو، وثلاثة آخرين لاأعرفهم والمجموع خمسة بالاضافة لشخصي وناكاياما، فالاجتماع فيه سبعة أشخاص.وبعد استراحة قليلة قدم الأخ أوهارا السادة الحاضرين:

هذا الرجل هو من أعظم الرجال اليابانيين الذين قدموا التضحيات.(من غير العادة أن يثنى على الرجل في مجلس يحضره ولكني مضطر لتعريفه تعريفا صادقا، لذلك يجب علي أن أتحدث عنه ببعض ما أعرف).فان قيل توياماسان، فلا تجد يابانيا لايعرفه، وإن وجد فقد يكون من أجهل الناس. كان توياماسان من أكبر أصحاب رؤوس الأموال في بلادنا قبل الحرب الروسية اليابانية وكان يملك مناجم للفحم. ولما وقعت الحرب باعها كلها، وضحى بأكثر من مليون ونصف مليون ين في سبيل خدمته لهذا الوطن، واليوم إنه يعتبر من أفقر العوائل في البلاد، وأظن أننا نكتفي بهذا التعريف.

وهذا كاوه نو، من أعضاء شيوغي ئن «البرلمان». وقد انتخب مرة لرئاسة البرلمان و لكنه كان معارضا للحكومة، فتقرر حل البرلمان بعد خمسة وعشرين يوما، ثم أجريت انتخابات أخرى واشترطت الحكومة أن يرشح نفسه للعضوية فقط ان أراد، ومنعته من الترشيح لرئاسة المجلس.

وهذا اينوكاي INUKAI، وزير الداخلية السابق وكذلك شغل منصب وزير المعارف، والآن هو عضو في البرلمان. وأكتفي بهذا القدر من التعريف، وستعرفهم أكثر بنفسك فيما بعد.

ثم عرفهم بي: عبد الرشيد ابراهيم من العلماء التتار المسلمين، انه استاذناوسيكون مؤسس الاسلام في اليابان (وقام الجميع احتراما وتعظيما) كانت جلسة طيبة، ودارات أحاديث وديه ومسلية وتعمق التعارف، وشربنا الشاي وأكلنا. وبعد الطعام اقتربنا من بعضنا البعض وشكلنا حلقة صغيرة.

أوهارا: نحن الآن خمسة أشخاص، سنعاهدك على نشر أفكارك، وعلى العمل من أجل نشر الاسلام في اليابان بأموالنا وأنفسنا وبكل مانملك، وعلى قدر استطاعتنا فتفضل بالقبول حتى نكون اخوانا لك من اليوم، وقل لنا كل الشروط والتكاليف كي نقبلها، واذا اقتضى الأمر نكتب ونوقع. نحن رهن اشارتك من أجل تأمين الأرض لبناء المسجد، وسنعمل على تهيئة اسبابه. قل لنا بم تفكر بكل صراحة.

- لا أستطيع أن أتكلم في الوقت الحاضر طويلا. ومع ذلك فان كل ماسأقوله سيكون صريحا بدون أدنى شك، لأنني أعرف بأنكم من أكبر رجالات الشرق ومن أرقى أممها.

انني لا أقصر أبدا في تعليمكم أساس الاسلام وأركانه، ولكن هناك الجانب الرسمي، وهو أن يكون الأمر مربوطا بمقام الخلافة العظمى.ولتحقيق ذلك يجب الاتصال بباب المشيخة في اسطنبول للحصول على الاذن الرسمي. اني اريد الآن شرح هذه الأمور بتمامها. فليس في ديننا الاسلامي سر خفي. فكل عبد اذا أقر وصدق بوجود خالق وقادر مطلق يستحق العبادة، فهو مسلم، وتترتب عليه التكاليف الشرعية. ولكن هناك جهة رسمية. فمثلا نحن نريد بناء مسجد، ونريد تعيين الدعاة الروحيين ليقوموا ببعض الواجبات الدينية، واصدار الوثائق والأوامر اللازمة لذلك، كل هذه الأمور تتطلب الارتباط بمقام المشيخة. إن أساس اسلامنا ربط العالم الانساني برباط الأخوة، والشريعة الغراء هي حبلها ومقام الخلافة هو العمود الضخم الذي تتجمع فيه أطراف تلك الحبال. وللحفاظ على الأخوة ينبغي الدوران حول تلك الشجرة التي مدت جذورها في كافة أنحاء المعمورة. وكل المسلمين في أنحاء الكرة الأرضية وان كانوا من رعايا بلد أجنبي فهم مرتبطون بمركز تلك الخلافة.

ولهذه الأسباب، طلبت بالأمس من أخينا أوهارا التريث والتأني قليلا. ومع ذلك فاننا لابأس أن نؤسس فيما بيننا جمعية، ونتعاهد على الأخوة، ونقوم مبدئيا ببعض المساعي. وتقومون أنتم باعداد الأرض التي سننشىء

المسجد عليها، وأنا أجري الاتصالات والمراسلات مع بعض الشخصيات في مقام الخلافة العظمى. كما نعلم بعضنا البعض أركان الدين الاسلامي. وهذه كلها واجبات، اذا قام كل واحد منا بها بقدر طاقته، فمن المؤكد بأن الوصول الى النتيجة والهدف سيكون سهلا.

كاوا نوKAWANO: أؤيدك في هذا الرأي تماما. ومما لاشك فيه بأن أهم المسائل في هذه الدنيا هي مسألة الحياة، والحياة لاتكون دون تصادم، هذا ناموس طبيعي. حتى أن القطرة التي تنزل في الرحم تحتوي على مئات الآلأف من البذرات (الحويمنات) وبعد التصادم بين هذه الحويمنات تكون الحياة لمن غلب، والبذرة الغالبة تعيش وتتطور، وتصير جنينا. كلها قوانين طبيعية.

والمسألة التي نفكر فيها الآن هي مسألة الحياة، والانسان بمفرده لايستطيع تحمل كثير من المعوقات، فعلينا التحرك، واذا تعين علينا أن ننزل الى الميدان، فسأقول لك: نحن جاهزون، اننا روح واحدة في خمسة أجسام، الرأس فينا أخونا أوهارا، والقلب توياما، فما يقوله أوهارا فهو ملزم لنا جميعا وتوياما والدنا يصادق على مانقوله.

توياما:- طبعا طبعا! هو كذلك.

اينوكان:- إنني أكن لك احتراما كبيرا، إن أفكارنا متطابقة، وفي نشاطاتنا يعتبر أوهارا وكيلنا الدائم. واذا كانت مسألة الأرض بالنسبة لبناء المسجد مهمة وهي كذلك، فتأمينها له نفس الأهمية. كن مطمئنا، واعمل على تهيئة الأسباب الأخرى.

إننا الآن نوكل أخانا أوهارا أمامك. وكما قلنا، فان مايقوله يلزمنا جميعا. واذا اقتضى ان نجتمع فسيبلغنا هو بذلك، وسنحضر فورا. والآن لنا بعض الارتباطات فنرجو أن تأذن لنا...

وقام توياما وكاوانو واينه كوي مودعين وانصرفوا، وبقينا أنا وأوهارا وناكانو بعض الوقت، وشربنا الشاي، وبحثنا بعض المسائل الهامة فيما يتعلق بالقضية الشرقية.

هناك بعض الأمور لايمكن شرحها، ولا شك أن مثل هؤلاء الرجال يقدسون الفلسفة السياسية للدين الاسلامي.

قال أوهارا:- باذن الله ستسميني أبا بكر، وسأسر أكثر ان أضفت الى اسمي محمدا ﷺ.

- لقد سبق أن قلت لك مرارا بأن الأسماء عندنا لاأهمية لها، ان أبقيت اسمك كما هو فجائز، فلا حاجة للتغيير ان لم يكن فيه معنى سيئا. ومع ذلك فيمكن التغيير بعد الحصول على اذن رسمي.

- في هذه الحالة ياأستاذ سأطلب منك شيئا:

تذهب هذا العام إلى مكة بشرط أن نتحمل كافة المصاريف، وتبلغ سلامنا الى عموم أهل الاسلام هناك، ثم تعرج الى مقام الخلافة لاجراء كافة المعاملات الرسمية اللازمة، ثم تعود بها جميعا الى طوكيو، فنباشر عملنا فورا.

- نعم، كل هذا ممكن باذن الله،، ولكن أظن بأن تحقيق ذلك يتطلب وجود علاقة رسمية بين تركيا والحكومة اليابانية. لا أستطيع أن أجزم بشيء في ذلك ولكني أرى ضرورة وجود رابطة سياسية. فلو تبادلت الدولتان السفراء، لأمكننا حل هذه الأمور عن طريقهم. ولسهلت مهمتنا كثيرا.

ولا أعرف كيف تكون مثل هذه الأمور، فما هو رأيكم؟ أريد الحصول على بعض المعلومات بهذا الشأن دبلوماسيا، ولكن أقول هذا من قبيل التشاور.

- اننا سنسعى لتحقيق كل مايخص حكومتنا على الوجه المطلوب. فما هو موقف الحكومة التركية؟ ستعرف ذلك بعد وصولك الى اسطنبول.

لقد اتضح مما تقول، بأن كل شيء سيتوقف على سفرك الى اسطنبول وعودتك منها. لذلك فلا تتوقف أبدا، فاذا سافرت في أقرب وقت، وعدت في الربيع، بدأنا في العمل الجاد.

- نعم وأنا أرى ذلك: ان وجود رابطة سياسية بين الحكومتين أمر مهم جدا، اذ ستسهل كثيرا من الأمور ونتمنى أن تتحقق هذه الرابطة لتفتح

الطريق أمام انتشار الاسلام في اليابان، وبذلك يمكننا الاتصال بمقام المشيخة عن طريق السفير كلما تطلب الأمر، ويتحقق مانريده خلال أربع وعشرين ساعة، أما الآن فاننا نحتاج الى وقت طويل، لابد من مراعاة عامل الوقت.

- أستاذي المحترم، انني أجد في كلامك الكثير من الحكم، لقد جمعت ماقلته في محاضراتك، وسأنشرها في شكل رسالة خاصة، وهي مجموعة بهذا الشكل.. وأخرج من جيبه دفترا، فوجدت فيه قصاصات من الصحف رتبها ترتيبا جيدا على شكل كتاب.

وأعرض هنا للقراء الكرام صورة للأخ أوهارا:

استمرت الجلسة مع الأخوين أوهارا وناكانو عدة ساعات. تحدثنا فيه الكثير من الكلام الصادق والجاد.

في الجبال، الجبل المقدس

كنت أقضي كثيرا من أوقاتا كثيرة بين الجبال، اتنقل فيها وحدي، حيث المياه الجارية، فأتوضأ منها، وأؤذن للصلاة وأشكر الله سبحانه وتعالى أن منَّ عليّ بنعمة الوصول الى هذه الجبال التي لم تسجد له فيها جبهة. ويوجد جبل مقدس عند اليابانيين اسمه «فوجي ياما FUJI YAMA». وهو أعلى جبل في اليابان، وفي أشد أيام السنة حرارة، تجد على قمته الثلوج. والخضرة التي تكسوه مثل الزمرد. ويعتقد اليابانيون بأن هذا الجبل من أكثر الجبال ارتفاعا في العالم. ويرون أن الهملايا أعلى الجبال في الظاهر إلا أن فوجي ياما أعلى الجبال في المعنى.

وتوجد جبال عديدة في اليابان بعضها لا يمكن الاقتراب منه حيث تلقي الحمم بصورة مستمرة، على أطرافها وحتى مسافات بعيدة عنها. وإن أحد الجبال يصدر صوتا يشبه صوت القطار من بعيد، وفي بعض الأحيان يشتد الصوت عدة أسابيع ويتعذر الاقتراب منه.

وهناك أربعة شلالات تتدفق منها المياه، انها نماذج من القدرة الالهية، انها عجيبة حقا، خاصة ذلك الشلال الذي يسمونه نيككو NIKKO فهو أعجبها ويحار الانسان كلما نظر اليها.

والحقيقة أن مثل هذه المناظر فوق الوصف وانها تستحق أن يراها الانسان بنفسه. ومهما حاولنا تصويرها بالكلام فلن نقدر على ذلك.

لقد رأيت أكثرها، وأعدت النظر إليها مرات ومرات، ولساني وقلمي عاجزان عن الوصف، وكلما نظرت اليها أتذكر جملة «العجز عن درك الادراك ادراك».

الغيشا عند اليابانيين GEISHA

الشاعرات والراقصات في اليابان كثيرات. يعرفن بالغيشا او الكيشا، أي الشاعرات. وقديما كان من بين هذه النسوة أديبات شهيرات حقا. وكنا يتواجدن في المقاهي والمنتديات، وكذلك في البيوت والأسر.أما اليوم فقد انتشر الفساد بينهن لكثرة الاختلاط بالأوربيين، فلم يعد لهن أي اعتبار في الأوساط الراقية في البلاد.

والواقع ليس عند اليابانيين مايمكن أن نسميه رقصا. والرقص عندهم عبارة عن بعض الاشارات التي تعبر عن الحب والعشق.. يحركون كل أجسامهم في اشارة الى العلاقة المتصورة بين العاشق والمعشوقة. واليابانيون يفهمون هذه الاشارات ويستوعبونها، ولذلك فان مشاهدة هذه الحركات نوع من اللهو والتسلية عندهم. أما بالنسبة لمن لايفهمون تلك الاشارات، فانها مملة ولامعنى لها، فلا يعجبهم الرقص الياباني، ويضيقون بها ذرعا. وأني شاهدت تلك الحركات ما يقرب من ساعة ولم أدرك منها شيئا. وفهمت بعض الحركات بعد شرحها من قبلهم، ومع ذلك فلم أجد فيها شيئا يمكن أن نسميه تسلية أو لهوا.

المساجلة الشعرية

والمساجلة الشعرية من الأمور المفضلة عندهم. والشعراء في اليابان كثيرون، حيث يجتمعون في يوم معين من العام في القصر الامبراطوري وينشدون الأشعار.

ويوم المساجلة الشعرية يوم مشهود. ففي العام الثاني والأربعين من ميجي (١٩٠٩) وكنت في مدينة طوكيو اجتمع يوم المساجلة أكثر من ألفي شاعر بحضور الامبراطور (موتسوهيتو)وألقى كل شاعر قصيدته، وقرر الحكام بعد ذلك بأن الشعر الذي ألقاء (موتسوهيتو) هو أبلغها.

والميكادو نفسه يعتبر من أعظم الشعراء. ومع ذلك فانه حاز على الدرجة الأولى للمرة الأولى. وقد كتبت عنه الصحف طويلا.

والميكادو لازال في التاسعة والخمسين من عمره، ويتقن الكثير من الفنون، ومن هذه الفنون نظم الشعر الذي فاز فيه بالمقام الأول ولأول مرة في العام الثاني والأربعين من اعتلائه العرش.

هذا وان كان اشتغال الحكام بالأدب والشعر من الأمور الممدوحة، فان الانسان لابد وان يظهر بعض ملكاته الفطرية والطبيعية حتى وان كانت مذمومة.

وعلمت أن زوجة الامبراطور أيضا تقول الشعر، وتحضر مثل هذه المساجلات.وتمتاز الأمبراطورة باتقان فنون أخرى، مثل الأعمال اليدوية بشكل خاص، وتتولى امتحان الطالبات في بعض المدارس.

وأقدم هنا صورة الامبراطور وزوجته.

الجندية في اليابان

أمر طبيعي الا أملك أية معلومات في هذا المجال. ومع ذلك فاني أعرض عليكم ما استقيته من معلومات من خلال اللقاءات التي جرت بين بعض الشخصيات العسكرية.

إن القوة البرية الحالية في اليابان تقدر بحوالي مائتي ألف، ويمكن زيادة العدد الى ثلاثمائة ألف عند الضرورة. وتملك اليابان من الامكانات المالية التي تكفي لمليون جندي. والخدمة العسكرية اجبارية على كل من يبلغ السابعة عشرة من العمر، ولكن المدارس تطبق التعليم العسكري على من هم دون هذا السن. ولايمكن استثناء أحد من التجنيد كما لايعتبر المرض ولا غيره وسيلة من التملص من الخدمة العسكرية. حتى الشاب المريض يخدم في الجندية بشكل يتناسب ووضعه الصحي.

ويعتبر كل ياباني جنديا في المرحلة بين السابعة عشرة والأربعين من عمره. ومدة الخدمة النظامية ثلاث سنوات. كما يعتبر جنديا احتياطيا مدة أربع سنوات أخرى.

وهناك قانون خاص ينظم الخدمة العسكرية لغير اللائقين صحيا، وهم يتلقون التدريبات المناسبة ضمن صفوف جنود الاحتياط.

والمناطق العسكرية في اليابان هي: طوكيو وكوما موكو وهيروشيما وناغويه وسينداي واواساكه وكوكوره وكانازاوه وهيمي جي، وفيها أعداد كبيرة من الجند، كما أن التدريبات التي يتلقونها رهيبة. فالجنود في هذه المراكز في حالة تدريبات وتطبيقات مستمرة، كنت أذهب لمشاهدة هذه التدريبات كلما سنحت لي الفرصة، فأبقى هناك ساعات. ولكن للأسف لم أكن أملك خبرة عسكرية لذلك أضطر الى الاكتفاء بما أسمع. لقد شاهدت بنفسي مبلغ اهتمامهم وحرصهم على التدريب العسكري. والقائد الأعلى للقوات المسلحة هو الميكادو. حيث يخرج في بعض

الأحيان للتفتيش، كما يقوم بنفسه باختبار معلومات بعض الجنود والضباط.

وأضيف من خلال مشاهداتي ومعلوماتي: بأن الملابس العسكرية عند اليابانيين بسيطة جدا، ولا يستطيع المرء أن يميز في الظاهر بين الجندي والضابط، خاصة أثناء التدريب، حيث أن الملابس موحدة. وكان لي صديق برتبة جنرال ركن اسمه اوشيمه إنه يتناول الطعام مع الجنود ولاتجد على أكتافه أو على جسمه أية علامة تميزه عن جنوده. وكان هناك جندي يشبهه في الشكل والصورة، وقد أخطأت في التمييز بينهما عدة مرات. وليس بين الجنود أمي واحد. بل على العكس فان الجندية فرصة للمواطنين لتوسيع المعلومات والمدارك. وكل جندي يحمل معه مخططا لمدينة طوكيو، فأينما كنت، وطلبت من جندي أن يدلك على مكان معين أخرج ذلك المخطط وقدم لك المعلومات المطلوبة ولقد صادفت كثيرا من هؤلاء الجنود.

وبجانب التجنيد الاجباري فان هناك عددا كبيرا من اليابانيين يتطوعون في الجيش. وتجد في أكثر الجزر ميليشيات محلية خاصة تقوم بمهمة حماية الجزيرة، ويكونون جنودا احتياطيين للحكومة في الأزمات.

القوة البحرية في اليابان

أصبحت اليابان في الأعوام الأخيرة الدولة الثالثة من حيث القوة البحرية في العالم. وبات عندهم في حكم المؤكد بأنهم سيكونون قوة بحرية هائلة في عام ١٩١٦، حيث سيمتلكون قوة بحرية تزيد عن خمسمائة ألف طن.

والمراكز البحرية هي: ميهورو ويوكوسوكا وساسيبو وكوري، حيث تجد في كل واحدة منها أحواضا ضخمة لبناء السفن وموانيء ومستودعات للبارود ومئات الألوف من العمال الذين يعملون في الاصلاح والترميم.

وأما الغواصات فلا تدخل في الحسبان ويرفضون الحديث عنها رفضا باتا.. طلبت أن أراها فأكدوا لي استحالة تلبية هذا الطلب.

شاهدت أربعة عشر قطعة بحرية من الغنائم التي حصلوا عليها من الروس. لقد أصلحوها اصلاحا جيدا وضموها الى الأسطول الياباني واخبرت بأن هناك بعض القطعات البحرية الغارقة وهم يعملون على اخراجها.

من الطبيعي أن لا استطيع إضافة معلومات عسكرية أخرى أكثر مما ذكرت، والعهدة على الراوي، لأنني أنقل ماسمعته من الضباط اليابانيين.

ميدان المصارعة

اليابانيون يختلفون عن سائر الأمم في كل أحوالهم، ومنها المصارعة، حيث يقيمونها في أماكن مخصصة لايمكن أن تخطر على بال أحد.

والمباني المخصصة للمصارعة في طوكيو على شكل سيرك ضخم، صرفوا لبنائها أكثر من مليوني ين. والمصارعة عندهم غريبة أيضا: قوتان تتصارعان ضمن دائرة، لايزيد قطرها عن ثلاثة أمتار، فلا تحتاج الغلبة أن يتمدد المصارع على ظهره أو تلمس أكتافه أرض الحلبة، بل يكفي أن تخرج رجله من تلك الدائرة. ولايختلف الأمر ان خرجت رجله وهو واقف أو مستلق. هذه هي المصارعة عند اليابانيين. إن المصارعين في اليابان ضخام الجسم وأقوياء. ويقال إن أبناءهم يصيرون مثل ابائهم في القوة: رأيت رضيعا عمره ستة شهور وعلمت أنه طفل المصارع الفلاني. جاؤوا به الى الحلبه ووضعوه في الميزان فكان وزنه ١٠ كان و٣٥٠ لولي. أي تسعة عشر أقة في حسابنا أي (٣٩) كيلوجرام. وفي اليوم التالي نشرت صورة هذا الرضيع في الصحف. والمصارعة في اليابان لها أيام مخصوصة في العام وتمتد لخمسة عشر يوما، و تمنع المصارعة فيما عداها منعا باتا.

وهذا نوع من السفه، يكفي أن نقول عنه بأنه ميزان لمعرفة مدى حماقات الناس بالمقارنة مع المصارعة المعروفة في أوربا التي تعتبر هي الحماقة بعينها ! انها عادة موضوعة لتعذيب الناس، ومصارعة النساء بصورة خاصة هي من أكبر وأحدث مخترعات عالم الحضارة. أعتقد بأننا لانستطيع أن نعطيها غير هذا المعنى.

في منزل ناكانو

أمضيت وقتاً طويلاً في التفكير بكيفية وضع أساس متين للاسلام في اليابان، بحيث لاتستطيع أي قوة أن تحركه من مكانه، وقد شغل هذا الموضوع كل تفكيري. ومرة أخرى قررت أن أبحث هذا الموضوع في منزل أخينا ناكانو. لم يكن هناك أحد غيرنا، أنا وناكانو وصديق آخر.

يلح ناكانو أن نهتم قبل كل شيء بتأسيس مسجد ومدرسة دون ابطاء. وكان رأيه ينصب دائما في هذا الاتجاه. كما أنه لاينسى أن يبدي رأيه في ضرورة تحقيق اتحاد الشرق.

أما أنا فقد أبديت رأيي على النحو التالي:- ان هدفنا الأساسي الى جانب العمل على نشر الاسلام في اليابان، هو يقظة عالم الشرق ووحدته وحمايته من التسلط الأجنبي. يجب الا ننسى بأنه علينا قبل كل شيء العمل على تعميم هذا الرأي. اننا بحكم كوننا مسلمين سندافع عن مصالح ديننا في كل زمان ومكان. كما أن مقتضى الحكمة يجعلنانتناول الموضوع من وجهة النظر الانسانية أيضا:

ان السياسة التي يتبعها الأوربيون في الشرق، تضر بالانسانية أكثر مما تضر بالاسلام. فلو تذكر الانسان حال الناس في الصين والهند والتيبت وتركستان من الناحية الانسانية، لأقشعر بدنه. إن هؤلاء النصارى المتوحشين تسلطوا على جميع الأقوام الشرقية، بل تسلطوا على أرواحهم

تحت ستار الحضارة، لينفقوا مايجلبونه من أسواق هذه الشعوب على سفههم وعلى زينة نسائهم.

علينا أن نركز على هذه الناحية أكثر من غيرها. ان التفكير والعمل من أجل تخليص الشعوب الشرقية من تسلط هؤلاء الوحوش، هو من الواجبات الانسانية المقدسة.

لو ألقينا نظرة على الشعب الهندي، لوجدنا أن هذا الشعب الذي يربو عدده على ثلاثمائة مليون (بمسلميه ومجوسه) يعامله الأوربيون معاملة الحيوان، انه محروم من أي حق انساني. فالانجليز يأخذون خمسين في المائة من دخل الهند باسم ضريبة الأرض. والهنود يعملون طوال العام ويصرفون على الأرض، ويتحملون الضرر، والانجليز يقاسمونهم نصف المحصول باسم الحضارة.

كما أن الهنود المساكين يتعرضون لكل أنواع الذل والمهانة، ويتلقون من العقوبات والضربات مالا يتحمله أي أنسان. وليس هناك هندي واحد يتمتع بأي حق انساني أمام الانجليز، حتى أن الهندي الذي أكمل علومه في جامعات لندن ووصل الى رتبة جنرال، لايملك احتراما بالقدر الذي يملكه أي جندي انجليزي. ان عليه أن يقف احتراما لأصغر ضابط من الانجليز. فاذا فتح الهندي او الأجنبي فاه وتكلم بشيء، فانه سيجد نفسه مبعدا الى جزيرة غير مأهولة في المحيط الهندي، ولا يحق له العودة الى الهند في أي صورة من الصور. ان كل هذا يطبق على هؤلاء الناس باسم الحضارة ـ حضارة القرن العشرين ـ

فاذا أخذنا هذه الأوضاع في الحسبان ونظرنا إليها من الوجهة الانسانية لتوجب علينا أن نزيد الاهتمام بها لتعلقها بحياة أهل الشرق ومستقبلهم.

لقد أحس الأوربيون منذ زمن بعيد بنتائج هذه الأحوال السيئة، وأن سوء عملهم لن يستمر الى مالانهاية، وهم منذ أكثر من ربع قرن يكتبون في صحفهم عن ضرورة الاستعداد للصراع المرتقب بين العرق الأبيض والعرق الأصفر.انهم يضعون في الحسبان دائما أن الشرقيين لن يسكتوا

طويلا على هذا الظلم وأن فتنة ستقع، يعرفون هذا ومع ذلك يستمرون في سلوكهم السيء. ولذلك فانهم يحاولون تبرئة أنفسهم مما اقترفته ايديهم حينما يكتبون المقالات وينشرون الرسائل حول خطر العرق الأصفر، ويوصون اخوانهم بالاستعداد لهذا الصراع من أجل إنشاء جسور على أنهار الدماء التي سيريقونها.

لذلك فان علينا الا نغفل عن الاعيبهم وان نعد مايمكن به أن ندافع عن أنفسنا على أقل تقدير.

هذا الأمر هو الذي يشغل فكري منذ أكثر من عشرين عاما. انكم تقرأون في الصحف الأوربية ماينشره كثير من الكتاب والرحالة من المقالات الطويلة والمجلدات الضخمة مستصرخين الانسانية، بدعوى أن نصرانيا تعرض لاضطهاد ديني في مكدونيا، وأن معاملات غير انسانية يلقاها الروحانيون في الكنائس، وعن منصرين لقوا الاهانات في الصين والتيبت وفي أفريقيا.

ومن جهة أخرى نرى مئات الملايين من البشر في الشرق محرومين من كل الحقوق الانسانية، ولا تجد من يدافع عنهم ولو بكتابة سطر واحد على صفحات جرائدهم، فهذه الأمور أيها الاخوة هي الجديرة بالملاحظة.

ناكانو:- سيدي، لقد فكرنا في هذه الإموركثيرا. وأجرينا مناقشات طويلة حولها. الا أننا كنا نظن بأنه ليس في أهل الشرق من يفكر بها. لقد أرتكبنا خطأ كبيرا بهذا الظن. ولا ينفع الأسف الآن. وقد اتضح لنا بأننا لانعرف أحدا غيرنا، كنا نسيء الظن بغيرنا رجما بالغيب، وغرنا جهلنا. أضعنا وقتنا في مناقشة الأفكار السقيمة، ليتنا عرفناك قبل الحرب، لكنا لعبنا دورا أكبر.

أما الرفيق الثالث فقال:- قبل وقوع الحرب كان الآلاف منا موجودين في أنحاء روسيا، ولم يتصل أحد منا بالتتار، ويل لنا ما أغبانا من رجال. ولولا قدوم الأستاذ ومبادرته في التعارف معنا لبقينا في جهلنا. ولكن

لنعوض الآن مافات، كن يا أستاذ مرشدنا الى الطريق الذي ينبغي أن نسلكه ونرجوك بصورة خاصة أن تنظر إلينا ليس من الناحية الاسلامية فحسب بل و من الناحية الانسانية ايضا كما لو كنا أبناءك. فان وجدتنا مقصرين فنبهنا. انك والدنا بحق.

ناكانو:- أكرر فأقول بأن أكبر وأقوى العناصر في عالم الشرق هم الأتراك والتتار. وكلهم تشرفوا بالاسلام منذ القدم. وعلى هذا فاني امل بأن ينتشر الدين الاسلامي في اليابان بأقصى سرعة، فهو الوسيلة الوحيدة لاتحاد الشرق. ويبدو لي بأننا سنكون مصيبين اذا نحن عجلنا بانشاء المساجد التي هي شعار الاسلام. وعليه فاننا اذا استطعنا انشاء مسجد واحد في طوكيو، نكون قد احرزنا نجاحاً عظيما.

- أشاركك الرأي تماما، ولكن يفضل عدم التعجل لأسباب منها: أن عدد المسلمين في اليابان لايكاد يذكر، والقيام بانشاء مسجد قبل أن يكون المسلمون بأعداد ملموسة، يؤدي الى حالة عدم الثقة، ثم ان الاسلام يوجب الاستئذان من مقام الامامة الكبرى في انشاء مساجد في الأماكن التي تشرفت بالاسلام حديثا، وفي القيام بالعبادات الجماعية. فلهذه الأسباب لايجوز الاستعجال في اقامة بناء المسجد.

ناكانو:- سيدي، باستثناء موضوع الاستئذان، فالأمور الأخرى ليست عذرا، وإننا اذا بادرنا بانشاء مسجد، فكن مطمئنا بأن الآلاف سيتشرفون بالدخول في الاسلام. لنبدأ بالدعوة، نملك القلم ونملك اللغة ونملك كل شيء إني امل ألا يبقى أحد من معارفي الا ويعلن اسلامه.

الرجل الثالث:- يا أستاذ! ماهو الاسلام، ماهي عقيدته، ماهي أركانه، اذا عرفنا ذلك على حقيقته فاترك لنا الباقي. إن مئات الآلاف من الناس سيدخلون في الاسلام. إن اليابانيين اذا أدركوا الحقيقة بادروا اليها دون ابطاء. هذه الأمة تعشق الحقيقة وسترى بأن النصارى أيضا اذا فهموا الحقائق الاسلامية توجهوا الى الاسلام. نحن الذين سنأتي بهم.

أما موضوع الاستئذان فطويل بعض الشيء. ليس لنا سفير هناك، ولم تقم بيننا وبين الدولة العثمانية علاقات سياسية حتى الآن. سيكون الأمر صعبا بعض الشيء ولذلك أقول بأنه يتعين عليك الذهاب الى اسطنبول والعودة. تذهب وتعود ونؤجل تلك الأمور الى حين عودتك، ونحاول قدر الامكان توحيد الأفكار، فلا بأس أن يتوقف الأمر إلى حين سفرك وعودتك، فهل سيتحقق ذلك؟ وما هو رأيك؟

- ولم لا، وهل هناك شيء لايمكن تحقيقه؟

- انك رجل مسن، والمسافة بعيدة، واذا ذهبت فقد لاتعود... عليّ أن افكر هذه الناحية، لست رجلا شابا. واذا لم تعد فسنحزن كثيرا.

- أنا لا أقبل الشيخوخة(مبتسما) سنصرف مزيدا من المال.

- سيدي، المصروف ليس بشيء، يكفي أن يتحقق المراد. سيتعين علينا الآن أن نجتمع مع زملائنا لمناقشة الموضوع، سنفعل ذلك خلال هذه الأيام، ويتعين على الأستاذ أن يذهب ويعود. والآن ياأستاذ ماذا ستقول في مسألة اتحاد الشرق، ان تفصيلك في الموضوع سيكون درساكبيرا لنا.

كل شيء في هذا الكون يسير وفق قانون الطبيعة. تعرفون بأن أعظم قوة على وجه الأرض هي النار، ولكن عند وصول الماء اليها تفقد قوتها، أليس كذلك؟ ومع ذلك فان النار اذا احتمت بشيء وبدأت بالسيطرة على الماء فانها تقضي على الماء بالقانون التدريجي، ومختصر القول فان الماء الذي في القدر ينتهي بفعل النار بالغليان. وبهذه الطريقة نتخذ التدابير وننشر نور الاسلام بشكل طبيعي، وحينذاك لايستطيع الغربيون مقاومتنا، وينتهون من تلقاء أنفسهم، ولكن في البداية يجب أن نحتمي بشيء. فاذا اشتدت النار أوارا، لم يعد للماء أي تأثير، وسنحرقهم. فاذا استطعنا أن نضع كل شيء في محله، لايبقى علينا بعد ذلك سوى النفخ من بعيد أو الضغط في الكير.هذا أمر طبيعي سيتحقق، ويجب أن يتحقق. ولا شك بأن علينا في بداية الأمر الصبر والتحمل.

الثالث:- يا أستاذ لقد استفدنا اليوم كثيرا. ولدي بعض المشاغل، ولابد أن نكون على رأس عملنا. وليسجل ناكانو المناقشات التي دارت في الاجتماع، واسمح لنا بالمغادرة.
وبعد هذه الجلسة الطويلة افترقنا. وذهب كل واحد الى مكانه أما أنا فعدت الى منزل صديقي ناكاياما.

من حديقة هيبية الى قرية أوموري

تقع حديقة هيبية في وسط مدينة طوكيو. والقصر الامبراطوري، ومجلس النواب، وكثير من الدوائر الرسمية تقع بجوار هيبية كوئين KOEN، واذا قيل هيبية كوئين فكل الناس يعرفونها، ليس في طوكيو وحدها بل في كل بلاد اليابان. انها حديقة جميلة ولطيفة جدا. فيها كثير من أحواض المياه والنوافير وتلال ووديان وغابات. وفيها أيضا مطاعم جيدة. انها مركز لاجتماع الناس بشكل عام. وكثيرا ما كنا نحدد مكان اللقاء عند النافورة الفلانية أو بجانب الحوض الفلاني، أو على التلة الفلانية في هيبية كوئين. وننطلق من هناك الى المكان المقصود. وفي هذه المرة أرسل صديقنا أوتشيدا سان رسالة مفتوحة، طلب فيها اللقاء في الساعة الواحدة عند حوض الطائر الأبيض.

وضع الرسالة المفتوحة في البريد في الساعة التاسعة من صباح يوم الثاني والعشرين من مايو، فاستلمتها في الساعة الحادية عشر الا ربعا. والتقينا في الساعة الواحدة من ذلك اليوم (أسرع من البرقيات عندنا)

ولما وصلت الى الحوض كانت الساعة الواحدة الا خمس دقائق، وبعد دقيقتين وصل أوتشيدا سان، وبعد استراحة قصيرة قال:- أريد صحبتك في السفر الى اوموري، (قرية قرب طوكيو) ان كان وقتك يسمح بذلك.
- طبعا طبعا، ان وقتي يسمح لي دائما

- لا أدري من أين نذهب، بالحافلة الكهربائية، أم بالقطار..
- لنذهب بأي منها لافرق بينها.
- لايستويان تماما. ولكن إذا وصلنا محطة القطار ووجدنا أن القطار قد غادر، فاننا سنضيع نصف ساعة من وقتنا سدى.
- اذن نسافر بالحافلة الكهربائية، ويتم الأمر والسلام.
- وقررنا السفر بالحافلة وكان القرار صائبا، لقد وصلنا الى اوموري بعد عشرين دقيقة.

وحينما دنونا من صومعة صغيرة استقبلنا رجل في هيئة عامل: فتح الصومعة، ولما دخلنا فيها قال اوجيته صان:- يأستاذ انظر الى هذه الصومعة بتمعن، انها صومعة تاريخية، هذه الصومعة هي السبب في تخلص الأمة اليابانية من الظلم والاستبداد، يحضرني أن أقول بأنها الصومعة المقدسة.

نظرت الى كل جوانب الصومعة بامعان، انها صومعة يابانية مربعة الشكل وعادية جدا.مساحتها حوالي أربعة أمتار مربعة، وليس فيها شيء يمكن أن يقدس.

- قبل أربع وعشرين عاما، كان الامبراطور موتسو هيتو يفكر في تحويل الحكم في البلاد الى حكم دستوري، فاحتار في كيفية تحقيق هذا الهدف، ومن اجل ذلك اجتمع بأيتو سان وأوكوما سان وغيرهم من زعماء البلاد في هذه الصومعة، وتشاوروا فيما بينهم من الصباح حتى المساء، وبعد ستة شهور كاملة من المشاورات خرج أيتو سان من هذه الصومعة في رحلة الى أوربا كي يطلع على النظم الدستورية فيها وطريقة الحكم عندهم، وبعد تجوال امتد عامين كاملين عاد مباشرة الى هذه الصومعة وحبس نفسه فيها مدة ستة شهور أخرى لاعداد الدستور. فالصومعة والحالة هذه، قدمت خدمات في سبيل خلاص البلاد.

ثم قام موتسوهيتو باهداء هذه الصومعة الى أيتو سان، وتولى أيتو سان نقلها من طوكيو الى هذا المكان. فاذا ألمت به مشكلة توجه الى هذه

الصومعة وحبس نفسه فيها، وفي المسألة الكورية لجأ الى هذه الصومعة أيضا، ونحن الآن نريد أن نتلقى أفكارك في هذا المكان تفاؤلا.

ذلك أمر عجيب حقا. فاليابانيون يضبطون تاريخهم بهذه الطريقة، ويتضح أن التفاؤل والتشاؤم أمران شائعان عندهم منذ القدم، واضفاؤهم القدسية على مثل هذه الأشياء مردها التفاؤل والتشاؤم.

استغرق حديثي مع أوتشيدا سان في هذه الصومعة عدة ساعات، تعرضنا خلالها بعمق وتوسع للتدابير التي يمكن اتخاذها والأسباب التي يمكن اللجوء اليها في موضوع اتحاد الشرق. والحقيقة إنني اغتنمت الفرصة في هذه الصومعة لمعرفة الكثير من المعلومات من اوتشيداسان، ولما انتقلنا بالحديث الى مستقبل اليابانيين قال:- اذا استمر اليابانيون على ماهم عليه، فان مستقبلهم سيكون آمنا ومشرقا، ولكن اذا انحرفوا لاسمح الله، وقلدوا الغربيين في معايشهم، فسيكون سقوطهم في الهاوية أسرع من رقيهم وتطورهم. ان أراضي اليابان معروفة، وكل وارداتها معروفة، فان وقعنا في شراك المصارف الأوربية فلا شيء ينقذنا. ان القسم الأعظم من وارداتنا هو من المحاصيل الزراعية، رغم أننا نعاني ضيقا في الأرض، ففي بعض المناطق تزيد الكثافة السكانية بحيث يعيش أكثر من ثلاثمائة انسان في الكيلومتر المربع الواحد، وفي أوسع الأماكن لاتقل الكثافة عن مائتين للكيلومتر المربع. فكيف نؤمن وارداتنا من مثل هذه المساحة القليلة من الأرض، في حين تعتبر الزراعة عصب الحياة عند اليابانيين.

ان وضعنا في الوقت الحالي لابأس به، نتبع اسلوب الاقتصاد والتوفير، وأكبر الوزراء عندنا يكتفي براتب ستمائة ين أو خمسمائة ين شهريا (كل ين ب ١٢ قرش) وليس هناك راتب أعلى من ستمائة، ولا يتقاضى من الضباط والقادة ثلاثمائة وخمسين ينا الا من كان برتبة أميرال.

والشعب الياباني شعب مقتصد، وأكبر الأغنياء عندنا هو الملياردير ميتسوي MITSU، ولا أظن أن مصروفه الأسري يزيد على ثلاثمائة أو

أربعمائة ين، بل قد يكون أقل من هذا المبلغ، أما العوام من الناس فينظمون مصاريفهم بدقة يستحقون الشكر عليها، وهناك بعض من شبابنا من الذين اعتنقوا النصرانية ترى وضعهم سيء جدا، فهم منهمكين في الاسراف. اننا نفكر في هذا الأمر كثيرا، وإذا انتشر هذا الوضع، كان سببا في القضاء على جميع اليابانيين.

- نعم، لقد قلت لك دائما: ان جهود المنصرين تنصب في افساد أخلاق الأمة، وليس هذا هدف المنصرين فحسب، بل كل الغربيين يتبعون حيال الشرق سياسة افساد الأخلاق، والا فانهم يعرفون أكثر من غيرهم بأن دينهم تحول الى بناء منخور وخرب، وهدفهم أساسا ليس نشر الدين. انهم يجدون في ضعفنا فرصة للتغرير بالبسطاء تحت قناع ديني، ولإفساد اخلاقهم، وايجاد اسواق لترويج ما أنتجوه من مواد فاسدة ومخربة.ويخدعوننا بقولهم ان الحضارة تقتضي ذلك وأنه لايمكن الاستغناء عن هذا في القرن العشرين، ان الأوربين يستغلوننا بكل مافي كلمة الاستغلال من معنى.

وأمام هؤلاء المستغلين علينا أن نفتح أبصارنا وبصائرنا، ونتضامن، ونستعد للدفاع عن أنفسنا ضد مكائد أعداء الانسانية، ان هدفهم ان يجعلونا وسيلة لمعايشهم، وتوظيف مواردنا لاسرافهم وسفههم. لايفكرون الا بهذا، ويستعملون كلمة الحضارة لخداع الحمقى في بلادنا. وهؤلاء الحمقى يظنون أنها هي الحضارة.

إن الإشياء التي تستحق التقدير في الاسلام هي هذه الجوانب. لقد حرم كل مايفسد الخلق، فالمسكرات بكافة أنواعها حرام وكل أنواع القمار حرام، وكل مالايقبله العقل السليم حرام. ثم ان الاسلام فرض الزكاة كيلا تتجمع الأموال في جهة معينة فتحدث خللا في الأخوة الانسانية، فرض من أموال الأغنياء حقا للفقراء بنسبة ٢,٥%، وأمر بصرف المبالغ الفائضة التي قد تذهب للسفه، إلى مستحقيها من أبناء جنسه. فالحضارة الأصيلة هي في الاسلام: والتعاون والتناصر والتعاضد كلها من خواص الاسلام.

لقد حددت الشريعة الغراء حقوق العباد وحقوق الجوار وحتى حقوق الحيوان، ولكن مالعمل فان الحديث عن الحقيقة عند بعض الناس أمر متعذر، لايريدون أن يكون الكلام عن الحقيقة. فيضطر الانسان أن يختار السكوت.

لقد قلت لك مرات ومرات وأقول مرة أخرى، بأن الوسيلة الناجعة للحفاظ على حياة اليابانيين، هي حمايتهم من التأثير الأجنبي. وأظن بأن أي ياباني منصف لايمكنه أن ينكر ذلك. واذا اتخذتم الاسلام دليلا لكم كي لاتتذبذبوا أمام الأوربيين فاني أضمن لكم بأن النتيجة ستكون السعادة الأبدية. إلا إنني لا أستطيع الاصرار على هذا الطلب بسبب كوني مسلما، بل أكتفي بالتعريف بمحاسن الاسلام، ومن يملك العقل السليم يوزن الأمور. فان كان له نصيب من الاسلام وجده. أكرر فأقول بأنني أكن حبا لليابانيين منذ القدم، وتضاعفت هذه المحبة بعد الحرب الروسية اليابانية، ولذلك أتمنى تطوركم وتقدمكم، وأن تكونوا أنتم رواد الأمم الشرقية وتكون دولتكم أقوى وأعدل الدول في العالم، هذا ما أتمناه وأطلبه. وأقول هذا الكلام لك يا أخي من صميم قلبي. ليس لي مقصد آخر. أنا لم آت الى اليابان لنشر الاسلام. وأنا لا أملك تلك الصفات، وأنت تعرف ذلك.

- يا أستاذ، اننا نثق بك ثقة مطلقة. وأعتقد بأن أكثر اليابانيين يثقون بك. فالصحف اليوم عرفوا كل اليابانيين من تكون أنت. جزا الله صحفنا خيرا. لقد خدموا أمتنا خدمة كبيرة. والذي أريده هو أن تتأكد بأنك تستطيع أن تقول ماتريده بكل صراحة، فلا تتردد أبدا، لقد بات اليابانيون يفهمون دسائس المنصرين تماما.

- كما أنني أؤكد لك بأن علينا أن نفتح عيوننا حيال فتنة الغرب، لقد أقسموا ذات مرة على الصليب على أن يزيلوا أهل الاسلام من على وجه الأرض، والآن يريدون أن يزيلوا كل أمم الشرق. هذه قضية من العبث أن

نقوم بالبحث عن أدلتها. لأن اثباته ظاهر أمامنا. علينا ألا نتوانى عن الرد عليهم، وأن ألا نغفل عنهم.

وعلى هذا فقد شخصنا المرض، وتناقشنا عدة ساعات حول الوسائل الناجعة للقضاء عليه، وأمضينا وقتا طيبا، استفدنا فيه من عالم القرية.

الكونت ماتسورا

أوردت فيما سبق بعض المعلومات عن الكونت ماتسورا، هذا الرجل هو الأقوى والأنشط بين الكونتات في اليابان، يجيد اللغة الانجليزية. دعانا الى منزله، فلبينا الدعوة، ولم يكن أحد معي سوى صاحب جريدة كوكومين شيمبون.

وفي هذه المرة عرفني بأفراد عائلته وقال:- إننا جميعاً نعتبر أولادك، سنجلس هذه المرة مجتمعين.

وبعد الطعام قامت زوجته بالعزف على الة موسيقية يسمونها جوتو، وغنت إبنته بعض الأناشيد الوطنية واستمرت هذه الجلسة قدر ساعتين. وبهذه الصورة اطلعت على طراز الحياة في أكبر العوائل اليابانية. وأعرض للقراء الكرام صورة الكونت ماتسورا.

لقاء مع ناكانو

ناكانو:- سيدي، إنني أرى أن نبحث عن أرض لبناء مسجد، وقد رأيت بعض الأماكن المناسبة فما رأيك في هذا الشأن؟

- ماذا علي أن أقول، انه شيء حسن، أشكرك، ولكن لايكفي أن تعرف أن المكان موجود فان في طوكيو أماكن كثيرة، وساحات خالية، المهم كيفية الحصول عليها وتملكها.

- لقد ناقشنا موضوع الحصول على أرض لبناء المسجد ووضعها تحت تصرفك. نحن الخمسة التزمنا انجاز هذا العمل، وسنقدم لك وثيقة موقعة

من قبلنا نتعهد فيها بايجاد الأرض، كن واثقا. واذا رغبت لنذهب سويا لنرى الأرض التي حددناها.

- لا، أنا لا أفهم بالأرضي ولا بغيرها، تقررون أنتم، وأنا أبلغ التجار الهنود في يوكوهاما في الوقت الذي تشاؤون، فيأتون ليروا الأرض، وهنا يوجد أحد العلماء واسمه بركة الله افندي[1]، احيل هذا الموضوع اليه. انني لا أملك شيئا من هذه الأمور.

- اذن علي أن ألتقي بأوهارا، وأتمنى أن أبلغك بالنتيجة غدا.

ولم نتكلم بعد هذا بشيء، واتضح أن الأمر بدأ يكتسب صورته الجدية.

السفر الى يوكوهاما

وبعد الاطلاع على هذا الأمر قررت السفر الى يوكوهاما لبحث الموضوع مع التجار الهنود هناك.وناقشت الموضوع قبل ذلك في طوكيو مع المولوي بركة الله أفندي، ووضعنا نصب أعيننا احتمالات ألا يقدم اليابانيون المال اللازم لبناء المسجد، وهل يمكننا في هذه الحالة ان نقوم بانشاء مسجد. وبعد ذلك سافرنا أنا وبركة الله أفندي الى يوكوهاما في الثاني عشر من شهر جمادى الأولى.

وفي الطريق عرض علي بركة الله أفندي مخططا أعده على عجل.كان مفترضاً بأن كل شيء قد تم. قلت:- ياأخي علينا ألا نتعجل، وعلينا ألا نتوانى عن واجبنا الذي يمليه علينا ديننا. بل نلتزم الجانب المعنوي ونترك جانبه المادي لليابانيين، وبعد ذلك نبذل كل مافي وسعنا. وبعد مناقشة قصيرة اتفقنا فيما بيننا، ولما وصلنا وفقنا في اعداد برنامج نلتزم به.

---

(١) المولوي بركة الله عالم وسياسي هندي وهو أول أستاذ للغة الأردية في جامعة طوكيو للغات الأجنبية جاء لليابان عام ١٩٠٩م وغادرها ١٩١٤م (السامرائي).

في يوكوهاما

اتجهنا فورا الى منزل كاكاجي والاو قمر الدين زاده طيب علي.ودعوا الى المنزل كلا من حاجي ولي تراب علي زاده وعبد الغفور أفندي ملكجي زاده. ثم بدأنا نناقش الموضوع وفق البرنامج الذي اتفقنا عليه في الطريق:

١- هل هناك حاجة الى بناء مسجد وعدد المسلمين في اليابان لايزال قليلا؟

٢- في حال ما اذا تقرر انشاء مسجد، مادرجة أهمية التقدم الى دار الخلافة بطلب الاذن؟

٣- في حال تأمين اليابانيين أرض المسجد، فهل من الأفضل أن نلتزم مباشرة البناء أم لا، وفي حالة الالتزام، ماذا نستطيع أن نفعل؟

٤- مسألة الحاق مدرسة ببناء المسجد..

٥- انتخاب لجنة تتولى تنفيذ هذه الأعمال.

استغرق بحث هذه المسائل حوالي خمس ساعات، ولكن تم الاتفاق على اثنين منها. ولضيق الوقت افترقنا على أن نجتمع ثانية بعد ثلاثة أيام. وبت في تلك الليلة في منزل كاكاجي والا في يوكوهاما، وعاد بركة الله افندي الى طوكيو.

العرب في يوكوهاما

خرجت في ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام في جولة، وفي الشارع رأيت مجموعة كبيرة من الرجال يلبسون الطرابيش الحمراء على رؤوسهم وقد ملأوا الطريق بأكمله، بعضهم في زي الكبار لكن الأكثرية في زي العمال. ومهما يكن من أمر، فانني عندما رأيت الطرابيش، أحسست بسرور واطمئنان. وتوجهت اليهم، فلما بادر اثنان منهم بالسلام ظننت أنني في مكان ما من تركيا فرددت عليهم السلام وصافحتهم جميعاورحبت

بهم، وسألت باللغة التركية: من أين أنتم قادمون؟ فرد أحدهم (نحن مانعرف لسان الترك)، فبادرت بسؤالهم باللغة العربية، من أين أنتم، ومن أين قدمتم.

- نحن عدنيون، جئنا على متن باخرة " مساجيري ماريتيم" الفرنسية. ونقيم في الباخرة. وأبدوا فرحتهم قائلين: لقد رأينا مسلما ولله الحمد.

وأنا كنت مسرورا بهم جدا، والحقيقة أن هذه صدفة جميلة تستحق الشكر. دعوتهم فورا لشرب الشاي، نظر الى بعضهم، ونظر واحد منهم الى الساعة

- لقد حان موعد نوبة فلان وفلان، ليذهبوا هم الى الباخرة، ونحن نجلس مع السيد... ورافقني حوالي عشرون رجلا.

وكان محل الشاي صغيرا فامتلأ بأهل الطرابيش، صرت أحس في تلك الساعة براحة لايمكن أن أنساها، إذلم يكن يخطر ببالي أبدا أن ألقى في يوكوهاما أناسا من العرب، ومن يعرف بأن السفن الأجنبية تستخدم بحارة من العرب؟ أمضيت مع هؤلاء الرجال قرابة ساعتين وحصلت منهم على بعض المعلومات عرفت منهم بأن عدد العرب في هذه السفينة اثنان وسبعون، وكلهم من العمال، يشتغلون في الأعمال الشاقة، وبينهم رئيس منهم، ورواتبهم تتراوح بين أربعين الى مائتي فرنك. أما الفرنسيون الذين يقومون بنفس الأعمال فانهم يتقاضون ضعف هذه الرواتب، اضافة الى مخصصات اخرى.

وقالوا بأن السفينة ستبقى في يوكوهاما مدة اسبوع، ودعتهم على أمل اللقاء بهم ثانية في السفينة.

في ضواحي يوكوهاما

وكما تعودت دائما، خرجت في جولة بأطراف يوكوهاما، اتجول في القرى، والتجول في القرى اليابانية ممتع جدا. فالشعب متمدن ودؤوب.

وأبسط الرجال عندهم يبدي اراءه في مستوى أعرف الرجال عندنا. وفي وقت العمل تجدهم في الحقول، وفي النهار لن ترى في القرى الا كبار السن من الرجال والنساء. وصلت الى قرية لايتجاوز عدد بيوتها العشرة، وصادفت رجلا عجوزا فسألته:

- ما اسم قريتكم؟ قال: « اساهي».

وبعد حديث قصير مع العجوز، نظر الي وقال: أنت روسي، أليس كذلك؟

- لا، لا أرضى أن أكون روسيا، انني تتاري.

-فهمت ! ألست ابراهيم؟

- من أين عرفت، أين رأيتني؟

- أراك الآن لأول مرة، ورأيت صورتك كثيرا، وقرأت كلماتك كثيرا.

- كيف عرفت بأنني روسي، ألم تقل بأنك قد تكون روسيا؟

- عندما كان الجنود الروس في الأسر، كان من بينهم كثير ممن يلبسون على رؤوسهم مثل الذي تلبس، ولما وقع نظري على رأسك تذكرت ذلك. كنت مكلفا في ذلك الوقت بالقيام بخدمتهم.

- حسنا، وهل يمكنك أن تزودني بمعلومات عن أحوال الأسرى، كيف كان الأسرى الروس يقضون أوقاتهم، وهل قاموا بأعمال منافية للخلق؟

- لا، فان الرجال الذين كنت مسؤولا عنهم كانوا طيبين جدا. لم أجد منهم أي شيء مناف للأدب؛ ونادرا ماكان واحد أو اثنان منهم يتعاطى المسكرات، وكان من بينهم رجل يسمونه ملا (شيخ) وكان يزجر من يسكر منهم، ولغة هؤلاء تختلف عن لغة الروس، ويقوم الشيخ بتوبيخ السكارى بلغتهم، أما السكارى فيحاولون اخفاء سكرهم عنه. دائموا القراءة والكتابة، فالكثير منهم يعرف أن يقرأ ويكتب. أما الأسرى في أوساكا OSAKA فكانوا سيئي الطباع والخلق، يسكرون دائما، ويتناحرون فيما بينهم، ويدخلون القرى المجاورة فيسرقون كل مايرونه والحكومة لم تعد تتركهم على حالهم، فكان يرافقهم بعض الجنود. أما الذين هم معي

فقد كانوا أحرارا، لم أر منهم أي شيء سيء. وفي شهر مخصوص كانوا يتعبدون طوال الليل، ويأكلون الطعام، ويجتمعون في مكان واحد، يتقدمهم الملا، فيعملون مثل مايعمل، فيركعون ويسجدون، وعبادات هؤلاء لم تكن تشبه عبادات الروس، ثم يأكلون مرة أخرى، ويبقون حتى الصباح يترنمون بأغان، ثم يجتمعون مرة أخرى، فيتعبدون، ثم ينام الجميع. ويستيقظ بعضهم في حوالي الساعة الواحدة، فيتعبدون مرة أخرى، ثم يتنزهون لبعض الوقت ثم ينامون مرة أخرى، أما البعض الآخر فينام بشكل متواصل. فان غابت الشمس عادوا الى الطعام فالتهموا منه الكثير. مضى شهر كامل وهم على هذه الحالة،لم أر منهم أي عمل سيء، وقد وعدونا لدى عودتهم الى بلادهم أن يرسلوا الينا كثيرا من الهدايا، وأن يرسلوا الرسائل. لكنهم لم يوفوا بوعدهم، ولا أعرف ماالسبب، ذلك الملا كان رجلا طيبا جدا، وعدنا كثيرا بأن يكتب الينا. لكنه لم يكتب. أتذكره دائما، انه انسان طيب، وقد أعطيته عنواني، فلماذا لم يكتب الي؟

- حسن جدا، لقد سررت. انهم جنود، لقد وعدوكم، لكنهم لايستطيعون أن يكتبوا إليكم. انهم معذورون.

كل هذه المعلومات من رجل قروي، حصلت منه على معلومات عن الأسرى بمحض الصدفة.

ومن ناحية أخرى كان ذهني مشغولا بالعرب العدنيين. كنت أفكر في اللقاء بهم. هم من أبناء العرب، وأنا تتاري، ساقنا القدر الى يوكوهاما، فاجتمعنا هنا، ما أحلاه من أنس صادق بدأ بالسلام.. إن الله قد جمع بين هذه القلوب، والا فما العلاقة بين تتاري من سيبيريا وبين عربي من عدن. لقد رأيت هناك كثيرا من الأمريكان، ومن الفرنسيين، وحتى من الروس الذين أعرف لغتهم. ان بيني وبينهم شيء مشترك اسمه الوطن، ومع ذلك فما كنت أرغب في رؤيتهم ولاهم براغبين أن يروني. في حين سلم علي العدنيون، ورددت عليهم السلام دون أدنى تردد. وفرح الجميع كما يفرح

الأخ بلقاء أخيه، كلا الجانبين علت في وجهه بشاشة اللقاء وتحركت في قلبه رغبة اللقاء مرة أخرى، لم أعد أستطيع أن أفسر هذا. لاشك بأن هناك شيء لايدركه عقلي. فكرت في ذلك كثيرا. وبعد أن خرجت من قرية آساهي صعدت الهضاب ونزلت الوديان، فصار الوقت متأخرا، تعبت من كثرة السير على قدمي طوال النهار. فلما دخل الليل عرجت على قرية وبت هناك. إنك تجد في أكثر القرى اليابانية أماكن لنوم الضيوف، ولا يلقى المرء أدنى صعوبة في ذلك، ولكن لاشتهاري في الصحف كنت أنزل ضيفا على أناس لهم سعة الحال، فيحتفون بي، وعند الضرورة كنت أبرز لهم كتاب التوصية التي نشرت صورتها في صفحات سابقة فيبالغون في تكريمي.

وفي هذه المرة نزلت ضيفا على كاتسورا KATSURA وهو من أعيان القرية، وعندما استيقظت في الصباح جاءني صبي، وقال: إذا رغبت الاستحمام في الماء الحار فان الحمام جاهز. فقبلت هذا العرض ودخلت الحمام، والحمام عندهم يعتبر من الماء الكثير وفق المذهب الشافعي، انه عبارة عن «بانيو» مملوء بالماء يغطس فيه الانسان. ومع ذلك فانه يفي بالغرض جدا. انه يوافق أحد المذاهب الأربعة، وهذا هو المطلوب.

وبعد الحمام، تناولت الفطور الذي هو عبارة عن شاي وبيض وشبعت، ثم قمت وتوجهت وئيد الخطى الى يوكوهاما فوصلت اليها في الساعة الواحدة، واذا بالطرابيش الحمر تملأ الشارع، وكانه حي في اسطنبول، سلمت عليهم وتصافحنا، وعلت البشاشة وجوه الجميع، إنهم بلا شك اخواني. أظن أن ليس بوسع أحد أن ينكر هذه الأخوة المعنوية.

وبعد السؤال عن الأحوال، أبلغتهم بأنني متجه الى سفينتهم، فرافقني بعض منهم في الطريق، ولما وصلنا الى السفينة الراسية في الميناء وجدت من بين الذين رأيتهم أول أمس الأخوين حسن قاسم وأحمد باجش واقفين على الدرج، فاستقبلاني وأخذاني الى مقصورتهما، فلقيني كل من هناك بالترحيب قائلين آنستونا شرفتونا... انني عاجز عن وصف الفرحة

التي كنت فيها. وخطوت أول خطوة من باب مقصورة السيد حسن قاسم فلمحت صورة كبيرة لمصطفى كامل باشا (رحمة الله عليه)، نظرت الى يمينها فرأيت صورة الغازي عثمان باشا، وصور نامق كمال والمعلم ناجي، كانت فرحتي لاوصف لها.. نظرت الى المنضدة، انها صحف الأهرام واللواء والمؤيد والمنار وغيرها من الصحف والمجلات. ومصحف على الرف، وبجانبه نوادر القليوبي وروايات أخرى. لاتسألني بعد هذا عن فرحتي، لم أكن أصدق ما أرى.

البن اليمني، الحلويات، كاننا في بيت مسلم، بقينا في مقصورة السيد حسن قاسم أكثر من ساعة وحينها قال:- اذا رغبت نتجول في السفينة ونتفقد أماكن اخوانك المسلمين.

- لنر الأماكن التي تخص المسلمين، أكون ممتنا.

وبعد ذلك دخلنا مقصورة وضعت فيها أسرة نظيفة على طبقات وفي وسطها مكان خال. وبعد مشاهدتها، قال السيد حسن قاسم:- في هذا المكان الخالي نصلي جماعة. الحقيقة انه أمر يستحق الفخر، ماشاء الله، لابد أن يقتنع الانسان بأن الدين لازال عند العرب. ومطبخهم خاص بهم. قالوا لي بأنهم يمنعون الفرنجة من دخول مطبخهم. تجولنا في كل أقسام السفينة ثم عدنا الى مقصورة السيد حسن قاسم، وشربنا القهوة مرة أخرى، وهنا سألت السيد حسن قاسم:اذا أذنت لي أتصفح هذه الجرائد. انني لم أر صحف القاهرة منذ أمد بعيد، أريد أن أراها وان كانت قديمة.

- تفضل أرجوك، وأنا أقوم بتوزيع العمل وأعود، فاسمح لي قدر ساعة، لن يأتي أحد الى هنا.

تصفحت الجرائد الموجودة، فانشغلت بها أكثر من ساعة وترجمت بعض المقالات المهمة وأرسلتها الى جريدة «بيان الحق» الصادرة في قازان.

وفي هذه الأثناء سمعت صوت الأذان المحمدي في السفينة، فاعتراني شعور غامر بالفرح. تذكرت أيام شبابي التي قضيتها في الحجاز، الحقيقة

انه صوت أظن أن يوكوهاما كلها سمعته. وبادرت بالوضوء، فصلينا جماعة مع أكثر من ثلاثين شخصا، وأمنا رجل اسمه سعيد، فصليت لأول مرة جماعة في اليابان. وبعد الصلاة قرأ الامام عشرا من ايات الذكر الحكيم، ماأحلاها من تلاوة، شدهت لحلاوتها.

وبعد فترة هممت بالمغادرة، عندها قال السيد حسن قاسم: غير ممكن، لقد ذبحنا من أجلك خروفا، انه خروف عربي، وسيكون الطعام جاهزا الآن، والطباخون منا، سنأكل الطعام، ونصلي معا، ثم يرافقك زملاؤنا الى المكان الذي تذهب اليه.

ووافقنا طبعا، وفي البداية جاؤوا بطست فغسلنا أيدينا. وحضر الطعام، مشويات، ومحشيات.. أمر عجيب ! طعام أعد وفق الأصول العربية من غنم عربي في سفينة فرنسية في اليابان، يكون من نصيب تتاري من سيبيريا. ومهما قال الفرنجة عن هذا بأنه صدفة، فاننا نعتقد بأنه نصيب وقسمة ورزق مقسوم. هذا هو اعتقادنا. وفي أثناء الطعام حصلت من السيد حسن قاسم على بعض المعلومات.

في البداية سألته عن عدد وأحوال المستخدمين العرب في هذه السفن. قال:- انهم كثر ويكثرون، وأكثر المستخدمين في السفن التي تبحر في البحر المحيط الكبير هم من عرب اليمن وعدن وأيب وحضرموت. باستثناء السفن الانجليزية التي تستخدم مسلمي الهند، أما الشركات الأخرى فكلها تستخدم عمالا عربا. وفي بعض السفن تجد أكثر البحارة عربا كما أن مشغلي الآلات وعمال المستودعات كلهم من العرب.لكنهم يعملون في الأعمال الشاقة والمجهدة. أما أصحاب الرواتب الكبيرة فكلهم من الافرنج.

أما عن أحوالنا: ان أعمالنا شاقة ومجهدة، وحياتنا صعبة. ونحن في صراع دائم مع العمال النصارى، وهم كثر، إنك ترى دائماً أن الصراع قد احتدم وعلا الصياح والضجيج، والمسؤولية تقع في النهاية دائما على رؤس العرب. النصارى يسبون ديننا، ومهما صبر الانسان فانه أمر غير

محتمل، فالحمية الدينية تجعل الانسان يثور ويغضب، وفي احدى المرات قام أصحابنا برمي المسؤول عن المستودع في البحر، والحمد لله لم يمت.

من هذه الناحية فإن الوضع سيء غير ان قومنا تعودوا على هذه الصنعة، وليست لنا صنعة أخرى نزاولها،اننا شعب فقير، ليس أمامنا الا البحر. أعمل في سفن هذه الشركة منذ ثلاثة وثلاثين عاما.، وأنا رئيس منذ أربعة عشر عاما، وهكذا أمضينا عمرنا. ولكن ولله الحمد لم نتعرض لاهانات كبيرة، والعرب يعملون في البداية في الطبخ والغسيل، ثم يتحولون الى صفوف العمال، وبعد ذلك يتعلمون كل الأمور في السفينة. وهكذا يتقنون العمل منذ نعومة أظفارهم، انهم أذكياء في فهم الصنعة كما أنهم معروفون بالاستقامة.، وليس فيهم من يلجأ الى التعرض للنساء أو يهوى شرب الخمور، يتمسكون بدينهم. ونادرا ما تجد من يخدم في السفينة أحسن منا، ولكننا لانحصل على رواتب تتناسب مع خدماتنا، لأننا مسلمون. ننوي في بعض الأحيان الانعمل عند هؤلاء، ولكن ما الحيلة فالفقراء عندنا كثر. فلا نستطيع الصمود، وليست هناك سفن للمسلمين لنعمل فيها، ما الحيله؟ في احدى السنوات قررنا نحن مسلمي عدن وايب ألا نعمل، أعطونا رواتب مجزية مرة واحدة فقط وفي المرة الثانية عادوا من أوربا ومعهم أعداد كبيرة من العمال، وأعطوهم رواتب مضاعفة، وقاطعونا مدة ستة شهور فلم يستخدموا منا أحدا. الى أن رضينا بأن نعمل بثلثي رواتبنا السابقة، مع اعطاء التعهد بألا نقوم بأي اضراب او نحوه. ما الحيلة، لانجد عملا في بلادنا. اننا نعيش على هذا الذي تراه في الوقت الحالي.

- وماذا تعملون في مسألة اللغة، هل فيكم من يتكلم الفرنسية؟

- كلنا يعرف بالقدر الذي يخص السفينة، ومنا من يجيد الفرنسية بطلاقة، ومن الشباب من يقرأ ويكتب. ولما كنا نحن الأكثرية فقد تعلم أكثرهم لغتنا، وفيهم من يجيد العربية اجادة تامة.

- وهل أكثرهم يقرأ ويكتب بالعربية؟

- القليل منهم يعرفون الكتابة، لكن الكل يقرأ، ولا تجد بين العدنيين والحضرميين من لايعرف القراءة، انهم يعرفون بالقدر الذي يقرأون القرآن على الأقل. بينما تجد في اليمنيين والايبيين من لايعرف القراءة مطلقا. وبعد الطعام غسلنا أيدينا، وشربنا القهوة. وجاؤوا بالنارجيلة (الشيشة) فكنت ضيفا عزيزا عليهم، وارتياحي لرؤيتهم كان عظيما. ماكنت أظن بأن في العرب أناسا جديرين بالعمل. والحقيقة لقد كانت صدفة غريبة. وصلينا المغرب جماعة، وتحادثنا بعد المغرب مدة نصف ساعة. فسألتهم عن أوضاع الانجليز في عدن.

- دخل الانجليز عدن قبل أكثر من عشرين عاما. وعدن الآن عروس في العشرين من عمرها. ومن الصعب أن يتخلى الانجليز عنها. وشباب عدن دخلوا في الخدمة هنا وهناك، انهم يكسبون المال، إلا أنهم ألقوا الاسلام جانبا وصاروا عبدة الانجليز. الوضع سيء من هذه الناحية، لكنهم أحيوا المدينة. بدأت تتطور من يوم دخول الانجليز. كل الناس يعملون من أجل جمع المال. يجدون المال الذي يلزم لمصروف البيت والأهل بكل سهولة.

والقسم التابع لنا يبعد عن عدن مسافة نصف ساعة، لكنه خرب، والذي يرى هذا الوضع يميل الى جانب الانجليز. أما جماعتنا فلا يدرون شيئا. نفكر في عواقب الأمور، ونتذكر بأن عدن هي بوابة الجزيرة العربية فيتولانا اليأس، والعرب منذ القديم معروفون بالميل الى ما يفسد الخلق. فالتاريخ يذكر بأن معاوية وسعد بن أبي وقاص وغيرهما خدعتهم مظاهر الفرس والعجم، فلم يقدروا أن يبقوا على القوة العربية المسيطرة أمام تلك المظاهر.

- أين درست، تقول بأنك في السفن طيلة هذه السنوات فكيف درست التاريخ؟

- انني أقرأ الكتب التاريخية في السفن. وفي الأعوام الأخيرة بشكل خاص ظهر الشيعة في عدن. فأجبرونا على حفظ تاريخنا. ومن الشيعة علماء كثيرون، انهم يضايقون علماءنا، فيغلبونهم في المناظرات، قمت بعدة سفرات الى خليج البصرة، وبقيت بين العجم عدة شهور، وجرت بيننا مناقشات كثيرة.

- اذا تأخرت في سفينتكم في الليل فهل هناك مانع؟ انك دخلت موضوعا شيقا.

- لا، تستطيع أن تبقى الى أي وقت تشاء ويمكنك أن تبيت هنا.

- اذن فسأبقى ساعة أخرى. ومن أين جاء الشيعة الى عدن ياترى؟

- من القديم كان الشيعة يأتوننا من بغداد والبصرة ومن ديار العجم، ولكن في تلك الفترات لم تكن لهم أية قيمة أو أهمية. ثم أنهم جاؤوا مع الانجليز من الهند. وعلماء هؤلاء كثيرون، وأغنياؤهم شديدو الغنى، يبذلون المال الكثير لنشر مذهبهم. ان لهم مستقبل كبير في عدن. والحكومة الانجليزية تحميهم. والاسماعيليون العجم المعروفون بالبهرة قوم رهيبون.

- مارأيك في هؤلاء وما رأي علماء عدن فيهم؟

- علماؤنا لارأي لهم. أعتقد بأن الفكر في علماء الاسلام والسنة منهم على وجه الخصوص قد مات تماما. انهم صرفوا كل جهودهم على الاعراب والبناء ومفردات الكلمات وحرموا أنفسهم من العلوم الأساسية. أما رأيي: فإن الوقائع المشهورة التي حدثت بين أصحاب رسول الله ﷺ جرت على الوجه الذي نعرفه، جرت وانتهى كل شيء.. إلا أن الذين جاؤوا من بعدهم بالغوا في العناد وضخموا المسألة، وأخيرا حرم جماعتنا السلام على عليّ، وأولئك اعتبروا اللعنة عبادة... وبالغ الطرفان في المكابرة والعناد، وتطور الأمر الى مذهبين مختلفين.. ولا أجد لذلك تفسيراً آخر.

- حقا كذلك! وهل في عدن رجال يشاركونك هذا الرأي؟ ماشاء الله، كيف تركت طريق العلم وأنت تملك مثل هذه القوة العلمية؟

- أستاذي الشيخ سعيد رحمة الله عليه كان من علماء حضرموت وكان يوصينا دائما بالعمل والكسب. إننا نلقي الدروس حتى ونحن على ظهر الباخرة، عندما نسير في البحر أسابيع طويلة لابد أن نقرأ دروسا يومية. ان لي في هذه الباخرة سبعة أو ثمانية من الطلاب.

- فلتحيا يا أخي، انني أغبطك، لم أرتو من محبتي لك. أريد أن أذهب ان سمحت لي فان هناك بعض الأمور ينبغي القيام بها غدا، ولعلني اتي اليكم مرة أخرى ان وجدت الفرصة. في أمان الله. أهلا وسهلا ومرحبا...

وتصافحنا وتعانقنا، ثم انصرفت. وتوجهت مباشرة الى دار الضيافة. ان الوقت الذي أمضيته مع أخينا السيد حسن قاسم العدني كان ممتعا، لايمكن أن أنسى حلاوته. بقيت أفكر في ذلك حتى منتصف الليل، أحدنا من علماء عدن، يتولى عملا يصل به الى اليابان، والآخر يأتي من سيبيريا زاحفا فيلتقي به في اليابان ان هذه الذكرى لايمكن أن تنسى. ان اللسان يعجز عن الحمد والشكر لله.

في منزل «كاكاجي والا طيب»

وفي صباح اليوم التالي شربت الشاي ثم توجهت الى منزل كاكاجي والا طيب علي أفندي. وفي الوقت المحدد حضر مولوي بركة الله والآخرون. وعقب شرب الشاي استأنفنا البحث. وكان الرأي السائد أن مثل هذه المواضيع المهمة اذا أثيرت فلا بد من الخروج من مرحلة التفكير الى مرحلة التنفيذ الفعلي. وتقررت باتفاق الآراء الموافقة الفورية على الأرض التي يعرضها اليابانيون واتخاذ أسباب تملكها. وسجل مولوي بركة الله أفندي النقاط الخمسة بكل تفاصيلها، على أن يعد المشروع في وقت

لاحق، كما اتفقنا على الاجتماع بأوهارا وناكانو واخوانهما في أقرب وقت لاتخاذ القرار النهائي.

قرار العودة

بعد اتخاذ القرار النهائي في الموضوع الذي ذكرته فإنني سأغادر اليابان، ولكن الى أين؟ ليس الى وطني طبعا، بل سأترك اليابان بصورة مؤقته. كنت أجهد نفسي بالتفكير لآنني سأغادر اليابان حاملا على كاهلي مسؤلية كبيرة جدا. وإننا سنعقد مع اليابانيين عهد أخوة، غير أن ذلك سيحملني عبئاً ماديا ومعنويا ثقيلا جدا، والمهمة التي سأقوم بها في الصين بمقتضى هذا العهد تعنى منتهى الخطورة، كان علي أن أفكر في كل صغيرة وكبيرة.

كل هذه النواحي نوقشت بصورة مستفيضة، ولو كتب كل ماقيل لتطلب كتابة مجلدات. والتطويل ممكن ولكني رأيت أن أختصر مراعاة للزمان والمكان.

وفي مساء ذلك اليوم عدت مباشرة الى طوكيو، وكالعادة نزلت ضيفا على ناكاياما. وكانت زوجته (شوزه- حوري) تقرأ جريدة، فقالت لي:- ياأبت سيلقي المنصر الشهير جمس محاضرة في كنيسة سوغومو في الساعة الثانية عشر نهارا.

- حسنا، نذهب ونستمع الى المحاضرة.

- ها، تذكرت، أظن ذلك غدا، وإنني نسيت الوقت المحدد، هناك حفلة على شرفك في نادي «كازيكي كاي كان» وبطاقة الدعوة عند زوجي، كان يتحدث عن تلك الدعوة. لقد غادر البيت صباحا، وأنا كنت في الحمام ولكني وجدت الخبر في صحف الصباح، والى جانبه صورتك.وفي صحيفة هوتشي شيمبون أشياء كثيرة عنك، أقرأها لك ان رغبت.

- اقرأي!

سأبحث في الجريدة كي أجدها فأقرأوها لك. نعم هوتشي شيمبون. كنا نسعد القراء الكرام كل يوم بأخبار عبد الرشيد ابراهيم، ضيف الأمة اليابانية، وقلنا أنه يطوف في داخل البلاد طولا وعرضا، وأنه وصل الى المكان الفلاني في اليوم الفلاني، وأنه لايكل ولا يتعب من التجول في القرى والمدن ويقطع السهول والجبال، ونقلنا الى القراء الكرام خطبه واحاديثه في المجالس العامة والخاصة عدة مرات. وفي هذه المرة علم مراسلنا من مصدر موثوق به بأن السيد عبد الرشيد ابراهيم سيغادر بلادنا قريبا. ونأمل بأن يكون السيد عبد الرشيد ابراهيم قد أعطى لليابانيين دروسا عظيمة جدا، وأوجد رابطة أخوية قوية بين الأمة اليابانية وبين الأمة التتارية، كي تكون هذه الرابطة وسيلة للعلاقات المتينة ومبعثا للعلاقات السياسية والاقتصادية والدينية.

وأملنا أن تكون أمتنا قد اقتبست من فيض مثل هذا الأستاذ القدير. فان هذا الأستاذ الموقر أبدى خلال وقت قصير كثيرا من التوجيهات التي تهدف الحفاظ على سلامة الوطن، وترك لنا أثرا ولتاريخنا كنزا مهما وغاليا.

وسنبلغ القراء الكرام لاحقا بتاريخ وساعة سفر الأستاذ بعد التحقق من ذلك. ومشغولين بترجمة المقالة عندما دخل ناكاياما، فأمضينا وقتا طيبا، قال ناكاياما: أتعلم أن هناك حفلة على شرفك في نادي «كازيكو كايكان KAZEKU KAIKAN»؟

- قالت لي بنتي المحترمة، بأن الخبر نشرته الصحيفة.

-هناك بطاقة دعوة، وأخرج بطاقة مكتوبة بخط اليد.

- في أي ساعة؟

- في السابعة مساء.

- حسنا، وماذا في صحف اليوم؟

-حركة المقاطعة التي بدأها الصينيون ضدنا مستمرة. ان الصينيين يستنكرون أعمال اليابانيين في جزيرة براتاس، وليس هناك أمر مهم غير

هذا وفي الصحف الكبيرة خبر مغادرتك اليابان، ان لم يكن في جميعها. كل اليابانيين يودعونك. وبعضهم يرغب باقامة حفلة توديع.

- لنذهب غدا في الثانية عشرة الى الكنيسة، ففيها محاضرة المستر جيمس.

- نعم أظن بأننا نذهب اليها، واذا ذهبت سيطلبون منك أن تتكلم.

- مرحبا! سأتكلم ان طلبوا.

وفي الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي وصلنا الى الكنيسة البروتستانتية الكائنة بحديقة سوغومو SUGAMO. وكان في الكنيسة حوالي عشرون أو ثلاثون رجلا لا أكثر، وكلهم من النصارى. وقد وصلنا ولا يمكن التراجع. تكلم المستر جيمس موصيا اليابانيين باعتماد الحروف اللاتينية، وقال بصدد فوائد الحروف اللاتينية:هناك كثير من الرجال الأجانب يأتون الى اليابان وهؤلاء الرجال الكبار يلاقون الصعوبات عند قدومهم، ويضطرون الى أن تكون الريكشة دليلا لهم. فالاعلانات واللافتات التي تعتبر مهمة جدا للناس القادمين من الخارج كلها مكتوبة بحروفكم، فلا يفهمونها، ويبقون كالعميان لايرون شيئا. ونحن نعمل هنا منذ حوالي أربعين عاما فلا يمكننا التفاهم مع اليابانيين (أي أنهم لم يتمكنوا من تحويلهم الى النصرانية).

خلاصة القول بأن كلامه كان منصبا في هذه النقطة. وقد ندمت على حضور هذه المحاضرة، فلم يكن هناك شيء ذا معنى. ولما عرض علي أن أتكلم اعتذرت وتلمست الطريق كي أتخلص من هذه الجلسة. ومن يرغب الاطلاع على رأي اليابانيين في هذا الموضوع فليرجع الى الصفحات السابقة من هذا الكتاب.

وبعد أن غادرت الكنيسة توجهت الى ادارة جمعية المؤرخين والتقيت هناك بالسيد تراشي ومع قصر الوقت فاني وجدت الفرصة كي أسأل عن تاريخ اتخاذ مدينة كيوتو عاصمة، وعن تاريخ بعض الأمور الأخرى.

قيل لي: كان ذلك في الخمسين من كاممو تيننو، أي في عام ٧٨٢ من الميلاد، وبقيت عاصمة مدة ألف وخمسة وثمانين عاما. وكانت العاصمة قبلها في مدينة نارا.

أما تاريخ احراق الموتى فقد بدأ في عهد الامبراطور تنمو، وأحرق أول ميت عام ٦٧٣ من الميلاد.

سين يوزي، والد موتسوهيتو، حكم مدة تسعة عشر عاما. مضى على تأسيس جمعية المؤرخين اثنا عشر عاما.

سألت بهذا القدر كيلا يمضي الوقت سدى. ثم شربنا الشاي، وامضينا بقية الوقت في احاديث من هنا وهناك حتى الساعة السادسة، قلنا ومن هنا نتوجه الى نادي كازيكي كاريكان.

وفي الساعة السابعة وصلنا الى النادي، وكان المدعوون يتوافدون، فاستقبلنا الكونت شيبو ساوا SHIBUSAWA عند الباب. ولم تمض أكثر من خمس عشرة دقيقة حتى اكتمل وصول المدعوين.

وعدد المدعوين ليس كثيرا، ولا يزيدون عن أربعين. وقد رأيت بعضا ممن أعرفهم من أعيان المملكة، وأكثرهم لا أعرفهم. والهدف الأصلي من الدعوة الصحبة والحديث.

لم تكن هناك كلمات، بل افتتحت الجلسة برئاسة الكونت اوكوما، وكانت عبارة عن أحاديث وتعارف.

الا أنه في ختام السهرة وجه أحد كبار السن سؤالا للكونت اوكوما (ولا أتذكر بأي مناسبة): متى بدأ الحكم الدستوري في تركيا؟ فأجاب الكونت أوكوما:- لم يبدأ بعد. ففي عام ١٧٨٦ من الميلاد اعد الدستور لكنه لم يعلن لأسباب لانعرفها، ثم أعلن في مارس(آذار) من عام ١٨٧٧ إلا أن الحرب مع روسيا منع من استمراره واستؤنف الحكم الاستبدادي. وفي العاشر من يوليو(تموز) من العام الماضي أعلن الحكم الدستوري لكنه في عام ١٩٠٩ وقع انقلاب رهيب، لننظر الى اين يؤدي بهم هذا الانقلاب. وقبل أربعين عاما كان وضعنا مماثلا لوضع تركيا. لكن أوربا لم

تكن تتدخل في شؤوننا، واليوم تتدخل أوربا في كل صغيرة و كبيرة في تركيا. ولذلك فان وضعهم صعب جدا.

وانتهت السهرة في الساعة التاسعة. ومن هناك عدنا الى منزل ناكاياما.

جمعية «آسيا - غي - كاي»

تقرر تأسيس جمعية في طوكيو تعمل على نشر الاسلام في اليابان. وقد وجدنا أنه من الأنسب عدم الافصاح عن هذا الهدف بشكل مباشر ولو مؤقتا خشية تعرضها لهجوم الأعداء فسميناها جمعية «اسيا-غي- كاي» التي تعني (جمعية الدفاع عن آسيا.

أما منهج وبرنامج الجمعية فسيكون شعاره مضمون الحديث الشريف «وكونوا عباد الله اخوانا». ولضمان استمرار الجمعية اشترطنا على أعضائها التزام معنى الآية الكرية ﴿وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا﴾ نصا وروحا. وبناء على هذا فقد أسسنا جمعية «اسيا-غي-كاي» يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الأولى هام ١٣٢٧ من الهجرة (١٩٠٩/٦/٧م)، ووقعنا على قرار التأسيس على النحو التالي:

وفي التاسع عشر من جمادى الأولى الاثنين: قدم كل من مولوي بركة الله صاحب وحاجي ولي تراب علي زاده، وعبد الغفور ملكجي زاده طيب علي وكاكاجي والا الى طوكيو. وتوجهنا معا الى مقر الجمعية في «تووا-دوبوكايكان TOWA DUBUKAIKAN».

وفي مقر الجمعية سلمني الأخ أوهارا صك تمليك أرض المسجد أمام السادة المذكورة أسماؤهم أعلاه. وأنا بدوري سلمت الصك لتراب علي حاجي ولي محمد، لأن هذا الرجل سيكون هناك بصفة دائمة وقد انتخب مديرا لشؤون بناء المسجد. كما أن الثقة فيه تامه باعتباره أحد التجار المعروفين، فكان من الأفضل أن يكون هذا الصك الثمين في عهدتهم.

وهكذا تم تأمين الأرض التي سينشأ عليها المسجد في طوكيو. وهو بحد ذاته نجاح كبير. لأن أسعارالأراضي في وسط طوكيو مرتفعة جدا بحيث لو أردنا شراءها لتعين علينا دفع مبالغ كبيرة جدا.

وكان تحقيق هذا النجاح نعمة كبيرة من نعم الله تعالى علينا، وشعرنا براحة واطمئنان كبيرين. ولعلني لا أبالغ اذا اعترفت بأني كدت اطير فرحا، هذه الفرحة التي أحسست بها أردت أن أنقلها الى عموم المسلمين كي يشاركونا فرحتنا، فقررت الحديث عنها في الصحف. والمقالة الأولى أرسلتها الى جريدة «بيان الحق» التي تصدر في قازان وهذا هو نص المقال:

قالوا «إن لسان الخلق قلم الحق»

منذ مدة غير قليلة تدور كلمة الدين الاسلامي على لسان الناس في اليابان. حتى أن تتاريا من روسيا قدم الى اليابان وسأل الكونت اوكوما سمعنا بأن امبراطوركم الميكادو سيدخل في الاسلام، فهل لهذا الخبر من أساس؟ وقبل عامين جاء رجل من القاهرة، والتقى ببعض الناس وقال: اذا دخل الميكادو في الاسلام، فاني سأكون شيخا للاسلام. وجاء بعض الناس من اسطنبول، والتقوا ببعض الشخصيات وقالوا مثل هذا الكلام.

اما نحن فلم نصل الى ماوصلوا اليه، لكننا تحدثنا دائما في المجالس العامة والخاصة عن محاسن الدين الاسلامي. كنا نحاول ازالة الشبهات التي تعلق في أذهان بعض الناس عن بعض المسائل، وكنا نتحدث بصراحة عن مقاصد المنصرين، مبينين بأن الدين الاسلامي يوافق طبائع الأمم الشرقية، لكنه لايجبر الناس على اعتناقه، مؤكدا بأن على طلاب الحق أن يبحثوا عن الاسلام.

وهكذا أمضيت أربعة شهور، وأيدني في رأيي كثير من الرجال وأبدوا هذا التأييد والتشجيع قائلين: اننا نريد أن ينتشر الاسلام في اليابان وسنكون عونا لك بكل مانستطيع، فتابع جهودك.

ومن جانبي قلت لهم: في ديننا الاسلامي ليست هناك حاجة الى المساجد إلا أنهم أصروا على بناء مسجد. أما أنا فكنت أفكر دائما، مكررا لهم بأنه ليست لدي مثل هذه النية. وهكذا مضت الشهور و"العبد يدبر والمولى يقدر.

وذات يوم اجتمع عدد من شخصيات طوكيو المعروفين وهم: كاوانو رئيس مجلس النواب سابقا، وناكانو المدير المسؤول والمحرر بجريدة «داي طوكيو» وأوهارا من أصحاب الرتب العالية، واينوكاي رئيس جمعية أهل الترقي، وتوياما رئيس جمعية المحافظة على الأخلاق الوطنية وقالوا:- اننا نريد من صميم قلوبنا أن ينتشر الاسلام في اليابان، وأن شعبنا أمره عجيب، إنهم لايرغبون بشيء لايرونه بأم أعينهم، فحين يأتي المنصرون الأوربيون يبادرون أولاً بانشاء كنيسة وإننا نرجوك بأن تتعهد بنشر الدين الاسلامي، وتبذل جهودك وتلتزم بهذا العمل ونحن بالنيابة عن الأمة اليابانية سنجد الأرض لبناء المسجد والمدرسة، لنبن المسجد والمدرسة ونؤسس شعار الاسلام...

لم أعرف ماذا أقول من شدة فرحي، قلت سأستشير وأستخير، وأعطيكم الرد بعد يومين أو ثلاثة، وسافرت الى يوكوهاما وهناك بحثنا الموضوع مع تراب علي زادة وهو أحد التجار المعروفين هناك (ومع السادة الذين ذكرت أسماءهم أعلاه) مدة يومين، ورأينا بأن رفض مثل هذا العرض سيكون من قبيل الكفران بالنعمة الذي يورث الندامة، وأخيرا تقرر القبول. وقالوا بأن الأموال اللازمة لبناء المسجد والمدرسة يجمعها أهل الحمية والهمة من المسلمين في أنحاء الكرة الأرضية، وتكفلوا القيام بأعباء هذه المهمة، وانتخبوا من بينهم حاجي ولي محمد أفندي ابن تراب علي أمينا للصندوق، كما تعهد كل من طيب علي وعبد الغفور استلام

الأرض مؤقتا. وأنا بدوري قمت بابلاغ اخواننا اليابانيين بأن فلانا وفلانا وفلان من التجار الهنود المعروفين تعهدوا ببناء المسجد.

وقد أبدوا سرورهم، وقالوا بأن الأرض ستكون جاهزة خلال عدة أيام. وبعد عدة أيام أتاني السيد ناكانو وقال: - الأرض جاهزة الآن، هناك قطعتان من الأرض فاختاروا أيهما شئتم.. أحداهما قرب القصر الامبراطوري، أي في موقع مركزي، لكن المساحة صغيرة، أما الأخرى فهي قرب جامعة واسيدا وهي واسعة وهواؤها طيب.

وعلى اثر هذا التطور سافرت الى طوكيو ثانية، وبحثت مع اخواني هناك موضوع اختيار موقع الأرض، وبعد مناقشات طويلة حول المكانين قرر الأكثرية اختيار الأرض الواقعة قرب القصر. ومع ذلك فان اخواننا اليابانيين تركوا لنا الخيار في المكانين لمدة ثمانية شهور.

الحمد لله ثم الحمد لله، لقد وفق الله عاجزا مثلي للقيام برحلة حول العالم، وأكرمني الله بهذه النتيجة في أولى خطوات هذه الرحلة. ولا أشك أبدا بأن أهل الايمان سيقدرون ويؤيدون هذه الخطوة الموفقة وسيشاركنا أهل الحمية في هذا العمل الخير.

وإني أقدم لأهل الحمية بعض المعلومات عن شخصية حاجي ولي محمد، أمين صندوق اللجنة المشرفة على بناء المسجد:

هذا الرجل كما نراه في الصورة (صورته نشرت في صفحة سابقة من هذا الكتاب)شاب لايزيد عمره عن خمسة وثلاثين عاما. تجول في ديار العرب برا، وسافر من صنعاء الى مكة ماشيا، ورحل الى أفريقيا والحبشة وجاوا وسومطره، وتجول أيضا في جميع أنحاء الصين وجمع معلومات تجارية عنها، كما جمع ثروة كبيرة. هدفه وفكره التوسع في التجارة. يجيد العربية والانجليزية واليابانية والصينية، والجريدة المفضلة لديه هي «نيويورك هيرالد» وصديقه «طيب علي عيسى بهائي» ومقره التجاري الأساسي في بلده بومباي، وله فروع في لكهنو وكالكتا ومدراس وسنغافورة وخانكان وشانغهاي وكوبي ويوكوهاما. إن هؤلاء هم الذين

تكفلوا بتنفيذ بناء مسجد طوكيو وسأبين في صحيفة «بيان الحق» مدى اخلاصهم وحبهم للاسلام وقوتهم الدينية

كما أرسلت مقالات أخرى لمجلة «الصراط المستقيم» الصادرة في دار الخلافة العظمى، و«البيان» الصادرة في الهند.

وعلى اثر ذلك أرسل رجل اسمه أمين بخش وهو من أغنياء الهند وأحد أصحاب النخوة والحمية، رسائل وعد فيها بتقديم المساعدات. (والمراسلة بيني وبين هذا الرجل مستمرة).

سنغادر اليابان

لم يعد هناك متسع من الوقت، أهيء نفسي لمغادرة اليابان بعد خمسة عشر يوما. منشغل كل يوم في زيارات الوداع، هذه الأيام هي أثمن الأيام التي أمضيتها طوال عمري.

كنت في زيارة أحد كبار الشخصيات التي تربطني بهم مودة صادقة. وبعد لقاء طويل جدا وعهود قطعناها أهداني «سيفا» كي يكون ذكرى. ولما تناول السيف ليسلمني اياه ركز عيونه في عيوني وقال: كنت أقول أخي، أما الآن فأقول لك ياأبي، ان هذا السيف هو أعز وأغلى ماأملك. انه صاحبي منذ خمسين عاما، حاربت به في الداخل والخارج. وفي آخر مرة قطعت به رؤوس ثمانية عشر من الأعداء. وهذه المره اوثر به والدي. كنت حتى هذا اليوم سعيدا بهذا السيف وبعد اليوم سيسعد قلبي. أيها السيف اني اودعك. إنك ذاهب الى بلد النبي ﷺ. لن يذكر اسمي، ستكون هناك نيابة عني. ومد السيف إلى بعيون دامعة. أما أنا فقد كنت مذهولا لما يجري.

أوردت الصحف اليابانية مقالات مفصلة عن هذا السيف، ذلك بأن للسيف مكانة في التاريخ الياباني. وأنا سأكتفي بالحديث عن هذا السيف

بقولي: كان لهذا السيف قيمة عظيمة عندي. حملته من اليابان حتى وصلت به الى مكة المكرمة. وفي سفري تعرضت لمشاكل كثيرة، رميت عني كل شيء لم استطع حمله، لكني لم أترك هذا السيف من يدي، رغم أن حمل السلاح ممنوع في الهند، والانجليز لايسمحون حتى بحمل سكين، إلا أن السيف بقى معي. ومن فضل الله تعالى لم يسألني أحد ماهذا الذي تحمله. وأخيرا قدمته على حسب رغبة صاحبه الى سيدنا الشريف حسين في مكة المكرمة، وهو من السلالة المحمدية الطاهرة.

على وشك مغادرة اليابان

لم انته من الوداع بعد وعندما ودعت السيد تورموز عضو البرلمان قال:- أنا الذي أعرف مدى حبي لك ولا أجد حاجة لأن أقول شيئا في ذلك. وإنني سأكون أكبر خادم لك عند عودتك الى اليابان ولاأقول هذا باسمي فقط بل نيابة عن كل المواطنين الذين انتخبوني لهذا المنصب. إننا جميعا نحبك.

ها! تذكرت: قرأت في جريدة تايمز أن العرب خربوا الخط الحديدي الحجازي قرب المدينة، تأثرت كثيرا. فهل ذلك من دسائس الأجانب؟
لم استطع أن أعد هدية لك، سأهديك قلبي، إن قلبي سيكون بعد الآن مشغولا بذكراك. كنت أسمع مثل هذا الكلام فينعقد لساني. كنت أحزن لفراقهم مثل حزني لفراق أهلي وبلدي.

وداع الكونت اوكوما

قصدت منزله لوداعه، أخبرت بأنه مريض، طريح الفراش ولم يخرج منذ يومين، ومع ذلك فاننا سنبلغه. استرحت قليلا، طلب منهم أن أدخل عليه في غرفة نومه، فلما دخلت قال:

- أرأيت بأية حال أنا.. كيف سأودعك؟.. لا لايمكن هكذا، بل سأنزل الى محطة القطار.

- عافاك الله. ولكن لاأريد أن تتجشم تلك المشاق. اتمنى لك المعافاة ولكن لاأريدك أن تنزل الى المحطة. أنا الآن عندك، أودعك ان أذنت، فان وجدت الفرصة اتي مرة أخرى قبل السفر.

- لا لا، أنا أعرف واجبي. لابد أن أخرج من البيت غدا، وسنلتقي غدا مرة أخرى، أما اليوم فانني منزعج قليلا أرجو عفوك. ولكن لابد لي من القول بأنني أمضيت معك أياما سعيدة لايمكنني أن أنساها، و أن لي شرطا، فراقك هذا سيكون لفترة قصيرة، ونرجو أن يكون من حظنا أن نستقبلك استقبالا عظيما وانني لعلى يقين بأن اللقاء سيكون قريبا، وكلما كان أقرب كان أحسن، كما انني أتوقع أن تتوالى رسائلك، فلا تنسانا.

وهكذا ودعته وغادرت منزل الكونت، ثم عرجت على جامعة واسيدا لتوديع هيئة التدريس. فودعتهم.

ولدى خروجي من الجامعة وجدت جمعا كبيرا من الطلاب لدى الباب فحيوني وهتفوا جميعا ثلاث مرات «بانزاي» فتوقفت، وألقيت فيهم كلمة قصيرة، ثم غادرت المكان وركبت الريكشة وسط هتافات الطلاب بحياتي. ومن هناك مررت على كثير من الأماكن فودعت أحبابي.

العشاء في منزل أوهارا

وللمرة الأخيرة دعانا الأخ اوهارا الى طعام العشاء، وحضر تلك الليلة أربعة أو خمسة من اخواني كي نكون معا في الليالي الأخيرة من إقامتي في اليابان.

وفي أثناء الطعام، تحدثت عن سيرة النبي ﷺ وعن بساطة عيشه، ومعاملته لأصحابه، وأسباب زواجه من زوجاته الطاهرات. فكانت شدة الانتباه منهم تشجعني على أن أقول المزيد.

وفي ختام السهرة قال أوهارا:- أريد أن أشبه مجلسنا هذا بمجلس رسول الله مع أصحابه الكرام إذ أني أتوقع أن يأتي يوم ينتشر فيه الاسلام في اليابان بتلك الصورة. ندعو الله أن يحيينا لنرى تلك الأيام. لنعمل ياأستاذ بشكل متواصل، سينمو الاسلام في هذه الديار وفي خلال عشر سنوات سيكون لنا شأن كبير في اليابان، وأعتقد بأن الذين اعتنقوا النصرانية سيتحولون الى الاسلام.

وكلما سمعت مثل هذه الآراء من رجل مهم مثل أوهارا، أرى أنها ستتحقق. ومن شدة فرحي كنت أضحك أحيانا، وأبكي ان وجدت فرصة للبكاء. والحقيقة ان لذة الساعات والدقائق التي أحسست بها في تلك الأيام يعجز عن وصفها لساني، كما يعجز قلمي عن القيام بواجب الشكر والثناء.

ذكرت سابقا بأن اليابانيين لايسهرون الليالي، فاذا أرخى الليل سدوله ناموا، لكننا في تلك الليلة سهرنا حتى الساعة الثانية، قال الجميع: هذه أول ليلة في حياتنا نسهر، ولم يغادر أحد فتمدد كل واحد في مكانه ونام. ان ايماني بالمعنويات ليكبر كلما تذكرت تلك الأيام، ولو دقق الانسان بشيء من الانصاف، فلا يسعه أن ينكر هذه المعنويات، وأعتقد اننا اذا نظرنا الى حاجة شعب متمدن ومتطور مثل الشعب الياباني لرجل عاجز مثلي، فهمنا أسباب حاجة البشرية جمعاء الى البعثة النبوية.

سنودع اليابان

انها أيامي الأخيرة في اليابان، كثير من الزوار يتوافدون علي ليل نهار، وأنا خصصت وقتي كله للوداع، ومن جانب اخر لا أهمل اتخاذ التدابير الكفيلة لنشر الاسلام في اليابان. لأن الباب قد فتح.

وما أفكر أن أركز عليه أو أهتم به بشكل خاص كان ينصب في الأمور السياسية.

وذات ليلة اجتمع حوالي خمسة عشر رجلا من أعمدة الحماس والنشاط، فتحدثت اليهم عن مزايا حج بيت الله الحرام الذي يعتبر من أركان الدين، وعن الفوائد التي يجنيها المسلمون من اجتماعهم هناك وأن العالم المتحضر سيقدر قيمة هذا الموسم الاسلامي في المستقبل.. فقدمت اليهم معلومات واسعة عن الأحكام المعنوية للحج. واستغرق الحديث ثلاث ساعات. ورأيت من المناسب عدم نشر ماتحدثت به احتياطا لعلاقته بالناحية السياسية. واعذروني لتأجيل الافصاح عنه الى وقت آخر.. وأكتفي بالقول بأنه بعد أن فصلت في الموضوع تكلم السيد فكوشيمة فقال:

أيها السادة! بالرغم من التطور الحضاري الذي يشهده العالم، فان العقليات الصدئة منذ آلاف السنين ابتعدت عن الحقائق بسبب الحمية الجاهلية والدعاوى العصبية وإنهالم تتخلص من الأسر حتى الآن. ومع ذلك فان البحث عن الحقيقة امر معروف لدى الناس جميعا، ولا ينكر سعي علماء الكون لكشف الحقائق، وتجد اليوم في اوربا وآسيا وأفريقيا حرية الرأي وحرية الكلام وحرية النشر وغيرها من الحريات إلا أن حرية الفكر لاتجدها في اية أمة من الأمم. لأن أفكار الأمم واقعة في الأسر المعنوي، وحبيسة التقليد الأعمى، ومهما ادعى الناس الحرية فانني لاأجد أناسا يتمتعون بحرية الرأي. إن بعض الناس يظنون أنهم يملكون حرية الرأي، انهم يظنون ذلك لأنهم لايعرفون ماهي حرية الرأي.

انني أقول وبناء على معلومات الأستاذ: لقد أكملت دراستي في انجلترا، وتعلمون بأن انجلترا أكثر البلدان حرية، ولكن أؤكد لكم بأن الحرية التي عرفها الأستاذ غير موجودة هناك.

وبعد هذه المقدمة الطويلة أريد أن أقول بأنه ليس هنالك من شك بأن الحضارة ستتطور وعندها سيملك كل انسان حق التعبير عن رأيه بكل

حرية، وتكون للحقائق الاسلامية المكانة التي تستحقها. إنني متأكد من هذا تمام التأكد وعندها سيفهم الناس بأن لحج بيت الله الحرام وهو أحد أركان الاسلام ميزة كبرى لبني البشر، اكرر وأجزم بهذا. سيأتي يوم تظهر فيه هذه الحقيقة وسيحاول علماء النصارى وغيرهم وضع العراقيل أمام الحقائق الاسلامية، لكنها في النهاية ستصل الى الهدف المنشود شاؤوا أم أبوا.

والآن لي اقتراح على جمعيتنا ورجاء من أستاذنا. أطلب منكم الموافقة وأرجو من أستاذنا القبول.

ان أي رجل من هذه الجزيرة لم تطأ قدمه تلك الأراضي المقدسة حتى الآن، ولم ير ولم يعرف حال اخواننا الذين يجتمعون كل عام هناك. علينا الا نضيع هذه الفرصة ونرجو من أستاذنا أن يتفضل بالسفر من جزيرتنا الى الحجاز مباشرة؛ وان كان ممكنا أن يصطحب معه واحدا منا، كي نقيم العلاقات مع اخواننا منذ اليوم، أو على الأقل أن يسافر الأستاذ ويبلغهم سلامنا، أما اذا وافق على أن يرافقه واحد منا فنور على نور. لنذهب. من سيذهب؟ ان وافق علي أنا.......... فلن أتردد في الذهاب
ما تقولون أيها الرفاق؟ إني أطلب منك هذا.

وتوقفت الأذهان عن التفكير، وساد الجو سكون مطبق. لايستطيع أحد أن يقول شيئا، صرت في حيرة من أمري.

قلت:- ياأخي، لقد ذكرت أمراً خطيراً، وإني كنت أنوي، عندما عزمت على السفر، أن أكون في مكة عام ١٣٢٨.. حيث لا أستطيع اللحاق هذا العام. ثم انك لن تستطيع مرافقتي. لأنني سأتجول كثيرا.

- لاعليك، أينما ذهبت سأكون خادما لك، ثم ان هناك متسع من الوقت، ولكننا نرجو منك، أن تكون هذا العام في عرفات كي تبلغ سلام اليابانيين الى اخواننا، ثم ان يسر الله علينا نرسل كل عام بعض الرجال. إننا نرجو منك هذا بكل احترام وسنهيء لك أسباب السفر. إن وجودك هناك باسم اليابانيين شرف كبير لنا ونرجو التفضل بالقبول.

من أين بدأنا والى أين وصلنا. الحقيقة أن الانسان يحار كلما لاحظ مثل هذه الأحوال. سبحان خالق الأسباب.

وأيد كل من كان في الاجتماع رأي الأخ فكوشيمه FUKU SHIMA، وقرروا أن يجدوا رجلا مناسبا يرافقني. ثم ظهرت بعد ذلك بعض الأسباب ففضلنا أن أخرج من اليابان وحدي. مؤكدين بأنهم سيجدون الرجل الذي يلحق بي كي يحضر حج عام ١٣٢٧. وانتهى الاجتماع على هذه الصورة.

سنرحل عن اليابان

أقمت في اليابان شهورا، ولقيت كثيرا من الحفاوة والتكريم، ومن الطبيعي أنه «من لم يشكر الناس لايشكر الله». إنني ممتن كثيرا وشاكر لهم. وفي بعض الليالي يطير النوم من عيوني وأظل أفكر حتى الصباح. وكأن نفسي لاتريد فراق اليابان. انها الأيام الأخيرة. وذات صباح زرت صديقي السيد تاناكه. دخلت من الباب، فرأيت بيده عصا فيها شيء من الاعوجاج. كان يمسكها بيد من منتصفها وسحب شيئاً بيده الأخرى فاذا هو سيف. استقبلني وبيده هذا السيف. ولما وصلت امامه جلست. رفع تاناكه حد السيف الى أعلى ومد يديه الي لمصافحتي وقال:- أعاهدك هذا اليوم بحق هذا السيف إن هذا السيف (كامي سامه KAMI SAMA)[(١)]. وأؤكد عهدي بهذا السيف انني سأكون منذ اليوم خادمك وإن قلبي نسخة مطابقة من قلبك فان أهملت القيام بواجبات هذا العهد قيد أنمله فليكن هذا السيف خصمي. ثم وضع السيف في غمده وناولني اياه وقال:- اعط هذا السيف لمن تراه أهلا له في مدينة رسول الله، فليبق هناك، ثم جلسنا وتحادثنا وشربنا الشاي وأكلنا، كانت زيارة الوداع هذه جادة وصادقة.

---

(١) كامي سامه: هذا الإسم يطلقه اليابانيون على الله. إما إذا قالوا عن السيف كامي سامه فهذا يعني بأنه رباني أو مقدس وقولهم عن الميكادو «تينو سامه TENNO SAMA» فهو من هذا القبيل.

(هذا السيف أهديته للسيد علي حبشي من أكابر سادات المدينة المنورة)

قدح هدية

دعاني رجل، بيني وبينه صداقة قوية، وهو عضو في البرلمان ومن الأسرة الامبراطورية، دعوة خاصة. كنا نجلس معا دون أية رسميات أو تكلف، لكنه في هذه المرة استقبلني بالباب بملابسه الرسمية، فعجبت لأمره كثيرا. وبعد أن دخلت منزله جاؤوا بالشاي، ومضت خمس دقائق. واذ بصديقنا يأتي بشيء ملفوف بمنديل أصفر، ومده الي بكل احترام وقال:- أقدم هذا لك، إنه هدية «تينو سامه» موتسوهيتو. هذه الهدية ليست كبيرة لكنها من صنع يد الامبراطور شخصيا، ومختومة بعلامة مخصوصة. انها ذكرى ستكون وسيلة للقاء معه ان عدت الى اليابان بسلامة الله.

نهضت واقفا، وقبلتها بكل احترام وتقدير. وأحسست في قلبي بفرح لايوصف. فتحت المنديل، فوجدت بداخله علبة خشبية عادية، لكنها ملفوفة بشريط أخضر بشكل عجيب. انها علبة صنعت من خشب عادي بيد موتسوهيتو لكن فن الصنعة باد عليها. فتحت العلبة، فوجدت بداخلها قدحا صبغ بلون أحمر، ولف بقطن أبيض. وفي داخله علامة خاصة بلون الذهب، بمثابة الختم الذي يستعمل لتمييز الأدوات الخاصة بالميكادو.

نعم انه عادي وصغير جدا، لكن قيمة الهدية تتضاعف كثيرا ان أخذنا بعين الاعتبار الفرق الذي بيني وبين موتسوهيتو، وصنع هذه الهدية بيده شخصيا. والختم الذي بداخل القدح معروف لدي كل ياباني، فان رأوه أخذوا وضعية خاصة كالتي تكون أثناء العبادة، ويقدمون الاحترام والتعظيم، ويذكرون اسم «تينو سامه».

ومع ذلك فقد نشرت الصحف اليابانية مقالات كبيرة عن القدح، وأكبر المقالات نشرتها صحيفة «هوتسي شيمبون» في عددها الصادر يوم الخامس عشر من حزيران «يونيو».

أنا لاأقول ذلك في مجال الفخر، وانما ابين للقراء أن ذلك حدث فعلا، ، كما أرجو أن ألقي المسرة بهذا الخبر في قلوب المؤمنين، امتثالا لقول الله عز وجل (وأما بنعمة ربك فحدث)، واذا ألقى الله في قلب رجل مثل الميكادو قطرة من المحبة فلا غرابة في ذلك أبدا. بل يكون الاسلام شاكراً لسياسي مثل الميكادو الذي يسلم الكل بحسن تدبيره وكماله.وسلوك صاحب الكمال لدين غير دين الاسلام في هذا القرن العشرين، كمن أضاع سبيله في وضح النهار.

وبعد أن قدم صديقنا هذا القدح، دخل الى غرفة أخرى وغير ملابسه ثم عاد. وبدأنا بالحديث مع شرب الشاي، وأمضينا قدر ساعتين على هذه الحالة. ودار الحديث حول امكانية عودتي الى اليابان ثانية والقيام ببعض الأمور. ومن الطبيعي أن يتعذر ضبط كل مايجري من الأحاديث مع هذه الشخصيات، كما لايمكن نشر بعض مضامينه ومفاهيمه في عالم المطبوعات. ولذلك آمل من القراء الكرام العفو فيما قصرت.

ومع ذلك فانني أبين ما أمكنني ضبطه وتسجيله من خلاصة الخلاصة، وفي الأيام الأخيرة خاصة لم أتمكن من تسجيل أكثر الأحوال.

من دفتر الجيب

أعرض على القراء الكرام ماسجلته في دفتر جيبي أثناء اقامتي في اليابان. وطبيعي أن يكون من بين ماسجلت أشياء لامعنى لها، لآن بعضها كتب من قبيل الترويح عن النفس وبعضها كان على شكل علامات لتذكر شيء فيما بعد. ولكن تعذر التذكر وبقيت العلامات.

" - المسافة من موسكو الى فلاديفوستوك ٨١٣٦ جاقرم (ورست)

" - في مدينة بينه سه ي رأيت رجلا راكبا زحافة يجرها ذئبان.

" -في الثلاثين من تشرين الثاني(نوفمبر) رأيت في المنام حريقا في منزل أب زوجتي. أرجو أن أتلقى رسالة من الأهل.

" - الأسئلة التي ستوجه الى حامبالامه: لماذا تلقى الأموات، عدد الفرق المتشعبه عن المذهب البوذي، مسألة أراضي البورات. ماعدد المتنصرين من البورات، وهل هناك نادمون. أحوال حوتوتو. من هو الدالاي لاما. ظلم الحكومة الروسية.

" - ورد في برقية المساء خبر افتتاح مجلس المبعوثان العثماني يوم الجمعة الخامس من كانون الأول. ٢٥ ذي القعدة.

" - قالوا بأن عدد المهتدين في مدينة اودين العليا كثيرون.يجب كتابة مقال حول الموضوع.

"- مسجد مدينة جيته جميل جدا.

"- في مساء الخميس من ١١ كانون الأول رأيت هلال ذي الحجة كان واضحا حتى الساعة السابعة والنصف.

" - في جيجكار نزلت ضيفا على رجل مسلم، اسم صاحب المنزل واك-تياك -تاك، واسمه العربي يوسف. في هاربين عبد اللطيف أفندي تينابيف انسان طيب جدا.

"- أمر الله أفندي قال: اذا شعرت بضيق شديد أرسل الي رسالة أرسل لك نقودا.

" - في هاربين لقيت بعض الصعوبات من أجل جواز السفر.

" - في الثلاثين من ذي الحجة رأيت في المنام المرحوم نعمة الله حاجي. لو علم أنني سأسافر الى اليابان لفرح كثيرا.

" - رأيت الهلال، وعليه فان أول المحرم سيكون يوم الأربعاء.

" - سأسافر من فلاديفوستوك الى سونيغا بالباخرة اليابانية. اسم الباخرة (هوزان مارو)

״- الجو لطيف، والباخرة جميلة.

״ - في يوم عاشوراء وصلت الى يوكوهاما.

״ - أرسلت رسالة للأهل ومقالة للجريدة.

״ - ابن مليونير اسمه يواسا، أكمل تحصيله العلمي في أوربا أراد الزواج من بنت رجل فقير اسمه ايتاناكي تايسكي LIANAKI TAISUKE، لكن أبا البنت أجاب بأنه لايزوج بنته من أجل المال أبدا. جريدة هوتشي شيمبون كتبت عن الموضوع بالتفصيل. ٣ كانون الثاني.

״ - مجموع الأطفال اليابانيين الذين بلغوا سن الدراسة ٦٨١٩٢٩٩ ومجموع الذين يدرسون منهم ٦٦١٠٦٢٥

״ - «ياسوكوني جنجة YASUKUNI JINJA- جاوو كونجه» اسم مقبرة في طوكيو. أحرقت أجساد الذين قتلوا في الحرب الروسية، ودفن الرماد في هذه المقبرة. **الامبراطور موتسوهيتو يزورها مرة في العام.**

״ - اولى **الدرجات التي يصل اليها** أتباع المذهب البوذي بالتربية هي هينياست - **يفكر الى جانب مصالحه بمصالح غيره**، ولا يفكر بأن يسيء لأحد.

״ - هينايانه- يفكر في المصلحة العامة فقط، دون أن يفكر في الاضرار بنفسه.

״ - ماهايانه - يضحي بنفسه من أجل المصلحة العامة يتحمل كل بلاء. وهي درجة عالية ونهائية.

״ - واجريانه- يتخلى عن كل شيء ويضحي بنفسه من أجل الحياة الأبدية ويعني (فني في الله)

״ - في المذهب البوذي تعتمد السنة القمرية.

״ - حتى تتعلم المذهب البوذي حقيقة، يجب أن تعرف اللغة والأدب المغولي.

״ - قال الأمير ايتو:عندما تتفتح الزهرة فاسأل عن سكون الجو. سياسة.

« - كان اليابانيون يسمون أنفسهم قديما بامبراطورية الشرق.

« - لم يحدث في اليابان نزاع من أجل الدين أبدا. «الكونت اوكوما».

« - يمكن لليابان بعد خمسين عاما أن تكون واسطة للصلح والسلام. «الكونت اوكوما»."

« - اليابان لاتسعى الى الحرب، لكنها لاتتردد في دخولها عند اللزوم.: «الكونت اوكوما».

« - اليابان تستطيع أن تحافظ على مكانتها أمام كل دولة. كاتسورا

« - تروي التواريخ اليابانية بأن جنرالا يابانيا اسمه ياسيجنر كان قائدا في الجيش التتاري قبل ثمانمائة عام.

« - الرجل الذي حاول اغتيال اوكوما وزير الخارجية قبل عشرين عاما، ظن أن الاتفاق الذي عقده مع الأوربيين كان مضرا باليابانيين. اسمه كيروشيما جينه كو ز عمره ٣٢ عاما.

« - في الحادي عشر من شباط من العام الثاني والعشرين من عصر ميجي، قتل وزبر المعارف موري يوري. سألوا القاتل:لماذا قتلته؟ أجاب: انه قصر في الاحترام تجاه منصب مقدس في ديننا.

« - عدد مدارس البكم والعميان في كل اليابان ٤٢.

« - طالب اسمه ايموره جو نال أثناء دراسته هدايا الامبراطور موتسوهيتو ثلاث مرات عمره ٦٦ عاما وفي هذا العام أكمل المدرسة الحربية.

هوتشي شيمبون

« - الانقلاب في تركيا:في سنة١٨٧٦تقرر تطبيق الحكم النيابي الا أنه تعرض للتأخير، ثم أعلن في مارس (آذار) عام ١٨٧٧ ولكن بسبب الحرب الروسية ووقوع اضطرابات داخلية الغى. وفي عام ١٨٩٥ وقعت أحداث الأرمن؛ وفي عام ١٨٩٧ وقعت الحرب مع اليونان و في عام

١٩٠٨ لم يستطع عبد الحميد مقاومة جيش سلانيك فاعيد اعلان الحكم النيابي.

في الفترة من ١١ نيسان (ابريل) الى ١٤ نيسان عام ١٩٠٨ صدرت الفتوى بخلع السلطان عبد الحميد ويحتمل استمرار الحكم النيابي بعد الآن (هوتي شيمبون).

« - الواردات الصافية لسجن طوكيو من مشغولاته بلغت ٩٠ ألف ين في العام.

« - في يوم الأحد الثامن من شباط رأيت هلال صفر الخير وأظن أنه اليوم الأول منه.

« - اليابانيون في جزيرة هوكايدو HOKAIDO كلهم ملتحون. ويحتمل أن ذلك بسبب البرد.

« - بيع الأرض للأجانب في اليابان ممنوع بتاتا، الأجانب يستأجرونها.

« - مشيت سيرا على الأقدام ٣١٧٧٢ خطوة، لا أدري لماذا تعبت.

« - اسم امام هاربين واك- حوك- بين.

« - الاسم الصيني لموقدن (شي ياك)

« - الاسم الصيني لبور ارتور (لوي- شوين كوي)

« - اسم مدرس جيجكار واك- يوك كوي. واسم أبيه واك- تياك - تاي.

« - في كانون الأول من عام ١٩٠٨ حدثت هزة أرضية قوية في ايطاليا وإن وكالات الأنباء في مسينا وباليرمو وصقلية أوردت في أخبارها من نابولي أن عشرة آلاف من السكان تركوا المدينة. وبقيت أجساد ثلاثين ألف انسان على الأرض دون أن يدفنها أحد. يقدر أن عدد القتلى نصف مليون انسان.

جوزيف مانديك، أشهر الأغنياء في ايطاليا بقي دون مال أو مأوى ويقيم الآن مؤقتا في العربة رقم ٢٥٠٠ في محطة قطار الحديد.(قرأت الخبر في جريدة هاربين).

« - وردت برقية أخرى تفيد بأن الهزة الأرضية حركت أصحاب السوابق فصاروا ينهبون، وتحولت المدينة الى مرتع للوحوش.

« - في متحف طوكيو «بولوميت» من ٢٨ رقم اخترع عام ١٦٢٠.

« - اثناء اتفاقية تسليم وتسلم بور أرتور صورة ل نوجي اشتوسل ومعيته.

« - في الثاني والعشرين من نيسان رأيت في المنام أنني أقرأ خطبة من على منبر عال جدا، كانت الخطبة باللغة العربية. وبعد هذه الخطبة وجدت في جسمي نشاطا قويا. في رؤيا ٣٠ نيسان: بعد الوضوء لبست ملابس جميلة وطويلة وركبت الدابة وخرجت للسفر. طريقي يمر من داخل كنيسة، وفي الكنيسة نعم طيبة وأطعمة غريبة، قابلني راهب. قال: أعطيك زادا، فأعطاني ثلاث قطع من الخبز ولكن هذه الخبز له ألوان عديدة لم يكن يشبه الخبز الذي أعرفه، وضعت قطعتين في جيبي وأكلت من الثالثة لقمة ثم وضعتها في جيبي، كانت اللذة عجيبة، ولما أفقت كأنني أحسست بلذة.

« - في تلك الليلة توضأت في المنام ودخلت مسجد أحد الأحياء، وصعدت المنبر لالقاء الخطبة. وبعد الأذان بدأت بالخطبة وبعد أن قلت الحمد لله ثلاث مرات أفقت من نومي.

« - ٣ جمادى الأولى، رأيت في المنام أنني في حي خير الله اخون، واليوم جمعة، أكملت الاستعداد للذهاب الى المسجد، قال الآخوان: أنت ستلقي الخطبة، قلت: الأفضل أن تلقي أنت، وبينما نحن بين الأخذ والرد تحرك المسجد من مكانه، وسار بكل الناس الذي فيه حتى وصل الينا، فأفقت من نومي.

" - هذا ماسجلته في دفتر الجيب خلال وجودي في سيبيريا واليابان.
وقد رأيت من الأنسب عرضه على القراء بالرغم من عدم أهميته بالنسبة لهم، ولعل بعضهم يستفيد من بعض ماكتبت.
ان واجبي أن أقدم للقراء كل ذكرياتي آملا أن يكون فيها النفع، راجيا أن يحملوا أخطاءنا على حسن نيتي.

سنغادر اليابان

في البداية عندما قررت مغادرة اليابان لم يكن في جيبي أي شيء يمكن أن يسمى نقدا. كنت أفكر في نفسي طويلا، وذات يوم تذكرت، وقلت لصديقي ناكاياما: أريد السفر من طوكيو الى ناغازاكي، فمارأيك. (أردت أن أجربه، ومهما كثر الأحباب، فان عفة النفس تمنعني من أن أطلب مالا من أحد).
قال ناكاياما:- اذا أردت السفر كما تقول أرافقك حتى كوبي، وعرفت بعد ذلك، أنه ذهب الى أوميهاره OMIHARA وحدثه بما سمع مني، وهو بدوره عرض الأمر على جماعته، فتوسع الموضوع، فاستشار بعضهم بعضا ثم قرروا أن يرافقوني لمسافة يوم واحد. وذات يوم جاء أوميهاره، وقال بلهجةالرجاء: اسمح لنا كي نقيم لك حفلة وداع، ثم نغادر من هناك في الطريق الى يوكوهاما مباشرة، ويكون معك جمع عظيم الى أن تصل الى توصاياما، ونبيت ليلة هناك، وفي اليوم التالي تستأنف الطريق، وقد حددنا الأشخاص الذين سيرافقونك حتى كوبي.
وفي هذه الأثناء قام اثنان أو ثلاثة من أعضاء الجمعية بجمع مصاريف سفري. وأنا اعتذرت، وشكرتهم. ورجوتهم أن يصرفوا النظر عن حفلة الوداع، كما أنني وفقت بصعوبة في اقناعهم بعدم نزولهم الى محطة قطار

طوكيو. وقد ظهر عليهم شيء من الانزعاج لكنهم اقتنعوا باعتذاري. ووافقوا على طلبي.

خاطرة

اقتنعت اقتناعا تاما بأن الاسلام سينتشر في اليابان، ولكن لاحظت وضع مسلمي العالم، فتوقعت بأنهم سيلاقون ما نلاقيه من المآزق والصعوبات، لذلك فكرت ليل نهار، في المنافع والأضرار التي قد تلحق بهم من تصرف غير مسؤول، فطار النوم من عيني. كما فكرت في الوسائل التي يمكن بها توثيق العلاقات بين اليابان التي تملك قوة سياسية كبيرة وتقدما حضاريا واضحا بمقام الخلافة، والواقع فان القول بضرورة الاستئذان من دار الخلافة في موضوع انشاء المسجد كان نابعا من هذا الرأي. انصب كل تفكيري في هذه الناحية. تخيلت القوة السياسية التي يمكن تأسيسها بهذه العملية.

في بعض الأحيان أسرح في الخيال الجميل، ولكن في أحيان أخرى أحس بمسؤولية جسيمة، فلا أستطيع نوم الليالي. مضت علي أيام وأنا بهذه الحالة فصرت أسيرا للخيال. بينما أصر أصحابي على تأسيس المسجد دون ابطاء.

اتخذت من المسجد وغيره حجة للتفكير في ربط الموضوع بمقام الخلافة، والحمد لله لم يعترض علي أحد. والنتيجة ستكون كما أخطط له ان شاء الله.

الأماكن الجديرة بالزيارة في اليابان

في مدينة طوكيو :

- الصالة المخصصة لألعاب السيف
- حلبة المصارعة.
- قنطرة الماء في يودوباشي.
- صالة التجارب الزراعية
- مصانع الورق.
- مطبعة الأسهم والأوراق المالية
- الجامعات.
- المتاحف(وخاصة متحف وينو).
- متحف كوكورا.
- المكتبات، مكتبة وينو، مكتبة توكوغاوه.
- بيت البارون شيبوساوه وحديقته.
- حديقة الماركيز ماتسوره
- حديقة الماركيز كاجيمه

الأماكن الجديرة بالزيارة في الولايات والنواحي:

- المدرسة الزراعية في صابيورب.
- المعهد العالي للغابات في موريوكا
- مصنع الحرير في اوشيمه
- شلالات نيككو وعددها ١٠ شلالا، تستحق المشاهدة
- مصنع النحاس قرب نيككو، يعمل فيه ثمانية عشر ألف عامل.
- مدرسة النسيج في كيرين (ولاية كوجوكي)
- مصنع الحرير في توميوكه.
- مصنع الحرير في حاجيبوجي.

- مدرسة التجارة وحوض بناء السفن في يوكوهاما.
- مصنع الورق في اومبياته، ضخم جدا.
- مصنع الحرير في ناجويا NAGOYA
- مصنع الحرير في يوككي جي وعمليات النسيج.
- مصنع الخيوط القطنية في مبياته
- وكذلك في كووان
- كلية الطب وكلية الفنون الجميلة في كانازاوه KANAZAWA. ومدرسة النسيج والأصباغ.
- مصنع الخزف في بوسكن.
- قلعة اواساكي، والمصانع.
- المعهد العالي وحديقة الماركيز آسانو في هيروشيما.
- منجم الفحم في تاغاوه
- غابة المنبع الطبيعي للعسل قرب نيككو.
- مقبرة أجداد توكوغاوه.
- قصر الميكادو في مدينة كيوتو، ومصنع صك الذهب والفضة، ومقابر الأباطرة منذ ألفي عام.

وهناك أماكن أخرى جديرة بالمشاهدة، وأماكن أخرى لم استطع مشاهدتها، يحتاج المرء الى مصاريف وأموال ضخمة جدا والى متسع من الوقت. واكتفي باحاطة القارىء بقسم من مشاهداتي.

سنغادر اليابان

انني في الساعات الأخيرة. ودعت كل معارفي ورجوتهم ألا يكلفوا أنفسهم عناء الخروج لتوديعي.

سأغادر طوكيو بصورة أكيدة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الأولى الموافق الخامس عشر من حزيران (يونيو) وفي مساء يوم الاثنين كنت في منزل البروفسور أريجة ARIGA.

والبروفسور أريجة أستاذ القانون الدولي، وكان مستشارا قانونيا لنوغي الذي تسلم بور آرتور.

استغرقت زيارتي لهذا الرجل ثلاث ساعات. وأنقل للقراء آخر ماقال: ان حبي للأتراك والتتار حب قديم ولكن أول من تعرفت عليه من التتار هو أنت. وعندما رأيت التتار بين الجنود الأسرى الروس، كان أول ماقمت به الأمر بالتفريق بينهم وبين الروس، وتخصيص مكان لهم للعبادة، واعداد طعام خاص لهم.وكنت أذهب اليهم كل اسبوع لتفقد احوالهم. أما الآن فقد صرنا اخوانا. ارتبط قلبي بقلبك، وزادت أواصر الأخوة بيننا. فأنا خادم أفكارك. فان سألت عن رجل يصدقك القول فها أنا رهن اشارتك "

- انني تتاري، ولي الفخر بأن يكون محبا مخلصا لليابانيين. اني أتمنى بشكل عام تطور اليابانيين ورقيهم. لأن حياتي قائمة بكم. وأي ضربة تتلقونها هي الموت الزؤام بالنسبة لي. ان أغلى وأحلى أيام عمري هي الأيام التي قضيتها في اليابان.

ثم تعانقنا، وغادرت منزله.

وفي آخر ليلة عدت الى منزل ناكاياما، فوجدت كثيرا من الرجال بانتظاري :ناكانو ونيدزه وبابا وكوره هارا KURAHARA وغيرهم كثيرون.

قال الأخ ناكانو:- ياأستاذي، سيغادر القطار غدا في الساعة الثالثة والنصف، انه القطار السريع، سنشرب شاي الصباح عندنا، وسيأتي الى هناك بعض الاخوان، وسيتولى الجيران نقل أغراضك، ومن بيتنا سنمر على عدد من الأماكن، وفي تمام الساعة الثالثة نكون في المحطة (واليابانيون يقولون عن المحطة «تيشابا») ولن يكون أحد في تيشابا

للتوديع، بل سيكونون في نادي شيمباشي، سنكون هناك في تمام الساعة الواحدة.

في هذه الليلة سأبقى عندك، تنام أنت، وأنا أقوم بجمع أمتعتك، وأقوم بخدمتك... بابا (المحرر في جريدة "جابان تايمز" باللغة الانجليزية):-غدا سنزين مقالة جريدتنا الرئيسية بنبذة عن سيرتك وأحاسيسك خلال اقامتك في اليابان، وسنرسل نسخة الى كل صحيفة، كي تتحدث كل الصحف في مقالاتها الرئيسية عنك، وقد جئت بالنيابة عنها جميعا، كيلا تنشغل أكثر مما أنت مشغول.

كورا هارا:- جئت ممثلا لشوغي ئن، لأن الرئيس هاسيبا HASIBA يعتذر عن عدم الحضور لعدم وجوده هنا.

شاب:- جئت من طرف هيجكاته صان، لأبلغك سلامه الخاص، لن يستطيع القدوم الى المحطة.

وبعض الناس جاؤوا كي يعرفوا موعد القطار، والخلاصة بأنني سأغادر طوكيو وليس اليابان.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي توجهنا الى منزل ناكانو سان، فوجدت أوهارا واينوكاي هناك بانتظاري، الحقيقة أن لساني وقلمي عاجزان عن وصف وتعريف هذه الأحوال. مهما كتبت فلن أقدر على التعبير. بل سأقول: يقال انني شيخ كامل ومرشد كامل، وهم المريدون، أنهم أكثر اخلاصا وأكثر جدية.

بقينا في هذا المكان حتى الساعة الثانية عشرة، علمت بأنهم أحضروا أمتعتي، وكل شيء على مايرام، سوى أنني كنت أعاني من ألم الفراق الذي لم أحس مثله حتى وأنا أغادر أهلي وبلدي. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف وصلت الى نادي شيمباشي، فكان في انتظاري مئات الناس: محرروالصحف والكونتات كل اخواني كانوا هنا.

في البداية انفردنا بأحاديث خاصة مع بعض الرجال مدة نصف ساعة. أحدهم يأتي ويهمس في أذني شيئا، واخر يعطيني علبة، وثالث يسلمني

كرت توديع. ممثلو طلاب الجامعة، ممثلو جامعة واسيدا.. أمضينا ساعة أخرى جالسين خلف الطاولة. ثم بدات الكلمات. وقد نشرت هذه الكلمات في صحف اليوم التالي عندما وصلنا الى محطة القطار كان قد بقي على تحرك القطار ثمان دقائق فقط. وضعت أمتعتي في مكانها، وقطعت تذكرة السفر، كل شيء جاهز، وكان في المحطة عدد من الأحباب بانتظاري. قلنا بعض الكلمات، وتصافحنا، وانتهى الوقت وصعدنا العربة، وتحرك القطار فورا. وتركنا أحبابنا هناك ونحن نلوح لهم بالمناديل، ثم جاء مفتش العربات وقال لي: سنمر من محطة «شيناغاوا SHINAGAWA» انظر من النافذة اليمنى، فسيكون هناك مودعون، ولن يتوقف القطار.

وبادرت الى النافذة، وكان القطار على وشك دخول المحطة، أصوات قوية: ابراهيم، ابراهيم! بعضهم يهز برأسه وآخرون بقبعاتهم ويستمرون في النداء.وبعضهم ربط بعض الأكاليل بالعصي يمدونها الينا. مررنا من هناك بلا توقف، وجاء المفتش بثلاثة أكاليل استطاع التقاطها منهم. وقال بأننا سنمر بعد نصف ساعة من محطة " هيرونوميه" وسيتوقف القطار مدة دقيقتين، وهناك بعض المودعين جاؤوا من يوكوهاما، يرجونك أن تنزل فور توقف القطار.

لم أكن أعرف أي شيء من هذا، وصل القطار الى هيرونوميه، نزلت من العربة فورا. فوجدت هناك بعض الرجال جاؤوا لتوديعي من يوكوهاما: حاجي ولي محمد بن تراب علي وكاكاجي والا وعبد الغفور وعشرة من اليابانيين، بينهم رئيس بلدية كاماكوره KAMAKURA، ودعتهم ومشيت فورا، وهكذا غادرنا عاصمة اليابان مدينة طوكيو.

ملاحظات

والآن أريد أن ابين بعض ملاحظاتي حول الشعب الياباني والدولة اليابانية: من الطبيعي أنني أستطيع أن أورد بعض الملاحظات حول اليابانيين بعد أن أقمت بينهم حوالي ستة شهور. لأنني اختلطت بهم كثيرا، فاطلعت على عادات الأمة وأخلاقها، بل فهمت حالاتهم النفسية تمام الفهم. وكل ماسأذكره هو نتيجة للتجربة والمشاهدة:

وقد يقول البعض معترضا: وما كل ماكتبت حتى الآن ألم تكن تعبيرا عن ملاحظاتك؟

نعم ان ماكتبته حتى الآن كان تعبيرا عن مشاهداتي ومسموعاتي. أما الآن فاني أعبر عن ملاحظاتي. ان كتابة الملاحظات من العادات المعروفة و ان عموم الرحالة والمشتغلين بعلم الشعوب والسلالات ختموا أبحاثهم بملاحظاتهم الشخصية، وأنا أضيف الى مشاهداتي في اليابان بعضا من ملاحظاتي.

حافظ اليابانيون على طبائعهم الفطرية بدرجة كبيرة، والحكمة الكبرى من حيث الأساس هي في تلك الفطرة. وهذه هي النقطة الجديرة بالملاحظة. نعم ان الحضارة تعطي بعض الجلاء للفطرة، ولكن بشرط عدم الافراط، فان دخل الافراط ترك الجلاء مكانه لمجموعة من الأمراض. وإذا امعنا النظر في الحضارة الأوربية عرفنا قدر الفطرة أكثر. فاليابانيون اليوم لاينقسمون الى طبقات ولافرق بين فرد أو آخر من الناحية الانسانية، انهم يعادلون بعضهم بعضا. فالوزير وهو على رأس عمله، يعامل من يجر الريكشة معاملة أخوية، يأكل الطعام معه على مائدة واحدة، ويحضر مجلسه. وفي المجالس النيابية تجد العامل والفلاح أيضا.

ويبدو أن النظافة من الصفات الطبيعية لليابانيين. تجد الماء في دور الخلاء، ويغتسلون، ذكورهم واناثهم يهتمون بالطهارة اهتماما متناهيا، كل هذه من الطبائع الفطرية.

وأبين بعضا من مشاهداتي من قبيل معرفة مستوى الصدق عندهم. عندما كنت في يوكوهاما، اشتريت كتابا من أحد المحلات، ولم أكن أحمل معي نقودا يابانية، فأعطيته نقودا روسية، فناول صاحب المحل النقود للأجير وأرسله الى مكان لا أعرفه، وأشار الي أن أجلس، وبينما كان يعد النقود التي سيعيدها الي، جاء الأجير. عرفت أنه ذهب الى البنك ليسأل عن فرق العملة، فكان الفرق بين البنك والسوق خمسة وثلاثون قابيك لصالحي من تبديل خمسة وعشرين روبل، فناولنيها. مع أنني لاأعرف الفرق في النقد. ولو عرفت فلا أهمية للمبلغ، لكن البائع أعطاني حقي بدافع من ضميره.

وكنت يوما في مصيف قرب طوكيو، الوقت متأخر، وتوقفت الحافلة الكهربائية عن العمل، وقد تعبت طوال النهار، قصدت الفندق في تلك الليلة، سألت عن أجرة المبيت، قالوا: نصف ين، نمت، وفي الصباح استيقظت وتوضأت، وأنا على وشك المغادرة واذا بهم يأتونني بالقهوة الممزوجة بالحليب مع بيضتين، فلم أرفض. شربت القهوة وأكلت البيضتين، وناولت الخادم ينا، فاذا بالخادم يعيد الي نصف ين. قلت: خذ ثمن القهوة والبيض قال: ان الطعام يدخل ضمن الأجرة. هذا صدق عظيم في المعاملة.

وشهدت من مثل هذا الكثير، والواقع أننا اذا أخذنا بعين الاعتبار الأمور التي ذكرتها في هذا الكتاب لوجدنا أن الأخلاق الحميدة الفطرية متفقة تماما مع التعاليم الاسلامية.

ولن أستطيع جمع كل مارأيت في اليابان في هذا الكتاب، فهناك مشاهدات كثيرة لم أكتب عنها، وكتبت عن بعضها بكثير من الاختصار،

لخصتها، بالاضافة الى أن ماسأذكره من مشاهداتي بعد الآن تعتبر خلاصة الخلاصة.

الشعب الياباني، شعب سليم الجسم، قوي البنية بالطبع والفطرة، شديد التحمل، فالعربات التي يجرها، والأحمال التي يحملها اولئك اليابانيون ضئيلوا الأجسام، لايمكن أن تتناسب مع قاماتهم وأجسامهم وأطعمتهم التي يتغذون بها. ومهما أسرف الياباني فلا يستطيع أن يصرف على طعامه أكثر من ثلاثة قروش في حين يقوم ذلك الياباني بعمل يحتاج الى قوة حصان. والواقع فان الناس يقومون بأعمال يفترض أن تقوم بها الدواب. الريكشة تمشي مسافة اثني عشر كيلومترا في الساعة الواحدة.

والشعب الياباني الذي يبلغ عدده خمسين مليونا، يتزايد بمقدار خمسمائة ألف في كل عام، وهذه الزيادة لاتجدها في أية أمة من الأمم. ولا شك أن هذا النمو السكاني من الميزات التي تتمتع بها هذه الأمة.

هذه أمور جديرة بالملاحظة حقيقة. لأن مستقبل الأمم يمكن الاستدلال اليه بمثل هذه الملاحظات.

انهم يتطورون بشريا وعلميا. تأثرت أخلاقهم سلبيا بعض الشيء بفعل المنصرين، ولكن المصلحين بدأوا عملهم دون ابطاء، وقريبا يصلون في الاصلاح الى المستوى المطلوب، وبعد كل هذا فليس من السهل أن ينال الانقراض من أمة تتطور وتترقى في جميع النواحي.

والشعب الياباني اليوم شعب متعلم، استوعب العلوم الحديثة. إن فكرة التطور الى أحسن، هي أمل قومي لدى اليابانيين. وإن تصور أفول مثل هذه الأمة في وقت قريب، هي نظرة ضحلة. والذين يقيسون الأمور بطرق جادة، لايمكنهم أن يحكموا بسهولة أفول مثل الأمة اليابانية.

يقول بعض الكتاب الروس، بأن تطور اليابانيين، تطور شكلي، وأنه يشبه الى حد بعيد الديكور الذي يزين به المسرح كي يراه الناس جميلا، وأظن أن هذا الكلام من قبيل تسلية النفس عندهم. وبعض الكتاب

الأوربيين يرون مثل هذا الرأي، وهذا التصور نابع من العداوة التي يكنونها ضد شعوب الشرق عموما.

ومن الطبيعي أنني لاأستطيع تقدير مدى الاستعداد الفطري لدى اليابانيين، وقد يكون هناك نقص في استعدادهم الفطري، وهذا أمر أتركه لحصافة القاريء الكريم، الا أنني أذكر تجربة خضتها بنفسي:

لايمكن مقارنة الطالب الياباني بالطالب الروسي. إن الطالب الروسي في السنوات الأخيرة من المدرسة الاعدادية يتحدث عن أمور الدولة والسياسة أكثر مما يتحدث عن دروسه، أما الطالب الياباني، فحتى في الأعوام الأخيرة من الجامعة لايتحدث الا ضمن اختصاصه، ولايتحدث عن الشؤون السياسية بصورة قطعية.

والطبيب أو المهندس أو المحامي الياباني لايتدخل في أمر ليس من اختصاصه. والذي أريد قوله هو أن كل انسان عندهم يمتاز بمهنته، ولا يفكر في أن يلقي الكلام في غير اختصاصه جزافا.

ولعل هذا الوضع من مقتضى التربية عندهم،ولا يدل على نقص في المعلومات، كما لايستدل به على محدودية الفكر.

أرى أن مستقبل الشعب الياباني مستقبل مشرق، انه يتطور من جميع النواحي، لأن كل واحد يعرف واجبه، يستقيم ويثبت ضمن حدود دائرة وظيفته، فاذا خرج من هذه الحدود توقف، كل واحد نشيط وفعال ضمن دائرة عمله.

وأبرز جوانب اليابانيين، هو أن التعليم الابتدائي الزامي، ولمدة ست سنوات. كما أن التعليم العسكري الزامي لمدة أربع سنوات في المرحلة الابتدائية. فالياباني يتعلم مبادىء الجندية وهو في مرحلة الطفولة. انهم يخصصون عامين من الدراسة كي تتعود أجسامهم على الحركة وآذانهم على تلقي الأوامر. ويتعلمون مدة عامين على الأسلحة المصنوعة من الخشب. وفي هذه الفترة يتعلمون أيضا القراءة والكتابة، ويعرفون أصول حمل السلاح. ومن يبلغ الثامنة عشرة من عمره من اليابانيين فانه مجبر

على الخدمة العسكرية الالزامية مدة عامين. أي أنه يكون عسكريا كاملا ويتم خدمته الالزامية وهو لايزال في العشرين من عمره.

وفي حال السلم، كل انسان يقوم بعمله،شرط أن يدعى الى حمل السلاح في أي وقت اذا تطلب الأمر ذلك، وقد مضى على تطبيق هذه الطريقة في التعليم ثمان سنوات وبعد أربعة عشر عاما سيكون كل ياباني جنديا بكل المقاييس، وبعد عشرين عاما سيكون الشعب الياباني شعبا مسلحا. وعندها سيكون عدد أفراد الشعب الياباني قد تجاوز المائة مليون وسيصبح اثنا عشر مليون من الكوريين يابانيين، كما سيزيد عددهم بمقدار عشرة ملايين، وهناك فورموزا وبراتاس ومنشوريا، وباختصار فإنه حينما يصل العدد الى مائة مليون سيكونون أمة مسلحة يمكنها أن تجند في أي وقت أكثر من عشرة ملايين.

ولمقارنة القوة البحرية عندهم تكفي الأرقام التي ذكرتها في فصول سابقة من هذا الكتاب.

الا أن هناك عاملا سلبيا الا وهو الفقر. الأراضي قليلة، والبشر كثيرون. ولا بد أن يجدوا له حلا. والحل الوحيد هو الاتحاد مع منشوريا والانفتاح نحو منغوليا، وطبيعي أن يكون التوسع بعد ذلك. وسيملأون سهول سيبيريا شيئا فشيئا، ومن يستطيع أن يقف في طريق عشرة ملايين جندي؟ عندها سيرضى الروس بالانسحاب الى بحيرة بايكال، بل الى الأورال.واذا تحقق ذلك بهذه الصورة، فلا يقول بأن اليابانيين عنصر قريب من الأفول، الا غبي.

مستقبل اليابانيين من الناحية الدينية

هذا الموضوع شديد الأهمية، فالمنصرون من الدول الكبرى يعملون دون كلل او ملل، ويظنون بأنهم سينصرون الشعب الياباني بكامله خلال

مائة عام، نعم انهم يظنون، لقد مضى على دخول أول منصر الى اليابان ستة وأربعون عاما. وكان اليابانيون في تلك الفترة في جهل شديد. لم تكن لديهم علوم أو فنون أو قوة. فبتلك الجهود، وبالملايين التي صرفوها، لو تنصر على يديهم مليونا من اليابانيين لأعطيناهم الحق في أن يأملوا ذلك. أما أن يتنصر اليابانيون بعد الآن فهذا أمر مشكوك فيه، فاليابانيون لايقاسون بالأحباش. انني مقتنع من نواح كثيرة بأن اليابانيين سيتشرفون بالاسلام.

فعادات اليابانيين وأخلاقهم، وطرق معايشهم تماثل العادات الاسلامية والأخلاق المحمدية الحسنة، بحيث يصعب التميز بينها، فاذا جمعنا الياباني والمسلم السيبيري فلا يمكن ملاحظة الفرق بينهما. والمعاملة بين الزوجين اليابانيين تطابق قواعد التعاليم الاسلامية مطابقة كاملة. فالمرأة عندهم لاتستطيع أن تقوم بأي تصرف الا باذن زوجها، واذا أرادت زيارة منزل أبيها فعليها أن تطلب اذن زوجها، والمرأة سيدة منزلها وملزمة بطاعة زوجها.

والأخلاق الوطنية عند اليابانيين هي رأسمالهم الوحيد، واليابانيون بشكل عام يفخرون بأخلاقهم الوطنية، ويتحملون كل انواع التضحية من أجل الحفاظ عليها، ومن جهة أخرى أخذت النصرانية تنشر الفساد بينهم، ومن اعتنق النصرانية ابتلي بسوء الخلق. فاذا عم الفساد في أمة أختل توازنها الاقتصادي، عرف اليابانيون هذه الحقيقة وسيفتحون صدورهم أمام كل صعب، ويبذلون كل جهد من أجل قطع الطريق على الفساد والمفسدين. والحل الوحيد هو قبولهم الاسلام. فلا يمكن الحفاظ على الأخلاق مالم يكن هناك تمسك بالدين. هذه حقيقة ثابته بعد تجارب كثيرة. ولن يفي المذهب البوذي بهذا الغرض، لذلك فان أسلم واقصر الطرق أمام اليابانيين هو طريق الاسلام، ولن يترددوا أصلا في سلوك هذا الطريق، وهذا يقتضي منا بعض الجهد. ذلك بأن الوسيلة التي ستبلغ اليابانيين حقائق الاسلام ليست متوفرة. وهم لايعرفون اللغة العربية ولا

التركية، كما لايجدون كتابا باللغة الأجنبية يتحدث بانصاف وصدق عن الحقائق الاسلامية.

ومن جهة أخرى، لايتوانى المنصرون عن صرف المبالغ الضخمة لطبع الكتب ونشر المقالات التي تهاجم الاسلام، ولا بد أن يكون لها تأثير سلبي، ويحدث جوا من الشك وعدم الثقة.

ولكن اذا بذل علماؤنا بعض الجهد، وأقدم اليابانيون على هذا الطريق فان الاسلام سينتشر بسرعة. لقد قلت هذا مرارا وسأقوله، فلا حل الا بما قلت.

كما أن اليابانيين اذا اعتنقوا الاسلام من الوجهة السياسية، فالمنافع الكبيرة ستكون من نصيبهم. فاذا اعتنقوا الاسلام فسيكون مسلمو الصين مستهلكين للبضائع اليابانية. ونصف السكان في منشوريا من المسلمين، واذا دخل اليابانيون في الاسلام ملكوا هذه البلاد من غير أن يسلوا سيفا واحدا، وستكون جزر المحيط الهندي كلها متوافقة مع آمال وتطلعات اليابانيين. لأن عشرين مليونا من المسلمين تحكمهم حفنة صغيرة من الفلامنك. انهم مستعدون للارتماء في أحضان اليابانيين. واذا كان هناك من وسيلة للتخلص من ظلم الفلامنك، فهو اللجوء الى اليابانيين.

وهناك أمر أخر يهم اليابانيين، ذلك هو تطور الصينيين في المستقبل، فاذا تطور الصينيون تطورا حقيقيا أوقعوا اليابانيين في مشاكل كثيرة. وعندها سيكون مائة مليون من المسلمين في الصين رهن اشارة اليابانيين، وأصدقاءهم المخلصين. فمن هذه الناحية أيضا يكون انتشار الاسلام في اليابان نصرا سياسيا كبيرا لليابانيين.

ولا زالت هناك نواح أخرى؛ ففي داخل روسيا التي تعتبر أكبر عدو لليابانيين، ثلاثون مليون مسلم، واذا تركنا الهند وأخذنا شبه جزيرة سنغافورة التي تعتبر بوابة جنوب أسيا فان الامارات الاسلامية السبع ستكون سكرا في أفواه اليابانيين.

فاذا أخذنا هذه الأمور بعين الاعتبار عند ارسال العلماء الى اليابان، وكان لهؤلاء العلماء شيء من الخلفية السياسية، فلا شك بأن الاسلام سيكون له مكانة هامة جدا في هذه البلاد، وسيكون القائمون على الأمر على رأس من يخدم هذه الفكرة.

أما اذا لم تؤخذ النواحي السياسية بعين الاعتبار، فلا تكون للدين أهمية عند اليابانيين. لأن نظرة بسيطة الى اليابانيين تكفي لأن تقنع المرء بعدم جدوى اقناعهم في الجوانب المعنوية.

وطبيعي أن يقول المتصوفون عندنا: اذا لم يكن لليابانيين رغبة في الدين، فلماذا نريدهم أن يهتدوا؟ وقد يرد مثل هذا السؤال على بال المرء.

لكن الذين يعرفون شيئا من السياسة، لايترددون في تقدير أهمية انتشار الاسلام في اليابان. نعم يكفينا الاسم في بداية الأمر، فاذا قالوا ولو ظاهريا أننا اعتنقنا الاسلام، فستتبدل مكانة المسلمين في المحافل السياسية في أوربا تبدلا كاملا.

انني أتمنى من صميم قلبي أن يعتنق اليابانيون الاسلام، وقد صرفت جهودا مهمة في هذا السبيل، ووفقت الى حد ما. فاذا صرف علماء الاسلام شيئا من الجهد، فلا شك بأن النتيجة ستكون مشرقة، ولو أنهم أسلموا في بداية الأمر سياسة، ثم بينا لهم الحقائق فسيكونون مسلمين متمسكين بدينهم حقيقة. بالاضافة الى أن بينهم رجال مسلمون بحق. وسيكون منهم من يهتدي عن ايمان ويقين في كل وقت. لكن الأهم أن يميل رجال الدولة الى هذا الدين. والنجاح الحقيقي يكون بايجاد السبل التي تجعلهم يعترفون بالاسلام دينا رسميا للبلاد. ولو توفر الجهد والسعي فكل هذه الأمور تعتبر ممكنة.

غادرنا طوكيو

نحن الآن في القطار السريع عبر الساحل الشرقي لجزيرة هوتشو، وأنا من ركاب الدرجة الأولى، وعدد الركاب ليس بكثير، ، فاليابانيون المحليون سبعة أو ثمانية، ومن الأوربيين اثنان.

وبعد ساعة من تحرك القطار تعرفت بأحد اليابانيين، فالانسان اذا لم يتعرف على الركاب في مثل هذا السفر الطويل يشعر بالملل والضجر.

والرجل الذي تعرفت عليه كان من أشهر الناس لدى اليابانيين. أما شهرته بالنسبة لنا فهو أمر غامض.

فاليابانيون ذكورا واناثا تجد في أفواههم نوعا من الحبوب، ولا أدري من أي شيء صنع، لكن كل ياباني يستعمله ويسمونه «جينذان» وبسبب هذه الحبوب عرف كل اليابانيين هذا الرجل. فاسمه جينذان، وهو مخترع هذه الحبوب انه صدفة طيبة جدا. رأيت هذه الحبوب عند أحبابي، وكنت أستعملها أحيانا. ان لها رائحة طيبة جدا. انها تطهر الفم، لكنني لم أكن أعرف منافعها ومضارها.

وها أنذا ألتقي صدفة بالسيد جينذان شخصيا. طلبت منه معلومات عن هذه الحبوب التي اخترعها.

وأصل جينذان من مدينة أوساكا، أكمل دراسة الطب في طوكيو ثم رحل الى امريكا وهناك درس مدة تزيد على ثلاثة أعوام، ثم عاد الى اليابان فاخترع هذه الحبوب. قال لي بأن الحبوب لها خصائص كثيرة: فالخاصة الأولى أنه ليس لها أية أضرار، وأظن أنها أكبر الخصائص. ثم ان المواظبين عليها لايشكون من آلام الأسنان أبدا، وهذا أمر محتمل، لأن الفم سيكون نظيفا دائما ويصلح المعدة.. وعدد لي منافع أخرى كثيرة.

وليس هدفنا هذا الموضوع، وانما كتبت في فصل سابق بضع كلمات عن اعلانات هذا الرجل. وهذه المرة سألته تلك الأسئلة، فقلت: ان

اعلاناتك كثيرة، قالوا لي بأنك صرفت على الاعلانات ثلاثمائة وخمسين ألف ين، فماهي حقيقة ماصرفت؟

- اذا أضفنا لذلك كوريا والصين فيمكن أن أكون قد صرفت هذا المبلغ أو قريبا منه، أما هذا العام فلا أعرف حتى الآن.

- وهل لك اعلانات في كوريا والصين؟

- في الصين على مستوى أضيق، انها في المدن الكبرى فقط مثل تنزين وبكين وشانغهاي، أما في كوريا ومنشوريا فتجدها في كل مدينة، وتجدها في القرى الكبيرة أيضا.

أمر عجيب حقا! كل هذه المبالغ تصرف من أجل نوع من الحبوب. هذا الرجل واسع الاطلاع. تجول في كل أنحاء أوربا. ان الانسان ليعجب من أمر رجل مثله يتاجر بنوع واحد من الحبوب. ومع ذلك، لم تطاوعني نفسي أن أسأله عن الكميات التي يبيعها. ثم فتحنا الحديث في موضوع آخر، فكان رفيقا طيبا في السفر حتى بلغنا أوساكا.

كان جيندان سان من ضباط البحرية، ولذلك فان كل اعلاناته بصورة أميرال. حتى أنه خلال الحرب الروسية كان من حماة احد الحصون من جهة، ومداويا متطوعا للجرحى من جهة أخرى.

وفي صباح اليوم التالي وصلت اواساكي، وزرت مدينتي كيوتو وتارا القريبتين منها، وفي المساء عدت اليها ونزلت ضيفا على جيندن رفيقي في السفر. بت الليلة عنده.انه يعيش على الطراز الأوربي في مأكله ومشربه وفي حياته كلها. هذا اللقاء مع الرجل أدى الى توثيق المودة بيننا.

والأمر الغريب أنه في الساعة العاشرة ليلا. جاء صاحب المنزل وقال لي: ان فراشك جاهز، وليس في هذا البيت من أحد، فان احتجت الى شيء فاضغط على هذا الزر، فيأتي الخادم، تصبح على خير.

- الى أين أنت ذاهب؟

- لي بيت في تلك الجهة، أما هذا البيت فللضيوف. يمكنك اطفاء أنوار الكهرباء اذا أردت، واذا بقيت مضاءة فلا بأس، تصبح على خير.

بقيت تلك الليلة في هذا القصر الكبير، وعرفت أن السيد جيندان يعيش مع أسرته في صومعة صغيرة. وفي اليوم التالي قمت، واتجهت بالقطار الى مدينة شيموناساكي SHIMONOSEKI.

وهذه المدينة، ميناء تجاري لليابانيين، أو على الأصح مضيق يعتبر الحصن الحصين للشعب الياباني، ويسمون الجانب الآخر موجو، ومن هناك ينطلق القطار الى ناغازاكي.

وفي هذه القرية الصغيرة نزلت ضيفا على بيت ياباني، وبت ليلة واحدة، ثم طفت حول هذه القرية، فلم أجد فيها شيئا يستحق المشاهدة، انني فقط أنتظر موعد الباخرة.

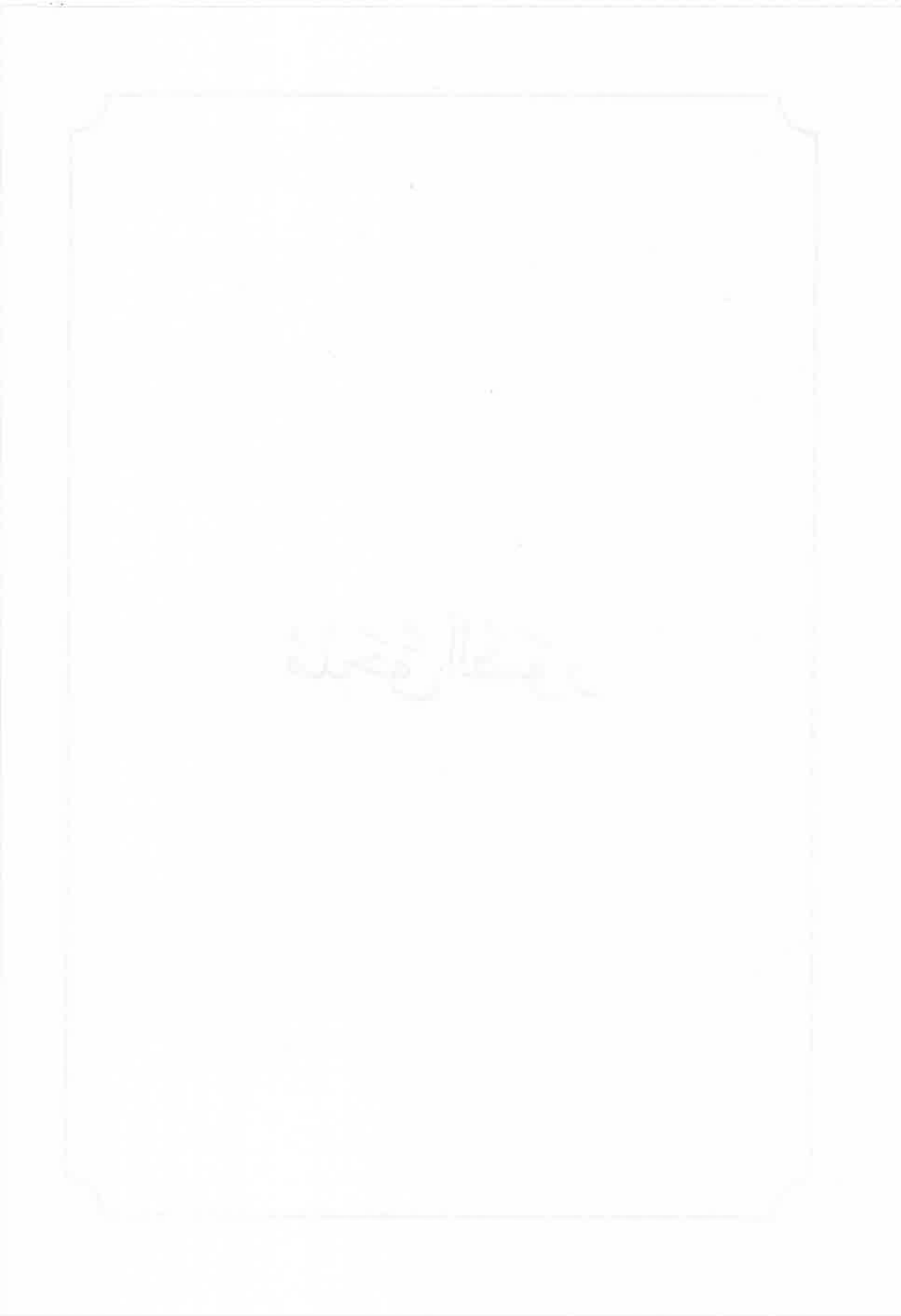
والمرء يخسر الكثير بسبب جهله، أسأل عن الباخرة التي تسافر الى كوريا فلا أستطيع أن أعبر لهم عما أريد، أقول كوريا، لا جواب، كاريا، لا يفهمون، عجبت للأمر، عرف صاحب المنزل بأنني سأسافر بالباخرة ولكن الى أين لايفهمني. وأخيرا جاء بخريطة، ولما فتحها أشرت الى كوريا فقال: انت لاتعرف اسم البلد الذي تريد السفر اليه.. جوسن CHOSEN.

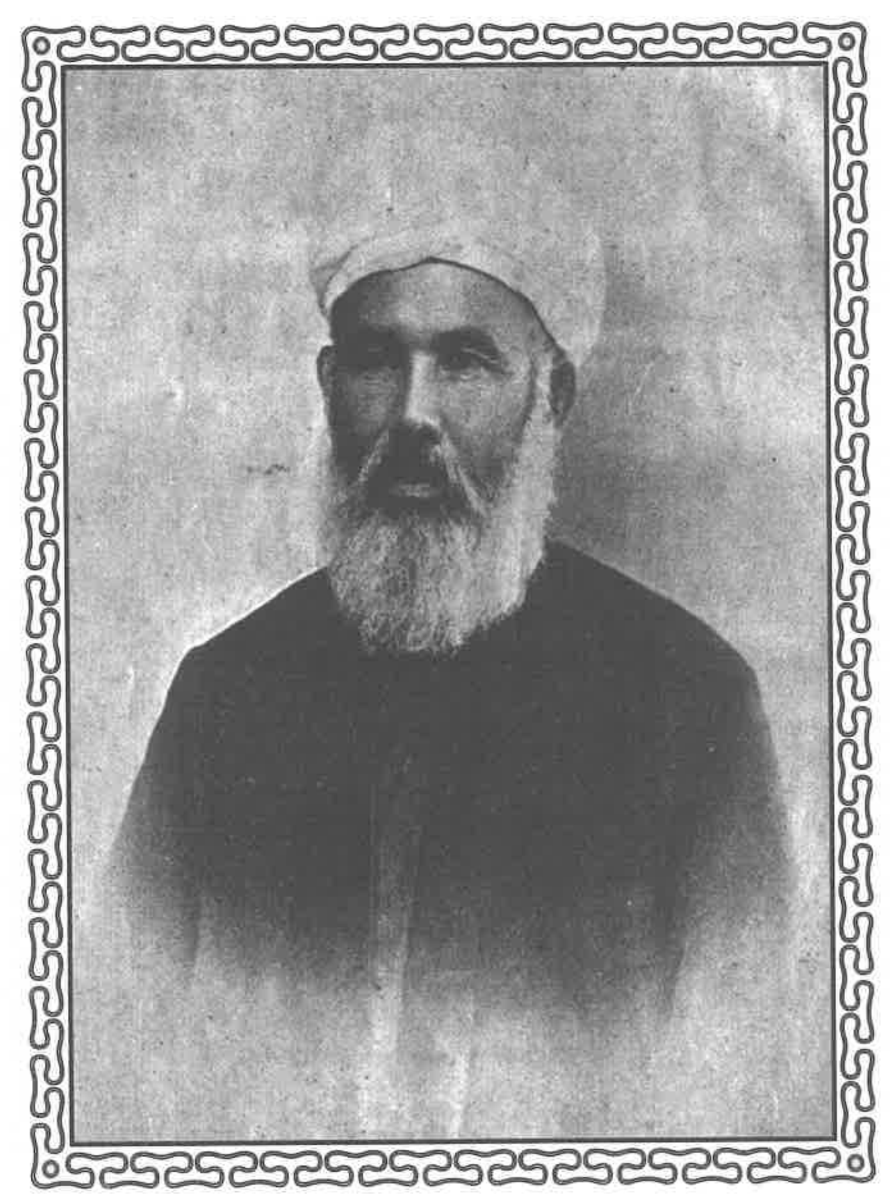
هذا البلد الذي نسميه كوريا، يسميه اليابانيون والكوريون وكذلك الصينيون (جوسن). وأهل هذه البلاد لايعرفون بلدا اسمه كوريا.

على كل حال فانني بسبب جهلي باسم «جوسن» لم أستطع اللحاق بباخرة ذلك اليوم. فقد كانت الباخرة جاهزة في ساعة وصولي الى القرية، وفي مساء اليوم التالي غادرنا الأراضي اليابانية مغادرة نهائية. وقد عرفنا فيما بعد بأن هناك سفنا صغيرة تتردد بين اليابان وكوريا عدة مرات كل يوم.

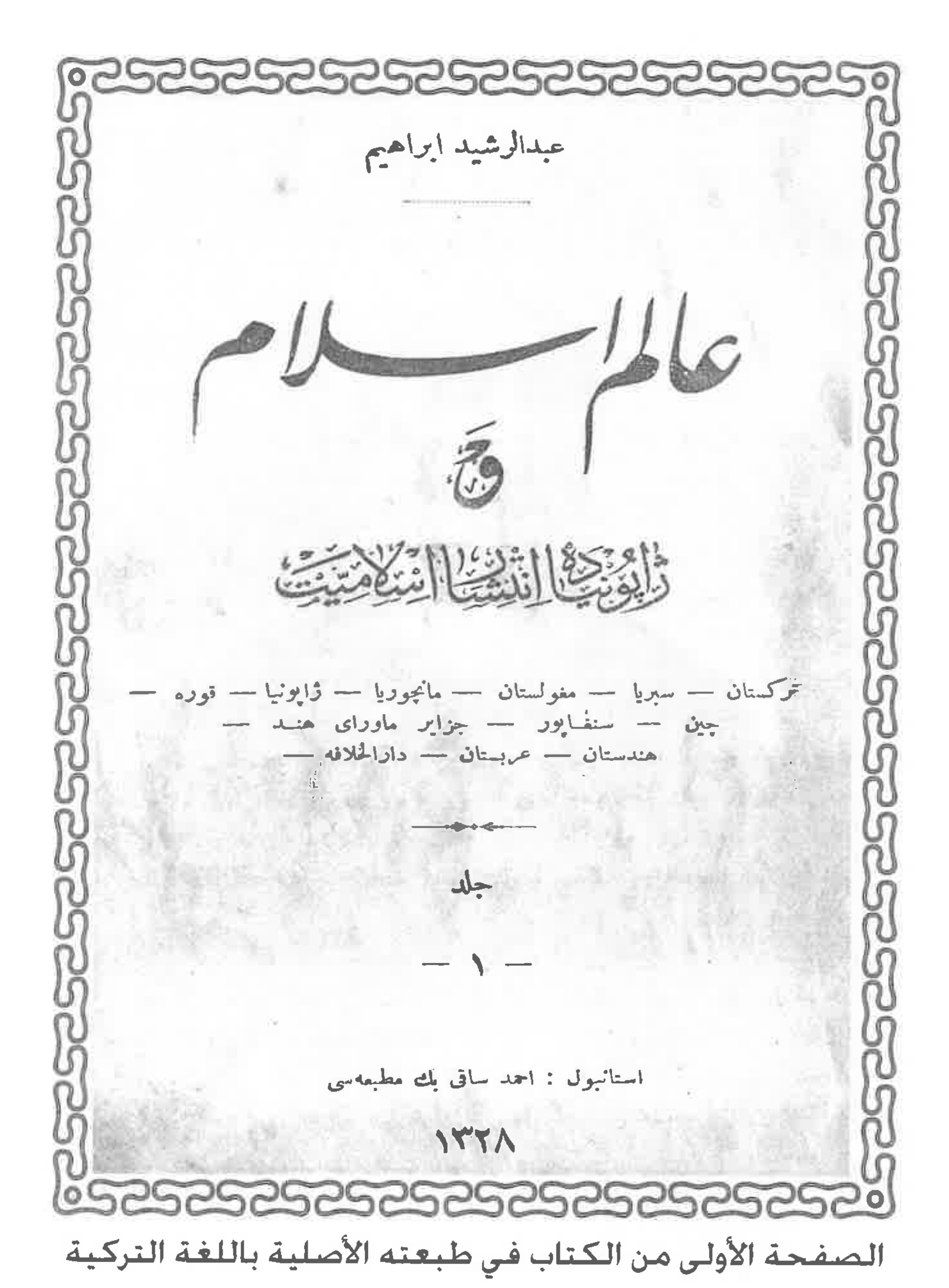


مُلحَقُ ٱلصُّوَر





عبد الرشيد إبراهيم



عبدالرشيد ابراهيم

عالم اسلام

و

ژاپونیاده انتشار اسلامیت

تركستان — سبريا — مغولستان — مانجوريا — ژاپونيا — قوره —
چين — سنغاپور — جزاير ماوراى هند —
هندستان — عربستان — دارالخلافه —

جلد

— ١ —

استانبول : احمد ساقى بك مطبعه‌سى

١٣٢٨

الصفحة الأولى من الكتاب في طبعته الأصلية باللغة التركية



الإمبراطور ميجى وزوجته



عبد الرشيد إبراهيم مع حاشية الأمير إيتو



عبد الرشيد إبراهيم على عربة الركشة عند وصوله إلى اليابان



عبد الرشيد إبراهيم مع محرري صحيفته (إلفت) التي كان يصدرها في روسيا



هيجيكاتا وزير الشؤون الإمبراطورية



المارشيل أوياما



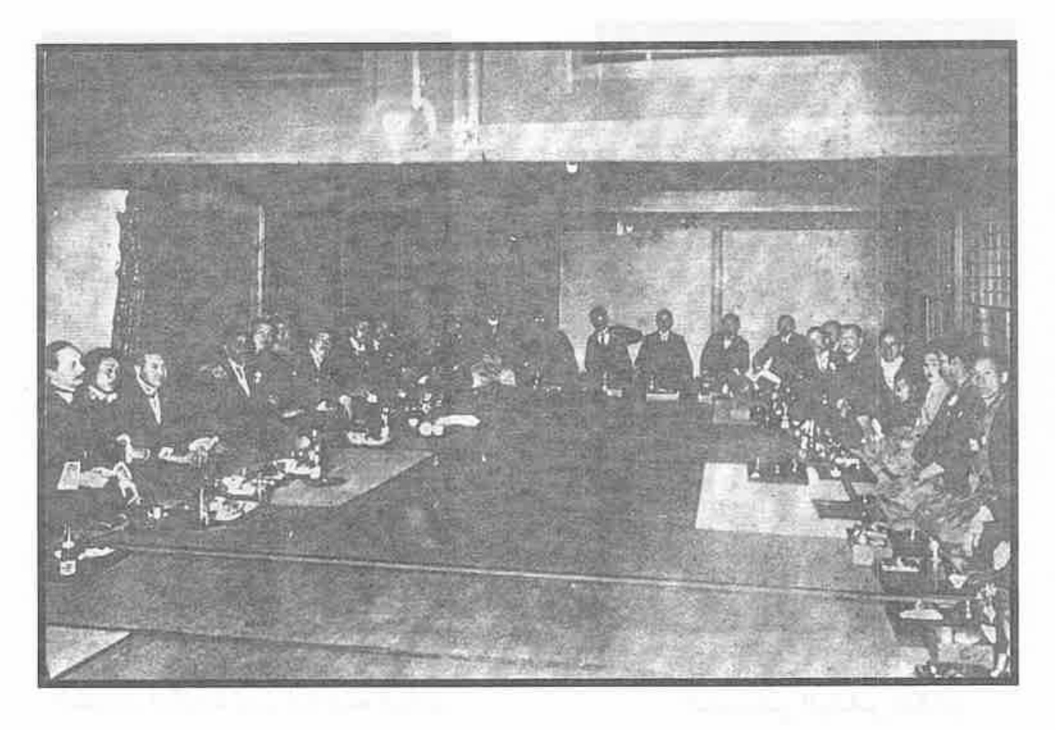
الكونت أوكوما وزير خارجية اليابان
ومؤسس جامعة واسيدا الشهيرة



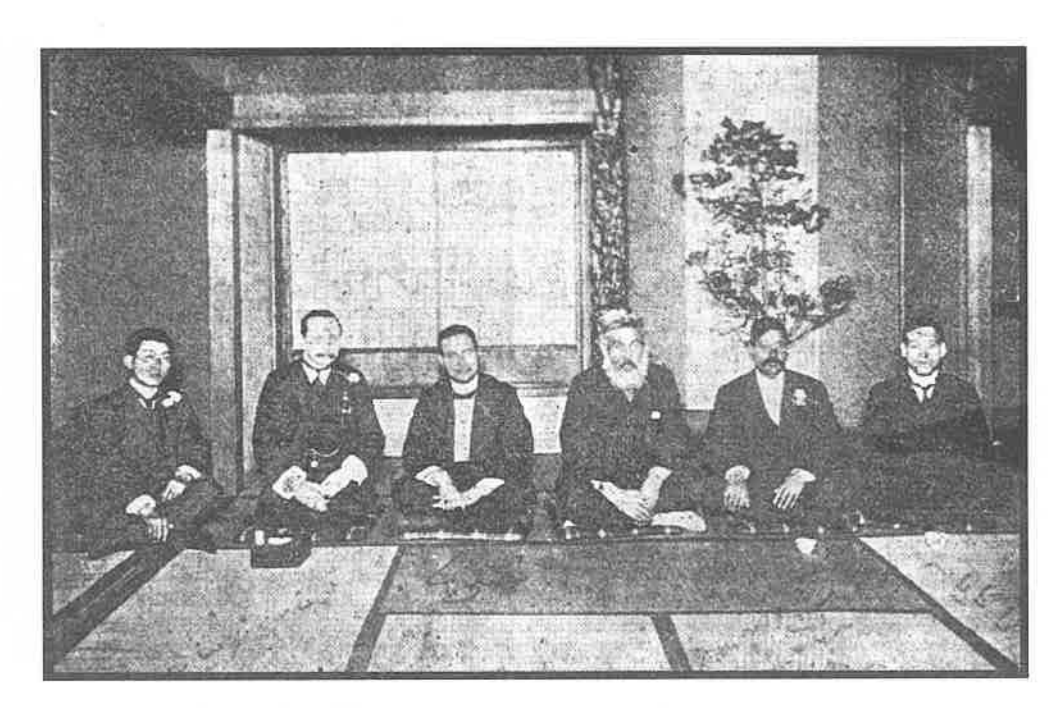
الصحفي الياباني ناكانو



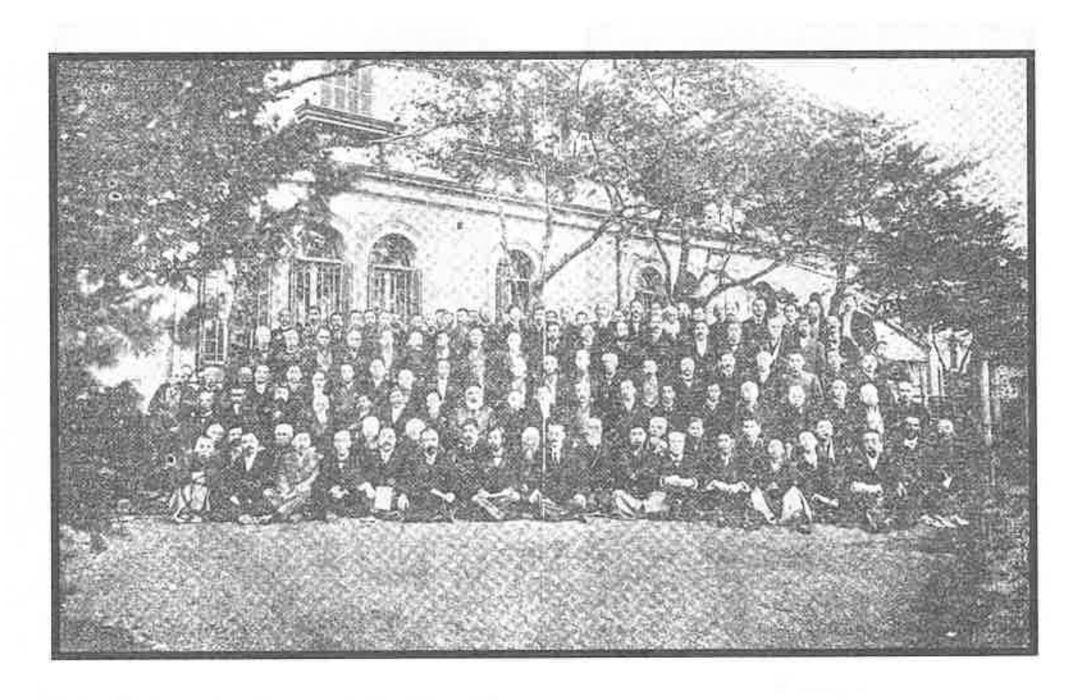
عبد الرشيد إبراهيم يلقي كلمة في مدرسة مياتا للبنات



عبد الرشيد إبراهيم مع جمعية المقتصدين في طوكيو



عبد الرشيد إبراهيم في ضيافة مجموعة من اليابانيين
وعلى يمينه الداعية المصري أحمد فضلي



عبد الرشيد إبراهيم في جمعية المؤرخين اليابانيين



شيخ علي أفندي
زعيم من زعمان من زعماء مسلمي سيبيريا



زاهد أفندي زعيم من زعماء سيبيريا



التاجر الهندي ولي تراب على زاده من مجموعة التجار الهنود ,في إنشاء مسجد في طوكيو عام ١٩٠٩م



الأمير إيتو

الفهرس

الجزء الأول

تمهيد.. ٥
مقدمة ٩
تركستان.. ١٣
طاشقند.. ١٣
بخارى القديمة مكانة بخارى قديما والحكم الحالي.................... ١٩
سمرقند.. ٢٧
المصحف العثماني.. ٣٠
ولاية فرغانة ٣١
ولاية يدي صو.. ٣٣
سيمي بولاد (يدي طاش) ٤١
تارا.. ٤٣
من قازان إلى أوفا ٤٦
أوفـا.. ٥١
المحاكم الشرعية في روسيا (الإدارات الروحية).................... ٥٢
محكمة أوربنورغ الشرعية.. ٥٤
من أوفا إلى جيلابي.. ٦٠
جيلابي.. ٦٣
سيبيريا.. ٦٦
دخول الإسلام في سيبيريا ٦٧
قيزيل يار.. ٦٩
اومسكي.. ٧٤
من اومسكي إلى تومسكي بالقطار.................................. ٧٥
تومسكي.. ٩١

القرى التابعة لتومسكي........ ٩٤
استيلاء الروس على تومسكي........ ٩٥
المحطة الأخيرة من رحلتي........ ٩٧
نيكراسيف نائب تومسكي........ ٩٨
تتار الياساجاناي في ولاية توم........ ١٠٥
مغادرة تومسكي........ ١٠٧
ايرقوتسكي........ ١١٨
تدهور الأنساب لدى البورات وأسبابه........ ١٢٤
قرى ايرقوتسكي........ ١٢٥
متحف ايرقوتسكي........ ١٢٩
مجلس المبعوثان العثماني ومسلمو إيرقوتسكي........ ١٣١
داثان (الصومعة)........ ١٣٢
الداثان والتشريفات وحامبا لاما........ ١٣٣
حديث مع حامبا لاما........ ١٣٤
عقائدهم........ ١٣٦
العبادة........ ١٣٧
لاما........ ١٣٧
الوضع الاجتماعي........ ١٣٨
حامبا لاما........ ١٣٨
الموت........ ١٣٩
آثار التنصير في العالم البوذي........ ١٤١
مشاهداتي في الداثانات (الصوامع)........ ١٤١
البوذيون يخفون طقوسهم........ ١٤٢
طوفان نوح........ ١٤٣
عقيدة حامبا لاما الخاصة........ ١٤٤
البوذيون في أوربا........ ١٤٥
حملة المنصرين على بوذا........ ١٤٦

الأراضي عند البورات.......... ١٤٧
الحياة الاجتماعية لدى البورات.......... ١٤٨
منغوليا.......... ١٥٠
ويرحنة اودين.......... ١٥١
الاهتداء للإسلام في روسيا.......... ١٥١
بحيرة بايكال.......... ١٥٣
جيته.......... ١٥٤
منشوريا.......... ١٥٥
جيجكار.......... ١٥٧
رتبة الآخون.......... ١٦٤
موقف الحكومة الصينية من أبناء المسلمين.......... ١٦٦
جنود الصين.......... ١٦٧
هاربين.......... ١٦٧
خطبة باللغة التركية وضابط مهتدي.......... ١٧٠
كياسة الموظفين الصينيين.......... ١٧١
الشعور القومي واليقظة عند الصينيين.......... ١٧٣
الصين واليابان.......... ١٧٤
شعور الصينيين بالانتقام من أوربا.......... ١٧٥
أوضاع المسلمين في فودة تان.......... ١٧٧
لقاء مع الرحالة الشهير لاطيغين.......... ١٧٨
زيارتي لمتجر صيني.......... ١٨٠
خط حديد شرق الصين.......... ١٨٤
من هاربين إلى فلاديفوستوك.......... ١٨٥
فلاديفوستوك.......... ١٨٧
الكوريون في فلاديفوستوك.......... ١٨٨
موقع المدينة وأحوالها.......... ١٩١
القنصلية اليابانية في فلاديفوستوك.......... ١٩٤
المقاهي والمسرح الصيني.......... ١٩٥

لقاء مع صاحبي في السجن........................ ١٩٦
دار القمار الصيني والمطعم الصيني........................ ١٩٧
حول مستقبل الصينيين........................ ١٩٩
الحمية القومية لدى الأرمن........................ ١٩٩
مغادرة فلاديفوستوك........................ ٢٠١
الصور........................ ٢٠٤
باخرة أم دار كتب؟ ٢٠٥
اليـابـان........................ ٢٠٦
القرية اليابانية «ماي بارة»........................ ٢١١
الريكشة ـ العربة التي يجرها إنسان........................ ٢١٣
يوكوهاما........................ ٢١٤
إستطراد........................ ٢١٦
العميان في اليابان........................ ٢١٧
إستطراد........................ ٢١٩
الاعلانات التجارية........................ ٢٢٤
العيد عند اليابانيين........................ ٢٢٦
الكونت أوكوما OKUMA وزير الخارجية السابق........................ ٢٣٠
جـــامعـــة واسيدا WASEDA........................ ٢٣٦
الصحـف........................ ٢٣٨
البـريـــد........................ ٢٣٩
بدايـة التاريخ عند اليابانيين........................ ٢٤٠
الإجتماع العام لجمعية المؤرخين........................ ٢٤٢
القرويون في اليابان........................ ٢٤٤
لقـاء مع وجوه القـوم ٢٤٥
المدارس اليابانية........................ ٢٤٦
الحـروف........................ ٢٤٩
القامة في اليابان........................ ٢٤٩
آراء في موضوع القامة........................ ٢٥٠

ربط الأطفال على ظهر النساء.......... ٢٥١
رأيي في موضوع القامة.......... ٢٥١
المســـرح.......... ٢٥٢
الملاهي الليلية في اليابان غير معروفة.......... ٢٥٤
في الأرياف مرة أخرى.......... ٢٥٤
نعود إلى موضوعنا في عالم القرية.......... ٢٥٨
الحمامات عند القرويين.......... ٢٥٩
الحرف والتجارة عند القرويين.......... ٢٥٩
الكونتات في اليابان.......... ٢٦٠
شوغي ئن - المجلس النيابي.......... ٢٦٥
مبنى المجلس النيابي.......... ٢٦٥
الشرطة داخل المجلس النيابي.......... ٢٦٨
الجمعيات في اليابان.......... ٢٦٩
لقاء آخر مع الكونت أوكوما.......... ٢٧٠
مدرسة هونجو HONJO.......... ٢٧٤
اللقاء مع الأمير إيتو.......... ٢٧٥
السجن في طوكيو.......... ٢٧٨
الجامعات اليابانية.......... ٢٨٤
مكتبة الجامعة.......... ٢٨٦
معية أهلا بكم «كيهن كاي KEIHIN KAI».......... ٢٩٠
استطراد.......... ٢٩١
البروفسور تاكادا TAKADA والحروف اليابانية.......... ٢٩٥
متحف أوكورا OKURA.......... ٣٠٣
الزلازل والجزر اليابانية.......... ٣٠٧
مع الأمير إيتو مرة أخرى.......... ٣٠٩
الإصلاحات في اليابان.......... ٣١٣
رأي الأمير إيتو في الاسلام.......... ٣١٥
مكتبة توكوغاوه TOKUGAWA.......... ٣١٧

دار سك النقود.. ٣١٨
مسألة الزواج عند اليابانيين وحقوق الزوجين........................ ٣١٨
حقوق الزوج على الزوجة.. ٣٢٠
كيوتو - العاصمة القديمةKYOTO........................ ٣٢٠
إحراق جثث الموتى.. ٣٢٢
الديانة البوذية.. ٣٢٥
لقاء مع أوميهاراOMEHARA........................ ٣٢٧
لقاء مع هيجيكاته HEIJIKATA وزير البلاط........................ ٣٢٧
فضلي بك المصري.. ٣٣٣
البروفسور توميزو TOMIZU........................ ٣٣٦
زيارة مدرسة العميان والبكم.. ٣٤٠
لقاء مع الكونت ماتسوراMATSURA........................ ٣٤٥
دعوة البروفيسور توميزو.. ٣٥٠
المنصرون في اليابان.. ٣٥٤
دسائس المنصرين ضد الإسلام في اليابان........................ ٣٥٦
إستعداد اليابانيين لقبول الاسلام........................ ٣٥٩
حب اليابانيين للمسلمين.. ٣٦١
مدرسة سايغو غاكو SAIJO GAKKO للبنات........................ ٣٦٣
الأمن العام.. ٣٦٦
المحاكم العدلية.. ٣٦٧
الربيع.. ٣٦٨
التجارة عند اليابانيين.. ٣٦٩
إستطراد.. ٣٧١
موانىء اليابان.. ٣٧٥
معدن الذهب عند اليابانيين.. ٣٧٦
الاختبارات في المدارس.. ٣٧٧
ملاحظات على إختبارات المدارس........................ ٣٨٣
مدرسة العميان والبكم.. ٣٨٤

اللوحات في بيوت اليابانيين........................ ٣٨٨
أحوال غريبة.. ٣٩٠
أعياد القرى اليابانية.............................. ٣٩١
المارشال اوياما.................................... ٣٩٤
الأميرال توغو TOGO................................. ٣٩٦
معبد كونفوشيوس ٣٩٨
البروفسور ميشيما................................... ٣٩٩
أوشيدا سان UCHIDA SAN............................. ٤٠١
تورغوت واك... ٤٠٢
مستشفى البارون مجكوش.............................. ٤٠٧
جلسة مع ناكانو NAKANO ورفاقه...................... ٤٠٩
إن الرؤيا الصادقة فأل خير........................... ٤١٠
الأزياء في اليابان.................................. ٤١٣
سفر تورغوت بالطه توره............................. ٤١٤
أوهارا OHARA....................................... ٤١٥
أيام عصيبة تتخلل الآمال الكبيرة ٤١٥
في القرى... ٤١٦
الهدف والرأي....................................... ٤٢١
مسلمو الصين.. ٤٢٣
دعوة أوهارا... ٤٤٥
في الجبال، الجبل المقدس............................ ٤٥٠
الغيشا عند اليابانيين GEISHA........................ ٤٥١
المساجلة الشعرية ٤٥٢
الجندية في اليابان.................................. ٤٥٣
القوة البحرية في اليابان............................. ٤٥٤
ميدان المصارعة..................................... ٤٥٥
في منزل ناكانو...................................... ٤٥٦
من حديقة هيبية الى قرية أوموري...................... ٤٦١

الكونت ماتسورا.. ٤٦٦
لقاء مع ناكانو.. ٤٦٦
السفر الى يوكوهاما.. ٤٦٧
في يوكوهاما.. ٤٦٨
العرب في يوكوهاما.. ٤٦٨
في ضواحي يوكوهاما.. ٤٦٩
في منزل «كاكاجي والا طيب».. ٤٧٨
قرار العودة.. ٤٧٩
جمعية «آسيا - غي - كاي».. ٤٨٣
قالوا «إن لسان الخلق قلم الحق».. ٤٨٤
سنغادر اليابان.. ٤٨٧
على وشك مغادرة اليابان.. ٤٨٨
وداع الكونت اوكوما.. ٤٨٨
العشاء في منزل أوهارا.. ٤٨٩
سنودع اليابان.. ٤٩٠
سنرحل عن اليابان.. ٤٩٣
قدح هدية.. ٤٩٤
من دفتر الجيب.. ٤٩٥
هوتشي شيمبون.. ٤٩٨
خاطرة.. ٥٠٢
الأماكن الجديرة بالزيارة في اليابان.. ٥٠٣
سنغادر اليابان.. ٥٠٤
ملاحظات.. ٥٠٨
مستقبل اليابانيين من الناحية الدينية.. ٥١٢
غادرنا طوكيو.. ٥١٦



مطبوعات المركز الإسلامي في اليابان

العالمُ الإسلاميُّ في رحلاتِ عبدالرشيدِ ابراهيم

بداياتُ الإسلامِ في اليابان وأوضاعُ المسلمين في وسطِ وشرقِ وجنوبِ وغربِ آسيا قبلَ مئةِ عام

ترجمة
صُبحي فرزات
كمال خوجه

مُراجعة
أ.د. صالح مهدي السامرائي

الجزءُ الثاني

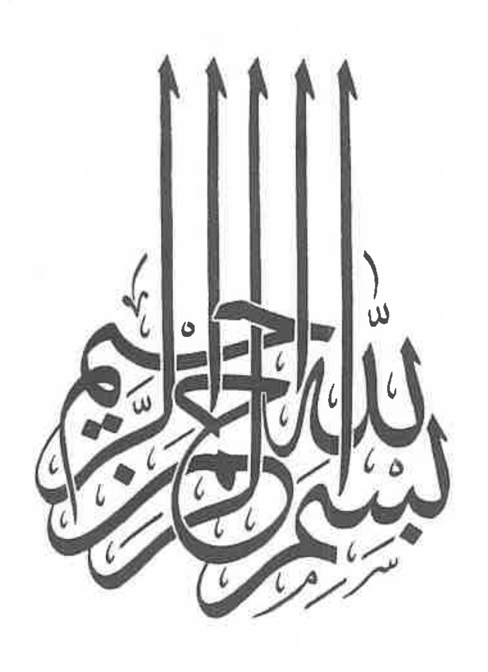
دارُ القِبلَةِ للثَّقافةِ الإسلاميَّةِ
مؤسسةُ علومِ القرآنِ

العَالمُ الإسْلاميُّ

في

رحَلاتِ عبدالرّشيدِ ابراهيم

٢


بسم الله الرحمن الرحيم

العالمُ الإسلاميُّ

في

رحلات عبد الرشيد إبراهيم

بداياتُ الإسلامِ في اليابان وأوضاعُ المُسلمينَ في وسطِ وشرقِ وجنوبِ وغربِ آسيا قبلَ مئةِ عام

ترجمة

صُبْحي فرزات — كمال خُوجه

مُراجعة

أ. د. صالح مهدي السامرائي

الجزءُ الثاني

دارُ القِبلةِ للثقافةِ الإسلاميةِ — مؤسسةُ علومِ القرآنِ

الطَّبعَةُ الأُولى

٢٠١١م - ١٤٣٢هـ

دار القبلة للثقافة الإسلامية

جدة - المملكة العربية السعودية - تلفاكس:

E_mail:Dar.Alqiblah@gmail.com

مؤسسة علوم القرآن

بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٠٨٣٢ - موبايل :٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩

E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

كوريا ـ جيوسن

أبحرنا بالسفينة اليابانية من شيموناساكي SHIMONASAHKI نحو بوسان. فبعد جولة يوم في شيموناساكي و يوم في موجو و ما حولهما، ركبت السفينة قاصداً كوريا. وللأما سألت الربان عن موعد الإبحار قال: إني أمعن التفكير في الإبحار من عدمه، فهناك عاصفة تبدو في الأفق، ولا ندري إن كنا نستطيع أن نتجاوزها. أبرقت إلى الإدارة الرئيسية فإذا جاءني أمر قطعي أبحرنا. ولكني أنصحك أن تنتظر باخرة الغد، فالعاصفة ستكون مزعجة.

ولم تمض ساعة حتى جاء الربان: إنني سأبحر، فقد جاءني الأمر، فماذا أنت فاعل؟

- طبعا سأسافر معك، كم ساعة نحتاج لقطع المسافة؟

- اه، في مثل هذا الجو لا يمكن لأحد أن يحدد الوقت، فان استطعنا قطعها باثنتي عشر ساعة فهذا أمر جيد، لنر، فالعاصفة الشديدة قادمة، ومع ذلك، لعل الرحلة تأخذ اثني عشرة أو ثلاث عشرة ساعة.

وتقرر الإبحار، وكانت السفينة صغيرة جداً، وكنا ندعو الله أن يوصلنا بالسلامة. ركبت في الدرجة الأولى، ومفروشاتها كانت مثل مفروشات البيوت اليابانية، حصيرة ممدودة على الأرض وكل مسافر يمد فراشه في جانب منها ويتمدد. ولا تختلف الدرجة الأولى عن الثانية إلا في الصالة الإفرنجية التي تحتوي على منضدة وبعض الكراسي، أما المقصورات فكلها مفروشة بالطريقة اليابانية.

وفي تمام الساعة السابعة مساءً أبحرت السفينة، وبدأ الغثيان في الركاب. قبل أن تبتعد السفينة عن البر كثيرا. ومع بداية العاصفة بدأنا نهبط في القاع ثم نصعد إلى القمة، وبدأنا نتقيأ من جهة ونحاول المقاومة من

جهة أخرى، ومضت ساعة ونحن على هذه الحالة، ولم يعد أحد منا يتحمل، فالركاب يتدحرجون على أرض السفينة وكأنهم بلا روح، وعمال السفينة يجمعون الأقذار تارة ويحاولون مساعدة الركاب تارة أخرى، ولكنهم تعبوا أيضا مثلنا، وسلمنا أنفسنا للأقدار، وأصبحنا نصف أحياء، وبين الحين والآخر يأتي البحارة في محاولة منهم للتسرية عنا، ولكن ليس فينا من يسمع أو يفهم، واعترتني حالة لم أعرف بعدها أنمت أم أغمي علي، لا أتذكر شيئا بعد ذلك.

وفي الصباح الباكر فتحت عيني لأجد نفسي والركاب جميعا في بحر من القاذورات.اقتربت السفينة من ميناء بوسان، الهواء منعش ولكن البحر لم يهدأ بعد. على كل حال قمت من مكاني وغيرت ملابسي، واستطعت أن أمعن النظر في الأشياء التي حولي، ولكني كنت أحس بألم وثقل شديد في رأسي.

وفي تمام الساعة الثامنة ألقت سفينتنا مراسيها في ميناء " بوسان " وبادر أصحاب القوارب بالصعود إلى السفينة، كلهم كانوا يتكلمون اللغة اليابانية. وكنت وأنا أرى الكوريين أتذكر الباشقورت في الأورال، فالكوريون يشبهون باشقورت الأورال من جميع الوجوه، ملابسهم وملامحهم كلها تشبه الباشقورت، حتى أنني عندما كنت أتطلع في وجوه أصحاب الزوارق و أنا لا أزال على السفينة ترددت، ثم تساءلت، أيمكن أن يأتي عمال من الأورال إلى كوريا؟

خرجنا إلى البر بالزوارق، وقيل لنا بأن أمتعتنا ستتعرض للتفتيش، قالوا هكذا، ولكن التفتيش كان بسيطا. وهنا أريد أن أقول بأن صاحب الزورق حينما أخذنا من السفينة إلى القرية، لم تكن عندي قطع نقود صغيرة، فأعطيته نصف ين، أخذها وغاب عني، فلم ابه به، إن كل استحقاقه كان ستة قروش. جمعت أمتعتي من نقطة الجمارك وركبت

الريكشة متوجها إلى محطة القطار في تيشابا، وكان هناك بعض الوقت لموعد تحرك القطار فأردت أن اكل شيئا، فتوجهت إلى مضافة يابانية، ولما خرجت من المضافة وجدت أمامي رجلاً فقيرا يمد إلي يده بأربعة قروش. سألته ما هذا المبلغ؟

- أعطيت لصاحب الزورق خمسين سينا، فهذا الباقي.

- هذه هي التربية الفطرية. انظر إلى الشرق الذي يصف الأوربيون أهله بالوحشية والبربرية. فالمبلغ لا أهمية له، ثم إن المسافة بين الساحل ومحطة القطار تستغرق حوالي عشرين دقيقة، ومن الصعب على المرء أن يقوم بالبحث والسؤال؟ إلا أن التربية الشرقية تنظر إلى حقوق العباد نظرة مختلفة، فقد علم صاحب الزورق بأنني رجل غريب، ولا أعرف مقدار الأجرة، فقاده ضميره إلى أن يبحث عني ويسلمني هذا المبلغ.

قلت: أأنت صاحب الزورق؟

- نعم.

- لماذا لم تخبرني هناك. لو قلت لي بأنك ستعطيني الباقي لانتظرتك.

- ظننت أنني في إمكاني أن أصرف المبلغ وألحق بك، لكنني لم أستطع ذلك، فذهبت إلى البقال فصرف لي، ولما عدت إليك ولم أجدك ندمت كثيرا. أرجو أن تسامحني.

وإزاء هذا الضمير الحي وزنت نفسي، فاستحييت حقيقة، لأنني في نظر الكوريين من الأوربيين. وشعرت كأنه يقول لي: تظنوننا أننا من الوحوش، ولكننا نعرف كيف نحافظ على سمعتنا. والحضارة الحقيقية هي عندنا.

بوسان ميناء تجاري

وبوسان ميناء جميل جدا يقع على الساحل الكوري. والميناء ليس من صنع البشر بل من صنع الهي، والمدينة بلدة صغيرة، وسكانها كلهم

كوريون، أما الموظفون والجنود فهم يابانيون بشكل عام. وليس في مبانيها ما يلفت النظر إلا المباني الحكومية الحديثة. وبيوت الكوريين من أهل البلاد الأصليين عبارة عن صوامع قذرة، وعرائش من القصب. والبلدة محاطة بالجبال من جميع جهاتها، وسكانها من أفقر الناس الذين يعيشون على وجه الأرض. تجولت في أطراف البلدة مدة ساعة أو ساعتين، وهي عبارة عن قرى لا يتجاوز عدد بيوت الواحدة الثمانية أو العشرة، وهذه البيوت يسمونها «اولوس».

وإذا قارناهم باليابانيين، ففيهم ما يلفت النظر: في بداية الأمر كنت أجد في كل بيت أدخله رجلا. ولا أرى أي امرأة، دخلت بيوتا في تلك الجبال، وكلها على نفس الحالة. وتساءلت في أحد البيوت: أين نساؤكم؟ فكان الجواب أن النساء يقمن في قسم خاص من المنزل هو قسم الحريم، مثل الذي عندنا نحن المسلمين، ودخول الأجانب إلى هذا القسم ممنوع قطعا، ولا يسمحون به أبدا. وباب الحريم مستقل، والنساء يتحجبن. وسأقدم بعض الإيضاحات بعد الحصول على المعلومات الكافية.

وفي ظهر ذلك اليوم توجهت بالقطار من بوسان إلى مدينة سيئول(كه ي جو) عاصمة كوريا.

إن مباني محطة القطار لم يتم الانتهاء منها، والعربات والخطوط الحديدية لا تشبه الخطوط التي رأيتها في اليابان، حتى ولا في روسيا، إنها خطوط مدت لأغراض عسكرية، والعربات تتسع بسهولة لأكثر من مائة أو مائة وعشرين رجلاً. إنني لم أر مثل هذه العربات في أي بلد اخر، وكلها من عربات الدرجة الثالثة، وليست هناك عربات من الدرجتين الأولى والثانية، سوى اثنتان للقطار السريع و لمرتين في الأسبوع.

وفي الساعة الثانية والنصف وصلنا إلى مدينة كيزان، فرأيت فيها جمعا من الناس، وأعلاما مرفوعة. ومع أن كيزان هذه بلدة صغيرة فان كثرة الناس لفتت نظري.

سألت مأمور المحطة: هل أستطيع البقاء هنا يوماً واحداً؟ إن تذكرتي توصلني إلى «كه ي جو».

- يمكنك البقاء، ونؤشر على تذكرتك بالتوقف، ولكن لن تجد هنا مكانا للنوم.

- ولماذا، ألا يوجد مكان فعلا؟

- يوجد مكان للمبيت ولكن ليس بالفندق، إنك تبيت في منزل كوري ولكنه قذر جداً.

- لا عليك، سأبيت ليلة واحدة. ولكن أيمكنني أن أترك أمتعتي أمانة في المحطة؟

- هذا أمر سهل، حقاً إنك لن تستطيع اصطحاب أمتعتك.

وبعد ذلك قررت التوقف لليلة واحدة وأنزلت أحمالي.

قال موظف المحطة الذي أودعت عنده أمتعتي: من الأفضل أن تترك نقودك احتياطاً، صحيح أنه لن يحدث لك شيء أساسا، ولكن القرويين في هذا اليوم سكارى، والكوريون سكارى كل يوم، ولكنهم اليوم أكثر سكراً، فهو يوم عيد، وهذا الجمع بسبب العيد.

وتركت نقودي عنده، وحينما هممت بالتوجه إلى القرية، قال موظف المحطة:- إذا أردت المبيت فالأحسن أن يكون عند اليابانيين، فبيوت اليابانيين معروفة، وسترتاح عندهم. أما إن أردت المبيت في بيوت الكوريين فستنزعج قليلاً، وإذا كانت عندك الرغبة في الإطلاع على أحوالهم فيمكنك ذلك، ولا شيء عليك، سوى أن تحذر من الدخول على قسم الحريم، فان أحد دخل على حريمهم أثاروا مسألة العرض.

- أحقاً ذلك؟ أو هل من الممكن أن يحدث؟ أنا لا أعرف لغتهم، فإذا دخلت عليهن خطأ، فأرجو ألا يحدث مكروه.
- أكثرهم يعرفون اللغة اليابانية، إن الكوريين يمنعون نساءهم من الاختلاط بالأجانب، والشابات من نسائهم لا يكشفن وجوههن للرجال. واليوم كلهم سكارى، فقد يحدث مالا تحمد عقباه.

وبعد ذلك توجهت إلى بلدة كيزان. وجدت الأهالي قد اجتمعوا في أحد أطراف البلدة، رافعين العلم الياباني في جانب، والعلم الكوري في جانب اخر، وقد تحلقوا حول شابين يتصارعان. رأيت في هذه البلدة المصارعة الكورية. إنها كالتي عند باشقورت الأورال، يمسك المصارع من حزام المصارع الآخر فيرفعه إلى أعلى ثم ينزله على الأرض، ثم يكافأ الفائز بعدة أذرع من القماش.

وقفت أتفرج في أحد جوانب الحلقة، وبقيت على هذه الحالة مدة ساعتين. لقد أعجبني ما رأيت، أنها تشبه المصارعة التي نعرفها في بلادنا، والكوريون يلبسون جبة بيضاء مثل التي نسميها في بلاد التتار ب "جيلان"، غير أنهم يضعون على الرأس شيئا يشبه القبعة الإفرنجية. ولو لبسوا القبلاق التتاري، لقلت أنها تتارستان. والحقيقة أن الكوريين كانوا يلبسون على رؤوسهم قديما كما يلبس التتار الآن ولكنهم بمرور الزمن صنعوا من التبن ما يشبه القبعة الإفرنجية ولبسوها.

اصطحبت معي اثنين من كبار السن في جولة داخل البلدة فرأيت أكثر النساء هناك. ورأيت البيوت، فلم أجد من بينها بيتا نظيفا، فأحسست بأنني سأضطر إلى المبيت في بيت من بيوت اليابانيين.

والكوريون لهم عادات كثيرة تشبه قومنا التتار، خاصة ملابس النساء، والسدة داخل المنازل وأشياء أخرى كثيرة كلها تشبه عادات التتار. حتى

الداراسون الذي يصنعونه من الحليب وغيره، ولكن لا تجد علاقة في اللغة بينهما أبدا.

زرت القرى المجاورة أيضا. وكانت هذه القرى في عيد، وكانت تعقد فيها حلبات للمصارعة وألعاب قومية أخرى مثل السباق وغيره. إلا أنني وجدت بين الكوريين كثيراً من السكارى (تجولت في اليابان عدة شهور ولم أجد سكيرا واحدا)

وعملية درس البيادر في كوريا تماثل التي عند التتار، فيفردون الأحزمة ثم يتقابل شخصان أو أربعة أشخاص أو ستة وبأيديهم عصي طويلة يضربون بها البيد.

وفي تلك الليلة بت في قرية ذات ثمانية منازل وكنت مضطراً للمبيت حيث كان الوقت متأخرا، فأمضيت تلك الليلة في القرية الكورية، والقذارة في أبشع صورها. إنهم يشعلون النار في الليل فلا يكاد المرء أن يصبر على الدخان المتصاعد منها، ومن جانب اخر سكر صاحب البيت وزوجته فتشاجرا طوال الليل، فلم أستطع النوم طوال الليل. ولما طلع الفجر حملت نفسي وغادرت البيت.

وتجولت في ذلك اليوم حتى الظهر، وبعدها ركبت القطار وتوجهت إلى (كه ي جو) سيئول.

وكنت أشاهد على جانبي الخط الحديدي سهول مزروعة بالأرز، كما شاهدت قطعانا من الماشية (أما في ريف اليابان فلم أشاهد حيوانا واحدا) وكانت قطعاناً كبيرة لا يقل الواحد منها عن الثلاثين: خيول وأبقار وأغنام، كما شاهدت من بعيد كثيرا من الغابات والأشجار.

والأراضي في كوريا واسعة وخصبة، ولكن لا أثر فيها للحياة لأن الشعب الكوري شعب ميت، إلا أن الأراضي التي تخص اليابانيين تجد فيها الحياة والخصوبة، انهم عملوا في تلك الأراضي ولا يزالون يعملون

فيها. إن منزل الياباني يتميز عن منازل الكوريين من أول نظرة، فهو مكسو من أعلاه بالقرميد أما منازل الكوريين فيعلوها التبن، ونادرا ما تجد منها بيتا مغطى بالخشب، ومع ذلك فإنني لم أر مثل هذا البيت. وأينما وجدت النظافة عرفت أن هناك بعض البيوت اليابانية.

وأكثر الركاب في العربات من الكوريين، ولكن لا تجد في المحطة أو في العربات موظفا أو مفتشا كوريا واحدا.

في يوم الأحد العشرون من حزيران (يونيو) رأيت هلال جمادى الآخرة، الهلال مرتفع بعض الشيء بقي ظاهرا حتى الساعة التاسعة وأظن أنه في يومه الثالث.

وفي الساعة العاشرة وصلت إلى سيئول، وكانت المحطة مضاءة بالكهرباء.

سيئول ـ كه ي جوج

عاصمة كوريا هي مدينة «سيئول»، ولكن عندما نقول سيئول لا يفهمها الكوريون كما لا يفهمها العوام من اليابانيين والصينيين. انهم يعرفون «كه ي جو». فأنا الآن في كه ي جو.

نعم إن كه ي جو هي العاصمة. محاطة بأطرافها بقلعة ضخمة، وهناك قلعة للقصر الإمبراطوري، وليس فيما عداهما شيء. إن بيوت الكوريين ومتاجرهم متواضعة ومكونة من طابق واحد، والبيوت في القرى الروسية أجمل وأحسن منها. هذه عاصمة البلاد، ليس فيها مبنى أكثر من طابق واحد، ألا يعجب المرء من هذه الحالة؟ حتى البيوت أو المحلات ذات الطابق الواحد ليس فيها ما يسر النظر. سوى أن أكابر الناس هنا أرادوا أن لا يظهروا أمام الناس المظلومين، فأحاطوا بيوتهم بالأسوار.

في اليوم التالي قمت بزيارة وزير الداخلية الذي كنت التقيت به في اليابان وأعطاني بطاقته، وطلب مني أن أزوره في كوريا. استقبلني في منزله، ولكن لضيق الوقت لم أتمكن من البقاء عدة أيام. لقد أبدى رغبته في أن أقيم في منزله. شربت الشاي واستأذنته بالانصراف فلم يأذن لي.
واسم وزير الداخلية الكورية «كه ي لين» وهو إنسان طيب، وقد أبدى حزنه وأسفه لعدم تمكن شعبه من التطور في مدارج العلم والمعرفة وبقائه على تلك الحالة المتردية. ولكن ما الحيلة فقد ضاعت بلاده.

وحسب ما رواه الوزير فان الملك «أي جنغ» كان رجلاً لا يبالي بشيء، ولا يهتم لاحتلال اليابانيين لبلاده، وأنه كان يقول من الأفضل لشعبنا أن يبقى تحت حكم اليابانيين. إلا أن ولي العهد كان يبكي كثيرا. فهو يعترف بأن بلاده ضاعت إلى الأبد، وأن نساءه يبكين أيضا.

ورغم أن السؤال كان ثقيلا، فإني سألته: ألا يمكن تحويل الوضع في البلاد إلى حكم ذاتي؟

- لم يبق في البلاد شيء للحكم. إن ثلثا الناس يؤيدون اليابانيين، فمنذ دخول اليابانيين أحس الناس بشيء من الحرية. نعم إن اليابانيين سيظلمون ويعتدون، إنهم يعرفون ذلك ولكن يؤيدونهم، لأن اليابانيين سهلوا على الناس أمورهم، فتحوا الطرق وبنوا السفن، كما يقوم اليابانيون بإنارة المدن وتنظيفها.فإذا رأى الناس ذلك فسيفضلونهم علينا. وسنرضى بالأمر الواقع، على كل حال إن اليابانيين أحسن من الصينيين، فإن لم يحتلنا اليابانيون فسيحتلنا الصينيون. لذلك فان الحزن لا ينفع، هذا ما كان يريد أن يقوله، ولكن كنت أحس بأن قلبه يتفطر حزنا. على كل حال فقد مضى وقت الكلام وضاع الوطن. على كل، أحسست بأنه لا طائل من إشغال الوزير بمثل هذا الكلام، فصرت أتلمس الطريقة التي استأذنه بها، قمت مودعا ومددت يدي أصافحه، فشد على يدي وقال: أظن بأنك أول

تتاري يأتي إلى بلادي، وقد تشرفت بزيارتك لي في منزلي. ولا اعرف ما السبب في عدم ظهور المبشرين المسلمين في بلادنا، ولكن تروي كتب التاريخ بأن العرب قدموا إلينا في فترة من الفترات.

- في أي عهد جاءوا يا ترى؟

- غير معروف، ولكن يحتمل أنهم جاءوا لنشر الدين.

وبعد ذلك ودعته وغادرت منزله.

لقد مات الكوريون المساكين، وقريبا ستدفن جنائزهم. فالبلاد يديرها اليابانيون، نعم إن بين الموظفين بعض الكوريين ولكن لا يتعدى عملهم تنفيذ أوامر الرئيس الياباني.

المدارس في كوريا

افتتح اليابانيون ألفا ومائتي مدرسة ابتدائية، ولديهم عشر مدارس إعدادية. ويقال إن الكوريين مثلهم مثل اليابانيين سيجعلون التعليم العام إلزاميا. أما بالنسبة للتعليم الجامعي فان الكوريين يرسلون أبناءهم إلى اليابان. والمدارس الكورية تدرس طلابها باللغة الوطنية، إلا أن أكثر المدرسين من اليابانيين. زرت بعض المدارس في القرى، فوجدت أن كل المدرسين يابانيون. أما أكثرية المدرسين في كه ي جو فهم كوريون.

إن بعض القرى لا تزال تطبق أصول التدريس القديمة، حيث يجلس الطلاب على الأرض فوق الحصير، ولا يستعملون اللوح بل يعتبرونه من البدع الحديثة، فهم مستمرون على ما ورثوه عن ابائهم وأجدادهم. هذه مدارس الكوريين أما المدارس التي افتتحها اليابانيون فهي في غاية الانتظام.

النساء في كوريا

قليل من النساء الكوريات سافرات، لكن أكثرهن يضعن على رؤوسهن «جابانا» طويلا لستر الرأس، ومع ذلك فإنهن يكشفن الوجه.، وهناك بعض النساء الشابات يلبسن الحجاب التام، حيث يلبسن لباسا أبيض مثل الذي تلبسه النساء المسلمات في بخارى وتركستان.

كما أن نساء كوريا لا يختلطن بالرجال أبدا. حتى النساء السافرات اللواتي على شاكلة النساء اليابانيات يتجنبن الاختلاط بالرجال.

وحول الحجاب جرى بيني وبين احد الروحانيين الكوريين الحوار التالي:

- لماذا تتحجب النساء الكوريات، وهل في تعاليمكم الدينية ما ينص على ذلك؟ أم أن الحجاب من التقاليد القومية؟ - الحجاب من الأمور الطبيعية. فقبل مائة عام كان الحجاب عاما بين نساء كوريا، أما الآن فقد قلت النسبة.

- كيف يكون من الأمور الطبيعية؟ لا أستطيع فهم ذلك...

- الضعاف يجب أن يتحجبوا من الأقوياء، والضعفاء معذورون ومظلومون دائما. والذكور دائما هم الظلمة، كائنا من كانوا، والى أي أمة انتسبوا.إنهم غدارون؛ إن لم تتحجب النساء، تعرضن إلى ظلم الرجال وغدرهم.

- إذا وجدت التربية، فلا يعتدي أحد على حق أحد.

- إن قومكم الأوربيين شديدو التربية. ولكن حينما يصلون إلى الشرق فأول شيء يبحثون عنه هو الاعتداء على أعراض نسائنا. وإذا حاول المظلوم الدفاع، بادروا إلى طلب العون من سفرائهم، فيسرع السفير إلى نجدتهم. وقد أباحوا أعراض شعبنا بشكل عام ضعفنا، فعجزنا عن الدفاع

فلم يبق عندنا عرض أو ناموس ولا عفاف. ومع ذلك فإننا نجد تحت الحجاب نساء شريفات وعفيفات، وعليه فان الحجاب أمر طبيعي.

- ربما تكون الشكوى من فساد بعض الأوربيين، ولكن اتهام كل الأوربيين بأنهم عديمو الشرف أمر يتجاوز الحد (ولاحظت في محدثي الغضب والانفعال)

- لا، أنا من أهل هذا البلد، تجاوز عمري الستين. رأيت كثيرا من الأوربيين، ومنهم من يقيم هنا لتعليم الدين. ان دينهم يحرم عليهم الزواج، ومع ذلك فان نساءنا لم يسلمن من اعتداءاتهم، فالنساء اللواتي رأيتهن دون حجاب من ذلك الصنف، اعتنقن النصرانية وتخلين عن الشرف، أفسدوا أخلاق الناس باسم الدين.

أعجبني هذا الرجل كثيرا. أتفاهم معه بواسطة الترجمان. والترجمان الذي بيننا ياباني. ترددت قليلا، وأخيرا سألته عن مستقبل كوريا والشعب الكوري بعد أن عرفت بأن اسمه «قونسي ياما».

قال السيد قونسي ياما: بلادنا الآن تابعة لليابان. ولكن اليابانيين جاؤوا متأخرين بعض الشيء، جاؤوا بعد أن فسدت أخلاق الشعب، إن الذين قتلوا روح أمتنا هم المنصرون. فاليوم لم يعد في الكوريين شيء اسمه القومية. ليسوا إلا مخلوقات حية، كل كوري يعمل من أجل أن يعيش، ولا يمكن لكوري أن يفكر في أمر أخر، وليفكر اليابانيون في مستقبلنا. فهل سيجعلوننا جزءا منهم؟ أم هل سيغرقون البلاد في بحور من الدماء؟هم المسئولون عن مستقبل هذه البلاد بعد الآن.

- لعل العافية تعود إليكم، فتحافظون على ما تبقى من الحقوق الوطنية. فالأمة الحاكمة لا تستطيع في أي وقت من الأوقات الحفاظ على قومية شعب محكوم. فكل أمة تحافظ على قوميتها الخاصة بها، وان كانت هذه الأمة تحكمها أمة أخرى. أنني تتاري أعيش تحت حكم الروس. إنهم

يحكموننا منذ أربعمائة عام لكننا حافظنا على قوميتنا. ونأمل أن نسترد حقوقنا في المستقبل.

عجب قونسي ياما كثيرا. وسأل «أربعمائة عام؟...» فقلت نعم أربعمائة عام، هكذا أمكنني الحصول على بعض المعلومات عن أوضاع كوريا، ولكن لم يبق أي أمل في الكوريين، وهم يعترفون بأن لا أمل لهم.

المنصرون في كوريا

هؤلاء الهوام تراهم في كل مكان. ولكن اذا سألت: في أي بلد يعمل هؤلاء بمطلق الحرية، وبطريقة أكثر تأثيرا وأكثر نشاطا، لكان الجواب: كوريا.

نجح المنصرون في كوريا أكثر مما نجحوا في البلدان الأخرى، لأنهم لم يكتفوا في كوريا بالإغراء المالي بل لجئوا إلى وسيلة الإكراه والإجبار. فقد تنصر المجرمون والقتلة فحصلوا بذلك على حماية القناصل الأجانب، حتى بلغ عدد المتنصرين أكثر من مليون.

والجوع الذي ألم بالكوريين جعلهم يرضون بكل شيء، وفي الأعوام الأخيرة تعرضت كوريا لكثير من المصائب. وقد ذكرت في فصول سابقة بعضا من تلك المصائب.

والأراضي الكورية، أراض جميلة جدا. ومع أن فيها كثير من اليابانيين فان الكثافة العامة تبلغ ٤٥ شخصا للكيلومتر المربع. إلا أنه في الأعوام الأخيرة زادت نسبة الهجرة اليابانية إلى كوريا، ويتوقع أن تمتلئ الأراضي الكورية خلال خمس سنوات بأعداد هائلة من اليابانيين وعندها سيسوء الحال، ويكون الأمر مهلكا للكوريين.

ومن مقتضى الطبيعة، بأنه إذا كثرت أعداد المهاجرين إلى أي بلد من البلدان، فان سكان الأرض الأصليين يكونون عرضة للموت، فالعنصر القديم لا يمكنه مقاومة العناصر الجديدة.

ولو نظرنا الآن إلى أية إحصائية في أي بلد من البلدان، لتأكدنا أن مجرد وصول المهاجرين إلى ذلك البلد فإنه يعني نهاية أهل البلد الأصليين. ففي طيبة الطيبة تناقص الأنصار بعد الهجرة بسرعة. واليوم لا تجد في المدينة عربا أصلاء، بالرغم من أن المدينة المنورة هي دار الهجرة وكل أهاليها من العرب المستعربة.

وفي سيبيريا اليوم ترى التتار الأصليين على وشك الانقراض الكلي. فقانون الطبيعة حكم عليهم بالانقراض.

ومنذ أن استقر المهاجرون الروس في تركستان بدأ سكان البلاد الأصليين بالانقراض، انه القانون الطبيعي الذي تؤيده الإحصائيات في أي بلد من البلدان التي تأتيها أمواج المهاجرين. ألا ترون بأن سكان أمريكا الأصليين على وشك الانقراض؟

وبالمثل فان اليابان إذا أرسلت أعدادا كبيرة من المهاجرين، فاستوطنوها واستطاعوا العيش فيها، فليس هناك أدنى شك بأن أهل البلاد الأصليين سينتهون خلال قرن من الزمان.ويروى أن عدد الوفيات بدأ منذ الآن يزيد على عدد الولادات.بالإضافة إلى أن إدمانهم على المسكرات يساعدهم في هذا الاتجاه، لقد انتشر شرب الخمور في كوريا، بحيث تجد السكارى في الشوارع في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار. كما أن النصرانية تشجعهم على ذلك. والوسيلة الأولى التي يتبعها المنصرون في بلاد الشرق هي الخمور.

ولو فرضنا بأن إنساناً لم يذق طعم الخمر في حياته، فانه بمجرد اعتناقه النصرانية لا بد له من أن يشرب الخمر مرة واحدة في العام على الأقل

على أنه دم عيسى عليه السلام، عليه أن يشرب الخمر قياما بواجبه الديني. وعليه أن يعتقد بأن الخمر الذي يشربه هو دم عيسى عليه السلام. عليه أن يكذب حسه ويعتقد بأنه يحتسي دم المسيح. وأظن أن هذا المثال يكفي لأهل الإنصاف ليعرفوا كيف يربي علماء النصارى بني قومهم.

الآثار القديمة في كوريا

إن كان في كوريا ما يمكن أن نسميه اثارا قديمة، فهو القلاع. وأظن بأن هذه المدن لم يتطور فيها فن العمارة، أو أن فيها شيء من فن العمارة الصينية. أما ما يخص كوريا من فن العمارة، أو الآثار الفنية فلا يكاد المرء أن يرى منها شيئا. لقد تجولت كثيرا، ولكن "كه ي جو" هي عاصمة البلاد التي يفترض أن تكون فيها الآثار المعمارية وغيرها، إلا أني لم أر فيها شيئا من هذا القبيل.

زرت كوزان التي تعتبر أقدم الموانيء الكورية. ولم أجد فيها شيئا. مبانيها عادية جدا. أما ما يلفت النظر فهو أن شوارعها فسيحة جدا. حتى القرى الكورية شوارعها فسيحة. والأزقة مرتبة بعض الشيء.

وطراز البناء في كل كوريا واحد. فالمباني في «كه ي جو» هي نفس المباني في كوزان، وتزيد عنها بباب القصر وأبواب القلاع.

وعلى جانبي باب القصر تمثالان لحيوانين. فهذان التمثالان يمكن أن نعتبرهما آثارا عتيقة، ويروى بأن تاريخ التمثالين قديم جدا.

وفي القسم الأسفل من التمثالين كتابة تشبه الكتابة العربية، قال عنها بعض المستشرقين أنها كتابة عربية، والبعض الآخر قالوا بأنها كتابة مغولية.

وقد ترددت على المكان عدة مرات وحاولت قراءة الكتابة لعدة ساعات. فلم أستطع قراءة حرف واحد، كما أنني لم أتمكن من تشبيهه بشيء، والواقع فان هذه الكتابة تآكلت كثيرا وليس بالإمكان قراءتها.

وهناك عدة أبواب لقلاعهم، وهي مبنية على الطراز الصيني. أما ملامحهم، فلا يمكن تفريقها عن ملامح باشقورت الأورال أبدا.

وأما لغتهم فلا علاقة بينها وبين لغة الباشقورت. سألت عن كثير من الكلمات والأدوات التي يستعملونها فلم أجد بينها أية مناسبة.و يروي يادرنسيف بأن عالم الأنساب فيشر ذكر هذا التشابه في الملامح.

وملامح كارول وزوجته هي أيضا ملامح الباشقورت،أو على الأصح ملامح باشقورت الـ «كاينه».

وأي إنسان إذا نظر اليهم سيقول إنهم من الباشقورت، حتى ملابسهم وأحذيتهم، هي نفس الملابس والأحذية التي يرتديها الباشقورت، مسكين كارول، انه اليوم ضيف في طوكيو.

اليابانيون في كوريا

اليابانيون اليوم يعتبرون كوريا ملكا لهم. مدوا في جميع أنحائها الخطوط الحديدية، وفي أيام الحرب فتحوا طرقا ضيقة، أما بعد الحرب فقد انشأوا طرقا متينة وقوية لاستعمالها في النقل العسكري، وأنشأوا الموانی علی السواحل، والحافلات الكهربائية في المدن، وكذلك مدوا أسلاك الهواتف والبرق، وفتحوا مكاتب البريد، إنها على نفس النظام المطبق في اليابان، بل جعلوا هذه المرافق على طراز أحدث مما هو في اليابان نفسها. وسياسة اليابانيين تقتضي أعمار المستعمرات أكثر من أعمار اليابان نفسها.

ويسعى اليابانيون بكل ما يملكون من إمكانات إلى ضمان استمرار بقائهم في كوريا، ويهيئون كل الأسباب التي تحقق هذا الهدف دون إبطاء أو إهمال. إنهم يسعون إلى مد يد الأعمار إلى كل شبر من أرض كوريا.

وقد انشأوا خطا حديديا عظيما وعريضا من بوسان الى شينكسور وانتوكي، وسيمدونه قريبا حتى يصل إلى موقدن.وتعمل الآن قاطرات صغيرة على الخط الحديدي الضيق بين موقدن وأنتوكي، فتقطع المسافة في ثلاثة أيام.وقد وصل عدد المهاجرين من اليابان إلى كوريا إلى المليون.

الأجانب في كوريا

لم أدر ما السبب في قلة عدد الأجانب في كوريا (وأخص من الأجانب التجار، أما الهوام من المنصرين فكثيرون) وأغلب الظن بأن مجال التجارة في هذا البلد ليس واسعاً، وان كان هناك مجال فللبابانيين. فالتجار الأجانب في كوريا كما في الصين ليس لهم وجود، أو قليلون جدا.

ولا مجال لعمل الأجانب في كوريا، لعدم وجود الكماليات، هذا من جهة ومن جهة أخرى لا تزيد إيرادات البلاد عن الحاجة. إن ملابس الكوريين من ذكور وإناث عبارة عن النسيج الأبيض القطني، ومن النادر أن ترى نوعا اخر من الأزياء، كلهم يلبسون الأبيض. أما بيوتهم فلا تجد فيها أثرا للترف. إن كل شيء عادي، والبساطة عند الكوريين من المظاهر الفطرية، كما هي الحال عند اليابانيين. بل إن اليابانيين قد يقتنون في بيوتهم بعض التحف، و المرأة اليابانية قد تستعمل النطاق الحريري في بعض الأحيان، كما تجد بعض مظاهر الأبهة في بعض الأسر الكبيرة ولكنك لا تجد في كوريا كلها شيئا من هذا، فإذا اشترى الكوري جبة بيضاء فانه يلبسها لعدة سنوات وكذلك نساؤهم. و ليس هناك أبواب

لمصارف أخرى مثل الأعراس أو غيرها. لذا فإنهم لا يحتاجون للبضائع الأجنبية وقد يأتي بعض التجار لتجارة الخشب، وعدد هؤلاء محدود جدا. أما الحوائج الضرورية، فيستوردها اليابانيون، ومن الواضح أن الأجانب لا يمكنهم منافسة اليابانيين. إذن فليس للأجانب ما يتاجرون به في كوريا.

أصحاب الثراء

ليس في كوريا من يملك الملايين، بل إن الذين يملكون مئات الآلاف يعدون بالأصابع، وهؤلاء من تجار الخشب.

ولم يكن عندهم أغنياء قديما كما لا يتوقع أن تجد فيهم أغنياء بعد الآن، والسبب هو أنهم يعيبون على من يجمع المال. وان كانت للكوريين مزية فهي تحملهم المصاعب، فلا يشتكون، كما يقومون بأي عمل من أجل لقمة العيش، ولا يحتاجون لمنة أحد.

وإذا شبع الكوري فلا يكلف نفسه عناء التفكير بأي شيء اخر. قال لي أحد اليابانيين في «كه ي جو» بأن التفكير الطويل ليس من طبع الكوريين، وعليه فان وجود أصحاب ثروة فيهم أمر بعيد الاحتمال.

الأخلاق

والكوريون يتراجعون في هذا المجال أيضا، لقد صاروا ضحايا أم الخبائث، كما تدهورت أخلاقهم، قيل لي بأن الكوري في السابق لم يكن يعرف الكذب. حتى أن الرجل فيهم كان إذا تحقق من كذب ابنه تبرأ منه وطرده، ولكن الكوريين أنفسهم يعترفون الآن بشيوع الكذب في

مجتمعاتهم.أما الفواحش فلم تكن معروفة من قبل. أما في الأعوام العشرة الأخيرة، فقد بدأت تظهر وتنتشر.

أقمت في كوريا مدة بسيطة، لذلك لم أتحقق بنفسي من هذه المعلومات كما أنني لا أعرف لغتهم فاكتفيت بما حصلت عليه من معلومات عن طريق اليابانيين المقيمين في كوريا.وإذا صح ما قالوه، فان مستقبل الكوريين مظلم، لدرجة أن الكوري الذي ابتلي بالخمر، يمكن أن يضحي ببلده من أجل زجاجة خمر. والوسيلة الوحيدة التي يتبعها المنصرون لتنصير كل الشعب الكوري هي الخمر، حيث يجمع المنصر عددا من الذكور والإناث فيسقيهم الخمر، وفي اليوم التالي يطلب المخمور الكوري كأسا، فيطلب المنصر منه أن يتنصر كي يحصل على مبتغاه. فان وافق سجل اسمه في سجل المتنصرين وسقاه كأسا من الخمر.

ما أسهلها من طريقة. وكنت قد سمعتها من البورات أيضا. إلا أن البورات عادوا في الفترة الأخيرة إلى صوابهم، فلما أعلنت الحرية في روسيا تركوا النصرانية وعادوا إلى مجوسيتهم. أما الكوريون فعلى العكس من هؤلاء، فعدد النصارى يتزايد عندهم كل يوم. والكوري بتنصره يتعود على الفساد. كما يقوم بما تقوم به البهائم(من الأعمال الجنسية)...

تجولت داخل كوريا مدة أسبوع، ولم أر فيهم أي أمل في المستقبل. ولعل اسم دولة كوريا سيمحى من الذاكرة في المستقبل وتصير هذه البلاد «ولاية يابانية» وهي توشك أن تصير فعلا. ومصالح الكوريين لا تتحقق بطريقة أخرى. فإذا انضموا إلى اليابانيين فلعلهم يستمرون في العيش بحماية اليابانيين. أما إذا استقلوا فسيتعرضون لخطر دائم. لذلك فان الأنسب و الأنصف والأقرب و الأوفق للكوريين هم اليابانيون، حيث يعرف اليابانيون نفسية الكوريين، كما إنهم يساعدونهم لتحقيق مصالحهم، وهم يشتركون معهم في الدين والجنس.

قال لي المفكر الياباني الأمير ايتو يوما: «إن حياة الكوريين أمانة بيد اليابانيين، وواجب اليابانيين صيانة الأمانة بالإضافة إلى توحيد حياة الكوريين بحياتهم.، لأن وجود الكوريين كان ضمانا لبقاء اليابانيين».

خلال إقامتي في سيئول حاولت أن أجد كوريا يجيد اللغة الروسية فلم أفلح، تعرفت على كثير من الكوريين الذين يجيدون اللغة اليابانية، إلا أن أكثر هؤلاء من المؤيدين للسياسة اليابانية، فيحتمل أن تكون المعلومات التي زودوني بها معلومات غير صحيحة، كما أنني كنت أعاني من عدم إجادتي اللغة اليابانية إجادة تامة. كنت أريد أن أعرف ما إذا كانت بين الكوريين فئات معارضة، لكني لم أوفق في ذلك.

سأغادر سيئول «كه ي جو»

سأغادر لكني قلبي مشغول دائما بإخواني في طوكيو، أتذكر مدى حبهم وتعلقهم بي وأنهم يحتاجون إلى الاتصال الدائم بهم كي لا يتعرضوا يوما لوسوسة الشيطان، فقررت أن أبقى يوما اخر لأكتب رسالة إليهم ثم أغادر سيئول:

من كه ي جو الى طوكيو

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

إلى جناب الأخ الجليل محمد بركة الله صاحب سلمه الله وصانه.

أما بعد فيا أخي، لابد لنا أن نسلك مسلك النبي ﷺ في الأمور كلها، لأن مسلكه ﷺ أحسن مهذب وأنصح معلم. وفيما لقيه صلى الله عليه وسلم من الموانع والأذى حين دعا قومه إلى الحق ما يكفينا أسوة حسنة، وصبره ﷺ إلى أن هجر وطنه العزيز قائلا: «لو لم يخرجني أهلك ما خرجت يا مكة» وهذا أعظم مرب للمسلمين خصوصا ونحن في بداية هذا الأمر العظيم، من جلب النفوس النافرة وتأليف قلوب الأقوام المختلفة،

وصيرورتهم يدا واحدة على من سواهم، والى غير ذلك مما لابد لنا من التدابير المهمة، و التجامل مع المؤلفة قلوبهم.

وكان ﷺ أفضل قومه مروءة وأكرمهم مخالطة، وخيرهم جارا، وأعظمهم حلما. مضت مدة، بل أشهر وسنين، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يظهر الدعوة في المجامع العمومية، حتى كان كل من أراد العبادة من المسلمين يذهب إلى شعاب مكة، ويصلي مستخفياً، إلى أن زاد عدد المسلمين وتكثر، ثم أنزل الحكيم العليم ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ وجهر النبي ﷺ بالتبليغ. وكل ذلك ليس بخفي عنك يا أخي. ولست أعلمك بما تعلم، ولكني أعرض على حضرتكم بما في صدري، وقلبي مطمئن لما عندك من الكمال والدراية، وخصوصا مع طول باعك في أحوال العالم وسياسة الزمان. أنت أدرى بما يلزم الآن من ملازمة إخواننا اليابانيين حتى تحصل الألفة التامة والأنسة العامة.

وأرجو من فضيلتكم ألا تنسونا من الدعاء بالخير، وسلموا على إخواننا كافة عامة.

عبد الرشيد إبراهيم

من كه ي جو ٦ جمادى الآخرة

ورسالة أخرى من كه ي جو:

وآسف لعدم إدراج الرسالة كما هي لأنها باللغة الروسية.

أخي العزيز السيد أوهاره،

بعد أن فارقتكم وصلت إلى كه ي جو عن طريق كوبي ـ سيموناساكي ـ بوسان. إن قلبي يتقرب إليكم كلما ابتعدت عنكم، وأتذكر أكثر، الأيام

التي قضيتها معكم. وإنني لعلى يقين بأنكم تذكرونني دائما، لأن نبينا قال «الأرواح جنود مجندة».

لا أجد الآن ضرورة لكتابة رسالة مفصلة، وأكتفي بالقول بأن ضيق الوقت، وعدم معرفتي اللغة لا يمكنني من القيام بعمل يناسب مسلكنا، ولم أتمكن من تبليغ الكوريين. وسأقوم بهذه المهمة بعد اتخاذ القرار في الجمعية وبعد استكمال بناء مسجدنا في طوكيو.

اسلم على إخوتي الأحبة توياما وكانو واينوكاي وكافة الإخوان الآخرين، وسأنتظر رسالتك في بكين، واستودعك الله؟

عبد الرشيد إبراهيم

كه ي جو ٦ جمادى الآخرة

بعد كتابة هاتين الرسالتين إلى إخواني في اليابان، أردت الإخلاد إلى الراحة قليلا، وإذ بالباب يدق، نظرت فإذا هو المعلم الذي تعرفت عليه قبل يومين.

قال:- هناك أربعة عميان قدموا من اليابان، وسيقيمون حفلة لصالح مدرسة العميان في اليابان، لنحضر الحفلة إن أردت فقد جئت لأدعوك إليها.

وحضرت الحفلة لقضاء بعض الوقت. والحفلات في أوربا تكون ضخمة وعظيمة، أما في عاصمة كوريا فلا شك بأنها ستكون على مستوى ذلك البلد، لذلك ترددت في القبول في بداية الأمر، ومع ذلك فلم أندم على حضورها.

ولم نصل إلى الحفلة إلا في وقت متأخر، فلما وصلنا كانت الحفلة قد أوشكت على الانتهاء. عندما دخلنا الصالة في النادي العسكري، كان العميان يعزفون على الآلات الموسيقية أمام جمع كبير من المستمعين. ولم يطل بنا المكوث حتى انتهت الحفلة وتفرق الناس.

تقدمت أنا وصاحبي نحو العازفين، وسألناهم من أي مدينة هم، فأجابونا بأنهم من طلاب أواساكي. أردت الإطلاع على أحوالهم فحصلت على المعلومات التالية: أكمل هؤلاء دراستهم قبل عامين وتزوجوا، ثم بدأوا بجولة خارج مدينتهم، إنهما رجلان مع زوجتيهما، تجولوا في كل أنحاء اليابان، فأقاموا الحفلات، وجمعوا المساعدات للمدرسة التي تخرجوا منها.

وبلغ مجموع الأموال من الجولة داخل اليابان خلال أربعة عشر شهرا ٦٨٤ ينا. سألتهم: أأرسلتكم المدرسة أم تتجولون من تلقاء أنفسكم؟ قالوا: لقد ربتنا المدرسة أكثر من ثمان سنوات، فلم ندفع لها أي مبلغ، فأردنا القيام بالواجب تجاه هذه المدرسة فالتزمنا أن نخدمها مدة عامين.

هذا هو ضمير العميان، فهل يتذكر المبصرون منا مثل هذه الأمور؟ الحقيقة إنني عجبت أشد العجب من تجول العميان على هذه الصورة وتضحيتهم من أجل أبناء وطنهم.

وأعرض على القراء الكرام وصفا لهذه الآلات الموسيقية:

الآلة التي بيد السيدة على الجانب يسمونها «شيميسكا». أما الثلاثة الأخرى فهي الآلة المسماة «جوتو».

وأظن أن هذه الآلات غير معروفة في أوربا، خاصة "جوتو" فهي جميلة جدا. والآلات الموسيقية في اليابان من صنعهم واختراعهم.

ان ملاحظة مثل هذه الأمور درس كبير لنا، هؤلاء المعوقون يضحون بعامين من عمرهم لمساعدة المدرسة التي علمتهم، ضمن حدود امكاناتهم.

والمرء عندما يرى هذا الشيء من هؤلاء المعوقين يعرف الأسباب التي جعلت اليابانيين ينجحون في تطوير بلادهم خلال مدة لم تتجاوز ثلاثين

عاما، وبشكل أدهش العالم. حتى وزراؤنا لا يحسون بالواجب تجاه مدارسنا كما أحس به هؤلاء العميان اليابانيين.

وعدت الى البيت الذي أنزل فيه وأنا متأثر أشد التأثر من جهة، ومسرور غاية السرور في ان واحد. أردت النوم، لكن الأوهام غلبتني. فإذا كان على مثل هذه الطبقة البسيطة من الناس أن تفكر في رفع شأن أمتها، وتغليب مصلحة بلدها على مصالحها الخاصة، فهل يحق لنا أن نتحدث عن الحياة والمستقبل؟ فكرت في هذا فغلبني اليأس والتشاؤم. ثم تبدل الأمر، وتغير الرأي، فشجعت نفسي وقلت:

إذا كان مثل هؤلاء العميان يفكرون في مصلحة بلدهم ووطنهم، فمالي وأنا بكل أعضائي وجوارحي لا أضحي بروحي فداء لأمتي، وغرقت في تفكير عميق إلى أن غلبني النوم.

رأيت الرؤيا التالية

وجدت نفسي في أرض واسعة جدا لا يحدها البصر، ومعي عدد من الأشخاص، نتحدث عن زرع شيء في الأرض. وقبل انتهاء التشاور، تناولت الفأس وصرت أحفر بها الأرض، وأرش البذار من جهة أخرى، ثم ظهر عدد من الناس، و بدأوا بدورهم بالحراثة والزرع، فتركت ما بيدي ومشيت. طفت ببلاد كثيرة، وقطعت جبالا لم أشاهدها من قبل، وصادفت طرقا لم الفها. وأخيرا صرت على قمة جبل مع جمع عظيم من الناس، والهواء لطيف جدا، وحولنا أشجار وبساتين خضراء، وتكلمنا عن الزراعة. ثم حدث هرج ومرج، ولا أتذكر بعد ذلك، لكني سمعت قول الله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ فاستيقظت من نومي. وكان الوقت فجرا. واليوم يوم السفر، فسجلت الرؤيا في الدفتر، وجمعت

متاعي ودفعت الحساب، وتوجهت إلى محطة القطار كي أسافر مباشرة إلى موقدن. والموظفون والعمال كلهم من اليابانيين.أي أنني لن أصادف أية مشكلة. لقد حان وقت مغادرة البلاد الكورية.

حصلت على التذكرة وصعدت العربة عندها جاء كوري وجلس قبالتي. سألته باليابانية: إلى أين ذاهب؟ فلم يجبني، لأنه لا يعرف اللغة اليابانية. ثم سألته بالروسية، فأجاب: «هوتين» وفي هذه المرة لم أعرف أين تقع هوتين. والذي عرفته منه هو أن هذا الرجل يعرف اللغة الروسية. سألته مرة ثانية: أين «هوتين»؟ قال: الروس يعرفونها بموقدن، لكن اسمها الأصلي «هوتين». ونحن نسميها هوتين. وكذلك الصينيون: ولماذا يسميها الروس موقدن.

إن إجادة هذا الرجل اللغة الروسية ومرافقته لي إلى موقدن سرني كثيرا. تحرك القطار من كه ي جو، وغرقنا أنا وصاحبي بالحديث.

قلت: إن الخط الحديدي الكوري جميل جدا، والعربات سليمة، ولابد أن تكون سكة الحديد جيدة، فلا يهتز الراكب أبدا.

- الخط الحديدي الكوري ليس لنا بل لليابانيين.

- لا بأس، انه انشىء في بلادكم، وسيكون لكم عاجلا أم اجلا.

- إذا كان المرء لا يملك ماله الخاص، فكيف يملك مال غيره؟

- أريد أن استفيد منك، أرجو أن تبين لي أفكارك ان كان ذلك ممكنا. لقد أمضيت في كوريا أسبوعا أو عشرة أيام إلا أنني لم أتعلم شيئا، لأنني لا أعرف اللغة، كما أن معرفتي باللغة اليابانية سطحية، ولا أقتنع بالمعلومات التي حصلت عليها عن طريق اليابانيين. أريد معرفة وضع الكوريين حالا ومستقبلا. هذه صدفة طيبة انك تجيد اللغة الروسية. أسألك أولا أين تعلمت اللغة الروسية؟

- أنا لم أدرس في المـدارس، بـل أقمـت مـدة في فيلاديفوستوك ثم في بورت أوثور، بحكم وظيفتي.
- بوذي المذهب، أليس كذلك؟
- نعـم، كانـت البوذيـة قـديما مـذهبنا الأصـلي، لكـني تحولـت الى الأورتودكسية بحكم المصلحة، أما الآن فعقلي هو مذهبي.
- جميل جدا، أنا مسرور بذلك، فاتباعك لرأيك أمر بعث في الأمل. لقد نظرت الى ظواهر الأمور، فصار عندي إنطباع أن كوريا ضاعت من أيدي الكوريين، والآن يمكنني أن أغير رأيي بناء على المعلومات الـتي تـزودني بها. ان انطفاء أمة كانت حية لآلأف السنين لأمر يدعو إلى الأسف. أرجو أن تزودني بمعلومات عن مستقبل كوريا.
- لا مستقبل لكوريا، انها كما رأيتها.
- أنا لم أر شيئا، فكيف يتسنى لي أن أعرف كل شئ في أسبوع واحد. الا أنني شاهدت اليابانيين في كل المرافق.
- انهم الآن أصحاب البلاد. سيملكونها تماما في عدة سنوات.
- وهل سترتاحون لاستيلاء اليابانيين لبلادكم؟
- سنرتاح! لقد ارتحنا وانتهى الأمر. وهل لرضانا قيمة؟ فاليابانيون اليـوم لايفكرون في ارضائنا، انهم يفكـرون بمـصالحهم وهـذه مهمتـهم. وكـل انسان يعيش ويسعى من أجل مصلحته، لقد كانت مهمتنا هي العمل مـن أجل مصالحنا، لكننا لم نفكر بعيداً، فأضعنا بلادنا تماما. ان الانـسان ان لم يحم ملكه فان هذا الملك يضيع وسـيقيض الله أناسـا اخـرين. اننـا لم نحم بلادنا، فأعطاها الله لليابانيين.
أظن أن حكم اليابانيين أكثر نظاما، لقد كان الظلم والغـدر سـائداً مـن قبل، أليس كذلك؟

مهما تعرض الانسان لظلم ابيه فلا يحس بالحيف، يتعذب جسمه لكن قلبه مطمئن. أما اذا تعرض لاعتداء خارجي، أو تعرض لعقوبة استحقها ضمن حدود القانون، أقام الدنيا بصراخه وشكواه. هذا أمر طبيعي. لأن معاملة الأب مهما بدا لعقلك القاصر ظلما، فهو ليس بظلم، حتى وان كان ظلما حقيقة، فان نية الأب في تربية الأسرة تخفف من وقع هذا الظلم، والعقل السليم لايحكم على الأب بالظلم لأن تلك العقوبة وقعت من أجل مصلحة الأسرة. ومهما عدل اليابانيون، فهو ظلم وغدر في رأينا. لأن ذلك العدل كان أساسا لتحقيق مصلحتهم. بالاضافة الى أن الناس في عهد الحكومة الكورية كانوا يعيشون حياة طبيعية، وكان أفراد الشعب يتمتعون بالحرية، ولم يكن هناك أي تضييق، يعطون مما يملكون شيئا للدولة، ومن لايملك لايعطي شيئا ولا يكون مسؤولا. كل مواطن يعرف بيته ويتصرف بملكه كما يشاء. كان قلبه وضميره مطمئنا على أقل تقدير. أما الآن فليس كذلك، فكل انسان يرى في بيته أجنبيا يخضعه لارادته، فلا يملك المواطن بيته، ولا يملك مكسبه، نحن نكد ونجد، وهم يقسمون فيأخذون النصف ويتركون الباقي. أعترف بأن الأمور أصبحت أكثر يسرا، وامتلأت يد الناس نقوداً، وها أنت ترانا نقطع مسافة الشهر بثلاثة أيام، وهذه أمور مهمة ولكنها مثل ذر الرماد في العيون، لاقيمة لكل ذلك اذا بكى قلبي وضحك وجهي.

- ومع ذلك فاني رأيت اليابانيين أحسن وأرحم، لقد رأيت الموظفين منهم في كل مكان يعاملون الناس معاملة انسانية، ولا ينظر إليهم نظرة ازدراء.

- نعم انهم ليسوا مثل الروس، ومع ذلك فان الازدراء الذي يلقاه الكوري من الروس في فيلاديفوستوك أهون من الاحترام الذي نلقاه من اليابانيين في كه ي جو. ان ضميري لايحس بالعذاب كثيرا، لأنه صاحب البيت،

وأنا غريب. أما الذين يملكون احساسا وطنيا فلا يطيقون هذا، ولكن ماالحيلة، ان الانسان يتحمل الكثير.

- تقول بأنك غير متعلم، ولكن من يستطيع مثل هذه المناقشة لابد أن يكون متعلما.

- لقد درسنا بفضل اليابانيين حتى المستوى الجامعي وكل ما يقوم به اليابانيون هو درس لنا، لكننا بدأنا نفهم هذه الدروس بعد فوات الأوان، بدأنا نفهم بعد أن صارت بلادنا ملكا لغيرنا.

- على كل حال، اذا وجد من الكوريين من يقيس الأمور مثلك، أتوقع أن تستردوا بعضا من حقوقكم.

- لا، فقد مضى وانتهى، إننا لم نفكر في الوقت المناسب، والتفكير بعد فوات الأوان لا يرجى منه شيء، لأن الذئب اذا سيطر على الحمل لايتوقع منه افلاته، ليبك الحمل كما شاء، فالذئب سيأكله، لقد أضاعه الراعي، ولن يجده مرة أخرى، والراعي يضحي بالقطيع كله من أجل انقاذ نفسه، وقد ضحى فعلا، لكنه لم يتمكن من انقاذ نفسه.

وهكذا كنا نقضي وقتنا في الحديث، لتسجيل ما أسمعه في الدفتر بقلم الرصاص.

إن أكثر الركاب معنا هم من الصينيين، وكان بينهم من يعرف اللغة الروسية، فكانوا يستمعون الى احاديثنا. وعندما توقف القطار قال رفيقي: هذه «كه ي جييوا» وبعد نصف ساعة ولصلنا الى «نه ي جييوا» وهي مدينة كبيرة. نتجول فيها ان رغبت، لأن القطار سيتوقف فيها ساعة وعشر دقائق.. نتوجه الى المدينة ونشرب الشاي. وبعد نصف ساعة كنا في «نه ي جييوا».

سنذهب سوية الى المدينة. قلت: اذا أبقينا أمتعتنا كما هي ألا يحدث شيء؟

- اطمئن، فالكوريون لايعرفون السرقة.

- واليابانيون لايعرفون، أليس كذلك؟

- واجب اليابانيين المحافظة. فان لم يقوموا بالواجب فلا أقل من أن لايفعلوا العكس! والأمن في اليابان مستتب تماما. ولكن هناك فرق بين الأمن هناك وبين الأمن عندنا: السرقة عندنا ظلم كبير. فالانسان اذا سرق، عليه أن يقطع كل صلاته بأهله وأقاربه. أما في اليابان فانهم يمتنعون عن السرقة خوفا من العقاب.، والا فان السرقة موجودة في طبعهم. لقد وضعوا قوانين صارمة ضد السارقين. كما نشروا الوعي بين الناس.

توجهنا الى المدينة، وهي مدينة صغيرة، ولكن اليابانيين أحسنوا اعمارها: حافلات كهربائية، هواتف، شوارع منتظمة وأسواق جميلة، تجولنا داخل المدينة بالحافلة، ثم شربنا الشاي في بيت ياباني، ولما عدنا الى القطار وجدنا شرطيا على باب العربة، قال: تأكدوا من أمتعتكم.

نظرنا فوجدنا أن كل شيء كما هو لم يمسه أحد.

سألت رفيقي: ماسمك؟

- واك-بين - يو.

- وما معناه، هل لهذا الاسم من معنى؟

- معناه واسع القلب، أو قريبا من هذا، ولن أقدر أن أشرحه بالروسية أكثر من ذلك. اسم له معنى كبير. خاصة الحروف التي تدل عليه.

- وما الفرق بين حروف الكتابة الكورية وحروف الكتابة اليابانية؟

- الفرق كبير جدا. لكن الكوري يفهم الكتابة اليابانية، كما يفهم الياباني الكتابة الكورية، ولايفهم أحدهما ادب الآخر. فاذا كتب الكوري شيئا، فان الكوري مثله يفهم ويتذوق معانيه. ان الفهم شيء والتذوق شيء اخر، والياباني أيضا يقرأ ما يكتبه الكوري ولكنه لايتذوقه. وكتابتنا أقدم من

كتابة اليابانيين، فقد أضاف اليابانيون حروفا جديدة، كما غيروا فيها بعض الشيء، أما حروفنا فبقيت كما هي قبل ألف عام، فلم تتعرض للتغيير.

- وهل نسبة من يعرف القراءة والكتابة في الكوريين كبيرة؟

- ليست كبيرة، ولكن أكثر من الروس. وتوجد في كل قرية مدرسة ومدرسون. إلا أن أبناءنا لايتعلمون القراءة والكتابة في ثلاث أو أربع سنوات مثل اليابانيين، بل يحتاجون الى عشر سنوات.

وفي أثناء هذا الحديث تحرك القطار من كه ي جيبوا، وكان الهواء منعشاً جدا، وكنا نقطع المسافات ونحن نمتع أنظارنا بما حولنا، وبعد ساعة وصل القطار الى كاكوزان.

قلت: هذه بلاد كورية، أليس كذلك؟

ضحك وقال- كل المسافات التي سنقطعها حتى الليل كانت أراض كورية، ولكنها الآن ولاية كورية تابعة لليابان! وسنسير في بلاد اليابان مدة ثلاثة أيام حتى نصل الى هوتين.

الأراضي هنا جميلة جدا، فالمزروعات والمراعي كثيرة مما يعجز الانسان عن وصفه. ورأينا اليابانيين يعملون في كل مكان.

قال رفيقي: هل لاحظت هذه الأراضي، ان الأعمال هنا تختلف عن غيرها، فالمزروعات التي رأيتها بين بوسان وكه ي جو كلها للكوريين، أما المزروعات التي رأيتها بعد كاكوزان فكلها لليابانيين.، إنها لا تشبه أراضينا، فالأراضي هناك كانت على حالتها الطبيعية. أما الأراضي التي تراها الآن فقد عملت فيها يد الانسان فلا تجد فيها بيتاً واحداً، لذلك فهم يستغلون الأرض أحسن استغلال. وفي عهد الكوريين كانت هناك أراض كثيرة لم تطأها الأقدام. أما هؤلاء فلم يبقوا على هذه الجبال شبرا الا واستغلوه ولم يكتفوا بذلك بل سبروا أعماقها وبدأوا يستخرجون ماوجدوا فيها، انك تجد في هذه الجبال يابانيين كأعداد النمل.

أما قومنا فلم يفتحوا عيونهم، ولن يفتحوا، انهم يستخدموننا في الأعمال الشاقة. والعوائد تذهب كلها لليابانيين.

- لاتستقيم الحياة الا بالسعي لكسب الرزق وفق متطلبات العصر. عليكم أن تعملوا مثل اليابانيين كي تستردوا ملككم على الأقل ولايمكن الحفاظ على البلاد بالجهل.

- استرداد البلاد! لقد مضى عهده، لو أمكننا أن نحمي حقوقنا الانسانية لضمنا العيش على أية حال. إن جيلنا بدأ بالانقراض، فقد انتشرت الخمور، واذا بقي الوضع على ماهو عليه، فسينقطع الانجاب، كما دخلت علينا الأمراض الجنسية، وإن الذين تنصروا، ابتلاهم الله بهذه الأمراض، وصارت دائرته تتوسع كل عام بل كل شهر، ومن يحس بالجوع من الناس يتنصر.

واذا بدأت الأمة بالانحطاط، ذبلت أفكارها ثم اضمحلت، ومات الاحساس فيها، وفقدت كل شيء، حتى العرض والشرف. فلو اطلعت على أوضاعنا فلن تصدق، فإن العامل الياباني، يشعر في قرارة نفسه بأنه أرفع مقاما من وزرائنا. فيتصرف وكأنه هو السيد، ولا يحس الكوري من هذا التصرف بأي ضيق أو حرج، بل يتذلل أمامه وكان هذا التصرف من الياباني هو الصحيح. لاأجد كلمة أنسب من القول بأن الكوري جسد بلا روح. اننا لم نعرف للنعمة قدرها، والآن لانحس بأننا على وشك الزوال.

- لماذا كل هذا اليأس، أنا لم أجد مايوجب كل هذا، اذا أراد الكوريون استرداد سيادتهم، عليهم أن يعملوا بعض السنوات لكسب المعرفة والعلم، ثم يستغلون الفرصة فيعيدون الحق الى نصابه. ان قومنا التتار يعيشون تحت حكم الروس منذ أربعمائة عام، ومع ذلك فلم ييأسوا، واذا أخذنا بعين الاعتبار الحرية تحت حكم اليابانيين قياسا على ظلم

الروس، فانني اغبطكم، فلولم يحتل اليابانيون بلادكم لاحتلها الروس. ولكان وضعكم أصعب من الوضع الذي أنتم فيه.

- هذا أمر نسبي، وهناك احتمال اخر وهو أن يكون احتلال الروس أهون من احتلال اليابانيين. فلو أحتلها الروس لما كان هناك مهاجرون روس الينا، أو كان عددهم أقل، واذا وقع الظلم من الروس لعلا صراخنا، ولما اعتدوا على قومية الناس ووطنيتهم، وهناك أمور أخرى تجعلنا نفضل الاحتلال الروسي. إلا أن هناك جانب واحد هو الجانب الأخلاقي يجب اعتباره، ففساد الخلق عند الروس شيء سيء جدا. لذا فإن احتلال اليابانيين من هذه الناحية أهون شرا من احتلال الروس. وهذا شيء واضح، فالذين يختلطون باليابانيين تنصلح أخلاقهم. كما أن هناك بعض من رجالنا لهم مكانتهم في التجارة وغيرها، اننا لانشكو من هذه الناحية.

- هل أقمت في اليابان؟

- أقمت، وأعرف اليابان جيداً، لقد أقمت في الجنوب، وأعرف البلاد من كاما كوره الى ناغازاكي. إن اليابانيين في بلادهم ليسوا في وضع يحسدون عليه، الفقراء كثيرون، وليس هناك مجال للعمل. والجوع بدأ ينتشر. كثيرون منهم لايتحملون ذلك فينتحرون، ومن يقرأ الصحف يجد منتحرا واحدا كل يوم على الأقل.وفي بعض الأيام أكثر من واحد.

- نعم هذا صحيح، ولكن بنسبة لاتكاد تذكر، فعدد اليابانيين يزيد نصف مليون في كل عام. فمثل هذا الانتحار ليس مهما. ولا يظهر ذلك في الصحف. واليابان اليوم بلد صغير وعدد السكان كبير، والخدمات فيها متوفرة، الهواتف ومكاتب البرق منتشرة وإن مايحدث في أنحاء البلاد يصل يوميا الى العاصمة، ومن العاصمة تنشر الصحف الخبر.

أما في روسيا فان أخبار تركستان وبخارى وسيبيريا والقفقاس تصل الى العاصمة بعد مضي وقت طويل، لذا فإنها تفقد قيمتها الاخبارية، تمضي

الشهور فلا تنشر. لذلك فان حالات الانتحار تبدو كثيرة، والا فان انتحار خمسمائة من بين خمسين مليونا ليس شيئا كبيراً.

كنت أريد أن أسألك، كيف تطور اليابانيون بهذه السرعة، وماهي أسباب هذا التطور، ولماذا احتلت كوريا، هل عرفت هذه الأمور خلال اقامتك في اليابان؟ إنكم إن عرفتم ذلك أمكنكم ان تجدوا طريقكم الى التطور. الى أي حد استطاع اليابانيون حماية عاداتهم وأخلاقهم القومية، هذه هي النقاط التي كان من الواجب عليكم أن تهتموا بها.

- نعم، لو لاحظنا مثل هذه الأمور لما صرنا الى ماصرنا اليه. في منتصف هذه الليلة سنصل الى محطة «شينكي جو» وهناك نهر، وهذا النهر يفصل بيننا وبين اليابانيين، والواقع ان اليابانيين موجودون على الجانبين، أحدهما موجود من القديم، أما الجانب الآخر فقد تطور حديثا. ويعرف الجانب القديم بـ «شينكي جو» والجانب الآخر ب «انتوكي» وستعرف هناك كيف تطور اليابانيون، لقد عرفنا هناك من هم اليابانيون، وأي نوع من الرجال.

- الجانب الآخر من النهر ليس لك، انه للصينيين.

- كنت سأقول هذا. لقد أنشأ اليابانيون هذا الخط ليأخذوا جزءاً من كوريا يمتد من بوسان حتى شينكي جو، وكنا نقطع المسافة هذه في شهر، والآن يقطعها اليابانيون في يوم واحد، إن اليابانيين كما ترى لم يقيموا نقطة مراقبة عسكرية واحدة في عرض البلاد. أما عندما وصلوا الى انتوكي فقد أنشأوا ثكنات ومراكز عسكرية،، وكلما تقدمنا فسنجد في كل مرحلة نقطة أو مركزا عسكريا، وفي أنحاء كوريا لاتشاهد الجنود الا في سيئول. أما في الصين فقد انتشر الجيش في كل مرحلة. لقد عرفت اليابان الفرق بيننا وبين الصين منذ أول يوم من قدومهم.

انهم يعاملون الصينيين بقدر كبير من الحيطة والحذر، أما تجاهنا، فالأمر سيان، لقد عرفوا بأننا شعب ميت من أول يوم وطئت أقدامهم أرض كوريا. وهكذا استمر الحديث الشيق الى أن وصلنا الى شينكي جو في تمام الساعة الحادية عشر ليلا. ولم نتوقف فيها بل توجهنا بالزوارق مباشرة الى انتوكي، وأمضينا تلك الليلة في منزل أحد اليابانيين.

آنتوكي

انها قرية بنيت بصورة مؤقتة، لقد كانت منظمة تنظيما جيدا، الشوارع نظيفة وكذلك الأرصفة، وأخذت شكل مدينة صغيرة، وقبل ثلاث سنوات كانت أرضا خالية.

والمنزل الذي نزلنا فيه عبارة عن قسمين قسم للمسافرين اليابانيين، وقسم اخر للأوربيين، وكلا القسمين على درجة كبيرة من النظافة والترتيب. ومن النادر أن تجد في مدننا مثل هذه المضافات.

وأكثر سكان انتوكي من الصينيين، إلا أن ادارتها ومصالحها بيد اليابانيين، ومع ذلك يوجد بين الصينيين بعض من التجار المشهورين، ولهم متاجر عامرة، ومنهم الموظفون، لقد دافعوا عن حقوقهم ولم يسلموها كلها. ويلاحظ على الصينيين قدر كبير من الحيوية والنشاط.

لقد وطئت أقدامي أرض الصين اعتبارا من هذا اليوم، وان كانت اليابان تعتبرها جزءاً من ولاية منشوريا. وقبل الحرب الروسية اليابانية كانت ولاية روسية.

وبقي لي مسيرة يومين اخرين لاقطع المسافة من انتوكي الى موقدن. فالخط الحديدي هنا قد انشىء بصورة مؤقتة، فهو ضيق وسرعة القطار تتراوح بين ثمانية الى اثني عشر كيلومترا في الساعة.

وفي الرابع والعشرين من تموز(يوليو) انطلقنا من انتوكي متجهين الى هوتين ومنها الى موقدن بعربات أسوأ من عربات قطار سيبيريا المخصصة لنقل الدواب، والجلوس فيها حتى المساء نوع من العذاب الأليم. لقد انشيء هذا الخط بصفة مؤقتة أثناء الحرب الكبرى، وينشئون الآن خطا حديديا عظيما، ولكن سيبقى هذا الخط السيء في الخدمة لمدة عام أو عامين الى أن يكتمل انشاء الخط الجديد، وماذا بوسعنا أن نفعل؟

هذا الخط الحديدي يثبت أن اليابانيين يبدأون دائما بالشيء البسيط، ثم يتوسعون على قدر الحاجة، ومع ذلك فقد أنجزوا بهذه الطريقة الكثير من الأعمال، فتحوا الأنفاق، وشقوا الطرق الى قمم الجبال، واستطاعوا نقل الجنود اليابانيين الى منشوريا.

قال لي رفيقي: انني أشم هنا رائحة الحياة، أما في كوريا فلا رائحة للحياة، أفكر أحيانا فأقول: أخشى أن يصعق اليابانيون المساكين بالهواء الفاسد، الذي أرسله الله لقتل الكوريين.

- لاعليك فاليابانيون يجدون حلا لهذا أيضا.ان أكثر الركاب صينيون لهذا يترأى لك ذلك لأنك تتوقع منهم أن يفعلوا شيئا، والا فلا دخل في الهواء في تقدم الأمم وتأخرها.

- قد يكون له دخل لكننا لاندركه.

- كن على ثقة، بأن مثل هذا الشيء لايكون.

حدث شيء غريب جداً. فصديقنا بعد أن غادرنا انتكوي صار في حال غير الحال التي كان عليه. صار يتكلم بحرية أكثر. فعجبت لأمره، ومن الطبيعي ألا يكون للهواء دخل في ذلك، ولكن الحياة هنا مختلفة حقيقة، والناس أكثر نشاطا، والحال يختلف نسبيا.. ويقول صاحبنا في معرض تأييد رأيه: خلال الحرب الروسية اليابانية، تقدم اليابانيون حتى هذه المناطق ببطء وكان عدد الجنود أكثر والقوة والسلاح أوفر وعندما وصلوا

الى نهر «يالو» وبمجرد عبورهم النهر ساروا دون توقف الى أن بلغوا موقدن، أما الروس فلم يستطيعوا الصمود بعد ذلك، لقد رأينا ذلك بأم أعيننا. فحينما تجاوز اليابانيون النهر، لم يستطع الجنود الروس أن يظهروا أية مقاومة. كانوا في تراجع مستمر، وانتصر اليابانيون في كل هجوم شنوه. وشهد هذه الأحداث كل الصينيين وعموم الكوريين، شاهدوها بأم أعينهم.

كما أنني أضيف بأنه بعد أن جاوز اليابانيون النهر تغير اتجاه الرياح أيضا، فالعواصف الثلجية التي هبت من الشرق نحو الغرب كانت مصيبة أخرى على الروس، وكان الله في جانب اليابانيين. وفي موقدن كاد الروس أن يقعوا جميعا أسرى بأيدي اليابانيين، وأوشك قوروبانكين أن يكون بين الأسرى، لأنهم لم يكونوا يرون الجنود اليابانيين وهم عند أقدامهم، وكانت قطع الثلج تضرب عيون الجنود الروس ضرب الرصاص، أما اليابانيون فقد كان اتجاه الريح مناسبا لهم، فيرون جنود العدو من جانب، ويقطعون المسافات بأقصى سرعة من جانب اخر. انكم تنكرون ذلك لكننا رأيناها بأم أعيننا، فلا نستطيع انكارها. إن الطقس لم يكن في صالح الجنود الروس أبدا. فالرياح التي تعودت أن تغير اتجاهاتها كل يوم، بقيت تهب من جهة واحدة خمسة شهور متتالية.

هذا هو اعتقاد العجائز. ان أصحاب الفكر من الكوريين يفهمون الأمور بهذا القدر. كان صاحبنا حين يتحدث يحاول جادا تأييد رأيه بكثير من الأدلة الأخرى. بعد مغادرة انتوكي صار أكثر الركاب من الصينيين. ولكن الموظفين هم من اليابانيين. هؤلاء الموظفون ينظرون الى الصينيين بازدراء، يريدون السيطرة عليهم نفسيا، لكن الصينيين يعرفون مقصد هؤلاء اليابانيين، فيتظاهرون بالطاعة، ولكن لايخفى على المتأمل بأنهم يكنون عداوة شديدة في قلوبهم.

ذات مرة قلت لرفيقي الكوري: انظر الى هؤلاء الصينيين، انهم على قدر كبير من الثبات، ألا ترى أن اليابانيين كلهم من الموظفين، وأن الصينيين هم أهل حرف وأهل تجارة، واذا نظرت الى من حولك عرفت الفرق الهائل بين الصينيين والكوريين، لقد سرنا في كل البلاد الكورية فلم نر أي كوري يبيع في المحطة بيضا أو حليبا. أما هنا فالبائعون كلهم صينيون - أنظر: بيض، حليب، خبز لحم، يبيعون كل شيء. ان هذا دليل على الحياة.

فالأمة التي تريد أن تحيا تجد فيها مثل هذا التحرك. صحيح أنه لا أثر للحياة في كوريا. وعندما قلت هذا الكلام بدأ صاحبنا الكوري المسكين بالبكاء.

وفي مساء ذلك اليوم وصلنا الى محطة «جاوكو»:

وقرب هذه المحطة تشاهد الموظفين اليابانيين ولكن السكان جميعهم من الصينيين. الا أنه من غير الممكن أن يعرف المرء هل هم مسلمون أم لا.لأن الأزياء موحدة، وليس عليهم أية علامات مميزة في الشعر والظفر. لكني أتوقع أن يكون هنا بعض المسلمين.

علمت بأن القطارات لاتسافر من هذه المحطة ليلا، فكان علي أن أبيت ليلتي هنا، فنزلت في احدى المضافات. كان صاحب المضافة يابانيا، أما خدمه فكلهم مسلمون. لاحظوني وأنا أصلي المغرب، فلما جلست للطعام جاء أحدهم وسلم علي قائلا:"انسالام عليكن". عندها سألت باليابانية ان كان في هذا البلد مسلمون، فقال:ليس حول المحطة مسلمون أما في القرى المجاورة فكثيرون.

وفي اليوم التالي انطلقنا حتى وصلنا الى موقدن. ولكن لا أحد يعرف اسم موقدن.

موقدن

ها نحن الآن في منشوريا، في القارة الصينية مرة أخرى.وهذه المدينة تعرف باللغات الأوربية بـ «موقدن» ولكن اليابانيين والكوريين والمنشوريين يسمونها «هوتين» أما الصينيون فيسمونها «شي – ياك».

عندما وصلت الى موقدن كان اليوم جمعة، وضعت أمتعتي في احدى المضافات، وتوجهت فورا الى المدينة. لعلي أستطيع أن أجد الحي الاسلامي كي أصلي الجمعة، فوقت الجمعة قريب.

وللتنقل بين المحطة والمدينة يستخدمون الحافلة الكهربائية، فلما وصلت الحافلة الى المدينة سألت الموظف: «كوكو حويحوي يوميو» أأجد محل عبادة مسلمين في هذا البلد؟ قال: نعم.

أحول نظري هنا وهناك لعلي أجد مسجدا، والمسجد بلغتهم يسمونه «له به ي صو» سألتهم، فأشاروا الى مكانه، فاسرعت، ووجدت الناس قد بدأوا يتوافدون الى الصلاة.

كنت أعرف حالة المساجد في الصين بعض الشيء، لأنني رأيت في جيجكار، أن الماء الساخن متوفر دائما في مساجد الصين للوضوء، وهناك أماكن خاصة للوضوء والاستنجاء والغسل، وكلها يتوفر فيها الماء الساخن وكذلك الصابون. اغتسلت جيدا، وصليت الجمعة، ولكن مسكينة هذه الخطبة، في البداية ظننت أن الخطيب يخطب باللغة الصينية فلا أفهمها، لكنني انتبهت أخيرا بأنه يخطب باللغة العربية، ثم قمنا الى الصلاة، فالفاتحة لم أفهم منها سوى كلمتين: العالمن و نستعين. والصينيون بشكل عام يضعون على رؤوسهم في الصلاة أغطية خاصة، فاذا أقيمت الصلاة جمعوا شعورهم الطويلة تحت هذا الغطاء. أما العمامة فلا يلبسها سوى العلماء والطلاب.

والعمامة وكذلك هذا الغطاء يلبسونه أثناء الصلاة، أما اذا انتهوا من الصلاة وخرجوا من المسجد، لبسوا على رؤوسهم قبعاتهم الوطنية الخاصة، فلا يمكن التفريق بين مسلم ومجوسي.

والمساجد، هي مساجد من الداخل، فيها لوحات وسجاجيد، لكنها من الخارج ليس فيها مايدل على أنها مسجد، بل ان المساجد لاتتميز عن المعابد الصينية الأخرى في مظهرها الخارجي، خاصة ونقوش أنواع الحيوانات والحشرات التي تجدها على الجدران أمور لايمكن السكوت عليها، ولكن ماذا تقول للجهل؟

أما أفعال الصلاة فانهم أحناف المذهب وليس هناك أي فرق بيننا وبينهم.. وأما قراءتهم فان المرء عندما يسمعها يصاب بخيبة أمل كبيرة.

وبعد صلاة الجمعة وجدوا هيئتي غريبة عنهم فاقترب بعضهم مني وسألني أحدهم: «منكه» أي أراد أن يقول أمن مكة أنت؟ فأجبت: «مي يو» فنظر بعضهم الى بعض باستغراب، ودعوني الى المدرسة، وكان الامام اخون هناك. قال أحدهم: «أنت يعلم لسان العرب» عرفت بأن فضيلة الآخون يعرف العربية بهذا القدر. فجاؤوا بالشاي. وقد كانت هذه العربية من الآخون تفي بالحاجة. فلما عرفوا أنني لست عربيا ولست مكيا إزداد شأني عندهم. وجاؤوا بالطعام، وأروني مكانا لأنزل فيه ضيفا، حيث خصصوا لي غرفة من غرف المدرسة كي أبقى فيها الى أن يحين موعد مغادرتي مدينة موقدن.

وقمت بنقل أمتعتي من مضافة الياباني الى هذا المكان. فانا الآن ضيف في المدرسة. وهنا وجدت حاجا يمكنه أن يكون ترجمانا لي، فقد سافر الى الحجاز وأقام في مكة عاما. اسمه محمد جمال الدين يتكلم بالعربية بالقدر الذي يفيد المرام.

في البداية استطعت الحصول على بعض المعلومات عن أحوال المسلمين في منشوريا. والسيد الحاج انسان يدرك الأمور على حقيقتها، حيث أبدى حزنه وأسفه على الحالة التي يعيش فيها المسلمون في الصين. وفي ذلك اليوم بقي حتى المساء ومن ثم الى الساعة الثالثة من الليل يتحدث من جهة ويبكي على حال المسلمين في هذه البلاد من جهة أخرى. وكان مما قاله:

والاسلام دخل هذه البلاد في عهد النبي ﷺ «هذا مايعتقده عموم أهل الصين» وأن الذي علمهم الاسلام هو سعد بن أبي وقاص ﷺ. ثم غلب عليهم الجهل حتى تحولوا الى هذا الوضع الذي نشاهده اليوم. وفي عموم بلاد الصين (باستثناء تركستان الصينية وولايات قانصو وشانسي) لم يبق من الاسلام الا الاسم، فقد غلبت عليهم المجوسية حتى قبلوا عاداتها كلها. واليوم لا يكاد المرء يميز بين المجوسي والمسلم في الصين. لقد أصبحنا بعيدين عن الاسلام. ونحن لاندري بأي حال أصبحنا. أتعرف بأنه ليس في بلاد منشوريا حاج غيري؟. وليس الحج فقط بل الصلاة أصبحت حصرا على العلماء وليس من العوام من يعرف أركان الصلاة وأفعالها.

ونساؤنا لا يغتسلن أبدا. والحجاب رفع عنهن كليا. وبقي شيء واحد من الدين، وهو أن نكتب على أبواب منازلنا كلمة التوحيد، وهي أيضا موجودة في قلوبنا ان شاء الله، والفقر والفاقة في أقصى الدرجات، والمنصرون كثيرون. انني أرى كل ذلك فأزداد عذابا، فلا أحد يفهم مانحن فيه، ولا يمكن شرح ذلك. واذا أردت أن تقول لهم شيئا اتهموك فورا بسوء المذهب. كثيرون من الرجال يأتون من مكة يخدعوننا فنزوجهم بناتنا بنكاح المتعة وهن لم يبلغن العاشرة أو الثانية عشر بعد، يتزوجون كل ليلة بواحدة، فتفقد البنت عفتها وهي في مقتبل العمر، وجهلاء الناس يستحسنون منهم ذلك الفعل. كل ذلك يفعلونه باسم الدين. إنك لو

اطلعت على أحوالنا حق الاطلاع لبكيت. انظر الى شعرنا والى أظافرنا فهل تتفق مع الآداب الاسلامية؟ عندما عدت من الديار الحجازية دون شعر أو ظفر كادوا يقتلونني. ثم اضطررت لأن أطيل هذه الخصلة في مؤخرة رأسي، حتى أستطعت أن أكون هذا الذيل في عام واحد...وكلما تكلم السيد محمد جمال الدين انشرحت نفسه للكلام أكثر فأكثر. وأخيرا قال: هل ستمكث في هذا البلد كثيرا؟

- قد أبقى مدة أسبوع.

- اذن سيعرضون عليك الزواج. ان بقاءك مدة أسبوع دون نكاح يتعارض مع المذهب المنشوري.

- أليس لي الخيرة في ذلك؟

- لك أن تختار ولكنني أستحيي من عروضهم، فلا بد أنك سترفض، انني واثق من ذلك.

- لا عليك، انني ابتداء من الغد سأتجول في أطراف موقدن ولن أكون في مدينتكم الا في المساء.

- حسنا، وسأرافقك ان قبلت.

في أطراف موقدن

في مدينة موقدن نفسها يوجد حوالي ثلاثة الاف مسلم، وثلاثة مساجد وثلاثة مدارس.

وفي اليوم التالي خرجت وبرفقتي محمد جمال الدين أفندي في جولة حول موقدن. وأطراف موقدن ريف شاسع. فيه كثير من القرى والمزارع. وعدد القرى اليابانية ليس بالقليل.

وفي البداية تجولنا في القرى الاسلامية، ولكنها لم تكن بالقدر التي يمكننا أن نسميها بالقرى، انها صوامع أو حظائر مبنية من الطين، وليس

في بيوتهم مكان مناسب للجلوس. ولكن تجد في كل منها مايشبه المسجد، تسمع فيها الأذان، وبجانبها مدرسة. ومن هذه الناحية سنقول بأن شعائر الاسلام تقام. والناس في حالة من الفقر والفاقة لكننا نرى فيهم الحيوية والنشاط. وتوجد صفة عامة في الصينيين يمكن أن نقول عنها بأنها نوع من البهيمية. فالصيني غير المسلم لايكاد يرى جسمه الماء، فلا يغتسل في حياته ولو مرة واحدة في العمر، ولا يعرف ماهي النظافة. إلا أنه توجد فيهم بعض الجوانب تدل على أن حضارة الصين تعتبر من أقوى وأعرق الحضارات. فالصيني يفي بوعده دائما، فلا حاجة في التجارة معه للتوثيق والعقد. فاذا اشترى بضاعة، واتفق على السعر واعترف بأن هذه التجارة أصبحت ملكه، فلا يرجع بكلامه وان نزلت قيمة هذه البضاعة الى النصف. وكذلك الأمر في البيع. لقد شاهدت ذلك في ضواحي موقدن. فقد جرى البيع دون شاهد أو عقد بيع مكتوب.

وفي احدى القرى اشترى محمد جمال الدين أفندي عددا كبيرا من الغنم بواقع أربع دولارت لكل رأس، وقد انتهى البيع، وكان على صاحب الأغنام أن يستلم القيمة بعد ايصالها الى موقدن، وكان كذلك، ولكن عندما أوصل الأغنام كانت الأسعار قد انخفضت كثيرا، ومع ذلك فقد دفع محمد جمال الدين المبلغ المتفق عليه في البيع. هذه هي الحضارة الشرقية.

وأضيف أيضا بأن أصول المبايعة لدى الصينيين غريبة وأظن أنها عادة فريدة من نوعها في العالم، يمد كل من البائع والمشتري يده (كمن يصافح أحدهما الآخر) وتضيع الأكف بين الأكمام الطويلة لكل منهما فيحددون بأصابعهم داخل الأكمام السعر الذي يتفقون عليه، ويتم عقد البيع دون أن ينطق أي واحد منهما بكلمة واحدة، ولو حضر مئات الرجال مثل هذا البيع فانهم لايدرون عن قيمة المباع شيئا، كما لايعرفون أن البيع قد تم.

ويبقى الأمر مكتوما بين البائع والمشتري، ومع ذلك فلا يرجع أي تاجر عن هذا البيع.

أما في التجارة التي يمارسها متحضرو القرن العشرين، فيجدون مائة ألف طريقة كي يتملصوا من كثير من العقود التي أبرموها.

ذكريات قروية

كنت أسأل في كل قرية أمر بها عن أحداث الحرب الروسية اليابانية. وأجمعوا بأن الضباط الروس يميلون الى السفه. حتى أن كل الضباط الذين قدموا من بترسبوغ كانوا يصطحبون معهم عددا من النساء. ويصل العدد عند بعضهم الى أربعة أو خمسة، وأنهم يشربون «الشامبانيا» قبل استعمالهم للماء، فكانوا يشترون القارورة الواحدة بخمسين أو مائة روبل، وكل شيء ارتفع سعره بهذه النسبة.

وأهالي موقدن وماجاورها تعرفوا على أحوال الجيشين على حد سواء. في البداية كان الجنود الروس ومن بعدهم جاء الجنود اليابانيون، وهم يبدون اراءهم في الجيشين:

عندما كان الجنود الروس كان سكان القرى المجاورة يكسبون كثيرا من النقود. فالعامل يكسب بمفرده خمس روبلات في اليوم (ستين قرشا) على الأقل وقد يصل المبلغ الى مائة قرش، أما اذا عمل مع دابته فانه يحصل على أجر يومي مقداره خمسة وعشرون روبل (ثلاثمائة قرش) والتجار كانوا لايتحدثون الا بالمبالغ الكبيرة. وكنت تجد في يد الجنود كميات من فئة مئة روبل.

وبعد انسحاب الجنود الروس وتمركز الجنود اليابانيين حول موقدن حددت أسعار السلع، والبيع والشراء وأجور العمال تحدد من قبل الحكومة. فكل عامل يكسب مبالغ تتناسب مع العمل الذي أنجزه.

حتى أنني صادفت كرجيا(من بلاد جرجستان، أو جورجيا حاليا)، وهو من الجنسية الروسية قدم الى موقدن أيام الحكم الروسي وفتح محلا للبقالة، ولما بدأ الروس بالانسحاب من موقدن أغلق بقالته خشية أن ينهبها الخونخوز، وانتظر قدوم الجيش الياباني، ولما قدم الجنود اليابانيون أبلغهم قبل فتح المحل بأن هذا المحل محله. فقام الجنود بجرد محتويات المحل ثم قالوا له: اذا أردت أن تستمر في تجارتك فلك ذلك شرط أن تطبق في البيع قائمة الأسعار هذه. أما اذا لم يعجبك السعر، فيمكنك أن تحمل أموالك وتلتحق بالجنود الروس.. وبعدها أبلغهم الكرجي رغبته بالالتحاق بالجنود الروس، فقام اليابانيون بارساله بالبريد الى أن وصل الى معسكر الروس، ولم يقع أي اعتداء على ممتلكاته.

وفي اليوم الذي التحق فيه هذا الرجل بالجيش الروسي استطاع أن يبيع كل ماعنده في بضع ساعات، وبلغ ربحه مائة ضعف.

هذا الرجل كان يشتكي من اليابانيين، ويثني على الروس، وهذا أمر طبيعي. ولكن أي الجانبين أحق من وجهة النظر الانسانية؟

كما أن أكثر القرويين كانوا يشتكون من اليابانيين وشكواهم تنصب في هذه الناحية.كنا نتجول في القرى حتى المساء ثم نعود الى موقدن.

وعند العودة الى موقدن سألت محمد جمال الدين عن بعض مايشغل فكري، فأجاب:- أنا لاأستطيع أن أقول شيئا يتناسب مع رغبتك. أو الأصح بأنني لا أستطيع أن أعبر بالدرجة الكافية. يوجد عندنا أحد الأغنياء المسلمين، وهو رجل واسع الاطلاع كما أنه يجيد اللغة الروسية، وهو يستطيع حل مثل هذه الأمور بأحسن الطرق وسيسر بلقائك وتسر به. انه رجل طيب وسنذهب غدا للقائه. ففرحت بما سمعت.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي توجهنا الى منزل هذا الرجل فاستقبلنا بحفاوة. واسمه «جي -جاك- لو اي حاو» فعرفنا به جمال الدين

أفندي، وعلمت أنه يجيد اللغة الروسية حقيقة، فوجدنا الفرصة لكي نحصل منه على كثير من المعلومات.

إن هذا الرجل أيضا لايحب اليابانيين أبدا. ومن الواضح أن عدم حبه يرجع الى أسباب تختلف عن الآخرين.

اليابانيون شعب طيب، نشيط انتصروا على الروس، لكنهم عديمو الحياء، نساؤهم يتجولن عاريات في الصيف، ولا يعرفن شيئا اسمه ستر العورة

بهذه الأقول بدأ كلامه عن اليابانيين الى أن قال: اليابانيون أناس أنانيون.

سألت: كيف يكونون أنانيين، أنا لم أفهم.

- لقد بلغ فيهم الجهل مبلغا عظيماً وحينما رأيناهم عن قرب عجبنا لحالهم أشد العجب. ففي أثناء الحرب قبض الروس على عدد قليل جداً من الأسرى اليابانيين، والسبب أن الياباني لايريد أن يقع في أسرهم، فلا يستسلم، ويحاول طابور من الجيش الروسي أسر جندي ياباني، فلا يستسلم هذا الجندي ويستمر في القتال، وأحيانا يهجم عليهم بصورة جنونية فيقتل الكثيرين منهم، واذا وجد الفرصة لقتل نفسه فلا يتردد.

لقد كان في مستشفى موقدن أسير ياباني جاؤوا به جريحا. وبدأ طبيب روسي بمعالجته، لكن هذا الأسير استطاع أن يتناول سكينا فقتل به الطبيب وأحد الضباط واثنين من العمال، ثم قتل نفسه. انظر، انه أسير وجريح ومع ذلك قتل أربعة من الرجال.

- أنا لا أجد في هذا مايعيب، انها الحمية، وإنه وإن كان يصارع الموت يعرف جيداً من عدوه، حسنا مافعل.

- ولهم جوانب حسنة، إن الرشوة في الروس متفشية ولكن لم يحدث مثل هذا عند اليابانيين حتى في أوقات الحرب. انهم نظيفون من هذه

الناحية، ابسط الموظفين وحتى الجنود العاديين لايقبلون الرشوة. ومن الطبيعي أن نكبر فيهم مثل هذه النواحي.

إن كثيراً من الضباط تنازلوا عن رواتبهم لصالح الجرحى. وكل المستشفيات المتنقلة تصرف عليها من الأموال التي تراكمت من الرواتب التي تركها هؤلاء الضباط، لقد تعاملنا معهم، فوجدنا أنهم لايصرفون مالا كثيرا. بل يصرفونها من أجل أمتهم.

كل أمة فيها الرجل الصالح، كما أن فيها الرجل السيء، ولكني لا أوافقك على رأيك. فقد تجد أناسا يعملون في الظاهر لتحقيق أهداف أخرى. والواقع فان الروس لاتجد فيهم روح التضحية، انك لاتستطيع مقارنة اليابانيين بالروس. فالروس يعتمدون في الحرب على القوة.أما اليابانيون، فانهم يحاربون بالعقل والخطط. هناك فرق شاسع بينهما.

كنت أريد أن أسالك؛ هل انتصر اليابانيون على الروس حقيقة، أم كان في الأمر بعض المواقف الخيانية؟

الذي نعرفه نحن أن اليابانيين انتصروا، وانتصروا عن جدارة، استمروا في الهجوم مدة عام. كانت حربهم هجومية، أما الروس فقد اتبعوا خطة دفاعية، فانكسروا في كل المعارك وتراجعوا، انني لا أستطيع أن أدلي لك بالتفاصيل، ولكن هناك تاجر روسي، سأتصل به ليزورنا، فهو يملك كثيرا من المعلومات، لأنه كان في الحرب من بدايتها حتى نهايتها.

وفي هذه الأثناء اتصل بالهاتف وتحدث ببعض الكلام. أما أنا فكان لدي متسع من الوقت، ومستعد للاستماع. سألت:من هو هذا التاجر الروسي؟ تاجر كبير يدعى باتويوف. افتتح بنكا هنا، أما نشاطه التجاري فيمارسه في «تنزين» وله بواخر، انه انسان طيب، نتعامل معه منذ خمسة وعشرين عاما، قدم من روسيا، وأقام في تنزين، وقبل وقت قصير افتتح بنكا عندنا، لذلك فهو الآن جار لنا. سيأتي الآن وستراه.

كنا نشرب الشاي عندما دخل علينا رجل روسي بدين، نزع قبعته وسلم علينا. فعرفه لنا صاحب المنزل: باتويف صديقي منذ خمسة وعشرين عاما، انه من المحاربين الروس في الشرق الأقصى.

قلت، لقد سررنا بالتعارف، ومددت يدي. فأمسك بيدي وقال: أعرفك بنفسي، انك تعرف عمي. فأنا في الأصل من بترسبورغ.

إذن أنا أعرفك، كما أنني سمعت عنك. وأبدينا سرورنا بهذا اللقاء، ثم تحولنا إلى الموضوع الذي كنا بصدده.عندها أخذ صاحبنا باتويف نفساً طويلاً ثم قال: لن أستطيع الإدلاء بتفاصيل واسعة في الموضوع، لأن وقتي لا يسمح لي، وسأكتفي بذكر مسألة أو مسألتين، فوقتي ضيق، وزوجتي ستعود اليوم من بترسبورغ وسأكون في استقبالها، ومع ذلك فإنني سأشرح بعض أخطاء قومنا الروس. إنهم أناس مغرورين، والتضحية من أجل الوطن تتطلب المكر والحيل والمناورات، ولا يكفي أن تكون قويا، انهم هزموا لأنهم اعتمدوا على القوة فحسب.

والحق أقول أن اليابانيين صغيرهم وكبيرهم كافحوا من أجل وطنهم بكل صبر وعزيمة، وقد لاحظت أنه خلال الحرب التي استمرت أربعة عشر شهراً، لم يبلغ عدد الأسرى اليابانيين ألفا، أما نحن، فقد أسر منا خمسة وسبعون ألفا، ومن الطبيعي أن تكون خسائرهم في الأرواح أكثر منا، وقد تصل إلى ضعف خسائرنا، إلا أن الروس أضاعوا الفرصة، ولات ساعة مندم. لقد وقع قوروباتكين في أخطاء فادحة:

ففي معركة موقدن كانت خسائرنا ضخمة، وكان الجو سيئا بحيث لا يتمكن الجندي أن يرى ما حوله، وبدأ قوروباتكين بإعداد خطة التراجع. عندها عرضت على قوروباتكين اقتراحا. نابعاً من أني متعهد تموين، وروسي أباً عن جد، وأني خبير بهذه المنطقة، أعرف لغة أهلها وعاداتهم، وأعرف قوة الجانبين بواسطة الخونخوز، وأنه في الواقع لم يبق

أمامكم إلا التراجع، وإذا لم تتراجع فقد تكون أنت في عداد الأسرى ومع كل هذا فإن اليابانيين أيضا كانوا في غاية الإنهاك

في الوقت الذي ينسحب فيه الجيش الروسي من موقدن، فأني أقوم باحتلال مواقعهم بأربعين ألفا من الخونخوز. فإذا فشلت، فلا اخذ منكم شيئا، وينتهي أمر أربعين ألف خونخوزي، أما إذا انتصرت، فتعطوني مقابل ذلك ثمانية ملايين روبل، يوجد لدي أربعون ألف مسلح من الخونخوز.

ماذا تتوقعون من قوروباتكين! لقد رفض هذا العرض، وبعد ساعتين بدأ بالانسحاب. وهنا نظرت إلى من حولي متعجباً، فقال جي-جاك-لو-اي-حاو: هذا صحيح، لقد كنا معه وأنا الذي أعددت الخونخوز. ولكن لم يتحقق ما أردناه، فلو وافق قوروباتكين على اقتراحنا، لتمكن أربعون ألف خونخوز من التغلب على اليابانيين المنهكين ولحصلنا على ثمانية ملايين روبل

وإذا غلبوكم، ماذا ستكون النتيجة؟

سيحارب أربعون ألف خونخوز إلى أن يقتلوا عن بكرة أبيهم، هكذا كان الاتفاق. أما الروس فليست عندهم الحمية، جنودنا مستعدون ولكن ما الحيلة؟ إنه ينقصهم الضباط والقادة. إن الضباط لم يحاربوا و العرفاء هم الذين كانوا يقودون الجنود. لقد فسدت الأخلاق عند الروس، والأمة التي فسدت أخلاقها لا تستطيع أن تحارب. أتدري يا سيدي، أنه بعد انتهاء الحرب استدعوني للمحاكمة، وحاولوا معاقبتي بسبب العرض الذي تقدمت به، وأوشكوا أن يعلقوني على حبل المشنقة، ولولا الرشاوى التي دفعتها لأصبحت أحد الذين أعدموا من أجل الوطن.دعك من هؤلاء الروس، فخلال عامين بعد انتهاء الحرب لم يترك اليابانيون مدينة ولا قرية في منشوريا إلا واستوطنوها، ولم يبق لنا أي شيء وقد

لاتصدق إذا حدثتك عن العراقيل التي وضعها القنصل الروسي أمام محاولتي فتح بنك في هذه القرية في العام الماضي. إنها عراقيل وضعها هو بنفسه، مع أن واجبه هو تسهيل مهمة مواطنيه وحمايتهم، أليس كذلك؟ لقد عنفته قائلاً: هل من حقك أن تسعى لتدميري؟، وبعدها أرسلت زوجتي إلى بترسبورغ، فأخذت الموافقة من هناك. ولو ترك الأمر بيد القنصل لما أمكنني أن أعمل شيئا.

لا يسمح الموظفون بأي عمل إلا بعد أن ينالوا الرشاوى، لقد فسدت الأخلاق وهنا نظر إلى ساعته، وقام مودعاً.

يا للعجب: إلى أين تأخذنا هذه الحضارة! تاجر، يجمع أربعين ألفا من الرجال ليسوقهم إلى ساحة القتال، فان ماتوا جميعا فلا يؤسف عليهم، وبقاء أسرهم وذريتهم في أسوأ حال، فأمر لا يؤبه له، أما إذا انتصروا فسيمتلك باتويوف ثمانية ملايين روبل، لأنه واحداً منهم، فليفكر الإنسان، كيف ينتهز الناس الفرص والآلام. ولو وافق قوروباتكي على الاقتراح لكان من الطبيعي أن تصبح الملايين الثمانية في جيب باتويوف.

لم يطل بنا المقام، فقمنا وودعنا صاحب المنزل، وعدنا إلى المدرسة، وتحدثنا مع الطلاب. وبعد الظهر عاودت الجولة برفقة محمد جمال الدين. تجولنا في كل أحياء موقدن. فالمدينة ليست بالكبيرة. إنها محاطة بسور، و واضح أنها من المدن الشرقية القديمة العامرة.

تجولت في كل نواحي المدينة، الموظفون والشرطة كلهم صينيون، أما الجنود فإنهم يابانيون، ومهما قلنا عن الحكم بأنه محلي وللصينيين، فانه من الواضح بأن الأمر والنهي هما بيد اليابانيين، واليابانيون لهم متاجر ومكاتب للبريد والبرق خاصة بهم.

وليس هنالك من شك بأن موقدن ستكون في المستقبل مدينة كبرى. إنها ملتقى طريق بورت ارثور بطريق بكين، كما يلتقي بها خط أوربا

بثلاثة قطارات سريعة في الأسبوع. أما إذا اكتمل خط بكين ـ اورغا ـ بايكال فستفقد موقدن بعضا من أهميتها الاقتصادية، إلا أن أهميتها السياسية باقية.

واليابانيون يركزون الآن على موقدن، حيث قرروا أن يجعلوها مركزا للقوات العسكرية. إن الصينيين يكرهون اليابانيين كرها شديدا، ولو استطاعوا لما أبقوهم يوما واحدا. ولكن ما الحيلة، فقد أجروها لهم لمدة تسعة وتسعين عاماً، ولا شك بأن اليابانيين لن يتركوها بسهولة إلى أن تنتهي المدة.

في الطريق إلى بورت آرثور

أمضيت في موقدن مدة يومين، ثم قصدت بورت ارثور، وبقيت فيها يوما أو يومين وشاهدت مناظرها العجيبة.

وبورت ارثور الآن يملكها اليابانيون، وليس في إمكاني أن أقدم معلومات دقيقة عنها، لأنني لست من أرباب الاختصاص، إلا إنني أقول باختصار بأن هذا المكان هو إحدى العبر على وجه كرتنا الأرضية. ولكم السبب الذي دعاني لهذا القول: لقد صرف الروس على بناء استحكامات بورت ارثور مائة وعشرة ملايين روبل، ولو نظرنا إلى المشاق التي تحملها الناس حتى جمعوا مثل هذا المبلغ، وكيفية تحوله إلى خرائب وأنقاض، فانه سيعتريه العجب الشديد..كم من الأموال صرفت لتخريب ما بني؟ وكم من الأرواح أزهقت؟ لو تأملها الإنسان بإمعان لرأى بأم عينيه هذا الكم من التخريب الرهيب.إنني على يقين بأن ما قتله تيمور وباطي وجنكيز- وهم معروفون بالبربرية في جميع حروبهم- وما خربوه من مدن، وما أتلفوه من أموال، لا يساوي شيئا إذا قيست بخسائر بورت ارتور.

بعد أن احتل اليابانيون بعد أن احتلوا بورت ارثور، لم يقوموا بإعمارها بل أبقوها على حالها من الخراب الشديد، كأنها متحف.

ولن أستطيع أن أضيف شيئا اخر لأن مكوثي هنا كان قصيرا. أما الاستحكامات العجيبة التي صنعتها قدرة الله فهي الأخرى تحير العقول. يكفي الإنسان أن يمعن النظر والفكر في الجبال الشاهقة والصخور الملساء الشامخة نحو السماء.

بورت آرثور

إن مجرد التلفظ بها يذكر المرء بكثير من الأحداث والوقائع. فمن جانب أنها تذكرنا بانكسار الدولة الروسية العظيمة، هذه الدولة التي أحرزت تقدماً طيلة قرن من الزمان وزرعت الرعب والدمار في كثير من الديار وقتلت أنفسا بريئة لا حصر لها، نراها ترجع خمسين عاماً إلى الوراء، وتصل إلى حافة الانقراض..

كما أنها تذكرنا بأن ظهور قوم، ليس لهم في التاريخ شأن أو شهرة، وبثهم الرعب في كثير من الأقوام على وجه هذه الأرض، إن هذا يعتبر من الخوارق التي لا يمكن نسيانها.

وعندما يرى المرء مثل هذا المكان بأم عينيه يدرك حال الحكومات التي تحترمها حضارة القرن العشرين، وكيف أنها تستعمل عصا القهر والجبر باقتطاع لقمة العيش من أفواه الشعوب الفقيرة باسم المعرفة والحضارة، وكيف أنها تبيع ضروريات الناس بثمن بخس، كي تصرفها على سفاهات شرذمة قليلة من أزلامها، ولا تكتفي بكل هذا، بل تمد يدها إلى الدول الأخرى، لتنجر إلى حروب لا هوادة فيها، ثم تعود إلى المواطنين المساكين فتستغل حبهم لأوطانهم، لتريق دماء الملايين من أبنائهم، وترمي أحمالا كبيرة من النقود على سفوح جبال الله الشاهقة.

هذه هي بورت ارثور وقد أصبحت ذكرى للوحشية التي ارتكبت باسم الحضارة. لقد غرق الناس هنا في بحور من دمائهم، وصرفت الملايين من النقود، ولا ندري كم من الأموال صرفت لشراء الدواء للمرضى المساكين. كل هذه الأمور تدور في ذهن الإنسان. وهناك شيء غريب رأيته بنفسي. شاهدت المكان الذي تحصن فيه استوسيل محافظ بورت أرثور وزوجته. في هذا المكان الصغير والمحصن قام المحافظ وزوجته بالإشراف على علاج الاف الجرحى، وكانت زوجته تحلب البقرة التي تملكها، لتبيع الحليب للجرحى في المستشفى، الزجاجة الواحدة بروبلين، وتستغل الفرصة لكسب مزيد من المال.

هذه هي الأحداث التي تشكل الصفحات المشرقة(!) لتاريخ الحضارة. لنعترف بهذا. عندما كنت في بورت ارثور لم أر غير الخراب، وتملكني العجب وصعقت بما شاهدت ولا أعتقد بأن من يملك شيئا من الرأي الحر لا يعتريه ما أصابني.

شانحاي كوان

وبعد يومين مررت بـ «لياؤانغ» وعدت مباشرة إلى مدينة «شانحايكوان»، وهي مدينة صغيرة وقد كانت في السابق مركزا للقوات العسكرية.

والمدينة محاطة بسور عظيم... نزلت مباشرة في دار الضيافة.ويقال عنها دار الضيافة الأوربية. ولم أر في هذه الدار أي شيء له صلة بأوربا، أصحابها من الصينيين ذوي الشعور الطويلة، ولا يمكن للإنسان أن يفهم منهم شيئاً، إني لا أعرف لغتهم. لقد أصبحت غريبا في هذا البلد حقيقة، ومع ذلك فان الإنسان لا يعدم وسيلة مهما كان غريبا؛ أمضيت الليلة هناك كيفما اتفق، على أمل السفر في الصباح الباكر بالقطار إلى تنزين. لقد تعين علي المبيت، لأن القطار لا يسافر في ديار الصين إلا نهاراً.

وفي الساعة المحددة من الصباح الباكر توجهت إلى المحطة، وحصلت على تذكرتي وصعدت العربة، وتبعني راكب صيني، وأخذ مكانا له قبالتي. وبدأ ينظر إلى وجهي بين الحين والآخر، ثم هتف فجأة: ألست رشيد أفندي، صاحب جريدة ألفت؟ فلما أجبته ببلى، قام من فوره وجمع أحمالي، فحاولت إيقافه لكنه استمر في حمل أمتعتي قائلا: استعجل فالقطار يوشك أن يسير، ونزل، فنزلت خلفه أسأله: ماذا حدث يا سيد؟ فلم يرد وتحرك القطار. ولم أعرف بعد من هو هذا الرجل، تكلم ببضع كلمات روسية، وتبين فيما بعد بأنه لا يعرف سواها. أتمعن وجهه فلا أعرفه. وبين الفترة والأخرى يبتسم ويقول: صديق، صديق. وجاء الشاي، ثم الطعام الطيب، جلسنا معه قدر نصف ساعة، لكنني ظننت أنها نصف عام. وفي هذه الأثناء دخل علينا رجل وقال مسلما «السلام عليكم» فقلت وعليكم السلام، وصافحته. وأضاف «الحمد لله على دين الإسلام» ثم بدأ حديثه وهو ينظر إلي ببشاشة قائلا: أنا يعلم أنت رجل عالم خير كثير.

قلت: لم أعرف من هذا الرجل؟ قال: بتربور يعلم.. أراد أن يقول بأنك تعرفه في بترسبورغ.

وعلى اثر ذلك تذكرت بأنه قبل عدة سنوات عندما كنت في بترسبورغ نزل علينا ضيف صيني وكان جنرالاً مسلما.وهو الرجل الذي أنزلني من القطار على عجل لأكون ضيفا عنده. أما الرجل الذي يقوم بالترجمة العربية فهو اخون «إمام» شانحايكوان. فالحمد لله لقد كان لنا هنا إخوان في الدين.

ومهما شكر الإنسان بلسانه فهو قليل، إننا في نعمة كبيرة. فكلمة التوحيد اخت بيني وبين رجل صيني، وبفضل تلك الكلمة الطيبة ينزلني رجل صيني ضيفا عنده بالترحاب، ينظر إلي ويبدي سروره، كلما فكر

الإنسان في هذه الأمور يستبد به العجب.فهل يستطيع نصراني أن يظهر مثل هذه المودة لنصراني جاء إلى بلده من أوربا؟ انه أمر غير ممكن.

بدأنا نتحادث مع اخون شانحايكوان بالعربية بعض الشيء. والسرور البادي على وجهه لا يمكن أن يوصف، يقول: الحمد لله أنت عالم كبير، كل مسلماني اخوة، أنت يذهب إلى جين ينظر طيب يفرح خير كثير، ويريد هذا المسكين أن يقول: الحمد لله انك عالم كبير ذاهب إلى الصين كي ترى إخوانك المسلمين، إنني مسرور جدا. يشير إلى قلبه مبتسما ويقول: قلبه يفرح كثير. انظروا إلى العربية التي يتكلم بها إمام المدينة ذات الألف بيت. بأي حال أصبح الإسلام. لقد سر صاحب البيت والآخون كثيرا، ونلت من التكريم ما يعجز عنه الشكر، تلك اللغة العربية المكسرة نفعتنا أيما نفع.

خرجنا لنشاهد المسجد والمدرسة، وفي المدينة مسجدان صغيران، أحدهما داخل السور والآخر خارجه. والى جانب كل مسجد مدرسة، يدرس في إحداها طالب واحد فقط، وفي الثانية ثلاثة. والمدينة صغيرة والمسلمون قليلون ومع ذلك فان صوت الأذان الذي هو شعار الإسلام، مسموع في كل وقت. خرجنا مع الآخون إلى أطراف المدينة، حيث الأراضي الشاسعة والواسعة وعلى بعد ساعتين منها جبال. وفي الجانب الغربي من شانحايكوان رأينا رجالا على رأس جبل، سألت الآخون عنهم، فأجاب بأنهم نصارى، وعرفت من القرائن بأن هناك ديرا للنصارى، فتوجهنا إلى الدير، انه دير كبير لا يزيد عدد الحاضرين فيه عن عشرة أشخاص. ولما عرفت أن الراهب روسي رغبت في الحصول على بعض المعلومات.

دير بجوار شانحايكوان

سألت: لماذا بنيتم هذا الدير في هذا المكان البعيد عن المدينة؟

- لو كان داخل المدينة لما نفع، فالصينيون يكرهوننا، حتى أنهم يلحـون على الرجل الذي أقنعناه كي يرتد. أما هنا، وان كان العـدد قلـيلا، فـان الذين يقعون في أيدينا يكونون أكثر صلابة، نقنعهم وهم أطفال ثم نحبسهم عن الناس ثلاث سنوات.، وإذا تركناهم فيما بعد لا يعودون إلى الاختلاط التام بهم. فيبقون مرتبطين بنا.

- كيف تحصلون عليهم وهم أطفال؟

- يبيعونهم، بعض الآباء الفقراء يبيعون أبناءهم، فالخونخوز بشكل عـام يبيعون أطفالهم وقليل من المنشوريين يبيعون أيضا.

- بكم تشترون الطفل؟

- يرخصون في سنين القحـط والحـروب، خمـسة أو سـتة دولارات، أو عشرة على اكثر تقدير، أما في الأوقات الأخرى فنرفع المبلغ إلى خمسين أو سـتين دولاراً. ولا نـشتري كـثيراً لأن أموالنـا قليلـة أمـا الإنجليـز والإيطاليون فيشترون الكثير، وكذلك الأمريكيون.

- وهل عدد مرتادي الدير كثيرون؟ومنذ متى أنشئ هذا الدير؟

- منذ خمسة وعشرين عاماً، وعدد المرتادين لـيس بكـثير، لـو اجتمعنـا كلنا، مع الذين ربيناهم في هذا الدير، سيبلغ العدد ألفا ومائتين.

- أهذا هو مجموع الذين تنصروا خلال خمسة وعشرين عاما؟

- نعم هذا هو المجموع.

- ما مبلغ مصاريفكم السنوية؟

- مصاريفنا قليلة جداً، والواقع إن نقودنا قليلة، نحن أفقر دير في بـلاد الصين.

(اعتبروا يا ناس) أقصى ما نصرفه في العام ثلاثين ألف روبل.

- لماذا يكون ديركم فقيرا؟

- لأن المنطقة المجاورة يقطنها مسلمون، ولا يتنصر منهم أحد. ولا نستطيع أن نبرز خدماتنا للجمعية التي تدعمنا، والجمعية لا تبذل المال، ولا نستطيع جمع مزيد من التبرعات.

- ألا يتنصر المسلمون، ألا يبيعون أطفالهم؟

- لا يبيعون أطفالهم أبداً، تنصر واحد فقط.

- كم عدد الأديرة في منشوريا؟

- أديرتنا ثمانية وعشرون، أما أديرة الإنجليز فكثيرة، لا أعرف عددها، ورجالهم كثيرون، وأموالهم كثيرة أيضا.

- بكم تقدر عدد الذين تنصروا في ديار الصين كلها، هل لديكم إحصاء بذلك؟

- لم أعد أتذكر كثيرا، عددهم في منشوريا قليل جداً، لا يتجاوز المليون، وأكثر المتنصرين يتنصرون شكلياً، أكثرهم محكوم عليهم بالإعدام من قبل الحكومة الصينية، فإذا تنصروا، تتدخل القناصل، فيعفون من العقوبة. والذين يتنصرون بهذه الصورة لا يرجى منهم النفع أبدا، وأكثرهم يعودون إلى المجوسية. أما في الجنوب حيث المستعمرات الفرنسية فأن النصرانية تنتشر سريعا. يبلغ عددهم هناك قرابة المليونين، أو هم بلغوا المليونين فعلا.

- وما هو سبب انتشار النصرانية هناك يا ترى؟

- أعتقد بأن أكثرية السكان هناك من التيبت، فيتنصرون بسهولة حيث يغدق المنصرون عليهم الأموال كما أن المشتغلين في التنصير كثيرون، يتجولون في القرى في كل وقت، كما أن استعمال الأفيون هناك أمر شائع، وأكثر المقبلين على النصرانية هم المدمنون على الأفيون، فإذا فقد الأفيون عندهم تنصروا من أجل الحصول على أية كمية منه، فالوسيلة الأصلية التي نستغلها هي الأفيون.

والحكومة الفرنسية والقنصليات تقدم الكثير من المساعدات خدمة للنصرانية. وكل الذين يقطنون في جهات تونكين، من غير المسلمين، يتنصرون. لقد قامت الحكومة في كل المستعمرات الفرنسية بقص شعور الصينيين.

وبعد هذا الحديث الطويل مع المنصر قمنا مودعين، وعدنا إلى شانحايكوان وقت أذان المغرب لنلقى كرم الضيافة من صاحب المنزل داود أفندي. كما أن الآخون لا يفارقني في جولاتي.

وفي مغرب ذلك اليوم علمت أن سكان شانحايكوان تجمعوا في المسجد، فدعونا إلى هناك، فألقيت في المسجد كلمة باللغة الفارسية وجهت فيها النقد لبعض أحوال الصينيين، وقام من بين الحاضرين رجل هندي اسمه علي مولوي وترجم كلمتي إلى الصينية. استغرقت الكلمة مدة ساعة. ثم تكلم علي مولوي قائلا" إن عدم وجود علم القراءات والتجويد ومخارج الحروف لدى الصينيين نابع من ضعف التدين عندهم " مبينا بأن فن التجويد وحفظ القران من فروض الكفاية، وأن عموم العلماء في الصين مسؤولون أمام الله.

وفي ختام الاجتماع حدثت همهمة بين المسلمين الصينيين، ولم أفهم السبب في البداية، ثم أبلغني مولوي صاحب، بأنهم بدأوا يؤاخذون العلماء، قائلين: إن العلماء هم الذين أوصلونا إلى الوضع الذي نحن فيه. واقترب مني الآخون قائلا:" مسلمون كلهم يفرح "، أراد أن يقول بأن المسلمين سروا منك كثيرا.

وفي الليل عدنا إلى منزل داود أفندي، فنصبت الموائد، فأكلنا من نعم الله الكثيرة، وكان عنده بعض الشخصيات والأعيان، كما دعوا أخانا الهندي أيضا.

وقيل لي بأن عدد الهنود كثير في هذه المدينة، وأكثرهم من الجنود والشرطة، وقليل منهم من التجار. وأكثر الهنود في هذه المدينة يجيدون اللغة الصينية، ومن المؤسف أن بعض هؤلاء يقومون بالتجسس لصالح الإنجليز. في حين يقومون أيضا ببعض الخدمات الدينية، فيدرسون في بعض القرى، وينشرون الكتب الهندية، ويبثون روح الوعي في نفوس المسلمين الصينيين.

وفي اليوم التالي قررت مغادرة شانحايكوان، لكن داود أفندي لم يسمح لي بذلك، فأبقاني يوما اخر، وطبيعتي أني لا أضيع وقتي سدى. فخرجت مع الآخون في جولة بالقرى المجاورة.

القرى

قيل بأن عدد القرى الإسلامية حول شانحايكوان كثير جداً، وفي بعض القرى يعيش المسلمون بجانب المجوس، وفي بعضها تكون أكثرية مجوسية وعدد المسلمين قليل.

من المعروف بأن الصينيين يلبسون زيا واحدا، فلا يمكن التفريق بين مسلم ومجوسي ونصراني، ولكن يلاحظ أن على أبواب بيوت المسلمين عبارة «يا مفتح الأبواب» وكلمة التوحيد بالخط العربي. هذا الأمر ينطبق على المدن والقرى

وهناك أمر اخر جدير بالملاحظة ألا وهو حال الأطفال. فعندما يرى الأطفال المسلمون مسلما قادما من الخارج يظهرون الابتهاج قائلين: مسلماني ليلا ـ مسلماني ليلا. ويسيرون وراءه. وعندما دخلنا القرية في هذه المرة رأينا ثمانية أو عشرة أطفال يلعبون في ساحة صغيرة، فلما رأونا، انفصل أحد الأطفال عنهم وصار يمشي خلفنا وهو يهتف" مسلماني

ليلا". عندها سألت الآخون: لماذا لم يتبعه الآخرون؟ قال الآخون: هذا طفل مسلم، أما الآخرون فمن المجوس.

- وكيف عرف هذا الطفل بأننا مسلمون؟ أشار الآخون إلى شاربيه وقال: «مسلماني شاربه قصير». والحقيقة أن قص الشاربين عند مسلمي الصين يكاد يعتبر من أركان الدين ومن العلامات المميزة للمسلمين.

ومع ذلك فان إظهار الأطفال علائم الابتهاج من رؤية المسلم، هو من المسرات المعنوية. ولاحظت في كل أنحاء الصين هذه الحالة، فأينما ذهبت كنت ألاحظهم ينظرون إلى شاربي. أما فيما بينهم فهذا من الأمور النادرة. لأن ذوي الشاربين أقل ممن لا شوارب لهم. أما اللحية فنادرة جدا. وشكل اللحية المعروف عندنا لا تجده هناك أصلا، كانوا يتعجبون من لحيتي كثيرا، وفي بعض الأوقات كان المئات من الناس يتجمعون ليتفرجوا على لحيتي وليهتفوا: مسلماني ليلا.

والقرى الصينية عبارة عن صوامع، أما المباني فإنها إن وجدت تكون مبنية على طراز جميل، كما أن الأزقة والشوارع مستقيمة. وهذا مظهر من مظاهر الحضارة. لاحظت أن أكثر القرى شوارعها مستقيمة.

وفي قرية كبيرة تعرف ب «لانغو» تناولنا فطورنا، وعندما دخلنا مطعماً صغيراً وجدنا على باب المحل نقشا لإبريق ومسبحة. فقال الآخون: علامة مسلماني كافر لا. أي أنها علامة تدل على أن المطعم لمسلم وليس لكافر. وهذه العلامات تستعمل في كل أنحاء الصين.وأكثر الأطعمة شيوعا في الصين اللحوم والمعجنات، ثم السمك وكثير من جذور النباتات، وخاصة جذور القصب. وطعامهم طيب، وألذ بكثير من الأطعمة اليابانية. ثم أنني لاحظت أثناء تجوالي بعض الدوائر البيضاء، رأيت هذه الدوائر لأول مرة في مكان قريب من الدير ثم وجدتها على رؤوس الجبال وفي الصخور المشرفة على الوديان. سألت الآخون عن معنى الدوائر البيضاء

فقال: ذئب كثير غنما يأكل رجلا يأكل، وتعني أن «الذئاب كثيرة، تأكل الغنم وتأكل البشر». دائرة أنا يدخل لا يأكل وتعني «إذا دخلت أنا الدائرة فلا يأكلني».

وهكذا تجولنا في القرى المجاورة، ولم أر في القرى الصينية أمراً ملفتا للنظر سوى مدمني الأفيون، فقد رأيتهم في كثير من القرى.

وفي المساء عدنا مرة أخرى إلى منزل داود أفندي. عرفت بأن داود أفندي رجل كثير المعارف، نزل عندي ضيفا عندما سافر إلى بترسبورغ. ولذلك لم ينسني طوال هذه المدة.

غرابة أو جهل

لاحظت في محطات الخطوط الحديدية في الصين أمرا غريبا أنقله للقراء: وجدت أن الجنود الصينيين يقفون تحية للقطار القادم إلى المحطة. يقف ١٢ جنديا في جانب و١١ جنديا مع ضابط برتبة ملازم في جانب اخر من الخط الحديدي ويحيون القطار بسلاحهم. وتحية القطار غير معروفة في كل بلاد العالم إلا في الصين وتركيا. ولا أعرف ما السبب. وقد يخطر على بالي بأن الأوربيين الخبثاء فكروا في شيء يجربون به مبلغ حماقتنا، ولابد أن هذه فكرة أطلقها أحد الموظفين في أوربا فتلقفها أحد ضباطنا الحمقى، ثم تحول الأمر إلى عادة، ثم جاءوا بعده فأرادوا ترسيخ هذه العادة فجعلوها قانونا لابد من تطبيقه.

عندما وصلت إلى استنبول عن طريق أوربا رأيت هذه الحالة في جسر مصطفى باشا، فأثارت أعصابي كثيرا. رأيت الدركي المسكين لابسا بأحد قدميه بوطا، وبالآخر حذاء، عادياً، أزرار معطفه مقطعة، وبعضهم يلبس طربوشا دون شراشيب، وبعضهم خرج في مثل هذه الساعات المبكرة من اليوم بلباس النوم، فرفعوا السلاح تحية للقطار وكأنهم يقولون للركاب

القادمين من أوربا «انظروا إلينا هذه حالنا». كثير من الضباط والباشوات يترددون على أوربا زرافات ووحدانا، أليس فيهم رجل رشيد كي يقول: ما هذا؟ من تحيون؟ ليس في أوربا شيء من هذا. هؤلاء الجنود البؤساء كانوا يقومون بمثل هذه التحية في كل محطة، بنادقهم صدئة، لم تنظف أو تمسح من يوم صنعها. كنا نحن المسلمين الأجانب نستحيي من هذه المناظر.

ولعل ما يطبقه الصينيون هو من أوامر الإنجليز. رأيت الجنود في كل محطة على طول الطريق من موقدن إلى شانحايكوان، وكلما رأيتهم تذكرت تركيا.

تنزين (تيانجين)

غادرت شانحايكوان إلى مدينة «تيانجين» وهي مدينة كبيرة جدا ومنظمة. وأكثرية سكانها من الأوربيين. وأكثر مبانيها على الطراز الأوربي، مبان ضخمة من عدة أدوار، تذكر الإنسان بالأحياء الأوربية. والنظافة هي من معالم هذه المدينة، و مظهر المدينة يدلل على أن الإدارة فيها أصابع أخرى. ولا حاجة للسؤال أو الاستفسار.

يسكن في هذا البلد أعداد كبيرة من المسلمين. وقد نزلت في جامع بحي «نانديظي». إن الطراز المعماري للمدارس مختلف. والمساجد جميلة جدا، ومن يشاهد تلك المباني ينبعث في نفسه شيء من الأمل.حتى المساجد في تنزين تجدها على قدر كبير من الإتقان بما لا مثيل له في أي مدينة من مدن الصين. وأعتقد بأن مئات الألوف قد أنفقت على إنشائها. ولو كنت مهندسا أو رساما لوصفتها بدقة. والواقع أنني حصلت على صور كل المساجد، إلا أنها سرقت كلها في مكاتب البريد الروسية. وليست صور جوامع تنزين وحدها بل ضاع معها كثير من الأشياء التي أرسلتها.

يوجد بين المسلمين في تنزين كثير من أصحاب الثراء، وأصحاب رؤوس الأموال الضخمة والمصانع الكبيرة.وسأتحاشى تقييم هؤلاء لأنني لم أتمكن من التعرف عليهم.

إن هذا الانتظام والترتيب في المساجد والجوامع ما كان ليتحقق لو لا همة المسلمين في هذه المدينة. والمدارس في غاية الانتظام والترتيب. أما الدروس فإنا لله وإنا إليه راجعون، يا رب أنت أعلم بالحال، فلن أقول أكثر مما قلت. ومع ذلك فقد وجدت إماما يستطيع أن ينطق بالعربية بالقدر الذي يمكنه من إفهام مقصده، وهو رجل عالم، تعرفت عليه وحصلت منه على كثير من المعلومات.

وحسب ما علمت فان عدد المسلمين في تنزين يبلغ إثنى عشر ألفا، كما يوجد فيها تسعة مساجد وثلاثة جوامع كبيرة، والى جانب كل منها مدرسة.

وفي هذه المدينة جرى نقاش حاد بيني وبين الآخون في بداية الأمر. لقد بدأ الآخون بهجوم فجائي وبكلام جارح: «ضقنا ذرعا من تسول هؤلاء المسلمين، أليس في بلادكم من يعرف أن التسول حرام؟...» وغير ذلك من الكلام. واستمر الآخون، وكنت أستمع إليه بكل هدوء. وحكى قصة رجل من المدينة المنورة اسمه سيد حمزة، وما ارتكبه من الرذائل واستمر بالكلام وبعد أن هدأ.

قلت له: كلامك في غاية الصحة، وإني أشاركك فيما تقول، ولكن أعتقد بأنك استعجلت بعض الشيء. كان عليك في البداية أن تعرف من أكون. أيليق بك أن تبدأ بهذا الهجوم المفاجئ؟ لابد لي من إبداء أسفي لصدور مثل هذا التهجم، وإذا سمحت لي واستمعت لما أقول سأكون ممتنا لك. إنني أرجو منك أن تعيرني سمعك، ولا أريد ساعة من الوقت. واستمع بعدها لما ستقول.

- تفضل إني مصغ إليك.

- لست من مكة، ولا من المدينة، ثم أنني لست متسولا، واطمئن تماما بأن ما سأحدثك به هو من مقتضيات الأخوة الإسلامية والحمية الدينية، وليس من قبيل النصح. انه تعارف، وثق بأنه ليس لي هدف اخر. ولو أعطيتني نقودا فلن اخذها.

- إذا أرجوك أن تسامحني. لقد سبق أن زارني بعض الأشخاص فأحرقوا دمي، ولما رأيتك لم انتبه لحالي وغلبني الغضب، أرجو عفوك. وسأستمع إليك بعد الآن، تفضل.

- إنني مسلم من روسيا، جئت إلى هذه البلاد كي أتعرف على أمثالك من إخواني المسلمين. لم أتجول داخل الصين كثيراً، زرت أربع أو خمس مدن وعشرين أو ثلاثين قرية. ولكن أتعرف ماذا رأيت؟، أوضاع تبكي العيون دما، سأذكرها كلها لك، تقبلها إن شئت أو ارفضها.

ولكن كن مطمئنا، وثق، بأن مهمتي الأساسية ليست سوى القيام بما يمليه علي ديني. إنني لم أجد داخل الصين حتى الآن أقدر وأكثر تمكناً من الكلام بالعربية منك، ولكن وللأسف إن قراءتك ليست بالقدر الذي تصح به الصلاة، وإن شئت فاقرأ كتاب زلة القارئ لإبراهيم الحلبي بتمعن، وستفتي بنفسك على عدم صحة صلاتك و مثلها تلاوات أئمة المساجد في موقدن وجيجكار وشانحايكوان، فليس فيها ما يمكن أن نسميه تلاوة لقد استعاروا الترنيمات التي في معابد المجوس، وليس سوى ذلك. نعوذ بالله، هل هذه تلاوة؟ تقرؤون ﴿اهدنان صراط﴾، وتقرؤون الفاتحة خطأ من أولها إلى اخرها، هذا نموذج لما يجب أن يصلح.

-لا حول ولا قوة إلا بالله! لقد بدر مني خطأ فاحش، أرجو عفوك، لقد جرحت مشاعرك.

- لا عليك، فإذا قبلت مني ما سأقوله لك بعد الآن، فسأكون ممتنا لـك، وماعدا ذلك فكل شيء هين.

إن عدد المسلمين في الصين اليوم حوالي سبعين أو ثمانين مليونا، فإذا كان حـالكم كمـا أرى فـإنني حـزين جـدا. تقـول الحمـد لله أنـا مـسلم، والمعروف أن المسلم إذا لقي أخاه المسلم يسلم عليه، حتى هذا الـسلام لا تعرفونه، تقولون «انسلام عليكم» أليس هذا عيباً! كل عاداتكم أصبحت مجوسية، ما هذه الأظافر؟ ما هـذا الـشعر؟ لمـاذا لم تلاحظوهـا؟ إنكـم ستكونون مسؤولين عنها أمام الله عز وجل.

أما من الناحية السياسية فإنكم لا تملكون أي حق في هـذه البلاد، لقـد قضت عليكم الحكومة الصينية، واغتـصبت حقـوقكم الإنـسانية، وأنـتم غافلون. ثمانون مليونا مـن البـشر ولـيس مـنكم رجـل واحـد في دوائـر الحكومة، إن عدد الطلبة الصينيين في اليابـان عـشرة الاف ولـيس بينـهم أكثر من ثلاثين أو أربعين طالباً من المسلمين.

إنكم لا تفكرون في هذه الأمور أبداً. ومنذ الآن سيحكمكم الأجانب وليس الصينيين، عندها كيف تكون أحوالكم؟ لماذا لم تفكروا في هذا الأمر؟.

هذا هو هدفي من المجيء إلى هذه الديار؛ فان رغبت أن تبحـث معـي مثل هذه الأمور فإنني أريد أن أتحـدث إليـك مـن وجهـة نظـر الأخـوة الإسلامية، خاصة وانك تجيد اللغة العربية، أما إذا كنت لا ترغب بذلك فلن ألح عليك بعد الآن، أقيم في مدرستكم هذه الليلة، وغـدا أسـتأنف رحيلي.

على الرحب والسعة، لقد سررت جداً بلقائك، انك ضيف عزيز، وان أقمت في مدرستنا شهرا سأسعد بك كما سيسعد بـك أهـل الحـي وكـل المـسلمين، أرجـو عفـوك، لقـد تعجلـت، لقـد كـان الـضيوف قبلـك يزعجونني. أنت الآن في بلاد الصين، والدولة صـينية ولكـن حركـات و

سكنات المسلمين تحت مراقبة الإنجليز. فإذا بقيت يوما أو يومين ستتأكد من ذلك بنفسك، وستعرف بأي حال نحن، وعندها ستعذر تصرفاتي.

- كيف يقوم الإنجليز بالمراقبة؟وهل يوجد موظفون إنجليز عندكم؟

نعم إن أكثرية الموظفين هنا إنجليز، خاصة دائرة الشرطة كلها منهم، والمتسلطون علينا هم من مسلمي الهند الموظفين لدى الإنجليز. يتجسسون على الغادي والرائح، لماذا غدا أو راح، ثم يبلغون بكل ما عرفوا لرؤسائهم الإنجليز.

- هذا هو الذي كنت أبحث عنه، فلو فكرتم في المستقبل، ولاحظتم بأن هؤلاء الذين لا علاقة لهم ببلادكم يتسلطون عليكم وعلى حقوقكم، فكيف يكون الظلم إذا كانت أمور البلاد كلها بأيديهم.

وفيما عدا ذلك فان المنصرين قد أحاطوا بكم، انهم يغررون بالعوام ليقتنعوا بأفكارهم الباطلة، وكل العوام عندكم من الجهلة، فلن يطول بهم الأمر حتى يقعوا جميعاً في شراكهم، وسيأتي الدور على العلماء منكم فماذا أنتم فاعلون؟ كيف ستدافعون عن أنفسكم؟

أريد أن أكلمك في هذه الأمور، وأرجو أن تبين لي رأيك حتى يطمئن قلبي، وأغادر مدينتكم في أقصر وقت، ولست طالباً منكم أي مبلغ من المال، وغدا صباحا سأغادر المدينة.

- أرجو منك أن تبقى يوما أو يومين عندنا، اكرر رجائي بأن تبقى.

قررت البقاء يوما أو يومين في تنزين، وخصصوا لي مكاناً في مدرسة نايتايظي، وتوطدت الألفة بيني وبين الإمام. إن تنزين مدينة جميلة جداً، ومركز تجاري ممتاز، والقسم الأعظم من التجار هم من الأجانب، لكن أكبر التجار في هذه المدينة هم من الصينيين.

كان اهتمامي منصبا على معرفة أحوال المسلمين في هذه المدينة وأكثر اهتمامي هو معرفة النواحي الدينية لهؤلاء المسلمين.

إن أوضاع المسلمين عندكم غريبة في كل مكان، زرت المدارس كلها، وإن مباني المدارس الملحقة بالمساجد جميلة ومنتظمة، ولكن أصول التدريس المطبقة فيها غير مألوفة في أي مكان اخر.

الكتب المقررة عندهم هي نفس الكتب التي نعرفها، ومن النادر أن تجد في مدارسهم كتبا مطبوعة، فكلها مستنسخة بخط اليد..، وجميع الطلاب الصينيين يتعلمون عن طريق الكتابة، إنهم يقرءون ويحفظون الكتب عن طريق الاستنساخ. إن خطوطهم ليست من النوع المعروف في تركيا بل هي أقرب إلى ما هو مستعمل لدى علماء المسلمين في روسيا. حتى المصاحف مكتوبة بهذا الخط. كما أن المصاحف الموجودة في عموم المساجد مخطوطة على شكل أجزاء.

واكثر ما يستغربه الإنسان في هذا المجال هو طريقة القراءة عند الصينيين. فإذا تناول عالم صيني كتاباً عربياً تراه يركز عينيه في الكتاب وينطق ببعض الألفاظ الصينية، أما الكلمات والألفاظ العربية فلا يتلفظ منها بحرف، يقرءونها بسرعة عجيبة. وحسب اطلاعي فانهم يفهمون أكثرها، إذ أنني عندما سألت عن بعض المسائل الواردة في كتب الفقه فان أكثر الطلاب كانوا يجيبون عنها دون أي تردد، وإذا كتبوا الجواب على الورقة فالكتابة تكون صحيحة بدرجة كبيرة. وإذا كان السؤال مكتوبا فإنهم يفهمونه بسرعة. فمثلا، سألت أحد الطلاب «هل يجوز للمسلمين من الرجال أن يطيلوا شعورهم وأظفارهم؟» فتناول القلم وكتب «يجوز مع الكراهية، أما عند أهل الصين، فإن ذلك من العبادات المألوفة، والمعروف عرفاً كالمشروع شرعاً». وسألت عن أمورٍ أخرى فكان الجواب يأتيني فوراً وبلا تردد.

وأكثر الكتب المقررة والموجودة في المدارس ترجمت إلى اللغة الصينية، حتى كتاب مختصر المعاني وجدته مترجماً. ويظهر لي أنه كان

في السابق منهم علماء لهم القدرة على ترجمة مثل هـذه الكتـب. أمـا في الوقت الحاضر فلا أظن أن فيهم من يملك هذه المقـدرة العلميـة، ومـع ذلك فان هذه الكتب التي يتداولها الطلاب والعلماء مقررة ومعتمدة.

حديث آخر مع السيد الآخون

السيد الآخون يجيد العربية بدرجة طيبة، ولا نجد صعوبة في التفـاهم معه. انه رجل عالم ومن أهل التقوى. سألته عن تاريخ انتشار الإسـلام في الصين

فأوضح شأنه شأن الصينيين الآخرين بأن الإسلام دخل الصين في العهد النبوي، حينما قدم إلى هذه البلاد سعد بـن أبي وقـاص ﷺ. قلـت: ومـا مـصدر هـذا الخـبر؟ إن تـراجم الـصحابة الكـرام مـضبوطة في الكتـب الإسلامية وفي التاريخ الإسلامي، خاصة وأن سعد بـن أبي وقـاص مـن العشرة المبشرين بالجنة ومن مشاهير الصحابة، ولا يوجد ما يدل على انه وصل إلى هذه البلاد في العهد النبوي. إلا أن علماء الصين متفقون على أن ذلك حدث فعلا.

سألت الآخون: بأي شيء تثبت ما تقول؟

قال:- هذه رواية تناقلها علماء الصين منذ القدم، جيلاً بعد جيل. وعندنا كتب يرجع تاريخها إلى ما قبل أربعمائة عام، وكلها تؤكد هذه الرواية.

- لكن هذه الرواية تخالف روايـة كتـب التـاريخ الإسـلامي عمومـاً، وان الكتب المعتمدة تثبت بأن سعد بن أبي وقاص تـوفي في المدينـة المنـورة بعد خلافة سيدنا عثمان ﷺ.

- نحن لا ندعي بأن سعد بن أبي وقاص توفي هنا، بل يروي علماؤنا بـأن سعداً بن أبي وقاص قدم إلى كانتون في العهـد النبـوي، فأقـام فيهـا سـتة أشهر. وكان معه رفيقان، أحـدهما سـيدنا قاسـم الـذي تـوفي في مدينـة

كانتون، وقبره معروف حتى الآن، وقواعد المسجد الذي بناه سيدنا سعد باقية حتى الآن. كل علماء الصين يعتقدون ذلك، وستسمع هـذه الروايـة أينما ذهبت كما يروى لك قدوم قتيبة أيضا، حيث أنه قدم في عام ٩٥ من الهجرة، وكان الإسلام معروفا في الـصين حينئـذٍ، إلا أن قتيبـة قـدم مـن تركستان الصينية، أما سيدنا سعد فقدم عـن طريـق البحـر. وهنـاك قـول لخاقان الصين في كتاب يثني فيه على الإسلام ويقول بان انتشار الإسـلام في الصين شرف كبير للصينيين. وهذا الكتاب يرجـع تاريخـه إلى مـا قبـل مائتي عام.

-نعم، الحق معك، ولكن الصريح والمعروف، خاصة ما تتفق عليه كتب التاريخ العربية يناقض ما ذكرته.

- وأنا أقول بأن الرواية مشهورة، ولكن تجد الوضع في بعـض جوانبـها، ولقد كتب الكثير من الأخبار الموضوعة عن أحداث القصر الإمبراطوري، حتى في زماننا، وتوفي إمبراطـور الـصين علـى صـفحات الجرائـد عـدة مرات، وإن تلك الوقائع هي موضع خلاف بين رجال القصر أنفسهم.

على كل حال نحن أمة شرقية متوحـشة! انظـر إلى أوربـا المتحـضرة، فقبل ثلاثين عاما كتبت الصحف الأوربية عن مقتل الكـسندر الـثاني في بترسبورغ، وتحدثت عن موكب جنازته في القصر، ألم تكتـب صـحفكم فيما بعد بأن الكسندر لازال حياً يرزق؟

وبناء على هذا ألا يجوز أن تكون هناك روايات مختلقة عن سعد بن أبي وقاص في عهد قلت فيه الكتابة وضبط التواريخ؟ وإذا قلت إن هذا محض اختلاق، فكيف يتفق سبعون أو ثمانون مليونا من الصينيين على مثل هـذا الكذب، ألا يمكن أن يكون الاتفاق حقيقة.

- عندما يكون هناك جهل، فالاتفاق على الكذب مـن أسـهل الأمـور، لا نقول ثمانين مليونا من المسلمين الصينيين فقط، بل إن مئات الملايين من

النصارى اتفقوا على أن عيسى هو ابن الله، كما اتفق ملايين اليهود على أنه ولد من سفاح، إن مثل هذه الاتفاقات الجاهلة والعياذ بالله لا يمكن أن تكون برهانا.

-(قهقه ضاحكا) قلت كلاما في منتهى الجمال، لقد سررت لهذا الكلام، إلا أنني أقول باختصار إن ذلك الاعتقاد كما قلت شائع بين المسلمين الصينيين جميعا. ومع ذلك فان الإسلام قديم العهد بالصين حتى أن الحكام والأباطرة اعتنقوا الإسلام في بعض الفترات، وإذا ذهبت إلى الصين فسترى، إن المسجد القائم بجانب القصر الإمبراطوري دليل على صدق ما قلت. ولاشك بأن ذلك المسجد بناه الإمبراطور. هذه حقيقة معروفة لا مجال لإنكارها. أظن أنك سألت بطريقة خاطئة وكان من الأنسب لك أن تسأل منذ متى بدأ الإسلام بالتراجع والانحسار؟.

- نعم سأسأل، ولكن كل شيء بأوانه، أما وانك فاتحتني فيه، فأرجو أن تعطيني رأيك. منذ متى بدأ الإسلام بالتراجع؟

- لنبك، أو لنضحك، إن ما سأقوله لا تجده على صفحات كتب التاريخ عندكم. وهذا ليس بالشيء الجديد، انه من الفواجع القديمة جداً. فقبل أربعمائة وخمسين أو خمسمائة عام شكل مسلمو الصين قافلة للحج إلى مكة، فسلكوا الطريق إلى الحجاز عبر التيبت وبلوجستان والبصرة، وكان السفر يستغرق عاما في أقصر السبل. وقد استمرت هذه القوافل لعدة سنوات فتوثقت الصلات بين العرب ومسلمي الصين، وتوافق أن أسلم إمبراطور الصين في تلك الفترات، وإنني لا أستطيع ضبط تاريخ تلك الفترة بالقدر الكافي، إلا إذا وصلت نانكين فستجد فيها مؤرخين مشهورين، وسيروون لك الأحداث عن طريق التسلسل التاريخي ولكنك لن تجد هناك من يترجم لك.

وأعقبت تلك الفترة فتن داخلية، فأصابت أهل الإسلام الغفلة، وتعرضوا للهزيمة، وتسلط عليهم المجوس، وأمسكوا بزمام الأمور في البلاد، ومنعوا المسلمين من الحج، كما منعوا مسلمي الصين من الاختلاط بالمسلمين الآخرين، إلى أن صرنا على هذه الحالة التي نحن فيها.

- هل هذا الذي ذكرت، نجده في كتب التاريخ الصينية؟

- طبعاً، طبعاً، وبشكل مفصل، ولو كنت أعرف العربية جيداً لترجمت الكثير منها.

- إن لغتك العربية جيدة جدا، والحقيقة أنني ممتن لك كثيراً، جزاك الله خيرا، إلا أنني أرجو منك ألا تتسرع في الحكم على أي ضيف قادم من الخارج، عامله أولاً بالتأني واللطف، فليس كل مسافر متسول، كما أن أي مسافر لا يتحمل مثل هذا العتاب والتجريح منك، فإن ذلك يعيق تحقيق الأخوة الإسلامية. لقد سررت بك أشد السرور. ولو طردتني الآن فلن أتركك، لأنني أريد أن أحصل منك على مزيد من المعلومات المفيدة. ولو أذنت لي فإنني أريد أن أتحدث معك مرة أو مرتين.

- أشكرك على نصائحك. ولكن أه من بعض العرب، إن فيهم أناسا يجعلون الإنسان لا يتمالك نفسه. عربي من المدينة اسمه حمزة، قدم إلينا من داخل الصين عن طريق تركستان، كانت معه الاف الدولارات صرفها كلها على الفسق والفواحش، ثم بدأ في إزعاجنا بطلب النقود، أعطيناه ثلاثين دولارا فاستقلها، وبدأ يجادلنا: «جدي رسول الله، لن يرضى عنكم» وما أشبه ذلك من الكلام. ولما قدمت إلينا، حدث ما حدث. أرجو منك العفو والسماح.

- لا، ليس لدي ما أقوله، إنني ممتن وشاكر.

وبعد ذلك افترقنا.

وبدأت أتجول داخل مدينة تنزين. وأنّى اتجهت وجدت هناك هنديا، إنها تكاد تكون تحت حكم الإنجليز حقيقة. قيل لي بأن القرى أيضا لا تخلو من الهنود وإنهم يقومون بوظيفة الشرطة، وفي بعض الأحيان جواسيس، حسب الحاجة، ويتخفون في زي التجار، وأحيانا تكون لهم صفة المفتش أو الحاكم. انهم نماذج للسياسة الإنجليزية، وعبرة لمن يعتبر. وحينما ترى هؤلاء تجد على رؤوسهم عمائم ضخمة، ولها ذيل يتدلى حتى العجز، ومن لا يعرفهم يظنهم لأول وهلة من المسلمين، وقد يظن أنهم من العلماء.

والمرء عندما يرى مثل هذه اللفائف الضخمة على رؤوس المجوس الهنود يتبادر إلى ذهنه السؤال عن معنى تلك العمامة؟

والشرطة الإنجليز بشكل عام يلبسون اللفائف وكذلك الجنود الخيالة، والحراس والحجاب أيضا يلبسون اللفائف نفسها، وحتى الخدم الذين نراهم على أبواب المنازل يلبسون تلك اللفائف، إلا أن ذيل لفائفهم أطول.

ومجوس الهند أحرزوا بأزيائهم هذه مكانة كبيرة في سواحل الصين بشكل عام، فالصينيون المساكين حينما يرون أولئك الهنود يتذكرون عزرائيل. ومن الطبيعي أن يكون هناك فرق بين النظرة العامة إلى العمائم وبين نظرة الناس إلى عمائم هؤلاء المجوس. ولكن من أين لك القوة حتى تبين للناس هذا الفرق؟ فما عليك إلا السكوت وان تعرضت للمهانة. والواقع فان هذه اللفائف تؤخذ في معرض المهانة.

أما بالنسبة إلى معاملة مجوس الهند للسكان المحليين، فهم يحملون بأيديهم عصيّا من القصب طول كل منها متر ونصف، يضربون بها رؤوس الصينيين المساكين إن تكلموا فيما لا يعجبهم.

فبأي صلاحية يستخدم الإنجليز هؤلاء الهنود، وما هو الهدف من استخدامهم، ومنذ متى بدءوا بهذا التدخل في هذه البلاد؟..

أريد أن أبين بعض ما استطعت فهمه، على أن أقدم التفصيل كلما سنحت الفرصة بذلك. قبل سبعين أو ثمانين عاما، جاء الإنجليز إلى مدينة هونك كونغ وجاءوا معهم بعدد من المسلمين الهنود، وقالوا لهم:" نعطيكم المال وما تريدون! اشتغلوا بالبيع والشراء. ثم نأتي إليكم كي نأخذكم.

وكان أحد الذين تركوهم هناك تاجر معروف اسمه عبد الله فقير، ثم بدأ الإنجليز يزيدون عدد اتباعهم في الجنوب الشرقي فانتشروا في السواحل، ثم جاءوا ببعض العناصر من الشرطة بحجة القيام على شؤون رعاياهم، إلا أن هؤلاء الشرطة بدءوا بالتدخل في الشؤون الداخلية للصين بأمر من الإنجليز، وعندما يحتج الصينيون على ذلك يجيء الإنجليز بهؤلاء الهنود ويقدمونهم إلى المحكمة العسكرية بحجة أنهم تصرفوا بدون علمهم. ولم يتوقف هؤلاء عن التدخل كلما وجدوا فرصة إلى ذلك، حتى بلغ الحال إلى ما هو عليه الآن. إن الحكم الصيني في تنزين حكم شكلي، ولهم بعض الموظفين، وإذا اشتكى أحد الموظفين الصينيين فإنه يتقدم إلى الموظفين الإنجليز بهذه الشكوى ولكن إذا كان الخصم قاضيا فإلى من تشكوه؟

وفي تنزين تاجر هندي، ما هي مهمته يا ترى؟ أنا لم أفهم، إنه يجيد العربية والفارسية، هو بائع كتب في الظاهر ولكن لا تكاد تراه يبيع ويشتري. لديه من الكتب صندوق أو صندوقان. ولا يمكن أن تكون التجارة بمثل هذه الكمية الصغيرة من الكتب. سمى نفسه تاجر كتب. تحدثت معه أكثر من مرة، ولم أجد فيه أية مزية. إنه يعمل في تجارة الكتب منذ عشر سنوات. سألت الآخون عن تجارة هذا الرجل:

كيف يتاجر بمثل هذا القدر الضئيل من الكتب؟ أتعرف هويته؟ من يكون هذا الرجل؟

- هذا الرجل قدم إلى مدينتنا قبل عشر سنوات. والكتب التي رأيتها هي هي، تزوج عدة مرات وطلق، ويصرف مبالغ غير قليلة من المال. وهو في رغد من العيش، ولا نراه يبيع أو يشتري، أنا لا أفهم هذا الرجل، انه مسلم صوفي.

هذا بلاء مبرم. وقانا الله من شره.

كنت أنوي البقاء في تنزين عدة أيام أخر، إلا أن الآخون أبلغني بأنه ينوي السفر خارج المدينة، فاضطررت أن أعزم على مغادرة تنزين. ومع ذلك سأزور فيما بقي من اليوم بعض المدارس. توجهت إلى حي المسجد الجامع، فوجدت المسجد عظيم البناء وكذلك المدرسة الملحقة به، إلا أن عدد الطلاب قليل. وكنت قد تعرفت على طلابها في وقت سابق، انهم يعرفون من اللغة ما يمكن أن يتكلموا به بعض الشيء.

أردت الاطلاع على الكتب الموجودة عندهم، فسألت أحد الطلاب، فجاء بها كلها، ووضعها أمامي، فوجدت أن أكثرها مستنسخ بخط اليد وكان من بينها كتب الفقه والنحو والصرف، وعقائد النسفي، ومختصر المعاني والدسوقي، وبعض كتب الفقه باللغة الصينية. إن الكتب المقررة في المدرسة هي بالعربية، والعربية تدرس هنا بكل قواعدها ولكن العجيب أن الطلاب لا يقدرون أن يتكلموا بالقدر الذي يمكنهم من التفاهم. لم أستطع أن استوعب ذلك. والواقع إن علماءنا كذلك فيهم مثل هذا النقص! إلا أن لهم القدرة على التخاطب، والتفاهم بعض الشيء.

إن إمام حي نانتايظي يعرف من العربية بالقدر الذي يجعلنا نقول فيه: ما شاء الله إنه رجل وحيد في مدينة عدد مسلميها ثلاثة عشر ألفا. أما في المساجد الأخرى فلا يوجد أحد. وأمر مسلمي الصين في علم القراءات

غريب حقاً، انهم مساكين، ومع ذلك فان مدارسهم جميلة. وكما هو الحال في روسيا فان المدارس في الصين تعتبر جزءا من المساجد، بالإضافة إلى محل الوضوء الذي تجد فيه المياه الدافئة للوضوء والغسل. وكل أهل الحي يتوجهون إلى المسجد كلما أرادوا الاغتسال. ومساجد تنزين نظيفة حقا. ويقوم أهل الخير بالإنفاق عليها. وأقول الحق بأن ما لا تجده في البلدان الأخرى تجده لدى مسلمي الصين، زرت أطراف مدينة تنزين، فلاحظت أن التنافر بين المسلمين والمجوس نادر، انهم يعيشون جنبا إلى جنب في راحة وأمان، ويعود السبب إلى أن المسلمين هم الأكثرية، والمناطق في الصين التي تكون الأكثرية فيها للمسلمين يكون الأمن فيها مستتبا في أغلب الأحوال. أما إذا كانت الأغلبية من المجوس فقد تكثر فيها حوادث الإخلال بالأمن والطمأنينة. لقد تحققت من ذلك بنفسي.

والمجوس لا يتوانون عن إظهار العداوة للمسلمين. ولما صار الحكم بيد المجوس، تعرض المسلمون لكثير من المشاكل والاعتداءات. وقد اضطر المسلمون في بعض الأحيان إلى التخفي اتقاء لشر المجوس، ولذلك تراهم يقلدون المجوس في مظهرهم، فلا تكاد الآن تميز بين مسلم ومجوسي.

ولم يقتصر التقليد على العادات الدنيوية بل تعداه إلى بعض النواحي التعبدية أيضا، فلا تكاد تميز في طراز البناء بين مساجد المسلمين ومعابد المجوس، كما إن التماثيل والصور التي تعلو المساجد هي عادات مجوسية أيضاً. وحمل الجنائز ولبس اللون الأبيض في المآتم هي أيضا من العادات المجوسية التي دخلت على المسلمين هناك. كما إن حمل العصا أثناء المشي في الجنائز هو عادة مجوسية. وعادة حمل العصا شائعة لدى علماء بخارى أيضا، وأظن أن ذلك أيضا دخل عليهم من المجوس. كما

أنهم يحملون الجنائز في صندوق ضخم من خشب، وهذه العادة لا توجد إلا في الصين.

وأخيرا غادرت مدينة تنزين متوجها إلى بكين عاصمة الصين، والمسافة بين تنزين وبكين أربع ساعات، والمواصلات بين المدينتين ميسرة حيث تقوم القطارات بعدة رحلات في اليوم. وصلت إلى مدينة بكين عاصمة الصين في الساعة الثامنة من مساء يوم الاثنين الثامن والعشرين من حزيران (يونيو).

بكين

هي من أقدم مدن العالم، ومن أقدم النماذج الحضارية. مدينة بكين عاصمة دولة الصين العظيمة، إنها من كبريات مدن العالم.

ولا بد أن أتحدث عن أخواني المسلمين قبل كل شيء، فأنا الآن ضيف في مدرسة الآخون «واك- كوان» في الحي الإسلامي. وهذا الرجل من أكابر علماء بكين. واسمه العربي عبد الرحمن، ولكن قليلا من الناس يعرفونه بهذا الاسم. أما اسم «واك - كوان» فمعروف لدى المسلمين والمجوس على حد سواء. إن الحي الذي يقيم فيه هذا الرجل يعرف بـ «نيوجيه»، ومسجد هذا الحي هو أقدم مساجد بكين وأكبرها حيث انشىء قبل ٦٣٤ عاما. وتاريخ بنائه منحوت على حجر باللغة الصينية.

استقبلني السيد واك -كوان بحفاوة بالغة، وخصص لي غرفة كي أقيم فيها. وأول صلاة حضرتها هي صلاة العشاء، كان المؤذن شابا، وصوته مؤثر، ذكرني بأذان اسطنبول. لقد أحسست بالراحة الكبرى.

وبعد تلاوة سورة الإخلاص ثلاث مرات أقيمت الصلاة، وهذا شيء طيب، انتعش فيَّ الأمل، ثم شرعنا في الصلاة، قرأ الإمام سورة الفاتحة،

ماذا أقول، لقد بدأنا في الاقتداء، بأي حال صرنا يا رب! تلك السورة التي تقشعر منها الجلود، أحسست بأنها تبكي حزناً وفرقا من هذه التلاوة.

كنت متعبا، فنمت تلك الليلة، وأنا أفكر فيما نحن فيه، وكانت الرؤى كلها عن سورة الفاتحة. مسكين هذا الإسلام على المصائب التي حلت به. هذا هو حال الملايين من المسلمين، هل يجد الراحة من يفكر في هذه الأحوال؟

وفي اليوم التالي استيقظت في الصباح الباكر، ودخلت المسجد، في ظلمة الليل، وأخذت الحيطة هذه المرة. وأشار الشيخ بأن أتقدم للصلاة فتقدمت وصليت بالناس صلاة الصبح.

الصلاة في الصين

يبلغ عدد المسلمين في منشوريا وفي ولايات جنوب شرقي الصين(صي جوان) وتونكين حوالي أربعين مليونا، إلا أن الصلاة وهي عبادة مفروضة لا تؤديها إلا قلة قليلة من الناس. إنها تنحصر في العلماء وأهل المدارس، ونادراً ما تجد من أشراف وأعيان البلد من يؤدي الصلوات الخمس. أما صلاة الجمعة فتؤدى في كل مكان.

وأفعال الصلاة هي على المذهب الحنفي بشكل عام. إنهم يراعون الطهارة والنظافة. إلا أنك تشاهد القاذورات في المساجد. والمساجد من الداخل كغيرها من المساجد المعروفة، مفروشة بالسجاد، والمحاريب تشبه محاريب اسطنبول حيث اللوحات والزينات تحيطها. وقيل بأن محراب مسجد (نوجه) كان مزينا ببعض الآيات القرانية والأحاديث النبوية المذهبة بالخط الكوفي، أما الآن فالمسجد صار قديماً ومهترئاً. ومع ذلك توجد فيه بعض اللوحات الخشبية الفنية الجميلة المنقوشة بخط الثلث والكوفي والتعليق. إنها نماذج للفنون الجميلة والآثار القديمة. هناك

لوحات مكتوبة باللغة الصينية. وبإمعان النظر في هذه اللوحات يمكننا أن نقول بأن العلوم الدينية كانت متطورة في بعض العهود في الصين، ولا يمكن أن يكون الذين كتبوا تلك اللوحات من الجهلة.

وفي أثناء الصلاة يلبس الصينيون قبعات تشبه ما يلبسه أهل بخارى، ويلمون الشعر الطويل تحت هذه القبعات. وهذه القبعات لا تلبس إلا في المساجد، أما في سائر الأوقات فهم حاسري الرؤوس، وفي أيام الصيف لا يضعون شيئاً على الرأس، أما في أيام الشتاء فيضعون على رؤوسهم نوعا واحدا من القبعات. أما العمائم فيختص بها العلماء ولا يلبسونها إلا في داخل المساجد. وهم لا يختلفون عنا في أركان الصلاة وأفعالها، ولا يتصور منهم أن يخالفوننا لأنهم جميعا من أتباع المذهب الحنفي، إلا أن القراءة غير واضحة في عموم البلاد الصينية، فعندما يقرءون الفاتحة في الفرائض الجهرية، لا يكاد المرء أن يميز فيها كلمة واحدة. انه لأمر غريب حقا.

ومخارج الحروف لا تشبه العربية في شيء، وليس فيها غير التغني والترنم. وحتى تركيب الجمل غير صحيح، ﴿اهدنا الصراط﴾ يقرءونها «اهدنا نصرات». هذا النوع من القراءة يشمل عموم المسلمين في الصين. كما أن على أبواب المساجد أوعية مصنوعة من الخشب وموضوعة على منضدة حمراء، قيل بأن الحكومة تعطيها للمساجد. وفي مدخل مسجد «نوجه» تجد مجموعة من هذه الأوعية الخشبية الجميلة عليها كتابات جميلة جداً بخط واضح هدية من إمبراطور الصين السابق.، وفيما عدا هذا وذاك فان هناك بعض الكتابات المنقوشة على الحجر باللغة الصينية.، عبارة عن التواريخ القديمة المتعلقة بهذا المسجد.

وتتبع مسجد نوجه مدرسة غاية في الجمال وهي قديمة جداً، وحول المسجد أبنية كثيرة غريبة وجميلة، ولا نعرف ما هي هذه المباني.

والجامع في مظهره الخارجي لا يمكن تمييزه عن معابد المجوس، والتماثيل التي فوق المسجد أمر مزعج جدا، ولكن ما الحيلة فقد استحسنها مسلمو الصين، انهم يقدسونها وكأنها من شعائر الدين (الجهل ليس له حدود).

وعدد طلاب مدرسة نوجه حوالي أربعين وهناك مدرسة أخرى يزيد عدد طلابها عن المائة.

المفتي عبد الرحمن= آخون واك -كوان

والمفتي عبد الرحمن (اخون واك- كوان)إنسان سديد الرأي، يتألم لأحوال المسلمين الصينيين، ويعمل من أجل رفع شأنهم.

في اليوم التالي التقيت بهذا الرجل وجرى بيننا حديث طويل ومتعمق، عرفت منه بعض الأمور المتعلقة بماضي مسلمي الصين ومستقبلهم. واك- كوان مسلم صيني متمسك بدينه، ولا حاجة لتعريفه بأكثر من هذا. يدعي بأنه يرتبط نسباً بسيدنا سعد بن أبي وقاص، وبأن عنده شجرة تثبت هذا النسب، وله مكانة لدى الحكومة الصينية، انه رجل معروف، متولي المسجد المذكور، ومن أشهر الشخصيات الإسلامية في مدينة بكين.

وأقدم للسادة القراء بعض المعلومات التي حصلت عليها عن هذا الرجل: واك- كوان رجل شديد التمسك بدينه إلى درجة التعصب، ولكن ليس من نوع التعصب الذي نراه عند الجهلة من الصوفيين الذين لا يفكرون إلا في مصالحهم الخاصة. وهو بالرغم من حالة الفقر التي يعاني منها، فكر في مستقبل أمته وقصد الحج قبل بضع سنوات، وفي اسطنبول قابل السلطان عبد الحميد، وهو لا يعرف اللغة التركية كما لم يجدوا هناك مترجما باللغة الصينية فتحادثا باللغة العربية. رغم أن إلمامه باللغة العربية ضعيف. ولا أظن أن السلطان أحسن حالاً منه، ومع ذلك فقد

استطاع أن يفهم السلطان مقصده، وأبلغه بأن الجهالة تعم مسلمي الصين، وأنه سيكون مسؤولاً أمام الله إن هو لم يرسل علماء مسلمين إلى الصين. وعلى اثر ذلك صدرت الإرادة بإرسال اثنين من المعلمين من قبل المشيخة الإسلامية، ووصل كل من علي رضا وحافظ الحسيني بعد أن حصلا رواتبهما على حساب السلطان، وصلا إلى بكين وبدءا بتعليم القراءات مدة عام.

كل هذا تحقق بفضل أفكار الآخون واك-كوان. والحقيقة إن واك- كوان أوجد رابطة دينية لأول مرة بين بكين واسطنبول وهذه خدمة كبرى من واك- كوان لمسلمي الصين.

إن واك -كوان لم يكتف بهذا، بل افتتح مدارس جديدة في نوجه، وهو على وشك الحصول على إذن رسمي من الحكومة لتأمين مصاريف هذه المدارس. إنه يجمع الأموال عن طريق اليانصيب، يصدر وصولات لليانصيب مرة في أوائل كل شهر، وتباع الوصولات في باقي أيام الشهر، وفي نهايته يسحب اليانصيب، وتقتطع مائة دولار من الأموال المستحصلة لصالح المدرسة. وهكذا يجرى تأمين رواتب المدرسين والمصاريف الأخرى للمدرسة.

إن المناهج الدراسية في المدارس هي باللغة والحروف الصينية.. وفيها مدرسون للعلوم الدينية والعربية، إلا أنهم مدرسون بالاسم.

نعم إن مثل هذا اليانصيب نوع من الميسر، أي القمار. ولا يحلل الآخون هذا، ولكن يقول: ما الحيلة، إن شعبنا فقير، فلو لم نعمل هذا فسيدخل أبناءنا المدارس المجوسية، وسيضيع منا ديننا، لذلك فقد اضطررنا إلى اختيار أهون الشرين.

ومما لاشك فيه بأن علماءنا في روسيا لن يرضوا بمثل هذا الحل، ومن الطبيعي أن يجمعوا على أنه حرام. والسيد واك- كوان يعترف بأنه حرام ومع ذلك فقد لجأ إليه، وأظن أنه يمكن حمل الأمر على حسن النية.

وصرت معلما بعد الشيخوخة

وعرض علي واك- كوان أن أعلم الطلاب قائلا: أرجو أن تعلم طلاب المدارس في مدة إقامتك شيئا من علم القراءات، وتعلمهم اللغة العربية. والحقيقة أنني لم استطع رفض هذا الطلب، فالإنسان عندما يرى تلك الحالة في الطلاب لا يمكنه الرفض وصرت معلما متطوعا لمدة شهرين من الزمان.

وبهذه الصورة كان واك- كوان ينظر إلى مصلحة أمته، وسأتكلم لاحقا عن أخطاء هذا الرجل. ومن الطبيعي ألا تمنع مساوئ الإنسان من ذكر حسناته، ولا يكون كل عمله خيراً كما لا يكون كل عمله شرا. إن المفتي عبد الرحمن واك- كوان عمل الكثير من أجل أمته ولا زال يعمل، وإنه إذا رفض اقتراحات البعض من شبابنا فهذا لا يعتبر نقيصة فيه، انه لا يفهم تلك الاقتراحات فلا يستوعبها، هذا هو كل ما في الأمر.

بكين أو بجين

الصينيون بشكل عام يسمونها بجين، وهي مدينة على الطراز القديم، ليس فيها حافلات كهربائية ولا أرصفة، ولا كهرباء ولا غيرها. ومع ذلك فهي جديرة بأن تسمى بأم المدائن في الشرق و يبلغ عدد سكانها مليون نسمه عشرهم من المسلمين، وعدد الأحياء الخاصة بالمسلمين ثلاثة وثلاثون، ومثل هذا العدد من المساجد. وأكبر هذه الأحياء حي نوجه، وعدد بيوته ١٥٠٠ بيت ويأتي «جاس حوتي» في الدرجة الثانية وعدد

بيوته ألف بيت. وإمام هذا الحي إنسان طيب القلب واسمه ملا نصر الدين. ومسجد الحي بني حديثا وهو مسجد جميل ونظيف جدا ولكنه أصغر من مسجد نوجه.

وملا نصر الدين رجل متدين وصوفي، ويدرس خمسة عشر من الطلاب، وليس له أي نشاط اخر. إن أحد طلابه يجيد اللغة التركية، تعلمها من الحافظ حسن أفندي، وقد نفعني في بعض الأحيان. وبشكل عام فان أصول التدريس بين مسلمي الصين غريبة جداً، وأكثر الكتب في هذه المدارس عربية، وفارسية بنسبة أقل، إلا أنهم لا ينطقون بكلمة واحدة من العربية أثناء تدريس الكتاب، إنهم ينظرون إلى الكتاب ويقرءون ترجمته بالصينية. ومن ينظر إليهم من بعيد يظن بأنهم يقرءون كتابا صينيا، ولو رأيت سرعة قراءتهم للترجمة لظننت بأن لغتهم العربية في غاية القوة، ومع ذلك فانهم لا يعرفون من العربية شيئاً. والأمر يبدو لغزاً من الألغاز.

إن كل الكتب النحوية والفقهية التي ندرسها في مدارسنا موجودة في هذه المدارس أيضا. وكتب أخرى غير موجودة عندنا مثل مختصر المعاني وغيره، وبعض من هذه الكتب ترجم إلى اللغة الصينية، وهذه الترجمات يستفيد منها الطلاب في المدارس.

إن هذا يدل على أن الصين كان فيها علماء، وقد لا نجد فيهم الممارسين للعلوم الفقهية لكن اطلاعهم النسبي على العربية واضح، وذلك لأن كثيراً من الكتب الخاصة بعلوم الفقه وعلوم النحو ترجمت إلى اللغة الصينية. أما العلماء الحاليين في الصين فلا يمكنهم أن يقوموا بهذا العمل، لأنهم لا يفقهون من العربية شيئاً.

وفي بكين مسجد تابع للقصر الإمبراطوري، وهو مسجد من الدرجة الثالثة، وقد أنشأه أحد الأباطرة الصينيون. ومهما كان وضعه الحالي خربا

فان متانة البناء وضخامته تدلان على أن المسجد أنشئ بأموال حاكم مقتدر. إن هذا المسجد متصل بالقصر الإمبراطوري، وله مئذنة ضخمة ومشرفة على قصر الإمبراطور، وفي جانب المئذنة المواجه للشارع نقشت اية الكرسي على قطعة من رخام كبير مربع الشكل ارتفاعه ستة أذرع، ولا يزال القصر يعطي لهذا المسجد شيئاً من الوقف المخصص له، ويقال إن المسجد كانت له قديما أوقافاً كثيرة.

كما يروى أن إمبراطور الصين في فترة من الفترات كان مسلماً، فأمر ببناء هذا المسجد، حتى أن الواقف إشترط أن يكون حق الولاية للأتراك ولذلك فان المتولي والإمام دائماً من الأتراك حتى يومنا هذا. وقد التقيت بهما، ومهما تصينا(صارا صينيين) فانهما كانا يعرفان اللغة التركية، أقمت في بيت أحدهما فوجدت زوجته أكثر طلاقة منه باللغة التركية، بما لا يمكن أن يشك الإنسان بتركيتهم. إن بناء هذا المسجد يدل على أن المسلمين كانت لهم مكانة ممتازة في بكين، فقد صرفت أموال طائلة لبنائه بما لا مجال لمقارنته بالمساجد الأخرى. يتفطر قلبي ألماً كلما رأيت هذه الأوضاع. كيف كان المسلمون قديماً وكيف هم الآن ولو فكر الإنسان فيها لكتب المجلدات من الكتب.

ويبدو لي بأننا لا ندري أنفسنا ولا يدري تاريخنا شيئا عن حالة الإسلام في الصين. إن كتب التاريخ الإسلامية ليس فيها شيء عن مسلمي الصين.والواقع إننا صرنا في حال لا نعرف ماضينا، ولا حاضرنا ولا مستقبلنا، لقد صرنا ضحايا الجهل.

وفيما عدا هذه المساجد فان بكين فيها ثلاثون مسجداً اخر، إلا أن أكثرها صغير وبعضها خرب. والحقيقة إن لنا في هذه الديار كثير من إخواننا المسلمين ومن إخواننا الأتراك ولكن ما العمل؟ أننا لا ندري عن أحوال بعضنا البعض، ونسأل الله أن يصلح أحوالنا.

وبشكل عام فإننا إذا أمعنا النظر في مسلمي بكين فإننا نلاحظ أن المسلم منهم لا يمكن تمييزه عن المجوسي ولا يمكنهم أن يميزوا هم أنفسهم، إلا أن المسلمين يكتبون على أبواب منازلهم كلمة التوحيد بالخط العربي، وبعضهم يكتب على باب منزله عبارة(يا مفتح الأبواب).

أما في المحلات التجارية فأنك تشاهد عليها صورة الإبريق والمسبحة. إن المسلمين يكنون كرهاً شديداً للمجوس، وهم لا يقيمون علاقات معهم أبداً. انهم يعملون بمنطوق الآية الكريمة ﴿إنما المشركون نجس﴾، حتى أن المسلم لا يشرب الشاي في منزل مجوسي، حتى البيض لا يشتريه من المجوس، ومع ذلك فان المسلمين يحافظون على الأمن، ويتخذون كل العادات المجوسية في إطالة الشعر والظفر، وتحجيم أقدام النساء، وعدم تحجب النساء، وكلها عادات مجوسية.

اكتفي بهذا القدر من المعلومات عن مسلمي الصين، انهم يلجئون إلى هذه العادات لحفظ الأمن.

إن هذه المدينة القديمة هي عاصمة البلاد ومقر الإمبراطور و ليس فيها شيء من البناء الحديث، إلا أن العجيب والمحير فيها هو سورها الذي يحيط بها.

إن سور بكين هو زينة المدينة وجمالها، وهو على شكل مربع، يزيد طول ضلعه عن خمس كيلو مترات ويقدر المحيط بعشرين كيلو مترا ونصف الكيلومتر. وعرض سطح السور عشرون خطوة، ويقدر ارتفاعه بثلاثين متراً. إن هذا السور الذي يحيط بالقسم الأعظم من المدينة بناه الصينيون قبل خمسمائة عام، وفي جانب كل باب طريق للصعود إلي سطحه، وعند الضرورة يمكنك أن تصعد إلى السطح راكبا، وفوق كل باب من أبواب السور وكل زاوية من زواياه الأربع موقع عسكري بثلاثة أدوار أوخمسة أدوار تضفي عليه جمالا اخر.

ولا حاجة أن يتجول المرء في أزقة بكين وشوارعها كي يرى معالم المدينة بل يكفيه أن يصعد إلى سطح السور من أحد الأبواب ويتجول على الجدران الأربعة ثم ينزل من حيث صعد، وبذلك يرى كل الشوارع والأزقة في المدينة، لأن ارتفاع السور أكثر من ارتفاع أعلى البيوت. إن المدينة التي بداخل السور تعرف بالمدينة القديمة.

ويوجد سور اخر متصل بالجهة الشرقية لهذا السور، وهو ملحق بالسور القديم، إن هذا السور أقل ارتفاعا وليس بمتانة القديم، وبعض الجوانب فيه بدأ بالتفكك والانهيار، وأحجاره صغيرة وعادية، أما أحجار السور القديم فممتازة وطول الحجرة الواحدة عشرة أصابع وعرضها ثمانية أصابع، وتزداد صلابة كلما تقادم الزمان، وأصحاب الخبرة يعرفون قيمة هذه الأحجار جيداً.

إن الذين بنوا هذا السور قبل خمسمائة عام هم الشرقيون الذين تصفهم أوربا بالوحشية والبربرية. ولو صرفت اليوم المليارات لما أمكن إيجاد مثل هذا البناء العظيم.

المرصد الذي سرقته ألمانيا المتحضرة

وكان في القسم الشمالي الأوسط من السور مرصد عظيم جدا، وقد بني هذا المرصد في الوقت الذي بني فيه هذا السور قبل خمسمائة عام، وزود بكافة أدوات الرصد والساعات الكبيرة، والات استخراج السمت وكلها مصنوعة من النحاس الأحمر. وبصرف النظر عن قيمة هذا المرصد العلمية، فان قيمة النحاس تقدر بالملايين، ولا أستطيع تقدير قيمة الأدوات من الناحية الفنية الكاملة، وكل ما ذكرت هو ما زودني به مدير المرصد. لقد كانت هناك (قبل النهب الأوربي) كرة مجسمة من النحاس الخالص قطرها ٢,٥ مترا وقد ذكر لي وزن الكرة بالمثقال الصيني مما لم أستطع فهمه، إلا أن وزن كرة نحاسية مملوءة، قطرها ٢،٥ مترا لابد وأن

يكون كبيراً جداً. والأمر الذي حيرني حقا، هو دوران مثل هذه الكرة الضخمة حول محور من النحاس أيضاً.

أصبحت هذه الكرة من نصيب الألمان المتحضرين الذين كانوا من بين الأوربيين المتحضرين حين اتفقوا على نهب القصر الإمبراطوري عام ١٩٠٠ من الميلاد، حيث قام الجنود الألمان بنهب هذه الكرة الضخمة إلى جانب كثير من الأدوات العلمية، ليضيف خدام الحضارة الغربيون مأثرة جديدة إلى مآثر حضارة القرن العشرين. وعندما بدأ الألمان بالهجوم على المدينة كان المرصد هو أول الأماكن التي أمطروها بوابل من الرصاص، ولا تزال اثار الرصاص ظاهرة على بعض أنقاض الأجهزة العلمية في المرصد. وواضح بأن مدينة بكين لم تقاوم هؤلاء الغزاة بل قاموا بهذه الوحشية من تلقاء أنفسهم، وتدافعوا نحو القصر والبيوت المجاورة فنهبوا كل ما وجدوه في طريقهم. ومن الغريب حقا أنهم مع كل هذه الأعمال البربرية فإنهم يحاولون إقناع الناس على أنها من حضارة القرن العشرين.

أخذوا كل ما وجدوه في قصر الإمبراطور من الكنوز النفيسة والآثار والكتب القديمة ونقلوها إلى أوربا، فتشوا بكين القديمة بيتاً بيتاً ونهبوها خلال ثلاثة أيام، إلا أنهم لم يتعرضوا للحي الإسلامي، وذلك بفضل الجنود المسلمين الموجودين في صفوف الروس والإنجليز، والذي حصل هو أن أيا من المسلمين من أهالي بكين لم يغادر بيته، واتفقوا جميعا في الحفاظ على الأمن، كما قام الجنود المسلمون بمساعدتهم. أما المجوس، فقد فروا من المدينة قبل وصول جيوش الأعداء، حتى الجنود المكلفون بحراسة القصر لم يبق منهم أحد، وظل القصر دون حماية، كما أن الإمبراطور بوغديخان فر مع أفراد أسرته.

هذا الإمبراطور المسكين استطاع النجاة بنفسه وأسرته عندما التجأ إلى أحد مساجد المسلمين قرب بكين، وإنه بعث بكتاب شكر خطه بيده إلى إمام المسجد وسكان الحي من المسلمين، إن هذا الكتاب محفوظ في ذلك المسجد حتى الآن للذكرى.

(عندما كنت في بترسبورغ رأيت بعض النفائس الصينية في منزل الضابط الروسي الأميرالاي ويره شجاعين، وكان يريد بيعها، وإني وجدت له من يشتريها. وجرت المفاوضات بين البائع والمشتري وكان عدد القطع حوالي ستمائة، سجلها ويره شجاعين في قائمة، وطلب بها خمسمائة ألف روبل، أما المشتري فقد فحص القطع جميعها خمسة أيام متواصلة وقدر ثمنها بمائتي ألف روبل، إلا أن ويره شجاعين لم يرض بهذا السعر على أمل أن يجد من يدفع سعرا أعلى. هذا مجرد ضابط روسي استطاع أن يقوم بكل هذا النهب، فما مقدار ما نهبه كبار القادة من الجنرالات وغيرهم!)

ونعود إلى الموضوع: بقيت داخل المرصد ساعة شمسية ضخمة مصنوعة أيضاً من النحاس، وجهاز لاستخراج السمت، حاولوا سرقتهما لكنهم لم يقدروا على انتزاعهما من مكانهما، ولا يزالان على حالتهما حتى الآن، وإن قطر الساعة الشمسية يبلغ سبعة أذرع، وحسب رواية الصينيين فإنها من الآثار العربية، وهذه الرواية تؤيدها الأرقام العربية المنقوشة على الساعة الشمسية وجهاز استخراج السمت، إلا أن صنعهما في القرن الرابع عشر الميلادي يثير بعض الشكوك، وهذان الجهازان لم يركبا فوق السور بل في مكان ملاصق له للسور، ويحتمل أنهما كانا في نفس المكان قبل إقامة السور. ورأيت أدوات قديمة أخرى، ولا نعرف غرض استعمالها، وعليها كتابات صينية، وقال لي المدير بأنها تتعلق بالكواكب.

إن الشيء الذي أثار اهتمامي هو الكرة المجسمة التي اختلسها الألمان، إذ أنهم كيف كانوا ينقلون مثل هذه الأشياء الضخمة والثقيلة قبل خمسمائة عام ويركبونها على مسمار. ولقد وجدت في مكان تلك الكرة كرة أخرى صنعها الصينيون أيضاً من النحاس، ومع أنها كرة فارغة فان وزنها يبلغ مائة وأربعة وسبعين كيلو غراما، وركبت على المسمار نفسه ولكنها تدور ببطء، ولقد روى لي المدير بأن الكرة الأصلية الضخمة كانت تدور بمجرد دفعها باليد كما أن بعض الكواكب لم تكن موجودة في هذه الكرة. وقد اختلس الألمان إلى جانب هذه الكرة أشياء أخرى، لم نعرف ما هي، لأن المدير كان يتكلم باللغة الصينية ولم يستطع المترجم توضيحها بشكل صحيح.

إن مدير المرصد الحالي هو ناظر المرصد أباً عن جد، وهو رجل عجوز تجاوز عمره ٩٣ عاما.، وآباؤه حتى الجد الرابع عشر كانوا متخصصين في هذا الفرع من العلوم.

هذه هي المعلومات التي استطعت تقديمها للقراء فيما يتعلق بالسور. لقد تذكرت الآن شيئا اخر وهو أن الألمان ادعوا بأنهم بصدد المحافظة على لبنات السور، فاتفقوا مع السفارة الإنجليزية على تسيير دوريات من الجنود فوق السور. (ولكن بعد خراب البصرة)، انهم سرقوا كل شيء ذا قيمة ثم وضعوا الحراس على السور كي لا تسرق! أوجدتم أمة أكثر غشاً وخداعاً من هؤلاء؟ لقد نهبوا البلاد بأكملها، وأحرقوا تلك القصور الجميلة، ثم نراهم يقومون بحراسة لبنات السور من الخونخوز. ويقال بأن كل لبنة لها قيمة فنية تقدر بعدة دولارات. إن من يسمع هذا من خارج هذه البلاد يظن بأن الألمان وأضرابهم هم حماة الفنون والآثار، غير أن الحقيقة أنهم هم السارقون، لقد نهبوا البلاد، ثم لم يكتفوا بذلك بل ألزموا الصين على دفع الملايين تحت مسمى تعويضات الحرب.

أرأيتم أمة أقل حياء من هذه الأمم، يعمدون إلى نهب بلد من البلدان، ثم يطالبونه بتعويضات الحرب، يتركون البلد عاريا من كل شيء ثم ينصبون الحراس ليمنعوا الناس من سرقة الأحجار.

إنها من المضحكات حقيقة ولازلنا نسمي مثل هذه الأمور بالحضارة.

بكـــين

إنها مدينة قديمة جداً، لذا فان عدد الشوارع المنتظمة فيها قليل، ومع هذا فان في داخل السور شارع جميل ومنتظم يقيم فيه أكثر السفراء الأجانب، حيث بنت كل سفارة لنفسها حصناً، خاصة السفارات الإنجليزية والروسية والألمانية، فكل واحدة منها تعتبر مدينة متكاملة. أما السفارة الروسية فبالرغم من كبر حجمها فان عدد موظفيها لا يتجاوز مائة وعشرين، منهم أربعون من الجنود، والباقون هم من أعضاء السفارة والقنصلية وموظفي البريد. إنها مستعمرة روسية في بكين.

أما السفارة الإنجليزية ففيها أعداد كبيرة من الجنود الهنود، يستخدمون بعضهم بصفة بوليس وأعتقد بأن عددهم يبلغ بضعة الاف. أما اليابانيون فهم يديرون الأمور بأيديهم، والسفارات الأخرى أيضا كبيرة الحجم، فالشارع الذي فيه السفارات يوحي بأنه حي من أحياء أوربا.

ومن المعروف بأنه إضافة إلى أعضاء السلك الدبلوماسي فان كل سفارة يتبعها جيش من المنصرين. إن هؤلاء الهوائم نسجوا في بكين شبكات لهم مثل شباك العنكبوت.

أما قصر إمبراطور الصين فهو محاط أيضا بسور، وهذا القصر أيضا يشكل مدينة مستقلة.

وبالإضافة إلى هذا الشارع فان هناك عدداً من الشوارع المنتظمة، إنها شوارع مستقيمة وعريضة ليس إلا. أما الأرصفة الجميلة، والمباني العالية

والمتاجر الضخمة فلا وجود لها، غير أن للمدينة أبواباً عظيمة، فزينة هذه المدينة في أبوابها.

وقد ذكرت فيما سبق وسائط النقل في هذه المدينة، أما وسائط نقل الأحمال الثقيلة فهي العربات التي تجرها الدواب.

وتوجد في المدينة أزقة مسدودة، لا تتسع لأكثر من شخصين، ومستنقعات لا يمكن تجاوزها، فإذا نزل المطر تعذر المرور في الشوارع. أما من جهة النظافة في بكين فيمكنني أن أقول بأن أقذر شوارع استنبول هو أحسن حالاً من أنظف شوارع بكين، باستثناء الشارع الذي يقيم فيه السفراء.

وإذا أردنا مقارنة بكين باستنبول بشكل عام، فان الفرق في النظافة بينهما كالفرق في النظافة بين استنبول وبرلين

أعتقد بأنه لم تعد هناك حاجة لأكثر من هذا القول.

المطبوعات في بكين

ولنتكلم الآن عن مطبوعات بكين، إن أكبر المطابع هنا هي المطبعة الإسلامية، وأوسع الصحف انتشاراً هي صحيفة "اي ـ قوباو " التي يديرها محمد صالح أفندي، وللجريدة أربعة عشر ألف مشترك، والاسم الصيني لمحمد صالح هو تين ـ باو ـ تين

إن هذا الرجل لا يعرف لغة أخرى غير الصينية، إنه يعرف بعض الكلمات العربية ولكن ليس بالقدر الذي يقرأ ويفهم أو يتكلم فيفهم غيره، فكل المعلومات التي لديه حصل عليها بدراسته باللغة الصينية. ويرجع العدد الكبير لمشتركي هذه الجريدة إلى السياسة التي يتبعها وهي «الصين للصينيين»، ونادراً ما يستقي الأخبار والمعلومات من الصحف الأوربية.

وهناك أربع أو خمس صحف أخرى، إحداها تتبع سياسة موالية للروس، وأخرى موالية للإنجليز وثالثة لليابانيين. إن الصحيفة التي تتبع سياسة موالية للروس تبيع حوالي ألفي نسخة، وصاحب هذه الجريدة شاب أكمل دراسته الجامعية في روسيا.

أما صاحب الجريدة الموالية لليابان فهو ياباني. إن الظروف متاحة لأن تكتب الصحف عن كل شيء، إلا أن محرريها ليست لهم أفكار حرة. وكنت أطالع المقالات الرئيسية بعد ترجمتها من قبل غايبويف، وواضح منها أن كل محرر يعطي رأياً موافقاً للسياسة التي يتبعها. إلا أن جميع الصحفيين كانوا على قلب رجل واحد في قضية الأفيون. وعندما كنت في بكين كان الموضوع الوحيد الذي يشغل أعمدة كل الصحف هو الدفاع عن التدابير التي اتخذتها الحكومة للقضاء على ظاهرة الإدمان على الأفيون.

الأفيون

الإدمان على الأفيون في الصين افة كبرى، فكل السكان كبارهم وصغارهم ابتلوا باستعماله، وقد حول الأفيون بلاد الصين إلى خراب، فهز كيانها، وانتشر الفساد بين الرجال والنساء بسببه. أما الحكومة فقد رأت أن الخلاص من هذه المصيبة هو في قطع دابر الأفيون، فعمدت إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لتحقيق هذا الغرض.

رأت الحكومة بأن القضاء على الأفيون دفعة واحدة قد يؤدي إلى وقوع فتنة كبرى في البلاد لذلك فضلت إزالته تدريجيا. في البداية أمرت موظفي الدولة باجتناب استعمال الأفيون بصورة قطعية، وإذا ثبت تعاطي أحد الموظفين للأفيون ثلاث مرات في العام كفت يده عن العمل مدة ستة أشهر، فإذا تأكد إقلاعه عن الإدمان أعيد إلى العمل، ولكن بشرط ألا يعود لتعاطيه أبدا. وإذا ثبت تعاطيه ثلاث مرات أخرى خلال عام واحد،

طرد من الوظيفة نهائيا، ولا يعود إلى العمل في أي شكل من الأشكال. أما بالنسبة للمواطنين فخطط لأن يتم القضاء على زراعة الأفيون نهائيا خلال عشر سنوات. كما عقدت اتفاقيات مع الدول الأجنبية وخاصة مع إنجلترا لمنع إدخال الأفيون من الخارج، لأن الهند هي المورد الرئيسي لكميات كبيرة منه.

وبهذه الوسيلة سيتم إيقاف تعاطي الأفيون في الصين كليا، لقد وضع أمر الإمبراطور في هذا الصدد موضع التنفيذ عندما كنت في بكين. في بداية الأمر سقط كل الموظفين في الاختبار وبدأت الولايات تحتاج لأعداد كبيرة من الموظفين لسد العجز، كما أصيبت بعض الدوائر في الأقضية والمحافظات بالشلل، وكانت الصحف تكتب بإسهاب في هذا الموضوع.

ومن ناحية المبدأ فان الصحف متفقة على ضرورة القضاء على الأفيون نهائيا، إلا أنها تختلف في الوسائل، والمناقشات مستمرة على أعمدة الصحف اليومية.

وتؤيد صحيفة «كورمن كومباو» التدابير التي أعلنت عنها الحكومة لإصلاح الموظفين، وإن هذه الصحيفة معروفة بتأييدها للحكومة، أما صحيفة «اي ـ كوـ باو» فتوجه بعض الانتقادات لتدابير الحكومة.

قصر بكين

إن قصر بكين محاط بسور عظيم له أربعة عشر باباً، ولقد تجولت في كل أنحاء القصر، وشاهدت الأقسام الخاصة بالموظفين، ومما أثار اهتمامي هو أنقاض قصر الإمبراطور السابق الذي أحرقه الأوربيون، إنه الآن أرض خالية، فقد قام جنود وضباط الدول الكبرى المتمدنة قاموا بنهب كل محتويات القصر من مجوهرات وغيرها، ثم أضرموا فيه النار.

ومكان الحريق أصبح حاليا حديقة مساحتها بقدر مساحة ميدان السلطان أحمد في استنبول.

وقد أقاموا في الجوانب الأربعة لمكان الحريق أربعة لوحات حجرية وكتب عليها باللغة الصينية:

«في عام ١٩٠٠ جاءت جيوش دول أوربا، وقتلت الآلاف من أبناء وطننا. استغلوا غفلتنا فسووا بالأرض قصر إمبراطوريتنا الذي يرجع تاريخه إلى ما قبل ستة الاف عام، فمزقوا بذلك قلوب الأمة، ولنا الفخر في التضحية بالقصر والعائلة في سبيل بقاء الأمة، فالقصر يزول والعائلة تزول، إلا أن أمة تعدادها أربعمائة مليون لا يمكن أن تزول».

وفي داخل القصر اثار وأبنية قديمة جديرة بالمشاهدة، وعند الدخول من الباب الرئيسي تجد العديد من المباني الخاصة بالمراسم، وفي كل بناية صور ضخمة، وموزاييك، ولكنني لم أكن أملك المعلومات الكافية التي تساعدني على تقدير قيمة ما شاهدت، لذلك فإنني لن أكتب عنها شيئا، وكان هدفي الأساسي من دخول القصر هو مشاهدة جسد الإمبراطورة التي توفيت في تشرين الثاني من عام ١٩٠٨ ولم تدفن بعد، ونحن في شهر تموز عام ١٩٠٩، والإمبراطور توفي في نفس الوقت إلا أنه دفن قبل قدومي إلى بكين بشهر واحد.

وتم لي ما أردت بواسطة الكونت تورختو، وكان ما رايته من البذل باسم الدين على جسد تلك المسكينة، ما أن لو صرف على بلدية بكين لأمكن إصلاح عدد من الشوارع، لكن الله أعمى بصائرهم، فصرفوا هذه النعم التي أنعم الله بها على عباده في أمور لا طائل منها، انه عجيب حقا، فقلت في نفسي (سول لهم الشيطان أعمالهم).

ثم فكرت مرة أخرى وحمدت الله على أن هدانا للإسلام، فان المسلم إذا مات لفوه بقماش ثلاث مرات وعجلوا في دفنه، ودعوا له بالرحمة.

(اعتذار: - وجدت صورا كثيرة عن قصر الصين ومراسم الجنائز والمناظر الداخلية والخارجية والمناطق الهامة من مدينة بكين، إلا أنني لم أكن أملك قيمة هذه الصور، لذلك فلن أتمكن من عرضها، وفي الأصل إن الصور لا أهمية كبيرة لها بالنسبة لنا نحن المسلمين).

وفي أيامنا هذه لا تشاهد العظمة والأبهة في قصر بكين، حيث أن الإمبراطور طفل في الرابعة من العمر، يحكم أبوه البلاد نيابة عنه.

ووراثة العرش في الصين ليست من الآباء إلى الأبناء كما هو الحال في أوربا ولا تنتقل إلى كبير العائلة كما هو الحال عندنا ولكن إلى بطن أدنى. ووالد الطفل يقوم بمهمة «الماندرين» بين العائلة المالكة. لم أتمكن من الحصول على معلومات أكثر عن القصر الصيني. والواقع إن القصر لم تعد له تلك الأهمية التي كانت في السابق: لقد كانت له القداسة، وكان الداخلون إليه يسجدون عند الباب، ويخطون عدة خطوات ويسجدون مرة أخرى وهكذا عند كل باب إلى أن يصلوا إلى حضرة الإمبراطور، ولا يستقبلهم إلا بهذه الطريقة، حتى أن السفراء الأجانب استنكروا عدة مرات، فألغيت هذه العادة فترة من الزمان، ثم أجبروهم على قبولها مرة أخرى. إلا أن السفراء اتفقوا بعد حرب ١٩٠٠ أن يرفضوا هذه الطريقة فأعيد الاستثناء، ولكن لا يزال الأمر سارياً بالنسبة للآخرين، فصارت هذه العادة طبيعية لدى الصينيين. وهناك عدة أبواب يعتبرونها مقدسة فيسجدون كلما مروا عليها. وقد امتنعت من التوغل في داخل القصر لهذا السبب، أما الأقسام التي رأيتها فتعتبر خارجية بعض الشيء.

المدرسة العثمانية في بكين

سبق أن أرسلت المشيخة الإسلامية في استنبول السيد علي رضا أفندي الداغستاني إلى الصين، فافتتح مدرسة في بكين، وعلم أكثر من مائة من أبناء المسلمين، وكان معه رجل اسمه حافظ حسن أفندي و لكنهما بعد

أن قاما بالتدريس مدة عام تركا البلاد، وعاد حافظ حسن أفندي إلى استنبول بينما توجه علي رضا أفندي إلى مدينة خانكاو جنوبي الصين. إن المدرسة لا تزال تبكي على فراق هذين المعلمين، لأنهما خلال هذه السنة قاما بخدمات جليلة، ولا يزال القائمون على إدارة المدرسة يذكرونهما بخير. المدرسة لا تزال موجودة، والطلاب يدرسون، إلا أن التعليم باللغة الصينية فقط. وهناك معلم للغة العربية لكن وجوده مثل عدمه.

وفي مساجد خدمات علي رضا أفندي على التعليم في المدرسة، بل خدم أيضا شخصية تركيا المعنوية، فكانت الخطبة تقرأ في جامع بكين باسم الخليفة. وفي السابق قل أن تجد مسلما يعرف اسم الخليفة. أما الآن المسلمون يصغون إلى الخطبة التي تقرأ باسمه كل يوم جمعة ويذكرونه بالخير والمحبة.. وفي مساجد بعض القرى في أطراف بكين يذكرون اسم السلطان محمد خان. لقد مرت مئات السنين لم يكن المسلمون فيها يذكرون اسم إمام الزمان، فقام علي رضا أفندي بإحياء هذه السنة.

لم أتمكن من اللقاء بعلي رضا أفندي، ولا أعرفه، ومع ذلك فقد انزعجت لتركه مركزاً مهما مثل بكين أشد الانزعاج و قد عاد علي رضا أفندي إلى بكين و يقوم بعمله و لله الحمد.

وكان المفتي عبد الرحمن يتردد علي فيتحدث عن احتياجات المدرسة المادية والمعنوية، فكنت أتأثر غاية التأثر وينفطر قلبي لما سمعت.

كنت أتجول في أطراف بكين، أخرج في الصباح فلا أعود إلا في المساء، وذات يوم اصطحبت أحد الطلاب في زيارة معبد مجوسي قرب نوجه، بعد أن سمعت من مسلمي الصين كثيرا من المبالغات عن هذا المعبد، وعندما وصلته، التقيت بأحد الناس أمام الباب، وسألت عما إذا كان بإمكاني مشاهدة المعبد، فأسرع إلى الداخل وأخبر المسئول، فخرج إلى الباب واستقبلنا.

والمنظر الخارجي للمعبد يوحي بأنه موغل في القدم. تجولت في أرجائه، ووجدت بعضا من أجزائه مغلقا ولم يرغبوا أن يفتحوا لنا بسبب ديني، كما إني لم أطلب منهم ذلك، وقد رأيت في داجان مثل هذا من قبل. دعانا اللاما لتناول الشاي، فقبلت دعوته دون أن أفكر في أي أمر أطرحه خارج حدود اللياقة.

ولم يكن هدفي الشاي بل الجلوس إلى اللاما والاستفسار عن بعض الأمور. سألته:

- هل لك أن تعطيني شيئا عن تاريخ بناء هذا المعبد؟

- بني في العام الذي قدم فيه السفير العربي، قبل ألف وثلاثمائة عام.

- قلت: السفير العربي؟

- حدث شهير في التاريخ الصيني. قدم عندنا من بلاد العرب سفير اسمه «وانقص». جاء إلى مدينة تونكين، فأقام فيها مدة، وأحد مرافقيه مدفون هناك. ويروى أن خاقان (ملك) الصين استقبل ذلك السفير وأبدى رغبته في اعتناق الإسلام.، ولكن ظهرت في تلك الفترة فتنة منعت الملك من تحقيق هذا الأمل.

وردت هذه الرواية في كتاب «واك - داي -يو» للمؤرخ الصيني شيكلي. ويعتبر تاريخ شيكلي من أوثق التواريخ في الصين. ولـ «جيك - جاك-تاشو» رواية بهذا المعنى.

- نعم، يحتمل ذلك، ولكن هناك في أوربا تواريخ مضبوطة، والمؤرخون ليذكرون شيئا عن هذا الموضوع. والتواريخ العربية لا تذكر شيئا عن إرسال سفير إلى الصين، مع أن كل الذين كانوا سفراء إلى الخارج في العهد النبوي مذكورون بالتفصيل، وبشكل مضبوط، ولا تذكر هذه التواريخ أي شيء عن إرسال سفير إلى الصين، وعليه فان مثل هذه المعلومات غير معتبرة عندنا.

- الحق معك. الأوربيون يظنون أن كل ما عملوه هو الصحيح. ولكننا نعلم بأن الصينيين لا يتفقون على كذب، خاصة وأن مثل هذه الأمور لا تدخل فيها المصالح السياسية، فهل هناك مصلحة تجبرهم على الاختلاق؟

وطوفان نوح مذكور في التواريخ الأوربية، لكن تواريخنا لم تـذكر شـيئا عن هذا الطوفان، ولذلك فنحن نقول بعدم حدوث هذا الطوفان، غير أننا لا نقدر أن نقول بأن تواريخكم تكذب.

ولم أجد ضرورة في لمزيد من النقاش في هذا الموضوع، فسألته:

- مارأيك في مستقبل المذهب البوذي؟

- المذهب البوذي قدم الينا من الهند. وإن استمراره مرتبط بالتيبت، فـإذا سقطت التيبت، فلا يلبث المذهب البوذي أن يزول، خاصة وان النصرانية التي يسمونها الحضارة الحديثة هزت المذهب البوذي من أساسه، لأنهـم يملكون قوتين: المال والسيف، وبهاتين القوتين يمكنهم أن يهدموا التيبت شيئا فشيئا، ثم تزول الصين من تلقاء نفسها.

وعلى هذه الحال شربنا الشاي داخل المعبد وتحادثنا، ثم ودعنـا اللامـا وغادرنا المكان، قال الطالـب الـذي كـان يتـرجم «كيـف شـربت شـاي المجوس، إنهم مشركون، نجس...».

إنها مصيبة وقعت على رأسي مثل الصاعقة. إنهم يستدلون بآيـة ﴿إنمـا المشركون نجس﴾ في رفض أي شيء يقدمه المجوس، فلا يأكلون معهـم ولا يشربون. لاحظوا، في هذه الدنيا هذا النوع من المسلمين!

جهل شديد في مسلمي الصين من جهة، وصلابة شديدة فيما يعتقدون من جهة أخرى، إنه شيء عجيب حقا. كنت في طريقـي الى بكـين، وفي احدى المحطات أردت شراء بيض، فأسرع إلي صيني لا أعرفـه وقـال" مية! ميو! كافر أراد أن يقول: «لا يجوز لـك أن تأخـذ بيـضا مـن كـافر» وأخذ النقود من يدي وجاء من المدينة ببيض من المسلمين كنـت أرى أن

لاشيء في بيض وشاي المجوس، لكني رأيت عليهم بعض الأحوال جعلتني اخذ الحيطة والحذر. كنت أفكر، أيعقل هذا النوع من التعصب؟ ولكنني بعد أن تأكدت من أحوال المجوس، قلت: إن المسلمين على حق، وكدت أصرخ من أعماق قلبي:عاش التعصب، لأن العناد والتعصب بلغ في المجوس مبلغا، بحيث كانوا يغتسلون إذا مروا بظل مسلم. وبشكل عام فان الشعب الصيني حاد المزاج، سريع الغضب، يخرج عن طوره لأبسط الأسباب، وقد تؤدي الأمور البسيطة بهم إلى الاقتتال.

المناخ في بكين

ليست خبيرا بالأنواء، ولكنني أظن بأن جو بكين معتدل جدا حيث ترتفع درجة الحرارة وتصل ما بين ٣٥ ـ ٤٠ درجة، ويهطل المطر أحيانا. ولم يذكر لي أحد بوجود مرض وبائي في هذه المدينة. سألت، فقالوا بأنه ليس في بكين شيء من هذا القبيل.

وفي أطراف المدينة توجد الأشجار والبساتين، وفيها أنواع كثيرة من الثمار إلا أن ثمارها ليست لذيذة نسبيا، فالفواكه في بخارى ألذ منها، كما أن في اسطنبول كثير من الفواكه الطيبة اللذيذة، وفي تركستان الصينية نوع من التفاح غير مألوف، وهو من الغرائب حقا. وقد تتحد الفواكه في النوع ولكن تختلف في الطعم والمذاق، وفي الصين لا تكاد تجد فواكه لذيذة، وفي اليابان أزهار كثيرة ولكن لا رائحة لها. فغرائب الطبيعة هذه أمر عجيب حقا.

ولا تجد في بكين مياه عذبة، والمياه الطبيعية نادرة.كما لا تجد حول المدينة ولا في داخلها منتزهات جميلة، والمكان الوحيد للتنزه هو سطح السور، ولا ترى عليه إلا الأجانب. وإذا توالى نزول المطر صار المشي في الأزقة والشوارع متعذرا وعندها تجد الناس يمشون فوق السور.

وللصينيين أماكن خاصة تسمى بالمسارح، ولا يكاد المرء يجد فيها شيئا يشبه المسرح، بل هناك بعض المعازف، وبعض البنات يرقصن حول المنضدة، ويغنين. والأماكن في هذه المسارح ليست بالمستوى الذي يمكن فيه للمرء أن يجلس بملابس نظيفة.

الأجانب في بكين

إن عدد الأجانب في بكين ليس بكثير، بل يمكننا أن نقول بأنها تكاد تخلو من الأجانب. وهناك شارع خاص بالأجانب، وفيه سفارات الدول الكبرى، وثلاثة بنوك، ومتجران، وصيدلية. كما أن في بكين مكتبان للبريد الأجنبي: واحد للروس وآخر لليابانيين. كما أن فيها فندق وديران. وفي شوارع أخرى يوجد عدد من المتاجر الأجنبية ولكن المهم منها لا يزيد عن عشرة.

كما أن هناك عدد من التجار يترددون على المدينة، وعدد قليل من المسرحيين، ويكثر تردد اللاعبين على الخيول، رأيتهم في موقعين بالمدينة.

وإذا أردنا أن نعتبر اليابانيين من الأجانب فهم كثر في هذه المدينة، وهم يشكلون القسم الأعظم من التجار، ولهم عدد من الفنادق الخاصة بهم وعدد من المضافات والمطابخ والبنوك.

أما الأعمال التي يمكن أن يمارسها الأجانب فهي قليلة ليس في بكين وحدها بل في عموم بلاد الصين، لأن أي صيني لا يرضى أن يغير زيه الوطني، وإن أقمشة هذا الزي محلية، وكل ما يستعمله الصينيون هو من الصناعات المحلية فلا يكادون يحتاجون للاستيراد من الخارج، ولا يستطيع أحد منافسة الصينيين في منتوجاتهم المحلية لأنها سهلة جدا،

كما أن أي صيني لا يرغب في البضاعة الأجنبية، فالشعب الصيني أكثر تعصبا لقوميته من الشعب الياباني.

ولا أقول بأنه لا يستورد أي شيء من الخارج، فهناك كثير من البضائع مستوردة من الخارج ولكنها ليست من السلع الأساسية، فتستورد أنواع المسكرات والكبريت والورق والسكر، وكلها ليست من الحاجات الضرورية.

وأظن إن هذا، هو السبب في وجود عدد محدود من الأجانب. وذكرت سابقا بأن كثرة الهنود أمر ملفت للنظر، ولكن وجود هؤلاء هو من مقتضيات المصالح السياسية الإنجليزية. ولا يبدو الهنود بأنهم كثر إلا لأن الأجانب الآخرين قلة قليلة، ومع ذلك فلا يعتبر الهنود شيئا إذا قسنا بعدد الأجانب في اسطنبول وفي مصر وسورية. ولذلك فان تأثير الأجانب في بكين لا يكون إلا بنسبة وجودهم فيها.

مهمتي في بكين

أشرت سابقاً إلى المهمة التي أزمع القيام بها في بكين، وأنا الآن بصدد القيام بهذه المهمة، وتكاد تكون كل امالي محصورة في هذا الهدف. إن علي في بداية الأمر تخير الوسائل المناسبة لإيصال ما أريده، علماً إني كنت أحس بأن الصينيين يكنون العداوة لليابانيين. لقد أعلنوا مقاطعة البضائع اليابانية في كل أنحاء البلاد، فكيف يمكنني أن أشرح أهدافي في مثل هذه الظروف، ولمن أوجه كلامي. أمضيت أسابيع في البحث عن حلول لهذه المشاكل.على كل حال، استطعت بعد جهد جهيد في إيجاد بعض الحلول عن طريق أئمة المساجد الذين كنت أظن فيهم الجاهلية. ثم نشرت مقالا في صحيفة «اي ـ قو ـ باو» وهي أشهر الصحف الصادرة في

بكين، تحت عنوان «الشرق من أجل الشرقيين». وكان له تأثير كبير جدا. وأعرض على القراء الكرام خلاصة للمقال:

الشرق للشرقيين

إنه لأمر بديهي أن كل مخلوق يقوم في المكان الذي يأوي إليه بتغذية نفسه وأسرته، وهذا قانون طبعي زرع في جبلة الإنسان والحيوان على حد سواء. والشريف من الجنس البشري يسعى على رزق نفسه وأسرته في محل إقامته، ولا تجد شريفا يعتدي على منزل جاره. ويتفق العلماء والقانونيون في العالم كله، بأن على كل إنسان أن يسعى إلى تربية أسرته في منزله، وألا يعتدي على حقوق وأعراض وشرف غيره، وإذا امتدت يده إلى مال غيره، أو تجاوز حدوده في ليل أو نهار فان القانون الذي يعترف به البشر جميعا، يحكم على ذلك الرجل بالسرقة و اللصوصية، ويحدد له عقابا.

هذا القانون، قانون العدالة، إنما هو دستور، لا يمكن أن يتغير في أي زمن من الأزمان. وإذا كان هناك قانون اتفق عليه علماء الدنيا، فهو هذا القانون. فاللص لص في كل زمان.

وإذا نظر الإنسان إلى من حوله فانه يحتار في أمر ما يراه، إن الشرق الذي هو بيتنا، تعرض لهجمات الأوربيين. لقد هاجم اللصوص بيتنا، فهم ينهبون خيراتنا في غفلة منا. إنهم يصرفون على أنفسهم وسفههم من خيرات بلادنا منذ مئات السنين، ولم يتركوا في بلادهم شيئا مما يضر ولا ينفع إلا وجاءوا به إلينا. واستغلوا ضعفنا وجهلنا في إجبارنا على قبولها، وأخذوا مقابل ذلك أموالنا ومحاصيلنا. فإذا رفضنا جاءوا بالجيوش والمدافع، ودمروا كل ما صادفوه في طريقهم وقتلوا مئات الآلاف منا، وطالبوا بعد ذلك بتعويضات الحرب. إنهم يكلفوننا بديون لا طاقة لنا

بها، وكأننا نحن الذين أشعلنا تلك الحروب، ينهبون بلادنا، ويأخذون كل ما نملك إلى بلادهم، ولا يتركون المجال لنا لكسب قوتنا في أرضنا. إنهم يسومون الشعوب الآسيوية العذاب منذ مئات السنين، ليضطروهم على الوقوع في أسرهم إلى يوم القيامة.

لننظر اليوم إلى الهند والى تركستان، ولنفكر في مستقبل عموم الشرق فسنكون على يقين بأن أهل الشرق سيصيرون يوما ما أسرى لأمم الغرب، وسنعيش كي نؤمن لهم راحتهم وسفههم. لقد ابتلع الروس بلاد تركستان، وهم في طريقهم إلى ابتلاع منغوليا، ووضعوا تركستان الصينية نصب أعينهم، وسيحتل الإنجليز التيبت، وستكون تونكين ملكا للفرنسيين. كل ذلك قسموه على الخريطة. قسموا الشرق الأدنى وإيران. إنهم سيطبقون هذا التقسيم النظري عمليا، وينتظرون الفرصة السانحة لذلك.

ان الأهداف السياسية للغرب تتلخص في ضمان حياتهم بموت الأمم الشرقية. في بداية الأمر يتسترون بقناع العدل في كل بلد، ليخدعونا، ولكنهم ما أن يصلوا إلى ما يريدون حتى ينسوا العدل، ويقضوا على معاني الإنسانية. وحادثة بلاغوويشيسكي التي وقعت عام ١٩٠٠ ليست ببعيدة. لقد ألقوا بالصينيين في نهر امور وساقوا الأطفال والصبايا والنساء لحوامل والمرضعات في النهر، حتى تحول النهر إلى جسر بشري طوله ثلاثة كيلومترات. لقد رأينا ذلك بأم أعيننا وسنرى مثله، وأكثر منه وحشية، وان لم نره نحن فسيراه أبناؤنا. علينا أن نعرف ذلك يقينا، ونفكر في حماية أنفسنا ضد هذه المصائب، وسيأتي يوم يقضون فيه على العرق الأصفر قضاء مبرما. إنهم أعدوا الخطة اللازمة لتحقيق مثل هذا الهدف.إن كل من يملك شيئا من العقل والتفكير يرى ذلك رأي العين.وعليه فانه لابد لنا نحن أمم الشرق من حماية أنفسنا وحياتنا، ولا

ننتظر الرحمة من الغرب، فلن يرحم الشرقيين إلا الشرقيين أنفسهم، كما أن الوسائل إلى جلب مصالحنا سنسعى إليها بأنفسنا. بل إننا نحن الذين يملكون الحل، والأعداء يتخذون نفس الوسيلة، إنها وسيلة الاتحاد والتضامن. إنهم يتحدون على محاربتنا ويكونون على قلب رجل واحد حيال أية مشكلة تظهر في الشرق. ولا بد لنا في أسوأ الأحوال أن نتحد في حماية مصالحنا المشروعة. التضامن هي الوسيلة إلى حماية أنفسنا، ولا وسيلة غيرها فحياة الشرقيين تكون بتضامنهم واتحادهم.

وأمة اليابان التي طلعت من الشرق، كانت قبل خمسين عاما مجزأة إلى أكثر من ثلاثمائة إمارة، وكانت مهددة من قبل الكوريين ولكنهم عندما تضامنوا وتوحدوا هزموا روسيا التي تعتبر من أكبر دول العالم، وضمنوا لأنفسهم مواقع في كوريا و منشوريا وخلصوا بلادهم من تسلط الأجانب لسنوات طويلة. تحقق ذلك بفضل التضامن بين أفراد أمة صغيرة. فاليابانيون أصغر أمم الشرق كما أن بلادهم هي أصغر بلاد الشرق.

وأهمية اتحاد الشرق لا تقتصر على الشرق وحده بل على الغرب أيضا، لأن الغرب إذا استمر في اعتداءاته، فسيأتي يوم يتحرك فيه الشرق بمجموعه، وستكون النتيجة أوخم عاقبة من أحداث «الصليب الأحمر» لذلك فان اتحاد الشرق يضمن حياة الغرب أيضا. لأنه لا يترك المجال لاعتداءات الغرب.

والمستقبل كفيل بإعداد قوانين وبرامج اتحاد الشرق.

مثل هذه المقالة نشرت في جريدة «اي ـ قو ـ باو» في عددها الصادر بتاريخ الثاني عشر من تموز يوليو. وعرضت على القراء الكرام ملخصا اختصاراً لصحفات هذا الكتاب. وإن برامج الاتحاد نشر بتمامه.، ولم يقتصر تأثير المقال على الصينيين وحدهم، بل تناقلته وكالات الأنباء حتى وصل إلى المحافل الأوربية.

وهذا هو نص البرقية التي أرسلت من بكين إلى طوكيو باللغة الصينية: يزور بكين هذه الأيام إبراهيم وهو من أنصار الحرية في روسيا، وقد نشر اليوم مقالا في جريدة اي ـ قو ـ باو دعا فيه إلى اتحاد أمم الشرق، وقد انزعج السفير الروسي من هذا المقال انزعاجا شديدا، وأبلغ بترسبورغ بذلك.

وقد نشرت صحف طوكيو كلها نص هذه البرقية، ووصلتني في اليوم التالي برقية أرسلت من طوكيو حذروني فيها من ملاحقات قد أتعرض لها.

ولكنني ولله الحمد لم أفتر عن القيام بواجبي، فتجولت في كل مكان وقمت بإعطاء دروس خصوصية مدة إقامتي في بكين.

المسلمون الهنود في بكين

في أحد الأيام وعندما كنت مقيما في مدرسة نوجه ببكين، وكان يوم جمعة، والى جانبي عدد من الطلبة، إذ دخل علينا رجل يلبس الزي الإفرنجي. وبعد السلام سأل قائلاً: " هل فيكم من يعلم لغة العرب؟" نظرت إليه، انه رجل عادي، والى جانبه خادم صيني. وبعد التعارف نشأت بيننا صداقة، عرفت أنه كان من أهل العلم، وأنه ترك مسلكه و إشتغل في التجارة، واسمه محمد حنيف. وبعد حديث قصير توجهنا معا لأداء صلاة الجمعة.

وعادة الطلاب في مساجد الصين أنهم يتحلقون ليقرأوا معا سورة الكهف وكانوا يقرأون هذه السورة عندما دخلنا عليهم، وهذه أول مرة يدخل فيها السيد محمد حنيف مسجدا صينيا. استمع قليلا لما كانوا يقرأون ثم سأل:

-ناشدتك الله أن تقول لي ماذا يقرأ هؤلاء؟

قلت: سورة الكهف.

قال: لا، لا، أنا أحفظ سورة الكهف غيبا، ولكنني لم أفهم مما يقرأون كلمة واحدة... ولم نر فائدة من إطالة الكلام، واخترنا السكوت.
وبعد أداء الصلاة عاد السيد محمد حنيف إلى حجرتنا، وصار يتحدث معنفا: قل لي أي خطبة هذه؟ وأي سورة كهف هذه؟ وأي قراءة هذه؟ نعوذ بالله، لماذا أنت موجود هنا، وكيف ترى ما ترى وتصبر عليه؟
سكت قليلا ثم قلت: من تظنني يا أخي، إنني ضيف غريب مثلك، وماذا بوسع الغريب أن يفعل؟ على كل حال فإننا نحن المسلمين نبتعد شيئا فشيئا عن الإسلام ولكننا لا نرى أخطاءنا ونهاجم إخواننا على أخطائهم. حتى قواعد الأمر بالمعروف نجهلها.

لماذا ترتدي هذه الملابس الإفرنجية، وهل في علماء الهند من يرتدي مثل هذه الملابس؟ وبعد هذا الهجوم المضاد أزلنا حاجز التكلف في الخطاب، وصرنا من الأصدقاء الحميمين. وعرفت منه بأن أخاه يعمل رئيسا للمترجمين في السفارة البريطانية في بكين. وقد التقيت به وحصلت على بعض المعلومات. اسمه محمد رفيق وهو يقيم في بكين منذ عشر سنوات، وقد تلقى تعليمه في المدارس الإنجليزية، ويجيد اللغة الصينية، وله خبرة في الأوضاع السياسية العالمية. وقد تعرفنا عن طريقه على كثير من الشخصيات.

الولايات الصينية

إن زيارة الولايات الصينية بكاملها ومشاهدة معالمها تتطلب سنين طويلة، وصرف مئات الآلاف، وإذا أردت الكتابة عنها لاحتجت إلى مجلدات. إن مثل هذه المهمة الكبيرة هي خارج نطاق قدرتي، وإن المعلومات التي حصلت عليها قليلة ومن قبيل الجزئيات، وبقدر ما تسمح به إمكانياتي إلا أن المعلومات والأخبار التي سأقدمها عن أكثر المسلمين

في مختلف الولايات هي عين الحقيقة ولا شك في صحتها. اطلعت على ما كتبه بعض الكتاب الأوربيين عن مسلمي الصين. حتى كتب رو بروفسكي ولاطغين وباتانين وغيرهم من محبي الشرق، لم أجد فيها ما يوافق مشاهداتي. إن أكثر هؤلاء لم يذكروا شيئا عن العناصر التركية في جنوب كوب نور وشرقها، مع أن أكثر أسماء الأراضي والأنهار هناك تركية: قزيل، قوروق داغ، اوشاق دال، شورتوز، شوربولاق، توقسن وغيرها، كلها أسماء تركية، تدل على وجود عناصر تركية منذ قديم الأزمان.

ولكن من الملفت للنظر أن لغة السكان هناك مغولية وأكثرهم من المجوس. وأظن أن هذا لايمنع كون أصلهم من الأتراك، فان اللغة قد تضيع بمرور الزمان وقد ضاعت فعلا، وإن تتار «ليتوه» لا نجد لديهم كلمة واحدة من اللغة التتارية. وأظن أن مثل هؤلاء الأتراك موجودون في جهات خانكاو جنوب الصين، ويحتمل وجودهم أيضا في غرب منشوريا: ففي قرب خانكاو مكان اسمه اوزون بولاق حوتق، ونهر اسمه دال بولاق قزيل، ولا شك أن هذه أسماء تركية. ويجب ألا ننسى أيضا بأن أكثر أسماء المواضع في الخرائط الأوربية هي أسماء محرفة فالنهر الذي ينحدر من يونه ن سي إلى شانحاي يسميه الصينيون ب يانجيان. وأصل الاسم يانجي انغي، بمعنى من اليمين الى اليسار، فالنهر يسير فعلا من اليمين الى اليسار، ثم حرفه الصينيون فصار يانجيان، والمدينة المعروفة ب نان ـ كين التي تقع في نهاية هذا النهر مركبة من كلمتين "نان " وهي كلمة فارسية بمعنى الخبز، والأخرى "كين" وهي تركية بمعنى هجر، وفي شمال هذه المدينة نهر صغير اسمه اق صو. وهناك بحيرة اسمها قربان انغر كل هذه الدلائل تثبت وجود العناصر التركية في هذه المناطق.

وفي منغوليا الجنوبية بدءا من مدينة سينين وفي اتجاه الجنوب وحتى ولاية ايلة ووصالارية ويونه ن سي في ولاية قانصو وشانصي من الجهة الشرقية وحتى صي جوان كلها مسكونة من قبل العناصر التركية وأكثرهم يتكلمون اللغة التركية الخالصة.

ومناطق بايان وجونغي بشكل خاص كلها تركية والمهن التي يمارسها السكان كلها من المهن التركية المعروفة: صناعة طرق النحاس والحدادة وصناعة الأسلحة، وهي من الصناعات المعروفة لديهم منذ القدم.، ومناطق غاجو ولانجو وسوجو من المناطق الغنية، وتجد فيها أكثر البضائع الأجنبية: اليابانية و الإنجليزية والألمانية. وهناك بضائع روسية لكنها قليلة جداً.

هذه الأماكن تعتبر من أواسط بلاد الصين وهي من أكثر البلاد عمرانا، ويعتقد وجود معدن الذهب بكثرة حول بحر الرمال في جاغرين وبارلين وتيتون. وفي عام ١٨٩٩ من الميلاد قام بعض الهواة بالبحث عن الذهب، فجمعوا بأدواتهم البدائية حوالي ٣٦ كيلوغراما من الذهب في ثلاثة شهور، ان هؤلاء العوام من الناس جمعوا الخالص من الذهب فقط، كما أنهم عثروا على قطعة معدنية وزنها ستة كيلوغرامات، فمنعت الحكومة مثل هذا البحث ولم تسمح لأحد للقيام باستخراج المعادن بمثل هذه الطريقة.

ومن المؤكد أن يكون العنصر التركي في الولايات المختلفة داخل الصين منذ قديم الأزمان، بدليل كون كثير من الجبال والسهول والصحارى والأنهار تعرف بأسمائها التركية، مثل هايدق كول وكيوك يوللق كول وترغاوت، وأنهار اوجي والغي، وكوجك يولدز، وتاش قاين، وقوم داغي وقوم دريا وأجيق بولدق وغيرها من الأماكن.

وفي جنوب كوب نور أماكن كثيرة لها أسماء تركية بالرغم من عدم وجود أحد من بين السكان يتكلم اللغة التركية. مثل: بش بولاق، وبورتو والنمش بولاق وقونجي دريا وتورلي، ويسمون هذه المنطقة حاليا ب سينكيانج، وكذلك ايلاك صوي ولاجين والتون طاو وجاسقان، وكل هذه أسماء تركية، وبعض هذه الأماكن من ملحقات التيبت.

وحتى في بلاد «انغوت» أسماء تركية مثل: قاقتي كول وصاري صو وجامغورلي.

وفي كوب نور الجنوبية قوم تولانلت، وهؤلاء القوم موجودون أيضا في ولايات توبولسق وطومسق في سيبيريا، إلا أن أكثر الذين يقيمون في سيبيريا هم من المسلمين. أما المقيمون في تانغوت فهم من أتباع المذهب البوذي.

كنت أفكر في إجراء تحقيقات كثيرة في هذه الأمور، لكن المهمة التي كلفت بها كانت تحول بيني وبين القيام بتحقيقات متعمقة وموسعة، ولذلك فإنني سأكتفي بنقل المعلومات.

إنني لم استطع التجول كثيرا، بل أمضيت معظم أوقاتي في بكين والمناطق المحيطة بها، ومع ذلك فإنني أستطيع أن أقول بأنني أول مسلم تجول داخل الصين وكتب معلومات مباشرة عن أحوال هذه البلاد. إن من بين الأوربيين الكثيرون ممن يدعون أنهم تجولوا في كافة أنحاء الصين شبرا شبراً، ولكنني أؤكد للقراء الكرام بأن الصين ليست من البلدان التي يمكن التجول في كافة أنحائها بسهولة.

إنني روسي، وتجولت داخل روسيا كثيرا. وأؤكد بأن قليلاً من الناس من يعرف داخل روسيا مثلما أعرف، ومع ذلك فان كثيراً من المدن لم أرها، والأمم التي لم أتعرف إليها ليست قليلة. لقد ولدت ونشأت في روسيا التي يبلغ عدد سكانها أكثر من مائة وأربعين مليونا، وتجولت فيها

سنوات طويلة، إذن ما هو مقدار المعلومات التي يمكن الحصول عليها عن بلد يبلغ عدد سكانه أربعمائة مليون، خلال بضعة الشهور أو خلال عام أو عامين؟ وعلى هذا الأساس يمكنني أن أقول للقراء الكرام: مهما تجولت، فان المعلومات التي سأقدمها عن الصين هي محدودة. ولكنني أعود فأقول للمرة الثانية بأنني أول مسلم كان من نصيبه التجول داخل الصين وجمع معلومات تهدف إلى تأليف القلوب.

ولا شك بأن الشباب الذين سيأتون من بعدي يمكنهم أن يتجولوا داخل البلاد الصينية شبرا شبراً، ويكتبوا عنها مؤلفات تتضمن معلومات واسعة وعندها سيكون كتابي في عداد الكتب العتيقة التي توضع على الرفوف. أما الآن فكتابي هو أحدث الكتب، ومن أوائلها.وقد يقال بأن ابن بطوطة تجول عام ٧٣٤ من الهجرة أي قبلي بخمسمائة وتسعين عاما، كما يروى بأن قوام الدين السبتي رحل إلى تلك البلاد، لقد ذكرت تفصيلات كثيرة في رحلة ابن بطوطة ومن الطبيعي أن الرحلة التي قام بها قبل ستة قرون كانت أكبر وأوسع من رحلتي هذه. وسأتحدث هنا قليلا عن رحلة هذا الرجل.

رحل ابن بطوطة من الهند الى الصين ومر بجزيرة جاو ورحل من سومطرة الى طواليس، والآن لا توجد مدينة بهذا الاسم هناك. ولو دققنا في قوله «ملامح رجالها ملامح الأتراك، وملكها ملك الصين»، فيحتمل أن تكون مدينة تونكين، لأنه يقول «ولهم شجاعة ونجدة، حسان الصور، ويعبدون الأوثان، ونساؤهم يركبن الخيل، ويحسن الرماية، ويقاتلن كالرجال».

ومن هناك يتوجه إلى ميناء كيلوكري (ولا يعرف هذا الميناء في الوقت الحاضر) وتدعو ملكة هذه المدينة ابن بطوطة إلى مجلسها وتسأله «حسن

مسن يخشي مسن، خوشميسن، يخشيمسن» (كلام باللغة التركية وتعني جميعا كيف حالك، وهل أنت طيب الحال).

وهذا مطابق لكلام التتار في روسيا. إلا أننا نحن التتار لا نقول حسن بل نقول ايسن. وأظن أن ما قلته هو الصحيح.

ثم أن الملكة طلبت من خادمتها قلما ودواة، فجاءت بهما فكتبت الملكة بسم الله الرحمن الرحيم.

وابن بطوطة يسمي تلك البلاد بطواليس. ومن هناك وحتى أرض الصين، كان الجو مناسبا جدا، فوصل إلى بلاد الصين خلال سبعة عشر يوما، وصادف هناك مصب نهر، «سبر»، وأن هذا النهر ينبع من جبال قرب مدينة «خان بالق».

ثم يقول بأن ملك الصينيين هو تتاري من سلالة جنكيز. وفي كل مدينة في الصين مسلمون ومساجد. وأول مدينة قدم إليها ابن بطوطة في الصين هي مدينة «زيتون» (ولا تجد الآن مدينة بهذا الاسم، وإذا نظرنا إلى ما وصفه في المدينة، فالاحتمال الغالب بأن تلك المدينة هي مدينة شنغهاي) وفي ميناء المدينة ترسو مئات السفن. وأنها من أكبر الموانىء في العالم.

ويلتقي ابن بطوطة بالقاضي المسلم تاج الدين لادويلي، كما يلتقي بشيخ الإسلام كمال الدين الأصفهاني والتاجر شرف الدين التبريزي.

ومن هناك توجه الى «صين الصين» وأنه يقال عن هذه البلاد «صين كلان» وأنه وجد في كل مدينة صينية شيخ للإسلام وقاض ينظر في شؤون المسلمين.

وأخيرا وصل ابن بطوطة رحمه الله إلى أماكن لا مدينة بعدها. وتبقى بينه وبين سد يأجوج و مأجوج مسيرة ستين يوما...

وابن بطوطه رحل بالسفينة سبعة وعشرين يوما حتى وصل إلى مدينة صين كلان. (ولا تجد هناك مدينة بهذا الاسم وإنما توجد «صيجوان») ويذكر هنا مدينتي «بيوم قوطلي» وقنجنفو، ثم يذكر مدينة «خنسا» ويقول: «أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض»، وانه نزل ضيفا على أبناء عثمان بن عفان المصري، وأن فيها كثير من المساجد والعلماء وان شيخ الإسلام اسمه فخر الدين. وأن فيها رجال يتكلمون باللغة التركية العثمانية، وأنه أقام فيها خمسة عشر يوما. وأغلب الاحتمال بأن تلك المدينة هي مدينة نانكين

ويذكر بأنهم ينطقون كلمتي «اتا» و«طوى» وهما كلمتان تركيتان. وأخيراً وصل إلى الأماكن المعروفة بـ قاراقرم وبش بالق. وأسماء هذه الأماكن تركية أيضا، ولا تزال كلمة ياصاق (أي ممنوع) مستعملة هناك. هذا ما أردت ذكره عن رحلة ابن بطوطة عليه رحمة الله، لقد قدم خدمة عظيمة. ويستحق أن نقول بأن خدمته هذه غير عادية ومن الخوارق في زمانه. والأمر الذي أردت الإشارة إليه في رحلة ابن بطوطة هو وجود العناصر التركية حتى في شرقي الصين وأن فيها كثير من العلماء: مغربي وأصفهاني، ومصري وشيرازي وغيرهم.

أما الآن فلا تجد أثرا لمثل هؤلاء، فلا تكاد تجد كلمة تركية واحدة سوى كلمة ياصاق. ومن الطبيعي أن الأتراك موجودون هناك حتى الآن، ويحتمل أنهم تصينوا (تحولوا الى صينيين) لقد ذابوا، والجهل ساعدهم على الذوبان، فلم يبق لهم أثر، إنها أمور كثيرة الحدوث.

انك تجد اليوم في روسيا أناسا من الروس ينتسبون إلى أسرة مقصودوف، أو كاشاييف وينغالجف وغيرها من الأسر، إنها أسر تنصرت قبل ثلاثمائة عام أو أكثر وأصبحت روسية، هناك الاف الأسر التي لا تعرف بأن أجدادها من التتار.

وأعتقد بأن هذا حدث في الصين أيضا، إن فيها كثير من العناصر تركية الأصل، ولكن لا يعرف التركي إلا إذا تكلم باللغة التركية.

ويفهم مما ذكره ابن بطوطة، بأن بين المسلمين الصينيين في تلك العهود كثير من العلماء والقضاة وشيوخ الإسلام. ولا تجد لهذه الألقاب أي اثر في الوقت الحاضر. إنهم لا يعرفون إلا الآخون.

وتجد الآن في الصين كثيرا من الكتب العربية المترجمة إلى اللغة الصينية، ولا بد أن يكون الذين ترجموا هذه الكتب يعرفون العربية جيدا، حتى يترجموا كل هذه الكتب.

ولا تجد الآن باستثناء ولايتين أو ثلاث من يعرف اللغة العربية كثيرا، وفي الجنوب الشرقي لا تجد أحدا، حتى أنك لن تجد فيها من يلبس زيا يليق بالعلماء، وإذا قسنا العلماء الصينيين و الآخون الصينيين، بمسلمي روسيا أو بمسلمي البلدان الأخرى، فإننا قد نجد السلوى إذا وجدنا في بعض الولايات الصينية، من يستحق أن يكون طالبا لمثل هؤلاء المسلمين.

إن الإسلام في جنوب شرقي الصين: في بكين وتنزين وشنغهاي وخانقو إلى قونتون وخونكان وكذلك في منشوريا، بحالة يرثى لها. فإذا بقي الوضع على ما هو عليه، فان المنصرين سيعملون على تنصير هؤلاء المسلمين خلال مدة لا تتجاوز عشرين عاما.

المنصرون في الصين

إنك تشاهد مثل هذه الحشرات في كل ولاية من ولايات الصين. تجدهم في الجبال والتلال والوديان. فإذا وجدوا مكانا خاليا بادروا فعشعشوا فيه. ولا تجد أديرة في أي مكان من العالم مثل الأديرة التي قاموا بإنشائها داخل الصين.، خاصة في ولايات صيجوان ويونه ن سي، حتى إنك كلما قطعت مسافة بسيطة شاهدت ديراً وإن كان مثل بيت

العنكبوت.. إن تركيزهم على هذه المناطق وكثافتهم فيها يرجع إلى محاولتهم منع الإسلام من دخول التيبت.. لأن هذه المناطق المذكورة هي مدخل بلاد التيبت. ويحاولون بشتى الوسائل منع المسلمين من دخول التيبت، وكنت سمعت من الرحالة الشهير لاطيغين بأنهم قد يسعون إلى قتلي. وشاهدت بأم عيني بعض الوقائع التي تؤيد ما سمعته. والمعروف بأن هذه الحشرات أينما وجدت تسعى دائما إلى معاداة الإسلام.

وباعتبار النتيجة فان الأعشاش التي بناها ويبنيها هؤلاء المنصرون مثل بيوت العنكبوت تماما، وسيأتي يوم يزيل فيه الصينيون كل هذه البيوت، وستجري دماء بشرية أنهارا، ومع ذلك فسوف لن يتوانوا عن إزالتها. ولا حل الا بما قلت. والواقع فان المنصرين ليسوا دعاة دين أو خدام للنصرانية، ليسوا الا دعاة فتنة تحت ستار الدين. أقولها بشكل أوضح: أنهم يسعون إلى تهيئة الأجواء لحروب صليبية جديدة.

وحضارة القرن العشرين من العوامل التي تساعد على تلك الحروب، ذلك بأن أكثر الناس في هذا العالم يسخرون علومهم وسياساتهم ودبلوماسيتهم للاصطياد في الماء العكر. والواقع إن ملايين الناس يمارسون الحماقة من أجل حياة حفنة قليلة من البشر.

طبائع الصينيين

طبيعة الصينيين وعاداتهم واحدة مسلمهم و مجوسيهم ويكادون يكونون ملة واحدة، ومهما اختلفوا في الدين فلا يمكن التفريق بينهم في المظهر أبدا.

عدد المسلمين في الصين يبلغ ثمانين مليونا، ومع ذلك فلا يمكن التمييز بينهم وبين المجوس في العادات والأخلاق وأصول المعاشرة، الا في كاشغر ودونكان ونارنجه والتي شهر فهؤلاء أتراك يتواجدون في

تركستان الصينية، ولايتجاوز عددهم اثني عشر مليونا أما الباقي فقد ذابوا بين الصينيين وانتهى أمرهم. وحتى الذين يتكلمون اللغة التركية، تغلب عليهم العادات الصينية المجوسية. وكذلك الذين يوجدون في منشوريا أصبحوا صينيين، ولا يمكن التمييز بينهم، لقد ذابوا تماما.

والشخصية الصينية متكاملة، وفي رأيي إن العصبية القومية عندهم تغلب على كل عصبية، هذه هي طبيعتهم. فتطويل الشعر، والزي، وتطويل الأظافر كل ذلك أصبح طبعا لهم. هل تجد من السفراء الصينيين في أوربا من بدل زيه؟ أبدا. بل إنهم يفخرون بلباسهم الوطني (أما الأتراك العثمانيون فإنهم يخجلون من طرابيشهم في أوربا ويبادرون إلى لبس القبعات). إن الصيني يصرخ في كل مكان بأنه صيني، وان الاعتزاز القومي عند الصينيين يستحق الإعجاب، لدرجة أنهم حينما أسلموا ضحوا ببعض الأحكام الإسلامية في سبيل حميتهم الجاهلية. فتصغير الأقدام لدى النساء يحول دون أداء أهم ركن من أركان الإسلام، وقد عرفوا ذلك لكنهم ضحوا به تمسكا بالحمية الجاهلية. إن مثل هذه المرأة لا تستطيع أداء الصلاة بتلك الأقدام (ولعلها لا تستطيع القيام). هناك عادات مجوسية أخرى أبقوها حتى بعد إسلامهم.

ومع ذلك فإنني لا أنكر وجود بعض الاعتزاز والتمسك بالدين عندهم. فقد يضحون بأرواحهم في سبيل الدين إذا اقتضى الأمر، وقد يضحون بأموالهم أيضا. وعلمت بوقوع حوادث كثيرة من هذا القبيل، ووقوع حروب قد تدوم أعواما. وأن حوادث متفرقة تتكرر كل عام سببها الحمية الدينية.

والثورة التي قام بها الصالاربه والدونكان في أعوام ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦ كانت دفاعا عن الدين، حيث قام المجوس بإحراق مئات المساجد

والجوامع، فكان دفاع المسلمين عن مقدساتهم جديرا بالفخر والتقدير، وهذا من بشائر المستقبل السياسي للمسلمين الصينيين.

كنت أتجول في أطراف بكين ثم أعود إليها. لأن المراسلة مع اليابانيين ومع أهلي لا تتم الا من بكين. وخلال مكوثي في هذه المدينة بذلت جهدي في التعرف على أشراف البلد وكبار الشخصيات، كما التقيت ببعض أركان السفارات الأجنبية، وحاولت استطلاع أفكارهم.

وذات يوم التقيت بأميرألاي (عميد) عسكري معين في السفارة الروسية، وجرت بيننا أحاديث كثيرة، وأعرض رأي هذا الرجل في السطور التالية:

مستقبل الصين

إذا لم تضع أوربا العراقيل في وجه الصين، فان مستقبلها ذو شأن عظيم بالنسبة لنا. إنهم يعملون بكل جد ونشاط. إنهم يستطيعون تأمين كافة أنواع المعدات الحربية خلال وقت قصير إذا تطلب الأمر ذلك، لأن الصين تملك المال. وبالرغم من مديونيتها الحالية فان مكانة الصينيين كبيرة لدى الأوساط المالية في أوربا وفي إمكانهم الاقتراض لأي مبلغ يريدونه عند اللزوم، ولكنهم يمتنعون حاليا عن الاقتراض من الخارج، ويكتفون بالاقتراض الداخلي. إنهم إذا استطاعوا إقناع التجار، أو إذا وافقت شنغهاي وتنزين على الاقتراض الداخلي، فلا تحتاج الحكومة الصينية للاقتراض من الخارج. إن موافقة التجار في هاتين المدينتين أمر مهم، وأظن بأن الحكومة في طريقها إلى إقناع تجار هاتين المدينتين، فإذا تحقق ذلك فلا شك بأنه سيكون هناك اقتراض داخلي يصل إلى خمسمائة مليون.

إن لدى الصين حاليا أربعمائة ألف جندي نظامي، مجهزون بأحدث الأسلحة، وإذا تم الاقتراض، فبإمكانهم أن يجهزوا مليونا من الجنود

النظاميين، ولا بد أن يتحقق ذلك خلال عامين أو ثلاثة.، ثم أن اليابان ستكون خطرا دائما على روسيا. ويتم تدريب الصينيين في الخوتحوزات، ولهؤلاء مهارة في استعمال السلاح.واذا درب الصينيون على استعمال الأسلحة الحديثة شهرا أو شهرين فسيتقنون استعمالها.

والقدرة على استيعاب الفنون الصناعية لدى الصينيين معروفة ومشهورة ايضا، فالموظفون والمستخدمون العاملون في الخطوط الحديدية كلهم من الصينيين، وتوجد أعداداً كثيرة من الطلاب والضباط الصينيين في كافة أنحاء أوربا، وبعد عشر سنوات سيزيد عدد المتخرجين من المعاهد العليا في الصين على ثلاثين أو أربعين ألفا. وكل الموظفين هم من خريجي المدارس، وسيكونون رجالا قديرين في خدمة وطنهم.

وفي هذه الفترة يبلغ عدد الطلاب الصينيين في المدارس اليابانية بما يزيد عن عشرة الاف، وبمجرد انتهائهم من الدراسة ومغادرتهم اليابان فإنهم سينقلبون إلى أعداء لليابانيين بلا استثناء. (مثل الطلاب البلغار الذين يدرسون في روسيا).

والتعصب القومي عند هؤلاء لا تجده عند أية أمة من الأمم. وقد يكون من بين الصينيين مليونان أو ثلاثة ملايين من المتنصرين، ولكن اذا قامت ثورة وطنية فان أول من يهاجم أتباع الدول النصرانية هم النصارى الصينيون، ورغم وقوع فتن بين المسلمين والمجوس في الصين، فإنهم لا يلبثون أن يصيروا يدا واحدة على العدو الخارجي؛ وإذا تطلب الأمر فإنهم يجندون ضد أوربا عشرة ملايين صيني. وهؤلاء الجنود لا يلزمهم إلا السلاح، ولا يحتاجون للمؤونة، إنهم يأكلون كل ما يصادفونه.، وإذا لم يجدوا شيئا أكلوا جثث بعضهم، ولا فرق عندهم بين الموت والحياة. ومختصر القول فان الروس لن يستطيعوا كسب أي شيء في هذا الجانب من بحيرة بايقال، وكل ما نصرفه في هذه الجهات سيذهب هباء.وأما إذا

تحول الخلاف بين الصينيين أنفسهم إلى فرقة، ووقعت الحرب بين جنوبي الصين ومنشوريا، فان منغوليا وقسما من منشوريا سيلجأ إلينا، وفي هذه الحالة يمكننا أن نحصل على مكاسب للروس في الصين، وهذا أمر بعيد الاحتمال، ولكن احتمال ممكن، ويتطلب شيئا من السعي.

الاقتصاد في الصين

أن أمر هذه الأمة في موضوع الاقتصاد عجيب، ويمكن هذا الجانب أن يكون وسيلة كبرى من أجل مستقبل أفضل للصينيين. فالصيني، قد يذهب إلى أمريكا، أو أوربا، ويكسب المال، ولكنه يأتي بكل ما كسبه إلى الصين، فلا يصرف المال في البلد الذي كسبه فيه وما يصرفه الصيني على نفسه لا يزيد عن ربع عشر ما يكسبه. وهذا الأمر مبدأ أساسي عند الصينيين. والصيني لا يصرف شيئا قبل أن يفكر في طريقة الكسب والتعويض. ثم إن الصينيين أمة عاملة. فقبل عشر سنوات لم نكن نجد في بلادهم شيئا، وإن الإقبال على المصنوعات المحلية يزداد كل شهر، وقد افتتحت من أجل ذلك مصانع كثيرة. وقريبا سيبدأ التنقيب عن المعادن. ففي جبال التيبت مناجم كثيرة لمختلف المعادن. وإذا استطاعوا القضاء على الأفيون وعمل كل الصينيين على إحياء بلادهم، فان نفوذ أوربا في الصين سيزول من أساسه، ولعل مكاسبنا ستبدأ من يوم تركنا للصين.

والواقع فان حكومتنا أدركت ذلك، ففي العام الماضي والذي قبله كان لنا في هذه البلاد مئات من الجنود. ولم يبق منهم الآن سوى عشرون جنديا وعدد من الضباط، وهؤلاء سينسحبون في العام القادم. نعم إن المغادرة أسهل الأمور. إنها أهون الشرين، و إلا فان بقاء جنودنا في هذه الديار يكلفنا كثيرا، ولا منفعة ترجى، إنها مصاريف لا طائل منها.

القوة البحرية في الصين

والحكومة الصينية ليست لديها قوة بحرية في الوقت الحاضر، وأظن بأنهم ليسوا بحاجة إلى القوة البحرية في هذا الوقت، فكل سواحل البلاد تتساوى في الأهمية بالنسبة للصينيين، كما أن للإنجليز مصالح في كافة السواحل الصينية بقدر ما للصينيين من مصالح فيها. والحالة هذه فان الصين تترك الإنجليز وحالهم، وتسالمهم إلى أجل معلوم.

وبعد ضمان أمن سواحلها فلن يبق للصين سوى تأمين القوة البرية، وهذا الأمر يحتاج إلى عامين أو ثلاثة أعوام، ولذلك فان بحثنا نحن الروس عن مصالح سياسية في أقصى الشرق يعني أننا نخدع أنفسنا. إن النمسا التي هي من أكبر أعدائنا حققت كل أهدافها السياسية في الشرق الأدنى، لأننا أنهكنا أنفسنا في الشرق الأقصى، فاستغلت هي هذه الفرصة.

هذا هو رأي أميرالاي أقام في الصين اثني عشر عاما، وعمل على تحقيق امال الروس في الشرق الأقصى عشرين أو ثلاثين عاما. ولا أجد حاجة لأن أضيف شيئا على ذلك.

ومن بين الذين التقيت بهم هنا غامبويف، وأصل هذا الرجل من قبيلة بورات المغولية، حمله الروس إلى بترسبوغ وهو صغير، فدرس في المدارس الروسية، ثم أرسلته الحكومة الروسية إلى بكين ليعمل في سفارتها.

درس اللغة الصينية في بكين مدة أربعة عشر عاما، كما تجول في أنحاء البلاد طولا وعرضا، في خدمة الأهداف السياسية للروس.

قابلت هذا الرجل عدة مرات، وعرفت منه بعض الأمور، وتبين لي بأنه ضليع في اللغة الصينية وادابها، كما أنه اكتسب خبرة في كثير من النواحي المتعلقة بالدولة الصينية والشعب الصيني، ومع كل هذا فانه لم ينس

أصله المغولي، ويفهم من كلامه بأنه مستعد للتصريح بأصله المغولي عند الضرورة، لأنني عندما تحدثت في موضوع الأمم الشرقية، ذكرني بأنه من البورات، وأن مصالح البورات جزء من المصالح الشرقية، وأن البورات وخاصة البورات التابعين لروسيا تعرضوا للظلم، وأنهم بدءوا في الانقراض الكلي.

ويرى هذا الرجل بأنه وان كان مستقبل الحكومة الصينية مجهولا، ورقيها أمرا مشكوكا فيه، فان عناصر التطور تكون بأسبابها، وتنقص الصين من هذه الأسباب العلوم والمعارف، وهي في سبيلها لإحرازها، فهناك الآلاف من الطلاب يدرسون في كافة أنحاء أوربا، والاف منهم يتخصصون في شتى فروع العلم. وفي اليابان فقط أكمل عشرة الاف طالب دراستهم. فبهذه العناصر يمكن تشكيل رؤية مستقبلية للصين. ويبقى هناك شرطان لضمان هذا المستقبل: الأول عدم الدخول في حرب مع طرف اخر خلال الأعوام الخمسة عشر القادمة، والآخر هو عدم الوقوع في خلافات داخلية نتيجة لدسائس المنصرين. فالأمل الوحيد للأوربيين هو إيقاع الفرقة بين الصينيين. وهذا أمر قريب الاحتمال، ذلك بأن منشوريا قد تطالب بالاستقلال، كما أن التيبت وجنوبي الصين تنقسم إلى أربعة أجزاء كل واحدة منها تنشئ كياناً مستقلاً، عندئذٍ يضطر المغول إلى الدخول في حماية اليابانيين، والسواحل الجنوبية في حماية الفرنسيين والإنجليز والألمان، وقد تبقى التيبت مستقلة فترة من الزمن، وأخيرا لابد أن تكون في جانب الإنجليز.

فهذان الخطران يهددان الصين بشكل مستمر. فإذا استطاعت أن تبقى بمنأى عن هذين الخطرين مدة عشر سنوات، فلن يخش الصينيون بعد ذلك شيئا. هذا هو رأي غامبوييف في الصين و مستقبلها.

وقد تأكد لدي أيضا أن كافة المنصرين يعملون لتحقيق هذا الهدف، إنهم يسعون إلى بث الفرقة في منشوريا وجنوب الصين بصورة خاصة، والفتنة الداخلية تهدد الحكومة الصينية، وهذا ما يخشاه الصينيون.

ولا شك بأن الفتن الداخلية هي أخطر الأمراض في تاريخ الدول، وهي أكثر خطرا في الصين، لأنه لو ظهرت فتنة صغيرة، لا يلبث أن تتدخل فيها الدول الأجنبية.، وأحداث عام ١٩٠٠ أثبتت بأن هذه الدول تبحث عن أي ذريعة للتدخل.

اتحاد اليابانيين مع الصينيين

هذه هي أكبر القضايا التي تشغل المحافل السياسية في الوقت الحاضر. وأهميتها تبرز في نقطتين: الأولى من جهة مستقبل الصينيين، والأخرى من جهة المصالح الاقتصادية الأوربية. ومهما تتوافر من نقاط أخرى تقوى أهمية هذه القضية فان هاتين النقطتين أكثرها أهمية دون شك.

فتحقيق الاتحاد بين الصينيين واليابانيين هو في مصلحة الصينيين قبل اليابانيين، ذلك بأن الصينيين يحتاجون إلى من يساندهم في جميع النواحي. فإذا أحس الصينيون بمثل هذه الحاجة وقد أحسوا فعلا، فلا شك بأنهم سيضطرون إلى الاتحاد مع دولة من الدول المتقدمة، وهذا الاضطرار أمر طبيعي ويقر به السياسيون. ومع ذلك فانه ينبغي التفكير في عواقب هذا الاتحاد، وتوافق هذه العواقب مع المصالح الصينية. إن الصينيين يفكرون في هذه العواقب، وعليهم أن يفكروا قبل الموافقة عليه في إمكانية إلغاء هذا الاتحاد عند الضرورة، ولو أنهم فكروا بعمق لوجدوا أن الاتحاد مع اليابانيين هو أسهل الطرق بالنسبة لهم.

إلا أن اتحاد الصينيين مع اليابانيين يضر بالمصالح الاقتصادية الأوربية، وقد يشكل ضربة كبيرة للسياسة الغربية بصورة عامة. وأكثر الدول التي ستتضرر من هذا الاتحاد هي روسيا. وهذا ما يشغل تفكير

الأوربيين قبل الصينيين واليابانيين.ولمنع مثل هذا الاتحاد مع اليابان، فإنهم اختلقوا موضوع اتحاد

أمريكا مع الصين لمنافسة اليابان، ولا شك بأنه إذا تحقق الاتحاد بين أمريكا والصين فهو أنسب لمصالح الأوربيين، بل سيكون ذلك الاتحاد ضمانا لتحقيق السياسة الاقتصادية الغربية بكاملها.

وقد سعى الأمريكيون كثيرا في هذا المجال، إن تعيين رأسمالي أمريكي لا يعرف شيئا عن الدبلوماسية سفيرا لدى القصر الإمبراطوري، هو من أجل إنهاء هذا الموضوع لصالح أمريكا. إنهم كانوا يحاولون إقناع الصين عن طريق تقديم الرشاوى للقصر الصيني.، إلا أن الصينيين لم يكونوا كما تصوروا، فلم يقدموا على مثل هذا العمل الحقير، وهكذا انتهى مشروع الاتحاد الأمريكي ـ الصيني بالفشل.

أما الأوربيون الذين أحسوا بالخيبة لفشل مشروع الاتحاد الأمريكي ـ الصيني، فإنهم حالوا دون تحقيق الاتحاد الياباني ـ الصيني بشكل مؤقت (وأظن أن ذلك مؤقت أيضا).

وأمر الاتحاد الياباني ـ الصيني، مسألة حياة أو موت بالنسبة لليابانيين، فإذا تحقق الاتحاد الياباني ـ الصيني فان ذلك يعني نصرا دبلوماسيا كبيرا للحياة السياسة، ليس للشرق الأقصى، فحسب بل لكل الشرقيين.

إن أكثر الدبلوماسيين الصين يميلون إلى الاتحاد مع اليابان.

ييوان شكاي

«ييوان شكاي» أحد الدبلوماسيين الصينيين ومن أشهرهم، ويكاد أن يكون مسيطرا على إدارة البلاد بأفكاره وارائه. كما إن الجنود يحبونه كثيرا، ولو كان هذا الرجل في موقع الحكم والمسؤولية، لتحقق الاتحاد مع اليابان. لكنه أبعد عن الخدمة في عام ١٩٠٨، وقيل إنه لو بقي على

رأس عمله عدة سنوات أخرى للعب دورا كبيرا في البلاد و لقام بإصلاحات عظيمة في الجيش الصيني.

ونظرا لأهمية هذه الشخصية لدى الصينيين، ولمعرفتهم بقدراته وأسلوبه الذي يتناقض كليا مع المصالح الأوربية فان الأوربيين المتحضرين بذلوا كل ما يستطيعون من أجل التخلص منه.

في ضيافة تورغوت

في زيارتي هذه كان بالطه توره الملقب بتورغوت في بكين، وقد سردت بعض المعلومات عن هذا الرجل في صفحات سابقة، وكنت مرة بضيافته في بكين، حضر المأدبة بعض من رجال الدولة والأعيان، وكانت جلسة طيبة.

وبعد المأدبة تحدث بعض الخطباء، وكان لها أثر طيب، والشيء الذي أريد ذكره هنا هو التعصب الذي رأيته لدى مسلمي الصين.

ورد خبر المأدبة التي أقامها تورغوت في الصحافة الصادرة يوم ١٩ تموز. فقام مسلمو الصين بتوجيه نقد مباشر لي، لقبولي ضيافة رجل مجوسي، وأكلي من طعامه النجس،

والحقيقة إن تورغوت احتاط لمثل هذا النقد، فدعا أشهر الطباخين المسلمين في بكين لإعداد طعام لي. وقد أنقذتني الصحف نفسها من هذا النقد والتجريح عندما نشرت في الحادي والعشرين من تموز خبر استقدام الطباخ المسلم، فلولا نشرها هذا الخبر لكنت ضحية هذه الضجة التي لا أصل لها.

الصيـــنيـــون

لاشك بأن الصينيين هم أكثر الشعوب تعرضا للظلم والقهر، ومهما كان المستقبل مبشراً بالخير، فإنهم في الوقت الحاضر أكثر الناس تعرضا للظلم بعد الهنود.

فالحكام في بكين صينيون، وهناك إمبراطور، وحكومة صينية، نعم كل هؤلاء موجودون، ولكن بالاسم فقط.

ذكرت فيما سبق بأن في بكين حي خاص بالأوربيين. وفي مدخل هذا الحي يقف شرطة صينيون، وهم لا يسمحون للمواطنين بالمرور في الشارع الرئيسي، بقولهم "ممنوع"، فإذا حاول أحدهم المرور، أنزلوا فيه العصي ضربا و إيلاماً، يضربونه كيفما شاءوا، حيث أن هذا الشارع خاص بالأجانب، وقد يمر بعض الأشخاص المعروفين لدى الشرطة وهذا أمر نادر الحدوث.

هذا ما رأيته خلال وجودي في بكين، وقيل لي بأن الوضع كان في السابق أسوأ مما رأيت.

وروي لي بأن الضابط الأوربي، يمر بالجندي الصيني، فيمسكه ويقص شعره، وأحيانا يقص رأسه، والناس من حوله يتفرجون. وإن قص الشعر عند الصينيين لا يقل إيلاما وإهانة من قص الرأس، وأخيرا انفجر الصينيون، فوقعت أحداث عام ١٩٠٠، وقد سمعت من الكثير من الصينيين في المدن والقرى بأن الحرب وقعت بسبب مثل هذه الأشياء.

وهذا كل ما حدث، بل هناك أشياء ظاهرة و باطنة كثيرة أكتفي بنقل بعضها إلى القراء الكرام.

قيل للصينيين بأن الحل الوحيد للتخلص من الإهانات والاعتداءات هو اللجوء إلى المنصرين، أما المنصرون فقد اشترطوا عليهم اعتناق النصرانية

ليتدخلوا لحمايتهم. كما أنهم قد يوعزون للموظفين الصينيين بأن يضيقوا على الناس وتتكرر هذه المضايقات، عندها ينبري الإنجليز للدفاع عن المظلومين، وينشرون الخبر في الصحف الصينية مستنكرين ظلم الحكومة الصينية، وعدل الإنجليز! وهكذا.

ونتساءل، هل تكون النتائج في صالح الإنجليز؟ نعم، هذا سؤال لا نستطيع الإجابة عليه بسهولة، ومع ذلك فان عقلي القاصر، يرى بأن نجاح الإنجليز أمر ليس ببعيد. لأن الوقائع التاريخية التي شهدناها في السنوات الأخيرة أثبتت بأن المكر المحكم أمضى من حد السيف، فقد مضى عهد الفتح بالسيف بالنسبة لأوربا وجاء عهد الفتح بالسياسة، إنهم يفتحون البلدان دون إراقة قطرة دم واحدة.

(لقد ظهرت مملكة بلغاريا إلى الوجود دون حرب، واحتلت النمسا ولايات البوسنة والهرسك دون حرب)

وليس هناك ما يمنع الإنجليز من احتلال الصين من الداخل، ويعترف الأوربيون بالأمر الواقع بعد فوات الأوان وأتوقع أن يحدث ذلك لوجود دلائل كثيرة عليه. وهذا رأي. ومن جهة أخرى يسعى اليابانيون لنفس الشيء، وهم لا يضيعون أية فرصة، ولا يفترون من منافسة الإنجليز في تأمين مصالحهم.

استطراد

أريد هنا أن أضيف شيئاً قد يكون خارج الموضوع: فمنذ القدم كان هناك صراع بين الشرق والغرب، وإذا نظرنا إلى الأمور من هذه الزاوية فان الأحداث الجارية توصلنا إلى نتيجة مفادها، أن الشرقيين عموما انهزموا أمام الغربيين في العهود الأخيرة بالفكر أكثر من انهزامهم بالسيف. ويكاد أن يكون الصراع في الفترات الأخيرة ينحصر على الحرب الفكرية.

والأسلحة التي يمتلكها الغرب ليست للقتال وإنما لتقوية رأيهم وإرهاب الرأي الآخر.

وأظن بأن المراقبين للسياسة الغربية، والدارسين لأسباب هزيمة عموم الشرقيين يتمتعون بفكر أشمل واهتمام أكثر. وإني حينما أتعمق في الموضوع، أقول اعتمادا على المشاهدات والتجارب بأن الحضارة اليابانية الشرقية إذا لم تستطع منافسة الحضارة الغربية فان الشرق بأقصاه وأدناه سيمنى بهزيمة منكرة، بل سيكون تابعا للغرب. ومهما كان الاحتمال بعيدا فان التقهقر الفكري في الشرق، يفتح شهية الغرب.

ومن هذه الناحية أرى بأن هذه الحالة تزيد من امال و مطامع الإنجليز في الصين أضعافا مضاعفة.

ويجب ألا ننسى بأن المسلمين إذا عادوا إلى هويتهم الإسلامية، وفهموا فلسفة الإسلام حق الفهم، وأدركوا نظرة الإسلام إلى الحياة، واستطاعوا أن يكونوا قدوة للشرق، عندئذ تسقط كل أحلام الغربيين، وتسطع شمس الحضارة الحقيقية للدنيا كلها. هذا أمر لاشك فيه أبدا.

وفي رأيي القاصر أن ذلك يتحقق بأمرين اثنين: أولهما، تخليص أفكار العلماء من أسر بعض الذين يسمون أنفسهم بالكلاميين، والثاني، تخليص أنفسنا من نظرتنا إلى كافة الكتب التي سميت بالفقه بأنها أقوال الفقهاء.

وقد تكون عباراتي قاصرة وغير وافية بالغرض إلا أنني فكرت في ذلك، ويحتاج الأمر إلى إيضاح أكثر، وليس قصدي الطعن في فقهائنا، بل لاستنهاض هممهم.

أكرر فأقول بأنني لم أستطيع أن أجد العبارات الوافية التي توضح ما أردت أن أقوله فاضطررت إلى أن أتحدث بهذه الطريقة على هذا الوجه. وأظن بأن كلماتي هذه لا تعتبر خاطئة، خاصة إذا أدخلنا في حسباننا

تذبذب بعض علمائنا في الحق، فان ذلك يدعم بقوة ما قلته. ولاشك بأن الذين يعرفون بعلامة الزمان وغير ذلك من الألقاب من أمثال جمال الدين وعبده والنديم، صاروا ضحية ذلك الأسر واضطروا للانحراف. وبعبارة أكثر وضوحا، فان أكثر أصحاب العمائم غلبوا وتراجعوا أمام الفلسفة الغربية بسبب تلك الأفكار، وبسبب عدم فهمهم العميق للفلسفة الإسلامية، وليس هناك أحد من خلق الله من الذين نظن فيهم العلم والمعرفة، من هو مطلع على تراجم أحوال الإسلام حق الإطلاع. فأنى لهم أن يعرفوا شيئا عن فلسفته.

إن أكبر فلاسفة الغرب معجبون بأبسط متصوفينا، أولئك المساكين لا يعرفون شيئا عن فلسفة كبار متصوفينا. إنني أؤكد بأننا إذا استطعنا شرح فلسفة الأحاديث النبوية الشريفة، فلن يقدر أحد أن يقف في طريقنا. اه من هذين القيدين! ندعو الله أن يفتح بصائرنا.

عادة تطويل الشعر لدى الصينيين

وعادة تطويل الشعر عند الصينيين، ليست موغلة في القدم، بل بناءً على طلب الحكومة رسميا قبل مائتي عام في عهد الأسرة المنشورية الحاكمة. ثم تحول الأمر إلى عادة متبعة، ثم تطور إلى أن صار تطويل الشعر عقيدة. فحلاقة أطراف الرأس، وترك الشعر طويلا في منتصفه مثل النساء، أمر مفروض على الإنسان الصيني. وقضية الشعر قضية مهمة في كافة أنحاء الصين، حتى أن الحكومة تحاول إلغاء هذه العادة إلا أن الناس لا يستجيبون لهذا الطلب. وقد أصدرت الحكومة أمرا بقص الشعر لم ينفذ الجنود هذا الأمر، فالشعر مقدس في بلاد الصين. وقصه ليس أقل إيلاماً من قص الرأس، وقد يطبقون عقوبة قص الشعر على الجرائم الكبيرة. فقص الشعر عند الصينيين يعني الموت.

عندما أحتل الألمان «واي ـ هاي ـ واي» أجبروا مواطنيها على قص شعورهم للتفريق بينهم وبين الصينيين. فكانوا يبكون بكاء مرا عند تنفيذ هذا الأمر.

كما قام الفرنسيون بعمل مماثل في جهات «تونكين»، وقد بكي الصينيون أيضا. مساكين هؤلاء الصينيون، فالشعر صار عقيدة دينية عندهم.

عندما كنت في بكين، التقيت برجل عجوز من العلماء، وتطرقنا لموضوع الشعر. وبعد أن ذكرت له كثيرا من الأحاديث النبوية الشريفة والأخلاق الإسلامية الحميدة نصحته بأن يتصرف وفق السنة النبوية خاصة وقد وصل إلى هذه المرحلة المتأخرة من العمر، ونصحته بأن يقص شعره، وأبديت له استعدادي بأن أتولى قص شعره.

كان هذا العجوز قد تجاوز السبعين، أما شعره فقد بدا من خلف رأسه مثل ذيل الفأر، وعندما سمع مني هذا العرض امتقع وجهه، وابتعد عني، ثم وجد الفرصة المواتية فخرج من المجلس، ولم أعد أراه بعد ذلك.

ورأيت أوضاعا أخرى كثيرة تتعلق بتطويل الشعر، لا أرى مجالا لذكرها مكتفيا بما ذكرت انفا.

مراسلة مع طوكيو من بكين

وأثناء وجودي في بكين، تلقيت رسالة مكتوبة باللغة العربية من بركة الله أفندي يقول فيها بعد الحمد والثناء والاحترام: تلقيت رسالتك التي أرسلتها من سيول، وسررت جدا لإرشاداتك، إنني أحتاج لمثل هذه الرسائل دائما، ليس هناك قرار قطعي في أمر المسجد حتى الآن، الأخ هونجي عازم على السفر إلى اسطنبول، انه ينتظر أوامرك.. إلى آخره.. إنها رسالة مختصرة، وقد فقدت الأصل.

وأرسلت له من بكين الجواب التالي:(الرسالة باللغة العربية) الحمد لله وحده. إلى جناب الأخ المكرم محمد بركة الله أفندي صاحب سلمه الله وصانه.

قد تشرفت باستلام كتابكم المؤرخ بالخامسة عشرة من الشهر الفائت، وصرت مسرورا غاية السرور. وأيقنت بأنكم تعملون بكل جد واجتهاد، وتسرونني بعد حين بأجوبة شافية للصدور وكافية الأمور، وأورثنا الله تعالى من بركة فضلكم المعارف الإلهية والمدنية المحمدية.

ثم إني قد كتبت إلى صديقنا أوهارا قبل وصول كتابكم إلى بأيام، ولا بد أن حضرتكم اطلعتم على ما كتبت له من تعجيل بعض الأمور، عسى الله أن يوفقنا بما قدر في مكنون غيبه.

فالمأمول أن حضرتكم ستكشفون عن سماء المطلب سحب الأكدار، وتمزقون عن بصيرة حجب الأغبار، وأخلصت الوجهة إليك يا أخي وأنت تنزه قلوب من كنا نعدهم من الأحرار بحكم فضلك، وتهذب صدورهم عن ريب المنون، وأنت أدرى لما هنالك.

وأما العاجز، فهو مقيم في بكين، ودرت في بعض البلدان المعروفة عندهم، واجتمعت مع كثير من الذين لهم حظ وافر في أمور الدولة وروح الملة، ولازلت أترصد أحوال الصينيين بقدر الوسع و الإمكان.

ولو أنهم بحل المشكلات والمتاعب قائمين، وعلى سبيل النجاح سالكين، ولكن بمعزل عن الوصول إلى درجة المطلوب، لأن الأجانب تسلطت عليهم بكل السلطة وقواهم العسكرية ليست بكاف، لا يزيد عن مائتين وخمسين ألف أو ثلاثمائة ألف. و إصلاح الأسلحة والأساطيل، يحتاج إلى إصلاح المالية، وهي في أسوأ حال، وبذلك يرمون أنفسهم في هوى المهالك من قبول الوفاق مع الأمريكان، وإعطاء الإمتيازات إلى الأجانب ولا يزالون يترددون في قلق واضطراب.

ثم اني اجتمعت مع اخواننا المسلمين من أهل لكنو وهم يشغلون مقاما مهما في السفارة الألمانية. و كان هؤلاء الإخوان، مستعدين لكشف النقاب لنا عن بعض الأسرار، ولهم تمام المعرفة بأحوال الصينيين.

وعما قريب أسافر من هنا إلى خانكاو. واستلمت من الآستانة العلية، الرسائل والجرائد، وأخبار تلك البلاد مسرة جدا، وبالخاصة حال مولانا السلطان محمد الخامس، وهو يسيح في داخل مملكته، ويمشي في الأسواق، ويجتمع مع أفراد الناس، ويحضر وقت الامتحان في المدارس.

وحضرتكم إن شاء الله تبذلون الجهد بكل احتياط و أقوال لينة وتدابير صائبة. ودمتم سالمين غانمين.

عبد الرشيد إبراهيم بكين

وبهذه الصورة كنت أقوي علاقاتي باليابانيين، حتى ولو كان ذلك بالرسائل. وهدفي في ذلك كل فكري هو تقوية وتمتين الأساس الذي وضعته هناك. هذه مهمة مقدسة بالنسبة لي. ولم أكتف بمراسلة بركة الله، بل كنت أراسل أيضا أوهارا و ناكانو و ناكايامه، وإن مهمتي في الصين هي كسب الرضا والقبول عند اليابانيين، لضمان سياستي في تلك الجهة، والاحتفاظ باليابانيين قدر الامكان. ولذلك كنت أكتب إلى محمد بركة الله أفندي مثل هذه الرسائل، وأوجه اليه بعض النصائح.

دخول الإسلام إلى الصين

ليس لأحد أن ينكر أهمية هذه المسألة. ويروى بأن قتيبة بن مسلم رحمه الله قد وصل إلى بكين عن طريق ما وراء النهر و بخارى و فرغانة و كاشغر في القرن الأول الهجري، وأن الإسلام دخل كاشغر في عام ٩٣ من

الهجرة. ومن العبث التفصيل في التواريخ في هذا الكتاب، فلا أريد أن اشغل وأرهق أذهان القراء الكرام بأمور تاريخية مشهورة ومعلومة لدى الجميع.

وإن ما يعتقده الصينيون في هذا الباب غريب: فالصينيون لا ينكرون أبدا بأن الإسلام دخل الصين عبر تركستان، بل يصدقون ذلك، ويقولون بأن الإسلام دخل من هناك للمرة الثانية، أما في المرة الأولى فقد دخل في العهد النبوي، حتى وصل إلى كانتون في جنوب الصين، وفي وقت لاحق دخل الإسلام إلى بكين عن طريق تركستان.

وما يقول به الصينيون في هذا الباب مغاير لكل التواريخ والأحاديث النبوية. ومع ذلك فان مسلمي الصين مجمعون فيما يقولون، ولهم كتب كثيرة في هذا الموضوع.

وتقول هذه الكتب، بأن الإسلام دخل الصين في العهد النبوي، وأن النبي ﷺ أرسل ثلاثة سفراء: سعد بن أبي وقاص وقاسم وثالث لا يستطيعون معرفة اسمه، ويشيرون إلى قبرين في مدينة كونتون بأنهما لاثنين من السفراء، وأن سعد بن أبي وقاص عاد إلى الحجاز.

ويوجد في مدينة كانتون مسجد قديم، يسمونه بمسجد سيدنا سعد بن أبي وقاص. كما أن بين الصينيين أسرة «وانغ ـ كوان» تعتبر نفسها من نسل سعد بن أبي وقاص، حيث يدعون بأن سيدنا سعد تزوج خلال إقامته هناك، وترك زوجته حاملا، ثم تكاثر أحفاده حتى صاروا اليوم يشكلون أسرة كبيرة. ويعتقد الصينيون بصحة هذه الرواية اعتقادا جازما، وإقناعهم بعكس هذه الرواية من قبيل المستحيل. وهناك تواريخ كثيرة كتبت في هذا الخصوص باللغة الصينية، وأشهر المؤرخين لديهم هو «وانغ ـ داي ـ يو» وقد ألف كتابين في التاريخ الإسلامي باللغة الصينية، أحدهما «جينغ ـ

جاك ـ تاشو» والآخر «جينغ ـجاو ـ جانجوان» وهما من الكتب المطبوعة و الموثوقة عند الصينيين.

وقد ترجم أحد هذين الكتابين أحد العلماء في «يو نان» الى اللغة العربية، وسماه الفصول الأربعة. واسم المترجم هو الشيخ يوسف. وكان من العلماء المشار إليهم بالبنان في عهده.

وهناك تاريخ مفصل، اسمه «شيكلي» ترجم إلى اللغة العربية، لكني بعد التحقيق تبين لي وبكل أسف، بأنه لم يطبع.

وهناك كتب كثيرة باللغة الصينية تتعلق بالتاريخ الإسلامي، وأكثرها مطبوع، و يظنها الصينيون بأنها موثوقة. ومن بين هذه الكتب تاريخ كثير التفصيل اسمه «حي ـ حي ـ يون ـ لاي» بضم الحاء المخففة أو بالسكون، وهي كلمة تعني الإسلام، وتسمية اليابانيين الإسلام ب "هوي هوي" محرفة من هذه الكلمة.

ويروى بأن كتاب السيرة النبوية «جي ـ شك ـ شه ي لو» و«كاك شي ـ زاك» مؤلف قبل أكثر من ثمانمائة عام.

وكتاب «جه ي ـ لوك زاك» كتبه أحد ملوك الصين قبل مائتي عام، ويتحدث عن محاسن الإسلام، ويعترف فيه هذا الملك بخطأ عدم اعتبار الدين الإسلامي دينا رسميا في البلاد.

فالرواية المذكورة، وردت في جميع كتب التواريخ الموثوقة لديهم، حتى صارت عقيدة لدى مسلمي الصين جميعا.وقد جرى بيني وبين مؤرخي مدينة نانكين كثير من النقاش. ومن الغريب بأن مؤرخي الصين جميعا يجتمعون في مدينة نانكين، وأن العميان يضبطون التواريخ بالسماع وتناقلها بالألسن. وأكثر المؤرخين من العميان، ولا يقتصر ذلك على المسلمين بل يتعداه إلى المجوس أيضا، فإنهم يضبطونها شفاها ثم يدونونها في الكتب.

والواقع فانه لايمكننا تصديق أي من هذه التواريخ فيما يخص دخول الإسلام إلى الصين. لأن سيدنا سعد بن أبي وقاص هو من كبار الصحابة ومن العشرة المبشرين بالجنة، وأحواله وترجمته معروفة من قبل المسلمين جميعا. ولو قام سعد بن أبي وقاص بمثل هذه المهمة لضبطه محدثونا قبل مؤرخينا، لأن أهل العلم يعرفون بأن كل صغيرة وكبيرة حدثت في العهد النبوي قد ضبطها المحدثون، ولم يهملوا شيئا منها.

ولو كانت مثل هذه السفارة إلى الصين حقيقة لضبطها محدثونا مع عنعناتها. ومع ذلك فان الصينيين لا يرضون تكذيب تواريخهم بهذه السهولة، وهذا أمر طبيعي، فان اعتماد الأمم على تواريخها على مر الأزمان صار عقيدة قطعية، فلا تريد أي أمة من الأمم أن يعتري تاريخها أي جرح أو تكذيب. وهذا أمر غريب ودليل على العمى لدى الناس.

إن بعض المحسوبين على علماء الإسلام يماشون متصنعي الحرية فيؤلون النصوص القرانية لتوافق التاريخ. وهذا أمر مستغرب ومحير. إن هؤلاء المساكين كلما شاهدوا أمرا غريبا ومفزعا، بادروا إلى الآيات البينات فأولوها، حتى الملائكة أولوها لتكون موافقة للعلوم الحديثة (والعياذ بالله).

ولا يقتصر الأمر على رجل أو رجلين من هؤلاء بل يميل كثير من علماء الإسلام في العصر الحاضر إلى هذه الطريقة ليغطوا بها جهلهم. وأرى أن أكثر هؤلاء عميت أبصارهم عن أن ترى حقيقة الإسلام.

انه وان كان ذلك خارج الموضوع فاني أرى أن له علاقة غير مباشرة على الحال الذي نحن فيه.

إن الأخطاء في التواريخ ليست قليلة وعليه فان تأويل النصوص القطعية من أجل تأييد هذه التواريخ أمر يجب ألا يرضى به الضمير.

كان على هؤلاء الناس أن ينظروا إلى الوقائع الجارية أمام أعينهم قبل أن يعودوا إلى الماضي البعيد، فالثورة المصرية التي حدثت قبل خمسة وعشرين عاما، كيف حدثت، وما هي أسبابها، وما هي أهدافها، ومن الذين كانوا وراءها؟ هل نستطيع إصدار حكم قطعي بذلك؟ فإذا حكمنا ضمائرنا فان حكمنا لا يمكن أن نقول بأنه أمر قطعي.

وليس ذلك فحسب، بل الأحداث التي عشناها قبل سنوات قليلة يختلف الناس في تحليلها والنظرة إليها اختلافا بينا.

وعليه فان تأويل النصوص القطعية كي تكون موافقة لمثل هذه التواريخ يعتبر جريمة بكل ما في الكلمة من معنى، ولا يجوز لنا أن نسمي مثل هؤلاء بالعلماء، ولكن ما الحيلة، صاروا رجالا بسبب قحط الرجال.

ورأيي أن الشريعة الغراء لا يمكن أن تكون قانونا يصوغه الناس على حسب أهوائهم، انه القانون الإلهي الذي لا يمكن تبديله وتغييره إتباعا لهوى الناس، حتى بالنسبة لعلوم الطب التي تطورت كثيراً، فان الأدوية التي أجمع العلماء على نجاعتها هي قليلة ومحدودة، وأكثرها بقيت ضمن نطاق الظن، وعليه فانه لا يجوز لنا تأويل النصوص الشرعية وهي نصوص قطعية، من أجل بعض الأمور الظنية.

ومهما كان البحث في مثل هذه الأمور خروجا عن الموضوع فاني أطمع في عفو القراء الكرام حين أتناولها بالشرح والتفصيل. وسأبين رأيي في هذا الموضوع في عالم الكتب والمطبوعات في الوقت المناسب باذن الله.

وإذا عددنا الأخطاء التي تتضمنها كتب التاريخ، فإننا سنرى في كل البلاد نوعين من كتب التاريخ تناقض بعضها بعضا. ويكفي أن نقارن بين التاريخ العام لمراد بك، وتاريخ أبي الفاروق، فلا يمكن التوفيق بينهما مع أن كلا من الكتابين من الكتب المقبولة في عالم التاريخ

أتراك صالا

خلال وجودي في بكين، حاولت الحصول على بعض المعلومات عن أحوال أتراك صالا، إلا أنني صدمت بمشكلة اللغة. كنت قد حصلت على بعض المعلومات من «جاو ـ يو ـ شين»، صاحب جريدة «غون ـ يان ـ باو» ولكن لا يصح الوثوق برجل نصراني في مثل هذه المعلومات المهمة.

وذات يوم كنت في المدرسة فجاء رجل، وبعد حديث قصير مع المدرس نور محمد، قال بأنه قادم من (صالا) وأنه من السكان الأصليين هناك. عندها قال لي المدرس: هذا الرجل من أتراك صالا، قدم لتوه من هناك. وكان واضحا من عدم تطويل شعره، بأنه من بلادنا تلك. تعرفنا عليه إنه يجيد اللغة الصينية كما يتقن اللغة التركية. لقد صار هذا الرجل أخا لي، وهو أخي فعلا لأنه تركي، ويملك كثيرا من المعلومات، فهو يبدي رأيه في كل أمر تطرقنا اليه. واسمه إسماعيل.

قال إسماعيل أفندي عن حكام الصين: قبل خمسمائة عام كان حكام الصين منا، وكانت حقوق الصينيين محدودة بعض الشيء، حتى إننا كنا نعتدي في بعض الأحيان على حقوقهم الشخصية والقومية، وكنا نمنع نساءهم من أن يلبسن مثل ما تلبسه نساؤنا (وهكذا اليوم) وكان على نسائهم أن يلبسن أزياء غير أزيائنا. ثم إن الحكم ال إلى ال ماتغو، إلا أن قومنا ثاروا وحدثت الفتنة، وأخيرا رضينا بحكمهم شرط الحفاظ على حقوقنا، وعقدنا معهم عهدا يعترفون به بقوميتنا رسميا. إن هذا العهد كان يمنعهم من أن يسموننا (خيطا) أي ذميين. وكلمة خيطا ـ كيتاي ـ أو قطاي تعني العبد.

ثم أنه لما ال الحكم لآل مانجو، جددنا معاهداتنا، وقبلنا بكل التكاليف شرط عدم الاعتداء على شريعتنا.

إن تطويل الشعر الذي يدل على التبعية لمنشوريا لم نجبر عليه، غير أنهم في الأعوام المائتين الأخيرة ألغوا بعض امتيازاتنا، وجرت بيننا وبينهم حروب عدة مرات، أحرقوا مساجدنا، واعتدوا على كثير من حقوقنا، ومع ذلك فقد تمكنا من الحفاظ على حقوقنا الدينية. عندنا علماء وان كان عددهم ليس بكثير وكانت لنا علاقات مستمرة مع تركستان الصينية، أرسلنا طلابنا إلى التى شهر و كاشغر، واستقدمنا من هناك بعض العلماء، وهكذا استطعنا أن نحافظ على ديننا.

والواقع إن حكومة منشوريا أرادت الاعتداء على حقوقنا الدينية، أرادوا التدخل في مساجدنا وعباداتنا، وطلبوا منا ألا نقيم صلاة التراويح في الليالي، وأن نصوم وفق حساباتهم، عندها ثرنا وجرت الدماء أنهارا، مما اضطر الإمبراطور شخصيا أن يحضر صلاة التراويح في مسجد نوجه، وبقي في المسجد إلى أن انتهت الصلاة، وكتب هناك عهدا بعدم التعرض أو التدخل في شؤوننا الدينية.

إلا أنهم طلبوا منا بعد فترة بنحت رسوم الحيوانات على جدران مساجدنا من الخارج. هذا الأمر نفذ في كافة أنحاء الصين، إلا أن أهل صالا رفضوا ذلك، ولذلك فانك لا تجد شيئا من هذه الرسوم في مساجدنا.

والصينيون يخافون من الأتراك كثيرا، وإنا وان كنا قليلي العدد فان شهرة ابائنا وأجدادنا في التضامن والجرأة والشجاعة والحمية كان لها الفضل في النعمة التي ننعم بها الآن.

وقبل سنوات اعتدى الصينيون بصفة عامة على قومنا الأتراك، ولكننا والحمد لله وفقنا في صدهم، أحرقوا مساجدنا، فأعدنا بناءها، ولكن قاتل الله الجهل فإننا لم نستغل ذلك الوضع في المطالبة باستقلالنا.

لقد حققنا عليهم في تلك الحركة نصراً ساحقا، وكانوا مستعدين لتلبية ما نطلب، ولكن الجهل ألجم لساننا فلم نقدر أن نطلب منهم شيئا.. حتى حرية الطلاق الذي هو من الأمور الدينية، لم نطالب به، فالطلاق ممنوع عندنا الآن.

سألت: هل هناك من يفكر في إصلاح المدارس والتدريس؟

- ليس هناك من يفكر بذلك أبدا، ولا يتوقع ذلك في الوقت المنظور. وأكبر المصائب في السنوات الأخيرة هي مصيبة تكاثر المنصرين في بلاد الصين.

إنهم يشكلون قلقا كبيرا لنا، والحكومة الصينية تمنع الناس من أن يتعرضوا لهؤلاء المنصرين، ولا ندري كيف ستكون العاقبة.

نعم لقد استطاع مسلمو صالا والتي شهر الحفاظ على أنفسهم، ولكن مسلمي وسط البلاد في جهل مطبق، خاصة المسلمون في بكين وما جاورها فإنهم متعصبون جدا. حتى المفتي عبد الرحمن لا يتبعون له رأيا. والحالة هذه صارت طبعا لهم، فأكثرهم، تركوا أوامر الشرع واتبعوا عادات المجوس، فكل شيء عندهم مبني على العادات، حتى أحكام المواريث تطبق وفق العادات والتقاليد، وأكثر نسائنا محرومات من التربية، وتصغير أقدامهن فرض عليهن، وأخيرا أصدرت الحكومة أمرا مشددا بمنع تصغير أقدام النساء، لقد منعوا ذلك منعا قطعيا، إلا أن الشعب لم يأبه بهذا الأمر، فتصغير الأقدام صار من طبعهم وعاداتهم. أشعر باليأس كلما تذكرت هذه الأحوال.

والأمل الوحيد في أن ترسل الحكومة التركية بعض العلماء، ليقدموا لمسلمي الصين معلومات عن حقائق الإسلام مما سيساعد على تحسن الوضع كثيرا. وفي العام الماضي قام معلمان قدما من هناك بخدمات طيبة. غير أن الصينيين اشتهروا بسوء الحظ، فلم يستطع هذان المعلمان الإقامة

هنا. كنا نأمل من على رضا أفندي أن يقدم الكثير من الخدمات، ولكن للأسف لم يتحقق ما كنا نتمناه.

وهكذا كان اللقاء في بكين مع تركي من صالا ـ أو صالاريا، وحصولي منه على هذه المعلومات القيمة.

الكلمات العربية المستعملة لدى علماء الصين

طريقة الحديث:

انسالام عليكن ـ السلام عليكم

عمرو ـ كم عمرك

حلالو فيه ـ هل أنت متزوج

ولدو ـ هل لك أولاد

ملكو ـ من أي بلد

مانكة ـ أأنت من مكة

عالم فيه ـ هل أنت من العلماء

هذه هي الكلمات العربية المعروفة لدى علماء الصين. ومن النادر أن تجد أحدا يعرف أكثر من هذه الكلمات.

وعلماء الصين لايعترفون بجهلهم أبدا، ويعتبرون أنفسهم من العلماء الأفذاذ، ولا يتراجعون أبدا عما يعرفون، واذا اعترضت على شيء مما تراه عندهم وجئت بالأدلة الفقهية من الكتاب بصحة ماتقول قالوا: نعم نعم، لكنها عادة صينية، ولا يقبلون منك ماتقول.

حتى أنهم بعد الصلاة يقرأون اية الكرسي: من ذا الذي يشفع عندها. واذا اعترضت وقلت لا ليس كذلك بل «عنده» لقالوا انها عادة مسلمي الصين، ولا يأبهون بما تقول.

لقاء مع سيد من أهل مكة في بكين

وخلال وجودي في بكين صادفت سيدا مكاويا، اسمه سيد حسين. تجول سيد حسين داخل الصين مدة عامين ونصف، من شرقها إلى غربها حتى وصل إلى بكين. و يقول (إن صح ما يقول): إنني طفت الصين شبراً شبراً، وكلما أقمت في بلد ليلة أو ليلتين بادرت في الزواج. تزوجت بستة عشر من البنات الباكرات، إنني أعرف أحوالهم جيدا، فليس بين علماء الصين من يقدر على قراءة وتجوز خلفه الصلاة. حتى نساؤهم لا يقدرن على الاغتسال بسبب صغر أقدامهن، فلا يستطعن أن يحملن الإبريق.

ومع ذلك فان مسلمي الصين معروفون بالصلابة في الدين، ويضحون بأرواحهم في سبيل الدين. ومساجدهم ومدارسهم عامرة، حتى أصغر القرى تجد فيها مسجدا ومدرسة، ويمكنني أن أقول بأن الصينيين قد سبقوا العرب في هذا المجال.

واجتماع الصينيين في موضوع الدين أمر جدير بالتقدير، فكل العداوات الشخصية ينسونها في سبيل الدفاع عن الدين. والحقيقة أن مثل هذه الانطباعات من سيد مكاوي خلال عامين ونصف أمر جدير بالثناء.

رجل صيني دون شعر

قابلت رجلين ليس لهما شعر، في قرية «واك ـ فان ـ جق» قرب بكين، وقد استغربت من الأمر لأنه لا يمكن أن تجد صينيا ليس له شعر.

أحدهما عبد الرحمن، وهو مسلم شديد التعصب، ويرفض أن يغير اسمه العربي، والآخر ولده يونس أفندي، واسمه الصيني «مه رديان ـ جين».

تعرفت على هذين الرجلين، فسألت عن سبب قص شعرهما، قال يونس:لقد رأيت في روح البيان إن تزين الرجال بما يخص النساء أمر غير جائز.

ـ متى قصصت شعرك، ألم يؤاخذك الصينيون؟

ـ لقد قصصت شعري قبل ثلاث سنوات، وعندما رأيت تلك العبارة في روح البيان أخبرت والدي، فبادر إلى قص شعره.

وفي اليوم التالي قمت بقص شعري، وعندها ثارت المدينة علينا، لقد تعرضنا لنقد لاذع من قبل رجال الحكومة والعلماء، لكننا استطعنا أخيرا إقناعهم بعض الشيء، نجونا منهم عندما أخلصنا النية وقرأنا لهم نص العبارة من الكتاب.

الأحوال الروحية للناس عجيبة كيف أن مثل هذه السخافات تكون عقيدة لملايين الناس، ثم يأتيهم أناس اخرون في زمن لم يتوقعوه، فيضربون تلك العقيدة الفاسدة ضربة واحدة فإذا هي منهارة. إنها أقيمت أساسا على الجهل، فلا تتحمل أي ضربة مهما كانت ضعيفة.

مغادرة بكين

أنا على وشك مغادرة بكين، أريد مغادرتها ولكن لا أملك مصاريف السفر، فماذا أفعل؟ كنت أرسلت رسالة إلى شيخ الله أفندي في ايرقوتسكي، وطلبت منه أن يرسل إلي بعض المال. وفي هذه الأثناء رأيت في المنام بأن شابا صينيا جاءني وقال لي: طلبوك في البنك لقد وصلك المال، ذهبت إلى البنك لأستلم المال، فوجدت ذلك المال على حاجز، جلس عليه شرطي روسي، فلم أتمكن من الوصول إليه.

وقد تكون الرؤيا أضغاث أحلام، ولكن لم أفقد الأمل، وانتظرت وصول المال بفارغ الصبر.

وفي حوالي الساعة العاشرة من صباح ذات يوم كنت في غرفتي، عندما جاءني صبي صيني، لم أعرف سبب مجيئه ولكنني تفحصت وجهه وكأنني أعرفه من قبل. طلبت الترجمان وسألت الصبي عن سبب قدومه.

قال: جئت لأخبرك بأن في البنك مبلغ مائة روبل وعليك الحضور للاستلام. وكنت في ذلك اليوم منشغلا في أمر من الأمور فأجلت الذهاب إلى اليوم التالي حيث توجهت إلى البنك، فقيل لي: ليس لك أي مبلغ عندنا، فالخبر عار عن الصحة، وكنت أتفحص وجه الموظف فأراه شديد الارتباك.

عجبت لما قالوا، فكيف يكون الخبر غير صحيح؟ حاولت التفكير فلم استوعب الأمر، وعدت إلى غرفتي وأنا في يأس شديد.

ثم إنني تذكرت تلك الرؤيا التي رأيتها قبل أسبوع، تذكرتها في تلك الساعة، فكان الصبي الذي دعاني إلى البنك هو نفس الصبي الذي رأيته في المنام، بدا لي وكأنني أعرفه.

فقدت الأمل في البنك، رغم أنني أصدق ما أراه في منامي، ما الحيلة لقد حدث ما حدث وليس بمقدوري أن أتحرى الأمر، يجب البحث عن طريقة لمغادرة بكين، وكيف لي أن أسافر دون مال؟ توجهت إلى المفتي عبد الرحمن أفندي لأقترض منه مبلغ خمسين دولارا، فلم يجد هذا المبلغ، فجمع من هنا وهناك، حتى بلغ عشرين دولارا.

قررت ترك بكين بهذا المبلغ مهما كان الأمر، وفي أواخر شهر جمادى الآخرة غادرت العاصمة الصينية.

خسة الموظفين الروس

كتبت إلى شيخ الله أفندي بعدم وصول المبلغ الذي أرسله، فاتصل شيخ الله أفندي بالبنك الروسي الصيني مبلغا بعدم الوصول وطالبا بإعادة المبلغ.

واتصل فرع البنك في ايرقوتسكي بفـرع بكـين، فـرد الفـرع في بكـين بتسليم المبلغ دون أن تذكر لمن سلم المبلغ.

وتابعت رحلتي، وبعد أن وصلت إلى اسـطنبول أي بعـد عـام كامـل أبلغني شيخ الله أفندي بما بلغه به فرع البنك في بكين.

أما أنا فقد أرسلت إلى علي رضا أفندي في بكين راجيا معرفة من تسلم المبلغ من البنك.

فرد علي رضا أفندي: إن المبلغ وصل إلى فرع البنك عندما كنـت في بكين، لكن الموظفين في البنك وكلهم من الـروس، سـلموا المبلـغ بعـد مغادرتك بكين إلى مفتي نوجه عبد الرحمن أفندي واك كوان، وأن عبـد الرحمن أفندي سيرسل المبلغ إليك لاحقا..

انظروا إلى هذه الخسة، هؤلاء الموظفون الروس يمنعـون عـن سـائح فقير حفنة قليلة من النقود وهو بأمس الحاجة إليهـا لتـأمين قوتـه اليـومي. فالدائرة التي نظنها بنكا تجاريا، تقوم عند الضرورة بمهمة التجسس.

والواقع فان هذه الحادثـة ليـست الأولى، لقـد حـدث مثلـها وأنـا في يوكوهاما، ووقتها لم يسلمني فرع البنك ذاته المبلغ وأعاده إلى مصدره.

فإذا كان هذا التصرف من ضرورات الحضارة التي يدعونها فليس لنا أن نقول شيئا. إن هذا ديدن الروس وقد عرفـوا بالخـسة والـدناءة، يفرحـون بالانتقام من عدوهم بتأخيره عن السفر عدة أيام!

خانقو

خانقو مدينة عظيمة جداً، فيها أضخم مصانع الشاي. وإذا ذكرت هـذه المدينة فأول ما يتبادر إلى الذهن هو الشاي، فكل أنواع الـشاي تـأتي مـن هذه المدينة، و الشاي تنتجه مناطق الصين كلـها بالـشاي إلا أن الـشاي الذي تنتجه خانقو والمناطق المجاورة لها لا تجده في أي منطقة أخرى.

وخانقو من أشهر المدن الصينية. ويربطها ببكين خط حديدي تسير عليه القطارات بثلاث رحلات يومية (المسافة ٧٥٤ ميلا).والقطار لا يسافر ليلا، بل يسير في النهار ويبيت في الليل وهكذا فإنه يقطع المسافة في ثلاثة أيام. و تقع بين المدينتين مدن إسلامية كثيرة، وفي كل مدينة أو قرية إسلامية توجد مساجد.

عزمت على السفر من خانقو إلى مدينة شنغهاي، لأنني لا أستطيع البقاء في خانقو لخلو جيبي من المال، ومن حسن حظي أني التقيت هناك بروسي اسمه وسيليف وهو عضو في البنك الروسي الصيني، فنزلت عنده ضيفا مدة يومين أو ثلاثة. ويمكن للمرء أن ينزل في المدارس أيضا، إلا أن اليأس يدفع المرء في بعض الأحيان إلى الابتعاد عن رؤية بعض الأشياء التي لا تعجبه، لقد تعبت في خانقو كثيراً، والواقع أنني أمضيت أيامي الأخيرة في بكين مريضا في المستشفى، ولما غادرتها إلى خانقو كنت متعبا جدا.

إن العبد لا يملك أمام قدر الله إلا التسليم بقدره وقدرته، خاصة أثناء السفر، و هو في حالة لا يملك شيئاً من المال، و حين ذلك سيكون مسلوب الاختيار تماما، ويستسلم للقدر رضي بذلك أم لم يرض. وأرى أن الاعتقاد بالقضاء والقدر يظهر في مثل هذه الظروف أكثر من غيرها.

وأنا بدوري سلمت قيادي للقدر وقررت أن أقطع المسافة من خانقو إلى شنغهاي سيرا على الأقدام. وفي الساعة السادسة من صباح يوم حملت أمتعتي على ظهري، وأمسكت عصاي بيدي وهي تعد الخطى، وساعتي في جيبي، وغادرت خانقو باتجاه الشرق، طالبا من الله المدد والقوة.

مغادرة خانقو

في الثالث أو الرابع من شعبان المعظم غادرت تلك المدينة، والحقيقة إنني لا أتعب من المشي، وقد تعلمت أحوال الرحلات في الصين وأعرف

أن الطرق أمينة ولا خطر منها، ولا يخشى المرء فيها على نفسه إلا من الذئب، وقد وجدت لذلك حلا، فكنت أحمل معي كيسا مملوء بتراب أبيض، فإذا أردت النوم ليلا رسمت بهذا التراب الأبيض دائرة حولي، فلا يستطيع الذئب تجاوز هذه الدائرة والهجوم على الفريسة. وهذا أمر معروف وشائع بين الناس.

(يحضرني أن أقول بأن ذئاب الصين أكثر حضارة من الأوربيين، لأنه يعرف معنى الحدود)

المسافة بين خانقو وشنغهاي (٥٨٥) ميلا، وكنت أسير بخطى ثقيلة، أقطع القرية تلو القرية. إن القرى في الصين تكاد تكون ملاصقة لبعضها. ويلاحظ على الناس في القرى، بأنهم يتفرجون على كل من يمر بهم، تجدهم واقفين يشيعونك بأعينهم، أما إذا صادفت مسجدا ونشدت بعض الراحة هناك تجمع حولك المئات، فإذا كنت مسلما قالوا: مسلماني، مسلماني، وقد رأوني حليق الشارب، فكان المجوس يتعجبون من لحيتي، ويسيرون خلفي مسافات طويلة للتمتع بمشاهدة هذه اللحية.

ومعلوم بأن اللحية في الصين نادرة، وان وجدت فليست من النوع المعروف عندنا، لذلك فإنهم يحدثون بي متعجبين ومشدوهين. ولا يقتصر هذا الأمر على القرى، بل كنت أرى أعداداً كثيرة من الناس في بكين يسيرون خلفي، وإذا جلست في الشارع أو في غرفة مطلة على شارع، يتجمع المئات في هذا الشارع لرؤيتي، وكنت أتعمد الجلوس ساعات في بعض الأحيان.

ويحضرني هنا بأن هذا التصرف البدائي لا يقتصر على الصينيين وحدهم، فان الصيني بزيه التقليدي، والتركي بطربوشه، يجلبان انتباه مئات الناس إذا سارا في بترسبوغ وموسكو وهما في وسط أوربا، ولذلك يحذر سفراؤنا في أوربا من لبس الطرابيش هناك.

ويروى بأن التتار عندما قدموا إلى بترسبورغ قبل ثلاثين أو أربعين عاما، وفتحوا فيها المحلات التجارية، كان الروس يأتون من مسافات بعيدة قد تصل إلى ثلاثين كيلو مترا ليشاهدوهم. وقد ذكر لي المرحوم إبراهيم أفندي اليشيف عدة مرات بأن عشرات من الناس كانوا يتجمعون حوله لمشاهدته.

وإذا استمر هذا الحال في بكين بعد خمسة وثلاثين عاما فلا غرابة بذلك، وكنت أتابع المشي من قرية إلى قرية وسط تشييع المئات من الناس، مشيت في ذلك اليوم حتى المساء، وبلغ عدد الخطى ٣٨ ألفا.

كنت أتحرى أن أبيت الليالي في القرى الإسلامية، ونادرا ما كنت أبيت في القرى المجوسية.

وهكذا سرت على الأقدام مدة أحد عشر يوماً و قطعت فيها ٥٨٦١١٨ خطوة، لقد تعبت كثيرا، ولذلك لم أتمكن من تسجيل جميع مشاهداتي، وقد صادفت أحوالا غريبة في القرى، كما أنني صادفت مراسي غريبة جدا على ضفاف نهر يانجييان، كانت تمر بي حالات نشوة، أطلق فيها العنان لصوتي، أؤذن في تلك الجبال وأقدر المسافات التي أقطعها بتلاوة أجزاء القران الكريم، فعندما أقرأ جزءا أكون قد قطعت مسافة ثلاثة كيلومترات. كان الجو لطيفاً جداً والحرارة تتراوح ما بين ٢٨ و٣٥ درجة، وكنت أغتسل في نهر يانجييان ـ كينغين، وأحيانا استلقي بجانب النهر فأنام، أو أستريح لبعض الوقت. وكلما مررت بقرية، كنت أشاهد الأطفال، فإذا كان من بينهم مسلم، نظر إلى فيراني حليق الشارب، فيسرع أمامي باتجاه المسجد، وهو يهتف «مسلماني ليلا» و«ليبه يصي» أي إلى المسجد.

كان الشعور الذي يظهر على هؤلاء الأطفال يشدني إليهم، وقولهم «ليلا ليلا» دعوة صادقة وشعور بالرابطة الأخوية، وكنت أرى البشاشة في وجوهم فأكاد أبكي فرحا، وكنت أبكي عندما أخلو لنفسي. وفي إحدى

المرات كنت جالسا على ضفة نهر، فغلبني الجوع، فنفرت الدموع من عيني، نظرت من حولي فرأيت صبيا في العاشرة من عمره، فإذا هو يبكي أيضا، كانت الدموع الترجمان الوحيد بيننا. إن مثل هذا السرور الطبيعي في هؤلاء الأطفال هو من معجزات الرابطة المعنوية في الإسلام. إنني لا أكاد أتمالك نفسي أمام أحاسيس هؤلاء الأطفال.

ثم أنني عندما أدخل القرى الإسلامية، أجد على أبواب بيوت المسلمين بعض الجمل بالحروف العربية مثل كلمة التوحيد، أو جملة يا مفتح الأبواب، أو البسملة الشريفة، أما في المحلات التجارية التي يملكها مسلمون فتجد على أبوابها صورة إبريق أو مسبحة، كل ذلك يدل على أن هؤلاء الصينيين يتعمدون إظهار إسلامهم.

وخلاصة القول بأن معنويات المسلمين العجيبة ليست قليلة، والمنصف لابد له أن يلحظها، فلا ينكرها من عنده قليل من الإنصاف.

ورأيت هناك بعض الصينيين المتنصرين بل رأيت الكثير منهم، وكان أطفالهم يهربون عندما يرون نصرانياً من الأمريكان أو غيرهم.

وخلال مدة الأحد عشر يوما من السير مررت بكثير من المدن الإسلامية الكبيرة، وفيها عدد من المساجد وفي بعضها يتجاوز عدد المساجد العشرين، وفي مدينة نانكين أحصيت اثنين وخمسين مسجدا، ومن بينها مساجد غاية في الروعة والجمال.

وأخيرا وصلت ذات يوم إلى مرسى «طاى صو» فاسترحت ليلة أو ليلتين. وكانت تمر منها يوميا سفن يابانية فارهة لنقل الركاب بين خانقو وشنغهاي وهي تشبه سفن «قفقاز ميركور» الروسية في نهر الفولغا. وكان بعضها حجمها صغير. وعلى العموم فإن كل السفن النهرية كانت يابانية.

وذات يوم صعدت ظهر سفينة راسية هناك، و بعد أن تعرفت على أحد موظفي الشركة النهرية، سألني: إلى أين أنت ذاهب؟ قلت: إلى شنغهاي،

فعرض علي أن أسافر بإحدى سفن شركته، كما أخبرني بأنه سيخصص لي مكانا في الدرجة الأولى.

شنغهاي

هذه المدينة هي أكبر الموانئ التجارية في الصين ومن أكبر الموانئ في العالم.

وهي أجمل المدن في الصين وتضاهي أعظم المدن الأوربية عند وصولي إليها توجهت إلى المسجد الكائن بحي "لوحالو "، وهو مسجد صغير ولكنه جميل ومنتظم، وبإضاءته الكهربائية ومفروشاته يماثل مساجد السلاطين عندنا. وتوجد بجانب المسجد خمس غرف خاصة بالضيوف، ومفروشاتها تضاهي مفروشات أحسن الفنادق، وهي أيضا مزودة بالكهرباء.

وقد أعطيت إحدى هذه الغرف. إمام المسجد رجل طيب النفس، وقد أظهر لي احتراما شديدا، وكان يعرف من العربية بالقدر الذي يمكن فهم ما يريد، انه ذو فكر نير وقد تحادثنا معه لبعض الوقت. في اليوم الأول جرت بيننا المحاورة التالية:

- إني لم أجد خارج مسجد لوحالو تماثيل كما هو الحال في المساجد الأخرى، فيا ترى ما هو السبب؟

ـ نعم لقد كانت أمام المبنى القديم كثير من التماثيل، إلا أنني خلال تجديد بناء المسجد قبل عشر سنوات بذلت جهودا كبيرة إلى أن وفقت في إزالة تلك التماثيل، وقد تعرضت بسبب ذلك لتوبيخ علمائنا، فلم ابه بذلك، وحدث نزاع كبير بيننا، حتى أنه بعد اكتمال البناء أوقفوا إكمال السطح مدة ثلاثة شهور. أقمنا الدعوى، وأخيرا وفقني الله بالتغلب على

علماء الصين جميعهم، وهذا المسجد بهيئته الحالية هو الوحيد في الصين الذي بني ولأول مرة بصورة تتفق مع الشرع.

- أظن بأنك أيضا الوحيد بين علماء الصين الذي يقص شعره، أليس كذلك؟

- لا، هناك اخرون و لكن عددهم قليل. إن أكثر علماء «نانكين» قصوا شعورهم ومع ذلك فان العدد قليل، وقريبا سيقص جميع علماء هذه المنطقة شعورهم.

- لا أرى عليك ملامح الصينيين.

- أنا صيني ولكن أجدادي من جهات «يونه نسي» ولا أدري كيف حافظ الآباء على ملامحهم التركية. ومهما كان الأصل تركيا، فلاشك في أننا من الأتراك المتصينين (المتحولين إلى صينيين). إن الأتراك في الصين وخاصة أتراك الجنوب الشرقي أصبحوا صينيين، ولم يبق من تركيتهم شيء، وعلى طول الطريق الذي سلكته من خانقو إلى هنا توجد قرى كثيرة، تسكنها سلالات تركية، ولكنه لم يبق من تركيتهم شيء، وأظن أنك رأيت ذلك بأم عينيك، فهل رأيت فيهم خصلة من الأتراك؟

- لم أر فيهم شيئا من ذلك و لكنني وجدت أن أسماء الأماكن تركية، ويبدو لي أن أسماء الأنهر أيضا هي أسماء تركية.

- ليس بعضها بل أكثرها، و إن أكثرية السكان في الصين قبل ثلاثة أو أربعة عصور كانت تتكلم اللغة التركية، حتى اللغة الصينية فإنها تنقسم إلى لهجات مختلفة. إن بعض الدارسين يقولون بأن عدد اللهجات ٢٤، ويعزون اختلاف اللهجات إلى اختلاطها باللغة التركية، واللغة الصينية في هذه المنطقة التي نحن فيها تختلف كثيرا عنها في أواسط البلاد، ويزيد الاختلاف كلما اتجهنا نحو الجنوب.و إنني أزيدك علماً بأن اللهجة في هاربين وما جاورها وحتى موقدن واحدة، ثم تتغير في شنغهاي وكوان

وتنزين وقانصو، ولكن الجميع يفهمون لغة بعضهم، أما في بكين والى الجنوب منها، فان سكانها يجدون بعض الصعوبة في فهم لهجة هاربين. إننا في منشوريا وفي خانقو و نانكين و مدينتنا، لا نستطيع أن نفهم شيئا من لهجة هاربين، ولكننا نفهم لهجة بكين بتمامها، وإذا اتجهنا إلى كانتون وخانكاو، فإننا نجدهم يفهمون لهجتنا بعض الشيء، ولكنهم لا يفهمون لهجة بكين. أما في الأعالي في صيجوان ويوننان وتونكين فإنهم لا يفهمون من لغتنا شيئا، ولهجة بكين وهاربين تختلف عن لهجة هؤلاء اختلافا بينا.

والخلاصة فإن الجنوب لا يفهم لغة الشمال، وأواسط البلاد تفهم بعضا من لغة الجانبين، ومجموع اللهجات ٢٤، ولكنني أعرفها جميعا، لأن الأساس واحد.

شنغهاي مدينة ضخمة جدا، تشاهد فيها أناسا من جميع أنحاء العالم: فيها كثير من العرب والهنود والإيرانيين، وأكثر منهم الإنجليز، وفيها فرنسيون وأمريكان، وألمان، واليابانيون يشكلون حياً خاصاً بهم، إلا أني لم أصادف أحداً من الأتراك العثمانيين.

أما من حيث البناء فلا فرق بينها وبين المدن الأوربية، فيها الكهرباء و الحافلات الكهربائية (الترامواي) والسيارات وغيرها، والهواتف مثل نسج العنكبوت.

إن هذه المدينة جزء من الصين ولكنها مدينة دولية، والحكم الإداري فيها بيد الإنجليز. إنها في مظهرها مدينة إنجليزية، ورئاسة الشرطة والوظائف الأخرى بيد الإنجليز، وقد تجد في بعض الأحيان عددا من الشرطة الصينيين ذوي الشعور الطويلة، ولكنهم تابعون لضواحي المدينة وليس المدينة ذاتها. إن والشرطة في مركز المدينة هم من الهنود بشكل عام أما رؤساؤهم فهم إنجليز. و أنى اتجهن وجدت أمامك مجوس الهند

وعلى رؤوسهم العمائم الضخمة وكأنهم زبانية جهنم ينفثون النار على من حولهم. و إن تسلط هؤلاء على الصينيين أمر تقشعر له الأبدان، وعندما ينظر المرء إلى الحكم في شنغهاي وتنزين وخانكان، يوقن بأن الإنجليز مسيطرون على الحكم سيطرة تامة.

الأجانب في شنغهاي

الأجانب في هذه المدينة يزاولون التجارة بكل حرية، والإنجليز يسيطرون على التجارة أكثر من غيرهم، وفيها عدد قليل من السوريين، حيث يوجد فيها شاب من أهالي بيروت اسمه صالح طباع، وله كلمته المسموعة في عالم التجارة. و يوجد من الإيرانيين عدد هم من كبار التجار، وكذلك الهنود، ولكن أكثرهم من الشيعة، وفيهم سني واحد اسمه (أمين بخش) وهو إنسان عالي القدر. إن، أمين بخش رجل مسلم، طيب، وقد أظهر لي مزيدا من الاحترام، وقد وعدني بأن يقدم أموالا كبيرة لبناء المسجد الذي نفكر في إنشائه بطوكيو.

كما لقينا التكريم من أخوة عيسى بهائي. ووجود مثل هؤلاء التجار الكبار من المسلمين في هذه المدينة أمر مهم للغاية، وجدير بالفخر والاعتزاز، ولكن عددهم أقل من غيرهم وهذا أمر يدعو للأسف، فلو كان عددهم أكثر، لقدموا خدمات جلى لمصالحنا في الصين.

المسلمون من أهل شنغهاي

إن عدد المسلمين الصينيين في شنغهاي قليل جداً، وهم يتجمعون في ثلاثة أحياء ولهم ثلاثة مساجد، و فيهم عدد من كبار التجار و للمسلمين جريدة خاصة، ولكن أكثر قرائها من المجوس. وصاحب الجريدة شمسي

«جن ـ جاك ـ لو» إنسان طيب جدا، يجيد اللغة العربية، كما يلم باللغتين الإنجليزية واليابانية. التقيت به عدة مرات، إنه موالي للسياسة الإنجليزية. علمت أن بأطراف شنغهاي كثير من القرى المسلمة، ولكنني لم أستطع الذهاب إليها كثيراً، لأن وضعي المالي لم يكن يساعدني، كما أن جسمي كان منهكا، لذلك فلم أستطع تخصيص وقت كاف لهذه القرى.

لقاء مع الآخون

الآخون «واك ـ تياك ـ فو» رجل ذو فكر حر بين علماء الصين، ويملك قدرة يستطيع بها ملاحظة ما يجري حوله. لقد تعرفت على هذا الرجل، ثم سألته عن رأيه في مستقبل مسلمي الصين، فكان رأيه كالتالي:

إن مستقبل مسلمي الصين مرتبط بمستقبل الصينيين أنفسهم، فإذا استطاع الصينيون حماية حقوقهم في السيادة، استطاع المسلمون الصينيون الحفاظ على إسلامهم. إن الحكومة الصينية الحالية تجهل كثيرا من الأمور، وإذا حزم الصينيون أمرهم، وصاروا في وضع يستطيعون به النظر في مسائل الدين بجدية، فقد يأتي زمان يهتدون به. و المسلمون من جانبهم لن يتركوا دينهم بأي حال من الأحوال. أما إذا سيطر الإنجليز على البلاد ووضعوها تحت حمايتهم، فذلك هو الموت الأحمر للمسلمين، لأن الهدف الأساسي للإنجليز هو القضاء على الإسلام قضاء مبرماً.

إنهم يحاولون الآن التدخل في شئون مساجدنا و مدارسنا، مع أنه ليس لهم أي حق في هذه البلاد، إنهم يريدون أن يعبثوا في مدرستي، فبالأمس أرسلوا عددا من رجال الشرطة من المسلمين الهنود، وزودوهم بكتاب، يطلبون فيه أن نخصص لهم غرفتين ليقيموا فيهما. إنهم يدسونهم

بيننا بصورة مؤقتة، ثم لا يلبثون أن يحولوا المدرسة إلى فرع لإدارة الشرطة.

على كل حال كنت على بصيرة من الأمر، استقبلت هؤلاء الأفراد من الشرطة. ثم أرسلوا بعد ذلك إلينا التهديدات، واثرنا السكوت حيالها، ولو دخلنا معهم في نقاش لوجدوا سبيلا للتدخل الفوري، ولكن كانت العاقبة لنا ولله الحمد. ولو سيطر الإنجليز على الحكم في البلاد بصورة فعلية، لتدخلوا مباشرة في شؤوننا الدينية، وهذا أمر لاشك فيه. فمن جهة يقوم المنصرون بالهجوم علينا مثل الذئاب، ومن جهة أخرى نراهم يتحينون الفرص كي يشنوا علينا حرباً اقتصادية وسياسية، وستكون العاقبة بالنسبة لنا حينئذٍ وخيمة، لأن أمتنا جاهلة، وستوافق على كل ما يقولون بمرور الزمن، وهكذا يتعرض مسلمو الصين للقضاء المبرم خلال بضع سنوات.

ـ وهل هناك احتمال أن يستولي الإنجليز؟ وهل يسكت الأوربيون على ابتلاع الإنجليز لكل هؤلاء البشر؟ هل يرضون بذلك؟ إن القضية مهمة جدا و لا أرى أبداً أن يتمكن الإنجليز من ابتلاع هذه البلاد، بل لن يسمح لهم بذلك.

نعم وهذا هو الظن الغالب. ومع ذلك فان الإنجليز يتبعون في هذه البلاد سياسة السيطرة عليها دون استعمال القوة. و أرى أن الإنجليز إن لم يجدوا من يعارضهم من الدول الأخرى فسيحتلون البلاد بكاملها خلال عشر سنوات.

إن لدي كثير من الأدلة على ما أقول، ولكني لا أستطيع أن أبوح بها. إنني أعرف بعض موظفي الشرطة، وقد أطلعت منهم على كثير من الأمور.

ـ وهل بين رجال الدولة الصينية من له مثل هذا الرأي الحر؟ وهل هم قادرون على التفكير بمثل ما تفكر به أنت؟ وهل هناك تفكير في إيجاد حل؟

ـ انظروا، وجودهم، ولكن قد يكون عددهم محدودا.

ـ انظروا، إمام صيني مسلم له مثل هذه الملاحظات والآراء! من النادر أن تجد في داخل الصين إنسانا مثل هذا الآخون...

التقيت بهذا الرجل عدة مرات، وتبادلنا الأفكار، إنه يرى أن نصف البلاد هي بيد الإنجليز، استولوا عليها دون حرب.

مغادرة شنغهاي

بعد أن تجمعت لدي مصاريف السفر بجهود الآخون في شنغهاي، لم أضيع الوقت في السفر إلى مدينة هونج كونج. والسفن بين المدينتين ليست كثيرة ولكن توجد بعض السفن الصغيرة يمكن للمرء أن يسافر بها في أي وقت. ركبت إحدى السفن الصغيرة متوكلا على الله، والجو ينذر بعاصفة، وقد جاء الآخون إلى السفينة ليودعني، وأعطاني حبوب وقال: إن شعرت بدوار وتعب، فابتلع واحدة منها، فسوف لا تتأثر بدوار البحر إن شاء الله.

وبعد ساعة من الإبحار هبت عاصفة شديدة.. وأنا قليل التحمل للعواصف البحرية، فتناولت حبة من التي أعطاني إياها الآخون، فلم أشعر بدوار البحر أبدا. إن جميع الركاب على متن السفينة هم من الصينيين ذوي الشعور الطويلة، ولم أكن أعرف لغتهم، لذا لم أستطع التحدث إليهم، وكنت أمضي وقتي بالكتابة في مقصورتي، والمسافة لم تكن بعيدة، كما أنني بمنجاة من الدوار.

كانت السفينة تتأرجح بشدة، فأصبح أكثر الركاب في حالة تعب وإعياء، و صعدت قرب المغرب على ظهر السفينة لاستنشاق قليل من الهواء الطلق، عندها جاءني صيني، فتمتم ببعض الكلام، فلم أفهم منه شيئا. ملابسي صينية، ولكن لغتي مختلفة، فكر قليلا، فتكلم بكلمات إنجليزية، ففهمت منها كلمة "اورايت" فقط، أراد أن يتكلم بالفرنسية فلم يستطع، وأخيرا سألني باليابانية: من أين أنت؟ فأجبته: تتاري من روسيا، فطفق يتكلم بالروسية وقال: إن البحر يشتد هياجه كثيرا في الليل، و إذا نمت الآن فلن تتعرض للتعب كثيرا. و قد كان البحر كما قال، وتعب الناس، ولكنني لم أتأثر والحمد لله.

رؤيا بتلك الليلة

اهتم بالرؤيا كثيرا. في تلك الليلة، رأيت الجنرال أوليخان، عليه حلة جديدة، وعلى رأسه عمامة حمراء، كان يودعني، وكانت ليلة الجمعة في الثاني والعشرين من شعبان المعظم.

هونج كونج

توجهت إلى الجامع مباشرة، ورأيت الناس متجمهرين حوله، ومن تعالي أصوات الناس عرفت بأن هناك نزاع وشجار. وضعت أمتعتي فوق مصطبة، وسلمت على الحاضرين، قرأت العبوس والوجوم على وجوههم، ولم أسمع منهم الرد على سلامي. سمعت أصواتاً داخل المسجد. توجهت ببطء نحو الباب، فوجدت المسجد غاصا بالناس، وعلى المنبر رجل يخطب فيهم.

وكان الحضور في داخل المسجد وخارجه من الهنود، ولم أشاهد فيهم أحدا من الصينيين، كما أن الخطيب كان يتحدث بلغة الهنود.

لم أجد مكانا داخل المسجد، فوقفت على الباب أستمع لما يقول الخطيب، والحقيقة أنني لا أعرف لغة الهنود، ولكني من الكلمات الفارسية والعربية والتركية التي تتخللها أحسست بأن موضوع الخطبة يتعلق بالاختلاف المذهبي.

قام أحد الحاضرين وبدأ كلامه قائلا: ومن يقتل مؤمنا متعمدا، فجزاؤه جهنم خالدا فيها أبدا، وتكلم قدر نصف ساعة. فكرت في احتمال وقوع نزاع شيعي ـ سني، ولكني لا أعرف أساس الموضوع. ومع ذلك شعرت بأن الأمر جد وخطير. ولتوالي الآيات والأحاديث، توقعت أن يكون من بين الخطباء بعض العلماء. رأيت بينهم كثيراً من أصحاب العمائم، وبعض العمائم مزركشة بالذهب، ولو عرضت هذه العمائم للبيع في سوق الحراج والمزاد، لوجدت من يشتري بعضها بمائة ليرة!! نعم كل أولئك رأيتهم، ولكنني لم أر في الجالس على المنبر أي صفات مميزة عن الرجل العادي. أدركت أن الموضوع قيد النقاش، موضوع ديني إلا أني لم أفهم النتيجة، واستمرت الجلسة ساعتين. وأخيرا خرج من بين الحاضرين عدد من الأشخاص وسط ضجيج وصياح عاليين، ثم أذن المؤذن لصلاة العصر، فتوضأنا على عجل، وصلينا العصر مع الجماعة وكان هناك بالإضافة إلى الأمام أربعة أشخاص أحدهم هو الذي كان على المنبر.

وبعد الصلاة صافحني ذلك الخطيب وسألني بالعربية «كيف حالك»، وعندها سألته عن هذا الاجتماع، ظنا مني بأنه يعرف العربية، إلا أنه أجابني بكلمة واحدة «نهي». خرجت من المسجد يائسا، وعند الباب وجدت بعض الناس، وكان أحدهم يجيد العربية، فكان سروري به عظيما.. وكان بينهم الخطيب الذي تعرفت عليه ولم أضيع الفرصة أبدا، وبادرت بالسؤال عن الموضوع فكان الجواب كالتالي:

قبل عشرين عاما ظهر في الهند مذهب اسمه القاديانية (وسنذكر تفاصيل عن هذا المذهب في حديثنا عن رحلتنا إلى الهند)، وكان أحد أتباع هذا المذهب يعيش في هذه المدينة منذ مدة طويلة، وقد بايعه عدد كثير من الناس، والآن يطالبون بحق لهم في المسجد، وأنهم مسلمون أيضا، ويعرضون أن تكون حق العبادة مناصفة بينهم، أسبوع لأهل السنة وأسبوع للقاديانيين، وأنهم تقدموا بطلب إلى الحكومة الإنجليزية، فردت الحكومة: بأن يجتمع الناس وينظروا إلى قرار الأكثرية وليكن المسجد تابعا لهم.

إن كل المسلمين هنا من التجار الهنود، والقسم الأعظم منهم من الشيعة والإسماعيلية، وقليل منهم من السنة الشافعية، أما الأمام فهو حنفي المذهب، ورأي هؤلاء إنه إذا تفرقوا إلى مذاهب وشيع، فقد يشكل القاديانيون الأكثرية، ولذلك فقد اتفق السنة والشيعة على المطالبة بالمسجد، واجتمعوا لتحقيق هذا الهدف، إلا أنه قام بعض الشيعة وأعربوا عن عدم إمكانية الاتفاق مع الذين يترضون! على من قاتل الإمام (أي الصحابة الآخرين) واستمر النقاش طويلا، و انتهى الأمر بالاتفاق مجتمعين على مجابهة القاديانيين.

المذاهب والدول

إني لا أرى أن هذه مناسبة للتطرق إلى موضوع المذاهب، وإني أعد القراء الكرام بأن أقدم معلومات مفصلة عن المذاهب بشكل عام وأسباب ظهورها، وذلك في البحث الخاص عن الهند. أما الآن فلي بعض الملاحظات عن علاقة المذاهب بالدول والحكومات.

يدعي علماء النصارى في القرن العشرين، بأن الدين لم تعد له أهميته السابقة، وينصحون الناس بالعالمية والإنسانية. إن هؤلاء الغربيين يعرفون

دواخل بعض الشرقيين المفتونين بالحضارة الغربية، فيوجهونهم إلى قطع علاقتهم بالدين. وهم من جهة أخرى يستغلون الدين لتحقيق أغراضهم السياسية. والإنجليز الذين عرفوا بالمكر والدسائس أغروا المسلمين الهنود بمذاهبهم ووفقوا في بث التفرقة والشقاق بين المسلمين. نعم لقد استطاع السنة والشيعة الاتفاق على تخليص المسجد من براثن القاديانيين، ولكن لابد أن يأتي يوم يوقع فيه الإنجليز بين السنة والشيعة، وستحدث منازعات مذهبية كبيرة، وسيتفرج الإنجليز بشماتة من بعيد.

مساكين هؤلاء المسلمون، إنهم في كل مكان يقعون ضحايا للحكومات، ويحل بدل الوفاق، الشقاق والفراق.

بعد أن عرفت الموضوع، وضعت أحمالي في إحدى الغرف الخاصة بالضيوف، و تعرفت في اليوم الأول على الضيوف هناك قبل أن أتعرف على معالم المدينة.

وكان من بين هؤلاء الضيوف الأعزاء أناس من مكة والمدينة والهند والصين، وكانت المضافة عبارة عن غرف للنوم فقط، وكان الضيوف يأكلون من جيوبهم، ويعفون من دفع أجور المبيت، وكل من يمر بهذه المدينة فإنه ينزل في هذه المضافة. هذه هي العادة في عموم ديار الصين.

وفي اليوم التالي خرجت للتجول والتعرف على معالم المدينة، وجلت بناظري في أنحائها، فتذكرت بأن هذه المدينة هي من بلاد الصين، ولكن لم يكن عقلي يصدق بأنها مدينة صينية، فمن النادر أن تصادف صينيين من ذوي الشعور الطويلة. أينما نظرت، ترى الأوربيين والهنود و اليابانيين، أما الصينيون فهم من طبقة الحمالين والباعة وغيرهم من الطبقات الدنيا.

وبينما كنت أتنقل بين المحلات التجارية، وقفت أمام معرض للسيارات، فإذا برجل أوربي، يسلم على الرجل الواقف أمام المعرض قائلا: سلام عليكم، كيف حالك، ثم بدأ يكلمه بالإنجليزية. ولم يطل به

المقام حتى غادر المحل. عندئذ اقتربت من الرجل وسلمت عليه، ورد علي بالسلام، والترحيب، وسألني من أكون، ومن أي بلد، وعرفت منه أنه عربي، ثم دعاني إلى مكتبه داخل المعرض. ولما عرفت منه بأن المعرض بما فيه وكذلك مصنع السيارات هو ملك له، رجوته أن يسمح لي بالتجول والمشاهدة.

وجدت بأن خلف المعرض مصنع ضخم، يعمل فيه الكثير من الصينيين. عامل. عربي وابن عربي، يملك مصنعا للسيارات في بلاد الصين. واسم هذا الرجل محمد موسى. حصلت منه أيضا على معلومات عن مدينة «هونك كونغ». إن هذه المدينة تقع ضمن خارطة الصين ولكنها في الواقع تحت تصرف الإنجليز منذ سبعين عاماً، ولهم فيها حوض ضخم لصناعة السفن. هذا الميناء العظيم صار ملكا للإنجليز، اسم الميناء صيني ولكن السلطة للإنجليز.

لقيت من السيد محمد موسى الكثير من الاحترام والتكريم، وكان له الفضل في أن أتعرف على أكابر أهل المدينة وأعيانها. وكان من بينهم تجار كبار من الهنود والإيرانيين. وفي ذلك اليوم تعرفنا عن طريق محمد موسى أفندي على عدد من الذوات. إن لقاء مثل هؤلاء في ديار الغربة، أمر يسر النفس. إني أتذكر هذه الأيام بكمال الشكر والحمد والمنة لرب العالمين، فان مجرد السلام الذي هو شعار الإسلام يولد بين المسلمين الأخوة الصادقة.

وقد تعرفت على تاجر أيراني من سكان هونك كونغ اسمه محمد نمازي وهو رجل إيراني مسلم وشديد الاعتزاز بإسلامه، يشتغل في هذه المدينة بالتجارة. إنه مثال للإنسان الفاضل، يتقن اللغات الأوربية، وله إلمام باللغة العربية، وقد جرت بيني وبينه أحاديث كثيرة.

ثم التقيت بالسيد عبد القادر أفندي وهو من أهالي بومباي، ومن كبار الأغنياء، وهكذا تعرفنا خلال يوم واحد على كثير من الرجال، وحضرنا مجالس خاصة بهم.

وفي هذه المدينة أجناس كثيرة من المسلمين إلا أن الشيعة الإسماعيلية من أهالي بومباي يشكلون الأكثرية، وفيهم كبار الأغنياء، والتجارة في أغلبها بأيديهم، كما أن فيها رجل اسمه عبد الله فقير وهو من مواليد هذه المدينة ومن أقدم المسلمين فيها.

وعبد الله فقير يصح أن نسميه مؤسس مدينة هونك كونغ. ويحتكر هذا الرجل شؤون الماء والكهرباء في هذه المدينة. ومهما كان اسمه فقيرا، فهو من أغنى الأغنياء و له العديد من الفنادق والمضافات والحمامات. وهو الذي أنشأ الحافلات الكهربائية، ولكنه تنازل عنها مؤخرا للبلدية لتقدم عمره. إن إثبات المسلمين وجودهم في مثل هذه المرافق أمر يستحق الشكر والتقدير.

مدينة هونك كونغ

إنها ليست مدينة كبيرة، تمتد على سفح جبل، زينتها أنواع كثيرة من الأشجار المثمرة، وكل منزل فيها له حديقة خاصة، كما وصل البناء إلى قمة الجبل، وربط أسفل المدينة بأعلاها بالهاتف والحافلات الكهربائية، والشوارع على السفح جميلة ومنتظمة. و لما كانت المدينة حافلة بالنشاط التجاري، فان كثيرا ممن يهتمون بهذا النشاط قدموا إليها واستوطنوها، إلا العثمانيين والروس، فلم أجد فيها أحدا منهم. سألت، وبحثت عنهم، وأخيرا وجدت عددا من العرب، وهؤلاء عثمانيون.

إلا أن الذي كان يؤلم ضميري في هذه المدينة وأتعبه، هو التنقل في المرتفعات وبين الأحياء. فهناك الريكشات المخصصة للتنقل في الطرق المنبسطة أما إذا أردت أن تصعد إلى المرتفعات فان هناك أل"كوروما" التي

يحملها رجلان، وهذا أمر ثقيل على النفس. لقد وضعوا كرسياً على عصاتين طويلتين، يجلس الراكب على الكرسي، فيحمله الرجلان ويصعدان به إلى المكان المرتفع. كل هؤلاء الرجال صينيون، وقبل كل شيء فهم بشر مثلنا، نعطيهم بضعة دريهمات لنركب على ظهورهم، هؤلاء المساكين تراهم وكأنهم يزحفون كي يصعدوا بك إلى مسافة ثلاثمائة أو أربعمائة متر. وهناك من يدفع المبلغ الزهيد كي يصعد إلى مسافة كيلومتر. وقد حرصت أن أرى مكان ارتكاز العصا على أكتافهم، فوجدت أن ذلك المكان قد أصبح مثل جلد البهائم. أنه أمر محزن حقا، و إني لأظن بأن متحضري أوربا لا ينبسون بشفة في هذا الموضوع. فالرجال الذين أسسوا جمعيات الرفق بالحيوان في أوربا يحملون الناس في هذا البلد مالا تطيقه الحيوانات. ومع ذلك فانهم يعتبرون أنفسهم دعاة الحضارة والإنسانية.

توجهت من هذه المدينة إلى مدينة كانتون وهذه هي المعلومات التي حصلت عليها:

كانتون (كوانجو)

وهي على بعد ثلاث ساعات من مدينة هونك كونغ، فإذا ركبت سفينة الخليج، تشاهد مدينة كانتون، وتسير بين هاتين المدينتين رحلات يومية تقوم بها السفن عدة مرات في اليوم، إذ يمكن للمرء أن يذهب اليوم ويعود غدا، أو يذهب صباحا ويعود في المساء.

ومدينة كانتون أقدم مدن الصين، يزيد عدد سكانها عن مليون ونصف المليون، ولا أبالغ إذا قلت بأن كل سكان المدينة هم من الصينيين. ومع ذلك فانك تصادف كثيرا من المنصرين ومن التجار الأوربيين.

وتجد بين الصينيين الأصليين كثيرا من المسلمين، ويقال أن عدد مساجدها يربو على خمسين مسجدا. لقد أسعفني الحظ في هذه المدينة

أكثر من أي شيء بمشاهدتي المسجد المنسوب إلى سيدنا سعد بن أبي وقاص، ولكنني حزنت بعد مشاهدته.

وكما ذكرت قبل قليل فان مدينة كانتون مدينة صينية قديمة جدا وان الإسلام انطلق إلى ديار الصين من هذه المدينة. هذا ما يقوله كل الصينيين، فالإسلام تأسس أول ما تأسس في هذه المدينة ودخل الصين من هذا الباب.

لقد وفق الله سيدنا سعد- وهو من العشرة المبشرين بالجنة - في إرشاد أهل هذه الديار إلى الإسلام، وأنشأ جامعا ومدرسة. والجامع الذي ينسب إليه لا يزال قائماً، وواضح من داخله وخارجه بأنه جامعٍ موغل في القدم. والمسجد يوشك على السقوط، فهو قديم ومهلهل جداً، وبعض جوانبه خرب لا يستعمل، وجوانب أخرى أسندت بأعمدة. ويتصل بالمسجد قبر، قالوا بأنه قبر رجل اسمه قاسم، وهو من رجال سعد بن أبي وقاص. وقد رأيت حجرة منحوتة تبين تاريخ بناء المسجد، و هي قديمة جدا، فيصعب قراءتها، إلا أنني تمكنت من قراءة: "قد تم بناء العمارة ثانيا (٥٨٨) أما الرقم الأحادي فليس واضحا، وقد يكون الرقم ستة أو ثمانية. إلا أن هناك كتابة صينية في أسفل الكتابة العربية تبين تاريخ الإنشاء ترجمه لي الصينيون وقالوا بأنه بني قبل ثمانمائة وأربعة عشر عاما (ونحن في عام(١٩٠٩ من الميلاد).

وعلى أية حال فانه يمكن معرفة التاريخ التقريبي لبناء هذا المسجد أو إعماره. أما الأمر المشكوك فيه فهو بناؤه من قبل سيدنا سعد بن أبي وقاص ﷺ. و الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أنه مسجد قديم، و أنه من الآثار الإسلامية القديمة ومعروف لدى كتب التاريخ الصينية، وهذا يثبت أحد أمرين:

إما أن تكون كتب التاريخ تحافظ على الأكاذيب التي لا أصل لها ولا أساس، أو أن في هذه المدينة شيء من كل الآثار الإسلامية، (وأنا من جهتي أقبل بالشق الأول)، وفي جهة المحراب يوجد عدد من اللوحات القديمة جدا مكتوبة بخط عربي. والخلاصة أن اسم سيدنا سعد مشهور في هذه الديار، والناس يستمدون من مرقده ما يستمده الناس من مرقد أبي أيوب الأنصاري وسائر الأصحاب الكرام في بلادنا.

وبعد أن لاحظت أن المسجد يحتاج إلى إصلاح، التقيت بالمتولي والآخون وسألتهما عن سبب عدم إصلاحه، فقالوا بأن المسجد لا وقف له والحي فقير، فاقترحت عليهما بفتح دفتر للتبرع و لكنهما هزا كتفيهما. ولما كانت مدينة كانتون مركزا تجاريا، فان الاف الأجانب يترددون عليها، وكل من يأتي إلى المدينة يحرص على زيارة هذا المقام، إلا أنه مما يؤسف له، أن الذين يرون المسجد سرعان ما يعزون ذلك إلى الإسلام.

وقد صادفت هنا رجلا من يهود حلب، ظننته لأول وهلة بأنه من العلماء العثمانيين، لأنه كان يرتدي جبة وعمامة، وبعد السلام عليه سألته بالعربية عن بلده فقال: إنني موسوي حلبي الأصل.

قال لي هذا الرجل: لقد ضاعت من المسلمين حميتهم الدينية، ولو لم يكن الأمر كذلك لما رأينا مسجدا ينسب إلى رجل هو من العشرة المبشرين بالجنة في هذه الحالة. و حتى وان لم يكن ذلك ثابتا، ألا يشرف المسلمين أن يحافظوا على سمعة هذا الرجل؟، إن الروحانيين النصارى يحدثون أماكن مقدسة في القدس كل عام من غير أن يكون لها أصل أو أساس.

لقد حز في نفسي ما سمعته من فم هذا اليهودي، لأنني لم أجد جوابا خيرا من السكوت. وما بوسع عاجز مثلي أن يفعل؟. إن الخجل منعني من

أن ألتقي بهذا اليهودي مرة ثانية، كما لم أستطع أن أسأله عن شخصيته وعن سبب قدومه إلى هذه الديار. وكل الذي قاله من تلقاء نفسه هو أنه قادم من لندن.

المنصرون مرة أخرى

يكثر هؤلاء الحشرات المعروفين بالمنصرين في مناطق كانتون. وقد ذكرت قبل هذه المرة بأنك تجدهم في كل الولايات الصينية ولكنهم يتواجدون في كانتون أكثر من غيرها لأهمية مركزها. إن السيطرة على كانتون تعني السيطرة على بوابة الصين. لأن هونك كونغ مستعمرة إنجليزية، وبمرور الوقت يمكن إلحاق هذه المنطقة بهونك كونغ، وتكاد تكون هذه المنطقة منذ الآن تحت سيطرة الإنجليز، وكلما توسع فيها التواجد النصراني، كلما تولد لدى النصارى الشعور بحق التدخل في شؤون هذه البلاد. ولقد حصل النصارى على حق التدخل في الصين عن طريق الامتيازات، ولذلك فان النصارى اطمأنوا إلى أن السياسة الاستعمارية تحت ستار الدين هي أقرب الطرق للوصول إلى تحقيق النتائج. إن هذه هي السياسة التي يطبقونها في الصين بل وفي كل بلدان الشرق، فهم يحاولون إقناع الشرقيين بأنه لم تعد هناك أهمية للدين، مدننا بما غير ذلك من الكلام، إلا أنهم يستغلون دعوتهم للدين لتحقيق أطماعهم السياسية. فكل المدارس التي أنشئوها في الشرق هي مدارس دينية، وفي مدننا بما في ذلك مركز الخلافة توجد مدارس صرفت الملايين لإنشائها من قبل أثرياء أمريكيين وفرنسيين، خدمة للنصرانية، حيث يصطادون كل عام الافا من أبناء الوطن الذين يرتمون في أحضان العدو. إن النظر إلى المنصرين نظرة سطحية تعتبر غفلة كبرى أو تغافل، والغافلون قد يعذرون، أما المتغافلون فيجب أن يسألوا عن تغافلهم.

وفي كانتون و ما جاورها زرت كثيرا من الأديرة، وقد ارتديت زي الدراويش الصينيين، وعرفتهم بنفسي بأنني درويش من التي شهر الصينية، وذلك إتباعاً لنصيحة الرحالة الشهير لاطيغين عندما التقيت به في هاربين، فكنت أتكلم بلهجة أهل كاشغر، وترجماني كان منهم. وقد اعتقدوا بأني كاشغري، فبدءوا يتطاولون على شريعة الإسلام متذرعين ببعض العادات المنتشرة بين مسلمي تركستان الصينية، وكنت أتظاهر بالبساطة، وقلت بأن المنصرين سجلوا بعض النجاح بين المجوس في مناطق التي شهر وتارباغاتاي، ولكن لم يتمكنوا من التأثير على المسلمين.

وحاول المنصرون أن يظهروا لي كرما شديدا، فأطلعوني على كل أقسام الدير، وأشاروا إلى غرفة فيه وأبدوا استعدادهم لأن يستضيفوني فيها أسبوعا أو عشرة أيام، وأومئوا مبتسمين بأنهم سيخصصون لخدمتي خادمة صبية أو خادما، مؤكدين بأن كرم الضيافة عندهم هو من مزايا النصرانية.

أما أنا فكنت أتحدث دائما ببساطة، وأظهرت أنني سأعود بعد أيام لأكون ضيفا عليهم، وأن هذه الغرفة تناسب العبادة والجلسة الهادئة، وكنت أقصد أن أجد وسيلة للخروج من هذا المكان. حاولوا كثيرا أن يبقوني عندهم، ولكنني ولله الحمد استطعت التخلص قبل حلول الظلام، وفي ذلك اليوم لم أمكث في هذه المدينة بل ركبت اخر سفينة تقلع وعدت إلى هونك كونغ.

إن المرء عندما يفكر في مساعي ونشاط هؤلاء المنصرين، لا يسعه إلا أن يكبر فيهم صبرهم وثباتهم. إن أكثرهم متيقنون من بطلان دينهم، ومع ذلك فإنهم يستغلون باطلهم في سبيل مستقبل شعوبهم، ويضحون من أجل سياسات حكوماتهم، ويتحملون كل المشاق من أجل هذا الهدف، يبتعدون عن أهلهم و ذويهم خدمة لأوطانهم وشعوبهم.

وبعض جهلتهم يقومون بهذه التضحيات باسم الدين، وكثيرون منهم يتبنون مهمة الدعوة، واخرون يلجئون للتسول لتأمين مصاريف هؤلاء. وهكذا نرى مئات الآلاف بل الملايين من الناس يضحون من أجل دينهم، أو يستغلون الدين من أجل مستقبل شعوبهم. يتعاون معهم أصحاب الملايين للوصول إلى الهدف المنشود.

ولم يسلم حتى الآن من تسلطهم سوى أرض الحجاز، أما ما عداها من بلاد الشرق، فتجدهم بكثافة في كل مكان.والحقيقة إن التضحيات التي يقوم بها النصارى في سبيل دعواهم أمر ملفت للنظر ومثير للعجب.

أما نحن، وأما علماؤنا

نحن نريد أن نكون بأنفسنا ممن وصفوا بورثة الأنبياء، إلا أننا لو قمنا بفحص شامل لأنفسنا، لما استطعنا أن نعرف ماذا ورثنا؟ ولماذا ورثنا؟، حينذاك لابد من أن نعلن إفلاسنا. فلا علماؤنا، ولا حكامنا ولا خلفاؤنا، ولا أغنياؤنا يدركون بأن علينا أن نقوم بمثل هذه المهام في الدنيا. وا أسفي ألف مرة على ما صرنا إليه. إننا لم نكتف بترك الدعوة في الخارج، بل عملنا على تنفير شبابنا من الإسلام وتجرأنا على تكفير إخواننا لأتفه الأسباب، وهم مسلمون صاغرا عن كابر. لقد تفنن علماؤنا في تكفير بعضهم بعضا وانقلبت مفاهيمنا، واستولى الجهل على أفراد شعوبنا، وفقدت منا شوكة الإسلام، فنرى بعض علمائنا وقد اتخذوا المال دينا، وتركوا واجب التضحية بالنفس في سبيل الدين، وجعلوا الشريعة الغراء وسيلة لسفههم وهوى أنفسهم الأمارة بالسوء. ولو عدنا إلى ضمائرنا في محاكمة أوضاع علمائنا، فلا يسعنا إلا أن نعترف بان علماءنا هم سبب مصائبنا.

فإلى متى نستمر في غفلتنا، وحتى متى يبقى علماؤنا في غيهم، ومتى نقوم بواجبنا في إفهام الناس حقائق الإسلام، بل متى ندرك نحن هذه الحقائق. كلما فكر الإنسان في هذه الأوضاع لا يسعه إلا إن يصاب باليأس، ولا يرى أي بارقة للأمل، فلا يملك بعد ذلك إلا أن يقول بلسانه: «أصلح الله أحوالنا».

أين أهل الحمية من المسلمين، بل أين أصحاب الضمائر؟ أليس هناك من يكلفنا بواجب نقوم به، أو يكشف أولئك الذين يدعون العلم على حقيقتهم؟ الحقيقة أن الحيرة نهاية كل تفكير في حالنا.

تعرفت في هذه المدينة على كثير من مسلمي الهند، والتقيت بعبد الله فقير وعبد القادر عيسى بهائي مرات عديدة، وتذاكرنا في أحوال العالم الإسلامي، كما تطرقنا في حديثنا للوضع الجديد في الحكومة العثمانية. وقد أكد عبد الله فقير على أن حياة المسلمين تتوقف على تطور ورقي الدولة العلية، وأن على المسلمين أن يتضامنوا فيما بينهم.

وذات يوم حضرت اجتماعاً في منزل هذا الشخص، وكان من بين الحاضرين عدد من أعيانِ البلد، فلما جاء دوري في الحديث، أثرت موضوع جمعية الأسطول العثماني و قيامها بخدمة الوطن والأمة بدافع الحمية الدينية وأكدت في نهاية حديثي على ضرورة مشاركة المسلمين في هذا الأمر المشروع. وقد لاحظت على عبد الله فقير التأثر الشديد، واغرورقت عيناه بالدموع، وقال بأنه ليس هناك ما يمنعه من المشاركة، ومسح دموعه، وهو يبدي أسفه على عدم علمه بأحول إخوانه المسلمين. ولو كانت لدي الجرأة الكافية في هذا الموقف، لأعددت قائمة لجمع التبرعات هناك، حيث كانت نفسية الحاضرين مهيأة للبذل، ولكنني لم أقدم على هذه الخطوة لأنها خارج مهمتي.

تأكدت من هذه الحالة عند المسلمين في أكثر من مجلس، وعرفت أن قلوب المسلمين في اتجاه واحد، ولو أن علماءنا، كانوا قدوة لهم، وشرحوا معنى التعاون والتعاضد و التناصر، فليس هنالك من شك بأن المسلمين سيجودون بكل ما عندهم من أموال لنصرة الدين.

كنت في هونك كونغ عندما دخل شهر رمضان المبارك، كان يوم جمعة (١٧ سبتمبر) ويوم رمضان هو يوم الغفران. وكانت درجات الحرارة ما بين ٣٣ -٣٥ مئوية، وقيام المسلمين بهذه الفريضة الدينية في مثل هذا الجو أمر جدير بالتقدير والإكبار. ندعو الله تعالى أن يمن علينا بالصحة حتى ننعم بهذه الأيام المباركة.

وذات يوم قابلت رجلا بالصدفة، وفي أثناء الحديث معه، ذكرت له بأنني زرت مدينة كانتون، وتطرق الحديث إلى تاريخ بناء المسجد الذي ينسب إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ. فقال الرجل:-لقد ولدت في هذه المدينة ونشأت فيها، وقبل خمسين عاما، كنت في مدينة كانتون وقرأت التاريخ المنحوت على حجر المسجد بشكل واضح. والرجل نيباري الأصل، ويقيم في هونك كونغ، واسمه نعمان صاحب.

أمضي أيامي الأخيرة في الساحل الصيني، حيث تعرفت على كثير من الرجال في هذا المكان البعيد من الشرق، فلله الحمد والمنة على توفيقه لي بالإطلاع على أوضاع المسلمين، ومع أن الانحطاط العام في أحوال المسلمين أمر معلوم للجميع، إلا أن أحوال المسلمين في الصين ميئوس منها من كل الوجوه، ولا أبالغ إذا قلت بأنه لم يبق عندهم من الإسلام سوى اسمه. إنني من الذين يتمنون بإخلاص للمسلمين الرقي في جميع أحوالهم، ولكن يجب أن لانخدع أنفسنا، وإن سبب انحطاط المسلمين هو ابتلاؤنا بالمواربة في كشف المرض وتحديد العلاج.

سأغادر هونك كونغ، ولكنني أفكر: أين سأذهب، وبأي وسيلة، فليس لي عقد على نقد، وأحتاج إلى مبلغ كبير كي أسافر إلى سنغافورة بالسفينة. أما السفر إلى تونكين برا فقد يستغرق شهورا، ولا أريد أن أفصح عن حالي لأحد، وليس عندي وسيلة لسد هذه الحاجة، كما لا أجد رجلا يقدم علاجا لما أشكو منه. لقد جلت ثلاثة شهور في الصين، وأنفقت كل ما في جيبي، لذا فإني في حيرة من أمري. وذات يوم، تعرفت على شابين عربيين: أحدهم اسمه أحمد، والآخر محي الدين، إنهما وصلا هذه البلاد مع أبيهما منذ مدة طويلة، وجمعا ثروة لا بأس بها، وتزوجا، وتوثقت علاقاتهما مع الصينيين المحليين. لقد أبديا لي احتراما شديدا: كما أخذاني في مركبهما وطافا بي حول هونك كونغ أكثر من مرة. زرنا القرى المجاورة، وهي كثيرة، ومنها عدد من القرى المسلمة. وبفضل هذين الشابين تعرفت على كثير من الرجال، ونزلنا ضيوفا على تاجر مسلم بقرية «لي ياك – فو» أسفي على الإسلام في هذه البلاد كم أصبح غريبا، وإن القلب ليتفطر والعيون تدمع، و المنصرون منتشرون هنا وهناك، والجهل مطبق على الناس وليس لنا إلا أن نطلب من الله المدد. إننا في غربة حقيقية ونقول (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا) ولكننا لا نكمل الحديث لنقول (فطوبى للغرباء، هم الذين يصلحون ما أفسد الناس) (أو كما قال). ومن العجيب حقا أننا ابتلينا بذكر جانب اليأس، ولا نجد أحدا يكمل الحديث حتى آخره. فهؤلاء المسلمون الصينيون المساكين يعيشون في قرية يزيد عدد بيوتها عن مائة ولا يملكون مدرسة واحدة، فليس هناك من يعلم ويربي أبناءهم. وكان مضيفنا يبكي من سوء الحال، ويقول بأنه أراد أن يفتح مدرسة على حسابه الخاص ولكنه لم يجد المعلم، فأبكانا معه، ولكن ما بوسعنا أن نعمل، إننا لم نستطع أن نخرج الدعاة، والمعلمين، لذلك فما علينا إلا إبداء الأسى والأسف.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أشكر الله وأحمده مائة ألف مرة، على منه وكرمه بهدايتي للإسلام الذي جمع بيني وبين هذين الأخوين محي الدين وأحمد، كي يكونا وسيلة للحصول على مزيد من المعلومات وأتمنى لو كانت لي ألف روح فأضحي بها في سبيل الإسلام الذي جمعنا بكلمة واحدة، وجعلنا اخوة إلى يوم الدين. كلمة واحدة تجعلنا نتداعى لمرض أحدنا بالسهر والحمى.

التجار المسلمون في السواحل الصينية

وفي كل مدينة من مدن السواحل الصينية تجد كثيرا من كبار التجار المسلمين، وفي مدينة هونك كونغ عدد من التجار المسلمين المرموقين، وأشهرهم عيسى بهائي وأمين بخش وعلي رضا وباليج والا ونمازي ومهدييوف وغيرهم ممن يملكون مكاتب تجارية في كل المدن الساحلية في الصين.ويمكنك أن تقرأ أسماءهم على اللوحات في الموانئ الممتدة من اليابان حتى البحر المحيط.

إن هؤلاء معروفون بالتدين و معهم كثيرون، انهم مسلمون صادقون ويفخرون بإسلامهم. لذلك فان وجود مثل هؤلاء الرجال في تلك الديار شرف للمسلمين جميعا لقد التقيت بأكثرهم، وكنت رفيق السفر لمحمد حسن نمازي من هونك كونغ إلى سنغافورة، وهو مسلم صادق في الخامسة والأربعين من العمر، يجيد اللغة الإنجليزية. ويبدو عليه بأنه صاحب ثروة كبيرة، عرفت منه انه يمارس نشاطا تجاريا في الهند والصين وإيران وعلى وشك أن يفتح مكاتب تجارية في أمريكا واليابان. وبالرغم من أنه شاب ويملك ثروة كبيرة، فقد كان طبيعيا في تواضعه وحلمه وكرمه، ويندر أن تجود الفطرة بأمثاله.

إن بين التجار المسلمين في روسيا كثير من تجار الشاي، ولو كانت لهم اتصالات مع هذا الرجل وأمثاله، لوفقوا أيما توفيق، و لكانت المنافع المعنوية أكثر من المنافع المادية. ولكن ما الحيلة، لقد سيطر الجمود على أجسادنا، فخدرها، كأننا أموات لا يدري أحد منا شيئا عن أحوال الآخر. لقد تبادلت الرأي مع هذا الرجل، وتعلمت منه الكثير، خاصة وأنني عندما أعدت عليه الأسئلة عن بعض المواقع التجارية في الصين، كانت أفكارنا متقاربة.

إن التجارة في الصين بدأت حديثا، ولم تستغل كما يجب، ومستقبلها مشرق و يقال إن الأرباح فيها عظيمة. و هي حاليا تحت السيطرة الأجنبية، وعلمنا أن أرباح الإنجليز فيها كثيرة، وأن الجانب الأعظم من القوة الاقتصادية الإنجليزية مصدرها الصين، و كل من لقيته وبحثت معه هذا الموضوع أكد لي هذا الرأي، وأبدى أسفه من حرمان المسلمين بشكل عام والعثمانيين بصورة خاصة من مهنة التجارة. وواقع هذا الجانب من الأمة يدعو للأسى والأسف.

لقد مررت في هذه الرحلة وقبلها على بلدان كثيرة، ووجدت أن التجار المسلمين المرموقين هم إيرانيون وهنود وصينيون وحتى من العرب، أما العثمانيون فلا وجود لهم.

ومن الملفت للنظر أن المسلمين جميعا، أينما وجدوا ومن أي شعب كانوا، فهم يحبون العثمانيين، ويتطلعون أن يروا معهم عددا من التجار العثمانيين. لقد أحسست بهذا الحب، ليس عند المسلمين فحسب بل وعند كل الأمم الشرقية، و كنت من بين خمسمائة مستمع لمحاضرة ألقاها هندي مجوسي في بكين، و قد تحدث طويلا، وحينما تطرق إلى الانقلاب العثماني قال: إن تطور ورقي الدولة العثمانية شرف لأمم الشرق جميعا؛ فحياة العثمانيين تعني حياة الشرق؛ وانقراضهم موت

للشرق، و لذلك فإننا نتمنى أن يثبت العثمانيون وجودهم في ميدان السباق. قال هذه الجملة ولقي من المستمعين الاستحسان والتصفيق الحاد. وقد ذكرت فيما سبق مدى احترام اليابانيين للعثمانيين.

وأرى أن الحكومة العثمانية الجديدة، إذا أخذت هذه الأمور في الحسبان وأقامت علاقات اقتصادية مع أمم الشرق، وفتحت بابا للتعارف فلا شك أن المنافع المادية والمعنوية ستكون عظيمة. وقد تحدثت في هذا الموضوع في كل مكان نزلت فيه من بلاد الصين، وأكدت على ضرورة تجديد الاتصالات وتدعيم العلاقات، فكان حديثي يلقى الاستحسان والتأييد.

مغادرة هونك كونغ

أنا الآن على وشك السفر إلى سنغافورة. لقد حصلت على تذكرة سفر في الدرجة الثانية بخمسة وسبعين دولارا وستة وسبعين سنتا، على متن السفينة «اسياج التابعة لشركة» أورينتالج.

وفي الثالث من رمضان المبارك سنة ١٣٢٧ هجرية حملت أمتعتي، وتوجهت إلى الميناء لمغادرة هونك كونغ، فوجدت هناك كثيرا من الأخوة والأحباب جاءوا للتوديع، وقدموا هداياهم من فواكه وغيرها. وكان مركب السيد محي الدين حاضرا؛ حملنا فيه متاعنا متوجهين إلى السفينة، فودعنا بعض الأحباب واصطحبنا آخرون حتى السفينة، وفي تمام الساعة الثانية عشرة صعدنا السفينة، فتحركت في الحال. وبقي الأحباب في المركب يرقبون سفينتنا مدة عشرين دقيقة.

أفكر في نفسي فأقول: هذا هو الإسلام، ما أعظمه من دين وما أرقاه من تربية، ليس بيني وبين هؤلاء الرجال من رابطة سوى رابطة الإسلام؛ وكل هذه المحبة والاحترام الذي ألقاه منهم هو لأنني مسلم، فهم لا

يرجون مني أي نفع مادي أو تجاري، كل ما بنيناه من تعارف ومحبة كان خلال يومين أو ثلاثة، انه التحابب في الله.

كانت سفينتنا من أكبر السفن في العالم و سرعتها عشرة أميال في الساعة، وهي من داخلها كأنها مدينة، وعليها ركاب من جميع الأمم، إنجليز وفرنسيون وأمريكان ويابانيون وصينيون، و من المسلمين اثنان محمد حسن نمازي في الدرجة الأولى وأنا في الدرجة الثانية.

وغالب البحارة في الباخرة هم من مسلمي الهند؛ أما القبطان وغيره من قواد السفينة فهم من الإنجليز.

وكان السيد نمازي مشغولا بترتيب أمتعته عندما كنت وحيداً على ظهر السفينة. وكان عدد الركاب قليلاً بالنسبة لضخامة السفينة. وبعد ساعة دق طبل الطعام؛ وكان أشبه بطبول رمضان التي نعرفها.

إنني الآن أواجه مشكلة كبيرة؛ سأذهب للطعام ولكني لا أعرف اللغة، هناك أنواع من الطعام فماذا أعمل كي لا أقع في المحظور، كما إني لا أريد أن أبقى جائعا. وسأضطر لأن أقول انه من ذبائح أهل الكتاب، ولكن هناك مالا يحلله الذبح، فكيف أعرف ذلك، ماذا أعمل، لابد لي أن أكتفي بالخبز والجبن، و الزبدة و الكافيار والسمك. لقد ندمت على الإفطار في السفر، ولو كنت صائما لما أكلت مثل هذا الطعام.

محمد حسن نمازي

السيد نمازي، إنسان مسلم عالي القدر والمقام. و رغم أنه في ركاب الدرجة الأولى إلا أنه لا يقيم فيها إلا وقت الطعام والنوم أما بقية أوقاته فيقضيها في مقصورتي.

لقد كانت بيني وبين السيد نمازي محاورات عميقة تطرقنا خلالها إلى السياسة، والأوضاع العثمانية و الإيرانية وغيرها. و السيد نمازي إنسان

واسع الإطلاع والمدارك. و كان أكثر ما يتحدث فيه هو مستقبل الإسلام. تحدثت معه في هذا الشأن عدة مرات، وذات يوم قلت له:

-كيف ترى مستقبل المسلمين وكيف نحافظ على كياننا ضد مؤامرات الأعداء؟ هل لك أن تعطيني رأيك في هذا الموضوع؟

قال:- إنني أفكر في هذا الموضوع كثيرا ولكنني لا أجد له الحل، لذلك فإني أحب أن اسمع رأيك، ومع ذلك فسأبدي رأيي الخاص، ثم أرجو أن تزودني بملاحظاتك من خلال تجاربك ومشاهداتك. أرى بأنه إذا كانت هناك من وسيلة لإصلاح أحوال المسلمين فهي في إقامة علاقات وثيقة فيما بينهم، وتحقيق التضامن الإسلامي وإلا فإنهم سيتعرضون للموت والفناء. وبغض النظر عمن يحكم إيران أو الدولة العثمانية فلا بد من التضامن والتحالف. وإذا وجد التضامن والتحالف فإنهم سيتمكنون من حماية حقوقهم القومية والدينية في كل زمان وفي كل مكان وفي أي بلد كان (انه إنسان مؤمن صادق العقيدة)

- و ما هي الوسائل التي تؤدي إلى التضامن والاتحاد؟

- ليس هناك من رأي أوهى من البحث عن وسائل للاتحاد والتضامن.إذا كان الاعتصام بحبل الله فرضا، واجتماعنا في المساجد كل يوم خمس مرات، أترى هناك من وسيلة للاتحاد والتضامن أقوى من هذه الوسيلة؟ أرى أنه من العبث البحث عن وسائل أخرى. إننا نحتاج إلى بصيرة تعرف قيمة هذه الأسباب فحسب، ومع ذلك فإنني أرى أن نتحدث بحرية أكثر، فأقول باختصار:

إذا استكثرتم على علي، السلام الذي عممه الله على كل من اتبع الهدى، واتخذنا نحن اللعنة على أبي بكر وعمر عبادة، فمن الطبيعي ألا يكون بيننا وبينكم اتحاد أو اتفاق. فقومنا الشيعة بشكل عام هم غلاة هذه الأمة، أما فقهاء السنة فقد صاروا بيد السفهاء كالميت بيد الغسال. إن هذا الحال

يؤدي بالأمة إلى الموت بدون أن نشعر بذلك. فلا أنتم تتخلصون من أسر علمائكم، ولا نحن نتخلص من أسر مجتهدينا، لذلك فان الحل صعب.

- أعتقد بأن السنة يرضون بالتعاون مع كثير من التسامح، إننا نقول "علي" عليه السلام وعليه الرحمة والرضوان، ولا خلاف في حبنا لآل محمد. من جانبنا، فنحن مستعدون لأي شيء.

- كنت أمعن النظر في وجهك وأنا أتكلم، فلما قلت فقهاؤكم وسفهاؤكم، تغير وجهك. حتى أنت الذي يفترض فيك أن تكون أكثر الناس تحررا، صار التقليد من طبعك، فلم تستطع تحمل هذا القول الثقيل، وهو ثقيل علي وعليك، لأننا نسمعه لأول مرة وإلا فهو غير ثقيل. لقد كثر السفهاء بين علمائنا ولا زالوا يكثرون، إننا جميعا نعيش عصر قحط الرجال.

وعلى هذا المنوال، جرت بيني وبين السيد نمازي محاورات كثيرة انطلقت فيها بعض الكلمات الأكثر تحررا.

والحقيقة إنني كنت أظن لدي شيئاً من الحرية والانطلاق إلا أن السيد نمازي سبقني من جميع الأوجه، و لقد تأكدت من تدين وصلابة هذا الرجل المؤمن الموحد.

عند مغادرتنا «هونك كونغ» كان السيد نمازي صائما، فسألته: لماذا صمت، وقد أذن الله للمسافر أن يصوم في أيام أخر؟

ـ لابد لي أن أكون اليوم صائما، و لا خيار لي بذلك، كنت مقيما في هذا البلد، وقد غادرته بعد الزوال فلم يبق لي من خيار، وغدا سنستعمل حقنا في السفر بإذن الله.

إن توفر مثل هذه المعلومات الدينية عند تاجر، من النادر أن نجدها عند تجارنا، و إن الإنسان ليغتبط عندما يصادف هذا النوع من الرجال، عربيته ممتازة، والفارسية هي لغة الأم، والأوردو يتكلمها بطلاقة، وأيضا

الإنجليزية، وصلابته الدينية هي الأخرى ممتازة، فحق لي أن أغتبط بهذا الرجل.

وسألته ذات يوم عن أحوال و أخلاق الصينيين، فكان منه هذا الشرح والبيان:

الأوضاع الحاضرة للصينيين لا تبدو مشرقة، وقد رأيتهم بنفسك، لقد سحقهم الجهل، ولا أزيد. أما من الناحية الأخلاقية فان فطرتهم لم تتعرض للفساد بعد، ونحن نحتك بهم في المعاملات التجارية بوجه خاص، إنهم صادقون في أقوالهم ويمكن الاعتماد عليهم، وإنك لا تتوقع منهم أن يرجعوا عما وعدوا به أو قالوا، إن أقوالهم عهود وليس من عادتهم أن ينكلوا في التعامل، فإذا أراد أن يشتري بضاعة فإنها تصبح ملكاً له بعد المساومة والاتفاق على السعر ولا حاجة للكتابة والتوثيق، ولا تراجع عن الصفقة إذا تغير السعر بعد ساعتين. ومن العيب عندهم أن يدعي أحدهم بأنه لا اتفاق قديم بيننا بدون وثيقة. يفصل الأمر بقول واحد ولا يرجع عنه، ويتم كل شيء كما كان في أصل المساومة والبيع، فلا أبالغ إذا قلت بأن حضارة الصينيين من هذه الناحية هي أرقى من الأمم الأخرى قاطبة.

القاعدة الأولى في التعامل التجاري عند الصينيين هي التوفير، والثانية الصدق، ووجود عقد مكتوب أو عدم وجوده سيان، وحتى الساعة يتم تحديدها من أجل تنفيذ البيع، يحدد اليوم الفلاني والساعة الفلانية. فان لم يحدث مانع فلا يتخلف أحد عن الموعد أبدا.

إلا أنهم ينظرون إلى الأجانب والى الإنجليز بصفة خاصة نظرة تشاؤمية، ويصفونهم بأسوأ الصفات، ومما يقولونه: إن الإنجليز قوم متكبرون، أنانيون، لا يحترمون غيرهم، إنهم سيئوا الطباع.

والصينيون في الوقت الحالي يصبرون على الإنجليز ويجاملونهم، وأظن بأن كل هذه الأوضاع مؤقتة، وسيأتي الوقت الذي يطردونهم من بلادهم.

أما الهنود فهم أمة تعودت على العبودية منذ القدم، وللحكومة الإنجليزية أن تظلمهم كما شاءت، فلن تجد أي رد فعل من أي هندي، على عكس الصينيين، فهم يتحملون بعض الوقت ولكنهم لا يلبثون أن ينتفضوا ويثبتوا وجودهم لأنهم تعودوا أن يكونوا أمة حاكمة ولا يمكن أن يقاسوا بالهنود. الصينيون أمة حاكمة، والهنود وكذلك المصريون، يطيعون كل من يحكمهم، إنهم ألفوا الخضوع لغيرهم.

الصينيون كانوا أمة حاكمة منذ الاف السنين، و هم لذلك لا يتحملون أن يحكمهم غيرهم بسهولة. ثم أنهم قوم أقوياء البنية، جنود بالفطرة. لكنهم يصبرون من أجل مصلحة بلدهم، وسيأتي يوم ينادون فيه بالثورة والانتقام، هذا هو المتوقع.

ويجب أن نضيف أيضا بأن هذه الأمة لا تمتلك قوة الإبداع، إنها تعتمد على القوة الجسمانية، واستعداداتهم ليست فطرية، بل إن نشأوا على التربية الإنجليزية، فإنهم يقبلونها دون أي تعديل، فليس من عادة الإنجليز أن يربوا الشعوب التي يحكمونها تربية فكرية. فمن هذه الناحية يحرص الإنجليز على أن تبقى تلك الشعوب على غير بصيرة. إنهم يحكمون الهند منذ أكثر من مائة عام، ومع ذلك فلن تجد بين الهنود كفاءات على درجة عالية.

وإذا نظرنا إلى المصريين نجدهم على نفس الشاكلة، إن الإنجليز يحتلون مصر منذ ثلاثين عاما، ولم يكونوا لمصر ثلاثين رجلا. ولن يعملوا على ذلك. والواقع بأن الحضارة التي سيتعلمها المصريون من الإنجليز ستكون محدودة جدا.

هناك أمر لا يقدر عقلي على إدراكه، أرجو أن تساعدني على فهمه: إن الأمم الشرقية بصفة عامة، تثق بالأوربيين أكثر مما يستحقون، فما هو السبب؟ فالحكام بصفة خاصة يستشيرون الأوربيين في كل الأمور. لا أدري ما هو وضع الشعوب الأخرى و الذي أعرفه أن الإيرانيين يلتزمون بآراء الأوربيين في كل الأمور، وأرى أن العثمانيين يعملون نفس الشيء في أغلب الأحوال، أما أنا فلا أركن إلى جانبهم أبدا. فمثلا، أنا تاجر، والتاجر الآخر أيا كان، حتى الصديق والأخ، هو منافس لي، فإذا استشارني في الأمور التجارية، وإني مهما كنت طيب الأخلاق عالي الجناب، فلن يجد عندي هذه الصفات إذا أحسست بأنه سينافسني في عملي.

لقد قرأت في الصحف بأن الحكومة العثمانية الجديدة استقدمت غولج[1] باشا لعمل بعض الإصلاحات العسكرية، وقد كان استدعي أيام السلطان عبد الحميد، و مهما كان في مقدوره أن يصلح إلا أننا يجب ألا نخدع به.قد يكون كولج باشا رجلا طيب الأخلاق، لكنه لا يريد أن يتفوق الجندي العثماني على الجندي الألماني، ورجل مثل هذا الباشا يفترض فيه أن يكون محبا لقومه.

ولذلك فإنني لا أعرف سبب كل هذه السذاجة في الأمم الشرقية. وكذلك شاه إيران يتحكم به ضابط روسي يتجه معه كيفما دار، إنه يحكم البلاد على هوى الضابط الروسي، والصينيون يحكمون البلاد بآراء ضابط إنجليزي. لا أدري ما سبب عدم استقلالية الرأي عند الشرقيين.

ومن الطبيعي أن نستثني اليابانيين من الشرق، لأن اليابانيين يأخذون كل شيء من أوربا في بداية الأمر ولكنهم يجعلونه يابانيا من جميع الجوانب بعد عدة سنوات، واليوم بلغت صادرات اليابان ـ ذلك البلد

---

(١) ضابط ألماني استقدمه العثمانيون ليساعدهم في إصلاح الجيش(المترجم).

الصغير ـ المليارات. لقد زرت أكثر المصانع اليابانية، ولم أجد فيها أجنبيا واحدا لا في الإدارة ولا بين العمال والفنيين. إنهم يؤمنون بأن اليابان لليابانيين. ولننظر إلى الصين، والبلاد العثمانية وإيران، فإدارة الأمور بيد الأجانب، ومثل هذه الدول لا يمكن أن تدوم. إنني إيراني، ولكن لا أمل لي في بلدي لأن أكبر مصائبنا هي قحط الرجال.

وهكذا توطدت الصحبة بيني وبين السيد نمازي، وما كنا نفارق بعضنا إلا في ساعات النوم أو الكتابة.

وزن الباخرة ٧٣٧٦ طن، وقوتها ٦٥٠٠ حصان، فليس هناك ما يقلق، وعدد ركاب الدرجة الثانية قليل، وبينهم راكبان صينيان، وفي أثناء الطعام يجتمع كل الركاب حول مائدة واحدة، أما الصينيان فيجلسان على مائدة منفصلة. الطعام واحد والوقت نفس الوقت ولكن المائدة مستقلة. إنني لم أفهم الحكمة من ذلك، وهذا المنظر يتكرر في كل وجبة. إن أزياءهم القومية نظيفة جدا فلماذا لا يجلسون معنا على مائدة واحدة. بقي هذا السؤال يعتمل في رأسي عدة أيام، إلى أن سألت نمازي مرة فقال: لا أدري، لنسأل، فنادى خادم المطعم وسأله، فأجاب: "إنهما صينيان" وكل ذنبهما أنهما صينيان. لقد دفعوا من المال مثلما دفع الآخرون، وهما بشر مثلهم، إلا أن شعورهم الطويلة وأزياءهم القومية تجعل الأوربيين المتحضرين يتقززون منهم.

عمـــال البـــاخرة

ذكرت سابقا بأن كل عمال الباخرة يكاد أن يكونوا من مسلمي الهند، ولا توجد ضرورة لأن أتحدث عنهم في هذا المكان، ولكنني أذكر القراء الكرام بما كتبته عن بحارة السفينة اليابانية. أما الآن فإننا أمام بحارة أكبر البواخر التابعة لأكبر شركة في العالم، تملكها أكثر أمم الأرض حضارة، ولا بد أن يكون أكثر الركاب في هذه الباخرة من الصفوة المختارة في

الرأي والثقافة، ومن المفترض أن يكون مستوى بحارتها متناسبا مع مستوى الباخرة والركاب، ولكن للأسف(مائة ألف مرة) لم أجد فيهم واحدا يحسن القراءة لا بين الإنجليز ولا بين الهنود، وقد سألت عددا من البحارة عما إذا كانوا يعرفون القراءة والكتابة فأجابوا بالنفي. وسأل السيد نمازي أحد البحارة الإنجليز، فأجاب أيضا بأنه لا يعرف، واحمر وجهه خجلا، ويحتمل أن يكون ذلك مصادفة.

نعم إنهم يردون هذا الجهل إلى الإسلام والمسلمين، ولا يقول أحد إن الإنجليز هم يحكمون الهند منذ مائة عام، ويستولون على نصف إنتاج البلد باسم الحضارة. إن المكاسب من نصيب الإنجليز وأما القبح فمرده إلى المسلمين. فما العمل. قال السيد نمازي:

ـ ألم تواجهك مشكلة اللغة في الصين؟

ـ لم تكن بالقدر الذي يشتكى منه. ومع ذلك فقد عانيت من الجوع وأنا بين المجوس بسبب عدم فهمهم اللغات الأخرى.

ـ لقد طفت في أنحاء كثيرة داخل الصين، ومشكلة اللغة تتعب الإنسان كثيرا. أما أنا فقد كنت أجد من أكلمه بالإنجليزية

ـ في أي الجهات طفت؟

ـ كنت دائما في الجنوب، وقد وجدت في المستعمرات الفرنسية هناك من يعرف اللغة الإنجليزية.

البرلمان في الصين

سألته: كيف تنظر إلى البرلمان المزمع تشكيله قريباً؟

قال السيد نمازي: إذا كان الوعي التام بين الناس مفقودا، فإني لا أرى أملاً في إصلاح البلاد بالبرلمان.

أنا لا أنكر دور البرلمان من حيث الأساس، والذي أردت أن أقوله هو أن البرلمان يحتاج إلى رجال، ولا تدار الأمور من قبل متنفذين اختارهم العوام ليمثلوهم في البرلمان: والدوما الروسي، والمجلس الإيراني دليلان على ما أقول، ولنر ما سيفعله مجلس المبعوثان العثماني.

ومع ذلك فلن يبقى الصينيون بدون خبرة، لأنهم أرسلوا إلى داخل الصين حوالي ثلاثمائة طالب، سيزورون كل مدينة وقرية، ليعرفوا الناس كيفية الانتخاب، والشروط المطلوبة في المرشحين، وواجب أعضاء المجلس المنتخب تجاه أمتهم، وسيستمرون في تعليمهم هذه الأمور خمس سنوات أو ثلاث، لم أعد أتذكر عدد السنين. ومع ذلك فلن يوفقوا في التوصل إلى ما هو مطلوب، سيعرفون أصول الانتخابات وقواعدها، ولكنهم لن يجدوا من ينتخبوه.

ـ وكيف ينظر عامة الصينيين إلى هذا الموضوع؟

ـ ماذا تتوقع، إن عقولهم لا يستوعبه، سيقولون: كيف تدار البلاد من دون بوغدي خان، سيستغربون من ذلك، والواقع أن أصل القضية له جانب اخر، فان استطاع المسؤولون حزم أمورهم، وحافظوا على بلادهم من التسلط الأجنبي عشر سنوات على الأقل، فسيجدون بعد ذلك البرلمان المأمول والرجال المناسبين. انك تجد اليوم كثيرا من الطلاب الصينيين يتعلمون في العديد من بلاد العالم وفي اليابان بشكل خاص، وقد أوشك كثيرون منهم أن يكملوا الدراسة في هذا العام، فهؤلاء سيكونون رجالا يعتمد عليهم، وعددهم يزداد في كل عام، ولكن يشترط أن يقاوموا عشر سنوات.

وهكذا كنا في حديث مستمر مع السيد نمازي، وقد عرفت أن والد زوجته هو أيضا تاجر، واسمه الحاج زين العابدين، وأنه يملك كثيرا من البواخر. أي أن صديقنا صاحب ثروة من جهتين.

وحاولت أن استغل مثل هذه الفرصة، وذات يوم أثرت موضوع الأسطول العثماني، وتحدثت عن ضرورة مساعدته.

وهنا قال السيد نمازي: في الواقع أنه واجب كبير، وأمر يهم المسلمين جميعا، وسأثير الموضوع مع التجار عندما أصل إلى بومباي بإذن الله.

الباخرة التي نحن فيها

ضخامة الباخرة وكل شيء فيها على ما يرام، وليس في المقصورات ما يثير الشكوى، فالشركة هي أكبر شركات العالم، وزن بواخرها ٤١٧٢٦٣ طنا، ومجموع قوة بواخرها ٤٤٣٩٢٢ حصان، واسم أكبر بواخرها «مكدونيا» (بوزن١٠٥١٢طنا).

وتقوم هذه البواخر برحلات منتظمة بين يوكوهاما ولندن، وتقطع مسافة١١٦٢٨ ميلا. وفي كل أسبوع تصل واحدة وتغادر أخرى. فهل تخلو مثل هذه البواخر من أي عيب؟ لن أجرؤ على القول بأن هناك عيوب، ولكنني أيضا لن أتردد في بيان الواقع.

يعلم الجميع بأن البواخر عندما تتجه من هونك كونغ إلى سنغافورة تسير بخط مستقيم مسافة ألف وأربعمائة وأربعين ميلا في اتجاه خط الاستواء، ولنتذكر ارتفاع درجة الحرارة التي تتراوح بين الليل والنهار من ٣٥ إلى ٤٦ درجة مئوية، ومع هذا لا يجد الإنسان في المقصورات ولا في القاعة داخل الباخرة مكانا للاسترخاء والراحة. إن هناك أماكن فوق غرفة القيادة خاصة لتجول ركاب الدور العلوي، إلا أنه ليس بوسع المرء أن يتجول هنا وهناك سحابة نهاره، بل و يريد أن يجلس ويرتاح قليلا. وأقول اسفا بأنه لا مكان للجلوس فيه من قبل المسافرين.

لقد دفعت حوالي خمسة وسبعين دولارا للسفر في الدرجة الثانية إلى سنغافورة، وقد يجد المرء مكانا يجلس فيه، ولكنه شديد الحرارة، أما

صاحبنا نمازي، فقد دفع أكثر من أربعمائة دولار ليصل إلى بومباي، وهو مثلي لا يجد مكانا للراحة، لقد انشوينا من شدة الحر، أما سطح الباخرة فواسع، ويتسع لمئات الأشخاص ولكن لا مكان فيه للجلوس، يمكنك أن تمشي ما شاء لك أن تمشي.

وما العمل؟ نعم هناك حل، تدفع بضعة دولارات وتشتري كرسياً، وتكتب عليه اسمك أو تعلق عليه بطاقتك، فيكون ملكا لك، وعند مغادرتك الباخرة تتركه هدية لخدم المقصورة التي كنت فيها، فتكون الكراسي سببا لجلب الربح لهم. ولو كان هذا الأمر عند الشرقيين لآخذونا عليه، وفضحونا في الصحف والمجلات. أما بالنسبة لهم فهو أمر مقبول و إنه من مقتضيات الحضارة!!.

الاقتراب من سنغافورة

قبل يوم من وصولنا إلى سنغافورة سمعنا صوت صافرة الإنذار. فعم الفزع في كل مكان، الركاب يجرون من جانب، والبحارة يجرون من جانب اخر، يجرون هنا وهناك، و تكاد أنفاسهم تنقطع من شدة الجري والفزع.

إن كثيراً من الركاب من هو مثلي لا يعرفون اللغة، فالكل يسأل عما جرى، نحن في البحر وكل شيء محتمل الوقوع. بادر البحارة بإنزال القوارب، وصعد الناس إلى سطح الباخرة. وأخيرا عرفنا الموضوع! إن باخرتنا سبقت موعد وصولها ببضع ساعات، فاستغل القبطان الفرصة كي يجرب مدى استعداد البحارة، وأي مجموعة من الضباط تكون أسرع حركة، فألقى هذا القبطان شيئا في البحر، وأطلق صفارة الطوارئ لانتشاله.

لبس البحارة ملابسهم المطاطية وغاصوا في أعماق البحر وبدءوا في البحث وبقيت الباخرة واقفة بين الأمواج حوالي ثلاث ساعات، إن افتعال عملية الطوارئ والتسابق لانتشال شيئاً مفقوداً شيء يدعو للإعجاب.

وأخيرا تم انتشال ما أُلقى في البحر وكان بداخله عشر ليرات إنجليزية، وقيل أن هذا المبلغ سيقسم بين أفراد المجموعة التي نجحت في انتشاله.، وإن الذين يفوزون بهذه المسابقة لعدد من المرات يكافئون من قبل الشركة والحكومة على حد سواء.

وكان الذي نجح في الانتشال هذه المرة ضابط هندي، حيث نجاحه غير عادي، إذ كان في الجانب المقابل لمكان الإلقاء ومع ذلك فقد وصل إليه قبل الآخرين. لقد سافرت في البحر كثيرا ولكنني شاهدت مثل هذا الامتحان للمرة الأولى.

ومن جهة أخرى شعرت بالضيق لما رأيته من حالات عصبية انتابت بعض الركاب، وقلت في نفسي، هل هناك من ضرورة لإطلاق كل هذا الصفير وتخويف المسافرين؟

وفي هذه الأثناء التقيت بالسيد نمازي وقلت له: هل أفزعوك؟

ـ كنت نائما، وسمعت أصواتاً، فظننت بأننا وصلنا سنغافورة، وكانت بجواري سيدة، فصرخت قائلة بأننا سنغرق، فأفزعتني قليلا، ولكنني لم أصدق، وخطر لي بأن هذا القبطان اعتاد أن يقوم بمثل هذه المفاجآت. وحدث في إحدى المرات أن أقامت السيدات دعوى على القبطان. إن صاحبنا السيد نمازي سافر على هذه البواخر كثيرا وتعود على مثل هذه الحالات. لقد توطدت الصداقة فيما بيننا وهو رجل يتعصب لقومه، وقال لي: علينا أن نرضى بكل ما يفعله الفرنجة.

وفي الأسبوع الأخير من رمضان وصلنا سنغافورة، وهنا افترقنا عن أخينا السيد نمازي، حيث واصل سفره بالسلامة إلى بومباي مباشرة.

خــــاتمــــــة

أكتفي الآن بما كتبت عن رحلتي حتى وصولي هذا المكان.

إن المسافة التي قطعتها داخل روسيا وحتى فيلاديفوستوك ١٤٠٠٠ كيلو متر، و المسافة من اليابان فكوريا، فداخل الصين إلى سنغافورة (٧٣٤٦ ميل إنجليزي).

أما المبالغ التي صرفتها في هذه الرحلة حتى وصلت إلى هنا، فهي قليلة نسبيا. حيث لم تتجاوز مائة ليرة بأية حال من الأحوال، وقد صرفت سنتين من عمري، وأهم الأعمال التي قمت بها خلال هذه الفترة من عمري هي الرحلة.ذلك بأن القرآن الكريم أمرنا في ثلاثة عشر بل خمسة عشر موضعا بالسير في الأرض، ومع ذلك فان أهل الإسلام نسوا فرض الكفاية هذا نسيانا كليا، ولله الحمد والمنة فقد يسر لي أن أقوم بقسم من هذا الفرض الكفائي.

ولعل القسم الآخر من هذا الفرض الكفائي هو الأهم. إنه فرصة لم يستغلها أحد من الناس، انه أمر الدعوة والتبليغ. ولله الحمد والمنة فقد كان من نصيبي أيضا أن أقوم بهذه المهمة. فهاتان المهمتان كبيرتان على عاجز مثلي، لذلك فإنني مهما شكرت الله على ما أنعم فسيكون قليلا.

اســـــتطراد

لقد كانت الدعوة إلى الله من الواجبات الدينية في أول أمر الإسلام، ولكن الناس نسوا هذا الواجب كليا في الفترة الأخيرة، خاصة وان علماءنا لا يريدون أن يكلفوا أنفسهم عناء الحديث عنه أبدا.

ولم يكتف علماؤنا بترك الدعوة إلى الله، بل عجزوا عن الرد على المفترين، وهجمات أعداء الدين على الإسلام. وقد كان أسلافنا في كل العصور، يردون على من يتعرض للإسلام من أصحاب المذاهب الباطلة والخوارج «بالتي هي أحسن» فيقومون بما يجب عليهم أن يقوموا به.

وفي عصرنا الحاضر نرى الأجانب يهاجموننا من كل جانب، وينشرون كل أنواع الهذيان والافتراءات والأكاذيب، أما جهلاؤنا فيقلدون الأوربيين دون أن يشعروا، فيعملون مالا ينبغي عمله.

وهذه الظاهرة المؤسفة تتوسع يوما بعد يوم، ففي الأعوام الأخيرة قام بعض ممن عرفوا بين الناس بالعلم، بالانجراف وراء تيار العلوم الحديثة، إرضاءً للشباب. فهذا محمد عبده المسكين ينكر الملائكة و ينكر إبليس، مع أن ذلك ثابت في القران الكريم. وهل ينكر الإنسان العاقل وجود الملائكة وهم الفئة الثانية من المؤمنين؟

يقولون بأن ذلك لا يمكن أن يوزن بميزان العلوم البحتة. إلا أن هناك أمور كثيرة لا يمكن أن توزن بميزان العلوم البحتة. ألا يستحون من قولهم هذا، و إذا أنكر علماؤنا ركنا من أركان الدين فماذا سنقول لجهلائنا؟ وماذا نقول للأجانب الذين يهاجمون ديننا من كل جانب، وما عسانا أن نقول؟ لنفكر قليلا، ولننظر بعين الإنصاف ولندرس الحالة التي نحن فيها.
وا أسفاه على حالنا: فلا أقل من أن ندعو أنفسنا للقيام بالواجب.
و إذا تركنا دعوة الأجانب، فلا أقل من أن نقول لأنفسنا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾.

وسآتي في المجلد الثاني من كتاب «العالم الإسلامي» على ذكر التفصيلات في هذا الموضوع، وفقنا الله إلى ما فيه الخير.

تنبيه

سبق أن ذكرت في موضع اخر من الكتاب بأنني صادفت في عربة القطار سيدة أجنبية، وكان عليها أن تلتقي بي في فيلاديفوستوك، كي تخبرني من يكون هذا الشاب التتاري الذي قابلها في الطريق، وقلت لها في حينه أنني سألتقي بها في فيلاديفوستوك، و لكنني لم أذكر النتيجة في ذلك الموقع من الكتاب. والسبب الرئيسي في ذلك بأن اللقاء لم يتم، فقد جاءت تلك السيدة إلى المنزل عدة مرات، وسألت عني، وفي إحدى المرات كتبت بالقلم الرصاص على ورقة كانت على المنضدة، انك تجهل اسمي وهويتي، وتعرف شكلي، جئت إليك ثلاث مرات فلم أتمكن من لقائك، ولن اتي مرة أخرى، لأن هناك موانع مشروعة، فالمدينة تخضع للأحكام العرفية.

هذا هو سبب عدم اللقاء مع تلك السيدة، لذلك فلم أسجل ما قلته إلا الآن.

لطائف

سبق لي قبل هذه المرة أن عشت حياة الرحلة والتنقل، وكانت في الفترة من عام ١٨٩٧ وحتى عام ١٩٠٠

فمنذ بداية شهر نيسان(ابريل) عام ١٨٩٧ وحتى الرابع من كانون الثاني(يناير) عام ١٩٠٠، أي بما يقرب من ثلاثة أعوام كانت لي رحلة قطعت فيها المسافات التالية:

وكانت رحلتي في تلك الفترة سيرا أحيانا، وأحيانا على الجمال، أو على الخيل، وأحياناً بالباخرة والقطار. والمجموع:

المسافة بالكيلومترات :

مشيا	على الجمال	على الخيول	بالباخرة	بالقطار	المجموع
٧١٢	١٨٣١	١٠٦٣٥	١٠٦٩٦	١٩٧٧٩	٤٣٦٥٣

وكانت بداية الرحلة من اسطنبول إلى أرض مصر فالحجاز وتهامة وفلسطين ثم إلى أوربا، إيطاليا فالنمسا ثم فرنسا وبلغاريا وصربيا، وغربي روسيا و قفقاسيا و ما وراء النهر:بخارى وتركستان وتركستان الصينية وولايات يدي صو ثم عدت إلى أرض الوطن عن طريق سيبيريا.

ولا تظنوا بأن التجول داخل المدن يدخل في الحساب، إنها مسافات بين المدن سجلتها في دفتري في حينها، ولكنها رحلة لم أوفق في نشر أحداثها في كتاب، إلا أنني ضبطتها في شكل مسودة وامل أن أنشر خلاصة عن هذه الرحلة بإذن الله.

تذكرت هذا السعي القديم مني وان كان خارج الموضوع، وأنا الآن قريب من مرحلة أرذل العمر، وقد لا يمهلني الأجل في إكمال سيرتي الذاتية، فلا أقل من أن أترك أثرا لي في عالم المطبوعات.

ذكريات مرة

لقد عانيت في هذه الرحلة وكذلك في الرحلة التي سبقتها من ضيق ذات اليد، ومن قلة الحيلة، ولكن أكثر ما المني وشعرت فيه بالمرارة ما كان بنتيجة جهلي؛ فقد واتتني فرص، وكان إدراكها ومعرفة كنهها أغلى وأثمن من أي شيء اخر، ولكنني اسف على إضاعتي لتلك الفرص. منها

إنني كنت أزور متحف فيينا، فأروني رأسا داخل صندوق زجاجي. وقالوا انه رأس قارا مصطفى باشا، كما أشاروا إلى قميص من الحرير كتبت عليه كلمة التوحيد، وعرفوه على أنه قميص هذا الباشا المسلم، حتى أن المسئول أكد مفتخرا بأن حرير القميص منسوج في مدينة بورصة.

ولو كنت أعرف في حينه لغة واحدة من اللغات الأوربية لسألت مدير المتحف، ومن أين وصلكم هذا القميص وهذا الرأس؟

ولو عرفت لغته، لأريته المكان الذي خيم فيه الباشا أمام القصر الإمبراطوري عندما حاصر فيينا، و لجعلته يطرق خجلا، ولكن ما حيلتي، حاولت أن أقول بضع كلمات بالفرنسية وقد تكون غير صحيحة، فلم أستطع أن أفهمه ما أريد والجهل نتيجته الخجل.. وتعرضت لموقف مشابه في «تريست» عندما سمعت من إيطالي كلمات مهينة، أزعجتني كثيرا.

وكم من الفرص الثمينة أضعتها في رحلتي هذه عندما كنت في اليابان والصين، ولو كنت مجيدا للغة الإنجليزية للعبت دورا كبيرا جدا. أسفي مائة ألف مرة، إن الجهل يورث الندم، ومهما ندمت فلا فائدة، أبدا أبداً أبداً.

ولو كانت لي معلومات فنية لزينت هذا الكتاب الكبير بخرائط للشرق الأقصى واليابان والصين وكوريا، ولا شك أن كل المشاق التي تحملتها انتهت بالندامة، ولا شيء غير الندامة.

ومع ذلك فالحمد لله ثم الحمد لله، هذا الواجب الذي قمت به ليس بقليل على صاحب عمامة مثلي. ولم يسقط هذا الفرض الكفائي على يد مسلم قبلي، وهذا فضل من الله ونعمة كبرى، ومهما شكرت الله وحمدته فقليل. فالحمد لله ثم الحمد لله.

وأما بنعمة ربك فحدث

دخول ميناء سنغافورة

عند دخول سفينتنا ميناء سنغافورة، رأينا مجموعات بشرية من العراة يتجهون نحونا في كشاكيل (زوارق صغيرة) وكأنهم يهمون بالهجوم علينا. من هؤلاء يا ترى؟ في الوهلة الأولى تذكرت هجوم السماسرة على سفن الحجاج وهي تدخل ميناء اسطنبول، إلا أنه من الواضح عدم صلاحية هذه الكشاكيل المزرية للركوب.

إن هذه المخلوقات العجيبة كانوا يسترون عوراتهم المغلظة فقط، وبأيديهم قطع خشبية يدفعون بها كشاكيلهم في الماء وعيونهم مصوبة على ركاب السفينة. وهنا بدأ كل راكب يخرج محفظته، ويرمي ببعض النقود نحو البحر، وإذا بهذه المخلوقات العجيبة ترمي نفسها في الماء كالضفادع لتلتقط النقود التي يلقيها الركاب، وكان الواحد منهم يغوص في قعر البحر ويلتقط القطعة النقدية ويضعها بين أسنانه ثم يعود إلي السطح، بينما كان آخرون ينتظرون أن يرمي أحد من الركاب كما ينتظر القط الفئران.

هذه المأساة البشرية الأليمة استمرت حوالي عشرين دقيقة، كانت السفينة خلالها قد ألقت مراسيها في الميناء. صعدت إلى البر وركبت إحدى الريكشات وتوجهت إلى المدينة .

دخول سنغافورة

سنغافورة مدينة صغيرة وجميلة جدا، تقع في نهاية شبه جزيرة مالاقا، أو على الأصح في نهاية أذن آسيا. لم أجد في مدخل المدينة منظرا ملفتا للنظر، انه منظر طبيعي وعادي يختص به الشرق: جاويون يلبسون فوطات

حمراء، و ملاويون حفاة، ذوو قمصان طويلة، صينيون ذوو شعور طويلة، يابانيون ذوو قامات قصيرة، وهنود ذوو أجسام نحيفة.

مباني المدينة وشوارعها تشبه المدن الأوربية، و لكن النظافة ليست تامة، بل تقع عين الإنسان على بعض القاذورات، ولا حاجة لأن أقول بأن القسم الأعظم من سكانها هم من المسلمين .

في الصباح الباكر من اليوم السابع من رمضان عام ١٣٢٧ كنت في متجر الأخوة «عيسى بهائي» الهندي المقيم في سنغافورة

سأخصص بحثاً عن الأخوة عيسى بهائي، لذلك فإني لا أرى الآن ضرورة في أن أتحدث بشيء عنهم)

ولنحاول إعطاء فكرة عن هذا المكان، إنه ليس متجراً، بل ممر مستطيل فيه مكاتب صغيرة متصلة ببعضها، يجلس فيها أشخاص يرتدون ملابس بيضاء وعلى رؤوسهم طواقي ذهبية تعرف ب "توبي"، انه منظر عجيب حقا.

وفور دخولي من الباب سلمت على الرجل الجالس إلى العلوي، صافحته، ثم سألته باللغة الفارسية عما إذا كان هذا المكان هو متجر عيسى بهائي، فلم يرد على سؤالي، بل طلب مني التفضل في مكان أشار إليه .

ولم تمض ثلاث دقائق حتى نزل علينا رجل من الدور العلوي و سلم علي، وعندما رحب بي بالعربية :(أهلا وسهلا) عرفت أنه الرجل الذي يمكنني التفاهم معه، وبعد الترحيب دعاني للصعود إلى الدور العلوي. المكان ليس مستشفى وفيه كثير من الأسرة، مغطاة بشراشف نظيفة، وهو أشبه بدار العجزة، وكان واضحا أنه سكن العزاب.

سألت مضيفي عن هويته. فأجاب بأن اسمه فضل حسين، وأنه يقوم بوظيفة الإمام، وهو شاب ليتجاوز الثلاثين من العمر، ويبدو على ملامحه الفضل والذكاء.

ولم أجد ضرورة للتعريف بنفسي، وذلك لأن السيد لك، القادر، وهو الأخ الأكبر للأخوة عيسى بهائي عرفني بكتابه الذي أرسله من هونك كونغ. و بعد حديث استغرق قدر ساعة استأنسنا ببعضنا، ودخلنا في حديث عن الاتحاد الإسلامي، وكان مما قلته: يا أخي، إن كانت هناك طريقة لتخليص المسلمين مما هم فيه من الأحوال السيئة فهي الاتحاد الإسلامي.

لم أكن أعرف شيئا عن مذهب محدثي، ولا أعرف طريقته ومسلكه وكنت أكتفي ببيان رأيي. ولقد فاجأني بسؤال عن رأيي في توحيد المذاهب، فجمعت أفكاري ثم فكرت قليلا وتأملت وقلت: سأذكر لك رأيي في هذا الموضوع كاملا فيما بعد، أما الآن فأريد أن أعرف أين سأقيم، ثم آخذ فكرة عامة عن المدينة.

أشار الرجل إلى سرير وقال: هذا السرير خصصناه لك، اعتبر نفسك في بيتك، وأنا أقيم هنا، وإخواننا الآخرين كذلك، إنهم رهن إشارتك.

نقلت أحمالي إلى جانب السرير، ثم استأذنت السيد فضل حسين بالخروج للتجول في المدينة، طفت في أرجائها وألقيت نظرة عامة عليها: فيها العديد من المساجد، والمضافات والفنادق الضخمة، وكثير من المتاجر والمخازن، وفيها الحافلات الكهربائية تؤمن الوصول إلى أي جزء من أجزاء المدينة. إنها مدينة جميلة وعامرة .

ناقوس في المساجد

رأيت هنا شيئاً لم أعرفه ولم أر مثله على وجه الأرض. كنت أتجول في سنغافورة لأول مرة وقت الظهر، دخلت مسجدا، وكان الناس ينتظرون موعد الصلاة. جلست في مكان الأمر، المحراب، وإذ بصوت ناقوس يطرق سمعي. ترددت في أول الأمر، لم يكن يخطر ببالي أبدا أن نرى في

عصرنا هذا ناقوسا في المسجد، أسرعت نحو باب المسجد، فرأيت الناقوس الذي كانوا يدقونه (أمر غريب حقا)

وناقوس هؤلاء ليس مثل ناقوس النصارى، انه أشبه بالطبول المستعملة في المعابد البوذية، شيء مستدير ومستطيل مثل الدن، وقد وضعوه أمام باب الجامع، وكل من يبتغي منهم الأجر والثواب، يأتي إلى المسجد ويدق الناقوس!

إن هذه العادة المجوسية غير المشروعة دخلت على بعض المسلمين، ولا تزال تعتبر من العبادات عندهم، ومن يدق الناقوس قبل الصلاة يعتقد أنه ينال الأجر والثواب. وضرب هذا الناقوس يبدأ يوم الجمعة ابتداءً من الساعة الحادية عشرة.

وبناء على مشاهداتي الكثيرة يمكنني القول بأن كل أمة أبقت عندها من عقائدها السابقة شيئا خلطته بعقيدتها الجديدة، والأمثلة على ذلك كثيرة. ففي دار الخلافة (اسطنبول) توضع قناديل عند المقابر، وترانيم المؤذنين في المساجد كلها جاءت من الأرثوذكسية ودخلت على المسلمين. ولا تقتصر هذه الأمور على العصور المتأخرة، بل يمكن أن يستشف على جودها من الأحاديث التي رواها كعب الأحبار وغيره من الصحابة الكرام كان أكثر المنتظرين في المسجد من الجاويين، وكنت أرى وجوه عدد من الصينيين والمالاقيين. وأتضح لي من الصلاة بأن الإمام شافعي المذهب.وبعد الصلاة توجه الجميع لتقبيل يد الإمام وصافحته.أنا بدوري توجهت إليه وسلمت عليه وصافحته.

ومع أن الإمام لا يزال في مقتبل العمر، فانه يبدو عليه حسن الخلق و لقيت منه كل الاهتمام والتكريم. وبعد أن عرف من أكون و عن جهة قدومي، دعاني إلى غرفته الملاصقة للمسجد، فتحادثنا هناك حتى حان

وقت العصر وحصلت منه أثناء ذلك على بعض المعلومات عن سنغافورة وسكانها، وفي تلك الليلة أفطرت على مائدة الإمام.

سنغافورة وسكانها

سنغافورة (أو سنغابور) اسم مركب من كلمتين، سنغا كلمة تعني بلغة الملايو رأس و كلمة بور تعني مدينة، وهي بلغة الكجرات. و هذه المدينة تقع على رأس شبه جزيرة ملاقا، لذلك قيل عنها بأنها مدينة الرأس. هواؤها طيب جدا لقربها من خط الاستواء. لقد كانت في الأصل جزيرة صغيرة وخالية وتابعة لإمارة جوهور، أهداها حاكم جوهور للإنجليز قبل ثمانين عاما ليتخذوها مستودعا للفحم، و لكنها تحولت خلال وقت قصير إلى مدينة عامرة، وأصبحت ميناء تجاريا كبيرا.

في بداية الأمر كان وضع الإنجليز مؤقتا و لكنهم تسلطوا على شعب مالاقة وأصبحوا حكام على تلك البلاد وشعوبها.

وسكان مالاقة الأصليون مالاويون أو ملاقيون وكلهم مسلمون، وبعضهم جاويون قدموا من جزر جاوا واستوطنوا سنغافورة، وقسم منهم آشيون قدموا من سومطرة، كما أن فيها بعض العرب والهنود والإيرانيين والصينيين واليابانيين ومن جزر المحيط الهندي، فهي بحق مدينة إسلامية. وأكبر المتاجر في سنغافورة يملكها مسلمون، والاستيراد والتصدير بيد المسلمين، كما أن المسلمين لهم اليد العليا في السوق، وأكثرهم من الهنود والعرب

السيد عمر السقاف والسيد كاف

وهما من العرب و من أصحاب الثروة و المال. فعمر السقاف من التابعية العثمانية ومن أهالي جدة، وقد رحل أبوه وعمه قديما إلى جزر

جاوة ثم اختارا سنغافورة للإقامة واشتريا كثيرا من العقارات، فتحولت هذه الأراضي والعقارات إلى نقود، وهما يتاجران بالقطن والرز والفلفل وغيرها. كما أن السيد عمر السقاف بالإضافة إلى نشاطه التجاري ترد إليه ثلاثة وثلاثون ألف روبية كل شهر من عقاراته المؤجرة. سمعت هذا من التجار المعروفين هناك.

أما السيد كاف فهو أكثر غنى، ويملك مساحات كبيرة من الأراضي في جزر سومطرة وبورنيو. وهو من سادات حضرموت، جاء إلى هذه البلاد وأقام فيها. وفيها كثير من الحضرميين، وسادات كرام من الحجاز ومن العرب الآخرين، جدوا واجتهدوا حتى صاروا من أصحاب المال والثروات.

كانت الليلة الثامنة من شهر رمضان المعظم، حيث، أفطرت في منزل السيد عمر السقاف، وكان عدد السادات فقط بين الحاضرين أكثر من ستين. وبعد الافطار ألقيت كلمة دعوتهم فيها لليقظة والعمل من أجل مستقبل أفضل للمسلمين، كما إنني أعربت عن أملي بأن يكون أحفاد الرسول قدوة للعوام، وتطرقت إلى موضوع الاتحاد الإسلامي، مبينا بأنني نزلت ضيفا عند الشيعة مستهدفا تحقيق هذه الفكرة.

كان أكثر الحاضرين ممن لا يعرفون شيئا من أمور الدنيا والآخرة وهؤلاء السادة الكرام الذين لم يسمعوا مثل هذا الكلام قط، سمعوا ذلك من رجل غريب مثلي، وفي مقام النصح، فكان له وقع كبير جدا. كانت كلمة مختصرة ولكنها لقيت استحسانا من الحاضرين، وخاصة مضيفنا السيد عمر السقاف حيث قام وشد على يدي وشكرني وعقب قائلا: إننا لم نسمع مثل هذه الخطبة قط، ولاشك بأنها تركت أثرا كبيرا وان لم يكن مباشرا، وعلى أقل تقدير ستكون سببا لنذكرك وأكرر شكري لك.

الإخوة عيسى بهائي ومتاجرهم

هؤلاء في الأصل من مدينة كثيرة. أو سورت القريبة من مدينة بومباي الهندية، و لقد أخبرني التجار الإيرانيون في خانكان، بأنهم من أكبر التجار الهنود. وهم خمسة اخوة يتناوبون على العمل في متاجرهم المنتشرة في بلدان كثيرة. وأكثر عمالهم من أقاربهم، أو على الأقل من أتباع المذهب الذي ينتسبون إليه، فهم يشترطون ذلك على العمال. ولهم ممثلون في اليابان: في يوكوهاما وكوبي وأوساكا وناغازاكي، وفي الصين: في شنغهاي وخانكان وخانكاو وكانتون ونانكين وفي مالاقة: في سنغافورة وبينانغ، وفي الهند: في كلكتا ومدراس وكولمبو وبومباي ودهلي ولهم فروع في زنجبار بأفريقيا، وفي عدن والحديدة.

ولاشك بأن هناك مدن أخرى لا أعرفها، لهم فيها فروع. إن وكل واحد من هؤلاء الاخوة الكرام يتكلم اللغات اليابانية والصينية والملاوية كما أنهم يتكلمون ويكتبون باللغة الأوردية.والكجراتية وبعضهم يجيد اللغتين العربية والفارسية..وأخوهم الأصغر في شنغهاي يعرف الإنجليزية قراءة وكتابة، وكلهم شديدو التمسك بالدين، حتى أن عدد العمال في فروعهم إذا وصل العشرين، يعينون لهم إماما للصلاة بهم، كما أن لهم مساجد خاصة في بعض المدن. ومنها مسجدهم في سنغافورة. إن هؤلاء الناس هم من الإسماعيليين البهرة وقد عرفوا بين الناس بالهمة والكرم، وأنا الآن ضيف في متجرهم بسنغافورة. والإمام الذي كلفوه بأمري، مشغول، فلم أجد فرصة للتحدث معه. لقد أمضيت يومين في التجول داخل المدينة، وفي اليوم الثالث عدت إلى متجر عيسى بهائي وتحدثت مع الإمام المذكور. وهو رجل يجيد العربية والفارسية، كما إنه يتقن اللغة

الإنجليزية، ولقد أخبرني عن وجود كتب بالإنجليزية تتعلق بأمور مهمة جدا، وأبدى أسفه لعدم وجود كتب من هذا النوع عند المسلمين .

سألته:وما هي المسائل التي تتضمنها تلك الكتب التي نفتقر إليها؟

قال: كثيرة جدا، فنحن مثلاً لا نملك معلومات عن مسلمي الهند، ماضيهم وحاضرتم و مستقبلهم، كما إننا لا نعرف شيئا عن وجود مسلمين في سيبيريا، وعن أحوالهم وطراز حياتهم.

إننا نحصل على المعلومات المتعلقة بالهند من الإنجليز، نتعلم من الكتب الإنجليزية كل شيء عن الهند. وأقول بصراحة أكثر بأننا نضطر إلى تلقي قسم من المعلومات عن ديننا ومذاهبنا من الكتب الإنجليزية.

- الحق معك، ولكن رأيي أن مثل هذه الأمور ليست ذات أهمية كبيرة .

-اصبر حتى أوضح لك الأمر، إنني اليوم أريد التعرف على الوضع في اسطنبول التي هي مرجعنا الديني، ومن هم حكامها الحاليين؟ خلال الأعوام الثلاثين الماضية عرفنا شيئا عن السلطان عبد الحميد خان، أما الآن فلا نعرف شيئا .

ثم إننا لا نملك أية معلومات عن تركستان ومسلمي الصين، وأظن أنهم مثلنا، لا يعرفون شيئا عنا. وهناك أمور أخرى كثيرة أضطر إلى تعلمها من المصادر الإنجليزية، ولكنني لا أقتنع بها، لأنها تعكس وجهة نظر المنصرين، ولا أجد مصدرا في اللغات التي نعرفها. إن الشباب خاصة لا يعرفون شيئا عن مثل هذه الأمور، وإذا ظهر بين الناس أخ مثلك فإننا نفرح من كل قلوبنا و من النادر أن تجد رحالة مثلك، فأكثر القادمين إلى هذه الجهات، يأتون للتسول.

- أظن بأن كل هذه هي أمور سهلة وحلها بأيدينا، إنها أمور بسيطة. أما الذي يجب علينا أن نفكر به فهو مستقبلنا. أما الماضي معروف، وعلماء الإسلام لم يهملوا أي شأن من شؤوننا، و هناك آلاف الكتب والرسائل

المؤلفة عن الهند وإن تراجم الرجال التي ألفها علماؤنا لن تجد مثلها في أي أمة أوربية.

إن عدد أهل الإيمان في شتى أصقاع الأرض، يشهد كل يوم على ماضينا بلسان حاله ومقاله. أما مستقبلنا، فكن على ثقة بأن الملايين الأربعمائة الموجودين على سطح الكرة الأرضية، متواجدون منذ ألف وثلاثمائة عام، ولا ينقرض هؤلاء خلال قرنين أو ثلاثة كما يتصور أعداؤنا.

إن مسلمي تركستان يعرفون الهند جيدا، فالمسلمون المقيمون في تركستان الصينية وولاية يدي صو يذهبون إليها كل عام عبر التيبت وكشمير سيرا على الأقدام، وخلال خمسين يوما يصلون إلي بومباي، وقسم منهم يصلون إلي بومباي في ثلاثة شهور عبر طريق مزار شريف وأفغانستان وبشاور، وهناك أشعار عن هذه الطرق باللغة التركية لا أتذكرها بالترتيب، سأذكر بيتين منها، وهي أشعار شعبية وعامية:

اللهه نك «آلاطاو» دن بيوك بولغان طاولرى بار

مزار شريف اتوب كيتكان جوللرى بار

يدي صودن بشاورغه يایاو باروب

كوركانده قدرتنك جاماسز موللارى بار

آوغان ديكان بادشاهلق مسلماندر

طاو ايجنده ايلينك بارى قصلغاندر

بشاوردن هندستانه جيغوب بارساك

سرنديبدن جنت يصى يصيغاندر

وترجمت له معاني هذه الأبيات.

-حقا إنها رائعة: أرجو منك أن تمليها لي. وهل يأتي هؤلاء كل عام؟

-طبعا، طبعا، هذا ما بقي في ذاكرتي. وفيما عدا ذلك فإننا نعرف بأن القوافل التجارية حتى ١١٦٣ من الهجرة كانت تتنقل بين سيبيريا و قولجه وكاشغر ومدن كشمير ومدراس الهندية، فالطاقية التي تلبسها الآن على رأسك جاءت من بلادنا. إن هناك ترابطا كبيرا بين أزيائنا وأزيائكم، والفرق بينها من ضرورات المناخ، نحن نلبس الملابس السميكة، وأنتم تلبسون الملابس الرقيقة ولكن الشكل واحد.

إن كان هناك تقصير منا فهذا يرجع إلى عدم معرفة أنفسنا يا أخي، ورغم أنك ذكرت بأنك عرفت عن المذاهب من المصادر الإنجليزية، إلا أني لا أرى أمة يتعرف أفرادها على بعضهم من قرب وبالمشاهدة مثل المسلمين. إن مئات الآلاف من المسلمين يجتمعون كل عام على صعيد عرفات، يتعانقون ويتصافحون، فهل هناك وسيلة للتعارف أحسن من هذه الوسيلة؟

وبينما كنا مستغرقين في الحديث إذ دخل علينا رجل وقال: حان وقت الصلاة لنذهب، فقفز الإمام من مكانه وقال لي: إن سمحت لي أذهب وأصلي وأعود إليك فورا. قلت: لنذهب سوية. أظهر الإمام شيئا من التردد ولكنه تراجع أمام إصراري، وتوجهنا معا إلي المسجد.

هل يمكن للسني أن يقتدي بالشيعي؟

لم يخطر هذا الشيء على بالي أبدا، لم أتذكر بأنهم شيعة حتى وصلت المسجد. رأيت الناس يتوضؤون وعندها تنبهت لذلك فجأة، ولكن لم يكن من المناسب أن أخرج من المسجد، لم يكن بد من أن أصلي معهم، خطر على بالي وضوءهم وصلاتهم، وشعرت بالقلق من موضوع

المسح على الرجل، ولكنني قبلته أخيرا لكونه من الأمور الثابتة بالقراءة المتواترة. وترددت في موضوع الصلاة حينما تذكرت الكثير من شروط الإمامة، ثم تجاوزته قائلا لو كانت لهم شروط فهي مطلوبة عندنا أيضا، ومع ذلك فلم يطمئن قلبي. أردت في أن أصلي الفرض قبل الصلاة معهم، متظاهرا بأني أصلي تحية المسجد، وسألت الإمام: هل عندكم تحية المسجد؟ قال: نعم. وعند دخولي المسجد نويت مع تحية المسجد، فرض الظهر، ورأيت الناس جميعا يصلون تحية المسجد.

ثم كان الأذان والإقامة معاً، لاحظت قول المؤذن «حي على خير العمل» بدل «حي على الفلاح»، فشعرت بشيء من الانزعاج. وتقدم الإمام، ليس هناك محراب، بل تقدم الصف الأول بمقدار إصبع أو إصبعين. أدينا الصلاة، لم أجد فيها ما ينكر عليه، وبعد برهة قصيرة أقيمت الصلاة مرة أخرى، وقمنا لصلاة الفرض للمرة الثانية.

وفي هذه المرة لاحظت في الإقامة قول «الله أكبر» مرتين وليس أربع مرات، ولكن لم أعرف أي صلاة سنصليها، فكرت، وتذكرت بأن الشافعية يجمعون الصلاتين، قلت: لابد أننا نجمع الظهر والعصر. وهكذا اقتديت بالإمام بنية صلاة العصر. نعم صليت، ولكن مع شيء من عدم الاطمئنان.

الحالات النفسية عند الناس غريبة حقا: لقد تحادثت مع الإمام فضل حسين، وعرفت عقيدته، ومع ذلك فقد ترددت في الإقتداء به. كلنا مسلمون، وديننا واحد، ومع ذلك فإننا في لحظات مهمة نقف فيها أمام رب العالمين، نشعر بعدم الثقة، وبحقد وعداوة وبغضاء تجاه بعضنا. لقد أصبحت هذه الحالة طبعا توارثناه عن آبائنا وأجدادنا .

وبعد العصر تجولت قليلا بصحبة الإمام، وشاهدنا أماكن التنزه في المدينة وقرب المغرب عدنا إلي المسجد، واجتمع الناس. وبعد الأذان

تناولنا إفطارا خفيفا، وصلينا المغرب، ولم تمض عشرون دقيقة حتى أقيمت الصلاة مرة أخرى فصلينا العشاء. وبعد النوافل بدأ الذكر و الدعاء و التهليل و اللعنات. وهنا حدثت أشياء مزعجة. إنهم خدعوا المساكين من المسلمين فجعلوا اللعنة عبادة، قال علماؤهم، واتبعهم العوام، إنهم بدلوا التسبيح والتهليل باللعنات، مئات المرات أو الآلاف، إنهم يتعبدون باللعنة على أناس قضوا قبل ألف وثلاثمائة عام. أي جهل هذا، لقد ندمت على المجيء إلي هذا المكان، ولكن استفدت أيضا، فلم أكن أعرف هذه الحالة، كنت أعتبر أمورا أقل مما رأيته هنا، من قبيل التحامل والمبالغة. فلو سمعت من أناس آخرين أو قرأته في كتاب لما صدقت. على كل حال، اخترت السكوت، وسمعت كل هذه اللعنات.

الإفطار عند البهرة

وبعد أداء صلاة العشاء نزلنا إلى الدور السفلي لنجد مائدة، عامرة، فأفطرنا، وهنا لفتت نظري عادة لم استسغها. ومع ذلك فقد تكون عادة مستحسنة، اجتمع الناس حول المائدة، مشكلين حلقة، ثم وضع الخبز أمام الإمام، فاقتطع الإمام حصته من الخبز، ثم وزع قطعا أخرى على الحاضرين، وقدمت الأطعمة، وعلى كل طعام ورقة كتبت عليها بعض الكلمات التي لم أتبينها، وكان الإمام يأخذ تلك الورقات ثم يمد يده إلى الطعام. حاولت أن أقرأ الورقة فلم أستطع، كما إنني لم أجرؤ على سؤاله وبعد الطعام قال أحدهم آمين، عندها رفع الإمام يده للدعاء وبدأ يقرأ أسماء من تلك الأوراق، فأهدينا ثواب الطعام الذي أكلناه لأرواح أولئك. وهذه أيضا عادة، ولعلها مستحسنة ولكن العوام يعتبرونها من قبيل الأوامر الدينية، بل ربما يرون أن هذا هو الإسلام. حتى مسلمي روسيا عندهم مظاهر كثيرة لا علاقة لها بالدين أبدا و صارت بمرور الوقت عادة دينية،

ومن هذا القبيل ما يترنم به بعض الخطباء في اسطنبول بأصواتهم ألمنكرة على المنابر وفق المقامات من عشاق وحجازي وبيات وغيرها فصارت هذه الترنيمات ملحقة بالعادات الدينية وليس ذلك بجديد.

إمام البهرة

توجد طائفة وقبيلة تستوطن في جهات كجرات بالهند تعرف بالبهرة، وكلمة بهرة تعني باللغة الهندية التاجر، وإذا قلنا إنه اسم على مسمى، فهو ينطبق على البهرة تماما، إنهم أمهر المسلمين في التجارة، ليت كل المسلمين مثل البهرة:

وقد دخل هؤلاء في الإسلام منذ عهد قديم، ويعترفون بالإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق (رضي الله عنهما) ويسمى رئيسهم بـ «الداعي إلى الله» وكان يقيم في مدينة بومباي، ثم اختار الإقامة في مدينتي سورت وأحمد اباد، أما الآن فهو في مدينة سورت.

وحب البهرة لبعضهم لا تجد له مثيلا في أي قوم من الأقوام، مبدؤهم هو «الحب في الله» ومع ذلك فقد تشعب مذهبهم كثيرا: مثل الداوودية و الإسحاقية والفرق الباطنية الإسماعيلية.

ويدعون بأن أسلافهم من الفاطميين، وأنهم هاجروا إلى اليمن في القرن السادس الهجري عندما انقرضت الدولة الفاطمية، ثم هاجرت مجموعة منهم إلى الهند، ودعت المجوس هناك إلى الإسلام، فكان لهم سبق الفضل في اهتداء كثير منهم.

منهم فرقة الزيدية في اليمن، وهم أتباع إسماعيل بن قاسم الذي أصبح إماما في العام الألف والمائة، وهو الذي أضاف إلى الأذان جملة «حي على خير العمل».

وملا علي، أحد أكابر البهرة، مدفون في مدينة "كنبات" قرب كجرات. وأكرر القول بأن الشيء الذي أغبطهم عليه هو التعاون والتناصر بينهم. ولو كان كل المسلمين مثل هؤلاء في التعاون والتناصر، لدانت لهم الدنيا بأجمعها. إلا أن أصحاب المذاهب الأخرى يدينون بعكس ما يأمرهم به دينهم، أسفي عليهم مائة مرة.

إن البهرة متواجدون في عموم الهند و لقد اشتهروا بالتجارة والتعاون ويحبون الدقة والنظام في الشؤون المالية والإدارية، شديدو التعصب لدينهم ومذهبهم. ويحافظون على سرية تعاليمهم منذ القدم والى يومنا هذا، ومع ذلك فهم شيعة مسلمون.

ولهؤلاء إمام خاص في كل مكان يعيشون فيه، وإمامهم في سنغافورة هو فضل حسين أفندي كما ذكرت سابقاً، انه شاب متفتح الذهن، وجرت بيننا أحاديث كثيرة، سألني خلال أحدها عن رأيي في توحيد المذاهب. ولما كرر السؤال في وقت لاحق، أبديت له رأيي على النحو التالي:

يمكننا أن نقول بأن مسألة توحيد المذاهب هي مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا نحن المسلمين. ومع ذلك فان توحيد المذاهب يجب أن يسبقه توحيد الأفكار. واتباعا لقاعدة الأهم فالمهم سأقول بضع كلمات تتعلق بتوحيد الأفكار، لأن توحيد الأفكار يمكن أن تكون مقدمة لتوحيد المذاهب.

إن تعداد المسلمين اليوم على وجه الكرة الأرضية يبلغ أكثر من ثلاثمائة مليون، دينهم واحد ولكن مذاهبهم شتى، وقد تشعبوا إلى مئات الفرق ولا يزالون يتشعبون وتتباعد أفكارهم. لذلك فإننا إذا وفقنا في توحيد الأفكار فقد يأتي يوم يكون فيه توحيد المذاهب هو الهدف المشترك لجميع المسلمين.

إن المسلمين يعيشون اليوم في غفلة، لقد ضربت عليهم المسكنة، وهم إلى المصائب يندفعون، فواجبنا وواجب كل مسلم أن ينبه أولئك المساكين من المسلمين ويشدهم نحو الحياة، وينفخ فيهم الشعور بالمقاومة من أجل البقاء، وإن الوحدة هي السبيل لتحقيق ذلك، والعلماء هم الذين تقع عليهم المسؤولية.

إنني وأنا أنظر إليك اليوم أراك في حالة يأس شديدة، وكأنك تحس بمرض شديد، كما إنك تستشف مصدر هذا المرض، ولكنك لا ترى أن لديك قوة تدفع بها هذا المرض، إنك في قلبك تمتلك الرغبة في الدفاع، وهذه الرغبة تدفعك لأن تستمزج رأيي في مسألة توحيد المذاهب. إن شعورك هذا يجعلنا نؤمن بأننا نملك استعدادا لتوحيد الأفكار، بل إننا نؤمن بأن قلوبنا متحدة، وإني أرى أن الفرقة أمر عارض، وإني على يقين في أنها ستنقلب أخيراً إلى وفاق.

ومما لا يمكن لأحد أن ينكره هو أن الفرقة هي السبب الوحيد للمصائب المهلكة التي يتعرض لها العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر، وإذا بقي هذا الوضع المؤسف سائداً، فلا بد أن نعترف بأن مصيرنا سيكون الانقراض والفناء. علينا ألا نخدع أنفسنا، ولا نكون ضحية التعصب. إن الموت برجولة أهون من العيش الذليل وإن الدفاع عن أعراضنا وشرفنا ضد الأعداء الذين نتعرض لإهاناتهم وتحقيرهم في كل مكان أولى من الشعور بروح الانتقام من رجال ماتوا قبل ألف وثلاثمائة عام. أليس الأفضل لنا أن نقاوم الذين يهددون حياتنا، من أن نلعن رجالاً قضوا منذ ألف وثلاثمائة عام؟

فضل حسين: فهمت كلامك، ولكن اللعنة أمر شرعي؛ فانك إذا أمعنت النظر إلى النص القرآني ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً..﴾ فلن تقدر على إنكار وجوب اللعنة على قتلة الحسين وأضرابهم.

لا أرى مجالاً للنقاش «وما بعثت لعاناً» قول نطقه من وصفه ربه بصاحب الخلق العظيم. وإطالة الموضوع يخالف مقاصدنا. واكتفيت بهذا القدر من الرأي.

ولو قلت أكثر لطال الكلام، ولما تحملت القلوب. لقد تبينت المقاصد، واستطعت إبداء رأيي فيما أريد، كما أبدى فضل حسين تفهما، واختار الاحترام والتوقير، مع أن بوسعه أن يعترض على ما قلت.

جوهور

في شبه جزيرة مالاقة سبع أو ثمان إمارات إسلامية، أشهرها إمارة جوهور، ومقر حكومتها هي مدينة جوهور وهي على مسيرة ساعة من سنغافورة. وذات يوم توجهت لزيارة هذه المدينة، وهي وإن كانت إمارة صغيرة ولكنها أرقى إمارات شبه جزيرة مالاقة وأكثرها تطوراً، حاكمها السلطان إبراهيم أبوبكر، شاب يستحق الإعجاب والتقدير، فهو وإن كان تحت حماية الإنجليز، إلا أنه يبذل جهوداً كبيرة في تنظيم شئون البلاد الداخلية ويظهر كفاءة جيدة في حسن الإدارة. لقد استطاعت هذه الإمارة الصغيرة أن تمد الخط الحديدي، وتؤسس بريدها، وتسير سفنها، ومدنها روعة في النظام والنظافة، حتى الأرياف لا تخلو من النظام، فتقسيم الأراضي وأصول الزراعة وغيرها تدل على أنها بلاد متقدمة.

والسلطان إبراهيم يجيد الحديث باللغة العربية. وعلمت أنه يجيد اللغة الإنجليزية أيضاً، ومع ذلك فان هناك موظف إنجليزي واحد، هو البلاء المبرم بعينه، إلا أننا لا ننكر بأن هذه الإمارة تتميز عن سائر الإمارات الأخرى تميزاً واضحاً، بالرغم من أن جميعها تحت الحماية البريطانية. فإمارة «باهنك» يحكمها رجل عالم وفاضل اسمه أحمد معظم شاه،

ولكنها نموذج لإمارات القرون الوسطى. أما سيلانغور وبيراك وترينكانو وكلانتان وبتاني وكادح، فإن سكانها وأمراءها في تأخر شديد. وهي تتبع إمارة كوهستان، وصلاتهم بالسواحل قليلة، أما علاقتهم بالأمم المتحضرة، فانهم لا يجدون أمامهم سوى المنصرين، أولئك الملعونون الذين يتجولون في المدن والقرى ويتسلطون على الناس، و أينما سرت تجدهم أمامك.

وبالرغم من ذلك فإننا نشكر الله على أن جهود هؤلاء مع المسلمين تبقى عقيمة، إنهم افتتحوا العديد من المدارس ولكن عدد الذين تنصروا من المسلمين لا يكاد يذكر، ومع ذلك فلا ينكر بأنهم نجحوا في إفساد الأخلاق. إن أكثرية الناس في هذه البلاد مسلمون، إلا أن عددا قليلا من أتباع البوذية يقيمون في كلانتان وفي بتاني المجاورة لسيام.

وفي جوهور كثير من عرب حضرموت، وفي مدينة بنانغ يزداد عدد العرب وهم يسكنون في حي خاص بهم، ولهم جمعيات خيرية ومدارس، وفيهم رجال من أهل الثروة والمعرفة .

القنصل العثماني في سنغافورة

لا يوجد قنصل عثماني في سنغافورة في الوقت الحالي، وكان من الواجب أن يكون هناك على الأقل قنصل فخري، ومع انه لا ينتظر من قناصلنا أن يقدموا أية خدمات في الوقت الحالي، إلا أنه يكفيهم أن يحافظوا على الرابطة المعنوية، وقد يأتي يوم يقيض الله فيه قنصلاً يقوم بخدمات طيبة.

فقبل سنوات كان في سنغافورة قنصل عثماني، وبالرغم من أن منصبه كان رسمياً إلا أنه استطاع باسم الراية العثمانية التي يمثلها أن يكون له نفوذ

لدى مسلمي الملايو، كما كان السبب في اهتداء كثير من المجوس إلى الإسلام.

وإن الكثير ينسبون التطور في إمارة جوهور إلى عطاء الله أفندي الذي كان يتولى منصب القنصل العثماني وهنا حديث شائع أنه: لو كان هذا الرجل حياً، لأصبح مسلمو سنغافورة منافسين للأوربيين في التجارة. هذا القول سمعته من كثير من الناس. لقد كان لعطاء الله أفندي سبق خدمة وجازة، هذه البلاد. وعرف أنه كان يجيد لغات الملايو وجاوة، و العربية والإنجليزية، فكل المسلمين في سنغافورة ومالاقة وجاوة يذكرون عطاء الله أفندي بالخير.

ولو كان لنا هنا قنصل، لكان لذلك الأثر الكبير في تقوية الروابط بيننا وبين مسلمي هذه البلاد. حيث يعيش كثير من العرب من رعايانا الطيبين، ولو عينا واحدا من هؤلاء قنصلا فخرياً، لكفى اسمه لتحقيق ما نصبو إليه، ويكفي أن تخفق رايتنا المباركة يوم الجمعة ليكون لها تأثير معنوي على المسلمين.

وهذا في الحقيقة لا يعجب الإنجليز، وقد ثبت أن عطاء الله أفندي قتل من قبل الإنجليز، في حين أن للإنجليز قنصل يمثلهم في كل ولاية من ولاياتنا، وهذا يقتضي أن يكون لنا قنصل في سنغافورة وهي من المستعمرات الإنجليزية، وإذا تعذر تعيين قنصل رسمي فلا اقل من أن يكون لنا ممثل فخري. إن عطاء الله أفندي منحت له الصفة الرسمية في عهد السلطان عبد الحميد.

الأصول العرقية

أثبتت الدراسات أن أقوام الملايو وجاوة هم عنصر مزيج من الصينيين والهنود. وأهل الملايو هم أكثر شبها بالهنود، كما إن ملامح الجاويين تميل إلى الصينيين، بالإضافة إلى أن أقوام الملايو يكتبون لغتهم بالحروف

العربية، أما الجاويون فيكتبون بحروف قريبة من الهيروغليفية، وهذا يؤيد ما نذهب إليه. وفي لغة الملايو توجد كثير من الكلمات العربية كما أن فيها كلمات فارسية وسنسكريتية.

دخول الإسلام إلى هذه البلاد

هناك روايات شائعة في شبه جزيرة مالاقة و في جزر المحيط الهندي بأن الإسلام انتشر في هذه الديار منذ زمن قريب عن طريق التجار العرب، إلا أن إبن بطوطة يبين في كتابه بأنه مر على كثير من الجزر، وأن سكانها مسلمون ومتدينون. وحسب وصف ابن بطوطة لأزياء سكان جزيرة مهل[1]، وقوله بأن ملابسهم عبارة عن فوطة، وهم حفاة الأقدام، فان أهالي هذه الجزر على هذه الحالة إلى يومنا هذا.

إذن فان الإسلام موجود في هذه البلاد قبل ستمائة عام، حتى إن إبن بطوطة يذكر بالتفصيل بأن بربريا مغربيا اسمه أبو البركات دعا إلى الإسلام في عهد الملك شنوراز. ولا شك بأن الإسلام انتشر في تلك الديار قبل ابن بطوطة، ولشديد الأسف فان ابن بطوطة لم يذكر شيئاً عن هوية وعهد الملك شنوراز.

كما يذكر إبن بطوطة اسم جزيرتين إحداهما «مهل» والأخرى «سندابور» (وليس ببعيد أن تكون مهل هي الملايو وأن سندابور هي سنغافورة)

ويمكن تفسير القول بأن انتشار الإسلام كان منذ عهد ليس قريب، لإنتشار العلوم الإسلامية في هذه الديار وشيوعها، و من المحتمل أن السكان كانوا على غرار الصينيين في حالة شديدة من الجهل والغفلة. ولقد خدم بعض رجالات العرب العلوم الإسلامية في هذه البلاد خدمة عظيمة،

---

(١) جزيرة مهل هي من جزر مالديف (السامرائي).

ومن أشهر الرجال الذين قدموا خدمات جلى هو السيد محمد صالح زواوي من أهالي مكة المكرمة. وابنه السيد عبد الله زواوي لإيزال حيا، وهو مفتي السادة الشافعية بمكة المكرمة.

في سنغافورة

خلال إقامتي في سنغافورة زرت أماكن كثيرة و التقيت بالعديد من الناس وتعرفت عليهم. يوجد فيها حوالي عشرون مسجداً، خمسة منها معروفة وكبيرة. وكلما ذهبت إلى مسجد من هذه المساجد وجدت هؤلاء. أكثر من ثلاثين فقيرا نائمين. لقد تحولت المساجد إلى دور للعجزة.

والمسجد الرابع هو مسجد الجاوة و إمامه اسمه الشيخ أحمد يوسف، إنه أرجح أئمة السنة عقلا وفهما. وهناك رجل حضرمي اسمه الشيخ علي حيدر، هو من أهل البصيرة و لكن بصيرته سدت بسبب الفقر، أعانه الله، كم عالم أعيت مذاهبه.

تعرفت على تاجر اسمه أبو بكر مدني، وهو رجل محب لأهل الإسلام، كما انه يكن حبا وارتباطا لآل عثمان، وقد وزع صور السلطان محمد رشاد خان في كل مكان، وأخذ على نفسه أن يحببه في قلوب المسلمين جميعاً، ومن يزور مكتبته، يقدم له صورة الخليفة ويوصيه بحبه، وكأنه قد تعهد القيام بهذه المهمة.

التقيت بهذا الرجل عدة مرات، وهو عربي تونسي الأصل، ويقيم في سنغافورة منذ مدة طويلة .إن هذا الرجل يرى أن المهمة التي يقوم بها مقدسة، و لهذا يجب أن يلقى من الأتراك الشكر والتقدير. وكان مما يقول: على كل مؤمن موحد أن يعرف السلطان العثماني الذي هو خليفة المسلمين جميعا، وأن يحترمه، ويعمل على رفع شأن ذلك المقام المقدس. ولقد طبع صورة الخليفة في أشكال متعددة، ويقوم بعرض الصور على كل زبون يأتي إليه، كما يتحدث عن مزايا حب الخليفة،

ويورد في ذلك أحاديث كثيرة. وبهذه الطريقة انتشرت صورة الخليفة في كل البيوت بجزيرة مالاقة، وقيل لنا بأن الصور معلقة في.بيوت جزر سومطرة وجاوة أيضا. كل ذلك من لطف وعناية الله الذي ألقى مهمة القيام بهذا العمل على عاتق أبي بكر أفندي التونسي.

إن هذا الرجل عثماني ابن عثماني، ومسلم ابن مسلم قلباً وقالباً. انه يكن حبا كبيراً وصادقاً لسيدنا الخليفة المعظم. ولا شك أن عموم المسلمين يشعرون بنفس الحب لصاحب ذلك المقام العالي، إلا أن هذا النوع من الحب تجسم بهذا الرجل، فهو لا يفتأ يكرر قوله: «اللهم انصره نصراً عزيزاً» ويذكر اسم محمد الخامس الطاهر. والخلاصة إنني لم أتردد في ذكر هذه الخصلة في هذا الرجل، الذي لم أر فيه خصالا أخرى تستحق الذكر والتسجيل.

جزر بحر المحيط الهندي

الجزر الإسلامية

توجد حول شبه جزيرة الملايو جزر كثيرة، ويمكننا أن نقول بأن كل سكانها مسلمون، وكل جزيرة لها اسم خاص ولكنها معروفة لدى سكانها بجزر جاوا. وأشهر هذه الجزر هي سومطرة وسمباس وبورنيو وسلبيس وجاوا وفليبين، ويقدر عدد سكانها بأكثر من ثلاثين مليوناً، ويطلق على سكانها اسم أقوام جاوا والملايو. وللجاويين لغة خاصة بهم وكتاباتهم قريبة من الكتابة الهيروغليفية. أما في الملايو، فاللغة التي يتكلمونها هي خليط من اللغات العربية والفارسية والسنسكريتية، وأكثر الجاويين يعرفون هذه اللغة و لكن الخطوط التي يكتبون بها هي الخطوط العربية.

وهناك قسم من الملاويين يطلق عليهم اسم ذايف أو بايف، ودين هؤلاء عبارة عن الأسرار والخرافات كالبكداشيين عندنا، كما إن لهم لغة خاصة بهم ولكنهم لا يعرفون الكتابة، حتى المعاملات التجارية تتم بطريقة الإشارات والعقد (بضم العين وفتح القاف).

بورنيو

في جزيرة بورنيو توجد حوالي عشرين إمارة إسلامية أشهرها إمارة بروناي التي حصلت على استقلالها سنة ١٣٢٥ هجرية ولكنها دخلت أخيرا تحت الحماية الانجليزية.

وهناك أيضا: سامباس وبونتيانه ونانبهان ومابـاوه وسانغاوه وتابيان وكوتاي وبولاولات وبوتاغان وبولونكان وسانتكان وصراوه ودايه وريو وعدد من الإمارات الأخرى، وأمراؤها مجموعة من الحيوانات ارتبط بعضهم بالهولنديين وأصبح البعض الآخر خدما للإنجليز.

والحال نفسه في جزيرة سومطره، فباستثناء مأمون الرشيد أمير ديللي، والسيد محمد حسين أمير آساهان وعبد الجليل أمير لانكات، فإنه لا خير يرجى من الآخرين.

ومع أن هؤلاء جميعهم رجال شديدو التعصب لدينهم إلا أن الجهل قد غطى على بصائرهم. غير أن هناك بعض من الشباب الذين ينادون بالتبصر في المستقبل ويعملون بإصرار وتفان من أجل إيقاظ أمتهم.

وفي مدينة «بودانغ» بجزيرة سومطره تصدر جريدة «المنير» وتصدر بلغة الملايو، صاحباها وناشراها محمد عبد الحميد وعبد الله احمد بردران فوندق وهما من الشبان الطيبين. وهناك شبان طيبون مثلهما يرجى منهم

النفـع، يخـدمون الإسـلام دون كلـل، إلا أن عـددهم قليـل ولكنـهم موجودون.

لقد حصلت على هذا القدر من المعلومات بقدر مـا سمـح لي وقـتي، وخلاصة رأيي في هؤلاء المسلمين هي أن الأمل في حياتهم مرجو من الله تعالى. إن مسبب الأسباب يخلق الحلول، ويقول لها كن فيكون وهذا مما لا شك فيه. أما في ميدان العلوم و التكنولوجيا فـان الدولـة الفلمنكيـة[١] فلن تسمح لهم بتلقيها، بل ستـسعى لخنـق أنفاسـهم. إن حـضارة القـرن العشرين جاثمة على صدور المسلمين المساكين.

ومما لا شك فيه إن الله سيخلق الأسباب. آمل أن تكون حاجة اليابانيين هي الوسيلة المثلى لنجاة هؤلاء المسلمين المساكين، وسيأتي ذلك اليوم، إذ أن الجزر اليابانية لا تتسع لـساكنيها، ولابـد أن يـضطر اليابـانيون يومـا للهجوم على الفلمنك، ولا يستطيع هؤلاء المقاومـة، وسـتكون الجزائـر المذكورة أمانة بيد دولة حرة مثل اليابـان، وبـذلك يتحقـق الـسر الإلهـي ﴿علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ و عنـدها نقـول: هـذا مـن فـضل ربي[٢].

المسألة الشرقية والجامعة الإسلامية

ذكر دليلنا إمام البهرة فضل حسين أفندي عدة مرات بأنه اطلع على كثير من المؤلفات الإنجليزية حول هذين الموضوعين، وانه بنتيجة المعلومـات

---

(١) هولنده التي كانت تستعمر إندونيسيا.

(٢) لقد حدث أن غزت اليابان أندونيسيا وشاركت بعدها في تشجيع الاندونيسيين على الاستقلال من هولنده، استثمرت اليابان الكثير في اندونيسيا وكأن عبدالرشيد ينظر بعين الغيب ولـه فلـسفته الـتي فرضها زمانه (السامرائي).

التي حصل عليها من هذه المصادر فإنه تزايد عنده القلق واليأس، وكرر طلبه أن أبدي رأيي حول الموضوع، وفي كل مرة كنت أظهر عجزي عن الخوض بمثل هذا الحديث. وذات يوم، استغل فرصة وجود بعض الرجال عندي وأثار الموضوعين، وانضم الحاضرون إليه في طلب الرد مني، فاضطررت أن أبدي رأيي على الوجه الآتي:

المسألة الشرقية

إن هذه المسألة عندنا ليست بنفس الأهمية التي ينظر إليها الأوربيون، وهي تشبه أموال التركة التي تنتظر إصدار قانون يحدد حصص الورثة، ولا يمكن تعيين الأنصبة وتقسيم التركة إلا بعد وضع هذا القانون، ولذلك فان هذه المسألة لن تكتسب لحد الآن الأهمية اللازمة. والواقع فانه كلما تقدم العلم وزادت المعرفة، وتطورت الحضارة زاد الطمع والجشع عند الناس. ومع ذلك فان الدولة التركية لن تخضع للتقسيم العملي بحيث تزول به عن الخارطة تماما، لأن أطماع الدول الأخرى تمنع من الاتفاق على ذلك ولنفترض أن تلك الدول قررت تقسيم تركيا، فان هذا التقسيم لا يؤثر على بقاء الإسلام، لأن الله تعالى وهو خالق الأسباب، قد تكفل بحماية هذا الدين. لذلك فإني لا أرى ضرورة في الحديث حول هذا الموضوع أكثر مما قلت.

الجامعة الإسلامية

إن هذه المسألة تشكل حياة المسلمين جميعا و سأتكلم في هذا الموضوع، شريطة ألا ينفذ صبركم، لأن هذه المسألة ينبغي النظر إليها من عدة وجوه .

الحاضرون: مستعدون أن نستمع إليك ساعات، بل اليوم بطوله، كما إننا نرجو منك السماح لنا أن نعرض آراءنا الخاصة في مسألة الجامعة الإسلامية.

-إذن لنستمع إليكم أولا.

-لا، لا، نريد أن نستمع إليك أولا .

-أرى أن مسألة الجامعة الإسلامية مهمة جدا، رغم أنه لم يتم فهمها بشكل واضح، إنها مسألة حياة أو موت بالنسبة إلينا، إلا أن فهمها أمر صعب، والسبب الوحيد في عدم الفهم، هو تكاسلنا عن طرح هذه المسألة في وسائل الإعلام وقيام أعدائنا بذلك.

وأستطيع أن أقول أننا لا نجد في وسائل الإعلام الإسلامية من يتناول هذا الموضوع كما يجب وتكتفي صحفنا اليومية بنشر مقالات مقتضبة، أما أعداؤنا فإنهم يتناولون الموضوع بشكل يناسب أهدافهم الدنيئة. لذلك فان بعض البسطاء منا يسلمون بتلك الأقوال، فتتولد عندهم تجاه مسألة الجامعة الإسلامية نظرة خطيرة ومهلكة، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يتجرءون على تهديد الآخرين بآرائهم.

ن الجامعة الإسلامية ليس كما يظن الأجانب تحالفاً إجرامياً يستهدف تأليب المسلمين على النصارى للقيام بهجوم وحشي على عالم الحضارة لقتل الناس.

إن الجامعة الإسلامية ليست كدعوة الروس السلافية، ولا كدعوة الألمان الجرمانية، وليست كدعوة اللجان الثورية الإرهابية الأخرى، ومن الواضح أننا نحن المسلمين لن ننظر إلى هذه المسألة بهذا المنظار، إن الجامعة الإسلامية عند المسلمين هي الأخوة الدينية التي أسسها الشارع الحكيم قبل ألف وثلاثمائة عام وعلينا نحن المسلمين أن نحافظ على هذه الأخوة المشروعة إلى الأبد، وأن نكون يداً واحدة وقلباً واحداً نشد أزر بعضنا البعض. إن أية مصيبة أصابت أو تصيب اخوتنا المسلمين في الهند لابد أن تصيب إخوانهم الآخرين في سيبريا و تركستان والصين وأفغانستان، فكل المسلمين مكلفون بإزالة آثار هذه المصيبة الأقرب فالأقرب.

فحديث «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**» وحديث «**المؤمنون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا**» والى غير ذلك من الأحاديث التي تدعونا إلى الاتحاد و التضامن.

أما الآيات القرآنية التي تدعو إلى الأخوة فكثيرة جداً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ ويتبين من هذه الآيات بأن الاتحاد يعتبر من وظائفنا الدينية. وإذا كان التعاون والتعاضد و التناصر من الأوامر الدينية لعموم أهل الإيمان، وكانت كلمة التوحيد هي أس الأساس في الدين الإسلامي، فليس لنا أن ننظر إلى الجامعة الإسلامية نظرتنا إلى الاشتراكية أو الديمقراطية أو الفوضوية أو غيرها من الأنظمة، بل إن الجامعة الإسلامية هي من صلب التعاليم الإسلامية، ومن مكارم الأخلاق بكل ما في المكارم من معنى.

وإذا كان معنى الاتحاد هو التعاضد، وكان المسلم هو من سلم المسلمون

من لسانه ويده، فأي سمو أعلى وأقدس من اتحاد هذا النوع من الناس.

هذا هو معنى الجامعة الإسلامية عند أهل الإيمان، ولا يمكن تصور أي معنى غير هذا المعنى.

إذن فما الداعي لخوف الأوربيين من مثل هذه الجامعة؟ إذا ورد مثل هذا السؤال على الخاطر، فثقوا، بأن سوء الفهم عند الأوربيين لا يقتصر على هذا الموضوع فحسب بل لقد اختلقوا أسباباً تتناسب ومصالحهم ودسائسهم اللعينة. و كان هدفهم تكرار ما فعلوه بالمسلمين في الحروب الصليبية من الأعمال الوحشية. لقد عششت هذه الفكرة في قلوبهم، فهم يختلقون كافة الحجج ليخدعوا سياسيينا بالكلمات المعسولة، يبرؤون بها أنفسهم، ويوصمون الإسلام بالبربرية. ولقد خدع البسطاء والجهلاء وعشاق الفرنجة منا بتلك الأقوال المعسولة، فتجرءوا علينا وشاركوهم في إلقاء اللوم على المسلمين، دون أن يعرفوا أساس المسألة.

إن الجامعة الإسلامية تعني أن نكون مسلمين فاهمين للإسلام حق الفهم، و هذا أمر يقض مضاجع الأجانب. فإذا صار المسلم مؤمنا بحق وعمل بمفهوم الحديث الشريف: «سباب المسلم فسق وقتاله كفر» فلن تستطيع الدولة الروسية سوق مائتي ألف جندي مسلم بين جنوده لقتال المسلمين، بل لن تستطيع الاحتفاظ بهم في ديار المسلمين خوفا من تكثير سواد المسلمين، وسيرفض الجنود المسلمون أوامر الحرب المخالفة للإنسانية ولما تجرأت إنجلترا على إرسال الجيش المصري لمحاربة إخوانهم في السودان، ولما أرسلت مسلمي الهند لمحاربة إخوانهم الأفغان، ولذلك فانهم يصفون الجامعة الإسلامية بصفة الإرهاب ليستغلوا المسلمين في تحقيق أطماعهم الفاسدة.

إنني أشعر بالأسف الشديد على إظهار الشباب من أصحاب العقول السليمة العجز أمام مثل هذه المسائل وهو نوع من الانهزامية، ولو أمعنا النظر لرأينا أن أكثر الدول المنشغلة بمسألة الجامعة الإسلامية هي روسيا وإنجلترا، أي الدول التي تحكم كثيراً من الشعوب المسلمة. إنهم يمارسون الخداع في هذه الأمور كي يستخدموا المسلمين في القضاء على المسلمين الآخرين لتحقيق مصالحهم. فلو فهمنا معنى الجامعة الإسلامية حق الفهم، لما بقيت هناك مسألة اسمها المسألة الشرقية.

وخلاصة القول إني أرى أن حقيقة الجامعة الإسلامية ليست على ما يظنه الأجانب، بل هي شأن حيوي بالنسبة لنا نحن المسلمين. ثم قلت: بعد أن أبديت رأيي، أود أن أسمع رأيكم.

قال السيد فضل حسين: لا نرى ضرورة من إبداء رأينا في الوقت الحالي، إلا أننا نريد أن نحصل منك على مزيد من النفع: ذلك بأن الجامعة الإسلامية على الوجه الذي صورته لنا يحتاج إلى حام يحميه، والدولة العلية (العثمانية) التي يفترض ان تكون هي الحامية إنما هي في وضع ضعيف، لدرجة أنها عاجزة عن دفع راتب قنصلها في بتافيا[1]، ثم إن أكثر القناصل القادمين، هم من النوع الفاسد أخلاقيا، انهم يجمعون الأموال من المسلمين البسطاء، ويصرفونها على ملذاتهم، ومن يرى هؤلاء يصاب باليأس. إن سوء الخلق من أولياء الأمور القادمين من دار الخلافة يدفعنا لليأس، خاصة وأن المسلمين في هذه الديار يظنون بأن هؤلاء هم نواب الخليفة، وإذا وصل إلى مثل هذه المناصب بعض الرعاع

(١) اسم جاكرتا قبل الاستقلال (السامرائي)

الذين تسموا بأسماء إسلامية دون أن تكون لهم أي علاقة بالإسلام، فلا تعجب إذا حل الشقاق والنزاع وزال كل أمل في الجامعة الإسلامية.

-الحقيقة إن ما قلته صحيح إلا أن مثل هذه الأحوال كانت في أيام عبد الحميد، وأظن أن مثل هذه الأمور ستؤخذ بعين الاعتبار قريبا، وسيعين رجال يصلحون لمثل هذه المهام.

لقد هتك عبد الحميد حرمة المسلمين[١]، ما العمل إنه عمل سيئ في الأمة الإسلامية، وأملي ألا يتكرر ما حدث سابقا.

القنصل العثماني

محمد يوسف أفندي إمام مسجد الجاويين المعروف بالمسجد الرابع، رجل مسلم طيب، لقيت منه كل التكريم، وتحدثت معه طويلا، إنه من أهل البصيرة، ومن الرجال المدركين لكثير من بواطن الأمور.

ولقد حدثني أنه قبل يومين كان الحديث في أحد المجالس عن القنصل العثماني المرحوم عطاء الله أفندي[٢] الذي كانت له خدمات جليلة لمسلمي سنغافورة و كنا نرى لو أنه أرسلت الدولة العلية رجلا مثله، لأسرعت سنغافورة لدعم الدولة العلية في كثير من المواقف، ولأضيف أمل إلى حياة سنغافورة، وذكر أحد الحاضرين اسمك وتساءل: ماذا لو أن حضرة السيد قام بهذه المهمة؟ وأجاب آخرون بأنهم سيسألون ليعرفوا فيما

---

(١) حتى عبدالرشيد فاتت عليه اللعبة التي قام بها اليهود والماسونيون كما فاتت على غيره من المفكرين العرب أمثال رشيد رضا ومحب الدين الخطيب (السامرائي)

(٢) كروي من شهرزور في العراق أخو أبوبكر أفندي الذي بعثه السلطان عبدالحميد ـ رحمه الله ـ إلى جنوب أفريقيا ليعلمهم الإسلام بناء على طلب المسلمين.

إذا توجد هناك إمكانية لتحقيق ذلك، و إذا وجد من عنده إمكانية لذلك فنرجوه و نساعده، وأخيرا وكلوني في أن أستشيرك في هذا الخصوص، و لو تحقق ما نريد لسعد أهل سنغافورة كلهم. قلت: أشكركم على حسن ظنكم بي، نعم وأنا أريد أيضا أن يكون في هذا البلد قنصل عثماني، ولكن يجب أن يكون إنسانا كاملا، خبيرا في شؤون وظيفته، ومجيدا للغة الأجنبية، فالعمل القنصلي وظيفة كبيرة ومعروفة في السلك الخارجي ويجب أن يكون من يعين فيها خبيرا وعارفا بأسرار العمل، أما أنا فقد نشأت على الطريقة العلمية ولا تتعدى أهليتي هذا المسلك، وإذا لم يسند كل أمر إلى أهله فعلينا أن ننتظر الساعة «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

ومع ذلك فان رأيتم أن ذلك مناسب، فأرسلوا كتابا لوزارة الخارجية العثمانية، ليعينوا لديكم رجلا على خلق عالي مثل عطاء الله أفندي.، ولا تخشوا شيئا، إنهم لن يعينوا بعد الآن رجلا غير كفء. وأنا إذا وصلت إلى استانبول، فسأكلمهم ليرسلوا لكم رجلا يليق بهذا المنصب.

الشيخ محمد يوسف: لأهالي شبه جزيرتنا رغبة كبرى في أن يرتبطوا بمقر الخلافة، ففي عهد عطاء الله أفندي كانت عندنا حيوية، ولا أدري ماذا سيصير حالنا بعده، إننا في حالة يرثى لها.

انه لأمر عجيب حقيقة، فالدولة العلية لا تحسن اختيار من ترسلهم لمثل هذه البلدان، انهم يرسلون من يريدون أن يتخلصوا من شره. إن سفراءنا وقناصلنا، يثبتون فشلهم في كل مكان ذهبوا إليه، لا يكسبون ود المسلمين في هذه الديار، بل انهم ينفرون منهم.

مغادرة سنغافورة

سأغادر سنغافورة إلى كلكتا مباشرة على متن إحدى البواخر التابعة لشركة «أبكار». قدم إلى الميناء بعض الذوات من الأئمة والأشراف، وحجز الاخوة عيسى بهائي مقصورة، ضمنوا لي بها سفراً مريحاً، وبعد وداع بعض الاخوة دخلت مقصورتي، وأخبرت بأنه ليس في الباخرة من يعرف اللغة التي أتحدث بها، وقام فضل حسين أفندي بتعريف الأماكن التي أحتاج إليها في الباخرة، حتى مكان الخلاء، وكذلك أشار إلى رجل، قائلا بأنه سيقوم بخدمتي وأعطاني قائمة الطعام كتبت بالعربية، أختار بالإشارة الطعام والقهوة التي أريدها من هذه القائمة، كما دفعوا كافة المصاريف إلى أن أصل كلكتا، ونبهوني ألا أعطي أحداً شيئاً حتى أصل هناك، وإني سأجد رجالاً يركبوني عربة يوصلوني فيها إلى منزلهم، كل هذه الأعمال أفهمت للرجال العاملين في الباخرة.

وودعت الأخ فضل حسين، وتحركت الباخرة فوراً. والطريق الذي سنقطعه ٢٩٣٢ ميلا.

الهند

قبل وصولي إلى الهند لقيت في الباخرة كثيرا من الهنود، وحاولت الحصول منهم على بعض المعلومات عن بلادهم وأنا في الباخرة. سألت الأشخاص الذين تعرفت عليهم في المقصورة، كانت أكثر الأجوبة التي سأسجلها هنا لا تتفق مع ما كنت أصبو إليه، و لكنها كانت غريبة حقا

وفي أول مناسبة سألت مجوسيا لقيته صدفة؛ فقال: أ، الهند مهبط سيدنا آدم، أنزل الله تعالى آدم في سرنديب في أرض الهند، فأول دار للخلافة في الأرض هي سرنديب. إن مثل هذا الجواب من مجوسي كان أمرا مستغربا بالنسبة لي. والواقع أنني لم أكن أقصد من سؤالي سماع مثل هذا الجواب، بل كنت أريد الحصول على معلومات عن المدن والمباني والرجال، ومع ذلك فقد كان الجواب لطيفاً، وكانت الأجوبة على كل ما سألت بعد ذلك هي من هذا النوع وسأقدم إليكم بعضها:

سألت أحد الطلاب، فأجاب نقلا عن الإمام السيوطي:

خير واد في العالم وادي مكة، وواد نزل به آدم بأرض الهند "الحديث".

:-قبل الله توبة آدم في أرض الهند.

-أول الأنبياء ظهر في الهند.

:-أول ما نزل جبريل على أرض الهند.

-:العصا المباركة لسيدنا موسى عليه السلام هي من الهند إنها من شجر الرياحين.

-:أول ما اكتشف من الذهب والفضة والمعادن الثمينة في الهند.

:-أول ما عرفت صناعة الحديد في الهند، وهي أول صنعة أنعم الله بها على عباده.

:-شجرة النارجيل التي شبهها القرآن بالكلمة الطيبة تجدها في الهند.

-وفي القرآن لغة هندية إضافة إلى اللغة العربية: السندس وطوبى من اللغة الهندية.

كلكتا

هي عاصمة الهند التي يحكمها الإنجليز[1]. وهي المركز الإداري لمقاطعة البنغال، كما إنها مركز تجاري كبير، ويبلغ عدد سكانها أكثر من مليون نسمة، وأول ما وطئت أقدامي من أرض الهند هي مدينة كلكتا، حيث نزلت ضيفا على متجر الاخوة عيسى بهائي. كنت في ضيافة إمامهم المولوي بدر الدين صاحب. والمعلومات التي سأذكرها عن هذه المدينة تلقيتها من هذا الرجل.

إن كلكتا هي من أكثر المدن الهندية تطوراً وأكبرها وأكثرها انتظاما، وكانت قبل مائتي عام قرية صغيرة في وسط مستنقع، فأصبحت الآن مدينة شهيرة تضاهي المدن الأوربية، إنها تسحر الألباب بمبانيها الضخمة وشوارعها الجميلة وحافلاتها الكهربائية وأنوارها، وتزينها الأرصفة الجميلة العريضة، وحدائقها الغناء.

ولا عجب في ذلك، إنها مدينة حديثة، أنشأها الإنجليز. إلا أنه مما يبعث على الحيرة حقاً، هو وجود أزقة ضيقة ومتعرجة في وسط المدينة، وبحالة شديدة من القذارة. حتى الأزقة التي فيها المتاجر الكبرى مثل متجر الاخوة عيسى بهائي، لا يمكن أن تمر فيه عربتان متقابلتان، وفيها أزقة أضيق من ذلك، كما إن فيها أزقة خاصة بالمشاة. أما عن القذارة والنجاسة فحدث ولا حرج، فلا يمكنك أن تمر في الشوارع بسهولة بسبب الأبقار والثيران المتمددة هنا وهناك، والنفايات والقاذورات التي تحدثها هذه الأبقار تزيدها قذارة.

---

(١) كانت كاكتا فعلاً عاصمة الهند (السامرائي)

إن الشعب الهندي بشكل عام لا يهتم بالنظافة. إنهم يرمون النفايات في الأزقة. وذات يوم كنت أمر من شارع شهير، فصب أحدهم من فوق أحد البيوت قدرا من الماء، وشعرت كأنه يصبه على رأسي. إنها أحوال غريبة حقا، وإذا نظر الإنسان إليها بتمعن، أدرك الطريقة التي يحكم بها الأوربيون الأمم الشرقية. وحتى الشارع الخاص بالصينيين بجوار المسجد الكبير يعطيك الانطباع أنه بؤرة الكوليرا في الهند. لم أجد تعريفا يناسب كلكتا أكثر من هذا. إن هذه المدينة الضخمة التي يعيش فيها مائة ألف مسلم، لا يوجد فيها جامع كبير يفي بالحاجة، والمسجد الذي يسمونه بالجامع الكبيرهو أكبر المساجد و لكنه صغير جدا، والواقع إن هناك مساجد صغيرة وجميلة، ومع ذلك فلا تجد الجماعة إلا في الجامع الكبير، وهذا الجامع لا تجد فيه إلا الفقراء. أما الأغنياء والأشراف فلم تعد لهم صلة بالمساجد بكل أسف. وفقراء هذا البلد أمرهم عجيب، انهم ينامون في المسجد طوال اليوم، فإذا قام الناس إلى الصلاة قاموا هم بمزاولة عمل التسول بين الصفوف، وما أن يغادر المصلون المسجد حتى يسرع هؤلاء ويعودون إلى نومهم.

وإمام المسجد رجل مصري(١)، يقوم بهذه المهمة بالوكالة، وقراءته حسنة، وليست له صفات ومزايا أخرى. كما إن عمله لا يتعدى إمامة الناس في الصلوات الخمس مقابل أجرة معينة[١].

وفي أحياء كلكتا مساجد أخرى قديمة وفقيرة ولكن البركة تجدها في مثل هذه المساجد، ففي بيوت الله هذه أئمة طيبون، وبعضهم بمستوى

---

(١) لا أدري لماذا تجاهل الشيخ/ عبدالرشيد الإمام العربي ولم يذكر اسمه رغم أن الشيخ على أحمد الجرجاوي الرحالة الذي ذكر في كتابه «الرحلة اليابانية» بأنه زار اليابان وفي عودته اجتمع بإمام مسجد كلكتا الشيخ/ أحمد موسى المنوفي وأثنى عليه كثيراً (السامرائي).

العلماء، وتزيد الجماعة فيها عن صفين أو ثلاثة. أما بالنسبة للمدارس في كلكتا فليس هناك شيء يمكن أن يقال عنه مدرسة، وهناك مدرسة عليا، لكنها عبارة عن مبنى ضخم يفتقر إلى العلوم والمعارف والفنون والفضائل. أما مدرسو هذه المدرسة فهم مجرد قوالب لملابسهم عينتهم الحكومة الإنجليزية على حساب مسلمي الهند، ومنحتهم الألقاب الطنانة مثل شمس العلماء وبدر الفضلاء وغيرها من الألقاب وخصصت لهم رواتب ضخمة، إنهم يعرفون بعض الكلمات الإنجليزية و يترددون على المدرسة في ساعات معينة. وهناك عدد محدود من المدارس الابتدائية ولكن الدراسة فيها غير منتظمة ولا يتعدى عدد طلابها العشرة أو الخمسة عشر من أبناء الحي. لقد زرت أكثر هذه المدارس، وقابلت مدرسيها ومعلميها، وتأكدت من خلو جعبتهم. وكذلك التقيت بطلاب المدرسة التي يصفونها بالعليا، واختبرت طلابها، ولم أجد بينهم من يعرف كلمة عربية أو فارسية واحدة. والواقع فان تعلم هاتين اللغتين اختياري، أما الإنجليزية فتعلمها إجباري. هذه هي المدرسة العليا التابعة للمسلمين في العاصمة الهندية. إما أوقاف المساجد كثيرة شأنها شأن المساجد الأخرى في كل أنحاء الهند، وإن إيردات أوقاف هذه المساجد تشكل ملايين الليرات المجمدة في البنوك، إلا أن المسلمين محرومون من الاستفادة من هذه الأوقاف، وسيرد تفصيل ذلك في بحثنا عن الأوقاف.

ومن الطبيعي أن تكون معلوماتي عن مدينة كلكتا محدودة. أعرف أن المدينة هي من المراكز التجارية المهمة ولكن لا أعرف أنواع تجارتها. وأما موقعها الجغرافي فهو خارج عن نطاق استيعابي، سوى أنني أعرف بأنها تقع عند مصب نهر «كانكة» أو «غانغة» وهذا النهر مشهور جدا، ومقدس لدى الهندوس و منابعه في جبال همالايا.

ويعتقد مجوس الهند بأن هذا النهر ينبع من الجنة ويصب فيها، وبناء على هذا الاعتقاد فانهم بعد حرق الأموات يلقون برماد الجثث في هذا النهر، وكانوا قديما يلقون بالجثث من دون حرق، وبعضهم يلقون بالمرضى وهم أحياء، فتتجمع هذه الجثث في كلكتا. إلا أن الحكومة الإنجليزية منعت ذلك، لذا فإنهم يكتفون الآن بذر رماد الأموات بعد حرقهم في هذا النهر. ويروى بأن بعض الناس في جهات البنجاب يرمون بأنفسهم في هذا النهر ليذهب بهم إلى الجنة مباشرة! ومهما وجد مثل هذا الاعتقاد عند الأمم الأخرى، إلا أنه قد لا يكون بهذه الفظاعة التي تجدها عند مجوسي الهند.لقد منع رمي الجثث في النهر، لذلك تجد هؤلاء المساكين يسبحون في النهر من الصباح حتى الغروب. وحتى في الليل تجد المئات منهم يغتسلون فيه، ويعتقدون أنه إذا حان أجلهم وهم في النهر، فسيكون مصيرهم إلى الجنة مباشرة. إنها اعتقادات غريبة حقا!

سكان كلكتا

إن القسم الأعظم منهم مجوس، ويأتي المسلمون في المرتبة الثانية، ثم الأجناس الأخرى، وفيها الأوربيون من مختلف الجنسيات، ويشكل الصينيون حيا خاصا بهم، وهناك عدد لا بأس به من العرب، أما الأتراك فلا تكاد تجد منهم أحدا، وفيها شامي واحد. ومن الطبيعي أنني سعيت للتعرف على أحوال المسلمين أولا ورأيت أن واجبي الأول هو جمع المعلومات المتعلقة بهم. إن الجهل في الهند يعم المسلمين والمجوس على حد سواء، أما من جهة الدين فالتعصب الأعمى يجمع بينهم. وفي الجانبين تجد أهل الثراء كما أن فيهما الفقراء أيضا.

وفقراء الهندوس شديدو الفقر. إنهم عراة لا يجدون ما يسترون به أجسادهم، تشاهدهم يلتحفون الأرصفة، و الأحجار والطين في الليل والنهار.

وفقراء المسلمين يأوون إلى المساجد، لذلك تجد القليل منهم في الأزقة والأرصفة. أما الهندوس، فيفترشون الشوارع، يأكلون وينامون فيها.، وإذا أردت أن تمشي ليلا، فانه يتعذر عليك السير فوق الأرصفة، لأنها مغطاة بالبشر النائمين، حتى قضاء الحاجة يتم في المكان نفسه، لا غطاء ولا فراش. نعم إن الهند من البلاد الحارة، و لكن الرطوبة الدائمة تضر الجسم البشري.

ما هو سبب هذا الفقر الشديد يا ترى؟ لم يغب هذا السؤال عن بالي أبداً. سألت الكثيرين ولكنني لم أجد الجواب الشافي. و مما لاشك فيه بأن مساحة ولاية كلكتا لا يمكنها إعالة خمسة وسبعين مليونا من البشر، وقيل لي بأن كثافة السكان في جهات بردوان قرب كلكتا تصل إلى ستمائة إنسان في الميل المربع الواحد، ومن المؤكد أن يكون لذلك أثر كبير، ولا ريب أن هناك أسباب أخرى .

ولقد علمت أن عدد هؤلاء الفقراء المساكين في تزايد، كما أن أنواعا كثيرة من الأمراض والعاهات تنتشر بينهم، تجد فيهم الأحدب والأعرج والكسيح والأعمى، والمئات من ذوي العاهات المختلفة الأخرى، يتقلبون على أحجار الأرصفة هنا وهناك.

إن الحكومة الإنجليزية التي هي أغنى دول العالم وأكثرها رقياً، جمعت كل ثروتها من وارداتها من الهند، ومع ذلك فإنها لم تفكر أبداً في أن تنشئ لهؤلاء المساكين دور عجزة أو دور إيواء، كما إن جميع السياح الذين يأتون من أوربا وأمريكا، لا يكتبون كلمة واحدة عن هذا الموضوع.

فالأوربيون لا يرون الجوانب الخربة في الشعوب التي يحكمونها و حتى وان رأوها، فانهم ينسبون التهمة إلى دين هذه الأقوام الشرقية، فتجدهم يقولون: هؤلاء كذلك، إن دينهم يأمرهم بأن يكونوا على هذه الحالة. فجمال عدد من الشوارع ينسبونه للإنجليز أما القبح والنقائص السائدة فهي من نصيب الدين الإسلامي. كما إن كل ما يكتب عندهم يعتبرها الناس عندنا عين الحقيقة.

إنهم إذا رأوا هؤلاء الفقراء والضعفاء لا تتحرك فيهم عاطفة الرحمة والشفقة. نعم ترى دور الكسالى التي أنشأها البروتستانت في كل مكان ولكنهم يقبلون العجزة بشرط إعتناق النصرانية، في حين لا تكاد تجد بين الشرقيين أعرجا أو أحدبا، أو ضعيفا تدفعه شهوته إلى الطعام إلى اعتناق دين يخالف مشاعره. إن هذا العمى في الحضارة الأوربية أمر محير حقيقة. إن جميع هذه الحالات التي ذكرناها لا تراها في أرياف الهند أو قراها، بل هي في مدينة كلكتا عاصمة الهند ومقر حكومتها الإنجليزية.

أما التعصب المذهبي الأعمى والفرقة بين مسلمي كلكتا فأمر مؤسف للغاية وان كان هذا الاختلاف المذهبي ليس بالقدر الذي تجده عند المجوس، ومع ذلك فانه لأمر يدفع الإنسان إلى اليأس من مستقبلهم، ففيهم عينات من الإمامية و الإسماعيلية والإثنا عشرية والمذاهب الأخرى. وقد سمعت من رجال موثوقين بأن جريدة «الحبل المتين» كانت تأخذ دعماً مالياً سنويا من الإنجليز مقداره عشرة آلاف روبية للعمل على زيادة الفرقة والهوة بين المسلمين أسفي الشديد على إخواننا المثقفين الإيرانيين، كان عليهم أن يرشدوا مسلمي الهند لا أن يخدعوهم ويغشوهم.

التدين لدى مسلمي كلكتا

إن من بين أتباع هذه المذاهب فإن الإسماعيليين البهرة هم أكثرهم تدينا وتمسكا، ولا تجد بينهم فقيراً واحداً، فالبهرة ليس بينهم فقير، ومن النادر أن تجد فيهم شاباً تاركاً للصلاة، كما أنهم يحافظون على صومهم. أما التناصر والتعاون فهما موهبة وهبها الله لأهل هذا المذهب، ولولا شدة بغضهم وعداوتهم لأهل السنة و الشيخين(أبي بكر وعمر رضي الله عنهما) لكان مستقبل الإسلام المشرق على يد الإسماعيلية.

أما السنة: فأكثرهم من أتباع المذهب الحنفي، وليس فيهم تعصب زائد و يلاحظ عليهم التراخي في الدين وإهمال الصلاة أمر شائع فيهم، ولا تزيد نسبة الصائمين فيهم على خمسين في المائة، ولا يخلون من الخلاف فيما بينهم، والتعاون والتناصر معدومان عندهم.

وأما الإمامية والاثنا عشرية فما أن بدأ فيهم التطور حتى تركوا الصلاة، ونسوا الصيام، ومع ذلك فان التعاون قائم فيما بينهم، وهم يوقرون الكبير.

ولا تجد بين مسلمي الهند من ينحط إلى درجة كتمان دينه وحتى الذين تلقوا العلم في أوربا، ما أن يصل أحدهم إلى الهند حتى يعود إلى زيه الوطني، ويقول:أنا مسلم. ومع أنه يهمل بعض الشعائر إلا أنه يفخر بإسلامه، لا يمكن لأحد أن ينكر هذه المزية فيهم. ولا تجد أحداً من مسلمي الهند يلبس القبعة على رأسه. إنهم لا يرضون بمثل هذه الدنية.

وسيأتي التفصيل الخاص بالمذاهب، لذلك اكتفيت هنا بهذا القدر.

ولم أجد في كلكتا رجالا يبحثون في الأمور الدينية، التقيت بملقبين بشمس العلماء و لكنني لم أجد فيهم مزية يستحقون بها هذا اللقب. وقد

تأكدت فيما بعد أن هذا اللقب وغيره من الألقاب الفضفاضة، هي ألقاب رسمية أنعمت بها الحكومة مقابل ضمائرهم التي باعوها للحكومة. نعم هناك تجار وهم رجال من أهل الدين والشرف، و لكنهم يصرفون كل اهتمامهم على التجارة وجمع المال، فإذا كان الحديث عن المستقبل استمعوا إليك قليلا، ثم لا يلبثون أن يصرفوا وجوههم عنك، إنهم ليسوا بمستوى تلك الأفكار.

والواقع أنني لم أمكث هناك كثيرا، لذلك فان حصولي على مزيد من المعلومات كان خارج حدود إمكاناتي: فأنا أجهل لغتهم وهم يجهلون العربية، ومعرفتي بالفارسية ناقصة، وجزا الله هذه المعرفة الناقصة فقد مكنني الله بها أن أتفاهم معهم وألقي ببعض المواعظ في الجامع الكبير، وبها تمكنت من التعرف على بعض الناس.

حب الضيف

حب الضيف صار طبعا لأهل الشرق بوجه عام وللمسلمين بوجه خاص. وخلال إقامتي في كلكتا لقيت تكريما كبيرا من الاخوة عيسى بهائي، فقد فرشوا لي صالة خاصة بي. وعندما كان أشراف المدينة يلجأون في الليالي إلى الجبال هربا من شدة الحر، كانت المراوح الكهربائية تلطف حرارة الجو في الصالة التي أنزل فيها، ويتناوب على خدمتي رجلان، يمشي أحدهما خلفي أينما ذهبت ويستأجر لي عربة إن كان المكان الذي أقصده بعيدا. لا يربطني بهؤلاء الرجال شيء سوى الإسلام، وإن التكريم الذي لقيته منهم بالرغم من أنني سني وهم من الشيعة دليل على حبهم للضيف، كما إنني أضيف إلى ذلك أنه لم تكن بيننا سابق

معرفة، وإن علاقتنا تقتصر على الإسلام، إنها رابطة علوية ليتنا نستفيد منها.

وعندما أبلغتهم برغبتي مغادرة كلكتا أصروا علي بأن أمدد زيارتي أياما أخر، ولكنني قررت بيني وبين نفسي ألا أتراجع عن السفر، فرجوتهم أن يسمحوا لي بذلك، عندئذ بادروا إلى العربات الفاخرة(الحناطير) وأوصلوني إلى محطة القطار، وحجزوا لي مكانا في الدرجة الثانية في قطار بنغالة الكبير، كما دفعوا عني قيمة بطاقة السفر التي ستوصلني الى بومبي عبر إله آباد ومانيك بور وجبل بور، والمسافة التي سأقطعها ١٣٤٩ ميلا. وهذا أقصى ما يمكن أن يقدم للضيف.

إنني أرجو من الله العلي القدير أن يفتح بصائر أهل الإيمان وينعم عليهم بالإنصاف كي يقدروا به قيمة هذه النعمة العظيمة

لا أجد حاجة للتعريف بمناطق الهند. وأكتفي بالتفصيل لبعض النقاط المهمة.

وصلت إلى مدينة بومبي، وهنا رغبت أن أتزيا بزي الدراويش ليعرفني الناس على هذه الصورة، ولم أرغب في النزول ضيفا في منزل الاخوة عيسى بهائي بالرغم من إبلاغهم من كلكتا بخبر قدومي برقياً، واكتفيت بترك أمتعتي عندهم ن وتوجهت مباشرة إلى مسجد ال الميمني، وقررت أن اقضي أيامي في زي الدراويش. فأنا الآن في بومبي.

بومبي

بومبي من حيث الأساس هي بوابة الهند، وهي إحدى أشهر المدن في الجهة الغربية وأكثرها عمرانا، وهي أكبر موانئ الهند بالنسبة للقادمين من

أوربا وأفريقيا. والقادم إليها عندما تطأ قدماه الأرض، يرى قبالة الميناء المباني الضخمة وأرصفة الميناء والشوارع فيتخيل أنه في أوربا. شوارعها شديدة الانتظام، وأزقتها عريضة، ميادينها فسيحة وأرصفتها عريضة، وتسير في شوارعها عربات جميلة و حافلات كهربائية. إنها بحق مدينة عامرة وشهيرة. ومع ذلك فان هذا الانتظام وهذا الجمال يبقى منحصرا على القسم المخصص للأوربيين، وينتهي في محطة القطار وسوق الخضار، وإذا تقدمت قليلا، حيث جامع الجمعة ومسجد رنكاري وجدت الشوارع غير المنتظمة والأزقة الضيقة، والنجاسات والقاذورات، فالنظافة تبقى حكرا على الأوربيين، بالرغم من أن كثيرا من الأوربيين يسكنون الأحياء الداخلية أيضاً، ومع ذلك فانهم يرجعون القذارة والنجاسة إلى دين هؤلاء الناس، فيقولون:إن القذارة يأمرهم بها دينهم!

وكل هذا لا يمنعنا من أن نقول بأن بومبي جميلة جدا وهواؤها لطيف، مقارنة بمدينة كلكتا.

في بومباي يقرب عدد السكان من المليون و يسميها الهندوس «مميء» وهو محرف من الصنم المدعو «ممادیو» وأكثر الناس يكتبونها «بمبيء» أي مرسى السفن. ويقول البعض بأن هذا الاسم أخذته المدينة من البرتغاليين، إلا أن الرحالة المسلمين في القرنين السادس والثامن الهجريين كتبوه على هذه الصورة، وهذا يرجح كون هذا الاسم من صلب اللغة الهندية.

وسكان بومبي يتشكلون من الأمم المختلفة فثلثهم من مجوس الهندوس البراهما، وأكثر من الثلث مسلمون، والربع من الفرس- الزرادشت، والباقي من الإنجليز والأجانب الآخرين.

ولما كانت الأمطار لا تنقطع في الصيف أو في الشتاء فان بومباي والمناطق المجاورة لها جنة خضراء، تضفي عليها أشجار السرو الباسقة

لطافة متميزة، وتكاد بومباي تختص بكثير من أنواع الفواكه والأشجار المثمرة.

ويجد الإنسان الغريب في هذه المدينة كثيرا من الأمور والأطوار الغريبة تشده ويستغربها: هندوس أجسادهم عارية مصبوغة بألوان مختلفة وعلى رؤوسهم لفائف ضخمة، وخطت وجوههم بخطوط كثيرة، وفرس على رؤوسهم قبعات طويلة وهؤلاء من عبدة النار، وأفغانيون تعلو رؤوسهم عمائم ضخمة، وجيش من ذوي العاهات، فهذا لا ذراع له، وآخر مبتور الساق، ومئات من العور والعميان، إنه أمر عجيب حقا، يمسكون بأكتاف بعضهم البعض ويمشون مجموعات من ثلاثة أو أربعة أو أكثر. إنها مناظر مؤسفة ومحزنة بين بني البشر.

مسلمو بومبي

أما مسلمو بومبي فينقسمون الى مجموعات و طبقات عديدة: خواجكان، بواهر، نوايط[١]، ميامن، إيرانيون، غرباء. إن أكثر المثقفين المحليين يعملون في الدوائر الحكومية والبنوك والمكاتب، و فيهم بعض السياسيين، وهم طبقة النخبة، يستغلهم الإنجليز بصورة دائمة، وأكثرهم متوسط الحال، وتعتمد الحكومة عليهم بالدرجة الأولى. أما البواهر، فهم البهرة الذين تقدم ذكرهم، بينهم أغنياء كثيرون، وهم منظمون تنظيماً جيداً، يملكون كثيرا من الأموال، شديدو التدين. وفي فترة من الفترات

(١) النوطة في الأصل البحار.

حاول رجل اسمه «حسن آغا خان» إضلالهم و لكنهم استطاعوا التخلص منه، وعادوا إلى الصلاح.

والعلوم العربية شائعة عند هؤلاء البهرة، والدراسة الرسمية في معاهدهم العليا هي باللغة العربية، أما اللغة الإنجليزية فتعتبر عندهم بمثابة اللغة العلمية، وكلمتهم عند الحكومة مسموعة بفضل تضامنهم، لأنهم منظمون، والواقع فان البهرة قوم متضامنون وأما النوايط فهم قرشيو الأصل خرجوا من المدينة المنورة فرارا من ظلم الحجاج بن يوسف، واستوطنوا في سواحل البحر الهندي.

إن الكثير من مشاهير علماء الهند هم من طبقة النوايط ومنهم الشيخ علي بن محمد المهائمي صاحب التفسير، ومهايم مدينة تتبع ولاية الدكن قرب بومبي. والمفتون والقضاة يعينون من بين أفراد طبقة النوايط، والمسجد الجامع في بومباي هو مسجدهم.

وأما الميامن، أو الميمنيون فهم أغنياء بومباي، ورغبتهم في العلوم قليلة بشكل عام، ولكنهم معروفون بالصلابة الدينية غير الواعية، فيهم كثير من الرحالة والتجار، وهم في الأصل من المؤلفة قلوبهم، وعندما عرض عليهم الإسلام قبلوا الدخول فيه ببعض الشروط، ومنها حصر أموال الميت في الذكور دون الإناث، وهم يتمسكون بهذا الشرط إلى يومنا هذا.

أما الإيرانيون فهم من العجم الاثنا عشرية خرجوا من إيران قديما واستوطنوا في أنحاء كثيرة من الهند. والمثقفون هم من هذه الطبقة، وبعد تقادم العهد صاروا من المواطنين الأصليين.

وأما الغرباء: فهم من أتباع مذاهب شتى، فمنهم الوهابي، ومنهم البابي، ومنهم أهل الحديث، ومنهم القادياني، ومنهم الآغاخاني،

وغيرهم و غيرهم، فالإنجليز بأموالهم يسعون إلى إكثار المذاهب، وفي مدينة بومباي عينات من كل المذاهب، وهم يعرفون بالغرباء.

المساجد في بومبي

من المعروف أن بومبي مدينة إسلامية، وفيها مساجد جميلة ومنتظمة، ومنها المسجد الكبير المعروف بجامع الجمعة، وهو مسجد النوايط الذين سبق ذكرهم. ومن النادر أن تجد في الهند مساجد بهذه السعة. وتسرج فيه ثمانية (لوكسات) وواردات أوقافه السنوية تصل إلى ثمانية آلاف ليرة.

وأكثر النوايط شافعيو المذهب، ولهم اتصال دائم بحضرموت واليمن، ومن المؤكد أنهم نسباً من العرب. والسيد المولوي عبد المنعم صاحب، إمام وخطيب هذا الجامع معروف بين علماء بومباي بذكائه، وبعلمه وفضله، ويجيد اللغة الإنجليزية، وهو إنسان معروف في الأوساط الرسمية، وميال للسياسة الإنجليزية، حتى أن بعضهم يتهمونه بالعمل لحساب البوليس السري، إنه لا يذكر في الخطبة اسم الخليفة، وسمعته في الدعاء يقول(اللهم انصر سلطان المسلمين وجيوش الموحدين، اللهم انصر من نصر الدين) وقد كرر ذلك ثلاث مرات.

وذات يوم من أيام الجمعة سألته:هل هناك مانع من ذكر اسم الخليفة؟ قال: ليس هناك مانع رسمي و لكنني لا أجد رواية بلزومه، بل لجوازه. ومع ذلك فان هذا السؤال مناسبة لكي أعرف رأيك، أريد أن أعرف رأيك في مدى جوازه.

- ليس هنالك أدنى شك في جوازه، وتعلم بأنه ليس من الأمور المبتدعة حديثا، وإذا لم يكن هناك من دليل مقنع، فأظن بأنه يكفي «ما راه

المؤمنون حسنا، فهو عند الله حسن» وإذا كانت للمؤمنين حاجة عامة في العصر الحاضر فهي استمرار رابطتنا بمقام الخلافة، فإذا دعونا الله تعالى أن يحقق حاجتنا هذه في مثل هذا الوقت الذي يستجاب فيه الدعاء، فلا أظن أن إنساناً مسلماً ينكر حسن هذه الدعوة، وأنت أيضا لا تنكر ذلك.

- نعم وأنا لا أنكر ذلك لكن القناصل الذين هم بمثابة وكلاء لخليفة المسلمين، ينفروننا من ذلك المقام، عندنا الآن شهبندر(قنصل)، لم نره في المسجد ولو لمرة واحدة، حتى صلاة العيد لا يصليها مع المسلمين، يلبس القبعة على رأسه ويتأبط زوجته، ويمشي دون أن يسلم على أحد من المسلمين. أليس من الخزي والعار على الخليفة بأن يكون وكلاؤه على شاكلة هؤلاء؟ صرت أصاب باليأس كلما أراهم، وأربأ بنفسي من ذكر أسمائهم في هذا المقام المقدس.

- لا يمكنني أن أشاركك الرأي في هذه النقطة، فنبينا أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام، أرسل الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق، وقد نزلت فيه اية" إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا". وهذا الرجل الذي ثبت فسقه بالنص، استعمله عثمان رضي الله عنه، كما استخدم سيدنا عمر بن الخطاب قدامة بن مظعون عاملا على البحرين، مع أن عمر جلده بسبب شربه الخمر متأولا، وقد كان قدامة من أهل بدر.

أما المختار بن أبي عبيد الذي عينه سيدنا علي واليا على المدائن، فقد جاء إلى علي بصرة قال بأنها من أجور المومسات، وهذا الرجل كان أفسق من وليد، فإذا كان الخلفاء الراشدون قد استعملوا مثل هؤلاء في صدر الإسلام، فلا يحق لك أن تتهم الخليفة بجريرة القناصل، خاصة وأنك سني، فلا يمكنك أن تطعن بالخلفاء الراشدين وهم من العشرة المبشرين بالجنة.

عندما أجبته بمثل هذا الجواب كنت متضايقا ومحتدا بعض الشيء فأضفت قائلا: كيف تجيز لنفسك عملا تخالف فيه عموم العلماء في الهند؟

كان جواب المولوي عبد المنعم صاحب لينا، فقال وهو يحرص على ألا يخرج من دائرة الإنصاف: أرجو أن تحافظ على اعتدالك، إنني احترم مقام الخلافة، ولست من أتباع أي رأي فاسد، و إني أريد أن أبدي لك رأيي بنية الاستفادة، فإذا قلت: انك تخالف علماء الهند فبإمكاني أن أرد بأنهم رجال ونحن رجال، و الذي أريد أن أؤكده لك أن عموم أهل الإيمان يحسنون الظن بمقام الخلافة، و على الخصوص مسلمي الهند فإنهم يكنون المحبة والاحترام لخلفاء آل عثمان، صحيح إنهم لم يتعرفوا على محمد رشاد بعد و لكنهم كانوا يعظمون مقام عبد الحميد، حيث إنه حاز على مكانة خاصة في قلوب مسلمي الهند لجهوده بمد الخط الحديدي الحجازي. إننا نقدس مقام الخلافة من صميم قلوبنا. و إن الذي على ألسنتنا وراءه حب في قلوبنا أكبر وأعظم. و هنا فارقته مودعا في أمان الله.

وتلحق بجامع الجمعة مدرسة صغيرة ومكتبة. والمدرسة جيدة ولكن عدد طلابها لا يتجاوز العشرين. تعرفت على أحد مدرسيها وهو المولوي غلام أحمد صاحب، وتبادلت معه الرأي. إن هذا الرجل قلق على الأوقاف. وفي المكتبة قرابة ثلاثة آلاف من الكتب الإسلامية وبعضها من الكتب النادرة وقد وجدت كتاب الثمرة المرضية للفارابي، والمعارف لابن قتيبة وصفوة الصفوة لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي وتلخيص الحقوق وملوك العرب قبل الإسلام لكاظم بك. إنها مكتبة جيدة بالمقارنة مع مكتبات بومبي، ولكن لا الجامع ولا المكتبة تتناسب وواردات الوقف

التابع لهما، و هذا دليل على أن النوايط متأخرون عن بقية مسلمي الهند، وأترك التفصيل في الموضوع إلى بحثنا عن الأوقاف.

مسجد الميامنة

إن المسجد المعروف بمسجد الميمني جميل ولطيف المنظر، أمضيت أكثر أوقاتي في هذا المسجد أثناء إقامتي في بومبي، وكان أنسب مكان للقاء بالفقراء والدراويش، لأن الفقراء في هذا المسجد أكثر من غيرهم.

والمساجد في عموم الهند هي محل سكن الفقراء، و تختلف عن بعضها في عدد الفقراء الذين ينامون فيها (ولم أتمكن من معرفة السبب). وفقراء بومبي يكثرون في مسجد الميمني ومسجد زكريا، وأغلب الفقراء في مسجد الميمني هم محليون و دائمون، أما في مسجد زكريا فأغلبهم من الحجاج والمسافرين.

إن مسجد الميمني مبني على الطراز العربي، وهو مسجد صغير لكنه جميل، وحوله الشاذروانات و النوافير، ومضاء بالكهرباء، و التهوية فيه بالمراوح الكهربائية، وزين داخله بالثريات والقناديل الثمينة. و يوجد بجانب هذا المسجد عدد من الغرف المخصصة للخدم. وقد استقدم المؤذن من الحجاز، ولكن يبدو على الإمام الهندي الجهل. ويمكننا أن نطلق على هذا المسجد الفندق النهاري حيث تجد أكثر من عشرين أو ثلاثين شخصاً ينامون متمددين، وأكثر الناس يقصدون المساجد في النهار للنوم. و كانت المساجد في السابق مفتوحة في الليل والنهار. أما الآن

فتغلق أبوابها بعد الثانية عشرة ليلا بأمر من الإنجليز، ومع ذلك فهناك ضيوف دائمين ينامون في صحن المسجد ليلا، بعلم الإمام.

و تأتي موارد هذا المسجد من أوقافه و هي تفيض على ما يصرف عليه، ولا يصرف الفائض على الجهات المشروعة الأخرى، بل إنها تؤول إلى حسابات البنوك.

عصا البوليس داخل المسجد

يزداد عدد الفقراء في المساجد وعلى الخصوص أيام شهر رمضان، وتوجد عادة قبيحة و شائعة هي توزيع الخبز في المساجد، ويرابط في المسجد شرطي يوكل إليه تأديب هؤلاء الفقراء عند اللزوم حيث يحمل الشرطة بأيديهم عصا من الخيزران سلمتها لهم الحكومة بصورة رسمية.

وفي عصر ذات يوم جاء رجل إلى المسجد ليوزع خبزا، و تصاعد الصياح و الضجيج وسط الفقراء، عندئذ هجم عليهم الشرطي وبدأ يضرب بعصاه كل من صادفه في طريقه، وحدثت مفاجأة إذ ظهر رجل تركي من بين المتفرجين، يلبس فوق رأسه طربوشاً مثل طرابيش البكداشيين، فقفز مثل الأسد وشق طريقه نحو الزحام فانتزع العصا من يد الشرطي و ضربه بها: الشرطي يصفر بصفارته ويطلب النجدة ولكن من دون مستجيب، و أخيراً استطاع الشرطي الإفلات من يد هذا الرجل وهرب خارج المسجد. أما هذا الرجل فلم تهدأ ثورته و علا صوته وهو يقول بالتركية «يالك من رجل عديم الأدب». و بعد برهة إذ بمجموعة من رجال الشرطة يدخلون المسجد ويتوجهون صوب هذا الرجل، و عندها أسرعت لنجدته، لقد كان الرجل لا يعرف العربية ولا الفارسية، انه أعجمي مثلي.. نظرت فإذا هم مصممون على اصطحابه إلى مقر الشرطة.

واتفقنا مع الدراويش الموجودين في المسجد على ألا نسلم الرجل للشرطة، شكلنا قوة دفاع من الروس والأفغان والعثمانيين، وقلنا للشرطة، أن زميلهم أهان الناس الذين جاءوا ليتعبدوا في هذا المسجد، من دون ذنب اقترفوه، وأننا سنقيم دعوى لرد الاعتبار، وأن دخول الشرطة لدور العبادة غير جائز شرعا. وهكذا قمنا بمهمة المحامي خير قيام، فخلصنا الرجل من يد الشرطة، كما قيض الله لهذا الرجل من يتبرع له بتذكرة سفر إلى جدة على الباخرة. وما كان من هذا البكداشي إلا أن ادعى بأن ذلك من كرامة الولي بكداش، لقد كانت واقعة غريبة حقا، فقفزته نحو الشرطي وهو يصرخ في وجهه شدت إليه الناس، كما أن ضرباته التي سددها على جسم الشرطي كانت موجعة حقا.

والواقع إن مساجد بومبي لا تخلو من مثل هذه الحوادث، وفي أيام رمضان لا يمر يوم إلا وتقع حادثة مشابهة لحادثة الشرطي، لذلك فان الناس لا يستغربون وقوع مثلها، بل يرونها من الأمور المألوفة كل يوم. لقد تولدت صداقة بين الهنود المساكين وبين عصي الشرطة، يتلقون الضربة دون أن يكون لهم ردة فعل تجاهها

إن تزويد الحكومة الإنجليزية الشرطة الهندية بعصاتين(إحداهما للقتل، والأخرى للضرب) أمر لا تحتمله مدنية القرن العشرين، ولكن ما الحيلة إنها تستعمل من قبل دولة على مستوى عالي من الحضارة، فلا بد لها أن توجد مسوغا لاستعمال هذه العصي واسما مناسبا، و بذلك ينتهي كل شيء.. ولو حدث مثل هذا الأمر في بلادنا، ودخل الشرطة إلى إحدى الكنائس بطريق الخطأ (وليس لدرجة استعمال العصا داخل الكنائس بصورة رسمية) لأقامت الصحف الأوربية الدنيا وأقعدتها، ولما تركت شيئا إلا وكتبت فيه. إن كل من يخدم في سلك الشرطة في الهند و في كل

مدينة فيها، حتى في عواصم الولايات مثل كلكتا ومدراس وبومبي يزود بنوعين من العصي كما ذكرنا آنفا: إحداهما من الخشب الغليظ والقوي، وبطول نصف ذراع، والأخرى بطول متر ومن الخيزران. في العصا الأولى يمكنه قتل الإنسان بضربة واحدة، و شيء معيب على الشرطي إلا يقتله بتلك الضربة! إنك تشاهد هذين النوعين من السلاح بيد كل شرطي، في الأزقة وعلى ناصية كل شارع.

فهل يرى سواح أوربا هذه العصي، فيكتبون عنها شيئاً في أدبيات بلادهم، لا وألف لا. و لو وجدوا مثل هذا الشيء في بلادنا لحفظ كل واحد فيهم زار إسطنبول مثلاً أسماء العصي، بعد حفظ أسماء الكلاب مباشرة.

مسجد زكريا

إن هذا المسجد جميل، و هو أكبر من مسجد الميمني، وإمامه سلافي الأصل من البوسنة، تلقى علومه في تركيا أول أمره، ثم صار مجاوراً في المدينة المنورة، وأخيراً هاجر إلى الهند، وهو إنسان طيب وقنوع، ومواظب على عمله.

يبلغ عدد طلاب المدرسة الملحقة بهذا المسجد حوالي خمسين طالباً، و يوجد حول المسجد عدد من الغرف الخاصة بالطلاب والخدم، وفي المدرسة أساتذة قديرون من أمثال المولوي محمد سليم صاحب. وبصورة عامة فإن المدارس الخاصة في الهند قليلة.

ومن الغريب حقا أن السلاطين المسلمين بنوا المساجد الضخمة والقصور العالية، ولم يهتموا بإنشاء المدارس بما فيه الكفاية، نعم لقد درس العلماء العظام في المساجد والبيوت و قاموا ببعض الخدمات للعلوم والفنون ولكننا لا نستطيع أن نتصور إمكانية نشر العلوم دون أن تكون هناك

مدارس. و مع هذا فلا نقول إن المدارس معدومة كليةً، فقد نجد بعض الغرف الملحقة بالمساجد و التي تؤوي عددا من الطلاب، ولكن ما المانع أن تكون في الهند مدارس عظيمة تضاهي المدارس التي نعرفها في تركستان والبلاد العربية وتركيا؟

أنا لا أنكر وجود عدد من المدارس في ديوبند وعليكره وغيرها من المدن، خاصة وان المدرسة العربية في ديوبند مؤسسة عليا تستحق الذكر والتقدير، إلا أن ذكر أسماء عدد محدود من المدارس في بلد تعداد مسلميه أكثر من سبعين مليونا لا يكفي، و يجب أن تكون في الهند مدارس تتناسب وشهرتها واتساع رقعتها وكثرة سكانها. ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنه ليس فيها مدرسة على المستوى الذي ذكرت، و رغم كل هذا فلا تخلو مدرسة صغرت أو كبرت من مدرسين. و في مدرسة مسجد زكريا يوجد ثلاثة من المدرسين كما يكثر النزلاء من الحجاج في هذا المسجد فهو أشبه بدار ضيافة للحجاج. .

مسجد عمر كهار

وهو جامع كبير يقصده الشيعة الاثنا عشرية، وقد حضرت فيه صلاة العصر، وصلى الناس فرادى لعدم حضور الإمام، وكان عدد المصلين قرابة الأربعين، وبعد الصلاة تحدثت إلى أحدهم واستفسرت عن بعض الأمور. استمع إليَّ قدر نصف ساعة و هو واقف من دون أن يرد علي بشيء، و بعدها قال تفضل لنخرج من هنا، ومشى باتجاه معين وتبعته دون أن أعرف الوجهة التي يقصدها. طرق باب غرفة بجوار المسجد وحينما فتح الباب، قال لي تفضل وأشار إلى الباب، ثم استأذنني وانصرف.

دخلت فإذا أنا في غرفة صغيرة فيها حوالي عشرون طفلا يتمرغون في التراب يشرف عليهم شاب رحب بي و أشار إلى بالجلوس. علمت منه أن هذه الغرفة مدرسة، وأي مدرسة؟ إنها المدرسة الرشدية الخاصة بأولاد الأغنياء الإيرانيين في مدينة ضخمة مثل بومبي، والشاب الذي ذكرناه معلم فيها و هو ذكي متفتح الذهن والبصيرة، يجيد الفارسية والعربية، وذكر لي أنه يجيد الإنجليزية أيضاً، و علمت منه أنه إنسان واسع المعرفة والاطلاع.

سألت المعلم عن إمكانية مقابلة إمام الحي، قال: يمكن ذلك، ولكنه اليوم لديه اجتماع فلم يخرج إلى الجامع، و إذا كانت لك رغبة في لقائه ففي الغد، أو إن كان لك طلب معين، فإنني مستعد أن ألبي طلبك. قلت: أريد أن أتحدث إليك أيضاً، ولكنني أريد أن أرى الإمام أيضاً، فقال: إذا تفضل بالحضور في الساعة الثامنة من صباح الغد، فنجلس أنا و أنت سوياً حتى التاسعة أو العاشرة، و بعد ذلك تزور المولوي صاحب. و هنا ودعته وغادرت المدرسة.

مسجد البواهر

إن مساجد البواهر غاية في البساطة، ومنها مسجدهم في هذه المدينة، إلا أنه على العكس من المساجد الأخرى فهو مأوى للفقراء وتوزع فيه الصدقات. كما إن إمام المسجد يقيم في غرفة صغيرة بجوار المسجد، و هم يختارون الإمام من أهل الزهد والتقوى والصلاح. ولا تجد في مساجد البهرة لوحات أو غيرها، وأكثرها من دون مآذن، وملحقة بها المدارس.

و للبهرة مدرسة مستقلة ومنتظمة في مدينة بومبي، والعربية هي لغة التدريس الأساسية، يضاف لها الفارسية و الإنجليزية، واللغة العربية وادابها تدرس في هذه المدرسة. انهم ينظرون إلى العلوم العربية نظرة مختلفة عن العلوم الأخرى، ويعتبرونها من العلوم الدينية.

ويكثر أتباع مذهب البهرة بين مسلمي بومبي. إن مستقبل هذا المذهب في الهند مستقبل مشرق. إن التعاون والتناصر بين أفراد هذا المذهب على درجة عالية يغبطهم عليها الآخرون.

الزكاة عند أغنياء الهند

الزكاة أحد أركان الإسلام، ولا أظن أنه بمقدور أحد أن ينكر فرضيتها، فكل مؤمن موحد يعرف ذلك،أي أن ربع العشر (٥،٢ في المائة) من أموال الأغنياء هي حق للفقراء والمحتاجين. كما إن مصارف الزكاة محددة ومعروفة بالنص القطعي، وقد أعطيت بعض الحرية لأصحاب الغنى بتوزيع زكاتهم بالطريقة التي يريدونها، وذلك لعدم وجود نص يحدد طرق صرف الزكاة. ومع ذلك فان الهدف من إخراج الزكاة ليس هو توزيع المال بذاته، بل توزيعه في المصارف التي ذكرها القرآن الكريم، بنية الطاعة للأمر الإلهي. وغني عن القول بأن الزكاة فرضت لتلبية بعض الحاجات الإسلامية، وتعيين مصارف الزكاة في القرآن، بحسب قدرات الناس، كان وفق قاعدة التعميم بعد التخصيص. وجملة (وفي سبيل الله) ذكرت مع أداة الظرف، لتشمل كافة الخيرات والمبرات.

والمسلمون بشكل عام قادتهم الخلافات الجزئية في هذه المسألة المهمة إلى الوقوع في أضرار كلية. فغفلة علمائنا في مسألة الزكاة، كانت ولا تزال توقع الضرر بأبناء أمتنا. و في ذات يوم وقفت مدة ساعتين، أراقب توزيع رجل لزكاته قرب الجامع الميمني في الهند. واليكم ما شاهدته:

صرف الزكاة إرضاء لله

فلان من الناس، أراد إن يوزع زكاة ماله في يوم من أيام شهر رمضان المبارك، ليكسب رضا الله عز وجل، ولعل ذلك اليوم يصادف ليلة القدر.

هذا الرجل أبلغ إدارة الشرطة أولاً، فجاء عدد منهم، و قام بسد الطريق العام بالحصر(جمع حصير) بموافقة أفراد الشرطة، وأوقف على جانبي الباب اثنان منهم، وبيد كل منهما عصا من العصي المعروفة، جيش من الفقراء يستعجلون المرور بين هذين الشرطيين للحصول على الزكاة. ما هو المبلغ الذي سيحصل عليه يا ترى: نصف روبية، أو روبية على الأكثر، ولعل الزكاة ليست نقداً، فقد تكون قطعة من قماش. إن الرجال الذين أدميت رؤوسهم من أجل الحصول على هذه الزكاة كثيرون ويصعب تعدادهم، تنزل العصي على رؤوسهم حتى تغيب الشمس، فلو تجمع مثلاً خمسمائة فقير فإن ثلاثمائة منهم يكون قد تلقوا كثيراً من تلك الضربات، وبعد كل ذلك ينتظر صارف الزكاة رضا الله وثوابه. انه غافل تماماً عما تأمر به الآيات الكريمة: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ والآية الكريمة: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾.

بعد أن شاهدت توزيع الزكاة على هذه الصورة عدة مرات، إلتقيت بعدد من موزعيها، وحدثتهم عن الأعداد التي شجت رؤوسهم بعصي الزكاة قائلاً: عليكم بحكم الشرع أن تدفعوا دية الرأس المجروح، قد تكونون مسلمين حقيقيين، ولكن عليكم أن تتذكروا بأنه يجب شج رؤوسكم مقابل تلك الرؤوس. أطرق أحدهم مفكراً وبدا عليه التأثر مما قلت. وفي اليوم التالي ألقيت موعظة بالمسجد الميمني، تحدثت فيها عن عدم وجود مدارس في مدينة إسلامية مثل بومبي، وأنه من الأفضل أن تبنى بأموال الزكاة مدرسة ودار للحديث ودار للعلوم، ولا توزع على الفقراء مع ضربات العصي. و عندها قام أحد المستمعين معترضاً، وقال بأنه لا يجوز بناء المدارس بأموال الزكاة. وكنت أبحث عن مثل هذا المعترض. رحبت به أولاً كمن وجد ضالته، ثم قلت: أريد أن أكلمك في هذا الموضوع كلاما خاصا بيني وبينك، فالمقام لا يتسع للموضوع. عندها قال الحاضرون: إنك فتحت الموضوع في هذا المجلس، فنرجو متابعته وحله هنا. فاضطررت لأن أفصل فيه وأبين رأيي للمستمعين الكرام على النحو التالي:

إنقسم علماء المسلمين في مختلف المسائل منذ القدم بين الإفراط والتفريط، فالمقلد منهم قلد كل شيء بما يمليه عليه هواه، حتى وإن خالف نصاً صريحاً، و إنه يصر على تقليده على غير هدى، والفريق الآخر يقول: إنني سأعمل بالقرآن و السنة، ويهدم كل ما بناه السلف من اجتهادات من أساسه، وهذا هو أحد المذاهب التي ظهرت في الهند تحت مسمى «مذهب أهل الحديث».

أما رأيي فهو أن نأخذ طريقاً وسطاً بينهما، فقد ظهر الكثير من كبار العلماء خلال العقبات الإسلامية المختلفة واجتهدوا ووضعوا الأسس التي

استمدوها من الكتاب والسنة، ولا مجال لإنكار فضلهم، ومع هذا فالمجتهدون الكرام ليسوا معصومين من الخطأ، إنهم بشر مثلنا. إن الله تعالى لم يطردنا من رحمته ولم يحرمنا من فضله، وفضل الله ورحمته لم تنقطع أبدا." لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق". فإذا كان ما قاله المجتهدون الكرام موافقا للنصوص الشريفة، مستنبطا بالإشارة أو الدلالة، أو الكناية، عندها نقبل اجتهادهم بكل احترام وبدون أي تردد، ونقدمه على رأينا، أما إذا كان العمل بذلك الاجتهاد يجلب ضرراً عاماً، فإنه لو كان قول المجتهد مخالفا للنص الصريح ومغايرا للمصالح العامة، عندئذ لا نضيع وقتنا بتأويل و تخريج المجتهد، بل يمكننا أن نقول دون تردد أو خجل:(لقد أخطأ رحمه الله). لقد ورد النص القرآني في بيان مصارف الزكاة(وفي سبيل الله) ولا حاجة لبيان ما هو سبيل الله، فكل الخيرات هي في سبيل الله. و«في» التي تفيد الظرف تشمل كل مظروف و هذا لاشك فيه، ففي إنشاء المدارس وغيرها مصالح عامة، و إعلاء لكلمة الله، حتى الأسلحة النارية والآلات الحربية والأدوات العسكرية المهمة، المعروفة في عصرنا هي لإعلاء كلمة الله، وما المانع من أن تكون تحت مسمى في سبيل الله؟ ولا حاجة لتأويل النص الصريح بقولنا إنه يقتصر على الغزاة، فالمجتهدون الكرام أرادوا هنا تعيين مراد الله تعالى من هذا النص، ولن أجرؤ على القول بتخطئتهم، ولكن أستطيع أن أقول: لعل المصلحة في تلك الفترة اقتضت ذلك، فقالوا وفق ما تقتضيه المصلحة، وإلا فان العباد ليس لهم أن يحددوا مراد الله بشكل يخالف نصاً صريحاً، ولا ضرورة لكل هذا التحديد. و هنا سمعت فجأة صوتا من بين الحاضرين قائلاً: إذا كان المجتهدون حددوه وفق المصلحة، فعلى أي شيء تبني رفضك لتلك المصلحة؟

قلت: أرفض ذلك متبعاً لأولئك المجتهدين العظام أنفسهم: فالرسول عليه الصلاة والسلام، كان يعطي من مال الزكاة للمؤلفة قلوبهم كصفوان بن أميه وغيره من الكفار، وفي ذلك مصلحة دفع الضرر. إلا أن المجتهدين والفقهاء يرون أن الإسلام كان ضعيفا في ذلك العهد، فجاز إعطاء الزكاة للمؤلفة قلوبهم، أما الآن فقد قوي الإسلام، ولا يحتمل وقوع الضرر من المؤلفة قلوبهم، لهذا فلا يعطون من أموال الزكاة. فإذا وجد المجتهدون العظام في أنفسهم صلاحية تبديل حكم رسول الله الذي هو صاحب الشريعة، فلا بأس بأن نقول " هم رجال ونحن رجال "، فيمكننا أن نبدل أحكامهم ولا فرق بيننا وبينهم سوى العصر والزمان، أما الفرق بينهم وبين رسول الله فهو فرق النبوة. فإذا كان لهم حق تبديل أحكام النبوة، فان تبديلنا لأحكامهم واتباع رسول الله ﷺ واجب علينا، ولا شيء غير ذلك.

إن الإسلام اليوم عاد ضعيفاً من جديد، ولا يمكن لأحد أن ينكر هذه الحقيقة. ومع ذلك فإننا لو اتبعنا رسول الله وحاولنا صرف الزكاة للمؤلفة قلوبهم وللكفار، لظهر من بين المشايخ من ينتقدنا، بل ومن يكفرنا، وحتى وإن قلنا: إننا نعمل ذلك إتباعا لرسول الله ﷺ، فإننا لن نسلم من مؤاخذتهم، إنهم لا يريدون أن يدركوا لب الموضوع. وكم من حكم للأوامر الإلهية ضاعت نتيجة لسوء التقدير والإدراك، ونحن نراها جميعا رأي العين، إلا أن حجاب التعصب والغفلة غطى العيون، إنكم ترونها ومع ذلك لا تريدون رؤيتها، إنها أحوال تقصم الظهر حقيقة. و هنا ارتفع صوت من بين الحاضرين قائلاً: لم يسبق أن سمعنا من قبل مثل هذه الأقوال، إنها لم تصدر عن علماء الإسلام، إنك تخالف جمهور العلماء، من هو هذا الرجل؟ يجب أن نخرجه من المسجد، وعلت همهمات:

«مولوي صاحب ني هي» أي أن هذا الرجل ليس من العلماء. وعلت الأصوات المشابهة، ومع ذلك فقد هدأ الناس وأكملت حديثي.

قلت: أيها الاخوة في الدين! أنا لم أقل لكم إلا الآيات والأحاديث وهدفي من ذلك إعلاء كلمة الله. إن العلماء الذين يفترض فيهم أن يكونوا قدوة لكم، هم سبب في إذلالكم وإهانتكم بالعصي باسم الدين من أجل مبلغ تافه. ألا ترون فقراء المسلمين يضربون بالعصي كل يوم على ملأ من الناس، لماذا تتحملون كل هذه الإهانات، لماذا لا تلاحظون مثل هذه الأمور. إن الشريعة الغراء لم تكلفنا بأي أمر بعيد عن المعقول. لقد فرضت الزكاة من أجل إعلاء كلمة الله، وليس لتحقير وإهانة عباد الله، إنها لمساعدة الفقراء ودفع حاجاتهم، وليس لظلمهم وشقائهم. إن كل من يملك حساً صادقاً وعقلاً مدركاً يلاحظ مثل هذه الأمور، ويدرك قبح أداء الزكاة بهذا الأسلوب. وأنهيت كلامي بقولي: منح الله دافعي الزكاة عدلا، وآخذيها عقلا وإدراكا، وتنحيت إلى جانب من المجلس وجلست.

وبعد قليل جاءني أحد المستمعين وسلم علي وصافحني ثم جلس، وقال: من أين أنت أيها الشيخ؟

-إنني غريب.

-لعلك من مقر الخلافة العظمى، أريد أن أستفيد منك إن كان لديك متسع من الوقت

تفضل، فإن في وقتي متسع.

-أنا تاجر من كوهات، وفي فترة من حياتي درست العلوم، وأعرف علماء الهند عن قرب، وإذا كان أحدهم من أتباع أحد الأئمة الأربعة، فإنه لا يملك رأياً حراً، أما أتباع المذاهب الأخرى فقد انجروا وراء الغلو، وليس لديهم من علم سوى الطعن في الأسلاف، وعلماؤنا واحد من اثنين

من هؤلاء. إنك غريب عن البلد وواجبي الديني أن أبذل لك النصح. إن مثل هذه الأقوال التي تصدر عنك لا يتوقع أن يتقبلها علماء الهند في المدى القريب. لنكن واقعيين، إن الاحتراز في إعطاء رأي في مختلف المسائل واجب بسبب كثرة المذاهب الباطلة، فالهند وكر المذاهب، إننا لهذا السبب معذورون. إن الحضور يشكون في مذهبك لأنك غريب، وقد يعتدون عليك لذا فإنني أنصحك أن تحتاط في كلامك. وقمت بدوري بشكره.

الفقراء في بومبي

الفقراء في عموم الهند كثيرون، وخاصة في المدن، وعلى الأخص في مدينة بومبي، إن الأعداد الكبيرة فيها من الفقراء لا مثيل لها في أي بلد اخر، فالشوارع تعج بالعميان، والعرجان والحدبان و بأعداد لا حصر لها.

ويضاف إلى فقراء الأزقة والشوارع، فقراء المساجد والجوامع الذين يشكلون جمعا غفيراً. ويكاد قلب الإنسان يتفطر على حالة هؤلاء العميان المساكين، إنك لو جلست في أي محل على قارعة شارع من شوارع بومبي لنصف ساعة لرأيت أكثر من خمسة عشر مجموعة من العميان، إن الجلد ليقشعر من هول المنظر. أما أنا فلشدة تأثري، ذهبت في أحد الأيام لزيارة المستر فنسان، مدير الأمن العام في بومبي، وكلمته في هذا الموضوع، وسألته عن سبب كثرة الضعفاء والفقراء، وجرى بيننا نقاش طويل.

قال السيد فنسان: إن ضعفاء أهل الشرق كثيرون، ولعل ذلك من مقتضيات أديانهم. و هنا أجبته قائلاً: إننا من أهل الشرق و ديننا الإسلام و قد تجد في بلادنا أعمى واحداً من بين مائة ألف، ومن النادر أن ترى

أحدباً أو أعرجاً. أظن إن هناك سببا آخر، ليس في كونهم شرقيين أو هندوس أومسلمين.

- وما هو السبب في رأيك؟

- ظلم الحكومة الإنجليزية، فالاعتداء على حقوق الإنسان وآدميته هو في حد ذاته وضع لا يحتمل. لقد أثر ذلك على أعصاب الهنود المساكين ويبدو لي أن الدموع التي تنهمر من عيونهم جففت عروق التناسل عندهم، وإني أريد أن أعرف رأيك في هذا الموضوع. كنت أظن أن الحكومة الإنجليزية قريبة من العدل والإنصاف، ولكن ما رأيته في الهند جعل ظني بحكومة إنجلترا ليس في محله. كنت أعرف أن الإنجليز قوم متكبرون، قساة، باردون، و إن غير الإنجليز في نظرهم ليسوا في مرتبة البشر ولكنني لم أكن أتوقع أن تكون الحكومة الإنجليزية بهذه الدرجة. كما إنني لا أعرف قانون المستعمرات عندكم، لذلك أردت أن أعرف بعض الأمور منك.

لاحظت التغيير بادياً على وجه المستر فنسان فوجه كلامه لي قائلاً: ماذا تريد مني (قالها بشيء من الحدة)

- لا أريد منك شيئاً، وإن كان لديك شيء من الوقت، فإنني أكون ممتنا إن أجبت على أسئلتي

- تفضل، سأقول لك ما أعرفه، بقدر ما تسمح به سياستنا.

- مما لا شك أن القوة المالية لدولة إنجلترا، والوضع الحالي التي هي فيه، يعود الفضل به إلى الهند، وإن موارد الهند قامت على سواعد الهنود، و كنت أظن أن معاملة حكومة إنجلترا للهنود حسنة و لا تتناقض مع الإنسانية، في حين إنكم لازلتم تعاملون الهنود معاملة الأسرى،

بالإضافة إلى أنكم تنظرون إليهم نظرة الكلاب أو مادون ذلك، فما السبب؟

- لو تكلمت ضمن حدود الأدب لأجبتك، ولكن أرجو أن تسحب كلامك.

- إن كنت كاذباً فيما أقول فلا شك أنه خارج عن حدود الأدب، و لذلك سأسحبه، ولكني أجد الجرأة فيما أقول لأنني أراه صحيحا. فلو نظرت إلى الشرطة على ناصية كل شارع، فان العصي التي بيدهم لا تستعمل إلا للأسرى، في حين أنكم تستعملونها ضد عباد الله في مساجد بومبي. إنني رأيت ذلك بأم عيني، فلا مجال لأن يكون ذلك كذبا.

ومن جهة أخرى فإنني استقصيت قليلا أحوال ضباطكم مع الجنود الهنود، واستغربت مما رأيت، وهذا أيضا واضح وصريح، إنه عمل غير إنساني تماما. ومن يملك شيء من الضمير الحي لا يمكنه أن يسكت على ما يرى، فالضابط الإنجليزي وان كان من أصغر الرتب، ملازم ثان مثلا، لا ينظر إلى الضباط الهنود المحليين نظرة الزملاء، بل لا ينظر إليهم نظرة إنسان، انه في نفس القطعة ولكنه لا يصافحه، بل ولا يأكل معه على مائدة واحدة، راتبه خمسة أضعاف راتب الضابط الهندي حتى وان كان هذا الهندي أعلى منه رتبة. وإذا مر الضابط الإنجليزي، فعلى الآمر والضابط الهندي أن يقف له وقفة تحية. فكيف يصبر الإنسان على كل هذا الظلم، مع أن الضابط الهندي أكمل علومه العسكرية في لندن مثل الضابط الإنجليزي تماماً و يملك نفس المعلومات التي يملكها الضابط الإنجليزي. وحتى لو سنت الحكومة الإنجليزية قانوناً ينص على هذه التفرقة، لكان لزاما على الضباط الإنجليز أن يرفضوه. إنني من روسيا، والجنرالات التتار يقودون الروس في القطاعات العسكرية الكبيرة، وقائد الفرقة في

بترسبورغ نفسها تتاري، كما إن التعامل بين الضابط الروسي والتتاري هو تعامل الصديق للصديق، يتساويان في الرتبة والعمل، فلو رفض جنرال روسي مصافحة الضابط التتاري لدعاه ذلك التتاري إلى المبارزة.ولو لم أر كل هذا الظلم من الإنجليز بنفسي و تواتر مما سمعته من الناس، أو قرأته في الكتب لما صدقت به ولا يمكنني تصور كل هذا الظلم في أي بلد من بلاد الدنيا

(كنت ألاحظ أن وجه السيد فنسان يتغير من لون إلى لون ولم يكن قادرا أن ينظر إلي، وكنت أتكلم وأنا أمعن النظر فيه)

كان يستمع إليَّ دون أن يقول شيئاً. استأنفت كلامي فقلت: لقد استطردت قليلا، كان هدفي الأساسي معرفة أحوال أولئك الفقراء المساكين، أرجوك إن كان لديك إحصاء عنهم، أن تزودني به، فمثلاً ما مدى سرعة انتشار الأمراض المزمنة بين الهنود؟ ولو تركت الحكومة الإنجليزية الأمور على حالها لانتهى الهنود في أرض الهند في بضع سنوات، فمن الطبيعي والحالة هذه أن تقوم حكومة متمدنة مثل حكومة إنجلترا بأبحاث علمية في هذا المجال، فإن لديها المتخصصون المؤهلون، و لذلك لجأت إليك للحصول على هذه المعلومات. لقد استفسرت من السكان المحليين، فأجمعوا على إجابة واحدة، وهي إنه قبل دخول الإنجليز بلادنا قبل سبعين أو ثمانين عاماً، كان من النادر أن ترى مثل هؤلاء الضعفاء، أما الآن فقد أحاط المرض بالهند من كل جانب، فهو ينتشر بسرعة. سألت العديد من الناس، فلم أجد من المسنين الهنود غير هذا الجواب.

لم يرد السيد فنسان عليَّ بشيء، واكتفى بالاعتذار، متذرعا بأنه على رأس عمله وأضاف: سنلتقي مرة أخرى، أين تقيم؟ فنهضت من مكاني، وقلت له: إلى اللقاء.

مد المستر فنسان يده، و مددت يدي بعد تردد. فأمسك بيدي وأعـاد سؤاله عن مكان إقامتي قلت: ليس لي مكان معلوم، أسكن مـع إخـواني الفقراء الهنود. سحبت يدي واتجهت نحو الباب، ولم أعرف شيئاً منه عن فقراء الهند.

منزلي في بومبي والمستر فنسان

كيـف لي أن أعـرف مكـاني لهـذا الرجـل، فلـيس لي مكـان، أنـام في المساجد، وفي بعض الأحيان في الـشوارع. ولقـد عاهـدت نفـسي وأنـا في الغربة أن أبقى درويشا وأعيش هكذا. إن عمـوم الفقـراء يعيـشون في الأزقـة والجوامع، ومنزلي هناك، إلى جانبهم، خاصة وأن أبواب الجوامع في بومبي تغلق بعد منتصف الليل، فيضطر الفقير لأن ينام في الأزقة ينام على الحجـارة فلا فراش ولا وسادة، والرطوبة شديدة، والمطر لا يكاد ينقطع، حتى الرجل يواقع زوجته هناك، والنساء الحوامل يقضين الليل هناك. وكنت أحيانا أستيقظ قرب الصباح، فأجد أن جسمي قد تبلد وكأنه ضرب بالعصي.

التدليك

إن الأرض رطبة بشكل عام. والنائم في أزقـة بـومبي بـصورة خاصـة يحتاج إذا استيقظ إلى تدليك، وأحيانا لا يستطيع المرء أن ينهض من مكانه إذا لم يدلك، ولذلك فان التدليك أمر شائع بين فقراء الهند، فترى الناس في الأزقة يـدلكون بعـضهم بعـضا، وبعـض النـاس لا ينهـضون قبـل أن

يتعرضوا للتدليك قدر نصف ساعة، وأنا أيضا كنت أحتاج للتدليك كل ليلة، وأكتفي هنا بما ذكرت عن فقراء الهند.

القنصل الروسي

وفي ذات يوم كنت جالسا بين الفقراء في أحد شوارع بومبي، وإذا برجل يضع على رأسه قبعة قادم نحوي و قال لي بالروسية: «ألست إبراهيموف؟» ومد يده مصافحا. قلت: أنا لا أعرفك.

- أنا أعرفك جيداً، كنت تملك مطبعة في شارع "غلازواي" في العمارة رقم ١٢ أو ١٤ ببترسبورغ، وكنت تنشر جريدة، والتقيت بك عدة مرات في منزل البروفسورباوئين -دوقورتني، واجتمعنا مرة في منزل الدكتور غيلات. قم لنذهب إلى دارنا، فأنا الآن في منصب القنصل في هذه المدينة، ولنتذكر شيئا عن بترسبورغ.

- أشرت إلى ثيابي: كيف أذهب معك وأنا في هذه الحالة، ولابد أن تكون زوجتك هناك، أرجو المعذرة فلن أستطيع الذهاب معك.

- لا، لن أدعك هنا بعد أن رأيتك، تفضل، فلو لم تكن بيننا صداقة لما دعوتك أصلا.

قمت معه وتوجهنا الى القنصلية، عرفت شكل الرجل وصوته، ولكنني لم أتذكر اسمه مطلقا.

وعندما أوشكنا على دخول باب القنصلية تذكرت، فقلت: ألست «ليبوف»؟ فلما أجاب بنعم، اطمأن قلبي و تذكرت أنه من الحزب الاشتراكي الديمقراطي، فدخلت معه القنصلية براحة نفسية كاملة، واستقبلتنا زوجته، فقدمني لها معرفا، وقال: انظري إلى الرجل الذي كان

محررا في بترسبورغ، بأي حال هـو الآن، فتفحـصتني المـرأة مـن مفـرق رأسي إلى أخمص قدمي:

يا الهي. ألست إبراهيموف؟

قلت: إن كان لي حال أسعد به، وأيام أفخر بها، فهـي هـذه الأيـام، فلم تعجبون؟

أرادت المرأة أن تضحك ولكنها لسبب ما لم تفعـل ذلـك، وضـربت بيديها إلى جنبيها وقالـت بلهجـة الاسـتغراب: إبراهيمـوف! إبراهيمـوف تفضل، وأشارت بيديها،

قلت: يمكن أن أكون حاملا لكـثير مـن الجـراثيم، أحييـك، وأرجـو عفوك.

سبقتنا إلى الداخل وهي تقول تفضل، تفضل. أجلـسوني في مكـان، فتحادثنا وضحكنا وجاءوا بالشاي، فأمضينا ساعة من الوقت. واستغليت الفرصة فعرفت منه بعض الأمور الخاصة بالهند.

ولعلمي بالعداوة المزمنة التي يكنها الروس للإنجليز، وبأطماعهم في الهند أردت أن أستطلع منه الوضع، فبدأت بالحديث عن مدى نجاحه في عملـه مـدة بقائـه في الهنـد، وعـن الاضـطهاد الـذي يمارسـه الحكـم الإنجليزي، وعن تململ الهنود منهم، وقلت: إنني آسف للـبطء الـذي أراه في تناول الروس للقضية الهندية.

هز القنصل رأسه وقال: ماذا تقول يا سيد، إن وجودنـا هنـا وعدمـه سواء، إن معلوماتي عن الهند لا تتعدى المساحة التي بين منزلي الذي أقيم فيه وبين ساحل البحر، فإذا مرت السفن الروسية، وكان هناك أمر له علاقة بها، حينئذ يمكننا النطـق ببـضع كلمـات مـع الحكومـة. وإذا صـادف أن تعرض سائح روسي مثلك لمضايقات، فإننا نطلب من الحكومة معلومات

عن مشكلة هذا السائح، وهذا أمر نادر الوقوع. وإنك يا سيد إبراهيموف إذا زرت المناطق الداخلية من الهند فسيقومون باعتقالك، وإذا علمت أنا بالأمر كل الذي أقوم به هو الاتصال بالحكومة الهندية طالبا الاستيضاح. تذكر هذا الأمر جيداً، فإذا أرسلت لي برقية تعلمني بحالك فإني سأبذل كل جهدي من أجلك، ومع ذلك فان الإنجليز لا يولون ذلك أية أهمية، وقد لا يجاوبون طلبي، فتضيع أنت وسط هذا الإهمال. سمعت أن لهم جزيرة مهجورة في جهات كولمبو يسجنون هناك كل من رأوه خطراً عليهم، فلا يسأل عنه أحد، لذلك فإني أنبهك، وخذ ما شرحت لك مأخذ الجد. وبسبب وقوع الكثير من هذه الحوادث فان برلمان لندن طلب عدة استفسارات من حكومة الهند ولكن الجواب كان بأن الحكومة ترى هذا هو الأنسب. أكرر لك قولي، لا تعتمد على مساعدتي لك، ومن الأفضل لك أن تكون محتاطا لنفسك.

قلت: لماذا لا تكتب عن هذه الأوضاع إلى بترسبورغ؟

- قهقه ضاحكاً وقال: وهل تنفع الكتابة، ولمن أكتب في بترسبورغ، فالإنجليز منذ القدم استغلوا دماءنا لتحقيق مصالحهم، يخدعوننا فيرسلوننا لقتال الأتراك، حتى نريق دماءنا، كما يسوقوننا لقتال اليابانيين، وتعود المنفعة كلها على الإنجليز. ولا أتصور سياسة أكثر حماقة من الأعتقاد أننا نهدد الإنجليز بالهند، فلو كانت بيننا وبين تركيا علاقات طيبة، واتبعنا سياسة إسلامية، ووصلنا عن طريقها إلى الهند، لكان كلامنا مسموعا بعض الشيء، بل كنا نحرز نجاحاً طيباً. أما الآن فقد ضيعنا الفرصة، واستغل الإنجليز الأتراك مائة عام لضربنا، كما استغلوا اليابانيين لضربنا ثلاثة أعوام، فاتباع سياسة هندية ضد الإنجليز يساوي البحث عن الموت.

أكرر تأكيدي لك، إذا وقعت لك مشكلة فإنني سأعمل كل ما في وسعي، ولكن عليك أن تحتاط، فان حدث لك أي شيء، فبادر إلى إرسال برقية لي كي يمكنني التصرف.

لقد تذكرت الآن، فالسيد اندرييف المختص في الآثار القديمة موجود هنا، وهو يعرفك، ولا بأس بأن تلتقي به، فقد جاء إلى هنا بعد أن حصل من الحكومة الإنجليزية على إذن بالتجول داخل الهند، وهو موجود في الهند منذ عام واحد، ويمكنه أن يزودك بكثير من المعلومات، إنه يقيم في منزل قبالة مكتب البريد.

وهنا قررت ألا أضيع مزيداً من الوقت، فاستأذنت القنصل مودعا وتوجهت مباشرة إلى اندرييف. أعرف أن اندرييف شاب واسع المعرفة، يجيد عددا من اللغات، ويتكلم العربية والفارسية، ولكن لم أكن أعرف أنه خبير بالآثار القديمة. استقبلني بكل ترحاب؛ وتحادثنا قدر ساعة، فحصلت منه على المعلومات المختصرة التالية:

أتجول في الهند منذ أكثر من عام، وبالرغم من أنني لا أستطيع القيام بأبحاثي وتحقيقاتي بملئ حريتي، إلا أنني أحمي نفسي من أي تعرض، بفضل الإذن الرسمي الذي أحمله. إني أريد أن اعبر لك عن شعوري الخاص، إنني مقتنع بأن الهنود في طريقهم إلى الانقراض إذا ما بقيت الهند تحت الحكم الإنجليزي. كنت أعلم أن الظلم موجود على وجه الأرض طالما وجد البشر، ولكن لم أكن أتصور ظلماً من النوع الذي رأيته في هذا البلد. سأشرح لك أولاً ضريبة الأراضي: فالحكومة الإنجليزية تأخذ نصف إنتاج المحاصيل في الهند كلها، نصف الإنتاج، (وليس نصف صافي الدخل) والنصف الباقي يترك للمزارع، يحصل عليه مقابل الفلاحة

والزراعة والحصاد، فالحكومة شريك في النصف، أما الخسائر فعلى الفلاح.

- لا أظن الأمر كذلك، فقد تكون مخطئاً.

- لا، لا ليس هناك أي خطأ، لقد تحققت من الأمر بنفسي، وهذه هي جريدة «غزيتير» الصادرة باللغة الإنجليزية، كتبت عن الإيضاحات في البرلمان البريطاني في لندن، وقرأ نص ما كتب في الجريدة باللغة الإنجليزية (غريتير إنديا ١٩٠٨ صفحة ١٢٤)

- هذه هي منتهى الإنسانية في القرن العشرين! كنت أشكو من ظلم الروس، ولكن لم أكن أتوقع هذا من الإنجليز .

- وأنا، كنت أظن أن الإنجليز قوم مثل الملائكة، كنت أظنهم ينابيع الصفا، لقد رأيت بالأمس مسجدا يرجع تاريخه إلى أكثر من ستمائة عام، لقد حوله الإنجليز إلى ثكنة للفرسان، وبنوا حوله الحمامات كما جعلوا محرابه بيتا للخلاء، واتخذوا المصلى حظيرة للخيول، انهم عديمو الإحساس والإنصاف، أيجوز امتهان معبد أمة أياً كانت؟ الحقيقة إن الروس لا يفعلون مثل هذا، لقد ذهلت عندما رأيت ذلك، كيف يتخذون محراب المسجد مكانا للخلاء. أيجوز هذا؟ وهذا المسجد يعد من البنايات التاريخية. كنت أقف يوماً عند هذا المسجد مشدوها عندما اقترب مني جندي، وسألني من أكون، قلت: روسي، فعرفني بنفسه، إنه يهودي من روسيا، ويعمل مدرسا للموسيقى. وبعد حديث قصير دعاني إلى حجرته. إنه يسكن في غرفة مبنية على قبر مجاور للمسجد، ولما وصلنا إليها، قال: إن هذا القبر مقدس عند المسلمين، نبشت رفات الرجل المدفون وجمعتها هناك، وأشار إليها، وعليها قنديل. هذا الضريح حولوه إلى غرفة للعازفين، والقادمون لزيارة الضريح يزورون تلك العظام الموضوعة في

جانب الغرفة. دهشت حينما رأيت المنظر، و المسجد يزينه فن راق من فنون الموزاييك

ذهبت إلى أحمد نكار، عاصمة سلاطين نظام شاهية، وهم من ملوك جنوب الهند، وجدت الآثار القديمة كما هي، يعتنون بها ويحافظون عليها، وأشياء أخرى كثيرة. ذهبت ومعي إذن رسمي من الحكومة ومع ذلك فإني كنت أخاف على نفسي، إنهم لا يريدون في الهند قوما غير الإنجليز، ويخشون الروس والأتراك بصورة خاصة، وستتعرض أنت على الأخص لخطر كبير. إن المعلومات التي ستحصل عليها لا تتناسب وتلك المخاطرة.

- وما سبب كل هذه الخطورة علي؟

- الخطورة تتضاعف بالنسبة لك، انك مسلم أولاً، فهناك احتمال أن تكون جاسوسا تركيا، ثم إنك من الجنسية الروسية فقد يظنون بأنك جاسوس روسي وسيتعقبونك لهذين الاحتمالين، أحذرك بشكل خاص، لا تأمن شرهم أبداً، فإذا أحسست بالخطر، بادر بإرسال برقية إلى القنصلية، وإلا فانك تضيع، لقد رأيت الكثير من الأمور والإنجليز ليس عندهم أي قدر من الإنسانية، ولسان حالهم يقول: لا نريد أن يرانا أحد ونحن نقضي على الهنود. في رأيي إن الهنود سيموتون إذا بقوا على هذه الحالة.

إن الهنود يبدو أنهم راضون بهذا الذل تمام الرضا، ليس العوام فقط بل والضباط الذين تلقوا علومهم في لندن فإنهم راضون بالإهانات العلنية. التقيت بعدد من الضباط وسألتهم: لماذا يرفض الضباط الإنجليز مصافحتكم؟ ولماذا تتفاوت رواتبكم؟ وكيف تصبرون على ذلك؟ أتعرف ماذا كان الجواب، «الإنجليز هم السادة» والإنجليزي كائنا من كان، فهو

سيد للهنود. فإذا رضي الضباط بذلك واستمروا في خدمتهم، دون أن يصدر منهم أي اعتراض أو تذمر، فهل لأحد أن يتوقع من تلك الأمة أن تحيا، إن الهنود في رأيي أمة منتهية.

- وأنا اطلعت على مثل هذه الأحوال إطلاعا نسبياً، وأشاركك الرأي فيما تقول وأضيف: ألم ير المتحضرون الأوربيون كل هذا، ولماذا لا تتحدث الصحف الأوربية الحرة والمدافعة عن حقوق الإنسان عما يجري في الهند؟ ولو عاملت الحكومة التركية الأرمن أو الروم، بمثل هذه المعاملة، لأرسلت أوربا مجتمعة أساطيلها لمحاربتها.

- أوه! طبعاً، ولكن تلك الصحف لا تكتب كلمة واحدة عن الإنجليز. إنني هنا بصفة مختص بالآثار، ولو حاولت أن أكتب عن مشاهداتي هذه لاتهمتني الحكومة الروسية بالتدخل فيما لا يعنيني، ولتعرضت للمساءلة. وما أهمية الكتابة، أنظر، فقد كتبت جريدتهم «غزيتير» عنا ولم تلق آذانا صاغية، فالإنسانيات لا تتعدى رؤوس الأقلام.

وتحدثنا مع السيد آندرييف في جوانب كثيرة، وودعته على أمل اللقاء به مرة ثانية.

مجوس على أبواب المساجد أو علاقة المجوس بالمسلمين

تسود علاقات طيبة ومن جوانب متعددة بين الهندوس المجوس والمسلمين في الهند وعلى الأخص في الولايات الجنوبية مثل حيدر آباد الدكن: فطراز معيشتهم مشابه لمعيشة المسلمين، وهم يحترمون ويقدرون العادات الإسلامية، حتى أنهم عند سقي الحيوانات، أو التزود بالماء يقدمون المسلمين، فيسقي المسلمون دوابهم، ويملئون أوعيتهم بالماء، ويأتي الهندوس من بعدهم

ويعرف البراهميون في الهند بالهندوس أما عبدة النار فيسمون «البارسي» والمسلمون «صاحب». وعند خروج المسلمين من المساجد بعد الصلاة، يجدون على الأبواب نساء الهندوس والمرضى منهم، خاصة عند الخروج من صلاة المغرب في أيام رمضان، حيث تشاهد كثيرا من الهندوس واقفين على أبواب المساجد، بعضهم يحمل طفلاً، أو كأساً من ماء، أو طبقا من عسل، أو شاي، أو أشياء أخرى، ومن يمر عليهم من المسلمين الخارجين من المسجد يبصق على الذي يحمله ذلك المجوسي ويمضي. إن هؤلاء المجوس المساكين يطلبون الشفاء من المسلمين، وبعض المرضى يحضرون بأنفسهم، ويقولون لمن يخرج من المسجد: مولوي صاحب، مرحمت كن، أي أنه يطلب الرحمة. والمرء عندما يرى مثل هؤلاء لابد أن يعطف عليهم، إنهم أناس أغنياء، وسادة ابتلوا بأمراض مزمنة، يقفون على أبواب المساجد شهوراً، وبعضهم يستمد العون من قبور المسلمين والى غير ذلك، فالمجوس يبدون اهتماما ومن نواحي عدة بالمسلمين.

اللغة في الهند

في الهند لغات كثيرة يتخاطب بها الناس، ومع ذلك فان لغة الأوردو أصبحت لغة رسمية، وهي اللغة السائدة، إضافة الى لغات كثيرة أخرى منتشرة مثل التلنكانية، والمرهتية والكجراتية، والسنسكريتية، والعربية والفارسية والأفغانية والإنجليزية. وقبل الاحتلال الإنجليزي كانت اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية، أما الآن فاللغة الرسمية هي الأوردو. ولغة الأوردو ليست لغة قديمة، بل هي لغة حديثة تشكلت قبل أكثر من مائتي عام في عهد شاهجهان، وعمت الهند خلال وقت قصير، حتى أصبحت

اليوم اللغة الرسمية لأكثر من ثلاثمائة مليون من البشر. وتصدر بهذه اللغة صحف يومية وأسبوعية كثيرة، وإن كافة المخاطبات الرسمية في الهند هي بلغة الأوردو. إن هذه اللغة هي لغة مستقلة مركبة من العربية والفارسية والكجراتية والمرهتية والسنسكريتية والتركية، أضيفت إليها أداة (هي) (هو) و(هوه). وقد ترجم المسلمون كثيرا من الكتب الدينية إلى لغة الأوردو وكذلك معاني القرآن الكريم ترجمت إلى هذه اللغة من قبل رجل اسمه الشيخ عبد القادر. وقبل اثني عشر عاما قام رجل في دهلي اسمه شمس العلماء نذير أحمد بإعادة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة الأوردو، وطبعت الترجمة خلال فترة قصيرة أربع طبعات. وهناك كثير من الشعراء ينظمون أشعارهم بهذه اللغة، ويتم طبعها ونشرها على نطاق واسع، ويقال إن هذه اللغة تتميز بالفصاحة العظيمة، وفصاحتها تتفاوت حسب القبائل والمدن الهندية الناطقة بها، وأفصح اللهجات هي لهجة لكنو، وتكتب «لكهنو» إلا أنها تقرأ لكنو مباشرة. ويروى أن أحد حكام الهند قبل حوالي قرنين شكل جيشا من أقوام مختلفة لا تعرف لغة بعضها البعض، وأبعدهم عن العاصمة، وأمرهم أن يتفاهموا فيما بينهم، فتشكلت من تخاطبهم لغة الأوردو أي لغة الجيش.

ولغة الأوردو تكتب بالحروف العربية، وإن ملوك الهند يكتبون بالحروف العربية منذ القدم ولكن الحروف العربية لم تكن تكفي لكل الأصوات في هذه اللغة، فأضافوا إليها بعض النقاط الموجودة في الحروف ذاتها، فبلغ عدد الحروف عندهم ٤٧، كما طويت بعض الحروف العربية. وهناك حروف عليها ثلاث أو أربع نقط، وأصوات مركبة من حرفين أو ثلاثة مثل: ت، تهه، بهه، كش، جهه، فلكل مركب من هذه المركبات صوت وغيرذلك من الغرائب، ويسهل عليهم النطق

بها. ومع ذلك فان الأوراق الرسمية تكتب دون نقاط، والكتابة الخالية من النقط شائعة عندهم. وأكتفي حاليا بما نقلت من معلومات عن لغة الأوردو.

إلا أنني أرى بعض الفائدة في إضافة ما يلي: إن الهدف السياسي للإنجليز اليوم هو إزالة الحروف العربية من الهند، لأنها حروف إسلامية، تحافظ على الرابطة بين المسلمين، ولدفع هذا الضرر(!) فإنهم يعملون علي إزالة الحروف العربية من أسواق الهند، ففرضوا أن تكون المكاتبات الرسمية والحسابات بين التجار بالحروف الكجراتية، فالمحكمة التجارية لا تعترف بالسندات التي لم تكتب بالحروف الكجراتية. وهكذا عرف الإنجليز النزعة التجارية لدى الهنود فاستغلوها للوصول إلى هدفهم المنحوس، فطبقوا القرار على التجار أولا، وسيعممونه بعد ذلك على الحرفيين والصناع، وهكذا سيصلون إلى هدفهم بسرعة، إن الخط الكجراتي قريب من الهيروغليفية.

حديث مع معلم وإمام حي عمر كهار

بناءً على موعد حددناه قبل يوم، توجهت إلى المدرسة للقاء السيد معلم المدرسة، فوجدته بانتظاري، وبعد التحية والسلام بدأنا الحديث، فإذا به يفاجئني بعد قليل بسؤال غريب:

سألني عن سبب ورود الحديث الشريف «من كنت مولاه، فعلي مولاه» وخطر لي أن أتحاشى المناقشة، ولكن رأيت أن السكوت لم يكن مناسباً أبدا. تأملت قليلا، ثم اسهبت في ذكر مناقب علي عليه السلام وأنه لا ضرورة للمناقشة في هذا الموضوع، لأنه ليس من السهل أن تحل مشكلة استعصى حلها خلال ألف وثلاثمائة عام، ويكفينا أن نتجنب

النقاش فيها، وألا ننظر إلى بعضنا البعض بالعداوة والبغضاء وأن يحافظ كل منا على معتقده، ونحن من جانبنا ولله الحمد لا نقصر في حب علي ولكننا نتمنى ألا تلعنوا الشيخين على ملأ من الناس.

أصر المعلم على طلبه قائلا: لا يجوز كتم شيء يجب الاعتقاد به، وهنا نطق بكلمات جارحة جداً على كل من يخالف وصية رسول الله. (لا أريد أن أذكر تلك الكلمات)

-أيها المعلم! إنني أتألم لما آلت إليه بلادكم، ونحن لا يمكننا أن نحيي أناسا ماتوا قبل ألف وثلاثمائة عام، فلقد مضوا إلى ما وكلوا به، وإذا تكلمنا بشأنهم، فلن نصل إلا إلى جرح قلوب بعضنا البعض. لنفكر في احتياجاتنا المعاصرة ونحمي مستقبلنا أمام العدو الغاشم. أنظر إلى مدرستك، أيرضيك أن يبقى هؤلاء الأطفال متمرغين في التراب؟ أليسوا هم أبناء بشر؟ كن على يقين بأنه إذا استمر الحال على ما هو عليه فسيأتي أبناء هؤلاء الأطفال ليلعنوكم أكثر مما يلعنوا أبا بكر ومعاوية. هذه العقائد لن تتجاوز أحفادكم، أنظروا إلى مدارس البروتستانت، أنظروا إلى الأطفال الذين يدرسون هناك، كل واحد من هؤلاء سيكون عدوا لدودا لأبنائكم، ألا ترون المنصرين وقد أحاطوا ببلدكم كالجراد المنتشر؟

تأثر المعلم كثيراً بما سمع مني، فكر طويلا، ومع ذلك فقد حاول أيضا أن يجرني إلى نقاش جديد حول مسألة الإمامة، وأسباب الامتناع عن دفع الزكاة للخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه، ولكنني حاولت أن ألجم لساني ما استطعت، ولم أترك مجال لمزيد من الأخذ والرد، وفي هذه الأثناء دعينا للقاء الإمام، فودعت المعلم ودخلت منزل الإمام، فرأيته رجلا نورانيا، حسن السيرة. لقد أحسن الإمام الظن بي ولقيت منه التكريم الشديد، وكان الحديث معه عن مستقبل الإسلام، إذ قال:

إن مستقبل الإسلام يتوقف على مستقبل تركيا، لأن عموم المسلمين يرون أن حياتهم مرتبطة بحياة العثمانيين، وإن مرجعنا الوحيد هو تركيا، ولكن للأسف لم يعد الأتراك يهتمون بالدين. إذ ليس بين القناصل العثمانيين القادمين إلينا من يصلي أو يصوم، بل يكتمون إسلامهم ويتخفون بلبسهم القبعات، في مدينتنا قنصل يتجول لابسا القبعة ومتأبطاً زوجته، ولا يبدي أي اهتمام بالمسلمين.إن على الدولة العلية قبل أن ترسل قنصلا إلى مدينة إسلامية مثل بومبي أن تأخذ مشاعر المسلمين في هذه المدينة بعين الاعتبار. وذكر العديد من مثل هذه الانتقادات.وكان حضرة الإمام محقا في كل ما قال واخترت جانب السكوت مع الاتفاق معه بهز الرأس.وتابع الإمام حديثه، موجهاً كلامه إليّ شخصيا، وتطرق إلى الفوائد التي يجنيها المرء من السياحة، كان حديثه صادقاً وشيقاً، و تأثرت بما قاله لحد كبير. وتكلم فضيلته عن الإسلام كثيراً، مكرراً ضرورة أن يكون العلماء قدوة في توحيد المسلمين وكانت كلمته الأخيرة أنه لا نصيب لنا في الحياة ما لم نستوعب سر كلمة التوحيد ونطبقها.

برقية من سنغافورة

وأثناء إقامتي في بومبي وصلتني من سنغافورة البرقية التالية:

وصل من طوكيو رجل ياباني اسمه «ياما اوكا» مبعوثاً من قبل السيد اوهارا ليلتحق بك، و سيغادرنا اليوم، أرجو أن تنتظره في بومبي «عيسى بهائي».

عجبت لهذا الخبر إذ لم أكن أعلم شيئا عنه من قبل، ومع ذلك بقيت أنتظره بفارغ الصبر.

الأوقاف في بومبي

الأوقاف في الهند كثيرة أوقفها الغزنويون وغيرهم من السلاطين المسلمين منذ عهود قديمة، وإن نظام الوقف مطبق حتى يومنا هذا، وعدد الأوقاف الجديدة ليس بقليل. ومسألة الوقف، مسألة هامة وكبيرة جداً. إنها مسألة حيوية بالنسبة للهند و لمسلميها، بل ولكل مسلمي العالم الإسلامي والمسلمين على وجه الأرض عموما. ولكن للأسف تعرض موضوع الوقف لسوء التفسير وسوء التأويل. فالوقف هو الكنز الوحيد للمسلمين، سوء التفسير حول نفعه إلى ضرر، وحرم العالم الإسلامي بذلك من المنافع العامة للأوقاف. بل إنقلب الكثير من الأوقاف لمصلحة الفسقة والكفار، وعلماء المسلمين في غفلة ويغرقون في جهل مقاصد الشريعة الغراء، ومازالوا على هذا الحال. إنه كلام ثقيل على النفس، و لكنه حق وصحيح، ومهما كان مراً فلابد من الجهر به حتى يظهر الحق وتنكشف الحقيقة. وقد أكون مخطئا، ولكن واجبي أن أعبر عما أعتقد أنه حق، وأكتب عبر وسائل الاعلام المقروءة كل ما أعرفه .

إن غلال وواردات أكثر الأوقاف التابعة للمساجد في بومبي تزيد عن حاجة هذه المساجد و لذلك فان الحكومة الحالية تجمد منذ سنوات ما يفضل عن حاجة الجهات الموقوفة عليها ويقول رجالها الذين بيدهم السلطة: «الوقف ملك الله» وليس لأحد حق الإسراف في التصرف في ملك الله. وفي الحقيقة إنه يجب تخصيص مقدار معين للمصاريف، وإلا فلا يجوز صرف جميع الواردات لمنفعة عدد محدود من الأشخاص، وإذا حدث تصرف بأموال الوقف بدون حساب، فهو خيانة لملك الله وللحكمة التي اقتضتها الشريعة الغراء، و إخلال بالمنفعة العامة. ومن

الحكم المشروعة للوقف تأمين المنافع العامة للأخلاف (الذرية) والمحافظة على رقي الإسلام وقوته.

إن ريع العقارات الموقوفة لمسجد الجمعة منذ مئات السنين، يبلغ الآن عدة آلاف من الليرات الإنجليزية (وقد يزيد هذا الرقم في المستقبل) أما مصاريف الجهة الموقوفة عليها: رواتب الإمام والمتولي، والمؤذن وسائر المصاريف الأخرى للمسجد فلا تزيد بأي حال من الأحوال عن ألفين أو ثلاثة آلاف ليرة. أما المبالغ المتبقية فيجب أن تصرف على مشاريع أخرى موافقة للشرع الشريف، ومتفقة مع المصلحة العامة من دون تخطي الأحكام الشرعية.

وإذا قيل بأن شرط الواقف لا يسمح بذلك، فان الواقف عين مقدار المصاريف حسب ما كان يرد من الريع في عصره، أما الآن فان الريع زادت قيمته أضعافا مضاعفة، لذا يجب أن يعين مقدار الحد الأمثل، ويجب البحث عن مصاريف للغلة الزائدة يحقق منافع عامة أخرى والذي يحصل هو أن رجال الحكومة يودعون الموارد الزائدة في البنوك تاركين مهمة التحديد والتقويم للعلماء.

يقول علماؤنا حفظهم الله استنادا إلى قاعدة «شرط الواقف يعتبر كنص الشارع»، وإن الواقف خصص جميع الريع لهذه الجهات من المصارف، فمهما بلغت الموارد فإنها تصرف بكاملها على الإمام والخطيب وخدم هذا المسجد. هذه هي المسألة، وهذه هي حكمة الحكومة، فليتفضل المفتون بالقول بالروايات المفتى بها.

فالحكومة تظهر للملأ أنها تؤيد قوة الإسلام بصورة رسمية وعلنية، وتؤيد صرف واردات الأوقاف على الجامعات ودور الحديث و المصانع والمؤسسات الأخرى، إلا أنها ومن جهة أخرى تقول لخدام المسجد: إنها

مصالحكم أيضا، طالبوا بها، واستخرجوا الفتاوى للحصول عليها فان كان لكم حق، فأثبتوه وخذوه، هذه هي حكمة الحكومة!

أما علماؤنا الأكارم، فلا يجدون للريع الزائد جهات صرف أخرى، وإن أراد أحدهم ذلك وقف الآخر معترضا، وقال بعدم جوازه، والحكومة من جانبها تأخذ النقود والموارد الزائدة وتودعها في البنوك. إن موارد الأوقاف التي تجمعت في بنوك الهند تجاوزت ملايين الليرات، وأصبحت ثروة ضخمة، وبنوك الحكومة تستثمرها لنفسها، وبذلك يتعطل شرط الواقف، فلا ينتفع بها أي مسلم. أما العلماء ومن عليهم الفتوىفإنهم لا يجدون رواية يحلون بها الاشكال، وستؤول هذه الأموال إلى الحكومة بعد خمسين عاما، آه يا رب، ماذا أقول، امنح هؤلاء العلماء ضميراً. إن أوقاف المسلمين على وجه الكرة الأرضية تشكل ثروة ضخمة تعادل المليارات، واستناداً إلى الروايات الموثوقة، فإن الفائض من موارد الأوقاف في الهند وحدها يبلغ أكثر من مائة مليون ليرة إنجليزية وأوقاف الحرمين الشريفين، وأوقاف مصر، وأوقاف سورية وأوقاف اسطنبول وأوقاف سائر الممالك العثمانية، وأوقاف أخرى كثيرة حبسها أهل الخير تشكل ثروة عظيمة جدا، إلا أن الانتفاع بها لا يتحقق بشكل صحيح. إن في مقر الخلافة، وفي البلدة الطيبة أوقاف كثيرة صارت بأيدي غاصبيها، وأكثرها آلت إلى الفساق وأهل النفاق فضاعت. ولا يزال المعتدون على وقف الله وملك الله يدعون السيادة ويريدون أن يعرفوا بأنهم من أهل التقوى. الحقوق الإسلامية وحقوق الله تضيع، ولا أحد يدري بذلك.

إن مسألة الوقف في الإسلام مسألة عظيمة ومهمة جداً، ولو بحثنا هذه المسألة بكل تفرعاتها، وأخذنا بعين الاعتبار وضعها الحالي ومستقبلها من جميع الوجوه وصدرت الفتوى الشرعية التي تجيز صرفها على

المصالح العامة للمسلمين في كل بلد، وصدقت بأمر الخليفة الذي هو الحاكم الشرعي، لأمكن إنشاء بنوك خاصة بالأوقاف، وفتح متاجر كبرى على أساس المضاربة، ولاضطر أعداؤنا أن يحسبوا لنا ألف حساب. أدعو الله ربي أن ينور بصائر علمائنا، فكثير من حقوق العباد وحقوق الإسلام تضيع بسبب ترددهم وتذبذبهم. إن العلماء هم ورثة الأنبياء ورواد أهل الإيمان، فإذا قام علماء الإسلام بما يجب عليهم خير قيام، لعادة الأمة إلىسالف عزها ومجدها، ولذلك فان العلماء هم أمل الجميع.

إن ملايين الليرات من الأوقاف تؤول الى ملكية البنوك الإنجليزية بسبب عدم وجود نصوص معتمدة في الفتوى. كما أنه في تركستان والقرم تحول موارد الأوقاف إلى خزائن الروس، وهم لا يجدون نصوصاً تمكنهم من صرفها على مصالح المسلمين، والنصوص الموجودة يضعفونها ولا يأخذون بها. ياإلهي، يا إلهي! إنهم يثيرون قضايا الأوقاف في برلماناتهم كي يتحكموا بأموال الأوقاف كاملة. ونحن لازلنا نبحث عن فتاوى.

هذا هو حال ومستقبل المسلمين! الزكاة لا تصرف لإعلاء كلمة الله، وقف الله لا يصرف على منافع المسلمين، لا تبنى به مدارس، كل علمائنا مسؤولون عن هذا الوضع. إن أوقاف الحرمين الشريفين وكذلك مدارسها صارت ملكا للأشراف، فالمكتبة الملاصقة للحرم الشريف في المدينة المنورة هي من أوقاف السلطان محمود، صدر بها فرمان السلطان عبد الحميد لتكون هدية لأبناء السيد أسعد، وهيئة الإفتاء تسكت، بل تعطي الفتوى بجواز ذلك، بأنه إذا كان التصرف لمنفعة المسلمين عامة فلا حاجة للنص، مدعين أنه لا يجوز العمل بالنص الضعيف. ولعل رجال الفتوى إذا علموا بما نكتب، فقد يكفروننا ويخطئوننا، عندها نقول: «إنها ليست بأول قارورة كسرت في الإسلام» ونضطر للسكوت. وقد يقوم أفاضل

الأمة بإثارة الموضوع على صفحات الجرائد والمجلات بشيء من التفصيل مع إبداء الرأي الصائب. نتمنى من الله ذلك.

الـ «بان»، البحس

إن ما يسمى «بان» عبارة عن ورق شجر، وليس بوسع الإنسان إلا أن يقول عن هذا النوع من الورق بأنه «نجس» فالـ «بان» أو «التنبول» ورق سميك بحجم «أذن الخروف»، ومكيف ابتلي به كل أهل الهند.

هذا البان أو التنبول، هو ورق شجر، يهتم به الهنود كاهتمامنا بدوالي العنب، ثم إن هذا الورق يباع في الشوارع على مدى العام، وكل الناس يشترونه ويأكلونه، ويعظمونه ويقدسونه. فإذا نزل ضيف، فلا بد أن يكون أول ما يكرم به هو البان، ويتناسب التكريم طردا مع عدد هذه الأوراق.

أما طريقة الاستعمال فإنهم يمسكون بالورقة، ويدهنونها بالنوره، وينثرون عليها مواد مسحوقة تسمى «سوبارا» أو «فوفل» ثم يضعونها في الفم لمضغها، وكلما مضغوها رغت وزبدت، ثم يضطرون لبصق ما يتجمع من الرغو، وهكذا دواليك، والبصاق يكون أحمر قانيا مثل الدم. إنها عملية بشعة، وكل الهنود يبصقون أينما ذهبوا، فتتلوث ثياب الناس البيضاء بهذه القاذورات الحمراء، والطبع السليم ينفر من هذا النجس، ومع ذلك فان تقديمه للضيوف في الهند يعتبر من قبيل الإكرام البالغ.

والتنبول معروف في الهند منذ عهود قديمة، ويذكر إبن بطوطة في رحلته: «إذا قدم لك الهندي خمس ورقات من التنبول، فهو يمن عليك، وكأنه أعطاك الدنيا وما فيها» (وهذا القول لا يخلو من مبالغة).

فان كان له نفع كما يقولون، فهو إزالة الروائح الكريهة من الفم، وأرى أنه من غير المعقول تنظيف الفم بشيء نجس. لقد ابتلي الهنود به، يضعونه بجانب رؤوسهم أثناء النوم، فإذا استيقظوا من النوم تناولوا ورقة من البان وبدءوا بمضغها. وقديما نظموا أشعارا فيها كثير من المبالغة:

بعثت بأوراق التنبل الذي   يراها أناس الهند كلهم قوتا
إذا أكل الإنسان منه زمردا   تلون في فيه عقيقا وياقوتا

وقال آخر:
رأيت من سنة البسام في أحد   طلعا غدا في سبيل الله مرجانا

كل هذه المبالغات في مدح هذا النجس، لا يحمل إلا على شطط الشعراء وجنونهم، والواقع فإن ذم الشعراء هو بسبب المبالغات التي لا معنى لها.

المجلس الوطني في الهند

هذه المسألة إحتلت أهمية بالغة لدى الهنود، والواقع إنها في غاية الأهمية، ولعلها مسألة حياة أو موت بالنسبة لهم، حيث يتعرض الحكم الإنجليزي في الهند في الأعوام الأخيرة لانتقادات كثيرة وهامة، كما أن أصوات المظلومين في ولاية البنغال ترتفع يوما بعد يوم، حتى أن الاحتجاجات العلنية بدأت تظهر على السطح. ولما كانت هذه التطورات تقض مضاجع الحكومة الإنجليزية، فان الإنجليز بدأوا يفكرون في حلول لها.

ومهما فكر الحكم الإنجليزي في الهند في الوسائل التي يمكن اتخاذها لضمان بقائهم فان تفكير الهنود بمصلحتهم الخاصة، لابد أن يكون مغايراً لما يفكر به الإنجليز. ولذلك فكر الإنجليز في استحداث مجلس وطني (SYME) في الهند، يضع الإنجليز نظامه الأساسي، وبصورة تضمن بقاءهم واستمرارهم في حكم البلاد.

ومع هذا فإنهم كانوا يخشون أن يصبح هذا المجلس إمتداداً لمجلس البرلمان في لندن، وتتشكل بسببه حكومة داخل حكومة، فتكون النتيجة مغايرة للسياسة الإنجليزية نفسها.إن تأسيس المجلس الوطني في الهند يعني الاعتراف بنوع من الحقوق السياسية التي مهما كانت فإنها جزء من الحقوق المشروعة للشعب الهندي، وان تأسيس المجلس يعني أيضا نوعاً من السقوط البريطاني. إن منح حق كبير لشعب لم يعرف قبل ذلك ما هو الحق، سيعني منحهم الاستقلال التام، وهذا أمر يتناقض مع السياسة المتبعة في هذه البلاد، ولذلك ترددوا في تأسيس هذا المجلس في بداية الأمر، ثم أبقوا الأمر معلقاً، وأخيراً وجدوا الطريقة المناسبة كي يتنصلوا مما وعدوا به، وألقوا اللوم بذلك على الهنود أهل البلد.

ولو تشكل مثل هذا المجلس، فسيكون أكثر أعضاؤه من المجوس، ولذلك فإن الحكومة الإنجليزية توحي للمسلمين بطرقها الخاصة بأن المجوس سيقومون بأعمال إنتقامية ضد المسلمين. وقد استطاع الإنجليز فعلاً عن طريق بعض أئمة المساجد والوعاظ، خداع البسطاء من المسلمين عن طريق الوعظ في المساجد. ومن جهة أخرى فإنهم يوحون إلى المجوس الذين يطالبون بتأسيس المجلس الوطني إن المسلمين الذين كانوا يمسكون زمام الأمور بأيديهم لا يريدون مثل هذا المجلس، وإلا فإننا مستعدون لتحقيق ما تريدون، إننا قوم نعترف بالحق، وتعلمون مدى

التعصب الديني لدى المسلمين وإن دينهم لا يسمح بمثل هذه الحريات، ومع ذلك فإننا استلمنا هذه البلاد منهم، فهم أصحابها الأصليون، إلى غير ذلك من الكلام المعسول، للإيقاع بين المسلمين والمجوس. وقد أجريت في الموضوع كثيراً من التحقيقات ودرسته مع عدد من كبار الزعماء المسلمين.

إن المسلمين الذين لهم دراية وسعة اطلاع، يخشون من عواقب الأمور، لأن الموضوع مهم، فالإنجليز من جانب والمجوس من جانب آخر، وبينهما دسائس سياسية كثيرة، والمسؤولية جسيمة، والوصول بالمسلمين إلى طريق السلامة أمر في غاية الصعوبة، هذا ما يقر به أهل البصيرة. وإذا افتتح المجلس الوطني في الهند، فسيكون قسم من المسلمين أداة بيد الإنجليز، أما القسم الآخر فهو لا يدرك معنى المجلس الوطني، كما أن عدم الثقة بينهم وبين المجوس، إضافةً إلى الخلافات المذهبية والنفور الحاصل بين بعضهم البعض، كل ذلك سيقضي على كل إمكانية للقيام بأي عمل يخدم مصالحهم. أما المجوس، فقد أعدوا لذلك كثيراً من الرجال، خاصة في البنغال، فهم منظمون بكل معنى الكلمة، كما أن فيهم الكثير ممن أكمل دراساته العليا في اليابان وأوربا.

إن زعماء المسلمين يساورهم الكثير من القلق بهذا الموضوع أيضاً، والأمر يستحق المزيد من الاهتمام. و أرى أنه من غير المحتمل أن يبدي الإنجليز قدرا كبيراً من الكرم والإنسانية في المستقبل القريب، وإن مسألة افتتاح المجلس الوطني تقلقهم بنفس القدر الذي تقلق المسلمين. ومع ذلك فان ما يرتكبه الإنجليز من الظلم والتعدي أمر لا يطاق، ولن تستطيع الحكومة المحافظة على مكانتها ما لم تحدث تغييراً في أصول الحكم نفسه، وهذا الأمر لا يغيب عن بال الإنجليز. والحقيقة إن فكرة إفتتاح

المجلس الوطني ليست لتهدئة الخواطر فحسب، بل تستهدف أيضا الحفاظ على المكانة أيضاً. ولا شك بأن مكانة الإنجليز ستتعرض لهزات شديدة كلما طال بهم الأمر (زاد الله هزاتهم) لأن الظلم تجاوز الحدود كثيراً، كما إن أطماع الإنجليز ستزيد من شدة الهزات ووتيرتها، ومهما حاول الإنجليز منع حدوثها، فلا يمكنهم أن يفلحوا في ذلك.

اللغات المستعملة في الهند	عدد الناطقين بها	ملاحظات
الأوردو	١١٢،٦٨٥،٤٢٨	ليست من اللغات القديمة لكنها أصبحت اللغة السائدة عرفت من الناطقين بها بأنه لا علاقة لها مع أي لغة من هذه اللغات.
البنغالية	٣٨،٦٤٣،٢٤٣	
المرهتية	١٢،٠٠٣،٢٦٣	
البنجابية	١٠،٤٢٦،٨٩٤	
الكجراتية	٨،٣٨٢،٢٣١	
التلكوية	١٢،٤٩٥،٤١٢	
التاملية	١٣،٦٥٦،٨٢٤	
الكنارية	٨،٩٢٩،٩٩٠	
الأورية	٦،٩١٨،٠٠٠	
البرهمية	٢،٨٧٨،٤٦٩	
السندية	٣،٦٤١،٨٤٣	

الآسامية	٢،٥١٤،٢٦٩
الكولية	١١،٨١٩،٩٤١
السنتالية	١،٩٠٠،٤١٣
الكوندية	١،٦٨٤،٠٣٠
البشتوية	٩١٨،٤٢٣
الكرنية	٦٩٤،٣١٩
القاجارية	٥٨٢،١٢٦
السنسكريتية	٢٠٠٠٠٠

إن هذه هي من اللغات اللغات الهندية القديمة ولكنها تعتبر من اللغات المحلية، كما إن العربية والفارسية استعملت في بعض الفترات وما تزال تستعمل ولكنها تعتبر من لغات الضيوف، وليست من اللغات المحلية، وكذلك اللغة الإنجليزية.

ياما أوكا الياباني

جاءني خبر أن الياباني الذي كنت أنتظره بناء على البرقية التي تلقيتها سابقاً من سنغافورة، قد وصل، فتوجهت إلى منزل الاخوة عيسى بهائي، فلما رآني الياباني، ولم تكن بيننا معرفة سابقة، قفز من مكانه، واحتضنني قائلاً: خادمك ياماأوكا، إنني من تلاميذك الذين لم ترهم، والحمد لله فقد تشرفت برؤيتك، واعتبرني من اليوم واحدا من أولادك، السادة أوهارا وتوياما وناكانو أرسلوا لك تحيات خاصة، وأكتفي بما قلت، وأقدم لك هذه الرسالة، ومد إلي بالرسالة. خلاصتها:

أقدم لك بهذه الرسالة «ياماأوكا» فهو يعرف اللغة الروسية جيداً، وهو بمثابة أخ لنا. انه رجل مخلص وجاد ونقي السريرة. إنه من أبناء مدينتي،

أكمل دراسته في عام ١٩٠٤، واشترك في الحرب اليابانية الروسية ومنح وسام «الشمس المشرقة» ونأمل أن يلحق بك مع هذه الرسالة في بومبي، وبعد أن يتشرف بالإسلام أمامك، سيكون له الشرف بالمرافقة الدائمة وبخدمتك، وسيكون أخونا ياماأوكا معك أينما حللت، وسيبلغنا بأوامرك وشؤونك كاملة وبصورة مستمرة، وسنفرح كلما اطمأننا على سلامتك. إنني على العهد في الإسلام والحمد لله، وعلى اتصال دائم مع إخواننا في يوكوهاما.

أتمنى من الله تعالى أن يلهمكم الحيطة والحذر في كل أموركـ. ولدك أوهارا، التاريخ ميجي ٣٩ (٩ مارس ـ اذار سنة ١٩٠٩)

وبعد قراءة الرسالة، نهضت مع ياماأوكا واصطحبته فوراً إلى فندق «شاه جهان» وبعد أن استقر بنا المقام في الفندق شربنا الشاي، وسألته عن أحواله وعن سبب سفره المليء بالصعاب، فلم يرد أن يجيبني، واكتفى بأن قال: إن كل ذلك سيعرف فيما بعد، إن واجبي الأول فهو التشرف بالإسلام، فرجائي منك، ألا تضيع دقيقة واحدة وتبادر لتلقيني الإسلام، وتعليمي أسس الإيمان. فبادرت فورا ودون أي تردد إلى تلقينه كلمة التوحيد ثلاث مرات «لا اله إلا الله محمد رسول الله»، ثم سميته «عمراً» تفاؤلا بأمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ. وكان من الطبيعي أن أعلمه أركان الإسلام والوضوء وأفعال الصلاة، وصار منذ ذلك اليوم صديقي عمر أفندي، وسيقيم عمر أفندي في الفندق مدة وجوده في بومبي، وأنا أستمر على إقامتي في المساجد. .

عمر أفندي ياماأوكا في القنصلية العثمانية

وفي اليوم التالي قمنا معا بزيارة جلال بك، القنصل العثماني العام، وبعد التعارف وبيان الحال، أبدى القنصل العام ارتياحه، وكلم عمر أفندي بالإنجليزية، وزوده بالنصائح والتعليمات اللازمة، وصادق على إضافة إسم عمر أفندي إلى بطاقة ياماأوكا، وهنأه، وأثنى عليه، وتفضل بتقديم الشاي. وتطرقنا في الحديث لأمور كثيرة. وأخيرا قال جلال بك مخاطبا عمر أفندي: سأكون مسرورا أن تزور قنصليتنا متى أردت خلال إقامتك في بومبي، ولنا الشرف أن نقدم لك أي خدمة تطلبها

وبعد اللقاء مع جلال بك، الذي استمر حوالي الساعة، ودعناه وغادرنا مقر القنصلية، وهنا علق رفيقي عمر أفندي: لقد أعجبني السيد القنصل والسيدة حرمه، إنه رجل طيب وحليم، ولو كنت أعرف الإنجليزية جيدا لاستفدت منه كثيراً، ولكن إلمامي بها ضعيف، إلا أنني تشاءمت من شيء لاحظته على باب القنصلية، و ساء ني كثيرا، والواقع إن التشاؤم صار طبعاً في قومنا اليابانيين، و إني أتمكن من تفسير الذي تشاءمت منه، إنه شيء فظيع جدا.

قلت: وما هذا الذي ساءك كثيراً؟ لم يرد على سؤالي في الحال، لكنه بعد أن مشينا بعض الوقت قال: ألم تلاحظ الشيء الذي رأيته؟

قلت: وما هو؟

- ألم تلاحظ الهلال المرسوم على اللوحة المعلقة على الباب الرئيسي؟

- لاحظت ذلك، انه خطأ الخطاط، لقد جعل الهلال في وضع مقلوب.

- مهما كان الخطأ بسبب الدهان، فأنا لو كان الأمر راجع لي فإني لا أعلق تلك اللوحة أمام الناس، بل أدفع الأجرة مرة أخرى وأصنعها من جديد. على كل حال هذه ملاحظة عابرة و لم تكن هناك ضرورة لمزيد من الكلام، ولم تعد ذا بال ولكن مما يدعو للغرابة أن وضع هذا الهلال لفت نظر عمر أفندي في أماكن عديدة أثناء الرحلة إلى الحجاز وفي اسطنبول، وكان يقول: عجبا لهؤلاء الأتراك لقد رضوا بالفناء على أنفسهم دون أن يدروا، وكنت أسكت ولا أعلق على ما يقول.

إلا أنه في الأخير بدأت هذه الظاهرة تلفت نظري أيضاً، ففي أيام حروب البلقان كنت ألاحظ على لافتات الهلال الأحمر وعلى مظاريف الرسائل الخاصة به وعلى باب مركزه الرئيسي وكثير من الأوراق الرسمية صورة الهلال في شكله الآخذ بالتناقص. وهنا أقول إذا نال التشاؤم من الإنسان مرة فلن يفلته، وصرت أتكلم من كل مكان متبرما من هذه الظاهرة. ما لإخواننا العثمانيين هل أصيبوا بعمى البصيرة؟ ولكن ما العمل؟ إنها ضربات قاسمة سددها لنا أعداؤنا في الداخل من دون أن نشعر، لأنهم أهل صنعة ودهاء، أما نحن، فلا عيون لنا ولا آذان، نسير على غير هدى. وكل الذي سنقوله في النهاية: «دع هذا يا أخي، إنه من الأمور التي لا أهمية لها» وكأننا أناس لا نهمل عظائم الأمور، إنه حتى الأموراليسيرة التي لا يلقي لها الإنسان بالا، قد يكون لها أسوأ الأثر.

عمر أفندي في المسجد لأول مرة

وبعد قضاء عدة أيام في بومبي، توضأ عمر أفندي ورغب أن يتوجه إلى المسجد، وتوجهنا إلى المسجد الميمني، وسجد رفيقنا ياماأوكا للرحمن وصلى صلاة العصر مع الجماعة لأول مرة. وإنني لعلى يقين بأنه لم يسبق قبل ذلك لأي ياباني أن صلى صلاة الجماعة على هذا النحو.

وبعد الصلاة، كان الفرح والبشر باديان على وجهه، فشكرني عدة مرات، وأبدى إعجابه بلطافة المسجد ونظافته، وكثرة عدد المصلين، ورغب أن يمكث في المسجد حتى المساء. وكنت من الضيوف الدائمين في هذا المسجد، فتنحينا جانباً وبدأت أحدثه عن مزايا صلاة الجماعة. وكنا نلحظ الدراويش، بعضهم منشغل بالتلاوة وبعضهم بالصلاة، وآخرون نائمون. وقد لفت ذلك انتباه عمر أفندي وردد قائلاً: «المساجد محل نوم للفقراء، كما هي مكان للمتعبدين، إلا أني لا أرى أحدا من علية القوم، فما السبب في عدم مجيئهم إلى المسجد؟ وهل يتميزون في أزيائهم؟».

وبينما كنا نتحادث، أقبل علينا أحد دراويش المسجد، وسلم علينا، وقال بلغة فارسية: أرى أن ملامحكما غريبة، لابد أن تكونا من بلاد بعيدة، ولعلكما من أمم الشرق الأقصى، و لكنني استغربت من اللغة التي تتكلمان بها، وعلى ما أظن من اللغات الغربية، فمن أين أنتما؟

قلت: وكيف عرفت بأننا نتكلم لغة غربية، وهل تعرف إحدى هذه اللغات؟

-لا، أنا لا أعرف سوى الأوردية والفارسية ولكنني أمعنت الفكر في حديثكما فوجدت أن اللهجة والصوت لا يتناسبان مع ملامحكما، فانشغل ذهني بطريقة الحديث، إني أرى ملامحكما لطيفة ومتزنة، أما الكلام فاستغربته. أرجو عفوكما، لقد تشجعت بالسؤال، بسبب الأخوة الإسلامية التي بيننا. وأنا من جانبي إستغربت ملاحظات هذا الرجل الغريب، وترجمت ما قاله رفيقي عمر. فتعجب أيضا، وأخرج دفتره من جيبه، وسأل عن اسمه.

- شاهجهان ولي صاحب.

-وما موطنك الأصلي

-من ناحية وزير آباد بولاية كشمير

-متى وصلت إلى بومبي، وما جهة قدومك؟

وصلت إلى بومبي قبل أسبوعين، وإني عازم على الحج، ولكنني لم أجد سفينة تنقلني. نظر عمر أفندي إليّ وقال: إنه يريد الذهاب إلى الحجاز، وقد يكون من أعيان البلد، فاسأله إن كان قد زار بلادا أخرى .

سألته، فأجاب بأنه خرج من ولاية كشمير لأول مرة. وفي هذه الأثناء رفع الأذان المحمدي، وانقطع الحديث، ولم نلقه بعد ذلك.

حكام الهند

تقع الهند بكاملها تحت الحماية البريطانية. ومع ذلك فان فيها حوالي مائة وعشر مناطق تكاد نكون مستقلة إداريا. والقليل من هذه المناطق إسلامية، والباقي من الهندوس والمجوس. **وهذا جدول بالمناطق الإسلامية :**

مقر الحكومة	اسم الحاكم	قومه	المساحة ميل مربع	عدد السكان (بالألف)	ملاحظات
حيدر آباد	نواب مير محبوب	التركمان	٩٨٠٠٠	١٢,٥٢٦٠٠٠	أشهر الحكام وأغناهم كان له خمسون ألفا من الجيش النظامي من عرب حضرموت الا أن حكومة إنجلترا اغتصبته.

بالاسور	نواب منور خان	أفغان باني	١٨٠	٥٥٠٠٠	
باوني	نواب منور حسين	التركمان	١٢٧	١٨٢٠٠٠	
بهاولبور	صادق محمد خان	داودبوترا	١٥٠٠٠	١٨٢٠٠٠	
بهوبال	نواب شاهجهان بيكم	أفغان شيراز	٨٢٠٠	١٣٤٢٠٠٠	امرأة متدينة و شهيرة زارت اسطنبول مع ولديها عام ١٣٢٧
بالمبور	ديوان شير محمد خان	أفغان	٢٣٨٤	٢٩٦٠٠٠	و تسمى أيضاً بمبي احاطة
لونك	نواب محمد إبراهيم	أفغان نيردال	٢٥٠٩	٤٦٢٠٠٠	و تسمى أيضاً راجبوتانه علي خان
جاوره	نواب محمد إسماعيل	باتان	٨٧٢	١٦٩٠٠٠	و تسمى أيضاً مالوه
جنجيرا	نواب أحمد خان	حبشي	٣٢٤	١٦٠٠٠	و تعرف أيضاً بـ كوكن
جوناكده	نواب بهادر خان	بهانبال	٢٨٠٠	٥٢٦٠٠٠	
خير بور	مير علي مراد خان	بلوش	٦١٠٩	١٩٢٠٠٠	

راتهنبور	نواب بسم الله خان	أفغاني بابي	٨٣٣	١٣٠٠٠	و تعرف بحكومة كوجرات
رامبور	نواب محمد مشتاق علي خان	روهيله	٩٤٥	١٥٤٠٠٠	و تعرف بـ روهل كهند
سجين	نواب عبد القادر محمد ياقوت خان	حبشي	٣٠٠	١٢٣٠٠٠	و هي إمارة صغيرة جداً
كمبي	نواب جعفر علي خان	بهان	٣٥٠	١٥٤٠٠٠	قالوا بأن عدد سكانها أكثر
كورداني	نواب محمد منور علي خان	أفغان أوركزي			
بالركوتله	نواب محمد إبراهيم علي خان		١٦٧	٣٣٠٠٠	(تله) تقرأ مثل الطاء
كلات	مير خداد خان	بردي			علاقتها بالهند بسبب وقوعها تحت الحماية البريطانية و هي في الأصل بلوجستان.

هذه هي المناطق التي يحكمها مسلمون، و يوجد بين رعاياهم كثير من المجوس والبوذيين، كما أن الحكام المجوس والهندوس يتبعهم كثير

من المسلمين، و قد تكون الأرقام التي ذكرتها تخمينية، فان الدراسات العميقة التي قمت بها تجعلها أقرب إلى الصواب.

والمسلمون من هؤلاء الحكام يدعون «نواب» كما إن المجوسي منهم يدعى «راجه» والكبار منهم يسمون «مهاراجه». ومن بين الراجات حكام أقوياء يتصفون بالعقل وحسن التدبير والإدارة، ومحافظون على استقلالهم، يراعون مصالح ولاياتهم، ويتبعهم أكثر من أربعة عشر مليونا من البشر، كما أن فيهم راجات أو نواب شكليون، ليست لهم أي أهمية، كأنهم شيوخ القرى، عبيد وخدم للإنجليز. فراجه «باني طانه» من قوم كوهل، وراجه دموتي سنكه» من قوم جوهن، وغيرهما كثير، لا يتعدى حكمهم عددا من القرى، ومع ذلك فهم في عداد الراجاتوالحكام.

الأديان في الهند

تعتبر الهند من أكثر بلاد الدنيا من حيث تعدد الأديان والمذاهب، ولا نبالغ كثيراً إذا قلنا بأن الهند هي بؤرة كل الأديان والمذاهب على وجه الأرض. وبمعنى آخر: إن الهند بؤرة العلل الروحية(المذاهب)، كما هي بؤرة العلل المادية المهلكة (الكوليرا).

وتقسم الأقوام الهندية من حيث الأديان والمذاهب إلى ما يلي :

الهندوس – البراهمه	١٥٢,٩٣٦,٤٣٨
المسلمون	٨٨,٨٤٢,٦٨٥
البوذيون	٢٢,٤٢١,٧٩٣
السيك	١,٢٤٨,٤٣٦
البارسي	٢٦٨,٢٨٨

السامري	١٢,٠٠٠
المسيحيون	٢٢٢,٠٠٠
أتباع أديان أخرى	٩٩٤,٨٢٤

المذاهب الإسلامية

إن عدد المذاهب التي تعلن عن نفسها أنها على دين الإسلام ليس بالقليل، وقد جمعت معلومات مفصلة عن هذه المذاهب، مبادئها وأسباب تشعبها، وكان هدفي إضافتها إلى هذا الكتاب وجعلها في فصل خاص، لكنه تقرر فيما بعد وبناء على طلب من إخواني، نشرها في رسالة خاصة.

السفر إلى حيدر آباد الدكن

دكن في اللغة الأوردية تعني الجنوب، وقد شاعت بين الناس وعرفت بنظام الدكن. توجهت إلى محطة القطار الذي يقلني من بومباي إلى حيدر آباد الدكن وهناك صادفني أحد معارفي وسألني عن وجهتي، فلما عرف أنني متجه إلى الدكن قال لي: إحذر، فالإنجليز لن يسمحوا لك بالوصول إلى الدكن، ثم إنك إن ركبت في الدرجة الثالثة، فسينقلونك إلى المحجر في كلبركه، وستمكث هناك عشرة أيام، فهل تعرف ذلك؟ ولما طلبت منه التفصيل، قال: إن الإنجليز لا يسمحون للعثمانيين وخاصة من هم مثلك بدخول حيدر آباد، والذين يريدون السفر إليها يحصلون على إذن من بومبي، أو من كلكتا إذا كانوا ممن يشك فيهم، وإذا عرفوا هويتك فلن تحصل حتى على إذن بالسفر. ثم إن الإنجليز خصصوا في هذا الطريق

عربات الدرجة الثانية للمسلمين، وهذه العربات قذرة جداً وسيئة وضيقة وقصيرة، إنها أشبه بالحظائر، وهي من الدرجة الثانية و يسمونها second class، والمسلم لا يسمح له بركوب العربات الأخرى، لأنها مخصصة للركاب النصارى، ولا أجد معنى في ركوب عربات الدرجة الثانية، فعربات الدرجة الثالثة أحسن منها كثيرا. لذلك فان المسلمين لم يعودوا يركبونها. و هنا تحايل الإنجليز وجاءونا بمصيبة المحجر، فإذا سافر المسلم في عربات الدرجة الثالثة احتجزوه في "كلبركه" ووضعوه في المحجر لمدة عشرة أيام، وهو محجر دائم، وعليه فإما أن تركب عربات الدرجة الثانية، أو ترضى بالبقاء في المحجر عشرة أيام، أرجوك الحذر الشديد، فمن المؤكد بأن الانجليز لن يحسنوا الظن بك.

شكرته على نصائحه وحصلت على تذكرة الدرجة الثانية وانطلق بنا القطار. لا أجد حاجة للتعريف بالعربة، فهي أقصى درجات الإهانة والإذلال للمسلمين. ففي روسيا عربات خاصة لنقل نجس البشر، تلك العربات التي عندنا أنظف من عربات الدرجة الثانية التي خصصها الإنجليز لمسلمي الهند.

وصلنا «كلبركه» وفيها مرقد أحد الصالحين، وسميت المحطة باسمه. يا إلهي، أي شيء هذه التي يسمونها الحضارة! الحجر الصحي في كلبركه لركاب الدرجة الثالثة مدته عشرة أيام، سيمكث البشر هنا عشرة أيام؛ تقولون أين؟ عند كلبركه صاحب، أين؟ الجواب فوراً: عند ولي الله كلبركه صاحب، أرض قرب المحطة مساحتها عشرون مترا مربعا محاطة بأسلاك شائكة، لا سقف لها ولا أرضية، في مواسم الأمطار تجد هنا سيولا بشرية، وفي موسم الصيف تذوب الرؤوس من شدة الحر. إنك إذا أردت أن تضر ميزانية الإنجليز، فما عليك إلا أن تحصل على تذكرة

الدرجة الثالثة، ليغلي دماغك تحت حر الشمس مدة عشرة أيام! فلا حول ولا قوة إلا بالله. وهذه إحدى مخترعات حضارة القرن العشرين، ومن يجرؤ أن يقول غير ذلك؟ نحمد الله ألف مرة على أن وقانا من أمثال هذه الحضارة. والأمر الغريب أن بعض الحمقى منا، يتهمون أولئك المساكين الذين تغلي رؤوسهم تحت الشمس بالتقصير، وكأن السبب هو الجهل الذي هم فيه، ألا يعرفون بأن أعلم الناس لو ذهب إلى هناك متنكراً وركب مع ركاب الدرجة الثالثة، لأصابه ما أصاب أولئك المساكين؟

ملاحقة من كلبركه

جاوزنا كلبركه من دون توقف، لأننا من ركاب الدرجة الثانية. وبعد خمس دقائق أقبل علي رجل غريب الشكل، وجلس إلى جانبي، فأدركت من تلك اللحظة بأنه لابد أن يكون جاسوسا يتعقبني. أراد أن يكلمني، فلم أبه له. وعند المساء وصل القطار إلى محطة حيدر أباد الدكن، ونزل الناس، كما نزل هذا الرجل، وبدأ يسير ببطء، فتصنعت المشي خلفه، ثم عرجت إلى شارع جانبي فجأة، وسرت في اتجاه المدينة، ولم أكن أحمل معي إلا حقيبة صغيرة، فكل ما عندي دفتران وعدد من أقلام الرصاص.

دخلت المدينة، و أنا أمشي إلى الأمام دون أن أسأل أحداً، وبعد مسيرة عشر دقائق سألت أحدهم: أين منزل الدكتور طالب؟ فأشار إلى بيت في محاذاتنا، وكنت أنوي النزول ضيفا عند صاحب هذا البيت. طالب أفندي طبيب إيراني، أحمل وصية من القنصل العثماني بأن يهتم بي. قضيت تلك الليلة ضيفاً عليه، شربت فنجاناً من الشاي، جزاه الله خيرا. بعد الفجر صليت، و بينما كنت جالساً على السجادة حينما جاء رجل وسأل عن صاحب البيت، فلم أجبه بشيء لعدم اطمئناني إليه، فصار

يلف يمينا وشمالا، وأنا جالس أنظر إليه، وبعد نصف ساعة جاء طالب أفندي، وتحادث مع الرجل المنحوس، ثم أخبرني بأن هذا الرجل شرطي ويقول بأنك غادرت المحطة بالأمس دون أن تمر على أحد، فصاروا يبحثون عنك طوال الليل، وأرسلوا برقيات من بومبي يسألون عنك، ويدعوك الآن لأن تذهب لمقابلة الكوتوال .

لم يكن هنالك مفر من الاستجابة لهذه الدعوة، فحملت حقيبتي، وغادرت منزل طالب أفندي بصحبة الشرطي، وفي الشارع أحاط بي ستة من عناصر الشرطة مدججين بالسلاح، و أدركت أنني سأذهب بالحفاوة والتكريم! وبعد أن مشينا بضع خطوات نادى الشرطي طفلا، فصار الطفل يبكي من الخوف، فلطمه الشرطي، وأخذ الحقيبة مني كي يحملها هذا الطفل، فانتزعتها من يد الشرطي وقلت: لا يحق لك أن تظلم أحداً بسببي، توسل الشرطي أن أعطيه الحقيبة و لكنني رفضت، وجعلته يخلي سبيل الطفل. فصرنا ننتقل من مركز إلى مركز حتى وصلنا أخيراً إلى مكتب الكوتوال(رئيس الشرطة)، وبجانبه مترجم إيراني.

وبعد السلام عليه قلت:

يا جناب الكوتوال! إن إذلال المسلمين صار من خصائص بعض حكام المسلمين، فلا تترددوا في ظلم تقدرون عليه. إنني مؤمن والحمد لله، مهمتي خدمة العلوم الإسلامية، و في الحقيقة إنه ليس لديكم حرية أن تفعلوا ما تشاؤون، إنكم أداة بيد غيركم، ولي كلمة أقولها لمن يستخدمكم، بل إنها ليست من عندي، بل إنها قول الله تعالى: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، ولن أطلب منك إلا شيئاً واحداً، هو أن تأخذني إلى مكتب البرق، وبعدها خذني إلى أي مكان تشاء.

بدأ الكوتوال يبكي وهو يقول: أرجو منك العفو(وأمسك بيدي يقبلها)، ماذا نعمل، إننا أصبحنا أداة بيد الكفار كي يظلم بعضنا بعضا، كان علي أن أقابل العلماء بالتكريم والاحترام، ولكنني أمرت باعتقالك، ما أتعسني في هذه الدنيا، أكتب ما تريد، فسأرسله لك برقياً، وسأبعث لك بإشعار البرقية، أمهلني قليلا حتى أكلم السركار، لعلي أوفق في إطلاق سراحك.

جلسنا نتحادث مع ترجمان الكوتوال في أمور شتى، شربنا الشاي، وسألني عن بلدي، والهدف من رحلتي. لقد كان الترجمان ضليع في السياسة، ومع ذلك فلم أتردد في أن أتحدث له عن ظلم الإنجليز الذي لا يعرف الحدود، كنت أتحدث بمرارة عن الظلم الفاضح الذي يمارسونه في كل مكان.

تقدم الكوتوال فقال: يا سيدي، لقد قلت كل ما بوسعي أن أقوله، وقمت بواجبي تجاهك، ولكن لم ألق أذنا صاغية (وكانت الدموع تنهمر من عينيه)، ما العمل، إنهم يهددونني، ليس لي إلا أن أمتثل لأمر الظالم المتسلط، أرجو عفوك. نادى بشرطي بلباس مدني، وقال له: خذه. عندها كتبت البرقية التالية الى القنصل الروسي في بومبي:

لقد اعتقلوني، فأنا الآن مسجون. عبد الرشيد.

وقلت للكوتوال: كلامك صحيح، إني أثق بك، وأعذرك، أرجو أن ترسل برقيتي هذه.

ودعت الكوتوال، وخرجت من الباب بصحبة الشرطي السري، فرأيت دركيا ينضم لمرافقتي، فأخذاني إلى مكان لا أعرفه، وأرياني وكرا(مثل وكر الدب) وضعت فيه قطعة من حصير، وزيادة في التكريم جلبوا لي إبريق، قال الشرطي: هذا هو محل إقامتك، وأجرته في اليوم

روبية واحدة وفي النهار يمكنك التجول في الممر، وبعد السادسة ستكون في الوكر.

قلت: أنا لا أدفع عن هذا المكان أي مبلغ، فإذا كان لابد من دفع المبلغ، فأنا أختار غرفة في أي مكان شئت، فان لم أكن مسجونا فاسمح لي، وسأجد مكاناً، وإذا كنت مسجوناً فلماذا أدفع هذا المبلغ.

أجاب الشرطي بحيرة: يا سيدي، هذا ليس بسجن، نهي، نهي. ولكن عليك أن تبقى فيه .

-ان كان لي أن أختار، فلن أبقى هنا، وان لم يكن باختياري، فلن أدفع المال.

-هذا المكان مضافة يا سيدي، وأنت ضيفنا.

-أنا لا أقبل هذه الضيافة باختياري.

وأظن أنه كلم الكوتوال بالهاتف، (و أسدل الستار على المأساة)، وأخبرني بأنه سيعفيني من الأجرة، عندئذ حكم علي بالبقاء في هذا المكان. ما باليد حيلة.

سأحاول وصف هذا الوكر الجميل (والوصف قد يكون غير مفهوم)، ممر مستطيل، لا أقول إنه ساحة عريضة، على الجانب الأيمن منه غرف صغيرة متلاصقة (أو أوكار) طولها ثلاثة أذرع، وعرضها ذراعان، من غير نافذة، باب واحد فقط، هذه هي المضافة التي أوشكنا أن ندفع عنها روبية واحدة هي أجرة المبيت.

منتهى الكرم من عالم الحضارة، يا إلهي! الساعة تدق السادسة، علي أن أدخل الوكر، جزى الله صاحب الخير الذي زودني بشمعة في الطريق، كانت نوعا من الكرامة.

أنا الآن في الوكر، لا حاجة لإغلاق الباب بالمغلاق، فإذا وضعت رأسي في أسفل الجدار كانت الرجلان بمثابة المغلاقين، كما إنني ألامس الجدارين بيدي وأنا في مكاني. هذا هو قصري الحالي، كنت أحس بحركات عدد من العقارب تحت الحصيرة. أمضينا الليلة على تلك الحالة المزرية، وفي الصباح الباكر جاء الشرطي، فأمسكت بيده وقلت: لا يمكنني أن أبقى في هذا المكان، وأمهلك حتى الساعة الثانية عشرة، فأما أن تخلي سبيلي، أو تأخذني إلى السجن العام، سأنتظر هنا حتى الثانية عشرة، فان لم تأت فسأضرب الدركي المناوب وأمضي، وأبحث عن مكان لي، وصرت أصرخ بأعلى صوتي، أن أوصلني إلى السجن العام، وكان الشرطي يفر مني.

جاءني أحد الجيران وقال: لماذا تريد الذهاب إلى السجن العام يا رجل، إن هذا المكان أفضل من السجن العام بكثير، انك تستطيع التجول سحابة نهارك، أما هناك فالمكان سيئ جدا، وكلام كثير لا أفهمه. وآخرون يرددون: «مولوي صاحب آجه هي آجه هي» أي جميل جميل.

ومع ذلك كنت أهدد وأتوعد، وإنتابتني رغبة برؤية السجن العام (وقد سمعت بأن سجنهم عبارة عن زنازين تحت الأرض).

في الساعة العاشرة والنصف جاء الشرطي وقال: سآخذك إلى منزل المولوي أنوار الله صاحب، فهو من أكابر علماء المدينة، وستقيم هناك، إنه رجل عالم وفاضل، ومعروف بين الناس، ومن مدرسي القصر. قمت مع الشرطي واتجهت إلى منزل المولوي المذكور.

المولوي أنوار الله صاحب

يبدو من ملامحه أنه رجل حليم ولطيف وطيب المعشر. استقبلني، وكأنه يستقبل ضيفا بغير ميعاد، يتكلم اللغة العربية الفصحى، إنه من علماء المدينة ومدرسيها الكرام، و مع هذا إنه ليس أفضل من المدرسين الذين درسوا الكتب المعروفة، ولكنه نال قدراً من الاعتبار لدى الحكومة، لذلك أرسلوني تحت حراسة الشرطة لأكون ضيفا عليه. عرفت ذلك عندما عزمت على صلاة العصر في المسجد.

استقبلني مولوي أنوار الله صاحب بحفاوة وتكريم، وبعد قليل بدأنا نتحدث في أمور شتى، ولما تطرقنا إلى أصول التدريس قال:

بذلنا جهودا في إصلاح المدارس وأصول التدريس، وأنا الآن مدرس في مدرسة النظام، وأظن بأنها مدرسة متطورة ومنتظمة، فأرجو منك أن تزورها، وتبدي رأيك فيها. وبشكل عام فان المدارس الهندية في وضع سيئ.

- بكل سرور، وإذا سمحت لي سأزورها فوراً. (وكان هدفي، معرفة ما إذا كنت حراً، أو مازلت مقيداً).

- اليوم تستريح، وغداً قد نذهب معاً. (أحسست بأنني لست حراً)، وبعد ذلك حدثته بما جرى لي خلال الأربعة والعشرين ساعة الماضية بالتفصيل، كما تطرقت لسياسة الإنجليز في الهند، وأبديت رأيي في مستقبل الهند ببضع جمل.

تردد أنوار الله صاحب كثيراً، كما بدت على وجهه علائم التعجب.

قال: هل لي أن أعرف رأيك في مستقبل نظام الدكن؟

- لا أملك أية معلومات عن حاضر نظام الدكن، زودني بمعلومات كافية عن حاضره، أخبرك بالخبر اليقين عن مستقبله، شرط أن يكون خبرك عن حاضره صحيحاً.

مولوي أنوار الله صاحب: الحاكم الحالي، يحكم حكماً مطلقاً، ويوجد مندوب إنجليزي، يتدخل في بعض الأمور بصفة مشاور ولكن التصرف في الأمور المهمة يكون بأمر الحاكم.

- لا حاجة لي بما قلت ولا أهمية له أصلاً، أريد منك معلومات أخرى. أخبرني عن أحوال الناس، هل يقدرون قيمة المعرفة؟ هل يرغبون فيها؟ وهل لكم طلاب في لندن والبلدان الأجنبية؟ وكم عدد المتبرمين من ظلم الحاكم، وما هي الحالة النفسية للشعب، و هل عندكم مدارس؟ وهل تعرضت المناهج للإصلاح؟ و ما مدى رغبة الناس في الحرف و الصناعة؟ أخبرني عن هذه كلها، كي أخبرك عن مستقبل نظام الدكن.

- المولوي أنوار الله: أنا لا أستطيع أن أخبرك عنها، وستتمكن من رؤية ما تريد بنفسك خلال يومين أو ثلاثة إن شاء الله، وتخبرنا عن مستقبلنا. لابد لي أن ألقي درسا في القصر هذا اليوم، وسأذهب بعد نصف ساعة، وستبقى هنا، وتطالع الكتب إن شئت، فأنا سعيد جدا لأنني وفقت في الحديث مع رجل مثلك، ونعاود الحديث في المساء، و أدعو بعض الإخوان، وأستودعك الآن. خرج ودخلت الغرفة التي أشار إليها سابقا.

إخلاء السبيل

وصل الخبر من بومبي، بأنهم سمحوا لي بالتجول داخل حيدر آباد، كما أخبرت بأنهم سحبوا عناصر الشرطة الذين كلفوهم بحراستي أمام باب

أنوار الله صاحب، ومع ذلك فلم أخرج من المنزل إنتظارا لعودة صاحب المنزل.

بعد المغرب حضرنا المأدبة التي أقامها أنوار الله صاحب، و كان هو في صدر المجلس، وحضرها سبعة أو ثمانية، وبدأ الناس في الأكل دون أن يسبقه تعارف بين الحاضرين. بعد قليل تكلم صاحب المأدبة باللغة الأوردية، فهمت أنه يعرف الحاضرين بي. فرد الجميع :آجه آجه، أي طيب طيب. ثم وجه كلامه لي بالعربية فقال: إنهم زملائي المدرسون والمعلمون في المدرسة النظامية..أبديت بدوري سروري وتشرفي بمعرفتهم، ولم يقل أحد شيئاً آخر أثناء الطعام.بعد الطعام، قدموا (البان) وبدأوا بالحديث. كنت في بداية الأمر مستمعاً، ولكن وجدتهم لا يتكلمون بشيء يمكن أن يكون فيه النفع، فبدأت الحديث في الآداب الإسلامية، وأبديت أسفي من انتشار الفساد الخلقي بين مسلمي الهند: تناول العلماء وأهل الوقار طعامهم في الطريق، وإدمانهم على البان، وغنائهم في الأزقة والشوارع بأعلى صوتهم، وعبادتهم لأحجار القبور، وعن أمور أخرى تغاير الآداب الإسلامية. بعد النقد الشديد واللاذع، إعتبرت أن المسؤولية الأولى في كل ذلك تقع على عاتق العلماء.

لقي كلامي استحساناً وتأييداً من بعض المستمعين، واستهجانا من بعضهم الآخر، وبعد مناقشة طويلة في اليوم الأول، حصل التعارف بيننا وتوطد الأنس. وعندها قال أحدهم"فإذا طعمتم فانتشروا " فقاموا، و قلت بأنني ضيف المولوي أنوار الله مادام باقيا في منزله، و دلوني على مكان أنام فيه، فبقيت تلك الليلة هناك.

حيدر آباد الدكن

هي مقر حكومة الأمارة المسماة بـ «نظام الدين» أكبر الإمارات الإسلامية في الهند، وكانت تعرف قديما «بانياغور» وفي القرن التاسع الميلادي سميت «حيدر آباد» تيمنا باسم سيدنا علي ﷺ. وكانت ولاية الدكن تتبع راجات «تلنكان» و«بيجابور»، وعرفت في فترة من الفترات باسم حكومة «كولكنده» وحكمها جنكلي خان المغولي في عام ١١٣٢ من الهجرة، وفي عام ١١٦٠ أعلنت استقلالها، وأخيراً صارت تحت حكم نظام الدين علي، وورث الحكم أبناؤه من بعده لذلك عرفت «نظام الدين» والقسم الأعظم من سكانها من البراهمه ويتكلمون اللغة التلكونية وقد انتشرت مؤخرا اللغة الأوردية انتشارا واسعاً. كان عدد سكان ولاية الدكن، قبل أن يستولي الإنجليز على ثلاثة أرباعها، خمسين مليونا، وانخفض العدد الى ثلاثة عشر أو أربعة عشر مليونا، ومع ذلك فان إمارة الدكن تعتبر من أكبر وأغنى الإمارات الإسلامية وأشهرها، ولها مكانة خاصة لدى الانجليز.

تقع مدينة «حيدر آبادج على نهر «موس»، ويبلغ عدد سكانها ما يقارب ثلاثمائة ألف، وهي ليست من المدن العامرة، ولا يتعدى عدد شوارعها اثنين أو ثلاثة، وليس فيها مكان ذو بال، لقد دمرت الفيضانات كل شيء. إلا أن الأمر الملفت للنظر هو أن سكان المدينة يراعون النظافة رعاية جيدة، وتشاهد رجال الشرطة في الشوارع وهم بحللهم الأنيقة، وهذه نقطة جديرة بالملاحظة. وقد علمت بأن السيول أغرقت المدينة، قبل قدومي إليها بعشرة شهور. وشاهدت بعض الأحياء مهدمة بفعل هذه السيول.

وبالرغم من كونها عاصمة ومقرا للحكومة، فإنك لا تجد فيها المباني الضخمة والمحاكم والدواوين، حتى مكتب البريد عبارة عن مبنى صغير، وليس لديهم ما يستحق التدوين والتسجيل.

المساجد صغيرة بشكل عام، وفيها عدد من الجوامع الكبيرة، وما هي بكبيرة. إن أكبر جوامعها إسمه «مكة جامع» وهو مسجد معمور، وبناؤه لا يعتبر من المساجد الكبيرة و لكن الساحة المكشوفة واسعة، تبلغ حوالي ألفي خطوة، وفي وسطها حوض كبير للماء، ويقوم فقراء الناس في هذا المكان بغسل ملابسهم.

أما مسجد«المدينة» فهو أصغر من سابقه، وهو كغيره لا يمتلئ بالمصلين، ولا يزيد عددهم عن الصفين، إلا في أيام الجمع حيث يجتمع في المساجد أعداد كبيرة، و هم يأتون من القرى المجاورة لأداء الجمع.

تجولت في كل أنحاء المدينة، ووجدت أن كل جوامعها غريبة، وتوجد في المدينة مكتبة صغيرة، غيها كتب جيدة، إلا أنني لم أجد فيها أثرا للحياة، ففي قرى سيبيريا مكتبات أحدث وأجمل من هذه المكتبة.

وإذا كان هناك شيء عال وأجهله فهو قصر الأمير، إنه واسع ومحاط بحصن حصين، وليس لأي أحد أن يدخله، إنه مقر ميت غير ذي روح، وجدير بنا أن نقول: إنه من الخارج دار عمران، إلا أنه من الداخل سجن خسران وبيت معصية وكفران.

وبعد تجول في كل أطراف حيدر آباد استغرق من الصباح حتى وقت الظهر، عدت إلى منزل المولوي أنوار الله صاحب يائساً ومنكسراً. وبعد تناول الطعام ذهبت لزيارة طلاب المدرسة النظامية بإشارة من المولوي.

المدرسة النظامية

أسفي على تلك «المدرسة النظامية» ألف مرة، ومهما بلغ الأسف عند الإنسان على حال تلك المدرسة فهو قليل، إن هذه المدرسة غير النظامية، التابعة لأمير معروف ومشهور في كل بلاد الهند، وفي أغنى الإمارات الإسلامية في تلك الديار، ولعلها المنبع الوحيد للعلم والعرفان، كيف أعرّفها؟، ذكروا لي بأنها كانت حظيرة للبهائم، وأكاد أقول بأنها لا تزال كذلك. عندما قدمت إليها، فكرت كثيراً، ولم أصدق بأنها مدرسة، قلت: لا يمكن أن تكون أكثر من حظيرة بشرية متينة البناء.

إن مبنى المدرسة النظامية، ذو أربعة جدران، ووسطها ميدان مفتوح، مثل الميادين التي نعرفها في مدارسنا، وحولها قباب، ولكن ليس فيها غرف، بل خزائن ملاصقة للجدار، يضع فيها الطلاب كتبهم وفرشهم ونعالهم وملابسهم وكل شيء يخصهم، فكل طالب يختص بخزانة. يقضي الطلاب نهارهم تحت القباب، أما في الليل فينتشرون في ذلك الميدان، ينامون فيه ثم ينهضون ويتلقون علومهم من مدرسيهم في نفس المكان.

إنها تعتبر عندهم بمثابة الجامعة، ولكنني لا أستسيغ بأي حال من الأحوال هذه التسمية. وعلى العموم فإن المباني في حيدر آباد هي الأخرى بسيطة، ومع ذلك فقد كان من المفروض أن تكون هذه المدرسة أحسن شكلاً. و يعد الطعام لهذه المدرسة من طرف القصر، وقد خصص له طباخون، والصحن اليومي هو الرز المسلوق و أدام حار يسمونه «دال» ولا أعرف كثيرا ما هو «الدال»[1]: فهو مركب من الفلفل والزنجبيل

---

(١) الدال هو العدس

والقرنفل وغيرها من التوابل الحارة، وإذا تناوله الإنسان دمعت عيناه من غير اختيار، ويحترق الفم عدة ساعات. وعلمت بأن الأرز يقدم باللحم مرة في الأسبوع، ومسلمو الهند يتحاشون عادة أكل اللحوم، ولعل ذلك بسبب الحرارة.

أما ملامح الطلبة فيمكنني أن أقول باختصار: إنهم مثل البشر البدائيين، ومن العبث أن تسأل عن فن خاص عندهم، ولباسهم هو كل ما يصلح لأن يتمرغ الإنسان به في التراب. إنه لأمر محزن حقاً أن لا يجد الإنسان الكلمات المناسبة التي يصف بها مدرسة هي أشهر المدارس في الدكن على الإطلاق. إلا أن التدريس جيد، وقد أعدوا طلابا لهم المقدرة والمهارة في العلوم العربية، وإذا قسنا ما يدرس في هذه المدرسة على الحالة العامة فإن التدريس فيها يكاد يكون ممتازاً ولكنني أضيف فأقول إن التدريس لا يتعدى العلوم العربية إلى غيرها من العلوم الحديثة. توجد في حيدر آباد الدكن مدارس أخرى، ولكن إذا كان الحال في المدرسة النظامية على ما رأيت، فلا حاجة لأن أزور المدارس الأخرى.

وبالرغم من عدم توفر المدارس في الهند في الماضي والحاضر، إلا أن أصول التدريس المطبقة في تلك الأماكن والجوامع جيدة، ولذلك برز منها علماء أفاضل تم إعدادهم فيها على أحسن ما يرام. والدعاة من أمثال المولوي عبد الحي وصديق حسن نشأوا في مدارس الهند. وقد شاعت بعض الاتهامات حول صديق حسن، و لكن تلك الاتهامات ليست إلا من قبيل الأمراض القديمة، فصديق حسن مسلم تقي متبع للشرع، ويتهم بالوهابية لمنعه الناس من عبادة أحجار القبور، ولجرأته في قول الحق والحقائق الإسلامية. لقد اقتنعت بعلو منزلة صديق حسن من عدة جهات، منها أنه لما سمع بخبر وفاة أكبر مخاصميه في أبواب العلم وهو المولوي

عبد الحي اللكنوي، إنعقد لسانه من شدة الحزن، وأغلق عليه بابه مدة ثلاثة أيام، ولم يسمح لأحد من أهله بأن يدخل عليه خلال هذه المدة؛ وكان يقول: لقد خيم الظلام على آفاق الهند، إن عبد الحي لم يمت، بل الهند هي التي ماتت، ليتني مت قبله، لقد بلغت من الكبر عتيا، وبقي على هذه الحالة النفسية السيئة مدة أسبوع، ولم يعد يكتب شيئا بعد عبد الحي، وعندما سأله مقربوه عن السبب، أجاب: لم يبق رجل يعي الكلام حتى أكتب. هذا التأثر والحزن، يرويه تلاميذ المولوي عبد الحي صاحب من قبيل الفخر والاعتزاز.

ومن مزايا المولوي صديق، زواجه بحاكمة بهوبال، وليس ذلك من الأمور التي تتيسر لأي إنسان، فقد كانت الحاكمة قبل زواجها من صديق حسن تركب الخيل وتتجول مع حاشيتها في الشوارع، لتفقد حال الرعية ولكنها بعد أن تزوجها صديق حسن منعها من الخروج، وأبلغها بأنه لا يحق لها الخروج من بيتها لأي أمر من الأمور إلا بإذن من زوجها، وأن هذا حق من حقوق الزوجية، ويأمرها بالطاعة، فنجح بحبس الحاكمة في البيت بأمر شرعي. ولا يمكن لأحد أن ينكر مزايا صديق حسن المتعددة، وإن اختلافه في الرأي مع العلماء العظام من خلال بعض مؤلفاته لا ينقص من قدره شيئا، لأن اختلاف الرأي مطلوب في كل زمان، وتكفير وتضليل أمثال هذا الرجل شطط بعيد، فقد يخطئ، والتكفير يغاير ما نعتقده أساساً. ومن يطلع على آثاره رحمه الله لابد أن يعرف قدره، وليس بمقدور أحد أن ينكر فضله في خدمة أمته

إن أكبر مزاياه وفضائله أنه توفي وهو في السجن، ولو لم يكن لهذا الرجل شأن عظيم لما حبسه الإنجليز. وحينما جاءته السيدة زوجته الحاكمة لتستفسر عن أحواله وهو في السجن لطمها في وجهها وقال: كيف

تخرجين من بيتك من دون إذني وأنا حي؟ ألا تخافين الله.إن هذه الحادثة دليل واضح على كمال إيمانه رحمه الله.

خلاصة القول بأن الهند التي لا مدرسة فيها أنشأت رجلا هو صديق حسن خان.

الفيلة

كما إن في الهند أنواع غريبة وعجيبة من النباتات فان فيها أيضا أنواع غريبة وعجيبة من الحيوانات. وإذا أثبت العلم بأن الحيوانات المتوحشة يمكن أن تروض، فان الفيلة هي أكبر مثال على ذلك. إن هذه المخلوقات الغريبة تكثر في جنوب الهند و جزيرة سيلان وولاية بيجابور، وهذه الحيوانات هي في الأصل من أشد الحيوانات وحشية، ومع ذلك فإنها لا تنجو من صيد الإنسان لها، وإذا كان هناك شيء يخافه الفيل فهو الإنسان. إن البشر هم الذين لا يعدمون وسيلة في خداع الفيلة والسيطرة عليها، ثم يستخدمونها مثل الحيوانات الأهلية الأخرى، وبعد أن تستسلم الفيلة لبني البشر وتروض، فإنها تستأنس بهم ولا تقصر في الطاعة إذا لقيت المعاملة الحسنة، ولكنها لا تتردد في الانتقام إن هي تعرضت للإذلال والمهانة. وقد سمعت في الهند حكايات كثيرة وغريبة عن هذه الفيلة، منها أن الفيلة الوحشية عندما تهرب من الصيادين أو من الوحوش الأخرى كالأسود والنمور تنتظم في صفوف، يتقدمها أكبرها سناً و تجتمع الفيلة الصغيرة و الضعيفة في وسطها، أما الفيلة القوية تكون في المؤخرة، وهكذا يهرب القطيع. وإذا أحست الفيلة بتعب صغارها قامت الفيلة الكبيرة برفعها على ظهورها بواسطة خراطيمها واستأنفت الهرب، ودخلت في غابات أكثر أمانا. إنها حريصة على توفير الحماية للضعاف منها. والتزاوج

بينها يكون في سرية تامة، وإذا رآها إنسان وهي في حالة التزاوج هجمت عليه وداسته بأرجلها حتى يموت.

وحتى بعد ترويضها فان الفيلة لابد أن تنتقم لنفسها ممن يضربها أو يذلها. ويروى بأن أحد مروضي الفيلة في قصر حيدر آباد الدكن، أهان أحد الفيلة، فعمد الفيل إليه وداسه تحت أقدامه فقتله، ثم إن زوجة الرجل القتيل جاءت بولديها ورمتهما تحت قدمي الفيل وقالت له: ومن الذي يقوم بتربيتهما بعد الآن؟ عندئذ ندم الفيل على فعلته، وبدأت الدموع تنهمر من عينيه، ثم رفع الطفل الأكبر على ظهره بخرطومه، وكأنه يشير إلى أنه رضي بأن يكون هذا الطفل سيداً له، فكان دائم الطاعة لهذا الطفل. وعندما التقطوا لي صورة وأنا على ظهر الفيل، ظهرت صورة ذلك الطفل وهو واقف إلى جانبه.

وأثناء إقامتي في حيدر آباد الدكن، ركبت أحد فيلة القصر، وكان معي الفيال والمولوي أبوالفدا صاحب، وهناك عرفت مدى طاعة تلك المخلوقات الضخمة لبني الإنسان.

المناطق المجاورة للدكن

في شمالي الدكن وعلى بعد ثلاث كيلومترات توجد مدينة إسكندر آباد، ومن الأنسب أن نسميها الحي الأوربي لحيدر آباد، ففيها ثكنات الجنود الإنجليز، وسكن الأكابر، و لقد حولوها إلى محل للسفه واللهو. فالسفه واللهو الذي يعيشه الإنجليز في اسكندر آباد لا يستطيع اللوردات أن يجدوها في لندن. والواقع أن أسعد الإنجليز هم الذين يقيمون في الهند، ثم في مصر و في الصين، وأتعسهم، الذين يعيشون في لندن، إلا أننا نقول أيضا، بأن الذين يعيشون في الهند أظلمهم.

تحيط بالدكن كثير من الآثار القديمة، وكهوف للفيلة، ولعدم معـرفتي بمثل هذه الآثار، فإنني مهما كتبت عنها فستكون عديمـة الفائـدة، لـذلك صرفت النظر عنها. أما في جهات (بونا) فيوجد معبد مشهور إسمه(آلوره) وكهوف أخرى، ويكاد يعجز الإنسان عن تقدير قيمة مثل هذه الآثـار. ولا أبالغ إذا قلت أن أكثر الآثـار القديمـة في الهنـد عبارة عـن دور للأصـنام ومعابد وكهوف، توجد في جميع أنحاء الهند أنواع كثيرة مـن الموزاييـك (الفسيفساء) والكهوف العجيبة تحت الأرض، ومساجد قديمة جـدا، إلا أنني لا علم لي بالآثار القديمة، لذا كنت أمر عليها وأقول: وعمروها أكثر مما عمرتموها. وإني لا أريد أن أثير شجوني فوق ما عليهـا مـن ألم، بـل أكتفي بالقول بأن الفرنجة إذا وجدوا عندنا آثارا قديمة نصحونا بالمحافظـة عليها، و يظهرون أنهم من محبي وعشاق الآثار القديمة، وما أن يـستولوا عليها، حتى يعملوا فيها النهب والتخريب، فكم مـن المعابـد والمـساجد حولوها إلى حظائر، أو أصبحت خرابا، و قليلون هم الذين يدركون هـذه الحقيقة. أما الذين يحسنون الظن بالفرنجة مـن متمـدنينا الـذين أعمـى الله بصائرهم، فإنهم لا يصدقون أن الفرنجة يحولـون المـساجد إلى حظـائر، ولا تكاد عقولهم تصدق أن الآثار القديمة أصبحت خرابـاً يبابـاً علـى يـد الأوربيين، ولو رأوا ذلك بأم أعينهم لسعوا لتأويله، فإنهم يتحاشون سـوء الظن بالفرنجة.

في مسجد «المدينة» بالدكن

في أحد الأيام كنت نائما في مسجد المدينة فجـاءني أحـدهم وقـال: ياغريب! يا غريب، فتحت عيني. فرأيت أمامي هندي قصير القامة سبق أن رأيته من قبل فقال:

هل ستسافر إلى الحجاز؟

- إن كان لي نصيب، سأسافر.

- وهل عندك تذكرة سفر؟

- لا أملكها حاليا.

- هل أنت بخاري؟

- نعم (والهنود يظنون أن كل الحجاج بخاريون)

لقد أخبرني هذا الهندي بأنه سيعطيني تـذكرة البـاخرة إلى الحجـاز. فهمت كلامه بعض الشيء، ومع ذلك سألته عما إذا كان يعرف الفارسـية. فقال: أعرف قليلاً. ومعرفتي هي الأخرى قليلة، ومع ذلك فقد جرى بيننا حوار طويل، ذكر الهندي خلاله بأنه رئيس قافلة الحج المعين من قبل نظام الدكن لهذا العام، وقد عرف بوجودي، فجاء يبحث عني، وأفهمني بأنني إذا رافقته في الطريق فانه سيعطيني تذكرة الباخرة مجانا. لقد كنـت أبحـث عن حل، فأرسله الله إلي. بعد أن جلسنا معاً بعـض الوقـت عنـد حـوض الماء في المسجد عرفت اسم رئيس القافلة هذا، إنه: المولوي عبد الرحيم صاحب. ولما كان حديث كل منا مقتـضباً، قمنـا وتوجهنـا معـاً إلى منـزل المولوي أنوار الله صاحب، كي نتفاهم بشكل مفصل. وفي منزل أنـوار الله صاحب، عرضت ما فهمته من رئيس القافلة على المولوي أنوار الله، لقد كان الموضوع الأساسي مفهوما بالنسبة لي، وبقي شـيئاً لم أفهمـه، وهـو موضوع الحجر الصحي. لقد أبدى المولوي عبد الرحيم رأيه في موضـوع الحجر الصحي، ولكنني لم أستوعب الأمر منه بسبب قـصوري في اللغـة الفارسية. ومهما كان رأي المولوي عبد الرحيم صاحب بعيدا عـن العقـل والموضوعية فإنني سأبين رأيه على النحـو التـالي. يقـول المولـوي عبـد الرحيم صاحب:

إذا كان الحجر أمراً صحياً، فلماذا يقتصر على المسلمين فقط؟ إن مئات البواخر تتجه كل يوم من بومبي إلى أنحاء مختلفة من العالم، ولم يطبق عليهم الحجر الصحي يوما من الأيام، فلماذا يطلب الحجر على حجاجنا، ليس هناك مرض أو وباء، ومع ذلك فالحجر موجود، أظن بأن أوربا تريد بذلك تنفيرنا من الحجاز.

(أردت أن أتكلم، إلا أن رئيس القافلة طلب مني أن أنصت إليه كي يبدي رأيه كاملا)، نحن أكثر من مليون مسلم، ولنا خليفة ولله الحمد، إن هذه المعاملات هي إهانة موجهة لدين المسلمين، ونوع من إظهار العداوة وإذلال للمسلمين أكثر من أن تكون تدابير صحية، هذا الأمر يستمر على هذا المنوال كل عام، ثم يأخذ شكل قانون طبيعي، ويكاد يكون الآن قانوناً طبيعيا، فإذا سكتنا وأذعنا لما يريدون فلا شك أن ذلك سيتحول إلى بلية عظيمة لا يمكن رفعها، وأرى أننا وقد تجاوز عددنا مائة مليون، لن نستمر في تحمل هذه الإهانة، ولنبدأ في المعارضة من هذا العام، لنرسل برقية لسلطاننا الخليفة، ونرسل برقيات إستنكار لدول العالم، ومنذ هذا العام سنكتب من مكة المكرمة باسم الحجاج إلى خليفتنا والى الدول، ونذكر بأننا لم نعد نتحمل كل هذه الإهانات، فإذا لم تسمع دول العالم لما نقول، فنحن أمة كبيرة، ولا بد أن نجد علاجا لما نشكو منه، وقد نختار الموت حفاظا على شرفنا.

أنا لا أنكر بأنه إذا ظهرت بوادر المرض، يبادر إلى اتخاذ التدابير الصحية، مثل التطهير والتبخير، كما إنه يجوز أن يكون المرض عاماً شاملاً، أما إذا كان الأمر منحصرا على المسلمين فلنا حق الرفض، إنني أتابع الموضوع منذ خمس سنوات، وتبادلت الرأي مع الأطباء المختصين في الحجر الصحي في الهند وفي الحجاز، و لاحظت عند الأطباء الأتراك

إهمـالا، وفي هـذه المـرة قـررت أن أسـافر إلى الحجـاز مـن أجـل هـذا الموضوع.وإلا فإنني حججت من قبل وأديت فريضتي، كما إنني حججت نفلاً عدة مرات، تقبل الله منا ومنكم، إنني كنت أتألم في كل مـرة، إنـني أعتبر الحجر إهانة دينية، ولا زلت على هذا الرأي منذ زمن طويل، واليوم وقد حدثت التبدلات في تركيا، فإننا إذا حركنا الموضوع فلن يتأخر سيدنا خليفة الله في الأرض عن مساندتنا، لذلك فإنني سأرجو منك بـأن تـسعى معنا لكي نجعله موضع البحـث، لنبـدأ بالعمـل، فـان لم يلـق القبـول، فسنلجأ إلى أفغانستان، وقد نضطر إلى الـذهاب إلى حـد إعـلان الجهـاد الأكبر.

والآن سأستمع إليك، فتفضل.

قلت: لا يمكنني أن أعطيك رأياً شافياً، إلا أنني أشاركك في بعض ما رأيت. إن الحج من أركان الدين، وإنه يعتـبر بالنـسبة للمـسلمين مرجعـاً سياسياً ومنبعاً للقوة شرع قبل ألف وثلاثمائة عام، ويخـشى الأوربيـون أن يجتمع المسلمون على يد رجل واحد منهم إن هم استعملوا عقولهم، إننا نعلم ذلك من الكتب التي ألفوها. ومع هذا فلا أقول بأن ما حل بالمسلمين ليسوا جديرين به، فلو فكرنا قليلا، لعرفنا بأن الله تعالى سلط علينا الكفار لأننا نستحق ذلك وأرى أن أقرب الاحتمال لهذه الحالة التي صيرنا الله فيها هي نوع من التربية.

إنني سأترك الأمر لتحكم عليه بنفسك: الحج فريـضة علـى الإنـسان مرة واحدة في العمـر، ولقـد أديـت فرضـك في المـرة الأولى جعلـه الله مقبولاً، فلماذا تطوعت للمرة الثالثة والخامسة؟ ستأخذ معـك ألـف فقـير نيابة عن الحاكم، فلماذا تأخذ هؤلاء؟ على من فرض الحج؟ أليس علـى الأغنياء؟ لا تجد في حيدر آباد الدكن كلها، وهي عاصمة الحاكم مدرسة

واحدة تعلم أبناء المسلمين أمور دينهم، أيجوز لك أن تصرف النظر عن هذه الفرائض وتشغل نفسك بالنوافل؟ إن الملايين من أمة الإسلام غارقون في الجهل، وجثمت المجوسية على صدوركم، وأنتم تتركون الفرائض وتفخرون بالنوافل، ثم ألا تستحقون مثل هذا الامتحان؟ أليس من الأفضل أن يصرف الحاكم خمسة وعشرين ألفا من الليرات لتعليم الفقراء من أبناء المسلمين؟

ستكون رئيساً لقافلة حج تعدادها ألف رجل، وهم لا يعرفون ما هو الإيمان وما هو الإسلام، ولا يعرفون أن النظافة من الإيمان، يحملون النجاسة، ويلوثون أقدس المقامات المقدسة في مكة بنجاساتهم، ألا نرى بأم أعيننا كل عام بأنهم يقضون حاجاتهم داخل المشعر الحرام الذي تستجاب فيه الدعوة بالنص الصريح، وحتى داخل المحراب؟ أيستطيع المرء أن يمر من المقامات العليا في جنة المعلاة بسبب نجاسات هؤلاء الفقراء؟

فلا حول ولا قوة إلا بالله. إذا بقينا على هذه الحالة، فلا بد أن يسلط الله علينا الكفار، وأن نخضع للحجر الصحي، وأن تصيبنا أكبر المصائب(أرجو عفوكم، لقد تكلمت كثيرا، ومع ذلك فقد قلت الحقيقة)

المولوي عبد الرحيم إنسان لا يأبى الحق، لذلك كنت أراه يبكي بكاء الأطفال، كما رأيت الدموع تنهمر من عيون المولوي أنوار الله صاحب. ومع ذلك فقد اتفقنا على بحث الموضوع في مكة المكرمة، وافترقنا، على أن نلتقي مرة أخرى في بومبي، بعد أن زودني المولوي عبد الرحيم بمؤونة السفر إلى بومبي.

علماء حيدر آباد الدكن

لم أجد في هذه المدينة من أهل العلم من يستحق الذكر عدا المولوي أنوار الله صاحب، وأئمة المساجد جهلة بشكل عام، والمدارس غير موجودة، لذلك فان الدراسة تكون في المنازل.

إن شهرة المولوي أنوار الله صاحب مردها إلى كونه مدرساً في المدرسة النظامية التابعة لقصر الحاكم. ووجود علماء منزوين أمر بعيد الاحتمال، فلو كان عندهم علماء لما امتد الجهل كل هذا الامتداد. انه لأمر مؤسف بألا تجد في مركز إمارة إسلامية ومقر للسلطنة عددا من المدارس الابتدائية، ودارا للعلوم ودارا للحديث ومدارس إسلامية عالية، يا إلهي ماذا أقول غير الأسف مائة مرة. لاشك أن فيها أهل علم ككل البلدان، ولكنني لم أجد فيها رجالا يستحقون أن يشار إليهم بالبنان، الشيعة فيهم بعض من ذوي الأفكار النيرة. ولكن غرهم تعصبهم، فليست لهم أية صلة بأهل السنة. والواقع فان شيعة الهند يعاملون السنة معاملة سيئة. وماذا يستطيع المرء فعله، سيئة دخلت الإسلام من قرون، و ليس لنا إلا أن ندعو الله بأن يصلح الحال. ومن جهة أخرى يقابلهم أهل السنة بالكره والنفور، وينظرون إليهم نظرة مذهبية، ولا يكادون يرون في الشيعة ميزات الإنسان المسلم الحقيقية، حتى لقد شاع بين الناس عند السؤال عن أحدهم: هل هو مسلم أم شيعي. إنها حالات سيئة، فلقد فتح التعصب والعناد جروحا في قلوب المسلمين لا تندمل. ومن الغريب حقاً ألا تجد من هذه العداوة شيئا ضد الكفار، كلا الطرفين لا يعرف من هو الصديق و من هو العدو.

العودة من الدكن

إن عودتي من الدكن جديرة بأن توصف بأنها مأساة و تدعو للأسف، و في الحقيقة إنه لاشيء يطربني في هذه الحياة مثل مخالفتي لأوامر الحكومات.

كان المعتمد العام في حيدر آباد الدكن يبدي الاهتمام بي ويتظاهر بتكريمي بين فترة وأخرى، و قال لي ذات مرة عندما لقيته: إخبرني حينما تغادر حيدر آباد كي أودعك، فلم أرد عليه حينذاك بشيء، وأخيرا عزمت على ترك المدينة و لم أخبر أحدا، واكتفيت بوداع أنوار الله صاحب وتوجهت إلى المحطة في طريقي إلى بومبي؛ وكان القطار جاهزاً، فركبته وانطلق.

وفي الطريق توقف القطار في محطة كبيرة، وفيها جاءني شرطي ودعاني لأن أتحول إلى عربة أخرى، فأجبت بأنني لن أتحول من مكاني أبدا، ثم جاء موظف إنجليزي وقال شيئاً مثل ذلك، فلم آبه له. وأخيرا دخل مقصورتي طفيلي وجلس قبالتي، أحسست بأنه من الشرطة السرية ولكنني لم آبه له و أشغلت نفسي بقراءة كتاب كان بيدي، كان الركاب يصعدون وينزلون في المحطات التي نمر بها و لكن هذا الطفيلي لا يتحرك من مكانه، وينظر إليّ بين الحين و الآخر، وأنا غير آبه به.

وبعد منتصف الليل وكانت الساعة تقترب من الثالثة وصل القطار إلى محطة بومبي وكان هذا الطفيلي في هذه اللحظة يغط في نوم عميق، بادرت بالنزول، وتابعت طريقي في الشارع الكبير متوجها إلى الحي الإسلامي، فلحقني ذلك الطفيلي عندما وصلت إلى محلات المجزرة، و كان الشارع هادئ جداً، فحاول أن يمسك بي، وهنا لكمته لكمتين أو

ثلاثة فانطرح أرضاً ورجع القهقرى وهو يطلق صفارته مستنجداً، أما أنا فدلفت في فندق شاه جهان القريب، حيث يقيم عمر أفندي .وبعد ذلك لم يرني ولم أره. هذا هو كرم الإنجليز لضيوفهم.

نحن الآن في بومبي

خلال وجودي في حيدر آباد الدكن تعرض رفيقي الياباني عمر أفندي لكثير من المضايقات، أخذوه إلى مقر الشرطة، وسألوه عن أشياء كثيرة، وطلبوا منه معلومات عني بصورة خاصة، كما سألوه عن سبب إسلامه، ولكنه قابلهم بكل برود، ورد عليهم بأنه غير ملزم بأن يطلع أحداً على شؤونه الخاصة، وقدم له مدير البوليس لفافة تبغ فرفضها.

وأخيرا بدأوا بمراقبتنا معاً، وبمضي الوقت تعودنا عليهم، وقررنا أن نتصرف بحرية أكثر. وذات يوم كنا في جامع «منارة مسجد» عندما جاء شرطيان وبدءا يضربان بعصيهما رجلا بلغ الثمانين، وكان هذا العجوز المسكين يتألم من الضربات ويحاول المقاومة، فبادرنا إلى التدخل وأنقذنا العجوز من يد الشرطيين، ورافقناه الى مديرية الشرطة لنشكو ظلم الشرطة له، وتعجب الشرطة من دفاعنا عن هذا العجوز، كما تبسم المدير ابتسامة خفيفة وقال: إن رجالنا يعرفون مهمتهم، ولم يكن مستعداً أن يحاورنا، متذرعا بانشغاله بأمور أخرى.

أما نحن فخرجنا من هناك متوجهين إلى مقر جريدة «بمبن» وشرحنا لمدير الجريدة الحادثة، مؤكدين على أنه من غير الجائز أبداً إن يعتدي الشرطة على إنسان في بيت من بيوت الله، فأكرمنا مدير الجريدة وقدم لنا البان، وأعرب عن مشاركته في شعورنا وتأثرنا ولكنه اعتذر بعدم إمكانية كتابة حرف واحد في هذا الموضوع.

قلت: أين حرية المطبوعات يا رجل؟

- يا سيدي، إنني مستعد أن أكتب أي شيء تريدونه ضد النواب و الراجات، كما يمكننا أن نكتب ما نشاء ضد المذاهب والأديان أما الكتابة ضد الحكومة الإنجليزية فتعتبر تدخلا في شؤون البلاد فتنطبق علينا المادة ١١١ من قانون العقوبات التي تنص على إبعادنا من البلاد دون محاكمة، كما قد ينالك شيء من العقوبة. عجبت كثيراً من ذلك وقلت: لقد أبديت مثل هذا الكلام في مديرية الشرطة.

قل ما بدا لك فلن تخرج بنتيجة، لن يسمعوا لك ولن يأخذوا بقولك. إن حقوق الأمراء وحقوق الأعيان في هذا البلد غير مصونة، فكيف بحقوق الفقراء، إننا لم نعد نتأثر بمثل هذه الحوادث. إنك تقول بأن درويشا تعرض للضرب في مسجد، ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً إذا تعرض ضابط محلي للإهانة، لذلك فلن تجد أحداً في هذا البلد يفكر بما تفكر به، لقد تعودنا على الأسر واستأنسنا به.

منصرون في جامع عمر كهار

وخلال وجودي في بومبي كنت أتردد على الجامع المذكور، وأزور الإمام والمدرس، وعلمت من الإمام أن المدرس شاب له أفكار خاصة في توحيد المذاهب والجامعة الإسلامية، ويملك معلومات جيدة، فهو رجل قوي الحجة، وواسع النشاط وذو مكانة لدى الشيعة الاثنى عشرية، إنه جدير بالاحترام. وكنت أزوره بين الحين والآخر. وذات يوم كنت في جامع عمر كهار عندما رأيت المدرس مع رجل غريب، وبعد السلام جرى حديث مع المدرس، فسألته عن أخبار الصحف، وحصلت منه على بعض المعلومات. وبينما كنا مسترسلين في الحديث تدخل الرجل الذي بجانبه

وقال: إن بين السنة والشيعة أمور لم تحل، ونريد أن نسمع رأي الضيف في مسألة الإمامة، وفي وصية الغدير وغيرها من الأمور.

كنت أفكر في منظر هذا الرجل، فسألته من أنت:

قال: أنا بروتستانتي هندي، درست المذاهب الإسلامية، وأوليت اهتمامي في الخلاف بين السنة والشيعة، وأريد أن أعرف رأيك في هذا الموضوع.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- هل يمكن توحيد هذه المذاهب؟

- ليس بين المسلمين إختلاف في أساس الدين، فأصول الدين عندنا واحدة، فإذا ورد سؤال ما هو الإيمان؟ ما هو الإسلام؟ فسيكون جواب السني والشيعي واحداً، فكما أن السني مسلم فالشيعي أيضا مسلم، وعليه فإنهما واحد. فهل هناك معنى لتوحيد الشيء الواحد؟ وسنتحد معكم إن كان ذلك ممكنا، فأهم مسألة في القرن العشرين، عصر الحضارة هي المقارنة بيننا وبينكم، إذ ليس بين الشيعة والسنة خطر أو رأي يتناقض مع الإنسانية، أما التوفيق بين النصارى والمسلمين فهو أكبر خدمة للإنسانية، فان وجهت إهتمامك إلى هذه الناحية، تكون قد قدمت أكبر خدمة لعالم الحضارة، لأن الخلاف الحالي بيننا وبينكم (أي الخلاف بين المسلمين والنصارى) سيكون سبباً في إراقة كثير من الدماء (والعياذ بالله) وسنغرق الكرة الأرضية بالدم، هذا شيء مؤكد. فإذا أردت أن تخدم الإنسانية وتوحد الناس، فلنرفع أولا الخلاف الذي بيننا، هذا أهم، ونفعه يعم الإنسانية كلها. نحن نقول بأن الله واحد. وأنتم تقولون بأن الله واحد، ثلاثة، والثلاثة واحد. لقد فكرت في هذا الموضوع كثيرا، وبحثت فيه طويلاً ولكنني لم أفهم هذه النقطة بأي شكل من الأشكال، فأرجو أن

تشرح لي ما خفي لي، لتظهر الحقيقة ويحق الحق، إذ كيف يصير الواحد ثلاثة، وكيف تصير الثلاثة متلازمة بواحد لا يمكن التفريق بينها. تقولون في كتب عقائدكم بأن أياً من هذه الثلاثة غير قابل للانفصال عن الآخرين.

أولاً: إن اليهود عندما قتلوا عيسى الذي هو أحد الثلاثة، فهل مات الثلاثة معاً؟ أم مات عيسى وحده، فانفصل عن الآخرين وبقي الإثنان على قيد الحياة؟ وإذا مات عيسى فذلك يعني أن عيسى إنفصل عن الآخرين، مع أن أساس إعتقادكم يقتضي عدم إنفصال أحدهم عن الآخرين.

ثانيا: عندما قتل الأعداء اليهود هذا الابن العزيز، فلماذا لم يحم ذلك الأب إبنه، إذا كان ذلك الأب قادراً قدرة مطلقة؟

ثالثا: وإذا قتل هؤلاء الثلاثة، فمن أحياهم بعد ذلك؟ وفي تلك الفترة التي كان فيها الثلاثة ميتين، فمن كان يسير العالم؟ أم هل بقي العالم في تلك الفترة من دون إله؟

فإذا وجدت حلا لهذه المسألة وأفهمتنا وشرحت لنا بالأدلة المعقولة فأنا مستعد في كل وقت لقبول الحقيقة وبكل سرور. فواجبنا أصلا البحث عن الحقيقة والوصول إليها. إن ما يقبله العقل السليم نقبله ونتوحد به بكل سرور. وإذا كانت لديك شبهات في أساس ديننا، فبينها لي حتى أقنعك عن كل الجوانب بالأدلة العقلية، ولن أتردد في ذلك أبداً. (عندما رأيت هذا الرجل البروتستانتي لأول مرة مع أحد الملالي المسلمين توقعت أن يكون من المنصرين، فبادرت إلى هذه الاعتراضات، وكانت في محلها).

حاول الرجل أن يقطع حديثي عدة مرات قائلاً: لنبدأ في حل المسألة التي وضعناها على بساط البحث وهذا يتفق مع أدب الحوار، ثم نأتي بعدها إلى الأمور الأخرى، إلى غير ذلك من الكلام.

قلت: الأهم فالأهم قاعدة كلية، إن قضيتنا مع الشيعة قضية تخصنا وحدنا، فهي من الأمور الخاصة، إلا أن الوحدة معكم أحسن وأهم وأكبر و هي واجب مقدس نقدمه للإنسانية، فلماذا نهمل مثل هذه المسألة المهمة. أجبني على هذه الأسئلة الثلاثة، وأقنعني بالأدلة التي يستوعبها عقلي، ولا أريد منك شيئاً آخر، ولن أتردد في صحة لاهوتية و ناسوتية عيسى المقتول، وأعدك وعدا قاطعاً بألا أعترض على الأمور الفرعية.

ـ لكي تفهم وتدرك هذه المسألة، أي مسألة التثليث (كيف يصير الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا) يجب عليك أن تنظر إليها من وجهة نظرنا، تجرد أولا من الاعتقاد الذي في قلبك، أخرج العقيدة القديمة من قلبك، ثم ناقش الأمر.

- كيف تطلب مني أمراً لا أقدر عليه، كيف أخرج من قلبي شيئاً ترسخ بأدلته فاقتنعت به قناعة تامة؟ هذا غير ممكن. أما إذا شرحت لي الموضوع بأدلة أهم وأقوى، وأقنعتني، فسأضطر مرغماً لأن أتجرد من عقيدتي القديمة، وسأفهم الحقيقة الجديدة، والقديم إذا كان باطلاً فسيزول، إشرح لي الموضوع، وكن على ثقة بأنني إذا فهمت الموضوع فسأنظر إليه من وجهة نظرك.

- انه يستغرق وقتا طويلا، فكيف أقنعك خلال وقت قصير.

- تعهد لي بشرح الموضوع، وأنا أجد الوقت الكافي، فلدي متسع من الوقت، يمكنني أن استمع إليك عدة أيام، وستنال الأجر من الله، وستظهر الحقيقة.

- سآتيك غداً، لقد سعدت بك كثيراً، انه أمر مهم حقيقة، ولكنني في هذا اليوم مشغول ببعض الأمور (قالها وهو يهم بالذهاب)

- أين نلتقي غداً، والى أين ستأتي، سأكون في المكان الذي تحدده وبكل سرور.

- لنلتقي في غرفة المولوي صاحب، وسآتي بخير، استودعك الله.

وذهب.

ذهب جناب المستر، وبقينا أنا والمدرس الذي كانت ملامح السرور على وجهه حينما قال لي: لقد سررت من حديثك سروراً عظيماً، إنك كنت مصيبا فيما قلت، وكان قولك نصراً كبيراً لنا، فهذا الرجل منصر، ديدنه الإيقاع بين السنة والشيعة، و إلقاء الفتنة بيننا. و في واقع الأمر إن هذا الرجل عميل سري للحكومة، يهدد كل الناس، ويعامل علماؤنا بصورة خاصة معاملة سيئة، فلو اعترضنا عليه في مثل هذه المسائل بادر إلى تهديدنا بأننا نسب الحكومة، فالنصرانية دين الحكومة، والكلام ضد النصرانية يعني الكلام ضد الحكومة، فلا يلبث أن يسكتنا. كان اعتراضك عظيماً جداً، وقد أنقذتني من شره بعض الوقت.

كن على يقين بأن هذا الرجل لن يأتي، ولو جاء، فانه سيحاول مغالطتك بالتزامه للمذهب الآرياني، فقد كان في النصرانية قديماً مذهب اسمه المذهب الآرياني، وقد اضمحل الآن، فهؤلاء يقولون بأن النصرانية تتضمن التوحيد أيضاً، وأن المذهب الآرياني نصراني وموحد، والحكومة الإنجليزية تساعد الداعين إلى هذا المذهب، وتدعمهم بالمال، فالحكومة تؤيد هذا المذهب لسبب لا نعلمه، وهذا أمر مهم لنا.

- أظن بأن ما تسميه بالآرياني، هو مذهب آريوس، إذ ظهر في أوائل القرن الرابع من ميلاد عيسى، وقد اشتهر المذهب لبعض الوقت ولكن علماء النصرانية أجمعوا في «صوبرانيا ازنيق» على لعنة صاحب هذا المذهب، فكيف يكون هذا المذهب مذهباً نصرانياً؟ فمهما بذلت الحكومة

الإنجليزية من جهود فلن تقدر على إقناع النصارى بمذهب أجمع علماء النصرانية على لعنه، ولا يمكن للحكومة الإنجليزية أن تقول عن مذهب مردود في نظر علماء النصرانية بأنه معقول ومقبول، ولا يمكن أن يجتمع التوحيد والتثليث في مكان واحد.

- أرجو أن تأتي إلى غرفتي غداً، فهو لن يأتي، سنتحدث معا.

- سآتي بكل تأكيد، وسأشرح مذهب آريوس بكل تفاصيله. ستأذن المدرس ليذهب إلى عمله، فافترقنا، وأمضيت اليوم التالي في غرفة المعلم، ولم يأت ذلك الرجل، وبعد يومين أرسل بطاقة باسمه يعتذر عن عدم الحضور متذرعا بمرض ألم به. وانتهت المسألة بهذه الصورة ولم أعد أراه بعد ذلك، وعرفت فيما بعد بأن المنصرين كانوا يستغلون هذا المدرس المسكين في محاولة منهم للاطلاع على أحوال المسلمين، ويناقشونه بين فترة وأخرى في مثل هذه المسائل. وفي تلك المرة جاء ذلك المنصر ضيفا على المدرس، فاصطدم بي بمحض الصدفة، وأرى أن المدرس سر مما كان بيننا من حديث سرورا عظيما.

المنصرون في الهند

يكثر هؤلاء الهوام من خدام النصرانية في الهند كعادتهم في بلدان العالم الأخرى، وأينما ذهبت في الهند تجد هؤلاء الملعونين من الهوام الذين استغلوا تساهل المسلمين والمجوس على حد سواء، كي يندسوا بين مجتمعاتهم ويبدءوا في ترويج بضاعتهم، وتجارتهم معروفة، إنها تجارة الدين والمذهب، بهما يبيعون ويشترون.

وحيثما وجد تجمعاً للهنود، عمد المنصرون إلى استئجار دكان أو متجر، جاءوا ببضع نساء إفرنجيات، وسيدات أنيقات، وباعوا فيها النصرانية لمن يشتري، إنهم يتناوبون هناك على إلقاء المواعظ ويدعون الهندوس والمسلمين إلى النصرانية.ولا أدري ما هي مهمة هؤلاء السيدات؟

وإذا وجدوا فرعاً لوكالة بواخر تبيع التذاكر للحجاج، إستأجروا عندها محلا لمدة محدودة لا تتجاوز عدة أيام و بمبلغ كبير، أو أخذوه عنوة، وبدأوا بإلقاء المواعظ كلما تجمع عدد من الناس، وكالوا المديح للنصرانية والقدح والذم بالإسلام، والكل يستمع دون أن يعلق على ما يقال.

ولو قام علماء الهند بمواعظ هناك لكان خيراً لهم، ولذلك لا تجد هناك أحداً منهم. حاولت أن أتصدى لهم وأتكلم هناك ولكن للأسف، فان المستمعين من العوام كانوا كالهوام لا يمكن أن تفهمهم شيئاً. هناك بعض المشايخ الذين يعرفون اللغة العربية وكنت أقول لهم: لنذهب معاً، أنا أتحدث بالعربية وأنتم تترجمون إلى لغة الهنود، وتحدثنا مرة أو مرتين بهذه الطريقة إلا أننا لم نصل إلى النتيجة المطلوبة، أي أننا لم نستطع طرد المنصرين، إذ لا يؤثر الكلام إذا كان الحديث بلغة غير لغة أهل البلد، ومع ذلك فقد اعترى أحد المنصرين القلق في إحدى المرات واعتذر لنا كثيرا.

والمنصرون يعملون في الهند بكل حرية، يتكلمون ضد الآخرين، بل ويشتمون البراهميين.

وقد وجد بين علماء الهند قديماً وحديثاً من يتصدى بقلمه للمنصرين. وسمعت بأن هناك مؤلفات عظيمة كتبت بالعربية والفارسية والأوردية،

وبعضها كتبت من قبل مدققين عظام مثل: «الباكورة الشهية في الروايات الدينية» مطبوع في لايبزغ، «البراهين السباطية» طبع في كالكاته بالهند قبل تسعين عاماً وكلا الكتابين من النوادر، وتجدهما في المكتبة العامة بالهند، ووجدت مثلهما كتبا أخرى مهمة وهناك كتاب اسمه «لسان صدق» إلا أن أكثر دلائله نقلية، فهو غير مهم إذا قورن بالكتب الأخرى. واليوم تشكلت في مدينة لاهور جمعية إسمها «انجمن حمايت إسلام لاهور» هدفها الرد على أهل الكفر والضلال بالقلم.وفي الفترة التي كنت فيها هناك قام أحد علماء المجوس بمعارضة سورة الرحمن، متحدياً الآية الكريمة: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾، كما وجه بعض الافتراءات على كلام الله، فقامت الجمعية المذكورة بالرد على ذلك المجوسي الذي يظن في نفسه بأنه من البشر فكان رداً عظيما في الصفحة ٢٨٦ من المجلد السادس والعشرين من أنجمن حمايت إسلام. إن الرسالة المذكورة كتبت بلغة اوردية خالصة، وتتعلق بأهل الهند ولكنها تشرف المسلمين في كل مكان وتوجد في كل أنحاء الهند مؤسسات وأنشطة أخرى، ولكن أشهرها وأكثرها شعبية هي «انجمن حمايت إسلام لاهور». ولاهور مدينة شهيرة تتبع ولاية البنجاب، ويسكنها قرابة مائتي ألف نسمة، ومسلموها ميالون للتقدم والتطور من جميع النواحي، وهي مدينة عامرة وغنية بالآثار القديمة. ويروى أن في هذه المدينة بعض الآثار النبوية مثل العصا المباركة وعمامة الرسول وعمامة تنسب إلى علي ﷺ، انهم يعتقدون بصحة ذلك والله أعلم بدرجة الصحة والثبوت.

إن جريدة «بيسه أخبار» اليومية هي من أشهر الصحف الهندية وتصدر في لاهور، كما تصدر فيها كثير من المجلات الأسبوعية والشهرية والرسائل، وفيها مقرات العديد من الجمعيات مثل:جمعية انجمن حمايت

إسلام، وتقسيم انعامات، واسلامية كالج، ومؤتمر الأنصار، وكلها جمعيات نشطة. كما فيها العديد من الآثار الإسلامية القديمة مثل المساجد والأبنية و فيها حديقة رائعة تنسب إلى شاهجهان.

المجوس في الهند

ذكرت فيما سبق بأن المجوس يختلفون عن بعضهم البعض باختلاف مذاهبهم، كما أنهم مشتتون بأخلاقهم وطبائعهم، وإذا أراد الإنسان أن يطلع على أحوالهم إطلاعاً كاملاً فعليه أن يقوم بتضحيات جسيمة. إنهم ينقسمون إلى عبدة النار (البارسي) ويسمونهم أيضا بالإيرانيين، وبرهمان وزرادشت ورامجان وكراشن ونيوك وتانه وشوليك وبوذيين وغير ذلك من المذاهب المتشعبة.

وأتباع البارسي متمدنون و نظيفون في مظهرهم، ويفخرون بأزيائهم القومية، ولا يمكن معرفة أسس وفروع مذاهبهم لأن عقائدهم تحتم عليهم المحافظة على أسرار مذهبهم ومنع الأجانب من دخول معابدهم.

أما البراهمه فأحسن شيء يتقرب به الإنسان عندهم هو الابتعاد عن المال وكل شيء يخص الدنيا والانزواء للتفكر والعبادة، وأن روح البشر هي الإله، وأنها تنتقل من جسد إلى جسد، لذلك فان مذهبهم يحتم عليهم عدم الإضرار بأي مخلوق ذي روح، وإن الأخوة لا تنحصر مع البشر فحسب بل يجب النظر إلى كل ذي روح نظرة أخوة، وعدم الإساءة إلى من أساء، بل يجب مقابلة الإساءة بالإحسان. ولهذا المذهب شعب وفروع كثيرة لا يمكن حصرها وتعدادها ولكنها تتفق في أن القوى في أساسها تنتمي إلى قوة واحدة.

أما زرادشت فقد جاء بعد براهمن خضر المذهب البراهمي نسبيا ونسب الألوهية للحرارة والضياء وللزرادشتية كتاب يسمونه بالكتاب المقدس، ويعتبر الرامجان والكراشان من فروع هذين المذهبين. وبشكل عام فان المجوسية تعني تعدد الآلهة وأن كل اله عبارة عن قدرة يمكن تخيلها على شكل إنسان، والهنود يقدسون كل قدرة طبيعية.

ولأتباع كل مذهب علامات مميزة على جبهاتهم تميزهم عن بعضهم كما يميزون أتباع مذاهبهم عن أتباع المذاهب الأخرى في حالات اللقاء غير المقصود، أو لإجراء الطقوس الخاصة لموتاهم، فتكون هذه العلامات على شكل ثلاثة خطوط مثل(III) أو (= ثلاثة خطوط متوازية)، والميت الذي يحمل هذه العلامات تحرق جثته، وينثر رمادها في نهر الغانج. أما جثة من يحمل علامة ٥ فلا تدفن ولا تحرق بل تصير طعاما للطيور. ومنهم من صبغ كل وجهه بأنواع من الصبغ، نقاط بألوان متعددة، وبعضهم صبغ جبينه فقط، كل هذه علامات مميزة للمذاهب. وقد تعددت العلامات بحيث صار الأمر يختلط على أتباع المذهب الواحد. هذه هي المعلومات التي أمكنني الحصول عليها، ولم أتمكن من إجراء مزيد من التحقيقات نظراً لأن ذلك يتطلب دعماً مادياً ومعنوياً.

المستوى الأخلاقي عند المجوس

أشد المجوس تعصباً هم في إقليم البنجاب و في دهلي ولكنو، أو على الأصح في شمال غربي ووسط الهند، في جهات مرهت وهم يعادون المسلمين. وأشرف المسلمين هم الموجودون في جهات سهارنبور ورامبور ولكنو بشكل خاص وهم محرومون من التجارة والصناعة، يشترون حاجاتهم اليومية من المجوس، فالبقالون وبائعو الحلاوة من

المجوس، ومستهلكوا الحلاوة هم المسلمون، والمسلم عندما يأتي لشراء سلعة، فان صاحب الدكان يمنعه من دخول دكانه، ويعامله المجوسي كما يعامل المصاب بالكوليرا في المحجر،

يقوم المسلم بتقديم نقوده من بعيد بوضعها في آنية ممدودة بنهاية عصا طويلة، وبعد أن تصل النقود إلى يد صاحب الدكان يضع السلعة المطلوبة في تلك الآنية ويمدها كي يأخذها المسلم، وعلى المسلم حين يتناول سلعته ألا يلمس تلك الآنية. إن المسلم المسكين يتحمل مثل هذه المذلة مرغماً.

كما إن المجوسي إذا صادف مسلما في الشارع، يرفع رأسه وينظر نحو الشمس، ثم يبادر ليكون بين المسلم وبين أشعة الشمس كيلا يقع ظل المسلم عليه فيلزمه حينئذ الغسل في نهر الغانج كي يتطهر. أمر عجيب حقاً، هذا هو المستوى الأخلاقي عندهم .

أما في جهات البنغال فالمجوس وهم من أتباع نفس المذهب لا توجد عندهم مثل هذه العداوات أبداً، بل يظهرون مزيداً من الاحترام للمسلمين،كما إن تربيتهم الخلقية ممتازة، وأكثرهم من أتباع مذهب الكرشنا الذي ظهر قبل ثلاثمائة عام من ميلاد المسيح عليه السلام. إن أتباع هذا المذهب يعتقدون بأن الله يحل في كل شيء، وخاصة في الخنزير (والعياذ بالله) وكل قوة فيها ألوهية، وكل مولود ينسب إلى الله، وكل المخترعات الجديدة مقدسة، وكلها أجزاء من الله، لذا فإنها مقدسة، جهاز إرسال البرقيات، والقطارعند اختراعها إعتقدوا بأنها من الله وأن الله حل بها، ولذلك كان الهندوس في بداية الأمر يسجدون لأعمدة البرق وللقطار، وكلما ظهر اختراع جديد سجدوا له بعض الوقت، والكرشنا يقدسون البقرة أحياناً ويركبونها أحياناً أخرى،

ويسمونها بأم البشر، ولذلك فان الهنود يقدسون البقر حتى يومنا هذا. إن أوفر الأبقار حظاً تجدها في الهند، ففي أكبر مدن الهند، بل في العاصمة كلكتا و في أحسن شوارعها وعلى أرصفتها تشاهد أبقارا متمددة تكاد تنفجر من كثرة لحومها وشحومها، وحرارة الجو تصل إلى أربعين درجة، فيتعين على الإنسان أن يتحاشى أشعة الشمس ويحتمي بالظل، ولكن يجد الأبقار في كل مكان أمام أرقى المحلات التجارية ويشعر المرء بأنه في سوق البهائم. إنه ليس بمقدور أحد أن يقول شيئا أو يزحزح بقرة عن مكانها، وتتظاهر الحكومة باحترام العقائد الدينية. وخلاصة القول، إن أكبر سيد في الهند هو ذلك الحيوان، وعلى الإنسان أن يفسح له المجال.

وهناك العديد من الاعتقادات الغريبة والروايات الغريبة التي لا يقبلها عقل أو منطق عن هذه الأبقار. وبالرغم من أن تقديس البقر ليس من أركان الدين أصلاً، إلا أن الغلو رفع مقام ذلك الحيوان في تلك القلوب النجسة[١].

ومن الطبيعي أن كل هذا التشتت المذهبي في الهند يتفق مع سياسة الإنجليز، فهم مرتاحون جدا من هذا الوضع، حيث أن كل المنازعات بين الهنود تصب في مصلحة الحكم الإنجليزي، والتعصب

---

(١) وهذه الحالة طبيعية عند الناس، فالعمى يجعلهم يتعبدون البقر والحجارة، وإذا اعتبرنا أن عبادة بعض المسلمين لأحجار القبور مقدمة لمثل هذا الضلال ونتيجة للجهل، لتأكدنا من تعدد الطرق والوسائل التي يسلكها الشيطان (والعياذ بالله) لإضلال البشر. ولو أن كل الأحجار التي وضعت شواهد للقبور في أحياء استطبول استخدمت أحجاراً لرصف الشوارع، لكانت صدقة جارية يصل أجرها وثوابها إلى أرواح أولئك الأموات (ولما تعثرت أقدام الناس تلك الأحجار التي نقشت عليها الآيات). ثم إن القباب التي ضربت على قبور الأبطال، لو استعملت تكاليف إنشائها لرصف شوارع جديدة لردت عنهم سيئاتهم ولكن إفهام الناس بمثل هذه الأمور صعب للغاية، وقد أصبحت قبة القبطان باشا مزاراً للحجاج المسلمين، وكان قبل خمس سنوات فقط ينهب الناس. أنه لأمر غريب حقا، حتى الناس الذين يدعون بعدم الإيمان بشيء، يؤمنون بأحجار القبور.

المجوسي يلقي ترحيباً إنجليزياً، بل ودعما ماليا لأكثر أصحاب المذاهب تطرفاً، ولذلك فان عدد المذاهب في تزايد مستمر.

وقد ظهر تعدد المذاهب بين المسلمين أيضاً ولكن في نطاق أضيق: البابيون والقاديانيون، والوهابيون والأغاخانيون وأهل الحديث،كل هذه المذاهب كانت تلقى ترحيبا ودعما من الإنجليز.

الدين الإسلامي في الهند

ليس من المناسب كتابة مثل هذا العنوان ولكنها عبارة مألوفة لدى المسلمين، لذلك فان الحديث عن تدين أهل الهند ومدى تمسكهم بأحكام الدين أمر لا يخلو من فائدة

ومما لا يمكن نكرانه هو إنتشار عدم المبالاة بالدين بين المسلمين في الفترة الأخيرة ولكننا سنأخذ العوام من الناس مقياساً لدرجة اهتمام الهنود بتطبيق أركان الدين. وإذا قارناهم بقومنا التتار في روسيا من حيث إقامة الصلاة، فقد نجد أن عدد المصلين في الهند أكثر من عدد المصلين هناك. أما من ناحية الصوم، فتنخفض نسبة الصائمين في الهند إلى خمسين بالمائة. وفي المدن تجد كثيراً من الرجال لا يصومون، أما في القرى فالصائمون عموماً أكثر .أما في روسيا فإلى زمن قريب ما كنا نجد أحداً لا يصوم، وبعد عام ١٩٠٤ ظهر بعض الشبان الذين لا يصومون و لكن عددهم لا يزيد الآن عن ألف. وأعتقد أن إهمال الصلاة بين مسلمي روسيا يعود إلى برودة الجو، فليس من السهل الوضوء في جو درجة حرارته تصل إلى ثلاثين تحت الصفر، وليت علماؤنا رخصوا في مسألة التيمم بتوسع كما هو الحال عند العرب، إذا لكنا نجد مسلمي روسيا أكثر

إهتماما بالصلاة مما هم عليه الآن. أما في الهند فالمياه جارية في كل مسجد والجو مناسب، ويتمنى الإنسان أن يغتسل باستمرار. إن هذا هو السبب الذي يجعل اهتمام الهنود بالصلاة أكثر، أما بالنسبة للصوم فأكثر الهنود لا يكترثون به.

وهناك نواح أخرى كثيرة في الدين الإسلامي لا يهتم بها مسلمو الهند، ليس العوام فقط بل حتى الخواص من العلماء فهم يطبقون بعض بقايا العادات المجوسية، أو إنهم يتجهون نحو المجوسية. ومنها حفلات الزواج، فحضور المغنيات والراقصات والمومسات صار أمراً عادياً، لا ينكره حتى كبار العلماء، بل يقوم بمثل هذه الولائم العلماء أنفسهم. فالمولوي عبد الباري صاحب وهو من أكابر علماء لكنو أقام وليمة لزواج أبنائه، فدعا مثل تلك النساء إلى بيته، ونفذ هذه العادة المجوسية بنفسه.

كما إنهم في كل يوم أربعاء يزورون مرقد أحد أولياء الله في لكنو، وعموم علماء لكنو يحضرون هذه الزيارة ولا ينكرونها، وتزين المغنيات بداية الحفل بخلاخيلهن و جلاجلهن، ثم يبدأ الذكر والتلاوة وغير ذلك من المشاهد المنكرة. أما مسلمو روسيا، فإن العوام والفساق إذا أرادوا القيام بمثل هذا فانهم يستترون، كيلا يراهم أحد،

فإذا قسنا الأمور الدينية في الهند على هذا المنوال فليس هناك ما يسر و إن ما يجرى هناك برضى واستحسان العلماء، قد يتحول بعد جيلين إلى شكل من أشكال العبادة.

ومن جهة أخرى فإن هناك أحوال طيبة جدا تقوي من الآمال، إنهم يضحون بالكثير من أجل الإسلام، فالمساعدات السخية التي قدموها من أجل الخط الحديدي الحجازي، والأموال التي يصرفونها على إعمار المساجد وأمور أخرى كثيرة ومستحسنة، قد لا نتصورها لدي مسلمي

روسيا. بعد كل ما ذكرت يمكن للقراء الكرام إجراء المقارنة والتوصل إلى النتيجة المطلوبة.

إحراق الميت

إن إحراق الميت لدى المجوس لا علاقة له بأساس الدين عندهم، بل هو عمل وحشي نسب إلى الدين فيما بعد، ولا أجد لذلك معنى أو تصوراً سوى أن الشيطان عليه لعنة الله قد استخف بعقول الناس، فيسيرهم كيفما يشاء. ومن الغريب حقا أن كل أمة تعتبر مثل هذا الجنون من مقتضيات الدين.

وإحراق الميت عندهم ليس واجبا، بل مستحب وكفارة للذنوب. وقبل عشرين أو ثلاثين عاماً لم يكن الإحراق يقتصر على الأموات، بل كانوا يحرقون الأحياء أيضا. وقد قرر الإنجليز أخيراً منع إحراق الأحياء. فمثلا إذا توفي الرجل، كانوا يحرقون جثته، ويحرقون معها زوجته وهي حية، إلى درجة أن بعض النساء يعبرن عن إخلاصهن لأزواجهن بإلقاء أنفسهن في النار، وإذا لم تجرؤ امرأة على إحراق نفسها اتهمها الجيران والأقارب بعدم الوفاء والإخلاص، بل يجبرونها في بعض الأحيان على الاحتراق في النار. وفي فترة من الفترات أعطت النساء حرية إلقاء أنفسهن في النار، ومنع إجبارهن على ذلك، ثم منع الإنجليز إلقاء الأحياء في النار منعاً باتاً، والاكتفاء بحرق الأموات[1] مع ذلك فان بعض النساء في القرى يلقين بأنفسهن في النار دون علم السلطات.

---

(١) كانت هناك محاولة سابقة لمنع احراق الميت، وذلك في عهد عالمكير، ولكن لم تنجح المحاولة.

وتجري عملية إحراق الميت قرب نهر الغانج في أغلب الأحيان، لأنه يجب ذر الرماد في النهر بعد إتمام عملية الحرق. هذا إذا كانت المسافة قريبة، أما إذا كانت المسافة بعيدة عن نهر الغانج، فانهم يذرون الرماد في أقرب نهر مقدس إليهم. وإذا كان الميت من أغنياء البلد فانهم يأخذونه إلى بنارس ويحرقونه هناك.

وفي المدن الكبرى أماكن خاصة لإحراق الميت ولكنهم على الأغلب، يختارون مكانا قرب نهر الغانج، حيث تجلب كميات من الحطب ويوقدون فيها النار، وتقوم الحكومة بتأمين الحطب لأموات الفقراء (والواقع أن الحكومة فرضت ضريبة سميت بضريبة حطب الأموات حيث تجمع من هذه الضريبة مبالغ لا بأس بها).

وإذا كان ذوو الميت فقراء، أوقدوا الحطب بزيت الكاز، أما إذا كانوا ميسوري الحال فبزيت الزيتون، أما الأغنياء فيوقدون النار بزيت السمسم (السيرج)، وتنتظر الجثة أوار النار، وبعد إجراء الطقوس الدينية من قبل الروحانيين البراهما، يلقون الجثة في النار. وفي المدن المقدسة مثل الله آباد و بنارس يلقون الميت في النار وفق قواعد مخصوصة، كما أن لهذه العملية رجال مخصوصون. وليس في مقدور أي إنسان أن يحرق في الأماكن المقدسة، فالفقراء يحرقون على الأرض أما الأغنياء فينقلون من مسافات بعيدة حسب وصاياهم إلى بنارس أو الله آباد أو مدراس، وما أن يلقى الميت في النار حتى تعلو أصوات الناس مع ضربات الطبول، وفي هذه المعمعة يصل الميت إلى الجنة، هذا إذا كان ذنبه مغفوراً، أما إذا لم يغفر ذنبه، فان روحه تحل في جسد أحد البراهما الذين ولدوا يوم وفاته. وهناك اعتقادات غريبة وطقوس عجيبة يقوم بها الناس.

إطعام الأموات للطيور

لا يجيز البارسيون إحراق الأموات، كما لا يجيزون دفنها تحت الأرض، بل يخصصون أبراجا كبيرة وعالية غير مسقوفة في المدن الكبرى، حيث يأتي رجال موكلون بهذا الأمر، فيأخذون الميت من بيت ذويه، ويوصلونه إلى المعبد، وبعد إجراء الطقوس اللازمة، يبقى أقرباء الميت هناك، ويصطحب الرجال الموكلون جسد الميت إلى مكان يفتتون فيه العظام بأجهزة خاصة، ثم يأخذون الجسد ويرمونه في أعلى البرج، وهناك تأتي أسراب ضخمة من الطيور الجارحة تأكل الجسد. وهناك طيور تستحضر من أجل هذا الغرض، كما تتطوع طيور أخرى كثيرة في هذه الوليمة رضاء لله تعالى.

ولحمل الجنازة رجال مخصوصون كما أسلفنا، وهؤلاء يكونون من حثالة الناس، وهم يشكلون مجتمعاً لا يختلطون بالناس ولا يزوجهم أحد ولا يصافحهم بل يتناكحون فيما بينهم. أما في القرى وفي المدن التي يقل فيها من هم على العقائد الفارسية (البارسية) فيحملون الأموات إلى الجبال ويرمونها هناك، فتأتي الطيور الجارحة لتنهشها.

وقد سبق أن تعرضت لموضوع حرق الأموات مرتين في المجلد الأول من هذا الكتاب، مرة عندما نقلت رأي حامبا لاما، ومرة أخرى في طريقة اليابانيين في إحراق أمواتهم. ولذلك لا أجد ضرورة للتفصيل في الموضوع مرة أخرى.

إلا أنني أود أن أضيف شيئاً خطر على بالي، وهو أن الإنسان إذا بحث في هذا الأمر ودرسه دراسة متعمقة، فقد يتوصل إلى أمر مليء بالعظات والعبر. وإني أرى بأن العلماء العظام لم يبحثوا في عقائد هذه

المذاهب في أي عصر من العصور. إن أتباع هذه الأوثان، رجال مثلنا، يملكون مثل ما نملك من العقل الراجح والطبع المستقيم، فمن أين جاءتهم هذه العقائد الضالة؟ لاشك بأن أجدادهم كانوا من أمة أحد الأنبياء العظام، ثم قادهم جهلهم إلى الضلالة، وأخيراً استحدثوا أموراً كثيرة نسبوها إلى الدين. ولا أحد يدري كم من مئات الألوف من السنين مضت عليهم حتى وصل بهم الأمر إلى ما نراه.

وبعد هذه الملاحظة، لابد أن يخطر على بال المرء: إلى أين سيؤدي بالمسلمين جهلهم الذي هم عليه الآن، وأظن أن بعضاً منا قد خطا بعض الخطوات في ذلك الاتجاه، فالعاقل المنصف والمدرك لحقائق الأمور لابد أن يرى هذا الانحراف بعد الدراسة والتمحيص. أما المقلدون الذين أعمى الله بصائرهم فينخدعون بحسن الظن بأنفسهم. وإذا لاحظ أصحاب البصائر مثل هذه الأمور فلا شك بأن جلودهم ستقشعر من هول ما رأوه، وسيتأكدون من العواقب الوخيمة. ولنقل بصراحة أكثر: إننا على وشك التعرض لتسرب النصرانية من جهة، وتسرب المجوسية من جهة أخرى. فإذا توفي أحد مشاهير الرجال في اسطنبول، فان مراسم الجنازة التي نراها، صورة مطابقة لمراسم الجنائز المعروفة في كنائس الروم. وكم من الأمور والمشاهد المنكرة يقوم بها العرب في القاهرة أثناء مراسم جنائزهم، والعادات المجوسية التي نشاهدها على القبور لا تزال تطبق حتى الآن. إن علماءنا العظام تغريهم حفنة من المال كي يشتركوا في هذه المآسي والمهازل التي ينسبونها إلى الدين.

الجوكي والفقراء (Jogi)

«الفقراء» الهنود مشهورون جداً في الأدب الأوربي، ولا أعرف ما سبب تسميتهم بالفقراء، وأغلب الظن أنك لو سألت الهنود: من هذا الرجل، لأجابوا بأنه فقير. والهنود يسمون هؤلاء الرياضيين «جوكي» لأن أكثر هؤلاء الرياضيين هم من الغجر، والقسم الأعظم منهم مجوس، وبينهم عدد قليل من المسلمين.

والجوكي يبقون شهوراً دون طعام أو شراب، ويظهرون كثيراً من الخوارق، وأكثر معيشتهم، خاصة في بداية سلوكهم لهذا الطريق، تكون في الكهوف، وبعضهم يأمرون بدفن أنفسهم تحت الأرض، ويبقون شهوراً على هذه الحالة، ويستعملون حبوباً، وأظنها مغذية وهي تغني عن الطعام والشراب. والواقع إن تلك الرياضات أوصلت هؤلاء إلى حالة جعلتهم هياكل عظمية، ويقال بأنهم إذا مروا بأحياء فيها رائحة شواء تعذبت نفوسهم كثيراً. إنني لم أر من خوارقهم شيئاً. إلا أن أحدهم عندما رآني أرتعش وقال عابسا: إنه من البلاد الباردة،

وبجانب الجوكي فان هناك نساء الـ «كغتاره»، وهن مثل قارئات الكف عندنا، ويروى أن بعض الخوارق تظهر على أيدي هذا النوع من النساء. ولم ألق بالا على أي منهن، لأنه لم يعجبني لونهن إذ لا أثر للدم في وجوههن. وقيل لي أن بعض علمائنا سلك هذا المسلك.

والأمر الغريب أن من الذين يتوسل بهم الجوكيون مولانا معين الدين العمراني من مشايخ الجشتية (وهو مدفون في أجمير)، ولا يزال الناس يقدسون مرقد هذا الرجل، يتساوى المسلمون والمجوس في زيارة ضريحه والسجود له.

إن إرتفاع الجوكي عن سطح الأرض، و الخوارق الأخرى من الأمور المعروفة منذ القدم، وقد أصبحت من الأمور العادية، وليس في الأمر أي غرابة عندهم. وفي رأيي أن الغرابة ليست في تعودهم على تلك الرياضة بل الغرابة في ألا تكون لتلك الرياضة من ثمرة أو نتيجة.

رأي أحد علماء الإسلام في الجوكي

سألت أحد علماء المساجد عما يعتمد عليه الجوكي في مسلكهم، فأجاب وكأنه يتحدث عن أمر مألوف وقال:

على العموم فإن الاعتقاد بالخواص أمر قديم في الهند، والقوة المؤثرة في العالم هي الخواص وليست الطبيعة، وحتى علوم الطب فإنها مستمدة من الخواص.

والجوكي يعتقدون بأن الوهم من خواص الإنسان، وإذا دعم الوهم بالرياضة القاسية، فيمكن تحويل الوهم إلى محسوس، كما إن الإنسان إذا تجرد بفكره عن العالم السفلي الذي نراه، فقد يمكنه أن يكون مطلعا على المغيبات أيضاً، ويصدر عنه كثير من الخوارق، وهؤلاء يستولون على قلوب بعض الناس فيقتلونهم وهذه أمور عادية. إن الوهم يمكنه أن يستولي على الجسد دائماً، والاحتلام نوع من سيطرة الوهم على الجسم، وسير بعض الناس وهم نائمون وقيامهم بأدق الأعمال وهم نائمون هو نتيجة سيطرة الوهم على الجسم.

والجوكي يبقون أسابيع بل أشهرا مغمضي العينين، يركزون كل قواهم على الوهم، وبالتدرب يتعودون على ذلك، حتى إنهم يجمعون عدداً من الأوهام فتصدر عنهم بعض الأعمال الكبيرة. إلا أن الرياضيين

الهنود يصرفون كل أوهامهم على الحظوظ الأخروية، ولو صرفوها على الأمور الدنيوية فلا شك بأنهم سيحققون اكتشافات عظيمة كما أنهم سيقابلون أي قوة بقوة أكبر.

إن ما يصدر عن الجوكيين بشكل عام عبارة عن سيطرة الوهم على الأجسام، وهذا رأي، وأريد هنا أن أضيف بأن الرحالة الذين يتجولون في البلاد الأجنبية لا تكون معلوماتهم كاملة في أي وقت من الأوقات، لأن أكثرهم يحتاجون إلى مترجمين، والمترجمون يريدون أن يزودوا السائح بمعلومات مبالغ فيها مقابل بعض النقود. فإذا تذكرنا المعلومات الكاذبة والخاطئة التي يتزود بها السياح الذين يترددون على اسطنبول، فان الأمر يتضح أكثر فأكثر، إذ يجب ألا ننسى بأن قسما من المعلومات الشائعة عن فقراء الهند هي معلومات مباعة مقابل عدد من الروبيات.

ومن أشهر الحكايات التي سمعتها في هذا الموضوع أنه في عهد السلطان محمد تغلق شاه جاء علماء المجوس والجوكيون، وطلبوا منه أن يشهد مسابقة بينهم وبين علماء الإسلام حول الدين، وقالوا له: إذا تغلب علينا علماء المسلمين في هذه المسابقة فسنعتنق الدين الإسلامي، أما إذا غلبناهم، فنطلب منكم أن تحترموا ديننا.

وعندها جمع محمد تغلق شاه علماء المسلمين، كما جمع علماء المجوس والجوكيين، وبدأت المسابقة في حضرة محمد تغلق شاه، بدأها أحد الجوكيين بالارتفاع عن الأرض، فدهش الناس لما شاهدوه، كما دهش السلطان، وطلب الرد من العلماء المسلمين. وبينما كان الناس ينظرون إلى بعضهم، خاطب مولانا معين الدين نعليه وقال: أرجو ألا تخذلاني أمام هؤلاء الجهلة وعندها إرتفع النعلان إلى عنان السماء، فأخذا يضربان رأس ذلك الجوكي فأنزلاه إلى الأرض، وانتهت المسابقة،

واهتدى كثير من الذين حضروا المسابقة. ولذلك فان الجوكيين بدأوا يحترمون هذا الرجل كما يقدسون مرقده الشريف. واليوم تجد في أجمير، حيث مرقد المولوي معين الدين أوقافا كثيرة، وقفها المسلمون والمجوس على حد سواء.

وإنني لعلى يقين بأن الرحالة الذين يرون الجوكيين ويعجبون لأمرهم، لا يعتقدون بقصة النعل الذي هو أستاذ الجوكيين. كما أن ذوي النفوس المريضة من قومنا ممن قرأوا كتب أولئك الرحالة وصدقوها، لا يعتقدون بذلك، لأن تلك الكرامة كانت على يد رجل مسلم، ومع ذلك فلن تجد جوكياً واحداً يكذب الرواية، وهذا هو الجانب الأغرب في الموضوع.

السحرة

والى جانب الجوكيين والفقراء فان الهند تعج بالسحرة، وهؤلاء مشهورون عالمياً. إنني شخصيا لم أصادف أحداً من هؤلاء ولكني سمعت وقائع مشهورة من أناس موثوقين. فعلامة الزمان الشهير السيد عبد الحي اللكنوي توفي مسحورا (وهذه الرواية تكاد تكون في درجة التواتر).

إن الروايات في سبب سحره متعددة، أغربها أنه سحر مقابل حفنة من المال لحساب الإنجليز. ويشاع أن كثيرا من الناس سحروا مقابل مبالغ من المال. ومهما كان الأمر بعيداً عن العلم والعقل فان كثيراً من الناس يقبلون به للوصول إلى هدف معين لا يبلغونه بالطرق العلمية.

حرية المطبوعات

وحرية المطبوعات في الهند تعني أن كل إنسان له حق نشر أي شيء من نشرة أو مجلة أو كتاب في أي زمن شاء، يسب من يشاء أو يطعن فيه أو يفتري عليه، أو يهذي كما يشاء، أو ينتقد المذاهب ويلعنها، ويطال لسانه الأنبياء؛ فقانون المطبوعات يسمح بكل ذلك. إن الصحفيين الذين لا ضمير لهم يتناولون الراجات والنواب المساكين بالقذف والتجريح. أما الموظفون الإنجليز فيستغلون الصحفيين وما يكتبونه لصفعهم بها متى شاءوا، وليقولوا لهم، إن الرعية تشتكي من ظلمكم، إنكم فاشلون في إدارة شؤون المواطنين، وإذا كان الأمر مهما، فانهم يجعلونه حجة لاستلاب قسم من منطقة ذلك الراجا أو النائب، فيلحقونه بالحكم الإنجليزي المباشر.

أما الصحفيون أنفسهم! فليس لهم الحق في أن يكتبوا كلمة واحدة عن أي إنجليزي، حتى وان كان هذا الإنجليزي عادياً، أو رجل شرطة، وللإنجليز أن يفعلوا ما يشاءون من ظلم وافتراء وبهتان، فليس لأحد أن ينتقدهم بكلمة واحدة. وحرية المطبوعات من هذه الناحية وحتى حرية التعبير عن الرأي معدومة. وفي المساجد يمنع نقد الإنجليز في الخطب والمواعظ بطريق مباشر أو غير مباشر، وعندما كنت في حيدر آباد ألقيت موعظة في مسجد مكة، وكان أكثر الحاضرين من عرب حضرموت، وكانت الموعظة باللغة العربية، وقد أراد الشرطي الموكل بالمسجد قطع حديثي لعدم معرفته باللغة العربية، ولكنني لم أعره اهتماماً، وتابعت كلامي ولكنهم بعد ذلك استجوبوا عدداً من الحاضرين. وتكرر الأمر في بومبي. وقد علمت من مصادر موثوقة بأن كثيراً من العلماء أُعتقلوا بسبب

مواعظهم في المساجد، وأن فضيلة الشيخ صديق حسن، وهو من مشاهير العلماء توفي في السجن. لقد ضحى هو وأمثاله بأنفسهم في سبيل الإسلام.

ومع ذلك فإن في الهند عدد من الصحف الجيدة التي تدافع دفاعاً قوياً عن الإسلام، فجريدة «الهلالج الصادرة في كلكتا تنافح عن الدين، وهناك عدد من الصحف تصدر باللغة الإنجليزية، حيث تنشر مقالات مهمة لتنوير أفكار الناس.

وبالرغم من المضايقات التي يتعرض لها عالم المطبوعات في الهند فإن المنشورات العلمية والدينية في عموم الهند كثيرة جداً، وتطبع آلاف الكتب والنشرات سنوياً، فمن هذه الناحية لا يمكن مقارنة المسلم الهندي بأي مسلم في أي ناحية من نواحي العالم، حتى أنهم يطبعون الكتب بطريقة تسجيل أسماء المشتركين، فمثلا إذا رأي عدد من الناس ضرورة طبع كتاب معين، فان هذا الكتاب يطبع بقدر النسخ التي يحتاجها هؤلاء الناس، ولذلك فإنك تجد أن بعض الكتب لا تزيد الطبعة فيها عن ثلاثمائة أو خمسمائة نسخة، فالطبع بقدر الحاجة.

الصحف

وفي كل مدن الهند الكبيرة تصدر صحف يومية باللغة الإنجليزية. كما تطبع أعداد كبيرة من الصحف الأسبوعية والشهرية والنشرات المتعددة. والقسم الأعظم منها تطبع بعلم الحكومة أو دعمها. وما يطبع باللغة الأوردية يأتي بالدرجة الثانية، والصحف اليومية بهذه اللغة محدودة، ولكن المجلات الشهرية من دينية وأدبية وسياسية كثيرة. وتصدر باللغات الكجراتية والمرهتية والبنغالية والسنسكريتية والتلنكانية وغيرها من اللغات أعداد لا تحصى من المجلات والنشرات.

وقد وجدت في أحد التقاويم هذا الإحصاء:

الصحف الصادرة في الهند: ١٨٤ بالإنجليزية، ١٦٢ بالأوردية، ٥٧ بالبنغالية، ٣٢ بالمرهتية، ٤١ بالكجراتية، ٨ بالفارسية، ٢ بالعربية، وعدد من المطبوعات بلغات أخرى. وقد سجلت القسم الخاص بالمسلمين باللغة الأوردية، وهو على النحو التالي:

في لاهور: الأسبوعية: آفتاب بنج، أخبار عام، آيينهء هند، بيسه أخبار، بنجاب أخبار، تجارت كزيت، تكميل الحكمة، حافظ صحت، خيرخواه كشمير، دور بين، رفيق هند، غمخوار هند، كلدستهء شهرت، انجمن حمايت إسلام لاهور.

اليومية: بيسه أخبار.

في دهلي: الأسبوعية: أكمل الأخبار، أشرف الأخبار، خيرخواه عام، خيرخواه هند، سفير هند، روزنامه بنجاب.

في لكنو: الأسبوعية: أخبار انجمن هند، آزاد، بيام بار، تهذيب ولكدان، كوكب هند، رفيق نسوان، مشير قصر، مهذب.

اليومية: أردو أخبار، روزنامه.

في أكره: الأسبوعية: آكره أخبار، آكره بنج، آستانهء حكمت، حامي هند، رفاه عام، سه ماهي روزكار، ستار أخبار، سفيد عالم.

في مراد آباد: الأسبوعية: إمداد الهند، بلبل هند، جامع العلوم، رهبر، ستارهء هند، عين الأخبار.

في ميرت: الأسبوعية: أخبارعالم، إسلام، أميرال أخبار، جلوهء آزادى، ظريف هند، طوطي هند.

في أمرتسر: الواعظ، امرتسر غزيت، رياض هند، عزيز الهند.

في جالندهر: أخبار قيصرى، آفتاب هند، قيصرى.

في فيروز آباد: الصديق.

في جنار: أخبار جناري

في إله آباد: خلاصهء نظائر، خورشيد آفاق

في بومبي: كشف الأخبار، كلدسته نار، كلدسته برق، منشور شفاعت، الاصلاح، بمبي كزيت.

في بهاولبور: أسبوعية: صادق الأخبار.

في كانبور: عالم تصوير

في لوك: سفير لوك.

في بنكلور: سلطان الأخبار، قاسم الأخبار، منشور محمدي.

في مرشد آباد: رئيس الأخبار.

في بناراس: رفيع الأخبار.

في كوركبور: رياض الأخبار، فتنه.

في أجمير: انجمن إسلامية.

في بهوبال: إنتخاب الحكمة

في جونبور: أكبر الأخبار.

في ارك آباد الدكن: اختر

في سيالكوت: بنجاب كزيت، خيرخواه بنجاب، رفاه عام.

في رامبور: دبدبهء سكندر، طغراى إعجاز.

في بجنور: تحفه هند، مهر نيمروز.

في مدراس: تحفه، شفق، طلسم حيرت، جريدة روزكار.

في ناكبور: ترجمان

في جي بور: جي بور كزيت

في ابياله: خيرانديش، تاج الأخبار.

هذا ما أمكنني الحصول عليه. ثم إن هناك كثير من المجلات الصادرة باللغة الأوردية. وأوسع الصحف انتشاراً في الهند وأوثقها هي جريدة «بيسه أخبار» التي تصدر في لاهور، وكل الهنود دون تفريق بين جنس ومذهب يقرأون هذه الجريدة. ومن الطبيعي أن تكون هناك صحف أخرى لا نعلم عنها.

وهناك أمر غريب في المطبوعات الهندية لم أعرف له تفسيراً، وهو إن المطابع في الهند هي حجرية، وحتى الصحف اليومية تطبع بالمطبعة الحجرية، وليست لديهم حروف تصف للطباعة، باستثناء مطبعة واحدة تطبع بالحروف المصفوفة واسمها مطبعة «حبل المتين» في كلكتا، وهي تطبع ما يخص الحكومة من أوراق رسمية، ولذلك إستطاعت تجديد أجهزتها من الأموال التي حصلت عليها من الحكومة. وقد يكون هذا الكلام من قبيل الظن أو يكون سوء ظن، ومع ذلك فإنها ليست بمطبعة كبيرة. وقد تأسست في كلكتا أيضاً من عهد قريب مطبعة الهلال ويحتمل أنها تأسست لتنافس حبل المتين. ومختصر القول إن في الهند كلها مطبعتين تطبعان بالحروف. ولعل لطبع الصحف اليومية في المطابع الحجرية أسباب اقتصادية. فهناك أصوات مركبة من حرفين أو ثلاثة ولها علامات مخصوصة، وقد تعود الهنود على خط التعليق والكتابة اليدوية وخطوطهم عجيبة، ولهذه الأسباب فأظن انهم يفضلون الطباعة الحجرية. ثم إن مثل هذه الطباعة تتناسب مع حالاتهم النفسية، لأن الناس تعودوا على نوع خاص من الكتابة، فتسهل عليهم رؤيتها فيقرؤونها بسرعة اكبر. والهنود يعتقدون أنهم باهتمامهم بمثل هذه الأمور الصغيرة يحافظون على قوميتهم، ولذلك فإنهم لا يرغبون الحروف المصفوفة ولا يريدون إنتشارها. وقد وجدت من الناس من لا يشتري جريدة حبل المتين بحجة

عدم تمكنه من قراءة حروفها وأن الكتابة بمثل هذه الحروف جريمة بحق الوطن.

ومهما بدا التعصب الزائد في هذا الأمر فإن به شيء من الأمل لهذه الأمة.أما عندنا فعلى العكس من ذلك، إنهم يستغلون كل فرصة ليطالبوا بتغيير الحروف.فإذا وافقوا اليوم على الحروف اللاتينية فسيظهر من يطالب بعد ذلك بالحروف المنفصلة، وكل وزارة ستطالب بتغيير الحروف، وهكذا ترتكب الخيانة ضد الإسلام والجريمة بحق الأمة.يتولى هذا الأمر كبار الرجال ويمشي الرعاع من خلفهم وينبري المفتون الجاهلون على غير علم بالاعتداء على الروحانيات النبوية، فيخدعون الأمة بفتاوى وأساليب خارجة عن الأدب.أيها المفتون التعساء إلى متى ستعملون على بث الفتنة والشقاق في هذه الأمة؟

ففي اليابان والصين تشكلت جمعيات للحفاظ على شكل الخطوط التي يتجاوز عدد حروفها ٣٦ ألفا، ويبلغ عدد أعضاء جمعية حماية الحروف في اليابان مليون ونصف المليون. هذا هو الذي يميز بين أمة وأمة. ما هي الحمية الوطنية؟ إنها تظهر في كل شيء حتى في الأمور التي نظنها صغيرة، الحمية ليست عبارة عن إدعاء أو كلمة تقال.

على كل حال فان الصحافة لدى مسلمي الهند واسعة الانتشار ويطبعون كل عام الآلاف من أنفس الكتب الإسلامية وأوثقها من آثار المتقدمين والمتأخرين، ولا يمكن لأحد أن ينكر خدمات الهنود المسلمين للمطبوعات، حتى المصاحف طبعت على أحسن وجه في الهند .

ضيوف المسجد

الجوامع الشريفة وأماكن العبادة كانت منذ القديم، حتى في العهد النبوي دوراً للعبادة ومدارس ودوراً للعلوم و للفنون، ومضافات للسياح الغرباء القادمين من أنحاء مختلفة من الممالك الإسلامية. إن أصحاب الرسول ﷺ الذين سماهم بأهل الصفة كانوا من الفقراء ومن ضيوف المسجد النبوي، وبقي من هذه العادات كما ذكرنا من قبل مضافة المساجد في أكثر الممالك الإسلامية بوجه عام وفي مساجد الهند بوجه خاص، فالضيوف والغرباء يقضون فيها كل النهار، وقرابة نصف الليل[(١)].

إن الذي يتفحص أحوال الغرباء في هذه المساجد، يطلع على أسراراً كثيرة، كما يرى أوضاعاً وأحوالاً مليئة بالعبر. عايشت هذا النوع من طيور المساجد شهوراً، فوجدت بينهم من هو مجهول الطبائع والهوية، وطبائعه مجهولة، كما تعرفت على بعض ممن خبروا الدنيا وعرفوها حق المعرفة. وكان بينهم بعض العلماء ومشاهير الكتاب وكرام الناس. قابلت رجلاً في مسجد قرية بجوار بومبي، في البداية لفت نظري بقامته ثم بوجاهته، وبعد أن تحدثت إليه ازددت إعجابا بفضله وكماله. كان يرتدي قميصاً واحدا فقط ولكن وجهه نوراني ولم يكن مسنا، وكانت الكلمات التي ينطقها واحدة بعد أخرى تدل على علمه وفقهه، وبعد عدد من اللقاءات والأحاديث، تطرقت لبعض المسائل الفقهية، فتأمل الرجل قليلاً، وبدأ حديثه ببيان مسلك فقهائنا وقال :

لا أجد علاقة بين طريقة المتقدمين من الفقهاء والمتأخرين، ففي فجر الإسلام اتبع فقهاء المسلمين طريقة أكثر حرية وأوسع، أما العلماء

(١) نزلت في مسجد كلكتا الكبير لمدة أسبوع في صيف ١٩٦٠ وأنا في طريقي إلى اليابان بضيافة إمام المسجد وكان من أهل المدينة المنورة (السامرائي).

المتأخرون فكادوا يستأثرون بالفتوى، وفي رأيي أن الفتوى تخضع لأحداث كل زمان على حده، إلا أن العلماء الكرام غفر الله لهم رأوا أن يطبقوا حوادث الزمان أو الأحداث الجارية على فتاوى صدرت قبل ألف عام. إذن فما حاجتنا إلى المفتين، ولماذا نرجع إلى العلماء، ليقم العارفون منا بأصول اللغة العربية، بترجمة الفتاوى القديمة، ويعطي كل واحد من البشر نسخة مما ترجم، ويقول: هذا هو برنامج حياتك.

وإذا كان رأيك مثل رأي المولوي صاحب فمن العبث أن نتحدث في الموضوع، فأنت مسلم وأنا مسلم، والحمد لله «السلام عليكم وعليكم السلام» ولنتحدث بأحاديث حلوة، ونأكل البان، وتقوم أنت بذكر أسماء الأطعمة و الأشربة في بلادك، وأنا أخبرك عن فواكه الهند ونحوها، ولا يضر أحدنا بأخوة الآخر، أما إذا تحدثنا ببضع جمل في بعض المسائل الدينية، فليس هنالك من شك بأنك ستصمني بالكفر، أو أصمك بالكفر، وأن مبلغ علمنا لا يتعدى تكفير أو تضليل بعضنا البعض، ومع هذا فأنت رجل غريب، وأنا إنسان بائس، منكسر القلب، ولا أريد أن أزعج أخاً غريباً مثلك.

لقد شعرت بمرارة أقوال هذا الرجل، كما استغربت من طريقة حديثه استغراباً شديداً. سكت طويلا ثم قلت: يا حضرة الأستاذ! لقد اطلعت على علمك تقريبا، وقدرت أفكارك ولكني أشعر بضرورة تنبيهك إلى أمر: أريد أن أستفيد من أفكارك دون أية قيود، أرجو أن تعطيني رأيك في مسألة أعتبرها مهمة :إنها مسألة التعامل البنكي. قال: إن طلبك مني بأن أقول رأيي بكل حرية يدفعني أن أبين رأيي بحرية، ومع ذلك فلك أن تحتاط في القبول: كيف لرجل مثلي أن يبدي رأيه في أمر ورد نص صريح في تحريمه؟ وهل يحق لأحد كائناً من كان أن يكون له رأي فيما حرم بنص

قطعي. وإذا أبدى رأيه فهل يكون معقولا؟ وهل هناك حاجة لإبداء الرأي؟ أسألك، فما الذي تريده، وما علاقة رجل غريب مثلك في هذه المسألة؟

(اضطررت للسكوت حقيقة، واستمر المولوي صاحب يقول)

نعم لا ينكر بأن هناك حالة تجعلكم وتجعلنا وتجعل الجميع مضطرين للاشتغال بمثل هذه المسائل، ذلك بأننا ننظر إلى الأوربيين(نظرة سطحية) فنرى أن سبب تفوقهم علينا هو المال والنقود المتراكمة في البنوك، وأننا إذا أسسنا البنوك يمكننا أن نكون مثلهم في القوة والتفوق، وهنا نبدأ نشغل بالنا بمسألة الحلال والحرام، فنلجأ إلى باب الفتوى نبحث عن الحل. إنني أرى أن هذا الرأي خاطئ، ذلك بأن القوة ليست في المال فقط، هناك قوى أهم من المال يجب أن تكون عندنا.

حتى و لو كانت عندنا قوة المال وافتتحنا البنوك فإنه لا يمكننا أن نصل إلى الهدف المنشود، لأننا لن نستطيع منافسة أعدائنا، لأنهم تحكموا في هذا المجال، وخطوا خطوات كبيرة وليس لنا أمل باللحاق بهم. وفي رأيي أنه علينا أن نبحث عن القوى التي تتفوق على البنوك التي أسسها أعداؤنا، بل وتزلزلها من أساسها، وحينذاك فستبدأ البنوك تستنجد بنا. لدينا طريقة سهلة للوصول إلى هذا الهدف، إننا لو طبقنا أصول المضاربة، وفتحنا صناديق الإقراض غير الربوية، فسنحير الأوربيين وسنجمع بين القوتين المادية والمعنوية، وعندئذ تكون قوتنا هي أكبر قوة على وجه الأرض.

إن أساس هذا العمل نجده في شريعتنا الأحمدية الغراء، وإذا ربطنا الأمر بقانون يتماشى مع مقتضيات العصر، ووسعناه قليلا(وهذا ممكن) فستفقد البنوك الحالية أهميتها في بلادنا، ولن يتمكن الأجانب من فتح بنوك وفق هذه الطريقة، وحتى لو فتحوها، حيث أنهم سيرون كيف

نتعامل وسيقلدوننا، إلا أنهم لن يستطيعوا منافستنا.فإذا إفتتحنا مثل هذه المؤسسات وأوليناها اهتمامنا ونمينا المهارات، فلا بد أن تكون النتيجة ثورة مالية كبرى في العالم.

ولكن هيهات، فليس بوسع علمائنا أن يجتمعوا ويتبادلوا الرأي، لقد وصلت بنا الجرأة إلى أن نكفر بعضنا بعضاً. إننا إذا تكلمنا فالكلام كثير، واأسفا على حالنا، وا أسفاً على الرجال الذين هم في زي العلماء. إن السبب في الحالة التي يعيشها العالم الإسلامي هو ذلة العلماء، ولا أبرئ أحدا من السلف أو الخلف، فعلماء الإسلام صاروا دائماً أداة بيد الأمراء والرؤساء، لقد أهمل العلماء واجباتهم فلم يوصلوا المسلمين إلى درب السلامة. إنني أحد طلاب العلم، وحديثي لك من قبيل إعتراف المجرم بجريمته، وأملي من الله تعالى أن يخفف عني العقوبة. وإذا كنت مستعدا للتوسع، فإنني أضيف على ما سبق فأقول:

أنظر إلى شمولية وسعة النص القرآني في المعاملات: ﴿وأحل الله البيع﴾. ما أعظمه من دستور إلهي، ولكن علماءنا العظام جاءوا وقالوا: «لا تبع هذا، ولا تشتر هذا، هذا نجس العين» ونحو ذلك، فجعلوا حداً فاصلاً أبدياً بين البشر وما يكتسبون.ومن الغريب حقاً أنهم يمنعون الناس من بيع شيء هين، وهم لا يمتنعون عن شرائه واستعماله، مع أنه حرم استعماله بالنص الصريح، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

أؤكد لك بأننا نحن الذين ممن هم في زي العلماء أوجدنا العوائق أمام مستقبل المسلمين. انظر إلى علماء الهند، هل تجد لديهم ما يفرقهم عن عوام الناس؟ كن على يقين بأننا نحن الذين عزلنا أنفسنا عن ذلك المقام الرفيع،من غير أن ندري.

إذا أهمل الملك مملكته، فستكون نهايتها الخراب، ويفقد الملك صفة الملك، فهو قد عزل نفسه من يوم إهماله ملكه. «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» نحن العلماء أسأنا استخدام علمنا، ولذلك فان مسئولية الأمة بكاملها تقع على عاتقنا. أعترف بهذا وبكامل الأسف، فلو نظرنا إلى الأمور بالعدل والإنصاف، ودرسنا أحوال مسلمي الهند دراسة حقيقية، لتأكد لنا أن الإسلام في الفترة الأخيرة امتزج بالمجوسية. والحقيقة إن المجوس قديماً عندما تشرفوا بدخول الإسلام حملوا معهم كثيراً من العقائد والعادات المجوسية وأدخلوها في الإسلام. إن الإتيان بالراقصات والمغنيات في ولائم النكاح وحتى في مجالس الذكر ومباشرة أعمال الخير، وهي من العادات المجوسية التي انتقلت إلينا من دون أدنى شك، وهناك حالات أسوأ مما ذكرت، أربأ بنفسي عن ذكرها. إنك تجد لدى علمائنا اليوم كثيرا من المعاملات التي نسبوها إلى الدين، ولا علاقة لها بالدين أصلاً، و لكننا تقبلناها على أنها من الدين. أما العوام فيظنون أنها من صلب الدين. وإذا استمرت عادة الرقص والغناء، فسيأتي أحفادنا بعد نصف قرن من الزمان ليعتبروا أن ما نراه من رقص وغناء هو من الدين، والواقع أن الدين يتعرض للتحريف التدريجي بهذه الصورة.

وكم هناك من الأمور الأخرى وكم، ولكن أسوأ شيء فيها هو تغافلنا عنها وتجاهلنا لها، وسيأتي أعداؤنا يوماً ليعدوها ويصفعوا بها وجوهنا، وعندئذ تكون الطامة الكبرى لدى العوام، والخيبة والخذلان لدينا، ولات حين مندم.

كانت هناك نقاط إعتراض على كلام هذا الرجل، ومع ذلك فقد وجدت عنده الصواب في الرأي والصدق في الحديث. ولم أر ضرورة للاعتراض، إلا أنه لم يخطر ببالي أبداً أن أصادف بين غرباء المسجد

علماء أفاضل مثل هذا الرجل. لقد كان في إستماعي لأقواله دروس وعبر. لقد تغيرت نظرتي لضيوف المسجد بعد هذا الحديث تغيرا كليا.

وعندما سألته عن اسمه قال: كنت صاحب منصب اسمه «الحاكم العدل والمنفذ للشرع» و عندها كان لي إسم، ثم إن الإنجليز إغتصبوا مني هذا المقام، ففقدت هذا الاسم[١]، كما اغتصبوا وطني، فألقوني في هذه الديار، لنا الله.

والأمر الذي يستدعي الاستغراب أن بعدي عن وطني وأهلي، والجور الذي لحق بي آلم المعتمد الإنجليزي، فأرسل إلي أحد العلماء ليبلغني أسفه وحزنه واستعداده لاستخدامي بوظيفة شرطي في أحد المساجد براتب شهري قدره ١٥ روبية.

بدأت دموع هذا المولوي المسكين تنهمر من عينيه كالمطر، و لم أعد أتحمل ما سمعت وما رأيت، إنه منتهى الإذلال الرسمي والإهانة المبطنة بالرحمة، كل هذا بسبب سوء أعمالنا قالها وهو مستمر بالبكاء. وودعته مفارقاً، و لم أتمكن من اللقاء به مرة أخرى .

كيف يتحمل الإنسان هذا الوضع وهذه الإهانة. لقد تأثرت بما رأيت وما سمعت تأثراً شديداً، حتى صرت أرى الأرض سجناً. هذا الرجل من العلماء المتبحرين، ومن ذوي العقيدة الراسخة بين أهل السنة، حنفي المذهب ومن نوادر المصلحين، لقد تعرض للإذلال من قبل أعداء الدين، والاتهام بالابتداع والوهابية من قبل الحمقى من المسلمين.

هذا هو واقعنا، إننا نستحق ما نحن فيه، لقد سلط الله علينا عدونا، كي نعود إلى رشدنا و صوابنا. أُلطف بنا يا رب، أُلطف بنا يا رب!

---

(١) لم أتمكن من ضبط عنوانه، فكتبته بخط يده، وهو محفوظ عندي.

إن قلب المرء ليكاد يتفتت كلما رأى مثل هذه الأوضاع. إننا نظلم بعضنا بعضا أكثر من ظلم أعدائنا لنا. لقد أصبح العلماء منبع الفساد على وجه الأرض، فرقوا بين المسلمين وخربوا بيوتهم، ونراهم اليوم يقودون الناس إلى كل ما هو فاسد. إننا إذا أردنا إصلاح العالم الإسلامي فعلينا أن نبدأ بالعلماء.

أعترف بأن هذا الكلام ثقيل على النفوس وإن المنصف إذا رجع إلى ضميره ونظر إلى الأوضاع المحيطة به فلا شك بأنه سيلوم نفسه، ولا أتصور منصفاً يجرؤ على مؤاخذتي على قولي الحقيقة، و لو أن علماء الإسلام نظروا ببصائرهم وتنبهوا، فليس من شك بأنه سيأتي اليوم الذي ينهض فيه المسلمون عامة ويبدأوا بترقي مدارج التطور والكمال.

إنه من غير المعقول أن نضيع الفرص حتى إن الأحداث التاريخية التي نشهدها في هذه الفترة، والسياسات العدوانية التي تمارسها الدول النصرانية تعتبر من أكبر الأسباب المهيأة لجمع المسلمين على قلب رجل واحد. لا أتصور فرصة لجمع الكلمة أنسب من هذه الفرص، ولا شك بأن العلماء هم الذين يقدرون هذه الفرص، و إذا لم يقدرها العلماء فلا أمل يرجى من العوام. أملنا أن ينتبه العلماء ويتبعوا الحق.

تعرفت على رجل آخر من بين ضيوف المسجد، واسمه (ميران محمد شاه)، وكان التعارف طريفاً: كنت في مسجد رنكاري، فغلبني النعاس، فمددت رجلي وأردت النوم، وكان ذلك في أحد أيام رمضان. ومن عادتي أن أنام محتبياً و لكن نفسي غلبتني في ذلك اليوم، فتمددت، وعندها سمعت أحدهم تجاه قدمي يقول:"الحياء شعبة من الإيمان" استيقظ الإحساس في قلبي، فجمعت رجلي وجلست، واعتراني الخجل الشديد، وأحسست بأن العرق يتصبب مني. نظر صاحبنا المجذوب إلي

وقال: «الحمد لله وأنت في بيت الله»، فتوسلت إليه بأن يصفح عني. فكر المجذوب قليلاً ثم تأنى ونظر إلى النائمين الآخرين وقال: ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾، ورفع يديه إلى السماء كمن يدعو ربه. فقلت:آمين. ضحك المجذوب وتوجه إلي، وتعارفنا واستأنسنا ببعضنا، ولم أدر أن المجذوب مطلع على أحوالي إطلاعاً تاماً، ذكر لي بالتقريب ما جرى و ما يجري لي أثناء سفري، وكأنه كان معي في الرحلة منذ سنتين، أو أنه يطلع على أحوالي عبر البرقيات اللاسلكية، وعندما يذكر الأحوال التي غلبتني فيها نفسي يهز رأسه قائلا: «يمضي المربون دون أن يتركوا أثراً».

وتمتم عن اليابان بكلمات وقال: إنها أعمال تتطلب الوقت،﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ الامتحان طويل في مثل هذه الأمور. فسبحان الله ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ كنت أراه وكأنه يخاطب نفسه، وأنا أستمع له باستغراب شديد. سكت برهة، فسألته عن إسمه فقال: ميران شاه محمد، ميران شاه محمد، ميران شاه محمد، كرره ثلاث مرات وكأنه يقول لي لا تنس اسمي.

ثم سكت طويلاً، وقال بعد ذلك:(هل يمكننا أن نذهب إلى مسكن هذا العاجز؟) سررت لهذا التكريم فأجبت: أنا تحت أمرك. وبعد سكوت آخر وطويل نهض، وصلى ركعتين، ثم راقب من حوله وقال: بعض الناس تعوزهم التربية، ولكن إذا كانت خبرة المربين ناقصة فالتربية مستحيلة ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ الله! الله! فسبحان الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم هز رأسه، و قال: تفضل، لنقم ونذهب، فقمنا سوية وجئنا إلى كهف خارج المدينة، استغرق سيرنا ساعة، ولكن دون أن ينطق أحد منا بكلمة واحدة. كان الكهف نظيفاً جداً، ومكنساً

بعناية، وليس على الأرض من حصير ونحوه، قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ وجلسنا وكان الجو لطيفاً جداً، وهواء الكهف يميل إلى البرودة، إسترحنا قدر ساعة، فكرر المجذوب ترحيبه بي قائلا: هذا من فضل ربي، أهلا وسهلا ومرحبا. ومد إلي بلبنة مربعة وقال: استرح قليلا، لقد حلت بينك وبين الاستراحة في المسجد، وهذا المكان مناسب لأن تتمدد كما تشاء. فتمددت بكل حرية واسترحت، وبعد أن صحوت استأذنته بالانصراف ولكنه أمسك بي للإفطار معه. والواقع إن هذه الدعوة فرصة للاستماع إليه والاستفادة منه، فقبلت دعوته، قد مضت سحابة الوقت بالسكوت ولكن الجلسة كانت روحانية تخللتها تلميحات بآيات قرآنية وأحاديث نبوية مثل ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ و﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ و﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وآيات أخرى تلاها ولم أحفظها. وحان وقت المغرب، فقدم لي المجذوب حبة من تمر وقطعة من خبز، هذا هو إفطارنا. وبعد المغرب عدنا إلى المدينة، وصلينا التراويح في مسجد رنكاري، وبعد الصلاة عانقته مودعا، وافترقنا.

كان واضحا من أقوال هذا الرجل وأطواره بأنه من أهل العلم والتقوى وعلو القدر. وللأسف لم يكن استعدادي لحديثه تاماً، لذلك بقيت الفائدة ناقصة.

أكتفي بعرض هذه المشاهدات الثلاث عن فقراء المساجد في الهند المليئة بالعبر. إن كثيرا من الأسرار تلف فقراء المساجد، ولا شك أن بينهم الكثير من الصلحاء والكثير من الرياضيين.

الهند بلاد شاسعة حقيقة، يمكن أن تجد فيها رجالاً عظاماً، كما أنه من الطبيعي أن تجد فيها السفلة وذوي النفوس الدنيئة. لقد كان بقائي في

الهند قصيراً، لذلك لم أتمكن من معرفة الأمور حق المعرفة، ولم أتمكن من الحصول على معلومات كافية عن البلاد، فالموانع المادية والمعنوية حالت بيني وبين كثير من الفوائد.

دخول الإسلام إلى الهند والعلماء فيها

دخل الإسلام إلى الهند لأول مرة عام ٩٢ من الهجرة مع جيش المسلمين بقيادة محمد بن القاسم الثقفي إبن عم الحجاج، في عهد الوليد ابن عبد الملك، وقد فتح في تلك الفترة المناطق الممتدة حتى «قنوج» ولكن فتح الهند بكاملها تحقق في نهاية القرن الرابع الهجري على يد يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي بن ناصر الدين سبكتكين، وفي عام ٥٨٧ من الهجرة جعل مدينة دهلي عاصمة للسلطنة الإسلامية.

ومنذ فجر الإسلام في الهند، نشأ فيها كثير من كبار العلماء: وأول من نشأ في الهند من تابع التابعين مولانا أبو حفص ربيع بن صبيح السعدي، ويعتبر من مشاهير علماء الإسلام، وفي رواية أنه أول من اشتغل بالتصنيف في الإسلام. وهو وان يكن أصله من البصرة إلا أن تعلمه كان في الهند.وبعد ذلك نشأ في كل عصر وعلى الأخص في القرنين الخامس والسادس الهجريين وفي كل نواحي الهند رجال متخصصون من أمثال حميد الدين الدهلوي وحسن لاهوري ومعين الدين الدهلوي،فألفوا حواشي الكنز والحسام، والسيالكوتيين وغيرهم من مشاهير العلماء، وقطب العارفين أحمد الفاروقي مجدد الألف الثاني السرهندي قدس الله سره، الذي يعتبر من أكبر العلماء على وجه الأرض،كما ظهر مئات بل آلاف العلماء في العلوم الرياضية والفنون الحكمية، فبنوا المراصد وخدموا الفنون القديمة والجديدة.

وحتى في الفترة الأخيرة ظهر كثير من كبار العلماء والمحدثين، أمثال المولوي عبد الغني الدهلوي، والمولوي عبد الحق صاحب، وصديق حسن بهوبالي، وعبد الحي اللكنوي وغيرهم ممن وضع المئات من المؤلفات. ومن الأحياء حاليا المولوي محمود حسن خان المعروف بمجلي خان الذي ألف موسوعة بأسماء الرجال من أحد عشر مجلدا، «محيط المعارف»، و هو كتاب عربي العبارة جميل الإخراج.

وفي لكنو رجال راسخون في العلم، أمثال المولوي عبد المجيد صاحب والمولوي عين القضاة صاحب وغيرهما. وفي دهلي، «المولوي الحافظ قمر الدين صاحب» إمام أكبر وأشهر المساجد في الهند، وهو يستحق أن يحتل هذا المقام، وهو إسم على مسمى، حيث يتصف بالمزايا الكاملة. وفي سهارنبور المولوي خليل أحمد صاحب، وهو رجل فاضل، وفي ديوبند المولوي محمد حسن صاحب، كبير مدرسي المدرسة الإسلامية وهو يستحق أن يسمى نحرير هذا الزمان.

ومما لاشك فيه بأن في الهند كثير من أفاضل الأمة ممن لم أتمكن من التعرف عليهم، ذلك بأن الوقت لم يكن كافياً للقاء أكثر العلماء وحضور مجالسهم. والرجال الذين ذكرتهم حازوا الفضل من كل الوجوه، وخبروا السياسة الحاضرة ويفكرون في مستقبل الأمة، ويخطون خطوات في هذا السبيل. وإذا كان هناك من تقصير فهو إنقطاعهم عن مسلمي سائر الممالك الإسلامية، وهم يعترفون بذلك ويشتكون منه. والحقيقة إن انقطاع المسلمين بعضهم عن بعض من عموم البلوى لدى المسلمين جميعا.

من مشاهير نساء الإسلام
زيب النساء بيكم بنت عالمكير

هي أشهر نساء الهند في الأدب والعلم، كانت تشترك في المناظرات والمساجلات الشعرية مع العلماء والشعراء، ولا زال العلماء يتحدثون عن سيرتها في مجالسهم. وقد عاصرت زيب النساء أحد فحول الشعراء وهو ناصر علي سرهندي بن نواب ذو الفقار خان ناظم السلطنة، وأستميح عفو القراء الكرام لأقدم لهم ما بقي في ذهني من لطائف جرت بين ناصر علي و زيب النساء: كانت زيب النساء تتنزه في حديقتها ذات يوم، فقطفت تفاحة من الشجرة وأكلتها، فتذكرت صدرا من بيت:

إزهم نمى شود حلاوت جدالبم (حينما أكلت تفاحة من شدة حلاوتها إنطبقت شفتاي على بعضهما)، ولم تتذكر عجزه، فأرسلت في أثر ناصر علي تطلب العجز. فكانت الفرصة لأن يقول: شايد رسيد بر لب زيب النساء لبم (أتمنى أن تلتقي شفتاي بشفة زيب النساء فلما علمت زيب النساء إحتدت وكتبت:

ناصر علي بنام «علي» برده بناه   ورنه ذو الفقار علي سربر يد مت.

(اسمك علي و ظننت أن أخلاقك مثل أخلاق سيدنا علي ولو كان اسمك ليس على اسم علي لاستللت ذو الفقار و قطعت رأسك).

وفي صباح يوم آخر خرجت زيب النساء إلى حديقتها، في ثوب أحمر، فرآها ناصر علي السرهندي من بعيد، فارتجل صدر بيت وقال:

«سرخ بوشي بلب بام نظر مي آيد» (أرى امرأة مرتدية ثوباً أحمر على سطح المنزل) فلما سمعت زيب النساء، أجابت:

«نه برازي نه بزور ونه بزر مي آيد» (لا آتيك لا بالرضا ولا بالغضب ولا بالمال و لا طوعا ولا كرها) فكانت تساجل الشعراء ارتجالا.

وذات يوم دعي ناصر علي مع بعض العلماء إلى بيت زيب النساء، فسألت زيب النساء عن رغبة الضيوف في أنواع الطعام، فقال ناصر علي: «سنبوسه بي سن ميخواهمج (سنبوسة بدون سن أي بوسة «قبلة») فأجابت زيب النساء «در مطبخ مادر طلب» (أطلبها من مطبخ أمك).

وسنبوسه في صدر البيت، نوع من المعجنات المعروفة، ولكن تعني أيضا «أنت» وأما مادر فتعني من جملة ما تعني الأم.

وكانت لها مساجلات شعرية مع كثير من الشعراء الآخرين، كما أنها كانت تلاطف خادماتها شعراً، وذات يوم كسرت إحدى الخادمات مرآة وجاءت زيب النساء فقالت لها «از قضارا آيينهء جيني شكست» (قدر الله فكسرت هذه المرآة الصينية) فأجابت: خوب شد أسباب خود بيني شكست (المرآة وسيلة للإعجاب بالذات، أما وقد كسرت فهذا سبب حسن لمنع الإعجاب بالنفس).

وكتب أحد الأمراء الإيرانيين شعرا إلى زيب النساء فقال:

ترا اي مه جبين بي برده ديدن آرزو دارم جمالت هائي حسنت را رسيدنآرزو دارم

أريد أن أراك بدون حجاب يا شبيهة القمر لكي أرى جمالك المثالي.

فردت زيب النساء قائلة:

بلبل ازكل بكزر دكر درجمن بيند مرا بت برستي كي كند كر برهمن بيند مرا

همجو بوبنهان شدم در برك كل ماننده كل هركه ديدن ميل دارد درسخن بيندمرا

(إن البلبل الذي يعشق رائحة الأزهار إنما يعشقها و هي مخفية في ثنايا الأزهار و إني كالرائحة المخفية في ثنايا الأزهار و لا يمكن لأي إنسان أن يراني إلا عن طريق سماع حديثي).

أما تاريخ وفاتها فهو:

آه زيب النساء بحكم قضا　　ناكهان ازنكاه مخفى شد

(يا أسفا على حكم القضاء في وفاة زيب النساء واختفائها فجأة عن الأنظار)

منبع علم وفضل وحسن وجمال　　همجو يوسف بجاه مخفى شد

(كانت منبعاً للعلم والفضل والجمال والحسن وختفت كما اختفى يوسف في غيابة الجب)

سال تاريخ از خرد جستم　　كفت هاتف كه ماه مخفى شد

فكانت بحق امرأة ضليعة في الأدب، ومن ألمع ثمرات الهند في العصور المتأخرة، وذات شهرة واسعة بين العلماء، ولا زالت أشعارها تذكر في المجالس.

أما أبو زيب النساء فقد كان من مشاهير العلماء المسلمين ومؤلف الفتاوى الهندية، وأحد أشهر الملوك من أحفاد الأمير. تيمور كوركاني المغولي. ومن الثمرات التي أينعت على يد عالمكير العظيم زيب النساء، وقد أوصل بعلم وأدب ابنته إلى الشهرة التي لم يصل إليها بحكمه، وكاد كبار العلماء في عصرها يقدسونها، وكثير من الرجال كتبوا إليها أشعاراً، أنقل بعضها:

١- بت برستانيم بااسلام ماراكارنيست　غيرتار زلف مارا رشتهءزنار نيست

(نحن نعبد الأصنام ولا شأن لنا بالاسلام و ليس لنا زنار شعاراً إلا زلفها)

بيش ازين ای‌عقل برمن طعن رسوائي مزن زآنكه مستان محبت راسلامت عار نيست

(يا عقلي لا تطعني في فضيحتي أكثر من ذلك فإن من يعشق لا يخشى لوم الآخرين)

ره خوش باشدكه بينم بارديكررویدوست درسجود آيم به محراب خم ابروی دوست

(إن سعادتي أن أرى وجه حبيبتي مرة أخرى و أن أسجد أمام محراب وجهها).

وأمثاله من الشعر باللغة الفارسية، كما أن أحدهم كتب شعرا باللغة العربية فقال:

اليكن يا في حب ليلى عواذلي　　فباللوم حبي زائد غير زائل

أصاب الذي قال الهوى قاتل الفتى　فإني قتيل بالهوى وهو قاتلي

فأجابت زيب النساء:

لحا الله دهراً قد بدا من صروفه　　تسفل أشراف وترقي الأراذل

ولا شك أن كلا الشعرين مسروق، ومع ذلك فان الأشعار التي نظمتها زيب النساء بيكم باللغة الفارسية تؤكد مزاياها وفضائلها.ولدت هذه المرأة في عام ١٠٤٨ ونشأت في تلك الفترة ولا تزال من نوادر المثقفات إلى يومنا هذا.

ومع هذا فان بين النساء المسلمات كثيرات من الأديبات والمحررات، حيث نجد مقالاتهن في أعمدة الصحف، ولكن يبقى الاختلاف بينهن وبين مجتمعاتهن وبين عصورهن.

عمر أفندي ياما أوكا في بومبي

خلال إقامة عمر أفندي ياما أوكا في بومبي، كان يتردد على قنصليتنا، فيلتقي بمرتاديها ويجمع المعلومات المتعلقة بالإسلام ويتعلم ما يحتاجه منها، كما يجتمع بعلماء بومبي الذين يجيدون اللغة الإنجليزية فيتعلم منهم أركان الدين، ويسلم على كل من يصادفه ويتقرب منهم قائلا «لا اله إلا الله محمد رسول الله»، ويحاول أن يتعلم أي شيء. وعندما كان يسألني عن بعض المسائل، كنت أطلب منه التريث، وأن يتعلمها في الوقت المناسب، فأسهل له بذلك الأمور كيلا يصاب بالملل.

وذات يوم كان في أحد المساجد عندما سمع بعض المعلومات عن الاستنجاء، وكان حتى هذا الوقت يعرف كيف يتوضأ وكيف يصلي، فكنت أنصحه بالاستبراء الجيد. ولم أتعرض للاستنجاء، فجاءني يوماً وقال: إنك لم تعلمني شيئاً عن الاستنجاء، ولكن الاستنجاء لم أستسغه أبداً، فكيف يغسل الإنسان مقعده بيديه، ثم يأكل بهما الطعام؟ فأدركت أنه يشعر بشيء من القرف حيث إن الرجل الذي تكلم في المسجد قال له بأن الاستنجاء فرض، فاخترت السكوت قليلاً.

في ذلك اليوم لم يستطع عمر أفندي الذهاب إلى المسجد، واعترى قلبه شيء من التذبذب، ولم يستطع أن يصلي. وفي الليل ناقشنا الموضوع مدة ساعتين، فشرحت له الأحوال التي يفرض فيها الاستنجاء والأحوال التي يكتفي فيها بالاستبراء، وتحدثت عن منافع الاستنجاء، وأنه بغسل اليدين بالصابون لن يبقى ما يبعث على القرف والاشمئزاز، وذكرت له الحديث المروي عن السيدة عائشة الذي ورد في باب من بال ولم يمس ماء، الذي في سنن إبن ماجه، فاقتنع وبدأ بإقامة الصلاة من جديد. وذات يوم تعرف على طالب في مدرسة «كموسيت»، فسأله أثناء الحديث معه عن

الاستنجاء، وكان الطالب يجيد اللغة الإنجليزية، فأجاب بجواب أقنع عمر أفندي بالمنافع الصحية للاستنجاء، فاطمأنت نفسه، ولم يعد عمر أفندي يرى لزوما في البحث عن الاستنجاء.

وخلال مدة الشهر التي أقمنا فيها معاً في بومبي، تعلم عمر أفندي مني كلمة التوحيد والوضوء وأفعال الصلاة. أما الأمور الأخرى فتعلمها من لقاءاته في المساجد والمدارس، وببعض التجار. فخلال شهر واحد أجاد أفعال الصلاة وتعلم الجزء الهام مما يجب الاعتقاد به. وفي إحدى المرات اطلع على مسألة الختان أثناء قراءته أحد الكتب الفقهية في إحدى مكتبات بومبي، فجاءني وقال:

«إنك تخفي عني بعض الأوامر المهمة في الإسلام»

-وما هي، وماذا سمعت؟

- علمت أن في الإسلام ختان، وأنت لم تذكر لي عن الختان شيئاً، ولو قلت لي ذلك من يوم قدومي إلى بومبي لكنت دخلت المستشفى وخرجت منها، فكيف تتصور أن يكون المرء نصف مسلم. (وكان يشعر أن في الأمر مسؤولية كبيرة)

-لا تتعجل يا أخي، إن الركن الأول في الإسلام هو كلمة التوحيد، والباقي يترتب فيما بعد، يتحقق شيئاً فشيئاً، إن مسألة الختان ليست مهمة بالنسبة لك، لأن المسألة فيها تقابل بين الحرام والسنة، فهل يجوز للإنسان أن يرتكب حراماً وهو يسعى لتطبيق إحدى السنن؟ إنه مسألة من المسائل، فلا تتعجل في مثل هذه الأمور. هدأت من ثورته، واضطررت لأن أشرح له بالتفصيل.

ومن يفكر في أحوال عمر أفندي هذه، يتيقن بأنه يسعى لأن يكون مسلماً كامل الإيمان. ولكن وبالرغم من أن الجدية في كل شيء هي من طباع الشعب الياباني، فإن الياباني يقدم دائماً المصالح السياسية العامة

على مصالحه الشخصية. كنت معلماً لعمر أفندي، علمته الدين الإسلامي، ومع ذلك فإنني نظرت إليه على أنه مسلم سياسي، وكانت تعليماتي له على هذا الأساس. والواقع إنك إذا لم تبين للياباني أملاً في مصلحة سياسية فلن تجد في قلبه مكانا للإسلام. ويمكنني أن أقول بصورة عامة بأنه من غير الممكن أن يعتنق ياباني الإسلام إلا عن بصيرة، فالأديان التي انتشرت في أي بلد كان، دخلت تحت غرض معين ثم ترسخت بمرور الوقت في قلوب شعوبها، والعقيدة التي تترسخ بالتدريج تستقر. ويمكن أن يكون الإيمان بلا مقدمات، بهداية الله.وأرى أن الذين اهتدوا بتلك الصورة قليلون جداً، وليس هنالك من شك في أنك قد تجد في أوربا قلوبا تهتدي إلى الإسلام. يجب علينا أن نشرح للناس المصلحة السياسية في الاهتداء. إن عدم ارتداد أي إنسان في ألبانيا بعد استيلاء الحكومات البلقانية عليها، يعود إلى أن الإسلام الذي اعتنقوه في أول الأمر بهدف تحقيق بعض المصالح .

التبشير بالإسلام
والاهتداء بين مجوس الهند

نود أن نتعرض لموضوع يستدعي الغرابة. إن المسائل التي يجدر بالإنسان أن يهتم بها ويأخذها بعين الاعتبار في هذه الدنيا كثيرة، إلا أن بعض الأمور التي تلفت النظر أكثر من غيرها تغطي بصائرنا عنها غشاوة، وتقسو عنها القلوب فلا تكاد تنفتح لها وتبقى الحقيقة قيد الكتمان.

التبشير بالإسلام أمر مشروع، أي أننا مكلفون بدعوة أهل الضلال إلى الدين الإسلامي المبين والشريعة المطهرة التي نزلت على سيد الأنام،

ومأمورون بها بحكم الشرع، وعملياً فإني لا أتردد في القول بأنه لا تجد مسلماً واحداً متفرغاً للدعوة في هذا العصر.

وطريقة التبشير (أو التنصير) لدى النصرانية = هي إجبار الناس على اعتناق النصرانية أو إغراؤهم بالمال والطعام أو بأعمال فاحشة كتقديم البنات والنساء و إلى غير ذلك، هذه الطريقة تختص بها النصرانية، أما في الإسلام فالدعوة تكون واجبة بالقول الطيب، وببيان الحقيقة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومع ذلك فلا يقوم بهذا الأمر المشروع الخواص من العلماء فضلاً عن عوام المسلمين.

ويمكنني أن أقول وبكل جرأة: ليس هنالك أحد بين المسلمين من يدعو أتباع الأديان الأخرى إلى الإسلام، بل ليس لدينا من العلماء والوعاظ من يقوم بتعليم أركان الدين، ويكشف الحقائق للذين ورثوا الإسلام عن آبائهم وأجدادهم ولا يعرفون حقائقه، سواء في ألبانيا أو في عربستان أ و في كردستان، لذلك فإننا نرى تزايد عدد المتنصرين كل عام، وهم تحت حكمنا وأمام أعيننا.

وإذا كان علماء العاصمة، وهي مقر الحكومة ودار السلطنة الإسلامية بهذه الحالة، فلا حاجة لذكر المسلمين الذين تحكمهم حكومات نصرانية ظالمة في الهند وروسيا حينما نراهم لا يشتغلون بمثل هذه الأمور. وليس لأحد أن ينكر هذه الحقيقة، أي ليس عندنا تبشير.

ومع كل هذا فإننا نرى أعداداً كبيرة ممن يهتدون إلى الإسلام من مجوس الهند، ومتحضري أوربا و سكان أدغال أفريقيا. إن عملية الاهتداء مستمرة بشكل عظيم بالرغم من العوائق الرسمية، و نرى في الهند بشكل خاص، كثيرا ممن يقصدون المساجد ويعلنون إهتداءهم. وعندما كنت في البنغال دخلت في حديث مع أحد المجوس وتطرقنا إلى موضوع الدين

فسألته عن مبلغ تمسك الهندوس بدينهم فأجاب المجوسي قائلاً: سيأتي زمان يحتمي فيه كل المجوس في الهند بالإسلام، ولن يبقى أي من المذاهب البراهمية و الزرادشتية و البوذية. – وجد بين الناس في الماضي والحاضر، وستجدهم في المستقبل أيضاً، من ينتقل من دين إلى دين آخر لغرض أو لهداية من الله، إلا أن العقائد الراسخة في القلوب منذ آلاف السنين، لن تندثر بتحول عدد من الناس هنا و هناك.

- لا، إننا نرى بأن تطور الأزمان، ومصالح الناس تؤثر في العقائد أيضا، وستكون المصالح الاقتصادية والشخصية في حياة الناس متقدمة على كل اعتبار، ولن يجد الهندوس وسيلة للحفاظ على مكانتهم الاقتصادية في الهند سوى اللجوء إلى باب الإسلام. إننا نشاهد اليوم أن الذين اعتنقوا النصرانية من الهندوس قد ندموا على تنصرهم، لأن النصرانية هزت مكانتهم السابقة و وصلت بكثير منهم إلى البؤس والشقاء، والمذهب البراهمي يمنع الرجوع إليه و لذلك فهم في حالة شديدة من الفقر والعوز.
أما الذين لجأوا إلى الإسلام فقد استقامت أوضاعهم الاقتصادية، كل هذا نراه بأعيننا، لأن الإسلام يحض على التعاون و التناصر، ولا تجدهما في النصرانية. إن المنصرين يتظاهرون في أول الأمر بالحنو والإشفاق، فما أن يتنصر الناس إلا ويتخلوا عن الأبوة والحنو، واليك عدد من النماذج فلان وفلان (وذكر بعضاً من أسماء المشاهير في الهند)، لقد تشرفوا بالإسلام، ونشاهد على أبوابهم اليوم مئات الرجال، يقدمون المساعدات لآلاف الفقراء منهم، أما عدد الذين يكسبون قوتهم من النصارى فمحدود. ثم إننا نرى كل عام مئات من الناس يتشرفون باعتناق الإسلام، وكل هؤلاء مرتاحون مما هم فيه من العيش، كما أن الإنجليز يحترمون المسلمين أكثر. أما المنصرون فيطعنون في البوذية والبراهمية ويهينون أتباعهما علناً. كما

أنهم ينتقدون الإسلام ولكنهم لا يجرأون على الطعن والتحقير، وهذا مما يجعل قومنا يلجأون كليا إلى الإسلام. ولا أنكر أن هناك أسباباً أخرى. وخلاصة القول: إن المجوسية في الهند في سقوط مريع.

إنني بصفتي زرادشتياأحزن لما نحن فيه، إلا أن هذا هو الواقع، كما إنني أرى أن التعصب الذي نراه عند مجوس البنجاب هو الذي يمنع إندثار وانقراض مذهبهم خلال وقت قصير. ومع ذلك فإنني أؤكد لك بأن المجوس في كل وقت يفضلون الإسلام على النصرانية، وهم أصدق في عداوتهم للنصارى، إلا أنهم يخشون من إظهار العداوة لهم.

استطراد

هذه خاصية في الإسلام لا تدركها عقول البشر، فكلما ابتعد المسلمون عن دينهم ازدادت الأمم الأخرى تقرباً منه، وأظهر الناس في كافة أنحاء العالم إعجابهم بالإسلام (دون تأثير خارجي)، وانتشر الإسلام بينهم تلقائيا. صحيح إنه ليس عندنا مبشرون، ولا وعاظ، وليس في المسلمين التقليديين ما يعجب أو يغبط، بل إن كثيراً من شبابنا يخجلون من إسلامهم، ويشعرون بالأسف على كونهم مسلمين، ومع ذلك فان المئات بل الآلاف من المجوس والنصارى يعلنون الاهتداء في كل عام.

اللهم أحسن إلى المسلمين بالهداية.

الحجاب في الهند

هناك أمر يشغل أذهان المسلمين في كثير من البلدان في عصرنا الحاضر، ألا وهو أمر الحجاب. فالمسلون في الصين والهند لا يهتمون بالحجاب، والمسلمات الصينيات لم يطبقن أمر الحجاب في أي وقت من

الأوقات. أما في الهند فلا يطبق الحجاب إلا في أسر الأعيان والأشراف، وتعرفه طبقات من العوام والطبقات الأخرى.

والحجاب يتفاوت تطبيقه من بلد إلى بلد حسب العادات القديمة للشعوب، فمثلا، الناس في القرى لا يطبقون الحجاب، أما الحجاب في قبائل القيرغيز والقازاق فيقتصر على ستر الشعر بين النساء من كبار السن، أما الصبايا فلا يسترن شعورهن، والنساء المسلمات في قازان يخرجن من بيوتهن بلباس أخضر يعرف بالجابان، وفي تركيا - دار الخلافة - يتلفحن بالشراشف السوداء، وفي بخارى وتركستان يلبسن الجابان، ويغطين وجوههن بالخمار الأسود المصنوع من شعور الخيل، وفي الجزيرة العربية تجد النساء يتحجبن بشكل يتوافق مع طبائعهن، وكل هؤلاء يعتقدون أن ما يفعلونه هو الأوفق للشرع.

وقضية الحجاب تتصدر الصحف والمطبوعات منذ عشرين أو ثلاثين عاماً، و الكتب المؤلفة بالتركية والعربية حول هذا الموضوع جديرة بالمطالعة والملاحظة. وأرى أن هذه الكتب عند قراءتها بدقة، يتبين لنا أن جميع الكتاب لم ينظروا إلى الموضوع نظرة شمولية، بل خاضوا في الموضوع بدافع من أفكارهم وأحاسيسهم من دون أي اعتبار لآراء بعضهم البعض. ومن الواضح أن الإفراط والتفريط أدى بالناس إلى الغلو دون الالتزام بالوسطية. أما علماء الهند فتركوا الناس في قضية الحجاب، على ما هم عليه من العادات والتقاليد وهم يرون أنه لا فائدة من الحديث في هذا الموضوع، وحتى وإن تحدثوا فلا يكون له أي تأثير.

أما أنا فأتجنب دائماً الخوض في قضية الحجاب، وأكتفي بالقول: بأن حق الضعفاء في هذه الدنيا كان وما يزال في ضياع، وقد أكد رسول الله ﷺ على أهمية حقوق المرأة حيث قال: «حبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء

والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة» ويقول القطب الأكبر محي الدين في الباب الثامن بعد المائة من فتوحاته «فمن عرف قدر النساء وسرهن، لم يزهد في حبهن، بل من كمال العارف حبهن، فانه ميراث نبوي وحب الهي».

وفي كل أمة من الأمم تجد النساء أكثر الناس تعرضا للظلم والقهر، فالظالمون من الرجال يتحدثون عن الحجاب بشكل يرضي شهواتهم، أما عن حقوق النساء فلا ينطقون بكلمة واحدة، و الغربيون و الشرقيون على حد سواء كانوا وما يزالون يفضلون استغلال ضعفهن والفرق بين الغربيين والشرقيين: أن أحدهما قد أعمته الشهوة، والآخر قد عماه سفهه. وقضية الحجاب تولدت من هاتين الظاهرتين المرضيتين حتى أخذت أبعادها في الصحف والمطبوعات. أما كنه القضية فمازال مهملاً.

ومع ذلك فلا يفوتني أن أذكر بهذه المناسبة ما حفظته من الأحاديث الشريفة:

المرأة الصالحة نصف الدين فاتق الله في النصف الآخر.

خياركم خياركم لأهله.

أوصيكم بالنساء خيراً.

إذا أخذ بكفها تساقطت ذنوبهما من خلال أصابعهما.

فإذا أخذ الرجال بهذه الأحاديث، أعطوا المرأة مكانتها التي تستحقها، وحفظوا حقوقها. ومع ذلك فان النساء في أوربا أكثر تعرضا للظلم من نسائنا

العمائم في الهند

العمائم عندنا سنة، ومعروفة بأنها تيجان العرب، أما في الهند فتلبسها الأقوام الهندية عموماً، إلا أن هناك إختلافات بسيطة في العمائم، فالعلماء يتميزون بعمائمهم البيضاء، والمجوس بعمائمهم الصفراء، أو الصفراء فاتحة اللون. أما اللون الأحمر والأخضر والألوان الأخرى فتجدها في عمائم المسلمين والنصارى عموماً، و أما الطيلسان (الذيل) فتجده أطول شيء في عمائم عمال الفنادق، والأجراء الذين يجرون أمام العربات و بوابي البنوك وأمثالهم. وقد تم عرض نماذج لجميع أنواع العمائم المستعملة حالياً، داخل واجهة زجاجية في متحف حديقة فيكتوريا بمدينة بومبي. وقد عددت ما يقارب من مائة نوع من العمائم. إن كل العساكر الهندية يلبسون العمائم على رؤوسهم، يستوي في ذلك الضباط والأفراد، ولا يمكن التمييز بين أتباع المذاهب بعمائمهم. ومما لاشك فيه أن السكان المحليين يفرقون بين المسلم والمجوسي بعمائمهم، وهذا الأمر يقتصر على الناس داخل الولاية، والتفريق بشكل عام لا يكون بالعمائم، بل بالإشارات المزركشة في أطراف أرديتهم، أو من طريقة لبس أرديتهم. أما المسلمون بشكل عام يتميزون عن غيرهم بما يسمونه بالتوبي، أو بغطاء الرأس المزركش. والتوبي الهندي، هو نفس ما يلبسه التتار في روسيا و يسمونه (توبه تاي). إلا أنه في الفترة الأخيرة تلاشت أنواع التوبه تاي بين التتار، وبقي التوبه تاي الأسود. أما في الهند فتوجد كثيراً من أنواع التوبي غالية الثمن.

ولا أخطئ إذا قلت بأنه إذا كان في الهند من شيء لا يمكن وصفه بالقلم فهو ما يلبسه الهنود على رؤوسهم من الأغطية.

و يمكنني أن أقول بوضوح بأن العمامة في الهند لا يمكن اعتبارها من شعائر المسلمين. أما لبس العمامة لدى مسلمي روسيا فهو عبادة، فلا يلبسها إلا العلماء و لا يلبسها العلماء إلا أثناء العبادة، و لعل للمناخ أثر في ذلك.

حوار مع أفغاني في بومبي

كنت ذات يوم أصلي التراويح في مسجد الميمني في بومبي، فتخطى الصفوف شاب حتى وصل إلي، ووقف يصلي بجانبي. وبعد الصلاة نظر كل منا إلى الآخر، وكأن جاذبا مغناطيسياً جذبنا إلى بعضنا، فتآلفت الأرواح وارتبطت القلوب، وسلمنا على بعضنا، وسألنا عن الأحوال و تعارفنا. كان أخونا تاجراً أفغانياً، ولم تكن القوة التي تربط بيننا وتجعلنا نتحاور سوى الإسلام. عرفت أن إسم أخينا الأفغاني هو رحيم بخش. قلت له: أريد أن أعرف منك الكثير عن أفغانستان، فيا أخي سأكون ممتنا لك إن ضحيت ببضع ساعات من وقتك لتزويدي بما أريد، فقال: وأنا تخطيت الصفوف حتى وصلت إليك، على أمل الحصول منك على معلومات عن تركيا.

قلت: سنوات قد مضت على عهدي بتركيا، خاصة وأن أحداثاً جديدة وقعت فيها، وليس عندي ما يفي بحاجتك من معلومات ولا أستطيع مطالعة الصحف في هذه البلاد، لذا فلا أستطيع تزويدك بمعلومات تنتفع بها.

رحيم بخش: إننا نكن حباً لتركيا من غير أن نراها، ومن حيث الأساس لا أملك أية معلومات عن تركيا. إن بعض الحجاج يحملون معهم بعض

المعلومات السطحية والمبهمة عند قدومهم من مكة، وهم بدورهم لا يحصلون على معلومات شافية، لأن أكثر الحجاج من الجهلاء والأغبياء.

لم نقم مع تركيا علاقات أيام عبد الحميد كما لم تكن العلاقات موجودة قبله. و في الأعوام الأخيرة تعرفنا بعض الشيء عن الأتراك والعثمانيين من أعمدة الصحف، بفضل جهود مسلمي الهند خصوصاً بمناسبة الخط الحديدي الحجازي، هذه هي كل معلوماتنا.

إن الله تعالى أمرنا بالسياحة و أمرنا بالاعتصام بحبل الله، وأمرنا بالتعارف، ولكن لم يقم أفغاني واحد بزيارة إسطنبول منذ أن صارت مقرا للخلافة. ما الحيلة، إننا أناس تعساء.

- كما أن تركياً لم يكلف نفسه عناء القدوم بقصد السياحة والسؤال عن أحوال إخوانه المسلمين الأفغان .

- على كل حال، قد يكون هناك سبب لا نعرفه لحالة الجمود التي نعيش فيها نحن المسلمين، لذلك فلا يمكننا أن نلوم أحداً.

- بلا شك، خاصة وأن قومنا الأفغان عاشوا في جهل مطبق، ونحمد الله تعالى أن جاءنا عبد الرحمن خان فأيقظنا، وإلا فلم نكن نعرف شيئا عن الحياة الاجتماعية والسياسية، فعبد الرحمن خان هو الذي أسس تاريخ أفغانستان، فتاريخنا حديث جداً،لذلك فمن الخطأ انتظار شيء من الأفغان في هذه الفترة.أما الخلافة العثمانية فهي محور الإسلام منذ ستمائة عام، وفي وسط أوربا، وتتمتع بالاستقلال التام. لذلك فان المسلمين بصفة عامة ينظرون إلى شعب إسطنبول وإلى رجال تركيا نظرة إكبار، وينتظرون منهم أن يكونوا دعماً لهم. هذا الذي أقصده، فإمارة أفغانستان إمارة فتية.

إنك تريد الحصول على معلومات عن أفغانستان، وسأزودك بمعلومات مختصرة عن حاضر بلدنا فأقول: في عهد المرحوم الأمير عبد الرحمن خان

بدأت الحياة تنشط في أفغانستان، ولكن مرت في نفس الوقت كثير من الأحداث الداخلية، والحركات الدامية لإخماد التمردات القبلية. لقد شهدت أفغانستان الحروب من جانب والإصلاحات من جانب آخر. فلقد واجه الأمير المرحوم كثيراً من المتاعب، واضطر لاتخاذ إجراءات مغايرة لضميره، واستطاع أخيراً بفضل التضحيات العظيمة إخضاع القبائل المتوحشة لطاعته. ومن جانب آخر إهتم بتنظيم الجيش، وتأسيس المصانع لتأمين المهمات واللوازم العسكرية وغيرها، ولم يكن يعمل بصفة الأمير والحاكم فحسب، بل كان يكدح ليل نهار كأنه المهندس والمعلم والقائد والعامل، فاستطاع بجهوده مقاومة أطماع دولتين عظيمتين مثل إنجلترا وروسيا، وحافظ على مملكته وطورها.

لقد كان عبدالرحمن خان مؤسس أفغانستان، والحق أقول بأنني عاجز عن وصف بطولات وخدمات هذا السياسي الداهية، ولكن عمره كان قصيراً، فلم يمهله الموت لإكمال ما بدأه.

واليوم يعمل إبنه الأكبر حبيب الله خان حسب وصية أبيه، لكنه قليل الخبرة ولا يملك الدهاء الذي كان عند أبيه، ومع ذلك فهو يعمل، والشعب راض عن حبيب الله خان بغض النظر عن الفرق الذي بينه وبين أبيه، فهو عظيم إذا قسناه بأقرانه، ونأمل أن يحفظ البلاد من أطماع العدو بعون الله.

ولكن هل ستصير أفغانستان دولة إسلامية كبيرة كما كان يأمل المرحوم عبد الرحمن خان؟ هذا سؤال مهم، والإجابة عليه صعب، ومع ذلك فان حبيب الله خان لو كان بذل جهده، وأقام علاقات مع تركيا، فلا يبعد أن أصبحت لأفغانستان مكانة تصير بها ظهيرا لتركيا. إن أفغانستان اليوم لا تعدو كونها إمارة صغيرة و لكنها تقدر على إثبات وجودها بأهميتها

الاستراتيجية، خاصة وهي تجاور كثيراً من الإمارات الإسلامية في الهند، حيث يمكنها تسليح هذه الإمارات، و الأفريديون في الأصل شعب مسلح.

-وهل يمكن لأفغانستان أن تجهز جيشاً نظامياً؟ أرجو أن تزودني بمعلومات بهذا الشأن .

-لا يزيد عدد الجيش النظامي في أفغانستان اليوم عن مائة وخمسين أو مائتي ألف و لكنها عند الضرورة تستطيع تجهيز ثلاثمائة ألف، و ذلك لأن الكوهيين جنود بطبعهم، إلا أن تأمين السلاح الحديث يحتاج إلى المال، والشرق عندنا لا يملك الثروة حالياً، فهو يحتاج إلى القروض، وحبيب الله لن يقترض من الأجانب مثلما وصاه أبوه، لأنه إذا اقترض فسيجد الإنجليز القروض وسيلة للتدخل، وإذا بقيت أفغانستان مغلقة فستكتفي بمواردها، أما إذا فتحنا أبوابنا للأجانب فستزيد الاحتياجات، ولن تقدر الواردات على تغطيتها.

والخلاصة، فلا أمل حالياً في أن تخدم أفغانستان العالم الإسلامي، إذاً فان القوة الوحيدة التي نؤملها هي الدولة التركية. لذلك فقد كنت بأمس الحاجة لأن أتزود منك بمعلومات عن أوضاع تركيا. أريد منك أن تعطيني فكرة عن الشباب الأتراك (أعضاء حزب تركيا الفتاة) فلا بد أن يكون لك رأي فيهم.

-أظن أن بعض الشباب الأتراك يعيشون في أفغانستان، فاذا رأيتهم، فسوف تحصل على فكرة منهم.

-نعم لقد جاءنا عدد منهم، إلا أني لم ألتق بهم ولكنني سمعت بأن فيهم أناس لا خلاق لهم، لدرجة أنهم يتناحرون فيما بينهم ولا يهتمون بالدين، ولقد روى لي بعض الناس أن فيهم صحفي سيئ الأدب، ولا يتوقع أن يأتي إلى مثل هذه الأماكن البعيدة أناس يتوسم فيهم النفع، فمن فيه

الخير يكون نافعاً لأهله وبلده، ومع ذلك فإنني أظن بأن عددا منهم يعملون في قصر الأمير، وقد افتتح أحدهم مدرسة عسكرية وسمعت بأن المدرسين فيها من الأتراك و لكن معلوماتي عنهم غير كافية .

- وحاشية الأمير؟ هل فيهم من بقي من أيام أبيه؟ وهل فيهم رجال معروفون؟

-نعم، فيهم من القدماء من كان قائداً ورجل دولة، إنه يستخدم رجالاً كانوا في خدمة عبد الرحمن خان، ومع ذلك فان ولي العهد «معين السلطنة» هو قائد الجيش و هو إبن الأمير، والحقيقة إن حاشيته من الأسرة الحاكمة.

وأريد منك الآن أن تزودني بمعلومات عن تركيا. لماذا خلع الأتراك الشباب السلطان عبد الحميد عن العرش؟ فإنه مهما كان ظالماً، لكنه كان رجلاً عاقلاً، الثورة أيدها كل الناس ولكن خلع عبد الحميد لم يستسغه أحد.

- قلت لك بأنني لم آت من إسطنبول، لذلك فان معلوماتي لا تزيد عن معلوماتك، إلا أنه يمكنني أن أقول: إن عبد الحميد وان كان رجلاً عاقلاً، فلو لم يستحق الخلع، لحفظ الله له منصبه، وقد تم الخلع، فذلك يعني أنه استحق ذلك بما كسبت يداه، ولا يمكن لأي قوة آدمية أن تزيل أحداً من ذلك المقام .

- لننظر ماذا ستفعل تركيا! من المؤكد إننا نريد رفعة وعزة ذلك المقام، ونرجو من الله تعالى أن يعلي كلمة الإسلام، ولا فرق عندنا بين عبد الحميد ومحمد رشاد يا سيدي، ولكن لا أدري ما سبب عدم اطمئنان الرأي العام في الهند لهذا الرجل. إن كل أملنا ينصب على تركيا، وإذا فقدناها فسيسوء حالنا بشكل فظيع، إننا قلقون من هذه الناحية.

-لا تقلق أبداً، لم يكن عبد الحميد حامياً للإسلام، كما لن يكون محمد رشاد، إن الحامي الحقيقي لهذا الدين هو الله تعالى، ومشيئة الله هي الغالبة .

- سيدي الفاضل! من غير المناسب إنكار الأسباب.

- إذن السبب هو الدين، ولو تمسك المسلمون بدينهم لتحقق سر قول الرسول ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين».

- مهما حدث فإننا ندعو الله تعالى أن يحفظ الدولة التركية، ففي رأيي أنها الملجأ الوحيد لأمة الإسلام. لنتلو الفاتحة بهذه النية. الفاتحة. وودعني قائلاً، في أمان الله، خدا حافظ.

خلال إقامتي في الهند التقيت قبل هذا الرجل بكثير من الرجال الأفغان، و أجريت معهم أحاديث و لكنني لم أعرف منهم الشيء الكثير. ومن المؤكد أن أفغانستان قوة لا يستهان بها، حماها الله. كان رأي هذا الرجل في الأمير حبيب الله خان طيباً. انه مكسب كبير للمسلمين، حماه الله وأدامه.

وضع السنة والشيعة
من وجهة نظر الجامعة الإسلامية

لا أرى ضرورة في إبداء رأي مفصل في هذا الموضوع، وسأكتفي ببيان وضع اتباع المذهبين. فالشيعة في الهند لهم مكانة كبرى من الناحية الاقتصادية مثل شأنهم في الدول الأخرى. والحقيقة إن الشيعة يسبقون السنة في أبواب التجارة في كل مكان، فهم مفطورون على التجارة. ومما لاشك فيه أن طول الباع في التجارة يترتب عليه طول الباع في الفكر والثروة أيضاً،

وهي عناصر قوة ظاهرة لجمع كلمة المسلمين. ويتفوق الشيعة على السنة في الجانب المعنوي تفوقاً كبيراً. وأكبر قوة لديهم هي نفورهم من أتباع الأديان الأخرى، ونظرتهم إليهم هي كنظرتهم إلى المشركين مما يزيد من قوتهم المادية، وهذه خصائص يحسدهم عليها أهل السنة. ومن خصائصهم أيضا توقيرهم للكبار واحترامهم للعلماء، وأكبر مزاياهم «تفكيرهم في طريقة صرف الأموال أكثر من تفكيرهم في طريقة جمعها» وكل مزية من هذه المزايا، خصال تصب في خانة الجامعة والتضامن الإسلامي قل أن تجدها عند أهل السنة. و علماء الشيعة يفضلون على علمائنا من كل الوجوه. ولا يقتصر علمهم على مذهبهم، بل أن فيهم كثير ممن لهم باع في مذهب أهل السنة أيضاً. أما رقة القلب والبكاء فلا تجدهما لدى أهل السنة أبدا، ذلك لأن مذهبهم تأسس على الدموع والآلام.

وعلى هذا فإننا إذا فكرنا بعمق لوجدنا أن الريادة في مسألة الجامعة الإسلامية هي للشيعة، أي أنهم أولى بهذا الواجب، و إن التضحيات من جانبهم ستكون أكبر.وخلاصة الأمر، أن الكلمة الأولى في أساس الاتحاد هي للشيعة، فمن الأجدر والأسهل أن يبدأوا بمباشرة الموضوع والانتهاء منه. أما ما يخص أهل السنة، فيأتي في الدرجة الثانية، ذلك لأن قابلية الاتحاد عندنا ناقصة، وإننا لم نعتن بمبدأ الأخوة في يوم من الأيام، وعلماؤنا دفعونا إلى الفرقة، ففقدوا مصداقيتهم. وبناء على ما سبق يمكنني أن أقدر وضع الاخوة من أتباع المذهبين من حيث الجامعة الإسلامية، آملا أن ينسوا ما حدث قبل ألف وثلاثمائة عام، ويفكروا -إن استطاعوا- فيما قد يحدث بعد ثلاثة أعوام، إذاً لعرفوا أن سعيهم للحفاظ على سلامة الأمة وبقاء الدين، أولى وأجدر وأنفع من الخوض في التاريخ السياسي. إن هذه الأمور على وشك أن تجد حلا بين أتباع المذهبين على هذه الصورة في

الهند أكثر من غيرها، فكل الظروف مهيأة لذلك، ويبقى أن يتخلص بعض الناس عن مصالحهم الشخصية كي يتحقق المطلوب.

اتحاد المسلمين مع المجوس

بالرغم من أن الأقوام التي تعتنق هذين الدينين المتضادين تنظر لبعضها نظرة الحقد والعداوة، وترى أن حياتها في مصائب الآخرين، فان المصالح السياسية قد تجمعهم في نهاية الأمر. ومهما بدا هذا الأمر بعيداً عن العقل والمنطق، فان الحكمة السياسية والمصلحة الاقتصادية تجعلان هذا الأمر ممكن التحقق بالقدرة الإلهية (ذلك بأن دول البلقان التي تعادي بعضها بعضا في الأصل، إلا أن المصالح السياسية جمعتها، ثم صدق بعد ذلك فيها قول الله تعالى: ﴿وألقينا بينهم العداوة﴾ فعادت إلى العداء القديم) إننا بواقع الأمر إذا أخذنا بالحسبان النفور و البرود الشديد بين المسلمين والمجوس في أهم المدن الهندية، فهل يمكننا أن نتصور اتحاد المجوس المتعصبين مع المسلمين، وهم يغتسلون من ظل المسلمين، ويعتقدون بنجاستهم؟ فالعقل لا يقبل بذلك باعتبار ظاهر الحال. ثم إن المنصرين يصرفون الملايين في سبيل تضليل أمم الشرق والتفريق بينهم، إذا فكيف يتصور أن يكون فيهم استعداد للاتحاد؟ إلى غير ذلك من الموانع المادية والمعنوية. وبالرغم من كل ذلك فان هناك إمكانية لاتحادهم، بل إن اتحادهم أصبح ضرورة ولازماً، وحياة كل من أهل الديانتين تتوقف على اتحادهم، ولا بقاء لهم إلا بتحقيق ذلك.

إن ظلم الإنجليز في الهند لكل من الملتين قد تجاوز الحدود ولم يعد يحتمل. فالسبب الرئيسي في اتحادهما هو ظلم الإنجليز وهذا أمر طبيعي،

ولن يدوم الظلم في أي زمان وفي أي مكان، حتى وان كان ظلم الدولة أو الحكومة ضمن حدود القانون والنظام فهو ظلم، وستكون النتيجة لصالح الأمة المظلومة و هذا قانون ثابت لا يتغير، وظلم الإنجليز سيكون في النهاية سببا لنجاة وفلاح الأقوام الهندية.

إن كانت الأقوام الهندية تنقسم إلى أعراق مختلفة، فان معيشتهم ضمن مجتمع واحد جعلت أشكالهم واحدة، فالعناصر العربية والتركية والفارسية والمغولية صارت كأنها عنصر واحد، لم يبق بينهم أي فرق ظاهري، إنهم ينتسبون إلى عناصر مختلفة، و لكنك لا تفرق بين الهندي المغولي والهندي الإيراني أبداً، إنهما توحدا دماً، أما عدم توحدهما دينا فذلك بسبب الحرية في الإسلام، فالحكام المسلمون لم يضغطوا على أحد، بل لم يقوموا بواجب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتغافلوا عن كل التيارات في بلادهم وتركوا الأقوام على طبيعتها، وأضاعوا بلادهم نتيجة هذا التغافل (وليس بنتيجة الظلم). أما اليوم فان كل الهنود يتعرضون للظلم بلا تفريق بين مذهب وآخر، والظالم متغلب قادم من الخارج. ولهذا السبب فان مصالح الهنود ستتوحد، خاصة و إن حاجة المسلمين إلى الهندوس أكثر، لأن كل التجار وأهل الحرف، وأصحاب الثروات هم من الهندوس، وزبائن أمتعتهم هم المسلمون الهنود. ثم أن كلا الجانبين يمتاز بالحس واليقظة، وإذا كانت اليقظة في الهندوس أكثر إلا إن المسلمين أيضاً لا يعدمون من الإحساس واليقظة، بل إن الإحساس والشعور لدى علماء المسلمين أقوى، وهناك كثير من الأمور لا يمكن الاجتماع حولها إلا بمشاركة علماء المسلمين. وخلاصة القول، فان رأيي بأن تخلص الهنود من الأسر لا يتحقق إلا باتحاد مسلمي الهند مع الهندوس، وإذا تحقق الاتحاد، فسيسهل أمر الخلاص كثيرا. واليوم يقارب عدد الجنود الهنود النصف مليون، وعدد

الجنود الإنجليز لا يزيد عن خمسين ألفا، ولو أراد الجنود المحليون لقضوا على الجنود الإنجليز عن بكرة أبيهم، وقد يتحقق الاتحاد المجوسي والإسلامي في بداية الأمر في صفوف الجيش، لأن أكثر الظلم وأشده تجده في القوات المسلحة. هذا و إن كانت إقامتي في الهند قصيرة، ولم أحصل على معلومات مفصلة، فان المعلومات التي لدي أوصلتني إلى هذه الفكرة وهذا الأمل، فرأيي أن عمر الإنجليز في الهند سيكون قصيراً جداً.

المعارف في الهند

من جهة المعارف فان الهند تعيش في عصر بني إسرائيل، والهند في القرن العشرين تعيش في مرحلة القرن الخامس عشر، والهنود المحليون لم يتلقوا شيئاً من المعرفة ولن يتلقوا في المدى المنظور.

نعم إن الهندوس لديهم نصف معرفة، ومعلومات ناقصة، أما المسلمون فمحرومون منها، واحتمال حصولهم عليها بعيد.

نعم إن الهندوس يملكون شيئا من المعرفة الناقصة، في حين لا يملك المسلمون من هذه المعرفة شيئاً، ولا ينتظر منهم أن يملكوها في المستقبل القريب. ذلك لأن الإنجليز يريدون أن يزرعوا في السكان المحليين اللغة الإنجليزية والروح الإنجليزية، ولا تجد عند المسلمين في أي بلد كانوا فيه رغبة في تلقي العلوم بلغة الفرنجة، وعدم رغبة التتار في روسيا في العلم إلى يومنا هذا يرجع إلى سبب اللغة. وأرى أن هذه المسألة مهمة جداً، وقد يتهم البعض المسلمين بالتعصب في هذا الموضوع لأن أصل الموضوع لا ينبع من التعصب، فهو نوع من التعصب اللا إرادي.

وإننا نشاهد الآن في أنحاء متعددة من العالم مسلمين تركوا التعصب جانباً، وتلقوا العلوم بلغة أوربا، بل تركوا بلدانهم وأكملوا علومهم في

أوربا، ولكن تبقى معرفتهم ناقصة ولا يمكنهم أن يكونوا بمستوى الأوربيين ولا يكتسبون المعلومات التامة، وأريد أن أقول بأن الأوربيين لا يريدون أن يزودوا المسلمين بكل ما لديهم من معلومات، فهناك الآلاف من المسلمين أكملوا الدراسة في أوربا، ولكن لا تجد مسلماً واحداً اكتسب مهارة تخصصية، حتى أنك تجد في شهادات الذين أكملوا تحصليهم في فرنسا شرط عدم استخدام الشهادة في فرنسا.

وهناك كثير من الهنود أكملوا تحصيلهم في إنجلترا، وأن فيهم بعض من الرجال النافعين، إلا أن تسعين بالمائة منهم قد ابتلوا بفساد الأخلاق، لذلك فان الآباء مضطرون لأخذ الحذر من تدريس أبنائهم بتلك الطريقة. إنهم يصرفون سنوات من عمرهم وآلاف من نقودهم، ثم لا تجدهم يقدرون على عمل شيء. إننا عند الحاجة نستقدم المعلمين الأوربيين والمهندسين الأوربيين والمستشارين الأوربيين والكيميائيين الأوربيين والميكانيكيين الأوربيين، والى غير ذلك من الأوربيين، عندئذ يحق للمرء أن يتساءل: ما الذي كسبناه من الدراسة.

و هاهم مسلمو الهند لاحظوا ذلك وحققوا فيه، واضطروا في النهاية لأن يلزموا جانب التعصب. يقولون: إذا لم ينلنا من المعرفة سوى فساد الخلق، فالجهل مع التدين أهون شراً من تحصيل المعرفة والابتعاد عن الدين.

وبعد أن استمعت إلى عدد من المسلمين الهنود في هذا الشأن قلت لهم بأن الهندوس إذا استلموا مقاليد الأمور في المستقبل، فلن يبقى للمسلمين سوى الأسر، فأجابوا: لا مستقبل للهند، والعاقبة ليست للهندوس بل وليست للإنجليز، لأن الأمر لن يقتصر على انقراض الناس، بل إن الأرض ستتعرض للخراب، فالأراضي التي استولى عليها الإنجليز لم يعد يرجى منها نفعا أو تكاد تكون كذلك. إن زيادة واردات الحكومة الإنجليزية من

الهند كل عام ليست بسبب النمو في المحاصيل، بل بسبب الظلم الذي يمارسه الإنجليز. لقد رفعوا نسبة الضرائب على المحاصيل كل عام حتى وصلت إلى خمسين في المائة، وهذا يعني أن الحكومة أصبحت الشريك المباشر للفلاح في المحصول، مع أن إنتاجية المحاصيل الزراعية في الأراضي التي تسيطر عليها دولة إنجلترا تدنت إلى النصف بالمقارنة إلى الإنتاجية قبل عشرين عاما. ولا أخطئ إذا قلت لك بأن دولة إنجلترا هي الجراد الذي خلق لتخريب الهند.

ثم إن المعارف ليس في إمكانها إصلاح هذه البلاد، فالهند هي بلاد الفلاحين، و إعمارها لا يكون إلا عن طريق الزراعة، ولكن إذا شاركت الحكومة في ناتج نصف المحاصيل، فليس هناك أمل بتطور الزراعة في الهند.

لقد رأيت كثيراً من الناس لهم مثل هذا الرأي. وخلاصة الأمر فانه يبدو لي بأن مسلمي الهند لن يقتربوا من المدارس الإنجليزية.

ويقول بعضهم بأن الإنجليز بدأوا بالتعرض للدين في الفترة الأخيرة. ففي بداية الأمر أعطوا عهداً مكتوباً بعدم التعرض لأمور الشرع الشريف في أي حال من الأحوال و لكنهم ما لبثوا أن ألغوا كثيراً من مواد ذلك العهد المكتوب، ألغوا قوانين أحكام الشرع والقضاة، وقرروا السيطرة على الأموال الوقفية، إلى غير ذلك من الأمور التي يشتكي منها المسلمون الهنود بمرارة.

هذه هي تصورات بعض الرجال في الهند وهذه هي آراؤهم.

ومن جهة أخرى فان هناك من يعقد الأمل في المستقبل على المدارس الجديدة التي افتتحوها. فقبل عشرين عاما قام رجل إسمه سيد أحمد خان بإنشاء وفتح كلية في عليكرة وقرر بذل الجهود في تدريس العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية إلى جانب العلوم الدينية، ولكني أظن بأنه لم يتوصل إلى

النتيجة المطلوبة. وسمعت بأنهم افتتحوا كليات شبيهة بتلك في مدن أخرى، ويقال بأنه لم يتخرج من أي منها رجلا يشار إليه بالبنان.

وخلاصة القول بأنه مع وجود الرغبة لدى بعض الرجال من المسلمين الهنود في المعرفة.فانهم يخططون أن يجمعوا بين المعرفة و بقاء الاحترام للدين، إنه من النادر أن تجد في الهند من ينأى عن الدين، ومع ذلك فإن فيهم من يرى أن المعرفة تتنافى مع الدين.

خاطرة

قد يتساءل المرء، كيف تبقى الهند في مثل هذا الجهل والتخلف، وهي تحت حكم إنجلترا التي تعتبرأرقى دول العالم؟ أو لماذا تبقى الشعوب في مثل هذا التخلف وهي تتبع أكثر الحكومات حرية؟ قد يخطر على البال مثل هذا التساؤل، ولكننا لو أمعنا النظر لرأينا أن الأمم الحاكمة لا تريد أبدا للأمم المحكومة الرفاهية والتطور لان تطور الأمم المحكومة سيؤدي إلى خلخلة أو إضعاف مكانة الأمة الحاكمة، وإذا تطور الهنود فستتعرض مكانة الإنجليز في الهند للسقوط الكامل، ثم إن الإنجليز سيتعرضون لآلاف المشاكل إن هم حاولوا أن يأخذوا عشر ناتج المحاصيل وليس نصفه، ولا يستطيعون بعد ذلك أن يستمروا في نهب البلاد كما كانوا في السابق.

لذلك فان الإنجليز لا يريدون للهنود أن يتطوروا وسيسدون كل طريق للخير يتجه نحو المعرفة. وبالأحرى فإن الأمر لا يقتصر على الإنجليز في سد طريق المعرفة على الهنود بل إن عموم الأوربيين قد وضعوا العراقيل الكبرى في وجه عموم الشرقيين لمنعهم من طرق أبواب المعرفة، فاسطنبول مثلاً ترسل رجالا لتلقي العلوم في أوربا منذ مائة عام ومع هذا فإنها تستقدم معلمين من أوربا ولا تجد لديها من الأتراك من يليق بان يكون مفتشا للتذاكر في الحافلات أو من يقف على باب المترو أو يستطيع أن يكون في

مرتبة البواب. أظن أن هذه هي الحقيقة كالشمس يجب علينا أن نعترف ونقبل بها.

ففي بعض الفترات إستقدمنا متخصصين من أوربا فماذا كانت النتيجة :لقد أحرق زيجني باشا ثلثي إسطنبول ولم يعمل فكره في جلب خراطيم لإطفاء الحريق بل تشاهده واقفاً بجانب الوزراء يتفرج على الحرائق. و لعل هذا الرجل يتمنى مزيداً منها. و أما غوليج باشا فقد دمر أخلاق الضباط و أعمل يد التخريب في الجيش العثماني الكبير، وغير هؤلاء كثير. أما رجالنا الذين يترددون على أوربا فإنهم أسوأ منهم. كفانا تجارب. لا أنكر خدمات المتخصصين الأوربيين الذين عينوا في مقدونيا في عهد السلطان السابق، إنهم قدموا خدمات كبيرة في التحضير للانقلاب عليه و مع ذلك فانهم لم ينسوا مصالحهم الخاصة بل جعلونا نقوم بالانقلاب خدمة لمصالحهم وكانت النتيجة أن دمروا البلاد بأيدينا.

نستنتج مما سبق بان على كل أمة أن تعتمد على نفسها، فكما أن الفرد لابد أن يعتمد على نفسه فكذلك الحال مع الأمم. أما مسألة الإنسانية و الحضارة فتبقى في الدرجة الثانية أو الثالثة بل الخامسة، ومن العبث أن نتوقع أو نأمل شيئا من الإنجليز من المساعدة في النهوض و الترقي.

قبل سبع أو ثمان سنوات أو اكثر حينما كان الإنجليز يتعرضون للتهديد الروسي بدأت الصحف في الهند تنشر مقالات تتناول بعض المسائل المهمة بالنقد وتنشر الشكاوى و يشاع أن الإنجليز يسمعون لهذه الشكاوى ويحاولون حلها من قبيل ذر الرماد في العيون، و الآن و بعد أن انتهت الحرب الروسية اليابانية وأصبح الإنجليز في منأى عن التهديد الروسي للهند فانهم بدأوا يعملون في الهند النهب والسرقة بمطلق حريتهم.

ومع ذلك فانه من الطبيعي أن يظهر موسى أمام كل فرعون، فالإنجليز يتصرفون اليوم في شؤون الهند على الوجه الذي يحلو لهم، و لكن حان

الوقت لأن يتعرضوا للتهديدات والضغوط اليابانية. إن هناك مئات الطلاب من الهند يتوجهون إلى اليابان كل عام ليتلقوا العلوم و يتربوا ويتشبعوا بالروح اليابانية. و لنقل بصراحة أكثر إن اليابانيين بدأوا بإحتلال مواقع اقتصادية مهمة في الهند، والإنجليز أنفسهم يخشون من اليابانيين، لذلك فانهم كانوا يراقبون صديقي عمر أفندي حتى جزيرة قمران. هناك غرائب وخوارق في القوانين الإلهية في الطبيعة، و هو أن الناس يقعون دائماً في الشيء الذي يخشون منه، وهذا أمر مجرب، وما يخشاه الإنجليز سيصيبهم بإذن الله و في الأثر تأييد صريح لما نقول، والتجربة أثبتت صحته مراراً.

إن الشيء الوحيد الذي كان يخشاه السلطان السابق عبد الحميد خان الثاني هو الخلع، حتى أن جلده كان يقشعر من كلمة نخلع أثناء دعاء القنوت. ويروى انه كان يرى بضرورة حذف هذه الكلمة من دعاء القنوت وأخيراً وقع ما كان يخشى[1].

والشيء الذي كان الروس يخشونه هو العرق الأصفر، وقد وقع ما كانوا يخشونه وسيتكرر ما وقع، ونتمنى أن يذوق الأوربيون ما ذاقه الروس. والأوربيين يموتون خوفا من الجامعة الإسلامية وسيتحقق ما يخشونه بإذن الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾. والتجارب بين الناس محسوسة ومشاهدة، فكثير من الناس يموتون من المرض الذي يخافون منه ويبتلون بالمصيبة التي تقض مضاجعهم.

إنني آمل وبكل ثقة أن يكون حكم الإنجليز في الهند وكذلك في مصر مؤقتاً إلا أن ذلك مرتبط بدرجة التزام تلك الأمة بمعارفها ودينها، فالجهل في الأمة المغلوبة على أمرها يزيد من استغلال الأمة الغالبة وعدم اهتمامهم في الدين يزيد من معاناتهم ويطيل من مدة أسرهم، ولا يتصور من أمة أن تحيى بلا دين، لأن اكبر قوة خلقها الله هي قوة العقيدة، وكل قوة تظهر

(١) حتى أنت يا عبدالرشيد كنت متحاملاً وندمت على ذلك كما ندم الآخلاون. (السامرائي)

فاعليتها إذا كانت مستمدة من العقيدة. فالبلغار أثبتوا هذه الحقيقة، ولو تمسك الأتراك بدينهم لما وصلوا إلى الوضع المزري، فترك العقيدة نتيجته الخسران في الدنيا و الآخرة، واكثر مسلمي زماننا ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ ﴾.

نظرة الحكومة الإنجليزية للإسلام

إن إنجلترا باعتبارها أكبر دولة في العالم، تبدو في الظاهر وكأنها لا تخشى من شيء أبداً، ولكنها في الحقيقة تتبع سياسة الحذر تجاه الدول التي قد تنافسها، ولا تهمل في تعبئة قواها المادية حيالها. إن لدى الإنجليز غرور قومي يجعلهم ينظرون إلى الأقوام الأخرى نظرة شزر، وهم حالياً لا يكادون يتوقعون حدوث أي ضرر مادي عليهم من أية أمة من الأمم سوى الألمان.

إن كان هناك شيء يخشاه الإنجليز حقيقة فهو الإسلام، نعم الإسلام. وقد يستغرب القراء مني هذا الكلام، ولعل بعضهم يستسخفه ويحتقره، ولكن من يدقق النظر فسيرى أن هذه هي الحقيقة، فالإنجليز يخشون الإسلام. أكثر من كل شيء.

فإذا أخذنا مجريات الأحداث بعين الاعتبار، وتتبعنا السياسات التي تتبعها الدول باستثناء إنجلترا، لرأينا أن كل دولة تسعى للحفاظ على كيانها، كما أنها تحاول أن يكون لها موطئ قدم في الشرق، وتبذل من أجل ذلك الجهود وتتحين الفرص وتتخذ التدابير، وقد يظهر بعضها أطماعه، ولا تتردد في إزعاج الشرق بأعمال ظاهرة للعيان، إنها تعمل كل ذلك لخدمة مصالحها تحت غطاء الشرعية الدولية. أما الإنجليز فلا يكتفون بالأساليب المشروعة بل يسعون بدسائسهم لإفساد أخلاق المسلمين المساكين وبث الفرقة بينهم وتشتيتهم. وحيثما يجدون أثرا للحياة عند المسلمين لجأوا إلى

الأسباب التي تؤدي إلى قتلهم، فيستحوذون على الرجال الذين يحسن المسلمون الظن بهم، كما يلجأون إلى كل الوسائل للقضاء على رجال الفكر الإسلامي، ولا يتوانون أبداً عن تدمير أي قوة تتصدى لخدمة وإيقاظ الشعور الإسلامي. وأظن أن الذين يتابعون سياسة الإنجليز الاستعمارية يشاركونني في هذا الرأي.

ومنذ مدة طويلة يقوم الإنجليز بتضحيات كبيرة لإزالة الخلافة الإسلامية في أقصر وقت ممكن. حتى في حرب القرم كان تأييد الإنجليز للأتراك دسيسة استهدفوا بها القضاء على تركيا، ومن يطلع على محتويات معاهدة باريس لا يمكنه أن ينكر هذه الحقيقة. والمصائب التي تتوالى على تركيا منذ ذلك اليوم مصدرها الإنجليز وان كان الظاهر غير ذلك. والغريب أن الأتراك لسبب ما يحترمون الإنجليز، ويعتمدون عليهم في المسائل السياسية المهمة في حين خططت دولة إنجلترا نظام حياتها على أساس القضاء على الإسلام، بل إنها ترى بأن حياتها في مصائب المسلمين.

إنني أرى بأن الاطلاع على قوانين المستعمرات الإنجليزية، أو على الأصح على السياسات التي تتبعها حيال مستعمراتها، يكفي لإيضاح هذه الحقيقة. ومن يتتبع سياستها تجاه تركيا على وجه الخصوص فلا شك بأنه سيرى الحقيقة ذاتها. والسبب الوحيد الذي يجعل الإنجليز يتبعون مثل هذه السياسة هو خوفهم من الإسلام. وإذا كان هناك من شيء يهدد الإنجليز فهو الإسلام، وقضايا الجامعة الإسلامية. أي أن المسلمين إذا آمنوا إيماناً حقيقياً وبايعوا مقام الخلافة لإعلاء كلمة الله ونزلوا إلى الساحة بكامل إيمانهم فستكون أول دولة يحكم عليها بالموت هي إنجلترا، ذلك بأن إنجلترا دولة تعيش على خيرات مستعمراتها، وكل وارداتها تأتي من تلك المستعمرات، أما سكان تلك المستعمرات فيكاد يكون نصفهم من المسلمين وإذا آمن المسلمون إيماناً كاملاً، وقاطعوا البضائع الإنجليزية بنية

الاعتصام بحبل الله (وهذا ممكن إذا قيض لهم زعماء يقظون)، فسيكون ذلك سبباً كافياً لأن يعلن الإنجليز إفلاسهم. وأكتفي بهذا القدر لتصوير موقف الإنجليز من الإسلام. والحقيقة إن الإنجليز يعرفون هذه الأحوال حق المعرفة لذلك فانهم يتخذون التدابير لخداع مسلمي الهند وإقناعهم، ولا يعدمون الوسائل في استغلال بعض الرجال الذين يحبون الشهرة أمثال أمير علي، بالإضافة إلى التضحية بعزيز المصري من أجل سياستها، وإغراء كثير من المغرورين والسفهاء الذين يتزيون بزي العلماء، إلا أن الإنجليز أدركوا أخيراً بأن كل تلك الأعمال لم تعد كافية. ولذلك فإنهم يجربون إمكانية القضاء على مقر الخلافة بإشعال نار الحرب في البلقان، وحتى في هذه الحرب كان الإنجليز هم السبب في المصائب التي حلت بنا، والخلاصة أن الإنجليز هم الخصم اللدود للإسلام.

رئيس قافلة الحج في بومباي

في اليوم الأول من ذي القعدة وصل رئيس قافلة حيدر آباد الدكن المولوي عبد الرحيم صاحب إلى بومبي في طريقه إلى الحجاز، وحينما علمت بقدومه توجهت لزيارته إلا أنني لم أتمكن من لقائه، فقد وجدت الطفيليين من حوله يبيعون تذاكر الباخرة التي تبرع بها الأمير بأسعار رخيصة بصورة سرية ولا يسمحون بدخول أحد على المولوي عبد الرحيم صاحب، وكان على الباب أحد رجال الشرطة فلم أتمكن من لقائه فأجلت اللقاء إلى وقت آخر وقفلت راجعاً.

وجدت على باب رئيس القافلة مئات الناس ينتظرون منذ أسابيع على أمل الحصول على تذكرة مجانية للسفر إلى الحجاز، ولا يحظى بلقاء المولوي صاحب إلا عدد من الأشخاص في كل يوم، ومن يدفع بضع

زوبيات يستطيع رؤيته. ومما لاشك فيه أن العربي (دليل الدكن) وصهر المولوي كانا يجمعان ثروة لا بأس بها من هذه العملية. ولاشك أن ثواب هذه العمولات ترجع إلى حضرة نظام الدكن.

أما أنا فقد حضرت إلى المكان مرة أو مرتين، وفهمت أخيراً عدم إمكانية الوصول وتحققت من ذلك من تصرفات الذين حوله، وأدركت أخيراً أنه من العبث الحضور ومحاولة الوصول. رافقت في أحد الأيام إمام جامع الجمعة المولوي عبد المنعم صاحب وعندما وصل الإمام إلى الباب سمح الشرطي لنا بالدخول، كما أن الطفيليين لم يمتنعوا، فاستقبلنا المولوي عبد الرحيم صاحب فورا، ولقينا منه الترحيب والتكريم، وعرفته بالمولوي عبد المنعم صاحب، وبعد الاستفسار عن الصحة تبادلنا الرأي حول الموضوع الذي ذكرناه في صفحات سابقة، ثم التطرق بالتفصيل إلى موضوع الحجر الصحي في مكة المكرمة، وذكر أخيراً أن الوقت ضيق وأمر كاتبه بأن يسجل إسمي في الدفتر، وانتهى تسجيل إسمي ولم أعد بحاجة إلى السماسرة في الحصول على تذكرة، وأشرت إلى وجود الشرطي على الباب الذي يحول دون اللقاء راجياً إعطائي التذكرة فوراً، ولكن المولوي صاحب اغتنمها فرصة لتكرار اللقاء، موضحا بأنه سيعطيني التذكرة قبل السفر بيوم واحد، راجياً زيارته كل يوم. وانتهى الحديث في ذلك اليوم، فودعته على أمل اللقاء ثانية.

رفيع الدين صاحب في القنصلية العثمانية

كنت ذات يوم في زيارة للقنصلية العثمانية فرأيت فيها شاب هندي، عرفني به القنصل قائلاً: أقدم لك معلم ملكة إنجلترا في اللغة الأوردية الدكتور رفيع الدين صاحب، إنه رجل نشيط، زار إسطنبول أيام عبد

الحميد بطلب من الملكة فيكتوريا، وقام بتضحيات كبيرة جداً في سبيل الإسلام، ولكنه وللأسف لم يصادف رجلاً مناسباً في عهد الاستبداد بدار الخلافة.

وقدمني إليه، وبعد حديث قصير معه خرجت من دار القنصلية، وخرج السيد رفيع الدين خلفي، فناداني ورجاني أن نمشي سوية. في ذلك اليوم كنت أعاني من مرض الجوع، يالها من صدفة طيبة، ركبنا عربة وتوجهنا إلى مطعم لتناول طعام الفطور، كنت أتوقع أن نذهب إلى أفخم مطاعم بومبي لأنني في ضيافة معلم الملكة فيكتوريا. توجهت العربة إلى الأحياء الإسلامية وفكرت في أن ما ألبسه من ملابس تحول دون ذهابنا إلى مطعم فخم. وصلنا إلى مطبخ يشبه مطابخ بائعي الدجاج في حي نور عثمانية (باسطنبول)، حجم المطبخ لا يزيد عن ستة أذرع، وهو مربع الشكل، وأرضه لم يتعرض للكنس أبداً. صاحبه أخ إيراني، سألنا ماذا تطلبون، فقلت هات كل ما عندك. أكلت كل ماجاء به، فعجب الدكتور، ثم قال: في الساعة الواحدة من كل يوم أتناول طعامي في هذا المكان، و سأكون ممتنا لو حضرت في مثل هذا الوقت من كل يوم. أنظروا إلى معلم الملكة في أي مكان يأكل! هذه هي الوطنية، ليس مثل أصحابنا الذين يرتادون طوقتليان (مطعم شهير في إسطنبول صاحبه أرمني)، إنه يفضل أن يغطي نقوده إلى أخ مسلم، هذه هي الحمية الإسلامية، وهذه هي الأخوة الدينية. لم أستطع الذهاب إلى هذا المكان مرة أخرى ولكنني تأكدت من الشعور الديني لدى الدكتور، وهذا أملي في الحياة، يتجلى في بعض أفراد الأمة بمثل هذه الصورة.

تذاكر الباخرة تباع للحجاج
والمنصرون يمارسون نشاطهم

كنا نتردد على باب رئيس القافلة المولوي عبد الرحيم صاحب وبأمر منه كل يوم تقريباً، نأتي ونعود وإن لم نتمكن أن نراه. ونجد على بابه مئات الأشخاص يقفون منذ الصباح وحتى المساء، والسعيد من يستطيع أن يقدم نفسه إليه عبر الباب أو عبر النافذة. كنت مطمئناً إلى أن إسمي مسجل في الدفتر ولكنني كنت أتردد على المكان للوعد الذي قطعته له، فأتجول بعض الوقت ثم أعود دون أن أتشرف بلقاء المولوي عبد الرحيم صاحب.

وذات يوم قدمت إلى المكان كالمعتاد، فوجدت في محاذاة المنزل الذي ينزل فيه المولوي دكانا، اجتمع فيه الناس، وفي داخله سيدتان مزينتان بأجمل الزينات، ومنصران يخطبان في الحجاج باللغة الأوردية، يطيلان اللسان على الحج والدين الإسلامي بعبارات شنيعة وخارجة عن حدود الأدب، وقطعان الناس الذين يتوافدون على باب رئيس القافلة بأمل الحصول على تذكرة مجانية، يستمعون إلى هذين المنصرين لقضاء الوقت.

واشتركت مع هذا القطيع، وأضعت ساعتين من وقتي ولكنني لم أتمكن من الدفاع بسبب عدم إجادتي اللغة الأوردية. وكان المنصرون يستغلون تجمع الحجاج في أماكن متعددة من بومبي في تلك الأيام ليمارسوا نشاطهم التنصيري.

والواقع أن المنصرين يستغلون كل فرصة عند تجمعات الناس في المدن الكبرى في الهند ليقوموا بواجبهم بحضور امرأتين بصفة شهود.

إن مما يتحدث فيه المنصرون يتعلق بالصحة والوقاية، والتوصية باقتناء أنواع معينة من الأدوية الضرورية، هذه أمور نافعة لا مجال لإنكارها، ولكن كان من الأجدر بهم أن يخدموا الإنسانية في مدينة بومبي نفسها. ومن

الغريب أن بعض الناس يسمعون لهؤلاء المنصرين في المواضيع التي تخص النواحي الإنسانية، ويعمون عن رؤية الجوانب الوحشية فيهم.

بواخر الحجاج والسماسرة

إن الحجاج في أي بلد كان يجمعون المال من كد يمينهم بنية أداء فريضة الحج الذي هو ركن من أركان الدين مرة واحدة في العمر، ولصرف ما يجمعونه في الأراضي المقدسة. ولكن هؤلاء المساكين والجهلة، بالرغم من نواياهم الطيبة يقعون فريسة لموظفي الحكومة قبل أن يتحركوا من مكانهم، فمن يريد الذهاب إلى الحجاز عليه أن يحصل على تذكرة مرور تسمى تذكرة الحجاز من أماكن توجد بجانب إدارة الشرطة في بومبي، فتجد المئات بل الألوف من الناس يتعرضون كل يوم للنهب من بعض شذاذ الآفاق تحت سمع وبصر رجال الشرطة وهم يحاولون الحصول على هذه التذكرة، ينهبون أموالهم تحت مسميات كثيرة، ولا شك بأن هذه النقود تؤخذ باسم الشركة وبعلم الشرطة، ويشترك في قسمة ما نهب كبار الموظفين، وإلا فكيف يقوم بالنهب حفنة قليلة من السماسرة.

ويأتي بعد ذلك دور نقابة أصحاب البواخر، وهذه النقابة تأخذ كل ما بيد الحجاج من نقود، ويشترك في النهب قناصل الدول الكبرى، ولكبار الرجال يد في هذه العملية. ترى السماسرة من البنجاب ومن دهلي ومن كلكتا و من حيدر آباد الدكن يشتركون في قسمة الغنائم باسم المنطقة التي يمثلونها. حتى الدكتور طالب أفندي، قدم من حيدر آباد الدكن إلى بومبي لتوديع الحجاج وأخذ حصته من الغنيمة، كل يأخذ نصيبه بغض النظر عن جنسية الباخرة. وبعد التحقق من هذه الأمور، ذهبت بصحبة عمر أفندي

ياما أوكا إلى القنصل الياباني العام في بومبي، وشرحنا له إمكانية تأمين ربح كبير من استئجار باخرة يابانية لنقل الحجاج وقلنا له:

لقد استأجروا سفينة (فيينا) التابعة لشركة كنغولية قبل ثلاثة شهور بألفين وخمسمائة ليرة إنجليزية، وحددوا أجرة نقل الحاج إلى جدة وإعادته منها ١١ ليرة، وإنها ستحمل ١١٥٠ حاجاً، فإذا قمت ببعض التضحيات فانك ستحصل على منافع معنوية إلى جانب المنافع المادية.

وبعد ابتسامة لطيفة قال السيد القنصل: إن الضمير الياباني لا يطيق هذا النوع من التجارة، لقد جربت هذا الأمر عملياً، وجئت بباخرة، وباختصار فإن أرباح أصحاب البواخر كانت قليلة جداً. هذه مسألة غامضة لا يقبلها العقل، و إن الأمر يتعدى الربح إلى النهب و لن نستطيع الدخول في مثل هذه العمليات القذرة.

هذه هي حالة الحجاج المساكين.إنه لأمر غريب حقاً أن يتعرض الحجاج للنهب في بومبي بعلم الحكومة الهندية، وفي أود يسه (ميناء روسي على البحر الأسود) بعلم الحكومة الروسية، حيث تؤخذ منهم مئات الألوف من الليرات، ومن المؤكد إشتراك الحكومات في هذه العملية، ولكن لا يستطيع أحد أن يقول شيئاً، والحاج نفسه لا يعلم من الأمر شيئاً، فهو يتعرض للنهب بعلم الحكومة. كل الحجاج الذين يصل عددهم إلى ثلاثين أو أربعين بل خمسين ألفا يتعرضون للنهب.

ثم إنه لو حدث أن تعرض واحد أو اثنين من الحجاج القادمين من روسيا عن طريق تركيا للضرب، أو سرق ما في جيوبه من نقود، لتحدثت الدنيا عن الفوضى والوحشية في تركيا. الحاج يشتكي وحكومته تشتكي، إلا أنهم لا يرون بأساً في مئات الألوف من الليرات التي تنهب من قبل عصابات في بلادهم، وأنهم يقيمون الدنيا ويقعدونها من أجل عدد من الليرات تؤخذ منهم في تركيا أو في الجزيرة العربية، وفي كل عام يصل من روسيا أربعون

أو خمسون ألف حاج، و يعطي كل حاج خمسين روبلاً بحد أدنى للموظفين الروس بصفة (بخشيش) كما يصل عدد حجاج الهند كل عام إلى سبعين أو ثمانين ألفا في بعض الأعوام، فإذا أخذوا من كل حاج ثمان ليرات زائدة عن المقرر (وهم يأخذون هذا المبلغ من دون أدنى شك) فيكون المجموع ستمائة وأربعين ألفا. كل هذه المبالغ ليست بالحسبان، وهم يأخذون أكثر من هذه المبالغ. والحكومة الهولندية تنهب من جانبها حجاج جاوه، والفرنسيون ينهبون حجاج تونس والمغرب والجزائر، وحجاج مصر والهند ينهبهم الإنجليز، والحجاج التركستانيون والإيرانيون والصينيون والتتار تنهبهم الحكومة الروسية. يحدث في بعض الأعوام أن يباع جواز السفر في بترسبورغ نفسها بمائة روبل(إحدى عشرة ليرة)، و لو لم يكن رجال الحكومة مشتركين لما بيع جواز السفر في الأسواق كما يباع البصل، هذا بالإضافة إلى الإهانات التي يتعرض لها المسلمون المساكين في سبيل القيام بواجب ديني. هذه كلها إهانات رسمية.وقد نشرت بعض الرسائل في روسيا عن مشاكل الحجاج. وكان قد صرح المدعو فورتوناتيف بأنه من الإمكان إثارة المشاكل في الحصول على الجوازات تكفل منع الحجاج من التجمع في مكة، بالإضافة إلى وجوب التشدد في مسألة الحجر الصحي. قاتل الله هذا الرجل الذي كتب هذه الكلمات قبل عام أو عامين في كتاب سماه الحج والمسلمون .

ذوو الأفكار النيرة في الهند

يغلب على ذوي الأفكار النيرة من المسلمين في الهند أن يكونوا ممن رضوا بالحكم الإنجليزي، وليس لهم أي رأي في مستقبل البلاد، تعلموا اللغة الإنجليزية في فترة من حياتهم، وحصلوا على وظائف بفضل تلك اللغة ليقيموا بها أودهم، وهم يدعون للحكم الإنجليزي بطول البقاء رغماً

عن الهندوس. إن هؤلاء في حقيقة الأمر ليسوا من ذوي الأفكار النيرة، وإذا كان لهؤلاء ما يفكرون فيه وهم يتقلبون في نعمة الإنجليز فهو الشكر الجاهل لتلك النعمة. لقد كبرت مسألة حكم البلاد في أعينهم، فهم يجهلون معاني الشرف والكرامة والعزة. إنني أعذر هؤلاء الناس، ومهما كان عددهم كبيراً فإن مكانتهم متواضعة، وليس للمرء أن يحكم على مستقبل البلاد من خلال رأي مثل هؤلاء الناس.

هناك مروجون لفكرة الجامعة الإسلامية، وعددهم قليل، إلا أن قوتهم المادية والمعنوية تزيد من أملهم في المستقبل، وبين هؤلاء رجال مقتدرون وشرفاء وأصحاب نفوذ، وهم يستحقون الشكر والتقدير، إنهم على اتصال دائم بالعلماء، متمسكون بالدين ومطلعون على حقائق الوضع ويمكنهم أن يشرحوا للناس دسائس الإنجليز وحيلهم، هذا ومع أن فيهم بعض المتكبرين والمتجبرين أو ذوي الخيال الواسع، إلا أن بينهم أيضاً رجال مقتدرون يمكن الوثوق بهم و صلحاء يشار إليهم بالبنان .

وهناك جانب آخر يتصف به ذوو الأفكار النيرة أو المثقفين بالعلوم الغربية؛ وهو أنهم لا يفتخرون بارتداء الملابس الإفرنجية أو القبعة كما هو الحال في ذوي الأفكار النيرة بين مسلمي روسيا، وهذا يعود إلى أن عدد الإنجليز في الهند قليل، وهم متكبرون مترفعون، كما أن الرؤساء الإنجليز يعيشون في كل المستعمرات عيشة مميزة، ويترفعون عن مخالطة الهندي المسلم أو الهندوسي، أما في روسيا فأكبر الولاة يتصل بأبسط تاجر تاتاري، كما أنه يقيم علاقات عائلية مع التتار المنحدرين من الأسر المعروفة. لذا فإنه من الطبيعي أن يتشبه الشاب التتاري بالعوائل الروسية في اللباس حينما يخالطها، كما إنه ليس من غير المألوف أن تصادف مسلمين يلبسون القبعة الإفرنجية، حيث أن الأقوام الهندية لا تلتزم بنوع خاص من غطاء الرأس. أما غطاء الرأس لدى التتار فقد حافظوا عليه منذ القدم وصار عندهم شبه

مقدس، وإن لم يكن مقدساً، فقد أوحوا إلى الروس بأنه مقدس. ففي المحاكم الروسية، وخاصة أمام صور الإمبراطور يجب على الرعايا الروس أن ينزعوا قبعاتهم. أما غطاء الرأس القومي لدى التتار مثل القبلاق والتوبه تاي، فقد سمح لهم بعدم نزعه بقانون خاص، فلا ينزع التتاري غطاء رأسه لا في المحاكم ولا أمام الإمبراطور نفسه.

وفيما عدا ذلك، فانك ترى التتاري حينما يشتري بضاعة في موسكو وبترسبورغ والمدن الكبرى الأخرى فإنه يستطيع أن يودع غطاء رأسه (التوبه تاي) ضماناً مقابل مئات الروبلات، وأن الروسي يقبل بهذا الغطاء ضماناً لما باع، وهذا أمر معروف ولم يحدث أن ظهر إخلاف بالوعد من قبل التتار، لذلك فان الروس يعتبرون غطاء رأس التتاري مقدساً. ويروى أن روسيا في بترسبورغ قبل من تتاري ضمانة غطاء رأسه مقابل ألف روبل، وانتظر حتى حان الأجل ولم يعد التتاري، عندئذ لجأ إلى صحف العاصمة، ولم يلبث أن تلقى برقية من التتاري يعتذر ويبين سبب التأخير.

وقبل عشرين عاماً كانت القبعة في تتارستان علامة الكفر، أما في الأعوام الأخيرة فقد ظهر بعض المفتين المتسامحين، فأباحوا الظهور بالقبعة، ومع ذلك فان القبعة مكروهة لدى التتار، وإنّ أكثر الأئمة التتار تحرراً تضيق نفسه عندما يلقى مسلماً يلبس قبعة، و إن كان هو ممن يلبسون القبعة أيضاً.

وفي الهند إذا لبس عالم مسلم قبعة فلا يحكم أحد بكفره، أما في روسيا فالأمر عكس ذلك تماماً.

الاستعداد لمغادرة بومبي

وذات يوم وللمرة الأخيرة وقفت على باب المولوي عبد الرحيم صاحب للحصول على تذكرة الباخرة، كان الناس يأخذون تذاكرهم وينصرفون، والكثير منهم تعرض لشر رجال الشرطة وحرم من شرف رؤية

عبد الرحيم صاحب، وكنت في صف المحرومين. خرج من الباب حاجاً يصرخ باكياً: لقد حضرت لعدة أيام وصرفت هذا المقدار من الروبيات و أخيراً حرموني، غداً ستبحر الباخرة، أيها المسلمون لا تضيعوا أوقاتكم سدى، هؤلاء الملاعين ضحكوا علينا، إلى غير ذلك من الكلام، وكان يقول بصراحة أن تذاكر السفر قد نفذت.

وفي هذه اللحظة رأيت أحد السماسرة من معية عبد الرحيم صاحب، فتقدمت إليه بكل أدب واحترام وذكرت له أن إسمي مسجل في دفتر عبد الرحيم صاحب، فلم ينظر إلي أبداً، وقال بأنه لم تبق لديهم أي تذكرة، وان اللقاء بعبد الرحيم صاحب غير ممكن. لم يبق هناك أحد من الناس و عندها عدت إلى البيت يائساً، ولم أرد أن يعلم عمر أفندي بحالي. و كان ينظر إلى يدي. أما بشأن تذكرته فإني حصلت عليها من الحاج زين العابدين نقي زادة، و لم يكن هناك أي قلق بهذا الشأن.

في صباح اليوم التالي وهو السابع من ذي القعدة نزلنا إلى الباخرة مبكرين، فوضعت أمتعتي مع أمتعة عمر أفندي في الباخرة، وقد صممت أن أجرب ركوب الباخرة متظاهراً توديع أخينا عمر أفندي و لكنني عندما وصلت إلى الميناء عرفت أن الدخول إلى الباخرة بتلك الصورة أمر غير ممكن، حيث أن الداخل إلى الباخرة يمر أولاً عبر التبخير والتنظيف. عندما اطلعت على الوضع، قلت لعمر أفندي: طريقنا طويل والطعام قليل، وسأذهب لإكمال النواقص، وإذا جاء دورك في دخول الباخرة وأنا في المدينة فلا تنتظرني وخذ أمتعتي معك، وأعطيته كل ما معي من النقود، وابتعدت وهناك أوصيت به عددا من الرجال الذاهبين للحج دون أن يشعر، وقلت لهم بأن هذا الرجل مهتدي ياباني، فإذا لم ألتحق بالباخرة فرجائي أن تساعدوه أثناء السفر، فأبدوا استعدادهم للمساعدة بكل سرور.

أصبحت صفر اليدين، لا أملك في جيبي أي شيء، منكسر القلب، لا أجد أحداً أشكو إليه بحالي إلا الله، إنني لا أفكر في نفسي، بل أفكر بضيفي عمر ياما أوكا الذي جاءني من اليابان، وفق الكثير من الأفكار والمثل و المخططات التي تتعدى مجرد كونه مسلماً عادياً يمثل نفسه فقط و إن ترك هذا الرجل وسط الجهلة من المسلمين، يهدم أساس ما بنيته من آمال في مخيلتي، ولكن ما حيلتي، لقد وجدت أن بقاءنا معاً هناك أكبر ضرراً، فاخترت أهون الشرين، ودفعت بعمر أفندي إلى الحجاز، واخترت لنفسي الغربة. كنت أمشي ببطء نحو المدينة أفكر فيما إذا استحال علي السفر إلى الحجاز، أن أكتب رسالة إلى الشيخ محمد مراد أفندي أحد المجاورين الكرام بمكة المكرمة، أشرح له فيها الأمر وأطلب منه أن يهيئ بعض الشخصيات والجهات المهمة ليتعرف عليها عمر أفندي بمكة. أمشي وفي قلبي مناجاة صادقة وفي مقلتي دموع أحاول حبسها، وأمامي العديد من الحجاج وهم يتوجهون نحو الباخرة مبتهجين، ولم تعد لدي القدرة على رفع رأسي لأرى الرجال القادمين. وفي هذه الأثناء هتف أحدهم بصوت عال وقال: «السلام عليكم» فرفعت رأسي ورددت السلام، فإذا هو رجل بخاري ينظر إلى وجهي بابتسامة عريضة وكأنه يعرفني، تصافحنا وسألنا عن أحوال بعضنا؛ أحسست بفرح سرى في قلبي ويد صاحبنا في يدي. سألني عن سبب توجهي إلى المدينة؛ فشرحت له عجزي ومشكلتي، فبادر أخونا البخاري إلى كيس نقوده وأخرجه من ثنايا ثيابه ووضعه في يدي على أن يكون ما به قرضاً حسناً أرده له في جدة. لم أعد أشعر بحالي؛ فنفرت الدموع من عيني، وهنا صدر مني سؤال لا معنى له: هل تعرفني؟ فكان الجواب: إنني واثق بأنك رجل مؤمن. انعقد لساني وارتخت مفاصلي، فقعدت على الأرض وبكيت مرة أخرى.

هذه الخصلة، هذه المزية لا تجدها في كل أمة، بل لا يتصور وجودها في أي أمة، لا صلة بيننا سوى الإسلام، لم يعد أي منا النقود التي هي في الكيس، حتى أن أحدنا لا يعرف اسم صاحبه. عدت إلى المرسى، فوجدت عمر أفندي قد دخل الباخرة، وحجاج آخرون في طريقهم إلى داخلها، وتوجه صديقنا البخاري إلى غرفة التبخير والمعاينة، وأنا توجهت إلى مكتب قطع التذاكر.

و هنا و من خلفي سمعت صوتاً: مولوي صاحب! مولوي صاحب! لم أفكر بأن مصدر الصوت يقصدني، كنت مسرعاً، فجاءني أحدهم و أمسك بي من كتفي وقال: «السلام عليكم»، المولوي عبد الرحيم صاحب يريدك. هنا ترددت ملياً، حيث أن معاملتهم جرحت قلبي، إلا أن السبب وراء ذلك غير معروف، كما أنني خشيت ألا أجد تذكرة في مكتب التذاكر، عندها تنازلت عن كبريائي، وتوجهت إلى عبد الرحيم صاحب، وبعد شيء من الاعتذار أعطاني تذكرتين للدرجة الأولى، (لا يسأل عن حكمتك يا رب) قلت: تذكرة واحدة تكفيني، ولم أكن لآخذ هذه التذكرة إلا إكراماً لخاطرك، وإلا فإن حاجتي إنتفت لها.

ومن هناك توجهت مباشرة إلى غرفة التبخيرات والمعاينة، دخلت بعدها إلى الباخرة. إن ما يتعرض له الإنسان من إهانات وإذلال ينفطر لها القلب، لا أريد أن أذكر منها شيئا. في الباخرة استقبلني عمر أفندي قائلا (وهو لا يدري ما جرى لي) ما الذي جئت به؟ فلم أرد عليه، ودخلنا المقصورة و كل ما قد نحتاجه نجده في الباخرة. إننا من ركاب الدرجة الأولى أليس كذلك؟ مقصورتنا عبارة عن غرفة واحدة شديدة الحرارة وكأنها الجحيم، فلا بساط ولا سرير، لاشيء سوى الأرض الخشبية، هذا هو مبلغ تكريمهم للحجاج، الإذلال مقابل المال، أليست المقصورة من الدرجة الأولى؟ نعم إنها كذلك، أي أنها كانت من الدرجة الأولى عندما

كان المسافرون فيها من الفرنجة، أما الآن فهي المستودع. ولا تظنوا بأن مقصورتنا وحدها في هذه الحالة، بل إن كل الباخرة بهذا السوء، حتى مقصورة رئيس القافلة وكذلك مقصورة الطبيب الهندي. الأجرة مدفوعة على أساس الدرجة الأولى و لكن المكان مستودع، وركاب سطح الباخرة يتنفسون الهواء على الأقل، أما نحن فمحرومون حتى من الهواء النقي، ومن عنده فراش مده، أما أنا فلا أملك فراشاً، وضعت حقيبتي تحت رأسي مستعداً للسفر بصفاء الخاطر. إكتمل وصول الحجاج وقبل المغرب بساعة واحدة تحركت الباخرة من ميناء بومبي، وقرأت الآية الكريمة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا﴾، والباخرة في الأصل جيدة، فسرعتها تصل إلى ستة عشر ميلا ولكنها كانت تسير بسرعة عشرة أميال. لقد كان كل الركاب من الحجاج في غاية الفرح والابتهاج وكانت أغلبيتهم من الهنود، وأكثر هؤلاء من البنغال وحيدر آباد الدكن، وعدد من البخاريين وحوالي عشرة من العرب وياباني وتتاري والمجموع ألف ومائة وخمسة وخمسون. ومع ذلك فقد كان في الباخرة متسع إذ يمكن للمرء أن يرتاح ويتجول في أنحائها بحرية ولا يزاحم أحداً.

وكما ذكرت سابقا فان الباخرة تخص حجاج نظام الدكن، فكل ركابها بالمجان. ومع ذلك فان فيهم بعض الأغنياء، أما الأكثرية فهم فقراء. عند ركوبنا في الباخرة بدا كل شيء نظيفا، والهواء لطيف جداً، وبعد المغرب ظهر البدر، وكان الحجاج يهنئ بعضهم بعضا على أن يسر الله لهم هذا السفر، وكنت ترى آخرين يتلون الآيات ويؤذنون ويقيمون الصلوات. وما أن صلينا العشاء حتى نام الكل، ولم يبق أحد قائماً سوى عمال الباخرة، لأن التبخيرات والصعوبات التي لقيها الناس أثناء الدخول أنهكت القوى، فأخلد الناس إلى النوم. وفي صباح اليوم التالي صليت ثم قمت بجولة في أنحاء الباخرة فوجدتها لا تشبه الباخرة التي شاهدناها بالأمس، النجاسات

منتشرة في أنحائها، ولا تجد موضعاً نظيفاً للقدم، بعضهم بال وهو قائم، وآخر تغوط وهو نائم، أما الاستفراغ فلا يعد شيئاً. إن القسم الأعظم من الحجاج نائمون ولم يقوموا للصلاة، ومن قام منهم ففيهم من يكسر الحطب وبعضهم يقوم بعجن الدقيق. نصبوا على ظهر الباخرة مطابخ غريبة. لو فكرنا في حال الحجاج لوجدنا أن اللفظ لا ينطبق على المعنى. لقد عزم الحجاج على السفر إلى الحج طمعاً في المغفرة ولكننا نراهم يفكرون في الطعام قبل الصلاة، وأخذت البطن مكان العبادة، والخبائث مكان النظافة. ومما يهون الأمر قليلاً حديث «إنما الأعمال بالنيات». بعد يوم من مغادرة بومباي توفي أحد الركاب، إنه عجوز بنغالي عمره ٩٣ عاما، رحمه الله. ولم يكن له قريب، فغسله جيرانه وربطوا في رجليه الحديد أثناء التكفين، ثم صلينا عليه ورميناه في البحر، لعل الحديد يسحبه إلى القعر مباشرة، إلا أن الأسماك هجمت عليه، ومن غير المعروف كم سيصيب السمكة الواحدة من جسمه. ومع ذلك فقد كان الحدث ثقيلا على النفس، وبدا التأثر على كثير من الناس.

رئيس القافلة على ظهر الباخرة

إنه رجل طيب جداً، يعامل الحجاج على ظهر الباخرة بلطف، وما أن يجتمع حوله عدد من الأشخاص حتى يتحدث عن ظلم الإنجليز، مبينا أن حياة المسلمين تدوم بمحبة الخليفة محمد رشاد ونحو ذلك من النصائح، ويشتكي من الحجر الصحي مبيناً وجوب سعي المسلمين لإلغائه، وأنه حال وصوله إلى مكة فانه سيرسل معروضا لخليفتنا، فإذا رفع الحجر عن طيب خاطر فبها و نعمت وإلا فقد يجب على المسلمين إعلان الجهاد الأكبر. وكان من جملة ما يردد «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان**

ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» ثم يعود إلى الوعظ والنصيحة.

وفي إحدى المرات إعترضت على المولوي عبد الرحيم صاحب، مشيراً إلى المعاملة التي لقيناها من المسؤولين عن الباخرة، وقلت: لا أقول ركاب الدرجة الثالثة، نحن ركاب الدرجة الأولى، عددنا محدود، كلنا رجال محترمون، ومع ذلك فقد تحولت المراحيض والحمامات إلى أسوأ حال خلال أربع وعشرين ساعة، و إننا نحن المسلمين لم نتعلم كيف ننقض الوضوء بعد، و إنه إذا استمر الوضع على ما هو عليه فلا أمل يرجى في التخلص من الحجر الصحي، وإنه يجب علينا قبل كل شيء أن نعرف بأن النظافة من الإيمان، وإننا إذا أردنا رفع الحجر الصحي علينا أن نزيل أسبابه، إلى غير ذلك من الأمور التي يجب علينا القيام بها.كان المولوي عبد الرحيم صاحب سريع الفهم لمثل هذه الأمور. فكر قليلا ثم قال: ومن جهة أخرى يجب علينا أن نعترف بتقصيرنا ونسعى إلى إصلاح أنفسنا، ومع ذلك فلا يجوز لنا أن نسكت على إذلال الأوربيين لنا بهذه الصورة. كنت أعترض على المولوي عبد الرحيم بنية أن يقوم بتوجيه الحجاج، حيث إنهم يحترمونه ويسمعون لقوله، و فعلاً كان له تأثير على الحجاج، فصار يبدي ملاحظاته في الأمور التي يستشعر بها الحجاج، معدداً المظالم والإهانات التي تعرض لها الركاب أثناء ركوبهم في بومبي، والعجز في الرد عليهم، مكرراً أن التخلص من هذه البلية لا يتحقق إلا بإصدار أمر من الخليفة الأعظم وحامي الدين السلطان محمد رشاد خان .

في اليوم الرابع عشر من ذي القعدة وصلنا إلى عدن، وهي من الممالك العثمانية و لكنها في الحقيقة مستودع الفحم لخدمة الإنجليز، و ليس فيها تركي واحد. فيها عدد محدود من الإنجليز و بقية سكانها من العرب، سود الشعر أجعده. أما من فيها من الأحباش والبربر فقد تحولوا إلى إنجليز

بتعاملهم الفظ مع الحجاج، وتلفظهم بكلمات نابية. إن معاملة هؤلاء تؤلم أكثر من معاملة الإنجليز.

مجموعة من الجهلة تأنكلوا (أصبحوا إنجليزا) مادياً ومعنوياً، حفاة عراة و لكنهم يعرفون كل شيء و يفعلون كل شيء يعرفونه، نشيطون جداً، ولديهم قابلية لكل شيء، السفن الصغيرة، والأرصفة، والكهرباء والبرق والهاتف وكل شيء يديره هؤلاء الحثالة من الناس بأمر من الإنجليز. والمرء يعجب لما رآه! ما هذه المهارة؟ وما هذا الأسر؟.

وعدن كلها بلد إسلامي وأكثر سكانها من الشافعية والحنابلة، وفيهم زيديون وإسماعيليون، وفيها كبار التجار لكونها ميناء تجاري، وللأسف كل هؤلاء يعيشون تحت إمرة حفنة قليلة من الإنجليز. ولما كانت مدة توقف الباخرة قصيرة فإنني لم أتمكن من الحصول على أية معلومات. تحركت الباخرة في نفس اليوم صوب البحر الأحمر، وحوالي منتصف الليل دخلنا البحر الأحمر عبر باب المندب، والعرب يسمونه أيضا باب إسكندر. وفي السابع عشر من ذي القعدة وصلنا إلى قماران، وقبل أن تقترب الباخرة من الساحل،وقع نظر الحجاج على سفينتين حربيتين صغيرتين، ورؤية السفن الحربية وهي ترفع العلم العثماني أمر يدعو للإعجاب حقاً، فتوجه الجميع إلى تلك الجهة، بعضهم يرفع يده بالدعاء وآخرون يبكون فرحاً، وغيرهم يقول الله ينصر السلطان. وبينما كان الناس في هذه الحالة كانت الباخرة تميل ميلاً شديداً إلى الجانب الذي تجمع فيه الناس من دون أن يشعروا بذلك، فدعا القبطان الحجاج إلى الاعتدال، وبدأ يبحث عن مكان يلقي فيه المرساة، إلا أن الباخرة لم تأخذ وضعها الطبيعي، وأخيراً فهم الناس ما كان يقصده القبطان وعاد كل واحد إلى مكانه، وألقت الباخرة مرساتها. سنغادر الباخرة إلى المحجر، وقد شاهدنا عدداً من البواخر وقد أفرغت حجاجها.

الحجاج في قماران

لم يكن لي علم بموقع قماران و لا لأي بلد تتبع، حملنا أنا وعمر أفندي أمتعتنا ونزلنا إلى البر، وعندما وصلنا إلى مكان الحجر وقع نظرنا أمام باب التبخير على إمرأة نصرانية. سألني عمر أفندي: أليست هذه بلاد عثمانية؟ فقلت: لا أعرف. في هذه الأثناء إقترب من الباب رجل حاسر الرأس، أمعنت النظر في ملامحه، فخلته تركياً. كان الشاب ينظر إلينا نظرة فاحصة، وصارع في نفسه شيئاً و لكنه لم يستطع الصبر فاقترب منا وسأل بالتركية:من أين أنتم، عندئذ انبسطت أساريرنا، بادرته بالسؤال عن إسمه، وعندما عرفنا أن اسمه فؤاد لم يعد لنا أدنى شك، فتعانقنا، وأجريت المعاملات اللازمة وأرسلت أمتعتنا مع العمال إلى غرفتنا في المحجر، وقال بأن الطبيب المكلف في المحجر إسمه عثمان شكري بك.

ومع كل المشاعر في أنه حجر، إلا أن القلب اطمأن إلى أن البلد بلدنا، وبحثنا عن الدكتور شكري بك فوجدناه، وعانقناه كأننا أحباب منذ مائة عام، ومر كل الحجاج من التبخير، وأخذوا أماكنهم في المحجر. إن مهاجع المحجر كانت عبارة عن أعشاش بنيت من قصب جميل جداً. وفي هذه الأثناء رفع الأذان المحمدي وعلمنا بوجود مسجد، حتى البقال مسلم، وكل شيء متوفر ورخيص. والحقيقة أننا كنا في غاية السرور.عرفت الدكتور شكري بعمر أفندي ياما أوكا، وكانت بداية الحديث بيننا غريبة.

كان الحديث عن مدى إمكانية إنتشار الإسلام في اليابان، فقلت بأنه لو أمكن شرح المصالح السياسية لأمكن إنتشار الإسلام في اليابان بكل سهولة ونجاح، إلا أن شكري بك تساءل عن احتمال تشرف الميكادو بالإسلام والقيام بدعوى الخلافة، و استشهد في هذا الصدد بخديوي مصر وقال بأنه ينوي أيضا أن يطالب بالخلافة وأنه بناء على هذا المطلب ينوي أن يحج في

هذا العام (١٣٢٧). لم يكن عجبي لأي أمر آخر مثل عجبي في أن تظهر مثل هذه الآراء الغريبة. فإذا كان مثل هذا متصورا في الخديوي فكيف يتصور أن يصدر عن الميكادو؟ ولو تصورنا فرضاً إمكانية ذلك، فما هو مبلغ خسارتنا، وهل في إمكان المنافع أن تغطي الخسائر؟ فكرت في هذه الافتراضات كثيراً فلم يستوعبها عقلي بأي صورة من الصور. ومع ذلك فقد سمعت الكلام نفسه في إسطنبول فيما بعد. وقد تخطر مثل هذه الأمور على بال البسطاء، أما أنا فلا يمكن أن أتصور مثلها وإذا تصورت فلا شك بأنني سأكون موضعاً للتندر والسخرية.

خمسة أيام في الحجر الصحي

تقرر التحفظ الاحتياطي في قماران، رغم عدم وجود أية علائم للمرض بين الحجاج. هؤلاء القطعان من الناس، ظهر بينهم خلال مئات السنين رجل واحد، هو المولوي عبد الرحيم، تمكن أن يتحدث عن الحجر الصحي ببضع جمل، أما الآخرون فليست لديهم القدرة حتى للاستماع لما قيل. ومع هذا فقد كنا، أنا وعمر أفندي من ضمن قائمة المعترضين على الحجر أثناء إقامتنا في قماران، وبعد أن استمعنا إلى شكاوى المولوي عبد الرحيم عدة مرات، سألنا الدكتور شكري بك عن الحجر، وحصلنا منه على المعلومات التالية:

الحجر الصحي، إجراء غحتياطي يتخذ لحماية الصحة العامة، وحيث أنه ثبت علمياً بأن الهند هي بؤرة مرض الهيضة (الكوليرا)، وهناك إحتمال بأن تتمكن جرثومة (ماهرة) بالاختباء في ثنايا أحد الحجاج المتوجهين إلى الحجاز، وإذا أفلحت هذه الجرثومة في الوصول إلى الحجاز مع أحد الحجاج، فإنها (و العياذ بالله) ستتطور في جسم ذلك الحاج و تظهر في

اليوم السابع. وقد حدد العلم سبعة أيام لظهور هذه الجرثومة. فبالإضافة إلى المدة التي أمضيناها من بومبي إلى قماران فإن خمسة أيام أخرى تعد احتياطية، وإذا لم يظهر مرض الكوليرا خلال هذه المدة فذلك يعني أنه لا توجد جرثومة تنوي الوصول إلى الحجاز، فيخلون بذلك سبيل الحجاج.

أما إذا وجدت جرثومة الكوليرا (والعياذ بالله)، فان مرض الكوليرا ينتشر بسرعة عن طريق البراز، ويحتمل موت الآلاف من الناس بسبب هذا المرض. وإذا بذل الأطباء جهودهم فقد يمكنهم من محاصرة المرض ومنع انتشاره. ولذلك فان التدابير الصحية تقررت بإجماع الدول الأوربية، وفي الإدارة الصحية ممثلون دائمين لكل الدول، يصل عددهم إلى المئات بل الآلاف، ويأخذون رواتب ضخمة تجمع من الضرائب الصحية التي تؤخذ من الحجاج في كل عام، ولهم الصلاحية المطلقة في التصرف بشؤون الحجاج.

هذه هي المعلومات التي حصلنا عليها من الطبيب.

القنصل الإنجليزي في قماران وعمر أفندي

علم القنصل الإنجليزي بوجود مهتدي ياباني بين الحجاج على متن الباخرة «فيينا»، ورغب أن يلتقي بنا كي يعرف سبب إسلام هذا الرجل ولماذا جاء إلى الحج، فرد عمر أفندي رداً مختصرا و قال بأنه دخل الأراضي التركية وليس عنده ما يأخذه من القنصل الإنجليزي أو يعطيه، وإنه لا يرغب بلقائه، فسكت القنصل الإنجليزي.

القنصل الإنجليزي والمولوي عبد الرحيم صاحب

جرى حبس الحجاج الكرام في المحجر خلف القضبان الحديدية. وذات يوم أبلغ الأطباء المولوي عبد الرحيم، بأن القنصل الإنجليزي جاء عند مدخل المحجر يطلب لقاء رئيس قافلة حجاج حيدر آباد الدكن المولوي عبد الرحيم صاحب. وفي الوقت المحدد أخبره الأطباء ثانية بأن القنصل ينتظر لقاءه خلف القضبان، فلم يتعجل المولوي، وقام بكل وقار وهيبة، وخرج من حجرته و معه مساعدوه و ترجمانه وسار متأنيا نحو السور الحديدي على بعد مائتي خطوة، ولم يظهر عليه أي أثر للاضطراب أو الاستعجال.

وقف المولوي على بعد ثلاثة أقواس من القضبان، وتبادلا السلام، وبادر القنصل قائلا: أنا القنصل فلان الفلاني أرسلتني حكومتي لحماية حقوق رعايا دولة إنجلترا، فان كنتم تشكون من شيء فأبلغوني، كي أقوم بالاتصالات اللازمة لضمان إحترامكم.

المولوي عبد الرحيم صاحب: إن أكبر إهانة وأكبر إذلال نتعرض له هو حبسنا خلف القضبان في هذا المحجر كالمجرمين، فإذا بذلت مساعيك لرفع هذا الحجر فكل المسلمين سيكونون ممتنين لإنجلترا وحكومتها.

- هذا الأمر خارج نطاق مهمتي، وهو تدبير صحي تقرر باتفاق كل الدول. وليس لأحد أن يقول شيئاً في هذا الشأن.

-إذاً لماذا جئت إلى هنا، إننا سنجد من يسمع لقولنا، إن خليفتنا سيسمع لقولنا، وإن لم يستمع إلينا فسيسمعنا الله، وسيأتي زمان نجعلكم تسمعون أيضاً.

- كنت أعتقد بأن الموظفين في هذا المكان قصروا في القيام بواجب الاحترام تجاهكم، وقد جئت لأساعدكم في هذا الخصوص.

- كان الأجدر بكم أن تظهروا هذه الإنسانية في الهند، تمتصون دماءنا هناك في الهند ثم تأتون إلى هنا لتتحدثوا عن الإنسانية. ثم انصرف القنصل وعاد من حيث أتى. وقد ظن بعض الناس أنه بكلامه هذا أغضب القنصل ولكنه لم يتكلم بشيء، و انتهى الأمر على هذا النحو.

من غير المتوقع أن يرجع المولوي عبد الرحيم صاحب عن رأيه، إذ أنه يتحدث لكل من يراه عن الحجر الصحي، والكلام الذي وجهه إلى القنصل كان طبيعياً، ردده أمام كثير من الناس قبل ذلك كثيراً، بل كان يقول أكثر من ذلك، يقول بوجوب الجهاد الأكبر.

رأيي في الحجر الصحي

الحجر الصحي في ظاهر الأمر تدبير وإجراء صحي ولكنه في حقيقة الأمر لعبة سياسية، إلا أن رجال الدولة العثمانية وأطباءها يجهلون ويغفلون عن الجانب السياسي له. لقد نظروا إلى الأمر ولا يزالون من الناحية الصحية البحتة، أما الأوربيون فقد اهتموا في الجانب السياسي .

وأترك الناحية العلمية جانباً، وأتحدث عن الأدلة الأخرى من خلال مشاهداتي الشخصية.

في روسيا فكر رجال الحكومة الروسية في اتخاذ كثير من الإجراءات بشأن الحجاج، وبحثوا عن وسائل منعهم من الاجتماع في الحج، وألفوا كتباً كثيرة حول الموضوع، ومن جملة المواد التي ذكروها مادة الحجر الصحي، حتى أنهم ذكروا بأنه يتوجب أحيانا أيجاد كوليرا مزيفة كإجراء وقائي. ثم انهم بدأوا فعلا يتحدثون عن ظهور الكوليرا في إحدى الولايات في شهر رجب من كل عام، ذلك لأن الحجاج كانوا في تلك الفترة ينطلقون من روسيا في رجب أو شعبان، لم تخل تلك الأعوام من إعلان ظهور

الكوليرا في شهر رجب. وفي السنوات الأخيرة إختصر الخط الحديدي الحجازي المسافات، ولم يعد أحد يطلب جواز السفر في رجب، فتحولت الكوليرا إلى رمضان وشوال، فقد أسلمت الكوليرا في روسيا، فلا تأتي إلا بحساب الشهور القمرية.

وجاء وقت فكر فيه المسلمون في حل، فلم يعودوا يطلبون جواز الحج، وتحولوا إلى الجوازات الخاصة بزيارة البلدان الأخرى، ولكنهم في الواقع إتجهوا إلى الحج، فاستشكل أمر الشهور على الكوليرا.ثم إن الحجر الصحي المقرر على من يعودون من الحج ليس قانونياً في أكثر الأحوال، فهناك مادة في نظام الحجر الصحي تنص على «أن كل من خرج من بلد موبوء بالأمراض السارية، تنطبق عليه المعاملات القانونية اللازمة للتحفظ عليه في المحجر الصحي مدة معينة حماية للصحة العامة» ومادة أخرى تنص على «أن من حجز في أحد المحاجر الصحية، لا ينطبق عليه الحجر الصحي مرة أخرى ما لم يدخل البلد الموبوء ثانية»، ومع ذلك فان حجاجنا الذين يخرجون من مكة يوضعون في الحجر الصحي سيئ السمعة في طور سيناء، ومن هناك إلى بيروت حيث ينتظرهم المحجر مرة أخرى، وفي أورلا مرة ثالثة، وإذا أراد التوجه إلى روسيا تحفظوا عليه في أوديسا مرة أخرى، مع أن كل هذه التحفظات ليست قانونية، كما إنها ليست صحية، حتى أنه كانت هناك بعض السخافات في السابق و التي لا يقبلها العقل ولا المنطق: وهي أنه إذا أراد مسلم السفر من إسطنبول إلى روسيا فلا بد أن ينطبق عليه الحجر الصحي، بصرف النظر عن زمن السفر، وذلك لمجرد كونه مسلماً، في حين أن الباخرة تصل إلى ميناء أوديسا وفيها المئات من الروس القذرين والنجسين العائدين من القدس ولا يتحفظ على واحد منهم صحياً، أما إذا كان بينهم مسلم واحد فلا بد أن يتحفظ عليه، ولا يشفع له كونه من ركاب الدرجة الأولى ومن الرجال اللطيفين(Gentlemen). لقد

استمر هذا الوضع عشر سنوات على الأقل، وأخيراً عرفوا أن الأمر مفضوح ولا يمكن هضمه، فتخلوا عنه، وانحصر الحجر منذ عدة سنوات على فترة عودة الحجاج إلى ديارهم. أما النصارى العائدون من القدس فلا يطبق عليهم الحجر أبداً، إنهم يتوقفون في إسطنبول ويتجولون في شوارعها وأحيائها كما يشاءون، دون أن يعلم بأمرهم مسئولو الصحة، لأنهم نصارى، و لو مات أحدهم من الكوليرا فليس لموظف تركي أن يقول شيئاً، أما إذا كان الميت مسلماً فالمئات من التدابير تتخذ، والأطباء الأتراك المساكين يظنون أنهم خدموا العلم.

أما الإنجليز: فلو جاءتهم جرثومة الكوليرا وقالت لهم أنا جرثومة الكوليرا فلن يصدقوها ما لم تكن لهم مصلحة سياسية في تصديقها، ولو مات مائة ألف رجل في مكة، فلا حجر على الحجاج العائدين من الحجاز إلى الهند، ولكنهم كانوا في الماضي يطبقون الحجر الصحي على مسافري القطار إلى حيدر آباد الدكن بالدرجة الثالثة وفي الحاضر وفي المستقبل. وبعد هذا فان الإنسان الذي يملك شيئاً من المحاكمة العقلية لابد أن يرى الحقائق ما لم يغمض عيونه عنها بالرشوة.

مساكين أطباء الحكومة العثمانية انهم ضحايا العلم على غير هدى، يعجزون عن المقارنة والمحاكمة، ولا يتصورون الأضرار المادية والمعنوية التي تلحق بالدولة.

ومن مشاهداتي أثناء عودتي من حج عام ١٨٩٦م إن عدد الحجاج المارين قبلي من طور سيناء كان ثمانية عشر ألفا وسبعمائة وأربعة عشر حاجاً، وكل واحد منهم دفع أجرة الحجر ستين قرشا مصريا، إلا ثمانية رجال مروا مجانا لعدم وجود أي مبلغ بحوزتهم.

وفي العام نفسه مر من بيروت قبلنا ثمانية آلاف وأربع وستون حاج، لم يدفع أجرة الحجر منهم سوى ثلاثمائة وأربعة عشر، أما الباقون فلم يدفعوا

شيئا بالإضافة إلى أنهم أكلوا وشربوا على حساب الدولة، و سموا ذلك بالشفقة، إلا أنهم لا يفكرون بأن الحج فرض على الأغنياء ولم يفرض على الفقراء.

وهذا يدل على أننا لا نعرف كيف نستفيد حتى في الأمور المادية، فندعي الإشفاق الكاذب، والتدابير التي إنخدعنا بها باسم الصحة في الممالك العثمانية ولا يتخذها الفرنجة في ممالكهم. ففي مصر لا تجد أي تدبير صحي مع أن الذباب الذي يتجمع في عيون أطفال الفلاحين لا تجده حتى في أماكن التغوط عندنا، وفي الهند تجد القاذورات في كل مكان، والواقع أن القاذورات تكثر في الأماكن الكثيفة بالسكان، فأحياء نشان طاشي وتشويقية وأسكدار وحيدر باشا وأرن كوي في إسطنبول نظيفة جدا. فهل ترى أي أثر للنظافة في شارع شيمرباقوف أو سوق آبراقسين أو في شارع ليغوه بترسبورغ، و مع هذا لا تتخذ فيها التدابير الصحية التي تتخذ في أحياء إسطنبول. لقد أسروا عقولنا باسم العلم.إن المحاجر التي أعدت للحجاج المسلمين هي إجراءات سياسية وليست تدابير صحية.

الحجاج في قماران

في المحاجر يوضع حجاج كل باخرة في مكان خاص ولا يختلط حجاج باخرة بحجاج باخرة أخرى، وعندما تكتمل مدة الحجز لحجاج باخرة ما تكون الباخرة الأخرى قد وصلت تواً فلا يحصل أي إختلاط، إلا أنه كان هناك طبيب أرمني يأخذ بعض الحجاج معه لقاء عدداً من الليرات ليجتمعوا بحجاج السفينة القادمة من بومبي. لقد رأينا ذلك بأعيننا وأبلغت الدكتور شكري بذلك فرد قائلا:ذلك الطبيب أرمني،(ويظهر أن جرثومة الكوليرا تلتزم الأدب إذا كانت مع الدكتور الأرمني).إن السيد المفتش له نفس الرأي، أي أن الجراثيم أيضا تقبل الرشاوى. خلال إقامتنا في قمران

أمضينا أوقاتاً جميلة فكل شيء متوفر وبأسعار رخيصة والأطباء أظهـروا لنـا إحتراماً شديداً، و كانت صحة الحجاج على ما يرام.

أمضينا مدة التحفظ وكان مقرراً أن يـسمحوا لنـا بـصعود البـاخرة يـوم الثالث والعشرين من ذي القعدة ولكن لم أدر ما الذي حـدث فأبقونـا ليلـة أخرى في مهاجع المحجر ولعـل ذلـك مـن قبيـل الإزعـاج. وفي الرابـع و العشرين من ذي القعدة غادرنا قمـران. في مـساء ذلـك اليـوم استعد كـل الحجاج للإحرام، والإحرام يعني النية بالحج.و ما هي النيـة؟من النـادر أن تجد بين الحجاج الكرام من يعرف معنى النيـة ودليـل الحجـاج في البـاخرة عربي أسمر اسمه سراج والرجل وان لم يكن عالماً فهو يعرف معاني الحج و أفعاله كما رآها بصورة عملية.وفي المساء أُلبس كل حاج إحرامـه وإن كـان الحاج فقيراً أخذ منه مبلغاً مقطوعاً مقداره سبع ربيات بدل النية، وهي تدفع عن الحجاج من خزينة نظام الدكن. أما إذا كان من الأغنياء فلا يقبل منه أقل من ليرة، إن رئيس القافلة دفع عن نفسه و عن معيته خمس وعـشرين لـيرة إنجليزية، و كان عدد ركاب الباخرة ألف ومائة وخمس وخمسون ولم يـزد عدد الذين لم يدفعوا للدليل عن خمسة وعشرين.

من المؤكد أن المبلغ وصل إلى سبعة آلاف ربيـة ومـا زاد ففيـه الخـير والبركـة. إن رأس مـال هـذا الرجـل هـو أن يقـول:اللـهم إني أريـد الحـج وأحرمت به فيسره لي وتقبله مني.لبيـك اللـهم لبيـك لبيـك لا شـريك لـك لبيك،إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.يكرر هذه العبارة مـرات ومرات.

فالدليل جاهل، والحجاج جهلـة، يـرددون هـذه العبـارة مثـل الببغـاء بقلوب فارغة،فهل تنعقد النية؟وهذه مسألة فقهية على ما أظن، يتم صـرف سبعة آلاف ربية ولا يعرف ما الذي حـدث!!!. نحـن بـصدد عبـادة تعتـبر

فرضاً ومن أركان الدين سيتم أداؤها، فلو كان الحاج شافعي المذهب فأنه لا يصح حجه أما إن كان حنفيا فالأمر يهون.

وفي عصر اليوم التالي رست باخرتنا في ميناء جدة المباركة وظهرت أمامنا الكثير من البواخر وكانت هناك باخرتان لم تلقيا المراسي بعد.

جاءت القوارب فبادرنا بالنزول في أحدها واتجهنا صوب البر. كنا في القارب ثلاثة أنا وعمر أفندي ياما أوكا و رجل من بخارى، و عندما اقتربنا من الساحل قال صاحب القارب: أولا هاتوا أجرتي، ثانيا عند نزولكم إلى البر ستسألون عن جهة قدومكم فقولوا من باخرة خديوي مصر، لأنهم لن يسمحوا لباخرتكم أن تفرغ ركابها اليوم. إنكم ترون أمامكم باخرة الخديوي وقد ألقت مراسيها ولابد أن يتسامحوا معها والخديوي لن ينزل إلى هذا البر ولكن كثيراً ممن معه قد نزلوا.

ونزلنا إلى البر ودفعنا له بضعة قروش وانصرفنا، ولم يسألنا أحد فنحن الآن في البر والحمد لله.إن البشر مخلوقات برية وهم يعيشون في البر ومهما كان البحر مريحا فانه ليس بالمكان المناسب لعيشة الإنسان، و لهذا فان المرء من أجل أن ينزل إلى البر ولو قبل ساعة فإنه يقول الكذب ويصرف المال بالإضافة إلى أمر «وسابقوا إلى الخيرات».

وبنية السبق سبقنا رفقاءنا بالنزول إلى البر ليلة واحدة.

ومن الطبيعي إننا سنضطر لقضاء الليلة في جدة وقد عرفنا أن قوافل الجمال وكذلك قوافل الحمير ستنطلق صباح اليوم التالي، وجدة المباركة لم تكن غريبة علينا، لقد صادفنا كثيرا من الأحباب الذين وصلوا إليها قبلنا «من كل فج عميق» وكان صديقنا القديم إسفنديار كبير المترجمين في القنصلية الروسية هناك.

ذهبنا إلى بيت إسفنديار أفندي وكانت بيننا أحاديث ودية، وفي الصباح الباكر أوصى البعض بزيارة مقبرة حوا، ولكننا لم نستسغ هذه الزيارة، وفضلنا الانضمام فورا إلى القافلة والاتجاه إلى مكة.

بناء على ما أختاره صديقنا عمر أفندي ياما أوكا قررنا السفر إلى مكة على الحمير. والسفر من جدة إلى مكة إما على الجمال أو على الحمير فإذا كان على الجمال فانه يستغرق يومين أما على الحمير فان الوصول إلى مكة يستغرق إثنتي عشر ساعة. ولحكمة ربانية فمن كانت أحمالهم خفيفة فإنهم يفضلون السفر على الحمير ومع ذلك فان صعوبات السفر على الحمير كثيرة، و أظن هنا أن القلوب تتسابق إلى تنفيذ أمر «وسارعوا» إنهم يتحملون مشاق السفر على الحمير إمتثالا لهذا الأمر الإلهي.

طريق جدة مكة

غادرنا جدة ودخلنا سهلاً رملياً لا أثر فيه للعمران، كل شئ أمامنا قد غطاه الرمل، لاشيء سوى المقاهي المبنية من القصب والتي يعبرون عنها بالعشة. وبعد ساعتين من السير في هذه الصحراء الرملية تبدأ التلال الصخرية، وهذه التلال عبارة عن جبال من الأحجار شديدة السواد ولاشيء عليها من النباتات سوى السنامكى وأشجار ماغيلان الشوكية. وبين جدة ومكة منزل يسمى «حدة» وهي قرية وكل أهلها من البدو.

عند أذان المغرب كنا في مسجد قرب مكة ووجدنا هناك كثيراً من المجاورين الكرام جاءوا للاستقبال. وبعد المغرب دخلنا مكة المكرمة وكان الشيخ محمد مراد أفندي وهو من المشايخ الكرام قد خرج لاستقبالنا. قابلناه في شارع الشيخ محمود وتعانقنا فرحب بنا وأبلغنا بأننا سننزل ضيوفاً عليه. كان عمر أفندي ياما أوكا متعباً ومريضاً فأرسلناه إلى منزل حضرة الشيخ،

أما أنا فقد توجهت برفقة أحد المطوفين إلى الحرم الشريف فطفت وسعيت وأكملت أفعال العمرة ثم توجهت إلى منزل الشيخ المشار إليه فوصلته بسلامة الله. وجاء الشاي فشربنا واسترحنا قليلاً، وكنا نحس بأننا في وطننا وفي منزلنا لقد زالت الغربة وارتفعت الكلفة.

الشيخ محمد مراد أفندي

إن الشيخ محمد مراد أفندي الذي نزلنا ضيوفاً عليه هو من اعظم مشايخ النقشبندية، ومن أكابر علماء العصر الحاضر ومعروف بفضله وكماله بما نشر من الكتب؛ فقد عرب مكتوبات الإمام الرباني وعرب الرشحات، وكتابه تلفيق الأخبار باللغة العربية كتاب جليل ومن أوثق التواريخ وليس له نظير بين الكتب، وماعدا ما ذكرنا فان له كتب بالعربية والفارسية والتركية مطبوعة وغير مطبوعة، ولابد أن تكون له كتب أخرى لا نعرفها، وهو يجاور مكة المكرمة منذ ما يقرب من نصف قرن، إنه يتكلم الفارسية والعربية والتركية كأنها لغته الأم، ويكتب بها، وله اليد الطولى في الأصول والفروع، كما أن له إطلاع واسع على التفاسير والأحاديث الشريفة، ولكن وللأسف لم يعرف الناس قدره، فهو يعاني من ضيق العيش، وفي آخر عمره كلف بوظيفة بواب في رباط الحجاج التتار بمكة المكرمة، وهذا ذل ما بعده من ذل للعلماء المسلمين. كنت أنا والحجاج الآخرون ضيوفاً في الرباط الذي كان يعمل فيه هذا الرجل الجليل بواباً. وفي الحقيقة إن أكثر المجاورين في مكة المكرمة يحصلون على معاشهم من مثل هذه الأعمال، إلا أنه ما يجوز للمجاورين من العوام لا يناسب العلماء، ولكن ما الحيلة فالرجل صاحب عيال وهو يشتغل في موسم الحج ويتعب ويقيم بقية شهور

العام في هذا المنزل دون أن يدفع إيجاراً، إنه في موسم الحج بواباً وفي الشهور الأخرى شيخا للتكية.

تكايا وبيوت الحجاج القازانيين في الحجاز

وفي الحرمين الشريفين عدد من بيوت الحجاج المعروفة بتكايا القازانيين، يسمونها تكية ولكنها ليست بتكايا بل بيوت حجاج، و الحجاج القادمون من روسيا ينزلون في هذه التكايا ويسكنون فيها طيلة مدة إقامتهم، و ناظر التكية يهتم بشؤون الحجاج أي يصير خادماً لهم وبواباً، فإذا سر منه الحاج أعطاه مما عنده من بدل وصدقة عمرة وبعضهم لا يعطيه شيئاً وأحيانا تحدث النزاعات والمشادات، ولا يعرف ما كان يقصده بناة هذه التكايا وواقفوها، وهل كانت هناك حاجة لمثل هذه البيوت، فإن فوائد هذه التكايا تساوي أضرارها. أما التكية التي نسكن فيها فهي تحت نظارة الشيخ محمد مراد أفندي وتعتبر من أكمل التكايا في مكة و أحسنها تنظيما.

في مكة المكرمة

وفي اليوم التالي من دخولنا مكة المكرمة زرنا أمين بك وكيل الوالي والشاعر المشهور، فتفضل بحسن الاستقبال، وفي نفس اليوم إلتقينا ببعض العلماء، كما التقينا بالبكباشي رجب أفندي ممثل مركز الاتحاد والترقي في سلانيك وفريد أفندي معلم الدرك، وفي اللقاءين الثاني والثالث، تبين أن المهمات التي كلف بها هذان الرجلان ليست إلا من قبيل الدعاية والشهرة. وكان هناك رجل مبعوث من قبل السلطان اسمه حافظ عثمان الأعمى الموصلي، وقد التقينا به عند الوالي ولكن لم يكن واضحا لأي هدف

أرسل. لقد كان رجلاً أعمى وعلى رأسه قلنسوة مولوية ويقدم على أنه عالم فاضل وشاعر مشهور، أما هو فكان كثيراً ما يردد حديث «لا يبلغ عـني إلا من هو مني» ولم نعرف لأي مناسبة كان يردده .

انه لأمر غريب حقا أن يرسل رجل أعمى وكيلاً من قبـل الـسلطان مـن اسطنبول إلى مكة المكرمة، هذا لا يتصور حدوثه في أي بلد إلا في تركيا.

تتواجد في الحرم الشريف جموع غفيرة من الحجاج جاءوا من كل فـج عميق، فيهم عينات من كافة الأنواع البشرية. لقد رأينـا كـثيراً مـن الحجـاج البخاريين والأفغان والتركستانيين والصينيين والجاويين والملاويـين، ومـن جبل طارق وبلخ وبغداد والعراق واليمن ومصر والمغـرب وفـاس وتـونس والجزائر وسوريا والأناضول والقفقاس وداغستان وأذربيجان وإيران وقازان والقازاق، قابلنا بعضهم، فشجعناهم علـى اللقـاء والحـديث مـع بعـضهم البعض، فاستحسن فريق منهم ورد آخرون علينا بأنهم جاءوا إلى هذه الديار للعبادة.

إجتماع في منزل الشيخ محمد مراد أفندي

عقـد في مـنزل الـشيخ المـذكور إجتمـاع دعـي إليـه جمـع غفـير مـن الحجاج، ولم يكن الاجتماع كبيراً ولكنه ضم أشخاصاً من جميع الأجنـاس والمذاهب، وقد رأس الجلسة مفتي مكة السيد محمد الزواوي، ولم يتخـذ المجلس أي قرار قطعي ولكن ألقيت فيه خطـب مـؤثرة، خاصـة مـن قبـل صاحب المنزل محمد مراد أفندي الذي ألقى خطبة مفصلة وموعظـة تنـاول فيها أحكام الحج ومنافعه الدينية والاجتماعية، وأوضح بلسان بليـغ منـافع زيارة المسلمين بعضهم بعضاً في مكة للتعارف والتشاور فيمـا بينـهم. كمـا تحدث عمر أفندي ياما أوكا الياباني عن إتحـاد الأقـوام الـشرقية ومـستقبل الإسلام وإمكانية إنتشاره في اليابان. وتحدث معلم الدرك فريد أفندي عـن

مستقبل سلانيك التي هي مركز جمعية الاتحاد والترقي، فذكر بأنها ستصير مركزاً إسلامياً مهما في المستقبل، كما عدد خدمات تلك الجمعية. وتحدث حجاج من الهند والصين والملايو عن ضرورة الاتحاد، كما ألقى أحد العلماء التبريزيين كلمة مؤثرة، وكانت جلسة طيبة. لقد كان عدد الحاضرين قليلاً ولكن صدق الحديث كان عظيماً، و يجدر بنا أن نسميه مجلس إخوان متحابين في الله. وقد ألقيت الكلمات باللغات العربية والفارسية والتركية، وفي نهاية الجلسة، تقرر عقد إجتماعات أوسع والقيام بإلقاء مواعظ يومية في الحرم الشريف، إنها بداية طيبة.

إن إنعقاد مثل هذه الندوة لأول مرة في بيت رجل فاضل من علمائنا التتار، كان من دواعي فخري واعتزازي بصورة خاصة، وإن هذه الجلسة هي الأولى التي تعتبر توطئة لمجالس إتحاد إسلامي.

مكة المكرمة

إن مكة المكرمة مدينة إسلامية مقدسة، وهذه المدينة المباركة تقع في ﴿واد غير ذي زرع﴾ تماماً كما كانت على عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام. لقد تعرضت لبعض التغييرات العمرانية لكن أكثر سكانها لا يزالون من البدو. وفي بعض العهود بذلت جهود لإعمار مكة، إلا أن ذلك لم يتجاوز أطراف الحرم الشريف. إن مبنى الحرم الشريف بسيط جداً، لم يعتن به كما يليق كمجمع لأهل الإيمان. وبالرغم من إحاطة المدينة بالجبال الضخمة من كل الجهات فانهم لم يفكروا في مخاطر تعرضها للسيول. إن مكة معرضة للانهدام بالسيول في كل وقت، ولكن لم يتخذ أي إجراء حيالها، وصفحات التاريخ تؤكد تعرض الكعبة المشرفة للانهيار من السيول عدة مرات. كما أن الجهود لم تبذل أبداً من أجل نظافة وإنارة هذه البلدة الطيبة،

ولا توجد دور خلاء عامة، لـذلك تـرى النـاس يدوسـون نجاسـات البـشر بأقدامهم في الأزقة والطرقات. ومـن الطبيعـي أنـه لا يمكـن بحـال مراعـاة النظافة التامة، وهي أمر إسلامي عظـيم، خـصوصاً إن الزحـام يحـول دون ذلك، كما إن المدينة صغيرة والمساحة التي يتجمع فيها الحجاج محدودة، وكل الناس يرغبون بالبقاء حول البيت العتيق، وعددهم يزيد عـن ثلاثمائـة ألـف. إن قـضاء الحاجـة في مثـل هـذه الظـروف يتـضاعف، لأن الحجـاج يضطرون لتناول مزيد من الأطعمة غير المألوفة، وإذا مرض حاج فانـه قـد يتعرض لمشكلات كبيرة. أكـرر فـأقول بأنـه لم يتخـذ أي تـدبير مـن أجـل النظافة. ومن حسن الحظ أن شدة حرارة الشمس تجفف القاذورات فتختلط بالتراب وتختفـي، إلا أنـه إذا حـدث الـسيل فانـه يجـرف معـه كـل تلـك القاذورات لتتراكم داخل الحرم الشريف وحول الكعبة المعظمة. هذه الأمور لم تؤخذ بالحسبان حتى الآن.

وخلاصة القول إن مدينة مكة المكرمة لا تصلح لمثل هذه التجمعـات من الناحية الفنية، فعدم وجود الأزقة، و محدودية الشوارع، وشدة الزحام وكثرة الجمال والبغال، وسوء التنظيم في وسائط النقل وكثرة هـذه الأشـياء في كل مكان في الليل والنهار، كلـها تجعـل الإقامـة في مثـل هـذا المكـان صعبة. كما إنك لا تجد فيها أسباب الراحة بل أسباب الأمن، ففي الـشوارع والأزقة الضيقة تطبخ كل أنواع الأطعمة وتباع الفاكهة وغيرها وهي أمـور لا يقبلها العقل والمنطق من الناحية الفنية.

ونحمد الله أولاً وآخراً على دين الإسلام فانه بفضل التربيـة الإسـلامية إستمرت هذه الحالة على مر العصور دون وقوع حوادث، فكل إنسان يجـد الوسيلة لسد حاجته، ويجد المكان ووسـيلة التنقـل. في مثـل هـذا المكـان الضيق يتنفس نصف مليون نفس أكثر مـن أسـبوع، والاحتفـالات الرسميـة تجري بقـدوم المحملـين الـشريفين، وصـعودهما إلى عرفـات. وفي كافـة

الأحوال يسعى كل فرد لحماية نفسه وعدم إيذاء غيره، فيستتب الأمن. ولو قام عدد من الناس الذين غرتهم أنفسهم فخرجوا على هذا النظام لانقلب كل شيء وتعطل السير و انعدم النظام. لقد نظم الشرع الشريف برنامج الحج بالأمر الإلهي الكريم ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ قبل ألف وثلاثمائة عام، ولا يزال المسلمون يطبقونه حرفياً إلى يومنا هذا. فهناك أكثر من ثلاثمائة ألف إنسان بالإضافة إلى الجمال والحمير والبغال والخيول والمشاة يروحون ويغدون في يوم واحد بل في وقت واحد دون انقطاع، في تلك الأزقة الضيقة دون ضابطة أو رابطة، كل يؤدي شعائر الإسلام في وقتها وساعتها، دون ضرر أو إضرار، ومع كل هذا الزحام والضيق فإن هناك متسع للأشراف والولاة والضيوف واحتفالات المحملين الشريفين.

هذه هي النقاط التي تثير إهتمام وحيرة أهل البصائر، الذين يريدون أن يعرفوا مدى إنقياد الناس للقوى المعنوية، يركزون أنظارهم إلى هذه النواحي، فمن أراد أن يعرف أن أعظم قوة هي القوة المعنوية يكفيه أن يعيش في مكة المكرمة عدة أيام في موسم الحج، وفي موسم الحج يتأكد وصف مكة المكرمة بأنها البلدة المباركة بكل ما في الكلمة من معنى ويظهر سر الآية الكريمة ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾، كما يعرف الإنسان معنى الآية الكريمة ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ ويرى رأي العين أهمية دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ وأن هذا الدعاء مقبول عند الله.

إن معرفة كون هذه البلدة الطيبة مباركة وتعريفها للناس، تتطلب معرفة معنى كلمة مبارك وكلمة البركة، والبركة تعني من جملة ما تعنيه، قيام الشيء القليل مقام الشيء الكثير وكفايته، مثل أن يكفي طعام الواحد لعشرة وإشباعهم. كما تعني إمكانية أن يتحرك في تلك الأزقة الضيقة مئات الآلاف من الناس، هذه معجزة باهرة. ثم إن مكة واد غير ذي زرع، لا يزيد عدد سكانها على مائة ألف، وعندما يضاف إليهم مائتا ألف أو ثلاثمائة

ألف، فإنها تستوعب هذا العدد الهائل، كما أن الأرزاق تكفيهم جميعاً، ولا تزيد أسعارها عن الأيام العادية أبداً، مع أن أسباب تأمين هذه الأرزاق مفقودة. ففي مكة كلها ثلاث أفران، كلها تعمل بالطرق القديمة. ولنتصور أفران مكة، وهي ثلاثة، تكفي لأهالي مكة، وعددهم مائة ألف. كما تكفي للقادمين من الخارج، ولا يقل عددهم عن مائتي ألف، بل وقد يصل عددهم إلى ثلاثمائة أو أربعمائة ألف في بعض الأعوام، هذه هي معاني البركة، إنها ظاهرة لأهل البصائر.

إذا فكر الإنسان في هذه الأحوال وفي أحوال أعجب منها مما لا تدركه عقول البشر لرأي فيها الآيات البينات التي تؤكد القدرة الإلهية، فلا شرطة ولا حسبة، والأمن مستتب، ولا أذية لأحد، ولا حادثة، كل واحد لديه ما يكفيه من نقود، تظنه أفقر الناس وفي جيبه ما يزيد على عشرين أو ثلاثين ليرة. هذا هو دعاء إبراهيم عليه السلام وهذا هو معنى ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ يتجلى بكل دقائقه. ندعو الله أن يفتح بصائر الحجاج كي يروا هذه الأسرار.

خديوي مصر أو عزيز مصر في مكة

عزيز مصر عباس حلمي باشا دخل مكة المكرمة يوم الرابع من ذي الحجة، واستقبل إستقبالاً حافلاً، وتوجه فوراً إلى منزل أمير مكة الشريف حسين باشا بين أصوات المدافع وإطلاق الزغاريد، ومعه حاشيته والماجدة والدته. وقد أحدث حضور الخديوي إلى مكة المكرمة وهو أحد الأمراء المسلمين، لابساً الإحرام حاسر الرأس بنية أداء ركن من أركان الدين، سروراً صادقاً بين عموم الحجيج، فهنأوه من صميم قلوبهم. لقد قام

بالطواف والسعي على وجه السنة كغيره من الحجاج، وسعى بين الصفا و المروة على قدميه.

وفي اليوم التالي قام عزيز مصر بزيارة الوالي أمين بك، كما استقبل عدداً كبيراً من العلماء والأشراف.

بعض الغرائب التي حدثت في مكة المكرمة هذا العام

أولاً: إن قدوم الخديوي إلى أرض الحجاز يعتبر من الأحداث النادرة بالنسبة للأمراء المسلمين.

ثانياً: كثرة عدد حجاج اليمن هذا العام، وتوفر الليرات الإنجليزية عندهم بشكل ملفت للنظر. فلماذا يصرف كل يمني الليرات الإنجليزية دون غيرها حيث أن الليرات الإنجليزية لم تكن بهذه الوفرة في الأعوام السابقة، وهذا أمر لفت نظر التجار بشكل عام.

ثالثاً: توزيع بعض الأوراق المطبوعة باسم الخلافة العربية، وقد يكون ذلك بمحض الصدفة أو نتيجة الجهل.

رابعاً: دخول طوبوغرافي نصراني بمعية الخديوي، ونزوله ضيفاً في منزل شريف مكة، وهذا حدث غريب جداً. لقد كان دخول أي نصراني ممنوعاً، فكيف يحل له الدخول إذا كان بحماية أمير مسلم، وينزل ضيفاً على أمير مسلم آخر. لقد شاع الخبر بين الحجاج وكثر الهمس والقيل والقال إنها أحوال غريبة ومشؤومة.

كما شاع وجود مراسل لجريدة التايمز بمعية الخديوي، ولم يتأكد فيما إذا كان هناك شخصان أو شخص واحد مكلف بعملين. ومن الأمور الغريبة الاتصالات بين المصريين واليمنيين، فإذا اجتمع يمنيان أو ثلاثة فلا بد أن يكون إلى جانبهم مصري، واتجهت الأنظار إلى طالبين أزهريين بين

جماعات الحجيج، وأخيراً إعتقل وكيل الوالي أحدهما وأرسله مخفوراً إلى دار السعادة(إسطنبول). وذكر وكيل الوالي أنه عثر في جيبه على رسالة موجهة إلي الإدريسي. ولا أعتقد أن كل هذه الأمور من قبيل الصدفة، وإذا كانت كذلك فهي من الصدف الغريبة.

ماء زمزم

قد يكون ماء زمزم ماء معدني (Mineral) إلا أننا نعتقد بأنه ماء مقدس، وفي الكتب الإسلامية روايات متعددة ومشهورة ومعروفة عن زمزم، سأصرف النظر عنها وأكتفي بنقل تجاربي. إنني أستطيع أن أشرب زمزم كما أريد وفي الوقت الذي أريد، وقد يصل مقدار ما أشربه في بعض الأحيان إلى ١٥ كيلو، بل كنت أشرب أكثر من عشر مرات من ماء زمزم. أشرب من يد السقائين، كلما أطلب فأشرب، فلا أحس بأي ثقل،كلما شربت أحس بالحاجة إلى المزيد. لقد شاهدت بحق معنى «زمزم شفاء لما شرب له».

وماء زمزم الشريف يعبئه الحجاج في صفائح ويأخذونه إلى بلادهم، وقد فعلت ذلك في وقت سابق، وبقي هذا الماء في القارورة إثني عشر عاماً فلم يتبدل ولم يتغير. إنني أعتقد بزمزم إعتقاداً كبيراً، ولي تجارب كبيرة. كان الناس يتجنبون شرب زمزم بينما كنت أشرب المزيد.

روى بعض الناس وقالوا بأن زمزم لا يغلى، وقمت أنا فجربته فغلى، إلا أن طعمه تغير كثيراً، أردت أن أصنع منه الشاي فأشربه، فتغير أكثر واستحال شربه، أضفت إليه السكر فساء أكثر، فخفت وتأدبت، وأخيراً إغتسلت بالماء المغلي ودفنت الشاي، وندمت مظنة إساءة الأدب.

ونتيجة لتجاربي المادية والمعنوية في زمزم أقول بأن شرب زمزم و بأي قصد فانه يضمن المنفعة المقصودة، فإذا شربته بنية الشبع وأنت جائع

شبعت، وإذا شربت بنية الشفاء وأنت مريض شفيت دون أدنى شك، ولكن بشرط شربه كما هو.

إن تجربة «زمزم لما شرب له» قطعية لاشك فيها ولا شبهة، ولكن بشرط النية الخالصة والاعتقاد الجازم كما في سائر الأمور. فإذا توفر الشرطان فان زمزم الشريف لما شرب له بكل تأكيد. ولا ريب أنه إذا لم يكن هناك إعتقاد بالشفاء فان أقوى السلفات (دواء) لا يصلح دواء ولا يشفي الحمى، ولا دواء لأي داء في هذه الدنيا دون الاعتقاد بأنه يشفي بإذن الله. لقد جربت ماء زمزم مراراً في أكثر الأمراض وخاصة في أمراض المثانة والأمراض الباطنية وأوجاع العين، أمضيت الأسابيع مكتفياً بزمزم لسد جوعي، كلها تجارب عملية وكلها قطعية في رأيي.

الاستعداد ليوم التروية وعرفات

في اليوم الثامن من ذي الحجة المعروف بيوم التروية يتحرك الحجاج من مكة المكرمة متجهين إلى عرفات، أحد أركان الحج وأولها. هذه الحركة عجيبة ونادرةً حقاً. مائتان أو ثلاثمائة ألف إنسان يمرون من خلال تلك الأزقة الضيقة باتجاه عرفات، وإنهم سيقطعون عشرين ميلاً، مستخدمين خمسة وعشرين أو ثلاثين ألفا من الجمال، ولنتصور بعد إضافة الجمال والخيول والبغال والحمير إلى القافلة البشرية ألتى تزيد على ثلاثمائة ألف، ونسأل: من من القادة المحنكين يستطيع سوق هذا المجموع و هو ينطلق من بين تلك الأزقة الضيقة مدة ٢٤ ساعة ودون أي حادث؟ إن البرنامج الذي حدده القائد الأعظم عليه الصلاة والسلام قبل ألف وثلاثمائة عام بالأمر الإلهي الجليل، ينفذ كل عام دون حوادث وبدقة، كل واحد يسير في طريقه الذي يختاره، ولا يبقى في مكة إلا حراس الأزقة. وفي هذه الرحلة

يصطحب الحجاج الأطعمة التي تكفيهم ثلاثة أيام وخيامهم. وفي اليوم التاسع من ذي الحجة تستقر هذه القافلة العظيمة بكاملها في ميدان عرفات، ينصبون أكثر من ستين أو سبعين ألف خيمة، ثلاثمائة ألف إنسان يقفون على صعيد واحد، ولنتصور: الأسواق والمعارض والشوارع، كل طائفة تلتقي بالطوائف الأخرى، تظهر التآخي، وتتبادل الضيافات، وتطلق الأعيرة النارية في الهواء، وتنظم المسيرات، ومن جانب آخر تسمع الابتهالات والأدعية والموالد، والتلاوات والتلبيات، كل الناس وقفوا على صعيد واحد، وتجسدت المساواة بكل معانيها، إنهم حاسروا الرأس، حفاة الأقدام، لا قميص ولا سروال، لا تمييز بين الأمير والفقير. وفي تمام الساعة العاشرة[١] يصعد أمير الحج المرسل من قبل الخليفة إلى جبل الرحمة راكباً ناقته البيضاء، ويبدأ بالخطبة، ومن ساعته يتحول موقف عرفات إلى ميدان عرض إذ ترتفع أصوات التلبية في السماء، ويهز الحجاج أطراف أرديتهم ومناديلهم، فيتحول كل شيء إلى معرض بشري أبيض، يالها من طاعة وياله من انقياد، لقد استجابوا لدعوة صدرت قبل آلاف السنين، وتوجهوا إلى الله بقلوب خاشعة وعيون دامعة، مئات الألوف من الأفواه تردد معاً: لبيك اللهم لبيك، ومئات الألوف تتوجه إلى هدف واحد. الساعة تمام الحادية عشرة، المناجاة والدعاء مستمر، بينما تزال الخيام وتحمل على الجمال، وتبدأ إستعدادات التحرك إلى مزدلفة

الساعة الحادية عشرة والنصف، ترى الناس على الجمال والخيول والبغال والحمير وبعضهم مشاة ينتظرون الغروب وأصوات التلبية تنطلق من حناجرهم. وما أن ينطلق مدفع الغروب حتى تتحرك القافلة الكبرى من عرفات ممتثلة للأمر الإلهي ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ متجهة إلى مزدلفة إستجابة لأمر

(١) التوقيت الغروبي (صالح السامرائي)

الهي آخر ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ ولنتصور أيضاً الجمال وعلى ظهورها الشغتف، والمحمل الشريف والهودج، والمشاة والركبان تتحرك معاً في إتجاه واحد، والمضائق التي يصادفونها على الطريق لا تفرق عن أزقة مكة الضيقة، يمر منها ثلاثمائة ألف، وفي بعض السنوات أربعمائة ألف سالمين، وقد يصل عددهم في المستقبل إلى نصف مليون، ولا تقع أي حادثة، وبعد ثلاث ساعات ينزل الحجاج في المزدلفة حول المشعر الحرام. وهنا أيضا تنصب الأسواق، وتفتح المقاهي، وتطبخ الأطعمة، ويكون البيع والشراء، ويصلي الحجاج المغرب والعشاء جمعاً، ويبقون حتى الصباح وسط التهليل والدعاء والذكر وتلاوة القرآن وعند الفجر يتحركون من هناك فيصلون منى مع طلوع الشمس.

هذه التحركات لا تدار من قبل أي قائد، بل هي إنقياد لأمر شرعي وبرنامج مرسوم وتتم بانتظام وأمان. ولا يقدر عظمة هذه الحركات إلا القادة العسكريون. أما عند أهل البصيرة فأمرها بسيط، حيث لا حدود لقدرة الرحمن، ونحن بهذه الملاحظات نريد لفت انتباه أصحاب الظواهر، وليعرف أصحاب الفن ما هو النظام (Discipline) وليُقيسوا مفاهيم الضبط والربط، في مثل هذه الحركات قد يقع الجنود النظاميون ببعض الأخطاء ولكن لم تقع عندنا أية حادثة تخل بالنظام والحمد لله.

الحجاج المسلمون في منى

في يوم العيد يصل الحجاج ذوو الابتهاج مع طلوع الشمس إلى منى فيبادرون برمي جمرة العقبة،ثم تبدأ إراقة الدم. وهذه نقطة جديرة بالملاحظة، فالقسم الأعظم من الحجاج الموجودين هنا يذبحون شاة،

والأغنياء يذبحون خمسه أو عشرة أو أكثر وبعضهم يذبح حتى المائة، فيصل عدد الأضاحي إلى مائة وخمسين أو مائتي ألف، ولو كان مثل هذا اليوم في أوربا لباعوا الشياه بنظام Bandrol ، ولحددوا سعر الشاة الواحدة بليرتين أو ثلاثة.. أما في منى فللبائع والمشتري الخيار، يبدأ الذبح في الصباح الباكر، وكل حاج يرسل من يشتري له ذبيحته. و يصل سعر الذبيحة الواحدة في ذلك اليوم إلى ست أو سبع مجيديات، وما دونها بثلاث أو أربع مجيديات، والوسط بخمس. ويبقى هذا السعر حتى وقت الظهر، ثم ينخفض سعر الذبيحة الممتازة إلى أربع مجيديات، إن هدف الحاج القادم أن يقوم بذبح شاة أو شاتين، وليس التجارة، والحاج يدفع السعر الذي يطلبه صاحب الشاة، فالوقت غير مناسب للمساومة الطويلة، خاصة إذا كان الجو حاراً والحاج لا يدخل في مساومة أبداً، أما المعجزة ففي عقيدة البدو، فهم لا يطلبون كثيراً.

ذبح القرابين ولحوم الأضاحي

ذبح القرابين في منى أمر شرعي، وقد نجد في أمر الشريعة الغراء المطهرة في الاصل حكمة مشروعة و لكننا لم نؤمر بالبحث عن تلك الحكمة، بل أمرنا بتنفيذ ذلك الأمر.لذلك فان هذا الأمر المشروع باق إلى يوم القيامة،وعليه فإن إراقة الدم عبادة بذاتها، لا تلغى بفتوى أحد و إن من في قلبه إيمان لا يستفتي أحداً في هذا الشأن وإن كانت هناك بعض الأقاويل تخرج من أفواه بعض السفهاء فلا يسمع لهم ولا يؤبه بأقوالهم.

أما لحوم الأضاحي، فالمسألة تستحق التفكير العميق. فقبل عشرين أو ثلاثين عاما كان الحاج يضحي بمطلق حريته، يشتري الشاة التي يريدها، ثم يأخذها إلى أي جهة يختارها فيذبحها هناك، فيأخذ من لحم الأضحية قدر ما شاء ويترك الباقي مع القاذورات، فكنت ترى في منى، في أزقتها

وشوارعها وبين خيامها وداخل المساجد مزعا من الشياه المذبوحة، وجلودها وقاذوراتها، وحتى الشاة مذبوحة بكاملها، وبأعداد لا تحصى، فلا يقدر المرء أن يعبر الشوارع بسببها.

في تلك الفترة لم يكن هناك موظفو صحة ولا عمال تنظيفات، ولم يكن الأمر يقتصر على منى بل تجد مكة بنفس الحالة. وزد على ذلك، إن اختلاطها بنجاسات البشر يجعل الوصول إلى الجمار والعودة منها دون التلوث بالنجاسات يتطلب مهارة فائقة. فمنى في تلك الفترات كانت تتحول إلى منظر عجيب وإذا حدث أن ظهرت الكوليرا، فستجد الجثث البشرية أيضاً، ولا يعود هناك أي مجال لحياة الإنسان من الناحية الفنية. وأخيراً خصصت أماكن للذبح أيام كان عثمان نوري باشا والياً، وحفرت أخاديد لرمي القاذورات واللحوم، وجمعت الجلود لصالح الحكومة، ثم أنشئت مئات المراحيض في منى، وعين عمال للنظافة فانتظمت منى بعض الشيء.

والذي يحدث الآن في منى هو أن تذبح القرابين، بمئات الألوف من الأغنام، تذبح ثم ترمى في الأخاديد التي تهيئها الحكومة كل عام، ثم يصب عليها الكلس، وبذلك تم اتخاذ التدابير المطابق للصحة.

ومن الغريب أنه قبل ثلاثين عاماً كان الناس في الشوارع والأزقة يدوسون لحوم الأضاحي، والأغنام الحية بأرجلهم، فلا يحرك أحدهم ساكنا، ولا يرونه إسرافا، أما الآن فإن الحجاج لا يستسيغون ما تفعله الحكومة برمي لحوم الأضاحي في الأخاديد، والكل صاروا يتحدثون عن الإسراف والجواز.

ولابد أن لكل شيء زمان ووقت مرهون به، ولا شك أن هذا الحال سيثير اهتمام الحكومة، فلماذا تدفن لحوم مئات الألوف من الأغنام تحت الأرض دون نفع، وسيأتي ذلك اليوم الذي تفكر فيه الحكومة باتخاذ حل

لذلك، ولكن لكل شيء أوان. فلو أسست الحكومة السنية مصنعاً للمحفوظات في منى لأمكنها إطعام مليون جندي وعندها يذبح الحاج بدل الأضحية أضحيتين، والأغنياء سيذبحون الأضعاف المضاعفة، لأنه بالإضافة إلى انتفاء الإسراف، سيقتنع الناس بان ذلك سيكون من أكبر المبرات، وقد يبيع المصنع ما زاد من المحفوظات إلى أوربا أيضاً. وليس من شك أن ذلك سيتحقق عن قريب.

السادة الحجاج في منى

يبيت الحجاج ثلاثة أيام في منى، ومهمة الحجاج في هذه الأيام الثلاثة تتلخص في ذبح الأضخية ورمي الجمار والتعارف. ومنى قرية صغيرة ومع ذلك فان فيها بعض البيوت والمنازل، وأماكن محاطة بقصد تأجيرها للحجاج، وأغنياء الحجاج يستأجرون منها، أما بقية الحجاج فيمضون أوقاتهم في خيام ينصبونها حول مسجد الخيف، ويزورون بعضهم بعضاً؛ وكل حاج يألف بني جنسه، ومع ذلك فان الراغبين في التعارف مع الأجناس الأخرى ليسوا قليلين، فبعض الناس يمرون على كل الحجاج فيسلمون عليهم؛ والوقت طويل فإذا رغب الإنسان فقد يتعرف على كثير من الرجال.

ومنى أهم مركز للتعارف بين الحجاج، وللحجاج متسع من الوقت للقيام بذلك. وليس هناك من عمل يقوم به الناس، لأنها أيام عيد والناس متفرغون.

مسجد الخيف

يقع هذا المسجد المبارك في منى، وفقراء الحجاج وخاصة الهنود منهم والبلخيون ينزلون في هذا المسجد، ونادراً ما تجد بينهم بخاريين.

والحجاج يخصصون للجلوس داخل هذا المسجد مكاناً نظيفاً، كما يتركون باتجاه الأبواب طريقاً ومتنفساً، أما بقية الفراغات فيملئونها بالقاذورات، جعلوه مكاناً لقضاء الحاجة و التغوط، فلا تجد داخل المسجد مكانا نظيفا تمر منه، ما هذا، وهذا وهذا؟ وقانا الله من الجهل. مسجد إبراهيم في عرفات، والمشعر الحرام في مزدلفة، ومسجد الخيف في منى، وجنة المعلا في مكة كلها مقامات مقدسة تستجاب فيها الدعوات بالنصوص القطعية. إلا أن الجهلة من المسلمين ملأوا هذه الأماكن الرفيعة والعليا بالنجاسات... فلا حول ولا قوة إلا بالله. ما هذا؟ ألا يخافون الله؟

لاشك بأن الذين أوصلوا المساجد إلى هذه الحالة أناس جهلة، جاءوا من أماكن بعيدة، أو جاءوا بهم طمعاً في نيل الأجر والثواب، فلنفكر ولنتصور، هل يثاب هؤلاء على هذه الأعمال؟ انهم لا يملكون الإدراك الطبيعي في قضاء الحاجة على الوجه الصحيح، فالحيوان عند الشعور بقضاء الحاجة يقوم بحركة يتجنب فيها نجاسته، فالهر مثلاً يدفنها، والكلب يرفع ساقه، ولكل حيوان طريقته في اجتناب التلوث، فهل هؤلاء الناس أحط من الحيوانات؟ إن المرء إذا وقف عند هذه الأمور وفكر فيها تفكيراً عميقاً، لتأكد بأن الحج فرض على المستطيع مالياً، ويتوصل إلى الأسباب التي حدت ببعض العلماء لأن يتحدثوا عن حالات سقوط فرضية الحج. والذي نريد أن نؤكده هنا هو أن الإنسان يعلو بالفكر، ويتدنى إذا كان عاجزا عن التفكير.

ألا يمكن حماية هذه المقامات؟

لاشك بأنه يمكن حمايتها، بل يجب حمايتها، يمكن حمايتها بقليل من الاهتمام، ودون صعوبات أو مصاريف، فلكل فئة من فئات الحجاج

مطوفون، يجب قبل كل شيء معاقبة الدليل والمطوف الذي يغش وينهب الحاج، بعقوبات نقدية، ثم يجب عدم الاكتفاء بالاهتمام بأغنياء الحجاج، بل يجب الاهتمام بفقرائهم كذلك، يجب على المطوف أن يعلم هؤلاء كيف وأين يقضون الحاجة، وكيف تحترم المقامات المباركة؟ إنه يأخذ من الحاج أجراً مقابل الخدمات، وتوعية الحاج نوع من الخدمات، وعلى الحكومة إجبار الأدلاء على توعية الحجاج في أمور النظافة واحترام المقامات المقدسة، وإذا كان هناك حجاج وفقراء لا يتبعون أحداً، فعددهم قليل، ثم إنهم مرتبطون بدليل على كل حال، ويمكن للدليل إقناعهم بكلام لطيف، ذلك بأن الأدلاء يعرفون الحالة النفسية للحجاج. وإذا وجد من لا يتقيد بكل ذلك وهم الذين لا خلاق لهم، فيمكن للحكومة أن تجند عمال النظافة في أيام مخصوصة وتضاعف رواتبهم لكي تكون النظافة كما يجب، كل ذلك يتحقق مع شيء من الاهتمام والوعي، ويمكن للحكومة أيضا أن تعين جنوداً أو حجاباً على أبواب المساجد فلا بد من إيجاد الحلول المناسبة، و إذا استمر الوضع على ما هو عليه فليس للمرء أن يقول شيئاً عن الحجر الصحي، وفي هذه الحالة قد يكون الحجر الصحي من أركان الحج، وحق له أن يكون كذلك.والملاحظ لمثل هذه الأوضاع يتعين عليه أن يكون من المطالبين بتشديد الحجر الصحي.

الحجاج الكرام في منى

يقضي الحجاج ثلاثة أيام في منى، فالمبيت فيها واجب، وبعضهم يبقى فيها إلى ما بعد زوال اليوم الرابع. هذه الأيام الثلاثة بلياليها هي أعظم الأيام المباركة على الحاج وهو في أرض الحجاز، كما أن الحاج متفرغ في هذه الأيام تفرغاً تاماً ليبحث عمن يريد رؤيته أو التعرف عليه، وللتوسع في التعارف يمكن أن تنصب خيمة كبيرة خاصة قرب مسجد الخيف،

ويكفي بإشارة واحدة من الشريف إلى الأدلاء، بأن من لا يحض حجاجه على زيارة هذه الخيمة يحرم من حجاجه في العام القابل، حتى تنتظم الأمور ويتكرر الاجتماع في كل عام، ثم يصير من أعمال الحج الضرورية. هذا الحل واجب شرعي مقدس في حياة المسلمين.

بعد أن يضحي الحجاج في صباح اليوم الأول من أيام منى، يتردد بعضهم على الحرم للقيام بطواف الزيارة، ولا يبقى أي عمل في ذلك اليوم، وفي الليل يقضي الناس أوقاتهم بمشاهدة حفلات المحملين الشامي والمصري، فتطلق الأعيرة النارية، ويقوم البعض بألعاب وحركات عجيبة، وهي وسيلة جيدة للتعارف، ولو توسعوا في الأمر، وتبادل مرافقوا المحملين الضيافات، وتوسعوا أيضاً، فرفعوا المنع عن القادمين للفرجة، وأحسنوا إستقبالهم، وأكرموهم بفنجان من القهوة، لكان ذلك وسيلة أوسع للتعارف.

وفي اليوم الثاني من أيام منى يرمي الحجاج الكرام الجمرات الثلاث؛ وبعد الرمي لا يبقى على الحاج ما يقوم به من أفعال الحج في ذلك اليوم بطوله، وهو يوم عيد، ولكن هذه الفرص الثمينة ذهبت هباء منذ ألف وثلاثمائة عام، باستثناء عصر الخلفاء الراشدين حيث كانوا يتفقدون أمور العباد في عرفات.

اليوم الثالث للحجاج الكرام في منى

وبعد رمي الجمار في اليوم الثالث تبدأ نفرة الحجيج، وبعضهم ينفر من منى قبل الزوال، لكن الأفضل بعد الظهر، إلا أن الحجاج الكرام يسرعون في التوجه إلى مكة وكأنهم نشطوا من عقال، أما الحجاج القادمون من جاوه فإنهم يبقون إلى اليوم الرابع في منى والشافعية يقولون بوجوب الرمي في اليوم الرابع أيضاً، أما الحنفية فيقولون أن الرمي في هذا

اليوم مستحب، أي أنه يمكن للجميع أن يبقوا إلى اليوم الرابع، وخلال هذه الأيام الأربعة يمكن القيام بكثير من الأعمال.

ومنى مكان مناسب للحجاج، وفي أمان من كل أنواع الموانع والتأثيرات الخارجية، والحجاج الكرام لديهم متسع من الوقت والفراغ وجاهزون لتلبية أي طلب. ولا شك بأنه سيأتي زمان سيحقق المسلمون فيه هناك نجاحاً عظيماً. وفي هذه المرة أي في عام ١٣٢٨ كان وجود خديوي مصر في منى وهو أحد الأمراء المسلمين، فرصة جذب كبيرة للعالم الإسلامي، ولكن لم تستثمر هذه الفرصة، ولم يسمحوا لأحد أن يلتقي به. لقد خدعوا بالمظاهر الأوربية فلم يسمح العساكر لأي حاج من الاقتراب منه، فعدم الوثوق بالمؤمنين أمر غريب جداً.

إننا في أول أيام منى قمنا برفقة الشيخ مراد أفندي وبعض علماء مكة بزيارة الوالي والأشراف، ثم أردنا زيارة الخديوي، فلما وصلنا أمام خيمته رأيناه وحده لابسا نياشينه الكبيرة، وجالساً وحده في الخيمة، فوقف أمامنا رجل طويل بلباس عسكري، ولعله من رجال التشريفات، وصرخ في وجهنا: ممنوع. وكان الخديوي يرى ما يجري بأم عينه، والمسافة لا تبعد بيننا وبينه عشرين خطوة، وكان بيننا أعضاء في لجنة مياه عين زبيدة، فلا حول ولا قوة إلا بالله، بربري يهين علماء المسلمين وفي حضرة أمير المؤمنين! كيف يكون حال المؤمنين في هذا المقام المقدس وفي هذا اليوم المبارك؟ وأين كرامة العلماء؟ إذا كان موقف أمير المؤمنين من علماء المسلمين في مثل هذا المكان كما رأينا، فلا غرابة أن نرى إدعاء التصوف والتدين من جهة، يقابله هدم أسس الإسلام من جهة أخرى في وقت واحد و إنه لكذلك.

لقد كان من الأجدر أن يرافق أمير المؤمنين كثير من العلماء، وأن يستقبل ويرحب بالعلماء الوافدين عليه، وأن يعقد بين العلماء ندوات

علمية وأدبية، وأن تعرض خلاصة هذه الندوات على عزيز مصر ليسر بها، أو يكرم أصحابها أو يبدي ملاحظاته عليها إذا اقتضى الأمر. ومن الحالات النفسية الغريبة، أن الناس يفدون إلى مكة المكرمة لأداء فرض ديني وليطوفوا حول الكعبة، ثم لا تصفى القلوب ولا تخلص النيات، فالمسلمون يرون أن الدين عبارة عن تصوف أجوف وعن أداء للصلوات، أما التحابب والتوادد والتعارف وهي أهم الواجبات وأقدسها، فلا يلتزم بها كبارنا ولا صغارنا بصدق وإخلاص، وإذا تحدث أحدنا عن ضرورة الالتزام بها، لقلنا له: إحذر من إقلاق الأجانب، إحذر من السياسة. أهذا هو الإسلام، أهذه هي الصوفية؟ ما هذا التناقض؟

كنا نتوقع أن ينصبوا عدداً من الخيام التي تليق بأمير المؤمنين إلى جانب خيامه، ويخصصوها للعلماء والزوار وأن يلقى الزوار التكريم والاهتمام وتوزع لهم الحلويات والقهوة والشاي والهدايا والخلع عند اللزوم، ليعرف مسلمو الأرض جميعا أن عزيز مصر جاء إلى مكة هذا العام. إنه مطلب إسلامي أصيل و كان من المفترض أن يؤدي الأمير هذه الشعيرة الإسلامية بشكل يليق بإمارته، وبعلو هذا الدين، و لكن للأسف، حتى أثناء أداء واجباتنا الدينية لا نتخلص من الإحساس بأننا تحت الترصد الأجنبي، وقد يأتي يوم نضطر فيه إلى الاحتياط في أداء الصلاة. إنها صفحات أليمة من التاريخ تلقي بثقلها على الأمم شيئاً فشيئاً، إنها من البلايا التي حلت في أرواحنا فصارت من الأدواء المستفحلة.

لقد أصاب الخديوي ما أصاب المسلمين من أدواء، أو أنه يفرط في الاحتياط لنفسه. لقد حصر التدين في الصلاة والعبادة، أما مصالح الأمة فلا شيء منها. الأموال التي يجمعها والرواتب التي ينالها هي أموال المسلمين، ويستمد سمعته وشهرته من المسلمين، لكن مصارف هذه الأموال في أوربا، وفي أحط أماكنها، ثم يقوم فيطالب بالخلافة، يريد أن

يكون خليفة. ما هذه البلايا التي ابتلي بها المسلمون؛ ما أكثر المشئومين الذين يتحكمون في رقاب المسلمين، انهم يخشون الأوربيين ولا يخشون الله، حتى في منى لا يخشع قلبه خوفا من الله.

التعارف مع الحجاج الكرام في منى

تجولنا بين الحجاج المستقرين في منى، وتعرفنا على مسلمي بعض الجهات، واتصلنا بشكل خاص مع حجاج بلخ وأفغانستان وحضرموت واليمن، ودرسنا أحوالهم قليلاً، وقد صادفنا رجلاً بلخياً واحداً في مسجد إبراهيم، وهو رجل مسن، متوسط القامة ومن المشايخ النقشبندية، و لكنه نير الفكر ومطلع على الأوضاع الحاضرة إطلاعاً كاملاً، حري بأن يقال عنه ذو الجناحين.

كان يرى ضرورة إحداث جمعية علمية إسلامية بمكة المكرمة تكون مهمتها إيجاد حلول للمشاكل التي يتعرض لها المسلمون في العصر الحاضر وفق الشرعة الإسلامية، وإن مثل هذا التحرك إذا كان بمبادرة من علماء مكة، فستلقى تأييداً ومباركة من عموم المسلمين.

وجدنا بين الأفغانيين كثيرين ممن يؤيدون الجامعة الإسلامية، وكان من بينهم من يحسن الظن كثيراً بحبيب الله خان، وشددوا على ضرورة التمسك بالدين مع التوسع في المعرفة، مبدين أسفهم من تخلف الحكومة التركية في هذا المجال، وأنهم شاهدوا التصرفات المخلة بالأدب من بعض ضباطنا في مكة المكرمة وأكدوا رفضهم و استهجانهم لمثل هذه التصرفات.

وقيل بأن أكثر مسلمي حضرموت من السادات الكرام، وأنهم يشددون على ضرورة الاهتمام بالتجارة أكثر من العلم والمعارف، وأن أكثرهم يعتبرون أن السيادة الإسلامية صارت بحكم المنتهي.

أما حجاج اليمن فبالرغم من اجتماعنا بهم عدة مرات، فإننا لم نتمكن من الحصول على معلومات كثيرة منهم، حاولنا بشكل خاص الحصول على معلومات عن الادريسي والإمام يحيى، فلم نتمكن من أن نأخذ منهم شيئاً، ولعلهم لم يطمئنوا لنا فاحتاطوا. ومع ذلك فقد قدموا لنا الشاي والقهوة، وأبدوا سرورهم لزيارتنا.

والواقع فان الوقت والمكان في منى مناسبان للتعارف بين المسلمين. إلا أن الأمر يكون أكثر سهولة وأقوى لو أن الشريف سمح ودعم مثل هذا التعارف، وذلك لأن الحجاج الكرام بطوائفهم وقبائلهم مرتبطون بمطوفين، والمطوفون يحولون بين الحجاج أن يتعارفوا، بل يمنعون منعاً مباشراً، فإذا جاء أحدهم من الخارج يريد اللقاء بالحجاج، يظن المطوف بأنه جاء ليأخذ الحجاج منه ويمنع عنه الرزق. فمن هذه الناحية يريد كل مطوف أن يتشبث بحجاجه، والحجاج أناس مساكين وقد ينخدعون ببعض الناس، ولذلك فإننا نعطي المطوفين بعض الحق والعذر، لأن أي مصيبة قد يتعرض لها الحاج يكون المطوف مسؤولاً عنها.

خيمة التعارف في منى

لو أمر أمير مكة بنصب خيمة واسعة جداً في منى للتعارف والمعايدة، وأمر كل مطوف أن يحضر معه عدداً من كبار الحجاج والعلماء عنده في أيام منى إلى تلك الخيمة بعد الظهر وحتى صلاة العصر، فلا شك أن النفع سيكون عظيما وأن الحجاج الكرام سيسرون من التعارف فيما بينهم. وعند المعايدة تتولد الثقة بين الحجاج، كما يمكن عند الضرورة تأمين مساعدات كبيرة لمن يحتاج.

وإذا تكررت المعايدة كل عام فستأخذ حكم العادة فيما بعد، وفي أقل تقدير يكون الحجاج قد أمضوا وقتهم في تدارس أحوال بعضهم في فترة

الراحة التي يقضونها في مكة المكرمة، وإذا أراد أمير مكة ذلك وفتح المجال، فذلك يعني أن باب الأخوة الدينية بين عموم المسلمين قد فتح.

ويعلم الله نصيب أي أمير من أمراء مكة ستكون هذه النعمة العظيمة، ولا ريب بأن هذا النجاح العظيم سيكون من حصة أحد الأشراف الأصلاء.

الكوليرا والأمراض السارية

إن هذا المرض يظهر في منى على أغلب الأحوال، وقد يظهر قبل أيام منى أو بعدها، ولكن ثبت بالتجارب العديدة أن ظهوره في منى هو الأغلب.وليس لأحد أن ينكر ذلك لأنه شيء ثابت علمياً، وسرعة إنتشار هذا المرض ناتجة من عدم إتباع قواعد النظافة، وإذا أخذنا في الحسبان كثرة عدد الحجاج في منى، ووقوع المكان في مضيق بين جبلين مما يؤدي إلى فساد الهواء و شح المياه الذي ينعكس سلبياً على النظافة، فان هذا المكان بيئة صالحة لانتشار الأمراض السارية بين الحجاج.

وفي الواقع إن الفقراء من الحجاج كثيرون، و هم لا يترددون في أكل لحوم الأضاحي بنية الشبع ولو للمرة الأخيرة في ذلك اليوم المبارك، وإذا كان الجو موبوءاً، فلا يبقى أي مانع من انتشار الكوليرا، إذ يندفع هذا المرض بكل قوته بين الحجاج.

لو فكرنا في إمكانية إتخاذ التدابير الفنية، فلا أدري بماذا ينصح المتخصصون الخبراء، فإذا قالوا إنه التبخير،ففي رأيي أن التبخير غير عملي، وذلك لأن الشرع حدد اليوم والساعة في عرفات ومنى، ولا يمكن تصور تبخير ثلاثمائة ألف، بل نصف مليون من البشر خلال تلك الأوقات المحددة، كما إن تطبيق التبخير على الحجاج هناك لا ينتج عنه إلا إيقاظ الفتنة. فقبل عشر سنوات أنشأوا مكاناً ضخماً للتبخير بين مكة ومنى، ووضعت فيه الأجهزة، وبعد إستكمال الاستعدادات، وفي الليلة التي

سبقت مباشرة التبخير هجم العربان والحجاج، فسووا ذلك المبنى الضخم بالأرض خلال ساعات، كما فجروا الآلات التابعة له. لقد ثار كل العربان، وكادت تقع فتنة عظيمة، ولو حاولت الحكومة وقتها المقاومة، لراح مئات الألوف من الناس ضحايا هذا التصرف.

وإذا تمت محاولة تطبيق أصول التبخير مرة أخرى فستكون نفس النتيجة، وسيغرق المسلمون في بحور من الدماء، فلا نفع يرجى من التبخير.

لقد بحثت الأمر مع أحد الأطباء وبينت له عدم إمكانية تطبيق طريقة التبخير. كما أبدى الطبيب رأيه بكل صراحة، وهذا هو رأي الطبيب: يجري غلي قدور ضخمة جدا في طريق منى وتخلع ملابس الحجاج وتدخل في القدر، ثم تخرج وتعطى للحاج.

إنظروا إلى الكلام الصادر عن هذا الطبيب باسم الخبرة والاختصاص، سيضع ملابس ثلاثمائة أو أربعمائة ألف حاج في القدور في يوم واحد، ليقتل الجراثيم، تصوروا أن صحة البلاد أمانة في يد أمثال هذا الطبيب. كان الله في عوننا إذا كانت الصحة العامة في البلاد أمانة بيد أمثال ذوي الأفكار الطفولية.

وأرى أنه في حال إتخاذ مثل هذا الإجراء هناك، فمن الأنسب أن نرمي في القدور الأطباء قبل الجراثيم، وبذلك نكون قد قدمنا خدمة أكبر للصحة العامة وسلامة المملكة. لاشك بأن علينا ألا نكتفي ببضع كلمات فنية مكتوبة على الورق لاتخاذ القرار، بل يجب دراسة الأمر بعمق، والتأكد منه بالمشاهدة وواقع الحال. لقد حضرت الحج عدة مرات وشاهدت العديد من المحاجر، وقد ثبت لدي بالتجربة الشخصية بأن الحجر ليس إجراءاً صحياً بل هو دسيسة سياسية أوربية، لذلك فإني أفضل أن يعين رجال مسلمون ذوو عقول راجحة من بين الأطباء من إسطنبول أو

من مصر، عندئذ يستقيم العمل. أما الآن فان الأمر بيد الموظفين النصارى، ورجالنا في موضع الخدم. وإذا استمر الحال على ما هو عليه، فليس هناك من شك بأن الحجر سيفتح باباً كبيراً للفتنة، وإذا كان المسلمون الجاهلون يطيعون فيما يطلب منهم، فسيأتي الوقت الذي تتجاوز التكاليف حدود الطاقة، عندئذ ستتولد عن الظلم أوخم العواقب. أرى أن طريقة التبخير لا يمكن تطبيقها أبدا.

والتدابير الاحتياطية التي يمكن إتخاذها تتلخص في تصفية المياه المستعملة في مكة المكرمة و منى، وقطع الطريق على تجارة الأسياد بالمياه واحتكارهم لها في جدة، وتأمين مياه نظيفة إلى جدة، فالأمر لا يتعدى تأمين المياه بصورة فنية، والحجاج مستعدون لدفع مصاريفها بكامل رضاهم.

أما الأمر الثاني فهو تأمين ألف عامل مع مائتي عربة قمامة في المواسم والأيام المباركة لضمان النظافة وإذا عين مشرف واحد على كل مائة عامل فانهم يجمعون كل المخلفات التي يتركها الحجاج في شوارع مكة وأزقتها بصورة مستمرة، ويمكن جمع هذه المخلفات من قبل عمال مناوبين في ساعات الليل أيضاً، فيكون كل شيء نظيفاً وينتقل العمال مع الحجاج إلى منى، فيجمعون المخلفات أينما كانت، و تحرق بالكلس في حفر مخصوصة، و مما لا شك فيه أن هذا الإجراء سيكون أنسب التدابير والحلول الصحية، و من غير المعقول ترك المقامات المباركة تسبح وسط هذه المخلفات والنجاسات.

منى خالية من الأمراض

في اليوم الأول من أيام منى عام ١٣٢٨ كانت هناك حادثة وفاة واحدة لرجل سعيد في الثمانين من العمر أي أن الصحة العامة ممتازة جداً، وموسم الحج أوشك على الانتهاء بلا إصابات مع أن الجو موات

للأمراض السارية والكوليرا، وذلك فضل من الله تعالى، فلم يلاحظ أي مرض بين ثلاثمائة وخمسين ألف حاج بالرغم من عدم وجود أي اهتمام بالنظافة، وهذا يتكرر في كل عام، كما تكرر هذا العام، فالصحة العامة تامة وليس هناك أي مرض.

ولعل بعض القراء الكرام يرون أنه لا فائدة من التطرق إلى هذا الموضوع، طالما أن المرض غير موجود، ولا داعي للخوض فيه، والنظرة السطحية تؤيد هذا الرأي. ولكن بين الأوربيين أناس يرون أن الكوليرا ومكة متلازمان، فإذا ذكر الحج ذكرت معه الكوليرا. ومع الأسف فان هذا الرأي يؤثر علي سمعتنا مثل تأثير الكوليرا، وقد نصادف فينا من يقول بأن «الهند بؤرة الكوليرا ومكة مكان توزيعه».

لذلك فقد رأينا لزاماً علينا أن نقول بعض الكلمات حيال هذا الوهم. وإذا قام المتخصصون بالبحث وإجراء التجارب والفحوصات، فلعلهم يتوصلون إلى نتيجة مفادها أن جو مكة المكرمة مهلك لجرثومة الكوليرا، وهذا إحتمال غير بعيد. ومن الطبيعي أن الزمن كفيل بإثبات ذلك.

ذبح الأضاحي عبادة

إن من نوى الحج تمتعاً أو قارناً، فيكون ذبح الأضحية عبادة واجبة، ولا يتم الحج إلا بالذبح، ولا يستطيع الحاج أن يتحلل من الإحرام إلا بالذبح. أكرر فأقول بأن الأضحية عبادة واجبة، عبادة في مكة وعبادة في بلد الحاج.

وقد أفتى بعض السفهاء من أدعياء العلم بعدم ذبح القرابين، والتبرع بثمنها للأسطول، وتحدثوا بين الناس بذلك، في حين كتب آخرون على صفحات الجرائد بأنهم أرسلوا ثمن الأضاحي إلى جمعية الأسطول[١] ..

وقال بعضهم إن الأضحية واجبة لكن الجهاد فرض، في حين أننا نرى أن مثل هذه الأقاويل ما هي إلا نتيجة لضحالة الفكر، فان كانت عندك كل هذه الحمية الوطنية فحري بك أن تمتنع عن الدخان والسفاهات التي تصرف الأموال في سبيلها، وتدفع ما توفره منها للأسطول قبل أن تترك عبادة حددها الشارع. أقلع عن التدخين وأرسل قيمة الدخان إلى الأسطول، فإذا تحقق هذا فإننا قد نشتري سفينة جديدة في كل عام، وبذلك تتخلص من امتصاص دم أبناء الوطن، ثم إصرخ بأعلى صوتك عبر أعمدة الصحف، ومهما صرخت فلن يعترض عليك أحد، ثم عليك أن تضحي بأثمان المكيفات الأخرى، عندئذ نثبت بحق أننا وطنيون.وتغادر هيئة إحتكار التبغ البلاد، ونكون بذلك قد حمينا دماء آلاف الشباب في كل عام.ولو لاحظنا الدخان الذي نشربه حالياً ملاحظة دقيقة لتأكد لنا كم من دماء أبنائنا النجباء نريقها هباء.فهذا هو الذي يجب أن نتبرع به للأسطول وليس قيمة الأضاحي، فالأضاحي تبقى في الدرجة الثانية أو الثالثة.الأضحية عبادة واجبة، وإذا استيقظت فينا الحمية الوطنية فإننا نضحي أولاً بما نصرفه على الأمور التافهة والسفه، فإذا جاء دور الأضحية فسنضحي بها أيضا.

الحجاج ذوو الابتهاج في مكة المكرمة

وبعد أداء المناسك ينزل الحجاج إلى مكة المكرمة، و يطوف حول الكعبة في ذلك اليوم ثلاثمائة أو أربعمائة ألف إنسان ولن تجد بين هؤلاء

---

(١) دعم الأسطول العثماني، صالح السامرائي)

من أهل السنة من لا يستلم الحجر الأسود ولو لمرة واحدة، (عموم أهل السنة يحترمون الحجر الأسود) و رؤية مئات الألوف من أهل الإيمان هناك تكفي لأهل البصيرة، فهناك لا يرى أي تصرف خارج حدود الأدب، الكل مستعد لاستلام الحجر الأسود والالتزام بالآداب هنا، لا يمكن ضمانه بأي قوة سوى التربية الإسلامية، فهناك مئات الألوف من الرجال والنساء بينهم ضعفاء وغرباء ومرضى ومنهم من يتمسك بحزام أخيه أو يطوف على ظهره وكلهم يستلمون الحجر الأسعد ويقومون بواجبهم بقلوب صادقة لا يزعج أحد أحداً و لا ينزعج أحد من أحد. فالنظام الذي نشاهده هنا طبيعي جداً وأخلاقي جداً.

وبعد أن يؤدي الحجاج طواف الزيارة والواجبات الدينية الأخرى يستعد قسم منهم للعودة إلى بلادهم مباشرة والقسم الآخر لديهم متسع من الوقت قد يصل إلى أسبوع، فيقيمون في مكة المكرمة ويستعدون للسفر لزيارة الروضة المطهرة.

أما الحجاج الذين سيعودون فينشغلون بشراء الهدايا والكفن وزمزم ويستمر الزحام في مكة يومين أو ثلاثة.

إجتماع الحجاج في مكة

كنا نرى أن نجمع الحجاج في مكة في مكان واحد وإجراء التعارف فيما بينهم لكن رجال الحكومة مع مشاركتهم لنا برأينا هذا ظاهراً إلا أنهم كانوا لا يتوانون عن إحداث العراقيل بشكل لا يحس بها أحد.ومع ذلك تقرر عقد إجتماع في نادي الاتحاد والترقي بمساعدة بعض الشخصيات الذين أرسلتهم الجمعية، وقمت بالتجول في أنحاء الحرم الشريف فدعوت لهذا الاجتماع عدداً من الحجاج من كل قوم فأجابوا دعوتي بكل سرور. كان في الاجتماع عدد كبير من سادات مكة وأشرافها وحجاج من بخارى

والقرم والجزائر وتونس وإيران والهند والصين وكاشغر ومن ولايات أخرى عديدة.

فتحت الجلسة برئاسة الشريف ناصر أحد الأشراف في مكة. في البداية تكلم فريد أفندي مندوب الاتحاد والترقي فذكر بأن مدينة سلانيك ستكون مرجع لكل المسلمين وان الجمعيات التي سيجري تأسيسها في البلاد الأخرى ستكون فروعاً لسلانيك، و سرد في هذا المجال بعض الأدلة.وبعد ذلك تحدث رجل واحد من كل قوم فعرض أفكاره وآراءه وتكلم عبد الله أباناي من علماء قازان عن الجامعة الإسلامية فاقترح تشكيل هيئة علمية دائمة في مكة المكرمة لتكون مرجع للعلماء، كما تطرق إلى أهمية ومكانة مكة الدينية،وتكلم خطباء آخرون عن احتياجات المسلمين وتوصل المجتمعون إلى نتيجة واحدة و هي أن الجامعة الإسلامية أمر ضروري لابد منه.

ولفت نظري بين الحجاج الكرام طالب أزهري كنت قد دعوته للاجتماع، و في ختام الجلسة جاء دور هذا الشاب فوقف يخطب حيث بهر الحاضرين بطلاقته وقوة أسلوبه، وكان هجومه منصباً عليُ إلا أنه كان محقاً و مصيباً وقد تطرق لموضوع توحيد اللغة وضرورة أن يتحدث كل مسلم باللغة العربية وتحدث بكلمات جذابة و قوبلت بتصفيق حاد من المستمعين. وفي هذه الأثناء قطع رجل إسمه عبد الله قاسم عضو نادي الاتحاد والترقي في مكة المكرمة كلام هذا الخطيب وبدأ يهدده ويتوعده حتى إنه قال:لولا حرمة الضيوف لمزقتك هنا إرباً إرباً، فدهش الحاضرون لهذا الرد الغريب وبدأ الناس ينسحبون باتجاه الباب. حاولت تهدئة الناس وإصلاح الموقف وقمت بالرد على عبد الله قاسم ببضع كلمات و لكن الاضطراب لم يهدأ وانفرط عقد الاجتماع وهكذا كانت الضربة الأولى على الاتحاد كي لا يجتمع الحجاج مرة أخرى. لم أعرف هل كان هذا

التصرف مقصودا أم غير مقصود ومهما كان الأمر فانه لم يكن تصرفا حسنا مما دعا الناس لأن يسيئوا الظن حتى أن بعض المكيين إتهموا الوالي بتدبير ذلك.

ولو فرضنا أن هذا الأمر تم نتيجة جهل أحد الرجال فانه قد ترك أثراً سيئاً فقد كنا نحاول أن يتعارف الحجاج لأول مرة منذ ألف وثلاثمائة عام.

و قبل عرفات إجتمع عدد محدود من الناس في منزل الشيخ مراد أفندي، وكان من المحتمل أن يكون الاجتماع هذه المرة واسعا ورسميا إلا أن الناس سيطر عليهم اليأس فتفرقوا وكأنهم يفرون فراراً وأخيراً شاع خبر إعتقال الحكومة لهذا الخطيب فاشتد تأثر الناس. و لم يكن في الاجتماع من موضوع للحديث سوى الإسلام، وهكذا تعرض الحجاج للإهانة وطردوا من هذا الاجتماع تحت التهديد، و من الطبيعي ألا يقدم الحجاج بعد الآن على تكرار ذلك في أي وقت من الأوقات.

كما إنني أحسست بعدم إمكانية مثل هذا الاجتماع بعد الذي جرى فاكتفيت بموعظة الناس في الحرم الشريف يومين أو ثلاثة.

لا أعرف ما السبب في عدم رضى وكيل الوالي عن مثل هذه الاجتماعات حتى إنه في أحد الأيام جرى إقتراح عقد اجتماع في الحرم الشريف لتبادل الرأي وكان من المقرر أن يحضر وكيل الوالي الاجتماع إلا أنه في نفس اليوم اخلد هذا الرجل إلى الفراش بحجة المرض كي لا ينعقد مثل هذا الاجتماع ثم استبدلوه بمولد أقامه الحافظ عثمان الموصلي و هنا تماثل وكيل الوالي للشفاء.

إن مثل هذه الأوهام والسياسات هي عبارة عن خوف واه مبني على عدم الرغبة في إقلاق الأوربيين، وهذا مرض ليس بجديد علينا، لقد أخذ شكل مرض مزمن متوارث وصار منبعا للذل الذي نحن فيه.

والخلاصة إننا لم نتمكن من تحقيق شيء تصورناه في مكة المكرمة، جئنا وعدنا كما يأتي ويعود الحجاج الآخرون ولم نتمكن من اللقاء المناسب مع مندوبي الاتحاد بل إنهم فشلوا في أن يعملوا ما عملناه من التعارف مع الحجاج الآخرين حتى أن بعض الحجاج إتهم مندوبي الاتحاد وقالوا بأنهم هم الذين حالوا دون تحقيق الجامعة الإسلامية. حاولت التسرية عن هؤلاء ببعض التأويلات وقد نجحت بإقناع كثير منهم.

وقصارى القول بان الجو في مكة المكرمة لم يكن مناسباً للتعارف بين المسلمين واعتقال الخطيب المذكور و إرساله مخفوراً إلى إسطنبول أرهب الحجاج كثيراً، وهذا الرجل كان كرديا من طلبة الأزهر وكما ذكرت في صفحات سابقة، فهو شاب كثير الحركة والنشاط.

الأمطار والسيول في مكة

كان اليوم الرابع عشر من ذي الحجة عندما نزل المطر، وكنا في منزل الشيخ مراد أفندي، فلم نشعر بشدة المطر، وبعد ساعة دخل علينا ولده محمد حسن أفندي من الخارج وقال: لقد داهم السيل الحرم، فلم يبق مكان للصلاة، فنهضنا وأسرعنا إلى الحرم، رأينا منظراً مدهشاً، لقد تحول الحرم إلى بحيرة ولم يعد هناك مكان سوى السدة التي عند باب زيادة، فلم تقم صلاتا المغرب والعشاء في الحرم في ذلك اليوم، وفي اليوم التالي أقيمت صلاة الفجر في باب زيادة، وكان قسم من الجحاج قد غادر إلى جدة، ومع ذلك فان عدد الحجاج في مكة يزيد على مائة ألف، وليس هناك مكان للصلاة. كما إن الوسيلة إلى إخراج المياه غير متوفرة. وقف الناس حائرين لا يدرون ماذا يفعلون، حتى الأمراء والأشراف والوالي كانوا من بين المتفرجين.

كل الأماكن المقدسة بما فيها مقام إبراهيم كانت غارقة بالمياه، وكل المجاري في مكة إجتمعت حول زمزم والكعبة المشرفة، وكل القاذورات وفضلات الحجاج جرفتها المياه إلى الأماكن المقدسة، ولم يتمكن أحد من أن يطوف أو يصلي، واضطر بعض الحجاج إلى القيام بطواف الوداع.

وفي اليوم التالي إنسحب قسم من النجاسات إلى مجاريها، ومن جهة أخرى قام الناس بما وجدوه بأيديهم من الأواني بسحب المياه، فانتشرت الروائح الكريهة في كل مكان.

(والحمد لله لم تستطع الكوليرا إستغلال هذه النجاسات) واشترك كل الحجاج بأعمال التنظيف، واستمر العمل يومين دون توقف حتى أمكن تأمين بعض الأماكن الجافة للصلاة، ولم تعقد الجماعة الكبرى على مدى ثلاثة أيام. كانت زمزم والكعبة محاطتين بالنجاسات، حتى الحطيم غمر بالمياه، ومع ذلك فقد أمكن حماية بئر زمزم من أن تتسرب إليها المياه النجسة.

إن الأمر محير حقاً، إنها مصيبة كبيرة ألمت بنا، وأدت إلى كثير من التلف والتخريب أمام أعيننا، وقيل أن خسائر في الأرواح قد وقعت. لقد رأى كل الحجاج هذه الحالة المؤسفة بأم أعينهم وشاهدوها بكل تفاصيلها، وقد تتكرر هذه المأساة. أليس من الواجب أن نفكر فيها، وحتى أغنياء الهند وبينهم رئيس قافلة حجاج نظام الدكن شهدوا الحادثة، أليس من الأجدر أن يصرف الخمسة وعشرين ألف ليرة على تنظيف هذه الأماكن بدل أن يأتي كل عام بألف حاج ليلوثوا مكة؟ من الغريب ألا يفكر أحد بالمصلحة العامة. إنه لأمر غريب جداً، كل هذه النجاسات سالت حتى وصلت إلى الكعبة فلوثتها، وهي نجاسات الحجاج وليست لغيرهم، يجب على الحكومة أن تراها، وعلى الحجاج أن يروها. لقد حدث ما حدث هذا العام فلوث كل الأماكن المقدسة، وعلى كل حال، أمكن بعد

ثلاثة أيام من العمل المتواصل من تحقيق النظافة التي يمكن بها القيام بالعبادات، ولكن لنفترض أن سيلا أقوى جاء وملأ بئر زمزم لا سمح الله، فما الذي يحدث؟ وهذا إحتمال قائم. يشرب الحجاج من الماء، وقلوبهم صافية لا يخطر على بالهم شيء، ثم يشاع بين الأمم هذا الخبر. ومن الغريب حقاً أن وكيل الوالي شاب نشط وعصري، وهناك أعداد كبيرة من الموظفين الصحيين الشباب، وقد يستغلون الفرصة لتوجيه النقد اللاذع للدين الإسلامي، إنهم لا يكتفون بالتقاعس عن القيام بواجبهم الوظيفي، بل ينسبون كل ما هو قبيح للإسلام.

ليس لنا إلا أن نقول «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وأنا بصفتي مسلماً، أحمل نفسي المسئولية بالقدر الذي يتحمل فيها المسلمون الآخرون، وكنت أقدر أن اشرح للحجاج الموضوع بقدر ما أستطيع، ولكن اكتفيت بالدعاء لأن يقيض الله مسئولين متبصرين للأمور إذا حدث سيل آخر. أرجو من الله أن يفتح بصائرنا. آمين.

أطباء الصحة في مكة

عاد رفيقنا الياباني عمر ياما أوكا أفندي من منى مريضاً، وكنا نقوم نحوه بواجب الاحترام والخدمة، و اهتم بدوره وكيل الوالي، فأوعز أن يعطى عناية خاصة، وإبلاغه بحالته إذا ساء الأمر لا قدر الله.

وذات ليلة وصلت حرارة عمر أفندي إلى الأربعين، وبدأ المريض يهذي، وحوالي الساعة الثالثة ليلاً (من التوقيت الغروبي) ذهبت إلى الوالي، وأبلغته بحالة المريض، فأمر من فوره أحد الخدم بأن يرافقني إلى الأطباء في دائرة الصحة. وصلنا إلى مقر الطبيب ولكنه رد علينا قائلاً: لست خادماً هنا، تعالوا إلي غداً.

واخترت السكوت لأنني في مكة المكرمة، وعدت إلى منزل الشيخ مراد أفندي. أما الخادم فقد أخبر وكيل الوالي برد الطبيب، فأصدر أمراً صارماً إلى الدائرة الصحية بأن ترسل الطبيب فوراً،فجاء الطبيب إلى المنزل ليشرف على علاج المريض لأنه لا يقدر على مخالفة أمر وكيل الوالي،كنت وحضرة الشيخ بجانب المريض عندما دخل الطبيب محتداً. وكانت الكلمة التي تفوه بها: ألا تمرضون إلا في منتصف الليل، ألست أنساناً مثلكم؟ وعاين المريض وهو لا ينقطع عن نهرنا بالكلمات النابية، ثم بدأ يصرخ في وجه المريض، وسأله من أين تتألم، مع أننا أبلغناه بأنه لا يعرف اللغة التركية، وحتى وإن كان يعرفها فهو لا يقدر على الرد، ولما كنا نريد أن ينصرف الطبيب عنا، قلنا له سيشفى إن شاء الله، فقام وانصرف.

وعندما يشاهد المرء هذه الحالة ويفكر فيها، ويرى هذا التصرف من طبيب جاء إلى المريض في بيت أشهر المشائخ، بأمر من حضرة الوالي، فما عليه إلا أن يتصور بعد ذلك كيف يتصرف أمثال هذا الطبيب مع الحجاج الآخرين المساكين. ومع هذا يقوم أصحاب هذه الأخلاق السيئة فيتحدثون عن تعصب المسلمين دون حياء أو خجل، وهم لا يعرفون ما هو الواجب، ومثل هذا الطبيب يرسل إلى مكة المكرمة لحماية الصحة العامة، وا أسفاه.

ولا يمكن تقديم شكوى بحق هذا الشخص لأنه من رجال الباشا الفولاني أو أن صاحبه من أعضاء الفرع الفولاني للاتحاد والترقي أو مدعوم من قبل فلان. والواقع أنه لو لم يكن من هذا النوع من الناس لما تجرأ أن يقوم بمثل هذا التصرف، و هذه من أكبر المصائب.

السفر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

إن أهم رحلة أثناء الحج هي الرحلة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة براً، والمسافة بينهما خمسمائة كيلومتر تقريباً. يتم السفر إليها بثلاثة أنواع من القوافل: أحدها تسمى الراكب وهي القافلة الخاصة بأهل المدينة ويمكن لبعض الحجاج أن يسافروا معها وهي قافلة آمنة وطريقها قصير و يمكن الوصول بالهجن إلى المدينة المنورة خلال خمسة أو ستة أيام. أما الثانية فهي القافلة الطيارة، إنها قافلة البدو وتسير من قبل أمير مكة وبعلم الحكومة. وعموماً فإن الحجاج يسافرون بهذه القافلة. ومهما كانت هناك من ضمانات مثل أخذ رهينة من أصحاب الجمال فإن الحوادث كثيراً ما تقع فيقتل بعض الحجاج في الطريق، وقد تحدث مقتلة عظيمة وغارات على الحجاج ونهب لنقودهم وأحمالهم، وقد تحدث إعتداءات بشعة. ولما كان أكثر الحجاج ممن لا أهل لهم في رحلتهم فإن رفقاءه يحكمون بأنه ذهب شهيداً، وتنتهي المسألة دون أن يدري أحد عما جرى له. وأما القافلة الثالثة فهي قافلة المحمل الشريف وتكون تحت حماية الجيش العثماني فيسافر الناس معها بكل آمان، ولكن الكثيرين لا يرغبون السفر معها لسلوكها طريقاً أطول.

ونحن في هذه المرة قررنا السفر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بالقافلة الطيارة. أعدوا الجمال وقام أمير مكة الشريف حسين باشا بإعطاء التوجيهات اللازمة للحمالين، إذن سنسافر بكل آمان واطمئنان.

نوعان من الحكومة في مكة

إن الأسماء التي ذكرناها تدل على أن في مكة منذ القدم نوعان من الإدارة الحكومية الإمارة والحكومة وتنافس كل واحدة منها الأخرى. فالإمارة منذ القدم حكراً على الأشراف، وكانت في الأصل من قبيل

الحلول الوسط وتحقيق المصلحة العامة للتمكن من التعامل مع العربان وإدارة شؤونهم، وإنها قامت برشوة إسطنبول كي تجعل بعض الولاة خدماً لمصالحها، ونجح الأمراء ولو بالكلمة الطيبة في إسكات الباشوات من الولاة ولذلك نجد أن أكثر ولاة الحجاز عمدوا إلى قضاء أوقاتهم بكتابة التاريخ.

إن أمراء مكة يعتمدون في قوتهم على العربان، أما الولاة فلا يمكنهم الاطلاع على أحوال العربان لعدم معرفتهم اللغة، والأمراء هم الأشراف الذين وضعوا أيديهم في أيدي العربان لتقوية مركزهم، وقام العربان بإدعاء حق التصرف والتملك للطريق الذي يربط الحرمين وتمردوا في بعض الأحيان ففتحوا الطريق متى أرادوا وأغلقوها متى شاءوا وفرضوا أجوراً على قوافل الحجاج بين الحرمين ووافقت الحكومة العثمانية على هذا الحق إكراما لخاطر الأشراف. كما خصصت مبلغاً سنوياً من خزينة الدولة لتهدئة العربان، وأخيراً تحول الأمر إلى حق مشروع وتحدد وقت لأدائه وتحدد هذا الوقت في زمن الحج كل عام، وصار يعرف باجرة المرور، واستغل الأشراف هذا الوضع ليهددوا الحكومة بالعربان فقالوا لقد تمرد العربان أو لقد أغلقوا الطريق أو فعلوا كذا وكذا ونتيجة لذلك فتحت إسطنبول على نفسها باب إدارة المصالح حتى بلغ الأمر إلى حد إرسال آلاف الليرات من يلدز أضيفت إليها آلاف من أجور الجمال، كما أضيفت إليها آلاف الليرات من أجور البواخر التي تحمل الحجاج، مما أدى إلى اعتراض القناصل، وسكتوا بعد أن خصصت لهم أسهم من هذه الغنائم. كل ذلك نتيجة سوء الإدارة الحكومية. وكم من الحيل والأكاذيب حيكت ومن المبالغ صرفت بغير حق لإبقاء نوعين من الإدارة في مكة المكرمة، فتضررت منها الحكومة والأمة. لقد تحولت مشكلة الحجاز إلى مشكلة غامضة وقد تسري هذه المشكلة إلى اليمن أيضاً.

وفي رأي العاجز بأن البلاد لن تفلح بهذه الطريقة من الحكم، فمن غير المعقول أن يبقى نوعان من الحكم في بلد واحد. والواقع إن هذا الوضع وصمة عار وهو من سيئات الماضي، ونأمل أن يكون وجود أمير مثل الشريف حسين باشا الذي هجر الراحة جانباً، كما لم يبخل في التضحية بأولاده عن طيب نفس حفاظاً على سلامة البلاد وفداء للوطن، فرصة لوضع حد لهذين النوعين من الإدارة.

إن مكة منبع العدالة ومرجع الشريعة ومركز عموم أهل الإسلام، ولابد أن تتأسس فيها إدارة شرعية ودينية صرفة. وأكرر بأن الإدارة التي ستتأسس في مكة يجب أن يتمثل فيها الإسلام تمثيلاً حقيقياً، ويجب أن تكون بها محاكم تليق بمقام مكة، ويجب على المسلمين القادمين إليها في موسم الحج أن يروا آثار تلك الإدارة ويقتنعوا بأن فيها محكمة شرعية بكل ما في الكلمة من معنى.

يجب أن يكون علماء مكة المكرمة ورجال محاكمها الشرعية ومفتيها وقضاتها من الرجال الكرام الذين يقال عنهم خير خلف لخير سلف، في حين ننظر اليوم إلى مكة المكرمة فلا نجد فيها مفتياً قديراً ولا مدرساً ولا عالماً يشار إليهم بالبنان. فلا حول ولا قوة إلا بالله. إن رؤية هذه الحالة أو سماعها لأمر مؤلم جداً لكل مؤمن موحد، ولكن ما الحيلة، إنها الحقيقة، الحقيقة المرة بكل أسف. كل هذه المدارس وكل هذه الأوقاف وكل هذه الخزائن وبيوت المال تضيع هباء وكل هذه الأوقاف تصير ملكاً لغير أهلها، كل هذه الأملاك تصبح في حوزة شرذمة من السفهاء ولكن ماذا ينفع البكاء. أكتفى بهذا القدر وإن لم نكتب نحن، هذه الحقيقة فسيأتي عدونا غداً ليكتب عنها أضعافا مضاعفة. لقد كتبت بهذا القدر لنبكي على أنفسنا فلعلنا نتخلص بأقل الخسائر. وأنا من الذين يعرفون لمكة قدرها، إنني أحترم مكة إحتراماً خاصاً وأقدسها ولكن للأسف وألف أسف رأيت

فيها حالات قبيحة تحز في النفوس، والأنسب أن أكتفي بهذا القدر من الكلام.

هذه البلدة الطاهرة التي هي منزل الوحي ومسقط رأس الرسول عليه الصلاة والسلام الذي شجع أمته بحديثه القائل «أنا مدينة العلم وعلي بابها» نجدها محرومة من العلم والفضائل الإنسانية والإسلامية آه آه آه لنبك إذا كان البكاء كافياً، ليبك ثلاثمائة مليون مسلم، ليبكوا دماً.

القافلة الطيارة

القافلة الطيارة تتحرك من مكة المكرمة بعد العشرين من ذي الحجة وتصل إلى المدينة المنورة في بدايات محرم، هذه القافلة تتحرك بإشراف الحكومة لذلك فإن الأجرة محددة، فاجرة النقل تحددها الحكومة والنقود لا تكون بكاملها للجمال إنها تقسم مجيدية واحدة لفلان ومجيدية واحدة لفلان ومجيديتان لفلان وهكذا، وكانت في السابق تقسم مناصفة بين الحكومة والإمارة أما الآن فإن الحكومة والإمارة تأخذ ضريبة محددة ضمن حدود القانون، ومع ذلك فقد تجد في كل وقت من يستغل جهل الحجاج.

تحركنا من مكة المكرمة بالقافلة الطيارة والجمالون من البدو من قبيلة دحلة وسرنا في الطريق بين الحرمين مدة أربعة عشر يوماً، ولم نصادف في طريقنا أي عارض، وقد سمعنا أن بعض الحجاج في القوافل الأخرى قد تعرضوا للهجوم، وصادفنا بعض الحجاج وقد أضاعوا نقودهم، وأغلب الظن أن حدوث مثل ذلك لعدد من الأشخاص من بين مئات الآلاف من الحجاج و في تلك الصحراء الرملية الواسعة على افتراض أن الخبر

صحيح، ليست من الأمور الخطيرة التي يؤاخذ عليها، فهناك بعض من الناس من بين الحجاج يستحقون ذلك حقيقة.

هنا عادات متعارف عليها بين البدو، ولعل الحضر أيضا يعرفونها وهي كذلك شائعة بين المتحضرين الأوربيين، وتعتبر حق مشروع لا ينكره أحد، وهي أن المستخدمين في بعض الأعمال الشاقة يطلبون بخشيش فوق الأجرة المعينة لهم، والبدو بين الحرمين يطلبون في كل منزل بخشيشاً من الركاب الذين يحملونهم على جمالهم، إنها عادة وكل إثنين من الحجاج يعطيان خمسة قروش عن كل منزل، ومن الحجاج من يعطي أكثر وبعضهم لا يريد أن يعطي شيئاً. وإذا كان الحاج فقيراً فالبدوي لا يطالبه بالبخشيش أما إذا كان الحاج غنياً ورفض أن يعطي البخشيش للجمّال فإن ذلك الحاج يكون معرضاً للقتل في كل لحظة. إن أكثر الحجاج الذين قتلوا راحوا ضحية خمسة قروش، لقد أجريت تحقيقاً في ذلك كثيراً وتوصلت إلى هذه النتيجة، و من الطبيعي أن تجد بعض الحجاج الذين يقتلون لأسباب أخرى ولكن أغلب الأحوال والحوادث تكون بسبب خمسة قروش.

إنها حالة نفسية غريبة جداً تجدها عند أكثر الحجاج. في روسيا مثلاً إذا قام تتاري غني بالسفر إلى موسكو أو بترسبورغ لغرض التجارة فإنه يدفع أجرة الفندق اليومية مبلغاً يصل إلى خمسة وعشرين روبل (ثلاث ليرات) وبعد أن يقيم في الفندق عدة أيام يدفع إلى خدم الفندق عشرة روبلات أو عشرين روبل بخشيشاً. أما في مكة والمدينة فيقيم الحجاج في التكايا أسابيع ولا يدفعون لصاحب التكية الأجر المناسب.

والحجاج أنفسهم عندما يسافرون بالقطار أو الباخرة في روسيا لابد أن يدفعوا قرشاً واحداً بخشيشاً لمن يقدم لهم من الخدم الروس أو الخادمات فنجاناً من الشاي، يعطي القرش عن طيب نفس وإذا كانت الخادمة صبية

فلابد أن يعطي قابيكا (ستة قروش)، أما البدوي المسكين، ففي أجواء الحجاز الحارة يحمل أحمال الحجاج الثقيلة ويأتيه بالماء ويجمع له الحطب ويسير إلى جانبه على قدميه النهار بطوله فإذا طلب في المساء بخشيشاً ولم يعطيه الحاج شيئاً فإنه يكرر طلبه مرة أو مرتين فإذا لم يعط يضربه ويأخذ منه وهذا شئ يستحقه الحاج، إنك تحج مرة واحدة في العمر فأصرف عدد من الليرات كي يرضى عنك الناس، والحج فرض على الغني ولا ينبغي على الفقير أن يحج.

أستطيع أن أقول أيضاً أن كل الجرائم التي تقع في الحجاز لا يرتكبها أهل الحجاز فقد يصحب الحجاج بعض السارقين بهدف كسب رزقهم وبعضهم يأتي إلى الحج كل عام من أجل السرقة، فمثل هؤلاء الرجال يعرفون اللغة العربية بسبب ترددهم إلى تلك الأراضي ويتزينون بزي العرب ويدعون بأنهم عرب وليسوا بعرب.

ولاشك بأن مثل هذه الوقائع تحدث في ذلك الزحام ومن غير المناسب أن نقول أكثر بشأن هذه الحوادث والجرائم. فإذا دفع الحاج في كل منزل بين الحرمين قرشين ونصف ليصل المبلغ إلى خمسة وعشرين قرش في عشرة منازل وهي المسافة بين الحرمين فهذا ليس بالكثير. أما إذا بخل بهذا المبلغ على حياته وراحته فعندها يكون معرضاً للقتل من أي بدوي في الحجاز، فإذا اختار الموت وهو يعرف أن هذا مصيره وإنه جاء يطلب الشهادة فليس لأحد أن يقول شيئاً، وعندها يظهر سر الرحمة الإلهية التي هي أوسع من كل ذنب.

الوصول إلى المدينة المنورة

في اليوم التاسع من محرم الحرام سنة ١٣٢٨هـ وصلنا المدينة المنورة، وهي البلدة الطيبة أو طابه منزل الوحي حيث عاش في جنباتها

رسولنا عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وإني أري أن البلدتين المباركتين غنيتان عن التعريف فكل إنسان يعرفهما بقلبه فلا حاجة للتعريف أبداً.

ومع أن المدينة المنورة تقع في وادي فإنه يمكن مشاهدتها من بعيد فالحاج من أي وجهة أتى يرى البلدة الطيبة من مسافة خمسة عشر كيلو. إنطلقنا من آخر منزل على ظهر الجمال حتى صار الوقت ضحى عندها بدأت لنا القبة الخضراء، إنها حالة غريبة وجاذبة معنوية فكل من يرى القبة الخضراء، ينزل من على الناقة، دون أي طلب من أحد ويبدأ المشي على قدميه إلى جانب الناقة وعيناه على القبة الخضراء، وبعد قليل تقصر خطوات الجمل عنه، فتزيد القبة لمعانا في عينيه، فلا يستطيع تحويلهما عنها فينسى الجمل وصاحبه، ويسرع في الخطو، ويقترب أكثر، فتبقى عينا الحاج مسمرتين في القبة لا تحيدان عنها، وتزداد وتيرة الخطوات، ثم يبدأ بالهرولة، يهرول وعيناه على القبة، فيهرول هذا ويهرول ذاك، يهرول دون اختيار أو نية سباق، يستغرق الأمر ساعة، كل العيون على القبة وهي تركض بسرعة عجيبة، ولو كان الإنسان متعمداً فإنه لا يستطيع قطع تلك المسافة بتلك السرعة. وعندما ينزل في وادي العقيق تختفي القبة عن عينيه، فيفقد الحاج سيطرته على نفسه ويركض بكل قوة، وكأنه يريد الإمساك بشيء شرد منه، وبعد مدة يمر من بين البيوت الخربة فيكون عند البلدة الطيبة، ولا يلبث أن يجد نفسه عند القبة الشريفة، يهرع الأدلاء ليسألوا الحاج عن بلده، فيعود إلى رشده، فيرى أنه قطع مسافة أثنى عشرة كيلو متر من غير أن يدري.

أرى أن أقدس الساعات عند الحاج هي اللحظات التي يكون فيها قريبا من الله ورسوله، الساعات التي يتبع فيها أمر ﴿وسارعوا﴾. هذه اللحظات هي أثمن اللحظات. كأن اللوح المحفوظ قد فتح أمامنا بحيث كنا نرى سطور «واستبقوا»، وكأن الأدلاء ملائكة يبشروننا وهم يتلون

﴿سلام عليكم طبتم فأدخلوها خالدين﴾ ثم تكون قد وصلت باب العنبرية باب المدينة المنورة.

فمن جانب تسمع صوت القاطرة وكأنها ترحب بك، ومن جانب آخر يسألك الأدلاء من أين أنت أيها الحاج وكأنهم يوجهون لك الدعوة، تمشى بلا توقف نحو باب السلام، فتبادر إلى الدخول من باب الحرم النبوي وكأنك تدخل الجنة وأنت في الدنيا وتقف في المواجهة السعيدة فتضع يمناك على يسراك وتسلم على رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم تصلي تحية المسجد في الروضة المطهرة، فيكون المقصد قد تم والحمد لله.

خرجت من الحرم النبوي، وتوجهت إلى منزل أبن بلدي حنفي أفندي السيبيري، فشربنا عنده الشاي، حيث التقيت بصديق لم أره منذ عشر سنوات، وصرت ضيفاً عليه. وفي هذه الأثناء عثر الدليل على رفيقي الياباني الأخ/عمر أفندي وجاء به، وبعد ساعة ونصف وصلت الجمال. وهنا عرفت كم كنا نركض، وكم من المسافات قطعناها ركضاً وهرولة، قطعنا كل هذه المسافة دون أن نشعر بتعب، مع أننا قطعنا مسافة اثني عشر كيلومتر، إنها معنويات فوق العقول البشرية، كل الناس أسرعوا وركضوا، وكل الناس حازوا على السبق ونالوا المكافأة، فالحمد لله تعالى.

وبعد أن قمنا بالزيارة التقينا ببعض العلماء الكرام، وجاء لزيارتنا كثير من السادات العظام. ومن عادة أهل الشرق أنه لو جاء من السفر من عمره ست سنوات؛ لجاء لزيارته من عمره ستون عاماً. إلتقينا بكثير من الرجال.

المدينة المنورة والحرم الشريف

ولما كانت البلدة الطيبة مدينة صغيرة فقد علم كل الناس بخبر وصولنا، وحينما توجهنا إلى الحرم النبوي لأداء صلاة العصر، رأينا هناك عددا كبيراً من الذوات وقابلناهم، والتقينا في الحرم النبوي أيضاً بالشيخ يوسف النبهاني من علماء الشام وبأحمد خليل الحنبلي التونسي وعبد القادر الطرابلسي وغيرهم من مشاهير العلماء. لقد كان مبنى الحرم الشريف، وكثرة الناس القادمين إليه من كل فج، يشكل معرضاً بشرياً، وكانت أصوات الأدلاء ومعاملاتهم السيئة تجاه الحجاج، مناظر مؤسفة ومؤذية.

المدينة المنورة منبع العلم والعرفان ومنشأ الدين والأيمان، أما الحرم الشريف فهو منزل الفرقان، وينبغي أن يلمع فيه نور الأيمان إلى يوم القيامة. هذه أمنية كل مؤمن موحد، لأن الحرمين الشريفين مقامان عاليان ومقدسان جداً في نظر أهل الإيمان، فلا يريد المرء أن يتصور أن يحدث شيئاً سيئاً في هاتين المدينتين.

ولكن ما الحيلة فإن كلتا المدينتين محرومتان من العلم والمعرفة ومحرومتان أيضاً من الآداب الإسلامية ومكارم الأخلاق. آه آه ما بوسعنا أن نفعل، السبب هو الجهل. لقد انزوى أهل الحرمين الشريفين الأصلاء جانباً، وبرز إلى الساحة الصعيدي والبربري والأزميري والجبرتي وغيرهم، إنهم أناس محرومون من الآداب والمزايا الإسلامية والإنسانية، يلفون ويدورون بالحجاج ذوي الابتهاج كي يسحبوا نقودهم من جيوبهم و بذا ينفرون الناس من تلك المقامات المقدسة ولا يستطيع أي حاج أن يتضرع إلى الله في الحرم الشريف بقلب خاشع، فلا بد أن يأتي أحدهم وكأنه الشيطان، يقف إلى جانبه فيطلب منه نقوداً، ويلفظ بكل الكلمات التي لا تليق بالبشر، وقد يتهدده إذا اقتضى الأمر، ويلح في الطلب، فلا

يستريح الإنسان ولو لحظة واحدة، لا في الروضة المطهرة ولا في المواجهة الشريفة ولا في المقامات المقدسة الأخرى.

إن الحاج إذا وجد كل هذا السوء في رجل يتزيا بزي أهل المدينة ويتكلم بالعربية، فلا يبقى عنده خلوص نية ولا حمية إسلامية، وإذا كانت في قلبه محبة غيابية فسيفقدها هناك، ويسارع للعودة إلى بلده.

والمرء يتوقى ويتحاشى أن يكتب ما يراه بعينيه في هذا المكان، ولا يجرؤ أن يتكلم عنها بحال، يكذب عينيه وأذنيه ولا يقول ولا يكتب، وذلك أمر طبيعي، لا يقدر أن يقول، ولكن ليس هنالك من شك بأن هذه الأوضاع لن تدوم في مثل هذه المقامات المقدسة، ولا يمكن أن يخدم الحرم أناس محرومون من الحقوق البشرية والعلم والمعرفة، يجب أن يكون خدام الروضة المطهرة من الشرفاء لا من العتقاء، يجب أن يكونوا من الرجال المحترمين المتحلين بمكارم الأخلاق، المتمتعين بكافة المزايا الإنسانية، المسيطرين على نفوسهم الأمارة بالسوء بالعلم والمعرفة، المجبوبون قد يستخدمون في قصور السلاطين وفي حرم الحمقى ليقوموا بتسليتهم، أما الذين يتعاملون مع الحجاج الكرام والعلماء العظام عند مقام حضرة فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام، فلا أقل من أن يكونوا من أهل الصلاح الذين يعرفون الشمائل النبوية ويميزون بين الحسن والقبيح و أن يكونوا من الذوات الذين تربوا تربية مخصوصة عند ذلك المقام، وما عداهم فلا يصلحون للاستخدام.

إننا من الذين يتمنون صلاح الحرمين الشريفين والبلدتين الطيبتين، بل وكل أرض الحجاز. لقد قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تكون أرض العرب مروجاً وأنهاراً». وهناك بشارات نبوية كثيرة لابد أن تتحقق، وذلك يتحقق بالعلم والمعرفة. هناك روايات عديدة تؤكد أن الحجاز ستكون فيها أراضي خضراء ومياه جارية. كما أن الحديث الشريف «لا

تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها» يؤكد أن البلدة الطيبة ستنفي عنها شذاذ الآفاق. لابد أن تنفيهم عنها.

مثل هذه الأحاديث المبشرة كثيرة، إذا تذكرها الإنسان فلابد أن يقوي ثقته وأمله في المستقبل، والأمل من مقتضيات عقيدتنا، لأن هذه الأحاديث أخبار صادقة مروية عن نبي صادق ومصدق، لا ينطق عن الهوى.

المدينة المنورة

مياهها كثيرة وأراضيها خصبة وقابلة للزراعة، وحول المدينة كثير من الحدائق والبساتين، تنتج أنواعاً من الثمار، وأشجار النخيل وافرة خاصة في الجهة المعروفة بالعوالي ومسجد قباء وبئر الخاتم وما بعدهما والجهات الجنوبية الغربية، فيها أماكن طيبة تنتج كثيراً من الثمار، وفي الشمال الشرقي من المدينة أراضي جيدة وخصبة لكنها بقيت متروكة مدة من الزمن فغطت الأرض طبقة رملية، فإذا أزيلت تلك الطبقة فإنها تنتج كميات وافرة من الحبوب. إلا أن أكثر سكان المدينة أصحاب معاشات، لذلك فإنهم لا يهتمون بالزراعة والتجارة كثيراً، وفي أطراف المدينة كثير من السكان المعروفين بالنخوليين، وهؤلاء يشتغلون بالزراعة.

عدد سكان المدنية يقدر بسبعين ألف، وعدد العرب الأصليين قليل، أما الأكثرية فهم من العرب المستعربة، وهم يعرفون بالقاب يعبر عنها ببيت فلان أو بيت فلان مما يظهر أصلهم، مثل بيت الأسكوبي وبيت البوسنة لي وبيت الأزميري وبيت البخاري وبيت الحبشي وإلى غير ذلك، فهؤلاء كلهم من العرب المستعربة. ثم إن فيها مجاورون، وهؤلاء هاجروا حديثاً من ممالك بعيدة واختاروا الاقامة بجوار مسجد الرسول ﷺ، وهم كثيرون جداً فهناك كثير من المجاورين الأتراك والتتار، وأظن أن في المدينة أكثر من مائة بيت تتاري، والقسم الأكبر من التجارة بيد هؤلاء،

أما الحرف الصغيرة، فهي بيد البخاريين مثل الحلاق والحذاء والمبيض وغيرهم. وهناك مجاورون من أفريقية الغربية، وهم عرب أصلا.

ويقل عدد المجاورين الهنود والجاويين في المدينة المنورة، والسبب غير معروف، فمثل هؤلاء يكثرون في مكة المكرمة.

وتتزايد أعداد المجاورين في المدينة المنورة بصورة مطردة، ففي خلال الربع الأخير من هذا القرن إزداد عدد المجاورين في المدينة المنورة بمقدار الضعف، وهذا مصداق قول رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها».

ومن الطبيعي أن يساهم الخط الحديدي في تزايد أعداد المهاجرين بصورة أكبر، وسيأتي يوم يكثر فيه القادمون من الخارج كلما تطورت المدينة من الناحية العمرانية. ومما يؤسف له أنه كلما ازداد عدد المهاجرين قل عدد العرب العاربة، وقد يزول أثرهم تماماً.

الأدلاء والمزورون

في القديم كان الضيوف والمسافرون القادمون من الخارج يقسمون إلى جنسيات وشعوب وقبائل من قبيل التكريم، ويعين لكل فريق مضيف يعرف لغته، ويسمونهم بالمطوفين إذا كانوا في مكة المكرمة، والمزورين إذا كانوا في المدينة المنورة، ويطلق عليهم جميعاً إسم الأدلاء. إن مهمة الأدلاء أساساً هي خدمة الضيوف ولكنهم تحولوا فيما بعد إلى مزاولة التجارة ثم النهب والسلب. وحسب الروايات الموثوقة لبعض أهل البصيرة، إن الأدلاء إستحدثوا في بداية الأمر لتكريم الضيوف ولتطييب قلوب المؤمنين، فيقومون بخدمة الحجاج دون أجر، وأخيراً صارت براءة الدليل تباع بآلاف الليرات، وكانت هذه المهنة للفقراء والغرباء، فتحولت إلى السادات والأشراف وكان إسم الدليل مهانا قبل ثلاثين أو أربعين عاما

والآن صاروا يحملون إسم السيد عبد الله والسيد عبد الجليل، ومع ذلك فإن أكثرهم من الجهلة والمهانين، وعملهم لا يعدوا أن يكون وسيلة لكسب المال، والذين يستفيدون من المال قليلون ومن جمع المال الكثير لا يلبث أن يموت، ومعروف أن مال الحاج لا خير فيه لأنه لا يعطي عن طيب نفس فالسيد عبد الله مدني وعباس خياري وغيرهم من المعروفين تملكوا مقادير كبيرة من المال ولكنهم حرموا من الاستمتاع به في نفس العام.

ومهنة الإدلاء تحتاج إلى إصلاح دائم، لأنهم يتسببون في تنفير أهل الأيمان من المقامات المقدسة، يحطمون آلاف القلوب، ثم يتهمون الحكومة بالإساءة. إنه لأمر جدير بالملاحظة، فإذا تم إصلاح هذه المهنة في الحرمين الشريفين، وأسندت إلى أهلها، فإنها لا تبقي مجرد دلالة في موسم الحج بل سيكون لها تأثير كبير على السياسات الخارجية للدولة، كما إن على الحكومة أن تخصص رواتب للأدلاء، وإذا كان الدليل مثقفا، وملماً بالأحكام الدينية، فسيقوم بما يقوم به السفير في خدمة بلاده، وعندها يستحق ذلك الراتب. وقد كتبت في هذا الموضوع قبل عشرين عاماً ولكن سياسة عدم إزعاج الأجانب التي نتبعها خلط الأمور ببعضها، وقطعت الطريق على كل خير.

أئمة الحرم الشريف في المدينة المنورة

يبلغ عدد أئمة الحرم النبوي قريباً من مائة، وبينهم أئمة لم يروا الحرم الشريف أصلا. حتى الصلاة لا يعرف أداءها على الوجه الصحيح أو لا يريد أن يؤديها، هذه الإمامة التي ورثها عن أبيه، إذا جاء دوره فيها مرتين أو ثلاثة في العام دفع إلى أحدهم بضعة قروش ووكله بالإمامة، واستمر هو في استلام راتبه كل شهر. وبين هؤلاء الأئمة أطفال لم ينبت الشعر

على وجوههم بعد، حفظ بضع آيات، وصوته جميل ووجه جميل ويلبس قميصاً رقيقاً وطويلاً، لا يعرف شروط الصلاة و لا شروط الوضوء، وهو إمام في الحرم النبوي لأن أباه كان إماماً، أو أن أمه كانت بنت إمام، كل هؤلاء أئمة. والواقع إن الحرم النبوي لا يخلو من أئمة قديرين وقورين ومعمرين، ولكن لا يأتي دورهم إلا كل ستة أو سبعة شهور، أما بقية أيام السنة فإن المحراب النبوي يحتله أولئك الصغار، فيا ترى من الذي سيقوم بالتصدي لإصلاحهم، أو يجرؤ على ذلك. سيرون هذا النوع من الكلام لا ضرورة له وسيعتبرونه تجرؤاً على أئمة الحرم النبوي والسادات الكرام واعتداءاً على حرمتهم، مع أنهم هم المعتدون على حرمة المسجد خمس مرات في اليوم بدفع هؤلاء الأطفال إلى المحراب النبوي. وبعض هؤلاء الأطفال عديم الأدب والخلق والتربية.

مؤذنو الحرم النبوي

وهؤلاء كثيرون، وبين هؤلاء أيضاً أطفال ليسوا على خلق، وقلة الأدب عند المؤذنين لا تقتصر على الحرمين الشريفين، بل إنك ترى المؤذنين في عموم الممالك التركية أنهم أكثر الناس صفاقة، ولاشك في أن مؤذني المدينة أكثرهم صفاقة. وللصراخ بأنكر الأصوات في حضرة رسول الله ﷺ يتطلب صفاقة شديدة، ولاشك بأن كل هذا الصراخ بدعوى العبادة أمام رسول الله ﷺ وهو حي في قبره أمر غير جائز لا عقلاً ولا شرعاً. والصراخ بهذا القدر عند هذا المقام يتطلب صفاقة كبيرة. والحقيقة إن صراخ المؤذنين في المساجد عادة متبعة من قبل النصارى في كنائسهم ويعلم الجميع أن كتبنا الدينية لا تتضمن رواية في جواز ذلك فكيف يجوز مثل ذلك الآذان وتلك الإقامة ومعها تلك البدع الشنيعة في مساجد

السلاطين في إسطنبول وخاصة بحضور خليفة المسلمين، ألا يستحون من الجهل بكل هذا الصراخ السخيف.

الخطباء في البلدة الطيبة

إذا كان هناك شئ ينعش روح الإنسان فهو الخطب التي يلقيها الخطباء، وإذا كان في الحرمين الشريفين من أمر مشروع ومسنون فهو الخطبة، إنها حقيقة خطبة وموعظة دينية. والخطبة في المدينة المنورة على وجه الخصوص جيدة جداً، فطريقة الإلقاء تخلو من أي نوع من أنواع التكلف وتصدر من قلب صادق ومخلص، إنها عبارة عن موعظة خالية من التغني والترنم وكلها أقوال بليغة ومسجعة، تلقى فيها النصائح والمواعظ التي تناسب المواسم والأيام، وأكثر الخطباء هم من كبار الناس والعلماء، فالخطب رائعة ليس عليها أي مجال للاعتراض.

وهناك أمر بالسكوت والإنصات أثناء الخطبة إلا أن أولئك المؤذنين الذين لا خلاق لهم يقضون على روح تلك الخطب العظيمة. أصلح الله خطباء إسطنبول.

المدارس والمدرسون في المدينة المنورة

إن المدارس في المدينة المنورة كثيرة، ولكن قد لا أخطئ إذا قلت بأنه ليس هناك مدرسون، ومن أشهر المدارس: المحمودية، الحميدية، الشفا، قراباش، بشير آغا، حسين آغا، بهرم آغا، أمين آغا، ساقز، كليم، يعقوب خان، شيخ مطهر، ومدرسة القازاني، وغيرها كثير، وفي المدرسة المحمودية حوالي ستون أو سبعون ممن يسمون بالطلاب ولكنهم في حقيقة الأمر رجال مسنون جاءوا إلى المدينة بنية الموت، المباني جيدة، والراتب عدد من المجيديات، أو عشر مجيديات على ما أظن ولها

جراية تبلغ ست أو سبع ليرات، والوقف في حالة معطلة، أما الدراسة، فالعجائز في هذه المدرسة لا يعرفون ما هي الدراسة، ينامون فيها إلى أن يحين أجلهم، وبعد الموت تجد في غرف بعضهم مائة ليرة وبعضهم خمسون وفي غرف بعضهم مئات الليرات، وكلهم يدعون الزهد، وقد شرط الواقف أن المدرسة للطلاب، ولا يقبلون طلاباً من الخارج مدعين بأن ذلك يخالف شرط الواقف ولكنهم يقطعون شرط الواقف من جذوره. إن مجموع الغرف في المدرسة تصل إلى ثلاثمائة أو تسعمائة ولكن ما يمكن أن يقال عنهم طلبة لا يتجاوز عددهم المائة. وفي المدارس التي تعطي رواتب أكثر مثل المحمودية والحميدية وقراباش، لا تجد فيها طالباً واحداً، لأن مدرسيها من الرجال الذين قدموا إلى المدينة ليأخذوا الرواتب وينتظرون الموت. إنهم جنائز برواتب. وهناك مئات من الطلاب الحقيقيين قدموا إلى المدينة المنورة من ممالك بعيدة بقصد تلقي العلوم ولكنهم لا يجدون مكاناً يؤويهم، والمدارس على الحال الذي رأيناه. أما المدرسون من العلماء فهم مشغولون بالتدريس في الحرم النبوي ليل نهار حسبة لله وشعارهم: "إن أجري إلا على الله" وأرى أن الجامعة التي يخطط لافتتاحها في المدينة المنورة بتوسيع المدرسة المحمودية بعد استملاك ما يجاورها من أملاك، ستكون أحسن الجامعات.

توجد بين باب السلام وباب الرحمة ساحة نصفها تحتلها المدرسة المحمودية، ويمكن إستملاك النصف الآخر، بعضه يخصص للشوارع ويلحق الباقي بالمحمودية، ويتم بذلك إفتتاح صفوف كبيرة ومكتبات كبيرة، ويمكن أن يستعمل المكان مصلى للحجاج في مواسم الحج وستكون جامعة إسلامية حقيقة، وإذا رأى المسلمون مثل هذه الجامعة فسيوقفون لها ألوف الليرات، وسيكون لها شأن عظيم، وستكون على مرأى من جميع المسلمين في المدينة المنورة، ستكون محمودية حقيقة.

وإذا بدأ العمل بمثل هذا المشروع فلا شك بأن قطيع التنابلة داخل المحمودية سيصرخون بأعلى صوتهم مطالبين بشرط الواقف ولكن الحقيقة أن بقاء هؤلاء الكسالى هناك مخالف لشرط الواقف. إن شيخ الإسلام وأمناء الفتوى لا يرون حالياً شرط الواقف وقد مزق إرباً إرباً ولكنهم عند إعمارها بهذا المخطط فإنهم سيحتجون بأن ذلك مغاير لشرط الواقف.

إن جلدي يقشعر كلما تذكرت هذه الأحوال. ما أدري كيف يوفق خونة الدين و الشريعة بالتستر خلف التدين؟

والخلاصة إن المدينة المنورة يمكن أن تكون موئلا للعلم والعرفان بشرط الاعتناء بمباني المدارس، وأصول التدريس فيها، فالاستعدادات موجودة، يكفي أن نصلح المدارس الثلاثة: المحمودية والحميدية والشفاء، كي يكون ما نقوم به عملا عظيماً.

المكتبات

توجد في كل مدرسة مكتبة جيدة، بالإضافة إلى مكتبتين عامتين في كل منها كتب قيمة تعتبر من الآثار النفيسة، إلا أنها قد تتعرض في كل وقت للسرقة، يعني أنه يمكن سرقتها بكل سهولة.

الحرم النبوي والروضة المطهرة والحجرة الشريفة

لا أتصور من لا يعرفها من المسلمين، إنها مبنية على أحسن صورة، بحيث لا تجد لها مثيلاً على وجه الأرض، وفي الحرم النبوي متسع لصلاة خمسة وعشرين أو ثلاثين ألفاً، ومبنى الحرم فخم مزين، إنه معبد روحاني بكل معانيه، أدعو الله أن يجعل رؤيته من نصيب كل مؤمن، والصلاة في

الحرم النبوي تعدل ألف صلاة في غيره من المساجد، وهذا يكفي و لا حاجة لتعريف أكثر.

إجتماع الحجاج الكرام في المدينة المنورة

وبدعوة من محافظ البلدة الطيبة علي رضا باشا عقد ذات ليلة إجتماع كبير في باب العنبرية إذ امتلأ شارع العنبرية بطوله بالحاضرين، من السادات الكرام وكل العلماء العظام. وفي بداية الاجتماع ألقى رجلان عينهما المحافظ كلمتين بدأها بالترحيب بالحجاج ثم تطرقا إلى أهمية التعارف بينهم. ثم صعد منصة الخطابة شاب تتاري فألقى باللغة العربية خطاباً طويلا ومفصلا، ركز على حاجة المسلمين للتعارف فيما بينهم.

ثم تكلم الميرزا عبدالرحيم أفندي من علماء بادكوبه فأشار إلى حاجة المسلمين للاتحاد والاعتصام بحبل الله. ومخاطر الشقاق والفرقة، مؤكدا على أن رأي علماء النجف الأشرف يصب في هذا الاتجاه أيضاً، فقابله المستعمون بالتصفيق الحاد والاستحسان.

وتحدث مدير المدرسة الإعدادية في المدينة المنورة عن الصراع بين الأرمن والمسلمين في أضنه، مشيراً إلى أن الأرمن مسلحون تسليحاً جيداً، وأن المسلمين لا يملكون سلاحاً. وهنا تقدم منه طاهر بك مدير نادي الاتحاد والترقي وأبعده عن منصة الخطابة، هذا المسكين يتحدث في أمر في غير وقته ومناسبته. فما علاقة مشكلة أضنة بالحجاج؟ أراد أن يظهر سعة اطلاعه. وفي اليوم التالي جرى توقيفه.

ثم تقدم عمر أفندي ياما أوكا، وتحدث عن الترحيب والإكرام الذي لقيه في مكة والمدينة، وعن أهداف جمعية «آسيا غي كاي» التي تأسست في طوكيو، وعن مزايا اتحاد الشرق، كان حديثه وافياً ومطولاً وفريداً، كما تحدث عن مستقبل الإسلام وتشرفه باعتناق هذا الدين ونطق

بالشهادتين في موضع إظهار الشكر لله، وأنه يحس بالانشراح والرضا وكرر كلمة التوحيد ثلاث مرات قبل أن يغادر منصة الخطابة، أبكي عمر أفندي بخطابه كثيراً من الحاضرين، وعلمنا فيما بعد أن كثيراً من النساء في البيوت المجاورة بكين لما سمعنه من هذا الرجل.

ألقى عمر أفندي كلمته باللغة الروسية، وقمت بترجمتها إلى اللغة العربية. لقد كان إجتماعاً طيباً وجميلاً.

وقد أعرب الحجاج والأهالي عن فرحتهم الشديدة بهذا الاجتماع، واعتبره بعضهم من حسنات الحكم الدستوري، كان إجتماعاً مشرفاً بحق وصادقاً، وهتف بعضهم: من العايدين إن شاء الله، فكثير من الناس تمنوا تكراره كل عام.

عمر أفندي ياما أوكا في المدينة المنورة

أقام سادات المدينة حفلة خاصة على شرف عمر أفندي، وكرمه السيد علوي بافقيه والسيد أحمد برزنجي وغيرهما من كبار السادات. والحقيقة إنهم لم يقصروا في كرم الضيافة، وسر من ذلك عمر أفندي. لقد أقام في المدينة المنورة حوالي أسبوع، وكان في حوار مستمر مع الشباب التتاريين مدة بقائه في المدينة ولكنني لم أعرف موضوع الحوار.

وبعد أسبوع قرر السفر، وصار يلح علي كي أرسله إلى اسطنبول ولكنني لم أكن أمتلك المال، إلا أن جمعية الطلبة والشباب جمعوا له مصاريف السفر، وأرسلوه إلى دار السعادة (إسطنبول). أما أنا فبقيت في المدينة أسبوعاً آخر.

كان عمر أفندي ياما أوكا رجلاً جلداً متحملاً للشدائد إلا أن عيناه دمعت أثناء مغادرة البلدة الطيبة، واعترته حالة من الرقة، و لعل ذلك بـتأثير من القادمين الذين جاءوا لتوديعه. وكانت كلمته الأخيرة: لي الفخر

أن أكون أول ياباني تشرف بزيارة رسول الله ﷺ ثم أنطلق القطار، أما أنا فأقمت عشرين يوماً آخر في البلدة الطيبة. وبعد أن غادر القسم الأعظم من الحجاج استأذنت وغادرت المدينة المنورة بالقطار متوجهاً إلى دمشق الشريفة.

الخط الحديدي الحجازي

انطلقت من المدينة المنورة بالقطار، وهو لا بأس به وإن لم يكن منتظماً، والشي الحسن فيه أنه الخط الحديدي الوحيد في العالم الذي أنشئ بجهود المسلمين وأموالهم.

كان القطار يمشي ببطء وكأنه طفل في الثالثة لازال يتعلم المشي، وفي اليوم التالي وصلنا إلى محجر تبوك. وبعد أن احتفظوا بنا مدة الحجر وصلنا في نهاية الأسبوع إلى دمشق الشريفة.

وأرى هنا ضرورة للتحدث عن الحجر الصحي مرة أخرى، ذلك أن الحجر الصحي في تركيا يعتبر رحمة ونزهة حيث لم ألاحظ على الحجاج أي ضجر منه وقد تكلمت في صفحات سابقة عن الحجر الصحي بالتفصيل.

إن الخط الحديدي الحجازي لا يمثل أهمية كبيرة في الوقت الحالي ولكن سيأتي الوقت الذي يكون فيه من أهم الطرق العالمية، لذلك فإن هذا الطريق إذا جرى مده إلى مكة المكرمة في أقرب فرصة فسيكون أهم مصدر للخزينة التركية وعندها لا يسافر حاج واحد عبر البحر الأحمر، فعلى المسلمين جمعياً أن يدركوا هذا الأمر ويشمروا عن ساعد الجد فهذا الطريق سيضمن راحة الحجاج وسيربط قلوب المسلمين بقبلتهم.

دمشق الشريفة

الشيء الذي لفت نظري في دمشق الشريفة هو مصنع عربات القطار، ولا أعرف مدى جودة هذا المصنع ولكنني سأذكر ما رأيت فيه من أعمال. إن سعة المصنع وآلاته وأدواته مهيئة لصنع كل شئ. وعندما تجولت في المصنع جاءني معاون المدير وهو أرمني وأشار إلى رجل مسلم خبير بالمحركات و قال: بعد أن أكملت دراستي في أوربا عملت في المصنع الفلاني في إنجلترا ولكنني لم أر هناك خبراء في المحركات مثل هذا الرجل. وأشار إلى الأعمال والأدوات التي صنعها ولكنني لم أكن قادر على فهم ما كان يشرحه لي وتوجهت إلى الميكانيكي المسلم وسألته فيما إذا كان هذا المصنع يكفي لتغطية حاجات الخط الحديدي.

نظر الميكانيكي في وجه معاون المدير فقال له المعاون: قل كل ما تعرف و لا تخف.

- الميكانيكي: إذا أمكن تشغيل هذا المصنع بحق فإننا لا نحتاج من أوربا إلا أن نستورد بعض أدوات القاطرة أما العربات فيمكننا أن نصنعها بكاملها في هذا المصنع. والواقع إن العربات المستوردة من أوربا لا تناسبنا، إننا نغيرها بكاملها. أنظر إلى هذه العربة وتقدمني إلى بعض العربات التي استوردت من أوربا سنعيد تصنيعها كلها من جديد وهذه العربات بدأنا بإعادة تصنيعها وهذه عربات صنعناها بأنفسنا.

- وماذا عملتهم لهذه العربات؟

أنظر هذه العربة، إستوردناها من أوربا، أنظر إلى زجاج النوافذ، إن الزجاج بهذا الحجم الكبير في هذه البلاد الحارة يجعل حرارة العربة في درجة لا تطاق والمسافر فيها وفي هذا الجو لا يستطيع أن يكمل طريقه. والحقيقة إنني استوعبت ما قاله استيعابا تاماً.

- وهل تحتاجون إلى اصطلاحات أخرى؟

- سقف العربات، فسقف العربات عندهم من الحديد ويجب أن يكون السقف عندنا من الخشب وتقسيمات العربات يجب أن تكون مناسبة لحال المجتمع الإسلامي.

وهناك أشياء أخرى كثيرة، ففي هذا المصنع يمكن أن نصنع أي شئ ولكن مديرنا لا يعرف لغتنا ونحن لا نعرف لغته. والواقع إننا لا نراه في العام إلا مرة أو مرتين.

وهذا الرجل جديد في المصنع (وأشار إلى المعاون) إنه من دين آخر، ولكنه يعرف لغتنا ولننظر ما سيفعل،نتمنى أن يعمل في خدمة البلد (المعاون: إن شاء الله).

-: كم عدد العمال.

-: عندنا مائة وثمانون عاملاً ويجب أن يكون في المصنع ألف ومائتا عامل حتى ينتج المصنع كل شئ نريده، أما إذا كان عدد العمال ألفين فلا نحتاج لان نستورد من الخارج أي شئ، يمكننا أن ننتج في العام الواحد خمسمائة عربة.

-: ألا يمكن صنع القاطرات بكاملها في هذا المصنع؟

-: ولم لا، ولكن يتطلب العمل جهوداً، لقد صنعنا عربة جديدة في هذا المصنع وأرسلناها هذا اليوم إلى حيفا ويمكننا أن نصنع القاطرات أيضاً، نحتاج إلى آلتين فإذا توفرت الآلتان يمكننا أن نصنع القاطرة بكاملها.

كنت أتحدث مع هذا الرجل ومعاون المدير يؤيده فيما يقول. تجولنا داخل المصنع أكثر من ساعة ورأينا كل أقسامه. إنه يعمل بكامله بالقوة الكهربائية وليس فيه عيب من الناحية الظاهرية وأرى أن كلام الميكانيكي صحيح، لأنني رأيت نقصاً كبيراً في الأجهزة والعمال. كما إن بعض الأجهزة كان عاطلاً عن العمل. سألت عن الأسباب فقالوا بأننا لا نحتاجها

حالياً أما إذا بدأنا بصنع عربات وقاطرات فسيجري تشغيل هذه الأجهزة وكل شئ في هذا المصنع سيدور.

الحقيقة إنني أعجبت بهذا المصنع. لقد صرفوا عليه مائتي ألف ليرة حتى أنشأوه، أما الآن فلا يقوم بالعمل لان عقد المدير ينتهي خلال مدة معينة وأنه ألماني لا يقوم بأي عمل، وإن المصنع إذا أنتج كل شئ هنا فلن يبقى لألمانيا ما تصنعه وغيرها من الحجج، فلا حول و لا قوة إلا بالله. هذا المصنع الضخم عاطل عن العمل إرضاء لرجل ألماني و لا يتم العمل الذي ينبغي القيام به كل ذلك بسبب عقدة الخواجات فالخسائر يتحملها المسلمون.

التعصب المذهبي في ديار الشام

صليت المغرب في جامع بني أمية ولفت نظري تعدد المحاريب. لم أكن أفكر في حنفي أو شافعي ولكنني عندما اقتديت بالإمام، لاحظت في الجانب الأيمن عدداً كبيراً من الرجال واقفين وكأنهم يهمون بالصلاة. اقتديت فلما وصل إلى منتصف سورة الفاتحة وإذ بي أسمع صوت تكبير ثم بدأ بسورة الفاتحة. عجبت كثيراً ونظرت فإذا بإمامنا يقرأ السورة بعد الفاتحة والإمام الآخر يقول: ﴿وإياك نستعين﴾. إستغربت كثيراً وبقيت في حالة مذبذبة. أكملنا نحن الصلاة ولكن جيراننا من المصلين كانوا في بداية الركعة الثالثة.

وأخيراً إتضح لي الأمر. كان أحدهما شافعياً والآخر حنفياً. أيهما مسلم يا ترى؟ ولم كل هذا الافتراق؟ أي فقيه وأي مذهب يجيز صلاة جماعتين في مكان واحد وفي وقت واحد فكرت فلم أستطع أن أفهم ذلك بأي حال من الأحوال.

وفي اليوم التالي ذهبت وأخبرت الوالي إسماعيل فاضل باشا فاستدعى الباشا حضرة المفتي فذكرت لحضرته ما رأيت وأبديت إمتعاضي من ذلك فقال المفتي وهو يكذب: لقد منعت ذلك.قلت: إنني رأيت ما رأيت في صلاة المغرب أمس قال المفتي: لقد منعتهم اليوم. فسكت. قال الباشا: إذا أردت أن تلقي موعظة بعد صلاة العشاء في هذا الموضوع فسأحضر معك. قبلت عرض الوالي وأرسل المفتي خبراً إلى الجامع وقمت بعد صلاة العشاء فألقيت الموعظة وبينت قبح تلك الفعلة، ولكن الجهل الذي أعمى الأبصار كان يمنعهم من أن يروا ذلك القبح، حتى أننا عند خروجنا من الجامع إعترض عليَّ البعض فقلت إن الإمام الشافعي صلى صلاة الفجر عند مرقد أبي حنيفة فاستحيا أن يقرأ القنوت فكيف لا تستحون من ذلك الرجل وهو رئيس مذهبكم.

ومع ذلك لم يلق كلامي أذناً صاغية. وفي اليوم التالي رأيت جماعتين إلى جانب بعضهما في الصلاة الواحدة، إنهم قوم متعصبون معاندون.

وعندما إلتقيت ببدر الدين أفندي أحد علماء الشام وبغيره تحدثت عن مساوئ وقبح هذا الموضوع وعن كراهية تعدد الجماعة فكانوا يؤيدون كلامي، ولكنهم لا يقدرون أن يتفوهوا بكلمة. لم أجد في الشام شيئا آخر أكتب عنه وقد كانت إقامتي فيها قصيرة.

في بيروت

وبعد دمشق قدمت إلى بيروت والتقيت بالوالي ناظم باشا وزرت المدارس. والشيء الملفت للنظر ببيروت هو كثرة المدارس الأجنبية وأشهرها الكلية الأمريكية. أما أكثرها فساداً وإفسادا فهي المدارس الفرنسية اليسوعية، هذه المدارس وأمثالها التي فتحها الأجانب في الممالك العثمانية يعرف كل فرد مسلم بأنها لم تفتتح بقصد خيرنا

وفلاحنا، فكل هذه الكليات تأسست لتعويد أطفال المسلمين على النصرانية.

أنا لا أتعجب كثيراً من عمل هؤلاء لأن رجال الدين النصارى إنما يسعون لكسب ما يقوتهم فليس لنا أن نؤاخذهم لكن الذي يحز في نفسي أن الناس الذين ينفون الحاجة إلى الدين في القرن العشرين يأتون إلى بلادنا ليكونوا دعاة لدينهم، وما أحط المسلمين الذين يرضون بأن يتردد أولادهم على الكنائس من أجل التعليم. ثم إن هذا الإقبال الشديد من المسلمين على هذه المدارس ظاهرة محيرة حقاً.

أنا لا أرى ضرورة للتحدث عن هذه المدارس وأصول التدريس فيها وسأكتفي بعرض حادثة وقعت في أحدها. في هذه المدارس يتواجد الطلاب فيها دائماً وأثناء تواجدهم عليهم أن يذهبوا مرتين إلى الكنيسة كل يوم.

وحدث أنه بعد الانقلاب في تركيا حاول الطلاب المسلمون القيام بحركة كي يرفع عنهم شرط الحضور إلى الكنيسة وتقدموا بطلب في هذا الصدد إلى الباشا الوالي، كما أرسلوا رسائل إستعطاف إلى مجلس الوزراء النيابي يطلبون فيها إعفائهم من الحضور إلى الكنيسة، وأقسم كل الطلبة المسلمين وفي مقدمتهم طالبان هنديان على عدم الذهاب إلى الكنيسة وتوقفوا عن الذهاب بعض المدة مما أحدث مشكلة بين إدارة المدرسة والطلاب وكثر القيل و القال.

وقف مدير المدرسة أمام طلاب السنة الأخيرة وبيده لائحة تأسيس المدرسة وقال بأن كل من لا يحضر إلى الكنيسة فسيحرم من الحصول على الشهادة وأنه لن يتخلى عن تطبيق هذا القانون. وتطورت القضية لدرجة أن مدير المدرسة جناب المستر... توجه إلى أمريكا لبحث هذا الموضوع وتلقى التعليمات الخاصة وعاد ولم يعرف أحد كنه التعليمات

التي تلقاها المدير ولكنه بعد العودة تغير أسلوبه مع الطلبة فصار يلتقي بهم مراراً ويلاطفهم. وبعد عدد من اللقاءات إستطاع إقناع الأخوين الهنديين بدخول الكنيسة، وهما اللذان أثارا الموضوع أصلا وهما اللذان أقسما اليمين على عدم دخولها، فلما رأى الطلاب الآخرون ذلك توجهوا جميعاً إلى الكنيسة من غير تردد.

وهكذا انتهت المشكلة تلقائياً ولكنها كانت سبباً لإضافة مادة في اللوائح المدرسية تزيد القيود على الطلبة وصارت المدرسة تشترط موافقة ولي الأمر المسبقة على ضرورة حضور الطالب إلى الكنيسة مرتين كل يوم والطالب الذي لا يحضر إلى الكنيسة يكون وليه مسئولاً عنه. فهذا شرط مسبق لقبول الطالب في المدرسة.

إنه لأمر غريب حقاً! ما حاجة الهنود للشهادة. إنهم يضحون بسمعتهم إلى يوم القيامة من أجل شهادة ويجبرون مئات المسلمين الآخرين على الدخول إلى الكنيسة.

والمرء إذا حصل على المعلومات فهل تبقى حاجة للشهادة؟ إنه مرض يصيب عموم المسلمين، إنهم يفتقدون الثبات والمتانة والكرامة.

وقد وقعت حادثة مشابهة لهذه في إسطنبول، ففي عام ١٣٢٧هـ خرج طلاب السنة الأخيرة في المدرسة السلطانية من مدرستهم بعد أن أقسموا أغلظ الأيمان على أنهم لن يعودوا إلى المدرسة إلا بعد الاستجابة لمطالبهم، إلا أنه لم تقبل المطالب ولم يتمسك الطلاب بعهدهم. لقد فقدوا كرامتهم وحنثوا بإيمانهم، توجهوا إلى المدرسة من أجل الحصول على الشهادة.

والواقع إنهم كانوا واثقين من كلامهم لما أقسموا فمن يثق بكلامه لا يحلف وإذا حلف رجل فإنه يدرك عدم ثقته بكلامه فيقسم إرضاء لنفسه هو.

والإسلام لم يعط اليمين أهمية كبيرة، والمعتبر هو القول والشهادة، والصادقون في أقوالهم لا يحسون بالحاجة إلى اليمين، وعقوبة شهادة الزور أكبر من عقوبة اليمين الكاذبة فالرجل وقاف عند كلامه، ومن لا يقف عند كلامه ووعده، لا يصل إلى ما يبتغيه، والقول بعدم الذهاب إلى الكنيسة لم يكن صادقاً وجاداً، لذلك فقد حنثوا بيمينهم وذهبوا إلى الكنيسة ولن يقف الشر الذي استحدثوه عند هؤلاء بل سيؤثر على مئات غيرهم، فالمسلمون في المدارس النصرانية أسرى.

وفي سوريا لا تقتصر مدارس التنصير على بيروت بل تجدها أيضا في القرى والأرياف كلها تسعى لنشر النصرانية. ونحن نقول... ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ وما أراد الله يكون، و لكن عدم الثبات في المسلمين يجعلهم مغلوبين على أمرهم دائماً. لنعترف بحالنا وحقيقتنا، نحن في أشد الأسف، لقد فقدنا كرامتنا. ومن بيروت وصلت إلى اسطنبول بقطار حلب الذي كان منتظماً جداً، والطريق جيد وقطعنا المسافة في ثلاثة أيام بحمد الله، نواقصنا كثيرة، وكان هدفنا تقديم خدمة لإخواننا بقدر ما نستطيع.

الحمد لله ثم الحمد لله.

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الرشيد إبراهيم ومسلمي روسيا

(١٨٥٧/٤/٢٢ - ١٩٤٤/٨/١٧ مـ)

بقلم الدكتور مصطفى أوزون أستاذ في كلية الأهيات باستنبول

إن عبد الرشيد إبراهيم هو أول ممثل سياسي للمسلمين في روسيا وقد اشتهر على انه صحفي وكاتب مسلم ورحاله وخطيب وغيرها من الألقاب، وقد ولد في قصبة «تارا» التابعة لولاية «توبولسك» TOPOLSK في سيبيريا، ولقد بين في كتابه الأحداث التي جرت معي في حياتي، أنه ولد بتاريخ ١٨٥٧/٤/٢٣ م وهو من عائلة أزبكية ووالده عمر أفندي من الرجال الذين لعبوا دورا في الأحداث السياسية في عصره، لذلك يعتبر وطنيا قضى حياته بالتجول في روسيا وفي المعتقلات، ووالدته عفيفة هانم من أتراك باش قورت وهي امرأة متنورة كانت تعلم النساء القراءة والكتابة والدين في تارا وجده من طرف والده إبراهيم أهوند أستاذ مدرسة دينية .

وقد بدأ بحياته الدراسية وهو في سن صغيرة حيث انفصل عن عائلته واستمر في دراسته في مختلف المدارس في الأقضية المجاورة و قد هرب إلى اسطنبول بقصد الذهاب إلى الحج (١٨٨٠م) وبقي هناك شهرين ثم ذهب كخادم مع أحد الأتراك القادمين من روسيا إلى الحج.

وبعد الحج بدأت المرحلة الثانية من حياته الدراسية في المدينة وقد درس فيها على يد مختلف المشايخ حيث درس علوم القرآن الكريم على يد شيخ القراء أحمد أفندي وحفظ القرآن ودرس الفقه على يد الشيخ احمد ضياء أفندي و الفرائض و خلاصة الحساب على يد الشيخ أخونجان أفندي و الحديث على يد الشيخ سيد علي ظاهر القطري و حصل على

الإجازة عام (١٨٨٣م) و ذهب إلى مكة بعد الحج فقرا القرآن على يد شيخ القراء سرور أفندي وراجع حفظه و هكذا أصبح جاهزاً لتقديم الخدمة، وفي نهاية عام ١٨٨٤ م جاء إلى اسطنبول عن طريق الإسكندرية وبعد أن قام فيها عدة شهور ذهب إلى «تارا» بناءً على إصرار أبناء بلده وبدأ بإعطاء الدروس وإعداد الطلبة في المدارس هناك (١٨٨٥م) وفي نفس السنة تزوج ولكن بعد خمسة عشر يوماً ذهب إلى استانبول ثانية للحج واخذ طلبة إلى المدينة وهنا تعرف على رجال العلم والفكر والأدب المشهورين، وناقش مع وزير المعارف منيف باشا مشكلات المعارف ثم ذهب إلى الحج مع الطلبة الذين برفقته وأوصلهم إلى المدينة ثم عاد إلى «تارا» عن طريق اسطنبول (١٨٨٥م) وأسس هناك مدرسة الأصول الجديدة ووسع نشاطاته التعليمية[١].

وكتب رسالة «لواء أحمد» وطبعها في استانبول ووزعها سراً في روسيا، و شجع في كتابه أتراك روسيا للهجرة إلى تركيا و نتيجة لهذا هاجر إلى تركيا سبعين ألف شخص.

وفي عام ١٨٩٢م أنتخب عبد الرشيد رضا عضوا في المحكمة الشرعية في أونبورغ Orenborg في مدينة أوفا وعمل قاضيا لأنه تلقى تعليما مدرسيا جيدا لذلك عرف بين المسلمين الروس باسم القاضي رشيد ولكن نشب بينه وبين المفتي خلاف بعد أن عمل رئيسا للمحكمة طيلة ثمانية أشهر فاستقال من عمله في المحكمة عام (١٨٩٥م) وعاد إلى اسطنبول واستمر في كفاحه السياسي فيها، وطبع كتاب «نجمة جولبان» الذي يشرح

---

(١) إن كل هذه النشاطات التي وسعتها السنة الأولى من زواجه يجب أن تيم على أنها ابرز الوصاف التعليمية و التربوية التي سيستمر فيها عبد الرشيد إبراهيم طيلة حياته كما إن عبد الرشيد أفندي على جانب نشاطاته التعليمية سيعرف على إنه رجل فكر و حركة و في هذه السنة أيضاً قام بكتابة أهم كتبه.

فيه الظلم الذي تقوم به روسيا القيصرية ضدا لأتراك وأرسله سرا إلى روسيا .

وفي عام (١٨٩٦م) عندما قام برحلته إلى أوروبا تعرف على الاشتراكيين الروس في سويسرا وشرح لهم وضع المسلمين هناك وطلب منهم المساعدة.

وفي شهر نيسان عام ١٨٩٧م بدأ من اسطنبول برحلة استمرت ثلاث سنوات شملت مصر والحجاز وفلسطين وايطاليا والنمسا وفرنسا وبلغاريا والهند ثم ذهب إلى تركستان الصين عن طريق روسيا الغربية ومن هناك ذهب إلى مسقط رأسه «تارا» عن طريق سيبيريا، ورغم أنه وعد بنشر ذكريات رحلته هذه التي تعتبر أول رحلة طويلة له إلا أنه لم يتمكن من ذلك .

وفي عام ١٩٠٢م بدأ بإصدار منشور له باسم «مرآت» في مدينة بيترسبورغ Peteisburg يتناول فيه وضع المسلمين في روسيا، ورغم أن بعض المصادر تذكر أنه في أعوام ١٩٠٢ - ١٩٠٣م تواجد في اليابان وشجع اليابانيين على محاربة الروس إلا أن ذلك لم يتم توثيقه. وقد كانت روسيا تراقب الكتب التي ينشرها عبد الرشيد إبراهيم، وتراقب نشاطاته السياسية. وفي شهر آب عاو ١٩٠٤م عندما كان في اسطنبول تم توقيفه بناء على طلب السفير الروسي وأرسل إلى أوديسا نإلا أنه أطلق سراحه نتيجة الضغط الذي قام به الأتراك الروس.

أتراك روسيا وعبد الرشيد إبراهيم

في عام ١٩٠٤م استقر عبد الرشيد إبراهيم في بيترسبورغ وأسس هناك مطبعة ونشر الكتب الدينية والسياسية وقام بنشر الكتب والمقالات بهدف تأسيس الاتفاق بين المسلمين ونشر جريدتي ألفت والتلميذ (١٩١٠م)

وبعد انقلاب عام ١٩١٥م في روسيا وانتشار الحرية في البلاد دخل الأتراك الروس في نشاطات سياسية وطنية .

وأهم موضوع يهتم به عبد الرشيد هو فكرة «أن التقدم و الاستيقاظ لا يمكن أن يتم إلا بالتعليم» وبموجب ذلك سيكون نظام التعليم للمسلمين في روسيا موحداً في كل المناطق، وسيكون باللهجة المحلية واللغة الأدبية التركية التي توحد الأتراك (العثمانية - تركية تركيا) حيث سيتم تدريسها. وقد كان عبد الرشيد يستخدم التركية المستخدمة في تركيا مثله مثل المثقفين الواعين الذين يؤيدون هذه الفكرة، و قد كان يستخدم التركية العثمانية في مقالاته في الجرائد و في كتبه و كان من رواد هذه الفكرة، وكان له دور كبير في استصدار القرارات.

والموضوع الثاني الذي نوقش هو إصلاح المؤسسات الدينية، وكان عبد الرشيد إبراهيم يهتم طوال حياته بهاتين المسألتين وهو الذي أدخلهما في البرنامج. وقد حصل عبد الرشيد إبراهيم على اكبر عدد من الأصوات بين الأعضاء المنتخبين للجنة المركزية، و كان هذا المؤتمر بالنسبة للمسلمين الروس أكثر المؤتمرات اشتراكاً وأكثرها تأثيراً و نشاطاً سياسياً وتوحيداً.

الرحالة الشهير في طريقة إلى اليابان

عندما ازداد الضغط الروسي واعتقل كثير من المثقفين أو نفوا واتخذت ضدهم تدابير قاسية، وتم إغلاق صحف عبد الرشيد إبراهيم و مطبعته، بدأ عبد الرشيد إبراهيم برحلته الطويلة الثانية، وبعد أن قام برحلة سنوية عام ١٩٠٧م شملت تركستان الغربية، وبخارى وسمرقند ويدي صو وما جاورها عاد إلى «تارا» وأخذ عائلته واستقر في مدينة سمرقند.

وفي عام ١٩٠٨م في شهر أيلول، بدأ رحلته التي بدأت في سمرقند إلى سيبيريا، منغوليا، واليابان، وكوريا، والصين، والهند، والحجاز، ثم عاد

إلى اسطنبول عن طريق الشرق الأوسط (١٩١٠م) و قد نشر مذكراته حول هذه الرحلة في كتاب أسماه «العالم الإسلامي»، ولابد أن نذكر أن جمعية «قوة الدفاع الآسيوية» التي تأتي على رأس النشاطات التي قام بها عبد الرشيد في اليابان و التي حث فيها الأمم الشرقية على التحرك ضد قوى الاستعمار الغربية و على رأسها روسيا و انجلترا وأمريكا أسست في طوكيو من أجل خدمات نشر الإسلام في اليابان، و كان مقررا لها أن تعمل كما بين عبد الرشيد إبراهيم بموجب الحديث «يا عباد الله كونوا إخوانا». وهكذا كانت هذه الجمعية قد اتخذت لنفسها هدفاً سياسياً من طرف وبدأت تسعى لنشر الإسلام من طرف آخر دون التعرض لأية عوائق.

وكان عبد الرشيد إبراهيم أفندي يكتب ما شاهده في رحلته ويرسله لجريدة «بيان الحق» التي يصدرها ابنه في «قازان» وفي جريدة «الصراط المستقيم» الصادرة في اسطنبول وغيرها من الصحف والمجلات، و كانت أول مقالة لجريدة «الصراط المستقيم» التي يرأس تحريرها محمد عاكف باسم «رسائل اليابان» يطلب فيها تأليف كتاب يرد على الكتاب الذي وزعه المبشرون النصارى في اليابان وألمانيا والمليئ بالافتراءات على الرسول ﷺ ليتم توزيعه في اليابان.

وبعد أن أنهى رحلته هذه في اسطنبول و كان معه الياباني المسلم الحاج عمر ياما أوكا، ألقى مختلف المحاضرات وتحدث عن مشاهداته ولذلك عرف لقب «السائح الشهير ـ والخطيب الشهير».

من أفريقيا إلى أوروبا

بعد قيام الإيطاليين باحتلال طرابلس الغرب عام ١٩١١م، عبر عبد الرشيد الصحراء الكبرى وبدا يعمل في الجبهة، وبدا نشاطاته بتوزيع فتوى الجهاد تحث الشعب ضد المستعمرين، وبعد عودته شرح مشاهداته في

أفريقيا بالوعظ و المحاضـرات وكانـت جريـدة «الـصراط المـستقيم» قـد اقتبست قسماً منها.

وعندما احتل الروس «صاري قاميش» ذهب إلى هنـاك (١٩١٥م) وفي نفس الوقت عمل عضواً في «جمعية حمايـة الأقـوام التركيـة المـسلمة في روسيا» وذهب مع أعضاء الجمعية إلى بودبست وفيينـا وزيـوريخ وبـرلين وصوفيا وشرح الظلم الذي تتعـرض لـه المجتمعـات التركيـة في روسـيا. وخـلال هـذه الفتـرة ذهـب إلى ألمانيـا موظفـاً مـن قبـل «التـشكيلات المخصوصة» والتقى هناك مع الأسرى المسلمين الـروس الـذين أسـرتهم ألمانيا خلال الحرب، وتحدث معهم وسعى لتأسيس وحدة تحارب بسلاح الخلافة وقد نجح في ذلك.

وقد شارك في المؤتمر الـذي عقدتـه «عـصبة الأمـم» في لـوزان باسـم «مؤتمر الأمم المحكومة من قبل روسيا» وتحـدث باسـم مـسلمي روسـيا وطالب بإعطاء الحريات الدينية والمدنيـة والثقافيـة وإعطـاء المختاريـة للمسلمين الروس ورفع الضغوط القانونية عن المسلمين كما طالب بتغـيير نظام الانتخابات (١٩١٦م).

وقد كان عبد الرشيد إبراهيم ممثل المسلمين الروس في «جمعية الأمم الأجنبية في روسيا» والتي تأسست في استوكهلم خـلال الحـرب العالميـة الأولى.

وخلال هذه السنوات أصـدر جريـدة باللغـة التتاريـة اسمهـا «الجهـاد الإسلامي» تخاطب أسرى الحرب المسلمين الروس الموجودين في برلين وقام بذلك مع مجموعة من التتار.

العودة إلى اليابان

وبعد هذه النشاطات في ألمانيا عاد عبد الرشـيد إبـراهيم إلى اسـطنبول وخلال عام ١٩٢٢ – ١٩٢٣م تواجد في روسيا وفي عام ١٩٣٠م تواجـد

في القاهرة وفي عام ١٩٣٠م – ١٩٣١م ذهب إلى مكـة المكرمـة و التقـى هناك مع مسلمي الهند و اليابان و في عام ١٩٣٤م ذهب من اسطنبول إلى اليابان و استقر هناك وسعى لنشر الإسلام في اليابان حتى توفي هناك.

وهناك ترأس عملية إنشاء جامع طوكيو و عمل إماماً للجامع (١٩٣٨م) ونجح في الحصول على الاعتـراف بالـدين الإسـلامي رسميـاً في اليابـان (١٩٣٩م)، كما نجح في إزالة المعلومات التي تهاجم الإسـلام والأتـراك من المناهج الدراسية.

ويوم ١٧/٨/١٩٤٤م توفي عبـد الرشـيد إبـراهيم في طوكيـو، و قـد انتظرت الجنازة أربعة أيام من اجل مشاركة القادمين من مختلف الأمـاكن ثم دفن مقبرة المسلمين التتار بطوكيو[١].

وقد كتب عبد الرشيد إبراهيم مؤلفات كثيرة طبع قسم منها على شـكل كتب ورسائل ونشر قسم منها في الصحف والمجلات، وقـسم منـها بقـي كمسودات.

الصحف و المجلات التي أصدرها

١. (المرآة)
٢. جريدة ألفت
٣. التلميذ
٤. نجات
٥. شيركه
٦. تعارف المسلمين
٧. الجهاد الإسلامي

(١) هناك اختلاف في تاريخ وفاة عبد الرشيد إبراهيم في المصادر، لكن في الحوار الذي أجـراه عمـر رضا دوغرولو مع ابنة عبد الرشيد إبراهيم بعد وفاته ونشره في مجلة «سلامت» بين هـذا التـاريخ، كما قامت بعض المصادر بتأييد هذا التاريخ، وقد أذيع نبأ وفاته في راديو طوكيو.

التأليف والترجمة

١- نجمة جولبان (لحمة الراعي).

٢- لواء أحمد.

٣- نظرية عمرها ألف وثلاثمائة سنة.

٤- أنتونوميا (الحكم الذاتي في روسيا).

٥- محاكمة الضمير و ميزان الإنصاف.

٦- الدين الفطري.

٧- ترجمة حالي أو الأحداث التي تعرضت لها.

٨- العالم الإسلامي وانتشار الإسلام في اليابان.

٩- آسيا في خطر.

١٠- ترجمة ألف حديث وحديث.

١١- الصفحات المنسية من التاريخ.

الإمام المجاهد عبد الرشيد إبراهيم

شعر : عبد الله بلخير

قصيدة لشاعر الأمة المرحوم عبد الله بلخير أول وزير إعلام سعودي و الذي تأثر بشخصية عبد الرشيد إبراهيم قبل أن يطلع على كتابه و له قصائد في شخصيات الأمة المعاصرة و التاريخية.

حدثيهم عنه وزيدي وزيدي   واذكري في الرجال (عبد الرشيدِ)
وأعيدي على المسامع ذكراه   مساءً. وكل صبح جديدِ
لا تملي من ذكره فهو أعجوبـ   ـة هذا الزمان ثم أعيدي

***

أذكري للشباب (عبد الرشيد)   مالِئَ الأرض بالجهاد الوئيدِ
السراج المنير في دعوة الإسلام   في (المشرق القصيِّ) البعيدِ
حامل الدعوة المحجلة الغرّا   (أذاناً) مكرر الترديدِ
يتغشى (القُرى) ويمشي إلى (الأمـ   ـصار) داعٍ بالبعث والتوحيدِ
كالشعاع الهادي ينير زوايا   ها بلا ضجة. ولا تمجيدِ

***

لكأني أراه وهو على السبـ   ـعين كالصارم العتيق الحديدي
من بلاد إلى بلاد ومن مصـ   ـر إلى مصر في كفاح جهيدِ
فإذا حلَّ قريةٍ حلَّ بِـ (المسـ   ـجد) بين الجميع بين الحشودِ

ثم نـادى بعـد الصلاة كبار الـ قـوم فـي رقـة وفـي تمهيدِ

فـإذا مـا تحلّقـوا حولـه قـام بشيـراً ومنـذراً في الوعيـدِ

في هدوءٍ كأنما صوته صـوت مـلاك فـي عـزم ليث عنيـدِ

يوقـظ (المسلمين) من ظلمات الجـ ـهل بالـرأي و البيـان السديـدِ

ثـم يمضـي مبشـراً و نذيـراً في مزيـد من صبـره فـي مزيـدِ

تتـلاقى عليـه أفئـدة القـوم وتهفـوا مـن علـمه للمزيـدِ

فإذا كـل مـن صغـا أو وعى مـا قـال أمسى لشيخـه كالمـريـدِ

***

ذاك (عبـد الرشيـد) قريتـه (تـا را) و(إسبيـريـا) بـلاد الـولـيـدِ

هـل سمعتم؟ أقـول مولده (تـا را) فهل من درى بها في الوجودِ

زمهريرُ الشـتاء فيها البلا الأكـ ـبر والموت فـي جبالٍ و بيـدِ

وهي في الأرض لا تزال حياة النا س فيها على عصـور الجلـيـدِ

والريـاح المـولولات علـى آكامها البيـض كالحِمام المبيـدِ

شـب فيـها كما يشـب الفتى المسـ ـلم فـي منزلٍ كـريـمٍ عـتيـدِ

كان يـرعـى لأهلـه ولأهـل (الـ قـريةِ) الضَّأن فـي صبـاه السعيدِ

ثـم يـأوي لأمـــهِ يحـفـظ الآ يـات بيـن السمـاعِ والترديـدِ

ثم يـمضي لـشيـخ كتاب (تـارا) حـامـلاً (لـوحـهِ) بعـزم وطيـدِ

يتـلقي عليـه (فـاتـحـة الـقـر آن) بيـن الصـبيان فـي تجويـدِ

كـالعصافير فـوق دوحـة سـدر مـلأتـهـا بالشـدو والـتغريـدِ

تتلاقى أصواتهم في فِنا (المسـ ـجد) مواجة الصدى والنشيدِ
وهو ينمو قد أزهرت زهرات الـ خير في طول غصنه الأملودِ

***

وتوالت به السنين إلى (العشـ ـرين) من عمره الطويل المديدِ
فإذا بالفتى تباهي به (تـا را) (القُرَى) في قريبها والبعيد
إنه الحافظ (القرآنَ) إمام (الـ ـخمس) ثم الإمام في كل عيدِ
وله وحده بها خطبة (الجمـ ـعة) يَلوِي له بها كلُّ جيد
وهو في القريةِ المؤذن والمصـ ـلح في الناسِ في سلوكٍ فريدِ
تتلاقى على عمامته الأنـ ـظار بالحبِ والولاء الأكيد
ما رأت في عهودها قط عهداً تتباهى بمثله في الوجودِ
غير هذا العهد الجديد الذي تز هو به بابنها الإمام الجديدِ
تتراءى (تارا) به أنها في الأرض (أم القرى) بـ (عبد الرشيد)
وتوالت أيامه وهو في القر ية من حب أهلها في مزيدِ
فهو فيها ما قد تعالت به (تا را) وباهت في طارفٍ وتليدِ
سمعت أذنه قبيل أذان الفـ ـجر همساً مكرر الترديد
وهو مُصِغٍ بأذنه للذي يهـ ـمس فيها في غيبة ووجودِ
لم يكن نائماً و لم يك صاحٍ كان بين التهويم والتسهيدِ
وهو يدعو (عبد الرشيد) إلى الهجرة لأمِ القُرىَ كهمس النشيد
يتوالى على مسامعه كُلَّ مساء كنغمة التغريد

كلمـا حسـه تبيـن منـه   مـا وعـاه من كل همس جديـد

أنت في حاجةٍ إلـى (العلـم) فانهض   ثم سافر إلـى (الحجـاز) البعيـدِ

خـذ من الشعلـة المباركـة الغـراء   قبسـاً من الضيـاءِ الـوقيـدِ

ثم سـافر بهـا إلـى جنبـات الأرض   أرض فـي كـل مهمـهٍ وصعيـدِ

أيقـظِ المسـلمين مـن ظلمـات الـ   جهلِ وادع الورى إلى (التوحيد)

قـم إلـى (مكةٍ) وحسبك فيها (الـ   ـحجُّ) تمشي إليـه بيـن الـوفـودِ

خُـذِ العـلمَ مـن منابعه واجلـس   إلـى أهـل (مـكةٍ) كالمريـدِ

سـوف ترضى أن تسيـر على إثـر   بني قـومك الرجـال الصيـدِ

(كالبخـاري) والغـزالي و(الرازي)   و(التـرمـذي) و(ابن العمـيدِ)

وستلقى هناك الخلق من كـل   مكـان من بيضـهم والسـود

وهـناك (الزمـخشري) و(السمر   قـندي) وجمعُ من السنود الهنودِ

ما تعـالت أسمـاؤهم فـي زوايـا   الأرض إلا من (الحجـاز) الفريدِ

وستلقى هناك الخلـق من كل   مكان في حوضـه المـورودِ

وستلقى في مكـةّ كل من طاف   ولبـى مـن عالـمٍ أو مـريـدِ

سوف تمشـي علـى ترابٍ بـه أثرَ   صحابيٍ أو تابعـي أو شهيـدِ

وستلـقى في (مكـة) حلقات العلم   حـول (البيتِ الحـرام) المجيدِ

أشـرقت بالشـموس مـن كـل دارٍ   مـن ديـار الإسـلام بين الوجـود

فلك مشـرق على الأرض فـي كـلٍّ   زمـان عبـر الزمـان البعيـدِ

سوف يغشـاك نـوره حيـن تمشي   فيه في مـوجـه الطـويل المديـدِ

ربما كنت واحداً من دعاة الحق	في المسلمين تحت البنودِ
قم وقبل جبين أمك واستأذن	وَوَدع (تَـارًا) بعزمٍ سديدِ
وسيكفيك حفظ أمك من أبقى	على قلبك الهدى في شهودِ
وتلاقى المودعون من القرية	أو حولها بجمعٍ بديدِ
قد تلاقوا حول أمه و هي في جهـ	ـشةٍ كبر مكتومةَ التنهيدِ
وهو يومي لها بكفيه تلويح	وداعٍ ماشٍ وعطفة جيدِ
قد تعالت اكفهم حوله تدعو	له بالثبات والتأييدِ
ودعت ابنَها الأبرَّ رُبَى (تـا	را) بدمع المودع المفؤودِ
راكباً في قوافل (الحج) في (العشـ	ـرين) من عمره الغضيض المديدِ
طاوياً من قرى (سمرقند) و(بخا	رى) إلى (قندهار) كل بريدِ
يتخطى قبائل (الهند) والأورال	نحو (الباتان) نحو (السنودِ)
في شهور تتابعت وفتي (تا	را) يوالي السُّرَي بعزم عنيدِ
تتراءى له علي سجف الأشـ	ـواق (أم القرى) بوادي زرودِ
في خيالٍ مُجَنَّح يتراءى	(محرما) في سراب فقر وبيدِ
فيلبي و لا يزال على (الأو	رال) بين السهول فوق النجودِ
رافعا صوته بلبيك يا ربَّ	البرايا تموج ملء الوجودِ
فيلبي من حوله هضبات الشرق	في رجفة الملبي المعيدِ
تتعالى أصداؤها في زوايا (الأرض)	صخابة على كل جودي

***

وتسيـــر القـوافــلُ المشـرئِبّاتُ إلى نــور (مكــة) في حشودِ
من (سمرقند) و(الرها) و(خراســ ـان) و(قـازان) في رمــال و بيدِ
تتلاقى على هداهــا وتنضـمُّ إليهــا الوفــود إثـر الوفــودِ
وهـي في سيــرها تروح و تغدو فــي سمــاح و فــي إخـاء ودودِ
ذلـك (الحــج) أيهـا المســلم الأوّاب قصدُ في نية وصمــودِ

***

أشرقــي يا (جزيرة العرب) فالدنــ ــيا تلبي إليـك تحـت البنودِ
وتباهى (أم القرى) فإليها الزَّحـف يمشــي من كـل فــج بعيـد
إنه (الحج) لا يضاهيه في (الدنيا) شبيــه ومـا لـه مــن نديـد
لبس المسلمــون فيــه سحــاب الطهر من (صينٍ) أو من (هنودِ)
وأفاضـــت إليــكِ أمواجهم كالـ ـفجـر صخابة ببيض وســودِ
في ضيــاء شعت بـه أكـم (البطـ ـحاء) حـول (البيت الحرام)
يملأ (الأبطـحين) بين الروابي الـ ـمشرقات الأنــوار في كـل بيدِ
تتعالى أصــداؤهم وهــي تدوي كـدوي السحــاب بيـن الرعــودِ

***

من سينبي (تــارا) بأن فتاها الــ ــيوم فــي (مكــة) بوادي زرودِ
في جمـوعٍ عجـت بهم حـول (بيت الله) جَـمٍّ الركــوع جَمٍّ السجودِ
يتلـقى على جهـابذة (الإســ ــلام) علم القديـم علـم الجديدِ
ما سيمـــلا فؤاده الخافق القـا نت نـور اليقين من خيـر جودِ

أخذ (الفقه) و(التفاسير) و(التا ... ريخ) و(النحـو) أخذ شيخٍ مُجيد
جلس الناس حوله وهو يمليـ ... ـهم أصول (الحديث) و(التوحيدِ)
وله في السلوك نهج دعاة (الـ ... حـق) من علـمه الغـزير الفـريدِ
حلقات الطلاب في الحرم المكّيِّ ... حفت بدرسـه فـي شهـودِ
ولـه في النقـاشِ أخـذٍ وردٌّ ... في تـلاقٍ يبـدو ورأيٍ سـديدِ

***

ذاك (عبد الرشيد) يا من سمعتم ... باسمـه من مـرتلٍ أو معـيد
باعث (الدعـوة) المحجلةِ الغـرّاءِ ... فـي المشرقـين بالتجـديـد
عـاد نحو الشـرق البعيـد إلى (تـ ... ـارا) على ثلث قرنٍ أو في مزيـدِ
قد تخطى الستيـن من عمـره ... شيخاً جليلاً من الدعاة الصيـدِ
حشر النـاس حولـه فتلقـوه ... بخضـر الرايـات والتغـريدِ
تتباهى صفـوفـهم حوله تسـ ... ـعى وقد أشرقـت بـكل جـديـدِ
وَ(أمُّـهُ) فـي طليـعة قد أو ... مت بمنـديـلها لـه من بعـيدِ
فرآها كمـا رأتـه ويـا فرحتهـا ... بابنهـا (الإمـام) الوليـدِ
أجهشـت بالبكا و أجهـش بالدّمـ ... ـع كما أجهشت جميع الوفـودِ
ثم بـاتت بـلاده فـي (تتـار ... ستـان) تزهـو كأنه يـوم عيـد
(شيخـها) اليـوم ابنهـا عـاد من ... (مكـة) فـي طلعـة البشير المريدِ
سوف يمضـي في دعـوة (الصين) ... و(اليابان) يدعوهمـا بسـعي حميدِ
ويشـيـد (المساجدَ) النائفـات الـ ... ـبيض في كـل قريـةٍ أو صعيـدِ

قد بداهــا بـ (طوكـيو) بين أعوانٍ — لــه قــد بــدوا بجـهـدٍ جهـيدِ
أسســوا (الجــامع الكبيـر) بها في — مطـلع القــرنِ فـي جهـادٍ كؤودِ
فتعـالى (الأذان) منــه علـى مطـلع — شمـس الشــرق البعيــد الجـديدِ

***

ذاك (عبـد الرشيــد) يـا من سمعتم — باسمــه مــن قــريبٍ أو بعــيدِ
فاســألوا (الشــرق) عنـه فهــو به — بين دعــاة الإســلام والتوحـيدِ
عَــنَّ لــي أن أخـصَّه بتحــيا — تـي وأزكى عواطفـي في قصيدي
وهي ذكــرى لـه أراه بهــا أولـ — ـى وديـن لــه بغيــر جحــودِ

اسطنبول (تركيا) ١٩٦٧ — **عبد الله بلخير**



الشاعر التركي المشهور محمد عاكف

يكتب عن عبد الرشيد إبراهيم

محمد عاكف شاعر الخلافة العثمانية والجمهورية التركية وهو بمنزلة الشاعر والفيلسوف إقبال، هزته شخصية عبد الرشيد إبراهيم ورحلته إلى اليابان فأنشد قائلاً:

سؤالكم الآن...عن اليابان
كيف هذه الأمة
وا عجبا ، عجزت عن رسم الصور
أقول لكم هذا القدر
الدين المبين و فيض الروح
هناك انتشر.
لكنه شكله في بوذا ابتدر
اذهبوا و شاهدوا
صفوة الإسلام في اليابان
في هذه الأقوام
قصار القامة
هم اليوم، الفرد منهم
في صون أركان الإسلام فريد
قوم لا ينقصهم ، لتقول لهم
يا مسلم ...سوى التوحيد
الصدق و وفاء العهد
وصدق الوعد...و الشفقة

ونصرة المظلوم بصدق همة
والقناعة بالقليل
والجزل في العطاء عند شح الأيادي.
يغضون البصر
عن المحارم و الأعراض
ويرون الغريب أخاً
وإن كان غريب الغريب.
إن قيل لهم،
ستموتون في هذا المكان.
يثبتون بشجاعة...في ذلك المكان
ويتركون الحياة ضاحكين لاعبين
إن آن الأوان.
الحضارة دخلت عندهم
ولكن بالعلم
لم تدخل إلا بإذن أهل العلم
رابطوا عند الشواطئ
بعيون البصيرة و الإمعان
وطردا من الباب كل المهازل.
بضاعة الغرب،
إن كان لها قيمه... تروج
والسيئات القادمة
باسم الموضة تتلف
في نقطة الحدود.
بيوتهم في الليل و النهار مفتوحة

أبوابهم بلا مفصلات
وظنكم في جنة السارق
لا تحدث السرقات.
أما تواضعهم فيعجز الإنسان
قد نرجو مثله في توغو؟
لا... ولا في أي مكان.
يدعوك أحدهم ويجلس بحذائك
يملأ لك الشاي
كلما فرغ فنجانك.
الإسلام أظنه سيضئ هناك
ولكن همة آل عثمان
تلزم بين الحين والحين.
لأن المبشرين،
ليلاً ونهاراً يذرعون الأرضين
فأين علماؤنا؟
أينتظرون وحي السماء؟
لا أدري...آمين.

وروى الشاعر محمد عاكف رحلة عبد الرشيد إبراهيم إلى منشوريا و الصين بهذه الأبيات:

أصبح الدين
في منشوريا تراثا، وفي الصين.
عنصر الإسلام في غاية التخلف
وفي غاية الجهالة
عجباً، أيعلمون ما المعنى

وما الميل نحو الاسم؟
جواب يخرج من رؤوس الملايين
على نحو واحد غاضبين
«وجدنا آباءنا على أمة»
ليس هذا التراث
فقط في الصين
وباء و داء...بلا دواء
أصاب المسلمين.
أحضروا مسلماً من المغرب الأقصى
وآخر متمدداً، في ظل سور الصين
صوت مرتعش من الاثنين
يأتي من الروحين
«وجدنا آباءنا على أمة»!
«وجدنا آباءنا على أمة»؟
قول مردود في الدين .
الدين واقع، أفق لا محدود.
لكن لا ندري ما الدين.
لو كنا لما قلنا:
أعيتنا الحيلة
وما صرنا كالمخبولين.
وما صرنا في عداد أمم زالت.
بـ«وجدنا آباءنا على أمة»
أليس في هذه الآية
لنا من العبرة ؟

نقرؤها كل يوم، نحفظها
أم لا مغزى يتحرى في هذه الأيام
نفهم...أن اللفظ المحكم
هو القرآن
لكنا لا نتقيد معانيه
نفتح صفحاته
نطالع النظم الجليل
أو نقرؤه وننفخه في تراب الأموات
لهذا لم ينزل القرآن
لأجل قراءة على قبر
أو لفتح الفال
فاعملوا بحق ما يقال
من كان بهذا الحال
تأخر بالدين
ترونهم يقرؤون القرآن
بلغة أهل الصين
ومن المجوس اقتربوا
وفي العادات والتراتل
أما توحيدهم فغريب
لكن توقيرهم لذكر اسمنا عجيب
لا أنسى أبدا
منظر فتاة صينية
لزمتني من ثوبي
وبيأس تبكي

لم أفهم ما قالت
قالت الشيء الكثير
وإذا بالمسكينة تسألني عن السلطان:
كيف الحبيب ؟
وتقول وددنا المجيء
ولو أن الطريق قريب

وقد روى الشاعر محمد عاكف رحلة عبد الرشيد إلى الهند بهذه الأبيات:

كان مرادي
أن أجوب الهند طولا وعرضا
ولكنني علت حيلة
من ملاحقة الشرطة
واضطررت، أن أقلع عن هذا الغرض
اضطررت لكن، غشيت المحافل
يغذيني حب هذا الاقليم القديم
عند الرحيل
قال لي مضيفي وهو يشيعني
إلى حيدر أباد
بصوت حزين من قلب كسير
آه...لا إيمان لنا لنفيد العباد
إيمان الترك بإيمان الهند لا يقاس
دماؤكم بالشهامة تفيض
ونحن لا عروق لنا ولا حمية كهذه
ولأنا محكومين

بهذا الذل إلى يوم الدين
لأن أغلبنا عما نقاسي
من الحس عقيم
إن كان من أمل لنا
فبشوكة آل عثمان
إن أحسوا بنا، أنجدونا بحكيم



أفكار عبدالرشيد

أما المسلمون الذين أرسلوا أبنائهم للدراسة في البلاد الأخرى وعادوا وقد نسوا عاداتهم وتقاليدهم فإن محمد عاكف يصور هؤلاء الشباب الذين نسوا أصلهم على لسان عبد الرشيد إبراهيم الذي كان يردد هذه الأفكار في كل مقالات ومجالسه، صورها كما يلي:

ثم قال أغنياؤنا
«هيا اذهبوا أخضروا علما»
ونقدوهم بآلاف لا أحصيها من الروبلات
وساقوا إلى أوروبا من أراد
كان قومي حقا ....غاية في التضحيات
وعادت قافلة الذاهبين
عاد أكثرهم بعلم
إلا قليلا منهم
من السفلاء .... لوثوا أسمائهم أجمعين
ما أعظم ندامة المرسلين.
لا أنسى أبدا كريما من الأغنياء
سلخ وجهي بهذه الكلمات
يا إمام .....أتيتني في اليوم
عشر مرات
طلبت وأعطيت
وفي سبيل الأمة ، إن لم أعط فلا بقيت
لكن يا إمام ....رجوت
أن تذهب إلى أهلها هذى الجهود

أم أنني كنت لأوربا أجود .
أهؤلاء من انتظرنا لسنوات ،
ألإصلاح الحال رجونا
هؤلاء المقلدين.
جاءني أحدهم ذاك المساء
وهذى وتشدق
هممت أن أضربه لولا سكت .
قال إن طريق الخلاص
أن نترك الدين
إلى أبد الآبدين
ثم ماذا ؟ نلحق بالروس ، نعم.
عندها يكون الخلاص
عندها تتخلص بناتنا
من التمسك بلا معنى
بهذا الحجاب الغليظ
ثم تتعلم من الرجال
دروس الأمومة
لأن المسلمين ، لهذا من المتخلفين .
لأن المرأة لا تدري ما العصرية
لأنها في حكم الأسير
انظر ...هذا من رجونا لخير الأمة
انظر ....إلى هذا الحقير .
يريد أن يدوس الدين
ويلحق الأمة بركب الروس

رويدك تفعل ذلك في موسكو
وإن كان لديك أفكار أخرى
فأخبرنا لنرضيك .
خذهم ودرسهم حتى يقال
في أوربا درسوا
واقسم من ثروتك
وانفق النقود بلا تناهي
وإذا بك تربي غراب وأي غراب ؟
لا كما عهدنا
ينقصنا الفحش عن الروس
فإن أكملنا....فلنا الميدان
عين الرذيل في عفة ابنتي
والله لو بصقت في وجهه
لأسفت على البصاق.
لو أنه قال
يلزمنا مدرسة للبنات
ويلزم أن تدفع كذا
قهرني الله إن وليت
بلينا بأيدينا الأمة بهؤلاء
أريد أن أرقد براحة في قبري
أفهمتم.
أنصفوني قليلاً يرحمكم.
هل أنا مجبور في شراء اللعنة
أني من الأغنياء

الفهرس

الجزء الثاني

كوريـا ـ جيو سـن ٥١٩
بوسان ميناء تجاري ٥٢١
سيئول ـ كه ي جوج ٥٢٦
المدارس في كوريا ٥٢٨
النساء في كوريا ٥٢٩
المنصرون في كوريا ٥٣١
الآثار القديمة في كوريا ٥٣٣
اليابانيون في كوريا ٥٣٤
الأجانب في كوريا ٥٣٥
أصحاب الثراء ٥٣٦
الأخلاق ٥٣٦
سأغادر سيئول «كه ي جو» ٥٣٨
رأيت الرؤيا التالية ٥٤٢
آنتـوكـي ٥٥٢
مـوقـدن ٥٥٦
في أطراف موقدن ٥٥٩
ذكريات قروية ٥٦١
في الطريق إلى بورت آرثور ٥٦٨
بورت آرثور ٥٦٩

شانحاي كوان ٥٧٠
دير بجوار شانحايكوان ٥٧٢
القرى ٥٧٦
غرابة أو جهل ٥٧٨
تنـزيـن (تيانجين) ٥٧٩
حديث آخر مع السيد الآخون ٥٨٥
بكـين ٥٩٣
الصلاة في الصين ٥٩٤
المفتي عبد الرحمن= آخون واك –كوان ٥٩٦
وصرت معلما بعد الشيخوخة ٥٩٨
بكين أو بجين ٥٩٨
المرصد الذي سرقته ألمانيا المتحضرة ٦٠٢
بكــــين ٦٠٦
المطبوعات في بكين ٦٠٧
الأفيون ٦٠٨
قصـــر بكـــين ٦٠٩
المدرسة العثمانية في بكين ٦١١
المناخ في بكين ٦١٥
الأجانب في بكين ٦١٦
مهمتي في بكين ٦١٧
الشرق للشرقيين ٦١٨
الولايات الصينية ٦٢٢
المنصرون في الصيــن ٦٢٩
طبائع الصينيين ٦٣٠

مستقبل الصين ٦٣٢
الاقتصاد في الصين ٦٣٤
القوة البحرية في الصين ٦٣٥
اتحاد اليابانيين مع الصينيين ٦٣٧
ييوان شكاي ٦٣٨
في ضيافة تورغوت ٦٣٩
الصينيون ٦٤٠
استطراد ٦٤١
عادة تطويل الشعر لدى الصينيين ٦٤٣
مراسلة مع طوكيو من بكين ٦٤٤
دخول الإسلام إلى الصين ٦٤٦
أتراك صالا ٦٥١
الكلمات العربية المستعملة لدى علماء الصين ٦٥٤
لقاء مع سيد من أهل مكة في بكين ٦٥٥
رجل صيني دون شعر ٦٥٥
مغادرة بكين ٦٥٦
خسة الموظفين الروس ٦٥٧
خانقو ٦٥٨
مغادرة خانقو ٦٥٩
شنغهاي ٦٦٣
الأجانب في شنغهاي ٦٦٦
المسلمون من أهل شنغهاي ٦٦٦
لقاء مع الآخون ٦٦٧
مغادرة شنغهاي ٦٦٩

رؤيا بتلك الليلة ٦٧٠
هونج كونج ٦٧٠
المذاهب والدول ٦٧٢
مدينة هونك كونغ ٦٧٥
كانتون ٦٧٦
المنصرون مرة أخرى ٦٧٩
أما نحن، وأما علماؤنا ٦٨١
التجار المسلمون في السواحل الصينية ٦٨٥
مغادرة هونك كونغ ٦٨٧
محمد حسن نمازي ٦٨٨
عمـــال البـــاخرة ٦٩٤
البرلمان في الصين ٦٩٥
الباخرة التي نحن فيها ٦٩٧
الاقتراب من سنغافورة ٦٩٨
خـــاتمـــة ٧٠٠
اســـتطراد ٧٠٠
تـــنبيـــه ٧٠٢
ذكريات مرة ٧٠٣
دخول ميناء سنغافورة ٧٠٥
دخول سنغافورة ٧٠٥
ناقوس في المساجد ٧٠٧
سنغافورة وسكانها ٧٠٩
السيد عمر السقاف والسيد كاف ٧٠٩
الإخوة عيسى بهائي ومتاجرهم ٧١١

هل يمكن للسني أن يقتدي بالشيعي؟ ٧١٤
الإفطار عند البهرة ٧١٦
إمام البهرة ٧١٧
جوهور ٧٢٠
القنصل العثماني في سنغافورة ٧٢١
دخول الإسلام إلى هذه البلاد ٧٢٣
في سنغافورة ٧٢٤
جزر بحر المحيط الهندي الجزر الإسلامية ٧٢٥
بورنيو ٧٢٦
المسألة الشرقية والجامعة الإسلامية ٧٢٧
المسألة الشرقية ٧٢٨
الجامعة الإسلامية ٧٢٩
القنصل العثماني ٧٣٣
مغادرة سنغافورة ٧٣٥
الهند ٧٣٥
كلكتا ٧٣٧
سكان كلكتا ٧٤٠
التدين لدى مسلمي كلكتا ٧٤٣
حب الضيف ٧٤٤
بومبي ٧٤٥
مسلمو بومبي ٧٤٧
المساجد في بومبي ٧٤٣
مسجد الميامنة ٧٥٢
عصا البوليس داخل المسجد ٧٥٣

مسجد زكريا ٧٥٥
مسجد عمر كهار ٧٥٦
مسجد البواهر ٧٥٧
الزكاة عند أغنياء الهند ٧٥٨
صرف الزكاة إرضاء لله ٧٥٩
الفقراء في بومبي ٧٦٤
منزلي في بومبي والمستر فنسان ٧٦٨
التدليك ٧٦٨
القنصل الروسي ٧٦٩
مجوس على أبواب المساجد أو علاقة المجوس بالمسلمين ٧٧٥
اللغة في الهند ٧٧٦
حديث مع معلم وإمام حي عمر كهار ٧٧٨
برقية من سنغافورة ٧٨٠
الأوقاف في بومبي ٧٨١
الـ «بان»، البحس ٧٨٥
المجلس الوطني في الهند ٧٨٦
ياما أوكا الياباني ٧٩٠
عمر أفندي ياماأوكا في القنصلية العثمانية ٧٩٢
عمر أفندي في المسجد لأول مرة ٧٩٣
حكام الهند ٧٩٥
الأديان في الهند ٧٩٨
المذاهب الإسلامية ٧٩٩
السفر إلى حيدر آباد الدكن ٧٩٩
ملاحقة من كلبركه ٨٠١

المولوي أنوار الله صاحب ٨٠٦
إخلاء السبيل ٨٠٧
حيدر آباد الدكن ٨٠٩
المدرسة النظامية ٨١١
الفيلة ٨١٤
المناطق المجاورة للدكن ٨١٥
في مسجد «المدينة» بالدكن ٨١٦
علماء حيدر آباد الدكن ٨٢١
العودة من الدكن ٨٢٢
نحن الآن في بومبي ٨٢٣
منصرون في جامع عمر كهار ٨٢٤
المنصرون في الهند ٨٢٩
المجوس في الهند ٨٣٢
المستوى الأخلاقي عند المجوس ٨٣٣
الدين الإسلامي في الهند ٨٣٦
إحراق الميت ٨٣٨
إطعام الأموات للطيور ٨٤٠
الجوكي والفقراء (Jogi) رأي أحد علماء الإسلام في الجوكي ٨٤٢
السحرة ٨٤٥
حرية المطبوعات ٨٤٦
الصحف ٨٤٧
ضيوف المسجد ٨٥٢
دخول الإسلام إلى الهند والعلماء فيها ٨٦١
من مشاهير نساء الإسلام زيب النساء بيكم بنت عالمكير ٨٦٣

عمر أفندي ياما أوكا في بومبي ٨٦٧
التبشير بالإسلام والاهتداء بين مجوس الهند ٨٦٩
استطراد ٨٧٢
الحجاب في الهند ٨٧٢
العمائم في الهند ٨٧٥
حوار مع أفغاني في بومبي ٨٧٦
وضع السنة والشيعة من وجهة نظر الجامعة الإسلامية ٨٨١
اتحاد المسلمين مع المجوس ٨٨٣
المعارف في الهند ٨٨٥
نظرة الحكومة الإنجليزية للإسلام ٨٩١
رئيس قافلة الحج في بومباي ٨٩٣
رفيع الدين صاحب في القنصلية العثمانية ٨٩٤
تذاكر الباخرة تباع للحجاج والمنصرون يمارسون نشاطهم ٨٩٦
بواخر الحجاج والسماسرة ٨٩٧
ذوو الأفكار النيرة في الهند ٨٩٩
الاستعداد لمغادرة بومبي ٩٠١
رئيس القافلة على ظهر الباخرة ٩٠٦
الحجاج في قماران ٩٠٩
خمسة أيام في الحجر الصحي ٩١٠
القنصل الإنجليزي في قماران وعمر أفندي ٩١١
القنصل الإنجليزي والمولوي عبد الرحيم صاحب ٩١٢
رأيي في الحجر الصحي ٩١٣
الحجاج في قماران ٩١٦
طريق جدة مكة ٩١٩

الشيخ محمد مراد أفندي ٩٢٠
تكايا وبيوت الحجاج القازانيين في الحجاز ٩٢١
في مكة المكرمة ٩٢١
إجتماع في منزل الشيخ محمد مراد أفندي ٩٢٢
مكة المكرمة ٩٢٣
خديوي مصر أو عزيز مصر في مكة ٩٢٦
بعض الغرائب التي حدثت في مكة المكرمة هذا العام ٩٢٧
ماء زمزم ٩٢٨
الاستعداد ليوم التروية وعرفات ٩٢٩
الحجاج المسلمون في منى ٩٣١
ذبح القرابين ولحوم الأضاحي ٩٣٢
السادة الحجاج في منى ٩٣٤
مسجد الخيف ٩٣٤
ألا يمكن حماية هذه المقامات؟ ٩٣٥
الحجاج الكرام في منى ٩٣٦
اليوم الثالث للحجاج الكرام في منى ٩٣٧
التعارف مع الحجاج الكرام في منى ٩٤٠
خيمة التعارف في منى ٩٤١
الكوليرا والأمراض السارية ٩٤٢
منى خالية من الأمراض ٩٤٤
ذبح الأضاحي عبادة ٩٤٥
الحجاج ذوو الابتهاج في مكة المكرمة ٩٤٦
إجتماع الحجاج في مكة ٩٤٧
الأمطار والسيول في مكة ٩٥٠

أطباء الصحة في مكة ٩٥٢
السفر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ٩٥٤
نوعان من الحكومة في مكة ٩٥٤
القافلة الطيارة ٩٥٧
الوصول إلى المدينة المنورة ٩٥٩
المدينة المنورة والحرم الشريف ٩٦٢
المدينة المنورة ٩٦٤
الأدلاء والمزورون ٩٦٥
أئمة الحرم الشريف في المدينة المنورة ٩٦٦
مؤذنو الحرم النبوي ٩٦٧
الخطباء في البلدة الطيبة ٩٦٨
المدارس والمدرسون في المدينة المنورة ٩٦٨
المكتبات ٩٧٠
الحرم النبوي والروضة المطهرة والحجرة الشريفة ٩٧٠
إجتماع الحجاج الكرام في المدينة المنورة ٩٧١
عمر أفندي ياما أوكا في المدينة المنورة ٩٧٢
الخط الحديدي الحجازي ٩٧٣
دمشق الشريفة ٩٧٤
التعصب المذهبي في ديار الشام ٩٧٦
في بيروت ٩٧٧